

كتاب : الفرقانُ بينَ أولياءِ الرَّحْمَنِ وأولياءِ الشَّيْطَانِ
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الفرقانُ بينَ أولياءِ الرَّحْمَنِ وأولياءِ الشَّيْطَانِ

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

حققه وعلق عليه

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن والاه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن تعالى يقول في محكم كتابه العزيز : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) } [يونس/٦٢-٦٤] .

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَيْهِ ، لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَفُوهُ وَرَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا . وَيَقُولُ تَعَالَى مُعَرِّفًا (أَوْلِيَاءَ اللَّهِ) : بَأَتَّهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَكَانُوا يُتَّقُونَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَيُرَاقِبُونَهُ فِي سِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ ، فَلَا يَقُومُونَ إِلَّا بِمَا يَرْضَى اللَّهُ رَبُّهُمْ . (١) وقد قرن الله تعالى بين هاتين الصفتين في مواضع عدة مبينا جزاءهم عنده ، فقال تعالى : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) } وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) { سورة يوسف .

وقال تعالى : { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) } فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) } وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) { [النمل/٥١-٥٤] وقال تعالى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) } وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) { [فصلت/١٧-١٩] لقد نَجَّى اللَّهُ تَعَالَى صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ ، فَلَمْ يُوقِعْهُ بِهِمْ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ ، وَأَعْمَأَلَهُمُ الصَّالِحَاتِ .

هذا وسوف نتعرض في هذه المقدمة للموضوعات التالية :

أولاً-أهمُّ المؤلفات في هذا الموضوع

لقد ألفت كتبٌ كثيرةٌ في بيان صفة الأولياء ومن أهمها :

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

القطر الجلي بشرح حديث الولي للإمام الشوكاني رحمه الله ، وهو من أنفس ما ألف في هذا الموضوع .

شرح حديث الولي لابن رجب الحنبلي ، وهو شرح نفيس ضمن جامع العلوم الحكم وما من عالم إلا وقد كتب عن هذا الموضوع الجلل .

=====

ثانياً-أهم خصائص كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

(١) - انظر أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ١٤٢٨)

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع ، وقد بدأه بمقدمة ، ثم بين صفات أولياء الرحمن ، ثم صفات أولياء الشيطان ، ثم أكد على وجوب التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ثم ذكر الأحاديث الصحيحة في صفات الولي ، ثم بين أن ولي الرحمن متابع للرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي ، وبين أن أفضل الأولياء الأنبياء والمرسلون ، وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الموضوعات التالية : المؤمنون الممتنون أولياء الله ، من الناس من يكون فيه إيمان وفيه شعبة من نفاق ، وأولياء الله على طبعين سابقون مقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، أولياء الله تعالى مقتصدان وسابقان ، التفاضل في ولاية الله تعالى ، من الناس من يؤمن بالرسول إيماناً مجملًا ، لا يكون العبد ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيًا ، لا يتميز أولياء الله عن الناس في الظاهر بشيء ، وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً عن الخطأ ، موقف الناس من الإلهام ، " الحقيقة " حقيقة الدين : دين رب العالمين ، الأنبياء أفضل من الأولياء ، هل خاتم الأولياء أفضل الأولياء ؟ ، الفرق بين الإرادة الكونية والدينية والأمر الكوني والديني ، الفرق بين الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية والحقائق الخلقية القدرية الكونية ، الأمر بالتوبة تعالى ذاتاً ، القدر ليس حجة لأهل الذنوب ، الفرق بين الأمور الكونية والأمور الشرعية ، أولياء الله الممتنون هم المقتلون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الفرق بين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية ، الانقطاع إلى المغارات والوادي من البدع ، والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام ، محمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى جميع الإنس والجن .

فقد تكلم عن هذا الموضوع بإسهاب وتفصيل ، كما رأينا من خلال العناوين الآتفة الذكر ، فلم يترك لمن بعده كلاماً ، وصار كل من جاء بعده يعول عليه ، فغداً أهم مرجع في هذا الباب .

=====

ثالثاً-أهم نسخ الكتاب وطبعاته

هذا الكتاب طبع في سائر أصقاع العالم الإسلامي ، ومن طبعاته الشهيرة بتحقيق أستاذنا الشيخ عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله ، وطبع في دمشق وبيروت ، ولكنه خال من التعليقات في الغالب إلا في تخريج بعض الأحاديث .

وتوجد نسخة منه ويب على هذا الموقع <http://www.khayma.com/roqia/forkan.htm>

وهي معنونة ولكنها غير مشكلة ، وليس عليها أي تعليق .

ويوجد نسخة ورد بمكتبة صيد الفوائد ، وعدد صفحاتها (٦٥) صفحة ، وهو خال من التحقيق والتشكيل

والفهرسة ، والعناوين :

٨٠٦=book&http://www.saaaid.net/book/open.php?cat=1

وهي نفس النسخة موجودة في مكتبة مشكاة :

٣٧١=book&http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=25

ويوجد نسخة أخرى ورد وهي غير مشكّلة ولا مفهرسة ولا مدققة هنا :

<http://www.sahab.org/books/files/aqeeda/forqan.zip>

وقد شرح كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، العلامة ابن جبرين حفظه الله في سلسلة دروس صوتية وعددها (٣٣) درساً ، وهو شرح قيمّ ؛ وهو موجود في موقع طريق الإسلام:

http://islamway.com/?iw_s=Scholar&id=3517_series&a=series_iw

وقد شرحه العلامة الفوزان كما هو موجود في موقع الألوكة :

<http://www.alukah.net/majles/showthread.php?t=1493>

وشرحه الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله كما في منتديات الإمام الآجري :

<http://www.ajurry.com/vb/showthread.php?t=41>

وشرحه الشيخ خالد بن عبد الله المصلح حفظه الله كما هو في موقعه بثمانية عشر درساً:

http://www.almosleh.com/almosleh/cat_index_94.shtml

والكتاب موجود ضمن مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المجلد الحادي عشر ، وهي مشكّلة ومضبوطة خلا بعض الأخطاء ، ولكنها غير محرّجة ولا معونة، ولا معلق عليها إلا نادراً ، وهي النسخة الأساسية التي سأعتمد عليها .

وهناك تخريج جديد لمجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله المحقق مروان كجك

طبع دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولى - ٦ مجلدات - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

وهو موجود في الوقفية :

١٦٩٠=book&http://www.waqfeya.com/open.php?cat=15

ومما يلاحظ على التخريج عدم استيعابه لكل الروايات التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وكذلك عدم الحكم على الأحاديث في الأغلب ، وعدم التعليق على الكتاب.

من هذا الاستعراض السريع تبين لدينا أنّ هذا الكتاب - رغم أهميته البالغة في موضوعه - لم يخدم الخدمة العلمية التي تليق به .

وهو يستحقّ أن تؤخذ به رسالة جامعية عليا وزيادة .

=====

رابعاً - عملي في هذا الكتاب

هناك صعوبة بالغة في تحقيق كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وذلك لأنه لا يذكر الأحاديث بلفظها في الأغلب ، ويشير إلى كثير منها إشارة ، وكذلك إلى الأقوال ، فيعزّيها لأصحابها بالمعنى ، وليس باللفظ ، مما يجعلنا نواجه مشكلة دقيقة جداً في الوصول إلى الأدلة التي ذكرها أو الأقوال التي استشهاد بها . ولعل هذه الأسباب تجعل الباحثين لا يقدمون على تحقيق كتبه إلا في النادر .

وأما عملي في هذا الكتاب الجليل فكما يلي :

تدقيق نصّ الكتاب وتصحيح الأخطاء المطبعية فيه ، وهي ليست بالكثيرة ، وغالبها في التشكيل .

إيراد جميع الآيات القرآنية من القرآن بالرسم العادي ، وعدم بتر الآية إذا لم يكن معناها دالاً على المراد بشكل

دقيق ، ولذلك فقد ذكرت كثيرا من الآيات كاملة دون حذف .
شرح جميع الآيات المستدل بها بشكل موجز ودقيق ، وخاصة من التفسير الميسر وأيسر التفاسير وتفسير العلامة السعدي .، والشرح المطول لبعضها إن اقتضى المقام ذلك .
نقل جميع نصوص الأحاديث من كتب السنة مباشرة إلى الكتاب والتي احتج بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وذلك لكون شيخ الإسلام يذكرها بالمعنى ، وليس باللفظ ، كحديث الولي الذي هو عمدة هذا الكتاب ، فقد ذكره في جميع الأمكنة من مجموع الفتاوى بالمعنى وليس بلفظه ، بالرغم أنه يعزوه للبخاري .
ذكر الأدلة المناسبة من القرآن والسنة تأكيدا لما يقوله إذا لم يذكر الدليل صراحة ، وذلك بالهامش تخريج جميع النصوص التي أشار إليها إشارة فقط ، والأقوال التي استدل بها ما أمكن الحكم على الأحاديث بما يناسبها جرحاً وتعديلاً دون تشدد ولا تساهل .
الشرح المفصل لكثير مما أوحزه من كتبه الأخرى ، وذلك بالهامش ذكر المصادر التي تتكلم عن الموضوع الذي يتحدث عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وقد أذكر أقوالهم أو بعضها بما يوضح المعنى المراد . وقد أحيل على المصادر فقط ذاكرة الجزء والصفحة أو الرقم .
ترجمت لكثيرين ممن يحتاج للاطلاع على سيرة حياتهم .
عملت مقدمة مفصلة حول هذا الموضوع ، وقد تكلمت على الموضوعات التالية :

الخلاصة في أحكام ولاية الله تعالى

الخلاصة في كرامات الولياء

الولاية والأولياء

الخلاصة في أحكام السَّحَرِ

الخلاصة في أحكام الإلهام

الخلاصة في أحكام الرؤيا

الخلاصة في أحكام الكرامة

الفرق بين المعجزة والكرامة والكهانة

هل يحبُّ أولياء الله عن الناس ؟

ذكرت للمصادر في آخر الكتاب ، وقد نافت على الثلاث مائة.

وضعت عناوين جزئية للموضوعات ليسهل الرجوع إليها .

قمت بفهرسته على برنامج الورد تسهيلا للرجوع إلى أي عنوان .

هذا وقد قسمته لبابين

الباب الأول

مقدمات حول الموضوع ، والباب الثاني نص رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .
قال تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (١٠٨)
[يوسف/١٠٨]

هذا وأسأل الله تعالى رب العرش العظيم أن يزيح بهذا الكتاب كثيرا من الأخطاء الواقعة حول مفهوم الولاية

والكرامة في عصرنا هذا ، وأن ينفع به محققه وناشره والدال عليه في الدارين .

وكتبه

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

٨ محرم لعام ١٤٢٩ هـ الموافق ١٦/١٠/٢٠٠٨ م

الباب الأول

ولَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى (١)

مَفْهُومُ وَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى

ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ وَلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ : عَامَّةٌ ، وَخَاصَّةٌ :

فَأَمَّا الْوَلَايَةُ الْعَامَّةُ فَهِيَ وَلَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، لِلَّهِ تَقِيًّا ، كَانَ اللَّهُ لَهُ وَلِيًّا . وَفِيهِ مِنَ الْوَلَايَةِ بِقَدَرِ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ . (٢)

يَذَلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } (٦٨) سورة آل عمران ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (٢٥٧) سورة البقرة .

وَفِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الْوَلَايَةِ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ مَعَهُ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ بِقَدَرِ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ، كَمَا مَعَهُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ بِقَدَرِ فُجُورِهِ ، إِذِ الشَّخْصُ الْوَاحِدُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلثَّوَابِ وَالسَّيِّئَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْعِقَابِ ، حَتَّى يُمَكِّنَ أَنْ يَثَابَ وَيُعَاقَبَ ، وَهَذَا قَوْلُ جَمِيعِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ . (٣)

(١) - الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٤٥ / ص ١٧٥)

(٢) - بدائع الفوائد ٣ / ١٠٦ ، وانظر حاشية المدايني على فتح المعين لابن حجر المكي ص ٢٦٩ ، وشرح العقيدة الطحاوية للغنيمي ص ١٠٣ .

(٣) - مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٨٨ ، والتحفة العراقية في أعمال القلوب ص ١٥ وما بعدها ومجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٣٤٥)

وَأَمَّا الْوَلَايَةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ الْقِيَامُ لِلَّهِ بِجَمِيعِ حُقُوقِهِ ، وَإِثَارُهُ عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، حَتَّى تَصِيرَ مَرَاضِي اللَّهِ وَمَحَابُّهُ هِيَ هَمُّهُ وَمَتَعَلِّقُ خَوَاطِرِهِ ، يُصْبِحُ وَيُمْسِي وَهَمُّهُ مَرْضَاةُ رَبِّهِ وَإِنْ سَخِطَ الْخَلْقُ . (١) وَفِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الْوَلَايَةِ يَقُولُ الشَّوْكَانِيُّ : الْوَلِيُّ فِي اللَّغَةِ : الْقَرِيبُ . وَالْمُرَادُ بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ : خُلَصُ الْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّهُمْ قَرِيبُوا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ . (٢)

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ تَعْرِيفَاتُ الْعُلَمَاءِ لِهَذِهِ الْوَلَايَةِ ، فَقَالَ الْعُغَيْمِيُّ الْمِيدَانِيُّ : الْأَوْلِيَاءُ جَمْعُ وَلِيٍّ ، يُوَزَّنُ فَعِيلٌ (بِمَعْنَى مَفْعُولٌ كَفَتِيلٌ بِمَعْنَى مَفْتُولٌ ، أَوْ) بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَعَلِمَ بِمَعْنَى عَالِمٍ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ : وَكَوْنُهُ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَرْجَحُ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْدَحُ إِلَّا عَلَى فِعْلِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ مَدَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى .

- فعلى الأول يكون الولي من تولى الله عز وجل رعايته وحفظه ، فلا يكله إلى نفسه ، كما قال سبحانه : {إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} (١٩٦) سورة الأعراف .

- وعلى الثاني يكون الولي من تولى عبادة الله وطاعته ، فهو يأتي بها على التوالي ، آتاء الليل وأطراف النهار . ويخرج إلى هذا ما عرفه به السعد في " شرح العقائد " حيث قال : هو العارف بالله حسب ما يمكن ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الإنهماك بالذات والشهوات (٣) وكذا تعريف الهيثمي للأولياء بأنهم : القائمون بحقوق الله وحقوق عباده ، بجمعهم بين العلم والعمل ، وسلامتهم من الهفوات والزلل (٤) .

ولا يخفى أن سلامتهم من الهفوات والزلل لا تعني العصمة ، إذ لا عصمة إلا للنبي ، ولكن كما قال ابن عابدين على معنى أن الله يحفظ الولي من تماديهِ في الزلل والخطأ إن وقع فيهما ، بأن يلهمه التوبة فيتوب منهما ، وإلا فهما لا يقدحان في ولايته . (٥) الفرق بين الولي والنبي :

ذكر العلماء أن مما يفرق الولي عن النبي فيه : (٦) أ - العصمة :

- فالأنبياء معصومون وجوبا ، وليس الأولياء كذلك ، فيجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين من افتراء الذنوب . قال الشوكاني : لكنهم قد صاروا إلى رتبة رفيعة ومنزلة عليّة ، فقل أن يقع منهم ما يخالف الصواب وينافي الحق ، وإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء لله . (٧) وقال النووي : وأما أن يكون الولي محفوطا ، فلا يصير على الذنوب ، وإن حصلت منه هفوات في أوقات أو زلات ، فلا يمتنع ذلك في حقهم . (٨) ب - الإيمان به ووجوب الإتياع :

- (١) - بدائع الفوائد ٣ ١٠٧ .
- (٢) - فتح القدير ٢ ٤٣٦ .
- (٣) - شرح العقيدة الطحاوية للميداني ص ١٠٣ ، وانظر لوامع الأنوار ار البهية للسفاريني ٢ ٣٩٢ ، والخلي على جمع الجوامع وحاشية العطار عليه ٢ ٤٨١ ، وتعريفات الجرجاني ص ١٣٢ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢ ١٥٢٨ ، وفتح الباري ١١ ٣٤٢ ، وبستان العارفين للنووي ص ١٧١ ، ومجموعة رسائل ابن عابدين ٢ ٢٧٧ ، وحاشية المدابغي على فتح المعين ص ٢٦٩ .
- (٤) - الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي ص ٣٠١ .
- (٥) - مجموعة رسائل ابن عابدين ٢ ٢٧٧ .
- (٦) - مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ولوامع الأنوار البهية ٢ ٣٠١ ، وقطر الولي للشوكاني ص ٢٤٨ ، وشرح العقيدة الطحاوية للغنيمي الميداني ص ١٣٩ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢ ١٥٢٩ .
- (٧) - قطر الولي ص ٢٤٨ .
- (٨) - بستان العارفين ص ١٧٣ .

— الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَجِبُ لَهُمُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ ، بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ وَلَا الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ . قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَبَ قَبُولُهُ ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُودًا . ثُمَّ قَالَ : ذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِعْتَصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يُسَوِّغُ لَهُ أَوْ لغيرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . (١)

ج - الْوَحْيُ :

— الْأَنْبِيَاءُ مُكْرَمُونَ بِتَلْقَى الْوَحْيِ وَمُشَاهَدَةِ الْمَلَكِ ، وَلَيْسَ الْأَوْلِيَاءُ كَذَلِكَ . فَالْوَلِيُّ لَا يَسْعُهُ إِلَّا اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ، حَتَّى إِنْ الْوَلِيُّ لَوِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ صَارَ عَدُوًّا لِلَّهِ ، لَا وَلِيًّا لَهُ .

د (وَجُوبُ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ :

— الْأَنْبِيَاءُ مَأْمُورُونَ بِتَبْلِيغِ الْأَحْكَامِ وَسَائِرِ مَا يُوحَى إِلَيْهِمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَإِرْشَادِ الْأَنَامِ لِدِينِهِ ، وَلَيْسَ الْأَوْلِيَاءُ كَذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً بِوَاسِطَةِ الْوَحْيِ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْأَنْبِيَاءَ .

هـ - الْأَمْنُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ :

— فَالْأَنْبِيَاءُ مَأْمُورُونَ عَنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ ، أَمَّا الْوَلِيُّ فَلَا يَعْلَمُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ مَا دَامَ حَيًّا هَلْ سَيَحْتُمُّ لَهُ بِالْمُوَافَاةِ عَلَى الْإِيمَانِ ، أَمْ أَنَّهُ سَيَلْقَى اللَّهَ غَيْرَ ذَلِكَ .

و (خَتْمُ النُّبُوَّةِ :

— فَالنُّبُوَّةُ مَخْتُومَةٌ مِنْ حَيْثُ الْإِنْبَاءُ وَالْإِخْبَارُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، أَمَّا الْوَلَايَةُ فَدَائِمَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ .

ز (حُكْمُ السَّبِّ :

— أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ سَبَّ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَكْفُرُ ، إِلَّا إِذَا كَانَ سَبُّهُ مُخَالَفًا لِأَصُولِ الْإِيمَانِ ، مِثْلَ أَنْ يَتَّخِذَ ذَلِكَ السَّبَّ دِينًا ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِدِينٍ . (٢)

فَضْلُ النَّبِيِّ عَلَى الْوَلِيِّ :

— اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَخَلَفُهَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَفْضِيلُ أَحَدٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : رُتَبَةُ الْأَوْلِيَاءِ لَا تَبْلُغُ رُتَبَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْإِجْمَاعِ الْمُنْعَدِّ عَلَى ذَلِكَ . (٣)

أَمَّا مَا ثَقُلَ عَنْ بَعْضِ الْكِرَامِيَّةِ وَغُلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ جَوَازِ كَوْنِ الْوَلِيِّ أَفْضَلَ مِنَ النَّبِيِّ فَهُوَ بَاطِلٌ .

قَالَ الْغُنَيْمِيُّ الْمِيدَانِيُّ : هُوَ كُفْرٌ وَضَلَالٌ . (٤)

— أَمَّا أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى هُمُ أَنْبِيَآؤُهُ ، وَأَفْضَلُ أَنْبِيَآئِهِ هُمُ الْمُرْسَلُونَ ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ هُمُ أُولُو الْعِزِّمِ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ : نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . (٥)

ثُمَّ قَالَ : وَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، فَيَحْسَبُ إِيْمَانُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ تَكُونُ وَلَايَتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيْمَانًا وَتَقْوَى ، كَانَ أَكْمَلَ وَلَايَةً لِلَّهِ ، فَالْأَنَاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي وَلَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى . (٦)

مِغْيَارُ التَّفَرُّقَةِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ

– نَبَّهَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُمَيِّزُونَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ كَمَا تَقَعُ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، فَقَدْ تَظَهَّرَ عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُونَ وَيُمَيِّزُونَ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمُ الَّتِي ذَلَّ عَلَى خَبَرِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . (٧)

- (١) – مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ٢٠٨ – ٢٠٩ .
- (٢) – مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٦٠ ، ومعني المحتاج ٤ / ١٣٥ .
- (٣) – بستان العارفين ص ١٦٩ .
- (٤) – شرح العقيدة الطحاوية للميداني الحنفي ص ١٣٩ .
- (٥) – مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ١٦١ ، وانظر قطر الولي ص ٢٣٨ .
- (٦) – مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ١٧٥ .
- (٧) – مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٤٣١ ، ١١ / ٢١٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧١ .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّوْكَانِيُّ : وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنَ الْمَعْدُودِينَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، إِنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللَّهِ ، مُقِيمًا لِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَارِكًا لِمَا نَهَا عَنْهُ ، مُسْتَكْتِرًا مِنْ طَاعَتِهِ ، فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ الَّتِي لَمْ تُخَالَفِ الشَّرْعَ ، فَهِيَ مَوْهَبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُنْكِرَهَا .

وَمَنْ كَانَ بَعَكْسِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَيْسَتْ وَلَا يَتَنَبَّهُ رَحْمَانِيَّةً ، بَلْ شَيْطَانِيَّةً ، وَخَوَارِقُهُ مِنْ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ وَعَلَى النَّاسِ . وَلَيْسَ هَذَا بِغَرِيبٍ وَلَا مُسْتَكْرٍ ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَخْدُومًا بِخَادِمٍ مِنَ الْجِنِّ أَوْ بَأَكْثَرٍ ، فَيَخْدُمُونَهُ فِي تَحْصِيلِ مَا يَشْتَهِيهِ وَرُبَّمَا كَانَ مُحَرَّمًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ . وَالْمِيعَارُ الَّذِي لَا يَزِغُ ، وَالْمِيزَانُ الَّذِي لَا يَجُورُ هُوَ مِيزَانُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . فَمَنْ كَانَ مُتَّبِعًا لَهُمَا مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا ، فَكَرَامَاتُهُ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِ رَحْمَانِيَّةً ، وَمَنْ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِهِمَا وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ حُلُودِهِمَا فَأَحْوَالُهُ شَيْطَانِيَّةً . (١)

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ صَابِطَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ مَا يَتَلَبَّسُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَحَالٍ ، فَإِنْ كَانَ وَفَّقَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ فِي الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ وَفِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي عَلَى الْجَوَارِحِ ، كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ مُعْرِضًا فِي ذَلِكَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَهَدْيِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مُخَالَفًا لَهُمَا إِلَى غَيْرِهِ ، فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ .

ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ اشْتَبَهَ عَلَيْكَ ، فَاكْشِفْهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : فِي صَلَاتِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ لِلْسُّنَّةِ وَأَهْلِهَا أَوْ نَفَرْتَهُ عَنْهُمْ ، وَدَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَالْمُتَابَعَةِ وَتَحْكِيمِ السُّنَّةِ ، فَرَنَّهُ بِذَلِكَ ، وَلَا تَرَنَّهُ بِحَالٍ وَلَا كَشْفٍ وَلَا خَارِقٍ ، وَلَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ وَطَارَ فِي الْهَوَاءِ . (٢)

كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ

– الْكَرَامَاتُ جَمْعُ كَرَامَةٍ ، وَهِيَ فِي اللَّغَةِ : الشَّرَفُ . مِنَ الْكَرَمِ : الَّذِي يَغْنِي شَرَفَ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي خُلُقِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ . أَوْ الْإِكْرَامُ : الَّذِي هُوَ إِصْلَالُ نَفْعٍ إِلَى الْإِنْسَانِ ، لَا يَلْحَقُهُ فِيهِ غَضَاضَةٌ ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ مَا يُوصَلُ إِلَيْهِ شَيْئًا كَرِيمًا ، أَيْ شَرِيفًا . (٣)

أَمَّا فِي الْإِصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ ، فَقَدْ عَرَّفَ ابْنُ عَابِدِينَ الْكَرَامَةَ بَأَنَّهَا : ظُهُورُ أَمْرِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، عَلَى يَدِ عَبْدٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ ، مُلْتَزِمٍ لِمُتَابَعَةِ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مُقْتَرِنًا بِصَحِيحِ الْإِعْقَادِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ غَيْرِ مُقَارِنٍ لِدَعْوَى الثُّبُوتِ . (٤)

فَامْتَازَتِ الْكَرَامَةُ بِعَدَمِ الْإِفْتِرَانِ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ عَنِ الْمُعْجَزَةِ ، وَبِكَوْنِهَا عَلَى يَدِ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ وَهُوَ الْوَلِيُّ عَمَّا يُسَمُّونَهُ مَعُونَةً وَهِيَ الْخَارِقُ الظَّاهِرُ عَلَى أَيْدِي عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ ، تَخْلُصًا لَهُمْ مِنَ الْمَحَنِ وَالْمَكَارِهِ ، وَبِمُقَارَنَةِ صَحِيحِ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَنِ الْإِسْتِدْرَاجِ ، وَبِمُتَابَعَةِ نَبِيِّ قَبْلَهُ عَنْ خَوَارِقِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ لِكُذِبِهِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْإِهَانَةِ كَبَصْقِ مُسَيِّلِمَةَ فِي بَشَرٍ عَذْبَةِ الْمَاءِ لِيَزْدَادَ مَاؤُهَا حَلَاوَةً ، فَصَارَ مِلْحًا أَجَاجًا . (٥)

- (١) - قطر الولي للشوكانى ص ٢٧٢ .
- (٢) - الروح لابن القيم ص ٣٥٩ .
- (٣) - معجم مقاييس اللغة ٥ / ١٧٢ ، ومفردات الراغب ص ٧٠٧ .
- (٤) - مجموعة رسائل ابن عابدين ٢ / ٢٧٨ .
- (٥) - اخلي على جمع الجوامع مع حاشية العطار ٢ / ٤٨١ ، وشرح العقيدة الطحاوية للغنيمي الميداني ص ١٣٩ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢ / ٩٧٥ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاري ص ٣٩٢ / ٢ ، ومجموعة رسائل ابن عابدين ٢ / ٢٧٨ ، وتعريفات الجرجاني ص ١١٥ .

- وَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْأَصُولِيِّينَ وَالْمُحَدِّثِينَ وَغَيْرِهِمْ - خِلَافًا لِلْمُعْتَرِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ - إِلَى أَنَّ ظُهُورَ الْكَرَامَةِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ جَائِزٌ عَقْلًا ، لِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الْمُمْكِنَاتِ ، وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ تَقَالًا مُفِيدًا لِلْيَقِينِ مِنْ جِهَةِ مَجِيءِ الْقُرْآنِ بِهَا ، وَوُقُوعِ التَّوَاتُرِ عَلَيْهَا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ . وَبَعْدَ ثُبُوتِ الْوُقُوعِ لَا حَاجَةَ إِلَى إِثْبَاتِ الْجَوَازِ . (١)

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ حَقٌّ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ وَالْأَنْبَاءُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَهَا أَهْلُ الْبِدْعِ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعِيهَا أَوْ تَدَّعَى لَهُ يَكُونُ كَذَّابًا أَوْ مَلْبُوسًا عَلَيْهِ . (٢)

الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالْمُعْجَزَةِ :

- الْمُعْجَزَةُ اسْمٌ فَاعِلٌ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْعَجْزِ الْمُقَابِلِ لِلْمُقَدَّرَةِ ، لِمَا فِيهَا مِنْ إِعْجَازِ الْخَصْمِ عِنْدَ التَّحْدِي ، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ .

وَهِيَ فِي الشَّرْعِ : مَا خَرَقَ الْعَادَةَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، إِذَا وَافَقَ دَعْوَى الرِّسَالَةِ وَقَارَنَهَا وَطَبَقَهَا ، عَلَى جِهَةِ التَّحْدِي

إِبْتِدَاءً ، بِحَيْثُ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى مِثْلِهَا وَلَا عَلَى مَا يُقَارِنُهَا . (٣)

وَتَسْمِيَةُ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَأَعْلَامِهَا " مُعْجَزَاتٍ " إِنَّمَا هُوَ اصْطِلَاحُ النَّظَارِ ، إِذْ لَمْ يَرِدْ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ ، وَالَّذِي فِيهِ لَفْظُ الْآيَةِ وَالْيَنَّةِ وَالْبَرْهَانِ . (٤)

- أَمَّا وَجُوهُ التَّفَرُّقَةِ بَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالْمُعْجَزَةِ فَهِيَ :

أَوَّلًا : أَنَّ الْمُعْجَزَةَ تَقْتَرِنُ بِالتَّحْدِي ، وَهُوَ طَلَبُ الْمُعَارَضَةِ وَالْمُقَابَلَةِ يُقَالُ تَحَدَّيْتُ فُلَانًا : إِذَا بَارَيْتَهُ فِي فِعْلٍ وَنَازَعْتَهُ لِلْعَلَبَةِ أَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَا تَقْتَرِنُ بِذَلِكَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ مِنْ مُعْجَزَاتٍ كُنْطَقِ الْحَصَى وَحَنِينِ الْجَذَعِ وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْرُونٌ بِالتَّحْدِي ، لِأَنَّ قَرَأْنَ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ نَاطِقَةً بِدَعْوَاهُ النُّبُوَّةِ وَتَحْدِيهِ لِلْمُخَالِفِينَ وَإِظْهَارِهِ مَا يَقْمَعُهُمْ وَيَقْطَعُهُمْ ، فَكَانَ كُلُّ مَا ظَهَرَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمَّى آيَاتٍ وَمُعْجَزَاتٍ ، وَلِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ اقْتِرَانِهَا بِالتَّحْدِي الْإِفْتِرَانُ بِالْقُوَّةِ أَوْ الْفِعْلِ . (٥)

ثَانِيًا : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَأْمُورُونَ بِإِظْهَارِ مُعْجَزَاتِهِمْ ، لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ صِدْقِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ ، وَلَا يُعْرِفُ النَّبِيُّ إِلَّا بِمُعْجَزٍ . أَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَا يَجِبُ عَلَى الْوَلِيِّ إِظْهَارُهَا ، بَلْ يَسْتُرُ كَرَامَتَهُ وَيُسِرُّهَا وَيَجْتَهُدُ عَلَى إِخْتِاءِ أَمْرِهِ . (٦) ثَالِثًا : أَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجَزَةِ عَلَى الثَّبُوتِ قَطْعِيَّةٌ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، بَيْنَمَا دَلَالَةُ الْكَرَامَةِ عَلَى الْوِلَايَةِ ظَنِّيَّةٌ ، وَلَا يَعْلَمُ مُظْهِرُهَا أَوْ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ أَنَّهُ وَلِيُّ ، وَلَا غَيْرُهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ مَمْكُورًا بِهِ . (٧) قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَالِدَلَالَةُ عَلَيْهِ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا وَلِيُّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ وَالْقَطْعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمُوتُ إِلَّا مُؤْمِنًا ، فَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ لَمْ يُمْكِنَّا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ وَلِيُّ لِلَّهِ ، لِأَنَّ الْوَلِيَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُؤَافِي إِلَّا بِالْإِيمَانِ ، وَلَكَمَا اتَّفَقَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْطَعَ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يُؤَافِي إِلَّا بِالْإِيمَانِ ، عَلِمَ أَنَّ الْفِعْلَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى وَلَايَتِهِ . (٨)

- (١) - قطر الولي للشوكاني ص ٢٥٧ وما بعدها، وبستان العارفين للنووي ص ١٤١ - ١٥٥ ، والمعتمد لأبي يعلى ص ١٦١ ، والفتاوى الحديثية لابن حجر المكي ص ٣٠١ ، وشرح الطحاوية للغنيمي ص ١٣٩ ، ولوامع الأنوار البهية ٤/٢٣٩ ، والخلي على جمع الجوامع وحاشية العطار عليه ٤٨١/٢ .
- (٢) - مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٠٠ .
- (٣) - التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٦٦٥ ، والتعريفات للجرجاني ص ١١٥ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/٩٧٥ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/٢٩٠ .
- (٤) - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٤/٦٧ .
- (٥) - الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٣٠٨ .
- (٦) - لوامع الأنوار البهية ٢/٣٩٦ ، وبستان العارفين للنووي ص ١٦١ ، ١٦٥ .
- (٧) - الفتاوى الحديثية ص ٣٠٥ ، وبستان العارفين ص ١٦١ .
- (٨) - المعتمد لأبي يعلى ص ١٦٥ .

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ تَدُلُّ عَلَى عِصْمَةِ صَاحِبِهَا وَعَلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ ، أَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى عِصْمَةِ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ ، وَلَا عَلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ ، وَلَا عَلَى وَلَايَتِهِ ، لِجَوَازِ سَلْبِهَا أَوْ أَنْ تَكُونَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ . (١)

رَابِعًا : أَنَّ الْكَرَامَةَ لَا يَجُوزُ بُلُوغُهَا مَبْلَغَ الْمُعْجَزَةِ فِي جِنْسِهَا وَعَظَمِهَا ، كَأَحْيَاءِ الْمَوْتَى وَاتِّهْلَاقِ الْبَحْرِ وَقَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً وَخُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ ، وَبِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَذْهَبَيْنِ وَغَيْرِهِمْ : كُلُّ مَا جَازَ أَنْ يَكُونَ مُعْجَزَةً لِنَبِيٍّ جَازَ أَنْ يَكُونَ كَرَامَةً لَوَلِيِّ ، غَيْرَ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ تَقْتَرِنُ بِدَعْوَى الثَّبُوتِ ، وَالْكَرَامَةَ لَا تَقْتَرِنُ بِذَلِكَ ، بَلْ إِنَّ الْوَلِيَّ لَوْ ادَّعَى الثَّبُوتَ صَارَ عَدُوًّا لِلَّهِ ، لَا يَسْتَحِقُّ الْكَرَامَةَ بَلِ اللَّعْنَةُ وَالْإِهَانَةُ . (٢)

خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الْبُعْتَةِ :

- مِنْ جُمْلَةِ الْكَرَامَاتِ الْخَوَارِقُ الَّتِي وَقَعَتْ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الثَّبُوتِ ، كِإِظْلَالِ الْعِمَامِ وَشَقِّ الصَّدْرِ الْوَاقِعِينَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْبُعْتَةِ ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ بِمُعْجَزَاتٍ لِتَقْدُمِهَا عَلَى التَّحْدِي وَدَعْوَى الثَّبُوتِ ، بَلْ كَرَامَاتٌ ، وَتُسَمَّى "إِرْهَاصًا" أَيْ تَأْسِيسًا لِلثَّبُوتِ ، ذَكَرَ ذَلِكَ جُمْهُورُ أئمَّةِ الْأَصُولِ وَغَيْرُهُمْ . (٣)

كَرَامَةُ الْوَلِيِّ مُعْجَزَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

— قَالَ ابْنُ عَابِدِينَ : اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ خَارِقٍ ظَهَرَ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنَ الْعَارِفِينَ فَهُوَ ذُو جِهَتَيْنِ : جِهَةٌ كَرَامَةٍ ، مِنْ حَيْثُ ظُهُورِهِ عَلَى يَدِ ذَلِكَ الْعَارِفِ . وَجِهَةٌ مُعْجَزَةٌ لِلرَّسُولِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الَّذِي ظَهَرَ هَذِهِ الْكَرَامَةُ عَلَى يَدِهِ هُوَ وَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ بِتِلْكَ الْكَرَامَةِ إِلَّا بِهَا وَلِيٌّ إِلَّا وَهُوَ مُحَقَّقٌ فِي دِيَانَتِهِ ، وَدِيَانَتُهُ هِيَ التَّصَدِيقُ وَالْإِفْرَارُ بِرِسَالَةِ ذَلِكَ الرَّسُولِ مَعَ الْإِطَاعَةِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، حَتَّى لَوْ ادَّعَى هَذَا الْوَلِيُّ الْإِسْتِقْلَالَ بِنَفْسِهِ وَعَدَمَ الْمُتَابَعَةَ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا . (٤) .

الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ
— ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْخَارِقَ غَيْرَ الْمُقْتَرِنِ بِتَحَدِّي الثُّبُوتِ إِذَا ظَهَرَ عَلَى يَدِ عَبْدٍ صَالِحٍ ، وَهُوَ الْقَائِمُ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُقُوقِ خَلْقِهِ فَهُوَ الْكَرَامَةُ . أَمَّا إِذَا ظَهَرَ عَلَى يَدِ ظَاهِرِ الْفَسْقِ مُطَابِقًا لِدَعْوَاهُ فَهُوَ " الْإِسْتِدْرَاجُ " وَقَدْ يُسَمَّى " سِحْرًا وَسُحُودَةً " .

وَإِنْ ظَهَرَ عَلَى يَدِ مُدَّعِي الثُّبُوتِ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ فَهُوَ " الْإِهَانَةُ " ، كَنُطْقِ الْجَمَادِ بِأَنَّهُ مُفْتَرٍ كَذَّابٍ وَخَوِّ ذَلِكَ ، لِأَنَّ خَارِقَ الْعَادَةِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يَكُونُ مُوَافِقًا لِلدَّعْوَى ، بَلْ مُثَبِّتًا لِكَذِبِهَا . (٥)
وَأَسَاسُ ذَلِكَ أَنَّ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَكُونُ سَبَبًا إِلَّا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى ، أَمَّا خَوَارِقُ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَسَبَبُهَا الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعَصْيَانُ . (٦)

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : إِنَّ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ لَا تَدُلُّ عَلَى عِصْمَةِ صَاحِبِهَا ، وَلَا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ ، لِأَنَّ بَعْضًا مِنْهَا قَدْ يَصْدُرُ عَنِ الْكُفَّارِ وَالسَّحَرَةِ بِمُؤَاخَاتِهِمُ لِلشَّيَاطِينِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الدَّجَالِ أَنَّهُ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ : امْطِرِي فُتْمَطِرُ ، وَلِلْأَرْضِ : أَنْبِئِي فَتَنْبِئُ ، وَأَنَّهُ يَقْتُلُ وَاحِدًا ثُمَّ يُحْيِيهِ ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ خَلْفَهُ كُنُوزُ النَّهْبِ وَالْفَيْضَةِ . (٧)

-
- (١) — مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٠٠ ، ولوامع الأنوار البهية ٢ / ٣٩٣ .
(٢) — قطر الولي للشوكاني ص ٢٥٨ ، ورد المختار ٣ / ٣٠٨ ، ومجموعة رسائل ابن عابدين ٢ / ٢٧٩ ، وبستان العارفين ص ١٦٢ ، ١٥٦ ، والفتاوى الحديشية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، والحلي على جمع الجوامع وحاشية العطار ٢ / ٤٨١ ، ولوامع الأنوار البهية ٢ / ٣٩٦ .
(٣) — الفتاوى الحديشية ص ٣٠٧ ، بستان العارفين ص ١٥٧ ، ومجموعة رسائل ابن عابدين ٢ / ٢٧٨ ، ولوامع الأنوار البهية ٢ / ٣٩٢ .
(٤) — مجموعة رسائل ابن عابدين ٢ / ٢٧٩ ، وانظر مجموعة فتاوى ابن ابن تيمية ١١ / ٢٧٥ .
(٥) — بستان العارفين ص ١٥٧ ، ولوامع الأنوار ٢ / ٢٩٠ ، وشرح العقيدة الطحاوية للميداني ص ١٣٩ ، والفتاوى الحديشية ص ٣٠٤ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢ / ٩٧٥ .
(٦) — مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ٣٠٢ .
(٧) — حديث الدجال أخرجه مسلم (٤ / ٢٢٥٢ — ٢٢٥٣ — ط الحلبي) .

وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَيْمَنُ الدِّينِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ ، لَمْ تَثْبُتْ لَهُ وَلَايَةٌ ، بَلْ وَلَا إِسْلَامٌ حَتَّى يُنْظَرَ وَقُوفُهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالتَّهَيُّهِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (١)

تعريفه :

إن الولي في لغة العرب خلاف العدو، وهو مشتق ومأخوذ من الولاء وهو الدنو والتقرب، فولي الله هو من والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، ومن صحت ولايته فهو من أهل الجنة ولا ريب. ولما كان من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم لا يجزمون لمعين بالجنة، فإنه لا يجوز لنا أن نحزم بولاية أحد من الناس كائنًا من كان، قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره (٣): " قَالَ عَلَمًاؤُنَا - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - : وَمَنْ أَظْهَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِمَّنْ لَيْسَ بِنَبِيِّ كَرَامَاتٍ وَخَوَارِقٍ لِلْعَادَاتِ فَلَيْسَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى وَلَايَتِهِ ، خِلَافًا لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ حَيْثُ قَالُوا : إِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا مَا أَظْهَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مَا أَظْهَرَ . وَدَلِيلُنَا أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا ، وَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا لَمْ يُمْكِنَّا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْوَلِيَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَنْ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُؤْفِي إِلَّا بِالْإِيمَانِ . وَلَكِنَّا اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلُ يُؤْفِي بِالْإِيمَانِ ، وَلَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ يَقْطَعُ عَلَى أَنَّهُ يُؤْفِي بِالْإِيمَانِ ، عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ يَدُلُّ عَلَى وَلَايَتِهِ لِلَّهِ " اهـ.

صفتهم :

وبالرجوع إلى قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } نعرف أنهم صفات أولياء الله، فقد وصفهم الله بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون. فما الإيمان؟ وما الشيء الذي آمنوا به؟ وما التقوى حتى نتصف بهما، وحتى نعرف من أولياء الله؟

أما الإيمان فهو الاعتراف المستلزم للقبول، وقد بينه المصطفى في حديث جبريل المشهور حينما سأله عن الإيمان فقال: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » (٤).

أما التقوى — وهي الصفة الثانية من صفات أولياء الله — فهي أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، جاء في تفسير الطبري عند تفسير قوله تعالى: إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ [الأنفال: ٣٤]، يقول: مَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ، يَعْنِي : الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ . (٥)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الأنفال: ٣٤]، يقول: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون". والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } (١٧٧) سورة البقرة .

ومن صفات أولياء الله أنهم إذا رُؤوا ذُكر الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: ((الذين إذا رُؤوا ذُكر الله)) رواه البزار (٦) .

(١) - مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٠٠ و مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٤٨٨) و مجموع فتاوى ابن

تيمية - (ج ٦ / ص ١٠٨) و الفتاوى الكبرى - (ج ١ / ص ٢٠٦)

(٢) - موسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ٤٥٦٠) - عبد الله بن محمد البصري

(٣) - تفسير القرطبي - (ج ١ / ص ٢٩٧)

(٤) - صحيح مسلم (١٠٢)

(٥) - تفسير الطبري - (ج ١٢ / ص ١٦١)

(٦) - المجمع ٧٨/١ وأخرجه في الحلية ٢٦/١ و٢٣١/٧ وصححه في صحيح الجامع (٢٥٨٧)

ومن صفاتهم أنهم يحبون في الله ويبغضون في الله، ويوالون في الله ويعادون في الله، كما ورد في الحديث: ((من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك)) (١)، وروى الإمام عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لَا يَحِقُّ الْعَبْدُ صَرِيحَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَيَبْغِضَ لِلَّهِ فَإِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَبْغِضَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْوَلَاءَ مِنَ اللَّهِ وَإِنْ أَوْلِيَائِي مِنْ عِبَادِي وَأَحِبَّائِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يَذْكُرُونَ بِذِكْرِي وَأَذْكُرُ بِذِكْرِهِمْ» (٢).

ومن صفات الأولياء المحافظة على الصلوات الخمس وصيام رمضان طاعة لله وإخراج الزكاة واجتناب الكبائر، عن عبيد بن عمير عن أبيه: أَنَّهُ حَدَّثَهُ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُصَلُّونَ مَنْ يُقِمُّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ الَّتِي كُتِبْنَ عَلَيْهِ وَيَصُومُ رَمَضَانَ يَحْتَسِبُ صَوْمَهُ يَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَيُعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا». ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكِبَائِرُ؟ فَقَالَ: «هُنَّ تِسْعُ الشُّرُكِ إِشْرَاكَ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قَبْلَكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، ثُمَّ قَالَ: لَا يَمُوتُ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ هَؤُلَاءِ الْكِبَائِرَ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِيَ الزَّكَاةَ إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي ذَارِ أَيْوَابِهَا مَصَارِيعُ مِنْ ذَهَبٍ». سَقَطَ مِنْ كِتَابِي أَوْ مِنْ كِتَابِ شَيْخِي السَّخَرُ (٣).

ومن صفات الأولياء أنهم يحفون أعمالهم ولا يبرزونها للناس، بل قد لا يعرفهم الناس ولا يأبهون لهم، فعن زيد بن أسلم عن أبيه، أن عمر، خرج إلى المسجد يوما فوجد معاذ بن جبل عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: يبكي حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقلوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصايح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة» (٤).

ومن صفات الأولياء التحلي بالعلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والاتصاف بالفضل وصفاء القلوب والعقيدة والإخلاص لله تعالى والدعوة إليه، قال ابن عبد البر: "فمن الحب في الله حب أولياء الله، وهم الأنقياء العلماء الفضلاء، ومن البغض في الله بغض من حاد الله وجاهر بمعاصيه أو ألد في صفاته وكفر به وكذب رسله أو نحو هذا كله" (٥).

ويروى عن الخليل بن أحمد كما في تهذيب الكمال أنه قال: "إن لم تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله فليس لله ولي" (٦). وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري رحمه الله أنه تلا هذه الآية الكريمة: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت: ٣٣]، فقال: "هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إني من المسلمين، فهذا خليفة الله" (٧).

وقال شيخ الإسلام (٨): "فَمَنْ كَانَ مُخْلِصًا فِي أَعْمَالِ الدِّينِ يَعْمَلُهَا لِلَّهِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ أَهْلُ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) } [يونس/٦٢-٦٥]. وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبُشْرَى فِي الدُّنْيَا بِنَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا : تَنَاءُ الْمُتَشَبِّهِ عَلَيْهِ .

(١) - الإبانة الكبرى لابن بطة (٨٥١) والمعجم الكبير للطبراني - (ج ١١ / ص ٤٦) (١٣٣٥) و المعجم

الأوسط للطبراني (١١١٣٧) حسن لغیره

(٢) - مسند أحمد (١٥٩٤٨) وفيه ضعف

(٣) - السنن الكبرى للبيهقي (ج ٣ / ص ٤٠٨) (٦٩٧٠) وفيه لين

(٤) - ك ٤/١ و ٣٢٨/٤ وكثير ٣٤٤/٦ والإتحاف ٢٣٦/٨ و ٢٦٣ و ٢٦٤ صحيح

الرياء : إظهار العمل للناس ليروه ويطنوا به خيرا = الأبرار : جمع بر وهم الأتقياء والصالحون = غبراء مظلمة :

مسألة مشكلة وبلية معضلة

(٥) - قاله في التمهيد شرح الموطأ (٤٣١/١٧)

(٦) - تهذيب الكمال للمزي - (ج ٨ / ص ٣٣١)

(٧) - تفسير الطبري - (ج ٢١ / ص ٤٦٩) صحيح

(٨) - مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٨)

الثاني : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ؛ أو ترى له . عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ : «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» (١).
وقال البراء بن عازب : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } فَقَالَ : { هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ؛ أو ترى له } (٢) . وَالْقَائِمُونَ بِحِفْظِ الْعِلْمِ الْمَوْزُوثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّبَّانُ الْحَافِظُونَ لَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالْقَصَاصِ ، هُمْ مِنْ أَعْظَمِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ ، بَلْ لَهُمْ مَرِئَةٌ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (١١) سورة المجادلة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَرْفَعُ اللَّهُ [الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُؤْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ] (٣) .

وقال رحمه الله (٤): " وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضَاهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْلُوبِ وَهَذِهِ جُمْلَةُ لَهَا بَسْطٌ طَوِيلٌ لَا يَتَسَعُّ لَهُ هَذَا الْمَكَانُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

وقال رحمه الله : " فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا حَظَرَ وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ وَلَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا ذَلِكَ وَهَذَا سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِ اللَّهِ الْمُفْلِحِينَ وَجُنْدِ اللَّهِ الْغَالِبِينَ . وَكُلُّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ طُرُقِ أَهْلِ الْقِيِّ وَالضَّلَالِ وَقَدْ نَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَنْ هَذَا وَهَذَا فَقَالَ تَعَالَى : { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } [النجم: ١-

٤] ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صَلَاتِنَا: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } [الفاتحة: ٦، ٧] (٥) .

وقال رحمه الله : " فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَتَقَى اللَّهَ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ " . (٦)

(١) - صحيح مسلم (٦٨٩١)

(٢) - مسند الشاميين (١٠٢٥ و ١٠٢٦) ومسند أحمد (٢٨٣٢٢) والمستدرک للحاکم (٣٣٠٢) من طرق صحيح

(٣) - المستدرك للحاكم (٣٧٩٣) حسن

(٤) - مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٨٥)

(٥) - مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٩٧)

(٦) - مجموع الفتاوى - (ج ٣ / ص ٤١٧)

ومما لبس به الشيطان على كثير من الناس أن أجرى أموراً خارقة للعادة وخارجة عن المألوف على أيدي من يسموهم أولياء وما هم بأولياء، ونسي أولئك الجهلة أو تناسوا أنه لا يشترط في الولي أن يكون له كرامات أو أمور خارقة للعادة. قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله: "وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المتقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك الحارم، الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئاً، وإن لم تجر على أيديهم خوارق، فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلاً على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفلس ورهبان اليهود والنصارى وعباد الأصنام، فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف، ولكن هي من قبل الشياطين، فإنهم يتنزلون عليهم لجانستهم لهم في الأفعال والأقوال، كما قال تعالى: { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وقال تعالى: { وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [الزخرف: ٣٦]. وتجد عمدة كثير من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحياناً، أو يمشي على الماء، أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو يجبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب، أو يخفي أحياناً عن أعين الناس، أو يجبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فراه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلاً عن أن يكون ولياً لله، (١) بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعتة لرسول الله وموافقته لأمره ونهيهِ. ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها ولياً لله، وقد يكون عدواً له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمناقين وأهل البدع، وتكون ل هؤلاء من قبل الشياطين، أو تكون استدراجاً، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي لله، بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يوضأ ولا يصلي المكتوبة، ولا يتطهر ولا يتطهر الطهارة الشرعية، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوي إلى المزابيل، رائحته خبيثة، ركاباً للفواحش، يمشي في الأسواق كاشفاً لعورته، غامزاً للشرع مستهزئاً به وبمحملته، يأكل العقارب والخبائث التي تحبها الشياطين، كافراً بالله، ساجداً لغير الله من القبور وغيرها، يكره سماع القرآن وينفر منه، ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن، فلو جرى على أيدي شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون ولياً لله محبوباً عنده حتى يكون متبعاً لرسوله باطناً وظاهراً" اهـ. (٢)

وقال في شرح العقيدة الطحاوية (٣): "فَلَا طَرِيقَةَ إِلَّا طَرِيقَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا حَقِيقَةَ إِلَّا حَقِيقَتُهُ ، وَلَا شَرِيعَةَ إِلَّا شَرِيعَتُهُ ، وَلَا عَقِيدَةَ إِلَّا عَقِيدَتُهُ ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ بَعْدَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ إِلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا .

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُصَدِّقًا فِيمَا أَخْبَرَ ، مُلتزماً لِمَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ ، فِي الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ ، وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ - : لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا ، فَضُلًّا عَنِ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ ، وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ ،

وَأَنفَقَ مِنَ الْغَيْبِ ، وَأَخْرَجَ الذَّهَبَ مِنَ الْخَشَبِ ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ مَاذَا عَسَى أَنْ يَحْصُلَ !! فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ ، مَعَ تَرْكِهِ الْفِعْلَ الْمَأْمُورَ وَعَمَلَ الْمَحْظُورَ - إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، الْمُبْعَدَةِ لِصَاحِبِهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، الْمُقَرَّبَةِ إِلَى سُخْطِهِ وَعَذَابِهِ . لَكِنْ مَنْ لَيْسَ يُكَلِّفُ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ ، قَدْ رُفِعَ عَنْهُمْ الْقَلَمُ ، فَلَا يُعَاقَبُونَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِقْرَارِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا مَا يَكُونُونَ بِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَحُزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ ، وَجُنْدِهِ الْعَالِيِّينَ . لَكِنْ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ تَبَعًا لِأَبَائِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } (الطُّور : ٢١) .

(١) - مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢١٣)

(٢) - انظر أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - (ج ١ / ص ٤٦)

(٣) - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - (ج ٣ / ص ٢٤٨) فما بعد

فَمَنْ اعْتَقَدَ فِي بَعْضِ الْبُلْهَةِ أَوْ الْمُؤَلَعِينَ ، مَعَ تَرْكِهِ لِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ - أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مُتَبِعِي طَرِيقَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ ، مُخْطِئٌ فِي اعْتِقَادِهِ . فَإِنَّ ذَاكَ الْأَبْلَهَ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا زَنْدِيقًا ، أَوْ زُوكَارِيًّا (١) مُنْحِيلاً ، أَوْ مَجْنُونًا مَعْدُورًا !

فَكَيْفَ يُفَضِّلُ عَلَى مَنْ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ ؟! أَوْ يُسَاوِي بِهِ ؟! وَلَا يُقَالُ : يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُتَّبِعًا فِي الْبَاطِنِ [وَأَنْ كَانَ تَارِكًا لِلتَّابِعِ فِي الظَّاهِرِ] ؟ فَإِنَّ هَذَا خَطَأٌ أَيْضًا ، بَلِ الْوَاجِبُ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . قَالَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى الصَّدْفِيُّ : قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ : إِنْ صَاحِبَنَا اللَّيْثُ كَانَ يَقُولُ : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : قَصَرَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ اللَّهُ ، بَلْ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وَتَعَيَّنَ تَقْيِيدُ قَوْلٍ مَنْ أَطْلَقَ أَنَّ كُلَّ مُعْجَزَةٍ وَجَدَتْ لِبَنِي يَحْيَى يُجُوزُ أَنْ تَقَعَ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الَّذِي اسْتَفَرَّ عِنْدَ الْعَامَّةِ أَنَّ خَرَقَ الْعَادَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ غَلَطٌ مِمَّنْ يَقُولُهُ ، فَإِنَّ الْخَارِقَ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى يَدِ الْمُبْطِلِ مِنْ سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ وَرَاهِبٍ ، فَيَحْتَاجُ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى وَلَايَةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى فَارِقٍ ، وَأَوَّلَى مَا ذَكَرُوهُ أَنْ يُخْبَرَ حَالُ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِالْأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْوَاهِي كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً وَلَايَتِهِ وَمَنْ لَا فَلَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ " . (٣)

الأولياء لا يستغنون عن الشريعة الحمديدية :

لا يجوز لأحد كائناً من كان الاستغناء عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فضلاً عن مخالفتها، قال شيخ الإسلام رحمه الله (٤): " مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَنْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ وَطَاعَتُهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يُسْتَنَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُبِلَ ، مِثْلُ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَسْتَعْنِي عَنْ مُتَابَعَتِهِ كَمَا اسْتَعْنَى الْخَضِرُ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى ، فَإِنَّ مُوسَى لَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُ عَامَّةً بِخِلَافِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مُتَابَعَةُ أَمْرِهِ ، وَإِذَا كَانَ مَنْ اعْتَقَدَ سُفُوطَ طَاعَتِهِ عَنْهُ كَافِرًا ؛ فَكَيْفَ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ ؟ أَوْ أَنَّهُ يَصِيرُ مِثْلَهُ " .

الخلاصة في أحكام السُّخْرِ (٥)

التعريف :

١ - السَّحَرُ لُغَةً : كُلُّ مَا لَطَفَ مَأْخُذُهُ وَدَقَّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » (٦)

(١) - هذه لفظة مولدة . وفي شرح القاموس ٣ : ٢٤٠ « الزواكرة : من يتلبس فيظهر النسك والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد . نقله المقرئ في نفح الطيب » .

(٢) - هكذا وردت القصة في الأصل . وانظر القصة في تفسير ابن كثير ١ / ٨٠

(٣) - فتح الباري لابن حجر - (ج ١١ / ص ٤٢٠)

(٤) - مجموع الفتاوى - (ج ٤ / ص ٣١٨)

(٥) - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٢٤ / ص ٢٥٩-٢٦٩)

(٦) - صحيح البخارى (٥٧٦٧)

وفي المنقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٤٤٩)

قَالَ أَبُو عِيْنٍ مَعْنَاهُ أَنْ يَمْدَحَ الْإِنْسَانُ فَيَصْدَقَ بِهِ حَتَّى يَصْرِفَ الْقُلُوبَ إِلَى قَوْلِهِ ثُمَّ يَدُمَّهُ فَيَصْدَقُ حَتَّى يَصْرِفَ الْقُلُوبَ إِلَى قَوْلِهِ الْآخِرِ فَكَأَنَّهُ سَحَرَ السَّامِعِينَ وَرَوَى أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فِيهِمْ قَيْسُ بْنُ الْأَصَمِّ وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَدْرٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْنَمِ فَفَخَرَ الزُّبَيْرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا سَيِّدُ تَمِيمٍ وَالْمُطَاغُ فِيهِمْ وَالْمُجَابُ فِيهِمْ آخِذٌ لَهُمْ بِحُقُوقِهِمْ وَأَمْنُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَهَذَا يَعْلَمُ ذَلِكَ يَعْنِي عَمْرُو بْنُ الْأَهْنَمِ فَقَالَ عَمْرُو : إِنَّهُ لَشَيْدُ الْعَارِضَةِ مَانِعٌ لِحَاجَتِهِ مُطَاغٌ فِي أَذَانِهِ ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ كَذَبَ وَمَا مَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا الْحَسَدُ ؛ فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا أَحْسَدُكَ ! فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَلَيْمُ الْخَالِ حَدِيثُ الْمَالِ أَحْمَقُ الْوَالِدِ مُبْغِضُ فِي الْعَشِيرِ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَ أَوَّلًا وَمَا كَذَبْتَ آخِرًا وَلَكِنِّي رَجُلٌ رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا وَجَدْتُ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا .

وَسَحَرَهُ أَيَّ خَدَعَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } (سورة الشعراء / ١٥٣) أَيِ الْمَخْدُوعِينَ .

وَيُطْلَقُ السَّحَرُ عَلَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : السَّحَرُ عَمَلٌ تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى الشَّيْطَانِ وَبِمَعُونَتِهِ مِنْهُ ، كُلُّ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَيْفُونُهُ لِلْسَّحَرِ . قَالَ : وَأَصْلُ السَّحَرِ صَرْفُ الشَّيْءِ عَنْ حَقِيقَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ ، فَكَأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَخَيَّلَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، قَدْ سَحَرَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ ، أَيِ صَرَفَهُ . هـ . وَرَوَى شَيْخٌ : أَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا سَمَتِ السَّحَرَ سِحْرًا لِأَنَّهُ يُزِيلُ الصَّحَّةَ إِلَى الْمَرَضِ ، وَالْبُغْضَ إِلَى الْحُبِّ (١) . وَقَدْ يُسَمَّى السَّحَرُ طِبًّا ، وَالْمُطَبُّوبُ الْمُسَحَّرُ ، قَالَ أَبُو عِيْنٍ : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ تَهَاقُلاً بِالسَّلَامَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَ السَّحَرُ طِبًّا ؛ لِأَنَّ الطَّبَّ بِمَعْنَى الْحَذَقِ ، فَلَوْ حَظَّ حَذَقُ السَّاحِرِ فَسُمِّيَ عَمَلُهُ طِبًّا (٢) . وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَفْظُ الْحَبْتِ ، فَسَرَهُ عَمْرُو بْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيُّ بِالسَّحَرِ ، وَقِيلَ : الْحَبْتُ أَعَمُّ مِنَ السَّحَرِ ، فَيَصْدَقُ أَيْضًا عَلَى الْكِبَاهِنَةِ وَالْعِرَافَةِ . وَالتَّجِيمِ (٣) .

أَمَّا فِي الْإِصْطِلَاحِ : فَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْرِيفِهِ اخْتِلَافًا وَاسِعًا ، وَلَعَلَّ مَرَدَّ الْإِخْتِلَافِ إِلَى خِفَاءِ طَبِيعَةِ السَّحَرِ وَآثَارِهِ . فَاخْتَلَفَتْ تَعْرِيفَاتُهُمْ لَهُ تَبَعًا لِإِخْتِلَافِ تَصَوُّرِهِمْ لِحَقِيقَتِهِ . فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : الْمُرَادُ بِالسَّحَرِ مَا يُسْتَعَانُ فِي تَحْصِيلِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى الشَّيْطَانِ مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ يُنَاسِبُهُ فِي الشَّرَارَةِ وَخُبْثِ النَّفْسِ .

قال : وَأَمَّا مَا يُعْجَبُ مِنْهُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحِيلِ وَالْآلَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ ، أَوْ يُرِيهِ صَاحِبُ خِفَّةِ الْيَدِ فَغَيْرُ مَذْمُومٍ ، وَتَسْمِيَّتُهُ سِحْرًا هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّجَوُّزِ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّقَّةِ ؛ لِأَنَّ السِّحْرَ فِي الْأَصْلِ لِمَا خَفِيَ سَبَبُهُ اهـ (٤) .
وَقَلَّ التَّهَانُوتِيُّ عَنِ الْفَتَاوَى الْحَامِدِيَّةِ : السِّحْرُ نَوْعٌ يُسْتَفَادُ مِنَ الْعِلْمِ بِخَوَاصِّ الْجَوَاهِرِ وَأُمُورٍ حِسَابِيَّةٍ فِي مَطَالِعِ النُّجُومِ ، فَيَتَّخِذُ مِنْ ذَلِكَ هَيْكَلًا عَلَى صُورَةِ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ ، وَيَتَرَصَّدُ لَهُ وَقْتُ مَخْصُوصٍ فِي الْمَطَالِعِ ، وَتَقَرَّنُ بِهِ كَلِمَاتٌ يُتْلَفُظُ بِهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَحْشِ الْمُخَالَفِ لِلشَّرْعِ ، وَيُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالشَّيَاطِينِ ، وَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ فِي الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ (٥) .
وَقَالَ الْقَلُوبِيُّ : السِّحْرُ شَرْعًا مَزَاوِلَةُ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ لِأَقْوَالٍ أَوْ أَفْعَالٍ يَنْشَأُ عَنْهَا أُمُورٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ (٦) .
وَعَرَفَهُ الْحَبَابِلَةُ بِأَنَّهُ : عَقْدٌ وَرَقِيٌّ وَكَلَامٌ يُتَكَلَّمُ بِهِ ، أَوْ يَكْتَبُهُ ، أَوْ يَعْمَلُ شَيْئًا يُؤَثِّرُ فِي بَدَنِ الْمَسْحُورِ أَوْ قَلْبِهِ أَوْ عَقْلِهِ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ لَهُ (٧) .
الْأَلْفَاظُ ذَاتُ الصَّلَةِ :

أ - الشَّعْوَذَةُ :

٢ - قَالَ فِي اللِّسَانِ : الشَّعْوَذَةُ خِفَّةٌ فِي الْيَدِ ، وَأَخَذَ كَالسِّحْرِ ، يُرِي الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ مَا عَلَيْهِ أَصْلُهُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، وَقَالُوا : رَجُلٌ مُشْعَوَّذٌ وَمُشْعَوَّذَةٌ ، وَقَدْ يُسَمَّى الشَّعْبَذَةُ (٨) .
ب - النَّشْرَةُ :

-
- (١) - لسان العرب ، والجمل على شرح المنهج ٥ / ١١٠ القاهرة ، الميمنية ، ١٣٠٥ هـ .
(٢) - لسان العرب - (طب) ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣ / ٦٤٨ .
(٣) - لسان العرب (جبت) ، وتفسير القرطبي عند الآية ٥١ من سورة النساء .
(٤) - تفسير البيضاوي عند قوله تعالى : (يعلمون الناس السحر) الآية ١٠٢ من سورة البقرة ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣ / ٦٤٨ بيروت ، شركة خياط بالتصوير عن طبعة الهند .
(٥) - التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ٣ / ٦٤٨ .
(٦) - الجمل على شرح المنهج ٥ / ١١٠ ، والقلوبي ٤ / ١٦٩ ، وحاشية الكازروني على تفسير البيضاوي عند الآية ٥١ من سورة البقرة .
(٧) - كشاف القناع آخر باب حد الردة ٦ / ١٨٦ ، الرياض مكتبة النصر الحديثة ، ومطالب أولي النهى ٦ / ٣٠٣ بيروت . المكتب الإسلامي .
(٨) - لسان العرب : (شعذ) .

٣ - النَّشْرَةُ ضَرْبٌ مِنَ الرُّقِيَّةِ وَالْعِلَاجِ يُعَالَجُ بِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ بِهِ مَسًّا مِنَ الْجِنِّ . سُمِّيَتْ نَشْرَةً لِأَنَّهُ يَنْشُرُ بِهَا مَا خَامَرَهُ مِنَ الدَّاءِ ، أَيْ يَكْشِفُ وَيُزَالُ ، قَالَ الْحَسَنُ : النَّشْرَةُ مِنَ السِّحْرِ (١) . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَأَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّشْرَةِ ، فَقَالَ : هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (٢) .
ج - الْعَزِيمَةُ :

٤ - الْعَزِيمَةُ مِنَ الرُّقِيِّ الَّتِي كَانُوا يَعَزِمُونَ بِهَا عَلَى الْجِنِّ ، وَجَمْعُهَا الْعَزَائِمُ ، يُقَالُ : عَزَمَ الرَّاقِي : كَأَنَّهُ أَقْسَمَ عَلَى الدَّاءِ ، وَأَصْلُهَا فِيمَا ذَكَرَهُ الْقَرَفِيُّ : الْإِقْسَامُ وَالتَّعْزِيمُ عَلَى أَسْمَاءٍ مُعَيَّنَةٍ زَعَمُوا أَنَّهَا أَسْمَاءُ مَلَائِكَةٍ وَكُلُّهُمْ سُلَيْمَانُ بَقْبَائِلِ الْجَانِّ ، فَإِذَا أَقْسَمَ عَلَى صَاحِبِ الْإِسْمِ أَلْزَمَ الْجِنَّ بِمَا يُرِيدُ (٣) .

د - الرُّقِيَّةُ :

٥ - الرُّقِيَّةُ وَجَمْعُهَا الرُّقَى ، وَهِيَ أَلْفَاظٌ خَاصَّةٌ يَحْدُثُ عِنْدَ قَوْلِهَا الشِّفَاءُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِذَا كَانَتْ مِنَ الْأُدْعِيَةِ الَّتِي يَتَعَوَّذُ بِهَا مِنَ الْآفَاتِ مِنَ الصَّرَعِ وَالْحُمَى ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ : « اغْرِضُوا عَلَى رِقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ » (٤).

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : « لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ » (٥).
وَمِنَ الرُّقَى مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ كَرَقَى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَهْلُ الْهِنْدِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَسْتَشْفُونَ بِهَا مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْأَسْبَابِ الْمُهْلِكَةِ . قَالَ الْقَرَفِيُّ : الرُّقِيَّةُ لِمَا يُطْلَبُ بِهِ النَّفْعُ ، أَمَّا مَا يُطْلَبُ بِهِ الضَّرَرُ فَلَا يُسَمَّى رُقِيَّةً بَلْ هُوَ سِحْرٌ (٦) .
وَأَنْظُرْ (تَعْوِذَةٌ) .

هـ - الطَّلَسَمُ :

٦ - الطَّلَسَمَاتُ أَسْمَاءٌ خَاصَّةٌ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ لَهَا تَعَلُّقًا بِالْكَوَاكِبِ ، تُجْعَلُ فِي أَجْسَامِ مِنَ الْمَعَادِنِ أَوْ غَيْرِهَا ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُحْدِثُ آثَارًا خَاصَّةً (٧) .

و - الْأَوْفَاقُ :

٧ - الْأَوْفَاقُ هِيَ أَعْدَادٌ تُوضَعُ فِي أَشْكَالٍ هِنْدُسِيَّةٍ عَلَى شَكْلِ مَخْصُوصٍ ، كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ عَمِلَهُ فِي وَرَقٍ وَحَمَلَهُ يُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى تَيْسِيرِ الْوِلَادَةِ ، أَوْ نَصْرِ جَيْشٍ عَلَى جَيْشٍ ، أَوْ إِخْرَاجِ مَسْجُونٍ مِنْ سِجْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ (٨).
ز - التَّجِيمُ :

٨ - التَّجِيمُ لُغَةً : النَّظَرُ فِي النُّجُومِ ، اصْطِلَاحًا : مَا يُسْتَدَلُّ بِالتَّشْكَالَاتِ الْفَلَكَيَّةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ كَمَا يَزْعُمُونَ .

حَقِيقَةُ السَّحْرِ :

٩ - اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّ السَّحَرَ هَلْ لَهُ حَقِيقَةٌ وَوُجُودٌ وَتَأْثِيرٌ حَقِيقِيٌّ فِي قَلْبِ الْأَعْيَانِ ، أَمْ هُوَ مُجَرَّدُ تَخْيِيلٍ ؟ .
فَذَهَبَ الْمُعْتَزِلَةُ وَأَبُو بَكْرِ الرَّازِيُّ الْحَنْفِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْجَصَّاصِ ، وَأَبُو جَعْفَرٍ الْإِسْتِرَابَادِيُّ وَالْبَغَوِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ ، إِلَى إِنْكَارِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ السَّحْرِ وَأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ تَخْيِيلٌ مِنَ السَّاحِرِ عَلَى مَنْ يَرَاهُ ، وَإِبْهَامٌ لَهُ بِمَا هُوَ خِلَافُ الْوَاقِعِ ، وَأَنَّ السَّحَرَ لَا يَضُرُّ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْمِلَ السَّاحِرُ سُمًّا أَوْ دُخَانًا يَصِلُ إِلَى بَدَنِ الْمَسْحُورِ فَيُؤْذِيهِ ، وَيَقِلُّ مِثْلُ هَذَا عَنْ الْحَنْفِيَّةِ ، وَأَنَّ السَّاحِرَ لَا يَسْتَطِيعُ بِسَحْرِهِ قَلْبَ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، فَلَا يُمْكِنُهُ قَلْبُ الْعَصَا حَيَّةً ، وَلَا قَلْبُ الْإِنْسَانِ حَيًّا .

(١) - لسان العرب .

(٢) - مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٥) - (ج ٧ / ص ٣٨٧) (٢٣٩٨٢) ومسند الزوار (٦٧٠٩) ومجمع الزوائد (٨٣٩٧) وحسنه ابن حجر في الفتح (١٠ / ٢٣٣ - ط السلفية) وهو صحيح

(٣) - لسان العرب ، والفروق للقرافي فرق (٢٤٢) .

(٤) - صحيح مسلم (٥٨٦٢)

(٥) - سنن أبي داود (٣٨٨٦) صحيح

(٦) - لسان العرب ، والفروق للقرافي ٤ / ١٤٧ الفرق (٢٤٢) .

(٧) - الفروق للقراقي الفرق (٢٤٢) / ٤ / ١٤٢ .

(٨) - الفروق للقراقي ١٤٢ / ٤ الفرق (٢٤٢) .

قَالَ الْجَصَّاصُ : السَّحَرُ مَتَى أُطْلِقَ فَهُوَ اسْمٌ لِكُلِّ أَمْرٍ مُمَوَّهِ بِاطِلٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ } (سورة الأعراف / ١١٦) يَعْنِي مَوَّهُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ تَسْعَى ، وَقَالَ تَعَالَى : { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } (سورة الشعراء / ٦٦) فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا ظَنُّوهُ سَعْيًا مِنْهَا لَمْ يَكُنْ سَعْيًا وَإِنَّمَا كَانَ تَخْيِيلًا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ عَصِيًّا مُجَوَّفَةً مَمْلُوءَةً زَنْبَقًا ، وَكَذَلِكَ الْحِبَالُ كَانَتْ مَعْمُولَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُورَةً زَنْبَقًا ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُمَوَّهًا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ . (١) وَذَهَبَ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى أَنَّ السَّحَرَ قِسْمَانِ :

١٠ - قِسْمٌ هُوَ حَيْلٌ وَمُخْرِقَةٌ وَتَهْوِيلٌ وَشُعُودَةٌ ، وَإِيهَامٌ لَيْسَ لَهُ حَقَائِقُ ، أَوْ لَهُ حَقَائِقُ لَكِنْ لُطْفٌ مَأْخُذُهَا ، وَلَوْ كُشِفَ أَمْرُهَا لَعِلِمَ أَنَّهَا أَفْعَالٌ مُتَعَادَةٌ يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ وَجْهَهَا أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَهَا ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا مَا يَبْنِي عَلَى مَعْرِفَةٍ خَوَاصِّ الْمَوَادِّ وَالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، وَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى السَّحَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ } (سورة الأعراف / ١١٦) وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ خَفَاءً وَجْهِهِ ضَعِيفًا فَلَا يُسَمَّى سِحْرًا اصْطِلَاحًا ، وَقَدْ يُسَمَّى سِحْرًا لُغَةً ، كَمَا قَالُوا : (سَحَرْتُ الصَّبِيَّ) بِمَعْنَى خَدَعْتُهُ . الْقِسْمُ الثَّانِي : مَا لَهُ حَقِيقَةٌ وَوُجُودٌ وَتَأْثِيرٌ فِي الْأُبْدَانِ . فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى اثْبَاتِ هَذَا الْقِسْمِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ . وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَقِيقَةِ عَلَى مَا نَقَلَهُ ابْنُ الْهَمَامِ ، وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ (٢) .

وَاسْتَدَلَّ الْقَائِلُونَ بِتَأْثِيرِ السَّحَرِ وَإِحْدَاثِهِ الْمَرَضَ وَالضَّرَرَ وَنَحْوَ ذَلِكَ بِأَدَلَّةٍ :

مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } (سورة الفلق) وَالنَّفَّاثَاتُ فِي الْعُقَدِ : هُنَّ السَّوَاحِرُ مِنَ النِّسَاءِ ، فَلَمَّا أُمِرَ بِالْإِسْعَادَةِ مِنْ شَرِّهِنَّ عَلِمَ أَنَّ لَهُنَّ تَأْثِيرًا وَضَرَرًا .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } (سورة البقرة / ١٠٢) .

وَمِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلًا مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ « يَا عَائِشَةُ ، أَشَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا وَجَعَ الرَّجُلَ فَقَالَ مَطْبُوبٌ . قَالَ مَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ . قَالَ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ ، وَجُفٍّ طَلَعَ نَخْلَةً ذَكَرَ . قَالَ وَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِي بَنِي ذُرَّوَانَ » . فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نِقَاعَةُ الْحِجَاءِ ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَحْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَسْتَخْرِجُهُ قَالَ « قَدْ عَافَانِي اللَّهُ ، فَكِرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا » . فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ . تَابَعَهُ أَبُو أُسَامَةَ وَأَبُو ضَمْرَةَ وَابْنُ أَبِي الزَّنَادِ عَنْ هِشَامٍ . وَقَالَ اللَّيْثُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامٍ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ . يُقَالُ الْمُشَاطَةُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ إِذَا مُشِطَ ، وَالْمُشَاقَةُ مِنْ مُشَاقَةِ الْكُتَّانِ (٣) .

(١) - أحكام القرآن للجصاص عند الآية (١٠٢) من سورة البقرة ١ / ٤٣ وما بعدها ، وكشاف اصطلاحات

الفنون ٣ / ٦٥٢ ، والجمل على شرح المنهج ٥ / ١٠٠ ، وروضة الطالبين ٩ / ١٢٨ ، ٣٤٦ .
 (٢) - الجمل على شرح المنهج ٥ / ١٠٠ ، وحاشية الشيرازي على نهاية المحتاج ٧ / ٣٧٩ ، وفتح القدير ٤ / ٤٠٨ ، والفروق للقرافي ٤ / ١٤٩ ، الفرق (٢٤٢) ، وروضة الطالبين ٩ / ٣٤٦ ، والمغني ٨ / ١٥٠ .

(٣) - صحيح البخاري (٥٧٦٣ ، ٣١٧٥ ، ٣٢٦٨ ، ٥٧٦٥ ، ٥٧٦٦ ، ٦٠٦٣ ، ٦٣٩١) ومسلم (٥٨٣٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النَّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ قَالَ سُفْيَانٌ وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّحَرِ إِذَا كَانَ كَذَا فَقَالَ يَا عَائِشَةُ أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ مَا بَالُ الرَّجُلِ قَالَ مَطْبُوبٌ قَالَ وَمَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ وَفِيمَ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ قَالَ وَأَيْنَ قَالَ فِي جُفٍّ طُلْعَةٍ ذَكَرْتُ رَاغُوفَةً (١) فِي بئرِ ذُرْوَانَ قَالَتْ فَأَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ فَقَالَ هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا وَكَانَ مَاءُهَا نِقَاعَةً الْحِنَاءِ وَكَأَنَّ نَحْلَهَا رُغُوسُ الشَّيَاطِينِ قَالَ فَاسْتُخْرِجَ قَالَتْ فَقُلْتُ أَفَلَا أَيْ تَنْشُرَتْ فَقَالَ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا (٢) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اسْتَكَيْتَ فَقَالَ « نَعَمْ » . قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ.. (٣) الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

١١ - عَمَلُ السَّحَرِ مُحَرَّمٌ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ ، وَقَدْ نَقَلَ النَّوَوِيُّ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَأَدَلَّةُ تَحْرِيمِهِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا :

أ - قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } (سورة طه / ٦٩) .

ب - قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ } (سورة البقرة / ١٠٢) فَجَعَلَهُ مِنْ تَعْلِيمِ الشَّيَاطِينِ وَقَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : { وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ } فَأَثْبَتَ فِيهِ ضَرَرًا بِلَا نَفْعٍ .

ج - قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ : { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى } (سورة هود / ٧٣) فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ رَغَبُوا إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ السَّحَرَ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ذَنْبٌ .

د - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « اجْتَبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسَّحَرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ » (٤)

(١) - الراعوفة : صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتفرت ، تكون هناك ليجلس عليها المستقي حين تنقية البئر .
 (القاموس / رفع) .

(٢) - صحيح البخاري (٥٣٢٣)

(٣) - صحيح مسلم (٥٨٢٩)

وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شَكْوَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَجَرَ ثُمَّ عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحُسَادِ

مِنَ الْيَهُودِ فِي رُؤُوسِهِمْ وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ وَفَضَحَهُمْ وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بَلْ كَفَى اللَّهُ وَشَفَى وَعَافَى . تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٥٣٦)
وانظر كشاف القناع ٦ / ١٨٦ ، والمغني لابن قدامة ٨ / ١٥١ .

(٤) - صحيح البخارى (٢٧٦٦) وصحيح مسلم (٢٧٢)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ١٩٢)

وَالْمُرَادُ بِالْمُحْصَنَاتِ هُنَا الْعَفَائِفُ ، وَبِالْعَفَائِلَاتِ الْفَوَاحِشُ ، وَمَا قُدِّفْنَ بِهِ . وَقَدْ وَرَدَ الْإِحْصَانُ فِي الشَّرْعِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : الْعِفَّةُ ، وَالْإِسْلَامُ ، وَالنِّكَاحُ ، وَالتَّزْوِيجُ ، وَالْحُرِّيَّةُ . وَقَدْ بَيَّنَّتْ مَوَاطِنُهُ وَشَرَائِطُهُ وَشَوَاهِدُهُ فِي كِتَابِ تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا عَدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ مِنَ الْكِبَائِرِ فَدَلِيلُ صَرِيحِ لِمَذْهَبِ الْعُلَمَاءِ كَافَّةً فِي كَوْنِهِ كَبِيرَةً إِلَّا مَا حُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ . قَالَ : وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا وَرَدَتْ فِي أَهْلِ بَذَرٍ خَاصَّةً . وَالصَّوَابُ مَا قَالَهُ الْجَمَاهِيرُ أَنَّهُ عَامٌّ بَاقٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا عَدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّحْرَ مِنَ الْكِبَائِرِ فَهُوَ دَلِيلٌ لِمَنْهَبِنَا الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ . وَمَذْهَبُ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ السَّحْرَ حَرَامٌ مِنَ الْكِبَائِرِ فَعَلُهُ وَتَعَلَّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ . وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا : إِنَّ تَعَلُّمَهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ ، بَلْ يَجُوزُ لِيُعْرِفَ وَيُرَدِّدَ عَلَى صَاحِبِهِ وَيُمَيِّزَ عَنِ الْكِرَامَةِ لِلْأَوَّلِيَاءِ : وَهَذَا الْقَائِلُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَحْمِلَ الْحَدِيثَ عَلَى فِعْلِ السَّحْرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ٥ / ص ٣١٣)

والسحر عبارة عن عقد ورقي يعني قراءات مطلسمة في صور الشياطين وعفاريت الجن ينفث بها الساحر فيؤذي المسحور بمرض أو موت أو صرف أو عطف صرف يصرفه عن ما يريد عطف يعني يعطفه على ما لا يريد كما قال الله تعالى فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجته وهو من كبائر الذنوب والساحر يجب أن يقتل حدا سواء تاب أو لم يتب وذلك لعظم مضرته على الناس وشدة جرأته والعياذ بالله ولهذا جاء في الحديث حد الساحر ضربه بالسيف وفي رواية ضربه بالسيف ثم إن الساحر منه ما يكون كفرا وهو أن يستعين بالشياطين والجن وهذا كفر لقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة { واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر } وهذا نص صريح بأن الساحر كفر إذا كان متلقيا من الشياطين لأن الشياطين لا يمكن أن تخدم الإنسان إلا بشيء يكون شركا وقد سحر النبي صلى الله عليه وسلم ساحره يهودي خبيث يقال له لبيد بن الأعصم وضع له سحرا في بئر في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر يعني النخلة القحل لجرته جف يسمى الكافور أو الكفرة هذا الخبيث وضع الساحر للرسول صلى الله عليه وسلم في مشط للمشط الذي يمشط به عادة مشاطة يعني ما سقط من الشعر عند المشط فوضعه في هذا البئر لكن لم يؤثر على النبي صلى الله عليه وسلم في أمر يتعلق بالرسالة أبدا لكن صار يخيل إليه أنه أتى أهله أو أنه فعل الشيء ولم يفعله حتى أنزل الله عز وجل سورتي { قل أعوذ برب الفلق } و { قل أعوذ برب الناس } فراقاه بهما جبريل فشفي بإذن الله ثم استخرج الساحر من هذه البئر وفله وأبطله وهذا دليل على خبث اليهود وأنهم من أشد الناس عداوة بل قال الله تعالى : { لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا } فبدأ اليهود قبل المشركين فهم أشد الناس عداوة للمسلمين ولهذا سحروا النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الله والله الحمد أبطل ساحرهم فصار الساحر ينقسم إلى قسمين ساحر كفر وهو

الاستعانة بالأرواح الشيطانية وغير كفر وهو أن يكون بالعقد والأدوية والأخشاب وما أشبه ذلك أما حكم الساحر فإنه يجب أن يقتل بكل حال إن كان كافراً فلردته وإن كان سحره دون الكفر فلاذنبه قال الله تعالى { إنما جزاء الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم } الإشراف بالله والسحر

وَفَرَّقَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بَيْنَ مَا كَانَ مِنَ السَّحْرِ تَمْوِيهَا وَحِيلَةً ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ ، فَقَالُوا : إِنَّ الْأَوَّلَ مُبَاحٌ ؛ أَيِّ لَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ اللَّهْوِ فَيُبَاحُ مَا لَمْ يَتَوَصَّلْ بِهِ إِلَى مُحَرَّمٍ كَالْإِضْرَارِ بِالنَّاسِ وَإِرْهَابِهِمْ . قَالَ الْبُيْهَقِيُّ : أَمَّا مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحِيلِ بِمَعُونَةِ الْأَلَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ ، أَوْ يُرِيهِ صَاحِبُ خِفَةِ الْيَدِ فَغَيْرُ مَذْمُومٍ ، وَتَسْمِيَّتُهُ سِحْرًا عَلَى التَّجَوُّزِ ، أَوْ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّقَّةِ (١) .

كُفِّرَ السَّاحِرُ بِفِعْلِ السَّحْرِ (٢):

١٢ - لِلْفُقَهَاءِ اتِّجَاهَاتٌ فِي تَكْفِيرِ السَّاحِرِ عَلَى التَّحْوِ التَّالِي :

ذَهَبَ الْحَنَفِيُّ وَهُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفَرُ بِفِعْلِهِ سَوَاءً اعْتَقَدَ تَحْرِيمَهُ أَمْ لَا (٣) . ثُمَّ قَالَ الْحَنَابِلَةُ : أَمَّا الَّذِي يَسْحَرُ بِأَدْوِيَةٍ وَتَدَخُّلٍ وَسَقْيٍ شَيْءٍ فَلَيْسَ كَافِرًا ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يَعِزُّ عَلَى الْجِنِّ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَجْمَعُهَا فَتَطِيعُهُ (٤) .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيُّ إِلَى تَكْفِيرِ السَّاحِرِ بِفِعْلِ السَّحْرِ إِنْ كَانَ سِحْرُهُ مُشْتَبِلًا عَلَى كُفْرٍ ، أَوْ كَانَ سِحْرُهُ مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَتَبَتَ ذَلِكَ بَيِّنَةً (٥) . وَأَضَافَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ إِلَى حَالَةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ حَالَةَ تَحْيِيْبِ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى (الْوَلَّةُ) (٦) .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَهُوَ مَا اخْتَارَهُ ابْنُ الْهَمَامِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِالسَّحْرِ حَرَامٌ وَلَيْسَ بِكُفْرٍ مِنْ حَيْثُ الْأَصْلُ ، وَأَنَّ السَّاحِرَ لَا يَكْفَرُ إِلَّا فِي حَالَتَيْنِ هُمَا : أَنْ يَعْتَقِدَ مَا هُوَ كُفْرٌ ، أَوْ أَنْ يَعْتَقِدَ إِبَاحَةَ السَّحْرِ (٧) . وَأَضَافَ ابْنُ الْهَمَامِ حَالَةَ ثَالِثَةً هِيَ مَا إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَفْعَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ (٨) .

حُكْمُ تَعْلَمِ السَّحْرِ وَتَعْلِيمِهِ :

١٣ - اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِ تَعْلَمِ السَّحْرِ دُونَ الْعَمَلِ بِهِ .

(١) - روضة الطالبين ٩ / ٣٤٦ ، ومطالب أولي النهى ٦ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣ /

٦٤٨ ، وتفسير البيضاوي ١ / ١٧٥ القاهرة المكتبة التجارية عند الآية ٥١ من سورة البقرة .

(٢) - فتح الباري لابن حجر - (ج ١٦ / ص ٢٩٥-٣٠٢) وفتاوى الإسلام سؤال وجواب - (ج ١ / ص

٥٧١٤) - سؤال رقم ٦٩٩١٤ - هل تُقبل توبة الساحر؟ وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٦٣٤)

- رقم الفتوى ٢٠٥٩٥ طعام الساحر .. يؤكل أم يُرمى ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج ٢ / ص ١٤٤)

ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج ٩ / ص ٤١٥) وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء - (ج

١ / ص ٤٧٧) والفقهاء على المذاهب الأربعة - (ج ٥ / ص ٢٢٥)

(٣) - حاشية رد المحتار - (ج ٤ / ص ٤٢٦) وفتح القدير - (ج ١٣ / ص ٢٩٧) ورد المختار - (ج ١٦ / ص

٣٠٥)

(٤) - الشرح الكبير لابن قدامة - (ج ١٠ / ص ١١٦) والإنصاف - (ج ١٦ / ص ١١٨) وشرح منتهى

- الإرادات - (ج ١١ / ص ٣٣٤) وكشاف القناع عن متن الإقناع - (ج ٢١ / ص ١٧٤) والمبدع شرح المقنع - (ج ٩ / ص ٤٤٠) وكشف المخدرات والرياض الزاهرات لشرح أخصر المختصرات - (ج ٢ / ص ٢٩) والإقناع - (ج ٤ / ص ٣٠٧)
- (٥) - الذخيرة في الفقه المالكي للقرافي - (ج ١٠ / ص ٤٢٢) و الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني - (ج ١ / ص ٢٣١)
- (٦) - أحكام القرآن لابن العربي - (ج ١ / ص ٥٣)
- (٧) - فتح الباري لابن حجر - (ج ١٦ / ص ٢٩٥) والحاوي في فقه الشافعي - الماوردي - (ج ١٣ / ص ٩٦)
- (٨) - الفقه على المذاهب الأربعة - (ج ٥ / ص ٢٢٥) وحاشية رد المختار - (ج ٤ / ص ٤٢٦) وفتح القدير - (ج ١٣ / ص ٢٩٧) ورد المختار - (ج ١٦ / ص ٣٠٥)

فَدَهَبَ جُمهُورُ الْفُقَهَاءِ (الْحَنْفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ) إِلَى أَنَّ تَعْلَمَ السَّحْرَ حَرَامٌ وَكُفْرٌ (١)، وَمِنْ الْحَنْفِيَّةِ مَنْ اسْتَشْنَى أَحْوَالًا . فَتَقَالَ ابْنُ عَبْدِ بْنِ عَنْ ذَخِيرَةِ النَّاطِرِ أَنَّ تَعْلَمَهُ لِرَدِّ فِعْلٍ سَاحِرٍ أَهْلُ الْحَرْبِ فَرَضٌ ، وَأَنَّ تَعْلَمَهُ لِيُوفَّقَ بَيْنَ زَوْجَيْنِ جَانِزٍ ، وَرَدَّهُ بَعْضُ الْحَنْفِيَّةِ بِأَنَّهُ وَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ : « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَاتِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ » . قَالَتْ قُلْتُ لِمَ تَقُولُ هَذَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْدِفُ وَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِيهِ فَإِذَا رَقَانِي سَكَتَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّمَا ذَاكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَخْسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ : « أَذْهَبَ الْبَاسُ رَبَّ النَّاسِ أَشْفَى أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا » . (٢)

وَالْتَوَلَةَ شَيْءٌ كَانُوا يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا .

وَاسْتَدَلَّ الطَّرُوشِيُّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } (سورة البقرة / ١٠٢) أَيِ تَعْلَمِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ } (سورة البقرة / ١٠٢) وَلَا أَنَّهُ لَا يَتَأْتَى إِلَّا مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَادِرٌ بِهِ عَلَى تَغْيِيرِ الْأَجْسَامِ ، وَالْجَزْمُ بِذَلِكَ كُفْرٌ . قَالَ الْقَرَأِيُّ : أَيِ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ ظَاهِرًا ؛ وَلَئِنْ تَعْلَمَهُ لَا يَتَأْتَى إِلَّا بِمُبَاشَرَتِهِ ، كَأَن يَتَقَرَّبَ إِلَى الْكُوكَبِ وَيَخْضَعُ لَهُ ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ قَهْرَ السُّلْطَانِ .

ثُمَّ فَرَّقَ الْقَرَأِيُّ بَيْنَ مَنْ يَتَعْلَمُ السَّحْرَ بِمُجَرَّدِ مَعْرِفَتِهِ لِمَا يَصْنَعُ السَّحْرَةُ كَأَن يَقْرَأَهُ فِي كِتَابٍ ، وَبَيْنَ أَنْ يُبَاشِرَ فِعْلَ السَّحْرِ لِيَتَعْلَمَهُ فَلَا يَكْفُرُ بِالنَّوْعِ الْأَوَّلِ ، وَيَكْفُرُ بِالثَّانِي حَيْثُ كَانَ الْفِعْلُ مُكْفَّرًا (٣) .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : تَعْلِيمُهُ حَرَامٌ ، إِلَّا إِنْ كَانَ لِتَحْصِيلِ نَفْعٍ ، أَوْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ ، أَوْ لِلْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَتِهِ (٤) .

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : الْعِلْمُ بِالسَّحْرِ لَيْسَ بِقَبِيحٍ وَلَا مَحْظُورٍ ، قَالَ : وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُحَقِّقُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ لِذَاتِهِ شَرِيفٌ ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (سورة الزمر / ٩) وَلَئِنَّ السَّحْرَ لَوْ لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ كَمَا أَمَكَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْجَزِ ، وَالْعِلْمُ بِكَوْنِ الْمُعْجَزِ مُعْجَزًا وَاجِبٌ ، وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْوَاجِبُ فَهُوَ وَاجِبٌ . قَالَ : فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ بِالسَّحْرِ وَاجِبًا فَكَيْفَ يَكُونُ قَبِيحًا أَوْ حَرَامًا ؟ (٥) .

التَّشْرُة ، أَوْ حَلِ السَّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ :

١٤ - يُحَلُّ السَّحْرُ عَنِ الْمَسْحُورِ بِطَرِيقَتَيْنِ :

(١) - فتح الباري لابن حجر - (ج ١٦ / ص ٢٩٥) ونيل الأوطار - (ج ١١ / ص ٤١٢) ونيل الأوطار - (ج ١١ / ص ٤٢٧) والفقهاء على المذاهب الأربعة - (ج ٥ / ص ١٤٧) والفقهاء على المذاهب الأربعة - (ج ٥ / ص ٢٢٥) وحاشية رد المحتار - (ج ٤ / ص ٤٢٦) وفتح القدير - (ج ١٣ / ص ٢٩٦) ورد المختار - (ج ١٦ / ص ٣٠٥) وشرح مختصر خليل للخرشي - (ج ٢٢ / ص ٤٢٦) وروضة الطالبين وعمدة المفتين - (ج ٣ / ص ٣٥٥) وشرح البهجة الوردية - (ج ١٧ / ص ٣٤١) وشرح البهجة الوردية - (ج ١٧ / ص ٣٥٠) وتحفة المحتاج في شرح المنهاج - (ج ٣٩ / ص ٢٣٨) ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج - (ج ١٥ / ص ٣٥٩) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج - (ج ٢٦ / ص ٢٨٠) وحاشية البجيرمي على الخطيب - (ج ١٢ / ص ٣٥١)

(٢) - سنن أبي داود (٣٨٨٥) صحيح

التولة : نوع من السحر يجب المرأة إلى زوجها

(٣) - فتح القدير ٤ / ٤٠٨ ، وابن عابدين ١ / ٣١ ، وكشاف القناع ٦ / ١٨٦ ، والفروق للقرافي ٤ /

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، الفرق ٢٤٢ .

(٤) - القليوبي على شرح المنهاج ٤ / ١٦٩ .

(٥) - تفسير الرازي ٣ / ٢٣٨

الأولى : أن يحل بالرقى المباحة والتعوذ المشروع ، كالفاتحة والمعوذتين والاستعاذات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو غير المأثورة ولكنها من جنس المأثور ، فهذا النوع جائز إجماعاً . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سحر ، استخرج المشتط والمشاطة اللتين سحر بهما ، ثم كان يقرأ بالمعوذتين ، فشفاه الله تعالى (١) .

الثانية : أن يحل السحر بسحر مثله . وهذا النوع اختلف فيه على قولين :

الأول - أنه حرام لا يجوز ؛ لأنه سحر وتطبق عليه أدلة تحريم السحر المتقدم بيانها . وهذا منقول عن ابن مسعود والحسن وابن سيرين وإليه ذهب ابن القيم . وتوقف فيه أحمد . وروي عن الحسن : لا يحل السحر إلا سحر ، وروي عن محمد بن سيرين أنه سئل عن امرأة يعذبها السحرة ، فقال رجل : أخط خطاً عليها وأغرر السكين عند مجمع الخط وأقرأ القرآن . فقال محمد : ما أعلم بقراءة القرآن بأساً ، ولا أدري ما الخط والسكين . وقال ابن القيم : حل السحر بسحر مثله من عمل الشيطان ، فيتقرب الناشر والمتشبر إلى الشيطان بما يجب فيبطل العمل عن المسحور .

القول الثاني - أن حل السحر بسحر لا كفر فيه ولا معصية جائز ، فقد نقل البخاري عن قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب ، أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه ، أو ينشر ؟ قال : لا بأس ، إنما يريدون به الإصلاح ، فإن ما ينفع لم يئنه عنه .

والقولان أيضاً عند المالكية والحنابلة . قال الرحياني : يجوز حل السحر بسحر لأجل الضرورة ، وهو المذهب ، وقال في المغني : توقف أحمد في الحل ، وهو إلى الجواز أميل (٢) .

عقوبة الساحر (٣) :

١٥ - ذهب الحنفية إلى أن الساحر يقتل في حالين : الأول أن يكون سحره كفراً ، والثاني إذا عرفت مزاوئته للسحر بما فيه إضرار وإفساد ولو بغير كفر .

ونقل ابن عابدين أن أبا حنيفة قال : الساحر إذا أقر بسحره أو ثبت عليه بالينة يقتل ولا يستتاب ، والمسلم

وَالذَّمِّيُّ فِي هَذَا سَوَاءٌ ، وَقِيلَ : لَا يُقْتَلُ إِنْ كَانَ ذِمِّيًّا .

وَيُفْهِمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْهَمَامِ أَنَّ قَتْلَهُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْزِيرِ ، لَا بِمُجَرَّدِ فِعْلِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي اعْتِقَادِهِ مَا يُوجِبُ كُفْرَهُ ، وَقَالَ ابْنُ عَابِدِينَ : يَجِبُ قَتْلُ السَّاحِرِ وَلَا يُسْتَتَابُ ، وَذَلِكَ لِسَعْيِهِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ لَا بِمُجَرَّدِ عَمَلِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي اعْتِقَادِهِ مَا يُوجِبُ كُفْرَهُ ، لَكِنْ إِنْ جَاءَ تَائِبًا قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ قُبِلَتْ (٤) .

(١) - ومما يدفع السحر: التوكل على الله ودعاؤه والتحصن بالقرآن الكريم وأنواع الذكر الثابتة وكمال التوحيد والحذر من الوقوع في شرك الأشرار والفجار ومجانبة المفسدين الظالمين. قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [البقرة: ٢٠٨].

(٢) - المغني ٨ / ١٥٤ ، ومطالب أولي النهى ٦ / ٣٠٥ ، وفتح المجيد ص ٣٠٤ ، وتيسير العزيز الحميد ص ٣٦٦ ، ومواهب الجليل للحطاب ٦ / ٢٥٦ ، وفتح الباري ١٠ / ٢٣٦ .

(٣) - أحكام القرآن للجصاص - (ج ١ / ص ١٢٠-١٢٩) وشرح الطحاوية في العقيدة السلفية - (ج ٣ / ص ٢٤١) ومجموع الفتاوى - (ج ٢٨ / ص ٣٤٦) ومجموع الفتاوى - (ج ٢٩ / ص ٣٨٤) ونيل الأوطار - (ج ١١ / ص ٤١٣-٤٢٠) والروضة الندية - (ج ٢ / ص ٨٣) والسييل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار - الرقمية - (ج ١ / ص ٨٦٩) والفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني - (ج ٧ / ص ١٣٤) وقيل الساحر لحماية الناس من ضرره وشره وللوقاية من كثرة مفسده ولاقتلاع جنور الشرك بالله تعالى من اجتماع المسلم وللحفاظ على صفاء عقائد المسلمين وعقولهم وأموالهم ودرء المفساد عن المسلمين، والإسلام وحده هو الذي يرمى كل خير ويحارب كل شر.

فقتل الساحر والساحرة هو الصحيح من قولي أهل العلم حتى وإن أظهر التوبة، لأن الصحابة لم يستتيبوا السحرة الذين قُتلوا، ولأن الغالب على الساحر الكذب فلا يصدق في توبته، فإن كان صادقاً في نيته وقصده نفعته التوبة عند الله عز وجل ولكن لا تدفع عنه حد القتل لأنه مفسد شرير، خبيث السيرة والسريرة.

(٤) - فتح القدير ٤ / ٤٠٨ ، وابن عابدين ١ / ٣١ و ٣ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى قَتْلِ السَّاحِرِ ، لَكِنْ قَالُوا : إِنَّمَا يُقْتَلُ إِذَا حُكِمَ بِكُفْرِهِ ، وَثَبَّتَ عَلَيْهِ بِالْبَيِّنَةِ لَدَى الْإِمَامِ ، فَإِنْ كَانَ مُتَجَاهِرًا بِهِ قُتِلَ وَمَالُهُ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ ، وَإِنْ كَانَ يُخْفِيهِ فَهُوَ كَالزَّانِي يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ (١) ، وَاسْتَشَى الْمَالِكِيَّةُ - أَيْضًا - السَّاحِرَ الذَّمِّيَّ ، فَقَالُوا : لَا يُقْتَلُ ، بَلْ يُؤَذَّبُ . لَكِنْ قَالُوا : إِنْ أَذْخَلَ السَّاحِرُ الذَّمِّيُّ ضَرَرًا عَلَى مُسْلِمٍ فَيَتَحَمُّ قَتْلُهُ ، وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَةٌ غَيْرَ الْإِسْلَامِ ، نَقَلَهُ الْبَاجِي عَنْ مَالِكٍ . لَكِنْ قَالَ الزَّرْقَانِيُّ : الَّذِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ انْتِقَاضَ عَهْدِهِ ، فَيُخَيَّرُ الْإِمَامُ فِيهِ .

أَمَّا إِنْ أَذْخَلَ السَّاحِرُ الذَّمِّيُّ ضَرَرًا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِ فَإِنَّهُ يُؤَذَّبُ مَا لَمْ يَقْتُلْهُ ، فَإِنْ قَتَلَهُ قُتِلَ بِهِ (٢) .

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ : إِنْ كَانَ سِحْرُ السَّاحِرِ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ مَا يَكْفُرُ بِهِ ، فَهُوَ فَسَقٌ لَا يُقْتَلُ بِهِ مَا لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا وَيُثَبِّتُ تَعَمُّدُهُ لِلْقَتْلِ بِهِ بِإِفْرَارِهِ (٣) .

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ السَّاحِرَ يُقْتَلُ حَدًّا وَلَوْ لَمْ يَقْتُلْ بِسِحْرِهِ أَحَدًا ، لَكِنْ لَا يُقْتَلُ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ :

الأول : أَنْ يَكُونَ سِحْرُهُ مِمَّا يُحْكَمُ بِكَوْنِهِ كُفْرًا مِثْلَ فِعْلِ لَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ ، أَوْ يَعْتَقِدُ إِبَاحَةَ السَّحْرِ ، بِخِلَافِ مَا لَا يُحْكَمُ بِكَوْنِهِ كُفْرًا ، كَمَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَجْمَعُ الْجِنَّ فَيُطَيِّعُهُ ، أَوْ يَسْحَرُ بِأَدْوِيَةٍ وَتَدَخِينٍ ، وَسَقَى شَيْءٍ لَا يَضُرُّ .

الثاني : أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا ، فَإِنْ كَانَ ذِمِّيًّا لَمْ يُقْتَلْ ؛ لِأَنَّهُ أَفْرَ عَلَى شِرْكِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ السَّحْرِ ، وَلِأَنَّ لَبِيدَ بْنَ

الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقتله ، قالوا : والأخبار التي وردت بقتل الساحر إنما وردت في ساحر المسلمين لأنه يحضر بسحره .
والذمي كافر أصلي فلا يقتل به ، لكن إن قتل بسحر يقتل غالباً ، قتل قصاصاً .
وشرط آخر أضافه صاحب المغني : وهو أن يعمل بالسحر ، إذ لا يقتل بمجرد العلم به .
ثم قال بعضهم : ويعاقب بالقتل أيضاً من يعتقد حل السحر من المسلمين ، فيقتل كُفراً ؛ لأنه يكون بذلك قد أنكر مجتمعا عليه معلوماً من الدين بالضرورة .
واحسبوا لقتل الساحر بما روى عن جندب قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « حد الساحر ضربة بالسيف » (٤) .

وبما ورد عن عمرو بن دينار أنه سمع بحالة يحدث عمرو بن أوس وأبا الشعثاء ، قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية : فأتانا كتاب عمر أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ، وأنهم ، عن الزمزمة فقتلنا ثلاث سواجر ، وجعلنا نفرق بين المرء وبين حريمه في كتاب الله (٥) .
وبأن حفصة أمرت بقتل ساحرة سحرته . وأن معاوية كتب إلى عامله قبل موته بسنة : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، وقتل جندب بن كعب ساحراً كان يسحر بين يدي الوليد بن أبي عقبة (٦) .
حكم الساحر إذا قتل بسحره :

١٦ - ذهب الجمهور خلافاً للحنفية إلى أن القتل بالسحر يمكن أن يكون عمداً ، وفيه القصاص . ويثبت ذلك عند المالكية بالبيينة أو الإقرار .
وذهب الشافعية إلى أن الساحر إن قتل بسحره من هو مكافئ له ففيه القصاص إن تعمّد قتله به ، وذلك بأن يثبت ذلك بإقرار الساحر به حقيقة أو حكماً ، كقوله : قتلته بسحري ، أو قوله : قتلته بنوع كذا ، ويشهد عدلان يعرفان ذلك ، وقد كانا تاباً ، بأن ذلك النوع يقتل غالباً . فإن كان لا يقتل غالباً فيكون شبه عمداً . فإن قال : أخطأت من اسم غيره إلى اسمه فخطأ .

(١) - الزرقاني ٨ / ٦٣ .

(٢) - الزرقاني ٨ / ٦٨ .

(٣) - تفسير الرازي ٣ / ٢٣٩ ، وروضة الطالبين ٩ / ٣٤٧ .

(٤) - سنن الترمذي (١٥٣٢) والصواب وقفه وإرساله

(٥) - مسند أحمد (١٦٧٩) ومصنف ابن أبي شيبة (٢٣٥) - (ج ١٠ / ص ١٣٦) (٢٩٥٨٥) ومصنف ابن أبي

شيبة (٢٣٥) - (ج ١٢ / ص ٢٤٤) (٣٣٣٢٠) وهو صحيح

(٦) - كشف القناع ٦ / ١٨٧ ، والمغني ٨ / ١٥٣ ، ١٥٤ ، وتيسير العزيز الحميد ص ٣٤٢ ، ومطالب أولي

النهى ٦ / ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

ولا يثبت القتل العمد بالسحر بالبيينة عند الشافعية لعذر مشاهدة الشهود قصد الساحر وتأثير سحره (١) .
قال المالكية والشافعية : يستوفى القصاص ممن قتل بسحره بالسيف ولا يستوفى بسحر مثله ، أي لأن السحر محرم ؛ ولعدم انضباطه (٢) .
وصرح المالكية بأن النمي إن قتل بسحره أحداً من أهل ملته فإنه يقتل به .

تَعْرِيرُ السَّاحِرِ الَّذِي لَمْ يَسْتَحِقَّ الْقَتْلَ :

١٧ - صَرَحَ الشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّ السَّاحِرَ غَيْرُ الْمُسْتَحَقِّ لِلْقَتْلِ ، بَأَن لَمْ يَكُنْ سِحْرُهُ كُفْرًا وَلَمْ يَقْتُلْ بِسِحْرِهِ أَحَدًا ، إِذَا عَمِلَ بِسِحْرِهِ يُعَزَّرُ تَعْرِيرًا بَلِيغًا لِيُنْكَفَ هُوَ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ عَمَلِهِ ، وَلَكِنْ بَحِثْ لَا يَبْلُغُ تَعْرِيرُهُ الْقَتْلَ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْمَذْهَبِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ لِارْتِكَابِهِ مَعْصِيَةٍ . وَفِي قَوْلِ لِلْإِمَامِ : تَعْرِيرُهُ بِالْقَتْلِ (٣) .

الإِجَارَةُ عَلَى فِعْلِ السَّحَرِ أَوْ تَعْلِيمِهِ :

١٨ - اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِجَارَ لِعَمَلِ السَّحَرِ لَا يَحِلُّ إِنْ كَانَ ذَلِكَ النَّوعُ مِنَ السَّحَرِ حَرَامًا - عَلَى الْخِلَافِ الْمُسَقَّدِ بَيْنَهُمْ فِي حُكْمِهِ - وَلَا تَصِحُّ الْإِجَارَةُ ، وَلَا تَحِلُّ إِعْطَاءُ الْأَجْرَةِ ، وَلَا يَحِلُّ لَأَخِذِهَا أَخْذُهَا ،

وَاخْتَلَفُوا فِي بَعْضِ التَّفْصِيلَاتِ :

فَدَهَبَ الْحَنَفِيُّ وَالْمَالِكِيُّ إِلَى أَنَّ مَنْ اسْتَأْجَرَ سَاحِرًا لِيَعْمَلَ لَهُ عَمَلًا هُوَ سِحْرٌ فَإِجَارَةُ حَرَامٌ وَلَا تَصِحُّ ، وَلَا يَقْتُلُ الْمُسْتَأْجِرُ لِأَنَّهُ فَعَلَهُ ذَلِكَ لَيْسَ بِسِحْرٍ ، حَتَّى لَوْ قَتَلَ السَّاحِرُ بِسِحْرِهِ ذَلِكَ أَحَدًا ، وَيُؤَدَّبُ الْمُسْتَأْجِرُ أَدَبًا شَدِيدًا ، وَاسْتَشْنَى الْحَنَفِيُّ وَالْمَالِكِيُّ مَنْ يَسْتَأْجِرُ لِحَلِّ السَّحَرِ عَنِ الْمُسْحُورِ ، فَأَجَازُوا ذَلِكَ - أَيَّ عَلَى الْقَوْلِ بِجَوَازِ حَلِّ السَّحَرِ - لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْعِلَاجِ (٤) ، وَكَذَا أَجَازَ الشَّافِعِيُّ الْإِجَارَةَ عَلَى إِزَالَةِ السَّحَرِ نَحْوَ مَا يَحْصُلُ لِلزَّوْجِ مِنَ الْإِثْلَاجِ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْعَامَّةِ بِالرَّبْطِ . قَالُوا : وَالْأَجْرَةُ عَلَى مَنْ التَزَمَ الْعَوَضُ ، سَوَاءً كَانَ هُوَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ أَجْنَبِيًّا (٥) .

وَصَرَحَ الشَّافِعِيُّ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْإِسْتِجَارُ لِتَعْلِيمِ السَّحَرِ وَلَا تُسْتَحَقُّ عَلَى تَعْلِيمِ السَّحَرِ أَجْرَةٌ (٦) ، وَلَا يَصِحُّ بَيْعُ كُتُبِ السَّحَرِ وَيَجِبُ إِثْلَافُهَا (٧) .

وَقَالَ الْحَنَابِلَةُ : لَا تَصِحُّ الْإِجَارَةُ عَلَى السَّحَرِ إِنْ كَانَ مُحَرَّمًا ، أَمَّا إِذَا كَانَ مُبَاحًا فَلَا مَانِعَ مِنَ الْإِسْتِجَارِ عَلَيْهِ ، كَتَعْلِيمِ رُقَى عَرَبِيَّةٍ لِيَحِلَّ بِهَا السَّحَرُ (٨) . وَلَا تَصِحُّ الْوَصِيَّةُ بِكُتُبِ سِحَرٍ لِأَنَّهَا إِعَانَةٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا ضَمَانٌ عَلَى مَنْ أَثْلَفَ آلَةَ سِحَرٍ (٩) . .

١٩ - الفرق بين السحر والكرامة

هناك أناس التبس عليهم حال السحرة الكذابين والمشعوذين فتحيروا فيما يصدر من السحرة من خوارق العادات كالطيران في الهواء والمشي على الماء وقطع المسافة الطويلة في زمن قصير والإخبار عن الغيب فيقع الخبر كذلك ، وشفاء المرضى فيظن هؤلاء الجهال أن هذا الساحر من أولياء الله وقد يؤول الأمر إلى أن يعبد من دون الله ويرجى منه النفع والضرر والعياذ بالله، فظن بعض الناس أن خوارق العادات التي تجري من السحرة والعرافين كرامات من الله فالتبس عند الجهال حال أولياء الرحمن بحال أولياء الشيطان.

والشرع فرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فأولياء الله عز وجل هم الحافظون لحدود الله المتمسكون بشرعه ظاهراً وباطناً، الممتثلون لأوامر الله المجتنبون لنواهيه، الحافظون على صلاة الجماعة قال الله تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢-٦٣] .

(١) - نهاية المحتاج ٣٧٩ / ٧ ، ٣٨٠ ، والقليوبي ١٧٩ / ٤ ، وروضة الطالبين ٣٤٧ / ٩ ، والزرقي ٢٩ / ٨

(٢) - نهاية المحتاج ٢٩٠ / ٧ ، والقليوبي وشرح المهاج ١٢٤ / ٤ ، ومواهب الجليل للحطاب ٢٥٦ / ٦ ، والزرقي ٢٩ / ٨ .

- (٣) - مطالب أولي النهى ٦ / ٣٠٤ ، ومغني المحتاج ٢ / ١٨٣ .
- (٤) - الزرقاني ٨ / ٦٣ ، والمواق بملمش مواهب الجليل ٦ / ٢٨٠ ، وابن عابدين ٥ / ٥٧ .
- (٥) - الشيرازي على نهاية المحتاج ٥ / ٢٦٨ و تحفة المحتاج في شرح المنهاج - (ج ٢٤ / ص ٢٩٨) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج - (ج ١٧ / ص ٢٦٥) وحاشية البجيرمي على المنهاج - (ج ١٠ / ص ١٧٣)
- (٦) - حاشية القليوبي على المنهاج ٣ / ٧٠ .
- (٧) - حاشية الشيخ عميرة على شرح المنهاج ٢ / ١٥٨ .
- (٨) - مطالب أولي النهى ٣ / ٦٠٤ .
- (٩) - مطالب أولي النهى ٤ / ٩٨ ، ٤٨٣ .

وليس من شرط الولاية لله تعالى أن يكون للولي كرامة بخرق العادات فإن أعظم الكرامة هي الاستقامة، وأما أولياء الشيطان فيظهر منهم خوارق عادات يظنها الجهال كرامات، وهي في الحقيقة أحوال شيطانية تخدمهم فيها الشياطين ليضلوا بها المفتونين، فلا تغتر بمن دخل النار وخرج سالماً أو طار في الهواء أو مشى على الماء أو أمسك بالثعابين، بل انظر إلى تمسكهم بالشرع تجدهم لا يحضرون جمعة ولا جماعة ولا يسمعون القرآن بل يسمعون أغاني الزور ويعشون الفجور أو لئلك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون [المجادلة: ١٩] . واعتبر ذلك بالدجال الأكبر الذي يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض انبجي فتنبت، ويحيي الموتى بإذن الله، وهو أخطر خلق الله.

٢٠ - الكهان والعرافون والمنجمون

ومن يدخل في ذم السحرة: الكهان والعرافون والمنجمون والذين يخطون في الرمل، وكل هؤلاء يدعون علم الغيب، وهم كفرة خارجون عن الإسلام بادعائهم الغيب. قال الله تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ [النمل: ٦٥]. ومن صدقهم في دعواهم فهو كافر بالله مشرك. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ وَمَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي ذُبْرِهَا وَمَنْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-» (١) ..

٢١ - الوقاية من السحر

إن الوقاية من السحر هو:

بكمال التوحيد والتوكل على الله تعالى، قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: ٣].
والوقاية من السحر بالدعاء والاستعاذة منه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَاجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ." (٢)

ومن الوقاية من السحر التحصن بتلاوة القرآن وأنواع الذكر الصحيحة صباحاً ومساءً عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ يَقُولُ حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ ». قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَّغَنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ السَّحْرَةُ (٣). يعني السحرة لا يقدررون على ضرر من قرأها وحفظها.

ومن الوقاية من السحر تحريق كتبه، وقتل الإمام للسحرة ورفع أمرهم إلى السلطان لكف شرهم وعظيم ضررهم

عن الناس، وإذا وقع السحر بأحد فعلاجه بإحراق مادته التي انعقد بها السحر إذا عُثر عليها وعُلمت، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ -قَالَتْ- حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَنَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي. فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلِي أَوْ الَّذِي عِنْدَ رِجْلِي لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي مَا وَجَعَ الرَّجُلُ قَالَ مَطْبُوبٌ. قَالَ مَنْ طَبَّهُ قَالَ لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ. قَالَ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قَالَ وَجِبَّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ. قَالَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ فِي بئرِ ذِي أَرْوَانَ». قَالَتْ فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ وَاللَّهِ لَكَ أَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةٌ الْحِنَاءِ وَلَكَ أَنَّ نَخْلَهَا رُيُوسُ الشَّيَاطِينِ». قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ قَالَ: «لَا أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ». (٤)

(١) - السنن الكبرى للسيهقي (ج ٧ / ص ١٩٨) (١٤٥٠٤) وصحيح الجامع (٥٩٤٢) وهو حديث صحيح

(٢) - المستدرک للحاکم (١٨١٣) وصحيح الجامع (٧٧٣٩) والدعاطب (٣٣) حسن

(٣) - صحيح مسلم (١٩١٠)

البطلة : السحرة = الصواف : جمع صاففة وهي الباسطة أجنتها في الهواء = الغيبتان : مثني غياية وهي السحابة = الفرقان : الجماعتان

(٤) - صحيح مسلم (٥٨٣٢) . الجُب : وعاء طلع النخل = المطبوب : المسحور = المشاطة : ما يسقط من

الشعر عند تسريحه = النقاعة : الماء الذي توضع فيه الحناء والمراد أنه متغير اللون

وعلاج السحر بدوام الدعاء بالعافية منه عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- طَبَّ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ قَدْ صَنَعَ الشَّيْءَ وَمَا صَنَعَهُ ، وَإِنَّهُ دَعَا رَبَّهُ ثُمَّ قَالَ « أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَنَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ». (١)

وسحر النبي صلى الله عليه وسلم نوع من المرض لا يقدر في عصمته وتبليغه، ولم يتسلط على عقله، ولكنه نوع من الأذى من الجن كما أودى من الإنس فأظهره الله على أعدائه من الجن والإنس وعافاه ونصره وعافاه من هذا المرض، والله تبارك وتعالى جعل هذا ليكون فعل الرسول تشريعاً، وزيادة في رفعة النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم أجره.

ومما يعالج به السحر مداومة قراءة الفاتحة والمعوذات وقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [الإخلاص: ١] . وآية الكرسي، فإنها تضعف سلطانه حتى يضمحل، وسواء قرأ المسحور على نفسه أو قرأ عليه أحد الصالحين.

ولا يجوز أن يحل السحر بسحر مثله لأن الله لم يجعل شفاء الأمة فيما حُرِّمَ عليها، ويجوز أن يتداوى المسحور من السحر بالعقاقير المباحة من الأعشاب ونحوها. (٢)

الإِلَهَامُ (٣)

التَّعْرِيفُ :

١ - الإِلَهَامُ لُغَةً : مَصْدَرُ أَلْهَمَ ، يُقَالُ : أَلْهَمَهُ اللَّهُ خَيْرًا أَيْ لَقَّنَهُ إِيَّاهُ ، وَالْإِلَهَامُ أَنْ يُلْقِيَ اللَّهُ فِي النَّفْسِ أَمْرًا يَبْعَثُ

عَلَى الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْوَحْيِ يَخُصُّ اللَّهَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . (٤)
وَعِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ : إِيقَاعُ شَيْءٍ فِي الْقَلْبِ يَطْمِئِنُّ لَهُ الصَّدْرُ يَخُصُّ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ (٥) .
وَقَدْ عَدَّ الْأُصُولِيُّونَ الْإِلْهَامَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَفِي كِتَابِ التَّقْرِيرِ وَالتَّحْبِيرِ عَنِ الْإِلْهَامِ مِنَ اللَّهِ
لِرَسُولِهِ : أَنَّهُ إِلْقَاءُ مَعْنَى فِي الْقَلْبِ بِلَا وَاسِطَةٍ عِبَارَةَ الْمَلِكِ وَإِشَارَتَهُ مَقْرُونٌ بِخَلْقِ عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ أَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى
مِنْهُ تَعَالَى (٦) .

الْأَلْفَاظُ ذَاتُ الصَّلَةِ :

أ - الْوَسْوسَةُ :

٢ - الْوَسْوسَةُ : إِلْقَاءُ مَعْنَى فِي النَّفْسِ بِمُبَاشَرَةٍ سَبَبِ نَشَأٍ مِنَ الشَّيْطَانِ لَهُ (٧) .

ب - التَّحَرِّي :

٣ - التَّحَرِّي فِيهِ بَذَلُ جَهْدٍ وَإِعْمَالُ فِكْرٍ ، أَمَّا الْإِلْهَامُ فَيَقَعُ بِلَا كَسْبٍ (٨) .

الْحُكْمُ الْإِجْمَالِيُّ وَمَوَاطِنُ الْبَحْثِ :

٤ - يَتَّفِقُ الْأُصُولِيُّونَ عَلَى أَنَّ الْإِلْهَامَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ حَقٌّ ، وَهُوَ بِالنَّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّةٌ
فِي حَقِّهِ ، كَذَلِكَ هُوَ فِي حَقِّ أُمَّتِهِ ، وَيَكْفُرُ مُنْكَرُ حَقِيقَتِهِ ، وَيَفْسُقُ تَارِكُ الْعَمَلِ بِهِ كَالْقُرْآنِ (٩) .
أَمَّا الْإِلْهَامُ غَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ مَعْصُومًا لَا ثِقَةَ بِخَوَاطِرِهِ لِأَنَّهُ لَا يَأْمَنُ مِنْ
دَسِيسَةِ الشَّيْطَانِ فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ ، وَلَا عِبْرَةَ بِمَا قَالَه قَوْمٌ مِنْ
الصُّوفِيَّةِ بِأَنَّهُ حُجَّةٌ فِي الْأَحْكَامِ .

وَقِيلَ : هُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْمُتْلِمِ لَا عَلَى غَيْرِهِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعَارِضٌ مِنْ نَصٍّ أَوْ اجْتِهَادٍ أَوْ خَاطِرٍ آخَرَ ، وَهَذَا ذَكَرَهُ
غَيْرُ وَاحِدٍ ، فَيَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ فِي حَقِّ الْمُتْلِمِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ إِلَيْهِ .

وَاعْتَمَدَهُ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي أدِلَّةِ الْقِبْلَةِ ، وَابْنُ الصَّبَّاحِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ (١٠) .

وَهَلْ هُوَ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْوَحْيِ الظَّاهِرِ أَمْ الْوَحْيِ الْبَاطِنِ ؟ خِلَافٌ بَيْنَ الْأُصُولِيِّينَ (١١) .

(١) - صحيح البخارى (٦٣٩١)

(٢) - انظر موسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ١٦٥٤) - علي بن عبد الرحمن الحذيفي - المدينة المنورة -

١٤٢١/١٢/٢٨

(٣) - الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٦ / ص ١٨٨) فما بعد

(٤) - لسان العرب ، كشاف اصطلاحات الفنون : باب اللام فصل الميم

(٥) - جمع الجوامع ٢ / ٣٥٦ ط الحلبي

(٦) - التقرير والتحبير ٣ / ٢٩٥ ط بولاق الأولى

(٧) - كشاف اصطلاحات الفنون (لهم) ، والعقائد النسفية وحواشيها ص ٤١ ط الحلبي

(٨) - ابن عابدين ١ / ٢٩٠ ط بولاق الأولى ، البحر الرائق ١ / ٣٠٢ ط العلمية

(٩) - جمع الجوامع ٢ / ٣٥٦

(١٠) - جمع الجوامع ٢ / ٣٥٦ ، التقرير والتحبير ٣ / ٢٩٥ ، ٢٩٦

(١١) - التقرير والتحبير ٣ / ٣٩٦ ، مسلم الثبوت ٢ / ٣٧٠

وفي الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي - (ج ١ / ص ٧٥٤)
مطلب في أن

الإلهام

ليس بحجة على ما هو الأرجح عند الفقهاء
واختلف العلماء في حجية الإلهام بقية السابق فالأرجح عند الفقهاء أنه ليس بحجة إذ لا ثقة بخواطر غير المعصوم ،
وعند الصوفية أنه حجة من حفظه الله من سائر أعماله الظاهرة والباطنة ، والأولياء وإن لم يكن لهم العصمة لجواز
وقوع الذنب منهم ولا ينافيه الولاية ، ومن ثم قيل للجنيذ أيزني الولي ؟ فقال وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لكن لهم
الحفظ فلا تقع منهم كبيرة ولا صغيرة غالبا ، وعلى القول بحجتيه فهو ينسب إلى الله تعالى بمعنى أنه الملقى له في
القلب كرامة لذلك الولي وإنعاما عليه بما يكون سببا للمزيد له أو صلاحا لغيره .

وقال ابن رجب رحمه الله (١): "وقد ذكر طوائف من فقهاء الشافعية والحنفية المتكلمين في أصول الفقه مسألة الإلهام
: هل هو حجة أم لا ؟ وذكروا فيه اختلافاً بينهم ، وذكر طائفة من أصحابنا أن الكشف ليس بطريق للأحكام ،
وأخذه القاضي أبو يعلى من كلام أحمد في ذم المتكلمين في الوسوس والخطرات ، وخالفهم طائفة من أصحابنا في
ذلك ، وقد ذكرنا نص أحمد هاهنا بالرجوع إلى حوار القلوب ، وإنما ذم أحمد وغيره المتكلمين على الوسوس
والخطرات من الصوفية حيث كان كلامهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعي ، بل إلى مجرد رأي وذوق ، كما كان
ينكر الكلام في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي .
فأما الرجوع إلى الأمور المشتبهة إلى حوار القلوب ، فقد دلت عليه النصوص النبوية ، وفتاوى الصحابة ، فكيف
ينكره الإمام أحمد بعد ذلك ؟ لا سيما وقد نص على الرجوع إليه موافقة لهم .

وقال الزركشي (٢): "دلالة الإلهام ذكرها بعض الصوفية وقال : مَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ فَهُوَ إلهَامٌ ، أَوْ
الشَّرُّ فَهُوَ وَسْوَسٌ ، وقال بها بعض الشيعة فيما حكاه صاحب الباب " قال القفال : وَلَوْ ثَبَتَ الْعُلُومُ بِالْإلهَامِ لَمْ
يَكُنْ لِلنَّظَرِ مَعْنَى ، وَلَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ دَلَالَةٌ وَلَا عِبَرَةٌ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي
أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (٥٣) سورة فصلت ، فَلَوْ كَانَتْ
الْمَعَارِفُ الْإلهَامَ لَمْ يَكُنْ لِلزَّادَةِ الْآمَارَاتِ وَجْهٌ ، قَالَ : وَيَسْأَلُ الْقَائِلُ بِهَذَا عَنْ دَلِيلِهِ ، فَإِنْ احْتَجَّ بِغَيْرِ الْإلهَامِ فَقَدْ
نَاقَضَ قَوْلَهُ ، وَإِنْ احْتَجَّ بِهِ أَبْطَلَ بَيْنَ ادَّعَى الْإلهَامَ فِي إِبْطَالِ الْإلهَامِ .

وحكى الماوردي والرويان في باب القضاء في حجية الإلهام خلافاً ، وفرعاً عليه أن الإجماع هل يجوز انعقاده لا
عن دليل ؟ فإن قلنا : لَمْ يَصِحَّ جَعْلُهُ دَلِيلًا شَرْعِيًّا جَوَزْنَا الْإِنْعَادَ لَا عَنْ دَلِيلٍ ، وَإِلَّا فَلَا قَالَ الْمَوْرَدِيُّ : وَالْقَائِلُ
بِإِنْعَادِهِ لَا عَنْ دَلِيلٍ هُوَ قَوْلُ مَنْ جَعَلَ الْإلهَامَ دَلِيلًا ، قُلْتُ : وَقَدْ اخْتَارَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ اعْتِمَادَ الْإلهَامِ ، مِنْهُمْ
الإمام في تفسيره " في أدلة القبلة ، وابن الصلاح في فتاويه " فَقَالَ : إلهَامٌ خَاطِرٌ حَقٌّ مِنَ الْحَقِّ ، قَالَ : وَمِنْ
عَلَامَاتِهِ أَنْ يُشْرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَلَا يُعَارِضُهُ مُعَارِضٌ مِنْ خَاطِرٍ آخَرَ .

(١) - جامع العلوم والحكم محقق - (ج ٢٩ / ص ١٦)

(٢) - البحر المحيط - (ج ٧ / ص ٣٨٤) فما بعدها

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ التَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِ التَّذَكُّرَةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ " : ذَهَبَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْمَعَارِفَ تَفْعُ اضْطِرَارًا لِلْعِبَادِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهَامِ بِحُكْمٍ وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِشَرْطِ التَّقْوَى ، وَاحْتِجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } (٢٩) سورة الأنفال ، أَيْ تُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } (٢) سورة الطلاق ، أَيْ مَخْرَجًا عَلَى كُلِّ مَا اتَّبَسَ عَلَى النَّاسِ وَجْهَ الْحُكْمِ فِيهِ ، { .. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٢٨٢) سورة البقرة ، فَهَذِهِ الْعُلُومُ الدِّينِيَّةُ تَحْصُلُ لِلْعِبَادِ إِذَا زَكَّتْ أَنْفُسُهُمْ وَسَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ، بَتَرِكَ الْمُنْهَيَّاتِ وَامْتَنَالِ الْمَأْمُورَاتِ ، إِذْ خَبَرَهُ صِدْقٌ ، وَوَعَدَهُ حَقٌّ ، فَتَرْكِيَّةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْقَلْبِ لِحُصُولِ الْمَعَارِفِ فِيهِ بِطَرِيقِ الْإِلَهَامِ بِحُكْمٍ وَعَدِ اللَّهُ تَعَالَى وَذَلِكَ كَمَا عَدَّادِهِ بِاخْتِصَارِ الْمُفْلَمَتَيْنِ فِيهِ مَعَ التَّفَقُّنِ لَوْحُوهِ لُزُومِ التَّسَبُّحَةِ عَقِيبَ النَّظَرِ لِقُدْرَةِ اللَّهِ اضْطِرَارًا ، وَلَا مَدْخَلَ لِلْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ فِيهِ وَأَمَّا حُصُولُ هَذِهِ الْمَعَارِفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهَامِ الْمُتَبَدُّأ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ ، فَأَحَدُ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ غَيْرُ مُمَكِّنٍ فِي الْعَقْلِ وَيَمْتَنِعُ فِي الْعَادَةِ وَمَا ذَكَرَ مِنْ أَنَّ مَدَارِكَ الْعُلُومِ الْإِلَهَامِ يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا التَّفْصِيلِ ، وَهُوَ غَلَطٌ فِي الْحَصْرِ إِذْ لَيْسَ هُوَ جَمِيعُ الْمَدَارِكِ ، بَلْ مَدْرَكٌ وَاحِدٌ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ وَتَأَوَّلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُمْ ، وَقَالَ : يُمَكِّنُ أَنْ يُرِيدُوا أَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا ضَرُورِيَّةٌ مُخْتَرَعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ الْإِمَامُ شِهَابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي بَعْضِ أَمَالِيهِ مُحْتَجًّا عَلَى الْإِلَهَامِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } (٧) سورة القصص ، وَقَوْلُهُ : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } (٦٨) سورة النحل ، فَهَذَا الْوَحْيُ مَجْرَدُ الْإِلَهَامِ ، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْإِلَهَامِ عُلُومًا تَحْدُثُ فِي النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » (١) . وَقَالَ تَعَالَى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) } (٢) [الشمس/٧، ٨] .

(١) - صحيح البخارى (٣٤٦٩)

(٢) - ثُمَّ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّفْسِ وَخَلَقِهَا سَوِيَّةً عَلَى الْفُطْرَةِ الْقَوِيَّةِ .

فَبَيَّنَ لِلنَّفْسِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَأَعْطَاهَا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا ، وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْإِخْتِيَارِ .

فَأَخْبَرَ أَنَّ النَّفْسَ مُلْهَمَةٌ ، فَالنَّفْسُ الْمُلْهَمَةُ عُلُومٌ لَدُنِّيَّةٌ هِيَ الَّتِي تَبَدَّلَتْ صِفَتُهَا وَاطْمَأَنَّتْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَمَّارَةً ، قَالَ : وَهَذَا التَّوَعُّ لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ مِنْ عَالَمِ الْمُلْكِ وَالشَّهَادَةِ ، بَلْ تَخْتَصُّ فَاذْنُهُ بِصَاحِبِهِ دُونَ غَيْرِهِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ثَمَرَةُ السَّرَايَةِ إِلَى الْغَيْرِ عَلَى طَرِيقِ الْعُمُومِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ فَاذْنَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْإِخْتِيَارِ عَلَى وَجْهِ خَاصٍّ ، قَالَ : وَإِنَّمَا لَمْ تَكُنْ لَهُ السَّرَايَةُ إِلَى الْغَيْرِ عَلَى طَرِيقِ الْعُمُومِ عَنْ مَفَاتِيحِ الْمُلْكِ لِكَوْنِ مَحَلِّهَا النَّفْسَ ، وَقُرْبِهَا مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، بِخِلَافِ الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى ، وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي قَامَ [بِنَقْلِهِ] الْمَلِكُ الْمُلْقَى ، لِأَنَّ مَحَلَّهُ الْقَلْبَ الْمُجَانِسَ لِلرُّوحِ الرُّوحَانِيِّ الْعُلُويِّ ، قَالَ : وَبَيْنَهُمَا ثَالِثَةٌ وَهِيَ النَّفْسُ فِي الرَّوْعِ يَزْدَادُ بِهَا الْقَلْبُ عِلْمًا بِاللَّهِ وَيَذَرُكَ الْمُغَيَّيَاتِ ، وَهِيَ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ تَكُونُ لِلْأَوْلِيَاءِ فِيهَا نَصِيبٌ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْثًا فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَّصِلُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ كَمَوْجَةٍ تَرُدُّ عَلَى الْبَحْرِ ، فَيَكْشِفُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَبْرِيلَ عَقِبَ وَرُودِهَا عَلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَصِيرُ الرَّحْمَةُ بِوَاسِطَةِ جَبْرِيلَ وَاصِلَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْثٍ فِي رَوْعِهِ . انْتَهَى .

وَاحْتِجَّ غَيْرُهُ بِمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ

يَكْلُمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ » (١).
 قَالَ ابْنُ وَهَيْبٍ : يَعْنِي مُلْهُمُونَ وَلِهَذَا ، قَالَ صَاحِبُ نَهَايَةِ الْغَرِيبِ " : جَاءَ فِي الْحَدِيثِ تَفْسِيرُهُ أَنَّهُمْ الْمُلْهُمُونَ ،
 وَالْمُلْهُمُ هُوَ الَّذِي يُلْقَى فِي نَفْسِهِ الشَّيْءُ فَيُخْبِرُ بِهِ حَدْسًا وَفِرَاسَةً ، وَهُوَ نَوْعٌ يَخْصُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
 كَأَنَّهُمْ حَدَّثُوا بِشَيْءٍ فَقَالُواهُ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اسْتَفْتِ نَفْسَكَ ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةً - ثَلَاثًا -
 الْبُرَّ مَا أَطْمَأَنَّتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَأَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِنَّمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ
 وَأَفْتَوَكَ » (٢). فَذَلِكَ فِي الْوَاقِعَةِ الَّتِي تَتَعَارَضُ فِيهَا الشُّبُهَةُ وَالرَّيْبُ ، قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَاسْتِفْتَاءُ الْقَلْبِ إِنَّمَا هُوَ حَيْثُ
 أَبَاحَ الشَّيْءَ ، أَمَّا حَيْثُ حُرِّمَ فَيَجِبُ الْإِمْتِنَاعُ ، ثُمَّ لَا يُعَوَّلُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ ، فَرُبَّ مُوسَّوسٍ يَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ ، وَرُبَّ
 مُسَاهِلٍ نَظَرَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَا عِتْبَارَ بِهِذَيْنِ الْقَلْبَيْنِ ، وَإِنَّمَا الْإِعْتِبَارُ بِقَلْبِ الْعَالِمِ الْمُؤَقِّ الْمُرَاقِبِ لِدَقَائِقِ الْأَحْوَالِ ،
 فَهُوَ الْمَحَكُّ الَّذِي تُمْتَحَنُ بِهِ حَقَائِقُ الصُّورِ ، وَمَا أَعَزَّ هَذَا الْقَلْبَ ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ (٣) : هَذَا
 مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ يَعْرِفُ فِي شَأْنِهِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ مَا عَسَى يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوْ يُحَدِّثُ عَلَى لِسَانِ مَلَكٍ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ،
 كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ : « قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
 ». وَقَدْ رَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : يَعْنِي يُلْقَى فِي رَوْعِهِ
 تَنْبِيْهٌ : لَا يَخْفَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَإِلَّا فَمِنْ جُمْلَةِ طُرُقِ الْوَحْيِ الْإِلْهَامُ .

(١) - صحيح البخارى (٣٦٨٩)

(٢) - سنن الدارمى (٢٥٨٨) صحيح

(٣) - شعب الإيمان للبيهقي (٥٤٩٤)

الْهَاتِفُ الَّذِي يُعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ مِثْلُ الَّذِي سَمِعُوهُ يَأْمُرُ بِعُسْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَمِيصِهِ كَذَا أَوْرَدَهُ صَاحِبُ
 الْمُسَوَّدَةِ " فِي ذَيْلِ الدَّلِيلِ الْمُخْتَلَفِ فِيهَا قَالَ : لَكِنَّهُ مِنْ بَابِ الْفَضَائِلِ وَكَذَلِكَ مَا اسْتَحَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ، كَقَوْلِ
 الْعَبَّاسِ فِي حَدْوِ الصَّارِخِ : اللَّهُمَّ خِرْ لِنَبِيِّكَ (١) ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْقُرْعَةِ فَعَلَهُ تَكْرِيمًا لَهُ قُلْتُ : وَقَدْ صَنَّفَ ابْنُ أَبِي
 الدُّنْيَا كِتَابًا فِي الْهَوَاتِفِ ، وَصَدَرَهُ بِحَدِيثِ { هَتَفَ جِبْرِيلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (٢) } . (٣)
 وقال الشوكاني (٤) : " دلالة الإلهام ذكرها بعض الصوفية ، وحكى الماوردي والرويانى ، في "باب" القضاء في حجية
 الإلهام خلافاً وفرعاً عليه أن الإجماع هل يجوز انعقاده لا عن دليل "فإن قلنا: يصح جعله دليلاً شرعياً جوزنا الانعقاد
 لا عن دليل" وإلا فلا.

قال الزركشي في "البحر" : وقد اختار جماعة من المتأخرين اعتماد الإلهام ، منهم في "تفسيره" في أدلة القبلية ، وابن
 الصلاح في "فتاويه" (٥) ، فقال : إلهام خاطر الحق من الحق . قال : ومن علامته أن ينشرح له الصدر ، ولا يعارضه
 معارض "من خاطر آخر" .

قال أبو علي التيمي في كتاب "التذكرة في أصول الدين" (٦) : ذهب بعض الصوفية إلى أن المعارف تقع اضطراباً
 للعباد على سبيل الإلهام ، بحكم وعد الله سبحانه وتعالى ، بشرط التقوى ، واحتج بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن
 تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } (٧) أي : ما تفرقون به بين الحق والباطل ، وقوله تعالى : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
 } (٨) أي : عن كل ما يلبس على غيره وجه الحكم فيه وقوله تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } (٩) .

فهذه العلوم الدينية تحصل للعباد إذا زكت أنفسهم ، وسلمت قلوبهم لله تعالى ، بترك المنهيات وامتنال المأمورات ؛
 "إذ" وخبره صدق ووعدده حق.

واحتج شهاب الدين السهروردي (١٠) على الإلهام بقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ} (١١) ويقول: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} (١٢) فهذا الوحي هو مجرد الإلهام.

ثم إن من "الإلهام" علوما تحدث في النفوس الزكية مطمئنة، عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ « قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ ». قَالَ ابْنُ وَهْبٍ تَفْسِيرُ مُحَدِّثُونَ مُلْهِمُونَ. (١٣) وقال تعالى: {وَتَنفَسَ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (١٤) فأخبر أن النفوس ملهمة.

(١) - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ بِالْمَدِينَةِ رَجُلَانِ يَحْفِرَانِ الْقُبُورَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَحْفِرُ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَأَبُو طَلْحَةَ يَحْفِرُ لِلْأَنْصَارِ وَيَلْحَدُ لَهُمْ - قَالَ - فَلَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَعَثَ الْعَبَّاسُ رَجُلَيْنِ إِلَيْهِمَا فَقَالَ اللَّهُمَّ خِرْ لِنَبِيِّكَ. فَوَجَلُوا أَبَا طَلْحَةَ وَلَمْ يَجْلُوا أَبَا عُبَيْدَةَ فَحَفَرَ لَهُ وَلَحَدَ. مسند أحمد (٢٧١٣) وهو صحيح لغيره

(٢) - لم أجده

(٣) - انظر حاشية العطار على شرح الجلال اخلي على جمع الجوامع - (ج ٥ / ص ٣٨٠)

(٤) - إرشاد الفحول - (ج ٢ / ص ١٩٩)

(٥) - واسمها "فتاوى ابن الصلاح، لأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشافعي، وهي من محاسنه، جمعها بعض طلبته، وهو الكمال إسحاق المعزي، وهي في مجلد كثير الفوائد نسخة منها مرتبة على الأبواب ونسخة غير مرتبة. هـ - كشف الظنون ٢ / ١٢١٨.

(٦) - التذكرة في أصول الدين - للشيخ أبي طاهر إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عوف المالكي الاسكندراني المتوفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. حاجي خليفة [٣٩٣]

(٧) - جزء من الآية ٢٩ من سورة الأنفال

(٨) - جزء من الآية ٢٢ من سورة الطلاق.

(٩) - جزء من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(١٠) - هو عمر بن محمد بن عبد الله التيمي القرشي، البكري السهروردي، الشيخ الإمام العالم القدوة، العارف، المحدث، شيخ الإسلام، شهاب الدين، ولد سنة ثلاثين وخمسمائة هـ وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة هي، صنف في التصوف كتابا فيه أحوال القوم. هـ سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٧٥ شذرات الذهب ٥ / ١٥٣.

(١١) - جزء من الآية ٧ من سورة القصص.

(١٢) - جزء من الآية ٦٨ من سورة النحل.

(١٣) - صحيح مسلم (٦٣٥٧)

الحديث : الصادق الظن الملهم الذي يلقي في نفسه الشيء فيخبر به فإسراة

(١٤) - الآيتان ٧-٨ من سورة الشمس.

قلت: وهذا الحديث الذي ذكره هو ثابت في الصحيح بمعناه، قال ابن وهب (١) في تفسير الحديث: أي: ملهمون، ولهذا قال صاحب "نهاية الغريب" (٢): جاء في الحديث تفسيره أنهم الملهمون، والملهم: هو الذي يلقي في نفسه الشيء، فيخبر به حدسا وفراة، وهو نوع يخص به الله من يشاء من عباده، كأنهم حدثوا بشيء فقالوه.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "استفت قلبك، وإن أفتاك الناس" (٣) فذلك في الواقعة التي تعارض فيها الأدلة. قال الغزالي: واستفتاء القلب إنما هو حيث أباح المفتي، أما حيث حرم فيجب الامتناع، ثم لا نقول على كل قلب، فرب قلب موسوس ينفي كل شيء، ورب قلب متساهل يطير إلى كل شيء، فلا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق لدقائق الأحوال، فهو الخلق الذي يمتحن به حقائق الأمور، وما أعز هذا القلب.

قال البيهقي في "شعب الإيمان" (٤): هذا محمول على أنه يعرف في منامه من عالم الغيب ما عسى يحتاج إليه، أو يحدث على لسان ملك بشيء من ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد كان يكون في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد كان عمر بن الخطاب منهم» (٥).

وقد روي عن إبراهيم بن سعد (٦) أنه قال في هذا الحديث يعني: يلقي في روعه. قال القفال: لو تثبت العلوم بالإلهام لم "يكن" للنظر معنى، ونسأل القائل بهذا عن دليله، فإن احتج بغير الإلهام "فقد ناقض قوله. انتهى.

ويجاب عن هذا الكلام: بأن مدعي الإلهام لا يحصر الأدلة في الإلهام، حتى يكون استدلاله بغير الإلهام مناقضا لقوله، نعم إن استدلال على إثبات الإلهام بالإلهام، كان في ذلك مصادرة على المطلوب؛ لأنه استدلال على محل النزاع بمحل النزاع.

ثم على تقدير الاستدلال لثبوت الإلهام بمثل ما تقدم من الأدلة، من أين لنا أن دعوى هذا الفرد لحصول الإلهام له صحيحة، وما الدليل على أن قلبه من القلوب التي ليست بموسوسة ولا بمتساهلة.

٦ - في هذه الأمة ملهمون (٧)

إن بعض الناس يطلعهم الله عز وجل على شيء من الغيب عن طريق الرؤيا الصالحة أو الإلهام والتحديث، كما روي عن ابن عمر قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ». " رواه مسلم (٨)، وهو عند البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ». (٩)

(١) - هو عبد الله بن وهب بن مسلم، الفقيه، المصري، أبو محمد ولد سنة خمس وعشرين ومائة هـ، وتوفي سنة سبع وتسعين ومائة هـ، كان صاحباً للإمام مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، من آثاره: "الجامع، الموطأ" وغيرها ١. هـ سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٠٠ الأعلام ٤ / ١٤٤ شذرات الذهب ٢ / ٢٥٢.

(٢) - واسمه "النهاية في غريب الحديث" للإمام مبارك بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير، أخذه من الغريبيين للهرودي وغريب الحديث لأبي موسى الأصبهاني ورتبه على حروف المعجم بالتزام الأول والثاني من كل كلمة واتباعهما بالثالث. وهو مطبوع، انظر: كشف الظنون ٢ / ١٩٨٩.

(٣) - مر تخريجه

(٤) - الجامع المصنف في شعب الإيمان". للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، كتاب كبير من الكتب المشهورة، وله مختصرات منها مختصر شمس الدين القنوي ١. هـ كشف الظنون " ١ / ٥٧٤.

(٥) - مر تخريجه

(٦) - هو ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، الإمام الكبير، الحافظ، أبو إسحاق القرشي، الزهري، العوفي، المدني، ولد سنة ثمان ومائة هـ، سمع من الزهري وهو حدث واختلف في سنة وفاته فقيل سنة أربع وثمانين ومائة

هـ وقيل خمس وقيل سبع وغير ذلك ١. هـ سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٠٤ تهذيب ١ / ١٢١ الأعلام ١ / ٤٠.

(٧) - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٢ / ص ٢٢٨٩) - رقم الفتوى ٥٤١٦ في هذه الأمة ملهون ، والمدار على الصلاح والاستقامة.

تاريخ الفتوى : ١٦ صفر ١٤٢٠

(٨) - صحيح مسلم (٦٠٥٣)

(٩) - صحيح البخارى (٦٩٨٩)

وفي المنقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٣٨٤)

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ يَحْتَمِلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يُرِيدَ بِهِ الصَّادِقَةُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْمُبَشِّرَةُ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ وَصَفَهَا بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ التُّبُوَّةِ لِمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْإِتْبَاءِ بِمَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى وَجْهِ يَصِحُّ وَيَكُونُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ قَالَ : جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلرُّؤْيَا مَلَكًا وَكُلَّ بِهَا يَرَى الرَّائِي مِنْ ذَلِكَ مَا فِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى مَا يَكُونُ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ قِيلَ مَعْنَى هَذِهِ التَّجْزِئَةِ أَنَّ مُدَّةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْهَا سِتَّةُ أَشْهُرٍ كَانَتْ بُيُوتُهُ بِالرُّؤْيَا وَلِذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ وَسِتَّةُ أَشْهُرٍ مِنْ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ وَقِيلَ إِنَّهَا جُزْءٌ مِنَ التُّبُوَّةِ عَلَى وَجْهِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ . وَرَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ وَمِثْلُهُ رَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنَ الرُّوَاةِ وَحَدِيثِ أَنَسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَتَبَتْ مِنْ سَائِرِ الْأَحَادِيثِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَجْتَمَعَ بَيْنَهُمَا فَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا عَلَى الرُّؤْيَا الْجَلِيَّةِ وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا عَلَى الرُّؤْيَا الْخَفِيَّةِ وَقَالَ : مُحَمَّدٌ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ التُّبُوَّةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ رُؤْيَا الْفَاسِقِ وَيَشْهَدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ وَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ فَخَصَّ بِذَلِكَ رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَيَحْتَمِلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يُرِيدَ أَنْ الْجُزْءُ مِنَ السِتَّةِ وَالْأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ هِيَ الرُّؤْيَا الْمُبَشِّرَةُ عَلَى مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ عَطَاءٍ بَعْدَ هَذَا لِكَثْرَةِ تَكَرُّرِ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِنذَارِ وَالزَّجْرِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ يَكُونُ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوَّةِ لِقَلَّةِ تَكَرُّرِهِ وَلِمَا يَكُونُ مِنْ جِنْسِهِ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ تَحْزِينًا وَتَخْوِيفًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حُلِمَ أَحَدُكُمْ حُلُمًا يَخَافُهُ فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ، وَلْيَعُوذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَصُرُّهُ » (١).

الرؤيا

الصالحة بشرى خير للمسلم، فعن ابن عباسٍ قال كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- السَّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ « أَتَيْهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ التُّبُوءِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ .. » (٢).

وأما الإلهام والتحديث فهو واقع في الأمم السابقة ويقع أيضا في هذه الأمة، وقد اختلف في معناه على أقوال فقيل: هو الإصابة بغير نبوة، وقيل اُخْدَتْ هو الملهم بالصواب الذي يُلقَى على فيه. وقيل غير ذلك، والأصل في إثبات الإلهام والتحديث ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: « إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » (٣) وربما أطلق العلماء على هذا النوع من العلم بالمغيبات الكشف، ومدار الأمر على استقامة الحال وسلامة المعتقد، فإن جنس هذا العلم يحصل للبرِّ والفاجر، والمسلم والكافر، والمحدث والكاهن.

وكما قال السلف: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء، فلا تغتروا بعمله، حتى يعرض على الكتاب والسنة.

ووجود الكرامة والولاية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمر مقطوع به، لكن من الخطأ البين أن يعطى أحد من الناس شيئا من التقديس والتعظيم لأجل صلاحه واستقامته .

وعليه فقد يلقي الشيطان بعض الأمور الغيبية على لسان شخص ما، ليفتن به الناس، لا سيما إذا كانوا جهالا مولعين بالخرافات ، يثبتون الولاية والكرامة بأوهى سبب. فالحذر الحذر من مكر الشيطان وحيله.

الرؤيا (٤)

التعريف:

١ - الرُّؤْيَا عَلَى وَزْنِ فُعْلَى مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي مَنَامِهِ ، وَهُوَ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ لِأَلْفِ التَّائِيثِ كَمَا فِي الْمَصْبَاحِ ، وَتُجْمَعُ عَلَى رُؤَى .

وَأَمَّا الرُّؤْيَا بِالْهَاءِ فَهِيَ رُؤْيَا الْعَيْنِ وَمُعَانِيَتُهَا لِلشَّيْءِ كَمَا فِي الْمَصْبَاحِ ، وَتَأْتِي أَيْضًا بِمَعْنَى الْعِلْمِ كَمَا فِي الصَّحَاحِ وَاللِّسَانِ ، فَإِنْ كَانَتْ بِمَعْنَى النَّظَرِ بِالْعَيْنِ فَإِنَّهَا تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بِمَعْنَى الْعِلْمِ فَإِنَّهَا تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ (٥) .

وَالرُّؤْيَا فِي الْإِصْطِلَاحِ لَا تَخْرُجُ عَنِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ .
الْأَلْفَاظُ ذَاتُ الصَّلَةِ :

أ - الْإِلْهَامُ :

٢ - الْإِلْهَامُ فِي اللُّغَةِ : تَلْقِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخَيْرَ لِعَبْدِهِ ، أَوْ إِلْقَاؤُهُ فِي رُوعِهِ (٦) .
وَفِي الْإِصْطِلَاحِ : إِيقَاعُ شَيْءٍ يَطْمِئُنُّ لَهُ الصَّدْرُ يَخُصُّ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ (٧) .
وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ : (إِلْهَامٌ) .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا وَالْإِلْهَامِ أَنَّ الْإِلْهَامَ يَكُونُ فِي الْيَقَظَةِ ، بِخِلَافِ الرُّؤْيَا فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا فِي النَّوْمِ .
ب - الْحُلْمُ :

٣ - الْحُلْمُ بِضَمِّ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَضَمِّ اللَّامِ وَقَدْ تُسَكَّنُ تَخْفِيفًا هُوَ الرُّؤْيَا ، أَوْ هُوَ اسْمٌ لِلْإِخْلَامِ وَهُوَ الْجِمَاعُ فِي

النُّومُ (٨) . وَالْحُلُمُ وَالرُّؤْيَا وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا يَحْدُثُ فِي النَّوْمِ إِلَّا أَنَّ الرُّؤْيَا اسْمٌ لِلْمَحْبُوبِ فَلِذَلِكَ تُضَافُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْحُلُمُ اسْمٌ لِلْمَكْرُوهِ فَيُضَافُ إِلَى الشَّيْطَانِ وَلَمَّا وَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَخَافُهُ فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ » (٩) ، وَقَالَ عِيسَى بْنُ دِينَارٍ : الرُّؤْيَا رُؤْيَا مَا يُتَأَوَّلُ عَلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ الَّذِي يُسَرُّ بِهِ ، وَالْحُلُمُ هُوَ الْأَمْرُ الْفَظِيعُ الْمَجْهُولُ يُرِيهِ الشَّيْطَانُ لِلْمُؤْمِنِ لِيُحْزِنَهُ وَلِيُكَدِّرَ عَيْشَهُ (١٠) . ج - الْخَاطِرُ :

- (١) - صحيح البخارى (٣٢٩٢) ومسلم (٦٠٣٩)
- (٢) - صحيح مسلم (١١٠٢) = قمن : خليف وجدير
- (٣) - صحيح البخارى (٣٤٦٩)
- (٤) - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٢٢ / ص ٧-١٥)
- (٥) - المصباح، والقاموس مادة : (روى) ، الصحاح واللسان ، مادة : (رأى) ، والكليات ٢ / ٣٨٤ ط - دمشق .
- (٦) - القاموس ، واللسان ، والصحاح ، مادة : (لهم) .
- (٧) - كشاف اصطلاحات الفنون .
- (٨) - القاموس المحيط ، مادة : (حلم) ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥ / ١٦ ط - المصرية ، تفسير القرطبي ٩ / ١٢٤ ط - المصرية .
- (٩) - صحيح البخارى (٣٢٩٢) ومسلم (٦٠٣٧)
- (١٠) - المنتقى ٧ / ٢٧٧ ط - العربي .

٤ - الْخَاطِرُ هُوَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاتِبِ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَمَعْنَاهُ فِي اللَّغَةِ مَا يَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَدْبِيرِ أَمْرٍ ، وَفِي الْإِصْطِلَاحِ مَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْخُطَابِ أَوْ الْوَارِدِ الَّذِي لَا عَمَلَ لِلْعَبْدِ فِيهِ ، وَالْخَاطِرُ غَالِبًا يَكُونُ فِي الْيَقِظَةِ بِخِلَافِ الرُّؤْيَا (١) .

د - الْوَحْيُ :

٥ - مِنْ مَعَانِيهِ فِي اللَّغَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ فَارِسٍ الْإِشَارَةُ وَالرَّسَالَةُ وَالْكِتَابَةُ وَكُلُّ مَا أُلْقِيَتْهُ إِلَى غَيْرِكَ لِيَعْلَمَهُ ، وَهُوَ مَصْدَرٌ وَحَى إِلَيْهِ يَحْيِي مِنْ بَابِ وَعَدَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِالْأَلْفِ مِثْلُهُ ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُ الْوَحْيِ فِيمَا يُلْقَى إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى (٢) . فَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّؤْيَا وَاضِحٌ ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِي الصُّبْحِ (٣) .

الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ وَمَنْزِلَتُهَا (٤)

- (١) - المصباح مادة : (مطر) ، والمنثور للزركشي ٢ / ٣٣ ط - الأولى ، والتعريفات للجرجاني ١٢٩ / ١ ط - العربي ، والكليات ٢ / ٣٠٩ ط - دمشق .
- (٢) - المصباح مادة : (وحى) .

(٣) - البخاري (٦٩٨٢) ومسلم (٤٢٢)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ٢٨٧)

قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّمَا أُبْتَدِئَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرُّؤْيَا لِئَلَّا يَفْجَأَهُ الْمَلَكُ وَيَأْتِيَهُ صَرِيحُ النُّبُوَّةِ بَعْتَةً فَلَا يَحْتَمِلُهَا قُوَى الْبَشَرِيَّةِ فَبَدِئَ بِأَوَّلِ خِصَالِ النُّبُوَّةِ وَتَبَاشِيرِ الْكَرَامَةِ مِنْ صِدْقِ الرُّؤْيَا وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ مِنْ رُؤْيَا الضُّوْءِ وَسَمَاعِ الصَّوْتِ وَسَلَامِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ .

(٤) - الرؤيا فهي على ثلاثة أضرب : الرؤيا الصالحة وهي ما يراه الشخص الصالح في منامه من المبشرات ، وهي من إكرام الله لعباده الصالحين ، وحديث النفس فقد ينام الإنسان وهو مهتم بشيء ما فيرى حلما في النوم في شأنه ، وتخويف من الشيطان للعباد ، ففي حديث البخاري : لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا : وما المبشرات؟ قال : الرؤيا الصالحة . وفي رواية مسلم : لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة .

وروى البخاري عن أبي الطفيل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نبوة بعدي إلا المبشرات ، قال : قيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال : الرؤيا الحسنة ، أو قال : الرؤيا الصالحة .

وفي الحديث : الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءا من النبوة . رواه مسلم .

وهو عند البخاري بلفظ : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

وفي الصحيحين أيضا : الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان .

وفي الحديث : الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث النفس ، وتخويف من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم رؤيا تعجبه فليقص إن شاء ، وإن رأى شيئا يكرهه فلا يقصه على أحد ، وليقم يصلي . رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني .

وروى ابن ماجه عن عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا ثلاثة : منها تهويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وصححه الألباني أيضا .

قال المناوي في فيض القدير : الرؤيا الصالحة الحسنة أو الصحيحة المطابقة للواقع . وقال أيضا في شرح حديث

عوف بن مالك السابق (الرؤيا ثلاثة منها تهويل من الشيطان ليحزن ابن آدم) ولا حقيقة لها في نفس الأمر) ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه (قال القرطبي : ويدخل فيه ما يلزمه في يقظته من الأعمال والعلوم والأقوال وما يقوله الأطباء من أن الرؤيا من خلط غالب على الرائي) ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة (قال الحكيم : أصل الرؤيا حق جاء من عند الحق المبين يخبرنا عن أنباء الغيب وهي بشارة أو نذارة أو معاناة وكانت عامة أمور الأولين بها ثم ضعفت في هذه الأمة لعظيم ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي ولما فيها من التصديق وأهل الإلهام واليقين فاستغوا بها عن الرؤيا والمؤمن محسود ولع به الشيطان لشدة عداوته فهو يكبده ويحزنه من كل وجه ويلبس عليه فإذا رأى رؤيا صادقة خلطها ليفسد عليه بشراؤه أو نذارته أو معانيته ونفسه دون الشيطان فيلبس عليه بما اهتم به في يقظته فهذان الصنفان ليسا من أنباء الغيب والصنف الثالث هي الرؤيا الصادقة التي هي من أجزاء النبوة . اهـ

واعلم أن الرؤيا الصالحة تعتبر وحيا من الله وجزءا من النبوة باعتبار ما فيها من الأخبار والبشائر ولكنها لا تعتبر من ناحية التشريع والأحكام فلا يبنى عليها حكم شرعي ولا يثبت بها حق ، فقد حكى الإمام النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض في الاحتجاج بما يراه النائم في منامه قوله : أنه لا يبطل بسببه - أي المنام - سنة ثبتت ، ولا يثبت

به سنة لم تثبت، وهذا بإجماع العلماء .

وقال النووي : وكذا قال غيره من أصحابنا وغيرهم، فنقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع. انتهى

وقال النووي أيضا في المجموع: لو كانت ليلة الثلاثين من شعبان ولم ير الناس الهلال، فرأى إنسان النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: الليلة أول رمضان لم يصح الصوم بهذا المنام، لا لصاحب المنام ولا لغيره. انتهى.

وأما الإلهام فقد اختلف في معناه على أقوال فصيل: هو الإصابة بغير نبوة، وقيل الحدث هو الملهم بالصواب الذي يلقي على فيه. وقيل غير ذلك، والأصل في إثبات الإلهام والتحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب . متفق عليه.

وربما أطلق العلماء على هذا النوع من العلم بالمغيبات الكشف، ومدار الأمر على استقامة الحال وسلامة المعتقد، فإن جنس هذا العلم يحصل للبر والفاجر، والمسلم والكافر، والحدث والكاهن فقد يلقي الشيطان بعض الأمور الغيبية على لسان شخص ما، ليفتن به الناس، لا سيما إذا كانوا جهالا. وكما قال السلف : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء، فلا تغتروا بعمله، حتى يعرض على الكتاب والسنة. فيجب على المسلم أن يعرف الفرق بين الإلهامات الإلهية والإيهامات الشيطانية حتى لا يقع في شرك المبطلين. فالإلهامات الإلهية هي ما يحصل لمن كان مستقيما الظاهر والباطن على شرع الله تعالى في الاعتقاد والقول والعمل. وأما الإيهامات الشيطانية فهي ما يحصل لأولياء الشيطان من الزنادقة والمتدعة المنحرفين الضالين ، وأن المدرك الوحيد لأخذ الأحكام الشرعية هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بفهم السلف الصالح لهذه الأمة وأما غير ذلك من المكاشفات والإلهامات فليس مدركا للأحكام البتة، فلا ينبغي عليه حكم شرعي إطلاقا. والله أعلم. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ١٠ / ص ١٩٥٢) - رقم الفتوى ٧٢٢٠٣ الرؤيا والوحي والإلهام

:

٦ - الرؤيا الصالحة حالة شريفة ومنزلة رفيعة كما ذكر القرطبي ، عن ابن عباس قال كشف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال « أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له .. » (١).

وقد أخرج الترمذي في جامعه أن رجلا من أهل مصر سأل أبا الدرداء رضي الله عنه عن قوله تعالى : {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (٦٤) سورة يونس ، قال : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال : ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت ، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » (٣). وروى غير ذلك (٤).

والمراد بالرؤيا الصالحة غالب رؤى الصالحين كما قال المهلب ، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث ولكنه نادر لقلة تمكن الشيطان منهم ، بخلاف عكسهم ، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلط الشيطان عليهم ، فالناس على هذا ثلاث درجات .

- الأنبياء ورؤاهم كلها صدق ، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير .

- والصالحون والأغلب على رؤاهم الصدق ، وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير .

- وَمَنْ عَدَاهُمْ وَقَدْ يَقَعُ فِي رُؤَاهُمْ الصَّدَقُ وَالْأَضْعَاثُ .

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْعَرَبِيُّ : إِنَّ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ هِيَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ لِصِلَاحِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا ، بِخِلَافِ رُؤْيَا الْفَاسِقِ فَإِنَّهَا لَا تُعَدُّ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ ، وَقِيلَ تُعَدُّ مِنْ أَقْصَى الْأَجْزَاءِ ، وَأَمَّا رُؤْيَا الْكَافِرِ فَلَا تُعَدُّ أَصْلًا . وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمَ الصَّادِقَ الصَّالِحَ هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ حَالَهُ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ فَأَكْرَمَ بَنُو عَمِمًا أَكْرَمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَهُوَ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْغَيْبِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخَلِّطُ فَلَا ، وَلَوْ صَدَقَتْ رُؤْيَاهُمْ أَحْيَانًا فَذَاكَ كَمَا قَدْ يَصْدُقُ الْكُتُوبُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَدَّثَ عَنْ غَيْبٍ يَكُونُ خَبَرُهُ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ كَالْكَاهِنِ وَالْمُنْجِمِ . (٥) .

هَذَا ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ كَوْنُ الرُّؤْيَا جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ مَعَ أَنَّ النُّبُوَّةَ انْقَطَعَتْ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ فَقِيلَ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ وَقَعَتِ الرُّؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ حَقِيقَةً ، وَإِنْ وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : قِيلَ مَعْنَاهُ : أَنَّ الرُّؤْيَا تَجِيءُ عَلَى مُوَافَقَةِ النُّبُوَّةِ لَا أَنَّهَا جُزْءٌ بَاقٍ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَقِيلَ الْمَعْنَى : إِنَّهَا جُزْءٌ مِنْ عِلْمِ النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّ النُّبُوَّةَ وَإِنْ انْقَطَعَتْ فَعِلْمُهَا بَاقٍ (٦) .

رُؤْيَا اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْمَنَامِ :

٧ - اخْتَلَفَ فِي جَوَازِ رُؤْيَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ : لَا تَقَعُ ، لِأَنَّ الْمَرْئِيَّ فِيهِ خَيَالٌ وَمِثَالٌ ، وَذَلِكَ عَلَى الْقَدِيمِ مُحَالٌ ، وَقِيلَ : تَقَعُ لِأَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِذَلِكَ فِي الْمَنَامِ (٧) .
رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ :

(١) - صحيح مسلم (١١٠٢) = قمن : خليف وجدير

(٢) - سنن الترمذی (٢٤٤٢) حسن لغيره

(٣) - صحيح البخاری (٦٩٨٩) ومسلم (٦٠٤٩)

(٤) - فتح الباري ١٢ / ٣٦٢ - ٣٦٣ ط الرياض، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥ / ٢٠ - ٢١ ط المصرية، تحفة الأحوذی ٦ / ٥٤٩ ط . الفجالة، وتفسير القرطبي ٩ / ١٢٢ - ١٢٣ ط المصرية .

(٥) - فتح الباري (١٢ / ٣٦٢ - ٣٩١ ط - الرياض، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٥ / ٢٠ - ٢١ ط المصرية ، وتفسير القرطبي ٩ / ١٢٤ ط الأولى .

(٦) - فتح الباري ١٢ / ٣٦٣ ، ٣٦٤

(٧) - الفروق ٤ / ٤٤٦ ، وتهذيب الفروق ٤ / ٢٧١ ، وفتح الباري ١٢ / ٣٨٧ .

٨ - ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّعْبِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ بَابًا بِعُنْوَانٍ مَنْ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ وَذَكَرَ فِيهِ خَمْسَةَ أَحَادِيثَ مِنْهَا : مَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ ، وَلَا يَمَثُلُ الشَّيْطَانُ بِي » (١) ..

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تُدَلُّ عَلَى جَوَازِ رُؤْيَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ ، وَالنَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ أَقْوَالَ مُخْتَلِفَةً فِي مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ .

وَالصَّحِيحُ مِنْهَا أَنَّ مَقْصُودَهُ أَنَّ رُؤْيَيْهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ لَيْسَتْ بِاطَّلَاءٍ وَلَا أَضْعَاثًا ، بَلْ هِيَ حَقٌّ فِي نَفْسِهَا ، وَلَوْ رُئِيَ عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَصَوَّرُ تِلْكَ الصُّورَةَ لَيْسَ مِنَ الشَّيْطَانِ بَلْ هُوَ مِنْ قِبَلِ

اللَّهُ ، وَقَالَ : وَهَذَا قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الطَّيِّبِ وَغَيْرِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ » (٢) . أَيْ رَأَى الْحَقَّ الَّذِي قَصَدَ إِعْلَامَ الرَّائِي بِهِ ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا وَإِلَّا سَعَى فِي تَأْوِيلِهَا وَلَا يُهْمِلُ أَمْرَهَا ، لِأَنَّهَا إِمَّا بُشِّرَى بِخَيْرٍ ، أَوْ إِذَارَ مِنْ شَرٍّ إِمَّا لِيُخَفِّفَ الرَّائِي ، إِمَّا لِيُنْزَجِرَ عَنْهُ ، وَإِمَّا لِيُنَبِّهَ عَلَى حُكْمٍ يَقَعُ لَهُ فِي دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ (٣) .

وَذَكَرَ الْقَرَأَفِيُّ فِي الْفُرُوقِ أَنَّ رُؤْيِيَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا تَصِحُّ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : صَحَابِيُّ رَأَوْهُ فَعَلِمَ صِفَتَهُ فَانْطَبَعَ فِي نَفْسِهِ مِثَالُهُ فَإِذَا رَأَاهُ جَزَمَ بِأَنَّهُ رَأَى مِثَالَهُ الْمَعْصُومَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَيَنْتَفِي عَنْهُ اللَّبْسُ وَالشَّكُّ فِي رُؤْيِيَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَثَانِيهِمَا : رَجُلٌ تَكَرَّرَ عَلَيْهِ سَمَاعُ صِفَاتِهِ الْمُنْقُولَةِ فِي الْكُتُبِ حَتَّى انْطَبَعَتْ فِي نَفْسِهِ صِفَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَمِثَالُهُ الْمَعْصُومُ ، كَمَا حَصَلَ ذَلِكَ لِمَنْ رَأَاهُ ، فَإِذَا رَأَاهُ جَزَمَ بِأَنَّهُ رَأَى مِثَالَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا يَجْزِمُ بِهِ مَنْ رَأَاهُ ، فَيَنْتَفِي عَنْهُ اللَّبْسُ وَالشَّكُّ فِي رُؤْيِيَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذَيْنِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْجَزْمُ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَأَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمِثَالِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَخْيِيلِ الشَّيْطَانِ ، وَلَا يُفِيدُ قَوْلَ الْمُرِّيِّ لِمَنْ رَأَاهُ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَا قَوْلَ مَنْ يَحْضُرُ مَعَهُ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَكْذِبُ لِنَفْسِهِ وَيَكْذِبُ لِغَيْرِهِ ، فَلَا يَحْصُلُ الْجَزْمُ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ صَرِيحًا فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رُؤْيِيَةِ مِثَالِهِ الْمَخْصُوصِ لَا يُنْفِي مَا تَقَرَّرَ فِي التَّعْبِيرِ أَنَّ الرَّائِي يَرَاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَيْخًا وَشَابًّا وَأَسْوَدَ ، وَذَاهِبَ الْعَيْنَيْنِ ، وَذَاهِبَ الْيَدَيْنِ ، وَعَلَى أَنْوَاعٍ شَتَّى مِنَ الْمُثُلِ الَّتِي لَيْسَتْ مِثَالَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ صِفَاتُ الرَّائِي وَأَحْوَالُهُمْ تَطْهَرُ فِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ كَالْمِرَآةِ لَهُمْ (٤) .

تَرْتَّبُ الْحُكْمَ عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ فِعْلِهِ فِي الرُّؤْيَا (٥)

(١) - صحيح البخاري (٦٩٩٣) ومسلم (٦٠٥٧)

(٢) - صحيح البخاري (٦٩٩٦) ومسلم (٦٠٥٨)

(٣) - فتح الباري (١٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥ ط الرياض)

(٤) - الفروق (٤ / ٢٤٥ ط الأولى) وتهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية - (ج ٤ / ص

٤٦٢) وأنوار البروق في أنواع الفروق - (ج ٨ / ص ٣٩٠ - ٣٩٢)

(٥) - وفي البحر المحيط - (ج ٧ / ص ٣٨٩)

رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ ، عَلَى وَجْهِ حِكَاةِ الْأُسْتَاذِ أَبُو إِسْحَاقَ ، يَكُونُ حُجَّةً وَيُلْزِمُهُ الْعَمَلُ بِهِ ، وَقَدْ سَبَقَ فِيهِ مَزِيدُ بَيَانٍ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَنَامَ لَا يُثَبِّتُ حُكْمًا شَرْعِيًّا وَلَا بَيِّنَةً ، وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا ، وَالشَّيْطَانُ لَا يَتِمَثَّلُ بِهِ ، وَلَكِنَّ النَّائِمَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ التَّحَمُّلِ وَالرَّوَايَةِ لِعَدَمِ تَحْفَظِهِ وَأَمَّا الْمَنَامُ الَّذِي رُويَ فِي الْأَذَانِ ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَمَلِ بِهِ ، فَلَيْسَ الْحُجَّةُ فِيهِ الْمَنَامُ ، بَلْ الْحُجَّةُ فِيهِ أَمْرُهُ بِذَلِكَ فِي مَدَارِكِ الْعِلْمِ .

وفي إرشاد الفحول - (ج ٢ / ص ٢٠٢)

"الفائدة" السابعة: في رؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ذكر جماعة من أهل العلم منهم الأستاذ أبو إسحاق: أنه يكون حجة ويلزم العمل به.

وقيل: لا يكون حجة، لا يثبت به حكم شرعي، وإن كانت رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، والشيطان لا

يتمثل به لكن النائم ليس من أهل التحمل للرواية، لعدم حفظه.

وقيل: إنه يعمل به، ما لم يخالف شرعا ثابتا.

ولا يخفأك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم قد كمله الله عز وجل، وقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (الآية ٣ من سورة المائدة)، ولم يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم يعد موته صلى الله عليه وسلم، إذا قال فيها بقول، أو فعل فيها فعلا يكون دليلا وحجة، بل قد قبضه الله إليه بعد أن كمل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها، وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع، وتبيينها بالموت، وإن كان رسولا حيا وميتا، وبهذا تعلم أن لو قدرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله صلى الله عليه وسلم وفعله حجة عليه، ولا على غيره من الأمة.

:

٩ - مَنْ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ يَقُولُ قَوْلًا أَوْ يَفْعَلُ فِعْلًا فَهَلْ يَكُونُ قَوْلُهُ هَذَا أَوْ فِعْلُهُ حُجَّةً يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْحُكْمُ أَوْ لَا ؟ .

ذَكَرَ الشُّوْكَانِيُّ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ :

الأول: أَنَّهُ يَكُونُ حُجَّةً وَيَلْزَمُ الْعَمَلُ بِهِ ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهَا الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ ؛ لِأَنَّ رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ حَقٌّ وَالشَّيْطَانُ لَا يَتِمَثَّلُ بِهِ .

الثاني: أَنَّهُ لَا يَكُونُ حُجَّةً وَلَا يَثْبُتُ بِهِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ ؛ لِأَنَّ رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَا حَقٌّ وَأَنَّ الشَّيْطَانُ لَا يَتِمَثَّلُ بِهِ لَكِنْ النَّائِمُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ التَّحْمُلِ لِلرَّوَايَةِ لِعَدَمِ حِفْظِهِ .

الثالث: أَنَّهُ يُعْمَلُ بِذَلِكَ مَا لَمْ يُخَالَفْ شَرْعًا ثَابِتًا .

قَالَ الشُّوْكَانِيُّ : وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ الشَّرْعَ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَنَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَمَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } (سورة المائدة ٣) .

وَلَمْ يَأْتِنَا دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رُؤْيَاهُ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَالَ فِيهَا بِقَوْلٍ ، أَوْ فَعَلَ فِيهَا فِعْلًا يَكُونُ دَلِيلًا وَحُجَّةً ، بَلْ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَمَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا شَرَعَهُ لَهَا عَلَى لِسَانِهِ وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ ذَلِكَ حَاجَةٌ لِلْأُمَّةِ فِي أَمْرِ دِينِهَا ، وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْبَعْثَةُ لِتَبْلِيغِ الشَّرَائِعِ وَتَبْيِينِهَا بِالْمَوْتِ وَإِنْ كَانَ رَسُولًا حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَبِهَذَا تَعَلَّمَ أَنَّا لَوْ قَدَرْنَا ضَبْطَ النَّائِمِ لَمْ يَكُنْ مَا رَأَاهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ فِعْلِهِ حُجَّةً عَلَيْهِ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ . (١)

وَذَكَرَ صَاحِبُ تَهْذِيبِ الْقُرُوقِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ صِحَّةِ الرُّؤْيَا التَّعْوِيلُ عَلَيْهَا فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ لِاحْتِمَالِ الْخَطَا فِي التَّحْمُلِ وَعَدَمِ ضَبْطِ الرَّائِي ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يَثْبُتُ فِي الْيَقِظَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى مَا ثَبَتَ بِالنَّوْمِ عِنْدَ التَّعَارُضِ ، قَالَ الْعَزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ لِرَجُلٍ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ يَقُولُ لَهُ إِنَّ فِي الْمَحَلِّ الْقَلْبِيِّ رَكَازًا أَذْهَبَ فَخَذَهُ وَلَا خُمْسَ عَلَيْكَ فَذَهَبَ وَوَجَدَهُ وَاسْتَفْتَى ذَلِكَ الرَّجُلَ الْعُلَمَاءَ ، فَقَالَ لَهُ الْعَزُّ : أَخْرِجِ الْخُمْسَ فَإِنَّهُ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ ، وَقُصَارَى رُؤْيَاكَ الْأَحَادُ ، فَلِذَلِكَ لَمَّا اضْطَرَبَتْ آرَاءُ الْفُقَهَاءِ بِالتَّحْرِيمِ وَعَدَمِهِ فِيمَنْ رَأَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ لَهُ إِنَّ أَمْرًا تَكُ طَائِقٌ ثَلَاثًا وَهُوَ يَجْزِمُ أَنَّهُ لَمْ يُطْلَقْهَا لِتَعَارُضِ خَبَرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَحْرِيمِهَا فِي النَّوْمِ ، وَإِخْبَارِهِ فِي الْيَقِظَةِ فِي شَرِيعَةِ الْمُعْظَمَةِ أَنَّهَا مُبَاحَةٌ لَهُ ، اسْتَظْهَرَ الْأَصْلُ أَنَّ إِخْبَارَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْيَقِظَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْخَبَرِ فِي النَّوْمِ لِتَطَرُّقِ الْإِحْتِمَالِ لِلرَّائِي بِالْغَلَطِ فِي ضَبْطِهِ الْمِثَالِ قَالَ : فَإِذَا عَرَضْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا إِحْتِمَالَ طُرُوقِ الطَّلَاقِ مَعَ الْجَهْلِ بِهِ وَاحْتِمَالِ طُرُوقِ الْغَلَطِ فِي الْمِثَالِ فِي النَّوْمِ وَجَدْنَا الْغَلَطَ فِي الْمِثَالِ أَيْسَرَ وَأَرْجَحَ ، أَمَا

صَبَطُ عَدَمِ الطَّلَاقِ فَلَا يَخْتَلِ إِلَّا عَلَى النَّادِرِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْعَمَلُ بِالرَّاجِحِ مُتَعَيِّنٌ ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ عَنْ حَلَالٍ إِنَّهُ حَرَامٌ ، أَوْ عَنْ حَرَامٍ إِنَّهُ حَلَالٌ ، أَوْ عَنْ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ قَدَمْنَا مَا ثَبَتَ فِي الْيَقْظَةِ عَلَى مَا رَأَى فِي النَّوْمِ ، كَمَا لَوْ تَعَارَضَ خَبْرَانِ مِنْ أَخْبَارِ الْيَقْظَةِ صَحِيحَانِ فَإِنَّا نَقْدِمُ الْأَرْجَحَ بِالسَّنَدِ ، أَوْ بِاللَّفْظِ ، أَوْ بِفَصَاحَتِهِ ، أَوْ قَلَّةِ الْإِحْتِمَالِ فِي الْمَجَازِ أَوْ غَيْرِهِ ، فَكَذَلِكَ خَبَرُ الْيَقْظَةِ وَخَبَرُ النَّوْمِ يَخْرُجَانِ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ (٢) .
تَعْبِيرُ الرُّوْيَا :

(١) - إرشاد الفحول / ٢٤٩ ط . الحلبي .

(٢) - تهذيب الفروق (٤ / ٢٧٠ - ٢٧١ ط - الأولى) و أنوار البروق في أنواع الفروق - (ج ٨ / ص ٣٩٤ - ٣٩٦)

١٠ - التَّعْبِيرُ كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ خَاصُّ تَفْسِيرِ الرُّوْيَا ، وَمَعْنَاهُ الْعُبُورُ مِنْ ظَاهِرِهَا إِلَى بَاطِنِهَا ، وَقِيلَ : هُوَ النَّظَرُ فِي الشَّيْءِ ، فَيُعْتَبَرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ حَتَّى يَخْصُلَ عَلَى فَهْمِهِ حَكَاهُ الْأَزْهَرِيُّ ، وَبِالْأَوَّلِ جَزَمَ الرَّاجِحُ ، وَقَالَ أَصْلُهُ مِنَ الْعَبْرِ يَفْتَحُ ثُمَّ سَكُونٌ ، وَهُوَ التَّجَاوُزُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَخَصُّوا تَجَاوُزَ الْمَاءِ بِسَبَاحَةٍ أَوْ فِي سَفِينَةٍ أَوْ غَيْرِهَا بِلَفْظِ الْعُبُورِ بِصَمْتَيْنِ ، وَعَبَرَ الْقَوْمُ إِذَا مَاتُوا كَأَنَّهُمْ جَاوَزُوا الْقَنْطَرَةَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ، قَالَ : وَالْإِعْتِبَارُ وَالْعِبَرَةُ الْحَالَةُ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْمُشَاهِدِ إِلَى مَا لَيْسَ بِمُشَاهَدٍ ، وَيُقَالُ : عَبَرْتُ الرُّوْيَا بِالْتَّخْفِيفِ إِذَا فَسَّرْتُهَا ، وَعَبَّرْتُهَا بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ (١) .

وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّوْيَا تَعْبُرُونَ } (سورة يوسف / ٤٣) أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ عُبُورِ النَّهْرِ ، فَعَابَرِ الرُّوْيَا يَعْبُرُ بِمَا يُوَوِّلُ إِلَيْهِ أَمْرُهَا ، وَيَنْتَقِلُ بِهَا كَمَا فِي رُوحِ الْمَعَانِي مِنَ الصُّورَةِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الْمَنَامِ إِلَى مَا هِيَ صُورَةٌ وَمِثَالٌ لَهَا مِنَ الْأُمُورِ الْإِفَاقِيَّةِ وَالْأَنْفُسِيَّةِ الْوَاقِعَةِ فِي الْخَارِجِ (٢) .

هَذَا وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوقِعِينَ صُورًا لِتَعْبِيرِ الرُّوْيَا وَتَأْوِيلِهَا ، وَمِنْ تِلْكَ الصُّورِ : تَأْوِيلُ الشَّيْبِ بِالذِّينِ وَالْعِلْمِ ، فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ الْقَمِيصِ فِي الْمَنَامِ بِالذِّينِ وَالْعِلْمِ (٣) .
وَالْقَدَرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمَا هُوَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَسْتُرُ صَاحِبَهُ وَيَجْمَلُهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَالْقَمِيصُ يَسْتُرُ بَدَنَهُ ، وَالْعِلْمُ وَالذِّينُ يَسْتُرُ رُوحَهُ وَقَلْبَهُ ، وَيَجْمَلُهُ بَيْنَ النَّاسِ .

وَتَأْوِيلُ اللَّبَنِ بِالْفِطْرَةِ لِمَا فِي كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ التَّغْدِيَةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْحَيَاةِ وَكَمَالِ النَّشْأَةِ . وَتَأْوِيلُ الْبَقَرِ بِأَهْلِ الدِّينِ وَالْخَيْرِ الَّذِينَ بِهِمْ عِمَارَةُ الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ الْبَقَرَ كَذَلِكَ .

وَتَأْوِيلُ الزَّرْعِ وَالْحَرْثِ بِالْعَمَلِ ، لِأَنَّ الْعَامِلَ زَارِعٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

وَتَأْوِيلُ الْخَشَبِ الْمَقْطُوعِ الْمُتَسَانِدِ بِالْمُنَافِقِينَ ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُنَافِقَ لَا رُوحَ فِيهِ وَلَا ظِلَّ وَلَا ثَمَرَ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَشَبِ الَّذِي هُوَ كَذَلِكَ .

وَتَأْوِيلُ النَّارِ بِالْفِتْنَةِ لِإِفْسَادِ كُلِّ مِنْهُمَا مَا يَمُرُّ عَلَيْهِ وَيَتَّصِلُ بِهِ .

وَتَأْوِيلُ التُّجُومِ بِالْعُلَمَاءِ وَالْأَشْرَافِ لِحُصُولِ هِدَايَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِكُلِّ مِنْهُمَا ، وَلَا رَتَفَاعَ الْأَشْرَافِ بَيْنَ النَّاسِ كَارْتِفَاعِ التُّجُومِ .

وَتَأْوِيلُ الْغَيْثِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَصَلَاحِ حَالِ النَّاسِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصُّورِ الْوَارِدَةِ فِي تَعْبِيرِ الرُّوْيَا وَالْمَأْخُودَةِ مِنَ الْأَمْثِلَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ ، ثُمَّ قَالَ : وَبِالْجُمْلَةِ فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا أُصُولٌ

وَقَوَاعِدُ لِعِلْمِ التَّعْبِيرِ لِمَنْ أَحْسَنَ الْإِسْتِدْلَالَ بِهَا ، وَكَذَلِكَ مَنْ فَهَمَ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يُعَبِّرُ بِهِ الرُّوْيَا أَحْسَنَ تَعْبِيرٍ ، وَأُصُولُ

التَّعْبِيرِ الصَّحِيحَةِ إِنَّمَا أُخِذَتْ مِنْ مِشْكَاةِ الْقُرْآنِ ، فَالسَّيِّئَةُ تُعَبَّرُ بِالتَّجَاةِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّيِّئَةِ } (سورة العنكبوت / ١٥) وَتُعَبَّرُ بِالتَّجَاةِ . وَالطُّفُلُ الرُّضِيعُ يُعَبَّرُ بِالْعُدُوِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } (سورة القصص / ٨) .
وَالرَّمَادُ بِالْعَمَلِ الْبَاطِلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ } (سورة إبراهيم / ١٨) فَإِنَّ الرُّؤْيَا أَمْثَالٌ مَضْرُوبَةٌ لِيَسْتَدِلَّ الرَّائِي بِمَا ضُرِبَ لَهُ مِنَ الْمَثَلِ عَلَى نَظِيرِهِ ، وَيَعْبُرُ مِنْهُ إِلَى شَبِّهِهِ (٤) .

(١) - المصباح المنير، فتح الباري (١٢ / ٣٥٢ ط - الرياض) .

(٢) - تفسير القرطبي (٩ / ٢٠٠ ط - المصرية) ، روح المعاني (١٢ / ٢٥٠ ط المنيرية) .

(٣) - عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ ، وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ » . قَالُوا فَمَا أَوَّلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « الدِّينَ » . صحيح البخاري (٢٣) ومسلم (٦٣٤٠)

(٤) - أعلام الموقعين ١ / ١٩٠ - ١٩٥ ط - الكليات وإعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج ١ / ص ٢٥٨) وحجة الله البالغة - (ج ٢ / ص ٣٤٧)

هَذَا وَمِمَّا وَرَدَ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا مِنَ السُّنَّةِ عَنْ أَبِي مُوسَى - أَرَاهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ ، فَذَهَبْتُ وَهَلَيْتُ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرْتُ ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ ، وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقْرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَثَوَابِ الصَّدَقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ » (١) .

وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُوتِيتُ خَرَاتِنَ الْأَرْضِ ، فَوَضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَكَبَّرَا عَلَيَّ وَأَهْمَانِي ، فَأَوْحَى إِلَيَّ أَنْ أَتُخَفَّضَهُمَا ، فَفَخَفَّضْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُمَا الْكُذَّابِينَ الَّذِينَ أَنَا بَيْنَهُمَا صَاحِبٌ صَنْعَاءُ وَصَاحِبُ الْيَمَامَةِ » (٢) .
وَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « رَأَيْتُ كَأَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ ، خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى قَامَتْ بِمَهْيَعَةٍ - وَهِيَ الْجُحْفَةُ - فَأَوَّلْتُ أَنَّ وَبَاءَ الْمَدِينَةِ تَهْلُ إِلَيْهَا » (٣) .

وَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى - أَرَاهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ ، فَذَهَبْتُ وَهَلَيْتُ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرْتُ ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ ، وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقْرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَثَوَابِ الصَّدَقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ » (٤) .
هَذَا وَلَا تَقْصُ الرُّؤْيَا عَلَى غَيْرِ شَفِيقٍ وَلَا نَاصِحٍ ، وَلَا يَحْدُثُ بِهَا إِلَّا عَاقِلٌ مُجِبٌّ ، أَوْ نَاصِحٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } (سورة يوسف / ٥) وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا

تَقْصُ الرُّؤْيَا إِلَّا عَلَى عَالِمٍ أَوْ نَاصِحٍ . (٥)
وَأَنْ لَا يَقْصَهَا عَلَى مَنْ لَا يُحْسِنُ التَّأْوِيلَ ، لِقَوْلِ مَالِكٍ : لَا يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا إِلَّا مَنْ يُحْسِنُهَا ، فَإِنْ رَأَى خَيْرًا أَخْبَرَ بِهِ ،
وَأِنْ رَأَى مَكْرُوهًا فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْنُتْ ، قِيلَ : فَهَلْ يُعَبِّرُهَا عَلَى الْخَيْرِ وَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْمَكْرُوهِ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ :
إِنَّهَا عَلَى مَا تَأَوَّلْتَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا ، ثُمَّ قَالَ : الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنَ النُّبُوءَةِ ، فَلَا يُتَلَاعَبُ بِالنُّبُوءَةِ .
وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ ، وَلْيَقُلْ ثَلَاثًا ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ ،
وَإِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ ، وَأَنْ يُحَدِّثَ بِهَا ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ
رَبِّ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ يَقُولُ : " لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتَمَرُّضَنِي حَتَّى سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ يَقُولُ : وَأَنَا
كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتَمَرُّضَنِي حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللَّهِ ، فَإِذَا رَأَى
أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ
وَلْيَقُلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ » . (٦) .

(١) - صحيح البخارى (٣٦٢٢) ومسلم (٦٠٧٢) = الوهل : الاعتقاد والظن

(٢) - صحيح البخارى (٧٠٣٧)

(٣) - صحيح البخارى (٧٠٣٨)

(٤) - صحيح البخارى (٣٦٢٢)

(٥) - الترمذى (٢٤٤٩) صحيح

(٦) - صحيح البخارى (٧٠٤٤)

وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ أَيُّضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا يُحِبُّهَا ، فَإِنَّهَا مِنَ اللَّهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا ، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا ، وَإِذَا
رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ ، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ » (١) .

قد يكشف الله تعالى لبعض الناس عن بعض الغيب

(٢)

قال الله تعالى في محكم كتابه: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
[النمل: ٦٥] .

فالغيب المطلق لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وقد يكشف الله تعالى لبعض الناس عن بعض الغيب وخاصة عباده
الصالحين وأوليائه المتقين، هذا فضلاً عما يطلع عليه أنبياءه بطريق الوحي.

فقد جاء في صحيح البخارى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « إِنَّهُ قَدْ
كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » (٣) ..

واحدثون: اللهمون، الذين يجري الله تعالى على ألسنتهم بعضاً من المغيبات كأنما حدثوا بها.

ومن ذلك الرؤيا الصادقة التي تحصل لبعض الناس، فيرى بعضهم شيئاً من المغيبات، وبعد فترة تتحقق الرؤيا كما

آخر، وهذا مشاهد في كل زمان ومكان.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوءِ». رواه البخاري ومسلم. (٤)

وأما إمكان تحقق ذلك لبعض الأشخاص فلا مانع منه شرعاً ولا عقلاً، ولكن ما كان منه على جهة الكرامة فلا بد لصاحبه أن يكون تقياً يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه وملبسه وصدق حديثه. كما ورد عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّحْزِينُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمِنَ الرُّؤْيَا مَا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ رَكَعَتَيْنِ، وَآكِرَهُ الْغُلَّ فِي النَّوْمِ، وَيَعْجِبْنِي الْقَيْدُ، لِأَنَّهُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوءِ، فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تَكَاذُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِيبُ، وَأَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا" (٥). . .
وبعض ذلك يكون بالملكة والفطنة والتأمل والفراسة، كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ [الحجر: ٧٥].
أي المتفكرين الناظرين المعبرين.

وقد حصل كثير من هذا لكثير من السلف الصالح، مثل الإمام مالك والشافعي ومحمد بن الحسن. وما يحصل من تحقق توقعات بعض الخليلين أو المراقبين، أكثره نتيجة للتأمل والاستقراء والتجربة وطول الخبرة ومعرفة التاريخ وأحوال الناس.

ومثل ذلك ما تخبر به مصالح الأرصاد الجوية من هطول الأمطار وهبوب الرياح والمد والجزر، ولا مانع من أن يحصل ذلك عن طريق الإلهام والمكاشفات الإلهية.

هل الأولياء معصومون؟

أجمع المسلمون أن العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام، وأما من دونهم كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فليسوا بمعصومين إجماعاً فضلاً عن دونهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦): "وَالْأَوْلِيَاءُ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مُحَدَّثُونَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يَكْلُمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعَمْرُ» (٧).

(١) - صحيح البخاري (٧٠٤٥)

(٢) - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٥٧٦٢) - رقم الفتوى ٢٥٦٦٠ قد يكشف الله تعالى لبعض الناس عن بعض الغيب - تاريخ الفتوى : ٢٣ رمضان ١٤٢٣

(٣) - صحيح البخاري (٣٤٦٩)

(٤) - صحيح البخاري (٦٩٨٧) ومسلم (٦٠٤٣-٦٠٤٨)

(٥) - المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٩ / ص ١٢٠) (٢٧٦) صحيح

(٦) - مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٢٢٦)

(٧) - صحيح البخاري (٣٦٨٩)

فَهَذَا الْحَدِيثُ يُدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُمَرُ ؛ وَأَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ إِذْ هُوَ الصَّدِيقُ فَالْمُحَدَّثُ - وَإِنْ كَانَ يُلْهِمُ وَيُحَدِّثُ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى - فَعَلَيْهِ أَنْ يُعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ كَمَا

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الشاذلي : قَدْ ضَمِنَتْ لَنَا الْعِصْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَلَمْ تُضْمَنْ لَنَا الْعِصْمَةُ فِي الْكُشُوفِ وَالْإِلْهَامِ . وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يُبَيِّنُ لَهُ أَشْيَاءَ تُخَالِفُ مَا يَقَعُ لَهُ كَمَا بَيَّنَّ لَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَيَوْمَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَوْمَ قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ ؛ فَتَارَةً يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ وَتَارَةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، وَرُبَّمَا قَالَ الْقَوْلُ : فَتَرُدُّ عَلَيْهِ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَوْلُهُ وَتُبَيِّنُ لَهُ الْحَقَّ فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدْعُ قَوْلُهُ ، كَمَا قَدَّرَ الصَّدَاقُ (١) وَرُبَّمَا يَرَى رَأْيًا فَيَذْكُرُ لَهُ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَعْمَلُ بِهِ وَيَدْعُ رَأْيَهُ (٢) ، وَكَانَ يَأْخُذُ بَعْضَ السُّنَنِ عَمَّنْ هُوَ ذُوهُ فِي قَضَايَا مُتَعَدِّدَةٍ (٣) ، وَكَانَ يَقُولُ الْقَوْلَ فَيَقَالُ لَهُ : أَصَبْتَ فَيَقُولُ وَاللَّهِ مَا يَنْدِرِي عُمَرُ أَصَابَ الْحَقُّ أَمْ أَخْطَأَهُ ؟ .

فَإِذَا كَانَ هَذَا إِمَامَ الْمُحَدِّثِينَ فَكُلُّ ذِي قَلْبٍ يُحَدِّثُهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ ذُوْن عَمْرٍ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ بَلِ الْخَطَأُ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ ، وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ تَدَّعِي أَنْ الْوَلِيَّ مَحْفُوظٌ ، وَهُوَ نَظِيرُ مَا يَثْبُتُ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالْحَكِيمُ التَّرْمِذِيُّ قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا - فَهَذَا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِلْسُّنَةِ وَالْإِجْمَاعِ .

(١) - عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : أَلَا لَا تُعَالُوا فِي صِدَاقِ النِّسَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرِ مِنْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ سَبَقَ إِلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ . ثُمَّ نَزَلَ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ قَالَ : بَلِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَتْ : نَهَيْتِ النَّاسَ أَنْ يُعَالُوا فِي صِدَاقِ النِّسَاءِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَنِيرِ فَقَالَ لِلنَّاسِ : إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُعَالُوا فِي صِدَاقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَأَ لَهُ . هَذَا مُنْقَطِعُ السَّنَنِ الْكَبْرَى لِلِسَّهْقِيِّ (ج ٧ / ص ٢٣٣) (١٤٧٢٥)

ومجمع الزوائد (٧٥٠٢) وهو حسن لغيره

انظر إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٤٧) وفتاوى الأزهري - (ج ٩ / ص ١٦٨)

(٢) - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَدْعُورٌ فَقَالَ اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَارْجَعْتُ فَقَالَ مَا مَنَعَكَ قُلْتُ اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَارْجَعْتُ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِذَا اسْتَأْذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، فَلْيَرْجِعْ » . فَقَالَ وَاللَّهِ لَتَقِيمَنَّ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ . أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ أُنْبِئُ بَنُ كَعْبٍ وَاللَّهِ لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ ، فَكُنْتُ أَصْغَرُ الْقَوْمِ ، فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ ذَلِكَ . صحيح البخاري (٦٢٤٥)

(٣) - عَنْ عُمَرَ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو بْنِ أَوْسٍ ، فَحَدَّثَهُمَا بِجَالَةِ سَنَةِ سَبْعِينَ - عَامَ حِجٍّ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ - عِنْدَ دَرَجِ زَمْزَمَ قَالَ كُنْتُ كَاتِبًا لِحِزْبِ بَنِ مُعَاوِيَةَ عَمِّ الْأَخْنَفِ ، فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةِ فَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ مِنَ الْمَجُوسِ . وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَحَدَ الْجَزِيَةِ مِنَ الْمَجُوسِ حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسٍ هَجَرَ . صحيح البخاري (٣١٥٦- ٣١٥٧)

وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ : يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) ، وَإِنْ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْهُدَى وَالتُّورِ وَالْإِصَابَةِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ أَفْضَلَ مِنَ الْمُحَدِّثِ ، لِأَنَّ الصِّدِّيقَ

يَأْخُذُ مِنْ مِشْكَاتِ الثَّبُورِ فَلَا يَأْخُذُ إِلَّا شَيْئًا مَعْصُومًا مَحْفُوظًا . وَأَمَّا الْمُحَدَّثُ فَيَقَعُ لَهُ صَوَابٌ وَخَطَأٌ ، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ تَمَيَّزَ صَوَابُهُ مِنْ خَطِئِهِ ؛ وَبِهَذَا صَارَ جَمِيعُ الْأَوْلِيَاءِ مُفْتَخِرِينَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوْا جَمِيعَ أُمُورِهِمْ بِآثَارِ الرَّسُولِ ، فَمَا وَافَقَ آثَارَ الرَّسُولِ فَهُوَ الْحَقُّ وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَإِنْ كَانُوا مُجْتَهِدِينَ فِيهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُشِيهُهُمْ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ خَطَاهُمْ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَعْظَمَ اهْتِدَاءً وَاتِّبَاعًا لِلآثَارِ النَّبَوِيَّةِ فَهُمْ أَعْظَمُ إِيمَانًا وَتَقْوَى " . اهـ

وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة بقوله عز وجل : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا { المائدة: ٣ } . وبموته صلى الله عليه وسلم انقطع عن الدنيا وعن اتصاله بالخلق ، فمن ادعى أن له صلة به صلى الله عليه وسلم أو أنه يجالسه أو يأخذ عنه العلم أو يتلقى منه الأوامر فقد افترى إثماً ميبناً وكذب على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال شيخ الإسلام في موضع آخر (٢) : " وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى اشْتِخَاصًا فِي الْقِطْعَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنَ الصَّالِحِينَ وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ : إِمَّا الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ غَيْرَهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَّةً أَوْ تَوْبَةً فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَّةٌ وَشَعْرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مَقْصَرٌ وَإِنَّمَا الْجَنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَرُوهُ وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ " .

الفرق بين الولي ومدعي الولاية (٣)

المفهوم الشرعي لكلمة (ولي الله) يتجلى واضحاً في قوله تعالى : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) { [يونس/ ٦٢ ، ٦٣] ، فكل من كان مؤمناً تقياً فهو من أولياء الله تعالى .

وليست الولاية محصورة في أشخاص معينين ، ولا يشترط حصولها وقوع الكرامة .

قال القرطبي رحمه الله (٤) : " قَالَ عَلَمَاؤُنَا - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - : وَمَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِمَّنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ كَرَامَاتٍ وَخَوَارِقَ لِلْعَادَاتِ فَلَيْسَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى وَلَايَتِهِ ، خِلَافًا لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ حَيْثُ قَالُوا : إِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا مَا أَظْهَرَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مَا أَظْهَرَ .

وَدَلِيلُنَا أَنَّ الْعِلْمَ بَأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا ، وَإِذَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا لَمْ يُمْكِنَّا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْوَلِيَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَنْ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُؤْفِي إِلَّا بِالْإِيمَانِ . وَلَكَمَا اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّكَ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ يُؤْفِي بِالْإِيمَانِ ، وَلَا الرَّجُلَ نَفْسَهُ يَقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ يُؤْفِي بِالْإِيمَانِ ، عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ يَدُلُّ عَلَى وَلَايَتِهِ لِلَّهِ " .

- (١) - انظر الأحكام للآمدني - (ج ١ / ص ١٠) والأحكام لابن حزم - (ج ٦ / ص ٨٥٧) والأحكام لابن حزم - (ج ٦ / ص ٨٨٣) وإعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج ٤ / ص ٥٢) وكتب وليد بن راشد السعيدان - (ج ٢ / ص ٣٢) وكتب وليد بن راشد السعيدان - (ج ٢ / ص ٧٣) وكتب وليد بن راشد السعيدان - (ج ٣ / ص ٧٢) ومن أصول الفقه على منهج أهل الحديث - الرقمية - (ج ١ / ص ١٧٥) والخلاف بين العلماء - الرقمية - (ج ١ / ص ٣٢) وشرح رسالة رفع الملام عن الأئمة الأعلام - (ج ١ / ص ٢) والموافقات - (ج ٥ / ص ١٣٤) وقوت القلوب - (ج ١ / ص ٢٢٥)

(٢) - مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢٨٩)

(٣) - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٢ / ص ١٩٣٤) - رقم الفتوى ٤٤٤٥

الفرق بين الولي ومدعي الولاية

- تاريخ الفتوى : ٠٣ ربيع الثاني ١٤٢٢

(٤) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - (ج ١ / ص ١٢٢)

وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا وَرَجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَكِنَّ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (١) ..

فطريق الولاية في الكتاب والسنة هو المحافظة على الفرائض والحرص على النوافل، والتحقق بمقامات الإيمان، والتزین بلباس التقوى.

وبهذا يعلم أن الجانين والفسقة والعصاة لا يدخلون في ذلك، وغاية المجنون أن يرفع عنه القلم، لا أن يكون ولياً، فضلاً عن أن يكشف عنه الحجاب، فإن الحجاب لا يكشف لأحد في الدنيا، والوحي لا يتنزل إلا على الأنبياء، وإذا كان الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء لم يكن هذا دليلاً على ولايته، فإن الخوارق تقع على يد الكافر والملحد والفاقد كما تقع على يد المؤمن. ولهذا قال الجليل رحمه الله: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ولم يكتب الحديث، فلم يتفقه، فلا يقتدى به.

وقال: "الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه، وعلى المقتفين أثره والمتابعين. وليس للولي أن يدعي الولاية لنفسه أو يشهد لها بذلك، فإن هذا من التزكية المذمومة.

كما أن من المفاهيم الباطلة حول الولاية ما يلي:

- ١ - اعتقاد أن الولي يتصرف في الكون، ويجوز دعاؤه والاستغاثة به في الشدائد من دون الله تعالى .
- ٢ - اعتقاد عصمة الولي ، وأن الله لا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، كما يقول القشيري عفا الله عنه.
- ٣ - اعتقاد أن الولي يعلم الغيب، وأنه يغني عن نفسه وعن الخلق.
- ٤ - أو أن الولي يتطور ويظهر في أشكال مختلفة، فتارة تراه أسداً، وتارة تراه شيخاً، وتارة تراه صبيّاً. وأنه يوجد في أماكن مختلفة في وقت واحد.
- ٥ - اعتقاد أن الولي يباح له مخالفة الشريعة، وأنه يجب التسليم له وعدم الإنكار عليه ولو ترك الجمع والجماعات، لأنه صاحب حال كما يقول بعض الجهال .
- ٦ - اعتقاد أن الولاية تكون بيد الولي الكبير يعطيها لمن يشاء من أتباعه، وهذا ضلال لا يحتاج إلى إقامة الدليل على بطلانه.

٧ - اعتقاد أن للولاية خاتماً كما أن للنسب خاتماً وهذا من الضلال المبين.

٨ - اعتقاد أن الولي يمكنه سلب العلم والهداية من مخالفه، وهذا داخل تحت اعتقادهم أنه يتصرف في الكون. فهذه الاعتقادات الباطلة مما يعلم يقيناً أنها مخالفة للكتاب والسنة ولما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأنها سبيل أولياء الشيطان لا أولياء الرحمن..

خاتم الأولياء (٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" قال ابن عربي : (السَّابِعُ) أَنَّهُ قَالَ : " وَمِنَّا مَنْ عَلِمَ فَلَمْ يَقُلْ مِثْلَ هَذَا وَهُوَ أَعْلَى الْقَوْلِ ، بَلْ أَعْطَاهُ الْعِلْمَ وَالسُّكُوتَ مَا أَعْطَاهُ الْعَجْزَ وَهَذَا هُوَ أَعْلَى عَالِمٍ بِاللَّهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ إِلَّا لِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالرُّسُلِ : إِلَّا مِنْ مِشْكَاةِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ وَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا مِنْ مِشْكَاةِ الْوَلِيِّ الْخَاتَمِ ؛ حَتَّى إِنَّ الرُّسُلَ لَا يَرَوْنَهُ مَتَى رَأَوْهُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ . فَإِنَّ الرِّسَالََةَ وَالثُّبُوءَ - أَعْنِي ثُبُوءَ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتِهِ - يَنْقَطِعَانِ وَالْوِلَايَةُ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا ؛ فَالْمُرْسَلُونَ مِنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءُ : لَا يَرَوْنَ مَا ذَكَرْنَاهُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَكَيْفَ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ؟ . وَإِنْ كَانَ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ تَابِعًا فِي الْحُكْمِ لِمَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الرُّسُلِ مِنَ التَّشْرِيعِ ، فَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي مَقَامِهِ وَلَا يُنَاقِضُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ وَجْهِ يَكُونُ أَنْزَلَ كَمَا أَنَّهُ مِنْ وَجْهِ يَكُونُ أَعْلَى - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَمَّا مَثَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثُّبُوءَ بِالْحَاطِطِ مِنَ اللَّيْنِ . "

(١) - صحيح البخارى (٦٥٠٢)

(٢) - انظر مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١ / ص ١٤٩) ، مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٢١٩ - ٢٢٩)

فَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ أَوَاقِ الْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ وَتَنْقِصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَا لَا تَقُولُهُ لَا الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ؛ وَمَا أَشْبَهَهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ بِمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ : فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ أَنَّ هَذَا لَا عَقْلَ وَلَا قُرْآنَ . وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ هُنَا - مِنْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ تَسْتَفِيدُ مِنْ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِي بَعْدَهُمْ - هُوَ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْمُتَقَدِّمَ لَا يَسْتَفِيدُ مِنَ الْمُتَأَخَّرِ . وَمُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلًا . وَقَدْ يَزْعُمُ أَنَّ الْعِلْمَ - الَّذِي هُوَ عِنْدَهُ - أَعْلَى الْعِلْمِ وَهُوَ الْقَوْلُ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَأَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ وَحَقِيقَةُ تَغْطِيلِ الصَّانِعِ وَجْهَهُ وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يُظْهِرُهُ فِرْعَوْنُ فَلَمْ يَكْفِهِ زَعْمُهُ أَنَّ هَذَا حَقٌّ حَتَّى زَعَمَ أَنَّهُ أَعْلَى الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَكْفِهِ ذَلِكَ حَتَّى زَعَمَ أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا يَرَوْنَهُ مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ .

فَجَعَلَ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَجَعَلَهُمْ يَرَوْنَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ مِشْكَاةِهِ . ثُمَّ أَخَذَ يَبِينُ ذَلِكَ فَقَالَ : فَإِنَّ الرِّسَالََةَ وَالثُّبُوءَ : - أَعْنِي ثُبُوءَ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتَهُ - يَنْقَطِعَانِ وَالْوِلَايَةُ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا . فَالْمُرْسَلُونَ مِنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءُ لَا يَرَوْنَ مَا ذَكَرْنَاهُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَكَيْفَ بِالْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلًا ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، فَإِنَّ هَذَا كُفْرٌ ظَاهِرٌ ، فَرَعَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا تَنْقَطِعُ ثُبُوءُ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتُهُ بِعَيْنِي ، وَأَمَّا ثُبُوءُ التَّحْقِيقِ وَرِسَالََةُ التَّحْقِيقِ - وَهِيَ الْوِلَايَةُ عَنْهُمْ - فَلَمْ تَنْقَطِعْ ، وَهَذِهِ الْوِلَايَةُ عِنْدَهُمْ هِيَ أَفْضَلُ مِنَ الثُّبُوءِ وَالرِّسَالََةِ ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ : -

مَقَامُ الثُّبُوءِ فِي بَرَزَخِ فَوْقَ الرُّسُولِ وَدُونِ الْوَلِيِّ

وَقَالَ فِي الْقُصُوصِ فِي : (كَلِمَةٍ عَزِيزَةٍ فَإِذَا سَمِعْتَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ أَوْ يُنْقَلُ إِلَيْكَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : الْوَلَايَةُ أَعْلَى مِنَ الثُّبُوتِ : فَلَيْسَ يُرِيدُ ذَلِكَ الْقَائِلُ إِلَّا مَا ذَكَرْنَاهُ . أَوْ يَقُولُ : إِنَّ الْوَلِيَّ فَوْقَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ ؛ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَلِيٌّ : أَمُّ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ لَا أَنَّ الْوَلِيَّ التَّابِعَ لَهُ أَعْلَى مِنْهُ ، فَإِنَّ التَّابِعَ لَا يُدْرِكُ الْمَتَوَعَّأَ أَبَدًا فِيمَا هُوَ تَابِعٌ لَهُ فِيهِ إِذْ لَوْ أَدْرَكَهُ لَمْ يَكُنْ تَابِعًا لَهُ " . وَإِذَا حَقَّقُوا عَلَى ذَلِكَ قَالُوا : إِنَّ وَلَايَةَ النَّبِيِّ فَوْقَ ثُبُوتِهِ وَإِنْ ثُبُوتُهُ فَوْقَ رِسَالَتِهِ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ بِوَلَايَتِهِ عَنِ اللَّهِ ثُمَّ يَجْعَلُونَ مِثْلَ وَلَايَتِهِ ثَابِتَةً لَهُمْ وَيَجْعَلُونَ وَلَايَةَ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ أَكْثَمَ مِنْ وَلَايَتِهِ ، وَأَنَّ وَلَايَةَ الرَّسُولِ تَابِعَةٌ لَوَلَايَةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِي ادَّعَاهُ .

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ أَنْوَاعٌ قَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ :

(مِنْهَا) أَنَّ دَعْوَى الْمُدَّعِي وَجُودَ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مَا ادَّعَاهُ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ . وَلَمْ يَذْكُرْ هَذَا أَحَدٌ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِ (خَتَمِ الْوَلَايَةِ) وَقَدْ ذَكَرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا هُوَ خَطَأٌ وَغَلَطٌ مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ . وَهُوَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ فِيهِ فَضْلٌ وَمَعْرِفَةٌ وَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ الْحَسَنِ الْمَقْبُولِ وَالْحَقَائِقِ النَّافِعَةِ أَشْيَاءٌ مَحْمُودَةٌ - فِي كَلَامِهِ مِنَ الْخَطَأِ : مَا يَجِبُ رَدُّهُ وَمِنْ أَشْعِهَا مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ (خَتَمِ الْوَلَايَةِ) مِثْلَ دَعْوَاهُ فِيهِ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْمَتَأَخِّرِينَ مِنْ دَرَجَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْثَمُ مِنْ دَرَجَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَغَيْرِهِمَا . ثُمَّ إِنَّهُ تَنَاقَضَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ؛ لَمَّا حَكَى عَنْ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّ الْوَلِيَّ يَكُونُ مُنْفَرِدًا عَنِ النَّاسِ فَأَبْطَلَ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَقَالَ : يَلْزَمُ هَذَا أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَبْطَلَ ذَلِكَ .

(وَمِنْهَا) أَنَّهُ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَا يُشْعِرُ أَنْ تَرَكَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةَ - وَلَوْ أَنَّهَا التَّطَوُّعَاتُ الْمَشْرُوعَةُ - أَفْضَلُ فِي حَقِّ الْكَامِلِ ذِي الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَهَذَا أَيْضًا خَطَأٌ عِنْدَ أَمَّةِ الطَّرِيقِ ، فَإِنَّ أَكْمَلَ الْخَلْقِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا زَالَ مُحَافِظًا عَلَى مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْوَرَادِ وَالتَّطَوُّعَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَى مَمَاتِهِ .

(وَمِنْهَا) مَا ادَّعَاهُ مِنْ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِي يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَتَفْضِيلِهِ وَتَقْدِيمِهِ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَأَنَّهُ يَكُونُ مَعَهُمْ كَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ . وَهَذَا ضَلَالٌ وَاضِحٌ ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ الْأَوْلِيَاءِ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَمَّةِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَأَمْثَلُهُمْ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ بِالنُّصُوصِ الْمَشْهُورَةِ . وَخَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { خَيْرُكُمْ قُرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ } (١) وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ « هَذَانِ سَيِّدَا كَهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا النَّبِيَّينَ وَالْمُرْسَلِينَ » (٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي أَبِي النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

(٣) " وَرَوَى بَضْعٌ وَثَمَانُونَ نَفْسًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " خَيْرُ هَذِهِ الْأَمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ " (٤).

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } (٥) (٦٩) سُورَةُ النَّسَاءِ ، وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ مَرَاتِبُ الْعِبَادِ : أَفْضَلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ . وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُفَضَّلَ أَحَدٌ مِنْهَا نَفْسُهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى (٦)

(١) - صحيح البخاري (٢٤٥٧) وصحيح مسلم (٦٦٣٢)

(٢) - سنن الترمذی (٤٠٢٦) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وهو كما قال

(٣) - صحيح البخاري (٣٣٩٥) وفي صحيح البخاري (٣٣٨٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا نُخِيرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتُخِيرُ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(٤) - أحمد (٨٤٦ و ٨٤٨ و ٨٤٩ و ٨٩١ و ٨٩٢ و ٩٣٨ و ٩٤٤ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و ١٠٦٤ و ١٠٧٢)

وهو متواتر عنه

(٥) - وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَاتَّقَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعَدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمْ الصَّادِقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ .

(وَيُذَكِّرُ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخْزُونًا ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ عَنْ سَبَبِ حُزْنِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ : وَمَا هُوَ؟ قَالَ : نَحْنُ نَعْدُو وَنَرُوحُ ، وَنَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ ، وَغَدًا تُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ فَلَا نَصِلُ إِلَيْكَ . فَلَمْ يَرُدِّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ) . (وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : " مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ ") . (وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : " الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ")

(٦) - عَنْ قَتَادَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ حَدَّثَنَا ابْنُ عَمٍّ بَيْكُمُ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ "صحيح البخاري (٣١٤٤) وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى "صحيح البخاري (٣١٦٠)

، مَعَ قَوْلِهِ : { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ } (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } (٤٩) { [القلم/٤٨-٥٠] ، وَقَوْلِهِ { فَالْتَقِمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ } (١) (١٤٢) سورة الصافات ، تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى أَنْ لَا يُفْضَلَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ، فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى } (٢) ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى } (٣) ، وَفِي لَفْظٍ : { أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى } (٤) ، وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ } (٥) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ - { لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى } (٦) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » (٧) ، وَهَذَا فِيهِ نَهْيٌ عَامٌّ .

وَأَمَّا مَا يَرَوِيهِ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ قَالَ : { لَا تُضَلُّونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى } وَيُفَسِّرُهُ بِاسْتِثْنَاءِ حَالِ صَاحِبِ الْمِعْرَاجِ وَحَالِ صَاحِبِ الْخُوتِ : فَقُلْ بَاطِلٌ وَتَفْسِيرٌ بَاطِلٌ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اثْبُتْ أَحَدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ » (٨) . وَأَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ الصَّادِقِينَ .

(١) - فَابْتَلَاهُ الْحُوتُ ، وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْمَلَامَةِ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ رَبِّهِ ، وَتَخْلِيهِ عَنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، وَالِدَعْوَةُ تَسْتَدْعِي الصَّبْرَ وَالثَّبَاتَ .

(٢) - البخاري (٣١٦٠)

(٣) - صحيح البخاري (٣١٦٠)

(٤) - صحيح البخاري (٣١٤٤)

(٥) - صحيح البخاري (٤٢٣٨)

(٦) - صحيح البخاري (٣١٦٣) ومسلم (٦٣٠٩)

(٧) - صحيح البخاري (٣١٤٤) وصحيح مسلم (٦٣١٠)

(٨) - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ صَعِدَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى أَحَدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ ، فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ ، قَالَ « أَتُبْتُ أَحَدًا فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ » . صحيح البخاري (٣٦٨٦) - رجف : خفق واضطرب

وَلَفْظُ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ : لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا أَمَمِهَا وَلَا لَهُ ذِكْرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَمُوجِبُ هَذَا اللَّفْظُ أَنَّهُ آخِرُ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) { [يونس/٦٢، ٦٣] ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا " . وَهُمْ عَلَى دَرَجَتَيْنِ : السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ الْمُقْتَصِدُونَ كَمَا قَسَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَاطِرٍ وَسُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَالْإِنْسَانِ وَالْمُطَفِّفِينَ . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَجِبَهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيئَةٍ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَةٍ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (١) . فَالْمُقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ : هُمُ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، وَالْمُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا بَعْدَ الْفَرَائِضِ ، هُمُ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّوَافِلُ بَعْدَ الْفَرَائِضِ . وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي وَصِيَّتِهِ لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ : " إِنَّ لِلَّهِ حَقًّا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ ، وَإِنَّ لِلَّهِ حَقًّا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ " . (٢) والاتحادية يَزْعُمُونَ أَنَّ قُرْبَ النَّوَافِلِ : يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ عَيْنُ الْحَقِّ عَيْنَ أَعْضَائِهِ ، وَأَنَّ قُرْبَ الْفَرَائِضِ : يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ عَيْنَ وَجُودِهِ كُلِّهِ ، وَهَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ ، بَلْ كُفِّرَ صَرِيحٌ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(١) - صحيح البخاري (٦٥٠٢)

(٢) - عَنْ زُبَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ ؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَضَرَ الْمَوْتَ أُرْسِلَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَخْلِفُهُ ، فَقَالَ النَّاسُ : تَسْتَخْلِفُ عَلَيْنَا فَمَا غَلِيظًا ، وَلَوْ قَدْ وَلَيْنَا كَانَ أَفْظَ وَأَغْلَظَ ، فَمَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا لَقِيتَهُ ، وَقَدْ اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا عُمَرَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَبِرِّي تُخَوِّفُونِي ؟ أَقُولُ : اللَّهُمَّ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَ خَلْقِكَ .

ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى عُمَرَ ، فَقَالَ : إِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهَا : إِنَّ لِلَّهِ حَقًّا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ ، وَإِنَّ لِلَّهِ حَقًّا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ ، وَإِنَّمَا ثَقُلْتُ مَوَازِينَ مَنْ ثَقُلْتُ مَوَازِينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا الْحَقَّ وَثَقُلْتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يُوضَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا ، وَإِنَّمَا خَفَّتْ مَوَازِينُ

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ وَخَفَّتْهُ عَلَيْهِمْ ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يُوضَعُ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا ، وَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِصَالِحِ مَا عَمِلُوا ، وَأَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَيَقُولُ الْقَائِلُ : لَا أَبْلُغُ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ النَّارِ بِأَسْوَأِ مَا عَمِلُوا ، وَأَنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِمْ صَالِحِ مَا عَمِلُوا ، فَيَقُولُ قَائِلٌ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ آيَةَ الرَّحْمَةِ وَآيَةَ الْعَذَابِ ، لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُ رَاعِيًا وَرَاهِبًا ، لَا يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يُلْقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَإِنْ أَنْتَ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي ، لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ ، وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَ وَصِيَّتِي لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَبْعَضَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ ، وَلَنْ تَعْجِزَهُ .

مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٥) - (ج ١٤ / ص ٥٧٢) (٣٨٢١١) وأخرجه ابن المبارك (٣١٩/١) ، رقم (٩١٤) ، وابن أبي شيبة (٤٣٤/٧) ، رقم (٣٧٠٥٦) ، وهناد (٢٨٤/١) ، رقم (٤٩٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٦/١) وهو صحيح لغيره .

وَإِذَا كَانَ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ آخِرَ مُؤْمِنٍ تَقَى فِي الدُّنْيَا ، فَلَيْسَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا أَكْمَلُهُمْ ، بَلْ أَفْضَلُهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ سَابِقُوهُمْ الَّذِينَ هُمْ أَحْصَ بِأَفْضَلِ الرُّسُلِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْوَلِيُّ أَعْظَمَ اخْتِصَاصًا بِالرَّسُولِ وَأَخَذًا عَنْهُ وَمُوَافَقَةً لَهُ كَانَ أَفْضَلَ ، إِذِ الْوَلِيُّ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ؛ فَعَلَى قَدْرِ الْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ : يَكُونُ قَدْرُ الْوَلَايَةِ لِلَّهِ .

وَالْأَوْلِيَاءُ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مُحَدِّثُونَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ » (١) . فَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُمَرُ ؛ وَأَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ إِذْ هُوَ الصَّدِيقُ ، فَالْمُحَدِّثُ - وَإِنْ كَانَ يَلْتَهُمْ وَيُحَدِّثُ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى - فَعَلَيْهِ أَنْ يَغْرِضَ ذَلِكَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ كَمَا قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي : قَدْ ضَمِنَتْ لَنَا الْعِصْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَلَمْ تُضْمَنْ لَنَا الْعِصْمَةُ فِي الْكُشُوفِ وَالْإِلْهَامِ . وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ يُبَيِّنُ لَهُ أَشْيَاءَ تُخَالِفُ مَا يَقَعُ لَهُ كَمَا بَيَّنَّ لَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَيَوْمَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَوْمَ قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ ؛ فَتَارَةً يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ وَتَارَةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَبَّمَا قَالَ الْقَوْلُ : فَتَرُدُّ عَلَيْهِ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَوْلَهُ وَتُبَيِّنُ لَهُ الْحَقَّ فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدْعُ قَوْلَهُ ، كَمَا قَدَّرَ الصَّدَاقُ ، وَرَبَّمَا يَرَى رَأْيًا فَيَذْكُرُ لَهُ حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَعْمَلُ بِهِ وَيَدْعُ رَأْيَهُ ، وَكَانَ يَأْخُذُ بِعُضِّ السُّنَّةِ عَمَّنْ هُوَ دُونَهُ فِي قَضَايَا مُتَعَدِّدَةٍ ، وَكَانَ يَقُولُ الْقَوْلَ فَيَقَالُ لَهُ : أَصَبْتَ فَيَقُولُ وَاللَّهِ مَا يَدْرِي عُمَرُ أَصَابَ الْحَقُّ أَمْ أَخْطَأَ ؟ .

فَإِذَا كَانَ هَذَا إِمَامَ الْمُحَدِّثِينَ فَكُلُّ ذِي قَلْبٍ يُحَدِّثُهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ دُونَ عُمَرَ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ بَلْ الْخَطَأُ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ ، وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ تَدْعِي أَنَّ الْوَلِيَّ مُحْفُوظٌ ، وَهُوَ نَظِيرُ مَا يَثْبُتُ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا - فَهَذَا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِلْسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ .

وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ : يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنْ كَانُوا مُتَافِظِينَ فِي الْهَدْيِ وَالثَّوَرِ وَالْإِصَابَةِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ أَفْضَلَ مِنَ الْمُحَدِّثِ ؛ لِأَنَّ الصَّدِيقَ يَأْخُذُ مِنْ مِشْكَاتِ الثُّبُوتِ فَلَا يَأْخُذُ إِلَّا شَيْئًا مَعْصُومًا مُحْفُوظًا .

وَأَمَّا الْمُحَدِّثُ فَيَقَعُ لَهُ صَوَابٌ وَخَطَأٌ ، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ تَمَيِّزُ صَوَابِهِ مِنْ خَطِيئِهِ ؛ وَبِهَذَا صَارَ جَمِيعُ الْأَوْلِيَاءِ مُفْتَقِرِينَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَزِنُوا جَمِيعَ أُمُورِهِمْ بِآثَارِ الرَّسُولِ ، فَمَا وَافَقَ آثَارَ الرَّسُولِ فَهُوَ الْحَقُّ وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَإِنْ كَانُوا مُجْتَهِدِينَ فِيهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَيِّمُهُمْ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ خَطَأَهُمْ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَكْثَرُ اهْتِدَاءً وَاتِّبَاعًا لِلنَّارِ النَّبَوِيَّةِ، فَهُمْ أَكْثَرُ إِيمَانًا وَتَقْوَى وَأَمَّا آخِرُ الْأَوَّلِيَاءِ : فَلَا يَحْصُلُ لَهُ مِثْلُ مَا حَصَلَ لَهُمْ .

وَالْحَدِيثُ الَّذِي يُرَوَّى : « مِثْلُ أُمَّتِي مِثْلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ » (٢)

(١) - صحيح البخارى (٣٦٨٩) وصحيح مسلم (٦٣٥٧) عَنْ عَائِشَةَ

أَخَذَتْ : الصَّادِقَ الظَّنَّ الْمَلْهُمَ الَّذِي يَلْقَى فِي نَفْسِهِ الشَّيْءَ فَيُخْبِرُ بِهِ فِرَاسَةَ

(٢) - سنن الترمذى (٣١٠٩) ومسند أحمد (١٩٣٩٤) والمعجم الأوسط للطبراني (٣٨٠٢) ومسند البزار

١٤١٢ و٣٥٢٧ و٦٨٩٦) ومسند الشهاب القضايعي (١٢٤٤) ومسند الطيالسي (٦٨٢ و٢١٣٥) ومجمع

٦٨/١٠ ومطالب (٤٢١٦) بغوى ٤٠٥/١ وفتح ٦/٧ وكثير ٤٩٣/٧ وخط ١١٤/١١ وصحيح الجامع

(٥٨٥٤) وهو حديث صحيح

وفي تحفة الأحوذى - (ج ٧ / ص ١٨٨)

قَالَ التَّوْبِشْتِي : لَا يُحْمَلُ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى التَّرَدُّدِ فِي فَضْلِ الْأَوَّلِ عَلَى الْآخِرِ فَإِنَّ الْقُرْنَ الْأَوَّلَ هُمُ الْمُفْضَلُونَ عَلَى سَائِرِ الْقُرُونِ مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَفِي الرَّابِعِ اشْتِبَاهٌ مِنْ قِبَلِ الرَّايِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِمْ نَفْعُهُمْ فِي بَثِّ الشَّرِيعَةِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَقِيقَةِ . قَالَ الْقَاضِي : نَفَى تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِتَقَاوُتِ طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ فِي الْخَيْرِيَّةِ وَأَرَادَ بِهِ نَفْيَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } أَيِّ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ كَأَنَّهُ قَالَ لَوْ كَانَ لِعِلْمٍ لَأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَخْفَى وَلَكِنْ لَا يُعْلَمُ لِاخْتِصَاصِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهُمْ بِخَاصِّيَّةٍ وَفَضِيلَةٍ تُوجِبُ خَيْرِيَّتَهَا كَمَا أَنَّ كُلَّ نَوْبَةٍ مِنْ نَوْبِ الْمَطَرِ لَهَا فَايِدَةٌ فِي الشُّعْوَ وَالنَّمَاءِ لَا يُمَكِّنُكَ انْكَارُهَا وَالْحُكْمُ بَعْدَ نَفْعِهَا ، فَإِنَّ الْأَوَّلِينَ آمَنُوا بِمَا شَاهَلُوا مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَتَلَقَّوْا دَعْوَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِجَابَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْآخِرِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ لِمَا تَوَاتَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْآيَاتِ وَاتَّبَعُوا مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْإِحْسَانِ ، وَكَمَا أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ اجْتَهَدُوا فِي التَّاسِيْسِ وَالتَّمْهِيْدِ فَالْمُتَأَخِّرُونَ بَدَّلُوا وَسَعَّوْهُمُ فِي التَّلْخِيصِ وَالتَّجْرِيْدِ وَصَرَّفُوا عُمْرَهُمْ فِي التَّقْرِيرِ وَالتَّأْكِيْدِ ، فَكُلُّ ذَنْبِهِمْ مَغْفُورٌ وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورٌ وَأَجْرُهُمْ مَوْفُورٌ انْتَهَى . قَالَ الطَّبَّيُّ : وَتَمَثِّلُ الْأُمَّةُ بِالْمَطَرِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَا أَنَّ تَمَثِّلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَيْثَ بِالْهُدَى وَالْعِلْمِ فَتَخْصُ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُشَبَّهَةَ بِالْمَطَرِ بِالْعُلَمَاءِ الْكَامِلِينَ مِنْهُمْ الْمُكْمَلِينَ لِغَيْرِهِمْ فَيَسْتَدْعِي هَذَا التَّفْسِيرُ أَنَّ يَرَادَ بِالْخَيْرِ النَّفْعُ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا الْمُسَاوَاةِ فِي الْأَفْضَلِيَّةِ ، وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى الْخَيْرِيَّةِ فَالْمُرَادُ وَصَفُ الْأُمَّةِ قَاطِبَةً سَابِقِهَا وَلاحِقِهَا وَأَوَّلِهَا وَآخِرِهَا بِالْخَيْرِ وَأَنَّهَا مُلْتَحِمَةٌ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ مَرْصُوصَةٌ بِالْبَيَانِ مُفْرَعَةٌ كَالْحَلْقَةِ الَّتِي لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . وَفِي أَسْلُوبِ هَذَا الْكَلَامِ قَوْلُ الْأَنْمَارِيَّةِ : هُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَعَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا تُرِيدُ الْمُكْمَلَةَ ، وَيُلَمَّحُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الشَّاعِرِ : إِنَّ الْخِيَارَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَاحِدٌ وَبَنُو حَنِيفَةَ كُلُّهُمْ أَحْيَارٌ فَالْحَاصِلُ أَنَّ الْأُمَّةَ مُرْتَبِطَةٌ بِبَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فِي الْخَيْرِيَّةِ بِحَيْثُ أَبْهَمَ أَمْرُهَا فِيهَا وَارْتَفَعَ التَّمْيِيزُ بَيْنَهَا وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ سَوَقِ الْمَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدَ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ : تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَاشْكَلَا فَمَا نَحْنُ نَذْرِي أَيُّ يَوْمِيهِ أَفْضَلُ يَوْمُ بَدَاءِ الْعُمَرِ أَمْ يَوْمُ يَأْسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا غَرٌّ مُحَجَّلٌ وَمِنْ الْمَعْلُومِ عِلْمًا جَلِيًّا أَنَّ يَوْمَ بَدَاءِ الْعُمَرِ أَفْضَلُ مِنْ يَوْمِ يَأْسِهِ ، لَكِنَّ الْبَدْءَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ يَكْمُلُ وَيَسْتَتِبُ إِلَّا بِالْيَاسِ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فَقَالَ مَا قَالَ وَكَذَا أَمْرُ الْمَطَرِ وَالْأُمَّةُ انْتَهَى .

، قَدْ تَكَلَّمَ فِي إِسْنَادِهِ وَبَقْدِيرِ صِحَّتِهِ إِنَّمَا مَعْنَاهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الْأُمَّةِ مَنْ يُقَارِبُ أَوَّلَهَا حَتَّى يَشْتَبِهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ أَيُّهَا خَيْرٌ كَمَا يَشْتَبِهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ طَرَفَا الثَّوْبِ ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْأَوَّلَ خَيْرٌ مِنَ الْآخِرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : " لَا يُدْرَى "

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا السَّلْبَ لَيْسَ عَامًّا لَهَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا أَيُّهُمَا أَفْضَلُ .
 ثُمَّ إِنَّ هَذَا خَاتَمُ الْوَلِيَّاءِ صَارَ مَرْتَبَةً مَوْهُومَةً لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَصَارَ يَدَّعِيهَا لِنَفْسِهِ أَوْ لِشَيْخِهِ طَوَائِفُ وَقَدْ ادَّعَاهَا غَيْرُ
 وَاحِدٍ، وَلَمْ يَدَّعِهَا إِلَّا مَنْ فِي كَلَامِهِ مِنَ الْبَاطِلِ مَا لَمْ تَقُلْهُ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى كَمَا ادَّعَاهَا صَاحِبُ الْقُصُوصِ وَتَابِعَهُ
 صَاحِبُ الْكَلَامِ فِي الْحُرُوفِ، وَشَيْخٌ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ كَانَ بِدَمِشَقَ، وَآخَرُ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يُزَوِّجُ بَنَتَهُ
 بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْوَلِيَّاءِ وَيَدَّعِي هَؤُلَاءِ وَأَمَّا لَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَدْ يَدَّعِي
 الْمُدَّعِي مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَوْ لِشَيْخِهِ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ .
 ثُمَّ صَاحِبُ الْقُصُوصِ وَأَمَّا لَهُ بَنُو الْأَمْرِ : عَلَى أَنَّ الْوَلِيَّ يَأْخُذُ عَنِ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَالنَّبِيُّ يَأْخُذُ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ
 فَلِهَذَا صَارَ خَاتَمُ الْوَلِيَّاءِ أَفْضَلَ عَنْهُمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَهَذَا بَاطِلٌ وَكَذِبٌ، فَإِنَّ الْوَلِيَّ لَا يَأْخُذُ عَنِ اللَّهِ إِلَّا بِوَاسِطَةِ
 الرَّسُولِ إِلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ مُحَدَّثًا قَدْ أُلْقِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ : وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرِنَهُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .
 وَتَكْلِيمُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : - مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى . وَيَارْسَالِ رَسُولٍ كَمَا أَرْسَلَ الْمَلَائِكَةَ
 إِلَى الْأَنْبِيَاءِ . وَبِالْإِجَاءِ، وَهَذَا فِيهِ لِلْوَلِيِّ نَصِيبٌ، وَأَمَّا الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ : فَإِنَّهُمَا لِلْأَنْبِيَاءِ خَاصَّةً، فَالْأُولَيَاءِ الَّذِينَ
 قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِالرُّسُلِ لَا يَأْخُذُونَ عِلْمَ الدِّينِ إِلَّا بِوَسْطِ رُسُلِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَرْضُهُ عَلَى مَا جَاءَ
 بِهِ الرَّسُولُ، وَلَنْ يَصِلُوا فِي أَخْذِهِمْ عَنِ اللَّهِ إِلَى مَرْتَبَةِ نَبِيِّ أَوْ رَسُولٍ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ آخِذِينَ عَنِ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ
 وَيَكُونُ هَذَا الْأَخْذُ أَعْلَى، وَهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَى مَقَامِ تَكْلِيمِ مُوسَى وَلَا إِلَى مَقَامِ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَتْ عَلَى
 الْأَنْبِيَاءِ ؟ وَهَذَا دِينُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

الْقَلْبُ الْمَعْمُورُ بِالتَّقْوَى إِذَا رَجَحَ بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ فَهُوَ تَرْجِيحٌ شَرْعِيٌّ (١)
 وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : "الْقَلْبُ الْمَعْمُورُ بِالتَّقْوَى إِذَا رَجَحَ بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ فَهُوَ تَرْجِيحٌ شَرْعِيٌّ .
 قَالَ : فَمَتَى مَا وَقَعَ عِنْدَهُ وَحَصَلَ فِي قَلْبِهِ مَا بَطَنَ مَعَهُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَوْ هَذَا الْكَلَامَ أَرْضَى لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَ هَذَا
 تَرْجِيحًا بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ .
 وَالَّذِينَ أَنْكَرُوا كَوْنَ الْإِلَهَامِ لَيْسَ طَرِيقًا إِلَى الْحَقَائِقِ مُطْلَقًا أَخْطَؤُوا ، فَإِذَا اجْتَهَدَ الْعَبْدُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ كَانَ
 تَرْجِيحُهُ لِمَا رَجَحَ أَقْوَى مِنْ أدَلَّةٍ كَثِيرَةٍ ضَعِيفَةٍ، فَإِلَهَامٌ مِثْلُ هَذَا دَلِيلٌ فِي حَقِّهِ وَهُوَ أَقْوَى مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْبَسَةِ
 الضَّعِيفَةِ وَالْمَوْهُومَةِ وَالظَّوَاهِرِ وَالِاسْتِصْحَابَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْخَائِضِينَ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْخِلَافِ ؛
 وَأَصُولُ الْفِقْهِ .
 وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : اقْرَبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ ؛ فَإِنَّهُمْ تَسْجَلِي لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ
 (٢) . وَحَدِيثُ مَكْحُولِ الْمَرْفُوعِ { مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَتَابِعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى
 لِسَانِهِ } (٣) وَفِي رِوَايَةٍ إِلَّا ظَهَرَتْ يَتَابِعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ { (٤) .
 وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي : إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَى التَّقْوَى جَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ ؛ وَرَجَعَتْ إِلَى أَصْحَابِهَا
 بِطَرَفِ الْفَوَائِدِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُودِّيَ إِلَيْهَا عَالِمٌ عُلَمَاءُ . (٥)

(١) - مجموع الفتاوى - (ج ٢٠ / ص ٤٢)

(٢) - لم أجده بهذا اللفظ

(٣) - مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٥) - (ج ١٣ / ص ٢٣١) (٣٥٤٨٥) ومسند الشهاب القضاعي (٤٤٦)

حسن مرسل

(٤) - في الذي قبله

(٥) - حلية الأولياء - (ج ٤ / ص ٢٥٠) وصفة الصفوة - (ج ١ / ص ٤٧٠) ولفظه: "إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً."

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ } (١)، وَمَنْ مَعَهُ نُورٌ وَبُرْهَانٌ وَضِيَاءٌ كَيْفَ لَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ مِنْ فَحْوَى كَلَامِ أَصْحَابِهَا؟ وَلَا سِيَمَا الْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ؛ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَعْرِفَةً تَامَةً؛ لِأَنَّهُ قَاصِدُ الْعَمَلِ بِهَا؛ فَتُسَاعِدُ فِي حَقِّهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مَعَ الْإِمْتِنَانِ وَمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حَتَّى أَنَّ الْمُحِبَّ يَعْرِفُ مِنْ فَحْوَى كَلَامِ مَحْبُوبِهِ مُرَادَهُ مِنْهُ تَلْوِيحًا لَا تَصْرِيحًا.

وَالْعَيْنُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنِي مُحَدَّثُهَا * * * إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطَوَعِ هَوَى * * * وَعَقْلٌ عَاصِي الْهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرًا (٢)
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: { وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا } (٣)

(١) - عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا». صحيح مسلم (٥٥٦) - الموبق: المهلك

(٢) - غرر الخصاص الواضحة - (ج ١ / ص ٢١)

(٣) - صحيح البخاري (٦٥٠٢)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٣٤٢)

قَوْلُهُ (فَكُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ) زَادَ الْكُشْمِينِيُّ " بِهِ " .

قَوْلُهُ (وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي رَوَايَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ " عَيْنَهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا " وَفِي رَوَايَةِ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ " عَيْنِي الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا " بِالتَّشْيِيعِ وَكَذَا قَالَ فِي الْأُذُنِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، وَزَادَ عَبْدُ الْوَاحِدِ فِي رَوَايَتِهِ " وَفَرَادَةُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، وَلِسَانُهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ " وَنَحْوَهُ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ وَفِي حَدِيثِ مِمْوْنَةَ " وَقَلْبُهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ " وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ " وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤِيدًا " وَقَدْ اسْتَشْكَلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلًّا وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ الْخ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وَالْمَعْنَى كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فِي إِثَارِهِ أَمْرِي فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَتِي وَيُؤْتِرُ خِلْمَتِي كَمَا يُحِبُّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ.

ثَانِيهَا أَنَّ الْمَعْنَى كُلِّيَّةٌ مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَيَّ مَا يُرْضِينِي، وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إِلَّا مَا أَمَرْتُهُ بِهِ.

ثَالِثُهَا الْمَعْنَى أَحْصَلُ لَهُ مَقَاصِدُهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ الْخ.

رَابِعُهَا كُنْتُ لَهُ فِي الثُّبُورَةِ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ فِي الْمُعَاوَنَةِ عَلَى عَدُوِّهِ.

خَامِسُهَا قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ وَسَبَقَهُ إِلَى مَعْنَاهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ: هُوَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالتَّقْدِيرُ كُنْتُ

حَافِظُ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَحِلُّ اسْتِمَاعُهُ ، وَحَافِظُ بَصَرِهِ كَذَلِكَ الْخ .
سادسها قَالَ الْفَاكِهَانِي : يَحْتَمِلُ مَعْنَى آخَرَ أَذَقَ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى سَمْعِهِ مَسْمُوعُهُ ، لِأَنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِثْلَ فُلَانٍ أَمَلَى بِمَعْنَى مَأْمُولِي ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرِي وَلَا يَلْتَذُّ إِلَّا بِتِلَاوَةِ كِتَابِي وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِمُنَاجَاتِي وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَّا فِيمَا فِيهِ رِضَايَ وَرِجْلَهُ كَذَلِكَ ، وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَيْضًا .

وَقَالَ الطُّوفِيُّ : اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ مِمَّنْ يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ أَنَّ هَذَا مَجَازٌ وَكِتَابِيَّةٌ عَنْ نُصْرَةِ الْعَبْدِ وَتَأْيِيدِهِ وَإِعَانَتِهِ ، حَتَّى كَانَتْهُ سُبْحَانَهُ يُنْزَلُ نَفْسَهُ مِنْ عَبْدِهِ مِنْزِلَةَ الْآلَاتِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا وَلِهَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةٍ " فَبِي سَمْعٌ وَبِي يُنْصَرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي " قَالَ : وَالْإِتِّحَادِيَّةُ زَعَمُوا أَنَّهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَأَنَّ الْحَقَّ عَيْنُ الْعَبْدِ ، وَاحْتَجُّوا بِمَجِيءِ جَبْرِيلَ فِي صُورَةِ دَحْيَةٍ ، قَالُوا فَهُوَ رُوحَانِي خَلَعَ صُورَتَهُ وَظَهَرَ بِمَظْهَرِ الْبَشَرِ ، قَالُوا فَاللَّهُ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ فِي صُورَةِ الْوُجُودِ الْكُلِّيِّ أَوْ بَعْضِهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا .

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : هَذِهِ أَمْثَالٌ وَالْمَعْنَى تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، وَتَيْسِيرُ الْمَحَبَّةِ لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظَ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ وَيَعْصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَةِ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَصْغَاءِ إِلَى اللَّهْوِ بِسَمْعِهِ ، وَمِنْ النَّظَرِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِبَصَرِهِ ، وَمِنْ الْبُطْشِ فِيمَا لَا يَحِلُّ لَهُ يَدِهِ ، وَمِنْ السَّعْيِ إِلَى الْبَاطِلِ بِرِجْلِهِ . وَإِلَى هَذَا نَحْنُ الدَّادُودِيُّ ، وَمِثْلُهُ الْكَلْبَابُذِيُّ ، وَعَبَّرَ بِقَوْلِهِ أَخْفَظُهُ فَلَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي مَحَابِّي ، لِأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ . سَابِعُهَا قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا : وَقَدْ يَكُونُ عَبَّرَ بِذَلِكَ عَنْ سُرْعَةِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَالتَّجَحُّجِ فِي الطَّلَبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسَاعِي الْإِنْسَانَ كُلَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْجَوَارِحِ الْمَذْكُورَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَهُوَ مُنْتَرَعٌ مِمَّا تَقْدَمُ لَا يَتَحَرَّكُ لَهُ جَارِحَةٌ إِلَّا فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ ، فَهِيَ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ . وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ فِي " الزُّهْدِ " عَنْ أَبِي عُثْمَانَ الْجَبْرِزِيِّ أَحَدِ أَيْمَةِ الطَّرِيقِ قَالَ : مَعْنَاهُ كُنْتُ أَسْرِعُ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِ مِنْ سَمْعِهِ فِي الْأَسْمَاعِ وَعَيْنِهِ فِي النَّظَرِ وَيَدِهِ فِي اللَّمَسِ وَرِجْلِهِ فِي الْمَشْيِ . وَحَمَلَهُ بَعْضُ مُتَأَخَّرِي الصُّوفِيَّةِ عَلَى مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ مَقَامِ الْفَنَاءِ وَالْمَحْوِ ، وَأَنَّهُ الْعَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَانِمًا بِإِقَامَةِ اللَّهِ لَهُ مُحِبًّا بِمَحَبَّتِهِ لَهُ نَاطِرًا بِنَظَرِهِ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى مَعَهُ بَقِيَّةٌ تُنَاطُ بِاسْمٍ أَوْ تَقِفُ عَلَى رَسْمٍ أَوْ تَتَعَلَّقُ بِأَمْرٍ أَوْ تُوصَفُ بِوَصْفٍ ، وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يَشْهَدُ إِقَامَةَ اللَّهِ لَهُ حَتَّى ، قَامَ وَمَحَبَّتَهُ لَهُ حَتَّى أَحَبَّهُ وَنَظَرَهُ إِلَى عَبْدِهِ حَتَّى أَقْبَلَ نَاطِرًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ .

وَحَمَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الزَّيْغِ عَلَى مَا يَدْعُونَهُ مِنْ أَنْ الْعَبْدَ إِذَا لَازَمَ الْعِبَادَةَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ حَتَّى يُصَفَّى مِنَ الْكُدُورَاتِ أَنَّهُ يَصِيرُ فِي مَعْنَى الْحَقِّ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَقْنَى عَنْ نَفْسِهِ جُمْلَةً حَتَّى يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الذَّاكِرُ لِنَفْسِهِ الْمُوَحِّدِ لِنَفْسِهِ الْمُحِبِّ لِنَفْسِهِ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ وَالرُّسُومَ تَصِيرُ عَلَمًا صَرَفًا فِي شُهُودِهِ وَإِنْ لَمْ تُعْدَمْ فِي الْخَارِجِ ، وَعَلَى الْأَوْرَجِ كُلِّهَا فَلَا مَتَمَسَّكَ فِيهِ لِلْإِتِّحَادِيَّةِ وَلَا الْقَانِلِينَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ لِقَوْلِهِ فِي بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ " وَلَكِنْ سَأَلَنِي ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي " فَإِنَّهُ كَالصَّرِيحِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ .

، وَمَنْ كَانَ تَوْفِيقُ اللَّهِ لَهُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَا بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ وَنَفْسٍ فَعَّالَةٍ ؟
وَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ وَالْبِرُّ فِي صُدُورِ الْخَلْقِ لَهُ تَرَدُّدٌ وَجَوْلَانٌ ؛ فَكَيْفَ حَالُ مَنْ اللَّهُ سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ وَهُوَ فِي قَلْبِهِ .
وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : " الْإِثْمُ حَوَازُ الْقُلُوبِ " (١) ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْكَذِبَ رِبِيَّةٌ وَالصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ (٢) ،
فَالْحَدِيثُ الصِّدْقُ تَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَيَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ .
وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِّ ؛ فَإِذَا لَمْ تَسْتَحِلِّ الْفِطْرَةَ : شَاهَدَتِ الْأَشْيَاءُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ؛ فَأَنْكَرَتْ
مُنْكَرَهَا وَعَرَفَتْ مَعْرُوفَهَا . قَالَ عُمَرُ : الْحَقُّ أَهْلُجُ لَا يَخْفَى عَلَى فِطْنِ (٣) . فَإِذَا كَانَتْ الْفِطْرَةُ مُسْتَقِيمَةً عَلَى
الْحَقِيقَةِ مُنَوَّرَةً بِنُورِ الْقُرْآنِ تَجَلَّتْ لَهَا الْأَشْيَاءُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَرَايَا ، وَانْتَفَتَتْ عَنْهَا ظُلُمَاتُ
الْجَهَالَاتِ فَرَأَتْ الْأُمُورَ عِيَانًا مَعَ غَيْبِهَا عَنْ غَيْرِهَا .
وَفِي السُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « ضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى
بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا
أَرَادَ أَنْ يُمْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيَحَلْ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ
حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٤) . فَقَدْ بَيَّنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ - الَّذِي مِنْ
عَرَفَهُ انْتَفَعَ بِهِ انْتِفَاعًا بَالِغًا إِنْ سَاعَدَهُ التَّوْفِيقُ ؛ وَاسْتَعْنَى بِهِ عَنْ غُلُومٍ كَثِيرَةٍ - أَنَّ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَاعِظًا ،
وَالْوَعِظُ هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ؛ وَالتَّرغِيبُ وَالتَّرْهيبُ .
وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ مَعْمُورًا بِالتَّقْوَى انْجَلَتْ لَهُ الْأُمُورُ وَانْكَشَفَتْ ؛ بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْخَرَابِ الْمُظْلِمِ ؛ قَالَ حَدِيثُهُ
بْنُ الْيَمَانِ : إِنْ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ سِرَاجًا يُزْهِرُ (٥) . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَذَكَرُوا الدَّجَالَ فَقَالَ إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمْ أَسْمَعْهُ قَالَ ذَاكَ
وَلَكِنَّهُ قَالَ « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَأَنْظَرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ ، وَأَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ آدَمُ جَعْدٌ ، عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُومٍ بِخُبْلَةٍ
، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذْ انْحَدَرَ فِي الْوَادِي يُلَبِّي » (٦) .

(١) - المعجم الكبير للطبراني (٨٦٦١ - ٨٦٦٣) والإتحاف ١/١٥٩ و ٦/٦٠ و ٨١ و ٢٩٨/٧ و
الترغيب ٣/٣٦ و مجمع ١/١٧٦ و الشعب (٥٤٣٤ و ٧٢٧٧) صحيح موقوف
حواز القلوب - بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو - وهو ما يحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب ما لا يحسن ،
وقيل : بتخفيف الواو وتشديد الزاي - جمع حازة - وهي الأمور التي تحز في القلوب وتحك وتوتر ، وتتخالج في
القلوب أن تكون معاصي ، وهذا أشهر .

(٢) - عَنْ أَبِي الْحَوَازِ السَّعْدِيِّ قَالَ قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « دَعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنْ

الْكَذِبَ رِيَّةً». سنن الترمذی (۲۷۰۸) وَقَالَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وهو كما قال

(۳) - جامع الأحاديث (۳۰۸۶۲)

(۴) - المستدرک للحاکم ۷۳/۱ (۲۴۵) وحم ۱۸۲/۴ (۱۸۱۰۱ و ۱۸۱۰۳) ومشکل ۲/۲۳ و ۳/۳۵

و ترغیب ۳/۲۲۴ و الاجري ۱۱/ و طبري ۵۸/۱ و صحيح الجامع (۳۸۸۷) صحيح

(۵) - عَنْ حُذَيْفَةَ ، قَالَ : الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ مُصَفَّحٌ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُتَافِقِ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ ، وَقَلْبٌ أَجْرَدٌ ، كَأَنَّ فِيهِ سِرَاجًا يُزْهِرُ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ، وَقَلْبٌ فِيهِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ قُرْحَةٍ يَمُدُّ بِهَا قَبِيحٌ وَدَمٌ ، وَمَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَسْقِيهَا مَاءٌ خَبِيثٌ وَمَاءٌ طَيِّبٌ ، فَأَيُّ مَاءٍ غَلَبَ عَلَيْهَا غَلَبَ. مصنف ابن أبي شيبة (۲۳۵) - (ج ۱۱ / ص ۳۶) (۳۱۰۴۳) ورجاله ثقات لكن فيه انقطاعاً

(۶) - صحيح البخارى (۵۹۱۳)

الآدم : أسمر اللون = جعد : منقبض الشعر غير منبسطه = الخلبة : الليف والحبل الصلب الرقيق

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَبَيَّنُ لَهُ مَا لَا يَتَبَيَّنُ لِغَيْرِهِ ؛ وَلَا سِيَّمَا فِي الْفِتَنِ ، وَيَنكَشِفُ لَهُ حَالُ الْكَذَّابِ الْوَضَّاعِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ فَإِنَّ الدَّجَالَ أَكْذَبُ خَلْقِ اللَّهِ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ يُجْرِي عَلَى يَدَيْهِ أُمُورًا هَائِلَةً وَمَخَارِقَ مُزْلِزَةً ، حَتَّى إِنْ مَنْ رَأَاهُ افْتَنَّ بِهِ فَيَكْشِفُهَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ حَتَّى يَعْتَقِدَ كَذِبَهَا وَيُطْلَأَ نَهَا .

وَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ قَوِيَ انْكِشَافُ الْأُمُورِ لَهُ ؛ وَعَرَفَ حَقَائِقَهَا مِنْ بَوَاطِلِهَا ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ الْإِيمَانُ ضَعُفَ الْكَشْفُ ، وَذَلِكَ مَثَلُ السَّرَاجِ الْقَوِيِّ وَالسَّرَاجِ الضَّعِيفِ فِي الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : { نُورٌ عَلَى نُورٍ } قَالَ : هُوَ الْمُؤْمِنُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ الْمُطَابِقَةِ لِلْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِأَثَرٍ ، فَإِذَا سَمِعَ فِيهَا بِأَثَرٍ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ (۱).

فَالْإِيمَانُ الَّذِي فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ يُطَابِقُ نُورَ الْقُرْآنِ ؛ فَالْإِلَهَامُ الْقَلْبِيُّ تَارَةً يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ ؛ وَالظَّنُّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَذِبٌ . وَأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ بَاطِلٌ ؛ وَهَذَا أَرْحَحُ مِنْ هَذَا ؛ أَوْ هَذَا أَصَوَّبٌ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ « قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ ». قَالَ ابْنُ وَهْبٍ تَفْسِيرُ مُحَدِّثُونَ مُلْهُمُونَ. (۲)

(۱) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ۱۰ / ص ۶۹۴)

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَسْمَعَ فِيهِ بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ فِيهِ بِأَثَرٍ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ ؛ بَلْ صَاحِبُهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِجِيِّ كَانَ مِنْ أَتْبَعِ الْمَشَايِخِ لِلْسُّنَّةِ

وفي مجموع الفتاوى - (ج ۱۱ / ص ۵۸۵)

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي : إِنَّهُ لَمُتَرُّ بِقَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَسْمَعَ فِيهِ بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ بِأَثَرٍ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ۱۱ / ص ۵۹۵)

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَارَانِي : إِنَّهُ لَتَلُمُّ بَقَلْبِي التُّكْتُةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبِلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَجِدَ فِيهِ أَثَرًا فَإِذَا وَجَدَ فِيهِ أَثَرًا كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . وَقَالَ الْجُنَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ : عَلِمْنَا هَذَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ٢٤ / ص ٣٧٨)

وَلَكِنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ بَصِيرَةٌ أَوْ قِيَاسٌ أَوْ بُرْهَانٌ كَانَ ذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : بَصِيرَةُ الْمُؤْمِنِ تَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِأَثَرٍ ، فَإِذَا جَاءَ الْأَثَرُ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ }

(٢) - صحيح مسلم (٦٣٥٧)

الْحَدَّثُ : الصَّادِقُ الظَّنُّ الْمُلْهِمُ الَّذِي يُلْقَى فِي نَفْسِهِ الشَّيْءُ فَيُخْبِرُ بِهِ فِرَاسَةً

. وَالْمُحَدَّثُ : هُوَ الْمُلْهِمُ الْمُخَاطَبُ فِي سِرِّهِ . وَمَا قَالَ عُمَرُ لِشَيْءٍ : إِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذًا وَكَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا ظَنُّ ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ (١) . وَأَيْضًا إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الْكُونِيَّةُ قَدْ تَنَكَّشَفُ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ يَقِينًا وَظَنًّا ؛ فَالْأُمُورُ الدِّينِيَّةُ كَشَفُهَا لَهُ أَيْسَرُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى ؛ فَإِنَّهُ إِلَى كَشَفِهَا أَحْوَجُ فَالْمُؤْمِنُ تَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَدَلَّةٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ لَا يُمَكِّنُهُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا فِي الْعَالِبِ ، فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُمَكِّنُهُ إِبَانَةُ الْمَعَانِي الْقَائِمَةِ بِقَلْبِهِ ، فَإِذَا تَكَلَّمَ الْكَاذِبُ بَيْنَ يَدَيِ الصَّادِقِ عَرَفَ كَذِبَهُ مِنْ فَحْوَى كَلَامِهِ ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ نَخْوَةُ الْحَيَاءِ الْإِيْمَانِيِّ فَتَمْنَعُهُ الْبَيَانَ ، وَلَكِنْ هُوَ فِي نَفْسِهِ قَدْ أَخَذَ حِذْرَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّمَا لَوَّحَ أَوْ صَرَخَ بِهِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ لِيَحْذَرُوا مِنْ رِوَايَتِهِ أَوْ الْعَمَلِ بِهِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ وَالْكَشَفِ يُلْقِي اللَّهُ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الطَّعَامَ حَرَامٌ ؛ وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَافِرٌ ؛ أَوْ فَاسِقٌ ؛ أَوْ دُيُوثٌ ؛ أَوْ لُوطِيٌّ ؛ أَوْ حَمَارٌ ؛ أَوْ مُعَنَّ ؛ أَوْ كَاذِبٌ ؛ مِنْ غَيْرِ ذَلِيلٍ ظَاهِرٍ ، بَلْ بِمَا يُلْقِي اللَّهُ فِي قَلْبِهِ . وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ يُلْقِي فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةً لِشَخْصٍ وَأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ؛ وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ صَالِحٌ ؛ وَهَذَا الطَّعَامُ حَلَالٌ وَهَذَا الْقَوْلُ صِدْقٌ ؛ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْبَدَ فِي حَقِّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ . وَقِصَّةُ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى هِيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَأَنَّ الْخَضِرَ عَلِمَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُعِينَةَ ، بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ يَطُولُ بَسْطُهُ قَدْ نَبَّهْنَا فِيهِ عَلَى نُكْتِ شَرِيفَةٍ تُطْلَعُكَ عَلَى مَا وَرَاءَهَا" .

الْكَرَامَةُ (٢)

التَّعْرِيفُ :

١ - الْكَرَامَةُ لُغَةً : مَصْدَرُ كَرُمَ ، يُقَالُ : كَرُمَ الرَّجُلُ كَرَامَةً : عَزَّ (٣) .

وَفِي الْإِصْطِلَاحِ : تُطْلَقُ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ : فَتُطْلَقُ أَوَّلًا : بِمَعْنَى : ظُهُورِ أَمْرِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ عَلَى يَدِ شَخْصٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ غَيْرِ مُقَارِنٍ لِدَعْوَى الثُّبُوتِ وَالرَّسَالَةِ .

وَتُطْلَقُ ثَانِيًا : بِمَعْنَى : الْإِعْزَازِ وَالتَّفْضِيلِ وَالتَّشْرِيفِ ، وَتُطْلَقُ ثَالِثًا : بِمَعْنَى : إِكْرَامِ الصَّيْفِ (٤) .
الْأَلْفَاظُ ذَاتُ الصَّلَةِ :

أ - الْمُعْجَزَةُ :

٢ - الْمُعْجَزَةُ فِي اللُّغَةِ : هِيَ مَا يَعْجِزُ الْخَصْمُ عِنْدَ التَّحَدِّي .

وَاصْطِلَاحًا : هِيَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مَقْرُونٌ بِدَعْوَى التَّبَوُّةِ قُصِدَ بِهِ إِظْهَارُ صِدْقِ مَنْ ادَّعَى التَّبَوُّةَ مَعَ عَجْزِ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنِ الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهِ (٥) . وَعَلَى هَذَا فَالْمُعْجَزَةُ أَخْصُّ مِنَ الْكَرَامَةِ .

ب - الْإِرْهَاصُ :

٣ - الْإِرْهَاصُ : مَا يَظْهَرُ مِنَ الْخَوَارِقِ قَبْلَ ظُهُورِ النَّبِيِّ (٦) . وَالْكَرَامَةُ أَعَمُّ مِنْهُ .

ج - الْإِسْتِدْرَاجُ :

٤ - الْإِسْتِدْرَاجُ : مَا يَظْهَرُ مِنْ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ عَلَى يَدِ كَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ (٧) ، وَالصَّلَةُ بَيْنَ الْإِسْتِدْرَاجِ وَالْكَرَامَةِ الصَّدِيقَةُ مِنْ حَيْثُ الْمَقْصُودُ .

الْأَحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْكَرَامَةِ :

الْكَرَامَةُ بِمَعْنَى التَّشْرِيفِ وَالْإِعْزَازِ :

(١) - عَنْ وَهْبِ السَّوَائِيَّ قَالَ خَطَبْنَا عَلَى فَقَالَ مَنْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا فَقُلْتُ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ لَا خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ وَمَا بُعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ . مسند أحمد (٨٤٦)

وهو صحيح

(٢) - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٣٤ / ص ٢١٦) فما بعدها

(٣) - لسان العرب .

(٤) - التعريفات للجرجاني .

(٥) - القاموس المحيط ، وحاشية البيجوري على جوهره التوحيد ص ٨٠ .

(٦) - التعريفات للجرجاني ، وحاشية البيجوري على جوهره التوحيد ص ٨٠ .

(٧) - الإقناع للشربيني ١ / ٦٩١ ، والتعريفات للجرجاني .

٥ - الْكَرَامَةُ بِمَعْنَى التَّشْرِيفِ وَالْإِعْزَازِ ، مَنْزِلَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ وَفَضَّلَهُمْ بِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ ، قَالَ عَزَّ مَنْ قَائِلٌ : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } (سورة الإسراء / ٧٠) ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : أَيُّ : لَقَدْ شَرَّفْنَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، بِالْعَقْلِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالنُّطْقِ ، وَتَسْخِيرِ مَا فِي الْكَوْنِ لَهُمْ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى مَنْ خَلَقْنَا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْجِنِّ ، وَالْبَهَائِمِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ (١) ، وَقَدْ حَافِظَ الْإِسْلَامُ عَلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبَنِي آدَمَ جَعَلَهُ مَبْدَأَ الْحُكْمِ ، وَأَسَاسَ الْمُعَامَلَةِ ، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاحِ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ ، فَلَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ إِهْدَارُ كَرَامَةِ أَحَدٍ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا : بِالْقَتْلِ ، قَالَ تَعَالَى : { مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا } (سورة المائدة / ٣٢) أَوْ بِهَنْتِكَ عَرْضِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا } (سورة النور / ٤) ، أَوْ بِالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ وَالْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا

نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ { (سورة الحجرات / ١١) ،
وَنَهَى عَنِ الْمُثَلَّةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَعْدَاءِ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ ، وَبَعْدَ انْتِهَائِهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ :
لَا تَغْلُوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تُمَثِّلُوا (٢) (ر : جِهَادٌ ف ٣١) .

إِكْرَامُ الضَّيْفِ :

٦ - رَغِبَ الْإِسْلَامُ فِي كَرَامَةِ الضَّيْفِ وَعَدَّهَا مِنْ أَمَارَاتِ صِدْقِ الْإِيمَانِ ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (٣)

(١) - تفسير ابن كثير في الآية ٧٠ من سورة الإسراء

(٢) - عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ « اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ . وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ . وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أُنْصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا » . صحيح مسلم (٤٦١٩)

تحفر : تنقض العهد = تغل : تسرق من الغنيمة قبل أن تقسم

(٣) - صحيح البخارى (٦٠١٨) ومسلم (١٨٢)

وفي المنتقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٣٣٤)

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْ هَذَا مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ وَالضِّيَافَةُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ وَأَوَّلُ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَكْرَمُوا ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ عِنْدَ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْفُقَهَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ ذَلِكَ بِالْكَرَامَةِ فَقَالَ : فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَلَمْ يَقُلْ : فَلْيُقْضِهِ حَقُّهُ وَالْإِكْرَامُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَقَدْ يَتَعَيَّنُ وَجُوبُهَا فِي مَوَاضِعَ لِلْمُجْتَازِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُبْلَغُهُ وَيَخَافُ الْهَلَاكَ إِنْ لَمْ يُضَيَّفْ وَتَكُونُ وَاجِبَةً عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ الْعَامِرِينَ لِأَرْضِ الْعِنَاةِ إِنْ شَرَطَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ . رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَبْعُنَا فَنَمُرُ بِقَوْمٍ لَا يُقْرُونَنَا فَمَاذَا تَرَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ أَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ

لَمْ يَفْعَلُوا فَخَذُّوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي يَحْتَمِلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لِمَنْ كَانَ يَجْتَازُ غَايَا عَلَى أَهْلِ عَهْدٍ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِصْحَابِ الرَّادِّ إِلَى رَأْسِ مَغْزَاتِهِ وَلَا يَصِلُ إِلَى الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ الَّذِي تَعَيَّنَ فَرَضُهُ وَوُجُوبُهُ إِلَّا بِالْقُرَى فِي الطَّرِيقِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُفْتُتِحَتْ حَبِيرٌ وَغَيْرُهَا مِنْ بِلَادِ الْعَنُوتَةِ إِنْ كَانَ شَرْطُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِهَا وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَقَوْلُهُ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ ضِيَافَةٌ وَقَالَ سَخَنُونَ الضِّيَافَةُ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَإِنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا قَدِمَ الْحَضَرَ وَجَدَ مَنْزِلًا وَهُوَ الْفُنْدُقُ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ يَتَأَكَّدُ النَّدْبُ إِلَيْهِ وَلَا يَتَعَيَّنُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ بَعِيْنُهُ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى لِمَعَانٍ أَحَدُهَا أَنَّ ذَلِكَ يَتَكَرَّرُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ فَلَوْ التَزَمَ أَهْلُ الْحَضَرِ الضِّيَافَةَ لَمَا خَلَوْا مِنْهَا وَأَهْلُ الْقُرَى يَنْدُرُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَيَقِلُّ فَلَا تَلَحُّهُمْ بِذَلِكَ مَشَقَّةٌ وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنَّ الْمُسَافِرَ يَجِدُ فِي الْحَضَرِ مِنَ الْمَسْكَنِ وَالطَّعَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَلَا تَلَحُّهُ الْمَشَقَّةُ لِعَدَمِ الضِّيَافَةِ وَأَمَّا فِي الْقُرَى الصَّغَارِ فَلَا يَجِدُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَهُوَ كَالْمُضْطَرِّ إِلَى مَنْ يُضَيِّفُهُ وَحُكْمُ الْقُرَى الْكِبَارِ الَّتِي تَوْجَدُ فِيهَا الْفُنَادِقُ وَالْمَطَاعِمُ لِلشَّرَاءِ وَيَكْثُرُ تَرَدُّدُ النَّاسِ عَلَيْهَا حُكْمُ الْحَضَرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ ، وَهَذَا فِيمَنْ لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ وَأَمَّا مَنْ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً مَوْدَّةٍ أَوْ بَيْنَةٍ وَبَيْنَهُ قَرَابَةً ، أَوْ بَيْنَهُ مَعْنَى يَقْتَضِي الْمُواصَلَةَ وَالْمُكَارَمَةَ فَحُكْمُهُ فِي الْحَضَرِ وَغَيْرِهِ سَوَاءٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

كَرَامَةُ الْعُلَمَاءِ وَكِبَارِ السَّنِّ ، وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَهْلُ الْفَضْلِ :

٧ - حَثُّ الْإِسْلَامِ عَلَى تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَكِبَارِ السَّنِّ وَحَمَلَةِ الْقُرْآنِ ، وَأَهْلِ الْفَضْلِ ، قَالَ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (سورة الزمر / ٩) ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ » . (١) ، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسَنِّهِ إِلَّا قَبِضَ اللَّهُ لَهُ مِنْ يَكْرَمُهُ عِنْدَ سَنِّهِ » (٢) .

الْكَرَامَةُ بِمَعْنَى ظُهُورِ أَمْرِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ عَلَى يَدِ غَيْرِ نَبِيٍّ :

٨ - ذَهَبَ جُمْهُورُ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى جَوَازِ ظُهُورِ أَمْرِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ عَلَى يَدِ مُؤْمِنٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ إِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ لَهُ ، وَإِلَى وَقُوعِهَا فِعْلًا ، وَيُسَمَّى وَلِيًّا .

(١) - سنن أبي داود (٤٨٤٥) صحيح

عون المعبود - (ج ١٠ / ص ٣٦٥)

(إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ) : أَيُّ تَعْظِيمِهِ وَتَعْظِيمِهِ

(إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ) : أَيُّ تَعْظِيمِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ فِي الْإِسْلَامِ بِتَوْقِيرِهِ فِي الْمَجَالِسِ وَالرَّفَقِ بِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، كُلُّ هَذَا مِنْ كَمَالِ تَعْظِيمِ اللَّهِ لِحُرْمَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ

(وَحَامِلِ الْقُرْآنِ) أَيُّ إِكْرَامِ حَافِظِهِ وَسَمَّاهُ حَامِلًا لَهُ لِمَا يَحْمِلُ لِمَشَاقِّ كَثِيرَةٍ تَزِيدُ عَلَى الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ قَالَهُ الْعَزِيزِيُّ . وَقَالَ الْقَارِي : أَيُّ إِكْرَامِ قَارِيهِ وَحَافِظِهِ وَمُفَسِّرِهِ

(غَيْرِ الْغَالِي) بِالْجَرِّ (فِيهِ) أَيُّ فِي الْقُرْآنِ .

وَالْغُلُوُّ التَّشْدِيدُ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ، يَعْنِي غَيْرَ الْمُتَجَاوِزِ الْحَدَّ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَتَتَّبِعَ مَا خَفِيَ مِنْهُ وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِيهِ وَفِي حُدُودِ قِرَاءَتِهِ وَمَخَارِجِ حُرُوفِهِ قَالَهُ الْعَرِيزِيُّ

(وَالْجَافِي عَنْهُ) أَيِ وَغَيْرِ الْمُتَبَاعِدِ عَنْهُ الْمُعْرِضُ عَنْ تِلَاوَتِهِ وَإِحْكَامِ قِرَاءَتِهِ وَإِتْقَانِ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ .
وَقِيلَ الْغُلُوُّ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّجْوِيدِ أَوْ الْإِسْرَاعِ فِي الْقِرَاءَةِ بِحَيْثُ يَمْنَعُهُ عَنْ تَدْبِيرِ الْمَعْنَى .

وَالْجَفَاءُ أَنْ يَتْرُكُهُ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ نَسِيَهُ فَإِنَّهُ عُدَّ مِنَ الْكِبَائِرِ ، قَالَ فِي النَّهْيَةِ : وَمِنْهُ الْحَدِيثُ " أَفْرَعُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ " أَيِ تَعَاهَدُوهُ وَلَا تَبْغُدُوا عَنْ تِلَاوَتِهِ بِأَنْ تَتْرَكُوا قِرَاءَتَهُ وَتَشْتَغِلُوا بِتَفْسِيرِهِ وَتَأْوِيلِهِ وَلِذَا قِيلَ اشْتَغَلَ بِالْعِلْمِ بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُكَ عَنْ الْعَمَلِ وَاشْتَغَلَ بِالْعَمَلِ بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُكَ عَنْ الْعِلْمِ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ كُلًّا مِنْ طَرَفَيْ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ مَذْمُومٌ ، وَالْمَحْمُودُ هُوَ الْوَسْطُ الْعَدْلُ الْمُطَابِقُ لِحَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، كَذَا فِي الْمِرْقَاةِ شَرْحُ الْمَشْكَاةِ
(وَإِكْرَامِ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) : بِضَمِّ الْمِيمِ أَيِ الْعَادِلِ .

(٢) - أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢١٥٤) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ بَيَانَ الْعُقَيْلِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو الرَّحَّالِ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِهِ

ويزيد بن بيان وشيخه فيهما ضعف ، والإمام الترمذي لم يحسن هذا الحديث ، ولا الإمام النووي . فالحديث ضعيف ، ويجوز العمل به في فضائل الأعمال

ومما يشهد له من حيث المعنى ففي الزهد لأحمد بن حنبل (٧٧٣) حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة قال : قال أبو الدرداء : البر لا يبلى والإثم لا ينسى والديان لا ينم فكن كما شئت كما تدين تدان " وهو صحيح لغيره موقوف

وفي الزهد الكبير للبيهقي (٧١٨) أخبرنا أبو الحسين بن بشران ، أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار ، ثنا أحمد بن منصور ، ثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« البر لا يبلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينم ، فكن كما شئت كما تدين تدان » وهو صحيح مرسل
وحديث مسلم (٧٠٢٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنَ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ .. » .

وَالْوَلِيُّ فِي هَذَا الْمَقَامِ : هُوَ الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِصِفَاتِهِ حَسَبَ الْإِمْكَانِ ، وَالْمُوَظَّبُ عَلَى الطَّاعَةِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَعَاصِي ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَرْتَكِبُ مَعْصِيَةً بِدُونِ تَوْبَةٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَقَعُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ بِالْكُلِّيَّةِ ، لِأَنَّهُ لَا عِصْمَةَ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ (ر : وَلَايَةٌ) .

وَأَسْتَدَلُّوا عَلَى جَوَازِهَا بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ عَلَى فَرَضٍ وَقُوعُهَا مُحَالٌ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ جَائِزٌ .
وَأَسْتَدَلُّوا عَلَى وَقُوعِهَا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (١) (٣٧) سورة آل عمران ، قَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : هَذَا دَلِيلُ جَوَازِ الْكَرَامَةِ لِلْأَوْلِيَاءِ (٢) ، وَفِي حَاشِيَةِ الشَّيْخِ زَادَهُ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضاوِيِّ : لِأَنَّ

حُصُول الرِّزْقِ عِنْدَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ظَهَرَ عَلَى يَدِ مَنْ لَا يَدْعِي التُّبُوَّةَ ،
وَلَيْسَ مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ الْمَوْجُودَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ هُوَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَوْ كَانَ
ذَلِكَ مُعْجَزَةً لَهُ لَكَانَ عَالِمًا بِحَالِهِ ، وَلَمْ يَشْتَبِهْ أَمْرُهُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَقُلْ لِمَرْيَمَ : { أَتَى لَكَ هَذَا } وَأَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى
بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } (سورة آل
عمران / ٣٨) ، مُشْعِرٌ بِأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهَا عَنْ أَمْرِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ - قِيلَ : أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي
الصَّيْفِ ، وَفَاكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ - لَمَّا سَأَلَهَا عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْعَادِيَّةِ ، وَذَكَرَتْ لَهُ : أَنَّ ذَلِكَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ، هُنَالِكَ طَمَعَ فِي انْخِرَاقِ الْعَادَةِ بِحُصُولِ الْوَلَدِ مِنَ الْمَرْأَةِ الْعَاقِرِ الشَّيْخَةِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَأْتِسُّ مِنَ
الْوَلَدِ بِسَبَبِ شَيْخُوخَتِهِ وَشَيْخُوخَةِ زَوْجَتِهِ وَعَقْمِهَا ، فَلَوْ لَمْ يَعْتَقِدْ مَا رَأَاهُ فِي حَقِّ مَرْيَمَ مِنَ الْخَوَارِقِ وَأَنَّ ذَلِكَ
الْعِلْمَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ إِلَّا بِإِخْبَارِ مَرْيَمَ - لَوْ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمَّا كَانَتْ رُؤْيَا تِلْكَ الْخَوَارِقِ فِي مَرْيَمَ سَبَبًا
لِطَمَعِهِ بِوَلَادَةِ الْعَاقِرِ ، وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ - وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ : ثَبَتَ أَنَّ تِلْكَ الْخَوَارِقَ مَا كَانَتْ مُعْجَزَةً لَزَكَرِيَّا عَلَيْهِ
وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَا لِنَبِيِّ غَيْرِهِ ، لِعَدَمِ وَجُودِهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّهَا كَرَامَةٌ لِمَرْيَمَ فَثَبَتَ الْمَطْلُوبُ (٣) .
كَمَا اسْتَدَلُّوا عَلَى وَقُوعِهَا بِقِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ (٤) ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِتْنَةً سَعَةً مِنْ
أَشْرَافِ الرُّومِ خَافُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ مِنْ مَلِكِهِمْ فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَدَخَلُوا غَارًا فَلَبِثُوا فِيهِ بِلَا طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ
ثَلَاثِينَ وَتِسْعَ سِنِينَ بِلَا آفَةٍ ، وَلَا شَكٍّ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ظَهَرَ عَلَى يَدِ مَنْ لَمْ يَدْعِ التُّبُوَّةَ ، وَلَا الرِّسَالَةَ

(١) - فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا نَذِيرَةً مُحَرَّرَةً لِلْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ بَيْتِهِ ، وَأَحْسَنَ نَشَأَتَهَا وَنَبَاتَهَا ، وَفَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ،
تَعَلَّمَ مِنْهُمْ الْعِلْمَ وَالْخَيْرَ وَالدِّينَ .

وَجَعَلَ زَكَرِيَّا كَافِلًا لَهَا ، إِثْمَامًا لِسَعَادَتِهَا ، لِنَقْتِيسِ مِنْهُ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ . وَكُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا مَكَانَ
مُصَلَّاهَا (الْمَخْرَابِ) وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، فَكَانَ زَكَرِيَّا يَسْأَلُهَا مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الرِّزْقُ يَا مَرْيَمُ؟ فَتَرُدُّ عَلَيْهِ قَائِلَةً
إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي يَرْزُقُ النَّاسَ جَمِيعًا بِتَسْخِيرِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَهُوَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ رِزْقًا كَثِيرًا
بِلَا حُدُودٍ؟

(٢) - تفسير البيضاوي - (ج ١ / ص ٣٣٩)

(٣) - تفسير البيضاوي وحاشية الشيخ زادة في تفسير الآيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٣ من سورة آل عمران .

(٤) - سورة الكهف من الآية ٩ - إلى الآية ٢٢ من السورة .

وَكَذَلِكَ بِقِصَّةِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : فَقَدْ أَتَى
بِعَرْشِ بَلْقِيسَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ طَرَفُ سُلَيْمَانَ إِلَيْهِ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ فَرَأَى سُلَيْمَانَ الْعَرْشَ مُسْتَقَرًّا
عِنْدَهُ بِلِسْحَةِ طَرَفِ الْعَيْنِ ، قَالَ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } (١) (٤٠) سورة النمل .

وَكَذَلِكَ بِمَا وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ كَرَامَاتٍ فِي حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ ، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : وَجَّهَ

عُمَرُ جَيْشًا ، وَرَأْسَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُدْعَى : سَارِيَّةً ، فَبَيْنَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَخْطُبُ جَعَلَ يُنَادِي : يَا سَارِيَّةُ : الْجَبَلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَهُ عُمَرُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُزِمْنَا فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتًا يُنَادِي : يَا سَارِيَّةُ إِلَى الْجَبَلِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَاسْتَدْنَا ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ كَانَ يَخْطُبُ عُمَرُ وَبَيْنَ مَكَانِ الْجَيْشِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ (٢) .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا ، فَتَفَرَّقَ الثَّوْرُ مَعَهُمَا . وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَسِيدَ بَنِ حُضَيْرٍ وَرَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ . قَالَ حَمَادٌ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ كَانَ أَسِيدُ بَنِ حُضَيْرٍ وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (٣) .

وَوَقَعَتْ لِلصَّحَابَةِ كَرَامَاتٌ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « إِنَّ صَاحِبَكُمْ تَغْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ يَعْنِي حَنْظَلَةَ فَاسْأَلُوا أَهْلَهُ مَا شَأْنُهُ » . فَسُئِلَتْ صَاحِبَتُهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ وَهُوَ جُنُبٌ حِينَ سَمِعَ الْهَائِعَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لِدَلِكْ غَسَلْتُهُ الْمَلَائِكَةُ » . قَالَ يُونُسُ فَحَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ عَامِرٍ قَالَ : قُبِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ حَنْظَلَةُ ابْنُ الرَّاهِبِ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ الَّذِي طَهَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ " (٤)

وَلَا تَزَالُ تَقَعُ الْكَرَامَاتُ لِصُلَحَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَدَّ أَنْ يَنْصُرَهُمْ وَيُعِيْبَهُمْ ، وَيُؤَيِّدَهُمْ ، جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « . وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوْفَلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَنْطُشُ بِهَا وَرَجُلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيْذَنَّهُ . » (٥) .

وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ نُصْرَةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ وَتَأْيِيدِهِ ، وَإِعَانَتِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ : يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنْ عَبْدِهِ مَنْزِلَةً الْأَلَاتِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا (٦) ، وَلِذَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ : " فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ ، وَبِي يَنْطُشُ ، وَبِي يَمْشِي " (٧) ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِلَتُهُ بِاللَّهِ فَلَا يُسْتَبَعَدُ أَنْ يُكْرِمَهُ بِظُهُورٍ مَا لَا يُطِيقُهُ غَيْرُهُ عَلَى يَدَيْهِ تَكْرِيماً لَهُ .

(١) - فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِمَا جَمَاعَتُهُ إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ بِأَسْرَعٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ (عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) إِنَّهُ مُسْتَعِيدٌ أَنْ يَأْتِيَهُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَطْرِفَ عَيْنُهُ وَدَعَا الرَّجُلُ بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ ، فَمَثَلَ الْعَرْشُ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانَ وَمَنْ حَوْلَهُ مُسْتَقْرَأً بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قَالَ سُلَيْمَانُ : هَذَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ لِيُخْتَبِرَنِي رَبِّي أَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ أَمْ أَكْفُرُ بِهَا؟ وَمَنْ شَكَرَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ ، وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ .

(٢) - أخرجه ابن عساکر (٢٤/٢٠) ، الإصابة في معرفة الصحابة - (ج ١ / ص ٤١٠) وهو صحيح

(٣) - صحيح البخارى (٣٨٠٥)

(٤) - السنن الكبرى للبيهقي (ج ٤ / ص ١٥) (٧٠٦٢ و ٧٠٦٣) وحلية ٣٥٧/١ وبداية ٢١/٤ ونوبة

٢٤٦/٣ وهو صحيح لغيره

(٥) - صحيح البخارى (٦٥٠٢)

(٦) - فتح الباري ١١ / ٣٤١

(٧) - رواية : " في يسمع وي يبصر ، وي يبطش ، وي يمشي " أورده ابن حجر في الفتح (١١ / ٣٤٤)
نقلًا عن الطوفي ولم يعزها إلى أي مصدر .

وَأُنْكَرَ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَلِيمِيُّ حُصُولَ مَا يَخْرِقُ الْعَادَةَ عَلَى يَدِ غَيْرِ نَبِيٍّ ، وَقَالُوا : إِنَّ
الْخَوَارِقَ دَلَالَتُ صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَدَلِيلُ الثُّبُوتِ لَا يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِ النَّبِيِّ ، وَلَئِنَّهَا لَوْ ظَهَرَتْ بِأَيْدِي الْأَوْلِيَاءِ
لَكَثُرَتْ بِكَثْرَتِهِمْ ، وَلَخَرَجَتْ عَنْ كَوْنِهَا خَارِقَةً لِلْعَادَةِ ، وَالْفَرَضُ أَنَّهَا كَذَلِكَ (١) .
قَوْلُ مَنْ ادَّعَى مَا لَا يُمَكِّنُ عَادَةً :

٩ - إِذَا ادَّعَى أَحَدٌ مَا لَا يُمَكِّنُ عَادَةً ، وَيُمَكِّنُ بِالْكَرَامَةِ فَلَا يُقْبَلُ شَرْعًا وَهُوَ لَعُوٌّ ، كَأَنِّ ادَّعَى أَنَّهُ رَهْنُ دَارِهِ
بِالشَّامِ وَأَقْبَضَهُ إِيَّاهَا ، وَهَمَّا بِمَكَّةَ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ ، قَالَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِمَا
يُمَكِّنُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَكَذَا إِنْ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ فِي الْمَغْرِبِ وَهُوَ بِالْمَشْرِقِ وَوَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ لَا يُلْحَقُهُ ؛
لَأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهَا بِالشَّرْعِ ، وَإِنْ خَصَّ الشَّارِعُ شَخْصًا بِحُكْمٍ يَبْقَى الْحُكْمُ خَاصًّا بِهِ ، وَلَا يَتَعَدَّاهُ
إِلَى غَيْرِهِ بِالْقِيَاسِ ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ شَهِدَ لَهُ خَزِيمَةٌ أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ فَحَسْبُهُ (٢) ، وَهَذِهِ مَكْرُمَةٌ
خَاصَّةٌ بِخَزِيمَةٍ بَعْدَ شَهَادَتِهِ بِشَهَادَتَيْنِ ، فَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ لِأَنَّهُ كَرَامَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ ، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ (٣)

هل ما كان معجزة لنبي كان كرامة لولي؟ (٤)

قال بعض أهل العلم : إن كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي . وهذا القول لا يصح بهذا
الإطلاق ، وإنما يتعين تقييده ، فيستثنى ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء ، فإن الأولياء لا يصلون إلى مثله ، قال
الحافظ ابن حجر رحمه الله : (٥) " الْمَشْهُورُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ اثْبَاتُ الْكَرَامَاتِ مُطْلَقًا ، لَكِنْ اسْتَشْنَى بَعْضُ
الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ كَأَبِي الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيِّ مَا وَقَعَ بِهِ التَّحْدِي لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ ، وَلَا يَصِلُونَ إِلَى مِثْلِ إِيجَادِ وَلَدٍ
مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَهَذَا أَغْدَلُ الْمَذَاهِبِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ فِي الْحَالِ وَتَكْثِيرَ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ
وَالْمُكَاشَفَةِ بِمَا يَغِيبُ عَنِ الْعَيْنِ وَالْإِخْبَارُ بِمَا سَيَأْتِي وَنَحْوُ ذَلِكَ قَدْ كَثُرَ جَدًّا حَتَّى صَارَ وَقُوعُ ذَلِكَ مِنْ مَنْ يُنْسَبُ
إِلَى الصَّلَاحِ كَالْعَادَةِ ، فَانْحَصَرَ الْخَارِقُ الْآنَ فِيمَا قَالَهُ الْقُشَيْرِيُّ ، وَتَعَيَّنَ تَقْيِيدُ قَوْلِ مَنْ أَطْلَقَ أَنَّ كُلَّ مُعْجَزَةٍ
وُجِدَتْ لِنَبِيِّ يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ كَرَامَةٌ لَوْلِيٍّ . "

وفي فتاوى الرملی : (٦)

" (سِئِلَ) عَمَّنْ قَالَ مِنْ كَرَامَاتِ الْوَلِيِّ أَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ فَتَهَيَّ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ
فَعَقِيدَتُهُ فَاسِدَةٌ فَهَلْ مَا ادَّعَاهُ صَحِيحٌ أَوْ بَاطِلٌ ؟

(فَاجَابَ) بَأَنَّ مَا قَالَهُ صَحِيحٌ إِذِ الْكَرَامَةُ الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ يُظْهِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ وَلِيِّهِ وَقَدْ قَالَ الْأَيْمَةُ مَا
جَازَ أَنْ يَكُونَ مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ جَازَ أَنْ يَكُونَ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ لَا فَارِقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا التَّحْدِي فَمَرَجَعَ الْكَرَامَةُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
تَعَالَى نَعَمْ إِنْ أَرَادَ اسْتِقْلَالَ الْوَلِيِّ بِذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ . "

وقال البراك حفظه الله : (٧)

" الحمد لله ، معجزات الأنبياء وهي الآيات والبينات والبراهين على صدقهم ، وكرامات الأولياء كلها من
خوارق العادات ، وكل الخوارق يرجع إلى نوع القدرة والتأثير ، أو العلم ، أو الغنى .

(١) - حاشية شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجوري المسماة بتحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) - عَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ابْتَنَعَ مِنْ سَوَاءِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُحَارِبِيِّ فَرَسًا فَجَحَدَ فَشَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « مَا حَمَلَكَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُ؟ ». قَالَ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ صَدَّقْتُكَ بِمَا قُلْتَ وَعَرَفْتُ أَنَّكَ لَا تَقُولُ إِلَّا حَقًّا فَقَالَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .

السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٠ / ص ١٤٦) (٢١٠٢١) والمستدرک للحاکم (٢١٨٨) ومجمع ٣٢٠/٩ وتخ ٨٧/١ وكر ١٣٦/٥ وفتح ٥١٩/٨ وهو حديث صحيح

(٣) - تحفة المحتاج ٥ / ١٠٧ ، ومسلم الثبوت ٢ / ٣٢٧ .

(٤) - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٧ / ص ٢٠٨٢) = رقم الفتوى ٤٩٧٢٤ مقولة " ما صح

لنبي صح لولي " تاريخ الفتوى : ٢١ ربيع الثاني ١٤٢٥

(٥) - فتح الباري لابن حجر - (ج ١١ / ص ٤٢٠)

(٦) - فتاوى الرملي - (ج ٦ / ص ١٨٠)

(٧) - فتاوى واستشارات الإسلام اليوم - (ج ٤ / ص ١٦٢) - بين كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء -

الحبيب عبد الرحمن بن ناصر البراك

فالخوارق تتنوع بحسب هذه المعاني، فمعجزات الأنبياء منها ما يكون علمياً، ومنها ما يكون من قبيل القدرة، ومنها ما يكون من قبيل الغنى، وهكذا كرامات الأولياء.

وقول القائل: (ما صح أن يكون معجزة لنبي صح أن يكون خارقاً لولي)، معناه: أن ما كان معجزة للنبي إن حصل مثله للولي فهو كرامة، وليس المقصود أن كل معجزة من معجزات الأنبياء يكون مثلها للأولياء، لكن إن حصل للولي من الخوارق ما يشبه بعض معجزات النبي فهو في حقه كرامة، وما كان كرامة لولي فإنه معجزة للنبي الذي يتبعه هذا الولي؛ لأنه إنما حصل له هذا الخارق بسبب اتباعه، فتكون الكرامة حجة على صحة الدين الذي هو عليه، وبهذا يعلم أنه لا يلزم أن كل خارق حصل لنبي يكون مثله لأحد من الأولياء، فانشقاق القمر وعروج النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يحصل لغيره ولن يحصل.

وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية أن خوارق الأنبياء لا يقدر على مثلها أحد من البشر، فلا بد أن تتميز خوارق الأنبياء على كرامات الأولياء.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: (١)

" ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي، فالقاعدة الآن: أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه. وعليه فنقول: من آيات موسى أنه ضرب الحجر وإذا ضربه انفجر عيوناً تنبع ماءً من حجر يابس، فهل كان للرسول

صلى الله عليه وسلم مثله؟ الجواب: كان له أعظم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليه بقدح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الركوة، فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده كالعيون -سبحان الله!- هذه أعظم من آية موسى، يعني: آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ [البقرة: ٧٤] لكن هل جرت العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل؟ لا. إذاً هذه أعظم. موسى عليه الصلاة والسلام ضرب البحر فانفلق فكان أسواقاً يابسة، وهذه لا شك آية عظيمة، جرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرب لهم طريق يابس، مشوا على الماء المانع الهين الذي يغوص فيه من يقع فيه بدواهم وأرجلهم ولم يغرقوا، في قصة العلاء الحضرمي، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تتفرق عنها الماء. فالمهم: أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة، رحمةً بالناس من أجل أن تحملهم هذه الآيات على التصديق فينجون من عذاب الله، حكمة لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس ويقول: أنا رسول الله، حتى يؤتى آيات. من آية صالح هذه الناقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم وهؤلاء يوم، هذه من آيات الله، وقع مثلها للرسول عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فإنه مر براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن فمسح النبي صلى الله عليه وسلم ضروعها فجعلت تدر باللبن."

وقال ابن أطفيش: (٢)

"اختلفوا في كرامات الأولياء فنفتها المعتزلة وأثبتها الجمهور، والحجة على المعتزلة قول الله تعالى: {فَقَبِّلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (٣٧) سورة آل عمران، فأفهم ذلك ردًا عليهم، والكرامة: ظهور أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة على يد من عرفت ديانتها واشتهرت وليته في اتباع نبيه في جميع ما جاء به، وإلا فهي استدراج أو سحر أو إدلال كما وقع لمسيمة الكذاب - لعنه الله - أنه جاءه أعور يدعو له، فدعا فعميت الصعيحة أيضًا، وتسمى إهانة، وقد يظهر الخارق على يد عاص تخلصًا له من فتنة، وتسمى معونة، ونسب شارح الهزلية إنكار الكرامة إلى بعض أهل مذهبه، وأوجب تأويله وإلى المعتزلة، ووجه التأويل أنه منع وقوعها بقصد لأنه يسقط به عن رتبة الولاية.

(١) - لقاءات الباب المفتوح - (ج ١٨٤ / ص ٣) - تفسير قوله تعالى: (كذبت ثمود بالنذر...):

(٢) - شرح النيل وشفاء العليل - إباحية - (ج ٣٤ / ص ٢٠٦)

وقيل: منع وقوع النبي من جنس معجزة نبي لنا يلتبس الأمر، وردَّهما الفخر بأن المرضي وقوعها مع الائتفاء من النبوة، واشترط القشيري وجماعة أن لا تنتهي إلى إحياء ميت ولا وجود ولد من غير أب، وردَّ بذلك وبقولهم ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي لأنه لا يدعي النبوة، والكرامة من الجائز تظهر بأيدي أتباع الأنبياء إكرامًا للأنبياء كما وقع لمريم، وكولادة عيسى بلا أب، وكما وقع لأصحاب

الْكُفْهِ ، وَوَزِيرِ سُلَيْمَانَ فِي عَرْشِ بَلْقَيْسَ ، وَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ ذَلِكَ إِرْهَاصٌ ، وَإِنْ سَلَّمْنَا فَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَرَامَةٌ لِمَنْ وَقَعَ عَلَى يَدِهِ وَإِجْلَالٌ لَهُمْ إِذْ وَقَعَ ذَلِكَ لِمَنْ تَبِعَهُمْ فِي شَرَائِعِهِمْ ، وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ، وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ ذَلِكَ مَمْنُونٌ عَلَى السَّاحِرِ ، وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَلِيِّ ، وَصَحَّحَهُ شَارِحُ الْهَمَزِيَّةِ ، وَإِنَّمَا أَمَكْنَهُ هَذَا لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى يَدِ أَحَدٍ كَمَا فَعَلَهُ عَلَى يَدِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ أَحَدٍ بِدُونِ اللَّهِ فَمَمْنُونٌ بِإِجْمَاعٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) } [الجن/٢٦] ، [٢٧] ، فَلَا سِتْنَاءَ فِيهِ مُتَقَطِّعٌ ، وَإِضَافَةُ الْغَيْبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ ، وَمَذْلُولُ الْعَامِّ كُلِّيَّةٌ ، فَالْغُيُوبُ كُلُّهَا لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهَا غَيْرُهُ ، بَلْ أُطْلِعَ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَخْصُوصَةٍ وَلَوْ قُلْنَا : إِنَّهُ مُتَّصِلٌ ، فَالْمَعْنَى لَا يُظْهِرُ عَلَى بَعْضِ غَيْبِهِ إِلَّا الرَّسُولَ ، وَيُظْهِرُ عَلَى غَيْرِهِ رُسُلًا آخَرِينَ وَأَوْلِيَاءَ ، وَزَعَمَ بَعْضُ الْكِرَامِيَّةِ أَنَّ الْوَلِيَّ قَدْ يَبْلُغُ دَرَجَةَ الثَّبُوتِ ، وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّ الْوَلِيَّ فَوْقَ الثَّبُوتِ وَأَنَّهُ يَسْقُطُ عَنِ الْوَلِيِّ التَّكْلِيفُ إِذَا بَلَغَ حَالَةً مَخْصُوصَةً ، قَالَ الْغَزَالِيُّ : قَتَلَ الْوَاحِدِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَفْضَلَ مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ كَافِرًا لِشِدَّةِ ضَرَرِهِمْ فِي الدِّينِ ، وَمِمَّنْ وَافَقَ الْمُعْتَزِلَةَ فِي نَفْيِ الْكِرَامَةِ أَبُو إِسْحَاقَ الْحَلِيمِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ ، وَأَثْبَتَهَا أَبُو الْحَسَنِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَكَانَ أَهْلُ رَحْيَةَ وَهِيَ مَدِينَةٌ يُنْكِرُونَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، قَالَ أَبُو جَابِرِ الرَّحْبِيُّ : فَرَكِبْتُ سَبْعًا ذَاتَ يَوْمٍ وَدَخَلْتُ الْمَدِينَةَ وَقُلْتُ : أَيُّنَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ ؟ .

وفي فتاوى ابن عليش : (١)

" (مَا قَوْلُكُمْ) فِي رَجُلٍ مَاتَ ، وَأَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى هَلْ بَاتَتْ زَوْجَتُهُ أَمْ لَا ؟ وَإِذَا قُلْتُمْ بَاتَتْ فَهَلْ يَحْجُزُ لَهُ الْعَقْدُ عَلَيْهَا أَمْ لَا ؟ وَإِذَا قُلْتُمْ بِالْحَوَازِ فَهَلْ ، وَلَوْ فِي الْعِدَّةِ ، وَهَلْ تَكُونُ مَعَهُ بَعْضُ مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ وَهَلْ حُكْمُ الْمَرْأَةِ إِذَا مَاتَتْ ، وَأَحْيَاهَا اللَّهُ تَعَالَى حُكْمُ الرَّجُلِ أَمْ لَا كَيْفَ الْحَالُ ؟ أَفِيدُوا الْجَوَابَ .

فَاجْتَبَتْ بِمَا نَصَّهُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِذَا فُرِضَ مَوْتُهُ حَقِيقَةً ، وَأَحْيَاهُ اللَّهُ لَهُ مُعْجَزَةٌ لِنَبِيِّ أَوْ كَرَامَةٌ لَوْلِيٍّ فَقَدْ بَاتَتْ زَوْجَتُهُ بِمُجَرَّدِ مَوْتِهِ ، وَيَحْجُزُ لَهُ الْعَقْدُ عَلَيْهَا بَعْدَ حَيَاتِهِ ، وَلَوْ فِي الْعِدَّةِ ؛ لِأَنَّ امْتِنَاعَ الْعَقْدِ فِي الْعِدَّةِ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ غَيْرِ الزَّوْجِ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ طَلَاقًا بَائِنًا دُونَ الْغَايَةِ فَلَهُ الْعَقْدُ عَلَيْهَا فِي الْعِدَّةِ ، لَكِنَّ مَحَلَّ هَذَا إِنْ لَمْ يَتَقَدَّمَ لَهُ طَلَاقٌ يَبْلُغُ بِهِدِهِ الْبَيِّنَةُ ثَلَاثًا ، وَإِلَّا فَلَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ ، وَإِنْ عَقَدَ عَلَيْهَا بَعْدَ زَوْجٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُ طَلَقَتَانِ ، وَهُوَ حُرٌّ أَوْ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ رَقِيقٌ كَانَتْ مَعَهُ بَعْضُ مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ تَامَّةٍ ، وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمَ لَهُ طَلَاقٌ أَوْ تَقَدَّمَ لَهُ طَلَقَةٌ ، وَهُوَ حُرٌّ ، وَعَقَدَ عَلَيْهَا كَانَتْ مَعَهُ بِتَمَامِ الْعِصْمَةِ الْأُولَى ، وَحُكْمُ الْمَرْأَةِ إِذَا مَاتَتْ ، وَأَحْيَاهَا اللَّهُ تَعَالَى حُكْمُ الرَّجُلِ ، وَكُلُّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ : تَشْجِيدًا لِلْأَذْهَانِ ، وَتَذَرِيًّا لِلْعُرْفَانِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . "

وقال ابن حجر المكي : (٢)

(١) - فتاوى ابن عليش - (ج ١ / ص ٤٥١)

(٢) - الزواجر عن اقتراف الكبائر - (ج ٣ / ص ١٧٧)

" وَقَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ إَحْيَاءُ الْمَيِّتِ ، أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ فَلَا يَجُوزُ إِظْهَارُهُ إِلَّا مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ رَدَّهَ أَهْلُ السُّنَّةِ بِأَنَّهُ يَجُوزُ بِأَنَّهُ خَرَفَهَا كَرَامَةً لَوْلِيٍّ وَلِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ مُكَابَرَةٌ لِلْحَسِّ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِبَعِيدٍ مِنْ عَقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ الصَّالَةِ .

كرامات الأولياء وموآهبهم

قال الإمام النووي رحمه الله (١):

" باب في

كرامات الأولياء وموآهبهم

قال الله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)) [يونس/٦٢-٦٥].

اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء، وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار، ويدل عليها دلائل العقول وصرائح النقول.

أما دلائل العقل فهي أمر يمكن حدوثه، ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه وما كان مقدورا كان جائز الوقوع.

وأما النقول فأيات في القرآن العظيم وأحاديث مستفيضة. أما الآيات فقوله تعالى في قصة مريم {وَهَزِيْإِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا} (٢٥) سورة مريم.

قال الإمام أبو المعالي رحمه الله تعالى إمام الحرمين: ولم تكن مريم بنبية باجماع العلماء وكذا قاله غيره، بل كانت ولية صديقة كما أخبر الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (٣٧) سورة آل عمران.

ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (٤٠) سورة النمل. قال العلماء ولم يكن نبيا.

ومن ذلك ما استدل به إمام الحرمين وغيره من قصة أم موسى (٢). ومن ذلك ما استدل به أبو القاسم القشيري من قصة ذي القرنين (٣). واستدل القشيري وغيره بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، قالوا ولم يكن نبيا بل وليا وهذا خلاف المختار والذي عليه الأكثر أنه كان نبيا (٤). وقبل كان نبيا رسولا وقيل كان وليا وقيل ملكا. وقد أوضحت الخلاف فيه وشرحته في تهذيب الأسماء واللغات وفي شرح المذهب. (٥)

وفي ذلك قصة أهل الكهف وما اشتملت عليه من خوارق العادات. قال إمام الحرمين وغيره: ولم يكونوا أنبياء بالإجماع.

وأما الأحاديث فكثيرة منها عَنْ قَتَادَةَ قَالَ حَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمِصْبَاحَيْنِ يُضِيَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلُهُ .. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ وَفِي عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ (٦) ، هَذَانِ الرَّجُلَانِ عِبَادُ بَنِ الْبَشَرِ وَأَسِيدُ بَنِ حَضِيرٍ بَضُمَ أَوْلَهُمَا وَفَتَحَ ثَانِيَهُمَا . وَحَضِيرٌ بَضُمَ الْحَاءُ الْمَهْمَلَةُ وَبِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ .

(١) - بستان العارفين - (ج ١ / ص ٢٠) فما بعد

(٢) - في قوله تعالى لها : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) [القصص/٧، ٨] }

(٣) - في أواخر سورة الكهف

(٤) - وهو الراجح إن شاء الله .

(٥) - انظر تهذيب الأسماء - (ج ١ / ص ٢٤٩)

(٦) - صحيح البخارى (٤٦٥ و ٣٦٣٩)

ومنها حديث أصحاب الغار الثلاثة الذين أووا إلى الغار فأطبقت صخرة عليهم بابه فدعا كل واحد منهم بدعوة فانفجرت عنهم الصخرة وهو مخرج في صحيح البخاري ومسلم (١).
ومنها حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في قصة جريج أنه قال للصبي الرضيع من أبوك قال فلان الراعي وهو مخرج في الصحيح (٢)

(١) - عَنِ الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوُوا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَأَنحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارُ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لَا أَغِيقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا ، فَلَمَّا بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا ، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغِيقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْخُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْقَمَرُ ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَأَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ » . قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَقْضَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ . فَأَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا . قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ

فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَنَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي . فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ . فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي . فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ . فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأْفَقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ . فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ » . صحيح

(البخارى ٢٢٧٢)

أَغْبَقَ : أَسْقَى والغبوق شرب آخر النهار مقابل الصبح = الغبوق : اللبن الذى يشرب فى المساء
(٢) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبُّ أُمِّي وَصَلَاتِي . فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبُّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ . فَقَالَ أَيْ رَبُّ أُمِّي وَصَلَاتِي . فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ الْمُؤْمِسَاتِ . فَتَذَاكُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمُّثَلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ إِنْ شِئْتُمْ لِأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ - قَالَ - فَعَرَّضْتُ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمَكْنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ . فَأَتَتْهُ فَاسْتَنَزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا زَنَيْتَ بِهِذِهِ الْبَغِيَّةِ فَوَلَدَتْ مِنْكَ . فَقَالَ أَيْنَ الصَّبِيِّ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فَلَانَ الرَّاعِي - قَالَ - فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ .

فَفَعَلُوا . وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا . فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ . قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِاصْبِعِهِ السَّبَابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمْصُهَا . قَالَ وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتَ سَرَقْتَ . وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا . فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . فَهَنَّاكَ تَرَا جَعَا الْحَدِيثِ فَقَالَتْ حَلَقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ . فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ . وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتَ سَرَقْتَ . فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا . فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . وَإِنْ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتَ . وَلَمْ تَزْنِ وَسَرَقْتَ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . صحيح مسلم (٦٦٧٣)

ومنها حديث عن أبي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عَمْرُ » (١) .

وفي رواية عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعَمْرُ » . رواه البخاري في

صحيحه(٢). ومنها الحديث المشهور في صحيح البخاري وغيره في قصة خبيب الأنصاري بضم الحاء المعجمة رضي الله تعالى عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقول ابنة الحارث فيه: "وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أُسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُوتِقٌ فِي الْحَدِيدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا"(٣)

(١) - صحيح البخارى (٣٦٨٩)

(٢) - صحيح البخارى (٣٦٨٩)

(٣) - عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيُّ - وَهُوَ حَلِيفُ لَبْنِي زُهْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ - أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَشْرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ ، فَأَنْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَاةِ وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذَكُرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُدَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ ، فَفَقَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مَائَتِي رَجُلٍ ، كُلُّهُمْ رَامٍ ، فَاقْتَصَمُوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَا كُلُّهُمْ ثَمَرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا هَذَا ثَمَرٌ يَثْرِبُ . فَاقْتَصَمُوا آثَارَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَنُوا إِلَى فِدْقٍ ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَقَالُوا لَهُمْ انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ ، وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ ، وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا . قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ أَمَا أَنَا فَوَاللَّهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ . فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ ، فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ خُبَيْبُ الْأَنْصَارِيُّ وَابْنُ ذَيْنَةَ وَرَجُلٌ آخَرٌ ، فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ فَأَوْتَقَوْهُمْ فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ ، وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ ، إِنْ فِي هَؤُلَاءِ لَأُسُوءَ . يُرِيدُ الْقَتْلَى ، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ ، فَأَنْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ ذَيْنَةَ حَتَّى بَاغَوْهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَأَبْتَعَ خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ بْنُ نَوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أُسِيرًا ، فَأَخْبَرَنِي عُيَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بَنَاتِ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنََّّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَنَا هُنا فَقَالَتْ فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ ، فَفَرَعْتُ فَرْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ تَخَشَّيْنِ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ ذَلِكَ .

وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أُسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُوتِقٌ فِي الْحَدِيدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ ذُرُونِي أَرْكَعَ رُكْعَتَيْنِ . فَتَرَكُوهُ ، فَرُكِعَ رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ لَوْلَا أَنْ تَطُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا . وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَى شَيْءٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَ الرُّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا ، وَبَعَثَ نَاسًا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ خُذُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عَظْمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فُبِعَتْ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظَّلَّةِ مِنَ الدَّبَرِ ، فَحَمَتَهُ مِنْ رَسُولِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا . صحيح البخارى (٣٠٤٥)

والأحاديث والآثار وأقوال السلف والخلف في هذا الباب أكثر من أن تحصر، فيكتفي بما أشرنا إليه وسترى في هذا الباب جملاً من ذلك وباقي الكتاب إن شاء الله تعالى.

الرد على المعتزلة بإنكارهم خرق العادة

قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين:

"الذي صار إليه أهل الحق، جواز انخراق العادة في حق الأولياء".

وأطبقت المعتزلة على إنكار ذلك. ثم من أهل الحق من صار إلى أن الكرامة الخارقة للعادة، شرطها أن تجري من غير إيثار واختيار من الولي، وصار هؤلاء إلى أن الكرامة تفارق المعجزة من هذا الوجه. قال الإمام: وهذا القول غير صحيح.

وصار آخرون منهم إلى تجويز وقوع الكرامة على حكم الاختيار، ولكنهم منعوا وقوعها على مقتضى الدعوى فقالوا: لو ادعى الولي الولاية، واعتصد في إثبات دعواه بما يخرق العادة، فكان ذلك ممنعاً، وهؤلاء فرقوا بهذا بين الكرامة والمعجزة.

قال: وهذه الطريقة غير مرضية أيضاً قال: ولا يمتنع عندنا ظهور خوارق العوائد مع الدعوى المفروضة. قال: وصار بعض أصحابنا إلى أن ما وقع معجزة لنبي لا يجوز تقدير وقوعه كرامة لولي.

فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر، وتنقلب العصا ثعباناً، ويحيى الموتى إلى غير ذلك من آيات الأنبياء كرامة لولي.

قال الإمام: وهذه الطريقة غير سديدة أيضاً.

قال: والمرضي عندنا جواز خوارق العادات في معارض الكرامات. قال: وغرضنا من إبطال هذه المذاهب والطرق، إثبات الصحيح عندنا.

المعجزة والكرامة لا يفترقان

قال: وأما الفرق بين المعجزة والكرامة، فلا يفترقان في جواز العقل إلا بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة، ووقع الكرامة دون ادعاء النبوة.

قال الإمام: وقد جرى من الآيات في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا ينكره منتهم إلى الإسلام، وذلك قبل النبوة والانبعاث، والمعجزة لا تسبق دعوى النبوة، فكان كرامة.

قال: فإن زعم متعسف أن الآيات التي استدللنا بها كانت معجزات لنبي كل عصر، فذلك اقتحام منه للجبهالات.

فإننا إذا بحثنا عن الأعصار الخالية، لم نجد الآيات التي تمسكنا بها مقترنة بدعوة نبوة، ولا وقعت عن تحدي متحد. فإن قالوا: وقعت للأنبياء دون عوامهم، قلنا: شرط المعجزة: الدعوى؛ فإذا فقدت كانت خارقة للعادة، كرامة للأنبياء، ونجعل بذلك غرضنا في إثبات الكرامات.

ولم يكن وقت مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي تستند إليه آياته.

قال الإمام: فقد وضحت الكرامات جوازاً ووقوعاً، سمعاً وعقلاً.

الفرق بين السحر والكرامة

قال الإمام وغيره في الفرق بين السحر والكرامة: أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر على فاسق. قال: وليس ذلك من مقتضيات العقل؛ ولكنه متلقى من إجماع الأمة.

قال الإمام: ثم الكرامة وإن كانت لا تظهر على فاسق معلى بفسقه، فلا تشهد بالولاية على القطع؛ إذ لو شهدت بها لأمن صاحبها العواقب؛ وذلك لم يجوز لولي في كرامة باتفاق. هذا آخر كلام إمام الحرمين.

في إثبات كرامات الأولياء

قال الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى فيما رويناه في رسالته:

ظهور الكرامات، علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله؛ فمن لم يكن صادقاً فظهور مثله عليه لا يجوز. قال: ولا بد أن تكون الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف ظاهراً على موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله.

قال: وتكلم أهل الحق في الفرق بين الكرامة والمعجزة.

الفرق بين المعجزة والكرامة

فكان الإمام أبو إسحاق الأسفرايني رحمه الله تعالى يقول:

المعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً للعالم فيكونه عالماً لم يوجد غير ه يكون عالماً.

وكان يقول: الأولياء لهم كرامات، منها شبه إجابة الدعاء، فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا.

وقال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى:

المعجزات دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبها النبوة دلت على صدقه، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت على صدقه في حالته. فتسمى كرامة، ولا تسمى معجزة، وإن كانت من جنس المعجزات، للفرق. وكان رحمه الله يقول: من الفرق بين المعجزات والكرامات، أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها.

والنبي يدعي ويقطع القول به، والولي لا يدعيها ولا يقطع كرامته لجواز أن يكون ذلك مكرراً.

وقال أوحده وقته في فنه القاضي أبو بكر الباقلاني رضي الله تعالى عنه: المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء، كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها. والمعجزة لم تكن معجزة لعينها؛ وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمضى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة.

قال القشيري: وهذا الذي قاله هو الذي نعتمده ونقول به بل وندين الله به. فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد في الكرامات إلا هذا الشرط الواحد، وهو دعوى النبوة، فلا تكون المعجزة كرامة.

فالكرامة كالمعجزة فعل من الله لا محالة، فهي حادثة لا قديمة وهو ناقض للعادة، ويحصل في زمن التكليف، وتظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً.

وقد تحصل باختباره ودعائه، وقد لا تحصل، وقد تكون بخير اختياره في غالب الأوقات، ولم يؤمر الولي بدعاء الخلق إلى نفسه، ولو أظهر شيئاً من ذلك على من يكون أهلاً له لجاز.

واختلف أهل الحق في الولي، هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا؟
فكان الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يسلبه الخوف، ويوجب له الأمن.

وكان الأستاذ علي الدقاق رحمه الله يقول بجوازه وهو الذي نؤثره ونقول به، وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء، حتى يكون كل ولي يعلم أنه ولي واجباً، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ذلك كما لا يجوز أن لا يعلم بعضهم.

فإذا علم بعضهم أنه ولي، كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها.

وليس كل كرامة لولي، يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء، بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا، لم يقدح عدمها في كونه ولياً، بخلاف الأنبياء فإنه يجب أن تكون لهم معجزات؛ لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فالناس بحاجة إلى معرفة صدقه، ولا يعرف إلا بمعجزة. وحال الولي بعكس ذلك، لأنه ليس بواجب على الخلق، ولا على الولي أيضاً العلم بأنه ولي.

والعشرة من الصحابة رضي الله عنهم صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به في أنهم من أهل الجنة.

وأما قول من قال: لا يجوز ذلك، لأنها تخرجهم من الخوف فلا بأس أن لا يخافوا تغيير العقابة.

والذي يجدونه في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه وتعالى، يزيد ويربو على كثير من الخوف. قال الأستاذ القشيري: واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، ولا له ملاحظة، وربما يكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين، وزيادة بصيرة، لتحقيقهم أن ذلك فعل الله تعالى، فيستدلون بها من صحة ما هم عليه من العقائد، والله أعلم.

كل كرامة لولي معجزة لنبي

قال القشيري رحمه الله تعالى: إن قيل كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟

قلنا: هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن كل من ليس بصديق في الإسلام تمتنع عليه الكرامات. وكل نبي ظهرت له كرامة على واحد من أمته، فهي معدودة من جملة معجزاته، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على من تابعه الكرامة. يعني التي هي الكرامة لهذا الواحد. لا يجوز تفضيل الولي على النبي

قال القشيري: هل يجوز تفضيل الولي على النبي؟

قلنا: رتبة الأولياء لا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. للإجماع المنعقد على ذلك.

الكرامات تنوع بتنوع الأحوال والمناسبات

قال الأستاذ القشيري رحمه الله: هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في وقت عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، وغير ذلك من فنون الأفعال المناقضة للعادة.

قال: واعلم أن كثيراً من المقدورات يعلم اليوم قطعاً أنه لا يجوز أن تقع كرامة للأولياء بالضرورة أو شبه الضرورة يعلم ذلك، فمنها حصول إنسان من غير أبوين، وقلب جماد بجميمة، وأمثال هذه كثيرة.

اشتقاق لفظ الولي

قال القشيري: يحتمل الولي أمرين:

(١) أحدهما أن يكون فعلاً مبالغة في الفاعل؛ كالعليم بمعنى العالم، والقدير بمعنى القادر، فيكون معناه: من توالى طاعته من غير تخلل معصية.

(٢) والثاني أن يكون فعلاً بمعنى مفعول؛ كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الله سبحانه وتعالى حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة المعصية، ويدوم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة، قال الله تعالى: {إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} (١٩٦) سورة الأعراف.

أما العبد الصالح فيطلق على النبي والولي

قال الله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)} [الأنبياء/٨٥-٨٧].

وقال تعالى عن نبيه يحيى صلى الله عليه وسلم: {..وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} (٣٩) سورة آل عمران .

وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} (٦٩) سورة النساء .

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في عبد الله بن عمر: « إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ » (١) . والآيات والأحاديث بمعنى ما ذكرته كثيرة .

حدُّ الصَّالِح

وأما حد الصالح فقال الإمام أبو إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن، وأبو إسحاق بن قرقول صاحب مطالع الأنوار: هو المقيم بما يلزم من حقوق الله تعالى، وحقوق العباد.

الفرق بين العصمة والحفظ

قال الإمام القشيري: فإن قيل هل يكون الولي معصوماً أم لا؟.

قلنا: أما جوباً كما يقال في حق الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصراً على الذنوب، وإن حصلت هفوات في أوقات، أو آفات، أو زلات، فلا يمتنع ذلك في وصفهم. وقد قيل للجنيـد: العارف يزني؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

الخوف لا يفارق الأولياء

قال التستري رحمه الله: فإن قيل: هل يسقط الخوف عن الأولياء؟.

قلنا: الغالب على الأكابر كان الخوف .

وذلك الذي تقدم على جهة الندرة يعني القلة غير ممتنع.

وهذا السري السقطي رضي الله تعالى عنه يقول: لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح: السلام عليك يا ولي الله! فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكوراً به. وأمثال هذا من حكاياتهم كثيرة. قال: فإن قيل: هل يجوز أن يزايل الولي خوف المكر؟.

قلنا: إن كان مصطلحاً عن شاهده، محتطفاً عن إحساسه بحاله، فهو مستهلك عنه، فيما استولى عليه والخوف

من صفة الحاضرين بهم .
ما يغلبُ على الولي حال صحوه
قال القشيري: فإن قيل: ما الغالب على الولي في حال صحوة؟.

(١) - صحيح البخارى (٣٧٤٠ و ٣٧٤١)

قلنا: صدقه في أداء حقوق الله سبحانه وتعالى، ثم رأفته وشفقته على الخلق في جميع أحواله، ثم انبساط رحمته للخلق كافة، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق، وتعليق الهمة بنجاة الخلق، وترك الانتقام منهم، والتوقي عن استشعار حقد عليهم، ومع قصر اليد عن أموالهم وترك الطمع بكل وجه وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتهاون عن شهود مساويهم، ولا يكون خصماً في الدنيا ولا في الآخرة.
قلت: معناه أنه يعفو عن حقوقه في الدنيا فلا يطالبهم بها في الدنيا ولا يبقى له عندهم شيء يطالب به في الآخرة.

قال الله تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (٤٣) سورة الشورى.
وقال الله تعالى: {الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (١٣٤) سورة آل عمران.
وروي في كتاب عمل اليوم والليلة لابن السني بإسناده عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أعجز أحدكم أن يكون كأي ضمضم؟! قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول الله؟! قال: كان إذا أصبح قال: اللهم إني وهبت نفسي وعرضي لك؛ فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه) (١).

قلت: معناه لا يقتص من ظلمه، كما قال الله تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (١٩٤) سورة البقرة.

دوام الطاعات

قال القشيري: واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة، والعصمة عن المعاصي والمخالفات.

قلت: يدخل في المخالفات ما ليس معصية، كالمكروه كراهة التنزيه، وكترك الشهوات التي يستحب تركها.

كرامات الأولياء (٢)

" (وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ) وَهُمْ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى حَسْبَمَا يُمَكِّنُ الْمُؤَاطِفُونَ عَلَى الطَّاعَاتِ الْمُجْتَنِبُونَ لِلْمَعَاصِي الْمُعْرِضُونَ عَنِ الْإِثْمِ فِي اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ (حَقٌّ) أَيْ جَائِزَةٌ وَوَاقِعَةٌ كَجَرَيَانِ النَّيْلِ بِكِتَابِ عُمَرَ وَرُؤْيَيْهِ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ جَيْشُهُ بِنَهَاوَنْدَ حَتَّى قَالَ لِلْأَمِيرِ الْجَيْشِ : يَا سَارِيَّةُ ، الْجَبَلُ الْجَبَلُ (٣) ، مُحَذَّرًا لَهُ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ لِكَمَنِ الْعَدُوُّ هُنَاكَ ، وَسَمَاعِ سَارِيَّةَ كَلَامَهُ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ ، وَكَشْرَبِ خَالِدِ السَّمِّ مِنْ غَيْرِ تَضَرُّرٍ بِهِ

(٤) وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ .

(قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَلَا يَنْتَهُونَ إِلَى نَحْوٍ وَلَدٍ دُونَ وَالِدٍ) وَقَلْبَ جَمَادٍ بَهِيمَةً، قَالَ الْمُصَنِّفُ : وَهَذَا حَقٌّ يُخَصِّصُ قَوْلَ غَيْرِهِ مَا جَازَ أَنْ يَكُونَ مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ جَازَ أَنْ يَكُونَ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ لَا فَارِقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا التَّحَدِّيَّ، وَمَنْعَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ الْخَوَارِقَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَذَلِكَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي قَالَ : كُلُّ مَا جَازَ تَقْدِيرُهُ مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ لَا يَجُوزُ ظُهُورُ مِثْلِهِ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ، وَإِنَّمَا مَبَالِغُ الْكَرَامَاتِ إِبْجَابَةُ دَعْوَةٍ أَوْ مُوَافَاةُ مَاءٍ فِي بَادِيَةٍ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّعِ الْمِيَاهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْحَطُّ عَنْ خَرْقِ الْعَادَاتِ .

الشرح

(قَوْلُهُ : وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ) جَمْعُ كَرَامَةٍ وَهِيَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مِنْ قِبَلِهِ غَيْرُ مُقَارِنٍ لِدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَبِهَذَا تَمْتَّازُ عَنِ الْمُعْجَزَةِ وَبِمُقَارَنَةِ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقَدْ تَظْهَرُ الْخَوَارِقُ مِنْ قِبَلِ عَدَمِ الْمُسْلِمِينَ تَخَلُّصًا لَهُمْ عَنْ الْمَحَنِ وَالْمَكَارِهِ وَتُسَمَّى مَعُونَةً .

(١) - عن ثابت ، نا أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكسر أن يقول : « أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم ؟ » قالوا : وما أبو ضمضم يا رسول الله ؟ قال : « كان أبو ضمضم رجلا فيمن كان قبلنا إذا أصبح ، قال : اللهم إني أتصدق اليوم بعرضي على من ظلمني »
الإستيعاب في معرفة الأصحاب - (ج ٢ / ص ٤٢) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ٣ / ص ٣٥٢)
ومسند البزار (٧٢٦٩)

شعب الإيمان للبيهقي (٧٨٥٨) وسنن أبي داود (٤٨٨٨) ومصنف عبد الرزاق (١٦٤٠٩) والإصابة ١١٢/٤ و الشعب (٨٠٨٢ و ٨٠٨٣) من طرق وهو حسن لغيره

(٢) - انظر حاشية العطار على شرح الجلال الخلي على جمع الجوامع - (ج ٦ / ص ١٨٠)

(٣) - أخرجه ابن عساكر (٢٥/٢٠) والإستيعاب في معرفة الأصحاب - (ج ٢ / ص ١٠) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ١ / ص ٤١٠) وهو صحيح

(٤) - مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٤٩٦) وسير أعلام النبلاء (٣٧٦/١)

(قَوْلُهُ : حَسَبَ مَا يُمَكِّنُ) أَيِ بِحَسَبِ طَاقَةِ الْبَشَرِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِمْ وَدَرَجَاتِ الْعَارِفِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ مُتَّفَاوَتَةً (قَوْلُهُ : الْمُعْرِضُونَ عَنْ الْإِنْهَمَاكِ) أَيِ بَقُلُوبِهِمْ وَإِنْ تَلَبَّسُوا بِهَا ظَاهِرًا كَمَا وَقَعَ لكَثِيرٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ (قَوْلُهُ : أَيِ جَائِزَةٍ وَوَاقِعَةٍ) وَلَوْ بِاخْتِيَارِهِمْ وَطَلَبِهِمْ قَالَ النَّوَوِيُّ: الصَّحِيحُ أَنَّ الْكَرَامَاتِ تَقَعُ لِلْأَوْلِيَاءِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَطَلَبِهِمْ هـ . زَكَرِيَّا .

وَفِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى امْتِنَاعِ كَوْنِ الْكَرَامَةِ بِقَصْدٍ وَاخْتِيَارٍ مِنَ الْوَلِيِّ وَبَعْضُهُمْ إِلَى امْتِنَاعِ كَوْنِهَا عَلَى قَضِيَّةِ الدَّعْوَى حَتَّى لَوْ ادَّعَى الْوَلِيَّةُ الْوَلِيُّ وَاعْتَصَدَ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَمْ يَجُزْ وَلَمْ يَقَعْ بَلْ رُبَّمَا سَقَطَ عَنْ مَرْتَبَةِ الْوَلَايَةِ هـ .

وَفِي آخِرِ الْأَنْوَارِ الْقُدْسِيَّةِ فِي قَوَاعِدِ الصُّوفِيَّةِ لِلْإِمَامِ الشَّعْرَانِيِّ طَلَبَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ مِنْ سَيِّدِي عَبْدِ الْعَزِيزِ الدَّرِينِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقُوَّعَ كَرَامَةً فَقَالَ لَهُمْ : يَا أَوْلَادِي وَهَلْ تَمَّ كَرَامَةً لِعَبْدِ الْعَزِيزِ أَعْظَمَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

يُمَسِّكُ بِهِ الْأَرْضَ وَلَا يَخْسِفُهَا بِهِ وَقَدْ اسْتَحَقَّ الْخَسْفَ بِهِ مُنْذُ أَرْمَانَ مُتَعَدِّدَةٍ ١ هـ .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ حَيْثُ كَانَتْ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا فَرْقَ فِي وَقْعِهَا بَيْنَ الْوَلِيِّ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا خِلَافًا لِمَنْ مَنَعَهَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ لَا وَجْهَ لَهُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (قَوْلُهُ : بِنَهَاوَنَدَ) بَضَمُ التَّوْنِ بِلَدَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ مَرَحَلَةً (قَوْلُهُ : مِمَّا وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ) وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا بَعْدَ زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَثْرَةً لَمْ تَقَعْ فِي زَمَنِهِمْ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ فَضْلُهُمْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمُعْجَزَاتِ فَتَوَكَّدُ بِالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَالْأَوَائِلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ كَانُوا مُسْتَعِينِينَ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَقُرْبِهِمْ مِنْ زَمَنِهَا بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ ظَهَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ الْكَرَامَاتُ تَقْوِيَةً لِقُلُوبِ أَصْحَابِهِمْ وَمُعَاصِرِيهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ رُتَبَتَهُمْ .

(قَوْلُهُ : قَالَ الْقُشَيْرِيُّ) تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ وَقَالَ : إِنَّهُ أَعْدَلَ الْمَذَاهِبِ وَقَالَ الزَّرْكَشِيُّ : إِنَّ مَا قَالَهُ الْقُشَيْرِيُّ مَذْهَبٌ ضَعِيفٌ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ، وَفِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى امْتِنَاعِ كَوْنِهَا مِنْ جِنْسِ مَا وَقَعَ مُعْجَزَةٌ لِنَبِيِّ كَانْفِلَاقِ الْعَصَا وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى قَالُوا : وَبِهَذِهِ الْجِهَاتِ تَمْتَّازُ عَنِ الْمُعْجَزَاتِ، وَقَالَ الْإِمَامُ الْمُرْصِيُّ عِنْدَنَا : تَجَوِّزُ جُمْلَةُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي مَعْرِضِ الْكَرَامَاتِ وَإِنَّمَا تَمْتَّازُ عَنِ الْمُعْجَزَاتِ بِخُلُوقِهَا عَنْ دَعْوَى النُّبُوَّةِ حَتَّى لَوْ ادَّعَى الْوَلِيُّ النُّبُوَّةَ صَارَ عَدُوًّا لِلَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ الْكَرَامَةَ بَلِ اللَّعْنَةُ وَالْإِهَانَةُ، قَالَ : قِيلَ هَذَا الْجَوَازُ مُتَافٍ لِلْإِعْجَازِ إِذْ شَرْطُهُ عَدَمُ تَمَكُّنِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِثْبَانِ بِالْمِثْلِ بَلْ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ النَّبِيِّ حَيْثُ يَدَّعِي عِنْدَ التَّحَدِّيِّ أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتَ بِهِ، قُلْنَا : الْمُتَنَافِي هُوَ الْإِثْبَانُ بِالْمِثْلِ عَلَى سَبِيلِ الْمَعَارِضَةِ وَدَعْوَى النَّبِيِّ أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِمِثْلِ مَا أَتَيْتَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّحِدِينَ لَا أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ مِثْلُهُ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ أَوْ مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ آخَرَ، نَعَمْ قَدْ يَرِدُ فِي بَعْضِ الْمُعْجَزَاتِ نَصٌّ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَأْتِي بِمِثْلِهِ أَصْلًا كَالْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَنَافِي الْحُكْمَ بِأَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ مُعْجَزَةٌ لِنَبِيِّ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ كَرَامَةً لَوْلِيٍّ .

(قَوْلُهُ : وَمَنْعَ أَكْثَرِ الْمُعْتَرِلَةِ الْخ) اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ كُلِّهَا ضَعِيفَةٌ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي كَشَافِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) [الجن/٢٦-٢٨] {، يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُطْلَعُ عَلَى الْغَيْبِ إِلَّا الْمُتَرْضَى الَّذِي هُوَ مُصْطَفَى لِلنُّبُوَّةِ خَاصَّةً لَا كُلُّ مُرْتَضَى، وَفِي هَذَا إِبْطَالُ الْكَرَامَاتِ، لِأَنَّ الَّذِينَ تُضَافُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا أَوْلِيَاءَ مُرْتَضِينَ فَلْيَسُوا بِرُسُلٍ وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ الرُّسُلَ مِنْ بَيْنِ الْمُرْتَضِينَ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَإِبْطَالِ الْكِبَاهِنَةِ وَالتَّنْجِيمِ لِأَنَّ أَهْلَهُمَا أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْإِرْتِضَاءِ وَأَدْخَلَهُمَا فِي السَّخَطِ ١ هـ .

قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي الْإِنْصَافِ : ادَّعَى الزَّمَخْشَرِيُّ عَامًّا وَاسْتَدَلَّ بِخَاصٍّ وَيَجُوزُ إِعْطَاؤُهُمُ الْكَرَامَاتِ كُلِّهَا إِلَّا الْإِطْلَاعَ عَلَى الْغَيْبِ ١ هـ .

وَقَدْ أُحِيبَ أَيْضًا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّسُولِ الْمَلِكُ وَالْإِظْهَارُ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَإِطْلَاعُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ إِنَّمَا هُوَ بِوَاسِطَةِ الْمَلِكِ كَاطْلَاعِنَا عَلَى أَحْوَالِ الْآخِرَةِ بِتَوَسُّطِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ جَمِيعُ الْغَيْبِ عَلَى مَا تُفِيدُهُ الْإِضَافَةُ الَّتِي لِلْإِسْتِغْرَاقِ، فَإِنْ أُريدَ غَيْبٌ مَخْصُوصٌ وَهُوَ الْأَشْيَاءُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (١)(٣٤) سُورَةُ لَقْمَانَ، وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ

لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رُطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ { (٢) (٥٩) سورة الأنعام ، لَا حَاجَةَ إِلَى الْجَوَابِ الْمَذْكُورِ .
وَيَذَلُّ لِهَذَا الْوُجْهِ تَفْرِيعُ قَوْلِهِ : { فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا } عَلَى قَوْلِهِ { عَالِمُ الْغَيْبِ } فَإِنَّهُ يَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ حَصْرُ عَالَمِيَّةِ الْغَيْبِ فِيهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْغَيْبَ الْمَخْصُوصَ الْمَعْرُوفَ اخْتِصَاصَهُ بِهِ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ وَبَعْضُهُ إِضَافَتُهُ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ غَيْبِهِ وَحِينَئِذٍ لَا مَسَاحَ لِّلْتَمَسُّكِ بِالْآيَةِ فِيْمَا ادَّعَاهُ ، وَعَلَى تَقْدِيرِ التَّعْيِيمِ وَإِرَادَةِ الْاسْتِغْرَاقِ يَكُونُ الْمَعْنَى فَلَا يُطْلَعُ عَلَى جَمِيعِهِ فَلَا يُنَافِي جَوَازَ الْإِطْلَاقِ عَلَى الْبَعْضِ .

(١) - يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى خَمْسَةَ أَشْيَاءٍ اخْتَصَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ بِعِلْمِهَا ، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ وَهِيَ :

- عِلْمُ السَّاعَةِ - فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَوْعِدَ قِيَامِ السَّاعَةِ .

- إِنْزَالُ الْغَيْثِ - فَهُوَ تَعَالَى يُنْزِلُ الْغَيْثَ فِي وَقْتِهِ الْمُقَدَّرِ ، وَمَكَانِهِ الْمُعَيَّنِ ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ .

- عِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَمِنْ جَنِينٍ تَامَ الْخَلْقِ أَوْ نَاقِصِهِ . . . وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ذَلِكَ ، فِي بَدْءِ تَخْلُقِ الْجَنِينِ .

- مَا تَكْسِبُهُ النَّفْسُ فِي غَدِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، فَلَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ .

- مَكَانُ الْوَفَاةِ وَزَمَانُهَا - فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَنْ يَعْلَمَ أَيْنَ يَمُوتُ وَمَتَى يَمُوتُ .

وَالَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

(٢) - قَالَ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ : إِنَّ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ (أَيْ خَزَائِنَهُ) خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِنَّ وَحْدَهُ :

١ - إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

٢ - وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ .

٣ - وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا .

٤ - وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ .

٥ - وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَيَعْلَمُ كُلَّ حَرَكَةٍ فَلَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ ، وَلَا تُوجَدُ حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ إِلَّا يَعْلَمُهَا اللَّهُ ، وَمَا مِنْ شَجَرَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَيَعْلَمُ رُطُوبَتَهَا وَيُبُوسَتَهَا .

وَقَدْ أَحْصَى كُلَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ لَا يَهْمِلُ شَيْئًا مِنْ عَمَلِ جَمِيعِ خَلْقِهِ وَحَالَاتِهِمْ .

كِتَابُ مُبِينٍ - اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَوْ أُمُّ الْكِتَابِ .

قَالَ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ : ظُهُورُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ تَكَادُ تَلْحَقُ بِمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنْكَارُهَا لَيْسَ بِعَجِيبٍ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ بَعْضِ فُقَهَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ حَيْثُ قَالَ فِيْمَا رَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ بِالْبَصْرَةِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَكَّةَ أَنْ مَنْ اعْتَقَدَ جَوَازَ ذَلِكَ يَكْفُرُ ، وَالْإِنْصَافُ مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ النَّسْفِيُّ

حِينَ سُئِلَ عَمَّا يُحْكِي أَنَّ الْكُفْبَةَ كَانَتْ تَزُورُ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ هَلْ يَجُوزُ الْقَوْلُ بِهِ؟ فَقَالَ: نَقُضُ الْعَادَةَ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامَةِ لِأَهْلِ الْوَلَايَةِ جَائِزٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ. (١)

قَالَ الْجَامِي: النَّفْسُ النَّاطِقَةُ الْكَامِلَةُ إِذَا تَحَقَّقَتْ بِمُظَهَّرِيَةِ الْإِسْمِ الْجَامِعِ تَظْهَرُ فِي صُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ وَانْحِصَارٍ فَتَصْدُقُ تِلْكَ الصُّورُ عَلَيْهَا وَتَتَصَادَقُ لِلتَّحَادِ عَلَيْهَا، كَمَا تَتَعَدَّدُ لِاخْتِلَافِ صُورِهَا، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ هُوَ الْيَاسُ الْمُرْسَلُ إِلَى بَعْثِكَ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ الْعَيْنَ خَلَعَ الصُّورَةَ الْإِدْرِيسِيَّةَ وَلَيْسَ لِيَاسِ الصُّورَةَ الْإِلْيَاسِيَّةَ وَإِلَّا لَكَانَ قَوْلًا بِالتَّسَاخُحِ، بَلْ إِنَّ هُوِيَّةَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ كَوْنِهَا قَائِمَةً فِي آنِيَّةٍ وَصُورَةٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ظَهَرَتْ وَتَعَيَّنَتْ فِي آنِيَّةِ الْيَاسِ الْبَاقِي إِلَى الْآنَ، فَيَكُونُ مِنْ حَيْثُ الْعَيْنُ وَالْحَقِيقَةُ وَاحِدًا وَمِنْ حَيْثُ التَّعَيُّنُ الصُّورِيُّ اثْنَيْنِ كَنَحْوِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَعِزْرَائِيلَ يَظْهَرُونَ فِي الْآنِ الْوَاحِدِ فِي مِائَةِ أَلْفِ مَكَانٍ بِصُورٍ شَتَّى كُلُّهَا قَائِمَةٌ بِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَرْوَاحُ الْكُتَمَلِ كَمَا يُرَوَى عَنْ قَضِيبِ الْبَانِ الْمُوصِلِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَرَى فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ فِي مَجَالِسٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُشْتَغَلًا فِي كُلِّ بَأْمَرٍ يُغَايِرُ مَا فِي الْآخِرِ، وَلَمَّا لَمْ يَسْغَ هَذَا الْحَدِيثَ أَوْهَامُ الْمُتَوَعِّلِينَ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ تَلْقَوُهُ بِالرَّدِّ وَالْعِنَادِ وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْبُطْلَانِ وَالْفَسَادِ، وَأَمَّا الَّذِينَ مُنِحُوا التَّوْفِيقَ لِلنَّجَاةِ مِنْ هَذَا الْمَضِيقِ فَسَلَّمُوا ١ هـ. مَعَ نَوْعِ تَغْيِيرِ. (٢)

وَقَوْلُ الْفَتَاوَانِيِّ: وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ بَعْضِ فَقَهَاءِ الْخَلْقِ لَعَلَّهُ أَشَارَ بِذَلِكَ لِمَا قَالَهُ صَاحِبُ الْفَتَاوَى الْبِرَازِيَّةِ سُئِلَ الزَّعْفَرَانِيُّ عَمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَأَى ابْنَ أَذْهَمَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ بِالْكُوفَةِ وَرَأَاهُ أَيْضًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَكَّةَ قَالَ: كَانَ مُقَاتِلٌ بِكُفْرِهِ فَيَقُولُ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ لَا مِنْ الْكَرَامَاتِ، وَأَمَّا أَنَا فَاسْتَجْهَلُهُ وَلَا أُطْلِقُ عَلَيْهِ الْكُفْرَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: يَكْفُرُ.

وَعَلَى هَذَا مَا يُحْكِيهِ جَهْلَةُ خَوَارِزْمَ أَنَّ فَلَانًا كَانَ يُصَلِّي سُنَّةَ الْفَجْرِ بِخَوَارِزْمَ وَفَرَضَهُ بِمَكَّةَ ١ هـ. .

مَنْ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ؟ (٣)

" إِنْ اللَّهُ بَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ: بَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس: ٦٢، ٦٣] ..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " من كان مؤمنًا تقيًا، كان الله وليًا " (٤) .

ليست الولاية بالدعوى والتمنى، الولاية إنما هي بالإيمان والتقوى، فلو رأينا رجلاً يقول: إنه ولي ولكنه غير متق لله تعالى، فقوله مردود عليه.

أما الكرامات، فهي جمع كرامة، والكرامة أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد ولي، تأييداً له، أو إعانة، أو تشبيهاً، أو نصراً للدين.

— فالرجل الذي أحيا الله تعالى له فرسه، وهو صلة بن أشيم، بعد أن ماتت، حتى وصل إلى أهله، فلما وصل إلى أهله، قال لابنه: ألقى السرج عن الفرس، فإنها عرية! فلما ألقى السرج عنها، سقطت ميتة. فهذه كرامة لهذا الرجل إعانة له.

— أما التي لنصرة الإسلام، فمثل الذي جرى للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في عبور ماء البحر، وكما جرى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عبور نهر دجلة، وقصتها مشهورة في التاريخ. فالكرامة أمر خارق للعادة .

أما ما كان على وفق العادة، فليس بكرامة.

وهذا الأمر إنما يجريه الله على يد ولي، احترازاً من أمور السحر والشعوذة، فإنها أمور خارقة للعادة، لكنها تجري على يد غير أولياء الله، بل على يد أعداء الله، فلا تكون هذه كرامة. وقد كثرت هذه الكرامات التي تدعى أنها كرامات في هؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن سبيل الله، فالواجب الحذر منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم. فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة، والواقع سابقاً ولاحقاً.

(١) - قلت : في هذا الجواب على السؤال نظر ، لأن الكعبة يطاف بها كل لحظة ، وهي غير عاقلة ، فالتصور بعيد جداً .

(٢) - قلت : الأقرب عدم صحة ذلك ، لعدم ضمان أن يكون الشخص الآخر شيطانياً .

(٣) - مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج ٨ / ص ٣٢٣) فما بعدها و مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج ٨ / ص ٦٢٦)

(٤) - مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٢٢٤)

- فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف، الذين عاشوا في قوم مشركين، وهم قد آمنوا بالله، وخافوا أن يغلبوا على أمرهم، فخرجوا من القرية مهاجرين إلى الله عز وجل، فيسر الله لهم غارا في جبل، وجه هذا الغار إلى الشمال، فلا تدخل الشمس عليهم فتنفسد أبدانهم ولا يجرمون منها، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوه منه، ويقوا في هذا الكهف ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا، وهم نائمون، يقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال، في الصيف وفي الشتاء، لم يزعجهم الحر، ولم يؤلمهم البرد، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم. فهذه كرامة بلا شك، بقوا هكذا حتى بعثهم الله وقد زال الشرك عن هذه القرية، فسلموا منه.

- ومن ذلك قصة مريم رضي الله عنها، أكرمها الله حيث أجهأها المخاض إلى جذع النخلة، وأمرها الله أن تهر بجذعها لتساقط عليها رطبا جنيا.

- ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، كرامة له، ليتبين له قدرة الله تعالى، ويزداد ثباتا في إيمانه.

- أما في السنة، فالكرامات كثيرة، وراجع (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بن إسرائيل) في " صحيح البخاري "، وكتاب " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " لشيخ الإسلام ابن تيمية .

- وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامات، فظاهر، يعلم به المرء في عصره، إما بالمشاهدة، وإما بالأخبار الصادقة. فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء.

وهناك مذهب مخالف لمذهب أهل السنة، وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم، حيث إنهم ينكرون الكرامات، ويقولون: إنك لو أثبت الكرامات، لاشتبه الساحر بالولي بالنبي، لأن كل واحد منهم يأتي بخارق.

فيقال: لا يمكن الالتباس، لأن الكرامة على يد ولي، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة، ولو ادعاه، لم يكن وليا.

آية النبي تكون على يد نبي، والشعوذة والسحر على يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون بفعله باستعانتة بالشیاطین، فیناها بكسبه، بخلاف الكرامة، فهي من الله تعالى، لا يطلبها الولي بكسبه.

قال العلماء: كل كرامة لولي، في آية للنبي الذي اتبعه، لأن الكرامة شهادة من الله عز وجل أن طريق هذا الولي طريق صحيح.

وعلى هذا، ما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأمة فإنها آيات لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين، إلا ولرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلها.

— فأورد عليهم أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلق في النار فيخرج حيا، كما حصل ذلك لإبراهيم .

فأجيب بأنه جرى ذلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هذا لأمر الخارق للعادة، دل ذلك على أن دين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم .

وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد فلق لموسى !

فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم مما حصل لموسى، وهو المشي على الماء، كما في قصة العلاء بن الحضرمي، حيث مشوا على ظهر الماء، وهذا أعظم مما حصل لموسى، مشى على أرض يابسة.

وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات

وأورد عليهم أن من آيات عيسى إحياء الموتى، ولم يقع ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأجيب بأنه حصل وقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالى أن يحييه، فأحياه الله تعالى.

وأورد عليهم إبراء الأكمة والأبرص.

فأجيب بأنه حصل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قتادة بن النعمان لما جرح في أحد، ندرت عينه حتى صارت على خده، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذها بيده، ووضعها في مكانها، فصارت أحسن عينيه.

فهذه من أعظم الآيات.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لأئمة، ومن أراد المزيد من ذلك، فليرجع إلى كتاب " البداية والنهاية في التاريخ " لابن كثير .

تنبيه :

الكرامات، قلنا: إنها تكون تأييدا أو تثبيتا أو إعانة للشخص أو نصرا للحق، ولهذا كانت الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة، لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن الكرامات فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بين أظهرهم، وأما التابعون، فإنهم دون ذلك، ولذلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييدا لهم وتثبيتا ونصرا للحق الذي هم عليه.

" خوارق ": جمع خارق. و" العادات ": جمع عادة.

في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات

والمراد بـ " خوارق العادات ": ما يأتي على خلاف العادة الكونية.

وهذه الكرامات لها أربع دلالات:

أولاً : بيان كمال قدرة الله عز وجل، حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله.
ثانياً : تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل، لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل، لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير، فإذا تغيرت العادات والطبيعة، دل على أن للكون مدبراً وخالقاً.
ثالثاً : أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريباً.

رابعاً : أن فيها تثبيتاً وكرامة لهذا الولي.
يعني : أن الكرامة تنقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات .
- أما العلوم، فإن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره.
- وأما المكاشفات، فإن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره.

- مثال الأول - العلوم: ما ذكر عن أبي بكر : أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته - الحمل -، أعلمه الله أنه أنثى .

- ومثال الثاني - المكاشفات - : ما حصل لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر، فسمعوه يقول: يا سارية ! الجبل ! فتعجبوا من هذا الكلام، ثم سألوه عن ذلك؟ كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة، فقال: إنه كشف له عن سارية بن زنيم وهو أحد قواده في العراق، وأنه محصور من عدوه، فوجهه إلى الجبل، وقال له: يا سارية ! الجبل ! فسمع سارية صوت عمر، وانحاز إلى الجبل، وتحصن به .

هذه من أمور المكاشفات، لأنه أمر واقع، لكنه بعيد.

- أما القدرة والتأثيرات، فمثل ما وقع لمريم من هزها جذع النخل وتساقط الرطب عليها، ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب، حيث قال لسليمان : { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } .
الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ، وموجودة في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقصة أسيد بن حضير ، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة ، وموجودة في التابعين، مثل قصة صلة بن أشيم الذي أحيا الله له فرسه .

يقول شيخ الإسلام في كتاب " الفرقان " : " وهذا باب واسع، قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عياناً ونعرفه في هذا الزمان، فكثير " .

الدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة: سمعي وعقلي:

- أما السمعي، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر في قصة الدجال أنه يدعو رجلاً من الناس من الشباب، يأتي، ويقول له: كذبت! إنما أنت المسيح الدجال الذي أخبرنا عنك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيأتي الدجال، فيقتله قطعتين، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني: بعيد ما بينهما)، ويمشي بينهما، ثم يدعو، فيقوم يتהלّل، ثم يدعو ليقر له بالعبودية، فيقول الرجل: ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم! فريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه .

فهذه أي: عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب من الكرامات بلا شك.

— وأما العقلي، فيقال: ما دام سبب الكرامة هي الولاية، فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة . اهـ
طريقة أهل السنة والجماعة في حق الأولياء والأئمة (١)

" أئمة هذه الشريعة الإسلامية والله الحمد أئمة مشهورون أثنت عليهم الأمة وعرفت لهم قدرهم، ولكنها لا تعتقد فيهم العصمة، فليس عند أهل السنة والجماعة أحد معصوم من الخطأ ولا من الإقرار على الخطأ، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه معصوم من الإقرار على الخطأ، أما غيره مهما بلغت إمامته فإنه ليس معصوما أبداً، كل يخطئ وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي أمرنا الله تعالى بطاعته على الإطلاق.

فهم يقولون لا شك أن في هذه الأمة أئمة، ولا شك أن فيها أولياء، ولكننا لا نريد بذلك أن نثبت العصمة لأحد من هؤلاء الأئمة، ولا أن نثبت لأحد من الأولياء أنه يعلم الغيب أو يتصرف في الكون، وهم أيضا لا يجعلون الولي من قال عن نفسه: إنه ولي، أو أتى بالدعايات الباطلة لأجل أن يجلب الناس إليه يقولون: إن الولي بينه الله تعالى بقوله: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، هؤلاء الأولياء: الذين آمنوا، وكانوا يتقون، فالإيمان: العقيدة، والتقوى: العمل قولا كان أو فعلا، وأخذ شيخ الإسلام من هذه الآية عبارة طيبة وهي قوله: " من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا "، هذا الولي حقيقة، لا الولي الذي يجلب الناس إليه، ويجمع الحاشية ويقول: أنا أفعل، ويستعين بالشياطين على معرفة الخفي، ثم يبهز الناس بما يقول فيقولون: هذا ولي، لا لأن الولاية تكون باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وبإيمانه وتقواه، فإن كان مؤمنا تقيا فهو ولي .

ولكن هؤلاء الأولياء أيضا لا يلزم في كل ولي أن يجعل الله له كرامة، فما أكثر الأولياء الذين لا كرامة لهم؛ لأن الكرامة في الغالب لا تأتي إلا لنصر حق أو دفع باطل، لا لتثبيت شخص بعينه، فلا يلزم إذن أن يكون لكل ولي كرامة، قد يحيا الولي ويموت وليس له كرامة، وقد يكون له كرامات متعددة، وهذه الكرامات كما قال أهل العلم: كل كرامة لولي فإنها آية للنبي الذي اتبعه، ولا أقول: " معجزة " لأن الأولى أن تسمى آية؛ لأن هذا التعبير القرآني والآية أبلغ من المعجزة؛ لأن الآية معناها العلامة على صدق ما جاء به هذا الرسول، والمعجزة قد تكون على يد مشعوذ أو على يد إنسان قوي يفعل ما يعجز عنه غيره، لكن التعبير بـ " الآية " أبلغ وأدق، وهي التعبير القرآني، فنسمي المعجزات بالآيات، هذا هو الصواب.

يوجد أناس حسب ما نسمع في هذه الأمة يدعون أنهم أولياء، ولكن من تأمل حالهم وجد أنهم بعيدون عن الولاية، وأنه لا حظ لهم فيها، لكن لهم شياطين يعينونهم على ما يريدون، فيخدعون بذلك البسطاء من الناس .

هل يحجب أولياء الله عن الناس؟ (٢)

(١) - مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج ٥ / ص ١٤٤)

(٢) - مجموع الفتاوى - (ج ٢٧ / ص ٤٩٧)

أَمَّا وُجُودُ أَقْوَامٍ يَحْتَجِبُونَ عَنِ النَّاسِ دَائِمًا فَهَذَا بَاطِلٌ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا الْأَوْلِيَاءِ وَلَا السَّحَرَةِ ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَحْتَجِبُ الرَّجُلُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ : إِمَّا كَرَامَةً لَوْلِيٍّ وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ السَّحَرِ . فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ مِنْهَا مَا هُوَ حَالٌ رَحْمَانِيٌّ وَهُوَ كَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ . وَمِنْهُ مَا هُوَ حَالٌ نَفْسَانِيٌّ أَوْ شَيْطَانِيٌّ ، كَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْكُفَّارِ أَنْ يَكْشِفَ أَحْيَانًا ، وَكَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْكُهَّانِ أَنْ تُخْبِرَهُ الشَّيَاطِينُ بِأَشْيَاءَ . وَأَحْوَالُ أَهْلِ الْبِدْعِ هِيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَحْمِلُهُ الشَّيَاطِينُ فَتَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْبَسُهُ الشَّيْطَانُ فَلَا يُحِسُّ بِالضَّرْبِ وَلَا بِالنَّارِ إِذَا أُلْقِيَ فِيهَا ؛ لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ عَلَيْهِ بَرْدًا أَوْ سَلَامًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ . وَأَهْلُ الْإِشَارَاتِ - الَّتِي هِيَ فَسَادَاتٌ مِنَ اللَّادِنِ وَالزَّعْفَرَانِ وَمَاءِ الْوَرْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ - هُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ : فَجَمُّهُرُهُمْ أَرْبَابُ مُحَالٍ بَهْتَانِي وَخَوَاصُّهُمْ لَهُمْ حَالٌ شَيْطَانِيٌّ ؛ وَلَيْسَ فِيهِمْ وَلِيٌّ لِلَّهِ ، بَلْ هُمْ مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ مِنْ جِنْسِ التَّر ...

وَأَمَّا قَطْعُ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ فَهَذَا يَكُونُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ وَيَكُونُ لِبَعْضِ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكَرَامَاتِ ؛ بَلْ الَّذِي يَحُجُّ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِمَّنْ يَحُجُّ فِي الْهَوَاءِ ؛ وَلِهَذَا اجْتَمَعَ الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ الْجَعْفَرِيُّ بَعْضُ مَنْ كَانَ يَحُجُّ فِي الْهَوَاءِ فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَحُجَّ مَعَهُمْ فَقَالَ : هَذَا الْحَجُّ لَا يَجْزِي عَنْكُمْ حَتَّى تَحْجُوا كَمَا يَحُجُّ الْمُسْلِمُونَ . وَكَمَا حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ . فَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَقَالُوا - بَعْدَ قَضَاءِ الْحَجِّ - مَا حَجَجْنَا حَجَّةَ أَبْرَكَ مِنْ هَذِهِ الْحَجَّةِ : دُفْنَا فِيهَا طَعْمَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ . وَهَذَا يَكُونُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ ؛ لَيْسَ هَذَا لِلْإِنْسَانِ كُلَّمَا طَلَبَهُ .

وَكَذَلِكَ الْمُكَاشَفَاتُ تَقَعُ بَعْضُ الْأَحْيَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَحْيَانًا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْوَالُهُمْ شَيْطَانِيَّةٌ قَدْ يَأْكُلُ أَحَدُهُمُ الْمَاكِلَ الْخَبِيثَةَ حَتَّى يَأْكُلَ الْعُدْرَةَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْخَبَائِثِ بِالْحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَهُمْ مَذْمُومُونَ عَلَى هَذَا .

فَإِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ . فَمَنْ أَكَلَ الْخَبَائِثَ كَانَتْ أَحْوَالُهُ شَيْطَانِيَّةً . فَإِنَّ الْأَحْوَالَ تَنَائِجُ الْأَعْمَالِ . فَالْأَكْلُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُورِثُ الْأَحْوَالَ الرَّحْمَانِيَّةَ : مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأَثُّرَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ . وَأَكْلُ الْخَبَائِثِ وَعَمَلُ الْمُنْكَرَاتِ يُورِثُ الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَخُفْرَاءُ التَّر هُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ .

وَإِذَا اجْتَمَعُوا مَعَ مَنْ لَهُ حَالٌ رَحْمَانِيٌّ بَطَلَتْ أَحْوَالُهُمْ وَهَرَبَتْ شَيْطَانِيَّتُهُمْ . وَإِنَّمَا يَظْهَرُونَ عِنْدَ الْكُفَّارِ وَالْجُهَّالِ كَمَا يَظْهَرُ أَهْلُ الْإِشَارَاتِ عِنْدَ التَّرِ وَالْأَغْرَابِ وَالْفَلَاحِينَ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْجُهَّالِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ . وَأَمَّا إِذَا ظَهَرَ الْمُحَمَّدِيُّونَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ يَبْطُلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . اهـ

الفرق بين المعجزة والكرامة والكهانة (١)

الفرق بين المعجزة والكرامة والكهانة

: و فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٨ / ص ٤٢٥) = رقم الفتوى ٥٥١٠٠ بين المعجزة والكرامة
= تاريخ الفتوى : ١٧ رمضان ١٤٢٥

"المعجزة تكون للأنبياء، والكرامة للأولياء؛ أولياء الرحمن، والكهانة لأولياء الشيطان، والآن المعجزة لا يمكن أن تقع؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء ولا يمكن أن تقع. والكرامة موجودة من قبل الرسول ومن بعد الرسول إلى يوم القيامة، تكون على يد ولي صالح، إذا عرفنا أن هذا الرجل الذي جاءت هذه الكرامة على يده هو رجل مستقيم قائم بحق الله وحق العباد عرفنا أنها كرامة. وينظر في الرجل فإذا جاءت هذه الكرامة من كاهن -يعني: من رجل غير مستقيم- عرفنا أنها من الشياطين، والشياطين تعين بني آدم لأغراضها أحياناً، فربما يكون مثلاً من السحرة من تحمله الشياطين إلى مسافات بعيدة وترده: قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ [النمل: ٣٩] لسليمان: أَنَا آتِيكَ بِهِ [النمل: ٣٩] يعني: بعرض ملكة اليمن : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ [النمل: ٣٩] يجيبه من اليمن من أقصى الجنوب إلى الشام، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وكان معروف أنه يقوم من مقامه في ساعة معينة. اهـ

الباب الثاني

نص الرسالة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَسْتَعِينُهُ (١) وَنَسْتَغْفِرُهُ (٢) وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا (٣) وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ (٤) فُلًا مُضِلٌّ لَهُ (٥) وَمَنْ يَضِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ (٦). وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ (٧) أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٨). أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ (٩) بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (١٠).

(١) - أَي فِي حَمْدِهِ وَغَيْرِهِ وَهُوَ وَمَا بَعْدَهُ جُمْلَ مُسْتَأْنَفَةٍ مُبَيَّنَةٍ لِأَحْوَالِ الْحَامِدِينَ

(٢) - أَي فِي تَقْصِيرِ عِبَادَتِهِ وَتَأْخِيرِ طَاعَتِهِ

(٣) - : أَي مِنْ ظُهُورِ شُرُورِ أَخْلَاقِ نَفُوسِنَا الرَّدِّيَّةِ وَأَحْوَالِ طِبَاعِ أَهْوَانِنَا الدَّنِيَّةِ

(٤) - قَالَ الْعُلَمَاءُ : لَفْظُ الْهُدَى لَهُ مَعْنَيَانِ أَحَدُهُمَا : بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ ، وَهُوَ الَّذِي يُضَافُ إِلَى الرُّسُلِ وَالْقُرْآنِ وَالْعِبَادِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ { وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ { أَي بَيَّنَّا لَهُمُ الطَّرِيقَ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ } وَ { هَدَيْنَاهُ التَّجْدِينَ } وَالثَّانِي : بِمَعْنَى اللُّطْفِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ وَالتَّائِيدِ ، وَهُوَ الَّذِي تَقَرَّدَ اللَّهُ بِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } . وَقَالَتْ الْقَدَرِيَّةُ :

حَيْثُ جَاءَ الْهُدَى فَهُوَ لِلْبَيَانِ بِنَاءٌ عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدُ فِي إِنْكَارِ الْقَدَرِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ مُثَبِّتِي الْقَدَرِ لِلَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } فَفَرَّقَ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْهُدَايَةِ . شرح النووي على مسلم - (ج ٣ / ص ٢٤٧)

(٥) - أَيُّ مَنْ شَيْطَانٌ وَنَفْسٌ وَغَيْرُهُمَا

(٦) - أَيُّ لَّا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الثَّقَلِ وَلَا مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَبِيِّ . قَالَ الطَّبَّيُّ : أَضَافَ الشَّرَّ إِلَى الْأَنْفُسِ أَوَّلًا كَسَبًا ، وَالْإِضْطَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثَانِيًا خَلْقًا وَتَقْدِيرًا

(٧) - سنن ابن ماجه (١٩٦٧) صحيح

قلت : وبغير هاتين الشهادتين لا يكون المرء مسلماً ، فلا بدَّ من النطق بهما حتى يدخل في الإسلام

(٨) - من قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا } (٢٨) سورة الفتح

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْإِسْلَامِ ، لِيَجْعَلَ الْإِسْلَامَ - وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ - ظَاهِرًا عَلَى جَمِيعِ الْأَذْيَانِ فِي الْأَرْضِ ، وَقَدْ وَعَدَ رَسُولُهُ بِدُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَعَ أَصْحَابِهِ ، وَهُمْ آمِنُونَ ، فَحَقَّقَ اللَّهُ ذَلِكَ الْوَعْدَ ، وَسَيُحَقِّقُ وَعْدَهُ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى سَيُظْهِرُ الْإِسْلَامَ عَلَى سَائِرِ الْأَذْيَانِ ، وَهُوَ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ أَبَدًا .

(٩) - عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » . مسند أحمد (٥٢٣٣) وهو صحيح

(١٠) - لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } (٤٦) سورة الأحزاب

يا أيها النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا عَلَى أَمْتِكَ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ ، وَمُبَشِّرًا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْجَنَّةِ ، وَنَذِيرًا لِلْعَصَاةِ وَالْمُكَذِّبِينَ مِنَ النَّارِ ، وَدَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ بِأَمْرِهِ إِيَّاكَ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا لِمَنْ اسْتَنَارَ بِكَ ، فَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا ، لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ .

، فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى (١) وَأَرَشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ (٢) ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِّيًّا وَآذَانًا صُمًّا (٣) وَقُلُوبًا غُلْفًا (٤) وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ (٥) . وَالسُّعْدَاءِ أَهْلُ الْجَنَّةِ (٦) وَالْأَشْقِيَاءِ أَهْلُ النَّارِ (٧) وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ (٨) وَأَعْدَاءِ اللَّهِ (٩) .

من صفات أولياء الرحمن

فَمَنْ شَهِدَ لَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ ، وَمَنْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ (١٠) .

وَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ مِنَ النَّاسِ وَلِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ ، فَفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، فَقَالَ تَعَالَى : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ

- (١) - المادي والمعنوي
- (٢) - مِنَ الْعِيَّ - مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ .
- (٣) - التي لا تسمع ماديا ومعنويا
- (٤) - مُعْطَاةٌ بِأَعْطِيَةِ خَلْقِيَّةٍ فَلَا تَعِي .
- (٥) - قال تعالى : {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} (٢٠) سورة الحشر
- لا يستوي أصحاب النار المعدَّبون، وأصحاب الجنة المنعمون، أصحاب الجنة هم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه .
- (٦) - قال تعالى : {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ} (١٠٨) سورة هود
- أَمَّا السُّعَدَاءُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الرُّسُلَ ، وَآمَنُوا بِاللَّهِ ، وَعَمِلُوا صَالِحًا ، فَيَصِيرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَمْكُثُونَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا ، مَا دَامَتِ هُنَاكَ سَمَاوَاتٌ وَأَرْضٌ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .
- (٧) - قال تعالى : {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) سورة هود
- أَمَّا الْأَشْقِيَاءُ ، الَّذِينَ شَقُوا بِمَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الدُّنْيَا ، فَيَصِيرُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ، وَتَضِيقُ صُدُورُهُمْ بِثِقَلِ الْعَذَابِ ، فَيُصْبِحُ نَفْسُهُمْ زَفِيرًا ، وَأَخَذَهُمُ النَّفْسَ شَهِيقًا .
- وَيَبْقُونَ فِي النَّارِ خَالِدِينَ ، مَا دَامَتِ هُنَاكَ سَمَاوَاتٌ تُظِلُّ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَرْضٌ يَقْفُونَ عَلَيْهَا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذْ يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بَرَحْمَتِهِ الْعَصَاةَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ يَمْتَنُّ عَلَى الْآخَرِينَ فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِقْدَارُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَهُوَ الْقَادِرُ وَالْفَعَّالُ لِّمَا يُرِيدُ .
- (٨) - قال تعالى : {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٦٢) سورة يونس
- يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَيْهِ ، لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلْفَهُ وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا .
- (٩) - قال تعالى : {ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} (٢٨) سورة فصلت

- وَذَلِكَ الْجَزَاءُ الشَّدِيدُ ، الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ ، هُوَ النَّارُ يُعَذَّبُونَ فِيهَا ، وَيَبْقُونَ فِي الْعَذَابِ خَالِدِينَ أَبَدًا ، وَهِيَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ سَمَاعِهَا .
- (١٠) - قال تعالى : {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (٧٦) سورة النساء
- (١١) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَيْهِ ، لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلْفَهُ وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

وَيَقُولُ تَعَالَى مُعْرِفًا (أَوْلِيَاءَ اللَّهِ) : بَأْتَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَكَانُوا يُتَّقُونَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَيُزَاقِبُونَهُ فِي سِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ ، فَلَا يَقُومُونَ إِلَّا بِمَا يُرْضِي اللَّهُ رَبَّهُمْ .
وهؤلاء المؤمنون المتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر والعزة ، وبإلهامهم الحق والخير ، وبإستخلاف في الأرض ما أقاموا شرع الله ، ونصروا دينه الحق ، وأعلوا كلمته (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هِيَ الرُّوْبَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ ، أَوْ تُرَى لَهُ ، وَهِيَ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ ") (رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) . وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لَا يُبَدَّلُ (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) ، وَلَا يُغَيَّرُ وَلَا يُخْلَفُ ، بَلْ مُقَرَّرٌ ثَابِتٌ كَانَتْ لَا مُحَالَةً . وَهَذِهِ الْبَشْرَى بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ هِيَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

، وَقَالَ تَعَالَى : {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢٥٧) سورة البقرة (١)، وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فُتُصِبْحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْنَا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) [المائدة/٥١-٥٦] } (٢)

(١) - وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبعون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا، قد اتخذوه حبيبا ووليا، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور { والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت } فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاقم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى : { أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } .

(٢) - ينهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، واتخاذهم حلفاء لهم على أهل الإيمان بالله ورسوله ، ويقول لهم إن من يتخذهم نصراء وحلفاء وأولياء من دون الله ورسوله ، فهو منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين . وإن الله ورسوله بريئان منه . ومن يتولى أعداء الله فهو ظالم ، والله لا يهديه إلى الخير . واليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، ولم يكن للمؤمنين منهم ولي ولا نصير .

وَإِذْ كَانَتْ وَلَايَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ فَإِنَّكَ تَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ (مَرَضٌ) يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ ، وَإِلَى مُوَادَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَيَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَفِي مُوَالَاتِهِمْ ، أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ (تُصَيِّنَا دَائِرَةً) فَتَكُونُ لَهُمْ أَيْدٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ حِينَئِذٍ . فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَهُ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُحَقِّقَ لَهُمُ الْفَتْحَ وَالْغَلَبَةَ ، أَوْ يَتِمَّ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ كَفَرَضِ الْجَزِيَّةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَيُصْبِحَ الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَادِمِينَ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ تَحَسُّبًا لِمَا لَمْ يَقَعْ ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَخْذُورًا .

(هَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا نَزَلَتْ فِي عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ مِنَ الْخَزَرَجِ ، فَقَدْ كَانَ لَهُمَا خُلَفَاءُ مِنَ الْيَهُودِ ، فَجَاءَ عِبَادَةُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِي مَوَالٍ مِنَ الْيَهُودِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُولٍ : إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ وَلَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَايَةِ مَوَالِي) .

لَمَّا التَّجَأَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يُوَالُوهُمْ وَيُوَادُّوهُمْ ، افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَتَسَتَّرُونَ ، لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَيْفَ حَالُهُمْ ، فَتَعَجَّبَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ ، كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يُعَاضِدُونَهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْيَهُودَ ، فَلَمَّا جَدَّ الْجِدُّ أَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . وَلَمَّا اسْتَبَانَ حَالُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : لَقَدْ هَلَكْتَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَزَكَاةٍ وَجِهَادٍ ، وَخَسِرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَرْجُوهُ مِنَ الثَّوَابِ .

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَيَقُولُ إِنَّ الَّذِينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ ، وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْتَبْدِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً ، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا ، يُحِبُّهُمْ وَيُجِبُّوهُمْ ، يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ : الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَّاضُعُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إِذَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَبِيرًا ، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ ، بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ . (وَقِيلَ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ النَّاسَ سَيَرْتَدُّونَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ عَصَبَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، سَيَقُومُونَ بِمُحَارَبَةِ الْمُتَرَدِّينَ ، وَأَنَّهُمْ سَيَنْبُتُونَ فِي حَرْبِهِمْ حَتَّى يُتِمَّ اللَّهُ نُصْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ . (نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ حِينَ بَرِئَ مِنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ ، وَرَضِيَ بِمُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) . وَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِمُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ هُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ مَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي حِزْبِ اللَّهِ ، وَحِزْبِ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ، وَلَا يَغْلِبُ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ .

، وَقَالَ تَعَالَى : { هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } (١) (٤٤) سورة الكهف .

صِفَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ

وَذَكَرَ " أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ " فَقَالَ تَعَالَى : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ

سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)(٢)

- (١) - وفي مثل هذه الحال من الشدائد والمحن ، تكون الموالاة ، وتكون النصرة لله وحده . وفي الشدائد يرجع الناس إلى الله تعالى ، يُعلنون خضوعهم واعتبارهم برؤيته ، فهو خير من أثاب ، وخير من جازى . والأعمال التي تكون خالصة لله عز وجل ، تكون عاقبتها خيراً ورشداً لفاعليها
- (٢) - يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين ، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم ، إذا أرادوا قراءة القرآن .
- من عمل الأعمال الصالحة ، وقام بما فرض الله عليه ، وهو مؤمن بالله ، مصدق كُتبه ورُسله ، فإن الله تعالى يعده بأن يحييه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله له ، والرضا بما قدره الله وقضاه ، إذ هو يعلم أن ما حصل عليه من رزق إنما حصل له بتدبير الله تعالى وقسمته ، والله مُحسن كريم ، لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، وفي الآخرة يجزيه الله الجزء الأوفى ، ويثيبه أحسن الثواب ، جزاء ما قدم من عمل صالح ، وما تحلى به من إيمان .
- يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ .
- وَيُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا سُلْطَةَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ارتكاب ذنب لا يتوبون منه .
- إِنَّمَا تَسْلُطُهُ بِالْعَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ يَكُونُ عَلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَهُ نَصِيراً فَيُحِبُّونَهُ وَيُطِيعُونَهُ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِسَبَبِ إِغْوَانِهِ يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ .

[النحل/٩٨-١٠١] { ، وَقَالَ تَعَالَى : { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧٦) } (١) [النساء/٧٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } (٥٠) سورة الكهف ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) } (٣) [النساء/١١٩-١٢١] . وقال تعالى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)(٤) }

- (١) - الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَنَشْرِ دِينِهِ ، لَا يَتَّبِعُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللَّهِ . أما الذين كفروا ، فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ) ، الَّذِينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الْكُفْرَ ، وَيُمَنِّيهِمُ النَّصْرَ . وَكَيْدُ

الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائِهِ . أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَهُمْ الْأَعِزَّةُ ، لِأَنَّ اللَّهَ حَامِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ ، وَلِذَلِكَ فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ، أَنْ لَا يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الْكُفَّارَ ، لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ .

(٢) - يُنَبِّئُ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ إِلَى عَدَاوَةِ إِبْلِيسَ لَهُمْ ، وَلَأَبِيهِمْ آدَمَ ، قَبْلَهُمْ ، وَيُقَرِّعُهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ إِبْلِيسَ ، وَمُخَالَفَةِ الْخَالِقِ . وَيَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ : اذْكُرْ لِقَوْمَكَ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ ، وَاعْتِذَارًا عَمَّا قَالُوهُ بِحَقِّهِ : { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } . فَاْمْتَثِلُوا جَمِيعًا لِأَمْرِ رَبِّهِمُ الْكَرِيمِ ، إِلَّا إِبْلِيسَ ، الَّذِي كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، فَاْمْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ ، وَخَرَجَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ (فَسَقَ) ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مِنْ نَارٍ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَنْ يَسْجُدَ لِمَخْلُوقٍ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الطِّينِ ، وَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ آدَمَ . فَكَيْفَ تَتَّخِذُونَ ، يَا بَنِي آدَمَ ، هَذَا الْعَدُوَّ لَكُمْ ، هُوَ وَذُرِّيَّتُهُ ، أَوْلِيَاءَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَتُطِيعُونَ أَوَامِرَهُمْ ، وَهُمْ عَلَى مَا عَرَفْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَاوَةِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، فَبِئْسَ مَا فَعَلْتُمْ { بَنِسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } .

(٣) - وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَخْسِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا جَبْرَ لَهَا ، وَلَا اسْتِذْرَاكَ لِفَائِتِهَا .

يُخَوِّفُ الشَّيْطَانُ النَّاسَ مِنَ الْفَقْرِ إِذَا هُمْ أَتَقَفُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيُوسَّسُ لَهُمْ بِأَنَّ أَمْوَالَهُمْ تَنْفَدُ أَوْ تَنْقُصُ ، وَيُصْبِحُونَ فَقَرَاءَ أَذِلَّاءَ ، وَيَعِدُّهُمْ بِالْغِنَى وَالثَّرْوَةِ حِينَ يُغْرِيهِمْ بِلُعْبِ الْقِمَارِ وَيُنَيِّبُهُمْ بِأَنَّهُمْ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَى فِي ذَلِكَ فَوَعُودُهُ بَاطِلَةٌ .

وهؤلاء المستحسنون لما وعدتهم به الشَّيْطَانُ ، وَمَنَاهُمْ بِهِ ، سَيَكُونُ مَاوَاهُمْ وَمَصِيرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ ، وَلَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا وَلَا خَلَاصًا .

(٤) - وَخَافَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَيَخْرُجَ وَرَاءَهُمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ بَعْضَ نَاقِلِي الْأَخْبَارِ لِيَهْوِلُوا عَلَيْهِ ، لِيَكْفَ عَنِ اللَّحَاقِ بِهِمْ ، وَقَالَ نَاقِلُوا الْأَخْبَارَ لِلْمُسْلِمِينَ : إِنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (النَّاسَ) قَدْ حَشَدُوا لَكُمْ ، وَجَمَعُوا قُوَاهُمْ ، فَاحْذَرُوهُمْ ، وَاخْشَوْهُمْ ، فَلَمْ يَرِدْ هَذَا الْقَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُلَبَّيْنَ دَعْوَتَهُ ، رَاغِبِينَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ رَبِّهِمْ وَنَصْرِهِ - إِلَّا إِيمَانًا بِرَبِّهِمْ ، وَثِقَةً بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَاجْرِهِ ، وَرَدُّوا عَلَى مُخَاطَبِيهِمْ قَائِلِينَ : إِنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُمْ .

فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ اللَّهُ مَا أَهْمَهُمْ وَأَغْنَاهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ النَّاسِ (الْكَافِرِينَ) ، فَارْجَعُوا بِبِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَقَدْ فَازُوا بِرِضْوَانِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ (خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ الرَّسُولِ إِلَى مَوْقِعٍ يُعْرَفُ بِحِمْرَاءِ الْأَسَدِ ، وَأُرْسِلَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ رُسُلًا يُحَذِّرُونَهُمْ ، فَخَافَتْ قُرَيْشٌ وَتَابَعَتْ سَيْرَهَا نَحْوَ مَكَّةَ) .

وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ وَعَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدْرًا مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى بَدْرِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ ، وَتَخَلَّفَتْ قُرَيْشٌ ، فَاشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ عِيرًا مَرَّتَ بِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ ، ثُمَّ بَاعَهَا فَرَبِيعَ ، وَوَزَعَ الرِّبْحَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَانْقَلَبُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرِ الثَّانِيَةِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَنَالُوا رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَحَصَلُوا عَلَى فَضْلِهِ فِي الرِّبْحِ . وَاللَّهُ عَظِيمُ الْفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ .

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُوْهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذُووُ بَأْسٍ وَقُوَّةٍ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَكُمْ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَلَا تَخَافُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ ،

وَالْجَوْرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا ، فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ . وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى النَّصْرِ
وَعَلَى الْخُدْلَانِ ، وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ .

{ [آل عمران/ ١٧٣-١٧٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠) (١) } [الأعراف/ ٢٧-٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ
يُذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَكُوفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ
لَمُشْرِكُونَ } (٢)

(١) - يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِبْلِيسَ وَجَمَاعَتِهِ (قَبِيلِهِ) ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِعَدَاوَتِهِ الْقَدِيمَةِ لِآدَمَ وَزَوْجِهِ ، حِينَمَا
سَعَى فِي إِخْرَاجِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ ، دَارِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ ، إِلَى الْأَرْضِ دَارِ الشَّقَاءِ ، وَتَسَبَّبَ فِي هَذَا سِتْرِهِمَا ،
وَكَشَفَ عَوْرَاتِهِمَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُمَا ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا إِبْلِيسَ مِنْ خِدَاعِهِمْ
، وَإِبْقَاعِهِمْ فِي الْمَعَاصِي بَوَسْوَسَتِهِ ، فَإِبْلِيسُ يَرَى الْبَشَرَ فِي حِينَ أَنْهُمْ لَا يَرَوْنَهُ هُمْ . وَالشَّيَاطِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ
وَأَحِلَّاءُ وَأَصْحَابُ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ مِنَ الْإِنْسِ ، لَا سِتْعَادَ لَهُمْ لِتَقَبُّلِ وَسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ وَإِعْوَانِهِمْ .
أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .
وَإِذَا فَعَلَ الْمُكَذِّبُونَ أَمْرًا بِالْغِثِ الْبَشَرِ ، كَالشِّرْكِ ، وَالطَّوَافِ ، بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، اعْتَدَرُوا عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا : إِنَّهُمْ
وَجَدُوا آبَاءَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى آثَارِهِمْ مُتَعِدِّينَ بِهِمْ ، وَاللَّهُ أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَرَضِيَ لَهُمْ عَنْ فِعْلِهِ ،
إِذْ أَقَرَّهُمْ عَلَيْهِ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مُنْكَرًا مَا يَفْتَرُونَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ
الْمُنْكَرَةِ ، فَكَيْفَ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ تَعَالَى مَا لَا يَجِدُونَ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ؟
وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : أَمَرَ رَبِّي بِالْإِسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ (بِالْقِسْطِ) ، فَأَقْسَطُوا وَتَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ
بِخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ قَلْبٍ ، عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ تَعْبُدُونَهُ فِيهِ ، وَأَخْلَصُوا فِي عِبَادَتِهِ ، وَكَمَا خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ وَلَمْ
يَكُونُوا شَيْئًا ، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْشُرَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُعِيدَهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ وَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ
لِيَحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .

وَاللَّهُ لَا يَتَقَبَّلُ الْعَمَلَ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُسْتَجْمِعًا أَمْرَيْنِ :

- الصَّوَابَ وَمُوَافَقَةَ الشَّرِيعَةِ .

- وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا لَوْجِهِ اللَّهُ بَعِيدًا عَنِ الشَّرِّ .

وَكََمَا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ خَلْقًا وَتَكْوِينًا بِقُدْرَتِهِ ، كَذَلِكَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِيقَيْنِ :

أ - فَرِيقًا هَدَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا بِيَعْنَةِ الرُّسُلِ فَاهْتَدَى ، وَأَقَامَ وَجْهَهُ لِلَّهِ مُخْلِصًا فِي عِبَادَتِهِ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا .

ب - وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ لِاتَّبَاعِهِمْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الطَّاعَةِ لِرَبِّهِمْ ، وَإِنَّهُمْ حِينَ أَطَاعُوا الشَّيَاطِينَ فِيمَا زَيَّنَّوهُ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، أَصْبَحُوا وَكَانَتْهُمْ وَلَوْهُمْ أُمُورُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، فَعَمِلُوا بِمَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

(٢) - فَلَا تَأْكُلُوا أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ مِمَّا مَاتَ فَلَمْ تَذْبَحُوهُ ، وَلَا مِمَّا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ، مِمَّا ذَبَحَهُ الْمُشْرِكُونَ لَأَوْثَانِهِمْ ، فَإِنْ أَكَلْ ذَلِكَ فَسُقْ وَمَعْصِيَةٌ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَابْنُ حَنْبَلٍ : إِنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ عِنْدَ الذَّبْحِ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا يَجْعَلُ الذَّبِيحَةَ غَيْرَ حَلَالٍ . وَقَالَ الذَّبْحُ بِغَيْرِ تَسْمِيَةٍ فَسُقْ ، وَكَذَلِكَ الْأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا فَسُقْ .
- وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا تَشْتَرِطُ التَّسْمِيَةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ ، فَإِنْ تَرَكَتْ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا فَلَا ضَرَرَ فِي ذَلِكَ ، وَيَحِلُّ الْأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ . وَقَالَ ابْنُ الْمُحَرَّمِ هُوَ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، كَمَا كَانَتْ تَفْعُلُ قُرَيْشٌ مِنْ نَحْرِ الذَّبَائِحِ لِلْأَوْثَانِ .
- وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نِسْيَانًا لَا يَضُرُّ ، أَمَا تَرَكَهَا عَمْدًا فَيَجْعَلُهَا غَيْرَ حَلَالٍ .
وَإِنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِالْوَسْوَسَةِ بِمَا يُجَادِلُونَكُمْ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ فَقَدْ جَادَلَتِ الْيَهُودُ النَّبِيَّ : فَقَالُوا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلْنَا ، وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ (أَيُّ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ) .
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، أَرْسَلَتْ فَارِسُ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ خَاصِمُوا مُحَمَّدًا ، وَقُولُوا لَهُ : فَمَا تَذْبَحُ أَنْتَ بِسَكِينٍ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا ذَبَحَ اللَّهُ بِشَمْشِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ (أَيُّ الْمَيْتَةِ) فَهُوَ حَرَامٌ ؟
وَسَمِعَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْقَوْلَ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ . . .)
ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ أَطَعْتُمُ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَإِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ، لِأَنَّكُمْ تَكُونُونَ قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ شَرِّعِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ ، إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ ، فَقَدْ مَتَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ .

(١٢١) سورة الأنعام، وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } (١)(٤٥) سورة مريم، وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَقَفُّوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) } (٢)

(١) - وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ يَا أَبَتِ أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي شِرْكِكَ وَفِي تَعَتُّكَ ، وَاسْتِكْبَارِكَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، فَتَكُونَ قَرِينًا وَتَابِعًا لِلشَّيْطَانِ فِي النَّارِ .

(٢) - هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَكَانَ حَاطِبٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ، هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ ، وَتَرَكَ فِيهَا مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ قُرَيْشٍ . فَلَمَّا أَرَادَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَحَ مَكَّةَ دَعَا رَبَّهُ اللَّهُ أَنْ يُعِينِي الْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهُمْ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ ، فَكَتَبَ حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُعَرِّفُهُمْ بِعِزِّمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى غُرُوبِهِمْ ، وَأَرْسَلَهُ مَعَ امْرَأَةٍ لِيَتَّخِذَ عَنْدهُمْ يَدًا . وَأَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولُهُ بِالْكِتَابِ ، فَأَرْسَلَ الرَّسُولُ عَلِيًّا وَالرُّبَيْرَ ، وَأَمَرَهُمَا بِالذَّهَابِ إِلَى رَوْضَةِ خَاخٍ لِيَأْتِيَاهُ بِالْكِتَابِ مِنَ الْمَرْأَةِ ، فَلَمَّا جَاءَاَهَا طَلَبَا مِنْهَا الْكِتَابَ فَأُتِكَرْتُهُ ، فَهَدَّاهَا بِتَجْرِيدِهَا مِنْ ثِيَابِهَا لِتُقَرِّبَ شَيْئًا ، فَأَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْ صَفَائِرِ شَعْرِهَا .

وَسَأَلَ الرَّسُولُ حَاطِبًا عَنِ الْكِتَابِ فَأَعْتَرَفَ وَقَالَ لِلرَّسُولِ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كُفْرًا ، وَلَا ارْتِدَادًا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا لِيَتَّخِذَ بِهِ يَدًا عِنْدَ قُرَيْشٍ يَحْمِي بِهَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَمَالَهُ . فَقَالَ الرَّسُولُ لِلصَّحَابَةِ إِنَّهُ صَدَقَكُمْ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ . فَقَالَ الرَّسُولُ : إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ لَا يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا لَهُمْ يُبَلِّغُونَهُمْ أَخْبَارَ الرَّسُولِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لِأَعْدَائِهِ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَيْهَا ، وَقَدْ كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِكِتَابِهِ ، فَكَيْفَ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا تَتَخَلَّوْنَهُمْ أَنْصَارًا تُسَرُّونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيُضِرُّ الرَّسُولَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ كُرْهًا بِالتَّوْحِيدِ ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَنْبٌ يُؤَاخِذُونَ عَلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ . فَإِنْ كُنْتُمْ ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، قَدْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، فَلَا تُؤَلُّوا أَعْدَائِي ، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الْمَوَالَاةَ ، وَيُفْشِ سِرَّ الرَّسُولِ لِأَعْدَائِهِ ، فَقَدْ حَادَّ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْجَنَّةِ .

إِنْ ظَفِرَ بِكُمْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ ، الَّذِينَ ثَلَّفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، يُظْهِرُوا لَكُمْ عَدَاوَتَهُمْ ، وَيَمْدُدُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِمَا يَسُوؤُكُمْ : يُقَاتِلُونَكُمْ وَيَشْتُمُونَكُمْ وَيَتَمَنُّونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِرَبِّكُمْ فَتَكُونُوا عَلَى مِثْلِ دِينِهِمْ ، فَكَيْفَ تُسَرُّونَ إِلَى هَؤُلَاءِ بِالْمَوَدَّةِ وَهَذِهِ هِيَ حَالُهُمْ؟ .

وَيُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الَّذِي اعْتَذَرَ بِرَغْبَتِهِ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ فِي مَكَّةَ ، بِأَنْ الْأَقَارِبَ وَالْأَوْلَادَ ، الَّذِينَ ثَوَّلُوا الْكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ ، لَنْ يَنْفَعُوَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَذْفَعُوا عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ . وَيَذْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ سِوَاهُ ، وَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ .

أَفَلَا تَأْسَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤَادُّونَ الْكَافِرِينَ بِأَبْيِهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ : إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ ، وَجَعَلْنَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ .

وَلَكُمْ فِي أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا ، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسَلِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَشْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتِغْفَارَهُ لِأَبِيهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا أَمْرَ مَرْدُودٍ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا

تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَحَظُوا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

رَبَّنَا وَلَا تُسَلِّطْ قَوْمَنَا الْكَافِرِينَ عَلَيْنَا ، وَلَا تَجْعَلْهُمْ يَظْهَرُونَ عَلَيْنَا ، فَيَعْمَلُوا عَلَى فِتْنَتِنَا عَنْ دِينِنَا بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ . وَهُمْ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لَأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَفِيمَا يَعْبُدُونَ ، رَبَّنَا وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ ، وَاعْفُ عَنَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُضَامُ ، الْحَكِيمُ فِيمَا تَشْرَعُ ، وَفِيمَا تَقْضِي .

[الممتحنة/ ١- ٥] .

وجوب التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١)

فَصُلِّ - وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ " أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ " فَيَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا فَرَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيْنَهُمَا ، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)(٢)

(١) - وفي فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ - (ج ١ / ص ٩٨):

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فكل من ادعى الولاية فلا بد من سبر أحواله ومعرفة ما هو عليه فإن كان متصفاً بما وصف الله به أوليائه المؤمنين مجانباً لحزب الشيطان وأوليائه الضالين المضلين وكان مقيماً لشعائر الدين من تحقيق التوحيد وإقامة الصلاة في الجمع والجماعات وكان من الدعاة إلى الله واتصف بما عليه سلف الأمة وأئمتها هدياً وسمتاً وخلقاً وحالاً ومقاماً وصلحت نيته بذلك فهذا يرجي أن يكون من أولياء الله المتقين الذين قال الله فيهم (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن ادعى الولاية بدون ذلك فهو مدعى.

والدعوى ما لم يقيموا عليها بينات ابتأوها ادعياءُ

فتاوى اللجنة الدائمة - ١ - (ج ١ / ص ٦٣٨)

فالفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: أن أولياء الرحمن:

هم المؤمنون المتقون، كما قال تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (١) { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } (٢) وأولياء الشيطان: هم المعادون لله التاركون للعمل بشرعه.

وأفضل أولياء الله هم رسله، والله جل وعلا يجعل على يد رسله المعجزات والكرامات أو يجعل على يد أوليائه الكرامات، وما يقع على يد أولياء الشيطان فهو من الأحوال الشيطانية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة، وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، ويسمونهم: الآيات، لكن كثيراً من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة). انتهى.

(٢) - الأولياء : جمع ولي مأخوذ من الولي بمعنى القرب والدنو ، يقال : تباعد فلان من عبد ولي أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت بالله - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه ، ويجتنبون كل ما يكرهه .
قال الفخر الرازي : " ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شيء هو الذى يكون قريباً منه .

والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك في خدمته ، وإن اجتهد اجتهد في طاعته ، فهناك يكون في غاية القرب من الله - تعالى - ويكون ولياً له - سبحانه - .
وإذا كان كذلك كان الله - ولياً له - أيضاً - كما قال : { الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح { ألا } وبحرف التوكيد { إن } لتنبية الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما ناله أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية .
وقوله : { لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم .
والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه .
والحزن اكتئاب نفسي يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

أى : أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً .
والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه - فمضى فعلوا ما يؤدي إلى ذلك هان كل ما سواه .
وقوله : { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } استئناف مسوق لتوضيح حقيقتهم فكأن سائلاً قال : ومن هم أولياء الله؟ فكان الجواب هم الذين توفر فيهم الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .
وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي ، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ . لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال للإيدان بأن اتقاهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب وترهيب .
وقوله - سبحانه - { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } زيادة تكريم وتشريف لهم .
والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرية وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .
أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم في الدنيا من حياة آمنة طيبة ، ولهم - أيضاً - في الآخرة ما يسرهم من فوز

برضوان الله ، ومن دخول جنته .

قال الآلوسی ما ملخصه : " والثابت في أكثر الروايات ، أن البشرى في الحياة الدنيا ، هي الرؤيا الصالحة . .
فقد أخرج الطيالسي وأحمد الدارمي والترمذي . . وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - { لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } فقال : " هي الرؤيا الصالحة يراها
المؤمن أو ترى له " .

وقيل المراد بالبشرى : البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ،
وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغي العدول عما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تفسير ذلك إذا
صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن تحمل البشرى في الدارين على
البشارة بما يحقق نفي الخوف والحزن كائنًا ما كان . . . "

وقوله : { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولا لما وعد به عباده
الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التي تسعدهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة .
واسم الإشارة في قوله - تعالى - { ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } يعود إلى ما ذكر من البشرى في الدارين .
أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ،
والذي لا يفوته نجاح أو فضل . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٢١٣٢)

[يونس/٦٢-٦٤]

أحاديث في صفات الولي

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ
إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ
الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي عَبْدِي أُعْطِيْتُهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ
وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (١) . وهذا أصح
حديث يروى في الأولياء (٢)

(١) - خ ١٣١/٨ وهق ٣٤٦/٣ (٦٦٢٢) و ٢١٩/١٠ (٢١٥٠٨) والإتحاف ٤٠٣/١٠ والصحيحة
(١٦٤٠) وسنة ١٩/٥ وفتح ٣٤٠/١١ و٣٤١ وتلخيص ١١٧/٣ وصفة ٤٩١ وصحيح الجامع (١٧٨٢)

والإحسان (٣٤٧) وهـ (٣٩٨٩) صحيح

ومن أوهام الألباني أنه قال في هامش صحيح الجامع (١٧٨٢) : كنت برهة من الزمن متوقفا في صحة هذا
الحديث ، ثم تتبعته طرقه ، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها ، وقد صححه جمع ---- اهـ .

وهذا يدل على تسرعه في الحكم على الأحاديث ، وعلى عدم اعتداده بأقوال أهل العلم السابقين واعتباره
صحيح البخاري كغيره من كتب السنة .

وكانت حجته في التوقف في صحة هذا الحديث أن أحد رواة خالد بن مخلد قيل فيه أنه صاحب منكير وقال الذهبي : هذا حديث غريب جداً لولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد وذلك لغرابته لفظه -- الميزان ١/ ٦٤٠

أقول : هذا الكلام مردود على الذهبي رحمه الله فليس هذا الحديث غريباً كما زعم !!
وخالد بن مخلد إذا كان له منكير لا يعنى أن يكون هذا الحديث منها أصلاً ، لأن الإمام البخاري روى له ما لم ينكر عليه وقد ذكر ابن عدى في ترجمته ما أنكر عليه ولم يذكر هذا الحديث وقال : قد اعتبرت حديثه ما روى عنه من الكوفيين محمد ابن عثمان بن كرامة ، ومن الغرباء أحمد بن سعيد الدارمي وعندى من حديثهما صدر صالح ، ولم أجد في كتبه أنكر مما ذكرته ، فلعله توهمها منه أو حملاً على الحفظ وهو عندى إن شاء الله لا بأس به ١٣٦/٣ هـ وقد حدث عن خالد كبار أهل العلم منهم البخاري ومسلم وابن أبي شيبة وأبو داود في مسند مالك والترمذي والنسائي وابن ماجه وراجع التهذيب ٣/ ١١٦-١١٨ فهو ثقة له أفراد وقد اعتمد حديث الولي وقواه ابن تيمية في كتابه القيم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأفرده العلامة الشوكاني بكتاب ضخيم تخريجاً وشرحاً في كتابه القطر الجلى شرح حديث الولي .
ورد كلام الذهبي وناقشه الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٠-٣٤١ .
فمن أسباب رد الحديث عدم فهمه ، والذي لا يكون متعمقاً في أصول الفقه وأصول تفسير النصوص يقع في مثل هذه الأخطاء الجسيمة ، بحجة أنها ليست موافقة لفهمه القاصر !!

وفي الأسماء والصفات للبيهقي - (ج ٣ / ص ٦٩) :

أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي فيما حكى عن أبي عثمان الحيري رحمه الله أنه سئل عن معنى هذا الخبر فقال : معناه : كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الاستماع وبصره في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي . أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أنا جعفر بن محمد ، قال : قال الجنيد في معنى قوله : « يكره الموت وأكره مساءته » . يريد : لما يلقي من عيان الموت وصعوبته وكرهه ، ليس أي أكره له الموت ، لأن الموت يورده إلى رحمته ومغفرته » . وقال أبو سليمان رحمه الله : قوله : « وكنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها » وهذه أمثال ضربها ، والمعنى والله أعلم : توفيقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير الحجة له فيها فيحفظ جوارحه عليه ، ويعصمه عن مواقف ما يكره الله من إصغاء إلى اللهو بسمعه ، ونظر إلى ما نهى عنه من اللهو ببصره ، وبطش إلى ما لا يحل له بيده ، وسعي في الباطل برجله . وقد يكون معناه سرعة إجابة الدعاء ، والإنجاح في الطلبة ، وذلك أن مساعي الإنسان إنما تكون بهذه الجوارح الأربع ، وقوله : ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، فإنه أيضاً مثل ، والتردد في صفة الله عز وجل غير جائز ، والبداء عليه في الأمور غير سائغ ، وتأويله على وجهين أحدهما : أن العبد قد يشرف في أيام عمره على المهالك مرات ذات عدد من داء يصيبه ، وآفة تنزل به ، فيدعو الله عز وجل فيشفيه منها ، ويدفع مكروهها عنه ، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم يبدو له في ذلك فيتركه ويعرض عنه ، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله ، فإنه قد كتب الفناء على خلقه ، واستأثر البقاء لنفسه ، وهذا على معنى ما روي : « إن الدعاء يرد البلاء » والله أعلم . وفيه وجه آخر : وهو أن يكون معناه : ما رددت رسلي في شيء

أنا فاعله ترديدي إياهم في نفس المؤمن ، كما روي في قصة موسى وملك الموت صلوات الله عليهما ، وما كان من لطفه عينه ، وتردده عليه مرة بعد أخرى ، وتحقيق المعنى في الوجهين معا : عطف الله عز وجل على العبد ، ولطفه به والله أعلم »

(٢) - وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٣٤٢) :

سَاقِ الدَّهْبِيِّ فِي تَرْجُمَةِ خَالِدٍ مِنَ الْمَيِّزَانِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ قَوْلَ أَحْمَدَ فِيهِ لَهُ مَنَاصِيرٌ ، وَقَوْلُ أَبِي حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ عَشْرَةَ أَحَادِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِ اسْتَنْكَرَهَا : هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدَ بْنِ مَخْلَدٍ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ كِرَامَةَ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ فِيهِ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا لَوْ لَا هَيْئَةُ الصَّحِيحِ لَعُدُّهُ فِي مُنْكَرَاتِ خَالِدِ بْنِ مَخْلَدٍ ، فَإِنَّ هَذَا الِثَّمَنَ لَمْ يُرَوْ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَلَا خَرَّجَهُ مَنْ عَدَا الْبُخَارِيَّ وَلَا أَظُنُّهُ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ . قُلْتُ : لَيْسَ هُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ جَزْمًا ، وَإِطْلَاقُ أَنَّهُ لَمْ يُرَوْ هَذَا الِثَّمَنُ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ مَرْدُودٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَشَرِيكُ شَيْخِ خَالِدٍ فِيهِ مَقَالٌ أَيْضًا ، وَهُوَ رَأَوِي حَدِيثَ الْمُعْرَاجِ الَّذِي زَادَ فِيهِ وَتَقَصَّ وَقَدَّمَ وَآخَرَ وَتَفَرَّدَ فِيهِ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَتَابِعْ عَلَيْهَا كَمَا يَأْتِي الْقَوْلُ فِيهِ مُسْتَوْعِبًا فِي مَكَانِهِ ، وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ طُرُقٌ أُخْرَى يَدُلُّ مَجْمُوعُهَا عَلَى أَنَّ لَهُ أَصْلًا ، مِنْهَا عَنْ عَائِشَةَ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي " الزُّهْدِ " وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي " الْحَلِيلَةِ " وَالْبَيْهَقِيُّ فِي " الزُّهْدِ " مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْوَّاحِدِ بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْهَا ، وَذَكَرَ ابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ عَدِيٍّ أَنَّهُ تَفَرَّدَ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ إِنَّهُ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ ، لَكِنْ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ عَنْ عُرْوَةَ وَقَالَ : لَمْ يَرَوْهُ عَنْ عُرْوَةَ إِلَّا يَعْقُوبُ وَعَبْدُ الْوَّاحِدِ . وَمِنْهَا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي " الزُّهْدِ " بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ . وَمِنْهَا عَنْ عَلِيٍّ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ فِي مُسْنَدِ عَلِيٍّ ، وَعَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَسَنَدُهُمَا ضَعِيفٌ ، وَعَنْ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى وَالْبَزَّازُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ أَيْضًا ، وَعَنْ حُدَيْفَةَ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ مُحْتَصِرًا وَسَنَدُهُ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةٍ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي " الْحَلِيلَةِ " مُحْتَصِرًا وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا ، وَعَنْ وَهَبِ بْنِ مُنَبِّهِ مَقْطُوعًا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي " الزُّهْدِ " وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي " الْحَلِيلَةِ " وَفِيهِ تَعَقُّبٌ عَلَى ابْنِ حِبَّانَ حَيْثُ قَالَ بَعْدَ إِخْرَاجِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : لَا يُعْرِفُ لِهَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا طَرِيقَانِ يَعْني غَيْرَ حَدِيثِ اللَّيْلِ وَهُمَا هِشَامُ الْكِنَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ وَعَبْدُ الْوَّاحِدِ بْنُ مَيْمُونٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ وَكِلَاهُمَا لَا يَصِحُّ ، وَسَأَذْكُرُ مَا فِي رَوَايَاتِهِمْ مِنْ فَائِدَةٍ زَائِدَةٍ .

قَوْلُهُ (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى) قَالَ الْكَرْمَانِيُّ: هَذَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهَا قَبْلَ سِتَّةِ أَبْوَابٍ. قُلْتُ: وَقَدْ وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ بِهِ عَنْ جَبْرِيلَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ.

قَوْلُهُ (مِنْ عَادَى لِي وَلِيًّا) الْمُرَادُ بَوَلِيَّ اللَّهِ الْعَالِمَ بِاللَّهِ الْمُوَظَّابَ عَلَى طَاعَتِهِ الْمُخْلِصَ فِي عِبَادَتِهِ . وَقَدْ اسْتَشْكَلَ وَجُودَ أَحَدٍ يُعَادِيهِ لِأَنَّ الْمُعَادَاةَ إِنَّمَا تَقَعُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَمَنْ شَأْنُ الْوَلِيِّ الْحِلْمِ وَالصَّفْحِ عَمَّنْ يَجْهَلُ عَلَيْهِ ، وَأَجِيبَ بِأَنَّ الْمُعَادَاةَ لَمْ تَنْحَصِرْ فِي الْخُصُومَةِ وَالْمُعَامَلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَثَلًا بَلْ قَدْ تَقَعُ عَنْ بَعْضٍ يَنْشَأُ عَنِ التَّعَصُّبِ كَالرَّافِضِيِّ فِي بُغْضِهِ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَالْمُبْتَدِعِ فِي بُغْضِهِ لِلْسُّنِّيِّ ، فَتَقَعُ الْمُعَادَاةُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، أَمَّا مِنْ جَانِبِ الْوَلِيِّ فَلِلَّهِ تَعَالَى وَفِي اللَّهِ ، وَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الْآخِرِ فَلِمَا تَقَدَّمَ . وَكَذَا الْفَاسِقُ الْمُتَجَاهِرُ بِبُغْضِهِ الْوَلِيَّ فِي اللَّهِ وَبِبُغْضِهِ الْآخِرَ لِإِنْكَارِهِ عَلَيْهِ وَمُلَازِمَتِهِ لِنَهْيِهِ عَنْ شَهَوَاتِهِ . وَقَدْ تَطَلَّقَ الْمُعَادَاةُ وَيُرَادُ بِهَا الْوُقُوعُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ بِالْفِعْلِ وَمِنْ الْآخِرِ بِالْقُوَّةِ ، قَالَ الْكُرْمَانِيُّ : قَوْلُهُ " لِي " هُوَ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ " وَلِيًّا " لَكِنَّهُ لَمَّا

تَقَدَّمَ صَارَ حَالًا . وَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِي " الْإِفْصَاحِ " قَوْلُهُ " عَادَى لِي وَلِيًّا " أَيِ اتَّخَذَهُ عَدُوًّا ، وَلَا أَرَى الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ عَادَاهُ مِنْ أَجْلِ وَلِيَّتِهِ وَهُوَ إِنْ تَصَمَّنَ التَّحْذِيرَ مِنْ إِذْيَاءِ قُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَيْسَ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ يُسْتَنْتَبَى مِنْهُ مَا إِذَا كَانَتْ الْحَالُ تَقْتَضِي نِزَاعًا بَيْنَ وَلِيِّينَ فِي مُحَاصِمَةٍ أَوْ مُحَاسِمَةٍ تَرْجِعُ إِلَى اسْتِخْرَاجِ حَقِّ أَوْ كَشْفِ غَامِضٍ ، فَإِنَّهُ جَرَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُشَاجَرَةً ، وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ انْتَهَى مُلْخَصًا مُوَضَّحًا . وَتَعَقُّبُهُ الْفَافِكِهَانِيُّ بِأَنَّ مُعَادَاةَ الْوَلِيِّ لِكُونِهِ وَلِيًّا لَا يُفْهَمُ إِلَّا إِنْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ الْحَسَدِ الَّذِي هُوَ تَمَنِّي زَوَالِ وَلِيَّتِهِ وَهُوَ بَعِيدٌ جَدًّا فِي حَقِّ الْوَلِيِّ فَتَأَمَّلْهُ قُلْتُ : وَالَّذِي قَدَّمْتَهُ أَوْلَى أَنْ يُعْتَمَدَ ، قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَقْدِيمُ الْإِعْذَارِ عَلَى الْإِثْذَارِ وَهُوَ وَاضِحٌ .

قَوْلُهُ (فَقَدْ آذَنَتْهُ) بِالْمَدِّ وَفُتِحَ الْمُعْجَمَةُ بَعْدَهَا ثَوْنٌ أَيْ أَعْلَمْتُهُ ، وَالْإِذْيَانُ الْإِعْلَامُ ، وَمِنْهُ أُخِذَ الْآذَانُ . قَوْلُهُ (بِالْحَرْبِ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهِنِيِّ " بِحَرْبٍ " وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا " وَفِي رِوَايَةِ لَأَحْمَدَ " مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا " وَفِي أُخْرَى لَهُ " مَنْ آذَى " وَفِي حَدِيثِ مَيْمُونَةَ مِثْلُهُ " فَقَدْ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي " وَفِي رِوَايَةِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ مَوْقُوفًا " قَالَ اللَّهُ مَنْ أَهَانَ وَلِيِّي الْمُؤْمِنَ فَقَدْ اسْتَقْبَلَنِي بِالْمُحَارَبَةِ " وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ " فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ " وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ وَأَنْسٍ " فَقَدْ بَارَزَنِي " وَقَدْ اسْتَشْكَلَ وَقُوعُ الْمُحَارَبَةِ وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْرِ الْخَالِقِ ، وَالْجَوَابُ أَنَّهُ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ بِمَا يُفْهَمُ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ تَنَشَّأُ عَنْ الْعَدَاوَةِ وَالْعَدَاوَةُ تَنَشَّأُ عَنْ الْمُخَالَفَةِ وَغَايَةُ الْحَرْبِ الْهَلَاكُ وَاللَّهُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، فَكَانَ الْمَعْنَى فَقَدْ تَعَرَّضَ لِإِهْلَاكِ إِيَّاهُ . فَأُطْلِقَ الْحَرْبَ وَأَرَادَ لَزِمَهُ أَيْ أَعْمَلَ بِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَدُوُّ الْمُحَارَبُ . قَالَ الْفَافِكِهَانِيُّ : فِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، لِأَنَّ مَنْ حَارَبَهُ اللَّهُ أَهْلَكَهُ ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ ، لِأَنَّ مَنْ كَرِهَ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ خَالَفَ اللَّهَ وَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ عَادَهُ وَمَنْ عَادَهُ أَهْلَكَهُ ، وَإِذَا ثَبِتَ هَذَا فِي جَانِبِ الْمُعَادَاةِ ثَبِتَ فِي جَانِبِ الْمُوَالَاةِ ، فَمَنْ وَالَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ . وَقَالَ الطُّوفِيُّ : لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى تَوَلَّاهُ اللَّهُ بِالْحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِأَنَّ عَدُوَّ الْعَدُوِّ صَدِيقٌ وَصَدِيقُ الْعَدُوِّ عَدُوٌّ ، فَعَدُوُّ وَلِيِّ اللَّهِ عَدُوُّ اللَّهِ فَمَنْ عَادَاهُ كَانَ كَمَنْ حَارَبَهُ وَمَنْ حَارَبَهُ فَكَأَنَّمَا حَارَبَ اللَّهَ .

قَوْلُهُ (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ) يَجُوزُ فِي " أَحَبَّ " الرَّفْعُ وَالتَّنْصِبُ ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا اللَّفْظِ جَمِيعُ فَرَائِضِ الْعَيْنِ وَالْكَفَايَةِ ، وَظَاهِرُهُ الْإِخْتِصَاصُ بِمَا ابْتَدَأَ اللَّهُ فَرَضِيَّتَهُ ، وَفِي دُخُولِ مَا أَوْجَبَهُ الْمُكَافَأُ عَلَى نَفْسِهِ نَظَرٌ لِلتَّقْيِيدِ بِقَوْلِهِ افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، إِلَّا إِنْ أُخِذَ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى الْأَعْمِ ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ آدَاءَ الْفَرَائِضِ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ . قَالَ الطُّوفِيُّ : الْأَمْرُ بِالْفَرَائِضِ جَارِمْ وَيَقَعُ بِتَرْكِهَا الْمُعَاقَبَةُ بِخِلَافِ التَّنْفِلِ فِي الْأَمْرَيْنِ وَإِنْ اشْتَرَكَ مَعَ الْفَرَائِضِ فِي تَحْصِيلِ الثَّوَابِ فَكَانَتْ الْفَرَائِضُ أَكْمَلَ ، فَلِهَذَا كَانَتْ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَشَدَّ تَقْرِيًّا ، وَأَيْضًا فَالْفَرَضُ كَالْأَصْلِ وَالْأَسُّ وَالتَّنْفِلُ كَالْفَرْعِ وَالْبِنَاءِ ، وَفِي الْإِثْنَانِ بِالْفَرَائِضِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ امْتِنَالُ الْأَمْرِ وَاحْتِرَامُ الْأَمْرِ وَتَعْظِيمُهُ بِالْإِثْقَادِ إِلَيْهِ وَإِظْهَارُ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَذُلُّ الْعُبُودِيَّةِ فَكَانَ التَّقَرُّبُ بِذَلِكَ أَعْظَمَ الْعَمَلِ ، وَالَّذِي يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ قَدْ يَفْعَلُهُ خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَمُؤَدِّي التَّنْفِلِ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا إِيثَارًا لِلْخِدْمَةِ فَيُجَازَى بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ مَطْلُوبٍ مَنْ يَتَقَرَّبُ بِخِدْمَتِهِ .

قَوْلُهُ (وَمَا زَالَ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهِنِيِّ " وَمَا يَزَالُ " بِصِيغَةِ الْمُضَارَعَةِ . قَوْلُهُ (يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ) التَّقَرُّبُ طَلَبُ الْقُرْبِ ، قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ : قُرْبُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ يَقَعُ أَوَّلًا بِإِيمَانِهِ ، ثُمَّ بِإِحْسَانِهِ . وَقُرْبُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ مَا يَخْصُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ عِرْقَانِهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ رِضْوَانِهِ ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ

مِنْ وَجْهِ لُطْفِهِ وَامْتِنَانِهِ . وَلَا يَتِمُّ قُرْبُ الْعَبْدِ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا بِبَعْدِهِ مِنَ الْخَلْقِ . قَالَ : وَقُرْبُ الرَّبِّ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ عَامٌّ لِلنَّاسِ ، وَبِاللُّطْفِ وَالنُّصْرَةِ خَاصٌّ بِالْخَوَاصِّ ، وَبِالتَّائِسِ خَاصٌّ بِالْأَوْلِيَاءِ . وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ " يَتَحَبَّبُ إِلَيَّ " بِدَلِّ " يَتَقَرَّبُ " وَكَذَا فِي حَدِيثِ مَيْمُونَةَ .

قَوْلُهُ (بِالتَّوَافِلِ حَتَّى أَحَبَبْتَهُ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهَنِيِّ " أَحَبَّهُ " ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ تَقَعُ بِمُلَازِمَةِ الْعَبْدِ التَّقَرُّبَ بِالتَّوَافِلِ ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بِمَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا أَنَّ الْفَرَائِضَ أَحَبُّ الْعِبَادَاتِ الْمُتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ لَا تُنْتِجُ الْمَحَبَّةَ ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّوَافِلِ مَا كَانَتْ حَاطِيَةً لِلْفَرَائِضِ مُشْتَمِلَةً عَلَيْهَا وَمُكَمِّلَةً لَهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي رِوَايَةِ أَبِي أَمَامَةَ " ابْنُ آدَمَ . إِنَّكَ لَنْ تُدْرِكَ مَا عِنْدِي إِلَّا بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ " وَقَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ إِذَا أَدَّى الْفَرَائِضَ وَدَامَ عَلَى إِيَّانِ التَّوَافِلِ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَغَيْرِهَا أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ " مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ " أَنَّ النَّافِلَةَ لَا تُقَدَّمُ عَلَى الْفَرِيضَةِ ، لِأَنَّ النَّافِلَةَ إِنَّمَا سُمِّيَتْ نَافِلَةً لِأَنَّهَا تَأْتِي زَائِدَةً عَلَى الْفَرِيضَةِ ، فَمَا لَمْ تُؤَدَّ الْفَرِيضَةُ لَا تَحْصُلُ النَّافِلَةُ ، وَمَنْ أَدَّى الْفَرَضَ ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ النَّفْلَ وَادَّامَ ذَلِكَ تَحَقَّقَتْ مِنْهُ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ انْتَهَى . وَأَيْضًا فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ التَّقَرُّبَ يَكُونُ غَالِبًا بِغَيْرِ مَا وَجَبَ عَلَى الْمُتَقَرَّبِ كَالْهَدْيَةِ وَالتَّخَفُّفِ بِخِلَافِ مَنْ يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنْ خَرَجٍ أَوْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا شَرَعَتْ لَهُ التَّوَافِلُ جَبْرُ الْفَرَائِضِ كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ " انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتَكْمُلْ بِهِ فَرِيضَتُهُ " الْحَدِيثُ بِمَعْنَاهُ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّقَرُّبِ بِالتَّوَافِلِ أَنْ تَقَعَ مِنْ أَدَى الْفَرَائِضِ لَا مَنْ أَحَلَّ بِهَا كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ : مَنْ شَغَلَهُ الْفَرَضُ عَنِ النَّفْلِ فَهُوَ مَعْدُورٌ وَمَنْ شَغَلَهُ النَّفْلُ عَنِ الْفَرَضِ فَهُوَ مَعْرُورٌ .

قَوْلُهُ (فَكُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ) زَادَ الْكُشْمِيهَنِيُّ " بِهِ " .

قَوْلُهُ (وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ " عَيْنُهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا " وَفِي رِوَايَةِ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ " عَيْنُهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهِمَا " بِالتَّشْبِيهِ وَكَذَا قَالَ فِي الْأُذُنِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ ، وَزَادَ عَبْدُ الْوَاحِدِ فِي رِوَايَتِهِ " وَقُوَادَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ " وَنَحْوُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ وَفِي حَدِيثِ مَيْمُونَةَ " وَقَلْبُهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ " وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ " وَمَنْ أَحَبَبْتَهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيَّدًا " وَقَدْ اسْتَشْكَلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ إلخ ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجِهِ : أَحَدُهَا أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ ، وَالْمَعْنَى كُنْتُ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ فِي إِثَارِهِ أَمْرِي فَهُوَ يُجِبُّ طَاعَتِي وَيُؤَثِّرُ خِدْمَتِي كَمَا يُجِبُّ هَذِهِ الْجَوَارِحُ : ثَانِيهَا أَنَّ الْمَعْنَى كُلِّيَّةٌ مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِينِي ، وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إِلَّا مَا أَمَرْتُهُ بِهِ . ثَالِثُهَا الْمَعْنَى أَحْصَلُ لَهُ مَقَاصِدَهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ إلخ . رَابِعُهَا كُنْتُ لَهُ فِي النُّصْرَةِ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرَجْلِهِ فِي الْمَعَاوَنَةِ عَلَى عَدُوِّهِ خَامِسُهَا قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ وَسَبَقَهُ إِلَى مَعْنَاهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ : هُوَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ ، وَالتَّقْدِيرُ كُنْتُ حَافِظَ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَحِلُّ اسْتِمَاعُهُ ، وَحَافِظَ بَصَرِهِ كَذَلِكَ إلخ . سَادِسُهَا قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : يَحْتَمِلُ مَعْنَى آخَرَ أَدَقَّ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى سَمْعِهِ مَسْمُوعُهُ ، لِأَنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِثْلَ فُلَانٍ أَمَلَى بِمَعْنَى مَأْمُولِي ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرِي وَلَا يَلْتَدُّ إِلَّا بِنِلاوَةٍ كِنَابِي وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِمُنَاجَاتِي وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَّا فِيمَا فِيهِ رِضَايَ وَرَجْلُهُ كَذَلِكَ ، وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَيْضًا . وَقَالَ الطُّوفِيُّ : اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ مِنْ يَعْتَدُّ بِقَوْلِهِ أَنَّ هَذَا مَجَازٌ وَكِنَايَةٌ عَنِ نُصْرَةِ الْعَبْدِ وَتَأْيِيدِهِ وَإِعَانَتِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنْ عِبْدِهِ مَنْزِلَةَ الْأَلَاتِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا

ولهذا وقع في رواية " فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي " قَالَ : وَاللَّاتِحَادِيَّةُ زَعَمُوا أَنَّهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَأَنَّ الْحَقَّ عَيْنُ الْعَبْدِ ، وَاحْتَجُّوا بِمَجِيءِ جَبْرِيلَ فِي صُورَةِ دَحْيَةٍ ، قَالُوا فَهُوَ رُوحَانِي خَلَعَ صُورَتَهُ وَظَهَرَ بِمُظْهِرِ الْبَشَرِ ، قَالُوا فَاللَّهُ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ فِي صُورَةِ الْوُجُودِ الْكُلِّيِّ أَوْ بَعْضِهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ غُلُوءًا كَبِيرًا . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : هَذِهِ أَمْثَالُ وَالْمَعْنَى تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهِذِهِ الْأَعْضَاءِ ، وَتَسِيرِ الْمَحَبَّةِ لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظَ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ وَيَعَصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَةٍ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنْ الْإِصْغَاءِ إِلَى اللَّهِ بِسْمَعِهِ ، وَمِنْ النَّظَرِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِبَصَرِهِ ، وَمِنْ الْبُطْشِ فِيَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ بِيَدِهِ ، وَمِنْ السَّعْيِ إِلَى الْبَاطِلِ بِرِجْلِهِ . وَإِلَى هَذَا نَحْنُ الدَّادُودِيُّ ، وَمِثْلُهُ الْكَلْبَابَادِيُّ ، وَعَبَّرَ بِقَوْلِهِ أَحْفَظُهُ فَلَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي مَحَاطِي ، لِأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيَمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ . سَابِقُهَا قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا : وَقَدْ يَكُونُ عَبْرَ ذَلِكَ عَنْ سُرْعَةِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَالنُّجُوحِ فِي الطَّلَبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسَاعِيِ الْإِنْسَانَ كُلَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِهِذِهِ الْجَوَارِحِ الْمَذْكُورَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَهُوَ مُنْتَرَعٌ مِمَّا تَقَدَّمَ لَا يَتَحَرَّكُ لَهُ جَارِحَةٌ إِلَّا فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ ، فَهِيَ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ . وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ فِي " الزُّهْدِ " عَنْ أَبِي عُثْمَانَ الْجَبْرِيزِيِّ أَحَدِ أَيْمَةِ الطَّرِيقِ قَالَ : مَعْنَاهُ كُنْتُ أَسْرَعُ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِ مِنْ سَمْعِهِ فِي الْأَسْمَاعِ وَعَيْنِهِ فِي النَّظَرِ وَيَدِهِ فِي اللَّامَسِ وَرِجْلِهِ فِي الْمَشْيِ . وَحَمَلَهُ بَعْضُ مُتَأَخِّرِي الصُّوفِيَّةِ عَلَى مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ مَقَامِ الْفَنَاءِ وَالْمُخَوِّ ، وَأَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِإِقَامَةِ اللَّهِ لَهُ مُجِبًّا بِمَحَبَّتِهِ لَهُ نَاطِرًا بِنَظَرِهِ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى مَعَهُ بَقِيَّةٌ تُنَاطُ بِاسْمِهِ أَوْ تَقِفُ عَلَى رَسْمِهِ أَوْ تَتَعَلَّقُ بِأَمْرٍ أَوْ تُوصَفُ بِوَصْفٍ ، وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يَشْهَدُ إِقَامَةَ اللَّهِ لَهُ حَتَّى ، قَامَ وَمَحَبَّتَهُ لَهُ حَتَّى أَحَبَّهُ وَنَظَرَهُ إِلَى عَبْدِهِ حَتَّى أَقْبَلَ نَاطِرًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ . وَحَمَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الزَّيْغِ عَلَى مَا يَدْعُونَهُ مِنْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَازِمَ الْعِبَادَةَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ حَتَّى يُصَفَّى مِنَ الْكُدُورَاتِ أَنَّهُ يَصِيرُ فِي مَعْنَى الْحَقِّ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ جُمْلَةً حَتَّى يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الذَّاكِرُ لِنَفْسِهِ الْمُوَحَّدِ لِنَفْسِهِ الْمُحِبِّ لِنَفْسِهِ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ وَالرُّسُومَ تَصِيرُ عَدَمًا صَرَفًا فِي شَهُودِهِ وَإِنْ لَمْ تُعْدَمْ فِي الْخَارِجِ ، وَعَلَى الْأَوْجِهَةِ كُلِّهَا فَلَا مُتَمَسِّكَ فِيهِ لِللَّاتِحَادِيَّةِ وَلَا الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ لِقَوْلِهِ فِي بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ " وَلَكِنْ سَأَلَنِي ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي " فَإِنَّهُ كَالصَّرِيحِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ . قَوْلُهُ (وَإِنْ سَأَلَنِي) زَادَ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ " عَبْدِي " . قَوْلُهُ (أَعْطَيْتُهُ) أَيَّ مَا سَأَلَ .

قَوْلُهُ (وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي) ضَبَطْنَاهُ بِوَجْهَيْنِ الْأَشْهُرُ بِالثُّنُونِ بَعْدَ الذَّلَالِ الْمُعْجَمَةِ وَالثَّانِي بِالْمُوَحَّدَةِ وَالْمَعْنَى أَعَذْتَهُ مِمَّا يَخَافُ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ " وَإِذَا اسْتَنْصَرَ بِي نَصَرْتَهُ " وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ " نَصَحَنِي فَتَصَحَّتْ لَهُ " وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّوْفَلِ جَمِيعُ مَا يُنْدَبُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ . وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ الْمَذْكُورِ " وَأَحَبُّ عِبَادَةِ عَبْدِي إِلَيَّ النَّصِيحَةُ " وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَبَادِ وَالصُّلَحَاءِ دَعَوْا وَبَالُغُوا وَلَمْ يُجَابُوا ، وَالْجَوَابُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَتَنَوَّعُ : فَتَارَةً يَقَعُ الْمَطْلُوبُ بَعْنِهِ عَلَى الْفَوْرِ ، وَتَارَةً يَقَعُ وَلَكِنْ يَتَأَخَّرُ لِحِكْمَةٍ فِيهِ ، وَتَارَةً قَدْ تَقَعَ الْإِجَابَةُ وَلَكِنْ يَغْيُرُ عَيْنَ الْمَطْلُوبِ حَيْثُ لَا يَكُونُ فِي الْمَطْلُوبِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ وَفِي الْوَاقِعِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ أَوْ أَصْلَحُ مِنْهَا . وَفِي الْحَدِيثِ عِظَمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهَا مَحَبَّةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ بِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَالْقُرْبَةِ ، وَلَا وَاسِطَةَ فِيهَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ، وَلَا شَيْءَ أَقَرَّ لَعَيْنِ الْعَبْدِ مِنَهَا وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ الْمَرْفُوعِ " وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ ، وَمَنْ كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ يُوَدُّ أَنْ لَا يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ لِأَنَّ فِيهِ نَعِيمَهُ وَبِهِ تَطْيِيبُ حَيَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ لِلْعَابِدِ

بِالْمُصَابِرَةِ عَلَى النَّصَبِ ، فَإِنَّ السَّالِكَ غَرَضُ الْآفَاتِ وَالْفُتُورِ . وَفِي حَدِيثٍ حَذِيفَةٍ مِنَ الرِّيَادَةِ " وَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَانِي وَأَصْفِيَانِي ، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النَّبِيِّنَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ " وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنْ أَهْلِ التَّجَلِّي وَالرِّيَاضَةِ فَقَالُوا : الْقَلْبُ إِذَا كَانَ مَحْفُوظًا مَعَ اللَّهِ كَانَتْ خَوَاطِرُهُ مَعْصُومَةً مِنَ الْخَطَا . وَتَعَقَّبَ ذَلِكَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ فَقَالُوا : لَا يُلْتَفَتُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَالْعِصْمَةَ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّبِيِّاءِ وَمَنْ عَدَاهُمْ فَقَدْ يُخْطِئُ ، فَقَدْ كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأْسَ الْمُلْهَمِينَ وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ رُبَّمَا رَأَى الرَّأْيَ فَيُخْبِرُهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِخِلَافِهِ فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَتْرُكُ رَأْيَهُ . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَكْتَفِي بِمَا يَقَعُ فِي خَوَاطِرِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَدْ ارْتَكَبَ أَكْثَرَ الْخَطَا ، وَأَمَّا مَنْ بَالِغَ مِنْهُمْ فَقَالَ : حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي فَإِنَّهُ أَشَدَّ خَطَا فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ إِنَّمَا حَدَّثَهُ عَنِ الشَّيْطَانِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . قَالَ الطُّوفِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ وَالْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَرِيقِهِ ، إِذِ الْمُفْتَرِضَاتُ الْبَاطِنَةُ وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالظَّاهِرَةُ وَهِيَ الْإِسْلَامُ وَالْمَرْكَبُ مِنْهُمَا وَهُوَ الْإِحْسَانُ فِيهِمَا كَمَا تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ جَبْرِيلَ ، وَالْإِحْسَانُ يَتَضَمَّنُ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَغَيْرِهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا أَنَّ مَنْ أَتَى بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ وَتَقَرَّبَ بِالتَّوَافُلِ لَمْ يَرِدْ دُعَاؤُهُ لَوْجُودِ هَذَا الْوَعْدِ الصَّادِقِ الْمُؤَكَّدِ بِالْقَسَمِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْجَوَابُ عَمَّا يَتَخَلَّفُ مِنْ ذَلِكَ ، وَفِيهِ أَنَّ الْعَبْدَ وَلَوْ بَلَغَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ حَتَّى يَكُونَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ لَا يَنْقَطِعُ عَنْ الطَّلَبِ مِنَ اللَّهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُضُوعِ لَهُ وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ هَذَا وَاضِحًا فِي أَوَائِلِ كِتَابِ الدَّعَوَاتِ .

قَوْلُهُ (وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ) وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ " تَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِهِ " وَوَقَعَ فِي " الْحَلِجَةِ " فِي تَرْجَمَةِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ " إِنِّي لَأَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : مَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَيَّ " قَالَ الْخَطَّابِيُّ : التَّرَدُّدُ فِي حَقِّ اللَّهِ غَيْرُ جَائِزٍ ، وَالْبَدَاءُ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ غَيْرُ سَانِعٍ . وَلَكِنْ لَهُ تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يُشْرَفُ عَلَى الْهَلَاكِ فِي أَيَّامِ عُمُرِهِ مِنْ دَاءٍ يُصِيبُهُ وَفَاقَةً تَنْزِلُ بِهِ فَيَدْعُو اللَّهَ فَيَشْفِيهِ مِنْهَا وَيَذْفَعُ عَنْهُ مَكْرُوهَهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ كَتَرَدُّدٍ مَنْ يَرِيدُ أَمْرًا ثُمَّ يَبْدُو لَهُ فِيهِ فَيْتَرُكُهُ وَيَعْرِضُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَائِهِ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابَ أَجَلُهُ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ الْقَنَاءَ عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتَأْثَرَ بِالْبَقَاءِ لِنَفْسِهِ . وَالثَّانِي أَنَّ يَكُونُ مَعْنَاهُ مَا رَدَّدَتْ رُسُلِي فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي إِيَّاهُمْ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، كَمَا رَوَى فِي قِصَّةِ مُوسَى وَمَا كَانَ مِنْ لَطْمَةٍ عَيْنِ مَلَكِ الْمَوْتِ وَتَرَدُّدِهِ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، قَالَ : وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهِينِ عَطْفُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ وَطُفْئُهُ بِهِ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَقَالَ الْكَلْبَاذِيُّ مَا حَاصِلُهُ : أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ صِفَةِ الْفِعْلِ بِصِفَةِ الذَّاتِ ، أَيْ عَنْ التَّرَدُّدِ بِالتَّرَدُّدِ ، وَجَعَلَ مُتَعَلِّقَ التَّرَدُّدِ اخْتِلَافَ أَحْوَالِ الْعَبْدِ مِنْ ضَعْفٍ وَنَصَبٍ إِلَى أَنْ تَنْتَقِلَ مَحَبَّتُهُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى مَحَبَّتِهِ لِلْمَوْتِ فَيُقْبِضُ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ : وَقَدْ يُحْدِثُ اللَّهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَالْمَحَبَّةِ لِلْقَائِهِ مَا يَشْتَأِقُ مَعَهُ إِلَى الْمَوْتِ فَضْلًا عَنْ إِزَالَةِ الْكَرَاهَةِ عَنْهُ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَيَسُوءُهُ ، وَيَكْرَهُ اللَّهُ مُسَاءَتَهُ فَيُزِيلُ عَنْهُ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ لِمَا يُورِدُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ وَهُوَ لَهُ مُؤَثَّرٌ وَإِلَيْهِ مُشْتَأِقٌ . قَالَ : وَقَدْ وَرَدَ تَفَعُّلُ بِمَعْنَى فَعَلَ مِثْلَ تَفَكَّرَ وَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ وَدَبَّرَ وَتَهَدَّدَ وَهَدَّدَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَعَنْ بَعْضِهِمْ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُ الْوَلِيِّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعِيشَ خَمْسِينَ سَنَةً وَعُمُرُهُ الَّذِي كُيِّبَ لَهُ سَبْعُونَ فَإِذَا بَلَغَهَا فَمَرِضَ دَعَا اللَّهَ بِالْعَافِيَةِ فَيُحْيِيهِ عِشْرِينَ أُخْرَى مِثْلًا ، فَعَبَّرَ عَنْ قَدْرِ التَّرْكِيبِ وَعَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ بِحَسَبِ الْأَجَلِ الْمَكْتُوبِ بِالتَّرَدُّدِ ، وَعَبَّرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ الثَّانِي بَأَنَّ التَّرَدُّدَ لِلْمَلَأَكَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ الرُّوحَ وَأَضَافَ الْحَقُّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ لِأَنَّ تَرَدُّدَهُمْ عَنْ أَمْرِهِ ، قَالَ : وَهَذَا التَّرَدُّدُ يَنْشَأُ عَنْ إِظْهَارِ

الْكِرَاهَةِ . فَإِنْ قِيلَ إِذَا أَمَرَ الْمَلِكُ بِالْقَبْضِ كَيْفَ يَفْعُ مِنْهُ التَّرَدُّدُ ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيمَا يُحَدِّثُ لَهُ فِيهِ الْوَقْتُ . كَأَنَّ يُقَالُ لَا تَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَّا إِذَا رَضِيَ . ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَالِثًا وَهُوَ اِحْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى التَّرَدُّدِ اللَّطْفُ بِهِ كَأَنَّ الْمَلِكَ يُؤَخِّرُ الْقَبْضَ ، فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَى قَدْرِ الْمُؤْمِنِ وَعَظَمِ الْمُنْفَعَةِ بِهِ لِلْأَهْلِ الدُّنْيَا احْتِرَمَهُ فَلَمْ يَسْطُرْ يَدَهُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا ذَكَرَ أَمْرَ رَبِّهِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ امْتِنَالِهِ . وَجَوَابًا رَابِعًا وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا خِطَابًا لَنَا بِمَا نَعْقِلُ وَالرَّبُّ مُنْزَعٌ عَنْ حَقِيقَتِهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ " وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً " فَكَمَا أَنَّ أَحَدَنَا يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ وَلَدَهُ تَأْدِيبًا فَتَمْنَعُهُ الْمَحَبَّةُ وَتَبْعُهُ الشَّقَقَةُ فَيَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا وَلَوْ كَانَ غَيْرَ الْوَالِدِ كَالْمُعَلِّمِ لَمْ يَتَرَدَّدْ بَلْ كَانَ يَبَادِرُ إِلَى ضَرْبِهِ لِتَأْدِيبِهِ فَأَرِيدَ تَفْهِيمُنَا تَحْقِيقَ الْمَحَبَّةِ لِلْوَلِيِّ بِذِكْرِ التَّرَدُّدِ . وَجَوَزَ الْكِرْمَانِيُّ اِحْتِمَالًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَقْبِضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ بِالتَّائِي وَالتَّوْبِيعِ ، بِخِلَافِ سَائِرِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمَجَرَّدِ قَوْلِ كُنْ سَرِيعًا دَفْعَةً .

قَوْلُهُ (يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ " إِنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ " زَادَ ابْنُ مَخْلَدٍ عَنْ ابْنِ كِرَامَةَ فِي آخِرِهِ " وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ " وَوَقَعَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ أَيْضًا فِي حَدِيثِ وَهْبٍ ، وَأَسْنَدُ الْبَيْهَقِيِّ فِي " الزُّهْدِ " عَنْ الْجُنَيْدِ سَيِّدِ الطَّائِفَةِ قَالَ : الْكِرَاهَةُ هُنَا لِمَا يَلْقَى الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمَوْتِ وَصُعُوبَتِهِ وَكَرْبِهِ ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنِّي أَكْرَهُ لَهُ الْمَوْتَ لِأَنَّ الْمَوْتَ يُورِدُهُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ انْتَهَى . وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمَوْتَ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ ، وَهُوَ مُفَارَقَةُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ، وَلَا تَحْصُلُ غَالِبًا إِلَّا بِالْعَمِ عَظِيمٍ جَدًّا كَمَا جَاءَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سُئِلَ وَهُوَ يَمُوتُ فَقَالَ : " كَأَنِّي أَتَنَفَّسُ مِنْ خُرْمِ إِبْرَةٍ ، وَكَأَنَّ غُصْنَ شَوْكٍ يَجْرُبُهُ مِنْ قَامَتِي إِلَى هَامَتِي " وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ عُمَرَ سَأَلَهُ عَنْ الْمَوْتِ فَوَصَفَهُ بَنَحْوِ هَذَا ، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْتُ بِهَذَا الْوَصْفِ ، وَاللَّهُ يَكْرَهُ أَذَى الْمُؤْمِنِ ، أَطْلَقَ عَلَى ذَلِكَ الْكِرَاهَةَ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْمُسَاءَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طُولِ الْحَيَاةِ لِأَنَّهَا تُوَدَّى إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ، وَتَنْكُصُ الْخَلْقَ وَالرَّدَّ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ . وَجَوَزَ الْكِرْمَانِيُّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَكْرَهُ مُكْرَهُهُ الْمَوْتَ فَلَا أُسْرَعَ بِقَبْضِ رُوحِهِ فَأَكُونُ كَالْمُتَرَدِّدِ . قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ عَطَاءٍ : فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَظَمَ قَدْرَ الْوَلِيِّ ، لِكُونِهِ خَرَجَ عَنْ تَدْبِيرِهِ إِلَى تَدْبِيرِ رَبِّهِ ، وَعَنْ ائْتِصَارِهِ لِنَفْسِهِ إِلَى ائْتِصَارِ اللَّهِ لَهُ ، وَعَنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بِصِدْقِ تَوَكُّلِهِ . قَالَ : وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنْ لَا يُحْكَمَ لِلنَّاسِ أَذَى وَلِيًّا ثُمَّ لَمْ يُعَاجِلْ بِمُصِيبَةٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ بِأَنَّهُ سَلِمَ مِنْ ائْتِصَامِ اللَّهِ ، فَقَدْ تَكُونُ مُصِيبَتُهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ كَالْمُصِيبَةِ فِي الدِّينِ مَثَلًا . قَالَ :

وَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ " افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ " الْفَرَائِضَ الظَّاهِرَةَ فِعْلًا كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْعِبَادَاتِ ، وَتَرْكَهَا كَالزُّنَا وَالْقَتْلِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَالْبَاطِنَةَ كَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَالْحُبِّ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْخَوْفَ مِنْهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَهِيَ تَنْقَسِمُ أَيْضًا إِلَى أَفْعَالٍ وَتُرُوكٍ . قَالَ : وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ إِطْلَاعِ الْوَلِيِّ عَلَى الْمُغِيبَاتِ بِإِطْلَاعِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ دُخُولَ بَعْضِ أَتْبَاعِهِ مَعَهُ بِالتَّبَعِيَّةِ لِمُصَدِّقِ قَوْلِنَا مَا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ الْيَوْمَ إِلَّا الْوَزِيرُ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَهُ بَعْضُ خَدَمِهِ . قُلْتُ الْوَصْفُ الْمُسْتَشْنَى لِلرَّسُولِ هُنَا إِنْ كَانَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخُصُوصِ كَوْنِهِ رَسُولًا فَلَا مِشَارَكَةَ لِأَحَدٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ فِيهِ إِلَّا مِنْهُ ، وَإِلَّا فَيَحْتَمِلُ مَا قَالَ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

، فَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ (١) . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ { وَإِنِّي لَأَتَارُ لِلْوَلِيَّائِي كَمَا يَتَارُ اللَّيْثُ الْحَرْبُ } (٢)

(١) - قال صاحب الإفصاح في هذا الحديث من الفقه إن الله سبحانه وتعالى قدم الأعذار إلى كل من عادى ولياً إنه إنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعادة، وولي الله تعالى هو الذي يتبع ما شرعه الله تعالى فليحذر الإنسان من إيذاء قلوب أولياء الله عز وجل ومعنى المعادة أن يتخذ عدواً.

ولا أرى المعنى إلا من عاداه لأجل ولاية الله، وأما إذا كانت الأحوال تقتضي نزاعاً بين وليين لله محاكمة أو خصومة راجعة إلى استخراج حق غامض فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث فإنه قد جرى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خصومة وبين العباس وعلي رضي الله عنهما وبين كثير من الصحابة وكلهم كانوا أولياء الله عز وجل.

قوله: " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه " فيه إشارة إلى إنه لا تقدم نافلة على فريضة وإنما سميت النافلة نافلة إذا قضيت الفريضة وإلا فلا يتناولها إسم النافلة ويدل على ذلك قوله: " ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " لأن التقرب بالنوافل يكون بتلو أداء الفرائض ومتى أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك به إلى أن يحبه الله عز وجل ثم قال: " فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به " إلى آخره فهذه علامة ولاية الله، لمن لم يكن قد أحبه، ومعنى ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع له بسماعه ولا يبصر ما لم يأذن الشرع له في إبصاره ولا يمد يده إلى شيء ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجله إلا فيما أذن الشرع في السعي إليه، فهذا هو الأصل إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله تعالى حتى يعرف بذلك فإن خوطب بغيره لم يكذب يسمع لمن يخاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله غير أهل الذكر توصلاً إلى أن يسمع لهم وكذلك في المبصرات والمتنولات والمسعى إليه، وتلك صفة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

قوله: " ولئن استعاذني لأعيذنه " يدل على أن العبد إذا صار من أهل حب الله تعالى لم يمتنع أن يسأل ربه حوائجه ويستعيذ به ممن يخافه والله تعالى قادر على أن يعطيه قبل أن يسأله وأن يعيذه قبل أن يستعيذه ولكنه سبحانه متقرب إلى عباده بإعطاء السائلين وإعازة المستعيزين. وقوله: " استعاذني " ضبطوه بالنون والياء

وكلاهما صحيح. شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية - (ج ١ / ص ٣٤)

(٢) - " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَإِنِّي لَأَسْرِعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي إِنِّي لَأَغْضَبُ لَهُمْ كَمَا يَغْضَبُ اللَّيْثُ الْحَرْبُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ، وَمَا تَعَبَّدَ لِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ بِمِثْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تَقَرَّبَ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبُهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمَوْتًا ، إِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَإِنْ دَعَانِي اسْتَجِيبُ لَهُ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ يَسْأَلُنِي الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ ، وَلَوْ أَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ لَدَاخَلَهُ الْعُجْبُ وَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحُ لَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحُ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحُ لَهُ إِلَّا السُّقْمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، إِنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ "

موسوعة السنة النبوية - (ج ١٦ / ص ٢٢٨٥٢) وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص ٩ ، رقم ١) ، والحكيم (٢/٢٣٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٨) ، وابن عساكر (٧/٩٥) والإتحاف ١٠٢/٨ و ٤٧٧

٤٤٠/٩ وطب ٢٦٤/٨ ومجمع ٢٤٨/٢ والسلسلة الضعيفة - (١٧٧٥) وفيه ضعف
وفي كشف المشكل من حديث الصحيحين - (ج ١ / ص ١٠٠٧) لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي رحمه الله
قال :

في هذا الحديث إشكالات سبعة :

أحدها أن يقال كيف يعادي الإنسان الأولياء والأولياء قد تركوا الدنيا وانفردوا عن الخلق فإن جهل عليهم
جاهل حلموا والعداوة إنما تكون عن خصومة والإشكال الثاني قوله ((فقد آذنته بالحرب)) وكيف يتصور
الحرب بين الخالق والمخلوق والمحارب مناظر وهذا المخلوق في أسر قبضة الخالق والإشكال الثالث ((وما
تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه)) والعادة قد جرت بأن التقرب يكون بما لا يجب كالهدايا
إلى الملوك دون أداء الخراج فإن مؤدي اللزوم لا يكاد يحمد وإنما يشكر من فعل ما لا يجب
والرابع أن يقال فإذا كانت الفرائض أفضل القربات فكيف أثمرت النوافل الحبة ولم تثمرها الفرائض والخامس
قوله ((كنت سمعه وبصره ويده)) فما صورة هذا

والسادس قوله ((ولئن سألتني لأعطينه)) وكم قد رأينا من عابد وصالح يدعو ويبالغ ولا يرى إجابة
والسابع قوله ((وما ترددت عن شيء)) والتردد إنما يقع إذا أشكلت المصلحة في العواقب وذلك ينشأ عن
ضعف التدبير والحق عز وجل منزله عن ذلك
والجواب أما الإشكال الأول فإن معاداة الأولياء يقع من أربعة أوجه

أحدها أن يعاديهم الإنسان عصبية لغيرهم كما يعادي الرافضي أبا بكر وعمر والثاني مخالفة لمذهبهم كما يعادي
أهل البدع أحمد ابن حنبل

والثالث احتقارهم فهم فيكون الفعل بهم فعل الأعداء كما كان بعض الجهال يحصب أويسا القرني
والرابع أنه قد يكون بين الولي وبين الناس معاملات وخصومات وليس كل الأولياء ينفردون في الزوايا فرب
ولي في السوق

وأما الإشكال الثاني فإن الإنسان إنما خوطب بما يعقل ونهاية العداوة الحرب ومحاربة الله عز وجل للإنسان أن
يهلكه وتقدير الكلام فقد تعرض لإهلاكه إياه
وأما الإشكال الثالث فإن في أداء الواجبات احتراماً للأمر وتعظيماً للأمر وبذلك الإنقياد تظهر عظمة الربوبية
ويبين ذل العبودية

وأما الرابع فإنه لما أدى المؤمن جميع الواجبات ثم زاد بالتفعل وقعت الحبة لقصد التقرب لأن مؤدي الفرض ربما
فعله خوفاً من العقاب والمتقرب بالتفعل لا يفعله إلا إيثارة للخدمة والتقرب فيشمر له ذلك مقصوده

وأما الخامس فإن قوله ((كنت سمعه وبصره)) مثل وله أربعة أوجه

أحدهما كنت كسمعه وبصره في إيثارة أمري فهو يجب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يجب هذه الجوارح
والثاني أن كليته مشغولة فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني ولا يبصر إلا عن أمري
والثالث أن المعنى أي أحصل له مقاصده كما يناله بسمعه وبصره

والرابع كنت له في العون والنصرة كبصره ويده اللذين يعاونانه على عدوه

وأما السادس فإنه ما سئل ولي قط إلا وأجيب وإلا أنه قد تؤخر الإجابة لمصلحة وقد يسأل ما يظن فيه مصلحة

ولا يكون فيه مصلحة فيعوض سواه

وأما السابع فجوابه من وجهين

أحدهما أن يكون التردد للملائكة الذين يقبضون الأرواح فأضافه الحق عز وجل إلى نفسه لأن ترددهم عن أمره كما قال تعالى (وما ننزل إلا بأمر ربك) مريم ٦٤ وتردد الملائكة إنما يكون لإظهار كرامة الآدمي كما تردد ملك الموت إلى آدم وإبراهيم وموسى ونبينا { صلى الله عليه وسلم } فأما أن يكون التردد لله فمحال في حقه وهذا مذهب الخطابي فإن اعترض على هذا فقل متى أمر الملك بقبض الروح لم يجز له التردد فكيف يتردد؟ فالجواب من وجهين

أحدهما أن يكون إنما تردد فيما لم يجزم له فيه على وقت كما روي () أنه لما بعث ملك الموت إلى الخليل قيل له تلطف بعدي ()

والثاني أن يكون تردد رقة ولطف بالمؤمن لا أنه يؤخر القبض فإنه إذا نظر إلى قدر المؤمن من احترامه فلم تنبسط يده لقبض روحه وإذا ذكر أمر الإله لم يكن له يد في امتثاله والثاني أنه خطاب لنا بما نعقل وقد تنزه الرب عز وجل عن حقيقته كما قال (من أتاني يمشي أتيت به هرولة) فكما أن أحدنا يتردد في ضرب ولده فيأمره التأديب بضربه وتمنعه الحبة فإذا أخبر بالتردد فهنا قوة محبته له بخلاف عبده فإنه لا يتردد في ضربه فأريد تفهيمنا تحقيق الحبة للولي بذكر التردد ومن الجائز أن يكون تركيب الولي يحتمل خمسين سنة فيدعو عند المرض فيعافى ويقوى تركيبه فيعيش عشرين أخرى فتغيير التركيب والمكتوب من الأجل كالتردد وذلك ثمرة الحبة .

أَيَّ أَخَذُ تَارَهُمْ مِمَّنْ عَادَاهُمْ كَمَا يَأْخُذُ اللَّيْثُ الْحَرْبُ تَارَهُ، وَهَذَا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَوَالَوْهَ فَأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ وَأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ، وَرَضُوا بِمَا يَرْضَى وَسَخِطُوا بِمَا يَسْخِطُ، وَأَمَرُوا بِمَا يَأْمُرُ وَنَهَوْا عَمَّا نَهَى، وَأَعْطَوْا لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْطَى وَمَنْعُوا مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَمْنَعَ، كَمَا فِي التَّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: { أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ : الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ } (١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ قَالَ: « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنْعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » (٢).

و " الْوَلَايَةُ " صِدْقُ الْعِدَاةِ، وَأَصْلُ الْوَلَايَةِ الْمَحَبَّةُ وَالْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعِدَاةِ الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْوَلِيَّ سُمِّيَ وَلِيًّا مِنْ مَوْلَاتِهِ لِلطَّاعَاتِ أَيْ مُتَابَعَتِهِ لَهَا وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

وَالْوَلِيُّ : الْقَرِيبُ، فَيَقَالُ : هَذَا يَلِي هَذَا أَيْ يَقْرُبُ مِنْهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلْحَقُوا الْفَرَانِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ » (٣)

(١) - سنن أبي داود (٤٦٠١) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل - (ج ١١ / ص ٤٨) (٤١٣/٣٠)

و (٣٠٤٣٦) ومسنند أحمد (٢١٩٠٩) وشعب الإيمان للبيهقي (١٢-١٤) ومسنند الطيالسي ٢٠٤ (٧٨٣)

وهو صحيح لغيره

(٢) - سنن أبي داود (٤٦٨٣) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل - (ج ١١ / ص ٥٣) (٤٣٠/٣٠)

و (٣٤٧٢٤) والإبانة الكبرى لابن بطة (٨٥٢) والمعجم الكبير للطبراني (٧٤٩٣ و ٧٦٣٩) وصحيح الجامع

(٥٩٦٥) صحيح

(مَنْ أَحَبَّ) أَيُّ شَيْئًا أَوْ شَخْصِيًّا فَحَذَفَ الْمَفْعُول
 (لِلَّهِ) : أَيُّ لِحْلِهِ وَلِوَجْهِهِ مُخْلِصًا لِمَيْلِ قَلْبِهِ وَلَا لِهَوَاهُ
 (وَأَبْغَضَ لِلَّهِ) : لَا لِإِدْءَاءٍ مَنْ أَبْغَضَهُ لَهُ بَلْ لِكُفْرِهِ وَعِصْيَانِهِ
 (وَأَعْطَى لِلَّهِ) : أَيُّ لِنَوَابِهِ وَرِضَاهُ لَا لِنَحْوِ رِيَاءِهِ
 (وَمَنَعَ لِلَّهِ) : أَيُّ لَأَمْرِ اللَّهِ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَصْرِفِ الرِّكَاءَ لِكَافِرٍ لِحَسَنَتِهِ وَلَا لِهَاشِمِيٍّ لِشَرَفِهِ بَلْ لِمَنَعِ اللَّهِ لَهُمَا مِنْهَا .
 قَالَهُ الْمُناوِي
 (فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ) : بِالنَّصَبِ أَيُّ أَكْمَلَهُ وَقِيلَ بِالرَّفْعِ أَيُّ تَكَمَّلَ إِيْمَانُهُ . عون المعبود - (ج ١٠ / ص ٢٠٠)

(٣) - صحيح البخارى (٦٧٣٢) ومسلم (٤٢٢٦)
 وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٥ / ص ٤٩٧):
 قَالَ الْعُلَمَاءُ : الْمُرَادُ بِأَوَّلَى رَجُلٍ : أَقْرَبُ رَجُلٍ ، مَأْخُذٌ مِنَ الْوَلِيِّ بِاسْتِثْنَاءِ اللَّامِ عَلَى وَزْنِ الرَّمِيِّ ، وَهُوَ الْقُرْبُ ،
 وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِأَوَّلَى هُنَا أَحَقُّ ، بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ : الرَّجُلُ أَوْلَى بِمَا لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ حُمِلَ هُنَا عَلَى (أَحَقُّ) لَخَلَّى عَنْ
 الْفَائِدَةِ ، لِأَنَّا لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ الْأَحَقُّ .
 وَصَفَ الرَّجُلَ بِأَنَّهُ ذَكَرَ تَنْبِيْهَا عَلَى سَبَبِ اسْتِحْقَاقِهِ وَهُوَ الذِّكْرُ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْعَصُوبَةِ وَسَبَبُ التَّرْجِيحِ فِي
 الْإِرْثِ ، وَلِهَذَا جَعَلَ الذِّكْرَ مِثْلَ حِطِّ الْأُنثِيِّ ، وَحِكْمَتُهُ أَنَّ الرِّجَالَ تَلْحَقُهُمْ مُوْنٌ كَثِيرَةٌ بِالْقِيَامِ بِالْعِيَالِ
 وَالضَّيْفَانِ ، وَالْأَرْقَاءِ وَالْقَاصِدِينَ ، وَمُوَاسَاةِ السَّائِلِينَ وَتَحْمُلِ الْغَرَامَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي تَوْرِيثِ الْعَصَبَاتِ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَا بَقِيَ بَعْدَ الْفُرُوضِ فَهُوَ لِلْعَصَبَاتِ يُقَدَّمُ
 الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ ، فَلَا يَرِثُ عَاصِبٌ بَعِيدٌ مَعَ وَجُودِ قَرِيبٍ ، فَإِذَا خَلَفَ بِنْتُ وَأَخًا وَعَمًّا ، فَلِلْبِنْتِ النِّصْفُ فَرَضًا
 ، وَالْبَاقِي لِلْأَخِ ، وَلَا شَيْءَ لِلْعَمِّ ، قَالَ أَصْحَابُنَا : وَالْعَصْبَةُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : عَصْبَةُ بِنْتِهَا وَابْنِهَا وَالْأَخُ وَابْنُهُ
 وَالْعَمُّ وَابْنُهُ وَعَمُّ الْأَبِ وَالْجَدُّ وَابْنُهُمَا وَنَحْوُهُمْ ؛ وَقَدْ يَكُونُ الْأَبُ وَالْجَدُّ عَصْبَةً ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُمَا فَرَضٌ ،
 فَمَتَى كَانَ لِلْمَيِّتِ ابْنٌ أَوْ ابْنُ ابْنٍ لَمْ يَرِثْ الْأَبُ إِلَّا السُّدُسَ فَرَضًا ، وَمَتَى لَمْ يَكُنْ وَلَدٌ وَلَا وَلَدُ ابْنٍ وَرِثَ
 بِالْعَصَبِ فَقَطْ ، وَمَتَى كَانَتْ بِنْتُ أَوْ بِنْتُ ابْنٍ أَوْ بِنْتَانِ ابْنٍ أَخَذَ الْبَنَاتُ فَرَضَهُنَّ وَلِلْأَبِ مِنَ الْبَاقِي السُّدُسُ
 فَرَضًا ، وَالْبَاقِي بِالْعَصَبِ ، هَذَا أَحَدُ الْأَقْسَامِ ، وَهُوَ الْعَصْبَةُ بِنَفْسِهِ .
 الْقِسْمُ الثَّانِي الْعَصْبَةُ بِغَيْرِهِ وَهُوَ الْبَنَاتُ بِالْبَنِينَ ، وَبَنَاتُ الْإِبْنِ بِبَنِي الْإِبْنِ ، وَالْأَخَوَاتُ بِالْأَخَوَةِ .
 وَالثَّالِثُ : الْعَصْبَةُ مَعَ غَيْرِهِ ، وَهُوَ الْأَخَوَاتُ لِلْأَبَوَيْنِ أَوْ لِلْأَبِ مَعَ الْبَنَاتِ وَبَنَاتُ الْإِبْنِ فَإِذَا خَلَفَ بِنْتُ وَأَخْتًا
 لِلْأَبَوَيْنِ أَوْ لِلْأَبِ فَلِلْبِنْتِ النِّصْفُ فَرَضًا وَالْبَاقِي لِلْأَخْتِ بِالْعَصَبِ ، وَإِنْ خَلَفَ بِنْتُ وَبِنْتُ ابْنٍ وَأَخْتًا لِلْأَبَوَيْنِ أَوْ
 أَخْتًا لِلْأَبِ فَلِلْبِنْتِ النِّصْفُ وَلِلْبِنْتِ الْإِبْنِ السُّدُسُ ، وَالْبَاقِي لِلْأَخْتِ . وَإِنْ خَلَفَ بِنْتَيْنِ وَبِنْتِي ابْنٍ وَأَخْتًا لِلْأَبَوَيْنِ أَوْ
 لِلْأَبِ فَلِلْبِنْتَيْنِ الثُّلُثَانِ وَالْبَاقِي لِلْأَخْتِ ، وَلَا شَيْءَ لِبَنْتِي الْإِبْنِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنْ فَرَضِ جِنْسِ الْبَنَاتِ وَهُوَ
 الثُّلُثَانِ . قَالَ أَصْحَابُنَا : وَحَيْثُ أُطْلِقَ الْعَصْبَةُ فَالْمُرَادُ بِهِ الْعَصْبَةُ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ كُلُّ ذَكَرٍ يُذَلِّي بِنَفْسِهِ بِالْقَرَابَةِ
 لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَيِّتِ أَثْنَى ، وَمَتَى انْفَرَدَ الْعَصْبَةُ أَخَذَ جَمِيعَ الْمَالِ ، وَمَتَى كَانَ مَعَ أَصْحَابِ فُرُوضٍ مُسْتَعْرِقَةٌ
 فَلَا شَيْءَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَعْرِقُوا كَانَ لَهُ الْبَاقِي بَعْدَ فُرُوضِهِمْ .
 وَأَقْرَبُ الْعَصَبَاتِ الْبُتُونُ ، ثُمَّ بَنُوهُنَّ ، ثُمَّ الْأَبُ ثُمَّ الْجَدُّ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَخٌ ، وَالْأَخُ إِنْ لَمْ يَكُنْ جَدُّ . فَإِنْ كَانَ جَدُّ

وَأَخَ فَيُفِيهَا خِلَافَ مَشْهُورٍ ، ثُمَّ بَنُو الْإِخْوَةِ ، ثُمَّ بَنُوهُمْ وَإِنْ سَفَلُوا ، ثُمَّ أَعْمَامُ الْأَبِ ، ثُمَّ بَنُوهُمْ وَإِنْ سَفَلُوا ، ثُمَّ أَعْمَامُ الْجَدِّ ، ثُمَّ بَنُوهُمْ ، ثُمَّ أَعْمَامُ جَدِّ الْأَبِ ثُمَّ بَنُوهُمْ ، وَهَكَذَا .

وَمَنْ أَذَلَّى بِأَبَوَيْنِ يُقَدَّمُ عَلَى مَنْ يُذَلِّي بِأَبٍ ، فَيُقَدَّمُ أَخٌ مِنْ أَبَوَيْنِ عَلَى أَخٍ مِنْ أَبٍ ، وَيُقَدَّمُ عَمٌّ لِأَبَوَيْنِ عَلَى عَمٍّ لِأَبٍ ، وَكَذَا الْبَاقِي ، وَيُقَدَّمُ الْأَخُ مِنَ الْأَبِ عَلَى ابْنِ الْأَخِ مِنَ الْأَبَوَيْنِ لِأَنَّ جِهَةَ الْأَخْوَةِ أَقْوَى وَأَقْرَبَ ، وَيُقَدَّمُ ابْنُ أَخٍ لِأَبٍ عَلَى عَمٍّ لِأَبٍ ، وَيُقَدَّمُ عَمٌّ لِأَبٍ عَلَى ابْنِ عَمٍّ لِأَبَوَيْنِ وَكَذَا الْبَاقِي . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
وَلَوْ خَلَفَ بَنَتَا وَأَخْتَا لِأَبَوَيْنِ وَأَخًا لِأَبٍ فَمَذْهَبَنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّ لِلْبَنَتِ النِّصْفَ ، وَالْبَاقِي لِلْأَخْتِ وَلَا شَيْءَ لِلْأَخِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لِلْبَنَتِ النِّصْفُ ، وَالْبَاقِي لِلْأَخِ ذُونَ الْأَخْتِ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ فِي الْأَبِ ظَاهِرٌ فِي الدَّلَالَةِ لِمَذْهَبِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَيُّ لِقَابٍ رَجُلٌ إِلَى الْمَيِّتِ . وَآكَدَهُ بَلْفُظٌ " الذِّكْرُ " لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ حُكْمٌ يَخْتَصُّ بِالذُّكُورِ ، وَلَا يَشْتَرِكُ فِيهَا الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ كَمَا قَالَ فِي الرِّكَاعَةِ { فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ } (١) .
وَلِيُّ الرَّحْمَنِ مُتَابِعٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

(١) - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ قَالَ أَخَذْتُ مِنْ ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ كِتَابًا زَعَمَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَتَبَهُ لِأَنَسٍ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ بَعَثَهُ مُصَدِّقًا وَكَتَبَهُ لَهُ فَإِذَا فِيهِ « هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمَنْ سَأَلَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِهَا فَلْيُعْطِهَا وَمَنْ سُئِلَ فَوْقَهَا فَلَا يُعْطِهَا فِيمَا ذُونَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْإِبِلِ الْغَنَمِ فِي كُلِّ خَمْسٍ ذَوْدٍ شَاةٍ فَإِذَا بَلَغَتْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ فِيهَا بِنْتُ مَخَاضٍ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِنْتُ مَخَاضٍ فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَثَلَاثِينَ فِيهَا بِنْتُ لَبُونٍ إِلَى خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ فِيهَا حِقَّةٌ طُرُوقَةٌ الْفَحْلُ إِلَى سِتِّينَ فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَى وَسِتِّينَ فِيهَا جَذَعَةٌ إِلَى خَمْسٍ وَسِتِّينَ فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَسِتِّينَ فِيهَا ابْنَتَا لَبُونٍ إِلَى تِسْعِينَ فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَى وَتِسْعِينَ فِيهَا حَقَّتَانِ طُرُوقَتَا الْفَحْلِ إِلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَإِذَا زَادَتْ عَلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ وَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ فَإِذَا تَبَايَنَ أَسْنَانُ الْإِبِلِ فِي فَرَائِضِ الصَّدَقَاتِ فَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْجَذَعَةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ جَذَعَةٌ وَعِنْدَهُ حِقَّةٌ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَهَا شَاتَيْنِ - إِنْ اسْتَيْسَرَتْ لَهُ - أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْحِقَّةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ حِقَّةٌ وَعِنْدَهُ جَذَعَةٌ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَيُعْطِيهِ الْمُصَدِّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْحِقَّةِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ حِقَّةٌ وَعِنْدَهُ ابْنَةُ لَبُونٍ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ » . قَالَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ هَاهُنَا لَمْ أَصْبِطُهُ عَنْ مُوسَى كَمَا أَحِبُّ « وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ - إِنْ اسْتَيْسَرَتْ لَهُ - أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ بِنْتُ لَبُونٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا حِقَّةٌ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ » . قَالَ أَبُو دَاوُدَ إِلَى هَاهُنَا ثُمَّ أَتَقَنَّتُهُ « وَيُعْطِيهِ الْمُصَدِّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ ابْنَةِ لَبُونٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا بِنْتُ مَخَاضٍ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَشَاتَيْنِ أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ ابْنَةِ مَخَاضٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا ابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا أَرْبَعٌ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا وَفِي سَائِمَةِ الْغَنَمِ إِذَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ فِيهَا شَاةٌ إِلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَإِذَا زَادَتْ عَلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فِيهَا شَاتَانِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ مِائَتَيْنِ فَإِذَا زَادَتْ عَلَى مِائَتَيْنِ فِيهَا ثَلَاثُ

شِيَاهٍ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ ثَلَاثِمِائَةٍ فَإِذَا زَادَتْ عَلَى ثَلَاثِمِائَةٍ فَفِي كُلِّ مِائَةٍ شَاةٌ شَاةٌ وَلَا يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ هَرَمَةٌ وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ مِنَ الْغَنَمِ وَلَا تَيْسُ الْغَنَمِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْمُصَدِّقُ وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَ مُفْتَرَقٍ وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ وَمَا كَانَ مِنْ خَلِيطَيْنِ فَإِنَّهُمَا يَتَرَا جَعَانٍ بَيْنَهُمَا بِالسَّوِيَّةِ فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ سَائِمَةَ الرَّجُلِ أَرْبَعِينَ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا وَفِي الرِّقَّةِ رُبْعُ الْعُشْرِ فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَالُ إِلَّا تِسْعِينَ وَمِائَةً فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا». سنن أبي داود (١٥٦٩) وهو صحيح

الجدعة : التي أتى عليها أربع سنين وطعنت في الخامسة = الحقة : هي التي دخلت في الرابعة = الذود : من الإبل ما بين الشنتين إلى التسع وقيل ما بين الثلاث إلى العشر
السائمة : التي ترعى في أكثر السنة = ابن لبون : ما أتى عليه سنتان ودخل في الثالثة فصارت أمه لبونا بوضع الحمل = بنت مخاض : ما دخل في السنة الثانية لأن أمه قد لحقت بالمخاض أى الحوامل = الهرمة : كبيرة السن = الرقة : الفضة

فَإِذَا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ هُوَ الْمُوَافِقُ الْمُتَابِعُ لَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيُبْغِضُهُ وَيُسْخِطُهُ، وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، كَانَ الْمُعَادِي لَوْلِيهِ مُعَادِيًا لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (١)(١) سورة الممتحنة .
فَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ عَادَاهُ، وَمَنْ عَادَاهُ فَقَدْ حَارَبَهُ فَلِهَذَا قَالَ: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ} (٢)

(١) - يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تتخذوا عدوي وعدوكم خلصاء وأحباء، تُفضون إليهم بالمودّة، فتخبرونهم بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، وسائر المسلمين، وهم قد كفروا بما جاءكم من الحق من الإيمان بالله ورسوله وما نزل عليه من القرآن، يخرجون الرسول ويخرجونكم - أيها المؤمنون - من مكة؛ لأنكم تصدقون بالله ربكم، وتوحدونه، إن كنتم - أيها المؤمنون - هاجرتهم مجاهدين في سبيلي، طالبين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، تُفضون إليهم بالمودّة سرّاً، وأنا أعلم بما أخفيتهم وما أظهرتم، ومن يفعل ذلك منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضلّ عن قصد السبيل.

(٢) - السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي - (ج ٣ / ص ٣٤٦) (٦٦٢٢) والبخاري (٦٥٠٢) بلفظ (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ)

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ١ / ص ٤١٥)

المعاداة: هي المباحدة وهي ضد الموالاة والولي بينه الله عز وجل في قوله ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون هؤلاء هم أولياء الله {الذين آمنوا} أي: حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به {وكانوا يتقون} أي حققوا العمل الصالح بجوارحهم فأتقوا جميع الحارم من ترك الواجبات أو فعل المحرمات فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان وصلاح الظاهر بالتقوى هؤلاء هم أولياء الله وليست ولاية

الله سبحانه وتعالى تأتي بالدعوى كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء الله وهم أعداء والعباد بالله فتجد في بعض البلاد الإسلامية أناسا يموهون للعامة يقولون نحن أولياء ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما يموه به على العامة وهو من أعداء الله لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال وإلى إكرام الناس له وإلى تقربهم إليه وما أشبه ذلك وعندنا والله الحمد ضابط بينه الله عز وجل وتعريف جيد للأولياء } وكانوا يتقون { هؤلاء هم أولياء الله فالذي يعادي أولياء الله يقول الله عز وجل فقد آذنته بالحرب يعني أعلنت عليه الحرب فالذي يعادي أولياء الله محارب لله عز وجل نسأل الله العافية ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة ثم قال سبحانه وتعالى ومن تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه يعني أن الله يقول ما تقرب إلي الإنسان بشيء أحب إلي مما افترضته عليه يعني أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل وأحب إلى الله من النوافل وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الإثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل ووجه ذلك أن الفرائض وكدها الله عز وجل فألزم بها العباد وهذا دليل على شدة محبته لها عز وجل فلما كان يحبها شديداً ألزم بها العباد أما النوافل فالإنسان حر إن شاء تنفل وزاد خيراً وإن شاء لم يتنفل لكن الفرائض أحب إلى الله وأؤكد والغريب أن الشيطان يأتي الناس فتجدهم في النوافل يحسنونها تماماً تجده مثلاً في صلاة الليل يخشع ولا يتحرك ولا يذهب قلبه يمينا ولا شمالاً لكن إذا جاءت الفرائض فالحركة كثيرة والوساوس كثيرة والهواجس بعيدة وهذا من تزيين الشيطان فإذا كنت تزين النافلة فالفريضة أحق بالتزين فأحسن الفريضة لأنها أحب إلى الله عز وجل من النوافل وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه النوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض فإذا أكثر الإنسان من النوافل مع قيامه بالفرائض نال محبة الله فيحبه الله وإذا أحبه فكما يقول الله عز وجل كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها يعني أنه يكون مسدداً له في هذه الأعضاء الأربعة في السمع: يسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضي الله وما فيه الخير والصلاة ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه ويكون ممن إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم كذلك أيضاً بصره: فلا ينظر إلا ما يحب الله النظر إليه ولا ينظر إلى الحرام ولا ينظر نظراً محرماً ويده فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله لأن الله يسدده وكذلك رجله فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله فلا يسعى إلا ما فيه الخير وهذا معنى قوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها أي أنه تعالى يسدد عبده هذا في سمعه وبصره وبطشه ومشيه فإذا كان الله سبحانه وتعالى مسدداً له في هذه الأشياء كان موفقاً مغتنماً لأوقاته منتهزاً لفرصه وليس المعنى أن الله يكون نفس السمع ونفس البصر ونفس اليد ونفس الرجل — حاش الله — فهذا محال فإن هذه أعضاء وأبعاد لشخص مخلوق لا يمكن أن تكون هي الخالق ولأن الله تعالى أثبت في هذا الحديث في قوله ولئن سألتني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه فأثبت سائلاً ومستولاً وعانداً ومعوذاً به وهذا غير هذا وفي قوله سبحانه وتعالى في هذا الحديث القدسي ولئن سألتني أعطيته دليل على أن هذا الولي الذي تقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل إذا سأل الله أعطاه فكان مجاب الدعوة وهذا الإطلاق يقيد بالأحاديث الأخرى الدالة على أنه يعطي السائل سؤاله ما لم يسأل إن شاء أو قطيعة رحم فإن سأل إن شاء فإنه لا يجاب لكن الغالب أن الولي لا يسأل إلا لثمة لأن الولي هو المؤمن التقى والمؤمن التقى لا يسأل إن شاء ولا قطيعة رحم ولئن استعاذني لأعيذنه يعني لئن اعتصم بي ولجأ إلى من شر كل ذي شر لأعيذنه فيحصل له بإعطائه مسؤوله وإعادته

مما يتعوذ منه المطلوب ويزول عنه المرغوب وفي هذا الحديث عدة فوائد: أولاً: إثبات الولاية لله عز وجل وولاية الله تعالى تنقسم على قسمين: ولاية عامة وهي السلطة على جميع العباد والتصرف فيهم بما أراد كل إنسان فإن الذي يتولى أموره وتديره وتصريفه هو الله عز وجل ومن ذلك قوله تبارك وتعالى { حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق } فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى { والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات } والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسبب من الإنسان الذي يتعرض لولاية الله حتى يكون الله ولياً له { الذين آمنوا وكانوا يتقون } ومن فوائد هذا الحديث: فضيلة أولياء الله وأن الله سبحانه وتعالى يعادي من عاداهم بل يكون حرباً عليهم عز وجل ومن فوائد هذا الحديث: أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة لأن الله تعالى قال ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضه عليه ومن فوائده: إثبات المحبة لله عز وجل وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض فالله عز وجل يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته ومن فوائد هذا الحديث: أيضاً أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك معافاً في جميع أموره لقوله تعالى في هذا الحديث القدسي: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ..

إلخ وفيه دليل أيضاً على أن من أراد أن يحبه الله فالأمر سهل عليه إذا أسهله الله عليه يقوم بالواجبات ويكثر من التطوع بالعبادات فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله ومن فوائد هذا الحديث: إثبات عطاء الله عز وجل وإجابة دعوته لوليه لقوله إن سألتني أعطيتك ولئن استعاذني لأعيزنه وأتني به المؤلف في باب الجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهاد في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

أفضل الأولياء الأنبياء والمرسلون

وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ هُمُ أَنْبِيَائُهُ، وَأَفْضَلُ أُنْبِيَائِهِ هُمُ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ، وَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ أُولُو الْعِزِّمِ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَعَالَى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } (١)(١٣) سورة الشورى، وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لَيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)(٢) } [الأحزاب/٧، ٨] .

أفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم

وَأَفْضَلُ أَوْلِي الْعِزْمِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ (٣)، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ (٤)

(١) - شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا شَرَعَ لِنُوحٍ ، وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَرْبَابِ الشَّرَائِعِ وَأُولِي الْعِزَمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَمَرَهُمْ أَمْرًا مُؤَكَّدًا مِمَّا هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ ، وَأَصْلُ الشَّرَائِعِ ، مِمَّا لَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ : كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ . وَقَدْ أَوْصَاهُمْ تَعَالَى جَمِيعًا بِإِقَامَةِ دِينِ التَّوْحِيدِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ ، وَبِحِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِيهِ زَيْغٌ أَوْ اضْطِرَابٌ ، وَبِأَلَّا يَتَفَرَّقُوا فِي أَصُولِ الشَّرِيعَةِ وَمَبَادِيهَا .

(أَمَّا فِي التَّفَاصِيلِ فَقَدْ جَاءَ كُلُّ مُرْسَلٍ بِمَا يُنَاسِبُ قَوْمَهُ وَزَمَانَهُ (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) . وَقَدْ شَقَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ، وَتَرَكَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ، وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ ، وَاللَّهُ يَصْطَلِفِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ ، وَيُؤَفِّقُهُمْ لِلْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ .

(٢) - يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُولِي الْعِزَمِ مِنَ الرُّسُلِ هُمْ خَمْسَةٌ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَحَمْدٌ وَأَنَّهُ تَعَالَى أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ ، وَعَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ فِي إِبْلَاحِ رِسَالَةِ اللهِ لِلنَّاسِ ، وَإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ، وَفِي التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } وَأَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ { وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ { فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِثْقَالًا غَلِيظًا ، عَظِيمَ الشَّانِ } .

وَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعَالَى الْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لِيَسْأَلَهُمْ عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ الْأُمَمُ الَّتِي أُرْسِلُوا إِلَيْهَا ، وَعَمَّا فَعَلَتْهُ الْأُمَمُ فِيمَا بَلَّغَهُ الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهَا مِنْ رِسَالَةِ رَبِّهِمْ ، وَلِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، لِيَكْفِيَهُمْ عَلَيْهِ ، وَلِيَسْأَلَ الْكَاذِبِينَ عَنْ كَذِبِهِمْ ، لِيُعَاقِبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

(٣) - قَالَ تَعَالَى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) [الأحزاب/٤٠، ٤١]

(٤) - فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٧٣٦٧) عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ فِي أَنَسٍ مَعَهُ قَالَ أَهْلَلْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَجِّ خَالِصًا لَيْسَ مَعَهُ عُمْرَةٌ - قَالَ عَطَاءٌ قَالَ جَابِرٌ - فَقَدِمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صُبْحَ رَابِعَةٍ مَضَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَلَمَّا قَدِمْنَا أَمَرَنَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ نَحِلَّ وَقَالَ « أَحِلُّوا وَأَصِيبُوا مِنَ النَّسَاءِ » . قَالَ عَطَاءٌ قَالَ جَابِرٌ وَلَمْ يَعْرِمْ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ أَحَلَّهُمْ لَهُمْ فَلَبَّغَهُ أَنَا نَقُولُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَرَفَةَ إِلَّا خَمْسٌ أَمَرَنَا أَنْ نَحِلَّ إِلَى نِسَائِنَا فَتَأْتِي عَرَفَةَ تَقْطُرُ مَذَاكِيرُنَا الْمَذَى قَالَ وَيَقُولُ جَابِرٌ بِيَدِهِ هَكَذَا وَحَرَكَهَا فَقَامَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ « قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرُكُكُمْ وَلَوْلَا هَدْيِي لَحَلَلْتُ كَمَا تَحِلُّونَ فَحِلُّوا فَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ » . فَحَلَلْنَا وَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (٢٤٤٠٢) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّ الْأَنْصَارِيَّ أَخْبَرَ عَطَاءً أَنَّهُ قَبَلَ امْرَأَتَهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ صَائِمٌ فَأَمَرَتْهُ فَسَأَلَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِنَّ رَسُولَ اللهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ » . فَأَخْبَرَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَ إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرَخِّصُ لَهُ فِي أَشْيَاءَ فَأَرْجِعِي إِلَيْهِ فَقَوْلِي لَهُ . فَرَجَعَتْ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَتْ قَالَ إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرَخِّصُ لَهُ فِي أَشْيَاءَ . فَقَالَ « أَنَا أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِ اللهِ » . وَهُوَ صَحِيحٌ

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ (١) ، وَإِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا اجْتَمَعُوا وَخَطَبِيَهُمْ إِذَا قَلُّوا (٢) ، صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ (٣) الَّذِي يَغِيْطُهُ بِهِ الْوَلُّوْنَ وَالْآخَرُونَ وَصَاحِبُ لَوَاءِ الْحَمْدِ (٤)

(١) - عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ حَدَّثَنِي أَبُو عَمَّارٍ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَرُّوخَ حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ » . صحيح مسلم (٦٠٧٩)

(٢) - عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « أَنَا أَوَّلُهُمْ خُرُوجًا ، وَأَنَا آخِرُهُمْ إِذَا قَاتَهُمْ إِذَا قَلُّوا ، وَأَنَا خَطِيْبُهُمْ إِذَا أَنْصَرُوا ، وَأَنَا مُسْتَشْفِعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا ، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيْسُوا ، الْكَرَامَةُ وَالْمَفَاتِيحُ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي ، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي ، يَطُوفُ عَلَى أَلْفِ خَادِمٍ كَأَنَّهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ أَوْ لَوْلُؤٌ مَنْثُورٌ » .

كثير ١٢/٧ ونوبة ٤٨٤/٥ و الإتحاف ٤٩٦/١٠ وجامع الأصول ٥٢٧/٨ وت (٣٦١٠) ومي ٢٦/١ (٤٩) وع (١٦٠) والسنة الحلال (٢٣٥) ومجمع ٢٥٤/٨ عبد الله بن سلام

حسن لغيره

(٣) - قال تعالى : {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} (٧٩) سورة الإسراء
(٤) - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ قَالَ فَيَفْرَغُ النَّاسُ ثَلَاثَ فَرَغَاتٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَأَنْتَ أَبُونَا آدَمُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . فَيَقُولُ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أَهْطُتُ مِنْهُ إِلَى الْأَرْضِ وَلَكِنْ ائْتُوا نُوْحًا . فَيَأْتُونَ نُوْحًا فَيَقُولُ إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً فَأَهْلَكُوا وَلَكِنْ اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ . فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ إِنِّي كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ » . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنْهَا كَذِبَةٌ إِلَّا مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِينِ اللَّهِ وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى . فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى . فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ إِنِّي عَبْدُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا قَالَ فَيَأْتُونَ فَيَنْطَلِقُ مَعَهُمْ » . قَالَ ابْنُ جُدْعَانَ قَالَ أَنَسٌ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « فَأَخَذَ بِحَلَقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأَقْعَقَهَا فَيَقَالُ مَنْ هَذَا فَيَقَالُ مُحَمَّدٌ . فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَجَّبُونَ فَيَقُولُونَ مَرْحَبًا فَأَخْرَجُوا سَاجِدًا فَيُلْهِمُنِي اللَّهُ مِنَ الشَّاءِ وَالْحَمْدُ فَيَقَالُ لِي ارْزُقْ رَأْسَكَ سَلِّ تُعْطُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعُ وَقُلْ يُسْمَعُ لِقَوْلِكَ وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) » . سنن الترمذی (٣٤٤١) وهو حديث حسن

و عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ جَلَسَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَنْتَظِرُونَهُ قَالَ فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ سَمِعَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَسَمِعَ حَدِيثَهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ عَجَبًا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ مِنْ خَلْقِهِ خَلِيلًا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . وَقَالَ آخَرُ مَاذَا بَأْعَجَبَ مِنْ كَلَامِ مُوسَى كَلِمَةً تَكْلِيمًا وَقَالَ آخَرُ فَعِيسَى كَلِمَةً اللَّهُ وَرُوحُهُ . وَقَالَ آخَرُ آدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ وَقَالَ « قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبْتُكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ كَذَلِكَ أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ

يَحْرُكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيَدْخُلُ فِيهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ .»
سنن الترمذى (٣٩٧٦) وهو حسن لغيره

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « إِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْ جُمُعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأُعْطَى لِرِوَاءِ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَإِنِّي آتَى بَابَ الْجَنَّةِ فَأَخَذَ بِحَلْقَتِهَا فَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا فَيَقُولُ أَنَا مُحَمَّدٌ. فَيَفْتَحُونَ لِي فَأَدْخُلُ ... » مسند أحمد (١٢٨٠٤) وهو صحيح

وَصَاحِبُ الْحَوْضِ الْمُرُودِ (١) وَشَفِيعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢)

(١) - عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُهُ أَيْضُ مِنَ اللَّيْنِ ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَكَيْزَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَطْمَأُ أَبَدًا » .

صحيح البخارى (٦٥٧٩) وأحاديثه متواترة

(٢) - قلت : ونؤمن بالشفاعة التي أذن الله تعالى بها لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فله في القيامة عدة شفاعات:

-أما الأولى: فشفاعته في أهل الموقف كي يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام عن الشفاعة حتى تنتهي إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَا جَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ يَا إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا. فَاسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي. فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرَجَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي. فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرَجَ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي. فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرَجَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّارِ. فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ ». قَالَ « ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَايَ وَعَظَمَتِي لِأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ». (أخرجه البخاري ومسلم) . وهي التي عنها القرآن الكريم بقوله تعالى : { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } (٧٩) سورة الإسراء

-وأما الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُرْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْهِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ وَهَلْ أَخْرَجَكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ -

قَالَ - فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى - صلى الله عليه وسلم - الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى - صلى الله عليه وسلم - فَيَقُولُ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى - صلى الله عليه وسلم - لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا - صلى الله عليه وسلم - فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَيَقُومَانِ جَنَّتِي الصِّرَاطُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ ». قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيْ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقُ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحُ ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرُ وَشَدَّ الرِّجَالُ تَجْرَى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَيْكُمُ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا - قَالَ - وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمِرَتْ بِهِ فَمَخْلُوشٌ نَاجٍ وَمَكْلُوسٌ فِي النَّارِ ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ يَدُهُ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا. (أخرجه مسلم) ،

- وأما الثالثة : فهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين؛ كما في شفاعته لعمه أبي طالب، فيكون في ضحضاح من نار؛ فعن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رضى الله عنه - أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - : مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضِبُ لَكَ . قَالَ : « هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » (أخرجه الشيخان) . لأنَّ الله أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ونبينا صلى الله عليه وسلم أخبر أن شفاعته لأهل التوحيد خاصة . فشفاعته لعمه أبي طالب خاصة به وخاصة لأبي طالب، وهذه الشفاعات الثلاث خاصة له عليه الصلاة والسلام .

- وأما الرابعة : فشفاعته فيمن استحق النار من الموحدين أن يخرج منها، أو لا يدخلها أصلاً ، وهذا النوع له صلى الله عليه وسلم ، ولسائر النبيين والصديقين والشهداء ونحوهم ممن أذن الله لهم، فيشفع فيمن استحقَّ النار ألا يدخلها، وشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، فعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ » (أخرجه البخاري) . وَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » . (أخرجه أبو داود) .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها لثبوت أدلتها وأنها لا تحقق إلا بشرطين :
الشرط الأول : إذن الله للشافع أن يشفع، كما قال تعالى : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } { الآية (٢٥٥) } البقرة ، وقوله تعالى : { مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } { الآية (٣) } من سورة يونس .
الشرط الثاني : رضا الله عن المشفوع له كما قال تعالى : { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } { الآية (٢٨) } الأنبياء ويجمع الشرطين قوله تعالى : { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } { الآية (٢٦) } النجم .

"وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ لَا جَاهَ لِمَخْلُوقٍ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ جَاهِهِ وَلَا شَفَاعَةَ أَعْظَمُ مِنْ شَفَاعَتِهِ . مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٤٥)
"وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهِيَ نَافِعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيَادَةِ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ قِيلَ إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعَةِ يُنْكِرُهَا . وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ مِنْ أُمَّتِهِ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ يَاحْسَنَ وَسَائِرِ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ
"مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٤٨)

وَصَاحِبُ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ (١) الَّذِي بَعَثَهُ بِأَفْضَلِ كُتُبِهِ (٢)، وَشَرَعَ لَهُ أَفْضَلَ شَرَائِعِ دِينِهِ (٣)

(١) - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ التَّدَاةَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَخْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . صحيح البخارى (٦١٤)

" . فَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةٌ . وَقَدْ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَهَا لِلرَّسُولِ وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ سَأَلَ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ فَقَدْ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فَلَمَّا دَعَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَحَقُّوا أَنْ يَدْعُوَهُ هُوَ لَهُمْ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعٌ مِنَ الدُّعَاءِ كَمَا قَالَ إِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا . "مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٢٠٠)

(٢) - قال تعالى : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَّخِذُوا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) } [الإسراء/٩-١١]

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نوااميس الكون الطبيعية ونوااميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة . ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكليف والطاقة ، فلا تشق التكليف على النفس حتى تملى وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً ، وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً ، وقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير خلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللاتق بعالم الإنسان .

ويهدي للتي هي أقوم في تبنى الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام وونام .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَّخِذُوا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)

فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثاني مقطوع لاركيته له . وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم . . وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان . الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له :
{ ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً } . .

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري . أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه . . فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادي الهادي؟

ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان ! اهـ في ظلال القرآن - (ج ٥ / ص ٨)

(٣) - قال تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى/١٣ ، ١٤]

خصائص الشريعة الإسلامية

حاجة الناس إلى النظم والتشريع

الكائن الإنساني مدني بطبعه لا بد له من الاجتماع مع بني جنسه، ولذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، إذ لا يتم للإنسان تحقيق حاجاته ومتطلباته المادية والنفسية إلا في ظل مجتمع من بني جنسه، فطعامه وشرابه ومسكنه، كل ذلك لا يمكن أن يقوم به وحده.. فقد لا يستطيع أن يكون مزارعاً وخبازاً وحداداً وحائكاً ومعلمًا وغير ذلك في وقت واحد، فكان من تدبير الله عز وجل للخلق أن سخر بعضهم لبعض وجعل بعضهم في خدمة البعض كما قال سبحانه وتعالى: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } (الزخرف: ٣٢) . قال بعض المفسرين: أي ليرتفع بعضهم بعمل بعض وينتفع بعمله. ولا تحصل هذه المنفعة وهذا التسخير إلا بالاجتماع، فإذا اجتمع الناس حدث بينهم الاختلاف والتنازع والتجاذب لما رُكِبَ في طبائعهم من حب الخير لأنفسهم واستئثار بعضهم عن بعض بالمنافع، فكان لابد من وازع يزرعهم عن التنازع والتكالب والتخاصم ويفصل بينهم ويبين لكل فرد حدوده وحقوقه وواجباته، فلا يطغى بعضهم على بعض ولا يبغي أحد على أحد.

والوازع المقصود هو النظم والتشريعات التي بموجبها يعرف كل فرد حقوقه وحقوق الآخرين فلا يعتدي عليها، ولا بد أيضاً من وجود سلطة تقوم بفرض النظم وإلزام الناس بها ومعاقبة الخارج عليها، وقد تعاهد الخالق العظيم عباده بالتشريعات المناسبة لهم في كل رسالة من الرسالات السماوية، وختم تلك الشرائع بشريعة سيدنا محمد عليه السلام.

أهمية النظام في الكون والحياة:

يمثل النظام في الكون والحياة ضرورة لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، وقد تكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم تكراراً يلفت النظر، وأكثر سور القرآن تستعرض الكون بأفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة، وأقسامه المعددة، وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة، وأنه محكوم بنظام بالغ الدقة، ويجري وفق سنن مطردة، وحوادثه السابقة واللاحقة تأتي وفقاً لإرادة الله الأزلية، ولا يشذ عنها حادثة من الحوادث لا في الزمان ولا في

المكان.. كما إنَّ التطور الذي يتم في الكون منضبط بنظام متقن متكامل.. متناسق مع نظام الحياة في غاية الإبداع.. فكل شيء في الحياة والكون مقدر وموزون ومحسوب، قال تعالى: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } (القمر: ٤٩) والسمة البارزة في عرض القرآن لموجودات الكون، أو ملكوت السموات والأرض، هي أن تعرض عرضاً متنوعاً يدعو الإنسان بإلحاح وتحفيز للنظر والتأمل والتفكير في مجرى حوادثها، والدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (فصلت: ٣٧)

ويدخل الإنسان ضمن مخلوقا تالله بدءاً ونهاية فدرأً وجماعة وأمة بل وأماً في منظومة الوجود ونواميسه وعقله وأسبابه ومسبباته، فالكل خاضع لله، ويتحرك في نظام سنة الله { كُلُّ لَه قَاتِنُونَ } (البقرة: من الآية ١١٦) ورد في سورة (يس) ما يبين أهمية النظام، وأن الكون والحياة تسير وفق نظام في غاية الدقة والإعجاز، قال تعالى: (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون).

كذلك الإنسان وهو ذلك المخلوق المكرم الذي استخلفه الله - جل وعلا - في الأرض وسخر له الكثير من ملكوت السموات والأرض ليحقق الرسالة التي أنيطت به، وليسير نحو الغاية التي خلق من أجلها: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (الذريات: ٥٦) فإنَّ هذه الرسالة وذلك التكليف لا يتأتى والغاية لا تتحقق في ضوء نظام يحدد مساره، وينظم علاقته، ويضبط أوضاعه، ويحل مسائله وقضاياها، وإلا سادت الفوضى وعمت الجهالة. وقد استفاضت الآيات الكريمة في عرض قصة آدم عليه السلام، بما يبين أهمية النظام للإنسان وأنه لا يمكن أن يجد النظام للملائم لفطرته والمتسق مع غايته والكفيل بإسعاده في الحياة الدنيا والآخرة إلا فيما جاء عن الله من الهدى، قال تعالى: ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتأب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى؟.

ويرى بعض المهتمين بدراسة التاريخ البشري ودراسة علم الاجتماع والنفوس والتربية، وكذلك النظم والتشريعات أن البشر قادرون على وضع التشريعات والنظم لقيام حياتهم وتحقيق وجودهم الإنساني المتميز، وينيطون ذلك بما وهبه الله للإنسان من عقل قادر على عمل ذلك.

ومهما كانت المسوغات والمبررات لهذا الرأي فإنَّ نهاية التحليل تصل إلى حقيقة مستقرة ومسلَّمة نهائية جوهرها ولها أن العقل البشري المجرد عن هداية الله وغير المتصل بوحيه تعالى إلى رسله لا يتأتى له ذلك بصفة شاملة كاملة مرتبطة بغاية وجود الإنسان ومتسقة مع حقائق الوجود، بل يقصر عن ذلك، وبيان أوجه قصوره في النقطة الآتية. قصور العقل البشري عن التشريع

للعقل منزلة عظيمة، وبه يتميز الإنسان عن كثير من مخلوقات الله، وقد أولى الإسلام العقل اهتماماً بالغاً وعناية كبيرة، وجاء في آيات كثيرة تنويه الإسلام بالعقل كقوله تعالى: (أفلا تعقلون)، وقوله: (أفلا يعقلون) ونحوهما،

فالعقل في الإسلام وسيلة إلى الإيمان، وهو مناطق التكليف، وبه يفهم الشرع وتكاليفه وأحكامه، وله مجالاته الواسعة وآفاقه العريضة التي سخرها الله للإنسان، ولكنه محدود بمحدود طبيعية ومقيد بضوابط كثيرة، وإذا كانت له مجالات واسعة يمكنه أ، يبدع في مضماتها، وله طرائقه المنطقية الصحيحة في كثير من قضايا الحياة وميادين الفكر فإنه غير قادر على تشريع نظام كامل شامل يكفل سعادة الإنسان ويحقق غاياته العليا في الحياة والوجود إلا إذا أعمل في ضوء الوحي وبهديه؛ وذلك لأوجه القصور الملازمة له وأهمها:

أولاً: قصوره من ناحية الزمن، فالإنسان مهما نضج عقله، وبلغ من القوة منتهاها في إطاره الإنساني إلا أنه محدود بمحدود زمنية وأخرى مكانية، لا يستطيع عقله تجاوزها أياً كانت عبقرية، أما الحدود الزمانية فعلى افتراض أن الإنسان علم بحاضره الذي يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضي بالدراسة والإطلاع فإنه لا يستطيع أن يدعي علم المستقبل، ومن الاستحالة على عقله علم ذلك، لهذا فإن النظام الذي تصدى لوضع وتشريعه لو صلح على سبيل الافتراض فسيكون صلاحه في إطار فترة زمنية محدودة، وكفي هذا الوجه من قصور العقل من الناحية الزمنية قادحاً في النظام الذي صدر عن عقل الإنسان؛ لأنه سيكون عرضة للجمود وعدم الصلاحية بمجرد مرور الزمن، فالعد يأتي بما لم يحيط المنظر بعلمه، وعندئذ يكون التغيير أمراً لا مفر منه، وقد يكون تغييراً شاملاً ومع التغيير المستمر يصبح النظام غير قادر على توفير الاستقرار والأمن النفسي للمجتمع لما يعتريه من التقلب المستمر والتضارب والتناقض؛ لأنه خضع لإطار زمني ضيق.

إن هذا القصور سمة لازمة للنظم البشرية، مما جعل الطريق غير مأمون على المجتمعات البشرية في ظل تنظيمها لنفسها.

ثانياً: قصور العقل البشري من الناحية المكانية حيث إن عقل الإنسان محدود بالمكان الذي يعيش فيه، والبيئة التي خضع لمؤثراتها بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وما يؤدي إليه ذلك من محدودية العقل وتركيزه على بيئته وجهله بالبيئات الأخرى. فإذا تصدى العقل البشري للتنظيم والتشريع فإن ما ينتج عنه لو صلح - افتراضاً - لبيئة لن يصلح لغيرها...، وعلى هذا لن تتحقق الوحدة المتوخاه في النظم تلك الوحدة التي تعد أساساً في الشريعة؛ لأن البشرية متحدة في أصولها وفطرته وغايتها، وإن تباعدت الأوطان واختلفت الألوان والألسنة والشعوب والقبائل، والوحدة مطلوبة لتعيش المجتمعات البشرية في سلام ووثام.

ثالثاً: قصور العقل البشري من حيث الإلمام بجميع الأطراف التي يتصدى لتنظيمها، وطبيعة من ينظم لهم، وتحقيق التوازن في ذلك كله؛ فالميل إلى طرف من الأطراف هي السمة الظاهرة على الفكر البشري، أو التركيز على جهة من الجهات، أو فكرة أو نزعة.. ونحو ذلك، استجابة لتأثير البيئة على المفكر، وتأثير النزعة التي تربى عليها، فمن ربي على نزعة مادية تطرف إليها وصار نحوها، ومن ربي على نزعة خيالية جنح إليها، وقد يميل المفكر إلى نزعة فردية ضد الجماعة، أو على حسابها، وقد يميل آخر إلى نزعة جماعية ضد مصلحة الفرد، لذلك فإن ما يصدر عن الإنسان من نظام سيصطبغ بصبغة ذلك الإنسان نفسه، ويكون انعكاساً لنزعاته وأهوائه وميوله.

وقد ألع ابن خلدون إلى ذلك حينما تحدّث عن الملكات وذكر: (أن من أحكم ملكه وأجادها ورسخت في نفسه لا يستطيع أن يجيد ملكه أخرى ويحكمها)، أي إن الإنسان لا يستطيع تحقيق التوازن وبلوغ درجة الإبداع حينما يتصدى للتنظيم، وهذا القصور لدى الإنسان يفرض عليه الميل في التفكير إلى فكرة يبدو له بريقتها ثم لا يجيد الوصول إليها، وعندئذ يختل التوازن في النظم البشرية، ولعل (مدينة أفلاطون) إحدى النماذج الدالة على قصور العقل البشري، إذ أراد الخير لمجتمعه وشرع في التنظير له، ولكن بحكم قصور العقل البشري ومحدودية تفكيره أفرز

نظاماً مدمراً حيث اشتمل نظامه ذلك على أن يقتل الأولاد الذين يولدون لآباء شريرين حتى يقضي على الشر في مجتمع الفاضل أو مدينته الفاضلة، وكان هذا النظام متأثراً بعقيدة باطلة تشريهاً (أفلاطون) من يئته التي تعتقد بتوارث الشر، فترسبت هذه العقيدة في سويداء قلبه ومال إليها تفكيره، وتلونت بها شخصيته، وبالتالي دبّت في نظامه فجاء نظاماً جائراً وتشريعاً ظالماً، وكان من الممكن أن ينحو الفكر البشري من هذه دبّت في نظامه فجاء نظاماً جائراً وتشريعاً ظالماً، وكان من الممكن أن ينحو الفكر البشري من هذه الأفكار الخاطئة والنظم الجائرة لو اهتدى بنور الوحي فالله تعالى يقول: (ولا تزروا وزارة وزر أخرى).

ونزعة أخرى ظهرت في نظام (أفلاطون) بحكم اعتماده على عقله بعيداً عن هداية الوحي، فقد تطرّف نظامه إلى النزعة الجماعية على حساب الفرد، وكان يرى (أنّ وجود أي منفعة شخصية لفرد يهدم منفعة المجموع، ولذا يجب أن تنهار المصالح الفردية ويقضى عليها... بحيث لا يجوز أن يكون لأي فرد في الأمة منفعة شخصية تتميز عن منفعة مجموعها).

إنّ (أفلاطون) أمّوذج من النماذج البشرية التي حاولت أن تنظم لمجتمعها استناداً على العقل البشري مستقلاً عن وحي الله فكان هذا التطرف الذي لم يستطع تحقيق التوازن بين المادية والروحية، ولا بين نزعة الفرد ومصلحة الجماعة، ولا بيت الواقع والخيال.

رابعاً: جهل الإنسان بحقيقته، إذا كان الإنسان الذي هو موضوع التنظيم، أو الأساس في التنظيم لا يزال مجهولاً عند نفسه فكيف يضع النظام الذي يكفل المحافظة على ضروراته ويلبي حاجاته ومتطلبات حياته بصفة شولية متوازنة؟! وكيف يؤمل فيه أن يكون مصيباً فيما يُشرع من نظام بمنأى عن الوحي الرباني الذي يصله بخالقه - عز وجل -.

إنّ جهل الإنسان بحقيقة نفسه وطبيعة حاله حقيقة قررها العلماء المعنيون بدراسة الإنسان، وعلى سبيل المثال فإنّ (الكسيس كاريل) وهو عالم مختص في مجال دراسة الإنسان، ألف كتاباً أسماه (الإنسان ذلك المجهول) أبان فيه أن الإنسان لا يفهم نفسه ككل، وهذا واضح في قوله: (لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن وعلى الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة - فقط - من أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسان ككل).

ويواصل حديثه مبيناً أنّ هناك قصوراً كبيراً في فهم الإنسان لطبيعته وأعماق نفسه، فيقول: (إننا نعرفه - أي الإنسان - على أنه مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة) ويؤكد فيما ذكر بأن معرفة الإنسان بنفسه ما زالت بدائية.

إنّ جهل الإنسان بنفسه كان السبب الأساسي في اختلاف النظرات إليه وتعدد مدارسها التي خيطت في قضاياه خيط عشواء، ففي حين ينظر إليه من خلال بعض تلك النظريات ومدارسها بأنه إله وأنه سيد الكون، ينظر إليه من خلال جانبه المادي ويصنف في منزلة تقترب من منزلة الحيوانات... وذاق الإنسان في ضوء هذه النظريات المتعارضة المتناقضة صنوفاً من المראה، وأصبح الإنسان في العصر الحديث يعيش في أزمة طاحنة، تحدث عنها كثير من المفكرين وصرحوا بها في كتابات متنوعة، منها على سبيل المثال: ما ذكره (تشارلز فريك) في قوله: (على الرغم مما حققه العصر الحديث من معجزات العلم والتكنولوجيا، إلا أن الثورة على الإنسان المعاصر الذي سيطر بعقله وعمله على الكون بدأت تشتد وتقوى، إذ أنه على الرغم من كل ذلك لم يحصل على السعادة ولا الطمأنينة، وما

زالت قيمه في تخطيط ووجوده مهدداً بالقلق).

جاءت هذه الأزمة التي تحدث عنها (تشارلز) وغيره من العلماء والمفكرين نتيجة طبيعية لاعتداء الإنسان بنفسه واعتماده على العقل فيما شرع لحياته من نظام لا يفي بمتطلبات الناس بصفة تكفل لهم السعادة المنشودة وتسجم مع غاياتهم العليا ومنطلقاتهم الحقيقية لذلك أصبحت حياة الإنسان، وفي ظل تلك النظم متأزمة، وتحقق فيها قول الله - عز وجل - : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى).

لحظة موجزة عن حال الأمم في ظل بعض النظم البشرية

تعجز تشريعات البشر ونظمهم عن إسعاد الإنسان وتحقيق غايات وجوده ونشاطه الحضاري الشامل إذا انقطعت عن وحي الله وهدايته سواء في القديم أو الحديث.

أمّا في القديم فهناك ثلاثة أمثلة تبين بجلاء أن الأمم في ظل النظم التي وضعتها عقول البشر لم تكن إلا الفوضى والقلق والاضطراب والظلم والجور:

الأول: النظام الروماني، فقد كان للمجتمع الروماني قانون منظم يوصف بأنه متقن في الصياغة والسيادة، وذلك في

القرن الخامس الميلادي وهو المشهور باسم (مدونة جوستينان)، فماذا قدم هذا القانون للمجتمع الروماني؟

لقد حمى الأشراف وقرر لهم حقوقاً ليست للضعفاء، ومّا قرره الآتي:

- إن بعض الرعايا ممن ليسوا روماناً بالسلالة ليست لهم حقوق الرومان فهم كالعبيد يعملون لأجل الرومان، ولتشبع بطونهم.

- إن العبيد لا يعاملون معاملة الآدميين.

- ليست للمرأة شخصية مستقلة بل هي في حكم المملوكة للرجل أباً كان أم زوجاً.

- تجميع الميراث في قريب واحد ويحرم منه الباقون.

فهذا النظام ليس مقتصرأ على إنه طبقي فحسب بل يسلب حقوق الضعفاء ليزدادوا ضعفاً، ويعطيها الأقوياء ليزدادوا قوة على قوتهم.

الثاني: النظام الفارسي، ارتكز هذا النظام على دعوة دينية تعتمد تعاليم (زرادشت) وهي القول بتعدد الآلهة، أو إله

الخير وإله الشر، وما انبنى على هذه العقيدة الفاسدة من الشريكات والتصورات الباطلة، كان من أبرزها دعوة

(ماني) إلى التشاؤم المطلق، فقد دعا إلى فناء الإنسانية ليتخلص العالم من شرورهم، ثم أعقبه (مزدك) فزعم أن آثار

المباغضة والعداوة المستمرة بين الناس، إنما تقع بسبب الأموال والنساء، فدعا إلى شيوعية الأموال والنساء حتى

صار الرجل لا يعرف والده، ولا المولود يعرف أباه، ولا يملك شيئاً، فأنهار المجتمع الفارسي بهذه الفوضى العارمة.

الثالث: الأعراف الجاهلية أو النظام الجاهلي في الجزيرة العربية : لم يكن العرب أسعد حالاً قبل الإسلام من غيرهم،

ولم يكن لهم نظام جامع ولا وحدة تضمن شتات قبائلهم، وإن كانت القبيلة تخضع لكبير منها يفضل في النزاع

الناشب بين أفرادها ونحو ذلك، وكان لهم جملة من الصفات الحميدة ومكارم الأخلاق، ولكن كانت العلاقات بين

الناس يسودها الظلم والجهل والنفكك والثارات القبلية، والتبعية للأمم الأخرى الجاورة لهم من فرس وروم،

وكانت عصبية الجاهلية تسطير على المشاعر والمواقف، يقول الشاعر العربي:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويقول الآخر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ولما جاء الإسلام فحض العرب برسالة الإسلام فأصبحوا قادة العالم وأعلام الهداية، وجنود الحق والوحيد، في ظل شريعة الإسلام الخالدة التي قام عليها تميز الأمة الإسلامية.

رابعاً: حال المجتمعات الغربية غير الإسلامية: أما حال المجتمعات والأمم غير الإسلامية في العصر الحديث، تلك التي اعتمدت على العقل وتنكرت للدين وأهميته في سعادة الإنسان فإنها بما فيها من مذاهب فكرية متصارعة، ونظم متباينة إنما تعود في جذورها إلى ثقافات قديمة وتطبيقات جديدة شقي بها الإنسان في ظل القوانين الوضعية المختلفة، يقول (اللو كس هكسلي): (إنَّ العالم - الآن - يشبه قبيلة تعبد الشيطان، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحق، والمادية البحتة، التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حُبِّ بلا تعاطف، وتقوم على تبادلات الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة).

واعترف (جاك مارتين) بأهمية الوحي في تنظيم حياة البشر، ودعا إلى الاعتراف بعجز الإنسان عن وضع النظم الكفيلة بإسعاده وإخراجه من الأزمة المعاصرة، يقول: (إنَّ أيَّ مجتمع بشري يحتاج إلى الإنسان نفسه، وإلا سيكون طرفاً وقاضياً في الوقت نفسه، إذن لا بدَّ لكي يحتفظ المجتمع البشري باستقراره وخضوعه للسلطة السياسية، ومن وجود حقائق مطلقة يسلم بها الأفراد جميعاً).

وقال عالم القانون الشهير (جورج هوايت كروس باتون): (إنَّ السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليها هو الاعتراف بالوحي السماوي قانوناً).

إنَّ هذه الأقوال تلتقي مع الرأي الذي يعول على الوحي والدين السماوي في قضية التشريع، وأنَّ البشرية من فجر تاريخها اعتمدت على الشريعة الإلهية: (فالحقيقة أن تنظيم الحياة البشرية هو من المفاتيح العليا المقدسة لهذه الحياة، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليترك الناس عرضة للخطأ فيها وللتجارب الأليمة، فإنه في كل مرة يعدل الناس عن نظام إلى آخر تقوم الثورات والحروب والنكبات، وتراق الدماء، وتصادر الأموال، وتضطرب الأمور، ويقسم الناس، ولذلك فقد أهدى الله هذه الهدية الغالية، وهي بيان نظم حياتهم).

ومن هنا يتضح (أنَّ الدين منذ القدم ضرورة اجتماعية، والوازع الديني أقوى حافز على احترام القواعد التنظيمية في أية جماعة؛ ومنذ وجدت الجماعات البشرية اتجهت إلى السمو عن طريق النزعات الدينية)، (وأنَّ الديانات السماوية بدأت منذ بدء الخليقة، فالله سبحانه وتعالى منذ استخلف آدم على الأرض أوحى إليه أنه هو خالقه وبارئه، وخالق العوالم الأخرى من إنس وجن وحيوان وموجودات، وخالق الكون كله، كما أوحى إليه بمحدود خلافته وذريته في الأرض، وبالقدر اللازم لتنظيم حاجتهم كجماعة بدائية)، فالدين بشطريه (العقيدة الشريعة) أتى الإنسان من عند الله وظلَّ على عقيدة التوحيد وشريعة الرحمن إلى حين. ثمَّ اقتضت حكمة الله أن ينشب الصراع بين الجاهلية والإسلام، وكلما استحكمت الجاهلية أو كادت بعث الله رسولاً يعيد الناس إلى شريعة الله حتى جاء خاتم الأنبياء وسيد المرسلين بالهدي التام والشريعة الكاملة، فكان منة الله على الأمة الإسلامية، قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)، ومما جاء في تفسيرها: (أنَّ الحكمة هي السنة، التي هي شقيقة القرآن، ووضع الأشياء موضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفيذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففارقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين وكانوا من العلماء الربانيين). تبينت ممَّا سبق أهمية النظام في الكون والحياة وحاجة البشر إلى ذلك، واتضح عجز الإنسان عن الإتيان بتشريع يوافر له الشمول والكمال الذي يكفل للإنسانية ما يسعدها وينسجم مع غايتها العليا وحقيقة وجودها، وتبين بالأدلة ضرورة الوحي الرباني وأهميته

للاضطلاع بهذه المهمة، ومن أبرز ما يجلي ذلك هو ما وقع في تاريخ الإنسانية حيث كانت شريعة الله هي المنهاج الذي سلكه الرسل عليهم السلام وأتباعهم على مر العصور حتى جاءت شريعة الإسلام فكانت - هي مسك الختام - كاملة لا يعتريها نقص، شاملة لا يلحقها قصور.

وفي هذا يقول الشاطبي: (إنَّ هذه الشريعة المباركة معصومة، كما أنَّ صاحبها صلى الله عليه وسلم معصوم، وكما كانت أمته فيما اجتمعت عليه معصومة)، وساق الأدلة على ذلك، وصنفها على وجهين:
الأول: ما دل على ذلك تصريحاً أو تلويحاً، واستدل بآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وكقوله تعالى (كتب أحكمت آياته)، وقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)، واستدل على هذا الوجه - أيضاً - ببعض أقوال السلف وما صاحب نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم وصونه عن تخليط الشياطين على الرسول صلى الله عليه وسلم واستراقهم السمع.

الثاني: ما توافر للأمة الإسلامية من وعي وفكر وعمل ونحوها من دواعي المحافظة على الشريعة والذب عنها بدءاً بعنايتها بالقرآن الكريم وعلومه والسنة النبوية وعلومها، واللغة العربية وعلومها، وفي ذلك قال: (الاعتبار الوجودي الواقع من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن، وذلك أن الله عز وجل وفر دواعي الأمة للذب عن الشريعة والمناضلة عنها بحسب الجملة والفصيل).

أمَّا القرآن الكريم فقد قيض الله له حفظه بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأبطال الأصاغر، فضلاً عن القراء الأكابر، وهكذا جرى الأمر في جملة الشريعة، فقيض الله لكل علم رجلاً يحفظه على أيديهم).
وتختص الشريعة الإسلامية إلى جانب ذلك بخصائص كثيرة جعلت منها نظاماً يصلح لكل زمان ومكان ويعملوا ولا يعلى عليه، من أهم هذه الخصائص الآتي:

أولاً: تنبثق الشريعة في الإسلام من عقيدة التوحيد الخالص لله وترتبط بها وتلازمها؛ لذلك فإنَّ ما سبق ذكره، من أنَّ الشريعة تطلق على مجموعة الأنظمة والقوانين إذا اتصفت بالانسجام لانبعاثها عن روح واحدة لا ينطبق إلا على الشريعة الإسلامية عند التحقيق؛ لأنها صادرة عن الله وانبثقت من عقيدة التوحيد التي تميزت عن سائر العقائد برؤيتها الشاملة للكون والحياة ولا يمكن أن يتحقق الانسجام التام في جميع النظم إلا في الشريعة الإسلامية، حيث لا يقتصر شمولها على تناولها جوانب حياة الإنسان ديناً وآخرة - فحسب - بل ينسجم مع سياق النظام الشامل للكون والحياة.

أمَّا من حيث ارتباطه بالعقيدة فإنَّ الآيات الواردة في تقرير أمور العقيدة كثيراً ما تناول قضية الحقوق والواجبات والأخلاقيات والآداب مثل قوله تعالى: ؟ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذواً قربىً واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون؟.

قال بعض المفسرين في تفسيرها: (دخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عبادة والتزموها، دخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد...).

وعندما ينطق المسلم: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، (تأتي أهمية الشهادة الثانية خطورتها وضرورتها وهي محمد رسول الله، فمعناها عهد من الناطق بها على أنه يلتزم بالخضوع لله حسب ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

فقط، ونبد كل ما على الأرض من أساليب الخضوع لله كانت وضعية أو سماوية لأن ذلك كله باطل من ناحية، كما أنه من الناحية العملية لا يحقق إفراد الله تعالى بالخضوع، كما لا يحقق الخضوع التام للاتق بألوهيته تعالى، لذلك لا تنفصل الشهادتان عن بعضهما، فلو أخذ فرد أو مجتمع الشهادة الأولى: "لا إله إلا الله" وترك الثانية، لما كان موحداً ولما أفرد الله بالألوهية ولما قصر الخضوع له إلا قولاً فقط، وشأنه شأن الظمان الذي يرد أن يرتوي بالاقْتِصَار على التلَفُظ بكلمة ماء. فلا سبيل ولا كيفية عملية لإفراد الله تعالى بالألوهية أو لتحقيق الشهادة الأولى إلا بالإيمان والعمل بمقتضى الشهادة الثانية "محمد رسول الله"، أي قصر التلقي والطاعة على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ورفض التلقي عن غيره والطاعة لمن سواه، باعتباره المبلغ الوحيد عن الله ولديه الوحي الأخير الذي لم يصبه تغيير أو تشويه أو تحريف، ففي الشهادة الأولى نبذ للأديان الوضعية والمذاهب الفلسفية والنظم الاجتماعية الجاهلية؛ لأن إفراد الله بالألوهية هو رفض الخضوع لغير أمره وتنظيمه، وفي الثانية، نبذ للأديان السماوية الخرفة التي تدعي نسبتها لله سبحانه وتعالى كاليهودية والنصرانية).

ومن مقتضى شهادة "محمد رسول الله" تنبثق الشريعة الإسلامية (فالعلاقة بين العقيدة والنظم في المجتمع المسلم علاقة وطيدة وثيقة... ولذلك لا يوجد مجتمع مسلم بدون عقيدة التوحيد الإسلامية، ولو تغيرت عقيدة التوحيد لانتهدت النظم الإسلامية، أو أصابها التغير بقدر الانحراف عن التوحيد في نفوس الأفراد.. كما أنه من الخطأ البين وصف مجتمع بأنه مسلم.. أو موحد دون أن تكون نظمته إسلامية، أي دون تطبيق الشريعة الإسلامية في شتى جوانب حياته).

وأما من حيث الانسجام مع النظام الشامل للكون والحياة، (فإن جميع الموجودات في هذا العالم – من أكبر الأجرام الفلكية إلى أصغر الذرات – يخضع كل منها لقانونه الخاص الذي ينبع من ماهيته الذاتية ووجود الخاص كما أن هذا العالم المخلوق ككل وفي مجموعه يخضع أيضاً لناموس كلي يسير حسب أيضاً.. وإلى تلك الربوبية الشاملة للكون المخلوق تشير الآية الأولى من فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين)... فكل شيء في الكون خاضع لقاعة معينة، ويسير في نشأته ونموه وفنائه حسب هذه القاعدة، سواء فلكاً أو جبلاً أو بحراً أو حيواناً أو إنساناً، وهذا معنى قوله تعالى: (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)... [ومما تعنيه أيضاً] الكفالة والإصلاح والإدارة وتسيير الأمور وتنظيمها والسيادة والحكم وحيازة السلطة والأمر النافذ...، والإيمان بالربوبية يقتضي بالضرورة إفراد الله سبحانه وتعالى بالتشريع والتدبير والتنظيم في حياة البشر الفردية والاجتماعية وذلك يعني رفض أي نظام جاهلي وضرورة الاقتصار على النظام الاجتماعي الإسلامي، وموحد الربوبية هو من يرفض أن يتعامل مع الناس بغير التشريع الإلهي).

ثانياً: أنها ملزمة ولا يصح لأحد الخروج منها، قال الله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)، وقال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يحملوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)، وورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكل من مسؤول عن رعيته...".

والآيات الواردة في ذلك والأحاديث مستفيضة؛ قال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك...) (الآية: (أقسم سبحانه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكم بمجرد حتى ينفي عن صدورهم الحرج والضيق بقضائه وحكمه، ولم يكتف منهم بذلك أيضاً حتى يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً).

وذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من نواقض الإسلام: (الاعتقاد بأن غير هدي الإسلام أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه،... ومن اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم). ومقتضى ذلك أن تكون ناسخة لما قبلها، كقيلة بإيجاد الحلول الملائمة لكل ما يجد في حياة الأمة الإسلامية من قضايا ومشكلات.

ثالثاً: الثواب والعقاب في الشريعة الإسلامية دنيوي وأخروي:

تقتزن الأنظمة البشرية جزاء توقعه عندما يقتضي الأمر ذلك في حق من يخرج عليها وتتعدد صور ذلك الجزاء ولكنه جزاء دنيوي، أمّا الشريعة الإسلامية فإنها (تختلف معها في أن الجزاء فيها أخروي ودنيوي، بل أن الأصل في أجزيته هو الجزاء الأخروي، ولكن مقتضيات الحياة، وضرورة استقرار المجتمع، وتنظيم علاقات الأفراد على نحو واضح بين مؤثر، وضمان حقوقهم، كل ذلك دعا إلى أن يكون مع الجزاء الأخروي جزاء دنيوي...). والأمثلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى بعد ذكر أحكام المواريث: ؟ تلك حدود الله سورة النساء ١٣، ١٤. إلى عذاب مهين؟، وفي أجزاء قطاع الطريق قال تعالى: ؟ إنما جزاء الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم جزاء في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم؟، ومما يترتب على الجزاء في الشريعة الإسلامية الخضوع لأحكامها (خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقاب الله) في حالة النهي والتحذير والطمع في الثواب في حالة الأمر والندب، إلى جانب ما يبعثه الجزاء في النفوس (من الهيبة والتأثير).

رابعاً: الشمول والإحاطة: فما من عمل يعمل الإنسان أو قول يقوله إلا والشريعة الإسلامية قد اتخذت منه موقفاً بعينه، تأمر به أو تنهى عنه، أو تندب إليه أو تكرهه، أو تجعله من المباحات ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال، صغيرها وكبيرها مما تعنى به الشريعة الإسلامية أشد عناية حتى تلك الأمور التي يهتدي إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس تضع الشريعة لها حدوداً وترسم لها أبعاداً، وما من علاقة تسود المجتمع بين أفرادها، أو المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى إلا وضعت الشريعة لها نظاماً وحددت لها آداباً، وما من قضية تصل بنظام الاجتماع الإنساني، من سياسة أو اقتصاد أو إدارة إلا وبينت الشريعة الإسلامية فيها الرأي الصائب والموقف السديد)، قال تعالى: ؟ ما فرطنا في الكتاب من شيء؟، وقال تعالى: ؟ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء؟.

وانطلاقاً من هذا الشمول وتلك الإحاطة قسم بعض العلماء اليوم الآخر...، وهذه هي الأحكام الاعتقادية، ومحل دراستها في علم الكلام أو التوحيد.

والثانية: الأحكام المتعلقة بالأخلاق كوجوب الصدق والأمانة والوفاء بالعهد، وحرمة الكذب والخيانة ونقض العهد، وهذه هي الأحكام الأخلاقية ومحل دراستها في علم الأخلاق والتصوف.

الثالثة: الأحكام المتعلقة بأقوال وأفعال الإنسان في علاقاته مع غيره، وهذه هي الأحكام العملية وقد سميت فيما بعد بـ(الفقه) ومحل دراستها أعلم الفقه.

والأحكام العملية بالنسبة إلى ما تتعلق به تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العبادات كالصلاة والصوم، والمقصود بها تنظيم علاقة الفرد بربه.

القسم الثاني: العادات أي المعاملات، وهي التي يقصد بها تنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، وهذه تشمل جميع

روابط القانون العام والخاص في الاصطلاح الحديث...).

ولا يعني هذا التقسيم أو أي تقسيم نحوه استقلال جانب عن غيره من جوانب الشريعة بل تتسم بالإحاطة والشمول من جانب آخر وهو (شمول الأخذ والتطبيق فمن خصائصها أنها لا تقبل التجزئة لأنها كل مترابط متداخل، كترابط الإنسان وتداخله في كيان واحد)، يؤثر بعضه في بعضه الآخر، ولا يصح (أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه؛ لأنه كل متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحال، ولا يستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله أو محل بعضه أو يشاركه في تحقيق مصالح الناس).

وقد أنكر الله على الذين يلتزمون ببعض أحكام الشريعة ويطبقونها ويفرطون في بعض أحكامها الأخرى ولا يلتزمون بها، بل ربما عملوا بضدها، فقال تعالى: ؟ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ؟.

قال ابن كثير في تفسيرها: (يقول الله تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج... فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعدائه، وقد يقتل اليهودي الآخر... وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم... ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة)، فدل ذلك على أن الشريعة لا تقبل التجزئة، وأنها ملزمة ومرتبطة بالإيمان.

خامساً: أنها مبنية على مصالح العباد:

قال ابن قيم الجوزية: (هذا فضل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب للمصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبنية وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم آتم دلالته وأصدقها وهي نوره الذي أبصر به المبصرون، هده الذي اهتدى به المهتدون، وشفأؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم). وقال العز بن عبد السلام: (والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاصد أو تجلب مصالح، والمستقرى لأحكام الشريعة الإسلامية يخلص إلى هذه النتيجة من وجوه:

الأول: أن رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم بعامة جاءت رحمة للعالمين، قال تعالى: ؟ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين؟، فيدخل في ذلك ضمناً (رعاية مصالح العباد ودرء المفاصد عنهم).

الثاني: مجيء أحكام الشريعة - في جملتها - معللة بكونها تحقق مصالح الأمة وتدرأ عنهم المفاصد، كقوله تعالى: ؟ ولكم في القصاص حياة يا أولي الأبالب؟، وكقوله تعالى: ؟ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم؟، وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج"، هذه الأحكام في مجملها لم تأت في مواد محددة تنص على فعل أو ترك وإنما جاءت معللة بما به حياة النفوس وذكر الغاية من التشريع وأنه في مصلحة الأمة إما بجلب مصلحة أو دفع مفسدة في العاجل أو الآجل (لإعلام المكلفين إن تحقيق المصالح هو مقصود الشارع).

الثالث: اتسام أحكام الشريعة باليسر ورفع الحرج، ومن الأمثلة على ذلك (تشريع الرخص عند وجود مشقة في تطبيق الأحكام من ذلك إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها حفظاً لمصلحة في رمضان للمسافر والمريض ونحو ذلك. ولا شك أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة).

ومن يسر الشريعة التدرج في التشريع والتمهيد له وتخفيف بعض الأحكام بالنسخ ونحوه. وقد توصل الفقهاء إلى وضع ضوابط فقهية تنطلق في مجملها، وتتسم تفاصيلها باليسر ورفع الحرج عن المكلفين، وخصصوا لها تَباً مستقلة من أبرزها (كتاب تأسيس النظر للدبوسي الحنفي، وكتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبد السلام الشافعي، وكتاب القواعد لابن رجب الحنبلي)، (والقواعد الفقهية.. تصوير جميل للمبادئ الفقهية وضبط الفروع، وقد اكتسبت هذه القواعد صياغتها عن طريق التداول بين الفقهاء).

ومن أبرز هذه القواعد الآتي:

– اليقين لا يزول بالشك.

– المشقة تجلب التيسير.

– الضرر يزال.

– العادة محكمة.

الرابع: التفاوت في النظر إلى الأحكام وتقسيمها من حيث مقاصدها، (وجد بالاستقراء أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها، وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضرورات هي "حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل"، .. والحاجيات هي التي يحتاج إليها الناس ليعيشوا يسر وسعة، وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يلحق "المكلفين – على الجملة – الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة... أما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المندسات التي تأفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"، ... وإذا فاتت هذه – أيضاً – فلا يختل نظام الحياة ولا يصيب الناس حرج ولكن تخرج حيالهم عن النهج الأقوم وما تستدعيه الفطر السليمة والعادات الكريمة، والشريعة جاءت لتحقيق وحفظ الضروريات والحاجيات التحسينات، وبهذا حفظت مصالحهم).

وبناء على ذلك فإن الأحكام الشرعية تتفاوت بصفة وأخرى بحسب درجة تلك المقاصد، وتسعى لتحقيقها في عامة الأمة (بدون حرج ولا مشقة، فتجمع بين مناحي مقاصدها في التكاليف والقوانين مهما تيسر الجمع، فهي ترقى بالأمة من الأدون من نواحي تلك المقاصد إلى الأعلى بمقدار ما تسمح به الأحوال وتيسر حصولها وإلا فهي تتنازل من الأصعب إلى الذي يليه مما فيه تعليق الأهم من المقاصد)، وهذا الوجه يسهم في (دوام أحكام الشريعة للعصور والأجيال).

ومهما تشعبت آراء الفقهاء في تفاصيل المقاصد وتطبيقاتها إلا أن هناك قدراً مشتركاً – في الأعم الأغلب – فيما بينهم حول (أهمية الاعتماد على الكليات التشريعية وتحكمها في فهم النصوص الجزئية وتوجيهها، وهو نوع من رد المتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، فكليات الشريعة ومقاصدها العامة، هي أصول قطعية لكل اجتهاد، ولكل تفكير إسلامي).

ويرى بعض الباحثين أن ما أقدم عليه علماء الأمة بعد الصدر الأول من تاريخها من (بيان علل الأحكام وغايات الإسلام مقاصد الشريعة وأهدافها، فبيّنوا أن لكل حكم من أحكام الإسلام وظيفة يؤديها وغاية يحققها وعلّة ظاهرة

أو كامنة يعمل لإيجادها، ومقصداً وهدفاً يقصده ويستهدفه لتحقيق مصلحة للإنسان أو دفع مفسدة ومضرة عنه)، إن ذلك كله وما دار في إطاره يمكن الاعتماد عليه كمنهج في فهم الشريعة الإسلامية وبخاصة ما تميز به الشاطبي في هذا للضمار، وأن ما سمي بـ(نظرية المقاصد عند الشاطبي) يمكن أن يعاد لها الاعتبار (ولابد من وضعها في المقام الأول، ثم يرتب ما عدها عليها. وهذه خطوة ضرورية لإعادة تشكيل العقل المسلم، ولإعادة ترتيب موازينه وأولوياته، ذلك أن من أهم مظاهر أزمة العقل المسلم: اختلال الموازين والأولويات التي وضعها الإسلام في نصابها، فوقع فيها - على مر العصور - تقديم وتأخير، وتخمين وتقزيم، على خلاف وضعها الحق).

وفي ختام هذا يحسن أن نربط بين الشريعة الإسلامية بخصائصها ومنطلقاتها وغاياتها وبين ما قاله ابن منظور في معناها اللغوي من أن (العرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدا لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يسقي بالرشاء)، فإن المعنى متحقق في الشريعة الإسلامية وهي بخصائصها التي سبق شرح مجملها تعد القمة في تاريخ الأمم والشرائع عندما أنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وسيد المرسلين قوله تعالى: ؟

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (المائدة: ٣) ، وكانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم النموذج الأمثل في تطبيق الشريعة، والسلطة السياسية التي تنفذه وتشرف على تطبيقها؛ دستوراً كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم سارت الأمة الإسلامية منذ عهد الصحابة والسلف الصالح وحتى العصر الحاضر وإلى أن يأتي أمر الله في ظل هذه الشريعة الخالدة، (ومن الحقائق المسلمة أن الشريعة الإسلامية قد وضعت العالم الإسلامي كله على تنائي أطرافه، وتعدد أجناسه، وتنوع بيئاته الحضارية، وتجدد مشكلاته الزمنية... وأنها - بمصادرها ونصوصها وقواعدها - لم تقف يوماً من الأيام مكتوفة اليدين، أو مغلوطة الرجلين، أمام وقائع الحياة المتغيرة.. ولها ظلت القانون المقدس الممول بما تشريعاته الوضعية...، ثم استمرت بعض تلك القوانين كأثر من آثار الاستعمار ولأسباب أخرى، منها الاعتماد على بعض التأويلات للنصوص الشريعة التي تنص على وجوب تطبيق الشريعة بما يبرر هذا الواقع، ومنها الجهل بمكانة الشريعة وشمولها وكمالها، ومنها التأثير بالثقافة الغربية والغزو الفكري ومخططات أعداء الأمة الإسلامية.

على أن هناك أسباباً أخرى تعود لما أصاب الفقه الإسلامي في بعض أطواره من (الضعف والركود والتوقف عن سيره الأول شيئاً فشيئاً، [والجنوح] إلى التقليد والتزام مذاهب معينة لا يجيد عنها ولا يميل حتى وصل الحال إلى الإفتاء بسد باب الاجتهاد).

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أنه على الرغم من هذا الواقع فإن هناك جهوداً قام بها بعض الفقهاء ومجتهدى الأمة من خلال المؤلفات التي أنجزوها والتجديد الذي سلكوه.

وفي العصر الحديث ظهرت اهتمامات تمثلت في (دراسة الفقه الإسلامي دراسة مقارنة وإظهار مزاياه وخصائصه وكثرة التأليف في مباحثه وظهور المبرزين فيه الجامعين بين الثقافة القانونية والثقافة الشرعية)، وعلى الرغم مما يكتنف هذه الاهتمامات من المخاوف والحدود إلا أن الأمل معقود في (أن يزداد الاهتمام بالشريعة الإسلامية وفقهها حتى تعود إلى مكانتها الأولى وتسترد سيادتها القانونية، وتمدهي والفقه الإسلامي [لأمة الإسلامية] بالتشريعات اللازمة في جميع شؤونها كما كان الأمر في السابق).

وكما شهد بعض رجال الديانة النصرانية ورعاياها بفضل الشريعة الإسلامية وما تتسم به من الرحمة والعدل والإحسان والمساواة في بداية انتشار الإسلام فقد دار التاريخ دورته، وعاد المنصفون من الغربيين ليؤكدوا الشهادة ذاتها.

فأما في بداية انتشار الإسلام، ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن بقيادة أبي عبيدة كعب أهالي هذه البلاد المسيحيون إلى العرب يقولون: يا معشر المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، إنكم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا).

وأما في العصر الحديث: (فهذا مؤتمر القانون المقارن المعقود في لاهاي سنة ١٩٣٧م الذي حضره مفكرون وباحثون من الغرب ومن مختلف أنحاء العالم وشاركوا فيه، يقرر:

١ - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.

٢ - اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة حيّة.

٣ - اعتبارها قائمة بذاتها ليست مأخوذة عن غيرها).

كما أظهر كبار رجال القانون والفكر في الغرب إعجابهم بذلك، يقول (ماك برايد): (من هنا ومن هذا البلد الإسلامي [أي المملكة العربية السعودية] يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان، وإنه يتوجب على العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقائق الخجولة عند الرأي العام العالمي، والتي كان الجهل بها سبباً لتشويه سمّة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي عن طريق أعداء الإسلام والمسلمين...).

وقال آخر: (إني بصفتي مسيحياً أعلن أنه هنا في هذا البلد الإسلامي يعبد الله حقيقة، وأن أحكام القرآن في حقوق الإنسان: هي بلا شك تفوق على ميثاق حقوق الإنسان)

، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١)

(١) - قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)} [آل عمران/ ١١٠]

إن التعبير بكلمة "أخرجت" المبني لغير القاعل، تعبير يلفت النظر. وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجاً؛ وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله... إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الديب. حركة تخرج على مسرح الوجود أمة. أمة ذات دور خاص. لها مقام خاص، ولها حساب خاص: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)...

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية. إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها. وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والنصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح... هذا واجبها الذي يحتّمه عليها مكانها، وتحتّمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة دائماً. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له... وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له. فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي، وبعمارها للأرض - قياماً بحق الخلافة - أهلاً له كذلك... ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير؛ ويدفعها إلى السبق في كل مجال... لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرّك مقتضياته وتكاليفه. وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد... وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهي خير أمة أخرجت للناس. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو

جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: (نحن أبناء الله وأحباؤه) . . كلا ! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر:

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . . فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك . . إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد . . وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانتة ؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة . . ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي . فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتخل . ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه . وللإنسان غاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون . . ومن هذا التصور العام تبتثق القواعد الأخلاقية . ومن الباعث على إرضاء الله وتوقى غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله في الضمائر ، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك .

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير ، الأمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يعضوا في هذا الطريق الشاق ، ويحملوا تكاليفه . وهم يواجهون طغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طغوت الشهوة في عرامتها وشلتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقله المطامع . . وزادهم هو الإيمان ، وعدهم هي الإيمان . وسندهم هو الله . . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد . وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل ، وكل سند غير سند الله ينهار !

وقد سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن يتتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها . ليلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني . فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مع الإيمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة . وأما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة ، وغير متحققة فيها صفة الإسلام .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة ، ندعها لمواضعها . وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته تقتطف بعضها:

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نمتهم علماءهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم . . " ثم جلس - وكان متكئا - فقال: " لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا " أي تعطفوهم وتردوهم .

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم " .
وعن عرس ابن عميرة الكندي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " .
وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " . .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سيد الشهداء حمزة . ورجل قام إلى سلطان جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله " . .
وغيرها كثير . . وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم ، وضرورتها لهذا المجتمع أيضا . وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة . وهي إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته .
ثم نعود إلى الشطر الآخر من الآية الأولى في هذه المجموعة . .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) . .
وهو ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان . فهو خير لهم . خير لهم في هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلالة التي كانوا عليها في تصوراتهم الاعتقادية ، والتي ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية . إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعي لحيلهم ، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية - من ثم - على غير أساس ، عرجاء أو معلقة في الهواء ككل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس اعتقادي شامل ، وعلى تفسير كامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنساني ، ومقام الإنسان في هذا الكون . . وخير لهم في الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير .
ثم هو بيان كذلك لحالهم ، لا يخس الصالحين منهم حقهم:
(منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) . .

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم . منهم عبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وكعب بن مالك . . وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال - وفي آية تالية بالتفصيل - أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله ، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذي يجيء بعده ، وأن ينصره . وفسقوا عن دين الله وهم يابون الاستسلام لإرادته في إرسال آخر الرسل من غير بني إسرائيل ، واتباع هذا الرسول وطاعته ولاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله ، أرادها للناس أجمعين . في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٦٢)

وَجَمَعَ لَهُ وَلِئَمَّتِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ مَا فَرَّقَهُ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ (١)

(١) -

خصائص الأمة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على طريقته وانتهج نهجه إلى يوم الدين وعلى رسل الله أجمعين... أما بعد:

فقد وصف الله المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فقال عز وجل: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله {آل عمران: ١١٠}.

فرفع الله قدر هذه الأمة وشرفها واصطفها على غيرها من الأمم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ولم لا وهي أمة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين، فهي لم تدرك هذا الفضل إلا بإيمانها بالله، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبال دعوة إلى الله والجهاد في سبيله، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ذكر الله عز وجل، ولا ينال هذا إلا من استجاب لله وللرسول كما قال تعالى في وصف الصحابة الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد، فكان الرجل يتهاذى بين الرجلين لما به من الجراح والآلام: الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم {آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤}.

فبقدر الإيمان والاستجابة لله وللرسول تكون الخيرية لهذه الأمة، ولا يمكن أن تكون هذه الخيرية إلا لأمة الاستجابة. أما أمة الدعوة ففيها المؤمن والكافر والمنافق واليهودي والنصاري وكل من بلغته دعوة النبي الخاتم منذ بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يكون هؤلاء فضل ولا شرف ولا خيرية إلا بالإيمان والاستجابة، وقد قال تعالى في آية الخيرية: ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون {آل عمران: ١١٠}، وقال تعالى: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤) وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين {آل عمران: ١١٣ - ١١٥}، وقال سبحانه: وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب {آل عمران: ١٩٩}.

وهؤلاء هم الذين آمنوا بالله ورسوله من أهل الكتاب، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يؤتون أجرهم مرتين لأنهم آمنوا مرتين واستجابوا مرتين كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين"، فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن وصدق بالنبي صلى الله عليه وسلم.

هذه هي أمة الإسلام، أعظم الأمم في الدنيا والآخرة، مثلها في عداد الأمم كالشجرة السوداء في جلدة الثور الأبيض، ومع هذا فهي في الذروة العالية: "إنكم توفون - تتمون - سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله". رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم.

إن أصابهم ما يحبون حملوا الله وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، يعطيهم ربهم حلاً وعلاً من عنده سبحانه كما في الأثر الذي رواه أحمد والبخاري، وهم أكثر الأمم استجابة وتلبية، فلم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة، فمن ثم قال تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس. وهذه الأمة خصائص اختصاصها الله بها من بين الأمم، من هذه الخصائص ما هو في الدنيا، ومنها ما هو في الآخرة، فمن هذه الخصائص في الدنيا: ١ - أنها الأمة المجاهدة، شرع الله لها جهاد الكفار والمنافقين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحل لها الغنائم، ولم تكن تحل لمن سبقها من الأمم، قال تعالى: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم {الأنفال: ٦٩}.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي". فذكر منها: "وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد

قبلي". [متفق عليه]. أما من قبلهم من الأمم فمن جاهد منهم في سبيل الله، لم يكن تحل لهم الغنائم، بل كانت تنزل عليهم نار فتحرقها كما في الصحيح.

٢- أهما الأمة المحفوظة من الهلاك والاستئصال، لا تهلك بسنة عامة، ولا يسلط الله عليها عدوًا من غيرها، يستأصل شأفتها، ولو اجتمع عليها كل أهل الأرض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا". رواه مسلم.

٣- أهما لا تجتمع على ضلالة:

فهذه الأمة تتقلب بين حالين: حال غزو وتمكين تجتمع فيه الأمة على الحق دون تفرق ولا تشرذم، تعتصم بالله وبدينه وشرعه وتجتمع على إمام واحد، تسمع له وتطيع وتجاهد في سبيل الله تحت لوائه فيبلغ ملكها مشارق الأرض ومغاربها ممثلة قول الله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وقد وقع هذا للأمة في صدر الإسلام في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش". رواه مسلم. وحال ضعف وفرقة وهوان بعدما أصاب الأمة ما أصاب الأمم قبلها من اختلاف وتفرق وتشرذم وبُعْدٍ عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة، فتسلط عليها أعداؤها، وذلت بعد عز، ولكنها مع هذا كله لم تترك الحق بالكلية، فهي أمة التوحيد، لا تجتمع على باطل، بل يبقى فيها طائفة على الحق ظاهرين به لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وسوف ترجع الأمة إلى حال عزها تجاهد في سبيل الله وتجتمع على الحق حتى تقتل المسيح الدجال، وتقاتل اليهود، ويبارك الله في خراج الأرض، ثم يرسل الله ريحاً طيبة تقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى على الأرض إلا شرار الخلق، عليهم تقوم الساعة.

٤- ومن خصائص هذه الأمة أن الله تعالى رفع عنها الآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلها، فأحل لها كثيراً مما حُرِّم على غيرها، ولم يجعل عليها من حرج ولا عنت ولا شدة، بل يُسر وفرج، قال تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر {البقرة: ١٨٥}، وقال: لا يكلف الله نفسه إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت {البقرة: ٢٨٦}.

قال تعالى: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم {المائدة: ٦}، وقال: هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج {الحج: ٧٨}.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني أرسلت بحنيفية سمحة". [رواه أحمد].

وقال: "لتعلم يهود أن في ديننا فسحة".

وقال لرسله وسفرائه ودعاته: "يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا". قالها لمعاذ وأبي موسى حين بعثتهما إلى اليمن.

[رواه البخاري].

٥ ومن هذا التيسير أن جعل الله لهذه الأمة الأرض مسجداً وطهوراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعطيت حسناً لم يعطهن نبي قبلي". ذكر منها: "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة

فليصل".

٦- وتجاوز الله هذه الأمة عن الخطأ والسيان وعما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به". [متفق عليه]. ولما نزل قول الله تعالى: لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير {البقرة: ٢٨٤}. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين قبلكم سمعنا وعصينا؟ ولكن قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير". فلما قالوا وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله التخفيف في قوله تعالى: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فنسختها. رواه أحمد ومسلم.

٧- واختص الله هذه الأمة بأن جعل الله صفوفها في الصلاة كصفوف الملائكة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "ألا تصفون كصفوف الملائكة عند ربها". قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف ويتراصون في الصف. [رواه مسلم].

٨ ومن خصائص هذه الأمة: يوم الجمعة، خير يوم طلعت فيه الشمس اختلفت فيه الأمم قبلنا، فهدانا الله إليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد". [متفق عليه].

٩ وفصل الله هذه الأمة فجعلها من الشهداء في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا؛ فلقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتم شهداء الله في الأرض".

ففي الصحيحين عن أنس قال: مرت جنازة فأثني عليها خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وجبت". ومُر بجنازة فأثني عليها شراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وجبت". فسأل عمر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا فقال: "من أثبتتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثبتتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض". وأما في الآخرة فلقول الله عز وجل: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً {البقرة: ١٤٣}.

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، وهذا قول الله عز وجل: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً".

ومن هذه الخصائص ما اختص الله به هذه الأمة في الآخرة فضلاً عن أنهم الشهداء على الناس يوم القيامة، فهم الآخرون السابقون والغر المحجلون، أول من يجيز الصراط وأول من يدخل الجنة وهم أكثر أهل الجنة. ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أما ترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة". فكبر الصحابة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة".

وقد حقق الله رجاء نبيه صلى الله عليه وسلم وأعطاه فوق ما يرجو، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أهل الجنة

عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة". [رواه الترمذي].

ولا ينال هذا الخير إلا مَنْ حقق التوحيد وتابع النبي صلى الله عليه وسلم ، أما أهل البدع والضلال فلا نصيب لهم في هذا الخير إلا بقدر قربهم من الحق ومتابعتهم للسنة، بل يُزادون عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخلو زمان من متبع للحق ناصر للسنة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك".

فأهل الحق والطائفة الناجية هم المتمسكون بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة، ففي العقيدة يتمسكون بما دل عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من التوحيد الخالص في ألوهية الله عز وجل وربوبيته وأسمائه وصفاته، وما كان عليه سلف الأمة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة الخلفاء الراشدين ومن تابعهم بإحسان، ويهجرون مسالك أهل البدع ومنهجهم التي فرقوا بها أهل الدين وجعلوهم شيعاً.

وفي العبادة يتمسكون بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات في أجناسها وصفتها وقدرها وزمنها ومكانها دون أدنى ابتداع في الدين.

وفي الأخلاق يتمسكون بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من رفق ولين وخلق عظيم.

وفي المعاملات يتمسكون بالحلل البين ويتعاملون بالصدق والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

والحمد لله رب العالمين

بقلم - الرئيس العام

<http://www.altawhed.com/Detail.asp?InNewsItemID=134871>

، وَهُمْ آخِرُ الْأُمَمِ خَلْقًا وَأَوَّلُ الْأُمَمِ بَعَثًا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيَدَ أَنْهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاحْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَذَا اللَّهُ ، فَالْتَأَسُّ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (١)

(١) - البخاري (٨٧٦) ومسلم (٢٠١٨)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٣ / ص ٢٧٧)

قَوْلُهُ : (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ) فِي رِوَايَةِ ابْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي الرِّثَادِ عِنْدَ مُسْلِمٍ " نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ " أَيُّ الْآخِرُونَ زَمَانًا أَوَّلُونَ مَنْزِلَةً ، وَالْمُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَإِنْ تَأَخَّرَ جُودُهَا فِي الدُّنْيَا عَنْ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فَهِيَ سَابِقَةٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ يُحْشَرُ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ وَأَوَّلُ مَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمْ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ . وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ " نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ " . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالسَّبْقِ هُنَا إِحْرَازُ فَضِيلَةِ الْيَوْمِ السَّابِقِ بِالْفَضْلِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا بِسَبْقِ قَبْلِهِ أَوْ أَحَدٍ لَكِنْ لَا يُتَوَوَّرُ اجْتِمَاعُ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ مُتَوَالِيَةً إِلَّا وَيَكُونُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ سَابِقًا . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالسَّبْقِ أَيُّ إِلَى الْقَبُولِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي حُرِّمَ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى ،

قَوْلُهُ : (بَيَدَ) بِمُوحَدَةٍ ثُمَّ تَحْتَائِيَّةٍ سَاكِنَةٍ مِثْلَ غَيْرِ وَرْثًا وَمَعْنَى ، وَبِهِ جَزَمَ الْخَلِيلُ وَالْكَسَائِيُّ وَرَجَّحَهُ ابْنُ سِيدَةَ ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ عَنْ الرَّبِيعِ عَنْهُ أَنَّ مَعْنَى " بَيَدَ " مِنْ أَجْلِ ، وَكَذَا ذِكْرُهُ ابْنَ حَبَانَ وَالْبَغَوِيُّ عَنْ الْمُزَنِيِّ عَنْ الشَّافِعِيِّ . وَقَدْ اسْتَبْعَدَهُ عِيَّاضٌ وَلَا بُدَّ فِيهِ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّا سَبَقْنَا بِالْفَضْلِ هُدَيْنَا لِلْجُمُعَةِ مَعَ تَأَخُّرْنَا فِي

الزَّمان ، بسبب أنَّهم صلُّوا عنها مع تقدُّمهم ، ويشهد له ما وقع في فوائد ابن المُقري من طريق أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ " نحن الآخرون في الدنيا ونحن السابقون أول من يدخل الجنة لأنهم أوتوا الكتاب من قبلنا " وفي موطأ سعيد بن عفيرة عن مالك عن أبي الزناد بلفظ " ذلك بأنهم أوتوا الكتاب " وقال الداودي : هي بمعنى على أو مع ، قال القرطبي : إن كانت بمعنى غير فنصب على الاستثناء ، وإن كانت بمعنى مع فنصب على الظرف . وقال الطيبي : هي للاستثناء ، وهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، والمعنى نحن السابقون للفضل غير أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ووجه التأكيد فيه ما أدمج فيه من معنى التسخ ، لأن التاسخ هو السابق في الفضل وإن كان متأخراً في الوجود ، وبهذا التقرير يظهر موقع قوله " نحن الآخرون " مع كونه أمراً واضحاً .

قوله : (أوتوا الكتاب) اللام للجنس ، والمراد التوراة والإنجيل ، والضمير في " أوتيناها " للقرآن . وقال القرطبي : المراد بالكتاب التوراة ، وفيه نظر لقوله " وأوتيناها من بعدهم " فأعاد الضمير على الكتاب ، فلو كان المراد التوراة لما صحَّ الإخبار ، لأننا إنما أوتينا القرآن . وسقط من الأصل قوله " وأوتيناها من بعدهم " وهي ثابتة في رواية أبي زرعة اللثمي عن أبي اليمان شيخ البخاري فيه ، أخرجه الطبراني في مُستند الشاميين عنه ، وكذا لمسلم من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد ، وسيأتي تأملاً عند المصنف بعد أبواب من وجه آخر عن أبي هريرة . قوله : (ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم) كذا للأكثر ، وللحموي " الذي فرض الله عليهم " والمراد باليوم يوم الجمعة ، والمراد باليوم فرضه فرض تعظيمه ، وأشير إليه بهذا لكونه ذكراً في أول الكلام كما عند مسلم من طريق آخر عن أبي هريرة ، ومن حديث خديفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا " الحديث . قال ابن بطال : ليس المراد أن يوم الجمعة فرض عليهم بعينه فتركوه ، لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله عليه وهو مؤمن ، وإنما يدل - والله أعلم - أنه فرض عليهم يوم من الجمعة وكل إلى اختيارهم ليقيموا فيه شريعتهم ، فاختلَفوا في أي الأيام هو ولم يهتدوا ليوم الجمعة ، ومال عياض إلى هذا ورشحه بأنه لو كان فرض عليهم بعينه لقلَّ فخالَفوا بدَّل فاختلَفوا . وقال النووي : يمكن أن يكونوا أمروا به صريحاً فاختلَفوا هل يلزم تعينه أم يسوغ إبداله بيوم آخر فاجتهدوا في ذلك فأخطأوا . انتهى . ويشهد له ما رواه الطبري بإسناد صحيح عن مجاهد في قوله تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) قال : أرادوا الجمعة فأخطأوا وأخذوا السبت مكانه . ويحتمل أن يراد بالاختلاف اختلاف اليهود والتصارى في ذلك ، وقد روى ابن أبي حاتم من طريق أسباط بن نصر عن السدي التصريح بأنهم فرض عليهم يوم الجمعة بعينه فأبوا ، ولفظه " إنَّ الله فرض على اليهود الجمعة فأبوا وقالوا : يا موسى إن الله لم يخلق يوم السبت شيئاً فجعله لنا ، فجعل عليهم " وليس ذلك بعجيب من مخالفتهم كما وقع لهم في قوله تعالى (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطّة) وغير ذلك ، وكيف لا وهم القائلون (سمعنا وعصينا) .

قوله : (فهذانا الله له) يحتمل أن يراد بأن نصَّ لنا عليه ، وأن يراد الهداية إليه بالاجتهاد ، ويشهد للثاني ما رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال " جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل أن تنزل الجمعة ، فقالت الأنصار : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللتصارى كذلك ، فهل فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلي ونشكره . فجعلوه يوم العروبة ، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلَّى بهم يومئذ ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) الآية ، وهذا وإن كان مُرسلاً فله شاهد بإسناد حسن أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وغير واحد من حديث كعب بن مالك قال " كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسعد بن

زُرَّارَةَ " الْحَدِيث . فَمُرَّسَلُ ابْنِ سِيرِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوْلَئِكَ الصَّحَابَةَ اخْتَارُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْاجْتِهَادِ ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِلْمُهُ بِالْوَحْيِ وَهُوَ بِمَكَّةَ فَلَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ إِقَامَتِهَا ، ثُمَّ فَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الدَّارِقُطِيِّ ، وَلِذَلِكَ جَمَعَ بِهِمْ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ ، وَعَلَى هَذَا فَقَدْ حَصَلَتْ الْهَدَايَةُ لِلْجُمُعَةِ بِجَهْتَيْ الْبَيَانِ وَالتَّوْفِيقِ . وَقِيلَ فِي الْحِكْمَةِ فِي اخْتِيَارِهِمُ الْجُمُعَةَ وَقُوعَ خَلْقِ آدَمَ فِيهِ ، وَالْإِنْسَانَ إِنَّمَا خُلِقَ لِلْعِبَادَةِ فَنَاسَبَ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالْعِبَادَةِ فِيهِ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْمَلَ فِيهِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْجَدَ فِيهِ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهَا فَنَاسَبَ أَنْ يَشْكُرَ عَلَى ذَلِكَ بِالْعِبَادَةِ فِيهِ .

قَوْلُهُ : (الْيَهُودُ غَدَاً وَالتَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ) فِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُقْبِرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ ابْنِ خُرَيْمَةَ " فَهُوَ لَنَا ، وَلِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ وَالتَّصَارَى يَوْمَ الْآحَدِ " وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَنَا بِهَدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَهُمْ بِاعْتِبَارِ اخْتِيَارِهِمْ وَخَطِيئَتِهِمْ فِي اجْتِهَادِهِمْ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : غَدَاً هُنَا مَنصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِ ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمُخَلَّوْفٍ وَتَقْدِيرُهُ الْيَهُودُ يُعْظَمُونَ غَدَاً ، وَكَذَا قَوْلُهُ " بَعْدَ غَدٍ " وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ لِأَنَّ ظَرْفَ الزَّمَانِ لَا يَكُونُ خَبَرًا عَنْ الْجُثَّةِ . انْتَهَى . وَقَالَ ابْنُ مَالِكٍ : الْأَصْلُ أَنَّ يَكُونَ الْمُخْبِرُ عَنْهُ بِظَرْفِ الزَّمَانِ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَعَانِي كَقَوْلِكَ غَدَاً لِلتَّأَهُبِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلرَّحِيلِ فَيَقْدَرُ هُنَا مُضَافَانِ يَكُونُ ظَرْفًا زَمَانٍ خَبَرَيْنِ عَنْهُمَا ، أَيْ تَعْيِيدَ الْيَهُودِ غَدَاً وَتَعْيِيدَ التَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ ٥١ . وَسَبَقَهُ إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ عِيَّاضٌ ، وَهُوَ أَوْجَهُ مِنْ كَلَامِ الْقُرْطُبِيِّ . وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى فُرْصِيَّةِ الْجُمُعَةِ كَمَا قَالَ التَّوَوِيُّ ، لِقَوْلِهِ " فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَهَذَا اللَّهُ لَهُ " فَإِنَّ التَّقْدِيرَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْنَا فَضَلُّوا وَهُدَيْنَا ، وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي الزُّنَادِ عِنْدَ مُسْلِمٍ بَلْفَظٍ " كُتِبَ عَلَيْنَا " . وَفِيهِ أَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَأَنَّ سَلَامَةَ الْجَمَاعِ مِنَ الْخَطَا مَخْصُوصٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَنَّ اسْتِنْبَاطَ مَعْنَى مِنَ الْأَصْلِ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالْإِبْطَالِ بَاطِلٌ ، وَأَنَّ الْقِيَاسَ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ فَاسِدٌ ، وَأَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ فِي زَمَنِ نَزُولِ الْوَحْيِ جَانِزٌ ، وَأَنَّ الْجُمُعَةَ أَوَّلَ الْأُسْبُوعِ شَرْعًا ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْأُسْبُوعِ كُلِّهِ جُمُعَةً وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْأُسْبُوعَ سَبْتًا كَمَا سَيَأْتِي فِي الْإِسْتِثْقَاءِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْيَهُودِ فَتَبِعُوهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَفِيهِ بَيَانٌ وَاصِحٌ لِمَزِيدِ فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ } (١) ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ . فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » (٢) . وَفَضَائِلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣)

(١) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ فَأُكْسَى الْخُلَّةَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي » . سنن الترمذی (٣٩٧٠) قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ . وَهُوَ كَمَا قَالَ

(٢) - صحيح مسلم (٥٠٧)

(٣) - فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سيد المتواضعين على الإطلاق، وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام في ذلك أحاديث كثيرة ونحوها من بيانه فضائله صلى الله عليه وسلم، فإنما ذلك من جملة الدين الذي يجب عليه صلى الله عليه وسلم تبليغه ولا يجوز له كتمه ليُعرف أمته رفعة منزلته فيزدادوا في توقيره ومحبتة، وذلك من أهم أمور الدين مع أنها وحي من الله كما قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) [النجم/٣، ٤])

روى مسلم رحمه الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب أن محمدا خاتم النبيين". وروى البغوي رحمه الله في شرح السنة عن العرابض بن سارية رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إني عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته".

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقك؟ قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك". رواه البيهقي رحمه الله في الدلائل والحاكم رحمه الله وصححه.

روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه". وروى مسلم رحمه الله عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم".

وروى أبو نعيم والطبراني رحمهما الله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام قال: "قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم". قال الحافظ بن حجر رحمه الله: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن.

روى ابن عساكر رحمه الله عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: هبط جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن ربك يقول: "إن كنت قد اتخذت إبراهيم خليلا فقد اتخذتك حبيبا، وما خلقت خلقا أكرم منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومثلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا".

روى الشيخان رحمهما الله عن جابر بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي".

روى الطبراني وابن حبان رحمهما الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: تدري كيف رفعتُ ذكرك؟ قلت: الله أعلم، قال: يقول: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي". قال الإمام الشافعي رحمه الله: معنى قول الله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك) [٢] لا أذكر إلا ذُكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله.

روى الدارمي رحمه الله عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كيف علمت أنك نبي حتى استيقظت؟ فقال: "يا أبا ذر، أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما إلى الأرض وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، قال: فزنه برجل، فوزنت به فوزنته، ثم قال: زنه بعشرة فوزنت بهم فرجحهم، ثم قال: زنه بمائة فوزنت بهم فرجحهم، ثم قال: زنه بألف فوزنت بهم فرجحهم، كأني أنظر إليهم ينتشرون علي من خفة الميزان، قال: فقال أحدهم لصاحبه: لو وزننته بأمتة لرجحها".

روى ابن سعد رحمه الله عن عبد الرحمن بن جبلة الكلبي رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا

النبى الأمى الصادق الزكى، الوليل كل الوليل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني، والخير كل الخير لمن آواني وآمن بي وصدق قولي وجاهد معي".

روى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". روى الإمام أحمد رحمه الله وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال: "لقد جئتمكم بها يبضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني". وروى الخطيب البغدادي رحمه الله عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت بالحنفية السمحة ومن خالف سنتي فليس مني".

روى الشيخان رحمهما الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".

روى الشيخان رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغامم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". قال القسطلاني رحمه الله: "إنما جعل الغاية لأنه لم يكن بين بلده عليه الصلاة والسلام وبين أعدائه أكثر من شهر".

روى الإمام أحمد رحمه الله بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنا محمد النبي الأمي لا نبي بعدي، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه". روى الإمام أحمد وابن حبان رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت بمقاييد الدنيا على فرس أبلق جاءني به جبريل وعليه قطيفة من سندس".

روى البغوي رحمه الله عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال".

روى ابن السمعاني رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

روى الحاكم رحمه الله وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا رحمة مهداة". وهو كقوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [٣].

روى مسلم رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب إهني أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) [٤] وقوله: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) [٥] فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فاسأله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله فأخبره بما قال -وهو أعلم- فقال الله تعالى: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك.

روى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا". ورواه أيضا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا، ثم أسألوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة".

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسري به فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا. رواه القاضي عياض رحمه الله في الشفاء وغيره. روى الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهم من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم -يعني الجمعة- اختلفوا فيه فهدانا الله له، والناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد". روى الحاكم والبيهقي رحمهما الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل سب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي".

روى الترمذي رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون قال بعضهم: إن الله اتخذ إبراهيم خليلا، وقال آخر: موسى كلمه الله تكليما، وقال آخر: فيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نبي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحت آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر". روى الدارمي رحمه الله عن عمرو بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، وإني قاتل قولا غير فخر: إبراهيم خليل الله، وموسى صفى الله، وأنا حبيب الله، ومعني لواء الحمد يوم القيامة، وإن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم علو، ولا يجمعهم على ضلالة".

روى الترمذي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا قائلهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصوا، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا. الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون ولؤلؤ منتور". وروى رحمه الله أيضا عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر". روى الدارمي رحمه الله عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر".

روى الترمذي رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، ويدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر".

وروى أيضا رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكتسي حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري". حديث

حسن صحيح.

روى الشيخان رحمهما الله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها".

وروى أيضا رحمهما الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كجور السماء من يشرب منه فلا يظمأ أبدا".

روى البخاري رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بيننا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافته قباب الدر الجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه أذفر".
روى أبو داود رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله أن يقضي بين خلقه نادى مناد: أين محمد وأمه؟ فأقوم وتتبعني أمي غرا محجلين من أثر الطهور، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحن الآخرون والأولون وأول من يحاسب، وتفرج لنا الأمم عن طريقنا تقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها".

روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم".

عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة إلى عدد ما على الأرض من شجرة ومدرّة". رواه الإمام أحمد رحمه الله وغيره. وروى أبو داود رحمه الله عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدا شكرا لربي، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدا شكرا، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر، فخررت ساجدا شكرا لربي".

روى مسلم رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آتي بباب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك". وفي رواية الطبراني رحمه الله: "فيقوم الخازن فيقول: أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك".

[١] سورة النجم، الآيتان ٣ و ٤.

[٢] سورة الشرح، الآية ٤.

[٣] سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

[٤] سورة إبراهيم، الآية ٣٦.

[٥] سورة المائدة، الآية ١١٨.

=====

من فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن فاتكم أن تروه بالعيون فما . . . يفوتكم وصفه هذى شمائله

مكمل الذات في خلق وفي خلق . . . وفي صفات فلا تحصى فضائله

- قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) } [الأحزاب/٤٥-٤٧] .

- { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) } [الأحزاب/٤٠، ٤١] .

- { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) } [الأنبياء/١٠٧، ١٠٨]

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرُغُ بَابَ الْجَنَّةِ » . مسلم (٥٠٥)

- وَعَنْ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ قَالَ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- « أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ » . مسلم (٥٠٦)

- وعن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقبل ذات يوم من العلية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال -صلى الله عليه وسلم- « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » مسلم (٧٤٢) . السنة : الجذب

والقسط

- وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة -رضي الله عنها- كيف كانت صلاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان قالت ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً فقلت يا رسول الله تنام قبل أن توتر قال « تنام عيني ولا ينام قلبي » . صحيح البخاري (٣٥٦٩)

- وعن عبد الله بن سلام، قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول شافع ومشفع، لواء الحمد بيدي يوم القيامة، تحتي آدم فمن دونه". المعجم

الكبير للطبراني - (ج ١٨ / ص ٤٥٠) (١٦٥) صحيح لغيره

- وعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال « فَضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخْتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » صحيح مسلم (١١٩٥) . ١٠- وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرْنَا فَقَرْنَا ، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّتِي كُنْتُ فِيهِ » . صحيح البخاري (٣٥٥٧)

- وعن جابر بن عبد الله قال قال النبي -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَعَجُّونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ » . سنن

الترمذي (٣١٠١) صحيح

- وعن عرواض بن سارية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأخبركم بأول أمري : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي النبي رأت حين وضعتني ، وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام " شرح السنة للبغوي (٣٤٢٧) حسن

و عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِجَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِجَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ . قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » . قَالَ « فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ . قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ . فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) » . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » . فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَنَصِلَ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرَى الصَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ - فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « أَوْخَرَجِي هُمْ » . قَالَ نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَتُصْرِكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ وَفُتِرَ الْوَحْيُ . صحيح البخاري (٣)

وَفَضَائِلُ أُمَّتِهِ كَثِيرَةٌ (١)

(١) - قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) } [البقرة/١٤٣]

إنما الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ؛ وتضع لهم الموازين والقيم ؛ وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد ؛ وترن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها ، وتقول : هذا حق منها وهذا باطل . لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها . وهي شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم . . وبينما هي تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها ؛ فيقرر لها موازينها وقيمها ؛ ويحكم على أفعالها وتقاليدها ؛ ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة . . وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها . . لتعرفها ، ولتشعر بضخامتها . ولتقدر دورها حق قدره ، وتستعد له استعدادا لائقا . .

وإنما للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي . .

(أمة وسطا) . . في التصور والاعتقاد . . لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد ، أو جسد متلبس به روح . وتعطي لهذا الكيان المزوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم

الأشواق وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط ، في قصد وتناسق واعتدال .

(أمة وسطا) . . في التفكير والشعور . . لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة . . . ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك . . إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب ؛ وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أين وجدها أخذها ، في تثبيت و يقين .

(أمة وسطا) . . في التنظيم والتنسيق . . لا تدع الحياة كلها للمشاعر ، والضماير ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب . إنما ترفع ضماير البشر بالتوجيه والتهديب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب ؛ وتزواج بين هذه وتلك ، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان . . ولكن مزاج من هذا وذاك .

(أمة وسطا) . . في الارتباطات والعلاقات . . لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ؛ ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته . . إنما تطلق من الدوافع والطاقت ما يؤدي إلى الحركة والنماء ؛ وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه . ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة ؛ وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد في كافلة للفرد في تناسق واتساق .

(أمة وسطا) . . في المكان . . في سرة الأرض ، وفي أوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال ، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا ، وتشهد على الناس جميعا ؛ وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة ؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ؛ وتتحكم في هذه الحركة ماديبها ومعويها على السواء .

(أمة وسطا) . . في الزمان . . تتهي عهده طفولة البشرية من قبلها ؛ وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها . وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ؛ وتصلها عن الفتنة بالعقل والهووى ؛ وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ، ورصيدا العقلي المستمر في النماء ؛ وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك .

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ؛ والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها .

وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليفة بأن تحتل التبعية وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقيام تبعاتها ، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ، ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة .

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها ، بمناسبة تحويلهم الآن عنها:

(وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) . .

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة ، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة . إنه يريد لها أن تخلص له ؛ وأن تتخلص من كل روااسب الجاهلية ووشائجها ؛ وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رغابها الدفينة ؛ وأن تتعزى من كل رداء لبسته في الجاهلية ، ومن كل شعار اتخذته ، وأن ينفرد في حسنها شعار الإسلام وحده لا يتلبس به شعار آخر ، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر .

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ؛ وشابت عقيدة

جلدهم إبراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس ، إذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس .
والله يريد أن يكون بيت الله المقدس ، لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره ، ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته .
لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجههم
إلى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا ؛ ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول صلى الله
عليه وسلم ثانيا ، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ،
فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة .

إنها لفئة دقيقة شديدة الدقة . إن العقيدة الإسلامية لا تطبق لها في القلب شريكا ؛ ولا تقبل شعارا غير شعارها
المفرد الصريح ؛ إنما لا تقبل راسبا من روااسب الجاهلية في أية صورة من الصور . جل أم صغر . وهذا هو إحياء
ذلك النص القرآني: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) . . والله
- سبحانه - يعلم كل ما يكون قبل أن يكون . ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس ، حتى يحاسبهم عليه ،
ويأخذهم به . فهو - لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم ، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقه . . أمر شاق
، ومحاولة عسيرة . . إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته
فيصله به ويهديه إليه:

(وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) . .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ؛
وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع ، حيثما وجهها الله تتجه ، وحيثما قادها رسول الله تقاد .
ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم . إنهم ليسوا على ضلال ، وإن صلاتهم لم تضع ، فالله سبحانه لا
يعنت العباد ، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ؛ ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي
يضاعفها الإيمان ويقويها:

(وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم) . .

إنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ؛ وإنه يهدي المؤمنين ، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز
الامتحان ، حين تصدق منهم النية ، وتصح العزيمة . وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل رحمته:
(إن الله بالناس لرؤوف رحيم) . .

بهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين . . في ظلال
القرآن - (ج ١ / ص ١٧)

، وَمِنْ حِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ جَعَلَهُ اللَّهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ. (١)
لا وَلِيَّ لِلَّهِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)، وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا (٣)، فَلَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا مَنْ
آمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَوَلَايَتَهُ وَهُوَ لَمْ يَتَّبِعْهُ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَائِ اللَّهِ ؛ بَلْ مَنْ
خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِ الشَّيْطَانِ قَالَ تَعَالَى : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (٤) (٣١) سورة آل عمران ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ادَّعَى قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ
اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ آيَةً مَحَنَةً لَهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ فِيهَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ ، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ

، وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ (٥)

(١) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، إِلَّا مَنْ أَبَى » .
قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » . صحيح البخارى (٧٢٨٠)

(٤٠٣) وَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » . صحيح مسلم

و عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » . مسند أحمد (٥٢٣٢) صحيح

(٢) - قال تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) } [الفتح/ ٨، ٩]

(٣) - قال تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (٦٥) سورة النساء

(٤) - هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ حِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ وَمَنْ تَابَعَهُ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَقَالُوا : (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، وَفِيهَا يَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ : مَنْ ادَّعَى حُبَّ اللَّهِ دُونَ أَنْ يَتَّبِعَ شَرَعَ مُحَمَّدٍ ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِقٍ ، فَذِينَ اللَّهِ وَاحِدٌ ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ ، وَالْأَذْيَانُ يَصْدَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُكْمَلُهَا .

وَجَاءَ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَخْتِمَ الْأَذْيَانَ السَّابِقَةَ وَيُكْمَلُهَا ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعِيَ أَحَدٌ حُبَّ اللَّهِ ، وَهُوَ يَكْفُرُ بِشَرْعِهِ وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ . وَمَنْ يَتَّبِعْ شَرَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُخْلِصْ فِي ذَلِكَ يُحِبُّهُ اللَّهُ ، وَاتَّبَاعِ أَمْرِهِ . وَاللَّهُ كَثِيرُ الْغُفْرَانِ لِعِبَادِهِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ . وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " .

(٥) - وفي تفسير الألوسي رحمه الله - (ج ١١ / ص ٣٧٤) :

للشريعة ثلاثة أجزاء علم وعمل وإخلاص فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية { ورضوان من الله أكبر } [التوبة : ٧٢] فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلب وراء الشريعة فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الاخلاص فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك إلى آخر ما قال ، وقال عليه الرحمة في أثناء المکتوب التاسع والعشرين من الجلد المذكور بعد تحقيق كثير : فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصر في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار مأموراً بها في آية { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي * ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي } [يوسف : ١٠٨] وآية { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران : ٣١] تدل على ذلك أيضاً وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ومنحرف عن المطلوب الحقيقي وكل

طريقة ردقها الشريعة فهي زندقة ، وشاهد ذلك آية { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا } [الأنعام : ١٥٣] وآية { فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ } [يونس : ٣٢] وآية { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا } [آل عمران : ٨٥] وحديث «خط لنا النبي صلى الله عليه وسلم» الخبر ، وحديث " كل بدعة ضلالة " وأحاديث أخر إلى آخر ما قال عليه رحمة الملك المتعال ، وقال قدس سره في معارف الصوفية : أعلم أن معارف الصوفية وعلومهم في نهاية سيرهم وسلوكهم إنما هي علوم الشريعة لا أنها علوم أخر غير علوم الشريعة ، نعم يظهر في أثناء الطريق علوم ومعارف كثيرة ولكن لا بد من العبور عنها ، ففي نهاية النهايات علومهم علوم العلماء وهي علوم الشريعة والفرق بينهم وبين العلماء أن تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظرية واستدلالية وبالنسبة إليهم تصير كشفية وضرورية .

وقال أيضاً : أعلم أن الشريعة والحقيقة متحدان في الحقيقة ولا فرق بينهما إلا بالإجمال والفصيل والاستدلال والكشف بالغيب والشهادة والتعمل وعدم العمل وللشريعة من ذلك الأول وللحقيقة الثاني وعلامة الوصول إلى حقيقة حق اليقين مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها وما دامت المخالفة موجودة ولو أدنى شعرة فذلك دليل على عدم الوصول ، وما وقع في عبارة بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لب فهو وإن كان مشعرا بعدم استقامة قائله ولكن يمكن أن يكون مراده أن الجمل بالنسبة إلى الفصل حكمه حكم القشر بالنسبة إلى اللب وإن الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك ، والأكابر المستقيمة أحوالهم لا يجوزون الاتيان بمثل هذه العبارات الموهمة إلى غير ذلك من عباراته الشريفة التي لا تكاد تحصى .

وقال سيدي القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره : جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يعملون إلا بظاهرهما ، وقال سيد الطائفة الجنيد قدس سره : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أيضاً : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا العلم لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ، وقال السرى السقطي : التصوف اسم لثلاثة معان وهو لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بسر باطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكاتب ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله ، وقال أيضاً قدس سره : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غلط . وقال أبو الحسين النوري : من رأته يدعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ومن رأته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاقمه على دينه ، وقال أبو سعيد الخراز : كل فيض باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وقال أبو العباس أحمد الدينوري : لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن ، وفي التحفة لابن حجر قال الغزالي : من زعم أن له مع الله تعالى حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر وجب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر لأن ضرره أكثر انتهى ، ولا نظر في خلوده لأنه مرتد لاستحلاله ما علمت حرمة أو نفيه وجوب ما علم وجوبه ضرورة فيهما ، ومن ثم جزم في الأنوار بخلوده انتهى .

وفي أضواء البيان - (ج ١ / ص ٢٢٤) :

صرح تعالى : في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبة جلا وعلا ذلك المتبع ، وذلك يدل على أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى : { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النساء : ٨٠] وقال تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحشر : ٧] .

تنبيه : يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم هي اتباعه صلى الله

عليه وسلم ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر . إذ لو كان محباً له لأطاعه ، ومن المعلوم عند العامة أن
الخبية تستجلب الطاعة ومنه قول الشاعر : لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن الحب لمن يحب مطيع
وقول ابن أبي ربيعة المخزومي :

ومن لو فاني من حبه ... عن الماء عطشان لم أشرب

وقد أجاد من قال :

قالت : وقد سألت عن حال عاشقها ... بالله صفة ولا تنقص ولا تزد

فقلت : لو كان رهن الموت من ظمأ ... وقلت : قف عن ورود الماء لم يرد

وفي في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٥٤) :

إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هيأما بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والسير على هدايته ، وتحقيق منهجه في الحياة . . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تحيش ، ولا شعائر تقام
ولكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول . .

يقول الإمام ابن كثير في التفسير عن الآية الأولى : " هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو
على الطريقة الحمديدية . فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع الحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله ،
كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " . .
ويقول عن الآية الثانية : (قل أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا) . . أي تخالفوا عن أمره - (فإن الله لا يحب
الكافرين) . . فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه
محب لله . .

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه : " زاد المعاد في هدى خير العباد " :
" ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركون له صلى الله عليه وسلم بالرسالة
وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام . . علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس بمجرد المعرفة
فقط . ولا المعرفة والإقرار فقط . بل المعرفة والإقرار والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً . .
إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها . . حقيقة الطاعة لشرعية الله ، والاتباع لرسول الله ، والتحاكم
إلى كتاب الله . . وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . توحيد الألوهية التي لها وحدها
الحق في أن تعبد الناس لها ، وتطوعهم لأمرها ، وتنفيذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها
ويرتضون حكمها . ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمة لله وحده في حياة البشر وارتباطها جميعاً ، كما أن
الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله . وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير .

، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَطُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ فِي غَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، فَالْيَهُودُ
وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ . قَالَ تَعَالَى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ قُلْ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) } (١) [المائدة/ ١٨] . وَقَالَ تَعَالَى : { وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ
نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) } بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) } (٢) [البقرة/ ١١١ ، ١١٢] . وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَدْعُونَ
أَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ لِسُكْنَاهُمْ مَكَّةَ وَمَجْلُورَتِهِمُ النَّبِيَّةَ ، وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قَدْ كَانَتْ

آيَاتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ فَكُتِّمُوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَكْصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) { [المؤمنون/٦٦] ،
(٣)، [٦٧]

(١) - قَالَ كُلُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى نَحْنُ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ، وَهُمْ بَنُوهُ ، وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ ، وَهُوَ يُحِينَا .
وَأُورَثُوا فِي كِتَابِهِمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِعَبْدِهِ إِسْرَائِيلَ (يَعْقُوبُ) أَتَيْتُ ابْنِي الْبَكْرَ . فَحَمَلُوا هَذَا الْقَوْلَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ
وَحَرَّفُوهُ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عَقْلَانِهِمْ : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُطْلَقُ عَنْدهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ .
وَوَرَدَ فِي الْإِنْجِيلِ : إِنَّ الْمَسِيحَ قَالَ لَهُمْ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَأَيُّكُمْ ، يَعْنِي رَبِّي وَرَبَّكُمْ .
وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ رَدًّا عَلَى أَقْوَالِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : لَوْ كُتِّمْتُمْ كَمَا تَدْعُونَ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحِبَّاءَهُ فَلِمَ
أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً لَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ؟ بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ اللَّهُ ، وَلَكُمْ أَسْوَةٌ بِأَمْثَالِكُمْ
، وَهُوَ سَبْحَانَهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ
يَشَاءُ ، وَلَا مَعْقَبَ عَلَى حُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) - ادَّعَى الْيَهُودُ ، وَادَّعَتْ النَّصَارَى أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهِمْ هُمْ . فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَاتِلًا
: تِلْكَ أَشْيَاءُ يَتَمَتَّعُهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ ، وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ وَلَا حُجَّةٌ عَلَى مَا يَقُولُونَ . فَإِنْ كَانَ لِدَعْوَاهُمْ هَذِهِ
أَسَاسٌ فَلْيَأْتُوا بِبُرْهَانٍ عَلَيْهَا . وَبِمَا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِقَامَةَ الدَّلِيلِ عَلَى دَعْوَاهُمْ هَذِهِ فَهُمْ إِذَا كَاذِبُونَ مُتَخَرِّصُونَ .
وَيَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى تِلْكَ فَيَقُولُ لَهُمْ : بَلَى سَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ الَّذِينَ يُسْلِمُونَ وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ .
وَيَتَقَادُونَ لِأَمْرِهِ مُطِيعِينَ مُخْلِصِينَ ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فَهَؤُلَاءِ يُؤْتِيهِمْ رَبُّهُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ ، وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ ،
وَيُدْهَبُ عَنْهُمْ الْخَوْفُ وَالْحَزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا
يَتَرَكُونَهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا . فَرَحْمَةُ اللَّهِ لَا يَخْتَصُّ بِهَا شَعْبٌ دُونَ شَعْبٍ ، وَكُلُّ مَنْ عَمِلَ لَهَا ، وَأَخْلَصَ فِي عَمَلِهِ ، كَانَ
مِنْ أَهْلِهَا .

(٣) - لَقَدْ كَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّي عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، فَكُتِّمْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِهَا ، وَتَسْخَرُونَ مِنْهَا ، وَتُعْرِضُونَ
عَنْهَا ، وَتُذَيِّرُونَ ظُهُورَكُمْ إِلَيْهَا وَلِذَلِكَ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ الْيَوْمَ .
وَقَدْ كُنْتُمْ تُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَتَقُولُونَ : نَحْنُ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ ، وَخُدَّامُ بَيْتِهِ ، فَلَا
يُظْهَرُ عَلَيْنَا أَحَدًا ، وَلَا نَخَافُ أَحَدًا ، وَكُتِّمْتُمْ تَسْمُرُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَتَتَنَاولُونَ الْقُرْآنَ بِالْجَرِّ مِنَ الْقَوْلِ (سَامِرًا
تَهْجُرُونَ) .

(وَقِيلَ بَلِ الْمَقْصُودُ بِالْهَجْرِ مِنَ الْقَوْلِ وَالتَّكْذِيبِ رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ) .
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ - مُسْتَعْظَمِينَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ .

وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ (٣٠) } وَإِذَا تُنَلِّي عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ
قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) (١)

(١) - تَأَمَّرَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُرِيدُونَ سَخْنَهُ أَوْ قَتْلَهُ أَوْ إِخْرَاجَهُ مِنْ مَكَّةَ

، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِخَطِيئَتِهِمْ . وَجَاءَ جَبْرِيلُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَمَرَهُ بِالْأَيْبَتِ فِي مَكَانِهِ الَّذِي يَبِيتُ فِيهِ ، فَدَعَا الرَّسُولُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَبِيتَ فِي فِرَاشِهِ ، وَيَتَسَجَّى بِرِدْوِهِ فَفَعَلَ . ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقَوْمُ الَّذِينَ كَلَّفُوا بَقْتْلَهُ وَاقْفُونَ بِالْبَابِ ، وَكَانَ مَعَهُ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابٍ ، فَجَعَلَ يَذْرُوهَا عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، وَأَخَذَ اللَّهُ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ (يس) .

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يُخَطِّطُونَ وَيَمْكُرُونَ وَيُدَبِّرُونَ لِإِيقَاعِ الْأَذَى بِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَاللَّهُ يَمْكُرُ بِهِمْ ، وَيُدَبِّرُ مَا يُقْسِدُ تَدْبِيرَهُمْ ، وَيُعْطِلُ مَكْرَهُمْ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ لِأَنَّ مَكْرَهُ نَصْرٌ لِلْحَقِّ ، وَإِعْزَازٌ لِأَهْلِهِ ، وَخُذْلَانٌ لِلْبَاطِلِ وَحِزْبُهُ .

حِينَمَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَى كُفَّارٍ قُرَيْشٍ كَانُوا يَقُولُونَ : قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَهُ . وَلَكِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَوْلَ شَيْءٍ مِنْهُ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ يَقُومَ بِهِ مَجْلِسُهُ الَّذِي يَقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ ، يَأْتِي النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَيَجْلِسُ مَكَانَ الرَّسُولِ ، وَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَسَاطِيرِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَقَصَصِهِمُ الْقَدِيمَةِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : يَا اللَّهُ أَيُّنَا أَحْسَنُ قِصَصًا أَنَا أَوْ مُحَمَّدٌ؟

يُرَوِّى أَنَّهُ لَمَّا قَالَ النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ : إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ : وَيْلَكَ إِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ . . وَمَعْنَى الْآيَةِ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ لِتَهْدِي بِهِ عِبَادَكَ ، كَمَا يَدْعِي مُحَمَّدٌ ، فَارْجُمْنَا بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ أَنْزِلْ بِنَا عَذَابَكَ الْأَلِيمَ . وَهَذَا الْقَوْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُتُوَ قُرَيْشٍ كَانَ كَبِيرًا ، وَعِنَادُهَا كَانَ بَالِغًا ، إِذْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ ، وَهُوَ مِمَّا عِيبَ عَلَيْهِمْ . وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا إِلَيْهِ ، وَوَقِّفْنَا لِاتِّبَاعِهِ ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .

وَمَا كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ ، وَلَا مِنْ مُقْتَضَى رَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِيهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَرْسَلَكَ رَحْمَةً وَنِعْمَةً ، لَا عَذَابًا وَنَقْمَةً ، وَأَنْ سُنَّتُهُ جَرَتْ إِلَّا يُعَذِّبَ الْمُكَذِّبِينَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ . وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } . ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَنْزَلَ تَعَالَى قَوْلَهُ : { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } فَكَانَ قَدْ بَقِيَ فِي مَكَّةَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ، فَلَمَّا خَرَجُوا أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَمَا لَهُمْ إِلَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } فَأَذَّنَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَتْحِ مَكَّةَ .

(وَقِيلَ فِي مَعْنَى : { وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَيَقُولُونَ : لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَيْتَكَ ، وَيَقُولُونَ : غُفْرَانِكَ اللَّهُمَّ) .

إِنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُمْ يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَالطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ بِهِمُ الْعَذَابَ لِبَرَكَةِ مَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، أَوْفَعَ اللَّهُ بِأَسَاسِهِ فِيهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، لَيْسُوا هُمْ أَهْلُهُ وَأَوْلِيَائُهُ ، فَهُمْ دَنَسُوهُ بِالشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَإِنَّمَا أَهْلُهُ وَأَوْلِيَائُهُ ، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْوِلَايَةَ عَلَيْهِ ، هُمُ النَّبِيُّ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ .

إِنَّهُ لَا يَمِيعُ الْعَذَابُ عَنْهُمْ مَا يَدْعُوهُ مِنْ أَهْمِ وَرَثَةِ إِبْرَاهِيمَ وَسَدَنَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ . . فَهَذِهِ لَيْسَتْ سِوَى دَعْوَى لَا أُسَاسَ لَهَا مِنَ الْوَقَائِعِ . إِنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَ هَذَا الْبَيْتِ وَلَا أَصْحَابَهُ . إِنَّهُمْ أَعْدَاءُ هَذَا الْبَيْتِ وَغَاصِبُوهُ ! إِنْ بَيْتَ اللَّهِ

الحرام ليس تركه يرثها الخلف عن السلف . إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله . . ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم - عليه السلام - فوراثه إبراهيم ليست وراثته دم ونسب ؛ إنما هي وراثته دين وعقيدة . والمتقون هم ورثة إبراهيم وبيت الله الذي بناه الله ؛ فإذا هم يصدون عنه أوليائه الحقيقيين المؤمنين بدين إبراهيم !
إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم . فما هذه بصلاة ! إنما كانت صغيراً بالأفواه وتصفيقاً بالأيدي ، وهرجاً ومرجاً لا وقار فيه ، ولا استشعار لحرمة البيت ، ولا خشوع لهيبة الله .
عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ، ويصفقون ويصفرون .
وإن هذا لينخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين المرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد التي يسمونها "بلاد المسلمين" ! إنما الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة . بعدما برزت في صورتها الواضحة الكبيرة: صورة ألوهية العبيد في الأرض ، وحاكميتهم في حياة الناس . . وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هي تبع لها ، وفرع منها !
(فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . .

وهو ذلك العذاب الذي نزل بهم في بدر بأيدي العصبة المسلمة . فأما العذاب الذي طلبوه - عذاب الاستئصال المعروف - فهو مؤجل عنهم ، رحمة من الله بهم ، وإكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم ومقامه فيهم ، عسى أن ينتهي بهم الأمر إلى التوبة والاستغفار مما هم فيه . في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٢١٥)

{ [الأنفال/ ٣٠-٣٤] ، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا أَوْلِيَاءَ يَتَّبِعُهُ ؛ إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ . وَكَبَتْ فِي الصَّاحِبَيْنِ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَهَارًا غَيْرَ سِرًّا يَقُولُ « إِنَّ آلَ أَبِي » لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبْلَاهُ بِإِلَهِهَا » (١)

(١) - البخاري (٥٩٩٠) ومسلم (٥٤١)

فتح الباري لابن حجر - (ج ١٧ / ص ١١٨)

قوله : (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَهَارًا) يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْمَفْعُولِ أَيْ كَانَ الْمَسْمُوعُ فِي حَالَةِ الْجَهْرِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْفَاعِلِ أَيْ أَقُولَ ذَلِكَ جَهَارًا ،
وقوله : " غَيْرَ سِرًّا " تَأْكِيدٌ لِدَلِيلِ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّهُ جَهَرَ بِهِ مَرَّةً وَأَحْطَاهُ أُخْرَى ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ خَفِيَةً بَلْ جَهَرَ بِهِ وَأَشَاعَهُ .

قوله : (إِنَّ آلَ أَبِي) كَذَا لِلْكَثَرِ بِحَذْفِ مَا يُضَافُ إِلَى أَذَاةِ الْكُنْيَةِ ، وَأَثْبَتَهُ الْمُسْتَمْلِي فِي رَوَايَتِهِ لَكِنْ كُنِيَ عَنْهُ فَقَالَ : " آلَ أَبِي فُلَانٍ " وَكَذَا هُوَ فِي رَوَايَتِي مُسْلِمَ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّ ، وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي أَصْلِ مُسْلِمٍ مَوْضِعٌ " فُلَانٍ " بَيَاضٌ ثُمَّ كَتَبَ بَعْضُ النَّاسِ فِيهِ " فُلَانٍ " عَلَى سَبِيلِ الْإِصْلَاحِ ، وَفُلَانٌ كِنَايَةٌ عَنْ إِسْمِ عَلَمٍ ، وَلِهَذَا وَقَعَ لِبَعْضِ رَوَاتِهِ " إِنَّ آلَ أَبِي يَعْنِي فُلَانٌ " وَلِبَعْضِهِمْ " إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ " بِالْجَزْمِ .

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ : حُدِفَتِ التَّسْمِيَةُ لِنَلَا يَتَذَكَّرُ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ : هَذِهِ الْكِنَايَةُ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ ، خَشِيَ أَنْ يُصْرَحَ بِالْإِسْمِ فَيَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ إِمَّا فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَإِمَّا فِي حَقِّ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا مَعًا . وَقَالَ عِيَّاضٌ : إِنَّ الْمَكْنِيَّ عَنْهُ هُنَا هُوَ الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ . وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعَيْدِ : كَذَا وَقَعَ مِنْهُمَا فِي السِّيَاقِ ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَ قَوْلِهِ آلَ أَبِي ، فَلَوْ كَانَ آلَ بَنِي لَمْ يَكُنْ ، وَلَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ آلَ أَبِي الْعَاصِ لَأَنَّهُمْ أَحْصَوْا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْعَامَ لَا يُفَسَّرُ بِالْخَاصِّ . قُلْتُ : لَعَلَّ مُرَادَ الْقَائِلِ أَنَّهُ أَطْلَقَ الْعَامَ وَأَرَادَ الْخَاصَّ ،

وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ وَهْبِ بْنِ حَفْصِ النَّبِيِّ أَشْرَتْ إِلَيْهَا " أَنَّ آلَ بَنِي " لَكِنْ وَهَبٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ ، وَجَزَمَ الدِّمَاطِيُّ فِي حَوَاشِيهِ بِأَنَّ آلَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِّیَّةَ ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : إِنَّهُ رَأَى فِي كَلَامِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ فِي هَذَا شَيْئًا يُرَاجِعُ مِنْهُ . قُلْتُ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي " سِرَاجِ الْمُتَرِيدِينَ " : كَانَ فِي أَصْلِ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ " أَنَّ آلَ أَبِي طَالِبٍ " فَغَيَّرَ " آلَ أَبِي فُلَانٍ " كَذَا جَزَمَ بِهِ ، وَتَعَقَّبَهُ بَعْضُ النَّاسِ وَبَالَغَ فِي التَّشْنِيعِ وَنَسَبَهُ إِلَى التَّحَامُلِ عَلَى آلِ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَمْ يُصِْبْ هَذَا الْمُنْكَرَ فَإِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا ابْنُ الْعَرَبِيِّ مَوْجُودَةٌ فِي " مُسْتَخْرَجِ أَبِي نُعَيْمٍ " مِنْ طَرِيقِ الْفَضْلِ بْنِ الْمُوَفَّقِ عَنْ عَنَسَةَ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بِسَنَدِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بِيَّانَ بْنِ بَشَرَ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَفَعَهُ " إِنَّ لِبَنِي أَبِي طَالِبٍ رَحِمًا أَبْلَهًا بِلَهَا " وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَيْضًا لَكِنْ أَبْهَمَ لَفْظَ طَالِبٍ ، وَكَأَنَّ الْحَامِلَ لِمَنْ أَبْهَمَ هَذَا الْمَوْضِعَ ظَنَّهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي نَقْصًا فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَلَيْسَ كَمَا تَوَهَّمُوهُ كَمَا سَأَوْضَحُّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَوْلُهُ : (لَيْسُوا بِأَوْلِيَانِي) كَذَا لِلْكَثَرِ وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ " بِأَوْلِيَاءِ " فَنَقَلَ ابْنُ التِّينِ عَنْ الدَّائِدِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا التَّفْهِيمِ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُمْ ، أَيْ فَهُوَ مِنْ إِبْطَالِ الْكُلِّ وَإِرَادَةِ الْبُغْضِ ، وَالْمُنْفَى عَلَى هَذَا الْمَجْمُوعِ لَا الْجَمِيعِ . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : الْوَلَايَةُ الْمُتَقِيَّةُ وَلَايَةُ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصُ لَا وَلَايَةَ الدِّينِ ، وَرَجَّحَ ابْنُ التِّينِ الْأَوَّلَ وَهُوَ الرَّاجِحُ ، فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ آلِ أَبِي طَالِبٍ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا وَهُمَا مِنْ أَحْصَى النَّاسِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا لَهُمَا مِنَ السَّابِقَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ النَّاسِ صِحَّةَ هَذَا الْحَدِيثِ لِمَا نُسِبَ إِلَى بَعْضِ رُوَاتِهِ مِنَ النَّصَبِ وَهُوَ الْإِنْحِرَافُ عَنْ عَلِيٍّ وَآلِ بَيْتِهِ ، قُلْتُ : أَمَّا قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ فَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ تَكَلَّمَ أَصْحَابُنَا فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ قَدْرَهُ وَعَظَّمَهُ وَجَعَلَ الْحَدِيثَ عَنْهُ مِنْ أَصَحِّ الْأَسَانِيدِ حَتَّى قَالَ ابْنُ مَعِينٍ : هُوَ أَوْثَقُ مِنْ الزُّهْرِيِّ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ : لَهُ أَحَادِيثٌ مَنَاقِيرُ ، وَأَجَابَ مَنْ أَطْرَاهُ بِأَنَّهَا غَرَائِبُ وَإِفْرَادُهُ لَا يَقْدَحُ فِيهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبِهِ وَقَالَ : كَانَ يَحْمِلُ عَلَى عَلِيٍّ وَلِذَلِكَ تَجَنَّبَ الرِّوَايَةَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ قُدَمَاءِ الْكُوفِيِّينَ ، وَأَجَابَ مَنْ أَطْرَاهُ بِأَنَّهُ كَانَ يُقَدِّمُ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ . قُلْتُ : وَالْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ ثَبَتَ مَقْبُولُ الرِّوَايَةِ ، وَهُوَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ ، سَمِعَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ فَمَنْ دُونَهُ ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ حَدِيثُ الْبَابِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ وَبِيَّانُ بْنُ بَشَرَ وَهُمَا كُوفِيَانِ وَلَمْ يُنْسَبَا إِلَى النَّصَبِ ، لَكِنَّ الرَّاوِيَّ عَنْ بِيَّانٍ وَهُوَ عَنَسَةُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ أُمَوِيٌّ قَدْ نُسِبَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّصَبِ ، وَأَمَّا عَمْرِو بْنُ الْعَاصِ وَإِنْ كَانَ يَبْنِيهِ وَيَبْنِي عَلِيٍّ مَا كَانَ فَحَاشَاهُ أَنْ يُنْتَهَمَ ، وَلِلْحَدِيثِ مَحَلٌّ صَحِيحٌ لَا يَسْتَلْزِمُ نَقْصًا فِي مُؤْمِنِي آلِ أَبِي طَالِبٍ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْيِ الْمَجْمُوعِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِآلِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو طَالِبٍ نَفْسَهُ وَهُوَ إِطْلَاقُ سَاتِعِ كَقَوْلِهِ فِي أَبِي مُوسَى : " إِنَّهُ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ " وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " آلُ أَبِي أَوْفَى " وَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ مُبَالَغَةً فِي الْإِنْتِفَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِكُونِهِ عَمَهُ وَشَقِيقَ أَبِيهِ وَكَانَ الْقِيَمَ بِأَمْرِهِ وَنَصْرَهُ وَحِمَايَتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمَّا لَمْ يُتَابَعْهُ عَلَى دِينِهِ انْتَفَى مِنْ مَوَالَاتِهِ .

قَوْلُهُ : (إِنَّمَا وَلِيُّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) كَذَا لِلْكَثَرِ بِالْإِفْرَادِ وَإِرَادَةِ الْجُمْلَةِ ، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْبَرْقَانِيِّ " وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ " بِصِيغَةِ الْجَمْعِ ، وَقَدْ أَجَارَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي التَّحْرِيمِ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ " فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجَبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ " لَكِنْ حُذِفَتْ الْوَاوُ مِنَ الْخَطِّ عَلَى وَفْقِ النُّطْقِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : (سَنَدُ الزُّبَانِيَّةِ) وَقَوْلِهِ : (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) وَقَوْلِهِ : (وَيَنْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ) وَقَالَ التَّوَوِيُّ : مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ وَلِيَّيَ مَنْ كَانَ صَالِحًا وَإِنْ بَعْدَ مَنِّي نَسَبِهِ ، وَلَيْسَ وَلِيَّيَ مَنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ وَإِنْ قُرْبَ مَنِّي نَسَبِهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فَائِدَةُ الْحَدِيثِ انْقِطَاعُ الْوَلَايَةِ فِي الدِّينِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا حَمِيمًا . وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ : أَوْجَبَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْوَلَايَةَ بِالْدِّينِ وَنَفَاهَا عَنْ أَهْلِ رَحِمِهِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ دِينِهِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّسَبَ يَحْتَاجُ

إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْمَوَارِثَةُ بَيْنَ الْمُتَنَاسِلِينَ ، وَأَنَّ الْأَقَارِبَ إِذَا لَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ تَوَارُثٌ وَلَا وَلَايَةٌ ، قَالَ : وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّحِمَ الْمَأْمُورَ بِصِلَتِهَا وَالْمُتَوَعَّدَ عَلَى قَطْعِهَا هِيَ الَّتِي شَرَعَ لَهَا ذَلِكَ ، فَأَمَّا مَنْ أَمَرَ بِقَطْعِهِ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ فَيُسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَلْحَقُ بِالْوَعِيدِ مَنْ قَطَعَهُ لِأَنَّهُ قَطَعَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِقَطْعِهِ ، لَكِنْ لَوْ وَصَلُوا بِمَا يُبَاحُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا لَكَانَ فَضْلًا ، كَمَا دَعَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقُرَيْشٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كَذَّبُوهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِالْقَحْطِ ثُمَّ اسْتَشْفَعُوا بِهِ فَرَقَّ لَهُمْ لَمَّا سَأَلُوهُ بِرَحِمِهِمْ فَرَحِمَهُمْ وَدَعَا لَهُمْ . قُلْتُ : وَيَتَعَقَّبُ كَلَامَهُ فِي مَوْضِعَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : يُشَارِكُهُ فِيهِ كَلَامَ غَيْرِهِ وَهُوَ قَصْرُهُ النَّفْيِ عَلَى مَنْ لَيْسَ عَلَى الدِّينِ ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ فِي أَعْمَالِ الدِّينِ دَخَلَ فِي النَّفْيِ أَيْضًا لِتَقْيِيدِهِ الْوَلَايَةَ بِقَوْلِهِ : " وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ " ، وَالثَّانِي : أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ الْكَافِرِ يَنْبَغِي تَقْيِيدُهَا بِمَا إِذَا أَيْسَ مِنْهُ رُجُوعًا عَنْ الْكُفْرِ ، أَوْ رَجَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ صُلْبِهِ مُسْلِمٌ ، كَمَا فِي الصُّورَةِ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا وَهِيَ دُعَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقُرَيْشٍ بِالْخِصْبِ وَعُلِّلَ بِنَحْوِ ذَلِكَ ، فَيَحْتَاجُ مَنْ يَتَرَخَّصُ فِي صِلَةِ رَحِمِهِ الْكَافِرِ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ عَلَى الدِّينِ وَلَكِنَّهُ مُقْصِرٌ فِي الْأَعْمَالِ مَثَلًا فَلَا يُشَارِكُ الْكَافِرَ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ وَقَعَ فِي " شَرْحِ الْمَشْكَاةِ " : الْمَعْنَى أَنِّي لَا أُولِي أَحَدًا بِالْقَرَابَةِ ، وَإِنَّمَا أَحَبُّ اللَّهُ تَعَالَى لِمَا لَهُ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَى الْعِبَادِ ، وَأَحَبُّ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأُولِي مَنْ أُولِي بِالْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ سَوَاءً كَانَ مِنْ ذَوِي رَحِمٍ أَوْ لَا ، وَلَكِنْ أُرْعَى لَذَوِي الرَّحِمِ حَقَّهُمْ لِصِلَةِ الرَّحِمِ ، انْتَهَى . وَهُوَ كَلَامٌ مُنْقَحٌ . وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ) عَلَى أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : الْأَنْبِيَاءُ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ، وَذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَأَخْرَجَهُ النَّقَّاشُ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ .

الثَّانِي : الصَّحَابَةُ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ السُّدِّيِّ ، وَنَحْوَهُ فِي تَفْسِيرِ الْكَلْبِيِّ قَالَ : هُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَأَشْبَاهُهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُتَنَافِقٍ .

الثَّلَاثُ : خِيَارُ الْمُؤْمِنِينَ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الصَّحَّاحِ .

الرَّابِعُ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ .

الخَامِسُ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الصَّحَّاحِ أَيْضًا ، وَكَذَا هُوَ فِي تَفْسِيرِ عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ سَعِيدٍ الثَّقَفِيِّ أَحَدِ الضَّعَفَاءِ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوفًا ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ ضَعِيفٍ عَنْهُ كَذَلِكَ ، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : وَرَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ كَذَلِكَ .

السَّادِسُ : أَبُو بَكْرٍ خَاصَّةً ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ الْمُسَيَّبِ بْنِ شَرِيكٍ .

السَّابِعُ : عُمَرُ خَاصَّةً أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدٍ وَاهٍ جَدًّا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثَّامِنُ : عَلِيٌّ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ عَلِيٍّ نَفْسَهُ مَرْفُوعًا ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : هُوَ عَلِيٌّ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدَيْنِ ضَعِيفَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ مَرْفُوعًا قَالَتْ : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ " وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي مَالِكٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ مَوْفُوفًا وَفِي سَنَدِهِ رَاوٍ ضَعِيفٌ ، وَذَكَرَهُ النَّقَّاشُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ وَابْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ . قُلْتُ : فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا فَفِيهِ دَفْعٌ تَوْهُمٍ مَنْ تَوْهُمُ أَنَّ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ نَهْضًا مِنْ قَدَرِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ عَنْهُ وَيَكُونُ الْمُتَقِيُّ أَبَا طَالِبٍ وَمَنْ مَاتَ مِنْ آلِهِ كَافِرًا ، وَالْمُشْتَبَّحُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنًا ، وَخُصَّ عَلِيٌّ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ رَأْسَهُمْ ، وَأُشِيرَ بِلَفْظِ الْحَدِيثِ إِلَى لَفْظِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ وَنُصِّ فِيهَا عَلَى عَلِيٍّ تَنْوِيهًا بِقُدْرِهِ وَدَفْعًا لِظَنِّ مَنْ يُتَوَهَّمُ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ غَضَاظَةً ، وَلَوْ تَقَطَّنَ مَنْ كَتَبَ عَنْ أَبِي طَالِبٍ لِذَلِكَ لَأَسْتَعْنَى عَمَّا صَنَعَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ : (وَزَادَ عَبَسَةُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ) أَيِ ابْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أَبِي أَحِيحَةَ بِمُهِمَلَيْنِ مُصَغَّرًا وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ ؛ وَهُوَ مَوْثُوقٌ عَنْهُمْ ، وَمَا لَهُ فِي الْبُخَارِيِّ سِوَى هَذَا الْمَوْضِعِ الْمُعْلَقِ ، وَقَدْ وَصَلَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ فَقَالَ : " حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَبَسَةَ حَدَّثَنَا جَدِّي " فَذَكَرَهُ وَأَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ رِوَايَةِ نَهْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَذْكُورِ وَسَاقَهُ بِلَفْظٍ " سَمِعْتُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَادِي جَهْرًا غَيْرَ سِرٍّ : إِنَّ بَنِي أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَاءِي ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ " الْحَدِيثُ وَقَدْ قَدِّمْتُ لَفْظَ رِوَايَةِ الْفَضْلِ بْنِ الْمُؤَقِّقِ عَنْ عَبَسَةَ مِنْ عِنْدِ أَبِي نُعَيْمٍ وَأَنَّهَا أَخَصُّ مِنْ هَذَا .

قَوْلُهُ : (وَلَكِنْ لَهَا رَحِمٌ أَبْلَاهَا بِبِلَالِهَا ، يَعْنِي أَصْلَهَا بِصِلَتِهَا) كَذَا لَهُمْ ، لَكِنْ سَقَطَ التَّفْسِيرُ مِنْ رِوَايَةِ التَّسْفِيِّ ، وَوَقَعَ عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ بَعْدَهُ " أَبْلَاهَا بِبِلَالِهَا " وَبَعْدَهُ فِي الْأَصْلِ : كَذَا وَقَعَ ، وَبِلَالُهَا أَجُودُ وَأَصَحُّ . وَبِلَالُهَا لَا أَعْرِفُ لَهُ وَجْهًا ، انْتَهَى . وَأُظْنُهُ مِنْ قَوْلِهِ " كَذَا وَقَعَ الْخُ " مِنْ كَلَامِ أَبِي ذَرٍّ ، وَقَدْ وَجَّهَ الدَّوْدِيُّ فِيمَا نَقَلَهُ ابْنُ التَّيْنِ هَذِهِ الرِّوَايَةَ عَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا أَنَّ الْمُرَادَ مَا أَوْصَلَهُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَذَى عَلَى تَرْكِهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَعَقُّبُهُ ابْنَ التَّيْنِ بِأَنَّهُ لَا يُقَالُ فِي الْأَذَى أَبْلَاهُ ، وَوَجَّهَهَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْبِلَاءَ بِالْمَدِّ يَجِيءُ بِمَعْنَى الْمَعْرُوفِ وَالْإِنْعَامِ ، وَلَمَّا كَانَ الرَّحِمُ مِمَّا يَسْتَحِقُّ الْمَعْرُوفَ أَضِيفَ إِلَيْهَا ذَلِكَ . فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَصْلُهَا بِالْمَعْرُوفِ اللَّاتِقِ بِهَا . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرِّوَايَةَ إِنَّمَا هِيَ " بِبِلَالِهَا " مُشْتَقٌّ مِنْ أَبْلَاهَا ، قَالَ التَّوَوِيُّ : ضَبَطْنَا قَوْلَهُ : " بِبِلَالِهَا " بَفَتْحِ الْمُوحَّدَةِ وَبِكَسْرِهَا وَهَمَّا وَجْهَانِ مَشْهُورَانِ . وَقَالَ عِيَّاضٌ : رَوَيْنَاهُ بِالْكَسْرِ ، وَرَأَيْتُهُ لِلْخَطَّابِيِّ بِالْفَتْحِ . وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ : هُوَ بِالْفَتْحِ لِلْكَثَرِ وَلِبَعْضِهِمْ بِالْكَسْرِ . قُلْتُ : بِالْكَسْرِ أَوْجَهُ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْبِلَالِ جَمْعٌ بَلَلٌ مِثْلُ جَمَلٍ وَجَمَالٍ ، وَمَنْ قَالَهُ بِالْفَتْحِ بَنَاهُ عَلَى الْكَسْرِ مِثْلُ قِطَامٍ وَحَدَامٍ . وَالْبِلَالُ بِمَعْنَى الْبَلَلِ وَهُوَ التَّدَاوَةُ ، وَأُطْلِقَ ذَلِكَ عَلَى الصَّلَةِ كَمَا أُطْلِقَ الْيُسُ عَلَى الْقَطِيعَةِ ، لِأَنَّ التَّدَاوَةَ مِنْ شَأْنِهَا تَجْمِيعُ مَا يَحْصُلُ فِيهَا وَتَأْلِيفُهُ ، بِخِلَافِ الْيُسُ فَمِنْ شَأْنِهِ التَّفْرِيقُ . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ : بَلَلْتُ الرَّحِمَ بَلًّا وَبَلَلًا وَبَلَالًا أَيْ نَدَيْتُهَا بِالصَّلَةِ . وَقَدْ أَطْلَقُوا عَلَى الْإِعْطَاءِ النَّدَى وَقَالُوا فِي الْبَحِيلِ مَا تَنْدَى كَفَهُ بِخَيْرٍ ، فَشَبِّهَتْ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ بِالْحَرَارَةِ وَوَصَلَهَا بِالنِّمَاءِ الَّذِي يُطْفِئُ بَرْدَهُ الْحَرَارَةَ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ " بَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ " وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ وَغَيْرُهُ : شَبَّهَ الرَّحِمَ بِالْأَرْضِ الَّتِي إِذَا وَقَعَ عَلَيْهَا الْمَاءُ وَسَقَاهَا حَتَّى سَفِيهَا أَزْهَرَتْ وَرُبِّيَتْ فِيهَا النَّصَارَةُ فَأَثْمَرَتْ الْمَحَبَّةَ وَالصَّفَاءَ ، وَإِذَا تُرِكَتْ بِغَيْرِ سَقْيٍ يَسْتَوْسِقُ وَبَطَلَتْ مَنَفْعَتُهَا فَلَا تُثْمِرُ إِلَّا الْبُغْضَاءَ وَالْجَفَاءَ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ سَنَةَ جَمَادٍ أَيْ لَا مَطَرٍ فِيهَا ، وَنَاقَةَ جَمَادٍ أَيْ لَا لَبَنَ فِيهَا . وَجَوَزَ الْخَطَّابِيُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " أَبْلَاهَا بِبِلَالِهَا " فِي الْآخِرَةِ أَيْ أَشْفَعَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَتَعَقُّبُهُ الدَّوْدِيُّ بِأَنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ يُؤْذِنُ أَنَّ الْمُرَادَ مَا يَصِلُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا ، فَعَمَّ وَخَصَّ - إِلَى أَنْ قَالَ - يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلَاهُ بِبِلَالِهَا " وَأَصْلُهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ . وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ : فِي قَوْلِهِ : " بِبِلَالِهَا " مُبَالَغَةٌ بِدِيعَةٍ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) أَيْ زَلْزَالَهَا الشَّدِيدِ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ ، فَالْمَعْنَى أَبْلَاهُ بِمَا أُشْتَهَرَ وَشَاعَ بِحَيْثُ لَا أَتْرُكُ مِنْهُ شَيْئًا .

. يَعْنِي أَصْلُهَا بِصِلَتِهَا، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {.. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (١)(٤) سورة النحر. وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ: هُوَ مَنْ كَانَ صَالِحًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢).

الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ

وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ . وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَسَائِرُ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ أَخْبَرْتَنِي أُمُّ مَيْشَرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا ». قَالَتْ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَاتَّهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا) (٣). وَمِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرِ: { إِنْ أَوْلِيَائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا، } (٤).

(١) - أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخدول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

(٢) - وفي تفسير الرازي - (ج ١٥ / ص ٣٨٥)

{ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ } . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يريد أبا بكر وعمر وموالي النبي صلى الله عليه وسلم على من عاداه ، وناصرين له ، وهو قول المقاتلين ، وقال الضحاك خيار المؤمنين ، وقيل من صلح من المؤمنين ، أي كل من آمن وعمل صالحاً ، وقيل : من برىء منهم من النفاق ، وقيل : الأنبياء كلهم ، وقيل : الخلفاء وقيل : الصحابة ، وصالح ههنا ينوب عن الجمع ، ويجوز أن يراد به الواحد والجمع ، وقوله تعالى : { وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ } أي بعد حضرة الله وجبريل وصالح المؤمنين { ظهير } أي فوج مظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعوان له وظهير في معنى الظهراء ، كقوله : { وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا } [النساء : ٦٩] قال الفراء : والملائكة بعد نصرته هؤلاء ظهير ، قال أبو علي : وقد جاء فعيل مفرداً يراد به الكثرة كقوله تعالى : { وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُصِرُّوهُمْ } [المعارج : ١٠ ، ١١]

(٣) - صحيح مسلم (٦٥٦٠) و سنن أبي داود (٤٦٥٥)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٢٦٦):

قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَعْنَاهُ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطْعًا كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ حَدِيثُ حَاطِبٍ ، وَإِنَّمَا قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلتَّبَرُّكِ ، لَا لِلشَّكِّ .

وَأَمَّا قَوْلُ حَفْصَةَ : (بَلَى) ، وَانْتِهَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا ، فَقَالَتْ : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وَقَدْ قَالَ : (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا) فِيهِ دَلِيلٌ لِلْمُنَاطَرَةِ وَالْإِعْتِرَاضِ وَالْجَوَابِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِشَادِ ، وَهُوَ مَقْصُودُ حَفْصَةَ ، لَا أَنَّهُمَا أَرَادَتْ رَدَّ مَقَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوُرُودِ فِي الْآيَةِ الْمُرُورَ عَلَى الصَّرَاطِ ، وَهُوَ جِسْرٌ مَنْصُوبٌ عَلَى جَهَنَّمَ ، فَيَقَعُ فِيهَا أَهْلُهَا ، وَيَنْجُو الْآخَرُونَ .

(٤) - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ، ثُمَّ انْفَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: "إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَتَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ أَوْلِيَّائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَحِلُّ لَهُمْ فُسَادَ مَا أَصْلَحْتَ، وَأَيُّمُ اللَّهُ، لَتَكْفَأُ أُمَّتِي عَلَى دِينِهَا كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ فِي الْبُطْحَاءِ" المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٥ / ص ٣٤) (١٦٦٥) وغيره من طريق وهو حديث قوي

كَمَا أَنَّ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلِيًّا لِلَّهِ ؛ بَلْ عَدُوٌّ لَهُ فَكَذَلِكَ مِنَ الْمُنافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ يُقْرُونَ فِي الظَّاهِرِ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ ؛ بَلْ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَيَعْتَقِدُونَ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنْقِضُ ذَلِكَ (١) ، مِثْلُ أَلَّا يُقْرُوا فِي الْبَاطِنِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا سَاسَ النَّاسِ بِرَأْيِهِ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ ، أَوْ يَقُولُونَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْأُمِّيِّينَ (٢) دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ (٣) ، وَأَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ خَاصَّةً لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ؛ بَلْ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ ، كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى (٤)

(١) - وهذا هو النفاق العقدي الذي قال تعالى في أصحابه { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } (١٤٥) سورة النساء

(٢) - الأُمِّيُّونَ العرب ، قال تعالى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمَيِّمِينَ } (٢) سورة الجمعة

(٣) - كما قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (٢٨) سورة سبأ

(٤) - عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ . فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ ، حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيئًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ أَنَا أَعْلَمُ . فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَرِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ . قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ نَمٌّ ، فَانْطَلِقْ وَانْطَلِقْ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ ، وَحَمَلًا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا ، فَانْطَلَقَا بِقِيَّةٍ لَيْلِيَّتِهِمَا وَيَوْمِيَّتِهِمَا فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ، قَالَ مُوسَى ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًى بِثَوْبٍ - أَوْ قَالَ تَسَجًى بِثَوْبِهِ - فَسَلَّمَ مُوسَى . فَقَالَ الْخَضِرُ وَأَنْتَ بَارِضُكَ السَّلَامُ فَقَالَ أَنَا مُوسَى . فَقَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ . قَالَ هَلْ أَتَّبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ ، فَمَرَّتَ بِهِمَا سَفِينَةٌ ، فَكَلَّمُوهُمُ أَنَّ

يَحْمِلُوهُمَا ، فَعَرَفَ الْخَضِرُ ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَفَقَّرَ قَرَّةً أَوْ نَقَرَتْنِ فِي الْبَحْرِ . فَقَالَ الْخَضِرُ يَا مُوسَى ، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعَلِمْتُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقَرَةٍ هَذَا الْعُصْفُورُ فِي الْبَحْرِ . فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلَوَاحِ السَّفِينَةِ فَتَنَزَعَهُ . فَقَالَ مُوسَى قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا

لُغَرِقَ أَهْلُهَا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ . فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا . فَأَنْطَلَقَا فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ ، فَآخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَأَقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ . فَقَالَ مُوسَى أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا - قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَهَذَا أَوْكَدُ - فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ . قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَاقَامَهُ . فَقَالَ لَهُ مُوسَى لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى ، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا » . صحيح البخاري (١٢٢)

المسحى : المغطى = تسجى : تغطى = يقض : يسقط = المكمل : القفة الكبيرة = النول : العطاء والأجر
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ : إِنْسَهُمْ وَجَنَّهُمْ وَزَهَّادَهُمْ وَمُلُوكَهُمْ . وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا بَعَثَ إِلَى قَوْمِهِ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ وَلَا كَانَ يَجِبُ عَلَى الْخَضِرِ اتِّبَاعُهُ ؛ بَلْ قَالَ لَهُ : إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ . وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثَ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً } وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وَقَالَ تَعَالَى . { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } { مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٨)

، أَوْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنِ اللَّهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَهُمْ مُوَافِقُونَ لَهُ فِيهَا، وَأَمَّا الْحَقَائِقُ الْبَاطِنَةُ فَلَمْ يُرْسَلْ بِهَا، أَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا، أَوْ هُمْ أَعْرَفُ بِهَا مِنْهُ أَوْ يَعْرِفُونَهَا مِثْلَ مَا يَعْرِفُهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقَتِهِ (١) . وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ : " أَهْلُ الصُّفَّةِ " (٢)

(١) - قلت : كل هذه الطرق باطلة ، ومنافية لحكم القرآن والسنة والإجماع .

(٢) - وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٥ / ص ٨٦١٨)

رقم الفتوى ٣٩٦٥٤ أهل الصفة أضياف الإسلام

تاريخ الفتوى : ٠٦ رمضان ١٤٢٤

السؤال من هم أهل الصفاء؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فلعلك تقصد أهل الصفة الذين هم طائفة من فقراء المهاجرين، كانوا يسكنون مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو هريرة رضي الله عنه كما في صحيح البخاري: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته -أي رسول الله صلى الله عليه وسلم- صدقة، بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية، أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. رواه البخاري .

فهذه هي حالتهم رضي الله تعالى عنهم، وإن كنت تقصد غيرهم، فمرجو التوضيح للسؤال.

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٤)

وَأَمَّا حَالُ " أَهْلِ الصُّفَّةِ " هُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا فِي الصُّفَّةِ أَوْ كَانُوا يَكُونُونَ بِهَا بَعْضَ

الْأَوْقَاتِ فَكَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَيْثُ بَيَّنَّ مُسْتَحَقِّي الصَّدَقَةِ مِنْهُمْ وَمُسْتَحَقِّي الْفَيْءِ مِنْهُمْ . فَقَالَ : { إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } - إِلَى قَوْلِهِ - { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } . وَقَالَ فِي أَهْلِ الْفَيْءِ : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } . وَكَانَ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَغَيْرِهِمْ يَكْتَسِبُونَ عِنْدَ إِمْكَانِ الْاِكْتِسَابِ الَّذِي لَا يَصْلُهُمْ عَمَّا هُوَ أَوْ جَبَّ أَوْ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْكَسْبِ وَأَمَّا إِذَا أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ الْكَسْبِ فَكَانُوا يُقَدِّمُونَ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ ضُيُوفَ الْإِسْلَامِ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَكُونُ عِنْدَهُ فَإِنَّ الْغَالِبَ كَانَ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ لَا يَقُومُ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَسْبِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ . وَأَمَّا " الْمَسْأَلَةُ " فَكَانُوا فِيهَا كَمَا أَدَّبَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَرَّمَهَا عَلَى الْمُسْتَعْنِي عَنْهَا وَأَبَاحَ مِنْهَا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ حَقَّهُ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَ ذَا السُّلْطَانِ أَنْ يُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ أَوْ يَسْأَلَ إِذَا كَانَ لَا بُدَّ سَائِلًا الصَّالِحِينَ الْمُؤْسِرِينَ إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ وَنَهَى خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مُطْلَقًا حَتَّى كَانَ السُّوْطُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ : نَاوِلْنِي إِيَّاهُ . وَهَذَا الْبَابُ فِيهِ أَحَادِيثُ وَتَفْصِيلٌ . وَكَلَامُ الْعُلَمَاءِ لَا يَسَعُهُ هَذَا الْمَكَانُ . مِثْلُ { قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُنْبِعْهُ نَفْسَكَ } وَمِثْلُ قَوْلِهِ : { مَنْ يَسْتَعْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصِرَّهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ } وَمِثْلُ قَوْلِهِ : { مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا أَوْ خُمُوشًا أَوْ كُدُوشًا فِي وَجْهِهِ } وَمِثْلُ قَوْلِهِ : { لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَلْتَمِسَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ } إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

فصل :

وَأَمَّا تَفْصِيلُ " أَهْلِ الصُّفَّةِ " عَلَى الْعَشْرَةِ وَغَيْرِهِمْ فَخَطَأً وَضَلَالًا بَلْ خَيْرٌ هَذِهِ الْأَمَّةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ كَمَا تَوَاتَرَ ذَلِكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا وَكَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأَمَّةِ وَأَنْمَةُ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَبَعْدَهُمَا عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الشُّورَى : مِثْلُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ - أَمِينَ هَذِهِ الْأَمَّةِ - وَمَعَ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ . هُمُ الْعَشْرَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْحِجَّةِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } . فَفَضَّلَ اللَّهُ السَّابِقِينَ قَبْلَ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَى الْجِهَادِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى التَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ { فَرَضِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي فَضْلِ الْبَذَرِيِّنَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَالْعَشْرَةِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ إِلَّا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ . فَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ أَقَامَ بِالصُّفَّةِ مَرَّةً وَأَمَّا أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِثْلُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَمِثْلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَأَسِيدِ بْنِ الْحَضِرِ وَعَبَادِ بْنِ بَشِيرٍ وَأَبِي أُيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي بَنٍ كَعْبٍ وَنَحْوَهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ " أَهْلِ الصُّفَّةِ " بَلْ عَامَّةُ أَهْلِ الصُّفَّةِ إِنَّمَا كَانُوا مِنْ فَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ؛ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا فِي دِيَارِهِمْ . وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَنْذِرُ لِأَهْلِ

الصُّفَّةَ وَلَا لِيَغْيَرَهُمْ .

وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا فَقَرَاءَ ضُغَاءَ وَلَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ بِسُلْطَانِهِ وَمَالِهِ وَلَا بِذُلِّهِ وَقَفَرِهِ وَإِنَّمَا يَتَقَدَّمُ عِنْدَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَتَهَيَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُطِيعَ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِبْعَادَ مَنْ كَانَ ضَعِيفًا أَوْ فَقِيرًا وَأَمْرَهُ أَلَّا يَطْرُدَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُرِيدُ وَجْهَهُ وَأَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَهُمْ فِي الْجَمَاعَةِ الَّتِي أَمَرَ فِيهَا بِالْاجْتِمَاعِ بِهِمْ كَصَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ وَلَا يُطِيعُ أَمْرَ الْغَافِلِينَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ لِأَهْوَانِهِمْ .

كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهُ وَلَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فِي الْبَاطِنِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ (١)

(١) - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « فَرَجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَتَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَعُهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ . قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ . قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَقَالَ أُرْسِلْ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ . فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكٌ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَسَارِهِ بَكَى ، فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ . قُلْتُ لِجِبْرِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا آدَمُ . وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ تَسْمُ بَنِيهِ ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكٌ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى ، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ . فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُ فَفَتَحَ . » . قَالَ أَنَسٌ فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَلَمْ يُنَبِّتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ . قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِدْرِيسَ قَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ . فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِدْرِيسُ . ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ . قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا مُوسَى . ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ . قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا عِيسَى . ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ . قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَفْلَامِ » . قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ قُلْتُ فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً . قَالَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَإِنْ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ . فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ وَضَعَ شَطْرَهَا . فَقَالَ رَاجِعْ رَبِّكَ ، فَإِنْ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ، فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَإِنْ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجَعْتُهُ . فَقَالَ هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى . فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ رَاجِعْ رَبِّكَ . فَقُلْتُ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي . ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ » . صحيح البخاري

الأسودة : جمع سواد وهو الشخص =الصريف : صوت جريها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه =ظهرت : علوت

، فَصَارَ أَهْلُ الصُّفَّةِ بِمَنْزِلَتِهِ ، وَهُؤُلَاءِ مِنْ فَرَطٍ جَهْلِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِمَكَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } (١)(١) سورة الإسراء ، وَأَنَّ الصُّفَّةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ صُفَّةً فِي شِمَالِي مَسْجِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ بِهَا الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ يَنْزِلُونَ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَهْجُرُونَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَمَنْ أَمَكْنَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي مَكَانٍ نَزَلَ بِهِ ، وَمَنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَزَلَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَكَانٌ يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ " أَهْلُ الصُّفَّةِ " نَاسًا بِأَعْيَانِهِمْ يُلَازِمُونَ الصُّفَّةَ ، بَلْ كَانُوا يَقُولُونَ تَارَةً وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى ، وَيَقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا زَمَانًا ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهَا : وَالَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِهَا مِنْ جَنْسٍ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لَيْسَ لَهُمْ مَرِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا دِينٍ ؛ بَلْ فِيهِمْ مَنْ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالْعَرَنِيِّينَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الْمَدِينَةَ - أَيْ اسْتَوْحَمُوهَا - فَأَمَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلِقَاحٍ - أَيْ إِبِلَ لَهَا لَبَنٌ - وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَلَمَّا صَحَّحُوا قَتَلُوا الرَّاعِي وَاسْتَأْفُوا النُّوَدَ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَلِبِهِمْ فَأَتَى بِهِمْ فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَسَمَرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ وَحَدِيثُهُمْ فِي الصَّحِاحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ (٢) وَفِيهِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا الصُّفَّةَ ، فَكَانَ يَنْزِلُهَا مِثْلُ هَؤُلَاءِ ، وَنَزَلَهَا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ نَزَلَ بِالصُّفَّةِ ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْهَا ، وَنَزَلَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ . وَقَدْ جَمَعَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ تَارِيخَ مَنْ نَزَلَ الصُّفَّةَ .

(١) - يمجّد الله نفسه ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، لا إله غيره، ولا رب سواه، فهو الذي أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم زمناً من الليل بجسده وروحه، يقظة لا مناماً، من المسجد الحرام بـ "مكة" إلى المسجد الأقصى بـ "بيت المقدس" الذي بارك الله حوله في الزروع والثمار وغير ذلك، وجعله محلاً لكثير من الأنبياء؛ ليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدانيته. إن الله سبحانه وتعالى هو السميع لجميع الأصوات، البصير بكل مبصر، فيعطي كل ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

(٢) - عَنْ أَبِي قِلَابَةَ حَدَّثَنِي أَنَسٌ أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَاسْتَوْحَمُوا الْأَرْضَ وَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-. فَقَالَ « أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا ». فَقَالُوا بَلَى. فَخَرَجُوا فَشَرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحَّحُوا فَقَتَلُوا الرَّاعِيَّ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ فَلَبَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأُذِرَهُمْ فَأَذْرَكُوا فَجِئَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسَمِرَ أَعْيُنُهُمْ ثُمَّ بُدُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. وَقَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ فِي رِوَايَتِهِ وَاطَرَدُوا النَّعَمَ. وَقَالَ وَسَمَرَتْ أَعْيُنُهُمْ. صحيح مسلم (٤٤٤٦) والبخاري (٦٨٩٩)

سمر : أحمى لهم مسامير الحديد ثم كحلهم بها =استوحوا : أصابهم الوحم بها وكرهوا الإقامة فيها

وَأَمَّا " النَّاصِرُ " فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَكَذَلِكَ أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ . وَقَدْ { رُوِيَ أَنَّهُ بِهَا غُلَامٌ لِلْمُعْرِةِ بْنِ شُعْبَةَ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : هَذَا وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ } وَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَإِنْ

كَانَ قَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ، وَكَذَا كُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةٍ " الْأَوْلِيَاءِ " وَ " الْأَبْدَالِ " وَ " الثَّقَبَاءِ " وَ " النُّجَبَاءِ " وَ " الْأَوْتَادِ " وَ " الْأَقْطَابِ (١) " مِثْلُ أَرْبَعَةٍ أَوْ سَبْعَةٍ أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثَةً عَشَرَ أَوْ الْقُطْبِ الْوَاحِدِ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ صَحِيحٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَنْطِقِ السَّلَفُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِلَّا بِلَفْظِ " الْأَبْدَالِ " . وَرُوِيَ فِيهِمْ حَدِيثُ أَنَّهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا وَأَنَّهُمْ بِالشَّامِ وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ بِثَابِتٍ (٢) .

(١) - (أحاديث الأقطاب والأغوات والنقباء والنجباء والأوتاد) لم يصح منها شيء أسنى المطالب في أحاديث

مختلفة المراتب - (ج ١ / ص ٣٤٤)

(٢) - وفي مسند أحمد (٩٠٨) حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ حَدَّثَنِي شَرِيحٌ - يَعْنِي ابْنَ عُبَيْدٍ - قَالَ ذَكَرَ أَهْلُ الشَّامِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ فَقَالُوا الْعَنْهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ لَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلًا يُسْقَى بِهِمُ الْعَيْثُ وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ » .

حم ١١٢/١ والضياء ١١٠/٢ و١١٢/١ (٤٨٤-٤٨٦) وصحح إسناده ومجموع ١٠/٦٢ و٦٣ من طرق ونواد

الأصول ١/٢٦١ و٣/٦٣ وفضائل الصحابة (١٧٢٧) والإتحاف ٨/٣٨٦ وعساكر

١/٢٨٩ و٢٩٢ و٢٩٦ و٢٩٩ و٣٠٠ و٣٤٠ والقول المسدد - (ج ١ / ص ٨٣) الحديث التاسع

وفي ذيل القول للمسدد - (ج ١ / ص ٨٤)

قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي النِّكَتِ خَبَرَ الْأَبْدَالِ صَحِيحٌ فَضْلاً عَمَّا دُونَ ذَلِكَ وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ مِتَوَاتِرٌ وَقَدْ أَفْرَدْتَهُ بِتَأْلِيفٍ اسْتَوْعَبَتْ فِيهِ طَرُقَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ طَرِيقَيْنِ وَعَلَى أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ طَرُقٍ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةٍ بَعْضُهَا عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ وَأَنَسَ وَلَهُ سِتُّ طَرُقٍ مِنْهَا طَرِيقٌ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْأَوْسَطِ حَسَنُهُ الْمِثْمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ وَعِبَادَةُ ابْنِ الصَّامِتِ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَابْنُ عُمَرَ وَلَهُ ثَلَاثُ طَرُقٍ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ لِلطَّبْرَانِيِّ وَكِرَامِيَّاتِ الْأَوْلِيَاءِ لِلخَلَالِ وَلَأَبِي نَعِيمٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَلَهُ طَرِيقَانِ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ وَالْحَلِيَّةِ وَعَوْفُ بْنُ مَالِكٍ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَخْرَجَهُ الدِّلَمِيُّ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَلَهُ طَرِيقٌ أُخْرَى غَيْرَ الَّتِي أوردَهَا ابْنُ الْجَوْزِيِّ أَخْرَجَهَا الْخَلَالُ فِي كِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَأَمَّ سَلْمَةَ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ فِي سَنَنِهِ وَالْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَمَنْ مُرْسِلُ الْحَسَنِ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي السَّخَاءِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ وَمَنْ مُرْسِلُ عَطَاءٍ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاثِيلِهِ وَمَنْ مُرْسِلُ بَكْرِ بْنِ خُثَيْسٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَنْ مُرْسِلُ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ وَأَمَّا الْأَثَارُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقَتَادَةَ وَخَالِدَ بْنِ مَعْدَانَ وَأَبِي الزَّاهِرِيَّةِ وَابْنِ شَوْذَبٍ وَعَطَاءٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْلَهُمْ فَكَثِيرَةٌ جَدًّا وَمِثْلُ ذَلِكَ بَالِغُ حَدِّ التَّوَاتُرِ الْمَعْنَوِيِّ لَا مُحَالَةَ بِحَيْثُ يَقْطَعُ بِصِحَّةِ وَجُودِ الْأَبْدَالِ ضَرُورَةً انْتَهَى

قلت : فالحديث على الأقل صحيح لغيره

ولم يصب من ادَّعى وضع هذا الحديث كإبن الجوزي ، ولا من ضَعَفَهُ فهو صحيحٌ على كافَّةِ الشروط التي وضعها العلماء للحديث الصحيح لغيره لكنَّ غَلَطَ بعضُ الناسِ في تفسير هذا الحديث لا يُبطلُهُ .

وهؤلاء الأبدال من العلماء والزهاد والفقهاء والمحدثين من المخلصين من هذه الأمة بما فيهم المجاهدين في سبيل الله

وهؤلاء طائعون لله ، يحبون الخير للناس لا يحقدون على غيرهم ، ويقدمون مصلحة الإسلام على مصلحتهم ، ولا يشترط أن يعرف البديل أنه منهم وأما ماورد عن الأوتاد والأقطاب والأغواث فلم يرد فيه شيء صحيح انظر الإتحاف ٣٨٥/٨-٣٨٦

وقال الحكيم في النوادر عنهم ٢٦٢/١-٢٦٣ : قال أبو الدرداء : إن الأنبياء عليهم السلام كانوا أوتاد الأرض فلما انقطعت النبوة أبدل الله تعالى مكافهم قوماً من أمة أحمد يقال لهم الأبدال لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا تسييح ولكن بحسن الخلق وصدق الورع ، وحسن النية وسلامة قلوبهم لجميع المسلمين والنصيحة لله تعالى ابتغاء مرضاته بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله تعالى لنفسه واستخلصهم بعلمه لنفسه وهم أربعون صديقاً منهم ثلاثون رجلاً على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن بهم تدفع المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس وبهم يطرون وبهم يرزقون لا يموت الرجل منهم أبداً حتى يكون الله تعالى قد أنشأ من خلفه ولا يعلنون شيئاً ولا يؤذون من تحتهم ولا يظاولون عليهم ولا يحقروهم ولا يحسدون من فوقهم ولا يحرصون على الدنيا ليسوا بمتماوتين ولا متكبرين ولا متخشعين أطيب الناس خيراً وأورعهم أنفساً، طيعتهم السخاء ، وصفتهم السلامة من دعوى الناس قبلهم ، لا تتفرق صفتهم ، ليسوا اليوم في حال خشية ، وغداً في حال غفلة ، ولكن مداومين على حالهم وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تتدر كهم الريح العاصف ولا الخيل الجراة ، قلوبهم تصعد في السماء ارتياحاً إلى الله تعالى ، واشتياقاً إليه ، قدما في اشتياق الخيرات ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، قلت : يا أبا الدرداء ما شيء أثقل علي من هذه الصفة التي وصفتها فكيف لي بأن أدركها ؟ قال : ليس بينك وبين أن تكون في أوسط ذلك إلا أن تبغض الدنيا فإذا أبغضت الدنيا أقبل عليك حب الآخرة وبقدر ماترهد في الدنيا تحب الآخرة وبقدر ما تحب الآخرة تبصر ما ينفعك وما يضرك ، فإذا علم الله صدق الطلب من عبده أفرغ عليه السداد واكتفاه بعصمته ، وتصديق ذلك في كتاب الله العزيز (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بشيء أفضل من حب الله تعالى وطلب مرضاته اه

ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام ، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي ، (١) وقد أخرجنا في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « تمرق مارقة في فرقة من الناس فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق » (٢) . وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحارورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي رضي الله عنه فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه ، فذل هذا الحديث الصحيح على أن علي بن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه (٣)

(١) - قلت التفاضل في الأفراد وليس في الجميع ، وخبر الأبدال لا يدل على أفضلية أهل الشام كلهم ، ويؤيده حديث مسند الشاميين (١٠٥٤) عن عبد الله بن حوالة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : تكون أجناد ، جند بالشام ، وجند باليمن ، وجند بالعراق ، والله أعلم بأنها بدأ ، فعليكم بالشام - ثلاث مرات - فمن كرهه فعليه يمينه فليستق من غدرة ، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله وهو صحيح وفي مسند الشاميين (٦٠١) عن عبد الله بن حوالة الأزدی ، أنه قال : يا رسول الله خزل لي بلداً أكون فيه فلو علمت أنك تهني لم اخترت علي قريتك قال : عليك بالشام ثلاثاً . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كراهيته إياها قال : هل تدري ما يقول الله في الشام إن الله يقول : يا شام أنت صفوتي من بلادي أذخل فيك خيرتي من عبادي ، أنت سوط نعمتي وسوط عذابي ، أنت الذي لا تبقي ولا تذر ، أنت الأندر وإليك عليك المحشر ،

وَرَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عُمُودًا أَبْيَضَ كَأَنَّهُ لَوْلُؤَةٌ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ قُلْتُ : مَا تَحْمِلُون ؟ قَالَ : عُمُودُ الْإِسْلَامِ أَمَرْنَا أَنْ نَضَعَهُ بِالشَّامِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ الْكِتَابَ اخْتَلَسَ مِنْ تَحْتِ وَسَادَتِي ، فَطَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَخَلَّى مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَتْبَعْتُهُ بِبَصَرِي فَإِذَا هُوَ نُورٌ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى وُضِعَ بِالشَّامِ ، فَمَنْ أَبِي فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ وَلَيْسَتْ مِنْ غُدْرِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَلَّلَ لِي بِالشَّامِ " وهو صحيح

(٢) - صحيح مسلم (٢٥٠٩) = المارقة : طائفة تجاوزت حدود الشرع وتعدته

(٣) - قَدْ ثَبِتَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَائِشَةَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . بَلْ قَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ " { أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَاعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } . وَأَبُو مُوسَى الشَّاعِرِيُّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ هُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَهُمْ فَضَائِلُ وَمَحَاسِنُ . وَمَا يُحْكِي عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُ كَذِبٌ ؛ وَالصَّدَقُ مِنْهُ إِنْ كَانُوا فِيهِ مُجْتَهِدِينَ : فَأَلْمَجَّهْتُ إِذَا أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَخَطْوُهُ يُغْفَرُ لَهُ . وَإِنْ قَدَّرَ أَنَّ لَهُمْ ذُنُوبًا فَالذُّنُوبُ لَا تُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ مُطْلَقًا إِلَّا إِذَا انْتَفَتِ الْأَسْبَابُ الْمَانِعَةُ مِنْ ذَلِكَ وَهِيَ عَشْرَةٌ . مِنْهَا : - التَّوْبَةُ وَمِنْهَا الْإِسْتِغْفَارُ وَمِنْهَا الْحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ وَمِنْهَا الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ وَمِنْهَا شَفَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهَا شَفَاعَةُ غَيْرِهِ وَمِنْهَا دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْهَا مَا يُهْدَى لِلْمَيِّتِ مِنَ الثَّوَابِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَقْدِ وَمِنْهَا فَتْنَةُ الْقَبْرِ وَمِنْهَا أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { خَيْرُ الْقُرُونِ الْقُرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ } . وَحِينَئِذٍ فَمَنْ جَزَمَ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ لَهُ ذَنْبًا يَدْخُلُ بِهِ النَّارَ قَطْعًا فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ . فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ لَكَانَ مُبْطِلًا فَكَيْفَ إِذَا قَالَ مَا دَلَّتِ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ عَلَى تَقْيِضِهِ ؟ فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ - وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ : مِنْ ذَمِّهِمْ أَوْ التَّعَصُّبِ لِبَعْضِهِمْ بِالْبَاطِلِ - فَهُوَ ظَالِمٌ مُعْتَدٍ . وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { تَمُرُقٌ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فِرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ } وَقَدْ ثَبِتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ عَنْ الْحَسَنِ : " { إِنْ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَمَّارٍ أَنَّهُ قَالَ : " { تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَبْغِيَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } . فَثَبِتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالَّذِينَ مَعَهُ كَانُوا أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنَ الطَّائِفَةِ الْمُقَاتِلَةِ لَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . مجموع الفتاوى - (ج ٤ / ص ٤٣١)

؛ وَكَيْفَ يَكُونُ اللَّبْدَالُ فِي أَدْنَى الْعَسْكَرَيْنِ دُونَ أَغْلَاهُمَا ؟ (١) .

وَكَذَلِكَ مَا يَرُوه بَعْضُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { أَنَّهُ أَنْشَدَ مُنْشِدًا :

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهُوَى كِبْدِي فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

إِلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شَغِفَتْ بِهِ فَعِنْدَهُ رُقِيَّتِي وَتَرْيَاقِي

وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَاجَدَ حَتَّى سَقَطَتِ الْبُرْدَةُ عَنْ مَنْكِبِهِ { فَإِنَّهُ كَذَّبَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ

بِالْحَدِيثِ (٢) .

وَكَأَذْبُ مِنْهُ مَا يَرُوه بَعْضُهُمْ : { أَنَّهُ مَرَّقَ تَوْبَهُ وَأَنَّ جَبْرِيلَ أَخَذَ قِطْعَةً مِنْهُ فَعَلَّقَهَا عَلَى الْعَرْشِ } فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا

يَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنْ أَظْهَرِ الْأَحَادِيثِ كَذِبًا عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ .

(١) - قلت : هذا اللازم غير مراد ، فإذا كان بعض أفراد الشام خيراً من بعض أفراد أهل العراق ، فلا اعتراض في غير محله ، والأحاديث التي وردت في أهل الشام لم ترد في قطر من الأقطار

(٢) - وفي المقاصد الحسنة للسخاوي - (ج ١ / ص ٤٤٦)

٨٥٦ - حديث: لسعت حية الهوى كبدي إلى آخر البيتين، وأنهما من الإنشاد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن تيمية: ما اشتهر أن أبا محذورة أنشده بين يديه صلى الله عليه وسلم، وأنه تواجد حتى وقعت البردة الشريفة عن كتفه، فتقاسمها فقراء الصفة وجعلوها رقعة في ثيابهم، كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وما روي في ذلك فموضوع.

وفي الفتاوى الحديثية للحويني - (ج ١ / ص ١٥٩)

هل صحيح ما رواه أحمد عن أنس ، رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أفیکم من ینشدنا ؟)
فقام أعرابي فقال : لسعت حية الهوى كبدي فليس لها طب ولا راق فتواجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى سقط رداؤه ؟

• فالجواب بعون الملك الوهاب :

• أن هذا الحديث باطل موضوع ، وهو من أسمع الكذب وأبرده ، وقد صان الله الإمام أحمد أن يودع مثل هذا الباطل في (مسنده) ، فلم يروه أحمد ولا غيره ، ولم يروه إلا أمثال الديلمي ممن يكثرون من تخريج الموضوعات ، وقال أبو موسى المديني : لا أصل لهذا الحديث بهذا السياق ، وذكره ابن القيم في (الكلام على مسألة السماع) (ص ٣٢٣) ، فقال : وهذا الحديث من الطراز الأول - يعني : موضوع - فليتوبوا واضعوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم مقعده من النار ، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا كذب مفترى ، موضوع باتفاق أهل العلم ، قال ابن القيم : وركاكة شعره وسماجنه وما تجدد عليه من الثقاله من أبين الشواهد على أنه من شعر المتأخرين البارد السمج ، فقبَّح الله الكاذبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
• وثانياً فيقول :

ذكر ابن كثير أن رجلاً دعا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم واستغاث وأنشد وطلب الاستغفار ومضى ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أحد الحاضرين في المنام أن ينطق خلفه فيبشره . فهل هذا صحيح ؟
• والجواب : أن هذه القصة منكورة ، ولم يُحسن ابن كثير ، رحمه الله ، صنعاً بإيراده هذه القصة في (تفسيره) (٢ / ٣٠٦) ساكتاً عنها ، وقد بين ابن عبد الهادي في (الصارم المنكي) بطلانها ، فقال ملخصه : (هذه الحكاية بعضهم يروونها عن العتيبي بلا إسناد ، وبعضهم يروونها عن محمد بن حرب الهلالي ، وبعضهم يروونها عن محمد بن حرب ، عن أبي الحسن الزعفراني ، عن الأعرابي ، وقد ذكرها البيهقي في كتاب (شعب الإيمان) بإسناد مظلم ، عن محمد بن روح بن يزيد البصري ، حدثني أبو حرب الهلالي قال : حج أعرابي ، فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أناخ راحلته فعقلها ، ثم دخل المسجد حتى أتى القبر .. وذكر نحو ما تقدم) .

وفي تنزيه الشريعة المرفوعة - (ج ٢ / ص ٢٣٣)

(٧٢) حديث أنس كنا عند رسول الله إذ نزل جبريل عليه السلام فقال يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام وهو نصف يوم ففرح رسول الله فقال أفیکم من ینشد فقال بلوي نعم فقال هات هات فأنشد البدوي

(قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راق)

(إلا الطيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقتي)

فتواجد رسول الله وتواجد الأصحاب حتى سقط رداؤه عن منكبه فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه فقال معاوية بن أبي سفيان ما أحسن لعبكم يا رسول الله فقال مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب ثم اقتسم رداء رسول الله من حضر بأربعمائة قطعة (الحافظ ابن طاهر) وهو باطل قال الحافظ أبو موسى المديني قد عاب غير واحد من أهل العلم ابن طاهر بإيراد هذا الحديث في كتابه وكتب شيخ الإسلام أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي وقد سئل عن هذا الحديث ما ملخصه إن الواقف عليه يظهر له أنه موضوع لركة ألفاظه ومباينة شعره لأشعار العرب في جزالة ألفاظها ومخالفته لما صح من النهي عن إضاعة المال ونفرة القلوب منه وكتب شيخ الإسلام النووي وقد سئل عنه باطل لا تحل روايته ولا نسبته إلى النبي ويعزر من رواه علما تعزيرا بليغا ولا يغتر بكونه في عوارف المعارف وغيره مع أن صاحب العوارف قال يتخالج سري أنه غير صحيح ويأبى القلب قبوله (قلت) وقال الحافظ الذهبي رواه ثقات غير عمار بن إسحاق فكأنه واضعه والله تعالى أعلم و انظر مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥٩) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥٦٣) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥٩٨)

وَكَذَلِكَ مَا يَرْوَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ يَتَحَدَّثَانِ وَكُنْتُ بَيْنَهُمَا كَالرَّجُلِ } وَهُوَ كَذِبٌ مُوضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ (١)

(١) - وهو كما قال رحمه الله انظر : تذكرة الموضوعات - (ج ١ / ص ٩٣) وأحاديث القصاص لابن تيمية - (ج ١ / ص ٧٨) وأسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب - (ج ١ / ص ١٩٩) (٩٨٢) والفوائد المجموعة للشوكاني بتحقيق المعلمي - (ج ١ / ص ١٥٨) وتنزيه الشريعة المرفوعة - (ج ١ / ص ٤٠٧) (١٨٢)

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ١٠٩)

وسئل - رحمه الله - :

عَمَّا يُذَكِّرُ مِنْ قَوْلِهِمْ : اتَّخِذُوا مَعَ الْفَقِيرِ أَيْدِي فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً وَأَيَّ دَوْلَةٍ وَقَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنْتُ بَيْنَهُمَا كَالرَّجُلِ مَا مَعْنَى ذَلِكَ ؟ وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضٍ : نَحْنُ فِي بَرَكَتِكَ أَوْ مِنْ وَقْتٍ حَلَلْتَ عِنْدَنَا حَلَّتْ عَلَيْنَا الْبَرَكَةُ . وَنَحْنُ فِي بَرَكَةِ هَذَا الشَّيْخِ الْمَذْفُونِ عِنْدَنَا . هَلْ هُوَ قَوْلٌ مَشْرُوعٌ أَمْ لَا ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ . فَأَجَابَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَمَّا الْحَدِيثَانِ الْوَلَّانِ فَكِلَاهُمَا كَذِبٌ وَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا ذُكِرَ عَنْهُ قَطُّ وَلَا رَوَى هَذَا أَحَدٌ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَلَا ضَعِيفٍ وَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ دُونَ عُمَرَ كَانَ يَسْمَعُ كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَفْهَمُ مَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ فَكَيْفَ بِعُمَرَ ؟ وَعُمَرُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ فَكَيْفَ يَكُونُ كَلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ الرَّجُلِ .

ثُمَّ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ مَلَا حِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ ؛ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ السِّرَّ الَّذِي لَمْ يَفْهَمْهُ عُمَرُ . وَحَمَلَهُ كُلُّ قَوْمٍ عَلَى رَأْيِهِمُ الْفَاسِدِ ؛ وَالْجَادِيَّةُ يَدْعُونَ أَنَّهُ قَوْلُهُمْ وَأَهْلُ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ يَدْعُونَ أَنَّهُ قَوْلُهُمْ . وَأَهْلُ الْخُلُولِ الْخَاصَّ أَشْبَاهُ النَّصَارَى يَدْعُونَ أَنَّهُ قَوْلُهُمْ ؛ إِلَى أَصْنَافٍ أُخَرَ يَطُولُ تَعْدَادُهَا .

فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ : إِنَّ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ لَمْ يَفْهَمْ مَا قَالَا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ الضُّلَّالَ أَهْلَ الرِّندَقَةِ وَالْإِلْحَادِ وَالْمُحَالِ عِلْمُوا مَعْنَى ذَلِكَ الْخِطَابِ وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ لَفْظَهُ . وَإِنَّمَا وَضِعَ مِثْلُ هَذَا الْكُذْبِ مَلَا حِدَةً الْبَاطِنِيَّةَ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : إِنَّ مَا أَظْهَرَهُ الرُّسُلُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَالشَّرِيعَةِ لَهُ بَاطِنٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ الْبَاطِنَ دُونَ عُمَرَ ؛ وَيَجْعَلُونَ هَذَا ذَرِيعَةً عِنْدَ الْجُهَّالِ إِلَى أَنْ يَسْلُخُوهُمْ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ . وَنَظِيرُ هَذَا مَا يَرَوْنَهُ أَنَّ عُمَرَ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أَبِي بَكْرٍ لِيُعْرِفَ حَالَهُ فِي الْبَاطِنِ فَقَالَتْ : كُنْتُ أَشْتُمُ رَائِحَةَ الْكِبِدِ الْمَشْوِيَةِ . فَهَذَا أَيْضًا كُذْبٌ وَعُمَرَ لَمْ يَتَزَوَّجْ امْرَأَةً أَبِي بَكْرٍ . بَلْ تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَتْ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ جَعْفَرٍ وَهِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيسَ وَكَانَتْ مِنْ عُقُلَاءِ النِّسَاءِ وَعُمَرَ كَانَ أَعْلَمَ بِأَبِي بَكْرٍ مِنْ نِسَائِهِ وَغَيْرِهِمْ . وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُ : { ائْتَحِلُوا مَعَ الْفُقَرَاءِ أَيَادِي فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً وَأَيُّ دَوْلَةٍ } فَهَذَا - أَيْضًا - كُذْبٌ مَا رَوَاهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : { إِنْ تَبَلَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } - إِلَى قَوْلِهِ - { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } وَأَهْلُ الْقِيَمَةِ وَهُمْ الْفُقَرَاءُ الْمُجَاهِدُونَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ } الْآيَةِ . وَالْمُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى غَيْرِهِمْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَلَا يَطْلُبَ مِنْ مَخْلُوقٍ لَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى } { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } { وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى } { إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } { وَلَسَوْفَ يَرْضَى } وَقَالَ : { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } { إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ } الْآيَةِ . وَمَنْ طَلَبَ مِنَ الْفُقَرَاءِ الدُّعَاءَ أَوْ الشَّنَاءَ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ فَإِنَّ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ { مَنْ أَسَدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَرْتُمْ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ } وَلِهَذَا كَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا أُرْسِلَتْ إِلَى قَوْمٍ بِهَدِيَّةٍ تَقُولُ لِلرَّسُولِ : أَسْمِعْ مَا دَعَا بِهِ لَنَا ؛ حَتَّى نَدْعُو لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَا وَيَبْقَى أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِذَا أُعْطِيَ الْمَسْكِينُ فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ . فَقُلْ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ . أَرَادَ أَنَّهُ إِذَا أَتَابَكَ بِالْدُّعَاءِ فَادْعُ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ حَتَّى لَا تَكُونَ اعْتَصَمْتَ مِنْهُ شَيْئًا . هَذَا وَالْعَطَاءُ لَمْ يُطْلَبْ مِنْهُمْ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَا لِيَ أَبِي بَكْرٍ } أَنْفَقَهُ يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَطْلُبُ الْجَزَاءَ مِنْ مَخْلُوقٍ لَا نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ لَا بِدُّعَاءٍ وَلَا شَفَاعَةٍ . وَقَوْلُ الْقَائِلِ : لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ دَوْلَةٌ وَأَيُّ دَوْلَةٍ فَهَذَا كُذْبٌ ؛ بَلْ الدَّوْلَةُ لِمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا فَقِيرًا كَانَ أَوْ غَنِيًّا وَقَالَ تَعَالَى : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَرِّقُونَ } { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } الْآيَتِينَ وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } { وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } وَقَالَ تَعَالَى : { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } وَنَظِيرُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ . وَمَعَ هَذَا فَالْمُؤْمِنُونَ : الْأَنْبِيَاءُ وَسَائِرُ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَشْفَعُونَ لِأَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } وَقَالَ : { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } وَقَالَ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ } فَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى مَخْلُوقٍ يَرْجُو أَنَّ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ يَجْزِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا : الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ؛ بَلْ إِنَّمَا يَجْزِي عَلَى الْأَعْمَالِ يَوْمَئِذٍ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ الْإِيَابُ وَالْحِسَابُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفُهَا وَيُوتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ .

فَصَلِّ :

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : نَحْنُ فِي بَرَكََةِ فَلَانٍ أَوْ مِنْ وَقْتِ حُلُولِهِ عِنْدَنَا حَلَّتِ الْبَرَكََةُ . فَهَذَا الْكَلَامُ صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ بَاطِلٍ

باعتبار . فَأَمَّا الصَّحِيحُ : فَأَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّهُ هَذَا وَعَلَّمَنَا وَأَمَرَنَا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ فَبِرَكَّةِ اتِّبَاعِهِ وَطَاعَتِهِ حَصَلَ لَنَا مِنَ الْخَيْرِ مَا حَصَلَ فَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ . كَمَا كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَرَكَتِهِ لَمَّا آمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ فَبِرَكَّةِ ذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَلْ كُلُّ مُؤْمِنٍ آمَنَ بِالرَّسُولِ وَأَطَاعَهُ حَصَلَ لَهُ مِنْ بَرَكَاتِ الرَّسُولِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِ وَطَاعَتِهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ . وَ (أَيْضًا إِذَا أُريدَ بِذَلِكَ أَنَّهُ بِبَرَكَاتِهِ دُعَائِهِ وَصَلَاتِهِ دَفَعَ اللَّهُ الشَّرَّ وَحَصَلَ لَنَا رِزْقٌ وَتَصَرَّفَ فَهَذَا حَقٌّ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَهَلْ تَنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضَعْفَانِكُمْ بِدُعَائِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ ؟ } وَقَدْ يَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْفَجَّارِ لِنَلَّا يُصِيبَ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ } - إِلَى قَوْلِهِ - { لَوْ تَرَيُوا لَعَذْبُنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } فَلَوْلَا الضُّعْفَاءُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفَّارِ عَذَّبَ اللَّهُ الْكُفَّارَ : وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَوْ لَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ لَأَمَرْتُ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامُ ثُمَّ أَنْطَلِقُ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَأُحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتُهُمْ } وَكَذَلِكَ تَرَكَ رَجْمَ الْحَامِلِ حَتَّى تَضَعَ جَنِينَهَا . وَقَدْ قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } فَبَرَكَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ بِاعْتِبَارِ نَفْعِهِمْ لِلخَلْقِ بِدُعَائِهِمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَبِدُعَائِهِمْ لِلخَلْقِ وَبِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَيَدْفَعُ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِمْ حَقٌّ مُوجُودٌ فَمَنْ أَرَادَ بِالْبَرَكَاتِ هَذَا وَكَانَ صَادِقًا فَقَوْلُهُ حَقٌّ . وَأَمَّا " الْمَعْنَى الْبَاطِلُ " فَمِثْلُ أَنْ يُرِيدَ الْإِشْرَاقَ بِالْخَلْقِ : مِثْلُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مَقْبُورٌ بِمَكَانٍ فَيُظَنُّ أَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّاهُمْ لِأَجْلِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُومُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَذَا جَهْلٌ . فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مَدْفُونٌ بِالْمَدِينَةِ عَامَ الْحَرَّةِ وَقَدْ أَصَابَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ وَالْخَوْفِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ ذَلِكَ لَأَنَّهُمْ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ أَحَدُثُوا أَعْمَالًا أَوْجَبَتْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ لِأَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ كَانُوا يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَكَانَ بِرَكَّةِ طَاعَتِهِمْ لِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَبِرَكَّةِ عَمَلِ الْخُلَفَاءِ مَعَهُمْ يَنْصَرُهُمُ اللَّهُ وَيُؤَيِّدُهُمْ . وَكَذَلِكَ الْخَلِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدْفُونٌ بِالشَّامِ وَقَدْ اسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ أَهْلُهَا فِي شَرٍّ . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَيِّتَ يَدْفَعُ عَنِ الْحَيِّ مَعَ كَوْنِ الْحَيِّ عَامِلًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ غَالِطٌ . وَكَذَلِكَ إِذَا ظَنَّ أَنَّ بَرَكَاتِ الشَّخْصِ تَعُودُ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ غَالِطٌ . وَكَذَلِكَ إِذَا ظَنَّ أَنَّ بَرَكَاتِ السُّجُودِ لِغَيْرِهِ وَتَقْبِيلِ الْأَرْضِ عِنْدَهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُحْصَلُ لَهُ السَّعَادَةُ ؛ وَإِنْ لَمْ يَغْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَكَذَلِكَ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ يَشْفَعُ لَهُ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ بِمَجَرَّدِ مَحَبَّتِهِ وَانْتِسَابِهِ إِلَيْهِ فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا مِمَّا فِيهِ مُخَالَفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ . وَأَهْلُ الْبِدْعِ . بَاطِلٌ لَا يَجُوزُ اعْتِقَادُهُ . وَلَا اعْتِمَادُهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ فِيمَنْ يَقْرَأُ بِرِسَالَتِهِ الْعَامَّةِ فِي الظَّاهِرِ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي الْبَاطِنِ مَا يَنَاقِضُ ذَلِكَ فَيَكُونُ مُنَافِقًا وَهُوَ يَدْعِي فِي نَفْسِهِ وَأَمْنَالِهِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا عِنَادًا وَإِمَّا جَهْلًا ، كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ وَلَكِنْ يَقُولُونَ إِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ ، لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رُسُلًا قَبْلَهُ ، فَهُؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي طَائِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ وَصَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِوَلَايَتِهِ يَقُولُ : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) } [يونس/٦٢-٦٥] .

وَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (١)، وَيُؤْمِنُ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ وَكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) } (٢)

(١) - وفي حديث جبريل الطويل في صحيح مسلم (١٠٢) عن عبد الله بن عمر وفيه قَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ».

(٢) - وَقُولُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَهُؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ : إِنَّا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ لِرَبِّنَا . (كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " .

فَإِنْ آمَنَ الْكَافَرُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، أَيْ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ ، وَبِجَمِيعِ رُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَقَدْ اهْتَدَوْا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، فَإِنَّهُمْ مُشَاقِقُونَ مُخَالِفُونَ ، وَسَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ ، وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ وَيَعْلَمُ مَا يُدْبِرُونَ .

[البقرة/١٣٦-١٣٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) (١) } [البقرة/٢٨٥، ٢٨٦] . وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : { أَلَمْ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) (٢) } [البقرة/١-٥] .

(١) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ صَدَّقَ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الْوَحْيِ ، وَآمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَتَمَامِ حِكْمَتِهِ فِي نِظَامِ خَلْقَتِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ مَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ جَمِيعاً صَادِقُونَ ، هَادُونَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَنْسَخُ شَرِيعَةً بَعْضِ

يَا ذُنَّ اللَّهِ . وَقَالُوا : سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا وَفَهَمْنَاهُ ، وَامْتَنَلْنَا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ ، نَسْأَلُكَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالْيَكْنَ نَحْنُ صَابِرُونَ .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ . وَلِلنَّفْسِ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ . وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ . وَأَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَاسْتِرْحَامِهِ ، وَالصَّرَاعَةِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ بَأَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ تَرَكْنَا فَرَضَنَا وَنَحْنُ نَاسُونَ أَوْ ارْتَكَبْنَا مُحَرَّمَاً وَنَحْنُ نَاسُونَ أَوْ مُخْطِئُونَ ، أَوْ عَنْ جَهْلِ بَوَجهِ الشَّرْعِيِّ ، رَبَّنَا وَلَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّقَاقَةَ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا ، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ السَّالِفَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْأَصَارِ ، رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَآئِبِ وَالْبَلَاءِ ، وَاعْفُ عَنَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَاعْفِرْ لَنَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِبَادِ ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى أَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ وَمَسَاوِينَا ، وَارْحَمْنَا لِكَيْلَا نَقَعَ مُسْتَقْبَلًا فِي ذَنْبٍ ، أَلْتَ وَلَيْنَا وَمَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ ، وَجَحَدُوا بِدِينِكَ .

(٢) - لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ (الْكِتَابُ) مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ هُدًى وَنُورٌ يَهْتَدِي بِهِ الْمُتَّقُونَ ، الَّذِينَ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَيَتَّقُونَ الشَّرْكَ وَأَسْبَابَ الْعِقَابِ .

وهؤلاء الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِحَزْمٍ وَإِيمَانٍ وَإِدْعَانٍ بِمَا لَا يَقَعُ تَحْتَ حَوَاسِهِمْ (الْغَيْبِ) فَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَلِقَائِهِ ، وَبِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَهُمْ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ أَدَائِهَا وَيَتِمُّونَ - بِخُشُوعٍ تَامٍّ ، وَحُضُورٍ قَلْبٍ - رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَتِلَاوَتَهَا ، وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ ، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ .

وهؤلاء الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئَتْ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا يَجْحَدُونَ بِمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ النُّبُوءَاتُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ .

فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ : مِنْ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ ، وَإِيْمَانٍ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَتَأْدِيَةِ الزَّكَاةِ . . . هُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَنُورٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَهُمْ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوهُ بَعْدَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ فِي الْحُصُولِ عَلَيْهِ ، وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا اجْتَنَبُوهُ .

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

فَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ (١)، وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ النَّفْلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ (٢)، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ؛ فَضَّلَا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) } (٣)

(١) - عَنْ فُرَاتِ الْقَرَازِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ قَالَ قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ ، فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ . قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ فُوا بِنَبِيٍّ الْأَوَّلِ فَلَا أَوَّلَ ، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » . صحيح البخارى (٣٤٥٥) ومسلم (٤٨٧٩)

(٢) - قَالَ تَعَالَى : { قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشَا شَدِيدًا وَشَهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) } [الجن/ ١- ١٣]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : طَلَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يُصَلِّي ، فَأَطَالَ الصَّلَاةَ ، ثُمَّ قَالَ : أُوتِيَتْ اللَّيْلَةُ خَمْسًا لَمْ يُؤْتَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي ، أُرْسِلَتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فِرْعَبُ الْعَدُوِّ ، وَهُوَ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَقِيلَ لِي : سَلْ تُعْطَى فَاحْتَبَأْتُهَا شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا " المستدرک للحاکم (٣٥٨٧) وهو صحيح

(٣) - يَتَوَعَّدُ اللَّهُ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ ، وَالْكَافِرِينَ بِرُسُلِهِ جَمِيعًا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ النُّبُوتَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، مِنَ الْهُدَى وَالشَّرَائِعِ ، هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، كَمَا يَتَوَعَّدُ اللَّهُ ، بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ ، الْكَافِرِينَ بِبَعْضِ رُسُلِهِ أَوْ أَحَدِهِمْ ، كَالْيَهُودِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِمُحَمَّدٍ وَعِيسَى ، وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ، وَهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالْعَادَةِ ، وَلَا يُهْمُ وَجَلُّوا آبَاءَهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ طَرِيقًا وَسَطًا ، وَمَسْلَكًا (سَبِيلًا) . يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، هُمُ الْكَافِرُونَ

الْمُعْتُونَ فِي الْكُفْرِ ، وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ، عِقَابًا لَهُمْ عَلَى اسْتِغْنَائِهِمْ بِأَوْامِرِ رَبِّهِمْ .
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ، وَآمَنُوا بِجَمِيعِ رُسُلِهِ (وَهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُهْمُ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ) ، وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَهَؤُلَاءِ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ رَبُّهُمْ أَجْرَهُمْ بِحَسَبِ حَالِهِمْ فِي
الْعَمَلِ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ . وَاللَّهُ تَعَالَى غَفُورٌ غَفُورٌ يَغْفِرُ هَفَوَاتٍ مِنْ صَحِّ إِيْمَانِهِ ، وَلَمْ يُشْرِكْ بِرَبِّهِ أَحَدًا ،
وَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ رُسُلِهِ ، وَهُوَ تَعَالَى رَحِيمٌ يَرْحَمُ مَنْ يُعَامِلُهُ بِالْإِحْسَانِ ، وَيُضَاعَفُ لَهُ الْحَسَنَاتِ ، وَيَزِيدُهُ تَفَضُّلاً مِنْهُ .

[النساء/ ١٥٠-١٥٣] ، وَمِنْ الْإِيْمَانِ بِهِ الْإِيْمَانُ بِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ (١) . وَوَعْدِهِ
وَوَعِيدِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ؛ فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ (٢) ، وَالَّذِينَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣) ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لَأَحَدٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ .

وَأَمَّا خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ وَرِزْقُهُ إِيَّاهُمْ وَإِجَابَتُهُ لِدَعَائِهِمْ وَهَدَايَتُهُ لِقُلُوبِهِمْ وَنَصْرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ
جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فَهَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ يَفْعَلُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَسْبَابِ لَا يَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا وَسَاطَةِ الرُّسُلِ .

(١) - قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (٦٧) سورة المائدة

(٢) - عَنْ الْمُقَدِّمِ بْنِ مَعْدِيكَرَبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ
مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكْتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ
مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ وَلَا لَقِطَةٌ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْنِيَ
عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاءِهِ » . (سنن أبي داود (٤٦٠٦))

وهو صحيح

يقرى : يكرم الضيف ويقوم بحق ضيافته

(٣) - عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ بَلَّغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ
بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » . (موطأ مالك (١٦٢٨) ٢/٩٠٠ وهو صحيح لغيره

وفي المنتقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٢٧٨) :

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا عَلَى سَبِيلِ الْحِصْنِ عَلَى تَعْلُمِهَا أَوْ
التَّمَسُّكِ بِهِمَا وَالْإِقْدَاءِ بِمَا فِيهِمَا وَبَيْنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمْرَيْنِ فَقَالَ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا سَنَّهُ وَشَرَعَهُ ، وَأَبْنَاءُنَا عَنْ تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِهِ ، وَهَذَا فِيهِمَا كَانَ فِيهِ كِتَابُ
أَوْ سُنَّةٌ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ فَمَرَدُودٌ إِلَيْهِمَا وَمُعْتَبَرٌ بِهِمَا وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي الْمَجْمُوعَةِ
الْحُكْمَ عَلَى وَجْهَيْنِ فَالَّذِي يَحْكُمُ بِالْقُرْآنِ فَذَلِكَ الصَّوَابُ ، وَالَّذِي يُجْهَدُ الْعَالِمُ نَفْسَهُ فِيهِ فِيمَا لَمْ يَأْتِ فِيهِ شَيْءٌ
فَاعْلَمْهُ يُوقِفُ ، وَثَالِثٌ مُتَكَلِّفٌ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَمَا أَشْبَهَ أَنْ لَا يُوقَفَ مُقْتَضَى هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
مُقَدَّمٌ فِيهِمَا كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ ، وَمَا عُدِمَ ذَلِكَ فِيهِ اجْتِهَادُ الْعَالِمِ فِيهِ بِالرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَالرَّدُّ إِلَى مَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ ، وَأَمَّا الْجَاهِلُ فَلَا يَتَعَرَّضُ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ مُتَكَلِّفٌ بِمَا لَا يَعْلَمُ وَبِمَا لَمْ يُكَلِّفْهُ ، وَيُوشِكُ أَنْ لَا يُوقَفَ .

ثُمَّ لَوْ بَلَغَ الرَّجُلُ فِي " الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ " مَا بَلَغَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَلَا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى كَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعِبَادِهِمْ : وَكَذَلِكَ الْمُتَسِسِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ مِنْ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَلَهُ عِلْمٌ أَوْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ فِي دِينِهِ ، وَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَإِنْ ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ كَمَا كَانَ حُكَمَاءُ الْفَرَسِ مِنَ الْمَجُوسِ كُفَرَاءً مَجُوسًا . وَكَذَلِكَ حُكَمَاءُ " الْيُونَانِ " مِثْلُ أَرِسْطُو وَأَمْتَالِهْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ ، وَكَانَ أَرِسْطُو قَبْلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ وَزِيرًا لِلْإِسْكَانْدَرِ بْنِ قَيْلِسِ الْمَقَلُونِيِّ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَرَّخَ بِهِ تَوَارِيخُ الرُّومِ وَالْيُونَانِ وَتَوَرَّخَ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؛ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، (١) كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ أَرِسْطُو كَانَ وَزِيرًا لِلَّذِي الْقَرْنَيْنِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ ذَلِكَ اسْمُهُ الْإِسْكَانْدَرُ، وَهَذَا قَدْ يُسَمَّى بِالْإِسْكَانْدَرِ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا ذَلِكَ كَمَا يَظُنُّهُ ابْنُ سِينَا وَطَائِفَةٌ مَعَهُ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ هَذَا الْإِسْكَانْدَرُ الْمُشْرِكُ الَّذِي قَدْ كَانَ أَرِسْطُو وَزِيرَهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَبْنِ هَذَا السَّدَّ وَلَا وَصَلَ إِلَى بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ (٢) وَهَذَا الْإِسْكَانْدَرُ الَّذِي كَانَ أَرِسْطُو مِنْ وَزَرَانِهِ يُورَخُّ لَهُ تَارِيخُ الرُّومِ الْمَعْرُوفِ .

وَفِي أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمُشْرِكِي الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ اجْتِهَادٌ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ بِمُتَّبِعٍ لِلرُّسُلِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَا يُصَدِّقُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَلَا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَلَا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ، وَهَؤُلَاءِ تَقْتَرِنُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَيُكَاشِفُونَ النَّاسَ بَعْضُ الْأُمُورِ، وَلَهُمْ تَصَرُّفَاتٌ خَارِقَةٌ مِنْ جِنْسِ السَّحَرِ وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُفَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ . قَالَ تَعَالَى : { هَلْ أَتَيْنَاكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) } (٣)

(١) - قَالَ تَعَالَى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْهَضُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) }

[الكهف/٨٣-٩٨]

(٢) - هِيَ بِلَادُ الصِّينِ وَكُورِيَا وَمَنْشُورِيَا (بَنِي الْأَصْفَرِ)

(٣) - زَعَمَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِحَقٍّ ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ افْتَعَلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ بِهِ رَيٌّْ مِنَ الْجَانِّ .

وَيُرَدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ مُنْزَهًا رَسُولُهُ الْكَرِيمَ عَنْ قَوْلِهِمْ وَافْتَرَانِهِمْ ، وَمُنْبَهَا إِلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ إِنَّمَا

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِينِ ، لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ إِنَّمَا تَنْزِلُ عَلَى مَنْ يُشَاكِلُهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُهَّانِ الْكَذِبَةِ الْمَسْقَةِ .

إِنَّهُمْ يَتَزَلُّونَ عَلَى كُلِّ كَاذِبٍ (أَفَّاكَ) فَاجِرٍ كَثِيرٍ الْإِثْمِ مِنَ الْكَهَنَةِ وَيَسْتَرْقِ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، فَيَزِيدُونَ فِيهَا الْكَذِبَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيُلْقُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ ، فَيَحَدِّثُونَ بِهِ ، وَيَزِيدُونَ فِيهِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوا بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ . وَمُحَمَّدٌ رَجُلٌ لَا يَكْذِبُ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى مُقَارَنَتِهِ بِالْكَهَنَةِ الْكَذَّابِينَ .

{ [الشعراء/٢٢١-٢٢٣] . وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْمُكَاشَفَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْذِبُوا وَتُكْذِبُهُمْ شَيَاطِينُهُمْ (١) . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا هُوَ إِنْهُمْ وَفُجُورٌ مِثْلُ نَوْعٍ مِنَ الشَّرْكِ أَوْ الظُّلْمِ أَوْ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْغُلُوفِ أَوْ الْبِدَعِ فِي الْعِبَادَةِ ؛ وَلِهَذَا تَنْزَلَتْ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ وَافْتَرَنْتْ بِهِمْ فَصَارُوا مِنْ أَوْلِيَائِ الشَّيْطَانِ لَا مِنْ أَوْلِيَائِ الرَّحْمَنِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } (٢)

(١) - عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ ، فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ ، فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » . صحيح البخاري (٣٢١٠)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « إِذَا قُضِيَ اللَّهُ الْأَمْرُ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسَّلْسَلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ صَفْوَانٍ - يَنْفُلُهُمْ ذَلِكَ فَإِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُوا السَّمْعَ ، وَمُسْتَرْقُوا السَّمْعَ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى ، نَصَبَهَا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ - فَرَبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ الْمُسْتَمْعَ ، قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ ، فَيُخْرِقُهُ وَرَبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ حَتَّى يُلْقَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ - وَرَبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ - فَتَلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ فَيُصَدِّقُ ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ يُخَيِّرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا ، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ » . البخاري (٤٧٠١) ٦/١٠١

الصفوان : مثنى الصفاة وهي الصخرة الملساء

(٢) - وَمَنْ يَتَغَالَى وَيَتَعَامَ عَنِ الْقُرْآنِ ، وَعَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَنْهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي ، وَلَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا . فَإِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَيَكُونُونَ لَهُ قُرَنَاءَ ، يُزَيِّنُونَ لَهُ ارْتِكَابَ الْمَعَاصِي ، وَالْإِشْتِغَالَ بِاللَّذَاتِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِيهَا فَيَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ .

وهؤلاء القرناء من شياطين الإنس والجن ، الذين يُقَيِّضُهُمُ اللَّهُ لِكُلِّ مَنْ يَعِشُوا عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ، يُحَاوِلُونَ صَرْفَهُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَيُؤَسِّسُونَ لَهُ أَنَّهُ عَلَى جَادَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، وَأَنَّ غَيْرَهُ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَيُكْرَهُونَ إِلَيْهِ الْإِيمَانَ فَيُطِيعُهُمْ .

(٣٦) سورة الزخرف، وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ الْقُرْآنِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ وَيُصَدِّقْ خَبْرَهُ وَيَعْتَقِدْ وَجُوبَ أَمْرِهِ فَقَدْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَيَقْيِضُ لَهُ الشَّيْطَانُ فَيَقْتَرِنَ بِهِ قَالَ تَعَالَى : { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } (١) (٥٠) سورة الأنبياء ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى (١٢٦) { (٢) [طه/١٢٤، ١٢٦] ، فَذَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنْ ذَكَرَهُ هُوَ آيَاتُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا، وَلِهَذَا لَوْ ذَكَرَ الرَّجُلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ وَعَبْدُهُ مُجْتَهِدًا فِي عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُتَبِعًا لِذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْهَوَاءِ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . (٣)

(١) - { وَهَذَا } أي: القرآن { ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماء ذكرًا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً والنهي عن القبيح عقلاً وكونه { مباركاً } يقتضي كثرة خيرات ونعماتها وزياتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرًا مباركًا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه، صفحا وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: { أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } (٢) - وَمَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَكَفَرَ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي وَتَنَاسَاهُ فَسَتَكُونُ مَعِيشَتُهُ فِي الدُّنْيَا ضَنْكًا لَا طُمَآنِينَةَ لَهُ فِيهَا ، وَلَا يَنْشُرْ فِيهَا صَدْرُهُ ، بَلْ يَبْقَى صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرِجًا ، بِسَبَبِ ضَلَالِهِ . وَمَا لَمْ يَخْلُصِ الْمُهْدَى وَالْيَقِينَ إِلَى قَلْبِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَبْقَى فِي قَلْبِهِ وَحِيرَةٌ وَشَكٌّ ، وَيَحْشُرُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ ، قَدْ عَمِيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ ، لِأَنَّ الْجَهْلَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا فِي الدُّنْيَا تَبْقَى مُلَازِمَةً لَهُ فِي الْآخِرَةِ . فَيَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْمُسَائِلِ مُبَيَّنًا : لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا بَيِّنَاتٍ فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا ، وَتَنَاسَيْتَهَا ، فَكَذَلِكَ نُعَامِلُكَ الْيَوْمَ مُعَامَلَةَ الْمُنْسِي ، فَتَتَرَكُ فِي النَّارِ .

(٣) - قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٥١٦):
فَأَمَرَ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَادِرِ وَشَيْخَهُ حَمَادُ الدَّبَاسَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمَشَائِخِ أَهْلَ الْإِسْتِقَامَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - : بِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ السَّالِكُ مُرَادًا قَطُّ وَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سِوَاهَا بَلْ يَجْرِي فِعْلُهُ فِيهِ فَيَكُونُ هُوَ مُرَادُ الْحَقِّ . إِنَّمَا قَصَدُوا بِهِ فِيمَا لَمْ يَعْلَمْ الْعَبْدُ أَمَرَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فِيهِ فَأَمَّا مَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ فَعَلِيهِ أَنْ يُرِيدَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ وَقَدْ صَرَحُوا بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْغَالِطِينَ يَرَى الْقِيَامَ بِالْإِرَادَةِ الْخَلْقِيَّةِ هُوَ الْكَمَالُ وَهُوَ " الْفَنَاءُ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ " وَأَنَّ السُّلُوكَ إِذَا انْتَهَى إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَصَاحِبُهُ إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ فَلَأَجَلَ غَيْرِهِ أَوْ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ فَيَلْكَ أَقْوَالٌ وَطَرَائِقُ فَاسِدَةٌ قَدْ تُكَلِّمُ عَلَيْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَأَمَّا الْمُسْتَقِيمُونَ مِنَ السَّالِكِينَ كَجُمْهُورِ مَشَائِخِ السَّلَفِ : مِثْلَ الْقُضَيْلِ بْنِ عِيَّاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي وَمَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ وَالسَّرِيِّ السَّقَطِيِّ وَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَمِثْلَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ حَمَادِ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَّانِ

وغيرهم من المتأخرين . فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والتبهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحذور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف . وهذا كثير في كلامهم : كقول الشيخ عبد القادر في كتاب (فتوح الغيب) : " أخرج من نفسك وتتح عنها وانعزل عن ملكك . وسلم الكل إلى الله - تبارك وتعالى - وكُن بوابه على باب قلبك ، وامتلأ أمره - تبارك وتعالى - في إدخال من يأمرك بإدخاله وأنته نهيه في صد من يأمرك بصدده . فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه وإخراج الهوى من القلب بمخالفتيه ، وترك متابعتيه في الأحوال كلها وإدخاله في القلب بمتابعتيه وموافقته فلا ترد إرادة غير إرادته - تبارك وتعالى - وغير ذلك منك غير وهو وادي الحمقى وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه - تبارك وتعالى - وحجابك عنه . احفظ أبداً أمره وأنته أبداً نهيه وسلم إليه أبداً مقلوده ولا تشركه بشيء من خلقه فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه فلا ترد ولا تهوى ولا تشتهي لنما يكون شركاً . قال الله تعالى : { فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب ؛ بل هو أيضاً متابعتك لهواك وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها فما سواه - تبارك وتعالى - غيره فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به غيره فاخذر ولا تركن وخف ولا تأمن وفش ولا تغفل فتطمئن ولا تضيف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً ولا تدع شيئاً من ذلك " . وقال (الشيخ عبد القادر أيضاً) : " إنما هو الله ونفسك وأنت المخاطب والنفس ضد الله وعدوته ؛ والاشياء كلها تابعة لله فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها كنت خصماً له على نفسك - إلى أن قال - : " فالعبادة " في مخالفتك نفسك وهواك قال تعالى : { ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله } إلى أن قال : والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي - رحمه الله تعالى - لما رأى رب العزة في المنام فقال له : كيف الطريق إليك ؟ فقال : أترك نفسك وتعال قال أبو يزيد : فانسخت من نفسي كما تنسلخ الحي من جلدها . فإذا ثبت أن الخير كله في معاداتها في الجملة في الأحوال كلها فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من إجرام الخلق وشبههم ومتبهم والالتكال عليهم والثقة بهم والخوف منهم ؛ والرجاء لهم والطمع فيما عندهم من خطام الدنيا فلا ترج عطاءهم على طريق الهدية أو الزكاة أو الصدقة أو الكفارة أو التذرة فأقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب فأخرج من الخلق جدًّا واجعلهم كالأب يرد ويفتح كالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة وتجيل أخرى كل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر ، وهو الله تبارك وتعالى . فإذا صح لك هذا كنت موحداً له - تبارك وتعالى - ولا تنس مع ذلك كسبهم لتخلص من مذهب الجبرية واعتقد أن الأفعال لا تتم لهم دون الله - تبارك وتعالى - لكيلا تعبهم وتنسى الله تعالى ولا تقبل فعلهم دون الله فتكفر وتكون قديراً . ولكن قل : هي لله خلقاً وللعباد كسباً . كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب ، وامتلأ أمر الله فيهم وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم فلا تكن أنت الحاكم وكونك معهم قدر والقدر ظلمة فادخل في الظلمة بالمصباح وهو " الحكم " : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تخرج عنهما . فإن خطر خاطر أو وجدت إلهاماً فأعرضهما على الكتاب والسنة فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم بالزنا أو الربا أو مخالطة أهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك وهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين وإن وجدت فيهما إباحة كالشهوات المباحة من الأكل والشرب والبس والنكاح فاهجره أيضاً ولا تقبله واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها " . قلت : ومراذه بهجر المباح إذا لم يكن مأموراً به كما قد بين مراده في غير هذا الموضع . فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر

كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَقَدْ قَدِّمْتُ أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى طَرِيقَةِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ ؛ لَا يَقِفُ عِنْدَ طَرِيقَةِ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . قَالَ : " وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَحْرِيمَهُ وَلَا إِباحَتَهُ بَلْ هُوَ أَمْرٌ لَا تَعْقِلُهُ مِثْلَ أَنْ يَقَالَ لَكَ أَنْتَ مُوَضِّعٌ كَذَا وَكَذَا أَلَا الصَّالِحُ ؛ وَلَا حَاجَةَ لَكَ هُنَاكَ وَلَا فِي الصَّالِحِ ؛ لَأَسْتَغْنَاكَ عَنْهُ بِمَا أَوْلَاكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعَمِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فَتَوَقَّفْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُبَادِرْ إِلَيْهِ . فَتَقُولُ : هَلْ هَذَا إِلَهَامٌ إِلَّا مِنْ الْحَقِّ فاعْمَلْ بِهِ ؟ بَلْ انْتَظِرِ الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ وَفِعْلُ الْحَقِّ بَأَنْ يَتَكَرَّرَ ذَلِكَ الْإِلَهَامُ ، وَتَوَمَّرَ بِالسَّعْيِ أَوْ عَلَامَةً تَظْهَرُ لِلْأَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَفْعَلُهَا الْعُقَلَاءُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالْمُؤَيَّدُونَ مِنَ الْأَبْدَالِ . وَإِنَّمَا لَمْ تُبَادِرْ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ وَمَا يُؤَوَّلُ الْأَمْرُ إِلَيْهِ وَرَبِّمَا كَانَ فِيهِ فِتْنَةٌ وَهَلَاكٌ وَمَكْرٌ مِنَ اللَّهِ وَامْتِحَانٌ فَاصْبِرْ حَتَّى يَكُونَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْفَاعِلُ فِيكَ فَإِذَا تَجَرَّدَ الْفِعْلُ وَحُمِلَتْ إِلَى هُنَاكَ وَاسْتَقْبَلَتْكَ فِتْنَتُهُ كُنْتَ مَحْمُولًا مَحْفُوظًا فِيهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعَاقِبُكَ عَلَى فِعْلِهِ وَإِنَّمَا تَتَطَرَّقُ الْعُقُوبَاتُ نَحْوَكَ لِكَوْنِكَ فِي الشَّيْءِ " . قُلْتُ : فَقَدْ أَمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِأَنْ مَا كَانَ مَحْظُورًا فِي الشَّرْعِ يَجِبُ تَرْكُهُ وَلَا بُدَّ وَمَا كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ مُبَاحٌ بَعَيْنِهِ لِكَوْنِهِ يُفْعَلُ بِحُكْمِ الْهَوَى لَا بِأَمْرِ الشَّارِعِ فَيَتْرَكُ أَيْضًا وَأَمَّا مَا لَمْ يَعْلَمْ هَلْ هُوَ بَعَيْنِهِ مُبَاحٌ لَا مَضَرَّةَ فِيهِ أَوْ فِيهِ مَضَرَّةٌ مِثْلُ السَّفَرِ إِلَى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ أَوْ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ وَالذَّهَابَ إِلَى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ أَوْ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّ جِنْسَ هَذَا الْعَمَلِ لَيْسَ مُحَرَّمًا وَلَا كُلُّ أَفْرَادِهِ مُبَاحَةً ؛ بَلْ يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَيْثُ يَحْصُلُ لَهُ ضَرَرٌ فِي دِينِهِ فَأَمْرُهُ بِالْكَفِّ عَنِ الذَّهَابِ حَتَّى يَظْهَرَ أَوْ يَبَيَّنَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ أَنَّ هَذَا مَصْلَحَةٌ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَبَيَّنْ لَهُ أَنَّ الذَّهَابَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ لَمْ يَنْبَغِ لَهُ فِعْلُهُ وَإِذَا خَافَ الضَّرَرَ يَنْبَغِي لَهُ تَرْكُهُ فَإِذَا أَكْرَهَ عَلَى الذَّهَابِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَرَجٌ فَلَا يُؤَاخَذُ بِالْفِعْلِ . بِخِلَافِ مَا إِذَا فَعَلَهُ بِاخْتِيَارِهِ أَوْ شَهْوَتِهِ ؛ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ كَانَتْ حَسَنًا . وَقَدْ جَاءَتْ شَوَاهِدُ السُّنَّةِ : بِأَنْ مَنْ ابْتُلِيَ بِغَيْرِ تَعَرُّضٍ مِنْهُ أُعِينَ ، وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْبَلَاءِ خِيفَ عَلَيْهِ . مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ { " لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْنِتَ عَلَيْهَا } " وَمِنْهُ قَوْلُهُ : { " لَا تَتَمَوَّأَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا } " . وَفِي السُّنَنِ { " مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِالشُّفْعَاءِ وَكُلَّ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَثَرَلُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَلِّدُهُ } - وَفِي رِوَايَةٍ - وَإِنْ أَكْرَهَ عَلَيْهِ " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الطَّاعُونَ : { " إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بَارِضٌ فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا وَقَعَ بَارِضٌ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ } " وَعَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { " نَهَى عَنِ التَّذَرُّرِ } " وَمِنْهُ قَوْلُهُ : { " ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أُنْبِيَائِهِمْ . فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ . وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ } " .

وقال في مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٦١٦)

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ التَّزَامُ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحُدَّةَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ وَالْأَمْرَ بِذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَالنَّهْيَ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَالْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ وَلَيْسَ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ أَحَدٌ يَقْرَأُ عَلَى خِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ إِنْ كَانَ مُقَرًّا بِالْإِسْلَامِ أَلَزَمَهُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ الْوَاجِبَةِ وَشَرِيعَتِهِ الْهَادِيَةِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُقَرِّ بِالْإِسْلَامِ كَانَ كَافِرًا وَلَوْ كَانَ لَهُ مِنَ الزُّهْدِ وَالرُّهْبَانِ مَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ .

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ -

صلى الله عليه وسلم - قَالَ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ

مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » (١) .
وفي الصحيحين أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » (٢)

(١) - صحيح البخارى (٣٤) ومسلم (٢١٩)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ١٥٠)

هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا عَدَّهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مُشْكِلًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ تُوجَدُ فِي الْمُسْلِمِ الْمُصَدِّقِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَكٌّ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُصَدِّقًا بَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَفَعَلَ هَذِهِ الْخِصَالَ لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِكُفْرٍ ، وَلَا هُوَ مُنَافِقٌ يُخْلَدُ فِي النَّارِ ؛ فَإِنْ إِخْوَةٌ يُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعُوا هَذِهِ الْخِصَالَ . وَكَذَا وَجَدَ لِبَعْضِ السَّلَفِ وَالْعُلَمَاءِ بَعْضُ هَذَا أَوْ كُلَّهُ . وَهَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى إِشْكَالٌ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ . فَالَّذِي قَالَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَالْكَثَرُونَ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُخْتَارُ : أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ خِصَالُ نَفَاقٍ ، وَصَاحِبُهَا شَبِيهٌ بِالْمُنَافِقِ فِي هَذِهِ الْخِصَالَ ، وَمُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِهِمْ . فَإِنَّ النِّفَاقَ هُوَ إِظْهَارُ مَا يُبْطِنُ خِلَافَهُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الْخِصَالَ ، وَيَكُونُ نِفَاقُهُ فِي حَقِّ مَنْ حَدَّثَهُ ، وَوَعَدَهُ ، وَاتَّمَنَّهُ ، وَخَاصَمَهُ ، وَعَاهَدَهُ مِنَ النَّاسِ ، لَا أَنَّهُ مُنَافِقٌ فِي الْإِسْلَامِ فَيُظْهِرُهُ وَهُوَ يُبْطِنُ الْكُفْرَ . وَلَمْ يُرْذِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا أَنَّهُ مُنَافِقٌ نِفَاقَ الْكُفَّارِ الْمُخْلَدِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا) مَعْنَاهُ شَدِيدُ الشُّبْهِ بِالْمُنَافِقِينَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْخِصَالَ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : وَهَذَا فِيمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِصَالَ غَالِبَةً عَلَيْهِ . فَأَمَّا مَنْ يَنْدُرُ فَلَيْسَ دَاخِلًا فِيهِ . فَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ . وَقَدْ تَقَلَّ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْنَاهُ عَنْ الْعُلَمَاءِ مُطْلَقًا فَقَالَ : إِنَّمَا مَعْنَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ نِفَاقُ الْعَمَلِ . وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثُوا بِإِيمَانِهِمْ ، وَكَذَبُوا ، وَأُؤْتِمِنُوا عَلَى دِينِهِمْ فَخَانُوا ، وَوَعَدُوا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَتَصَرُّهُ فَأَخْلَفُوا ، وَفَجَرُوا فِي خُصُومَتِهِمْ . وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ . وَرَجَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِهِ . وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَإِلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَتِنَا . وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلًا آخَرَ أَنَّ مَعْنَاهُ التَّحْذِيرُ لِلْمُسْلِمِ أَنَّ يَعْتَادَ هَذِهِ الْخِصَالَ الَّتِي يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ تُفْضِيَ بِهِ إِلَى حَقِيقَةِ النَّفَاقِ . وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ : رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضًا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْحَدِيثَ وَرَدَ فِي رَجُلٍ بَعَيْنِهِ مُنَافِقٌ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُوَاجِهُهُمْ بِصَرِيحِ الْقَوْلِ ، فَيَقُولُ : فُلَانٌ مُنَافِقٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ يُشِيرُ إِشَارَةً كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) - صحيح مسلم (١٦٢) والبخاري (٩)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ١١٢)

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْبَضْعُ وَالْبِضْعَةُ بِكَسْرِ الْبَاءِ فِيهِمَا وَفَتْحُهَا هَذَا فِي الْعَدَدِ فَأَمَّا بَضْعَةُ اللَّحْمِ فَبِالْفَتْحِ لَا غَيْرِ . وَالْبَضْعُ فِي الْعَدَدِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالْعَشْرِ . وَقِيلَ : مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ . وَقَالَ الْخَلِيلُ : الْبَضْعُ سَعٍ . وَقِيلَ : مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَى عَشْرَةٍ ، وَمَا بَيْنَ اثْنَيْ عَشَرَ إِلَى عَشْرِينَ . وَلَا يُقَالُ فِي اثْنَيْ عَشَرَ . قُلْتُ : وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهُرُ الظَّاهِرُ . وَأَمَّا الشُّعْبَةُ فَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ فَمَعْنَى الْحَدِيثِ : بَضْعٌ وَسَعُونَ خِصْلَةً . قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ

رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ فِي اللُّغَةِ التَّصَدِيقُ ، وَفِي الشَّرْعِ تَصَدِيقُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ . وَظَوَاهِرُ الشَّرْعِ تُطْلِقُهُ عَلَى الْأَعْمَالِ كَمَا وَقَعَ هُنَا (أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ، وَآخِرُهَا (إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ) ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِالْأَعْمَالِ ، وَكَمَامَهُ بِالطَّاعَاتِ ، وَأَنَّ الْإِزَامَ الطَّاعَاتِ وَصَمَّ هَذِهِ الشُّعْبَ مِنْ جُمْلَةِ التَّصَدِيقِ ، وَذَلَالِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهَا خُلِقَ أَهْلُ التَّصَدِيقِ فَلَيْسَتْ خَارِجَةً عَنْ اسْمِ الْإِيمَانِ الشَّرْعِيِّ وَلَا اللَّغْوِيِّ . وَقَدْ نَبَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهَا التَّوْحِيدَ الْمُتَعَيَّنَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ، وَالَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنَ الشُّعْبِ إِلَّا بَعْدَ صِحَّتِهِ . وَأَذْنَاهَا مَا يُتَوَقَّعُ ضَرَرُهُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِهِمْ . وَبَقِيَ بَيْنَ هَذَيْنِ الطَّرَفَيْنِ أَعْدَادٌ لَوْ تَكَلَّفَ الْمُجْتَهِدُ تَحْصِيلُهَا بِغَلَبَةِ الظَّنِّ ، وَشِدَّةِ التَّنَبُّعِ لَأَمْكَنَهُ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ تَقَدَّمَ .

وَفِي الْحُكْمِ بِأَنَّ ذَلِكَ مُرَادُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صُوبَةً ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مَعْرِفَةَ أَعْيَانِهَا ، وَلَا يَمْدَحُ جَهْلَ ذَلِكَ فِي الْإِيمَانِ إِذْ أَصُولُ الْإِيمَانِ وَفُرُوعُهُ مَعْلُومَةٌ مُحَقَّقَةٌ ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهَا هَذَا الْعَدَدُ وَاجِبٌ فِي الْجُمْلَةِ . هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ بِكَسْرِ الْحَاءِ : تَتَبَّعْتُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مُدَّةً ، وَعَدَدْتُ الطَّاعَاتِ فَإِذَا هِيَ تَزِيدُ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ شَيْئًا كَثِيرًا ، فَرَجَعْتُ إِلَى السُّنَنِ فَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَقْصُصُ عَنِ الْبُضْعِ وَالسَّبْعِينَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَرَأْتُهُ بِالتَّدْبِيرِ وَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَقْصُصُ عَنِ الْبُضْعِ وَالسَّبْعِينَ ، فَضَمَمْتُ الْكِتَابَ إِلَى السُّنَنِ ، وَأَسَقَطْتُ الْمُعَادَ فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ عَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَبَّيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ تِسْعَ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَقْصُصُ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ . وَذَكَرَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ جَمِيعَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ وَصْفِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ وَذَكَرَ أَنَّ رِوَايَةً مَنْ رَوَى بِضْعَ وَسِتُّونَ شُعْبَةً أَيْضًا صَحِيحَةً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَذَكَّرُوا لِلشَّيْءِ عَدَدًا وَلَا تُرِيدُ نَفْيَ مَا سِوَاهُ . وَلَهُ نَظَائِرُ أوردَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْهَا فِي أَحَادِيثِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ : (وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى (الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ) وَفِي الْأُخْرَى (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ) وَفِي الْأُخْرَى (الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ أَوْ قَالَ كُلُّهُ خَيْرٌ) الْحَيَاءُ مَمْدُودٌ وَهُوَ الْإِسْتِحْيَاءُ . قَالَ الْإِمَامُ الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْإِسْتِحْيَاءُ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَاسْتَحْيَا الرَّجُلُ : مِنْ قُوَّةِ الْحَيَاةِ فِيهِ لَشِدَّةٌ عِلْمُهُ بِمَوَاقِعِ الْعَيْبِ . قَالَ : فَالْحَيَاءُ مِنْ قُوَّةِ الْحَسِّ وَلُطْفِهِ وَقُوَّةِ الْحَيَاةِ . وَرَوَيْنَا فِي رِسَالَةِ الْإِمَامِ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْقَاسِمِ الْقَاسِمِيِّ عَنْ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : الْحَيَاءُ رُؤْيَا أَلَاءِ أَيْ النِّعَمِ ، وَرُؤْيَا التَّقْصِيرِ ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءَ . وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الشَّرَّاحِ : إِنَّمَا جُعِلَ الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَانَ غَرِيزَةً لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَخَلُّقًا وَاكْتِسَابًا كَسَائِرِ أَعْمَالِ الْبَرِّ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيزَةً وَلَكِنْ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى قَانُونِ الشَّرْعِ يَحْتَاجُ إِلَى اكْتِسَابٍ وَنَبْءٍ وَعِلْمٍ فَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَذَا ، وَلِكُونِهِ بَاعِثًا عَلَى أَعْمَالِ الْبَرِّ ، وَمَانِعًا مِنَ الْمَعَاصِي . وَأَمَّا كَوْنُ الْحَيَاءِ خَيْرًا كُلُّهُ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ فَقَدْ يَشْكُلُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ صَاحِبَ الْحَيَاءِ قَدْ يَسْتَحْيِي أَنْ يُوَاجِهَ بِالْحَقِّ مَنْ يُجِلُّهُ ، فَيَتْرُكُ أَمْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَقَدْ يَحْمِلُهُ الْحَيَاءُ عَلَى الْإِخْلَالِ بِبَعْضِ الْحُقُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْعَادَةِ . وَجَوَابُ هَذَا مَا أَجَابَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنْهُمْ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الصَّلَاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الْمَنَاعَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةٍ بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوَرٌ وَمَهَانَةٌ وَإِنَّمَا تَسْمِيَتُهُ حَيَاءً مِنْ إِطْلَاقِ بَعْضِ أَهْلِ الْعُرْفِ أَطْلَقُوهُ مَجَازًا لِمُشَابَهَتِهِ الْحَيَاءَ الْحَقِيقِيَّ وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خُلِقَ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ ، وَنَحْوِ هَذَا ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ الْجُنَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ خَصَلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَفِيهِ خَصَلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْدًا وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدًا فَقُلْتُ لَوْ أَخَذْتَ هَذَا فَلَبِستَهُ كَانَتْ حُلَّةً ، وَأَعْطَيْتَهُ ثَوْبًا آخَرَ . فَقَالَ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً ، فَلَنْتُ مِنْهَا فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لِي « أَسَابَيْتَ فَلَانًا » . قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ « أَفَلَنْتَ مِنْ أُمِّهِ » . قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ « إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ » . قُلْتُ عَلَى حِينِ سَاعَتِي هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ قَالَ « نَعَمْ ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ » (١) .

وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرَكُونَهَا الْقَهْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْأُجُومِ وَالتَّيَاحَةِ » . وَقَالَ « التَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تُتَبَّ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قِطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » (٢)

(١) - صحيح البخارى (٦٠٥٠) ومسلم (٤٤٠٣-٤٤٠٥)

شرح النووي على مسلم - (ج ٦ / ص ٦٢)

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ) أَي هَذَا التَّعْيِيرُ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فِيكَ خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ ، وَيَتَّبِعِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ ، فَفِيهِ التَّهْيِي عَنْ التَّعْيِيرِ وَتَقْيِصِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ .

قَوْلُهُ : (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ سَبَّ الرَّجَالَ سُبًّا أَبَاهُ وَأُمَّهُ ، قَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ) مَعْنَى كَلَامِ أَبِي ذَرٍّ : الْإِعْذَارُ عَنْ سَبِّهِ أَمْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ ، يَعْنِي أَنَّهُ سَبَّي ، وَمَنْ سَبَّ إِنْسَانًا سَبَّ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ أَبَا السَّابِّ وَأُمَّهُ ، فَأَتَكَرَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : هَذَا مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا يُبَاحُ لِلْمُسْتَوْبِ أَنْ يَسُبَّ السَّابَّ نَفْسَهُ بِقَدْرِ مَا سَبَّهُ ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِأَبِيهِ وَلَا لَأُمِّهِ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (هُمْ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَأَطِيعُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ ، وَأَلْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ)

الضَّمِيرُ فِي (هُمْ إِخْوَانُكُمْ) يُعُودُ إِلَى الْمَمَالِكِ ، وَالْأَمْرُ بِإِطَاعِهِمْ مِمَّا يَأْكُلُ السَّيِّدُ ، وَإِلْبَاسُهُمْ مِمَّا يَلْبَسُ مَحْمُولٌ عَلَى الْإِسْتِجَابِ لَا عَلَى الْإِجَابِ ، وَهَذَا يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا فِعْلُ أَبِي ذَرٍّ فِي كِسْوَةِ غُلَامِهِ مِثْلَ كِسْوَتِهِ فَعَمَلٌ بِالْمُسْتَحَبِّ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ نَفَقَةُ الْمَمْلُوكِ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ بِحَسَبِ الْبُلْدَانِ وَالْأَشْخَاصِ ، سَوَاءً كَانَ مِنْ جِنْسِ نَفَقَةِ السَّيِّدِ وَلِبَاسِهِ ، أَوْ ثَوْبِهِ ، أَوْ فَوْقَهُ حَتَّى لَوْ قَتَرَ السَّيِّدُ عَلَى نَفْسِهِ تَقْتِيرًا خَارِجًا عَنْ عَادَةِ أَهْلِهِ إِمَّا زُهْدًا ، وَإِمَّا شُحًّا ، لَا يَجِلُّ لَهُ التَّقْتِيرُ عَلَى الْمَمْلُوكِ ، وَالْإِزَامَةُ وَمُؤَافَقَتُهُ إِلَّا بِرِضَاهُ ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُكَلِّفَهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُهُ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ بِنَفْسِهِ أَوْ بغيرِهِ .

(٢) - صحيح مسلم (٢٢٠٣)

وفي فيض القدير - (ج ١ / ص ٤٦٢) (٩١٣) - (أربع في أمي من أمر الجاهلية) أي من أفعال أهلها : يعني أنها معاصي يأتونها مع اعتقاد حرمتها . والجاهلية : ما قبل البعثة سماها به لقرط جهلهم (لا يتركون) أي لا تترك أمي شيئا من تلك الخصال الأربع . قال الطيبي : قوله في أمي : خبر لأربع : أي خصال أربع كائنة في أمي ومن أمر الجاهلية . ولا يتركون : حالان من الضمير المتحول إلى الجار والمجرور وهذا خرج مخرج الظم والتعيب لها فأولها)

الفخر في الأحساب) أي الشرف بالآباء والتعظيم بعد مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل فلا فخر إلا بالطاعة ولا عز لأحد إلا بالله . والأحساب جمع حسب وهو ما يعده المرء من الخصال له أو لآبائه من نحو شجاعة وفصاحة والثاني (الطعن في الأنساب) أي الوقوع فيها بنحو ذم وعيب : بأن يقدح في نسب أحد من الناس فيقول ليس هو من ذرية فلان وذلك يحرم لأنه هجوم على الغيب ودخول فيما لا يعني والأنساب لا تعرف إلا من أهلها قال ابن عربي : وهذا أمر ينشأ من الفاسدة في أنه لا يريد أن يرى أحدا كاملا وذلك لنقصانه في نفسه ولا يزال الناس يتطاعنون في الأنساب ويتلاعنون في الأديان ويتباينون في الأخلاق قسمة العليم الخلاق قال : ولا أعلم نسبا سلم من الطعن إلا نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم والثالث (الاستسقاء بالنجوم) أي اعتقاد أن نزول المطر بظهور كذا وهو حرام لأنه إشراك ظاهر إذ لا فاعل إلا الله بل متى اعتقد أن للنجم تأثيرا كفر قال الحراني : فالمتعلق خوفهم ورجاؤهم بالآثار الفلكية هم صابئة هذه الأمة كما أن المتعلق خوفهم ورجاؤهم بأنفسهم وغيرهم من الخلق مجوس هذه الأمة (و) الرابع (النياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت لأفهاما سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه . قال ابن العربي : هذه من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الأنبياء فإنهم أخبر بما يكون قبل كونه فظهر حقا فالأربع محرمات ومع حرمتها لا يتركونها هذه الأمة - أي أكثرهم - مع العلم بحرمتها

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (١) .
وفي صحيح مسلم « آية المنافق ثلاث وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » (٢)

(١) - صحيح البخاري (٣٣) ومسلم (٢٢٠)

وفي تحفة الأحوذى - (ج ٦ / ص ٤٢٩)

قوله : (آية المنافق ثلاث) الآية العلامة وإفراذ الآية إما على إرادة الجنس أو أن العلامة إنما تحصل باجماع الثلاث والاول هو الظاهر ، وقد رواه أبو عوانة في صحيحه بلفظ : علامات المنافق : فإن قيل : ظاهره الحصر في الثلاث فكيف الجمع بين هذا الحديث وحديث عبد الله بن عمرو الآتي بلفظ : أربع من كن فيه إلخ . يقال : قد أجاب القرطبي باحتمال أنه استجد له صلى الله عليه وسلم من العلم بخصائهم ما لم يكن عنده . قال الحافظ في الفتح : ليس بين الحديثين تعارض لأنه لا يلزم من عد الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق ، كونها علامة على النفاق لاحتمال أن تكون العلامات دالات على أصل النفاق والخصلة الزائدة إذا أضيفت إلى ذلك كمل بها خلوص النفاق ، على أن في رواية مسلم من طريق علاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ما يدل على إرادة عدم الحصر فإن لفظه : من علامة المنافق ثلاث . وكذا أخرج الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري ، وإذا حمل اللفظ الأول على هذا لم يرد السؤال فيكون قد أخبر ببعض العلامات في وقت ، وبعضها في وقت آخر انتهى

(وإذا وعد) أي أخبر بخير في المستقبل وإذا وعد يغلب في الخير وأوعد في الشر ، ويضاف الخلف في الوعيد من مكارم الأخلاق

(أخلف) أي جعل الوعد خلافا بأن لم يف بوعده . ووجه المعاييرة بين هذه وما قبلها أن الإخلاف قد يكون بالفعل وهو غير الكذب الذي هو لازم التحديث ، وليس فيه ما يدل على وجوب الوفاء بالوعد ؛ لأن ذم الإخلاف

إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ تَضَمَّنَتْهُ الْكُذِبُ الْمَذْمُومُ إِنْ عَزَمَ عَلَى الْإِخْلَافِ حَالَ الْوَعْدِ لَا إِنْ طَرَأَ لَهُ كَمَا هُوَ وَاصِحٌّ عَلَى أَنَّ
عَلَامَةَ النِّفَاقِ لَا يَلْزَمُ تَحْرِيمُهَا إِذَا الْمَكْرُوهُ لِكَوْنِهِ يَجْرُ إِلَى الْحَرَامِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَلَامَةً عَلَى الْمُحَرَّمِ ، وَنَظَائِرُهُ
عَلَامَاتُ السَّاعَةِ فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ

(وَإِذَا أُؤْتِمِنَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ أَيْ جُعِلَ أَمِينًا

(خَانَ) أَيْ فِي مَا أُؤْتِمِنَ .

(٢) - صحيح مسلم (٢٢٢)

شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ٢ / ص ٢٢١)

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث
إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم الآية يعني العلامة كما قال
تعالى أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يعني أو لم يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبي صلى
الله عليه وسلم وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق { أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ويعلمون أنه هو الذي بشر به
عيسى عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ } آية يعني
علامة فعلاصة المنافق ثلاث والمنافق هو الذي يسر الشر ويظهر الخير ومن ذلك أن يسر الكفر ويظهر الإسلام
وأصله مأخوذ من نافقاء اليربوع اليربوع أو الذي نسميه الجربوع يحفر له جحرا في الأرض ويفتح له بابا ثم يحفر في
أقصى الحجر خرقا للخروج لكنه خرق خفي لا يعلم به بحيث إذا حفره أحد من عند الباب ضرب هذا الخرق
الذي في الأسفل برأسه هرب منه فالمنافق يظهر الخير ويطن الشر يظهر الإسلام ويطن الكفر وقد برز النفاق في
عهد النبي بعد غزوة بدر لما قتل صناديد قريش في بدر وصارت الغلبة للمسلمين ظهر النفاق فأظهر هؤلاء
المنافقون أنهم مسلمون وهم كفار كما قال تعالى { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } قال الله تعالى { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْلَأُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } وقال عنهم أيضا
{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ } يوكدون كلامهم بالشهادة و بيان واللام فقال الله تعالى {
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } فشهد شهادة أقوى منها بأنهم لكاذبون في قولهم نشهد
إنك لرسول الله لا في أن محمدا رسول الله ولهذا استدرك فقال { وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ } المنافق له علامات يعرفها الذي أعطاه الله فراسة ونورا في قلبه يعرف المنافق من تتبع أحواله وهناك
علامات ظاهرة ما تحتاج إلى فراسة منها هذه الثلاث التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم إذا حدث كذب يقول
مثلا فلان فعل كذا وكذا فإذا بحثت وجدته كذب وهذا الشخص لم يفعل شيئا فإذا رأيت الإنسان يكذب فاعلم أن
في قلبه شعبة من النفاق الثاني إذا وعد أخلف يعك ولكن يخلف يقول لك مثلا سأتي إليك في الساعة السابعة
صباحا ولكن لا يأتي أو يقول سأتي إليك غدا بعد صلاة الظهر ولكن ما يأتي يقول أعطيك كذا وكذا وما يعطيك
فهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد أخلف والمؤمن إذا وعد وفي كما قال الله تعالى { وَالْمُؤْفِقُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا } لكن المنافق يعدك ويغرك فإذا وجدت الرجل يغدر كثيرا بما يعد ولا يفي فاعلم أن في قلبه
شعبة من النفاق والعياذ بالله الثالث إذا ائتمن خان وهذا الشاهد من هذا الحديث بالباب فالمنافق إذا ائتمنته على
مال خانك وإذا ائتمنته على سر بينك وبينه خانك وإذا ائتمنته على أهلك خانك وإذا ائتمنته ببيع أو شراء خانك
كلما ائتمنته على شيء يخونك والعياذ بالله يدل ذلك على أن في قلبه شعبة من النفاق وأخبر النبي صلى الله عليه
وسلم بهذا الخبر لأمرين الأمر الأول أن نخدر من هذه الصفات الذميمة لأنها من علامات النفاق ويخشى أن يكون

هذا النفاق العملي مؤديا إلى نفاق في الاعتقاد والعياذ بالله فيكون الإنسان منافقا نفاقا اعتقاديا فيخرج من الإسلام وهو لا يشعر فأخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام لحذر من ذلك الأمر الثاني لحذر من يتصف بهذه الصفات ونعلم أنه منافق يخدعنا ويلعب بنا ويغرنا بحلاوة لفظه وحسن قوله إذن عكس ذلك يكون من علامات الإيمان فالمؤمن إذا وعد أوفى المؤمن إذا اتتمن أدى الأمانة على وجهها هذا هو المؤمن وكذلك إذا حدث كان صادقا في حديثه مخبرا بما هو الواقع فعلا ومن الأسف فإن قوما من السفهاء عندنا إذا وعدته بوعده يقول وعد إنجليزي أم وعد عربي يعني أن الإنجليز هم الذين يوفون بالوعد هذا بلا شك أنه سفه وغرور بمؤلاء الكفرة الإنجليز فيهم مسلمون ومؤمنون ولكن جعلتهم كفار ووفاءهم بالوعد لا يبتغون به وجه الله لكن يبتغون به أن يحسوا صورهم عند الناس ليغتر الناس بهم المؤمن في الحقيقة هو الذي يفي تماما ولهذا إذا أردت أن تتأكد فقل لصاحبك تعدي وعد مؤمن أم وعد منافق ؟ هذا هو الصواب فمن أوفى بالوعد فهو مؤمن ومن أخلف الوعد كان فيه من خصال النفاق

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ (١)

(١) - صحيح البخارى - (ج ١ / ص ٩٣) ٣٦ - باب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبُطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ . معلقاً

فتح الباري لابن حجر - (ج ١ / ص ٧٦)

هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه ، لكن أبهم العدد . وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطوّلًا في كتاب الإيمان له ، وعينه أبو زرعة اللمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا ، والصحابة الذين أدرَكهم ابن أبي مليكة من أجَلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمِسُور بن مخرمة ، فهؤلاء ممن سمع منهم ، وقد أدرك بالسنن جماعة أجل من هؤلاء كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال ، ولم يُنقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع ، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص . ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم ، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم . وقال ابن بطال : إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه ولم يقدروا على إنكاره ، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسُّكُوت . قوله : (ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل) أي لا يجزم أحد منهم بعدم غرض النفاق لهم كما يجزم بذلك في إيمان جبريل ، وفي هذا إشارة إلى أن المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان ، خلافاً للمرجحة القائلين بأن إيمان الصديقين وغيرهم بمنزلة واحدة . وقد روي في معنى أثر ابن أبي مليكة حديث عن عائشة مرفوع رواه الطبراني في الأوسط لكن إسناده ضعيف .

وفي فتح الباري لابن رجب - (ج ١ / ص ٩٩) :

ومعناه : أن المؤمن يصف الإيمان بقوله ، وعمله نقص عن وصفه ، فيخشى على نفسه أن يكون عمله مكذبا لقوله ، كما روي عن حذيفة أنه قال : المنافق : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به . وعن عمر قال : إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم ، قالوا : وكيف يكون المنافق عليمًا ؟ قال : يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور أو قال بالمنكر . وقال الجعد أبو عثمان : قلت لأبي رجاء العطاردي : هل أدركت من أدركت من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يخشون النفاق قال : نعم ، إني أدركت بحمد الله منهم صدرا حسنا ، نعم شديدا نعم شديدا . وكان قد أدرك

عمر .

ومن كان يتعوذ من النفاق من الصحابة : حذيفة ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري . وأما التابعون : فكثير ، قال ابن سيرين : ما علي شيء أخوف من هذه الآية { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [البقرة ٨] . وقال أيوب : كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها على نفسي . وقال معاوية بن قرة : كان عمر يخشاه وآمنه أنا ؟ . وكلام الحسن في هذا المعنى كثير جدا . وكذلك كلام أئمة الإسلام بعلمهم . قال زيد بن الزرقاء ، عن سفيان الثوري : خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث :

نقول الإيمان قول وعمل ، وهو يقولون : الإيمان قول ولا عمل

ونقول : الإيمان يزيد وينقص ، وهم يقولون : لا يزيد ولا ينقص .

ونحن نقول : النفاق ، وهم يقولون : لا نفاق .

وقال أبو إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي : قد خاف عمر على نفسه النفاق قال : فقلت للأوزاعي : إنهم يقولون : إن عمر لم يخف أن يكون يومئذ منافقا حين سأل حذيفة ؛ لكن خاف أن يتلى بذلك قبل أن يموت ، قال : هذا قول أهل البدع .

وقال الإمام أحمد - في رواية هانيء وسئل : ما يقول فيمن لا يخاف النفاق على نفسه ؟ - فقال : ومن يأمن على نفسه النفاق ؟ .

وأصل هذا يرجع إلى ما سبق ذكره أن النفاق أصغر وأكبر ؛ فالنفاق الأصغر : هو نفاق العمل وهو الذي خافه هؤلاء على أنفسهم ؛ وهو باب النفاق الأكبر ، فيخشى على من غلب عليه خصال النفاق الأصغر : في حياته أن يخرج ذلك إلى النفاق الأكبر حتى ينسلخ من الإيمان بالكلية ، كما قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف : ٥] وقال { وَتُغْلِبُ أَفِيدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الأنعام : ١١٠] .

، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) } (١) [آل عمران / ١٦٦ - ١٦٨] ، فَقَدْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْكَفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ فَعَلِمَ أَنَّهُمْ مَخْلُطُونَ وَكُفْرُهُمْ أَقْوَى وَغَيْرُهُمْ يَكُونُ مُخْلَطًا وَإِيمَانُهُ أَقْوَى . وَإِذَا كَانَ " أَوْلِيَاءَ اللَّهِ " هُمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فَيَحْسَبُ إِيْمَانُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ تَكُونُ وَلِيَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيْمَانًا وَتَقْوَى كَانَ أَكْمَلَ وَلِيَّةَ لِلَّهِ . فَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي وَلِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى ، وَكَذَلِكَ يَتَفَاضِلُونَ فِي عِدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالتَّنَاقُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَكُنْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) } (٢)

(١) - مَا أَصَابَكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ، حِينَمَا التَّقِيْتُمْ بَعْدُكُمْ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ ، وَمَا حَلَّ بِكُمْ مِنْ هَزِيمَةٍ وَقِتْلٍ ، إِنَّمَا كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ السَّابِقِ ، الَّذِي جَعَلَ الْمُسَبَّاتِ نَتَائِجَ لِأَسْبَابِهَا ، فَكُلُّ عَسْكَرٍ يَعْصِي قَائِدَهُ ، وَيَكْشِفُ ظَهْرَهُ لِعَدُوِّهِ يُصَابُ بِمِثْلِ مَا أُصِيبَتْ بِهِ ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ ، وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ الشَّدَائِدَ تَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَتَبَيَّنُوا ، وَلَمْ يَتَزَلُّوا أَمَامَ الْعَدُوِّ .

وَالشَّدَائِدُ تَظْهَرُ الْمُفِيقِينَ الَّذِينَ تَبَطَّنُوا بِالْكَفْرِ ، وَأَظْهَرُوا الْإِيمَانَ ، مِنْ جَمَاعَةِ ابْنِ أَبِي بَنٍ سُلُولٍ ، الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ ، فَلَحِقَ بِهِمْ رَجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَهُمْ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الصَّفِّ ، وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِكْثَارَ عَدَدِهِمْ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ (أَوْ اذْفَعُوا) ، فَرَدُّوا مُتَعَلِّلِينَ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَتَقْتُلُونَ حَرْبًا لَا تَبْعَاكُمْ ، وَلَكِنَّا فِي قُلُوبِهِمْ يَعْتَقِدُونَ غَيْرَهُ . وَهُمْ حِينَمَا قَالُوا هَذَا الْقَوْلُ كَانُوا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَقْرَبَ لِلْكَفْرِ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فِي قُلُوبِهِمْ وَفِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْكَفْرِ وَالْكِيدِ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَسَيَعَايِبُهُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ قَعَدُوا عَنِ الْجِهَادِ ، هُمُ الَّذِينَ قَالُوا عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ : لَوْ سَمِعُوا مَشُورَتَنَا فِي الْقُعُودِ ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ لَمَّا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ .

وَيُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مُسْتَكْرَأَ قَوْلِهِمْ هَذَا : قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : لَوْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ ، فَيَنْبَغِي عَلَيْكُمْ إِلَّا تَمُوتُوا . وَلَكِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ . (٢) - ذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لِإِخْوَانِهِ : (أَوْ يَقُولُ لِمَنْ يَلْقَاهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْكَكًا) : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيْمَانًا وَيَقِينًا بِحَقِيقَةِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ ، وَصَدَقَ الرَّسُولُ؟ وَيَقُولُ تَعَالَى : أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فَتَزِيلُ لَهُمُ الْآيَاتُ إِيْمَانًا ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِرِضْوَانِ رَبِّهِمْ ، وَبِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ .

(وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ) .
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَرَيْبَةٌ (مَرٌّ) ، دَعَاهُمْ إِلَى التَّفَاقِ بِإِسْرَارِ الْكَفْرِ ، وَإِظْهَارِ الْإِيمَانِ ، فَتَزِيلُ لَهُمُ الْآيَاتُ شَكًّا وَرَيْبَةً إِلَى شُكُوكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، فَالْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي بِهِ اللَّهُ قُلُوبَ النَّاسِ ، وَهُوَ سَبَبٌ لِرِيزَادَةِ ضَلَالِهِمْ وَشَقَائِهِمْ ، فَيَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُونَ .

[التوبة/ ١٢٤، ١٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطُّوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (١)
(٣٧) سورة التوبة ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } (٢) (١٧) سورة محمد ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } (٣)

(١) - النَّسِيءُ لُغَةً هُوَ التَّأْخِيرُ ، وَالنَّسِيءُ هُنَا يُقْصَدُ بِهِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، إِذْ يُحِلُّونَ أَحَدَ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ ، فَيَقَاتِلُونَ فِيهِ ، ثُمَّ يَتَّفِقُونَ عَلَى جَعْلِ أَحَدِ أَشْهُرِ الْحِلِّ مُحَرَّمًا مَكَانَهُ ذَلِكَ الْعَامَ ، لِيَجْعَلُوا عِدَّةَ الشُّهُورِ الْحُرْمِ أَرْبَعَةً كَمَا أَمَرَ اللَّهُ .

وَيَذِمُّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ لِتَصْرِفِهِمْ بِشَرْعِ اللَّهِ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ ، وَبِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، فَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ ، وَلَا بَأْسَ عَنْهُمْ فِي تَأْخِيرِ التَّحْرِيمِ أَوْ تَقْدِيمِهِ ، فَلَهُمْ بِالنَّسِيَةِ إِلَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ أَرْبَعَةً فِي السَّنَةِ ، لَا تَخْصِيصَ أَشْهُرٍ بَعَيْنَهَا تَقَرَّرَتْ حُرْمَتُهَا ، وَإِذْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَقَدْ حَسَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ عَمَلَهُمُ السَّيِّئَ هَذَا بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ الْبَاطِلَةِ ، إِذْ اكْتَفَوْا بِالْعَدَدِ ، وَلَمْ يَدْرِكُوا حِكْمَةَ التَّخْصِيصِ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى .

(٢) - وَالَّذِينَ قَصَلُوا الْإِهْتِدَاءَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَالْإِنْتِغَاءَ بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوفِّقُهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَيُثَبِّتُهُمْ عَلَيْهِ ، وَيَشْرَحُ صُدُورَهُمْ لَهُ ، وَيُلْهِمُهُمْ رُشْدَهُمْ ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى تَقْوَاهُ .

(٣) - اعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" وفي رواية: "وإذا خاصم فجر"

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة "بدر" وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقموا أيضا عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ} {فرصفهم الله بأصل النفاق فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} فإهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: {وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهو لاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن يتج خداعه ويحصل له ما يريد أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم [شيئا] وعباده المؤمنين، لا يضرهم كيدهم شيئا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نخورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحققتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة [الفواحش] والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية. تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٤٢)

(١٠) سورة البقرة. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ عِدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ كُفْرِهِ وَفَاقِهِ . وَقَالَ تَعَالَى : {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} (١) (٣١) سورة الدثر، وَقَالَ تَعَالَى : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (٢) (٤) سورة الفتح.

وَأُولِيَاءُ اللَّهِ عَلَى طَبَقَتَيْنِ
سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ مُقْتَصِدُونَ

(١) - لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ الْكَرِيمِ (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ مُسْتَهْزِئًا : أَيْعَجزُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَى هَؤُلَاءِ السَّاحِرِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : إِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ حَرَسَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ، وَمَنْ يُطِيقُ مُغَالِبَةَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَمَا جَعَلَ عَدَدَهُمْ (تِسْعَةَ عَشَرَ) ، إِلَّا لِيَقُولَ الْكَافِرُونَ مَا قَالُوا ، لِيَتَضَاعَفَ غَضَبُ اللَّهِ وَتَقَمُّتُهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ اسْتَقْلُوا الْعَدَدَ ، وَقَالُوا كَيْفَ يَتَوَلَّى مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ تَغْذِيبَ خَلْقِ اللَّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَدَدَ لِرَسُولِهِ لِيَحْصُلَ الْيَقِينُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُ مُحَمَّدًا صَادِقٌ فِي بُرْهَانِهِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلِيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا ، حِينَمَا يَرَوْنَ تَسْلِيمَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَتَصْدِيقَهُمْ لِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ شَكٌّ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلِكَيْلَا يَشْكُ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَالْكَافِرِينَ بِرِسَالَتِهِ : مَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِذِكْرِ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ الْمُسْتَعْرَبِ ، وَمَا الْحِكْمَةُ فِيهِ؟ وَكَمَا أَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِذِكْرِ الْعَدَدِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فَيُوقِفُهُ لِلْهُدَى ، وَالْخَيْرِ ، وَالصَّوَابِ . وَمَا يَعْلَمُ عَدَدَ خَلْقِ اللَّهِ ، وَمِقْدَارَ جُمُوعِهِ ، الَّتِي مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ ، إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، لِكَيْلَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ ، وَمَا سَقَرُوا وَلَا صَفَّيْهَا إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَتَعَطَّى مِنَ الْبَشَرِ ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ .

(٢) - كَانَ مِنْ شُرُوطِ صَلَاحِ الْخُدَيْيَةِ شَرْطَانِ تَرَكَآ أَثَرًا فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ :

١- أَنْ لَا يَدْخُلَ لِلْمُسْلِمِينَ مَكَّةَ عَامَهُمْ ذَاكَ ، وَأَنْ يَأْتُوا مُعْتَرِينَ فِي الْعَامِ ، الَّذِي يَلِيهِ .

٢- أَنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمُونَ مَنْ جَاءَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ مُسْلِمًا إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَأَنْ لَا تَرُدَّ قُرَيْشٌ مَنْ جَاءَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ .

وَلَمَّا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ فِي هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ غِنًى لِلْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى إِنْ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَحْرِ الْهَدْيِ ، وَبِحَلْقِ شُعُورِهِمْ ، لَمْ يَمْتَنِلُوا لِأَمْرِهِ فِي بَادئِ الْأَمْرِ ، فَقَدْ ثَارَتْ فِي نَفُوسِهِمُ الْحَمِيَّةُ لِلْإِسْلَامِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَمَتَّنَ قُلُوبُهُمْ ، وَلِيَزْدَادُوا يَقِينًا فِي دِينِهِمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ أَمْرَ الْكَوْنِ ، فَيَجْعَلُ جُمَاعَةً مِنْ جُنْدِهِ يُقَاتِلُونَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَيَجْعَلُ غَيْرَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ جُنْدًا مِنَ السَّمَاءِ يَقْضُونَ عَلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَرَعُ الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ

ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَآخِرِهَا وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ ؛ وَالْمُطَفِّفِينَ وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ فِي الْوَاقِعَةِ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِهَا وَذَكَرَ الْقِيَامَةَ الصَّغْرَى فِي آخِرِهَا فَقَالَ فِي أَوَّلِهَا : { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) } (١) [الواقعة/١-١٤] ، فَهَذَا تَقْسِيمُ النَّاسِ إِذَا قَامَتْ

الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : فَلَوْلَا أَيْ : فَهَلَّا { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَلَنْحُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) (٢)

(١) - إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ . وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ الْوَاقِعَةُ لِتَحَقُّقِ حُلُوثِهَا .
فَلَيْسَ لَوْقُوعِهَا - إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهَا - مَنْ يَصْرِفُهُ أَوْ يَدْفَعُهُ (أَوْ فَلَا تَبْقَى نَفْسٌ مُكَذِّبَةٌ بِوُقُوعِهَا) .
فَتَخْفِضُ أَهْوَاءَ إِلَى الْحَجِيمِ ، وَتَرْفَعُ أَقْوَامًا إِلَى عُلِيِّنَ .
إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ تَنْزَلُ الْأَرْضُ زَلْزَالًا شَدِيدًا ، وَتَتَحَرَّكُ تَحَرُّكًا غَيفًا ، وَتَضْطَرِبُ بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا ، فَتَسْدُكُ الْحُصُونُ وَالْقِلَاعُ وَالْأَبْنِيَّةُ وَالْجِبَالُ .
(وَقَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ { إِنْ زُلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ } .
وَإِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ تَفْتَتِ الْجِبَالُ تَهْتَتًا ، وَتُصْبِحُ مِثْلَ كَثِيبِ الرَّمْلِ لَا تَمَاسُكَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا .
وَتَصِيرُ الْجِبَالُ ذَرَاتٍ مُتَطَايِرَةً كَالْهَبَاءِ الَّذِي يَتَطَايَرُ مِنْ شَرَرِ النَّارِ إِذَا اشْتَعَلَتْ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا .
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُصْبِحُ النَّاسُ أَصْنَافًا ثَلَاثَةً .
فَأَصْحَابُ الْمِمْنَةِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ كِتَابَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَالُهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ ، وَالْفَرَحَةِ ،
وَالنَّصْرَةِ ، وَالنَّعْمَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ .
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ الَّذِينَ يُعْطُونَ كِتَابَهُمْ بِشِمَانِهِمْ ، وَيُوقَفُونَ إِلَى شِمَالِ الْجَمْعِ لِيُسَاقُوا إِلَى النَّارِ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَالُهُمْ مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْمَسَاءَةِ ، وَالْخِزْيِ وَالْخُشُوعِ .
أَمَّا الصَّنَفُ الثَّالِثُ فَهُمْ السَّابِقُونَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْإِيمَانِ ، وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَأَدَاءِ الطَّاعَاتِ ، وَهَؤُلَاءِ يَكُونُونَ سَابِقِينَ إِلَى الْفَوْزِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .
(وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَتَدْرُونَ مَنْ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .
قَالَ : الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ ، وَإِذَا سُئِلُوا بِذُلُوهُ ، وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ") (رَوَاهُ أَحْمَدُ) .
وَهَؤُلَاءِ السَّابِقُونَ هُمُ الَّذِينَ نَالُوا الْخُطْوَةَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْجَنَّةِ .
وَيَتَمَتَّعُونَ فِي الْجَنَّةِ بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ .
وَهَؤُلَاءِ السَّابِقُونَ هُمُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ .
وَقَلَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ (الْآخِرِينَ) .

(٢) - فَإِذَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ فِي الْوُجُودِ ، وَأَنْتُمْ الْخَالِقُونَ ، فَهَلَّا أَرْجَعْتُمُ الْأَنْفُسَ الْمُحْتَضَرَةَ ، الَّتِي بَلَغَتِ الْحَلَاقِيمَ ، وَأَعَدْتُمُوهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْأَجْسَادِ؟
وَأَنْتُمْ جَالِسُونَ أَمَامَ الْمُحْتَضَرِ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَنَفْسُهُ قَدْ بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْجَسَدِ .
وَرُسُلُنَا الَّذِينَ جَاؤُوا لِقَبْضِ رُوحِ الْمُحْتَضَرِ قَرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنَّكُمْ لَا تُبْصِرُونَهُمْ .
فَإِذَا كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُبْعُوثِينَ ، وَغَيْرُ مُحَاسِبِينَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ .

غَيْرَ مَدِينِينَ - غَيْرَ مُحَاسِبِينَ أَوْ غَيْرَ مُجَزَّيْنَ بِهَا .
فَهَلَّا أَرْجَعْتُمْ الْأَنْفُسَ الْمُحْضَرَةَ إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْجَسَدِ إِنْ كُثِمَ صَادِقِينَ فِيمَا تَعْتَقِدُونَ مِنْ أَنْكُمْ لَا تُبْعَثُونَ ، وَلَا تُحَاسَبُونَ .

فَإِذَا كَانَ الْمُحْضَرُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ، وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنَبُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى .
فَيَكُونُ لَهُ رَاحَةٌ وَفَرَحٌ ، وَتُبَشِّرُهُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِجَنَّةِ النَّعِيمِ .
فَرَوْحٌ - فَلَهُ اسْتِرَاحَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْضَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ .
فَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ وَأَنْتَ سَالِمٌ ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ .
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَفَرَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ ، وَبِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ ، وَبِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ .
فَيَكُونُ قِرَاهُ ، وَزَادَ الصَّيْفَةِ الَّذِي يَسْتَطِرُّهُ ، مَاءً شَدِيدَ الْحَرَارَةِ .
فَنَزَلَ - فَلَهُ قِرَى وَصَيَافَةٌ .

وَيَدْخُلُ نَارَ جَهَنَّمَ لِيَصْلَاهَا فَتَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ .
وَهَذَا هُوَ الْخَيْرُ الْيَقِينُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ .
وَبَعْدَ أَنْ اسْتَبَانَ الْحَقُّ ، وَظَهَرَ الْيَقِينُ ، فَسَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ، وَنَزَّهَهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِجَنَابِهِ الْكَرِيمِ .

{سورة الواقعة .

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا
وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)
يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَى حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ
شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا
يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) (١) {الآيات .

(١) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَأَوْجَدَهُ مِنْ عَدَمٍ ، وَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ : أَلَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مَضَى عَلَيْهِ
حِينٌ مِنَ الزَّمَانِ؟ قَبْلَ أَنْ يَفْخَحَ فِيهِ الرُّوحُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْئًا يَعْرِفُ فَيَذْكُرُ اسْمَهُ؟
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ذَاتِ عَنَاصِرٍ شَتَّى ، اخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، لِنَحْتَبِرَهُ بِالتَّكْلِيفِ إِذَا شَبَّ وَبَلَغَ الْحُلُمَ ،
وَنَرَى هَلْ يَشْكُرُ رَبَّهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقٍ وَرِزْقٍ وَصِحَّةٍ ، أَمْ يَكْفُرُ؟ وَجَعَلْنَاهُ ذَا سَمْعٍ لِيَسْتَطِيعَ سَمَاعَ
الْآيَاتِ ، وَجَعَلْنَاهُ ذَا بَصَرٍ لِيَسْتَطِيعَ رُؤْيَا الدَّلَائِلِ ، فَيَتَفَكَّرَ وَيَتَذَكَّرَ .
وَأَعْطَيْنَاهُ الْعَقْلَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ لِيَذْكُرَ وَيَعْقِلَ ، وَبَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْهُدَى وَطَرِيقَ الضَّلَالِ لِيَخْتَارَ بَطَوَعِهِ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ ، وَبَيْنَ الْهُدَى وَالْمَعْصِيَةِ ، فَمَنْ آمَنَ بِرَبِّهِ شَكَرَ ، وَمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ جَحَدَ وَكَفَرَ النِّعْمَةَ .
إِنَّا أَعْدَدْنَا وَهَيَّأْنَا لِمَنْ كَفَرَ بِنِعْمَتِنَا ، وَخَالَفَ أَمْرَنَا ، سَلَاسِلَ يُقَادُ بِهَا إِلَى الْجَحِيمِ ، وَأَغْلَالًا تُشَدُّ بِهَا أَيْدِيهِ إِلَى عُنُقِهِ
، وَنَارًا يُعَذَّبُ فِيهَا .

إِنَّ الْكَرَامَ الْبَرَّةَ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ ، يَشْرَبُونَ مِنْ خَمَرٍ كَانَ مَا يُمَزَّجُ بِهَا مَاءَ الْكَافُورِ .
وَهَذَا الْمِزَاجُ مِنْ عَيْنٍ يَشْرَبُ بِهِ عِبَادُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ ، وَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَيُجْرَوْنَ فِيهَا حَيْثُ

أَرَادُوا مِنْ دُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ .
وهؤلاء الأبرار يوفون بما أوجبوا على أنفسهم من ثلور ، لأن من أوفى بما أوجب على نفسه كان أكثر وفاء بما أوجبه الله عليه ، ويتزكون المحرمات التي نهاهم ربهم عنها ، خيفة سوء الحساب يوم القيامة ، وهو يوم صرره منتشرًا فاشيًا عامًا على الناس إلا من رحم الله .
ويطعمون الطعام ، مع شهوتهم له ، ورغبتهم فيه ، للفقير العاجز عن الكسب (المسكين) ، واليتيم الذي مات أبوه ، وهو دون سن البلوغ والأسير العاني الذي لا يملك لنفسه قوتًا .
وإنهم إنما يطعمون الفقراء والمساكين والأيتام والأسرى ، لأنهم يريدون ثواب الله ورضوانه وحده ، لا يطعمون في جزاء من أحد غيره على إنفاقهم ، ولا في شكر من المنفق عليه .
وإنما نفعل ذلك رجاء أن يرحمنا ربنا في يوم القيامة ، وهو يوم طويل عصيب ، تغبس فيه الوجوه وتكبح من شدة أهواله .
فأمنهم الله شر ما خافوه ، وأعطاهم أمانًا تكون له وجوههم نصرة ، وسرورًا تسر به قلوبهم ، والقلب إذا سر استار الوجه .
وجزاهم الله بصبرهم على الإثثار ، وما يؤدي إليه من الجوع والعري ، جنة لهم فيها منزل رحب ، وعيش رغد ، ولباس من حرير .
ويجلسون في الجنة على السرائر والأرائك ، وهم متكئون في وضع من هو منعم ، لا يقاسون حرًا مزعجًا ، ولا بردًا مؤلمًا .

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَهِيَ سَجِينَ (٧) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِينَ (٨) كِتَابَ مَرْقُومٍ (٩) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بَيَّومَ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعَذِّبٍ أَتِيَمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَهِيَ عَلَيَّيْنِ (١٨) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَلَيَّوْنَ (١٩) كِتَابَ مَرْقُومٍ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَهِيَ نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) { (١)

(١) - كفوا أيها المطففون ، وازدجروا عن التطفيف ، فإن الفجار المطففين سيحاسبون على أعمالهم ، وسيكون مصيرهم في مكان ضيق سحيق السؤل (في سجين) .
(وقيل إن المعنى هو أن كتاب أعمالهم سيكون في مكان سحيق دلالة على التحقير والإذلال) .
وإنك لا تدري ما سجين هذا ؛ لأنك لا تعلمه أنت ولا قومك يا محمد .
ومصير هؤلاء المجرمين في سجين مكتوب مرقوم مفروغ منه ، لا يزد فيه ولا ينقص منه .
الويل والحزني وشدة العذاب في ذلك اليوم لمن كان يكذب بيوم الجزاء ، ولمن كان لا يئالي بما يكون فيه من حساب وعقاب .

الذين يكذبون بيوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .
وما يكذب بهذا اليوم إلا المعتدي في أفعاله ، الذي يتجاوز الحلال إلى الحرام ، الأثيم في أقواله فهو إن حدث

كَذَبَ وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ .

وَهَذَا الْمُعْتَدِي الْأَيْمُ هُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ يُتْلَى عَلَيْهِ ، كَذَّبَهُ وَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَقَصَصِهِمْ أَخَذَهَا مُحَمَّدٌ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ السَّابِقِينَ .

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي حَجَبَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ هُوَ مَا عَلَا قُلُوبَهُمْ وَغَطَّاهَا مِنْ تَرَكَمِ الذُّنُوبِ ، وَتَوَالِي الْإِفْدَامِ عَلَى مُنْكَرِ الْأَعْمَالِ ، حَتَّى اعْتَاثُوهَا ، وَصَارَتْ سَبَبًا لَهُمْ لِحُصُولِ الرَّيْنِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، الْأُمُورِ عَلَيْهِمْ . (أَيْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ عَمِيَتْ مِنَ الذُّنُوبِ وَمَاتَ فِيهَا الْإِحْسَاسُ) .

يَزَجُرُ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، فَهُمْ سَيُطْرَدُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَسَيُحْجَبُونَ عَنْ رُؤْيَيْهِ .

وَبَعْدَ أَنْ يُحْجَبُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ ، يُقَذَّفُ بِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَيَصْلُونَ سَعِيرَهَا ، وَيُقَاسُونَ حَرَّهَا . وَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ هُوَ جَزَاءُ لَكُمْ عَلَى تَكْذِيبِكُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ . وَإِنْ مَصِيرُ الْأَبْرَارِ سَيَكُونُ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (عَلِيَيْنَ - أَيْ مَكَانٍ عَالٍ) .

(وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ : أَنَّ كِتَابَ أَعْمَالِ الْأَبْرَارِ مُودَعٌ فِي أَعْلَى الْأَمْكِنَةِ ، بَحِثُ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَشْرِيفًا لَهُمْ ، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ) .

(وَالرَّأْيَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى أَنَّ الْأَبْرَارَ مُكْرَّمُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ عَظَمَةِ شَأْنِ عَلِيَيْنَ فَقَالَ : وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَلَيُونَ هَذَا لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ . وَمَصِيرُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ فِي عَلِيَيْنَ مَكْتُوبٌ مَرْقُومٌ .

وَيَشْهَدُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقْرُبُوهَا .

وَيَكُونُ الْأَبْرَارُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ رَبَّهُمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ مُقِيمٍ ، وَجَنَّتِ فِيهَا فَضْلٌ عَظِيمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَهُمْ عَلَى الْأَسْرِ يُنْظَرُونَ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي لَا يُوصَفُ (وَقِيلَ بَلْ إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ) .

- وَإِذَا نَظَرَ الْإِنْسَانُ إِلَى وُجُوهِهِمْ أَدْرَكَ أَنَّهُمْ أَهْلُ رِفَةٍ وَنَعِيمٍ لِمَا يَرَى فِي وَجُوهِهِمْ مِنَ الْاطْمِنَانِ وَالنَّضْرَةِ . يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرِ الْجَنَّةِ فِي أَوَانٍ مَخْتُومَةٍ ، يَفُكُ خَتَمُهَا الْأَبْرَارُ .

وَقَدْ خُتِمَتْ أَوَانِيهَا بِخِتَامٍ مِنْ مِسْكِ تَكْرِيمًا لِهَدِيَةِ الْخَمْرِ ، وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِبْتِدَالِ (وَأَهْلُ الْأَرْضِ كَانُوا يَخْتُمُونَ أَوَانِي الْخَمْرِ بِطِينٍ) .

وَلِلُّصُولِ إِلَى هَذَا النَّعِيمِ فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَسَابَقُوا وَيَتَنَافَسُوا فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ، وَالْفَوْزِ بِمَرْضَاتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِأَوَامِرِهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ قَالُوا يُمَزَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَرْجًا وَيَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا وَهُوَ كَمَا قَالُوا (١) . فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ : { يَشْرَبُ بِهَا } وَلَمْ يَقُلْ : يَشْرَبُ مِنْهَا لِأَنَّهُ ضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلَهُ يَشْرَبُ يَعْنِي يَرَوِي بِهَا فَإِنَّ الشَّارِبَ قَدْ يَشْرَبُ وَلَا يَرَوِي فَإِذَا قِيلَ يَشْرَبُونَ مِنْهَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى الرَّيِّ ، فَإِذَا قِيلَ يَشْرَبُونَ بِهَا كَانَ الْمَعْنَى يَرَوُونَ بِهَا ، فَالْمُقَرَّبُونَ يَرَوُونَ بِهَا فَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إِلَى مَا دُونَهَا ؛ فَلِهَذَا يَشْرَبُونَ مِنْهَا صِرْفًا بِخِلَافِ

أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَإِنَّهَا مُرِجَتْ لَهُمْ مَرْجًا ، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) (٢) } .
فَعِبَادُ اللَّهِ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ ، وَهَذَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ (٣)

(١) - تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ١٠٧) وتفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٣٠٠ و ٣٠١) وتفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٣٥٣) و

مصنف ابن أبي شيبة (ج ١٣ / ص ١٤) (٣٤٠٨٥) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ : مَخْتُومٌ مَمْرُوجٌ خِتَامُهُ مِسْكٌ ، قَالَ : طَعْمُهُ وَرِيحُهُ تَسْنِيمٌ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صَرْفًا وَيُمَزَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَهُوَ صَحِيحٌ وَبِرَقْم (٣٤٠٨٦) عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صَرْفًا وَيُمَزَّجُ لِسَائِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ . صَحِيحٌ

(٢) - وأما { الْأَبْرَارِ } وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم ، واستعملوها بأعمال البر أخبر أنهم { يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ } أي: شراب لذيذ من حمر قد مزج بكافور أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة] قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة .

كما قال تعالى: { فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ } { وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ } { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } { وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ } .

{ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ } أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرًا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمسكن المخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموقفات. تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٩٠١)

(٣) - قلت : هذا القاعدة ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع ، وقد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع هذه بعضها :

ففي مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٣٩٣)

فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ الْقَرِضَ وَالنَّصْرَ وَجَعَلَهُ لَهُ هَذَا فِي الرِّزْقِ وَهَذَا فِي النَّصْرِ وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْعِيَادَةُ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } وَقَوْلُهُ : { مَسْتَتِمُّ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزُلُوا } وَإِنَّمَا فِي الْحَدِيثِ أَمْرُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ فَقَطْ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَنْفَرِدُ بِهِ الْوَاحِدُ الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ : { عَبْدِي مَرَضْتُ وَجَعْتُ } فَلِذَلِكَ عَاتَبُهُ . وَأَمَّا النَّصْرُ : فَيَحْتَاجُ فِي الْعَادَةِ إِلَى عَدَدٍ ؛ فَلَا يُعْتَبَرُ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ مُعَيَّنٌ غَالِبًا أَوْ الْمَقْصُودُ بِالْحَدِيثِ التَّنْبِيهُ وَفِي الْقُرْآنِ النَّصْرُ وَالرِّزْقُ وَلَيْسَ فِيهِ الْعِيَادَةُ ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ وَالْقَرِضَ فِيهِ عُمُومٌ لَا يَخْتَصُّ بِشَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ . وَأَمَّا الْعِيَادَةُ : فَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ يَجِدُ الْحَقَّ عِنْدَهُ . فَصَلُّ :

فَهَذَانِ الْمُعْنِيَانِ صَحِيحَانِ ثَابِتَانِ بَلْ هُمَا حَقِيقَةُ الدِّينِ وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ . أَمَّا الْأَوَّلُ - وَهُوَ كَوْنُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ - : فَهَذَا قَرَضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْهُ ؛ فَإِنْ أَدَّى وَاجِبَهُ فَهُوَ مُقْتَصِدٌ وَإِنْ تَرَكَ بَعْضَ وَاجِبِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ؛ وَإِنْ تَرَكَهُ كُلَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ بِرَبِّهِ . وَأَمَّا الثَّانِي - وَهُوَ مُوَافَقَةُ رَبِّهِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَرْضَاهُ وَيُسَخِّطُهُ - فَهَذَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنَّمَا هُوَ لِلسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ : الَّذِينَ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِالتَّوَاقُلِ - الَّتِي يُحِبُّهَا

وَلَمْ يَفْرِضْهَا - بَعْدَ الْفَرَائِضِ الَّتِي يُجِبُّهَا وَيَفْرِضُهَا وَيُعَدُّ تَارِكَهَا . وَلِهَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ لَمَّا أَتَوْا بِمَحْبُوبِ الْحَقِّ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ الْمُنتَظِمَةِ لِلْمَعَارِفِ وَالْأَحْوَالِ وَالْأَحْمَالِ : أَحَبَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى . فَقَالَ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوْفَلِ حَتَّى أُحِبَّهُ } فَعَلُوا مَحْبُوبَهُ فَأَحَبَّهُمْ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ مُنَاسِبٌ لَهُ مُنَاسَبَةٌ الْمَعْلُولِ لِعَلَّتِهِ . وَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : أَنَّ يَأْتِيَ الْعَبْدُ بِعَيْنِ كُلِّ حَرَكَةٍ يُجِبُّهَا اللَّهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ يَأْتِيَ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ؛ وَالْبَاطِنَةُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْهَا بِأَكْثَرِ مِمَّا يَأْتِي بِهِ مِنَ الظَّاهِرَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : " قُوَّةُ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ وَضَعْفُهُ فِي جِسْمِهِ وَقُوَّةُ الْمُنَافِقِ فِي جِسْمِهِ وَضَعْفُهُ فِي قَلْبِهِ " وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ } { وَقَالَ : إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرَجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَسَبَهُمُ الْعُذْرُ } وَقَالَ : { فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ } فِي حَدِيثِ الْقَادِرِ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالْعَاجِزِ عَنْهُ الَّذِي قَالَ : { لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلَ } فَإِنَّهُمَا لَمَّا اسْتَوَيَا فِي عَمَلِ الْقَلْبِ وَكَانَ أَحَدُهُمَا مَعْدُورَ الْجِسْمِ اسْتَوَيَا فِي الْجَزَاءِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِنْ الْعَمَلِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ } .

مجموع الفتاوى - (ج ٦ / ص ٤٨٢)

وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ : قَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ وَهُوَ إِذَا كَانَ حُبُّ اللَّقَاءِ ؛ لِمَا رَأَاهُ مِنَ النَّعِيمِ فَالْمَحَبَّةُ حَيْثُ يُدْرِكُ النَّعِيمَ الْعَائِدَ عَلَيْهِ لَا لِمُجَرَّدِ لِقَاءِ اللَّهِ . فَيُقَالُ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَلَكِنَّ لِقَاءَ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ : " لِقَاءَ مَحْبُوبٍ " وَ " لِقَاءَ مَكْرُوهٍ " كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَبِي حَازِمٍ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ الْأَعْرَجِ : كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَقَالَ : الْمُحْسِنُ كَالْعَائِبِ يَهْدُمُ عَلَى مَوْلَاهُ وَأَمَّا الْمُسِيءُ كَالْبَاقِ يَهْدُمُ بِهِ عَلَى مَوْلَاهُ . فَلَمَّا كَانَ اللَّقَاءُ نَوْعَيْنِ - وَإِنَّمَا يُمَيِّزُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الْإِخْبَارِ بِمَا يُوصَفُ بِهِ هَذَا اللَّقَاءُ وَهَذَا اللَّقَاءُ - وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " اللَّقَاءَ الْمَحْبُوبَ " بِمَا تَتَقَدَّمُهُ الْبَشَرَى بِالْخَيْرِ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْإِكْرَامِ وَ " اللَّقَاءَ الْمَكْرُوهَ " بِمَا يَتَقَدَّمُهُ مِنَ الْبَشَرَى بِالسُّوءِ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ ؛ فَصَارَ الْمُؤْمِنُ مُخْبِرًا بِأَنَّ لِقَاءَهُ لِلَّهِ لِقَاءُ مَحْبُوبٍ وَالْكَافِرُ مُخْبِرًا بِأَنَّ لِقَاءَهُ لِلَّهِ مَكْرُوهٌ ؛ فَصَارَ الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَصَارَ الْكَافِرُ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ ؛ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَ هَذَا وَكَرِهَ لِقَاءَ هَذَا { جَزَاءً وَفَاقًا } . فَإِنَّ الْجَزَاءَ بِذَلِكَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا تُرْحَمُوا ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ } وَكَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ } . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ : { مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٌ مِنْهُ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً } وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ كَانَ لَهُ لِسَانَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ } وَقَالَ : { مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صَبَّ فِي أُذُنِهِ الْأَنْكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } وَقَالَ : { لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِالرَّجُلِ حَتَّى يَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةٌ لَحْمٍ } . وَقَالَ تَعَالَى : { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ تَبَلَّوْا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا } وَمِثْلُ هَذَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ يُبَيِّنُ فِيهِمَا أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَقُولُ اللَّهُ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوْفَلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي

يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُنْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ؛ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُنْصِرُ وَبِي يَمْشِي ؛ وَلَكِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ؛ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ { . فَبَيْنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَحَابِّهِ مِنَ التَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَحَبُّهُ الرَّبُّ كَمَا وَصَفَ وَهَذَا مَا احْتَمَلْتُهُ هَذِهِ الْأَوْرَاقُ مِنَ الْجَوَابِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٣٣٨)

وَالْفَنَاءُ فِي هَذَا هُوَ " الْفَنَاءُ " الْمَأْمُورُ بِهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَهُوَ أَنْ يَقْنَى بِعِبَادَةِ اللَّهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ؛ وَبَطَاعَتِهِ عَنْ طَاعَةِ مَا سِوَاهُ وَبِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ عَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى مَا سِوَاهُ وَبِرَجَائِهِ وَخَوْفِهِ عَنْ رَجَاءِ مَا سِوَاهُ وَخَوْفِهِ فَيَكُونُ مَعَ الْحَقِّ بِلَا خَلْقٍ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ : كُنْ مَعَ الْحَقِّ بِلَا خَلْقٍ وَمَعَ الْخَلْقِ بِلَا نَفْسٍ . وَتَحْقِيقُ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ طَاعَتُهُ طَاعَةَ اللَّهِ وَإِرْضَاؤُهُ إِرْضَاءَ اللَّهِ . وَدِينُ اللَّهِ مَا أَمَرَ بِهِ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ وَالَّذِينَ مَا شَرَعَهُ وَلِهَذَا طَالَبَ اللَّهُ الْمُدْعِينَ لِمَحَبَّتِهِ بِمُتَابَعَتِهِ فَقَالَ : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { وَضَمِنَ لِمَنْ اتَّبَعَهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ بِقَوْلِهِ : { يُحِبِّكُمُ اللَّهُ { . وَصَاحِبُ هَذِهِ الْمَتَابَعَةِ لَا يَبْقَى مُرِيدًا إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا كَارِهًا إِلَّا لِمَا كَرِهَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ الْحَقُّ كَمَا قَالَ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُنْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُنْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ؛ وَلَكِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ . وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ { .

فَهَذَا مَحْبُوبُ الْحَقِّ وَمَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَهُوَ مَحْبُوبُ الْحَقِّ وَهُوَ الْمُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِمَا دَعَا إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ فَرَضٍ وَنَفْلِ وَمَعْلُومٍ أَنْ مَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَيُبْغِضُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الْفَرَائِضَ وَالتَّوَافِلَ كُلَّهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَيْسَ فِيهَا كُفْرٌ وَلَا فَسُوقٌ وَالرَّبُّ تَعَالَى أَحَبُّهُ لِمَا قَامَ بِمَحْبُوبِ الْحَقِّ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فَلَمَّا لَمْ يَزَلْ مُتَقَرِّبًا إِلَى الْحَقِّ بِمَا يُحِبُّهُ مِنَ التَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَحَبَّهُ الْحَقُّ فَإِنَّهُ اسْتَفْرَغَ وَسَعَاهُ فِي مَحْبُوبِ الْحَقِّ . فَصَارَ الْحَقُّ يُحِبُّهُ الْمَحَبَّةَ التَّامَّةَ الَّتِي لَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَنْ هُوَ ذُو نَفْسٍ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى الْحَقِّ بِمَحْبُوبَاتِهِ حَتَّى صَارَ يَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِالْحَقِّ فَصَارَ بِهِ يَسْمَعُ وَبِهِ يُنْصِرُ وَبِهِ يَبْطِشُ وَبِهِ يَمْشِي . وَأَمَّا الَّذِي لَا يَسْتَحْسِنُ حَسَنَةً وَلَا يَسْتَقْبِحُ سَيِّئَةً فَهَذَا لَمْ تَبْقَ عِنْدَهُ الْأُمُورُ " نَوْعَانِ " : مَحْبُوبٌ لِلْحَقِّ وَمَكْرُوهٌ ؛ بَلْ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَحْبُوبٌ لِلْحَقِّ كَمَا أَنَّهُ مُرَادٌ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَصْلَ قَوْلِهِمْ : هُوَ قَوْلُ جَهَنَّمَ بَنِ صَفْوَانَ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ فَهُمْ مِنْ غُلَاةِ الْجَهَنَّمِيَّةِ الْجَبَرِيَّةِ فِي الْقَدَرِ وَإِنْ كَانُوا فِي الصِّفَاتِ يُكْفَرُونَ الْجَهَنَّمِيَّةَ نِفَاةِ الصِّفَاتِ كَحَالِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيِّ صَاحِبِ " مَنَازِلِ السَّائِرِينَ " وَ " ذَمِّ الْكَلَامِ " وَ " الْفَارُوقِ " وَ " تَكْفِيرِ الْجَهَنَّمِيَّةِ " وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ فِي بَابِ اثْبَاتِ الصِّفَاتِ فِي غَايَةِ الْمُقَابَلَةِ لِلْجَهَنَّمِيَّةِ وَالتَّفَاةِ وَفِي بَابِ الْأَفْعَالِ وَالْقَدَرِ قَوْلُهُ يُؤَافِقُ الْجَهَنَّمَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غُلَاةِ الْجَبَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلُ الْأَشْعَرِيِّ وَاتَّبَاعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ أَتْبَاعِ الْأَنْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٣٠٤)

إِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْبَةِ جَاءَ بِمَا لَمْ يَجِئْ بِهِ شَرْعٌ مِنْ قَبْلِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : { أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ؛ وَأَنَا نَبِيُّ التَّوْبَةِ { وَقَدْ رُفِعَ بِهِ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ مَا كَانَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ { وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ النَّائِبِ أَكْثَمَ مِنْ فَرَحِ الْفَقِيدِ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْمَرْكَبِ إِذَا وَجَدَهُ بَعْدَ الْيَأْسِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا فَرَحُ الرَّبِّ بِتَوْبَةِ النَّائِبِ وَبِذَلِكَ مَحَبَّتُهُ ؛ كَيْفَ

يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَعُودُ لِمَوَدَّتِهِ { وَهُوَ الْغُفُورُ الْوَدُودُ } { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } { فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ } وَلَكِنَّ وَدَّهَ وَحَبَّهُ بِحَسَبِ مَا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ مَحَبُوبَاتِ الْحَقِّ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَفْضَلَ مِمَّا كَانَ يَأْتِي بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ لَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَعْظَمَ مِنْ مَوَدَّتِهِ لَهُ قَبْلَ التَّوْبَةِ . وَإِنْ كَانَ أَقْصَصَ كَانَ الْأَمْرُ أَنْقَصَ ؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ؛ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ؛ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَذَاءٍ مَا أَفْرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا : فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ؛ وَلَكِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ؛ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ } . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَوْلِيَاءِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ وَكَانَتْ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لَهُمْ وَمَوَدَّتُهُ لَهُمْ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ أَعْظَمَ مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً ، وَكَلَّمَا تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالتَّوَّافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَحَبَّهُمْ وَوَدَّهُمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } . تَرَكْتُ فِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَادُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِثْلَ " أَهْلِ الْأَحْزَابِ " كَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَغَيْرَهُمْ . فَإِنَّهُمْ بَعْدَ مُعَادَاتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَوَدَّةً وَكَانُوا فِي ذَلِكَ مُتَفَاضِلِينَ وَكَانَ عِكْرِمَةُ وَسُهَيْلٌ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ أَعْظَمَ مَوَدَّةً مِنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَنَحْوِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ { أَنَّ هِنْدَ امْرَأَةَ أَبِي سُفْيَانَ أُمُّ مُعَاوِيَةَ قَالَتْ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَهْلٌ خِبَاءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذَلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَاتِكَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَهْلٌ خِبَاءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يُعْزُوا مِنْ أَهْلِ خِبَاتِكَ فَذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا نَحْوَ ذَلِكَ } . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْمَوَدَّةَ الَّتِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا تَكُونُ تَابِعَةً لِحُبِّهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنْ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ . فَالْحُبُّ لِلَّهِ مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ ؛ وَالْحُبُّ مَعَ اللَّهِ شِرْكٌ . قَالَ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } فَبَلَكَ الْمَوَدَّةَ الَّتِي صَارَتْ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَوْهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا كَانَتْ مَوَدَّةً لِلَّهِ وَمَحَبَّةً لِلَّهِ وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهَ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ وَدَّ اللَّهَ وَدَّهَ اللَّهُ فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحَبَّهُمْ وَوَدَّهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ كَمَا أَحْبُوهُ وَوَدُّوهُ فَكَيْفَ يُقَالُ : إِنَّ التَّائِبَ إِنَّمَا تَحْصُلُ لَهُ الْمَغْفِرَةُ دُونَ الْمَوَدَّةِ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٣٠٨)

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَا أَتَاهُ ذَنْبًا ثُمَّ تَابَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبَدَّلَ وَصْفُهُ الْمَذْمُومَ بِالْمَحْمُودِ ؛ فَإِذَا كَانَ يُبْعَضُ الْحَقُّ فَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّهُ وَإِذَا كَانَ يُحِبُّ الْبَاطِلَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْعَضَهُ . فَمَا يَأْتِي بِهِ التَّائِبُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَمِنْ بُغْضِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهَا ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ كَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَأْتِي بِهِ الْعَبْدُ مِنْ مَحَابِهِ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ فِعْلاً لِمَحَبُوبِ الْحَقِّ كَانَ الْحَقُّ أَعْظَمَ مَحَبَّةً لَهُ وَانْتِفَالُهُ مِنْ مَكْرُوهِ الْحَقِّ إِلَى مَحْبُوبِهِ مَعَ قُوَّةٍ بَعْضُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَقُوَّةٌ حُبٍّ مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْحَقِّ ؛ فَوَجِبَ زِيَادَةُ مَحَبَّةِ الْحَقِّ لَهُ وَمَوَدَّتِهِ إِيَّاهُ ؛ بَلْ يُبَدَّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ لِأَنَّهُ بَدَّلَ صِفَاتِهِ الْمَذْمُومَةَ بِالْمَحْمُودَةِ فَيُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ . فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . وَحَيْثُذَ إِذَا كَانَ إِيثَانُ التَّائِبِ بِمَا يُحِبُّهُ الْحَقُّ أَعْظَمَ مِنْ إِيثَانِ غَيْرِهِ كَانَتْ مَحَبَّةُ الْحَقِّ لَهُ أَعْظَمَ وَإِذَا كَانَ فِعْلُهُ لِمَا يُوَدُّهُ اللَّهُ مِنْهُ أَعْظَمَ مِنْ فِعْلِهِ لَهُ قَبْلَ التَّوْبَةِ كَانَتْ مَوَدَّةُ اللَّهِ لَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَعْظَمَ مِنْ مَوَدَّتِهِ لَهُ قَبْلَ التَّوْبَةِ فَكَيْفَ يُقَالُ : الْوُدُّ لَا يَعُودُ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٥ / ص ٢٧)

وقوله تعالى { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } لَهُ دَلَالَةٌ بِمَنْطُوقِهِ وَدَلَالَةٌ بِإِيْمَانِهِ وَتَعْلِيلُهُ بِمَفْهُومِهِ . فَدَلَالَتُهُ بِمَنْطُوقِهِ عَلَى قُرْبِ الرَّحْمَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ وَدَلَالَتُهُ بِإِيْمَانِهِ وَتَعْلِيلُهُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْبَ مُسْتَحَقٌّ بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ السَّبَبُ فِي قُرْبِ الرَّحْمَةِ مِنْهُمْ وَدَلَالَتُهُ بِمَفْهُومِهِ عَلَى بُعْدِهِ مِنْ غَيْرِ الْمُحْسِنِينَ . فَهَذِهِ ثَلَاثُ دَلَالَاتٍ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ؛ وَإِنَّمَا أُخْتُصَّ أَهْلُ الْإِحْسَانِ بِقُرْبِ الرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا إِحْسَانٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَإِحْسَانُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا يَكُونُ لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَكُلَّمَا أَحْسَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ فَإِنَّهُ لَمَّا بُعِدَ عَنِ الْإِحْسَانِ بُعِدَتْ عَنْهُ الرَّحْمَةُ بُعْدٌ يُبْعَدُ وَقُرْبٌ يَقْرُبُ فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ وَمَنْ تَبَاعَدَ عَنِ الْإِحْسَانِ تَبَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَحْمَتِهِ .

وانظر مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٩٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٢٠٠) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٢٧٦)

فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ - (ج ٣ / ص ١٢٩) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٣ / ص ٣٤٣١) رقم الفتوى ١٦١٥٨ الجزء من جنس العمل، والعفو أقرب للتقوى وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٣ / ص ٥٤٢٢) رقم الفتوى ١٩٠٣١ الوعيد لا يلزم أن يقع وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٩ / ص ٢٢٥٧) رقم الفتوى ٦٢٧١٩ امرأة الزاني تصير زانية من وجوه كثيرة والدرر السنية في الأجوبة النجدية - الرقمية - (ج ٨ / ص ١٧٤) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي - (ج ٢ / ص ٢٣٩٤٧) وفي إعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج ١ / ص ٢٦٥):

[يَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَمِثَالُهُ] وَلِذَلِكَ كَانَ الْجَزَاءُ مُمَاتِلًا لِلْعَمَلِ مِنْ جِنْسِهِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ أَقَالَ نَادِمًا أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ تَبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ ضَارَّ مُسْلِمًا ضَارَّ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ خَذَلَ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يَجِبُ نُصْرَتُهُ فِيهِ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ يَجِبُ نُصْرَتُهُ فِيهِ ، وَمَنْ سَمَحَ سَمَحَ اللَّهُ لَهُ ، وَالرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ ، وَمَنْ أَنْفَقَ أَنْفَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَوْعَى أَوْعَى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَفَا عَنْ عَفَا اللَّهُ لَهُ عَنْ حَقِّهِ ، وَمَنْ تَجَاوَزَ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ اسْتَقْصَى اسْتَقْصَى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ فَهَذَا شَرْعُ اللَّهِ وَقُدْرَةُ وَوَحْيُهُ وَتَوَاتُؤُهُ وَعِقَابُهُ كُلُّهُ قَائِمٌ بِهَذَا الْأَصْلِ ، وَهُوَ إِنْ حَاقَ الظُّلُمُ بِالظُّلُمِ ، وَاعْتَبَارُ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ ، وَلِهَذَا يَذْكُرُ الشَّارِعُ الْعِلَلَ وَالْأَوْصَافَ الْمُؤَثِّرَةَ وَالْمَعَانِي الْمُعْتَبِرَةَ فِي الْأَحْكَامِ الْقُدْرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى تَعَلُّقِ الْحُكْمِ بِهَا أَتَيْنَ وَجِدَتْ ، وَافْتِضَائُهَا لِأَحْكَامِهَا ، وَعَدَمُ تَخَلُّفِهَا عَنْهَا إِلَّا لِمَنْعٍ يُعَارِضُ افْتِضَاءَهَا وَيُوجِبُ تَخَلُّفَ أَفْرَاقِهَا عَنْهَا ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } وَقَوْلِهِ : { ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُدْهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا } { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا } { ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ } { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ } { وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ } .

في الخير والشر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ

طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ
السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَخَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». رَوَاهُ
مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ». قَالَ
التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ (٢).

(١) - صحيح مسلم (٧٠٢٨)

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ٢ / ص ٣٤٢)

قال المؤلف رحمه الله تعالى باب قضاء حوائج المسلمين الحوائج ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره وأما الضروريات
فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضررا ودفع الضرورات واجب فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في
ضرورة أن يدفع ضرورته فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفأة أو إلى التبردة وجب عليه أن
يقضي حاجته ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها .

حتى إن أهل العلم يقولون لو اضطر الإنسان إلى طعام في يد شخص أو إلى شرابه والشخص الذي بيده الطعام أو
الشراب غير مضطر إلى هذا الطعام أو الشراب ومنعه بعد طلبه ومات هذا المضطر فإنه يضمن لأنه فرط في إنقاذ
أخيه من هلكة أما إذا كان الأمر حاجيا وليس ضروريا فإن الأفضل أن تعين أخاك على حاجته وأن تيسرها له ما لم
تكن الحاجة فيها مضرته فإن كانت الحاجة فيها مضرته فلا تعنه لأن الله يقول ولا تعاونوا على الإثم والعدوان فلو
فرض أن شخصا احتاج إلى شرب دخان وطلب منك أن تعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك فإنه لا
يحل لك أن تعينه ولو كان محتاجا حتى لو رأيته ضائقا يريد أن يشرب الدخان فلا تعنه لقول الله تعالى { ولا تعاونوا
على الإثم والعدوان } حتى لو كان أباك فإنك لا تعنه على هذا حتى لو غضب عليك إذا لم تأت به فليغضب لأنه
غضب في غير موضع الغضب بل إنك إذا امتنعت من أن تأتي لأبيك بما يضره فإنك تكون بارا به ولا تكون عاقلا له
لأن هذا هو الإحسان فأعظم الإحسان أن تمتنع أباك بما يضره قال النبي عليه الصلاة والسلام انصر أخاك ظالما أو
مظلوما قالوا يا رسول الله كيف ننصره إذا كان ظالما قال تمتعه من الظلم فذلك نصرك إياه وعلى هذا فإن ما ذكره
المؤلف في باب قضاء حوائج المسلمين يريد بذلك الحوائج المباحة فإنه ينبغي لك أن تعين أخاك عليها فإن الله في
عونك ما كنت في عون أخيك .

ثم ذكر المؤلف أحاديث من الكلام عليها فلا حاجة إلى إعادتها إلا أن فيها بعض الجمل تحتاج إلى كلام منها قوله من
يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة فإذا رأيت معسرا ويسر عليه الأمر يسر الله عليك في الدنيا
والآخرة مثل أن ترى شخصا ليس بيده ما يشتري لأهله من طعام وشراب لكن ليس عنده ضرورة فأنت إذا
يسرت عليه يسر الله عليك في الدنيا والآخرة ومن ذلك أيضا إذا كنت تطلب شخصا معسرا فإنه يجب عليك أن
تيسر عليه وجوبا لقوله تعالى { وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة } وقد قال العلماء رحمهم الله من كان له غريم
معسر فإنه يحرم عليه أن يطلب منه الدين أو أن يطالبه به أو أن يرفع أمره إلى الحاكم بل يجب عليه إنظاره ويوجد
بعض الناس والعياذ بالله ممن لا يخافون الله ولا يرحمون عباد الله يطالبون المعسرين ويضيقون عليهم ويرفعونهم إلى
الجهات المسؤولة فيحبسون ويؤذون ويمنعون من أهلهم ومن ديارهم كل هذا بسبب الظلم وإن كان الواجب على
القاضي إذا ثبت عنده إعسار الشخص فواجب عليه أن يرفع الظلم عنه وأن يقول لغرمائه ليس لكم شيء ثم إن

بعض الناس والعياذ بالله إذا كان لهم غريم معسر يحتال عليه بأن يدينه مرة أخرى بربا فيقول مثلاً اشتر مني السلعة القلانية بزيادة على ثمنها وأوفني أو يتفق مع شخص ثالث يقول اذهب تدين من فلان وأوفني وهكذا حتى يصبح هذا المسكين بين يدين هذين الظالمين كالكرة بين يدي الصبي يلعب بها والعياذ بالله .

والمهم أن عليكم إذا رأيتم شخصاً يطالب معسراً أن تبينوا له أنه آثم وأن ذلك حرام عليه وأنه يجب عليه إنظاره بقول الله تعالى { وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة } وأنه إذا ضيق على أخيه المسلم فإنه يوشك أن يضيق الله عليه في الدنيا أو في الآخرة أو في الدنيا والآخرة معا ويوشك أن يعجل به العقوبة ومن العقوبة أن يستمر في مطالبة هذا المعسر وهو معسر لأنه كلما طالبه ازداد إثماً وعلى العكس من ذلك فإنه يوجد بعض الناس والعياذ بالله يماطلون بالحقوق التي عليهم مع قدرتهم على وفائهم فيجده يأتيه صاحب الحق فيقول غدا وإذا أتاه في غد قال بعد غد وهكذا وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مطل الغنى ظلم وإذا كان ظلماً فإن أي ساعة أو لحظة تمضي وهو قادر على وفاء دينه فإنه لا يزداد بها إلا إثماً نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

(٢) - سنن أبي داود (٤٩٤٣) وسنن الترمذی (٢٠٤٩) صحيح

وفي تحفة الأحمدي - (ج ٥ / ص ١٤٨)

قَوْلُهُ : (الرَّاحِمُونَ) لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ آدَمِيٍّ وَحَيَوَانٍ مُحْتَرَمٍ بَخْوِ شَفَقَةٍ وَإِحْسَانٍ وَمُؤَاسَاةٍ (يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ) أَيُّ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ ، وَالرَّحْمَةُ مُقَيَّدَةٌ بِاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِقَامَةُ الْحُدُودِ وَالِاتِّبَاعُ لِحُرْمَةِ اللَّهِ لَا يُنَافِي كُلُّ مِنْهُمَا الرَّحْمَةَ (ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ) قَالَ الطَّبِيُّ : أَتَى بِصِغَةِ الْعُمُومِ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ فَيَرْحَمُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَالنَّاطِقَ وَالْبَهِيمَ ، وَالْوَحْشَ وَالطَّيْرَ أَنْتَهَى . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِرَادَ (مَنْ) لِيَتَغَلَّبَ ذَوِي الْعُقُولِ لَشَرَفِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ الْمُقَابِلَةِ يَقُولُهُ (يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وَهُوَ مَجْزُومٌ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ أَيُّ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقِيلَ الْمُرَادُ مَنْ سَكَنَ فِيهَا وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } ، وَفِي السَّرَاجِ الْمُنِيرِ وَقَدْ رُوِيَ بِلَفْظٍ : " ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ " ، وَالْمُرَادُ بِأَهْلِ السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ ، وَمَعْنَى رَحْمَتِهِمْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دُعَاؤُهُمْ لَهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : " وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ آمَنَ "

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي في السنن : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شَجَنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ » (١).

وَقَالَ : « الرَّحِمُ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ » (٢). وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ .

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوَعَيْنِ : مُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَلَ الْقِسْمَيْنِ فِي حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ يَقْتَرِبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي عَبْدِي أُعْطِيْتُهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ » (٣).

فَالْأَبْرَارُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمْ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَتَرَكُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْلِفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُنْذِرَاتِ ؛ وَلَا الْكَفَّ عَنْ فُضُولِ الْمُبَاهَاتِ .
وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُتَقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالتَّوْفِإِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ ، فَفَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَاتِ وَتَرَكُوا الْمَحْرَمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ ، فَلَمَّا تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَحْيَوِيَّاتِهِمْ أَحَبَّهُمُ الرَّبُّ حُبًّا تَامًّا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوْفِإِ حَتَّى أَحِبَّهُ } يَعْنِي الْحُبَّ الْمَطْلُوقَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) } (٤) [الفاتحة/٦، ٧] ، أَيِ أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ الْإِنْعَامَ الْمَطْلُوقَ التَّامَّ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } (٥)

(١) - مسند أحمد مسند أحمد (١٧٠٢ و ٢٥٠٦٨) وسنن الترمذی (٢٠٤٩) صحيح

تحفة الأحوذی - (ج ٥ / ص ١٤٨)

(الرَّحْمُ شَجَنَةٌ) بِكَسْرِ الْمُعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْجِيمِ بَعْدَهَا نُونٌ وَجَاءَ بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِهِ رَوَايَةٌ وَلُغَةٌ ، وَأَصْلُ الشَّجَنَةِ عُروْقُ الشَّجَرِ الْمُشْتَبِكَةِ ، وَالشَّجَنُ بِالتَّخْرِيكِ وَاحِدُ الشُّجُونِ ، وَهِيَ طُرُقُ الْأَوْدِيَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : الْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ ، أَيِ يَدْخُلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ

(مِنَ الرَّحْمَنِ) أَيِ أَخَذَ اسْمُهَا مِنْ هَذَا الْإِسْمِ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي السُّنَنِ مَرْفُوعًا : " أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي " . وَالْمَعْنَى أَنَّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الرَّحْمَةِ مُشْتَبِكَةٌ بِهَا ، فَالْقَاطِعُ لَهَا مُنْقَطِعٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ : مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الرَّحِمَ أَشْتَقَّ اسْمُهَا مِنْ اسْمِ الرَّحْمَنِ فَلَهَا بِهِ عُلْقَةٌ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا مِنْ ذَاتِ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ .

(٢) - مسند أحمد (٢٥٠٦٨) صحيح

(٣) - السنن الكبرى للسيهقي (ج ٣ / ص ٣٤٦) (٦٦٢٢) وهذا لفظه والبخاري (٦٥٠٢)

(٤) - وَتَسَأَلُكَ أَنْ تُؤَفِّقَنَا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُؤْصِلُنَا إِلَيْكَ . وَهُوَ طَرِيقُ عِبَادِكَ الَّذِينَ وَفَّقْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ ، وَوَهَبْتَ لَهُمُ الْهُدَايَةَ وَالرِّضَا مِنْكَ ، لَا طَرِيقَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا غَضَبَكَ ، وَضَلُّوا طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ ، وَالْإِذْعَانِ لِهَدْيِكَ .
(٥) - وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَاتَّقَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسَكِّنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ ، وَيَجْعَلُهُ مَرِافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعَلَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمْ الصِّدِّيقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَالَانِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةً هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ .

(وَيَذْكُرُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَحْزُونًا ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ عَنْ سَبَبِ حُزْنِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : نَحْنُ نَعْبُدُ وَنَرْوَحُ ، وَنَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ ، وَغَدَا تَرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ فَلَا تَصِلُ إِلَيْكَ . فَلَمْ يَرُدِّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ) .

(٦٩) سورة النساء، فَهَؤُلَاءِ الْمُتَقَرَّبُونَ صَارَتْ الْمُبَاهَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١)

(١) - ففي شرح النووي على مسلم - (ج ٣ / ص ٤٤٦)

(وفي بُضْعٍ أَحَدَكُمْ صَدَقَةً) هُوَ بَضْمُ الْبَاءِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَرَجِ نَفْسَهُ ، وَكِلَاهُمَا تَصَحَّحَ إِرَادَتُهُ هُنَا ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ ، فَالْجَمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا تَوَيَّ بِهَ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ ، أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافِ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ ، أَوْ الْفِكْرِ فِيهِ ، أَوْ الِهَمِّ بِهِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٥٣٣)

فَإِذَا قِيلَ الْمُبَاحُ وَاجِبٌ بِمَعْنَى وَجُوبِ الْوَسَائِلِ أَيْ قَدْ يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى فِعْلٍ وَاجِبٍ وَتَرْكُ مُحَرَّمٍ فَهَذَا حَقٌّ ثُمَّ إِنَّ هَذَا يُعْتَبَرُ فِيهِ الْقَصْدُ ؛ فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَقْصِدُ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالْمُبَاحِ لِتَرْكِ الْمُحَرَّمِ مِثْلُ مَنْ يَشْتَغِلُ بِالنَّظَرِ إِلَى امْرَأَتِهِ وَوَطْنِهَا لِيَدْعَ بِذَلِكَ النَّظَرَ إِلَى الْأَجْبِيَةِ وَوَطْنِهَا أَوْ يَأْكُلُ طَعَامًا حَلَالًا لِيَشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الطَّعَامِ الْحَرَامِ فَهَذَا يُثَابُ عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ وَالْفِعْلِ ؛ كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : " { وَفِي بُضْعٍ أَحَدَكُمْ صَدَقَةٌ } . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَيَّتَنِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ أَجْرٌ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ فَلِمَ تَحْتَسِبُونَ بِالْحَرَامِ وَلَا تَحْتَسِبُونَ بِالْحَلَالِ { " وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخْصِهِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ } " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ خُرَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ . وَقَدْ يُقَالُ الْمُبَاحُ يَصِيرُ وَاجِبًا بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ وَإِنْ تَعَيَّنَ طَرِيقًا صَارَ وَاجِبًا مُعَيَّنًا وَإِلَّا كَانَ وَاجِبًا مُخَيَّرًا لَكِنْ مَعَ هَذَا الْقَصْدِ إِمَّا مَعَ الذُّهُولِ عَنْ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ وَاجِبًا أَصْلًا إِلَّا وَجُوبَ الْوَسَائِلِ إِلَى التَّرَكِّ ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْقَصْدُ . فَكَذَلِكَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَيْهِ فَإِذَا قِيلَ هُوَ مُبَاحٌ مِنْ جِهَةٍ نَفْسِهِ وَأَنَّهُ قَدْ يَجِبُ وَجُوبُ الْمُخَيَّرَاتِ مِنْ جِهَةِ الْوَسِيلَةِ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ . فَالْتَّرَاغُ فِي هَذَا الْبَابِ تَرَاغٌ لَفْظِيٌّ اِغْتِيَابِيٌّ . وَإِلَّا فَالْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ لَا يُتَارَعُ فِيهَا مِنْ فَهْمِهَا .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ الْأَبْرَارَ وَأَصْحَابَ الْيَمِينِ قَدْ يَشْتَغِلُونَ بِمُبَاحٍ عَنْ مُبَاحٍ آخَرَ فَيَكُونُ كُلُّ مِنَ الْمُبَاحِينَ يَسْتَوِي وَجُودُهُ وَعَدَمُهُ فِي حَقِّهِمْ . أَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَهُمْ إِثْمًا يَسْتَغْمِلُونَ الْمُبَاحَاتِ إِذَا كَانَتْ طَاعَةً لِحُسْنِ الْقَصْدِ فِيهَا ؛ وَالِاسْتِعَانَةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ . وَحِينَئِذٍ فَمُبَاحَاتُهُمْ طَاعَاتٌ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْأَفْعَالُ فِي حَقِّهِمْ إِلَّا مَا يَتَرَجَّحُ وَجُودُهُ فَيُؤْمَرُونَ بِهِ شَرْعًا أَمَرَ اسْتِحْبَابٍ أَوْ مَا يَتَرَجَّحُ عَدَمُهُ فَالْأَفْضَلُ لَهُمْ أَلَّا يَفْعَلُوهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِثْمٌ وَالشَّرِيعَةُ قَدْ بَيَّنَّتْ أَحْكَامَ الْأَفْعَالِ كُلِّهَا فَهَذَا " سُؤَالٌ " . وَ " سُؤَالٌ ثَانٍ " وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قُدِّرَ أَنَّ مِنَ الْأَفْعَالِ مَا لَيْسَ فِيهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ كَمَا فِي حَقِّ الْأَبْرَارِ فَهَذَا الْفِعْلُ لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ وَلَا يُحِبُّ وَلَا يُبْغَضُ وَلَا يُنْظَرُ فِيهِ إِلَّا وَجُودُ الْقَدَرِ وَعَدَمُهُ ؛ بَلْ إِنْ فَعَلُوهُ لَمْ يُحْمَدُوا وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوهُ لَمْ يُحْمَلُوا ، فَلَا يَجْعَلُ مِمَّا يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي هَذَا الْفِعْلِ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ مَعَ كَوْنِ هَذَا الْفِعْلِ صَدَرَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ . إِذْ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا غَيْرُ " الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ " : وَهُوَ مَا فُعِلَ بِالْإِنْسَانِ كَمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُنْتِنَاعَ فَهَذَا خَارِجٌ عَنِ التَّكْلِيفِ مَعَ أَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يُحِبَّهُ إِنْ كَانَ حَسَنَةً وَيُبْغِضَهُ إِنْ كَانَ سَيِّئَةً وَيَخْلُو عَنْهُمَا إِنْ لَمْ يَكُنْ حَسَنَةً وَلَا سَيِّئَةً ، فَمَنْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ فِيمَا يَسْتَغْمِلُهُ فِيهِ الْقَدَرُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ - كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ - فَقَدْ رَفَعَ الْأَمْرَ وَالتَّهْيِ عَنْهُ فِي الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ وَهَذَا بَاطِلٌ .

، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ فَشَرُّوا صِرْفًا كَمَا عَمِلُوا لَهُ صِرْفًا ، وَالْمُقْتَصِدُونَ كَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا فَعَلُوهُ لِنَفْسِهِمْ فَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَشَرُّوا صِرْفًا ؛ بَلْ مُرَجَّحٌ لَهُمْ مِنْ شَرَابِ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ مَا مَرَّ جُودُهُ فِي الدُّنْيَا .

وَيُظَاهِرُ هَذَا اِهْتِسَامُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِلَى عَبْدٍ رَسُولٍ وَنَبِيِّ مَلِكٍ وَقَدْ خَيَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا (١) ، فَالْتَّيُّ الْمَلِكُ مِثْلُ دَاوُدَ

وَسُلَيْمَانَ وَنَحْوَهُمَا عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) } (ص/٣٥-٤٠)، أَيُّ أَعْطَى مَنْ شِئْتَ وَاحْرَمَ مَنْ شِئْتَ لَا حِسَابَ عَلَيْكَ، فَالْتَبَّى الْمَلِكُ يَفْعَلُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَتَصَرَّفُ فِي الْوَلَايَةِ وَالْمَالِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَخْتَارُ مِنْ غَيْرِ إِنْهُ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الْعَبْدُ الرَّسُولُ فَلَا يُعْطَى أَحَدًا إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَلَا يُعْطَى مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ [مَنْ يَشَاءُ بَلْ رُوي عَنْهُ] أَنَّهُ قَالَ: « مَا أُعْطِيَكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ » (٣)، وَلِهَذَا يُضَيِّفُ اللَّهُ الْأَمْوَالَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٤)

(١) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ فَقَالَ جِبْرِيلُ : إِنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مِنْذُ يَوْمِ خَلْقِ قَبْلِ السَّاعَةِ فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ يَا مُحَمَّدُ : أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ أَفْمَلَكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا قَالَ جِبْرِيلُ : تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ : « بَلْ عَبْدًا رَسُولًا » . مسند أحمد (٧٣٥٩)

صحيح

(٢) - فَسَأَلَ سُلَيْمَانُ رَبَّهُ الْمَغْفِرَةَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَمْنَحَهُ مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَتَسَوَّى لِأَحَدٍ بَعْدَهُ أَنْ يَمْلِكُهُ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى ثُبُوتِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْوَهَّابُ الْوَاسِعُ الْعَظَاءُ .

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعْوَتِهِ ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ ، وَجَعَلَهَا مَذْلَلَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ لَيْتَةً طَيِّعَةً ، حَيْثُ أَرَادَ تَوَجُّهَهَا ، لَا تَمْتَنِعُ عَنْ ذَلِكَ .

وَسَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الشَّيَاطِينَ الْبَنَانِينَ وَالْغَوَاصِينَ يَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِ مَا يُكَلِّفُهُمُ الْقِيَامَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ ، مِنْ غَوَاصٍ فِي الْبَحَارِ لَاسْتِخْرَاجِ اللَّالِئِ وَالنَّفَائِسِ ، وَمِنْ بِنَاءٍ مَا يُرِيدُ بِنَاءَهُ مِنْ قُصُورٍ وَبُيُوتٍ وَمَعَابِدَ .
أَخْضَعَ اللَّهُ تَعَالَى الشَّيَاطِينَ ، الْمُشَاكِسِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ ، لِأَمْرِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَوَضَعَهُمْ سُلَيْمَانُ فِي الْقَيْدِ وَالْأَصْفَادِ لِيَتَّقِيَ شَرَّهُمْ ، وَيَكْفَ فَسَادَهُمْ عَنِ الْعِبَادِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ : هَذَا الَّذِي مَنَحَكَ اللَّهُ إِيَّاهُ ، هُوَ عَطَاءٌ خَاصٌّ مِنَ اللَّهِ بِكَ ، فَأَعْطِ مَا شِئْتَ لِمَنْ شِئْتَ ، وَامْنَعْ مَنْ شِئْتَ غَيْرَ مُحَاسِبٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَتَتْ حُرٌّ مُطْلَقُ التَّصَرُّفِ .
وَإِنَّ لِسُلَيْمَانَ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ لَقُرْبَةً وَكَرَامَةً وَحِطًّا عَظِيمًا .

(٣) - صحيح البخارى (٣١١٧)

وَالْمَعْنَى لَا أَتَصَرَّفُ فِيكُمْ بَعِطِيَّةً وَلَا مَنَعَ بَرَأِي ، وَقَوْلُهُ " إِنَّمَا أَنَا الْقَاسِمُ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ " أَيُّ لَا أُعْطَى أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَلْفُظٍ " إِنْ أَنَا إِلَّا خَازِنٌ " .

(٤) - الْأَنْفَالُ هِيَ الْمَغَانِمُ الَّتِي يَغْنَمُهَا الْمُقَاتِلُونَ فِي الْحَرْبِ . وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَدْرِ حِينَ اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ ، بَعْدَ نَصْرِهِمْ عَلَى قُرَيْشٍ ، حَوْلَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُقَسِّمُ بِمُوجِبِهَا الْغَنَائِمَ ، كُلُّ مِنْهُمْ يَدْعِي الْفَضْلَ فِي نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَزِيمَةِ أَعْدَائِهِمْ ، فَاتَّزَعَهَا اللَّهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَجَعَلَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، لِيَقْسِمَهَا الرَّسُولُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَيَقُولُ تَعَالَى : يَسْأَلُكَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْأَنْفَالِ . قُلْ : هِيَ لِلَّهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمِهِ ، وَلِلرَّسُولِ يَقْسِمُهَا وَفَقًا لِمَا شَرَعَهُ

اللَّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ، وَاجْتَنِبُوا مَا كُتِبَ فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ حَوْلَ قِسْمَتِهَا، وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَلَا تَخْتَصِمُوا وَلَا تَتَّظَلَّمُوا، وَلَا تَتَشَاتَمُوا، وَلَا يُعْطَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ فِيهِ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي قِسْمَتِهَا، فَإِنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا يَقْسِمُهَا وَقَفًا لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، مِنْ عَدْلِ وَإِنصَافٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، ذَوُو الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، هُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ اللَّهَ فِيمَا حَكَمَ، وَيُطِيعُونَ رَسُولَهُ فِيمَا قَسَمَ.

(١) سورة الأنفال، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (١)(٧) سورة الحشر، وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢)

(١) - مَا جَعَلَهُ اللَّهُ فِينَا لِرَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى - كَبْنِي النَّصِيرِ وَخَيْرَ وَفَرِيظَةٍ - فَإِنَّهُ يُصَرِّفُ فِي وَجْهِهِ الْبِرِّ، وَلَا يَقْسِمُ فِي الْجَيْشِ كَالْغَنَمِ، فَيُعْطَى لِلرَّسُولِ لِيُعْطِيَ مِنْهُ ذَوِي قُرْبَاهُ (وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي مِنْهُ بَنِي الْمُطَلِّبِ وَبَنِي هَاشِمٍ). وَلِلْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَلِلْمَسَاكِينِ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ، وَلابْنِ السَّبِيلِ (وَهُوَ الْمُسَافِرُ الَّذِي تَفَدَّتْ نَفَقَتُهُ)، وَقَدْ قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لِكَيْلَا يَأْخُذَهُ الْأَغْنِيَاءُ، وَيَتَدَاوَلُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَكَثَّرُوا بِهِ، فَلَا يَصِلُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ. وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ أَحْكَامٍ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَمَا أَعْطَاكُمُ الرَّسُولُ مِنَ الْفَيْءِ فَخُذُوهُ، فَهُوَ حَلَالٌ لَكُمْ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَلَا تَقْرُبُوهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فَاثْبُتُوا لِأَمْرِهِ، وَاتَّكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ.

(وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: " لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ ").

(٢) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ طَرِيقَةَ قِسْمَةِ الْمَغَانِمِ الَّتِي يَغْنَمُهَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْحَرْبِ. وَالْغَنِيمَةُ هِيَ الْمَالُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِجَافٍ خَيْلٍ وَرَكَابٍ. أَمَّا الْفَيْءُ فَهُوَ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ (أَيُّ بُدُونِ حَرْبٍ أَوْ بُدُونِ خُرُوجِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْأَعْدَاءِ: كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا، أَوْ يَمُوتُونَ عَنْهَا دُونَ وَارِثٍ لَهُمْ، وَالْخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ).

يَقُولُ تَعَالَى: اعْلَمُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ مَا غَنِمْتُمُوهُ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ فَاجْعَلُوا أَوَّلًا خُمُسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى لِيَنْفِقَ فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ الْعَامَّةِ: كَالدَّعْوَةِ لِلْإِسْلَامِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِهِ، وَعِمَارَةِ الْكَعْبَةِ وَكِسْوَتِهَا، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ لِلرَّسُولِ كِفَايَتَهُ لِنَفْسِهِ وَنِسَائِهِ مُدَّةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ ذَوِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ نَسَبًا وَوَلَاءً (وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أَخِيهِ الْمُطَلِّبِ الْمُسْلِمِينَ)، ثُمَّ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ، وَابْنُ السَّبِيلِ (وَهُوَ الْمُجْتَازُ الَّذِي تَفَدَّتْ نَفَقَتُهُ). وَهَذَا الْخُمُسُ يُدْفَعُ لِلْإِمَامِ (بَعْدَ الرَّسُولِ) لِيَصْرِفَهُ فِي الْوُجُوهِ الْمُبَيَّنَةِ فِي الْآيَةِ.

(٤١) سورة الأنفال. وَلِهَذَا كَانَ أَظْهَرُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالُ تُصَرَّفُ فِيمَا يُجِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَسَبِ أَجْهَادِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ، وَيُذَكَّرُ هَذَا رَوَايَةً عَنْ أَحْمَدَ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْخُمُسِ أَنَّهُ

يُقَسَّمُ عَلَى خُمْسَةِ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي الْمَعْرُوفِ عَنْهُ وَقِيلَ: عَلَى ثَلَاثَةِ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١)

(١) - اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْغَنِيمَةَ الَّتِي تُؤْخَذُ قَسْرًا مِنْ أَيْدِي الرُّومِ مَا عَدَا الْأَرْضِينَ أَنَّ خُمْسَهَا لِلْإِمَامِ ، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلَّذِينَ غَنَمُوهَا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ) الْآيَةُ . وَاخْتَلَفُوا فِي الْخُمْسِ عَلَى أَرْبَعَةِ مَذَاهِبَ مَشْهُورَةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ الْخُمْسَ يُقَسَّمُ عَلَى خُمْسَةِ أَقْسَامٍ عَلَى نَصِّ الْآيَةِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُ يُقَسَّمُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَخْمَاسٍ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : (فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) هُوَ افْتِتَاحُ كَلَامٍ وَلَيْسَ هُوَ قَسْمًا خَامِسًا . وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ : أَنَّهُ يُقَسَّمُ الْيَوْمَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ ، وَأَنَّ سَهْمَ النَّبِيِّ وَذِي الْقُرْبَى سَقَطَا بِمَوْتِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَالْقَوْلُ الرَّابِعُ : أَنَّ الْخُمْسَ بِمِثْلَةِ الْفِيءِ يُعْطَى مِنْهُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَعَمَّامَةِ الْفُقَهَاءِ . وَالَّذِينَ قَالُوا يُقَسَّمُ أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ أَوْ خُمْسَةٌ اخْتَلَفُوا فِيمَا يُفْعَلُ بِسَهْمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسَهْمِ الْقَرَابَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ : فَقَالَ قَوْمٌ : يُرَدُّ عَلَى سَائِرِ الْأَصْنَافِ الَّذِينَ لَهُمُ الْخُمْسُ . وَقَالَ قَوْمٌ : بَلْ يُرَدُّ عَلَى بَقِي الْجَيْشِ . وَقَالَ قَوْمٌ : بَلْ سَهْمُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْإِمَامِ ، وَسَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى لِقَرَابَةِ الْإِمَامِ . وَقَالَ قَوْمٌ : بَلْ يُجْعَلَانِ فِي السَّلَاحِ وَالْعِدَّةِ . وَاخْتَلَفُوا فِي الْقَرَابَةِ مَنْ هُمْ ؟ فَقَالَ قَوْمٌ : بَنُو هَاشِمٍ فَقَطْ ، وَقَالَ قَوْمٌ : بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ . وَسَبَّبَ اخْتِلَافَهُمْ فِي هَلِ الْخُمْسُ يُقْصَرُ عَلَى الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورِينَ أَمْ يَعْدَى لغيرِهِمْ هُوَ : هَلْ ذَكَرْتُ تِلْكَ الْأَصْنَافَ فِي الْآيَةِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا تَعْيِينَ الْخُمْسِ لَهُمْ ، أَمْ قَصْدُ التَّيْبِيهِ بِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْخَاصِّ أُرِيدَ بِهِ الْعَامُّ ؟ فَمَنْ رَأَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَاصِّ أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ قَالَ : لَا يَعْدَى بِالْخُمْسِ تِلْكَ الْأَصْنَافُ الْمَنْصُوصَ عَلَيْهَا ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ . وَمَنْ رَأَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَاصِّ أُرِيدَ بِهِ الْعَامُّ قَالَ : يَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَصْرِفَهَا فِيمَا يَرَاهُ صَلَاحًا لِلْمُسْلِمِينَ . وَاحتَجَّ مَنْ رَأَى أَنَّ سَهْمَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْإِمَامِ بَعْدَهُ بِمَا رُوِيَ عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : " إِذَا أَطْعَمَ اللَّهُ نَبِيًّا طُعْمَةً فَهُوَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ " . وَأَمَّا مَنْ صَرَفَهُ عَلَى الْأَصْنَافِ الْبَاقِينَ أَوْ عَلَى الْغَانِمِينَ فَتَشْبِيهًا بِالصَّنْفِ الْمُجَسِّسِ عَلَيْهِمْ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : الْقَرَابَةُ هُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ احتَجَّ بِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : " قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَهْمَ ذَوِي الْقُرْبَى لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ مِنَ الْخُمْسِ " قَالَ : " وَإِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ صِنْفٌ وَاحِدٌ " . وَمَنْ قَالَ بَنُو هَاشِمٍ صِنْفٌ فَلِئَلَّهُمُ الَّذِينَ لَا يَحِلُّ لَهُمُ الصَّدَقَةُ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي سَهْمِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْخُمْسِ ، فَقَالَ قَوْمٌ : الْخُمْسُ فَقَطْ ، وَلَا خِلَافَ عَنْهُمْ فِي وَجُوبِ الْخُمْسِ لَهُ غَابَ عَنِ الْقِسْمَةِ أَوْ حَضَرَهَا . وَقَالَ قَوْمٌ : بَلِ الْخُمْسُ وَالصَّقِيُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ (وَهُوَ سَهْمٌ مَشْهُورٌ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ شَيْءٌ كَانَ يَصْطَفِيهِ مِنْ رَأْسِ الْغَنِيمَةِ فَرَسٌ أَوْ أَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ) . وَرُوِيَ أَنَّ صَفِيَّةَ كَانَتْ مِنَ الصَّقِيِّ . وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنَّ الصَّقِيَّ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَبَا تَوْرٍ فَإِنَّهُ قَالَ : يَجْرِي مَجْرَى سَهْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الْقِصْلُ الثَّانِي فِي حُكْمِ الْأَرْبَعَةِ الْأَخْمَاسِ

وَاجْتَمَعَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَةِ حُكْمُهَا لِلْغَانِمِينَ إِذَا خَرَجُوا بِإِذْنِ الْإِمَامِ . بِدَايَةِ الْمَجْتَهِدِ وَنَهَايَةِ الْمَقْتَصِدِ - (ج ١ / ص ٣٢٠) وَانْظُرِ الْمَوْسُوعَةَ الْفَقْهِيَّةَ الْكُوَيْتِيَّةَ - (ج ٢٠ / ص ١٢) فَمَا بَعْدَ

وَ " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ ، كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، كَمَا أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَبْرَارِ

أَصْحَابَ الْيَمِينِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُقَرَّبِينَ سَابِقِينَ، فَمَنْ أَدَّى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَفَعَلَ مِنَ الْمُبَاحَاتِ مَا يُحِبُّهُ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَقْصِدُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَا أُيِّحَ لَهُ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلَئِكَ .

أولياء الله تعالى مقتصدون وسابقون

وقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى " أَوْلِيَآءَهُ " الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّتْ عَذْنُ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) { (١) [فاطر/٣٢-٣٥] ، لَكِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } (٣٢) سورة فاطر. (٢)

(١) - ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَانِمِينَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، هُمُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ عِبَادِهِ ، مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ، وَأَوْرَثَهُمُ الْكِتَابَ . وَقَالَ تَعَالَى فِي مَكَانٍ آخَرَ : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ لِلْقِيَامِ بِالْقُرْآنِ هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَعَلَهُمْ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً :
- مِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُفْرَطٌ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ ، مُرْتَكِبٌ بَعْضَ الْمُحَرَّمَاتِ .
- وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَهُوَ الْقَانِمُ بِالْوَاجِبَاتِ ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ يَقْصُرُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ .

وهؤلاء الكرام الذين اصطفاهم الله من عباده ، الذين أورثوا القرآن ، والكُتُبَ السَّابِقَةَ ، سَتَكُونُ جَنَّتُ الْإِقَامَةِ (جَنَّتْ عَذْنُ) هِيَ مَاوَاهُمْ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَلْبَسُونَ فِيهَا حَلِيًّا مِنْ ذَهَبٍ ، وَلُؤْلُؤٍ ، وَيَلْبَسُونَ فِيهَا ثِيَابًا مِنْ حَرِيرٍ ، وَهَذِهِ الْجَنَّتُ هِيَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِمْ .
وَيَقُولُونَ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَيَلْبَسُونَ الْحَرِيرَ ، وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَوْفَ (الْحَزْنَ) مِمَّا كُنَّا نَحْذَرُ وَتَتَخَوَّفُ . إِنَّ رَبَّنَا سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفُورٌ لِذُنُوبِ الْمُذْنِبِينَ ، شَكُورٌ لِأَفْعَالِ الْمُطِيعِينَ .
وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا لَتَبْلُغَ ذَلِكَ ، لَا يَمَسُّنَا فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنَاءٌ وَلَا تَعَبٌ وَلَا إِعْيَاءٌ .

(٢) - وفي الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٣٥١٤)

" ثم " في قوله - تعالى - : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } للتراخي الرتبي . و { أَوْرَثْنَا } أى

أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة . . وهو المفعول الثانى لأورثنا ، وقد على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .

و { اصطفينا } بمعنى اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلو من الكدر والشوائب .

والمراد بقوله : { مِنْ عِبَادِنَا } الأمة الإسلامية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى اوحيناه إليك الرسول الكريم - ميراثاً منك لأمتك ، التى اصطفيناها على سائر

الأمم ، وجعلناها أمة وسطا . وقد ورثناها هذا الكتاب لنتنفع بمداياته . . وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيته .

قال الآلوسى : قوله : { الذين اصطفينا من عبادنا } هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم . .

وفي التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .

ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ . . } .

وجهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعد إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية .

وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقتصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم .

وعلى هذا يكون الضمير في قوله - تعالى - بعد ذلك : { جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا . . } يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعاً من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير في قوله : { يَدْخُلُونَهَا } يعود إلى

المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - في سورة الواقعة : { وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً

فَأَصْحَابُ الْمِيْمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيْمَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . . } .

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه : يقول - تعالى - ثم جعلنا القائمين

بالكتاب العظيم . . . وهم هذه الأمة على ثلاث أقسام : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } وهو المفرط في بعض الواجبات

المرتكب لبعض المحرمات . { وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ } وهو المؤدى للواجبات التارك للمرحمات وقد يترك بعض المستحبات

، ويفعل بعض المكروهات .

{ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ } وهو الفاعل للواجبات والمستحبات .

وقال ابن عباس : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ،

ومقتصلهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وفي رواية عنه : السبق بالخيرات يدخل الجنة

بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاععة الرسول صلى الله

عليه وسلم .

وفي الحديث الشريف : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " .

وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما و ظاهر الآية ، وكا جاءت به الأحاديث عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق يشد بعضها بعضاً .

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : " هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة " .

ومعنى قوله " بمنزلة واحدة " أى : في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل في

الجنة .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قاتل : إن قوله { يَدْخُلُونَهَا } إنما عني به المقتصد والسابق بالخيرات؟ قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل؟ فإن قلا : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولم لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد . قيل : إنه ليس في الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله - تعالى - أنهم يدخلون جنات عدن : وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التي أصابها في الدنيا . ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خبر الله - تعالى - بقوله : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا } .

وقال الشوكاني : والظالم لنفسه : هو الذي عمل الصغائر . وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وعائشة . وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور . . وجه كونه ظالماً لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب عظيماً . قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفاً ، كما في قوله - تعالى - { لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . . } ولعل السر في مجي هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم الأقسام عدداً ، ويليه المقتصدون ، ويليه السابقون بالخيرات ، كما قال - تعالى - { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } وقوله : { يَأْذُنُ اللَّهِ } أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .

واسم الإشارة في قوله : { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء . أى : ذلك الذى أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا } والضمير للأنواع الثلاثة . أى : هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات ، ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التى يخلدون فيها خلوداً أبدياً .

يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة .

{ يُخْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } أى أنهم يدخلون الجنات دخولاً دائماً ، وهم في تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات ، وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون في أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤا ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص .

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ } . والحزن : غم يعتري الإنسان لخوفه من وال نعمة هو فيها . والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان : الحمد لله الذى أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .

{ إِنَّ رَبَّنَا بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ } لَعَفُورٌ شَكُورٌ { أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء للمطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة في مقابل الأعمال القليلة . { الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ } أى : الحمد لله الذى أذهب عنا الأحران بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، والذى { أَحَلَّنَا } أى : أنزلنا { دَارَ الْمَقَامَةِ } أى : الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن

سنقيم فيها إقامة دائمة وهي الجنة التي منحها إياها بفضلله وكرمه .

وهذه الدار { لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ } أي : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء . يقال : نصب فلان - كفرح - إذا نزل به التعب والإعياء .

{ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } أي : ولا يصيبنا فيها كلال وإعياء بسبب التعب والهموم ، يقال : لغب فلان لغباً ولُغُوباً . إذا اشتد به الإعياء والهزال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللُغوب؟

قلت : النصب ، التعب والمشقة ، التي تصيب المنتصب للأمر ، المزاول له .

وأما اللُغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النصب . فالنصب : نفس المشقة والكلفة . واللُغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور .

وَأُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمُ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ بَعْدَ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مُحْتَصًّا بِحُفَاطِ الْقُرْآنِ ؛ بَلْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَسَمَهُمْ إِلَى ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ وَمُقْتَصِدٍ وَسَاقٍ ؛ بِخِلَافِ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْوَاقِعَةِ وَالْمُطَفِّينَ وَالْإِنْفِطَارِ ، فَإِنَّهُ دَخَلَ فِيهَا جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ لِأَمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَ " الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ " أَصْحَابُ الذُّنُوبِ الْمُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيْ ذَنْبَ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ .
و " الْمُقْتَصِدُ " الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ .

و " السَّابِقُ لِلْخَيْرَاتِ " هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالْتَّوَافِلِ كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ ، وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيْ ذَنْبَ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ وَالْمُقْتَصِدِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَمْ يَصِرْ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) } [آل عمران/١٣٣-١٣٦] .
و " الْمُقْتَصِدُ " الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ ، و " السَّابِقُ لِلْخَيْرَاتِ " هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالْتَّوَافِلِ كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ : { جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا } مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُخْلَدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ .

(١) - وَيَنْدُبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَإِلَى الْمَسَارَعَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَنَالُوا مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ ، وَجَنَّةَ الْوَاسِعَةِ الْعَرِيضَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يَمْتَنِلُونَ أَمْرَهُ .

يَذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : إِنَّهُمْ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، فِي الرِّخَاءِ (السَّرَّاءِ) ، وَفِي الشَّدَّةِ (الضَّرَّاءِ) ، وَفِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْإِتِّفَاقِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إِذَا ثَارَ ، وَيَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ . وَاللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَفْضُلُونَ عَلَى عِبَادِهِ الْبَائِسِينَ ، وَيُوَاسُونَهُمْ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . (وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاقِهِ مَالًا لِلَّهِ جَوْفَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا ") .

وَمِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِعْلٌ قَبِيحٌ يَتَعَدَّى أَثَرُهُ إِلَى غَيْرِهِمْ (كَغِيْبَةِ إِنْسَانٍ) ، أَوْ صَدَرَ عَنْهُمْ

ذَنْبٌ يَكُونُ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِمْ (كَشْرَبِ خَمْرٍ وَنَحْوُهُ) ، ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى وَوَعِيدَهُ ، وَعَظُمَتُهُ وَجَلَالُهُ ، فَارْجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ ، طَالِبِينَ مَغْفِرَتِهِ ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى الْقِيَحِ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى الذَّنْبِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ لَهُ .
وَالْمُتَّقُونَ الْمُتَمَتِّعُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ عَلَيْهَا بِالْمَغْفِرَةِ ، وَبِالْأَمْرِ مِنَ الْعِقَابِ ، وَلَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَهُمْ مُخْلَدُونَ فِيهَا أَبَدًا ، وَالْجَنَّةُ خَيْرٌ مَّا يُكَافَأُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَاتِ .

وَأَمَّا دُخُولُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ النَّارَ ، فَهَذَا مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ النَّارِ ، وَشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ ، وَإِخْرَاجِ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ . فَمَنْ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ الْكِبَائِرِ مُخْلَدُونَ فِي النَّارِ وَتَأْوُلُ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ السَّابِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا ، وَأَنَّ الْمُقْتَصِدَ أَوْ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ لَا يَدْخُلُهَا كَمَا تَأْوُلُهُ مِنَ الْمُعْتَرَلَةِ فَهُوَ مُقَابِلٌ بِتَأْوِيلِ الْمُرْجَةِ الَّذِينَ لَا يَقْطَعُونَ بِدُخُولِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ النَّارَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكِبَائِرِ قَدْ يَدْخُلُ جَمِيعُهُمُ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ عَذَابٍ ، وَكِلَاهُمَا مُخَالِفٌ لِلْسُّنَنِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِاجْتِمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَيْمَتِهَا . وَقَدْ دَلَّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ " الطَّائِفَتَيْنِ " قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (٤٨) سورة النساء (١)

(١) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ جَاءَ اللَّهُ مُشْرِكًا بِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ ، لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ارْتَكَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا ، لَا يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الْغُفْرَانَ . وَالشِّرْكَ صَرْبَانِ :

- شِرْكٌ فِي الْأُلُوهِيَّةِ - وَهُوَ الشُّعُورُ بِسُلْطَةِ وَرَاءِ الْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ .
- شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ - وَهُوَ الْأَخْذُ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عَنْ بَعْضِ الْبَشَرِ دُونَ الْوَحْيِ .
وفي الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٩٦٥)

والمعنى : إن الله لا يغفر لكم مات على كفره ، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا ما من غير توبة . فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة .

وقوله { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } استئناف مشعر بتعلييل عدم غفران الشرك ، وزيادة في تشنيع حال المشرك .

أى . ومن يشرك بالله في عبادته غيره من خلقه ، فقد ارتكب من الآثام ما لا يتعلق به المغفرة ، لأنه بهذا الإشراك قد افترى الكذب العظيم على الله ، واقترب الإفك المبين ، فعل أعظم ذنب في الوجود : قال القرطبي : قوله - تعالى - : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } روى " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } فقال له رجل : يا رسول الله والشرك!! فنزل : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } " الآية . وهذا من الحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة .
وقوله { وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } من التشابه الذي قد تكلم العلماء فيه .

فقال ابن جرير الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فهو في مشيئة الله إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن

شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله - تعالى - .

وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ثلاثة عشر حديثا تتعلق بها .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع في الحجاب قيل يا نبي الله وما الحجاب؟ قال : الإِشراك بالله . ثم قرأ : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } " الآية . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نشك في قاتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وشاهد الزور ، وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } وفي رواية لابن أبي حاتم : فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله - تعالى - .

وقال الآلوسى : ثم إن هذه الآية كما يرد بها على المعتزلة - الذين يسوون بين الإِشراك بالله وبين ارتكاب الكبيرة بدون توبة - يرد بها أيضا - على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه مخلد في النار . وذكر الجلال أن فيها ردا أيضا على المرجئة القائلين : إن أصحاب الكبائر من المسلمين لا يعذبون .

وأخرج ابن الضريس وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال : " كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم قوله - تعالى - { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } وقال : " إني ادخرت دعوتي وشفاعتي أهل الكبائر من أمتي فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا ورجونا " وقد استبشر الصحابة بهذه الآية حتى قال على بن أبي طالب : أحب آية إلى في القرآن { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } (١) ،
(١٦٦) سورة النساء، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِذَلِكَ التَّائِبُ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُعْتَرِ لِه؛ لِأَنَّ الشُّرْكَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ لِمَنْ تَابَ، وَمَا دُونَ الشُّرْكَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ أَيْضًا لِلتَّائِبِ فَلَا تَعْلُقُ بِالْمَشِئَةِ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْمُعْتَرِ لِلتَّائِبِينَ قَالَ تَعَالَى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (٢)

(١) - يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدا من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن للشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئا، وما لهم يوم القيامة { مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ }.

ولهذا قال تعالى { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } أي افترى جرما كبيرا وأي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق -من تراب الناقص من جميع الوجوه الفقير بذاته من كل وجه الذي لا يملك لنفسه - فضلا عن عبده - نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا- بالخالق لكل شيء الكامل من جميع الوجوه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته الذي بيده النفع والضرر والعطاء والمنع الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالى فهل أعظم من هذا الظلم

شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ } وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه كما قال تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } أي لمن تاب إليه وأناب. تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٨١)

(٢) - ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } روايات منها : ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال : لما اجتمعنا على الهجرة . تواعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاعة بني غفار - أي : غدير بني غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله - عز وجل - وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم - أيضاً - يقولون هذا في أنفسهم . فأنزل الله - عز وجل - في كتابه : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ . . } إلى قوله - تعالى - { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } قال عمر : فكتبته يدي ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذي طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . والأمر في قوله - تعالى - : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإضافة العباد إلى الله - تعالى - للتشريف والتكريم .

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، وأشهر ما يكون استعمالاً في الإنفاق ، كما في قوله - تعالى - : { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا } والمراد بالإسراف هنا : الإسراف في اقتراف المعاصي والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين . وعدى الفعل " أسرفوا " بعلی ، لتضمنه معنى الجنابة ، أي جنوا على أنفسهم .

والقنوط : اليأس ، وفعله من بابي ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشيء ، أي يئس من ذلك ولا أمل له في تحقيق ما يريده .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم باتكائبهم للمعاصي ، قل لهم : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم .

وجملة { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } تعليلية . أي : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - لأنه هو الذي تفضل بمحو الذنوب جميعها . لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة .

{ إِنَّهُ } - سبحانه - { هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } أي : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضلاً منه وكرماً ، وإن ما تروا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيتته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضلهم وكرمه . أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا في الإسلام ، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام لأن الإسلام يُجِبُّ ما قبله .

وإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله - تعالى - لهم ، لقوله : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } قال الإمام الشوكاني : واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولاً : أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي . . ثم عقب على

ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة . . ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ . . } فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده ، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك .

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله { جميعا } فيا لها من بشارة ترتاح لها النفوس . . وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله : { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . . } .

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة ، منها إقباله عليهم ، وندأؤهم ، ومنها : إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، في قوله : { مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنه : إعادة الظاهر بلفظه في قوله : { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ } ومنها : إبراز الجملة من قوله : { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } مؤكدة بيان ، والفصل ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة .

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٣٦٦٩)

(٥٣) سورة الزمر . فَهَئِنَّا عَمَّمُ الْمُغْفِرَةَ وَأَطْلَقَهَا فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْعَبْدِ أَيَّ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ فَمَنْ تَابَ مِنَ الشَّرْكِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَمَنْ تَابَ مِنَ الْكِبَائِرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَيُّ ذَنْبٍ تَابَ الْعَبْدُ مِنْهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ . فَبِئْسَ آيَةُ التَّوْبَةِ عَمَّمُ وَأَطْلَقَ وَفِي تِلْكَ الْآيَةِ خَصَصَ وَعَلَّقَ فَخَصَّ الشَّرْكَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ وَعَلَّقَ مَا سِوَاهُ عَلَى الْمَشِينَةِ ، وَمِنَ الشَّرْكِ التَّعْطِيلُ لِلْخَالِقِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلٍ مَنْ يَجْزِمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ . وَتَبَّ بِالشَّرْكِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ كَتَعْطِيلِ الْخَالِقِ أَوْ يَجُوزُ أَلَّا يُعَذَّبَ بِذَنْبٍ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ ، وَلَوْ كَانَ كُلُّ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مَغْفُورًا لَهُ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ لَمْ يُعَلِّقْ ذَلِكَ بِالْمَشِينَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى { وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ فَبَطَلَ التَّنْفِي وَالْوَقْفُ الْعَامُّ .

التفاضل في ولاية الله تعالى

وَإِذَا كَانَ " أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ . وَالنَّاسُ يَتَفَضَّلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي عِدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ .

وَأَصْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى : الْإِيمَانُ بِرُسُلِ اللَّهِ وَجَمَاعُ ذَلِكَ : الْإِيمَانُ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْإِيمَانُ بِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَأَصْلُ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ هُوَ الْكُفْرُ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } (١)

(١) - والفعل { تَزِرُ } من الوزر بمعنى الإثم والحمل والقل . يقال : وزر يزور وزرا ، أى : أثم ، أو حمل حملا ثقيلا ، ومنه سمى الوزير ، لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم في حياته العمل الصالح فثمرته هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن

الطريق القويم ، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .

وقد تكرر هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : { وَلَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } وقوله - تعالى - : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَنْبِهَا لَا يَخْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى . . } ولا يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : { وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَحْمِلُ } وقوله - تعالى - : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . } لأن المقصود في هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانبا من ذنوب من كانوا هم سببا في ضلالهم ، لأن من سن سنة سيئة فعلية وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء في الحديث الصحيح - فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التي كانوا سببا في ارتكاب غيرهم لها . كذلك لا يتنافى قوله - تعالى - : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } مع ما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما من " أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . . " .

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يهمل فهمهم عن التوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الحدود . . فتعذيبه بسبب تفریطه ، وعدم تنفيذه لقوله - تعالى - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوُّدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ . . } وقوله - تعالى - : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا } بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده - ورافته بهم ، وكرمه معهم . قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - في الآية السابقة ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ، وهى مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتماذى على الفساد - فقال ، سبحانه - : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا . . } . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٢٦٠٥)

فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ؛ إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزي كل بعمله ولا يسأل حميم حميما . .

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية الماثلة في صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم ، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وهي رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب . في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٣٠٤)

(١٥) سورة الإسراء ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) } (١) [النساء/١٦٣-١٦٥] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ : { تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) } (٢) [الملك/٨-١٠] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَوْجٌ أَقْرَأُوا بِأَنَّهُمْ جَاءَهُمُ التَّنْذِيرُ فَكَذَّبُوهُ ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُلْقَى فِيهَا فَوْجٌ إِلَّا مَنْ كَذَّبَ التَّنْذِيرَ . وَقَالَ تَعَالَى فِي خُطَابِهِ لِإِبْلِيسَ { لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } (٣) (٨٥) سورة ص ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُهَا بِإِبْلِيسَ وَمِمَّنْ اتَّبَعَهُ ؛ فَإِذَا مِلَأَتْ بِهِمْ لَمْ يَدْخُلْهَا غَيْرُهُمْ . فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ تَبَعَ

الشَّيْطَانُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعِ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَكُنْ مُذْنِبًا، وَمَا تَقَدَّمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِالرُّسُلِ .

مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ إِيْمَانًا مُجْمَلًا

(١) - قَالَ رَجُلٌ لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مُوسَى ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ وَالْآيَاتِ الَّتِي تَلِيهَا . ثُمَّ ذَكَرَ فَصَائِحَ الْمُكَذِّبِينَ وَمَعَايِبَهُمْ ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَذِبِ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالنَّعْتِ ، وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى دَاوُدَ كِتَابًا هُوَ الزَّبُورُ . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَوْحَى إِلَى رُسُلٍ قَصَصَهُمْ عَلَى نَبِيِّهِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ ، وَذَكَرَ لَهُ أَسْمَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ أَوْحَى أَيْضًا إِلَى رُسُلٍ لَمْ يَقْصُصْهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُمْ فِي الْقُرْآنِ .

وَفِي حَدِيثٍ يَرْوِيهِ أَبُو ذَرٍّ : " إِنَّ عَدَدَ الْأَنْبِيَاءِ مِثَّةً وَأَرْبَعَةً وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَإِنَّ عَدَدَ الرُّسُلِ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ "

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ شَرَفَ مُوسَى بِأَنْ كَلَّمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، بِدُونِ وَاسِطَةٍ (وَالْوَحْيُ لِلرُّسُلِ يُسَمَّى تَكْلِيمًا) . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ وَحُسْنِ الثَّوَابِ ، وَيُنذِرُونَ ، بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ ، مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، وَذَلِكَ لِكَيْلَا يَبْقَى لِمُتَعَذِّرٍ عُذْرٌ ، بَعْدَ أَنْ أَوْضَحَتِ الرُّسُلُ لِلنَّاسِ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَالْجَزَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزَ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ ، حَكِيمًا فِي شَرْعِهِ وَتَنْذِيرِهِ .

(٢) - وَهِيَ تَكَادُ يَفْصِلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْغَيْظِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةِ ، وَكَلَّمَا طَرِحَ فِيهَا فَوْجٌ مِنَ الْكَافِرَةِ سَأَلَهُمْ خُرَاسُ النَّارِ مُقَرَّرِينَ مُوَبِّحِينَ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبِيٌّ مِنْ رَبِّكُمْ يُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ وَيُرَدُّ هَؤُلَاءِ لِلْجَرْمُونَ عَلَى خَزَنَةِ جَهَنَّمَ قَائِلِينَ : بَلَى لَقَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّنَا يَدْعُونَا إِلَى اللَّهِ ، وَيُنذِرُونَا مِنْ عَذَابِهِ ، فَكَذَّبْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنَزِّلْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُرْسِلْ إِلَيْنَا رَسُولًا ، وَمَا أَنْتَ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَمَا أَنْتَ ، فِيمَا تَدَّعِيهِ مِنَ الرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ ، إِلَّا مُجَانِبٌ لِلْحَقِّ ، بَعِيدٌ عَنْ جَادَةِ الصَّوَابِ .

(٣) - لَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ سَيَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَمِمَّنْ يَتَّبِعُ غَوَايَةَ الشَّيْطَانِ وَحِبَائِلَهُ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ، فَيُضِلُّهُ الشَّيْطَانُ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ الْقَوِيمِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ إِيْمَانًا مُجْمَلًا ، وَأَمَّا الْإِيْمَانُ الْمُفَصَّلُ فَيَكُونُ قَدْ بَلَغَهُ كَثِيرٌ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ بَعْضُ ذَلِكَ ، فَيُؤْمِنُ بِمَا بَلَغَهُ عَنِ الرُّسُلِ وَمَا لَمْ يَبْلُغْهُ لَمْ يَعْرِفْهُ وَلَوْ بَلَغَهُ لَأَمَنَ بِهِ ؛ وَلَكِنْ آمَنَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ إِيْمَانًا مُجْمَلًا ، فَهَذَا إِذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِهِ مَعَ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَهُ مِنَ وَلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ، وَمَا لَمْ تَهَمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُ مَعْرِفَتَهُ وَالْإِيْمَانُ الْمُفَصَّلُ بِهِ فَلَا يُعَذِّبُهُ عَلَى تَرْكِهِ ؛ لَكِنْ يَقُوُّهُ مِنْ كَمَالِ وَلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَنْ عَلِمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَآمَنَ بِهِ إِيْمَانًا مُفَصَّلًا وَعَمِلَ بِهِ فَهُوَ أَكْمَلُ إِيْمَانًا وَوَلَايَةً لِلَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ؛ وَكِلَاهُمَا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى . (١)

وَالْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِضَةٌ تَفَاضُلًا عَظِيمًا (٢) ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ . قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا

مَذْمُومًا مَذْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) { (٣) [الإسراء/١٨-٢١] .

(١) - قال تعالى : { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (١٩) سورة الأحقاف
(٢) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ . قَالَ « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَهَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » صحيح البخارى (٢٧٩٠)
(٣) - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كُلُّ مَنْ أَرَادَهَا ، وَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ ، وَبِالْقَدْرِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ لَهُ ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يَكُونُ مَصِيرُهُ نَارَ جَهَنَّمَ ، وَيَدْخُلُهَا حَتَّى تَغْمُرَهُ مِنْ جَوَانِبِهِ (يَصْلَاهَا) ، وَهُوَ مَذْمُومٌ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، إِذْ اخْتَارَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةَ عَلَى الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ، وَهُوَ مُبْعَدٌ حَقِيرٌ مُهَانٌ (مَذْحُورًا) . وَفِي الْحَدِيثِ " الدُّنْيَا دَارٌ مِنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مِنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ " (أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا) .

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ ، وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ ، وَطَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَهُوَ مُتَابِعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ قَلْبُهُ مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا بِالْثَوَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَأُولَئِكَ يَشْكُرُ اللَّهُ سَعْيَهُمْ وَيَجْزِيهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ : الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا ، وَسَعَوْا لَهَا سَعْيَهَا ، يَمُدُّهُمْ اللَّهُ فِيمَا هُمْ فِيهِ (مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) ، فَهُوَ الْمُتَصَرَّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُوزُ ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمِقْدَارَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ صَلَاحُهُ ، ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ : فَفَرِيقٌ الْعَاجِلَةُ يُصْرَفُ إِلَى جَهَنَّمَ ، وَفَرِيقٌ الْأَجَلَةُ يَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ . وَعَطَاءُ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَهُ أَوْ يَرُدَّهُ أَوْ يُقْصَ مِنْهُ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّهُ فَضَّلَ النَّاسَ ، بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فِي الدُّنْيَا : فِي الْمَالِ وَالْجَمَالِ وَالْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ وَالْأَعْمَارِ ، لِحِكْمَةٍ وَأَسْبَابٍ اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ ، وَإِنْ تَفَاوَتْهُمْ فِي الْآخِرَةِ سَيَكُونُ أَكْبَرُ مِنْ تَفَاوُتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَسَيَكُونُ تَفَاضُلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنْ تَفَاضُلِهِمْ فِي الدُّنْيَا .

فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَمُدُّ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ مِنْ عَطَائِهِ ، وَأَنَّ عَطَاءَهُ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } (١) .

فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّ دَرَجَاتِهَا أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَفَاضُلَ أَلْبِيَاءِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَتَفَاضُلِ سَائِرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ تَعَالَى : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } (٢)

(١) - أمر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل في أحوال خلقه ، ليزدادوا عظة وعبرة ، فقال : { انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } .

أى : انظر - أيها العقل - نظر تأمل وتدبر واعتبار في أحوال الناس ، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض في هذه الحياة ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى وذاك خامل ، وهذا مالك وذاك مملوك .

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس في هذه الدنيا ، على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيتته .

أما في الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا في الدرجات والمنازل ، مما كانوا عليه في الدنيا . قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وقوله : { وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } أى : ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون في الدرجات العلا ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين : " إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء " . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٢٦١١)

(٢) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ قَدْ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي مَرَاتِبِ الْكَمَالِ وَالشَّرَفِ ، فَخَصَّ بَعْضَهُمْ بِمَآثِرٍ جَلِيلَةٍ خَلَا عَنْهَا غَيْرُهُ مَعَ اسْتِوَائِهِمْ جَمِيعًا فِي اخْتِيَارِهِ تَعَالَى لِلْإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ ، وَهَادِيَةِ خَلْقِهِ . فَمِنْهُمْ مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ سَفِيرٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ مَرَاتِبَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَيُؤَيِّدُهُ السِّيَاقُ أَيْضًا . وَمِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَخْلَاقِهِ الشَّرِيفَةِ فَقَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِكِتَابِهِ وَشَرِيعَتِهِ { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُوْتِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَعْظَمَ مِنْ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ .

وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَمَّتِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ { (وَرَوَى عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ : " فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ : أَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُيِّمَ بِي النَّبِيُّونَ ") .

وَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَن آتَاهُ الْبَيِّنَاتِ (وَهِيَ مَا يُتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْآيَاتِ وَالِدَّلَالِ) ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، (وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ عِيسَى بِإِيَّائِهِ الْبَيِّنَاتِ تَقْيِيحًا لِإِفْرَاطِ الْيَهُودِ فِي تَكْذِيبِهِ وَإِنْتِقَاصِهِ ، وَلِإِفْرَاطِ النَّصَارَى فِي تَعْظِيمِهِ حَتَّى أَخْرَجُوهُ مِنْ مَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأُلُوهِيَّةِ .

وَكَانَ مِنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ يُؤْمِنَ النَّاسُ جَمِيعًا ، وَلَا يَخْتَلِفُوا وَلَا يَقْتَتِلُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَقْتَتِلَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، لَمَا حَدَثَ اقْتِتَالٌ وَلَا اخْتِلَافٌ . وَلَكِنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ .

وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ ، وَأَمَرَهُمُ بِالْاِتِّحَادِ وَالْوِثَامِ ، فَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْاِخْتِلَافِ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَمَعَهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ لِحِكْمَةٍ لَا يُقَدَّرُهَا إِلَّا هُوَ .

(٢٥٣) سورة البقرة، وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا } (١) (٥٥) سورة الإسراء.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنْ لَوْ تَفَتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » (٢)

(١) - وَقَدْ فَضَّلَ بَعْضُ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ . . . وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ } ، وَهُوَ تَفْصِيلُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِسَبَابِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَنَافِي مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ " ، فَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّفْصِيلُ بِمُجَرَّدِ التَّشْهِي وَالْعَصَبِيَّةِ ، لَا بِمُقْتَضَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ ، وَلَكِنْ إِذَا قَامَ دَلِيلٌ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنَ بَاقِي الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَفْضَلُهُمْ . وَأَوَّلُو الْعَزْمِ هُمْ خَمْسَةٌ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ . وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ أَتَى دَاوُدَ زُبُورًا ، وَفَضَّلَهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَلَمْ يُفَضَّلْهُ بِالْمَلِكِ .

(٢) - صحيح مسلم (٦٩٤٥)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ١٩)

وَالْمُرَادُ بِالْقُوَّةِ هُنَا عَزِيمَةُ النَّفْسِ وَالْقَرِيحَةِ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ ، فَيَكُونُ صَاحِبُ هَذَا الْوَصْفِ أَكْثَرُ إِقْدَامًا عَلَى الْعُدُوِّ فِي الْجِهَادِ ، وَأَسْرَعَ خُرُوجًا إِلَيْهِ ، وَذَهَابًا فِي طَلَبِهِ ، وَأَشَدُّ عَزِيمَةً فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِقِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَارْتِعَابِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْأَذْكَارِ وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ ، وَأَنْشَطَ طَلِبًا لَهَا ، وَمُحَافَظَةً عَلَيْهَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَفِي كُلِّ خَيْرٍ) فَمَعْنَاهُ فِي كُلِّ مِنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ خَيْرٌ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْإِيمَانِ ، مَعَ مَا يَأْتِي بِهِ الضَّعِيفُ مِنَ الْعِبَادَاتِ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ)

أَمَّا (احْرَصْ) فَبِكَسْرِ الرَّاءِ ، (وَتَعْجِزْ) بِكَسْرِ الْجِيمِ ، وَحُكِي فَتَحَهُمَا جَمِيعًا ، وَمَعْنَاهُ احْرَصْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالرَّغْبَةِ فِيهَا عِنْدَهُ ، وَاطْلُبْ الْإِعَانَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَعْجِزْ ، وَلَا تُكْسِلْ عَنْ طَلَبِ الطَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ طَلَبِ الْإِعَانَةِ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ : قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا النَّهْيُ إِثْمًا هُوَ لِمَنْ قَالَهُ مُعْتَقِدًا ذَلِكَ حَقًّا ، وَأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ تُصِبه قَطْعًا ، فَأَمَّا مَنْ رَدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْغَارِ : (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ رَأْسَهُ لَرَأَانَا) . قَالَ الْقَاضِي : وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ مُسْتَقْبَلٍ ، وَلَيْسَ فِيهِ دَعْوَى لِرَدِّ قَدَرٍ بَعْدَ وَقُوعِهِ . قَالَ : وَكَذَا جَمِيعُ مَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ (مَا يَجُوزُ مِنَ اللَّوِّ) كَحَدِيثِ (لَوْلَا حَدَّثَانِ عَهْدُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَأَتَمَمْتَ الْيُسُوءَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَوْ كُنْتُ رَاحِمًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هَذِهِ وَلَوْلَا أَنَّ أَشَقَّ عَلَى أُمَّيِّ لَأَمَرْتَهُمْ بِالسَّوَاكِ) وَشَبَّهَ ذَلِكَ ، فَكُلُّهُ مُسْتَقْبَلٌ لَا إِغْتِرَاضَ فِيهِ عَلَى قَدَرٍ ، فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ إِعْتِقَادِهِ فِيَمَا كَانَ يَفْعَلُ لَوْلَا الْمَنَاعُ ، وَعَمَّا هُوَ فِي قُدْرَتِهِ ، فَأَمَّا مَا

ذَهَبَ فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ . قَالَ الْقَاضِي : فَالَّذِي عِنْدِي فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّهْيَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَعُمُومِهِ ؛ لَكِنَّهُ نَهْيٌ تَنْزِيهِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ) أَيُّ يُلْقِي فِي الْقَلْبِ مُعَارَضَةَ الْقَدَرِ ، وَيُؤَسِّسُ بِهِ الشَّيْطَانُ . هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي : قُلْتُ : وَقَدْ جَاءَ مِنْ اسْتِعْمَالِ (لَوْ) فِي الْمَاضِي قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سَقَتْ الْهَدْيُ) . وَغَيْرَ ذَلِكَ . فَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ إِطْلَاقِ ذَلِكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ ، فَيَكُونُ نَهْيٌ تَنْزِيهِ لَا تَحْرِيمَ . فَأَمَّا مَنْ قَالَهُ تَأْسُفًا عَلَى مَا فَاتَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ مَا هُوَ مُتَعَدِّرٌ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَحْوِ هَذَا ، فَلَا بَأْسَ بِهِ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ أَكْثَرُ الاسْتِعْمَالِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَحَادِيثِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » (١)

(١) - صحيح البخاري (٧٣٥٢) ٩/١٣٣ ومسلم (٤٥٨٤)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٢٠ / ص ٤١٤)

قَوْلُهُ (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ) فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ " فَاصَّابَ " قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هَكَذَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ بَدَأَ بِالْحُكْمِ قَبْلَ الاجْتِهَادِ ، وَالْأَمْرُ بِالْعَكْسِ فَإِنَّ الاجْتِهَادَ يَتَقَدَّمُ الْحُكْمَ إِذْ لَا يَجُوزُ الْحُكْمُ قَبْلَ الاجْتِهَادِ اتِّفَاقًا ، لَكِنَّ التَّحْدِيدَ فِي قَوْلِهِ " إِذَا حَكَمَ " إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْكُمَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَجْتَهِدُ ، قَالَ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ أَهْلَ الْأَصُولِ قَالُوا : يَجِبُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يُجَدِّدَ النَّظَرَ عِنْدَ وَقُوعِ النَّازِلَةِ ، وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ لَهُ لِمَمَّا كَانَ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ خِلَافٌ غَيْرُهُ انْتَهَى ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاءُ تَفْسِيرِيَّةً لَا تَقْيِيئِيَّةً وَقَوْلُهُ " فَاصَّابَ " أَيُّ صَادَفَ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى . قَوْلُهُ (ثُمَّ أَخْطَأَ) أَيُّ ظَنَّ أَنَّ الْحَقَّ فِي جِهَةٍ ، فَصَادَفَ أَنَّ الَّذِي فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَالْأَوَّلُ لَهُ أَجْرَانِ : أَجْرُ الاجْتِهَادِ وَأَجْرُ الْإِصَابَةِ . وَالْآخِرُ لَهُ أَجْرُ الاجْتِهَادِ فَقَطْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى وَفُوعِ الْخَطَا فِي الاجْتِهَادِ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ " وَأَخْرَجَ لِحَدِيثِ الْبَابِ سَبَبًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ طَرِيقٍ وَلَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو عَنْهُ ، " قَالَ : جَاءَ رَجُلَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَصِمَانِ فَقَالَ لِعَمْرٍو اقْضُ بَيْنَهُمَا يَا عَمْرٍو ، قَالَ : أَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : وَإِنْ كَانَ قَالَ فَإِذَا قَضَيْتَ بَيْنَهُمَا فَمَا لِي " فَذَكَرَ نَحْوَهُ لَكِنْ قَالَ : فِي الْإِصَابَةِ " فَلَكَ عَشْرُ حَسَنَاتٍ " وَأَخْرَجَ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ نَحْوَهُ بِغَيْرِ قِصَّةٍ بَلَفُظَ " فَلَكَ عَشْرَةُ أَجُورٍ " وَفِي سَنَدِ كُلِّ مِنْهُمَا ضَعْفٌ ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمٍ مِنْ أَهْلِ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَنْ قَالَ إِنَّ الْحَقَّ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِلتَّصْرِيحِ بِتَخْطِئَةِ وَاحِدٍ لَا بَعِيْنِهِ ، قَالَ وَهِيَ نَازِلَةٌ فِي الْخِلَافِ عَظِيمَةٍ ، وَقَالَ الْمَازِرِيُّ تَمَسَّكَ بِهِ كُلٌّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَنْ قَالَ إِنَّ الْحَقَّ فِي طَرَفَيْنِ ، وَمَنْ قَالَ إِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، أَمَّا الْأَوَّلَى فَلَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كُلُّ مُصِيبٍ لَمْ يُطْلَقْ عَلَى أَحَدِهِمَا الْخَطَا لَاسْتِحَالَةَ التَّقْيِضِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَأَمَّا الْمُصَوِّبَةُ فَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ لَهُ أَجْرًا فَلَوْ كَانَ لَمْ يُصِيبْ لَمْ يُؤْجَرْ ، وَأَجَابُوا عَنْ إِطْلَاقِ الْخَطَا فِي الْخَبَرِ عَلَى مَنْ ذَهَلَ عَنْ النَّصِّ أَوْ اجْتَهَدَ فِيمَا لَا يَسُوغُ الاجْتِهَادَ فِيهِ مِنَ الْقَطْعِيَّاتِ فِيمَا خَالَفَ الْإِجْمَاعَ فَإِنْ مِثْلَ هَذَا إِنْ اتَّفَقَ لَهُ الْخَطَا فِيهِ نَسَخَ حُكْمَهُ وَفُتُوَاهُ وَلَوْ اجْتَهَدَ بِالْإِجْمَاعِ ، وَهُوَ الَّذِي صَبَحَ عَلَيْهِ إِطْلَاقُ الْخَطَا ، وَأَمَّا مَنْ اجْتَهَدَ فِي قِصَّةٍ لَيْسَ فِيهَا نَصٌّ وَلَا إِجْمَاعٌ فَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْخَطَا ، وَأَطَالَ الْمَازِرِيُّ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ وَالْإِثْبَاتِ لَهُ ، وَخَتَمَ كَلَامَهُ بِأَنَّ قَالَ إِنْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْحَقَّ فِي طَرَفَيْنِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مَنْ

الْفُقَهَاءَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ؛ وَهُوَ مَرْوِي عَنْ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَإِنْ حَكَى عَنْ كُلِّ مِنْهُمْ اخْتِلَافَ فِيهِ . قُلْتُ : وَالْمَعْرُوفُ عَنْ الشَّافِعِيِّ الْأَوَّلِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُنَهَمِ : الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصَّ بِالْحَاكِمِ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ ، لِأَنَّ هُنَاكَ حَقًّا مُعَيَّنًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ يَتَنَازَعُهُ الْخَصْمَانِ ، فَإِذَا قَضَى بِهِ لِأَحَدِهِمَا بَطْلَ حَقِّ الْآخَرِ قَطْعًا ، وَأَحَدَهُمَا فِيهِ مُبْطَلٌ لَا مَحَالَةَ ، وَالْحَاكِمُ لَا يَطَّلِعُ عَلَى ذَلِكَ فَهَذِهِ الصُّورَةُ لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا أَنَّ الْمُصِيبَ وَاحِدٌ لِكَوْنِ الْحَقِّ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصَّ الْخِلَافُ بِأَنَّ الْمُصِيبَ وَاحِدٌ ، إِذْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ بِالْمَسَائِلِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ الْحَقُّ مِنْهَا بِطَرِيقِ الدَّلَالَةِ ، وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : عِنْدِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَايِدَةٌ زَائِدَةٌ حَامُوا عَلَيْهَا فَلَمْ يُسْقُوا وَهِيَ : أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَاصِرِ عَلَى الْعَمَلِ وَاحِدٌ ، وَالْأَجْرُ عَلَى الْعَمَلِ الْمُتَعَدِّي يَضَاعَفُ ، فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِي نَفْسِهِ وَيَنْجَرُّ لَهُ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بغيرِهِ مِنْ جِنْسِهِ فَإِذَا قَضَى بِالْحَقِّ وَأَعْطَاهُ لِمُسْتَحِقِّهِ ثَبَتَ لَهُ أَجْرُ اجْتِهَادِهِ وَجَرَى لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مُسْتَحِقِّ الْحَقِّ ، فَلَوْ كَانَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنَ الْآخَرِ فَقَضَى لَهُ - وَالْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِغَيْرِهِ - كَانَ لَهُ أَجْرُ الْاجْتِهَادِ فَقَطْ . قُلْتُ : وَتَمَامُهُ أَنْ يُقَالَ : وَلَا يُؤَاخَذُ بِإِعْطَاءِ الْحَقِّ لِغَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ذَلِكَ بَلْ وَزَرَ الْمَحْكُومَ لَهُ قَاصِرٌ عَلَيْهِ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَثْذُلَ وَسُوءُهُ فِي الْاجْتِهَادِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَإِلَّا فَقَدْ يَلْحَقُ بِهِ الْوِزْرُ إِنْ أَخْلَ بِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (١) (١٠) سورة الحديد ، وَقَالَ تَعَالَى : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } (٢) [النساء/٩٥ ، ٩٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْقَائِمُونَ (٢٠) يُشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) (٣) } .

(١) - وَمَا لَكُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ أَتَخْشَوْنَ الْفَقْرَ إِنْ أَنْفَقْتُمْ؟ أَنْفَقُوا وَلَا تَخْشَوْا شَيْئًا ، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَدْ تَكْفَلُ بِرِزْقِكُمْ ، وَبِالْإِخْلَافِ عَلَيْكُمْ { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } . ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى تَفَاوُتَ دَرَجَاتِ الْمُتَنَفِّقِينَ ، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ آمَنَ ، وَهَاجَرَ ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ (أَوْ قَبْلَ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ عَلَى قَوْلٍ) ، مَعَ مَنْ آمَنَ ، وَأَنْفَقَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، فَلَاؤُولُونَ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ كَانُوا قَلِيلِي الْعَدَدِ ، وَوَاجِبَاتُهُمْ كَثِيرَةٌ وَثَقِيلَةٌ ، أَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَقَدْ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ ، وَأَمِنَ النَّاسُ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ . (وَجَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَوْلُهُ : " لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ جَبَلٍ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ") . (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) .

(٢) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ مَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، مِنْ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالذَّرَجَاتِ الْكَرِيمَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ - إِذَا كَانُوا غَيْرَ مَعْلُومِينَ ، وَغَيْرِ ذَوِي عِلَّةٍ وَضَرَرٍ - لَا يَسْتَوُونَ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ، وَخَصَّهُمْ

بدرجاتٍ عظيمةٍ ، وأجرٍ كبيرٍ ، وإن كان تعالى قد وعد القاعدين عن الجهاد عجزاً ، مع تمنّي القدرة عليه ، كما وعد المجاهدين ، بالخيرِ والثوبةِ والعفوِ والمغفرةِ لأنّ كلاً منهم كامل الإيمان ، مُخلصٌ لله في العمل . وهذا الأجر العظيم الذي وعد الله به المجاهدين ، وفضلهم به على القاعدين من ذوي الأعدار ، هو درجاتٌ منه ، ومنازلٌ بعضها فوق بعضٍ من الكرامةِ ، والمغفرةِ والرحمةِ ، وكان الله غفوراً لذنوب أوليائه الذين يستحقون المغفرةَ ، رحيماً بأهل طاعته .

(٣) - نزلت هذه الآية في العباس بن عبد المطلب ، حين أسير بيدر ، فقال لئن سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنّا نعلم المسجد الحرام ، ونسقي الحاج ، ونفك العاني . فردّ الله تعالى عليه قائلاً : إن سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام لا تستويان عند الله مع الإيمان بالله وحده لا شريك له ، والجهاد في سبيله ، والله تعالى لا يهدي القوم الظالمين إلى الحق في أعمالهم ، ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم . فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، هم أعظم عند الله درجةً ومقاماً ، وأكثرُ ثوبةً من الذين عمروا للمسجد الحرام ، وسقوا الحاج في الجاهلية . وهؤلاء المؤمنون للجاهدون في الله حق جهادهم الفائزون برحمة الله ، ورضوانه وجنّاته .

وهؤلاء يشترهم ربهم في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين موتهم ، برحمة من ربهم ورضوان ، وبأنه سيُدخلهم جنّاته الواسعة ، وسيبقون فيها أبداً في نعيمٍ مقيم ، والرضوان من الله هو نهاية الإحسان ، وأعلى النعيم ، وأكمل الجزاء . وسيكون هؤلاء الكرام مخلصين في الجنة أبداً وهذا جزاء لهم من ربهم على أعمالهم الصالحة ، والله تعالى عنده الأجر العظيم لمن آمن وجاهد ، وقام بما فرضه عليه الإسلام .

{ [التوبة/ ١٩ ، ٢٢] ، وقال تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابُ } (١) (٩) سورة الزمر ، وقال تعالى : .. . يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (٢) (١١) سورة المجادلة .

لَا يَكُونُ الْعَبْدُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) } [يونس/ ٦٢ ، ٦٣] ، وفي صحيح البخاري الحديث المشهور - وَقَدْ تَقَدَّمَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ } (٣)

(١) - وَهَلْ يَسْتَوِي حَالُ هَذَا الْمُشْرِكِ الَّذِي يَكْفُرُ بِنِعَمِ اللَّهِ ، وَيُشْرِكُ بِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ ، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا عِنْدَ الشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ ، مَعَ حَالٍ مِنْهُ هُوَ مُؤْمِنٌ قَانِمٌ بِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ ، وَذَائِبٌ عَلَى الْعِبَادَاتِ آثَاءُ اللَّيْلِ حِينَمَا يَكُونُ النَّاسُ نِيَاماً ، لَا يَرْجُو مِنْ أَدَائِهَا غَيْرَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ وَرَحْمَتِهِ ، إِنَّهُمَا بِلَا شَكٍّ لَا يَسْتَوِيَانِ . ثُمَّ أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَدَمَ التَّسَاوِيِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الْمُطِيعِ وَالْكَافِرِ الْجَاهِدِ ، فَقَالَ لِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءَ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ مِنْ ثَوَابٍ ، وَمَا لَهُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ مِنْ عِقَابٍ ، وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ وَإِنَّمَا يَعْتَبِرُ بِحُجَجِ اللَّهِ ، وَيَتَعِظُ بِهَا ، وَيَتَذَكَّرُهَا أَهْلُ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ ، لَا أَهْلُ الْجَهْلِ وَالْعَقْلَةِ .

(٢) - وعطف " الذين أوتوا العلم " على " الذين آمنوا " من باب عطف الخاص على العام ، على سبيل التعظيم

والتنويه بقدر العلماء .

أى : وإذا قيل لكم ارتفعوا عن مواضعكم في المجالس فارفعوا ، فإنكم إن تفعلوا ذلك ، يرفع الله - تعالى - المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة في الآخرة ، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر . ويرى بعضهم أن المراد بالوصولين واحد ، والعطف في الآية لتنزيل التباير في الصفات ، منزلة التباير في الذات . والمعنى : يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٤١٢٤)

(٣) - صحيح البخارى (٦٥٠٢)

وفي جامع العلوم والحكم - (ج ٣٨ / ص ١١)

الدرجة الثانية : درجة السابقين المقربين ، وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات ، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع ، وذلك يوجب للعبد محبة الله ، كما قال : ((ولا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه)) ، فمن أحبه الله ، رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته ، فأوجب له ذلك القرب منه ، والزلفى لديه ، والخطوة عنده ، كما قال الله تعالى : { مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ((المائدة : ٥٤ .)) ، ففي هذه الآية إشارة إلى أن من أعرض عن حينا ، وتولى عن قربنا ، لم نبال ، واستبدلنا به من هو أولى بهذه المنحة منه وأحق ، فمن أعرض عن الله ، فما له من الله بدل ، والله منه أبدال .

ما لي شغل سواه ما لي شغل ما يصرف عن هواه قلبي عدل

ما أصنع إن جفا وخاب الأمل مني بدل ومنه ما لي بدل

وفي بعض الآثار يقول الله - عز وجل - : ((ابن آدم ، اطلبني تجدي ، فإن وجدتني ، وجدت كل شيء ، وإن فُتكت ، فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء)) .

كان ذو النون يردد هذه الأبيات بالليل كثيرا :

اطلبوا لأنفسكم مثل ما وجدت أنا

قد وجدت لي سكنا ليس في هواه عنا

إن بعدت قربني أو قربت منه دنا

من فاته الله ، فلو حصلت له الجنة بخدايرها ، لكان مغبونا ، فكيف إذا لم يحصل له إلا نزر يسير حقير من دار كلها لا تعدل جناح بعوضة :

من فاته أن يراك يوما فكل أوقاته فوات

وحيثما كنت من بلاد فلي إلى وجهك التفات

ولا يكون مؤمنا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين ، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين ، فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليا لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة - وإن قيل إنهم لا يعدون حتى يرسل إليهم رسول - فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين ؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله . وكذلك المجانين (١) والأطفال ؛ فإن النبي صلى الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ »
(٢)

(١) - قلت : بعض الناس يعتبر المجنون والمعتوه ونحوه من أولياء الله الصالحين ويتبركون بهم بهم ، وهذا ليس بصحيح .

(٢) - سنن أبي داود (٤٤٠٠) و (٤٤٠٣) عن عائشة وعلي صحيح

وفي عون المعبود - (ج ٩ / ص ٤٢٨)

(رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ) : قَالَ السُّيُوطِيُّ نَقْلًا عَنْ السُّبْكِيِّ وَقَوْلُهُ رُفِعَ الْقَلَمُ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ مَجَازٌ فِيهِ إِحْتِمَالَانِ ،
الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمَنْقُولُ الْمَشْهُورُ أَنَّهُ مَجَازٌ لَمْ يُرَدْ فِيهِ حَقِيقَةُ الْقَلَمِ وَلَا الرَّفْعُ وَإِنَّمَا هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ التَّكْلِيفِ ، وَوَجْهُ
الْكِنَايَةِ فِيهِ أَنَّ التَّكْلِيفَ يَلْزَمُ مِنْهُ الْكِتَابَةُ كَقَوْلِهِ { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَيَلْزَمُ مِنَ الْكِتَابَةِ الْقَلَمُ لِأَنَّهُ
آلَةُ الْكِتَابَةِ فَالْقَلَمُ لَزِمَ لِلتَّكْلِيفِ ، وَائْتِفاءُ اللَّازِمِ يَدُلُّ عَلَى ائْتِفاءِ مَلْزُومِهِ ، فَلِذَلِكَ كَتَبْتُ بِنَفْيِ الْقَلَمِ عَنْ نَفْيِ الْكِتَابَةِ
وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ الْكِنَايَاتِ وَأَتَى بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِشْعَارًا بِأَنَّ التَّكْلِيفَ لَزِمَ لِبَنِي آدَمَ إِلَّا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ وَأَنَّ صِفَةَ الْوَضْعِ
ثَابِتٌ لِلْقَلَمِ لَا يَنْقُصُ عَنْهُ عَنْ غَيْرِ الثَّلَاثَةِ مَوْضُوعًا عَلَيْهِ .

وَالِإِحْتِمَالُ الثَّانِي أَنْ يُرَادَ حَقِيقَةُ الْقَلَمِ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الْحَدِيثُ " أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ فَكَتَبَ مَا هُوَ
كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " . فَأَفْعَالُ الْعِبَادِ كُلُّهَا حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا يَجْرِي بِهِ ذَلِكَ الْقَلَمُ وَيَكْتُبُهُ حَقِيقَةً ، وَتَوَابِ الطَّاعَاتِ
وَعِقَابِ السَّيِّئَاتِ يَكْتُبُهُ حَقِيقَةً ، وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِكُتْبِهِ وَصَارَ مَوْضُوعًا عَلَى اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ لِيَكْتُبَ ذَلِكَ
فِيهِ جَارِيًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ كُتِبَ ذَلِكَ وَفُرِغَ مِنْهُ وَحُفِظَ . وَفَعَلَ الصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ وَالنَّائِمُ لَا إِنْهُمْ فِيهِ فَلَا يَكْتُبُ
الْقَلَمُ إِنْهُمْ وَلَا التَّكْلِيفُ بِهِ ، فَحُكْمُ اللَّهِ بِأَنَّ الْقَلَمَ لَا يَكْتُبُ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ رَفْعٌ لِلْقَلَمِ الْمَوْضُوعِ لِلْكِتَابَةِ
وَالرَّفْعُ فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى فَالرَّفْعُ نَفْسُهُ حَقِيقَةُ وَالْمَجَازُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ الْقَلَمَ لَمْ يَكُنْ مَوْضُوعًا عَلَى هَؤُلَاءِ
الثَّلَاثَةِ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالنَّهْيِ لِأَنَّهُ يَكْتُبُ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ ، فَسُمِّيَ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ رَفْعًا ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يُشَارِكُ هَذَا
الِإِحْتِمَالُ الْأَوَّلُ وَفِيمَا قَبْلَهُ يُفَارِقُهُ

(حَتَّى يَسْتَيْقِظَ) : قَالَ السُّبْكِيُّ : هُوَ وَقَوْلُهُ حَتَّى يَبْرَأَ وَحَتَّى يَكْبُرَ غَايَاتُ مُسْتَقْبَلَةٍ وَالْفِعْلُ الْمُغَيَّبُ بِهَا قَوْلُهُ رُفِعَ مَاضٍ
وَالْمَاضِي لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ غَايَتُهُ مُسْتَقْبَلَةً فَلَا تَقُولُ سِرْتُ أَمْسَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ غَدًا . قَالَ : وَجَوَابُهُ بِالْإِزَامِ
حَذَفَ أَوْ مَجَازٌ حَتَّى يَصِحَّ الْكَلَامُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَدَّرَ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ الصَّبِيِّ فَلَا يَزَالُ مُرْتَفِعًا حَتَّى يَبْلُغَ ، أَوْ فَهُوَ مُرْتَفِعٌ
حَتَّى يَبْلُغَ ، فَيَنْقُضُ الْفِعْلُ الْمَاضِي عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَالْمَغَيَّبُ مَحْذُوفٌ بِهِ يَنْتَظِمُ الْكَلَامُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي الْغَايَةِ
، وَهِيَ قَوْلُهُ حَتَّى يَبْلُغَ أَيَّ إِلَى بُلُوغِهِ فَيَشْتَمِلُ ذَلِكَ مَنْ كَانَ صَبِيًّا فَلَبَّغَ فِي مَاضٍ وَمَنْ هُوَ صَبِيٌّ الْآنَ وَيَبْلُغُ فِي
مُسْتَقْبَلٍ وَمَنْ يَصِيرُ صَبِيًّا وَيَبْلُغُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ الْحَالَاتُ كُلُّهَا فِي التَّقْدِيرِ أَمَّا فِي التَّجَوُّزِ فِي الْفِعْلِ الثَّانِي أَوْ الْفِعْلِ
الْأَوَّلِ أَوْ الْحَذَفِ رَاجِعَةً إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ الْحُكْمُ بِرَفْعِ الْقَلَمِ لِلْغَايَةِ الْمَذْكُورَةِ .

وَفِي إِبْنِ مَاجَةَ يُرْفَعُ بِلَفْظِ الْآتِي فَلَا يَرِدُ السُّؤَالُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ .

قَالَ السُّيُوطِيُّ وَأَفْضَلُ مِنْ هَذَا الطُّوْلِ وَالتَّكْلُفِ كُلُّهُ أَنْ رُفِعَ بِمَعْنَى يُرْفَعُ مِنْ وَضْعِ الْمَاضِي مَوْضِعَ الْآتِي وَهُوَ كَثِيرٌ
كَقَوْلِهِ تَعَالَى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ }

(وَعَنِ الْمُبْتَلَى) : وَفِي الرِّوَايَةِ الْآتِيَةِ عَنْ الْمَجْنُونِ فَالْمُرَادُ بِالْمُبْتَلَى الْمُبْتَلَى بِالْجُنُونِ

(حَتَّى يَبْرَأَ) : وَفِي الرِّوَايَةِ الْآتِيَةِ حَتَّى يُفَيِّقَ

(وَعَنْ الصَّبِيِّ) : قَالَ السُّبْكِيُّ : الصَّبِيُّ الْغُلَامُ ، وَقَالَ غَيْرُهُ الْوَلَدُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يُسَمَّى جَنِينًا فَإِذَا وُلِدَ فَصَبِيٌّ فَإِذَا
فُطِمَ فَغُلَامٌ إِلَى سَبْعِ ثُمَّ يَصِيرُ يافعًا إِلَى عَشْرٍ ثُمَّ حَزُونًا إِلَى خَمْسِ عَشْرَةٍ . وَالَّذِي يُقَطَّعُ بِهِ أَنَّهُ يُسَمَّى صَبِيًّا فِي هَذِهِ
الْأَحْوَالِ كُلِّهَا قَالَهُ السُّيُوطِيُّ

(حَتَّى يَكْبُرَ) : قَالَ السُّبْكِيُّ : لَيْسَ فِيهَا مِنْ الْبَيَانِ وَلَا فِي قَوْلِهِ حَتَّى يُبْلَغَ مَا فِي الرَّوَايَةِ الثَّالِثَةِ حَتَّى يَحْتَلِمَ ،
فَالْتِمَسُكُ بِهَا أَوَّلَى لِبَيَانِهَا وَصِحَّةِ سَنَدِهَا .
وَقَوْلُهُ حَتَّى يُبْلَغَ مُطْلَقٌ وَالْإِحْتِلَامُ مُقَيَّدٌ فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْإِحْتِلَامَ بُلُوغَ قِطْعًا وَعَدَمَ بُلُوغِ خَمْسِ عَشْرَةٍ لَيْسَ بِبُلُوغِ
قِطْعًا . قَالَ وَشَرَطَ هَذَا الْحَمْلَ ثُبُوتَ اللَّفْظَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

. وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى تَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ (١). لَكِنَّ الصَّبِيَّ الْمُمَيَّزَ تَصِحُّ عِبَادَاتُهُ وَيُنَابُ عَلَيْهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ (٢). وَأَمَّا الْمَجْنُونُ الَّذِي رُفِعَ عَنْهُ الْقَلَمُ فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ (٣). وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ ؛ بَلْ لَا يَصْلُحُ هُوَ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لِأُمُورِ الدُّنْيَا كَالْتِجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ . فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَرَّازًا وَلَا عَطَّارًا وَلَا حَدَّادًا وَلَا نَجَّارًا وَلَا تَصِحُّ عُقُودُهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . فَلَا يَصِحُّ بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ وَلَا نِكَاحُهُ وَلَا طَلَاقُهُ وَلَا إِقْرَارُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ . وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِهِ بَلْ أَقْوَالُهُ كُلُّهَا لَعْوٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ . بِخِلَافِ الصَّبِيِّ الْمُمَيَّزِ فَإِنَّ لَهُ أَقْوَالَ مُعْتَبَرَةً فِي مَوَاضِعَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَفِي مَوَاضِعَ فِيهَا نِزَاعٌ . وَإِذَا كَانَ الْمَجْنُونُ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَلَا التَّقْوَى وَلَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْقِرَائِنِ وَالْتَوَافِلِ وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ وِيًّا فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ ؛ لَا سِيَّمَا أَنْ تَكُونَ حُجَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا مَكْشُفَةً (٤)

(١) - قال الترمذي : وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ . سنن الترمذي (١٤٨٨)

(٢) - انظر الموسوعة الفقهية الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٢٧ / ص ٢٠) فما بعد

(٣) - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ١٦ / ص ٩٩) فما بعد

(٤) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٦١٣)

وَمَا يَحْصُلُ مِنْ نَوْعِ الْمُكَاشَفَةِ وَالتَّصَرُّفِ " ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٍ " مَلَكيٌّ وَنَفْسِيٌّ وَشَيْطَانِيٌّ فَإِنَّ الْمَلَكَ لَهُ قُوَّةٌ وَالنَّفْسَ لَهَا قُوَّةٌ وَالشَّيْطَانَ لَهُ قُوَّةٌ وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ لَهُ قُوَّةٌ . فَمَا كَانَ مِنَ الْمَلَكِ وَمِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ حَقٌّ وَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسةِ النَّفْسِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَقَدْ اشْتَبَهَ هَذَا بِهَذَا عَلَى طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ بَلْ صَارُوا يَطُنُّونَ فِي مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفَّارِ - أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ - أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ . وَالْكَلَامُ فِي هَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَلِهَذَا فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَرَى جَوَازَ قِتَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ . وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْوَاعِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالنَّفْسَانِيَّةِ مَا ظَنُّوا أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مِنْهُمْ فَكَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ . وَأَصْلُ هَذَا أَنَّهُمْ تَعَبَّلُوا بِمَا تُحِبُّهُ النَّفْسُ ؛ وَأَمَّا الْعِبَادَةُ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ فَلَا يُحِبُّونَهُ وَلَا يَرْضَوْنَهُ وَحَدَهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا عَبَدُوا اللَّهَ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَرُسُلُهُ حَطَّ لَهُمْ عَنْ مَنْصِبِ الْوِلَايَةِ فَيَحْدِثُونَ مَحَبَّةَ قُوَّةٍ وَتَأَلَّاهَا وَعِبَادَةً وَشَوْقًا وَزَهْدًا ؛ وَلَكِنْ فِيهِ شِرْكٌ وَبِدْعَةٌ . وَمَحَبَّةُ " التَّوْحِيدِ " إِنَّمَا تَكُونُ لِلَّهِ وَحْدَهُ عَلَى مُتَابَعَةِ رَسُولِهِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } فَلِهَذَا يَكُونُ أَهْلُ الْإِتِّبَاعِ فِيهِمْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ فِي مَحَبَّتِهِمْ ؛ يُحِبُّونَ لِلَّهِ وَيَغْضُؤُونَ لَهُ . وَهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ . وَالَّذِينَ مَعَهُ { إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } وَأُولَئِكَ مَحَبَّتُهُمْ فِيهَا شِرْكٌ وَلَيْسُوا مُتَابِعِينَ لِلرُّسُولِ وَلَا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيْسَتْ هِيَ الْمَحَبَّةُ الْإِخْلَاصِيَّةُ . فَإِنَّهَا مَقْرُونَةٌ بِالتَّوْحِيدِ . وَلِهَذَا سَمَّى أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ كِتَابَهُ " قُوتُ الْقُلُوبِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُحْجُوبِ وَوَصَفَ طَرِيقَ الْمُرِيدِ إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ " وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

وفي الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي - (ج ١ / ص ٧٣٠)

مطلب في الفرق بين الحقيقة والشرعية

وسئل نفع الله به : عن حقيقة الفرق بين الحقيقة والشرعية ؟ .

فأجاب بقوله : فرق بينهما بفروق : منها أن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشرعية ونهاية الشيء غير مخالفة له على ما يأتي ، فالشرعية هي الأصل ومن ثم شبهت بالبحر والمعدن واللبن والشجرة ، والحقيقة هي الفرع المستخرج من الشرعية ومن ثم شبهت بالدرة والتبر والزبدة والثمرة ، ومعنى سلب للمخالفة لهما المذكور أنه لس بينهما اختلاف في مجاري أحكام العبودية وإنما يختلفان في مشاهدة أسرار الربوبية ، ولا شك أن أهلها متفاوتون في الاعتناء والاهتمام بعلم صفات القلب والأخذ بعزائم الأحكام وليس ذلك اختلافًا بينهما ، وبين ذلك الياضي رحمه الله بأن الشرعية علم وعمل ، والعلم ظاهر وباطن ، والظاهر شرعي وغيره ، والشرعي فرض ومنسوب ، والفرض عين وكفاية ، والعين علم صفات القلب وعلم أصل وعلم فرع ، والعمل عزائم ورخص ، والحقيقة مشتملة على قسمين علم وعمل ، والعلم وهي وكسي ، فالوحي علم المكاشفة والكسي فرض عين وفرض كفاية وفرض العين علم القلب وعلم أصل وعلم فرع ، فالكسي الذي هو أحد علم نوعي قسيمي الحقيقة هو علم الشرعية والعمل الذي هو العزائم مشتمل على سلوك طريق الحقيقة ، والطريقة مشتملة على منازل السالكين وتسمى مقامات اليقين ، والحقيقة موافقة للشرعية في جميع علمها وعملها وأصولها وفروعها وفرضها ومندوبها ليس بينهما مخالفة أصلاً ، نعم هنا شينان : أحدهما علم صفاً فالقلب فأهل الحقيقة لهم به اهتمام واعتناء جداً وسلوك طريقته موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة ، وأكثر أهل الشرعية يهملون ذلك ويتهاونون به مع كونه فرض عين في الشرعية والحقيقة بلا خلاف ، والثاني الرخص فأهل الحقيقة من حيث العلم والاعتقاد لا يشكون في حقيقتها وإنما من رحمة الله عباده ، وأما من حيث علمهم فإنما يسلكون شواخ عزائم الشرعية الغراء إلى الله بتوفيقه وعنايته وحجبل لطفه وصيانتة ، فمنهم من لا يقطعها إلا في سبعين سنة ومنهم من يقطعها في ساعة واحدة بحسب معونة الله وتسهيله .

سَمِعَهَا مِنْهُ أَوْ نَوْعٍ مِنْ تَصَرُّفٍ مِثْلَ أَنْ يَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إِلَى وَاحِدٍ فَمَاتَ أَوْ صُرِعَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ - مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ - لَهُمْ مَكَاشِفَاتٌ وَتَصَرُّفَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ كَالْكُفَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعِبَادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ الشَّخْصِ وَلِيًّا لِلَّهِ ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وَلَايَةَ اللَّهِ فَكَيْفَ إِذَا عَلِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وَلَايَةَ اللَّهِ ؛ مِثْلَ أَنْ يُعْلَمَ أَنََّّهُ لَا يَعْتَقِدُ وَجُوبَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ؛ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ . أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِلْوَلِيَّاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . أَوْ يَقُولُ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ (١) أَوْ هُمْ عَلَى قُدْرَةِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ بَعْضُ مَنْ يَدْعِي الْوَلَايَةَ ، فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنَ الْكُفْرِ مَا يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ . فَضُلًّا عَنِ وَلَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(١) - وفي مدارج السالكين - (ج ٧ / ص ٥٧)

وأما الاتحادية فالتوحيد عندهم أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته وأنه آية كل شيء وله فيه آية تدل على أنه عينه وهذا عند محققهم من خطأ التعبير بل هو نفس الآية ونفس الدليل ونفس المستدل ونفس المستدل عليه فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود فهو عندهم عين الناكح وعين المنكوح وعين الذابح وعين المذبوح وعين الأكل وعين المأكول وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ورامت إفادته الهداية النبوية كما قاله محققهم وعارفهم ابن سبعين

ومن فروع هذا التوحيد أن فرعون وقومه مؤمنون كاملاً بالإيمان عارفون بالله على الحقيقة ومن فروعه أن عباد الأصنام على الحق والصواب وأقم إنما عبدوا عين الله سبحانه لا غيره ومن فروعه أن الحق أن لا فرق في التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية ولا فرق بين الماء والخمر والزنا والكاح الكل من عين واحدة بل هو العين الواحدة وإنما المحجوبون عن هذا السر قالوا هذا حرام وهذا حلال نعم هو حرام عليكم لأنكم في حجاب عن حقيقة هذا التوحيد ومن فروعه أن الأنبياء ضيقوا الطريق على الناس وبعثوا عليهم المقصود والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه

فَمَنْ احْتَجَّ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ مِنْ خَرَقِ عَادَةٍ عَلَى وَلَايَتِهِمْ كَانَ أَضَلَّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ ؛ فَإِنْ كَوَّنَهُ مَجْنُونًا يُنَاقِضُ أَنْ يَصِحَّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَالْعِبَادَاتُ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي وَلَايَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ كَانَ يَجُنُّ أَحْيَانًا وَيُفِيقُ أَحْيَانًا إِذَا كَانَ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ ؛ فَهَذَا إِذَا جُنَّ لَمْ يَكُنْ جُنُونُهُ مَانِعًا مِنْ أَنْ يُشَبِّهَ اللَّهُ عَلَى إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ الَّذِي أَتَى بِهِ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ وَيَكُونُ لَهُ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ بَعْدَ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُشَبِّهُهُ وَيَأْجُرُهُ عَلَى مَا تَهَدَّمُ مِنْ إِيْمَانِهِ وَتَقْوَاهُ . وَلَا يُحِبُّهُ بِالْجُنُونِ الَّذِي أُبْتَلِيَ بِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَعَلَهُ ، وَالْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ فِي حَالِ جُنُونِهِ . فَعَلَى هَذَا فَمَنْ أَظْهَرَ الْوَلَايَةَ وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَلَا يَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ ، بَلْ قَدْ يَأْتِي بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا وَلِيَّ اللَّهِ فَإِنْ هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَجْنُونًا ؛ بَلْ كَانَ مُتَوَلِّهَا (١) مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ أَوْ كَانَ يَغِيبُ عَقْلُهُ بِالْجُنُونِ تَارَةً وَيُفِيقُ أُخْرَى وَهُوَ لَا يَقُومُ بِالْفَرَائِضِ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ وَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا قَدْ ارْتَهَعَ عَنْهُ الْقَلَمُ ؛ فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاقِبًا عُقُوبَةَ الْكَافِرِينَ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَهْلُ الْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَجُوزُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَلِيَّ اللَّهِ ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُ حَالَةٌ فِي إِفَاقَتِهِ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مُتَقِيًّا كَانَ لَهُ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ نِفَاقٌ أَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَهَذَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّنَاقُ مَا يُعَاقِبُ عَلَيْهِ ، وَجُنُونُهُ لَا يُحِبُّ عَنْهُ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ حَالِ إِفَاقَتِهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ .

لا يتميَّز أولياء الله عن الناس في الظاهر بشيء

(١) - (وله) الولة الحزن وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف والولة ذهاب العقل لفقدان الحبيب "لسان العرب - (ج ١٣ / ص ٥٦١)

وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ شَيْءٌ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنِ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُبَاحَاتِ ، فَلَا يَتَمَيَّزُونَ بِلِبَاسٍ دُونَ لِبَاسٍ إِذَا كَانَ كِلَاهُمَا مُبَاحًا ، وَلَا بِحَلْقٍ شَعْرٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ ظَفَرِهِ إِذَا كَانَ مُبَاحًا ، كَمَا قِيلَ : كَمْ مِنْ صَدِيقٍ فِي قَبَاءٍ وَكَمْ مِنْ زُنْدِيقٍ فِي عِبَاءٍ ؛ بَلْ يُوجَدُونَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ الظَّاهِرَةِ وَالْفُجُورِ (١) ، فَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْجِهَادِ وَالسِّيفِ وَيُوجَدُونَ فِي الثِّجَارِ وَالصَّنَاعِ وَالزُّرَّاعِ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَصْنَافَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ

فَضَّلَ اللَّهُ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) (٢) سورة المزمل .

وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ " الْفُقَرَاءَ " فَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالنَّسَاكُ ثُمَّ حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ " الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ " .

وَاسْمُ " الصُّوفِيَّةِ " هُوَ نَسَبُهُ إِلَى لِبَاسِ الصُّوفِ (٣)؛ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ نَسَبُهُ إِلَى صَفْوَةِ الْفُقَهَاءِ وَقِيلَ إِلَى صُوفَةَ بْنِ أَدِ بْنِ طَانِجَةَ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُعْرِفُونَ بِالنَّسَكِ، وَقِيلَ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَقِيلَ إِلَى الصَّفَا، وَقِيلَ إِلَى الصَّفْوَةِ، وَقِيلَ إِلَى الصَّفِّ الْمَقْدَمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ أَقْوَالٌ ضَعِيفَةٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ صَفِيٌّ أَوْ صَفَائِيٌّ أَوْ صَفَوِيٌّ أَوْ صَفِيٌّ وَلَمْ يَقُلْ صُوفِيٌّ .

وَصَارَ أَيْضًا اسْمُ " الْفُقَرَاءِ " (٤)

(١) - أي المعاصي

(٢) - إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَوَّلَ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ ، وَكَأَثَرٍ مِنْ نِصْفِهِ ، وَتَقُومُ النِّصْفَ ، وَتَقُومُ الثُّلُثَ ، أَنْتَ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِكَ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ قِيَامُ اللَّيْلِ . وَلَا يَعْلَمُ مَقَادِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْتُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ضَبْطَ الْمَوَاقِيتِ ، وَإِحْصَاءَ السَّاعَاتِ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ بِأَنْ رَخَّصَ لَكُمْ تَرْكَ الْقِيَامِ الْمَقْدَرِ ، وَعَفَا عَنْكُمْ ، وَرَفَعَ عَنْكُمْ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ ، فَصَلُّوا مَا تَيَسَّرَ لَكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ ، وَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِلْمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَكُمْ ذَوُورًا أَعْدَارًا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ ، كَالْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَابْتِغَاءِ الرِّزْقِ (الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ) وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَهَؤُلَاءِ إِذَا لَمْ يَنَامُوا اللَّيْلَ تَعَبَتْ أَجْسَادُهُمْ ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْقِيَامَ بِوَاجِبِهِمْ فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ ، وَصَلُّوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَقُومُوا فَلَا تَكُونْ قُلُوبُكُمْ غَافِلَةً ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَوْجِهٍ الطَّاعَاتِ ، وَسَيَجْعَلُ رَبُّكُمْ هَذَا الْإِنْفَاقَ بِمَثَابَةِ الْقَرْضِ لَهُ ، وَسَيَجْزِيكُمْ فِي الْآخِرَةِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ ، وَمَا تُقَدِّمُوا فِي الدُّنْيَا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ فَعَلٍ خَيْرٍ فَإِنَّكُمْ وَاجِدُونَ ثَوَابَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) - وفي الأساس : وآل صَوْفَان : كَانُوا يَخْدُمُونَ الْكَعْبَةَ وَيَتَنَسَّكُونَ وَلَعَلَّ الصُّوفِيَّةَ نُسِبَتْ إِلَيْهِمْ تَشْبِيهًا بِهِمْ فِي التَّنَسُّكِ وَالْعَبَادَةِ أَوْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَيُقَالُ مَكَانُ الصُّفَّةِ : الصُّوفِيَّةُ بَقَلْبِ إِحْدَى الْفَاتَيْنِ وَآوًا لِلتَّخْفِيفِ أَوْ إِلَى

الصُّوفِ الَّذِي هُوَ لِبَاسُ الْعِبَادِ وَأَهْلِ الصَّوَامِعِ . تاج العروس - (ج ١ / ص ٥٩٧٠)

(٤) - قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } (١٥) سورة فاطر وَأَمَّا الْمُسْتَأَخَرُونَ فَـ " الْفَقِيرُ " فِي عَرَفِهِمْ عِبَارَةٌ عَنِ السَّالِكِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا هُوَ " الصُّوفِي " فِي عَرَفِهِمْ أَيْضًا ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ مُسَمَّى " الصُّوفِي " عَلَى مُسَمَّى " الْفَقِيرِ " لِأَنَّهُ عِنْدَهُ الَّذِي قَامَ بِالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ مُسَمَّى الْفَقِيرِ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ الَّذِي قَطَعَ الْعَلَائِقَ وَلَمْ يَشْتَغَلْ فِي الظَّاهِرِ بِغَيْرِ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ وَهَذِهِ مُنَازَعَاتٌ لَفْظِيَّةٌ اصطلاحية . وَ " التَّحْقِيقُ " أَنَّ الْمُرَادَ الْمَحْمُودَ بِهِذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ دَاخِلٌ فِي مُسَمَّى الصَّدِّيقِ وَالْوَلِيِّ وَالصَّالِحِ وَخَوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَمِنْ حَيْثُ دَخَلَ فِي الْأَسْمَاءِ النَّبَوِيَّةِ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحُكْمِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالَةُ وَأَمَّا مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِمَّا يُعَدُّ صَاحِبُهُ فَضْلًا وَلَيْسَ بِفَضْلٍ أَوْ مِمَّا يُوَالِي عَلَيْهِ صَاحِبُهُ غَيْرَهُ وَخَوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا زِيَادَةُ الدَّرَجَةِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا فَهِيَ أُمُورٌ مُهْدَرَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ إِلَّا إِذَا جُعِلَتْ مِنْ

الْمُبَاحَاتِ كَالصَّنَاعَاتِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِشَرِّطٍ أَلَّا يَعْتَقِدَ أَنَّ تِلْكَ الْمُبَاحَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحَبَّاتِ . وَأَمَّا مَا يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَكْرُوهَةِ فِي دِينِ اللَّهِ : مِنْ أَنْوَاعِ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ . فَيَجِبُ التَّهَيُّ عَنْهُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ .
مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٧٠)

" يَعْنِي بِهِ أَهْلُ السُّلُوكِ ، وَهَذَا عُرِفَ حَدِيثٌ ، وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ مُسَمًّى " الصُّوفِيُّ " أَوْ مُسَمًّى " الْفَقِيرِ " (١)

(١) - مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥ - ٢٤) ومجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٤٤٢)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ . سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ عَنْ " الصُّوفِيَّةِ " وَأَنَّهُمْ أَفْسَامٌ " وَالْفُقَرَاءُ " أَفْسَامٌ فَمَا صِفَةُ كُلِّ قِسْمٍ ؟ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ ؟ وَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَسْلُكَهُ .

الجواب

فَأَجَابَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ . أَمَّا لَفْظُ " الصُّوفِيَّةِ " فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ وَإِنَّمَا أُشْتَهَرَ التَّكَلُّمُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ ثَقُلَ التَّكَلُّمُ بِهِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ وَالشُّيُوخِ : كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ وَغَيْرِهِمَا . وَقَدْ رَوَى عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهِ وَبَعْضُهُمْ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَتَنَازَعُوا فِي " الْمَعْنَى " الَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ الصُّوفِيُّ - فَإِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ النَّسَبِ : كَالْقُرَشِيِّ وَالْمَدَنِيِّ وَأَمثال ذلك . فَقِيلَ : إِنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَى " أَهْلِ الصُّفَّةِ " وَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ : صَفِي . وَقِيلَ نِسْبَةٌ إِلَى الصَّفِّ الْمَقْدَمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَهُوَ أَيْضًا غَلَطٌ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ : صَفِي . وَقِيلَ نِسْبَةٌ إِلَى الصُّفْوَةِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ : صَفْوِي وَقِيلَ : نِسْبَةٌ إِلَى صُوفَةَ بْنِ بَشَرَ بْنِ أَدِ بْنِ طَانِجَةَ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُجَاوِرُونَ بَمَكَةَ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ يُنْسَبُ إِلَيْهِمُ النَّسَاكُ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِلنَّسَبِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ فَإِنَّهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ غَيْرُ مَشْهُورِينَ وَلَا مَعْرُوفِينَ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّسَاكِ وَلِأَنَّهُ لَوْ نُسِبَ النَّسَاكُ إِلَى هَؤُلَاءِ لَكَانَ هَذَا النَّسَبُ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَاتِبِهِمْ أَوَّلَى وَلَئِنْ غَالِبَ مَنْ تَكَلَّمَ بِاسْمِ " الصُّوفِيِّ " لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ وَلَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إِلَى قَبِيلَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهَا فِي الْإِسْلَامِ . وَقِيلَ : - وَهُوَ الْمَعْرُوفُ - إِنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَى لُبْسِ الصُّوفِ ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَتِ الصُّوفِيَّةُ مِنَ الْبَصْرَةِ وَأَوَّلُ مَنْ بَنَى دَوِيرَةَ الصُّوفِيَّةِ بَعْضُ أَصْحَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدُ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَكَانَ فِي الْبَصْرَةِ مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي الرُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ وَخَوِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي سَائِرِ أَهْلِ الْمَقْصَرِ وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ : فِقَّةٌ كُوفِيٌّ وَعِبَادَةٌ بَصْرِيَّةٌ . وَقَدْ رَوَى أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يُفَضِّلُونَ لِبَاسَ الصُّوفِ فَقَالَ : إِنَّ قَوْمًا يَتَخَيَّرُونَ الصُّوفَ يَقُولُونَ : إِنَّهُمْ مُتَشَبِّهُونَ بِالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَحَبُّ إِلَيْنَا وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ الْقُطْنَ وَغَيْرَهُ أَوْ كَلَامًا نَحْوًا مِنْ هَذَا . وَلِهَذَا غَالِبُ مَا يُحْكِي مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي هَذَا الْبَابِ إِنَّمَا هُوَ عَنْ عِبَادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مِثْلُ حِكَايَةِ مَنْ مَاتَ أَوْ غُشِيَ عَلَيْهِ فِي سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَنَحْوِهِ . كَحِكَايَةِ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ فَإِنَّهُ قَرَأَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ : { فَإِذَا تُقِرَّ فِي النَّاقُورِ } فَخَرَّ مَيِّتًا وَكَقِصَّةِ أَبِي جَهْرٍ الْأَعْمَى الَّذِي قَرَأَ عَلَيْهِ صَلَاحُ الْمَرِي فَمَاتَ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِمَّنْ رُوِيَ أَنَّهُمْ مَاتُوا بِاسْتِمَاعِ قِرَاءَتِهِ وَكَانَ فِيهِمْ طَوَائِفُ يُصْعَقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ هَذَا حَالُهُ ؛ فَلَمَّا ظَهَرَ ذَلِكَ أَنْكَرَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : كَأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ وَنَحْوَهُمْ . وَالْمُنْكَرُونَ لَهُمْ مَاخِذَانِ : مِنْهُمْ مَنْ ظَنَّ ذَلِكَ تَكَلُّفًا وَتَضَنُّعًا . يُذَكِّرُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ : مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُصَعِّقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ يُقْرَأَ عَلَى أَحَدِهِمْ وَهُوَ عَلَى حَانِطٍ فَإِنْ خَرَّ فَهُوَ صَادِقٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ رَأَاهُ بَدْعَةً مُخَالَفًا لِمَا عُرِفَ مِنْ هَذِي الصَّحَابَةِ كَمَا نُقِلَ عَنْ أَسْمَاءَ وَابْنِهَا عَبْدِ اللَّهِ . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا . فَقَالَ : قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ فُغْشِيَ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ لَدَفَعَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَمَا رَأَيْتَ أَهَقَلَ مِنْهُ وَنَحْوَهُ هَذَا . وَقَدْ نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَعَلَى بْنِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَّاضٍ قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ . لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ وَجَلُّ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } وَقَالَ : { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } وَقَالَ : { وَيَخْرُجُونَ لِلْذَّفَانِ يَتَكَوَّنُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } . وَقَدْ يَنْدُمُ حَالُ هَؤُلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا وَالْجَفَاءِ عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَقَدْ فَعَلُوا وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَتَمُّهَا وَأَعْلَمُهَا وَكِلَا طَرَفِي هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ . بَلِ الْمَرَاتِبُ ثَلَاثٌ : (أَحَدُهَا حَالُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ الَّذِي هُوَ قَاسِي الْقَلْبَ لَا يَلِينُ لِلسَّمَاعِ وَالذِّكْرِ وَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } . وَ (الثَّانِيَةُ) حَالُ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ الَّذِي فِيهِ ضَعْفٌ عَنْ حَمَلٍ مَا يَرُدُّ عَلَى قَلْبِهِ فَهَذَا الَّذِي يُصَعِّقُ صَعَقَ مَوْتٍ أَوْ صَعَقَ غَشْيٍ فَإِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِقُوَّةِ الْوَارِدِ وَضَعْفِ الْقَلْبِ عَنْ حَمَلِهِ وَقَدْ يُوْجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي مَنْ يَفْرَحُ أَوْ يَخَافُ أَوْ يَحْزَنُ أَوْ يُحِبُّ أُمُورًا دُنْيَوِيَّةً يَقْتُلُهُ ذَلِكَ أَوْ يَمْرِضُهُ أَوْ يَنْهَبُ بِعَقْلِهِ . وَمِنْ عِبَادِ الصُّورِ مَنْ أَمْرَضَهُ الْعِشْقُ أَوْ قَتَلَهُ أَوْ جَنَنَهُ وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لِمَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ضَعَفَتْ نَفْسُهُ عَنْ دَفْعِهِ بِمَنْزِلَةِ مَا يَرُدُّ عَلَى الْبَدَنِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُمْرِضُهُ أَوْ تَقْتُلُهُ أَوْ كَانَ أَحْلَاهُمْ مَغْلُوبًا عَلَى ذَلِكَ . فَإِذَا كَانَ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ تَفْرِيطٌ وَلَا غُلُوفٌ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذَنْبٌ فِيمَا أَصَابَهُ فَلَا وَجْهَ لِلرَّبِّيَّةِ . كَمَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ السَّمَاعَ الشَّرْعِيَّ وَلَمْ يَفْرِطْ بِتَرْكِ مَا يُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ مَا يَرُدُّ عَلَى الْقُلُوبِ مِمَّا يُسْمُونَهُ السُّكْرَ وَالْفَنَاءَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُغَيِّبُ الْعَقْلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ صَاحِبِهَا ؛ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ السَّبَبُ مَحْظُورًا لَمْ يَكُنِ السُّكْرَانُ مَذْمُومًا بَلْ مَغْلُوبًا فَإِنَّ السُّكْرَانَ بَلَا تَمَيِّيزَ وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ بِتَنَاوُلِ السُّكْرِ مِنَ الْخَمْرِ وَالْحَشِيشَةِ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ بَلَا نِزَاعٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ اسْتَحْلَ السُّكْرَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فَهُوَ كَافِرٌ وَقَدْ يَحْصُلُ بِسَبَبِ مَحَبَّةِ الصُّورِ وَعِشْقِهَا كَمَا قِيلَ : سَكْرَانُ : سَكْرُ هَوَى وَسَكْرُ مُدَامَةٍ وَمَتَى إِفَاقَهُ مِنْ بِهِ سَكْرَانٌ وَهَذَا مَذْمُومٌ لِأَنَّ سَبَبَهُ مَحْظُورٌ وَقَدْ يَحْصُلُ بِسَبَبِ سَمَاعِ الْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ الَّتِي تُورِثُ مِثْلَ هَذَا السُّكْرِ وَهَذَا أَيْضًا مَذْمُومٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الَّتِي لَمْ يُؤْمَرْ بِسَمَاعِهَا مَا يُزِيلُ عَقْلَهُ إِذْ إِرَالَةُ الْعَقْلِ مُحَرَّمٌ وَمَتَى أَفْضَى إِلَيْهِ سَبَبٌ غَيْرُ شَرْعِيٍّ كَانَ مُحَرَّمًا وَمَا يَحْصُلُ فِي ضَمَنِ ذَلِكَ مِنْ لَذَّةٍ قَلْبِيَّةٍ أَوْ رُوحِيَّةٍ وَلَوْ بِأُمُورٍ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الْإِيمَانِ فَهِيَ مَغْمُورَةٌ بِمَا يَحْصُلُ مَعَهَا مِنْ زَوَالِ الْعَقْلِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا اللَّهُ أَنْ نُتَمَعَ قُلُوبَنَا وَلَا أَرْوَاحَنَا مِنْ لَذَاتِ الْإِيمَانِ وَلَا غَيْرِهَا بِمَا يُوجِبُ زَوَالَ عُقُولِنَا ؛ بِخِلَافِ مَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِسَبَبٍ مَشْرُوعٍ . أَوْ بِأَمْرِ صَادَقَهُ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِهِ . وَقَدْ يَحْصُلُ السُّكْرُ

بِسَبَبِ لَا فِعْلَ لِلْعَبْدِ فِيهِ كَسَمَاعٍ لَمْ يَقْصِدْهُ يَهْجِ قَاطِنُهُ وَيُحَرِّكُ سَاكِنُهُ وَتَحْوِ ذَلِكَ . وَهَذَا لَا مَلَامَ عَلَيْهِ فِيهِ وَمَا صَدَرَ عَنْهُ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِ فَهُوَ فِيهِ مَعْدُورٌ ؛ لِأَنَّ الْقَلَمَ مَرْفُوعٌ عَنْ كُلِّ مَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِسَبَبِ غَيْرِ مُحَرَّمٍ كَالْمُعْمَى عَلَيْهِ وَالْمَجْنُونِ وَتَحْوَهُمَا . وَمَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِالْخَمْرِ . فَهَلْ هُوَ مُكَلَّفٌ حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ وَفِي طَلَاقٍ مِنْ هَذِهِ حَالُهُ نَزَاعٌ مَشْهُورٌ وَمَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِالْبَنْجِ يُلْحَقُ بِهِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَقِيلَ يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَمْرِ ؛ لِأَنَّ هَذَا يُشْتَهَى وَهَذَا لَا يُشْتَهَى ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ الْحَدَّ فِي هَذَا دُونَ هَذَا وَهَذَا هُوَ الْمُتَنَوُّصُ عَنْ أَحْمَدَ وَمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ عَلَيْهِ الْوَارِدُ حَتَّى يَصِيرَ مَجْنُونًا إِمَّا بِسَبَبِ خَلْطٍ يَغْلِبُ عَلَيْهِ وَإِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ وَمِنْ هَؤُلَاءِ عَقْلَاءُ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ يُعْدُونَ فِي النَّسَاكِ وَقَدْ يُسَمَّوْنَ الْمُؤْلَهِينَ . قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عُقُولًا وَأَحْوَالًا ؛ فَسَلَبَ عُقُولَهُمْ وَأَسْقَطَ مَا فَرَضَ بِمَا سَلَبَ . فَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الَّتِي يَقْتَرِنُ بِهَا الْعَشْيُ أَوْ الْمَوْتُ أَوْ الْجُنُونُ أَوْ الشُّكْرُ أَوْ الْفَنَاءُ حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِنَفْسِهِ وَتَحْوِ ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ أَسْبَابُهَا مَشْرُوعَةً وَصَاحِبُهَا صَادِقًا عَاجِزًا عَنْ دَفْعِهَا كَانَ مَحْمُودًا عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا نَالَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعْدُورًا فِيمَا عَجَزَ عَنْهُ وَأَصَابَهُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَهُمْ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ مَثَلَتَهُمْ لِقَصْرِ إِيْمَانِهِمْ وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ وَتَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَرْكَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ أَوْ فِعْلَ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ . وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزُلْ عَقْلُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ . وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَأَرَاهُ اللَّهُ مَا أَرَاهُ وَأَصْبَحَ كَبَاتٍ لَمْ يَتَّعِزْ عَلَيْهِ حَالُهُ فَحَالُهُ أَفْضَلُ مِنْ حَالِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي خَرَّ صَعِقًا لَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ وَحَالُ مُوسَى حَالُ جَلِيلَةٍ عَلَيْهِ فَاضِلَةٌ ؛ لَكِنَّ حَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ وَأَعْلَى وَأَفْضَلُ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي فِيهَا زِيَادَةٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأَحْوَالِ خَرَجَتْ مِنَ الْبَصَرَةِ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ الْخَوْفِ فَإِنَّ الَّذِي يَذْكُرُونَهُ مِنْ خَوْفِ عِبَتَةِ الْعُلَامِ وَعَطَاءِ السُّلَيْمِيِّ وَأَمثالِهِمَا أَمْرٌ عَظِيمٌ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَالَهُمْ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ مَا قَابَلَهُمْ أَوْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ . وَمَنْ خَافَ اللَّهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إِلَى فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَدْ رَوَى : أَنَّ عَطَاءَ السُّلَيْمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رُئِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ فَقَالَ : قَالَ لِي : يَا عَطَاءُ أَمَا اسْتَحَيْتُ مِنِّي أَنْ تَخَافَنِي كُلَّ هَذَا أَمَا بَلَغَكَ أَنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَكَذَلِكَ مَا يَذْكُرُ عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَحْوَالِ مِنَ الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالْعِبَادَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ قَدْ يُنْقَلُ فِيهَا مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى حَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَعَلَى مَا سَنَّهُ الرَّسُولُ أُمُورٌ تُوجِبُ أَنْ يَصِيرَ النَّاسُ طَرَفَيْنِ . قَوْمٌ يَذُمُّونَ هَؤُلَاءِ وَيَنْتَقِصُونَهُمْ وَرَبِّمَا أَسْرَفُوا فِي ذَلِكَ . وَقَوْمٌ يَغْلَوْنَ فِيهِمْ وَيَجْعَلُونَ هَذَا الطَّرِيقَ مِنَ أَكْمَلِ الطَّرِيقِ وَأَعْلَاهَا . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْعِبَادَاتِ وَالْأَحْوَالِ مُجْتَهِدُونَ كَمَا كَانَ جِبَرَاتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مُجْتَهِدِينَ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْإِمَارَةِ وَتَحْوِ ذَلِكَ . وَخَرَجَ فِيهِمُ الرَّأْيُ الَّذِي فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ مَا أَنْكَرَهُ جُمْهُورُ النَّاسِ . وَخِيَارُ النَّاسِ مِنْ " أَهْلِ الْفَقْهِ وَالرَّأْيِ " فِي أُولَئِكَ الْكُوفِيِّينَ عَلَى طَرَفَيْنِ . قَوْمٌ يَذُمُّونَهُمْ وَيُسْرِفُونَ فِي ذَمِّهِمْ . وَقَوْمٌ يَغْلَوْنَ فِي تَعْظِيمِهِمْ وَيَجْعَلُونَهُمْ أَعْلَمَ بِالْفَقْهِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَرَبِّمَا فَضَّلُوهُمْ عَلَى الصَّحَابَةِ . كَمَا أَنَّ الْعُلَاةَ فِي أُولَئِكَ الْعِبَادِ قَدْ يُفَضِّلُونَهُمْ عَلَى الصَّحَابَةِ وَهَذَا بَابٌ يَفْتَرِقُ فِيهِ النَّاسُ . وَالصَّوَابُ : لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقُرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ وَأَنَّ أَفْضَلَ الطَّرِيقِ وَالسَّبِيلِ إِلَى اللَّهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ } وَقَالَ : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - الْمُتَّقِينَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ - قَدْ لَا

يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لِلصَّحَابَةِ فَيَقْبِي اللَّهُ مَا اسْتَطَاعَ وَيُطِيعُهُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ خَطَأٌ إِمَّا فِي غُلُومِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِمَّا فِي أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَيُنَابُونَ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } - إِلَى قَوْلِهِ - { رَبَّنَا لَا تَوَاحِدْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : قَدْ فَعَلْتَ . فَمَنْ جَعَلَ طَرِيقَ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ أَوْ طَرِيقَ أَحَدٍ مِنَ الْعِبَادِ وَالنَّسَاكِ أَفْضَلَ مِنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ فَهُوَ مُخْطِئٌ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ وَمَنْ جَعَلَ كُلَّ مُجْتَهِدٍ فِي طَاعَةِ أَخْطَأَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ مَذْمُومًا مَعِيًا مَمْقُوتًا فَهُوَ مُخْطِئٌ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ . ثُمَّ النَّاسُ فِي الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْمُؤَالَاةِ وَالْمُعَادَاةِ هُمْ أَيْضًا مُجْتَهِدُونَ يُصِيبُونَ تَارَةً وَيُخْطِئُونَ تَارَةً وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا عَلِمَ مِنَ الرَّجُلِ مَا يُحِبُّهُ أَحَبَّ الرَّجُلَ مُطْلَقًا وَأَعْرَضَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَإِذَا عَلِمَ مِنْهُ مَا يُبْغِضُهُ أَبْغَضَهُ مُطْلَقًا وَأَعْرَضَ عَنْ حَسَنَاتِهِ مُحَاطٌ (؟ وَحَالٌ مَنْ يَقُولُ بِالتَّحَافُظِ) ؟ وَهَذَا مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبَدْعِ وَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَرِجَةِ وَالْمُرْجَةِ . وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقُولُونَ مَا ذَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِقُّ وَعَدَ اللَّهِ وَفَضْلُهُ الثَّوَابُ عَلَى حَسَنَاتِهِ وَيَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَإِنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَجْتَمِعُ فِيهِ مَا يُثَابُ عَلَيْهِ وَمَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ وَمَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ وَمَا يُذَمُّ عَلَيْهِ وَمَا يُحِبُّ مِنْهُ وَمَا يُبْغِضُ مِنْهُ فَهَذَا هَذَا . وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ مَنْشَأَ " التَّصَوُّفِ " كَانَ مِنَ الْبَصْرَةِ وَأَنَّهُ كَانَ فِيهَا مَنْ يَسْلُكُ طَرِيقَ الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ مِمَّا لَهُ فِيهِ اجْتِهَادٌ كَمَا كَانَ فِي الْكُوفَةِ مَنْ يَسْلُكُ مِنْ طَرِيقِ الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ مَا لَهُ فِيهِ اجْتِهَادٌ وَهَؤُلَاءِ نُسِبُوا إِلَى اللَّبْسَةِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ لِبَاسُ الصُّوفِ . فَقِيلَ فِي أَحَدِهِمْ : " صُوفِي " وَلَيْسَ طَرِيقُهُمْ مُقِيدًا لِبَاسِ الصُّوفِ وَلَا هُمْ أَوْجِبُوا ذَلِكَ وَلَا عَقَّبُوا الْأَمْرَ بِهِ لَكِنْ أَضْيَفُوا إِلَيْهِ لِكَوْنِهِ ظَاهِرَ الْحَالِ . ثُمَّ " التَّصَوُّفُ " عَنْهُمْ لَهُ حَقَائِقُ وَأَحْوَالٌ مَعْرُوفَةٌ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي حُدُودِهِ وَسِيرَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : " الصُّوفِي " مَنْ صَفَا مِنَ الْكَدْرِ وَامْتَلَأَ مِنَ الْفِكْرِ وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الذَّهَبُ وَالْحَجَرُ .

التَّصَوُّفُ كِتْمَانُ الْمَعَانِي وَتَرْكُ الدَّعَاوَى . وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ : وَهُمْ يَسِيرُونَ بِالصُّوفِي إِلَى مَعْنَى الصَّدِّيقِ وَأَفْضَلِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ الصَّدِّيقُونَ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } وَلِهَذَا لَيْسَ عَنْهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ مِنَ الصُّوفِي ؛ لَكِنْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ نَوْعٌ مِنَ الصَّدِّيقِينَ فَهُوَ الصَّدِّيقُ الَّذِي اخْتَصَّ بِالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي اجْتَهَدُوا فِيهِ فَكَانَ الصَّدِّيقُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقِ كَمَا يُقَالُ : صَدِّيقُ الْعُلَمَاءِ وَصَدِّيقُ الْأُمَرَاءِ فَهُوَ أَحْصَى مِنَ الصَّدِّيقِ الْمُطْلَقِ وَدُونَ الصَّدِّيقِ الْكَامِلِ الصَّدِيقِيَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ . فَإِذَا قِيلَ عَنْ أُولَئِكَ الزُّهَادِ وَالْعِبَادِ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ : إِنَّهُمْ صَدِّيقُونَ فَهُوَ كَمَا يُقَالُ عَنْ أَيْمَةِ الْفُقَهَاءِ مِنَ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِنَّهُمْ صَدِّيقُونَ أَيْضًا كُلٌّ بِحَسَبِ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ مِنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ وَقَدْ يَكُونُونَ مِنْ أَجْلِ الصَّدِّيقِينَ بِحَسَبِ زَمَانِهِمْ فَهُمْ مِنْ أَكْمَلِ صَدِّيقِي زَمَانِهِمْ وَالصَّدِّيقُ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ أَكْمَلُ مِنْهُمْ وَالصَّدِّيقُونَ دَرَجَاتٌ وَأَنْوَاعٌ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ لِكُلِّ مِنْهُمْ صِنْفٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعِبَادَاتِ حَقَّقَهُ وَأَحْكَمَهُ وَعَلَبَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الصَّنِفِ أَكْمَلُ مِنْهُ وَأَفْضَلُ مِنْهُ . وَلَاجِلِ مَا وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنَ الْاجْتِهَادِ وَالتَّنَازُعِ فِيهِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي طَرِيقِهِمْ ؛ فَطَائِفَةٌ ذَمَّتْ " الصُّوفِيَّةَ وَالتَّصَوُّفَ " . وَقَالُوا : إِنَّهُمْ مُبْتَدِعُونَ خَارِجُونَ عَنِ السُّنَّةِ وَثِقُلَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَيْمَةِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَتَبِعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ طَوَائِفٌ مِنَ أَهْلِ الْفَقْهِ وَالْكَلَامِ . وَطَائِفَةٌ غَلَتْ فِيهِمْ وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْمَلُهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَكُلَا طَرَفِي هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ . وَ " الصَّوَابُ " أَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَمَا اجْتَهَدَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ فِيهِمْ السَّابِقُ الْمُقَرَّبُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ وَفِيهِمْ الْمُقْتَصِدُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ وَفِي كُلِّ مِنَ الصَّنِفَيْنِ مَنْ قَدْ يَجْتَهِدُ فَيُخْطِئُ وَفِيهِمْ مَنْ يُذْنِبُ فَيَتُوبُ أَوْ لَا يَتُوبُ . وَمِنْ الْمُتَمَسِّينَ إِلَيْهِمْ مَنْ هُوَ طَالِمٌ لِنَفْسِهِ عَاصٍ لِرَبِّهِ . وَقَدْ انْتَسَبَ

إِلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالزُّنْدَقَةِ ؛ وَلَكِنْ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ لَيْسُوا مِنْهُمْ : كَالْحَلَّاجِ مَثَلًا ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَشَائِخِ الطَّرِيقِ أَتَكَرُّهُ وَأَخْرَجُوهُ عَنِ الطَّرِيقِ . مَثَلُ : الْحَنِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الطَّائِفَةِ وَغَيْرِهِ . كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ ؛ فِي " طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ " وَذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ . فَهَذَا أَصْلُ التَّصَوُّفِ . ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَشَعَّبَ وَتَنَوَّعَ وَصَارَتِ الصُّوفِيَّةُ " ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ " صُوفِيَّةُ الْحَقَائِقِ وَصُوفِيَّةُ الْأَرْزَاقِ وَصُوفِيَّةُ الرَّسْمِ . فَأَمَّا " صُوفِيَّةُ الْحَقَائِقِ " : فَهُمْ الَّذِينَ وَصَفْنَاهُمْ . وَأَمَّا " صُوفِيَّةُ الْأَرْزَاقِ " فَهُمْ الَّذِينَ وَفَّقَتْ عَلَيْهِمُ الْوُقُوفُ . كَالْخَوَانِكِ فَلَا يُشْتَرَطُ فِي هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْحَقَائِقِ . فَإِنَّ هَذَا عَرِيزٌ وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْحَقَائِقِ لَا يَتَّبِعُونَ بُلْزُومَ الْخَوَانِكِ ؛ وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ فِيهِمْ ثَلَاثَةُ شُرُوطَ : (أَحَدُهَا الْعِدَالَةُ الشَّرْعِيَّةُ بِحَيْثُ يُؤَدُّونَ الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُونَ الْمَحَارِمَ . وَ (الثَّانِي التَّأَدُّبُ بِآدَابِ أَهْلِ الطَّرِيقِ وَهِيَ الْآدَابُ الشَّرْعِيَّةُ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ وَأَمَّا الْآدَابُ الْبِدْعِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا . وَ (الثَّالِثُ أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَمَسِّكًا بِفُضُولِ الدُّنْيَا فَأَمَّا مَنْ كَانَ جَمَاعًا لِلْمَالِ أَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَخَلِّقٍ بِالْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَلَا يَتَأَدَّبُ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ كَانَ فَاسِقًا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ . وَأَمَّا " صُوفِيَّةُ الرَّسْمِ " فَهُمْ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى النَّسَبَةِ فَهَمُّهُمْ فِي اللَّبَاسِ وَالْآدَابِ الْوَضْعِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَؤُلَاءِ فِي الصُّوفِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الَّذِي يَقْتَصِرُ عَلَى زِيِّ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْجِهَادِ وَنَوْعٍ مَا مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ بِحَيْثُ يَظُنُّ الْجَاهِلُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا اسْمُ " الْفَقِيرِ " فَإِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْفَقِيرُ الْمُضَادُّ لِلْغِنَى . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (؟) " وَالْفُقَرَاءُ وَالْفُقَرُ " أَنْوَاعٌ : فَمِنْهُ الْمُسَوِّغُ لِأَخْذِ الزَّكَاةِ . وَضِدُّهُ الْغِنَى الْمَانِعُ لِأَخْذِ الزَّكَاةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ } وَالْغِنَى الْمَوْجِبُ لِلزَّكَاةِ غَيْرُ هَذَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ . كَمَا لِكَ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ . وَهُوَ مُلْكُ النَّصَابِ وَعِنْدَهُمْ قَدْ تَجَبُّ عَلَى الرَّجُلِ الزَّكَاةُ وَيَبَاحُ لَهُ أَخْذُ الزَّكَاةِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ الْفُقَرَاءَ فِي مَوَاضِعَ ؛ لَكِنْ ذَكَرَ اللَّهُ الْفُقَرَاءَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلزَّكَاةِ فِي آيَةِ وَالْفُقَرَاءَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْفَقْرِ فِي آيَةٍ . فَقَالَ فِي الْوَلِيِّ : { إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } - إِلَى قَوْلِهِ - { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } . وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ : { مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } - الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ - { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُورُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } . وَهَؤُلَاءِ " الْفُقَرَاءُ " قَدْ يَكُونُ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ . وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ : الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَوْ الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ ؟ وَالصَّحِيحُ : أَنَّ أَفْضَلَهُمَا أَتَقَاهُمَا ؛ فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ كَمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّ الْفُقَرَاءَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ إِلَى الْجَنَّةِ [لِأَنَّهُ] لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ الْأَغْنِيَاءُ يُحَاسِبُونَ فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَرْجَحَ مِنْ حَسَنَاتِ فَقِيرٍ كَانَتْ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ أَعْلَى وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ فِي الدُّخُولِ . وَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ دُونَ حَسَنَاتِهِ كَانَتْ دَرَجَتُهُ دُونَهُ ؛ لَكِنْ لَمَّا كَانَ جَنْسُ الزُّهْدِ فِي الْفُقَرَاءِ أَغْلَبَ صَارَ الْفَقْرُ فِي اصْطِلَاحِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عِبَارَةً عَنْ طَرِيقِ الزُّهْدِ وَهُوَ مِنْ جَنْسِ التَّصَوُّفِ . فَإِذَا قِيلَ : هَذَا فِيهِ فَقْرٌ أَوْ مَا فِيهِ فَقْرٌ لَمْ يَرَدْ بِهِ عَدَمُ الْمَالِ وَلَكِنْ يُرَادُ بِهِ مَا يُرَادُ بِاسْمِ الصُّوفِيِّ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَعَلَى هَذَا الْإِصْطِلَاحِ قَدْ تَنَازَعُوا أَيُّمَا أَفْضَلُ : الْفَقِيرُ أَوْ الصُّوفِيُّ ؟ فَذَهَبَ طَائِفَةٌ إِلَى تَرْجِيحِ الصُّوفِيِّ كَأَبِي جَعْفَرٍ السَّهْرُورِيِّ وَنَحْوِهِ وَذَهَبَ طَائِفَةٌ إِلَى تَرْجِيحِ الْفَقِيرِ - كَطَوَائِفَ كَثِيرِينَ - وَرُبَّمَا يَخْتَصُّ هَؤُلَاءِ بِالزُّوَايَا وَهَؤُلَاءِ بِالْخَوَانِكِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ رَجَحُوا

الْفَقِيرَ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ أَفْضَلَهُمَا أَتَقَاهُمَا فَإِنْ كَانَ الصُّوفِيُّ أَتَقَى لِلَّهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَعْمَلَ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَأَثَرَ لِمَا لَا يُحِبُّهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ وَإِنْ كَانَ الْفَقِيرُ أَعْمَلَ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَأَثَرَ لِمَا لَا يُحِبُّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي فِعْلِ الْمَحْبُوبِ وَتَرْكِ غَيْرِ الْمَحْبُوبِ اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ . وَ " أَوْلِيَاءُ اللَّهِ " هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ سَوَاءٌ سَمِّيَ أَحَدُهُمْ فَقِيرًا أَوْ صُوفِيًّا أَوْ فَقِيرًا أَوْ عَالِمًا أَوْ تَاجِرًا أَوْ جُنْدِيًّا أَوْ صَانِعًا أَوْ أَمِيرًا أَوْ حَاكِمًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي وَلَكِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَكَرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ } وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ بَيَّنَّ فِيهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَقَصِّدِينَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ وَالْمُقَرَّبِينَ . فَالصَّنْفُ الْوَلُّ : الَّذِينَ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ . وَالصَّنْفُ الثَّانِي الَّذِي تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى . وَهَذَانِ الصَّنِفَانِ قَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ كَمَا قَالَ : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } { عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ } { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ } { يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ } { خِتَامُهُ مِسْكٌ } وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } { وَمِرَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ } { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ } قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صَرَفًا وَتُمَرَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَرَجًا . وَقَالَ تَعَالَى : { وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا } . { عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا } وَقَالَ تَعَالَى : { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } { وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } { أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ } { فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ } { وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ } { فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ } وَهَذَا الْجَوَابُ فِيهِ جَمْلٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ طَوِيلٍ لَمْ يَتَسَعَّ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

" ؟ وَيَنَازَعُونَ أَيضًا أَيُّمَا أَفْضَلُ : الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ أَوْ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ ؟ (١)

(١) - فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى - (ج ١١ / ص ١١٩) فَمَا بَعْدَ وَمَجْمُوعِ فِتَاوَى ابْنِ تَيْمِيَّةٍ - (ج ٢ / ص ٤٧٦) وَسُئِلَ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ " الْفَقِيرَ وَالْغَنِيَّ " لَا يَفْضَلُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ إِلَّا بِالتَّقْوَى . فَمَنْ كَانَ أَتَقَى لِلَّهِ كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَإِنَّ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ الَّذِي قَالَ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَدْخُلُ فَقَرَاءُ أُمِّي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ } هَذَا فِي حَقِّ ضُعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَصَعَالِيكِهِمُ الْقَائِمِينَ بِفَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ مُخْتَصًّا بِمُجَرَّدِ مَا عُرِفَ وَاشْتَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ الْمُتَأَخَّرَةِ مِنَ السَّجَادِ وَالْمَرْقَعَةِ وَالْعُكَّازِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُنْمَقَةِ ؛ بَلْ هَذِهِ الْهَيْئَاتُ الْمُعْتَادَةُ فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ مُخْتَرَعَةٌ مُبْتَدَعَةٌ فَهَلْ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذُكِرَ أَمْ لَا ؟ ؟ .

الْجَوَابُ

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلًا قَدْ كَثُرَ تَنَازُعُ النَّاسِ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ " الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَوْ الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ " ؟ ؟ وَكَثُرَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مَشُوبٌ بِنَوْعٍ مِنَ الْهَوَى أَوْ بِنَوْعٍ مِنَ قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَالنَّزَاعُ فِيهَا بَيْنَ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالْعَامَّةِ وَالرُّؤَسَاءِ وَغَيْرِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى فِي كِتَابِ " التَّمَامِ لِكِتَابِ الرَّوَّائِيْنِ

وَالْوَجْهَيْنِ " لِأَبِيهِ فِيهَا عَنْ أَحْمَدَ رَوَيْتَيْنِ . (إِحْدَاهُمَا أَنَّ الْفَقِيرَ الصَّابِرَ أَفْضَلُ . وَذَكَرَ أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الرَّوَايَةَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شَقْلَا وَوَالِدُهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَتَصَرَّفَهَا هُوَ . وَ (الثَّانِيَةُ : أَنَّ الْغَنَى الشَّاكِرَ أَفْضَلُ اخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَ " الْقَوْلُ الْأَوَّلُ " يَمِيلُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْفَقْهِ وَالصَّلَاحِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ وَيُحْكِي هَذَا الْقَوْلُ عَنْ الْجَنِيدِ وَغَيْرِهِ وَ " الْقَوْلُ الثَّانِي " يُرْجِّحُهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . كَأَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَطَاءٍ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا حَكَى بَعْضُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ إِجْمَاعًا وَهُوَ غَلَطٌ . وَفِي الْمَسْأَلَةِ " قَوْلُ ثَالِثٍ " وَهُوَ الصَّوَابُ أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا أَفْضَلَ مِنْ هَذَا مُطْلَقًا وَلَا هَذَا أَفْضَلَ مِنْ هَذَا مُطْلَقًا بَلْ أَفْضَلُهُمَا أَتَقَاهُمَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ } وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : الْغَنَى وَالْفَقْرُ مَطْيَتَانِ لَا أَبَالِي أَيْتَهُمَا رَكِبْتُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا } وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتِيَارُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ الشَّيْخُ ابْنُ حَنْصَلٍ السَّهْرُورِيُّ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا أَفْضَلَ لِقَوْمٍ وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ . وَهَذَا أَفْضَلُ لِقَوْمٍ وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي سَبَبِ الْكِرَامَةِ اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ وَإِنْ فَضَّلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي سَبَبِهَا تَرَجَّحَ عَلَيْهِ ؛ هَذَا هُوَ الْحُكْمُ الْعَامُّ . وَالْفَقْرُ وَالْغَنَى حَالَانِ يَغْرُضَانِ لِلْعَبْدِ بِاخْتِيَارِهِ تَارَةً وَبَعِيرٍ اخْتِيَارِهِ أُخْرَى كَالْمَقَامِ وَالسَّفَرِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَالْإِمَارَةِ وَالْإِتِمَارَ وَالْإِمَامَةَ وَالْإِتِمَامَ . وَكُلُّ جِنْسٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِفَضْلِهِ عَلَى الْآخَرِ ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ هَذَا أَفْضَلَ فِي حَالٍ ؛ وَهَذَا فِي حَالٍ وَقَدْ يَسْتَوِيَانِ فِي حَالٍ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ فِي (شَرْحِ السُّنَنِ لِلْبَغَوِيِّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى : { وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغَنَى ؛ وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَفَسَدَ ذَلِكَ ؛ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَفَسَدَ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الصِّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتَهُ لَفَسَدَ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتَهُ لَفَسَدَ ذَلِكَ إِنِّي أَذْبَرُ عِبَادِي ؛ إِنِّي بِهِمْ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يَرُوي : { إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا ؛ كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ } . وَيَرُوي فِي مُنَاجَاةِ مُوسَى نَحْوُ هَذَا . ذَكَرَهُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ . فَهَذَا فِيمَنْ يَصْرُهُ الْغَنَى وَيُصْلِحُهُ الْفَقْرُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ { نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ } . وَكَمَا أَنَّ الْقَوَالَ فِي الْمَسْأَلَةِ " ثَلَاثَةٌ " فَالْأَسَاسُ " ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٍ " : غَنِيٌّ وَهُوَ مَنْ مَلَكَ مَا يُفْضَلُ عَنْ حَاجَتِهِ . وَفَقِيرٌ ؛ وَهُوَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَمَامِ كِفَايَتِهِ . وَقِسْمٌ ثَالِثٌ ؛ وَهُوَ مَنْ يَمْلِكُ وَفْقَ كِفَايَتِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ فِي أَكَابِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مَنْ كَانَ غَنِيًّا : كَأَبِرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَأَيُّوبَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ وَالثُّوَيْبِرَ وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَأَسِيدَ بْنَ الْحَضِرِ وَأَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَعَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ وَنَحْوَهُمْ . مِمَّنْ هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْخَلْقِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ . وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ فَقِيرًا : كَالْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَبِي ذَرٍّ الْغَفَّارِيَّ وَمُصْعَبَ بْنَ غُمَيْرٍ وَسُلَيْمَانَ الْفَارِسِيَّ وَنَحْوَهُمْ . مِمَّنْ هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْخَلْقِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ : الْغَنَى تَارَةً وَالْفَقْرُ أُخْرَى ؛ وَأَتَى بِإِحْسَانِ الْأَغْنِيَاءِ وَبَصَرِ الْفُقَرَاءِ : كَنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ . وَالتَّصَوُّصُ الْوَارِدَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَاكِمَةٌ بِالْقِسْطِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ لَمْ يُفْضَلْ أَحَدًا بِفَقْرٍ وَلَا غَنَى كَمَا لَمْ يُفْضَلْ أَحَدًا بِصِحَّةٍ وَلَا مَرَضٍ . وَلَا إِقَامَةٍ وَلَا سَفَرٍ وَلَا إِمَارَةٍ وَلَا إِتِمَارٍ وَلَا إِمَامَةٍ وَلَا إِتِمَامَ ؛ بَلْ قَالَ : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ } وَفَضَّلَهُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ : مِنَ الْإِيمَانِ وَدَعَائِمِهِ وَشُعْبِهِ كَالْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ وَمَحَبَّةِ اللَّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَرَجَائِهِ وَخَشْيَتِهِ وَشُكْرِهِ وَالصَّبْرَ لَهُ . وَقَالَ فِي آيَةِ الْعَذْلِ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا } . وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاؤُهُ يَعْدِلُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . غَنِيَهُمْ وَفَقِيرَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ . وَلَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْأَغْنِيَاءِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْعَادَ الْفُقَرَاءِ نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ . وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ

بأنهم يريدون وجهه . فقال : { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ { الآية . وقال : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ { وَلَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ نَهَاةً عَنْ ذَلِكَ . وقال : { يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي . لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ . وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ { . وَكَانُوا يَسْتَوُونَ فِي مَقَاعِدِهِمْ عِنْدَهُ وَفِي الْأَصْطِفَاءِ خَلْفَهُ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمَنْ اخْتَصَّ مِنْهُمْ بِفَضْلِ عَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ ذَلِكَ الْفَضْلَ كَمَا قَتَلَ لِلْفُقَرَاءِ السَّبْعِينَ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَكَانَ أَيْضًا لِعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَأَسِيدِ بْنِ الْحَضِرِ وَعَبَادِ بْنِ بَشِيرٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ سَادَاتِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الْأَغْنِيَاءِ مَنَزَلَةً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَهَذِهِ سِيرَةُ الْمُعْتَدِلِينَ مِنَ الْأَائِمَّةِ فِي الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ . وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهِيَ طَرِيقَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ . وَغَيْرِهِمْ . فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِلْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ . وَفِي الْأَائِمَّةِ كَالثَّوْرِيِّ وَنَحْوِهِ مَنْ كَانَ يَمِيلُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَيَمِيلُ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ مُجْتَهِدًا فِي ذَلِكَ طَالِبًا بِهِ رِضَا اللَّهِ حَتَّى عِيبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَرَجَعَ عَنْهُ . وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَمِيلُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ : كَالزُّهْرِيِّ وَرَجَاءِ بْنِ حِيوةٍ وَأَبِي الزِّنَادِ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ وَأَنَاسٍ آخَرِينَ وَتَكَلَّمَ فِيهِمْ مَنْ تَكَلَّمَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ تَأْوِيلٌ وَاجْتِهَادٌ وَالْأَوَّلُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ الَّذِي ذَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَنُصُوصُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَدِلَةٌ فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ { أَنَّ الْفُقَرَاءَ قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ . يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَلَهُمْ فَضُولُ أَمْوَالٍ يَتَصَدَّقُونَ بِهَا وَلَا تَتَصَدَّقُ فَقَالَ : أَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا ؟ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ أَذْرَكْتُمْ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يَلْحَقْكُمْ مِنْ بَعْدَكُمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ فَعَلِمْتُمْ التَّسْبِيحَ الْمُبَاةَ فِي ذُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ . فَجَاءُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا : إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ سَمِعُوا ذَلِكَ فَفَعَلُوهُ فَقَالَ : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ { وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ مَرَّاسِيلِ أَبِي صَالِحٍ فَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ لِلْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ عَمِلُوا مِثْلَ عَمَلِ الْفُقَرَاءِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ وَزَادُوا عَلَيْهِمْ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَحْوِهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ . وَتَبَتَ عَنْهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : { يَدْخُلُ فَقْرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ - خَمْسِمِائَةِ عَامٍ - وَفِي رِوَايَةٍ بَارِعِينَ خَرِيفًا { فَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلُ الْفُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَكِلَاهُمَا حَقٌّ ؛ فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَيْسَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يُحَاسِبُ عَلَى قَبْضِهِ وَصَرَفِهِ فَلَا يُؤَخَّرُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِأَجْلِ الْحِسَابِ فَيَسْبِقُ فِي الدُّخُولِ وَهُوَ أَحْوَجُ إِلَى سُرْعَةِ الثَّوَابِ لِمَا فَاتَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ . وَالْغَنِيُّ يُحَاسِبُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا فِي غِنَاهُ غَيْرَ مُسِيءٍ وَهُوَ فَوْقَهُ رُفِعَتْ دَرَجَتُهُ عَلَيْهِ بَعْدَ الدُّخُولِ وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ سَاوَاهُ وَإِنْ كَانَ دُونَهُ نَزَلَ عَنْهُ . وَلَيْسَتْ حَاجَتُهُ إِلَى سُرْعَةِ الثَّوَابِ كَحَاجَةِ الْفَقِيرِ . وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي " حَوْضِهِ " : الَّذِي طَوَّلَهُ شَهْرٌ وَعَرَضَهُ شَهْرٌ : { مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ أَوَّلُ النَّاسِ عَلَيَّ وَرَدًا فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ : الَّذِينَ سَبَقَ ثِيَابًا الشَّعْثَ رُغُوسًا الَّذِينَ لَا يَتَكَبَّرُونَ الْمُتَنَعِمَاتِ وَلَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ الْمُلُوكِ يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ تَخْتَلِجُ فِي صَدْرِهِ لَا يَجِدُ لَهَا قَضَاءً { فَكَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الَّذِي يُزِيلُ مَا حَصَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ اللَّوَاءِ وَالشَّدَّةِ وَهَذَا مَوْضِعُ ضِيَاغَةٍ عَامَّةٍ فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ الْأَشَدُّ جُوعًا فِي الْإِطْعَامِ وَإِنْ كَانَ لِبَعْضِ الْمُسْتَأَخِرِينَ نَوْعٌ إِطْعَامٍ لَيْسَ لِبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ لِاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِنَدْوِهِ عِنْدَهُ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَحُّ مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ وَفِيهَا الْحُكْمُ الْفَصْلُ : إِنَّ الْفُقَرَاءَ لَهُمُ السَّبْقُ وَالْأَغْنِيَاءَ لَهُمُ الْفَضْلُ وَهَذَا قَدْ يَتَرَجَّعُ تَارَةً وَهَذَا كَالسَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بَغَيْرِ حِسَابٍ وَمَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا ؛ وَقَدْ يُحَاسِبُ بَعْدَهُمْ مَنْ إِذَا دَخَلَ رُفِعَتْ دَرَجَتُهُ عَلَيْهِمْ . وَمَا رُوِيَ : { أَنَّ ابْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْوًا { كَلَامٌ مَوْضُوعٌ لَا أَصْلَ لَهُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِأَدَلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ أَهْلُ بَدْرِ ثُمَّ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ وَالْعَشْرَةُ الْمُفَضَّلُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَالْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ

أَفْضَلُ الْأُمَّةِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ أَنَّهُ قَالَ : { أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ } وَثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : { أَحْبَبْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَقَالَتِ الْجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَقَالَتِ النَّارُ : مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالتَّكْبُرُونَ } وَقَوْلُهُ : { وَقَفْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَّةٌ مِنْ يَدْخُلُهَا الْمَسَاكِينُ وَإِذَا أَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ إِلَّا أَهْلُ النَّارِ فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ } هَذَا مَعَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ } . فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِيهَا مَعْنَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْجَنَّةَ دَارُ الْمُتَوَاضِعِينَ الْخَاشِعِينَ لَا دَارُ الْمُتَكَبِّرِينَ الْجَبَّارِينَ سِوَاءَ كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فَقَرَاءَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ { أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ } . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنًا أَفَمِنْ الْكِبَرِ . ذَاكَ فَقَالَ : لَا - إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبَرَ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ } فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّجَمُّلَ فِي اللَّبَاسِ الَّذِي لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْغِنَى وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْكِبَرِ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : فَفَرٌّ مُخْتَالٌ وَشَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ } وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : { لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَنْهَبُ بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ جَبَّارًا وَمَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلُهُ } . فَعَلِمَ بِهِذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ : أَنَّ مِنَ الْفُقَرَاءِ مَنْ يَكُونُ مُخْتَالًا ؛ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ . وَأَنَّ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مَنْ يَكُونُ مُتَجَمِّلًا غَيْرَ مُتَكَبِّرٍ ؛ يُحِبُّ اللَّهُ جَمَالَهُ . مَعَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ } وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ هِرَقْلَ لِبَنِي سُفْيَانَ : أَضْعَفَاءُ النَّاسِ اتَّبَعَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ ؟ قَالَ : بَلْ ضَعْفَاؤُهُمْ . قَالَ : وَهُمْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ قَالُوا لِنُوحٍ : { أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } فَهَذَا فِيهِ أَنَّ أَهْلَ الرَّئَاسَةِ وَالشَّرَفِ يَكُونُونَ أَبْعَدَ عَنِ الْإِقْبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ؛ لِأَنَّ حُجَّتَهُمُ لِلرَّئَاسَةِ يَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ بِخِلَافِ الْمُسْتَضْعِفِينَ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الْمَأْثُورُ - إِنْ كَانَ مَحْفُوظًا - { اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ } فَالْمَسَاكِينُ ضِدُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . وَهُمْ الْخَاشِعُونَ لِلَّهِ . الْمُتَوَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ . سِوَاءَ كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فَقَرَاءَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ : بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَيَبِينَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ يَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ سَيِّدِهِ ؛ لَا لِأَجْلِ حَظِّهِ وَأَمَّا الْمَلِكُ فَيَتَصَرَّفُ لِحَظِّ نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ مَبَاحًا . كَمَا قِيلَ لِسُلَيْمَانَ : { هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ : أَنَّهُ اخْتَارَ الْعُبُودِيَّةَ وَالتَّوَاضُعَ . وَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَعْلَى هُوَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ . كَمَا قَالَ : { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ } وَقَالَ : { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } وَلَمْ يُرِدْ الْعُلُوَّ وَإِنْ كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ . وَقَدْ أُعْطِيَ مَعَ هَذَا مِنَ الْعَطَاءِ مَا لَمْ يُعْطَهُ غَيْرُهُ وَإِنَّمَا يُفَضَّلُ الْغِنَى لِأَجْلِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِلَّا فَذَاتُ مَلِكٍ الْمَالِ لَا يَنْفَعُ بَلْ قَدْ يَضُرُّ وَقَدْ صَبَرَ مَعَ هَذَا مِنَ اللَّأَوَاءِ وَالشَّدَّةِ عَلَى مَا لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فَنَالَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الشَّاكِرِينَ وَأَفْضَلَ مَقَامَاتِ الصَّابِرِينَ وَكَانَ سَابِقًا فِي حَالِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ لَا يَصْلِحُهُ إِلَّا أَحَدُهُمَا كَبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَأُمَمِيهِ . (الْمَعْنَى الثَّانِي أَنَّ الصَّلَاحَ فِي الْفُقَرَاءِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي الْأَغْنِيَاءِ . كَمَا أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْأَغْنِيَاءِ فَهُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ فِي الْفُقَرَاءِ فَهَذَا فِي هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ وَفِي هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ لِأَنَّ فِتْنَةَ الْغِنَى أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ فَالْفَقْرُ فَالْإِسْلَامُ مِنْهَا أَقْلٌ . وَمَنْ سَلِمَ مِنْهَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ سَلِمَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ فَقَطْ ؛ وَلِهَذَا صَارَ النَّاسُ يَطْلُبُونَ الصَّلَاحَ فِي الْفُقَرَاءِ لِأَنَّ الْمِطْنَةَ فِيهِمْ أَكْثَرُ . فَهَذَا هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَلِهَذَا السَّبَبِ صَارَتِ الْمَسْكِنَةُ نَسَبَتُهُ وَكَذَلِكَ لَمَّا رَأَوْا الْمَسْكِنَةَ وَالتَّوَاضُعَ فِي الْفُقَرَاءِ أَكْثَرَ اعْتَقَدُوا أَنَّ التَّوَاضُعَ وَالْمَسْكِنَةَ هُوَ الْفَقْرُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلْ

الْفَقْرُ هُنَا عَدَمُ الْمَالِ وَالْمَسْكَنَةُ خُضُوعُ الْقَلْبِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِيدُ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَقَالَ : بَعْضُ الصَّخَابَةِ أُبْتَلِيْنَا بِالضَّرَاءِ فَصَبَرْنَا وَابْتَلَيْنَا بِالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَاللَّهُ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا } وَلِهَذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْفَقْرُ وَالْغَالِبُ عَلَى الْأَنْصَارِ الْغِنَى وَالْمُهَاجِرُونَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْصَارِ وَكَانَ فِي الْمُهَاجِرِينَ أَغْيَاؤُهُمْ مِنْ أَفْضَلِ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ أَنَّهُمْ بِالْهَجْرَةِ تَرَكُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا صَارُوا بِهِ فَقَرَاءً بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا نَزَاعٌ قَدِيمٌ بَيْنَ الْجَنِيدِ وَبَيْنَ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَطَاءٍ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِيهَا رَوَاتَانِ وَالصَّوَابُ فِي هَذَا كُلُّهُ مَا قَالَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ قَالَ : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { (١) (١٣) سورة الحجرات . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَكْرَمَ النَّاسِ قَالَ : « أَتْقَاهُمْ » . فَقَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ . قَالَ : « فَيُؤَسَفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » . قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ . قَالَ : « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ خِيَارَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا » (٢) .

(١) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا إِخْوَةٌ لِأَمِّ وَأَبٍ ، وَلِذَلِكَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَعْلِيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ إِخْوَتِهِ ، وَلَا أَنْ يُسَيَّءَ إِلَيْهِ ، وَلَا أَنْ يَنْتَقِصَهُ ، وَلَا أَنْ يُغْتَابَهُ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَشَرَ بِالتَّكَاثُرِ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ مُخْتَلِفَةً لِيَتَسَكَّنَ بَعْضُهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ بَعْضٍ ، كَانَ يُقَالُ هَذَا فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ مِنْ قَبِيلَةِ كَذَا مِنْ بَطْنِ كَذَا . وَلَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، وَالتَّقَى هُوَ الْأَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْأَرْفَعُ مَثَلُهُ ، وَلَا قِيَمَةَ فِي مِيزَانِ اللَّهِ لِلْأَمْوَالِ وَالْأَحْسَابِ وَالْأَوْلَادِ ، وَإِنَّمَا الْقِيَمَةُ لِلتَّقَى وَالصَّلَاحِ وَطَهَارَةِ الْقَلْبِ ، وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي مَحَبَّةِ النَّاسِ ، وَالتَّوَضُّعِ لَهُمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّلُورُ ، خَبِيرٌ بِأُمُورِ الْعِبَادِ .
(وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعْظُمَهَا بِأَبَائِهَا ، فَالْتَّاسُ رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَرٌّ نَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَرَجُلٌ فَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى " . ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ .

(٢) - صحيح البخارى (٣٣٥٣) ومسلم (٦٣١١)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ١١٢)
قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَأَصْلُ الْكَرَمِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ، وَقَدْ جَمَعَ يُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، مَعَ شَرَفِ النُّبُوَّةِ ، مَعَ شَرَفِ النَّسَبِ ، وَكَوْنُهُ نَبِيًّا ابْنِ ثَلَاثَةِ أَنْبِيَاءَ مُتَنَاسِلِينَ أَحَدُهُمْ خَلِيلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ شَرَفُ عِلْمِ الرُّوْيَا ، وَتَمَكَّنَ فِيهِ ، وَرِيَاسَةُ الدُّنْيَا ، وَمُلْكُهَا بِالسَّيْرِ الْجَمِيلَةِ ، وَحَيَاطَتُهُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَعُمُومُ نَفْعِهِ إِيَّاهُمْ ، وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْقَاذُهُ إِيَّاهُمْ مِنْ تِلْكَ السَّنِينَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
قَالَ الْعُلَمَاءُ : لَمَّا سِئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ أَخْبَرَ بِأَكْمَلِ الْكَرَمِ وَأَعَمِّهِ ، فَقَالَ : أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَصْلَ الْكَرَمِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ، وَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًّا كَانَ كَثِيرَ الْخَيْرِ وَكَثِيرَ الْفَائِدَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَصَاحِبَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْآخِرَةِ . فَلَمَّا قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ قَالَ : يُوسُفُ الَّذِي جَمَعَ خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى وَشَرَفَهُمَا . فَلَمَّا قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ ، فَهَمَّ عَنْهُمْ أَنْ مُرَادَهُمْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ قَالَ : " خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا " وَمَعْنَاهُ أَنَّ أَصْحَابَ الْمُرُوءَاتِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَسْلَمُوا أَوْ فَقَّهُوا

فَهُمْ خِيَارِ النَّاسِ . قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ فِي الْأَجَوِبَةِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ الْكَرَمَ كُلَّهُ عُمُومُهُ وَخُصُوصُهُ وَمُجْمَلُهُ وَمُبَانُهُ . إِنَّمَا هُوَ الدِّينُ مِنَ التَّقْوَى وَالثَّبُوتِ وَالْإِغْرَاقِ فِيهَا وَالْإِسْلَامَ مَعَ الْفَقْهِ ، وَمَعْنَى مَعَادِنِ الْعَرَبِ أَصُولَهَا وَفُقُوهَا بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَحِكْمِي كَسْرُهَا أَيْ صَارُوا فُقَهَاءَ عَالَمِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْفَقْهِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ . وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ وَلَا لَأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى . كُلُّكُمْ لِبَادِمٍ وَآدَمٍ مِنْ تُرَابٍ } (١) .

وَعَنْهُ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ وَفَاجِرٍ شَقِيٍّ أَتَمَّ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لِيَدْعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَقْبَحِهَا النَّتَنَ » (٢) .

فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَتَقَى لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِذَا اسْتَوَى فِي التَّقْوَى اسْتَوَى فِي الدَّرَجَةِ . وَلَفْظُ " الْفَقْرُ " فِي الشَّرْعِ يُرَادُ بِهِ الْفَقْرُ مِنَ الْمَالِ ، وَيُرَادُ بِهِ فَقْرُ الْمَخْلُوقِ إِلَى خَالِقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (٦٠) سُورَةُ التَّوْبَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } (٣)

(١) - قلت : لم أجده في السنن بل في مسند أحمد (٢٤٢٠٤) عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِن رِبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِن أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبْلَغْتُ » . قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ قَالَ « أَيُّ يَوْمٍ هَذَا » . قَالُوا يَوْمَ حَرَامٍ . ثُمَّ قَالَ « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا » . قَالُوا شَهْرُ حَرَامٍ . قَالَ ثُمَّ قَالَ « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا » . قَالُوا بَلَدُ حَرَامٍ . قَالَ « فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ » . قَالَ وَلَا أَذْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا « كَحَرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبْلَغْتُ » . قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . قَالَ « لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » . وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَآخِرُهُ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ صَحِيحٍ

(٢) - سنن أبي داود (٥١١٨) صحيح

الجعل : جمع الجعل وهو دويبة سوداء كالخنفساء تدير الخراء بأنفها = العيبة : الكبر والفخر وفي تحفة الأحمدي - (ج ٩ / ص ٤٥)

قَالَ الْخَطَّابِيُّ : مَعْنَاهُ أَنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ فَهُوَ الْخَيْرُ الْفَاضِلُ وَإِن لَمْ يَكُنْ حَسِبًا فِي قَوْمِهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ فَهُوَ الدَّنِيءُ وَإِن كَانَ فِي أَهْلِهِ شَرِيفًا رَفِيعًا ، انْتَهَى . وَقِيلَ مَعْنَاهُ : إِنَّ الْمُفْتَخِرَ الْمُتَكَبِّرَ إِنَّمَا مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ فَإِذَا لَمْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ فَهُوَ ذَلِيلٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالذَّلِيلُ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْبِيرَ ، فَالتَّكْبِيرُ مِنْفِي كُلِّ حَالٍ " النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ " أَيْ فَلَا يَلِيْقُ بِمَنْ أَصْلُهُ التُّرَابُ التَّخَوُّعُ وَالتَّجَبُّرُ أَوْ إِذَا كَانَ الْأَصْلُ وَاحِدًا فَالْكُلُّ إِخْوَةٌ فَلَا وَجْهَ لِلتَّكْبِيرِ لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْأُمُورِ عَارِضَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا حَقِيقَةً ، نَعَمْ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَالْخَوْفُ أَوْلَى لِلسَّالِكِ مِنَ الْإِسْتِعَالِ بِهَذِهِ الْمَسَالِكِ .

(٣) - إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الهدى ، ومجاهلتهم ليخرجوا مما هم فيه

من الظلمات الى نور الله وهداه . في حاجة الى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء الخاويج الى الله . وأن الله غني عنهم كل الغنى . وأنهم حين يدعون الى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحمدهم ، وهو الحمد بذاته . وأنهم لا يعجزون الله ولا يعززون عليه فهو إن شاء أن ينهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض ، فإن ذلك عليه يسير . .

الناس في حاجة الى أن يذكروا بهذه الحقيقة ، لتلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله - جل وعلا - يعنى بهم ، ويرسل إليهم الرسل ؛ ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة الى الهدى ، ويخرجوهم من الظلمات الى النور . ويركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم على الله ! وأن هدايتهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى ! والله هو الغني الحميد .

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته ، ويفيض عليهم من رحمته ، ويغمرهم بسابغ فضله - بإرسال رسله إليهم ، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم ، وثباتهم على الدعوة الى الله بعد الإعراض والإيذاء . . إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا رحمة منه وفضلاً وكرماً ومناً . لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته . لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في ملكه شيئاً بعبادتهم ، أو يتقصون من ملكه شيئاً بعبادتهم . ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال ، فيغترف لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يعاد ولا يستبدل . وإن الإنسان ليلهش ويحار في فضل الله ومنه وكرمه ، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر ، الضعيف العاجز ، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل !

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض . والأرض تابع صغير من توابع الشمس . والشمس نجم مما لا عد له ولا حصر من النجوم . والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة - على ضخامتها الهائلة - متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده . وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله ! ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية . . ينشئه ، ويستخلفه في الأرض ، ويهبه كل أدوات الخلافة - سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته - ويضل هذا المخلوق ويتجح حتى يشرك بربه أو ينكره . فيرسل الله إليه الرسل ، رسولاً بعد رسول ، وينزل على الرسل الكتب والخراف . ويطرد فضل الله ويفيض حتى ليتزل في كتابه الأخير للبشر قصصاً يحدث بها الناس ، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم ، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم ، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات ، ومن عجز وضعف ، بل إنه - سبحانه - ليحدث عن فلان وفلان بالذات ، فيقول لهذا: أنت فعلت وأنت تركت ، ويقول لذاك: هاك حالاً لمشكلتك ، وهاك خلاصاً من ضيقتك !

كل ذلك ، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض ، التابعة الصغيرة من توابع الشمس ، التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحس ! والله - سبحانه - هو فاطر السماوات والأرض ، وخالق هذا الوجود بما فيه ومن فيه بكلمة . بمجرد توجه الإرادة . وهو قادر على ان يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجه الإرادة . . والناس خلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته ، وليستحيوا أن يستجيروا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران .

فهي من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية ، الى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة . والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر ، لأن الحقيقة حين تجلى أفعال في النفس ، ولأنه هو الحق والحق نزل . فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يقنع إلا بالحق ، ولا يعرض إلا بالحق ، ولا يشير بغير الحق . في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٣٩٥)

(١٥) سورة فاطر ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ صِنْفَيْنِ مِنَ الْفُقَرَاءِ : أَهْلَ الصَّدَقَاتِ وَأَهْلَ الْفَقْرِ فَقَالَ فِي الصَّنْفِ الْأَوَّلِ : {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (٢٧٣)(١) سورة البقرة ، وَقَالَ فِي الصَّنْفِ الثَّانِي وَهُمْ أَفْضَلُ الصَّنَفَيْنِ : {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (٢)(٨) سورة الحشر . وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا السِّبْطَاتِ وَجَاهَلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَلَا أُخْبِرُكُمْ مِنْ الْمُسْلِمِ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مِنْ أَمْنِهِ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطِيئَاتِ وَالذُّنُوبَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (٣) .

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرَوِيهِ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ { رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ } (٤)

- (١) - اجْعَلُوا مَا تُنْفِقُونَ لِلَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ صِفَاتِهِمُ الْخَمْسَ ، الَّتِي هِيَ أَجَلُ الْأَوْصَافِ قَدْرًا ، وَهِيَ : (الْإِحْصَارُ ، وَالْعِزُّ عَنِ الْكَسْبِ ، وَالتَّعَفُّفُ ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَعَدَمُ سُؤَالِهِمْ شَيْئًا مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ) . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ انْقَطَعُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ وَسِيلَةٌ عَيْشٍ يُنْفِقُونَ مِنْهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَفَرًا لِلْبَحْثِ عَنِ الرِّزْقِ ، وَيَحْسِبُهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ ، وَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ ، أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ مِنْ تَعَفُّفِهِمْ فِي لِبَاسِهِمْ وَحَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ ، وَتَعْرِفُهُمْ بِمَا يَظْهَرُ لِلنَّوِي الْأَلْبَابِ مِنْ صِفَاتِهِمْ : لَا يُلْحَنُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ مِنَ النَّاسِ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .
- وَجَمِيعُ مَا تُنْفِقُونَهُ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهِ ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَوْفَى الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
- (٢) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى حَالَةَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِمَالِ الْفَقْرِ فَيَذْكُرُ أَنَّهُمُ الَّذِينَ اضْطَرَّ لَهُمْ كُفَارُ مَكَّةَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ ، وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ طَلِبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَابْتِغَاءَ ثَوَابِهِ ، وَنُصْرَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ ، الَّذِينَ وَقَفُوا قَوْلَهُمْ مَعَ فِعْلِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ .
- (٣) - مسند أحمد (٢٤٦٨٥ و ٢٤٦٩٤) وهو صحيح لغيره وبعضه في صحيح البخارى (١٠)
- (٤) - وفي كشف الخفاء من الحديث (١٣٦٢) رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب . قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة ، انتهى ،

وأقول الحديث في الإحياء قال العراقي رواه بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: قلمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه، انتهى،

والمشهور على الألسنة رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر دون باقيه ففيه اقتصار، انتهى

وفي تخریج أحاديث الكشف - (ج ٢ / ص ٣٩٥)

٨٢٥ - الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ عَشَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَجَعَ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَقَالَ (رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ) قُلْتُ غَرِيبٌ جَدًّا وَذَكَرَهُ التَّغْلِبِيُّ هَكَذَا مِنْ غَيْرِ سَنَدٍ وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الزَّهْدِ وَهُوَ مُجَلَّدٌ لَطِيفٌ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ مَرْثُومٍ حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ إِبرَاهِيمَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَعْلَى عَنْ كَيْثَ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمٌ غَزَاةً فَقَالَ عَلَيْهِ

السَّلام قدمتم خير مقدم من الجِهَاد الأصغر إلى الجِهَاد الأكبر (قيل وَمَا الجِهَاد الأكبر قَالَ مجاهدة العبد هَوَاهُ) انتهى قَالَ البيهقي هَذَا إِسْنَادٌ فِيهِ ضَعْفٌ انْتَهَى.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الْكُفَى أَخْبَرَنِي حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ الْمُقَدِّسِيُّ سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَبِي عُبَيْلَةَ يَقُولُ لِلْأَنْبَاسِ جَاءُوا مِنَ الْغَزْوِ وَقَدْ جُنْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ فَمَا فَعَلْتُمْ فِي الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ قَالُوا يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ قَالَ جِهَادُ الْقَلْبِ انْتَهَى

وانظر السلسلة الضعيفة (٢٤٦٠)

وفي زاد المعاد - (ج ٣ / ص ٥)

[جِهَادُ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَرَعٌ عَلَى جِهَادِ النَّفْسِ]

وَلَمَّا كَانَ جِهَادُ أَعْدَاءِ اللَّهِ فِي الْخَارِجِ فَرَعًا عَلَى جِهَادِ الْعَبْدِ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ قَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدِّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ وَأَصْلًا لَهُ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا لَتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ وَتَتْرُكَ مَا نُهِيتَ عَنْهُ وَيُحَارِبُهَا فِي اللَّهِ لَمْ يُمَكِّنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ فَكَيْفَ يُمَكِّنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ وَالِاتِّصَافُ مِنْهُ وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ لَمْ يُجَاهِدْهُ وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ بَلْ لَا يُمَكِّنْهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ .

فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْعَالِهِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ (١)؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } (٢)

(١) - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ». أَوْ « أَمِيرٍ جَائِرٍ ». سنن أبي داود (٤٣٤٦) وهو صحيح لغيره
وفي مسند أحمد (١٥١٠٦) عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ سَأَلْتُ جَابِرًا أَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- « أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ عَقَرَ جَوَادُهُ وَأَرِيقَ دَمُهُ ». فَقَالَ جَابِرٌ نَعَمْ. حديث صحيح لغيره

(٢) - قَالَ الْإِسْلَامِيُّ: قَوْلُهُ - تعالى - { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ } . شروع في الحث على الجهاد ليأنفوا عن تركه ، وليرغبوا عما يوجب خلافا فيه . والمراد بالقاعدين : الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم . وروى البخاري عن ابن عباس : هم القاعدون عن بدر وهو الظاهر الموافق للتاريخ على ما قيل . وقال أبو حمزة : إنهم المتخلفون عن تبوك . وروى أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف . وهلال بن أمية من بني واقف حين تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة . وقوله { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ } جملة معترضة جئ بها لبيان أنهم غير مقصودين بعدم المساواة مع المجاهدين في الأجر . والضَّرَرُّ : مصدر ضرر مثل مرض . وهذه الزنة تحجب - غالبا - في العاهات ونحوها ، مثل عمى وحصر وعرج ورمد .

والمراد بقوله { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ } أى : غير أصحاب العلل والأمراض التي تحول بينهم وبين الجهاد في سبيل الله من عمى أو عرج أو ضعف أو غير ذلك من الأعذار .

وقد روى المفسريون في سبب نزول قوله - تعالى - { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ } روايات منها ما أخرجه البخاري عن

البراء قال : لما نزلت { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها جاء ابن أم مكتوب فشكا ضرارته . فأُنزل الله : { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } . وقال القرطبي : روى الأئمة - واللفظ لأبي داود عن زيد بن ثابت قال : كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سرى عنه فقال : " أكتب " فكتبت في كتف - أى في عظم عريض كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم - { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } الآية .

فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال : يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله السكينة فوقعت فخذته على فخذي . ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا زيد . فقرأت : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } الآية كلها . قال زيد : فأنزلها الله وحدها فألحقتها . والذي نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع في كتف . والمعنى : لا يستوى عند الله - تعالى - الذين قعدوا عن الجهاد لإعلاء كلمة الحق دون أن يكون عندهم من الأعذار ما يمنعهم من ذلك ، لا يستوى هؤلاء مع الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . أما الذين قعدوا عن الجهاد لأعذار تمنعهم عن مباشرته ، فإن نيتهم الصادقة سترفع منزلتهم عند الله - تعالى - ، وستجعلهم في مصاف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم أو قريين منهم . ويشهد لذلك ما رواه البخاري وأبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - وهو يسر إلى تبوك : " إن بالمدينة أقواما ما سرتم من سير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة قال : نعم حبسهم العذر " .

قال ابن كثير : وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أوراها
إننا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا

وقوله : { لَا يَسْتَوِي } نفى لاستواء المجاهدين والقاعدين ، والمقصود بهذا النفي التعريض بالمفضول لفريطه وزهده في الخير ، وحض على الاقتداء بمن هو أفضل منه ، إذ من المعروف أن القاعد عن الجهاد لا يساوى المجاهد في الفضل والثواب . فتعين أن يكون المراد بهذا التعبير التعريض بالقاعدين ليتأسوا بالمجاهدين ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله :

فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم ، والبون البعيد ، ليأنف القاعد ويرفع بنفسه عن الخطأ منزله . فيهتز للجهاد ويرغب فيه ، وفي ارتفاع طبقته ، ونحوه : { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } أريد به التحريك من الجهل إلى التعلم . ولينهض الشخص بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم .

وقوله { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من القاعدين .

وفائدة قوله : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } الإيذان من أول الأمر بأن قعودهم عن الجهاد لم يمنعهم عن الوصف بالإيمان ، لأن قعودهم عن الجهاد لم يكن عن نفاق أو عن ضعف في دينهم ، وإنما كان عن تراخ أو اشتغال ببعض الأمور الدنيوية

قال الجمل وقوله : { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزرة وعاصم { غَيْرُ } بالرفع : وقرأ الباقون بالنصب . وقرأ الأعمش بالجر .

فالرفع على وجهين :

أظهر ما أنه على البدل من { القاعدون } . وإنما كان هذا أظهر لأن الكلام نفى والبدل معه أرجح .
والثاني : أنه رفع على أنه صفة لقوله { القاعدون } لأنهم لما لم يكونوا أناساً بأعيانهم بل أريد بهم الجنس أشبهوا النكرة فوصفوا بها .

وأما النصب فعلى : الاستثناء من { القاعدون } وهو الأظهر ، لأنه المحدث عنه . وأما الجر فعلى أنه صفة للمؤمنين

وقوله : { فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى } بيان لمزية المجاهدين على غيرهم .

والمراد بالقاعدين هنا - الذين فعلوا عن الجهاد لسبب مانع من مباشرته أى : فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم من أجل إعزاز دينه ، فضلهم درجة على القاعدين بأعذار ، لأن المجاهدين قد عرضوا أنفسهم للمخاطر والأهوال ، وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله .
والدرجة هنا مستعارة للعلو المعنوي أى أن المراد بها هو الفضل ، ووفرة الأجر وزيادة الثواب . والتتوين فيها للتعظيم .

قال ابن جرير : فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة ، يعنى فضيلة واحدة . وذلك بفضل جهادهم بأنفسهم فأما فيما سوى ذلك فهما مستويان .
وقوله { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى } جملة معترضة جئ بها تاركاً لما عسى أن يورثه تفصيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضل .

أى : وكل واحد من فريقى المجاهدين والقاعدين من أهل الضرر وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم ، وإنما التفاوت في زيادة العمل المتقاضى لمزيد الثواب .
وقوله { كُلًّا } مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لإفادة القصر تأكيداً للوعد وتوينه عوض عن المضاف إليه . وقوله { الحسنى } مفعول ثان .

ثم بين - سبحانه - أنه قد فضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات عظيمة فقال { وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } .

أى : وفضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دون أن يكون هناك عذر يمنعهم عن الجهاد ، فضل الله المجاهدين على هؤلاء القاعدين بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة .
وقوله { أَجْرًا عَظِيمًا } منصوب على النية عن المفعول المطلق المبين للنوع ، لأن الأجر هو ذلك التفضيل . أو على نزاع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم . أو على أنه مفعول ثان بتضمين فضل معنى أعطى أى أعطاهم أجراً تفضيلاً منه .

ثم فصل - سبحانه - هذا الأجر العظيم فقال { دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } .

أى فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين عن الجهاد بغير عذر بالأجر العظيم؛ الذى

يرفعهم عند الله - تعالى - درجات عالية ويقربهم من مقامات قدسه ، ويغفر لهم ما فرط منهم ، ويتغملهم بسابغ رحمته وكان الله كثير الغفران لأوليائه واسع الرحمة بأهل طاعته .

وقوله { دَرَجَاتٍ مِّنْهُ } بدل أو عطف بيان من قوله { أَجْرًا عَظِيمًا } . وقوله { مِّنْهُ } جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات .

ونكرت الدرجات للإشعار بأنها درجات عظيمة لا يحدها الحصر ، ولا يعينها المقدار ، بل هي شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار .

هذا ، وما جرينا عليه من أن المجاهدين يمتازون عن القاعدين بعذر بدرجة ، ويمتازون عن القاعدين بغير عذر بدرجات هو رأى كثير من المفسرين ، وقد عبر عنه صاحب الكشف بقوله : فإن قلت : قد ذكر الله - تعالى - مفضلين درجة ومفضلين درجات فمن هم؟ قلت : أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء .

وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم في التحلف اكتفاء بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية .

ومن المفسرين من يرى أن الذين فضل الله عليهم المجاهدين بدرجة وبدرجات هم صنف واحد ، وهم الذين قعدوا عن الجهاد بدون عذر . أما الذين قعدوا بعذر فهم متساوون في الأجر مع المجاهدين .

وعلى هذا رأى سار الآلوسى في تفسيره فقد قال ما ملخصه : { فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين } في سبيله { بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين } من المؤمنين غير أولى الضرر { دَرَجَةً } لا يقادر قدرها . { وَكُلًّا } أى : كل واحد من الفريقين المجاهدين والقاعدين { وَعَدَ اللَّهُ الحسنى } . وقوله { وَفَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين عَلَى القاعدين } عطف على ما قبله { أَجْرًا عَظِيمًا } .

ثم قال : ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغيرة . وتقبيده تارة بدرجة وتارة بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه . إما لتزليل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيداً لسلوك طريق الإيهام ثم التفسير وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين والدرجة والدرجات . وقد حكى الإمام القرطبى هذين الوجهين فقال : قوله - تعالى - { فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين دَرَجَةً } وقد قال بعد هذا : { دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً } فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغى وبيان وتأکید .

وقيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة . وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات .

والذى نراه أولى من هذين القولين من قال بأن الله - تعالى - فضل المجاهدين على القاعدين بعذر بدرجة ، وفضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات ، وذلك لأن هذا التفسير هو المأثور عن ابن عباس وغيره من الصحابة . فقد قال ابن عباس فى قوله - تعالى - { فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين دَرَجَةً } أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر ولأن القاعدين بعذر وإن كانوا لهم من حسن النية ما يرفع منزلتهم إلا أن المجاهدين الذين باشروا الجهاد وعرضوا أنفسهم لأخطار القتال يفوقونهم منزلة وأجراً .

وهذا ما يقتضيه منطق العقول البشرية ، أما عطاء الله بعد ذلك لكل فريق فمرجه إليه وحده على حسب ما تقتضيه حكمته وسعة رحمته .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن الجهاد من أفضل الأعمال وأن المجاهدين لهم عند الله - تعالى - منازل عالية . ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة مائة درجة أعدتها للمجاهدين في سبيله . بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألت الله فاسأله الفردون فإنه أوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة " .

وبعد أن رفع - سبحانه - من شأن المجاهدين ، وبين حال القاعدين عن الجهاد يعذر أو بغير عذر ، أتبع ذلك ببيان حال القاعدين في دار الكفر بدون هجرة إلى دار الإسلام ، ووعد المهاجرين في سبيل الله بحسن العاقبة فقال - تعالى - : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ . . . غَفُورًا رَحِيمًا } . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ١٠٤١)

(٩٥) سورة النساء، وَقَالَ تَعَالَى : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نِعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) (١) [التوبة/ ١٩، ٢٢] } .

وَبَيَّنَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقَى الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (٢) (١٩) سورة التوبة . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْعِزَّارِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ قَالَ حَدَّثَنِي صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ - وَأَشَارَ إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ - قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: «: الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا » . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ: «: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ: «: ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزِدَّتْهُ لَزَادَنِي (٣)

(١) - نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، حِينَ أُسْرِ بَدْرٌ ، فَقَالَ لَنْ سَبَقْتُمُونَا بِالْإِسْلَامِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ ، لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَنَسْقِي الْحَاجَّ ، وَنَقُتُّ الْعَانِي . فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ قَائِلًا : إِنَّ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ، وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا تَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللَّهِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحُدَّةَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إِلَى الْحَقِّ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَلَا إِلَى الْحُكْمِ الْعَدْلِ فِي أَعْمَالٍ غَيْرِهِمْ .

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، هُمْ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ دَرَجَةً وَمَقَامًا ، وَأَكْثَرُ مَغُوبَةً مِنَ الَّذِينَ عَمَرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَسَقَوْا الْحَاجَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُمْ الْفَائِزُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ .

وهؤلاء يُشْرَهُمْ رَبُّهُمْ فِي كِتَابِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ مَلَائِكَتِهِ حِينَ مَوْتِهِمْ ، بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانٍ ، وَبِأَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِهِ الْوَاسِعَةَ ، وَسَيَقْبَلُونَهَا فِيهَا أَبَدًا فِي نِعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَالرِّضْوَانُ مِنَ اللَّهِ هُوَ نِهَائَةُ الْإِحْسَانِ ، وَأَعْلَى النِّعَمِ ، وَأَكْمَلُ الْجَزَاءِ .

وَسَيَكُونُ هَؤُلَاءِ الْكَرَامُ الْمُخْلَدِينَ فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا وَهَذَا جَزَاءُ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ

الأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ ، وَقَامَ بِمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ . أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حُومِدٍ - (ج ١ / ص ١٢٥٥)

(٢) - صحيح مسلم (٤٩٧٩) وأحمد (١٨٨٦٤)

(٣) - صحيح مسلم (٢٦٤) وصحيح البخاري (٥٢٧)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٢ / ص ٢٩٤)

قَوْلُهُ (أَيْ الْعَمَلُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ) فِي رِوَايَةِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ " أَيْ الْعَمَلُ أَفْضَلُ " وَكَذَا لِأَكْثَرِ الرُّوَاةِ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا اللَّفْظُ هُوَ الْمَسْتُورُ بِهِ فَلَفْظُ حَدِيثِ الْبَابِ مَلْزُومٌ عَنْهُ . وَمَحْصُلُ مَا أَجَابَ بِهِ الْعُلَمَاءُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ مِمَّا اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْجَوَابَةُ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَنَّ الْجَوَابَ اخْتَلَفَ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ بِأَنَّهُ أَعْلَمَ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، أَوْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ رَغْبَةٌ ، أَوْ بِمَا هُوَ لَاقٍ بِهِمْ ، أَوْ كَانَ الْاخْتِلَافُ بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ بِأَنَّهُ يَكُونُ الْعَمَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ ، فَقَدْ كَانَ الْجِهَادُ فِي ابتداءِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ ؛ لِأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا وَالتَّمَكُّنِ مِنْ أَدَائِهَا ، وَقَدْ تَضَاعَفَتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِي وَقْتِ مُوَاسَاةِ الْمُضْطَرِّ تَكُونُ الصَّدَقَةُ أَفْضَلَ ، أَوْ أَنَّ " أَفْضَلَ " لَيْسَتْ عَلَى بَابِهَا بَلْ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْضَلُ الْمُطْلَقُ ، أَوْ الْمُرَادُ مِنَ الْأَفْضَلِ الْأَعْمَالُ فَحُذِفَتْ مِنْ وَهْيِ مُرَادَةٍ . وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : الْأَعْمَالُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْبَدَنِيَّةِ ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ الْإِحْتِرَازَ عَنِ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ " أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ " الْحَدِيثُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : الْمُرَادُ بِالْجِهَادِ هُنَا مَا لَيْسَ بِفَرَضٍ عَيْنٍ ؛ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى إِذْنِ الْوَالِدَيْنِ فَيَكُونُ بَرُّهُمَا مُقَدِّمًا عَلَيْهِ .

قَوْلُهُ (الصَّلَاةُ عَلَى وَفْتِهَا) قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ فِيهِ أَنَّ الْبَدَارَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِهَا أَفْضَلُ مِنَ التَّرَاخِي فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا شَرَطَ فِيهَا أَنْ تَكُونَ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِذَا أُقِيمَتْ لَوْفِهَا الْمُسْتَحَبُّ . قُلْتُ : وَفِي أَخْذِ ذَلِكَ مِنَ اللَّفْظِ الْمَذْكُورِ نَظَرٌ ، قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : لَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَقْتَضِي أَوَّلًا وَلَا آخِرًا وَكَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْإِحْتِرَازَ عَمَّا إِذَا وَقَعَتْ قَضَاءً . وَتُعَقَّبُ بِأَنَّهُ إِخْرَاجُهَا عَنْ وَفْتِهَا مُحَرَّمٌ ، وَلَفْظُ " أَحَبُّ " يَقْتَضِي الْمُشَارَكَةَ فِي الْإِسْتِحْبَابِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْإِحْتِرَازَ عَنْ إِيقَاعِهَا آخِرَ الْوَقْتِ . وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْمُشَارَكَةَ إِذَا هِيَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَإِنْ وَقَعَتْ الصَّلَاةُ فِي وَفْتِهَا كَانَتْ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ ؛ فَوْقَ الْإِحْتِرَازِ عَمَّا إِذَا وَقَعَتْ خَارِجَ وَفْتِهَا مِنْ مَعْدُورٍ كَالنَّائِمِ وَالنَّاسِي فَإِنْ إِخْرَاجُهَا لَهَا عَنْ وَفْتِهَا لَا يُوصَفُ بِالتَّحْرِيمِ وَلَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ مَعَ كَوْنِهِ مَحْبُوبًا لَكِنْ إِيقَاعُهَا فِي الْوَقْتِ أَحَبُّ . قَوْلُهُ (حَدَّثَنِي بِهِ) هُوَ مَقُولُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَفِيهِ تَقْرِيرٌ وَتَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ بَاشَرَ السُّؤَالَ وَسَمِعَ الْجَوَابَ .

قَوْلُهُ (وَلَوْ اسْتَنْزَدْتَهُ) يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مِنْ هَذَا التَّوَعُّعِ وَهُوَ مَرَاتِبُ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مِنْ مُطْلَقِ الْمَسَائِلِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا ، وَزَادَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ الْوَلِيدِ " فَسَكَتَ عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ اسْتَنْزَدْتَهُ لَزَادَنِي " فَكَأَنَّهُ اسْتَشْعَرَ مِنْهُ مَشَقَّةٌ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي رِوَايَةِ لِمُسْلِمٍ " فَمَا تَرَكْتُ أَنْ أَسْتَرِيدَهُ إِلَّا إِرْعَاءً عَلَيْهِ " أَيْ شَفَقَةً عَلَيْهِ لِنَلَا يَسَامُ . وَفِي الْحَدِيثِ فَضْلُ تَعْظِيمِ الْوَالِدَيْنِ ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْبَرِّ يُفْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ . وَفِيهِ السُّؤَالُ عَنْ مَسَائِلَ شَتَّى فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَالرَّفْقُ بِالْعَالِمِ ، وَالتَّوَقُّفُ عَنِ الْإِكْثَارِ عَلَيْهِ خَشْيَةً مَلَالِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنْ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِ الْمُسْتَرْشِدِينَ وَلَوْ شَقَّ عَلَيْهِ . وَفِيهِ أَنَّ الْإِشَارَةَ تَنْزِلُ مَنَزِلَةَ التَّصْرِيحِ إِذَا كَانَتْ مُعَيَّنَةً لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ مُمَيِّزَةً لَهُ عَنْ غَيْرِهِ .

قَالَ ابْنُ بَرِيزَةَ : الَّذِي يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ تَهْدُمُ الْجِهَادِ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ الْبَدَنِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ بَذْلَ النَّفْسِ ، إِلَّا أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى بِرِّ الْوَالِدَيْنِ أَمْرٌ لَزِمَ مُتَكَرِّرٌ دَائِمٌ لَا يَصْبِرُ عَلَى مُرَاقَبَةِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ إِلَّا الصَّادِقُونَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » . قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ « حَجٌّ مُبْرُورٌ » (١) . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ « لَا تَسْتَطِيعُونَهُ » . قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ « لَا تَسْتَطِيعُونَهُ » . وَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » (٢)

(١) - صحيح البخارى (٢٦) ومسلم (٢٥٨)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١ / ص ٤٣)

قَالَ النَّوَوِيُّ : ذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْجِهَادَ بَعْدَ الْإِيْمَانِ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ لَمْ يَذْكُرِ الْحَجَّ وَذَكَرَ الْعَتَقَ ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ بَدَأَ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ الْبِرِّ ثُمَّ الْجِهَادَ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَ السَّلَامَةَ مِنَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : اخْتِلَافُ الْأَجْوِبَةِ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ ، وَاحْتِيَاجِ الْمُخَاطَبِينَ ، وَذَكَرَ مَا لَمْ يَعْلَمُهُ السَّائِلُ وَالسَّامِعُونَ وَتَرَكَ مَا عِلْمُوهُ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ لَفْظَةَ " مِنْ " مُرَادَةً كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ أَغْلَقَ النَّاسَ وَالْمُرَادُ مِنْ أَغْلَقَهُمْ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ " وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ خَيْرَ النَّاسِ ، فَإِنْ قِيلَ لِمَ قَدَّمَ الْجِهَادَ وَلَيْسَ بِرُكْنٍ عَلَى الْحَجِّ وَهُوَ رُكْنٌ ؟ فَأَلْجَوَابُ : أَنَّ نَفْعَ الْحَجِّ قَاصِرٌ غَالِبًا ، وَنَفْعُ الْجِهَادِ مُتَعَدٍّ غَالِبًا ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ حَيْثُ كَانَ الْجِهَادُ فَرَضٌ عَيْنٌ - وَوُقُوعُهُ فَرَضٌ عَيْنٌ إِذْ ذَاكَ مُتَكَرِّرٌ - فَكَانَ أَهَمَّ مِنْهُ فَقُدِّمَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قُلْتُ وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ، قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ » . قُلْتُ فَأَيُّ الرَّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ : « أَغْلَاهَا تَمَنَّا ، وَأَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » . قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ : « تَعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ » . قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ : « تَدْعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ » صحيح البخارى (٢٥١٨) .

الأخرق : الجاهل بما يجب أن يعمل ولم يكن في يديه صنعة يكتسب بها

(٢) - صحيح مسلم (٤٩٧٧) والبخاري (٢٧٨٧)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٦ / ص ٣٥٧)

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عَظِيمُ فَضْلِ الْجِهَادِ ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْقِيَامَ بآيَاتِ اللَّهِ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ ، وَقَدْ جَعَلَ الْمُجَاهِدُ مِثْلَ مَنْ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يَتَنَاقَى لِأَحَدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تَسْتَطِيعُونَهُ " وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي المنقى - شرح الموطأ - (ج ٣ / ص ٢٠)

٨٤٩ - (ش) قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ السَّبِيلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الطَّرِيقُ يَذْكُرُ وَيُؤَيِّتُ وَجَمِيعُ أَعْمَالِ الْبِرِّ هِيَ سَبِيلُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ إِذَا أُطْلِقَتْ فِي الشَّرْعِ اقْتَضَتْ الْعُرُوزَ إِلَى الْعَدُوِّ

وَسُئِلَ مَا لَكَ عَنْ رَجُلٍ أَوْصَى بِمَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ : سُبُّ اللَّهِ كَثِيرَةٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي الْغَزْوِ وَوَجْهَهُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنْ إِطْلَاقَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَظْهَرَ فِي الْغَزْوِ وَتَمْثِيلُهُ الْمُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالصَّائِمِ الْقَائِمِ يُرِيدُ فِي عَظَمِ ثَوَابِهِ وَكَثْرَتِهِ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِثْلَ ثَوَابِ الْمُسْتَدِيمِ لِلْقِيَامِ وَالصِّيَامِ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمَا وَإِنَّمَا أَحَالَ عَلَى ثَوَابِ الصَّائِمِ وَالْقَائِمِ وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ مِقْدَارَهُ لِمَا قَرَّرَ الشَّرْعُ مِنْ كَثْرَتِهِ وَعَرَفَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَالْمُرَادُ بِالْقَائِمِ هَهُنَا الْمُصَلِّي يُقَالُ فُلَانٌ يَقُومُ بِاللَّيْلِ إِذَا كَانَ يُصَلِّي فِيهِ .

(فَصْلٌ) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتَرُ مِنْ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ حَتَّى يَرْجِعَ يُرِيدُ أَنَّ حَالَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ مِثْلُ أَجْرِ هَذَا لِأَنَّ جَمِيعَ تَصَرُّفِ الْمُجَاهِدِ وَأَكْلِهِ وَنَوْمِهِ وَعَفْلَتِهِ يُمِثِّلُ ثَوَابَهُ ثَوَابَ الَّذِي يَقْرُنُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ذَلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فَقَالَ : لَا أَجِدُ هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ تُصَلِّيَ لَا تَفْتَرُ وَتَصُومُ لَا تُفْطِرُ قَالَ : مَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ .

وَفِي السُّنَنِ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي . قَالَ « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ » أَوْ « أَيْنَمَا كُنْتَ » . قَالَ زِدْنِي . قَالَ « اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » . قَالَ زِدْنِي . قَالَ « خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » (١)

(١) - مسند أحمد (٢٢٧٠٩) وهذا لفظه وسنن الترمذى (٢١١٥)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » . وَهُوَ صَحِيحٌ لغيره

وفي تحفة الأحوذى - (ج ٥ / ص ٢٢٩)

قَوْلُهُ : (اتَّقِ اللَّهَ) أَيِ بِالْإِتْيَانِ بِجَمِيعِ الْوُجِبَاتِ وَالْإِنْتِهَاءِ عَنْ سَائِرِ الْمُنْكَرَاتِ ، فَإِنَّ التَّقْوَى أَسَاسُ الدِّينِ وَبِهِ يَرْتَقِي إِلَى مَرَاتِبِ الْيَقِينِ

(حَيْثُ مَا كُنْتَ) أَيِ فِي الْخَلَاءِ وَفِي النِّعْمَاءِ وَالْبَلَاءِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِسِرِّ أَمْرِكَ كَمَا أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى ظَوَاهِرِكَ ، فَعَلَيْكَ بِرِعَايَةِ ذِقَاتِ الْأَدَبِ فِي حِفْظِ أَوْامِرِهِ وَمَرَاذِيهِ ، وَالْإِحْتِرَازِ عَنْ مَسَاحِطِهِ وَمَسَاوِيهِ { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }

(وَأَتَّبِعِ) أَمْرٌ مِنْ بَابِ الْإِفْعَالِ وَهُوَ مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ

(السَّيِّئَةُ) الصَّادِرَةُ مِنْ صَغِيرَةٍ وَكَذَا كَبِيرَةٍ عَلَى مَا شَهِدَ بِهِ عُمُومُ الْخَبَرِ وَجَرَى عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ لَكِنْ خَصَّهُ الْجُمُهورُ بِالصَّغَائِرِ

(الْحَسَنَةُ) صَلَاةٌ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ اسْتِغْفَارٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ

(تَمْحُهَا) أَيِ تَذْفَعُ الْحَسَنَةُ السَّيِّئَةَ وَتَرْفَعُهَا ، وَالْإِسْنَادُ مَجَازِيٌّ ، وَالْمُرَادُ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا آثَارَهَا مِنَ الْقَلْبِ أَوْ مِنْ دِيوَانِ الْحَفْظَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرَضَ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ فَالْحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

(وَخَالِقِ النَّاسَ) أَمْرٌ مِنَ الْمُخَالَفَةِ مَا خُوذَ مِنَ الْخُلُقِ مَعَ الْخُلُقِ أَيِ خَالِطُهُمْ وَعَامِلُهُمْ

(بِخُلُقٍ حَسَنٍ) أَيِ تَكَلَّفَ مُعَاشَرَتَهُمْ بِالْمُجَامَلَةِ فِي الْمُعَامَلَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ نَحْوِ طَلَاقَةِ وَجْهِ ، وَخَفَضِ جَانِبِ ، وَتَلَطُّفِ وَإِنْسَانِيَّةٍ ، وَبَذْلِ نَدَى ، وَتَحَمُّلِ أَذَى ، فَإِنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ يُرْجَى لَهُ فِي الدُّنْيَا الْفَلَاحُ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْفَوْزُ بِالنَّجَاةِ وَالنَّجَاحِ .

فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتنمة الخمسين - (ج ١ / ص ٥٩)

١ — هذا الحديث اشتمل بجملة الثلاث على ما هو مطلوب من المسلم لرّبه ولنفسه ولغيره.
٢ — قوله: ((اتق الله حيثما كنت))، أصل التقوى في اللغة: أن يجعل بينه وبين الذي يخافه وقاية تقيه منه، مثل اتخاذ النعال والخفاف للوقاية مما يكون في الأرض من ضرر، وكأخذ البيوت والحيام لتقاء حرارة الشمس، ونحو ذلك، والتقوى في الشرع: أن يجعل الإنسان بينه وبين غضب الله وقاية تقيه منه، وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات، وتصديق الأخبار، وعبادة الله وفقاً للشرع، لا بالبدع والمحدثات، وتقوى الله مطلوبة في جميع الأحوال والأماكن والأزمنة، فيتقي الله في السر والعلن، وبروزه للناس واستتاره عنهم، كما جاء في هذا الحديث: ((اتق الله حيثما كنت)).

٣ — قوله: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))، عندما يفعل المرء سيئة فإنه يتوب منها، والتوبة حسنة، وهي تجب ما قبلها من الكبائر والصغائر، ويكون أيضاً بفعل الحسنات، فإنها تمحو الصغائر، وأما الكبائر فلا يمحوها إلا التوبة منها.

٤ — قوله: ((وخالق الناس بخلق حسن))، فإنه مطلوب من الإنسان أن يعامل الناس جميعاً معاملة حسنة، فيعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به؛ لقوله *: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، وقوله *: ((فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه))، فقد وصف الله نبيه * بأنه على خلق عظيم، وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن خلقه * القرآن، رواه مسلم (٧٤٦)، أي: أنه يقوم بتطبيق ما فيه، وجاء في السنة أحاديث كثيرة تدل على فضل حسن الخلق، وتحث على التخلق بالأخلاق الحسنة، وتحذر من الأخلاق السيئة.

٥ — مما يستفاد من الحديث:

١ — كمال نصح الرسول صلى الله عليه وسلم لأئمته، ومن ذلك ما اشتمل عليه هذا الحديث من هذه الوصايا الثلاث العظيمة الجامعة.

٢ — الأمر بتقوى الله في جميع الأحوال والأمكنة والأزمنة.

٣ — الحث على إتباع السيئات بالحسنات.

٤ — أن الحسنات تمحو السيئات.

٥ — الحث على مخالقة الناس بالأخلاق الحسنة.

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ١ / ص ٣٠١)

هذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية للمؤلف رحمه الله وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بثلاث وصايا عظيمة الوصية الأولى قال اتق الله حيثما كنت وتقوى الله هي اجتناب المحرم وفعل الأوامر هذه هي التقوى أن تفعل ما أمرك الله به وإخلاصاً لله واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تترك ما نهى الله عنه امتثالاً لنهي الله عز وجل وتنزهاً عن محارم الله مثاله تقوم بما أوجب الله عليك في أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي الصلاة فتأتي بها كلمة بشروطها وأركانها وواجباتها وتكملها بالمكملات فمن أخل بشيء من شروط الصلاة أو واجباتها فإنه لم يتق الله بل نقص من تقواه ما نقص من المأمور في الزكاة تقوى الله فيها أن تحصى جميع أموالك التي فيها الزكاة وتخرج زكاتها طيبة بما ففسك من غير بخل ولا تقتير ولا تأخير فمن لم يفعل فإنه لم يتق الله في الصيام تأتي بالصوم كما أمرت مجتنباً فيه اللغو والرفث والصخب والغيبة والنميمة وغير ذلك مما ينقص الصوم ويزيل روح

الصوم ومعناه الحقيقي وهو الصوم عما حرم الله عز وجل وهكذا بقية الواجبات تقوم بها طاعة لله وامتناناً لأمره وإخلاصاً له واتباعاً لرسوله وكذلك في المنهيات تترك ما نهى الله عنه امتثالاً لنهي الله عز وجل حيث هناك فانتهي الوصية الثانية أتبع السيئة الحسنة تمحها أي إذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة فإن الحسنات يذهبن السيئات ومن الحسنات بعد السيئات أن تتوب إلى الله من السيئات فإن التوبة من أفضل الحسنات كما قال الله عز وجل إن الله يحب التوابين ويحب المطهرين وقال الله تعالى { وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون } وكذلك الأعمال الصالحة تكفر السيئات كما ما قال النبي عليه الصلاة والسلام الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وقال العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما فالحسنات يذهبن السيئات الوصية الثالثة خالق الناس بخلق حسن والوصيتان الأوليان في معاملة الخالق والثالثة في معاملة الخلق أن تعاملهم بخلق حسن تحمد عليه ولا تدم فيه وذلك بطلاقة الوجه وصدق القول وحسن المخاطبة وغير ذلك من الأخلاق الحسنة وقد جاءت النصوص الكثيرة في فضل الخلق الحسن حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأخبر أن أولى الناس به صلى الله عليه وسلم وأقربهم منه منزلة يوم القيامة أحسنهم أخلاقاً فالأخلاق الحسنة مع كونها مسلماً حسناً في المجتمع ويكون صاحبها محبوباً إلى الناس هي فيها أجر عظيم يناله الإنسان في يوم القيامة فاحفظ هذه الوصايا الثلاث من النبي صلى الله عليه وسلم والله الموفق وقد شرح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الحديث في م مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٦٥٣) فما بعد

، . وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ». فَقَالَ «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» (١)

(١) - سنن أبي داود (١٥٢٤) صحيح
قَالَ صَاحِبُ عَوْنِ الْمَعْبُودِ (ج ٣ / ص ٤٤٧):
(أَخَذَ بِيَدِهِ) : كَأَنَّهُ عَقَدَ مَحَبَّةً وَبَيْعَةً مَوَدَّةً
(وَاللَّهُ إِنِّي لأُحِبُّكَ) : لَأَمُّهُ لِلْبَيْتِ دَاءٍ وَقِيلَ لِلْقَسَمِ وَفِيهِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَحَدًا يُسْتَحَبُّ لَهُ إِظْهَارُ الْمَحَبَّةِ لَهُ
(فَقَالَ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ) : إِذَا أَرَدْتَ ثَبَاتَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ فَلَا تَتْرُكَنَّ
(فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ) : أَيَّ عَقِبِهَا وَخَلْفَهَا أَوْ فِي آخِرِهَا
(تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ) : مِنْ طَاعَةِ اللِّسَانِ
(وَشُكْرِكَ) : مِنْ طَاعَةِ الْجَنَانِ
(وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) : مِنْ طَاعَةِ الْأَرْكَانِ . قَالَ الطَّبَّيُّ : ذَكَرَ اللَّهُ مُقَدِّمَةً إِنْشِرَاحَ الصَّدْرِ ، وَشُكْرُهُ وَسِيلَةَ النَّعْمِ الْمُسْتَجَابَةِ ، وَحُسْنِ الشَّهَادَةِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ التَّجَرُّدُ عَمَّا يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ النَّوَوِيُّ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ ذَكَرَهُ فِي الْمِرْقَاةِ

وفي شرح بلوغ المرام - (ج ٧٠ / ص ٣)
قول الرسول صلى الله عليه وسلم له: (إني أحبك) ويكفي ذلك فضلاً لـ معاذ أن الرسول يحبه، وكما جاء في مثل هذا المعنى في غزوة خيبر لما استعصى حصن مرحب ، ورجعوا متأثرين، فقال صلى الله عليه وسلم: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يقول عمر : فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، ويقول عمر

وهو محل الشاهد: والله! ما تطلعت نفسي لرئاسة ولا لإمارة إلا تلك الليلة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ويحبه الله (ورسوله)؛ لأن هذا ليس بالأمر الهين، ومع هذه الحجة يقول له: (أريد أن أوصيك)، فهو أعلن من جانبه أيضاً: (وأنا والله يا رسول الله أحبك)، وكون معاذ يجب رسول الله هذا أمر واجب، (والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين) { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا } [التوبة: ٢٤]، ولا ينبغي أبداً أن يقدم محبة مخلوق عرضاً كان أو أصلاً، إنساناً أو مالا؛ على محبة رسول الله؛ لأن محبة رسول الله هي معيار الإيمان.

طلب العون من الله للعبد في العبادة

قال: (أوصني، قال: أوصيك إن استطعت -يعني بقدر ما تستطيع- ألا تدع -بمعنى: لا تترك- أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني) تطلب العون من الله على ماذا؟ (أعني على ذكرك وشركك وحسن عبادتك). المتأمل في أكثر الأدعية والأذكار الواردة عقب الصلوات يجدها مرتبطة بجزئيات في صلاته، فالتسبيح والتحميد والتكبير، والاستعاذة من النار ومن عذاب القبر ومن فتنة ومن ومن، وكذلك افتتاحية صلاتك بالفاتحة، ففي سورة الفاتحة: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة: ٥]، (أعني على) بمعنى الاستعانة، استعن بالله على ذكره، إياك نعبد، فهي جزء من الصلاة في الفاتحة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }، وما لم يكن هناك عون من الله للإنسان على طاعته وعبادته فليست هناك فائدة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول عن معصية، ولا قوة على طاعة إلا بالله سبحانه.

(أعني على ذكرك) والصلاة من الذكر، أي: استعن بالله على الحفاظ على الصلاة، والصلاة عون هي بذاتها، قال الله: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } [البقرة: ٤٥].

(وعلى شكرك) شكر النعم بحسبها: تكون بالقول، وبالفعل، وبالقلب، وكما يقال: شكر النعمة عامل دوامها وحفظها، وبشكرها تدوم.

الوسطية في العبادة

وقوله: (وحسن عبادتك) ولم يقل: وكثرة؛ لأن الكثرة قد تكون كغشاء السيل، وكما في الحديث: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقيامكم مع قيامهم، لم يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)، والمولى سبحانه يقول: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [المالك: ٢]، ليس أكثر، فالنتيجة ليست بالكثرة، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كره الكثرة؛ لأنها قد تؤدي إلى الملل ثم العجز.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُوْخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ». قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ». قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ». قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ « هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ». قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ « هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ لِلَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « أَنْ لَا يَعْدُبَهُمْ ». (١)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ١٠٥)

قَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مُتَحَقِّقٌ أَوْ مَا سُبُوحُ دَلَا مَحَالَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْحَقُّ الْمَوْجُودُ الْأَزَلِيُّ الْبَاقِي الْأَبَدِيُّ وَالْمَوْتُ وَالسَّاعَةُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَقٌّ لَأَنَّهَا وَقِيعَةٌ لَا مَحَالَةَ وَإِذَا قِيلَ لِلْكَلَامِ الصِّدْقُ حَقٌّ فَمَعْنَاهُ أَنَّ الشَّيْءَ الْمُنْخَبِرَ عَنْهُ بِذَلِكَ الْخَبَرِ وَاقِعٌ مُتَحَقِّقٌ لَا تَرَدُّدٌ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ الْحَقُّ الْمُسْتَحَقُّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَرَدُّدٌ وَتَحْيِيرٌ . فَحَقَّقَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ مَعْنَاهُ مَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ مُتَحْتَمًّا عَلَيْهِمْ وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُتَحَقِّقٌ لَا مَحَالَةَ . هَذَا كَلَامُ صَاحِبِ التَّحْرِيرِ وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّمَا قَالَ حَقَّهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ الْمُقَابَلَةِ لِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ حَقِّكَ وَاجِبٌ عَلَيَّ أَيْ مُتَأَكِّدٌ قِيَامِي بِهِ . وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ " . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٣٣٩)

قَوْلُهُ (أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ عَمَلُ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَعَطْفٌ عَلَيْهَا عَدَمُ الشَّرِكِ لِأَنَّهُ تَمَامُ التَّوْحِيدِ ، وَالْحِكْمَةُ فِي عَطْفِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ أَنَّ بَعْضَ الْكَفَرَةِ كَانُوا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ إِلَهَةً أُخْرَى فَاشْتَرَطَ نَفْيَ ذَلِكَ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْجُمْلَةَ حَالِيَّةٌ وَالتَّعْدِيرُ يَعْبُلُونَهُ فِي حَالِ عَدَمِ الْإِشْرَاقِ بِهِ . قَالَ ابْنُ حِبَّانَ : عِبَادَةُ اللَّهِ إِفْرَارٌ بِاللَّسَانِ وَتَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْجَوَابِ " فَمَا حَقُّ الْعِبَادِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ " فَعَبَّرَ بِالْفِعْلِ وَلَمْ يُعَبِّرْ بِالْقَوْلِ . قَوْلُهُ (هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ) ؟ الضَّمِيرُ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ " يَعْبُلُونَهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا " فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ " إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ " .

قَوْلُهُ (حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) فِي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ " أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ وَلَا يُعَذِّبَهُمْ " وَفِي رِوَايَةِ أَبِي عَثْمَانَ " يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ " وَفِي رِوَايَةِ أَبِي الْعَوَّامِ مِثْلُهُ وَزَادَ " وَيَغْفِرُ لَهُمْ " وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غُنَمٍ " أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ " قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَحَقُّ ذَلِكَ وَوَجِبَ بِحُكْمِ وَعْدِهِ الصِّدْقُ ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ فِي الْخَبَرِ وَلَا الْخُلْفُ فِي الْوَعْدِ ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بِحُكْمِ الْأَمْرِ إِذْ لَا أَمْرَ فَوْقَهُ وَلَا حُكْمَ لِلْعَقْلِ لِأَنَّهُ كَاشِفٌ لَا مُوجِبٌ انْتَهَى . وَتَمَسَّكَ بِبَعْضِ الْمُعْتَرِ لَةِ بَظَاهِرِهِ . وَلَا تَمْتَسَّكَ لَهُمْ فِيهِ مَعَ قِيَامِ الْإِحْتِمَالِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْعِلْمِ عِدَّةُ أَجَوِبَةٍ غَيْرِ هَذِهِ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ هُنَا الْمُتَحَقِّقُ الثَّابِتُ أَوْ الْجَدِيرُ ، لِأَنَّ إِحْسَانَ الرَّبِّ لِمَنْ لَمْ يَتَّخِذْ رَبًّا سِوَاهُ جَدِيرٌ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُ ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ كَانُوا جَابِ فِي تَحَقُّقِهِ وَتَأَكُّدِهِ ، أَوْ ذَكَرَ عَلَى سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ . قَالَ : وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ رُكُوبِ اثْنَيْنِ عَلَى حِمَارٍ ، وَفِيهِ تَوَاضُعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفَضْلُ مُعَاذٍ وَحُسْنُ أَدَبِهِ فِي الْقَوْلِ وَفِي الْعِلْمِ بَرْدِهِ لِمَا لَمْ يُحِطْ بِحَقِيقَتِهِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَقُرْبُ مَنْزِلَتِهِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ تَكَرُّارُ الْكَلَامِ لِتَأْكِيدِهِ وَتَفْهِيمِهِ ، وَاسْتِفْسَارِ الشَّيْخِ تَلْمِيذَهُ عَنِ الْحُكْمِ لِيُخْتَبَرَ مَا عِنْدَهُ وَيُبَيَّنَ لَهُ مَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ مِنْهُ . وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي شَرْحِهِ لِلْوَائِلِ الْبُخَارِيِّ : قَالَ الْعُلَمَاءُ يُؤْخَذُ مِنْ مَنْعِ مُعَاذٍ مِنْ تَبَشِيرِ النَّاسِ لِنَلَّا يَتَّكِلُوا أَنَّ أَحَادِيثَ الرُّخَصِ لَا تُشَاعُ فِي عُمُومِ النَّاسِ لِنَلَّا يَقْصُرَ فَهْمُهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِهَا ، وَقَدْ سَمِعَهَا مُعَاذٌ فَلَمْ يَزِدْ إِلَّا اجْتِهَادًا فِي الْعَمَلِ وَخَشْيَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ فَلَا يُؤْمِنُ أَنْ يَقْصُرَ اتِّكَالًا عَلَى ظَاهِرِ هَذَا الْخَبَرِ ، وَقَدْ عَارَضَهُ مَا تَوَاتَرَ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ بَعْضَ عَصَاةِ الْمُؤَحِّدِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، فَعَلَى هَذَا فَيَجِبُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُمُورِ ، وَقَدْ سَلَكَوا فِي ذَلِكَ مَسَالِكَ : أَحَدُهَا قَوْلُ الرَّهْزَرِيِّ إِنَّ هَذِهِ الرُّخْصَةَ كَانَتْ قَبْلَ نُزُولِ الْفَرَائِضِ وَالْحُدُودِ ، وَسَيَّاتِي ذَلِكَ عَنْهُ فِي حَدِيثِ عَثْمَانَ فِي الْوُضُوءِ ، وَاسْتَبْعَدَهُ غَيْرُهُ مِنْ أَنَّ النَّسْخَ لَا يَدْخُلُ الْخَبَرَ ، وَبِأَنَّ سَمَاعَ

مُعَاذُ لِهَذِهِ كَانَ مُتَأَخِّرًا عَنْ أَكْثَرِ نُزُولِ الْفَرَائِضِ . وَقِيلَ لَا نَسْخَ بَلْ هُوَ عَلَى عُمُومِهِ ، وَلَكِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِشَرَائِطَ كَمَا تَرْتَّبُ الْأَحْكَامُ عَلَى أَسْبَابِهَا الْمُقْتَضِيَةِ الْمُتَوَقَّفَةِ عَلَى انْتِفَاءِ الْمَوَانِعِ ، فَإِذَا تَكَامَلَ ذَلِكَ عَمِلَ الْمُقْتَضِي عَمَلُهُ ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ بِقَوْلِهِ الْمُتَقَدِّمُ فِي كِتَابِ الْجَنَائِزِ فِي شَرْحِ " أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ " : لَيْسَ مِنْ مِفْتَاحٍ إِلَّا وَلَهُ أَسْنَانٌ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ تَرْكُ دُخُولِ نَارِ الشَّرِّكَ ، وَقِيلَ تَرْكُ تَعَذِيبِ جَمِيعِ بَدَنِ الْمُوَحِّدِينَ لِأَنَّ النَّارَ لَا تَحْرُقُ مَوَاضِعَ السُّجُودِ ، وَقِيلَ لَيْسَ ذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ وَحَّدَ وَعَبَدَ بَلْ يَخْتَصُّ بِمَنْ أَخْلَصَ ، وَالْإِخْلَاصُ يُقْتَضِي تَحْقِيقَ الْقَلْبِ بِمَعْنَاهَا ، وَلَا يَتَصَوَّرُ حُصُولُ التَّحْقِيقِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ لِامْتِلَاءِ الْقَلْبِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَتِهِ فَتَنْبَعِثُ الْجَوَارِحُ إِلَى الطَّاعَةِ وَتَنْكَفُ عَنْ الْمَعْصِيَةِ . انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَفِي آخِرِ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْ مُعَاذٍ فِي نَحْوِ هَذَا الْحَدِيثِ " فَقُلْتُ أَلَا أَخْبِرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : لَا لِنَلَّا يَتَكَلَّمُوا ، فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْنِيًا . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ . قَالَ : « لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعَبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ » . ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَذْكَكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جَنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ » . قَالَ ثُمَّ تَلَا { تَتَجَلَّى جُودُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) } سُورَةُ السَّجْدَةِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ » . قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ » . ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ » . قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قَالَ فَآخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ : « كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا » . فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « تَكَلَّمْتُ أَمَّا يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ أَوْ عَلَى مَتَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » . (١)

(١) - سنن الترمذی (٢٨٢٥) صحيح لغيره

وفي فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتنمة الخمسين - (ج ١ / ص ١٠١)

١ - قوله : "قلت : يا رسول الله ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار" يدل على حرص الصحابة على الخير ومعرفة الأعمال التي بها حصول الجنة والسلامة من النار ، ويدل على وجود الجنة والنار ، وأن أولياء الله يعملون الصالحات ليظفروا بالجنة ويسلموا من النار ، وهذا بخلاف ما يقوله بعض الصوفية أنهم لا يعبدون الله رغبة في جنته ولا خوفاً من ناره ، وهو باطل ؛ لحرص الصحابة على معرفة الأعمال الموصلة إلى الجنة والمباعدة من النار ، وقد قال الله عن خليله : { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } ، ويدل أيضاً على أن الأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة ، وقد جاء في ذلك آيات كثيرة ، منها قول الله عز وجل : { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، وقوله : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَاؤُا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، وذلك لا يُنافي ما جاء في الحديث : " لن يدخل أحدكم بعمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمَّدني الله برحمته منه " رواه البخاري (٦٤٦٣) ، ومسلم (٢٨١٦) ، فإن الباء في الحديث للمعاوضة ، وفي الآيات للسببية ، ودخول الجنات ليس عوضاً عن الأعمال ، وإنما الأعمال الصالحة أسباب لها ، والله

عَزَّ وَجَلَّ تَفَضَّلَ بالتوفيق للسبب، وهو العمل الصالح، وتَفَضَّلَ بالجزاء الذي هو دخول الجنة، فرجع الفضل في السبب والمسبب إلى الله سبحانه وتعالى.

٢ قوله: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على مَنْ يسره الله تعالى عليه"، فيه بيان عظيم منزلة هذا السؤال وأهميته والتشجيع على مثله؛ حيث وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المسعول عنه فيه بأنه عظيم، ومع عظمه ومشقة الإتيان به فقد أتبعه النبي صلى الله عليه وسلم بما يبين سهولته ويسره على مَنْ يسره الله عليه، وهو يدل على أن المسلم يصبر على الطاعات ولو شقت على النفوس؛ لأن عاقبة الصبر حميدة، وقد قال الله عز وجل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}، وقال صلى الله عليه وسلم: "حُفَّتْ الجنة بالكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات" رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢).

٣ قوله: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت"، بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أهم شيء يتقرب به إلى الله ويحصل به الظفر بالجنة والسلامة من النار أداء القرائن، وهي في هذا الحديث أركان الإسلام الخمسة التي جاءت في حديث جبريل وحديث ابن عمر: "بني الإسلام على خمس"، وقد جاء في الحديث القدسي: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه"، وقوله: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً" مشتمل على بيان حق الله، وهو إخلاص العبادة لله، ويدخل في ذلك شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأن عبادة الله لا تُعرف إلا بتصديقه صلى الله عليه وسلم، والعمل بما جاء به، وكلُّ عمل يتقرب به إلى الله لا ينفع صاحبه إلا إذا كان خالصاً لله ومبنياً على اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشهادتان متلازمتان، لا بدَّ مع شهادة أن لا إله إلا الله من شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت في الحديث هذه الأركان مرتبة حسب أهميتها، وقُدِّمت الصلاة لكونها صلة وثيقة بين العبد وبين ربه؛ لتكرُّرها في اليوم والليلة خمس مرات، وذكر بعدها الزكاة؛ لأنها لا تأتي في العام إلا مرة واحدة، ونفعها يحصل لدافع الزكاة والمدفوعة إليه، ثم بعد ذلك الصيام؛ لتكرُّره في كل عام، وبعده الحج؛ لأنه لا يجب في العمر إلا مرة واحدة.

٤ قوله: "ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: {تَنجَلِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، "حتى بلغ {يَعْلَمُونَ} لَمَّا بين صلى الله عليه وسلم القرائن التي هي سبب في دخول الجنة والسلامة من النار، أرشد صلى الله عليه وسلم إلى جملة من النوافل التي يحصل للمسلم بها زيادة الإيمان وزيادة الثواب وتكفير الذنوب، وهي الصدقة والصيام وقيام الليل، وقال عن الصوم: "الصوم جنة"، والجنة هي الوقاية، والصوم وقاية في الدنيا والآخرة، فهو وقاية في الدنيا من الوقوع في المعاصي، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أحسن للفرج وأغض للبصر، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء" رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠)، وهو وقاية في الآخرة من دخول النار، وقد جاء في الحديث: "من صام يوماً في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً" رواه البخاري (٢٨٤٠).

وقوله: "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار"، فيه بيان عظم شأن الصدقة النافلة، وأن الله تعالى يحطُّ بها الخطايا ويطفئها بها كما يطفئ الماء النار، والخطايا هي الصغائر، وكذلك الكبائر مع التوبة منها، وتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم إطفاء الصدقة للخطايا بإطفاء الماء النار يدل على زوال الخطايا كلها؛ فإن المشاهد في الماء إذا وقع على النار أنه يزيلها حتى لا يبقى لها وجود.

وقوله: "وصلاة الرجل في جوف الليل" هذا هو الأمر الثالث من أبواب الخير، التي يتقرب إلى الله عز وجل بها، وقد

تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قوله تعالى: {تَسْجَأْنَ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل، رواه مسلم (١١٦٣)، وقد مهّد النبي صلى الله عليه وسلم لبيان أبواب الخير هذه بالاستفهام، وذلك في قوله لمعاذ: "ألا أدلك على أبواب الخير؟" ؛ لما في ذلك من لفت نظر معاذ إلى أهميّة ما يُلقَى عليه، ليتهيأ لذلك ويستعدّ لوعي كلّ ما يُلقَى عليه.

٥ قوله: "ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد" ، المراد بالأمر الشأن الذي هو أعظم الشؤون، وهو الدين الذي بُعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأسه الإسلام وهو عام، يشمل الصلاة والجهاد وغيرهما، وقد ذكر الصلاة ووصفها بأنها عمود الإسلام، شبه ذلك بالبناء الذي يقوم على أعمدته، وهي أهمّ العبادات البدنية القاصر نفعها على صاحبها، ثم ذكر الجهاد الذي يشمل جهاد النفس وجهاد الأعداء من كفّار ومنافقين، ووصفه بأنه ذروة سنام الإسلام؛ وذلك أن في الجهاد قوّة المسلمين وظهور دينهم وعلوّه على غيره من الأديان.

٦ قوله: "ألا أخبرك بملاك ذلك كلّ؟ قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، ثم قال: كُفَّ عليك هذا، قلت: يا نبيّ الله! وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ فقال: ثكلتك أمك! وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!" ، في هذا بيان خطر اللسان، وأتته الذي يوقع في المهالك، وأنّ ملاك الخير في حفظه، حتى لا يصدر منه إلا ما هو خير، كما قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لُحْيَيْهِ وَرَجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ" رواه البخاري (٦٤٧٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَانَ يَوْمَ الْآخِرِ فُلَيْقِلْ خَيْرًا أَوْ لَيْصَمْتُ" ، قال ابن رجب في شرح هذا الحديث في جامع العلوم والحكم (١٤٦/٢): "هذا يدلّ على أنّ كَفَّ اللسان وضبطه وحسّه هو أصلُ الخير كلّ، وأنّ مَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ فَقَدْ مَلَكَ أَمْرَهُ وَأَحْكَمَهُ وَضَبَطَهُ"، وقال: "والمرادُ بحصائد الألسنة جزاء الكلامِ الخرم وعقوباته، فإنّ الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيّئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمَنْ زَرَعَ خَيْرًا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ حَصَدَ الْكَرَامَةَ، وَمَنْ زَرَعَ شَرًّا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ حَصَدَ غَدَاً النَّدَامَةَ، وظاهرُ حديث معاذ يدلّ على أنّ أكثرَ ما يدخل به الناسُ النارَ النطقُ بألسنتهم، فإنّ معصيةَ النطق يدخل فيها الشرك، وهو أعظم الذنوب عند الله عز وجل، ويدخل فيها القولُ على الله بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادةُ الزور التي عدلت الإِشراك بالله عز وجل، ويدخل فيها السّحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر، كالكذب والغيبة والنميمة، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قول يقترب بها يكون معيناً عليها".

وقوله: "ثكلتك أمك" قال الشيخ ابن عثيمين في شرح هذا الحديث: "أي: فقدتك حتى كانت ثكلتي من فقدك، وهذه الجملة لا يُراد بها معناها، وإنّما يُراد بها الحثُّ والإغراء على فهم ما يُقال"، بل إنّ ما جاء من ذلك في هذا الحديث وما يُماثلُه يكون من قبيل الدعاء لمن أضيف إليه، ويدلّ له الحديث في صحيح مسلم (٢٦٠٣) عن أنس، وفيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا أمّ سليم! أما تعلمين أنّ شرطي على ربّي أنّي اشتربتُ على ربّي، فقلت: إنّما أنا بشر، أَرْضَى كما يَرْضَى البشر، وأَغْضِبُ كما يَغْضِبُ البشر، فأَيُّما أحد دعوت عليه من أمّتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقرّبه بها منه يوم القيامة"، ومن دقّة الإمام مسلم رحمه الله وحسن تربيته صحيحه أنّه أورد عقب هذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله في معاوية: "لا أشيع الله بطنه"، فيكون دعاء له، وليس دعاء عليه.

٧ مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ:

- ١ حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير ومعرفة ما يوصل إلى الجنة ويُبعد من النار.
- ٢ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ موجودتان، وهما باقيتان لا تفتيان.
- ٣ أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ يُرْجَى فِيهَا دُخُولُ الْجَنَّةِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ، وليس كما يقول بعض الصوفية إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْبَدُ رَغْبَةً فِي جَنَّتِهِ وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِهِ.
- ٤ بيان أهمية العمل المستوّل عنه، وأَنَّهُ عَظِيمٌ.
- ٥ أَنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى النِّجَاةِ شَاقٌّ، وسلوكه يحصل بتيسير الله.
- ٦ أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ كُفِّلَ بِهِ الثَّقَلَانِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقد أنزلت الكتب وأرسلت الرسل لذلك.
- ٧ أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تُعْتَبَرُ إِلَّا إِذَا بُنِيَ عَلَى الشَّهَادَتَيْنِ، وهما متلازمتان، ولا يُقبل العمل إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ، ومطابقًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ٨ بيان عَظَمِ شَأْنِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ؛ حيث دَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَاذًا عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ.
- ٩ أَنَّ هَذِهِ الْفَرَائِضَ مَرْتَبَةٌ فِي أَهَمِّيَّتِهَا حَسَبَ تَرْتِيبِهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.
- ١٠ الْحَثُّ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالنَّوَافِلِ مَعَ الْإِتْيَانِ بِالْفَرَائِضِ.
- ١١ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ آدَاءِ الْفَرَائِضِ الصَّدَقَةُ وَالصَّوْمُ وَقِيَامُ اللَّيْلِ.
- ١٢ بيان عَظَمِ شَأْنِ الصَّلَاةِ وَأَنَّهَا عَمُودُ الْإِسْلَامِ.
- ١٣ بيان فَضْلَ الْجِهَادِ، وأَنَّهُ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ.
- ١٤ بيان خطورة اللسان، وأَنَّهُ يُفْضَى إِلَى الْمُهَالِكِ وَيُوقَعُ فِي النَّارِ.

وَتَفْسِيرُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (١)

(١) - صحيح البخارى (٦٠١٨) ومسلم (١٨٢)

وفي المنقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٣٣٤)

١٤٥٤ - (ش) : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ يُرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا حُكْمٌ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَعَلِمَ أَنَّهُ يُجَاوِزُ فِي الْآخِرَةِ وَمِمَّا يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ خَيْرًا يُوجِرُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَصْمُتَ عَنْ شَرٍّ يَعَاقِبُ عَلَيْهِ وَأَمَّا الصَّمْتُ عَنْ الْخَيْرِ وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَيْسَ بِمَأْمُورٍ بِهِ بَلْ هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيٌ تَحْرِيمٌ ، أَوْ نَهْيٌ كَرَاهَةٌ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يَقُولَ خَيْرًا ، أَوْ يَسْكُتَ عَنْ شَرٍّ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ، أَوْ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْوَاوِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَقُولُ خَيْرًا وَيَصْمُتُ عَنْ شَرٍّ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ ، أَوْ يَزِيدُونَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

(فصل) وقوله صلى الله عليه وسلم ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره هكذا في رواية ابن شريح الكعبي وفي رواية أبي هريرة فلا يؤذ جاره والمعنين غير متنافيين حصص النبي صلى الله عليه وسلم على إكرام

الْجَارِ وَحُسْنِ مُجَاوَرَتِهِ وَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَبِالْثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ هَذَا وَيَعْمَلَ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَرَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ وَرَوَى طَلْحَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَأَيُّهُمَا أَهْدِي قَالَ : إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ أَبَا .

(فصل) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ هَذَا مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ وَالضِّيَافَةُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ وَأَوَّلُ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ فَوَصَفَهُمْ بَأَنَّهُمْ أَكْرَمُوا ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ عِنْدَ النَّبِيِّ بْنِ سَعْدٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْفُقَهَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ ذَلِكَ بِالْكَرَامَةِ فَقَالَ : فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَلَمْ يَقُلْ : فَلْيَقْضِهِ حَقُّهُ وَالْإِكْرَامُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَقَدْ يَتَعَيَّنُ وَجُوبُهَا فِي مَوَاضِعَ لِلْمُجْتَازِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُبْلَغُهُ وَيَخَافُ الْهَلَاكَ إِنْ لَمْ يُضَيَّفْ وَتَكُونُ وَاجِبَةً عَلَى أَهْلِ الدِّمَّةِ الْعَامِرِينَ لَأَرْضِ الْعُنُوتِ إِنْ شَرِطَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ . رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَبْعُنَا فَنَمُرُ بِقَوْمٍ لَا يُفْرَوْنَا فَمَاذَا تَرَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ أَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخَذُّوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي يَحْتَمِلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لِمَنْ كَانَ يَجْتَازُ غَايَا عَلَى أَهْلِ عَهْدٍ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِصْحَابِ الزَّادِ إِلَى رَأْسِ مَعْرَاتِهِ وَلَا يَصِلُ إِلَى الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ الَّذِي تَعَيَّنَ فَرَضُهُ وَوُجُوبُهُ إِلَّا بِالْقَرَى فِي الطَّرِيقِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَفْشِيَتْ خَيْرٌ وَغَيْرُهَا مِنْ بِلَادِ الْعُنُوتِ إِنْ كَانَ شَرِطَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِهَا وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَقَوْلُهُ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ ضِيَافَةٌ وَقَالَ سَحْنُونُ الضِّيَافَةُ عَلَى أَهْلِ الْقَرَى وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَإِنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا قَدِمَ الْحَضَرَ وَجَدَ مَنْزِلًا وَهُوَ الْفُنْدُقُ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ يَتَأَكَّدُ التَّدَبُّ إِلَيْهِ وَلَا يَتَعَيَّنُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ بَعِيْنُهُ عَلَى أَهْلِ الْقَرَى لِمَعَانٍ أَحَدُهَا أَنَّ ذَلِكَ يَتَكَرَّرُ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ فَلَوْ اتَّزَمَ أَهْلُ الْحَضَرِ الضِّيَافَةَ لَمَا خَلَوْا مِنْهَا وَأَهْلُ الْقَرَى يَتَذَرُّ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيَقُلُّ فَلَا تُلْحَقُهُمْ بِذَلِكَ مَشَقَّةٌ وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنَّ الْمُسَافِرَ يَجِدُ فِي الْحَضَرِ مِنَ الْمَسْكَنِ وَالطَّعَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَلَا تُلْحَقُهُ الْمَشَقَّةُ لِعَدَمِ الضِّيَافَةِ وَأَمَّا فِي الْقَرَى الصَّغَارِ فَلَا يَجِدُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَهُوَ كَالْمُضْطَرِّ إِلَى مَنْ يُضَيِّفُهُ وَحُكْمُ الْقَرَى الْكِبَارِ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا الْفُنْدُوقُ وَالْمَطَاعِمُ لِلشَّرَاءِ وَيَكْثُرُ تَرَدُّدُ النَّاسِ عَلَيْهَا حُكْمُ الْحَضَرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ ، وَهَذَا فِيمَنْ لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ وَأَمَّا مَنْ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً مُوَدَّةٍ أَوْ بَيْنَةٍ وَبَيْنَةٍ قَرَابَةٍ ، أَوْ بَيْنَةٍ وَبَيْنَةٍ مَعْنَى يَقْتَضِي الْمُواصَلَةَ وَالْمُكَارِمَةَ فَحُكْمُهُ فِي الْحَضَرِ وَغَيْرِهِ سَوَاءٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

(فصل) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْحَتَهُ وَعَطِيَّتَهُ ؛ لِأَنَّ الْجَائِزَةَ الْعَطِيَّةَ وَيَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يُرِيدَ بِهِ مَا يَجُوزُ وَيَمْضِي بِهِ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَهُوَ قَوْلُهُ فِي مَبِيتِهِ عِنْدَهُ وَغَدَاؤُهُ فِي غَدِهِ قَالَ عِيسَى بْنُ دِينَارٍ فِي الْمَرْيَةِ مَعْنَى جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ يُنَحِّفُهُ وَيُكْرِمُهُ وَيَفْعَلُ بِهِ أَفْضَلَ مَا يَسْتَطِيعُ وَرَوَاهُ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عَنْ ابْنِ نَافِعٍ إِذَا كَانَ هَذَا مَعْنَاهُ فَمَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ : وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ . يُرِيدُ يُطْعِمُهُ فِيهَا مَا يَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ وَعَلَى التَّوْبِيلِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ خَصَّ الضِّيَافَةَ لِمَنْ أَرَادَ الْمَقَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَمَنْ أَرَادَ الْجَوَازَ فَيَوْمٌ وَلَيْلَةٌ .

(فصل) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ يُرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ حُكْمُ الْجَائِزَةِ الْمُتَأَكَّدِ حُكْمُهَا لِلْمُجْتَازِ لَا حُكْمُ الضِّيَافَةِ الْمَشْرُوعَةِ لِلضَّيْفِ وَإِنَّمَا هِيَ صَدَقَةٌ مُحْتَصَّةٌ بِالْمُعْتَرِضِ وَالْمُقِيمِ عَلَيْهَا

طَالِبُ صَدَقَةٍ إِلَّا أَنَّهَُا صَدَقَةُ نَهْلٍ وَصَدَقَةُ النَّهْلِ تَحِلُّ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَإِنَّمَا الَّذِي يَحْرُمُ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى الْغَنِيِّ صَدَقَةُ وَجَبَتْ لِلْفُقَرَاءِ وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَقْبَلُ الصِّيَافَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَافِعٍ : أَنْفَقْ فَإِنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَيَقُولُ : احْبِسُوا عَنَّا صَدَقَتَكُمْ قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَعْنَاهُ عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ وَلَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَلْزَمُ أَحَدًا أَنْ يَقْبَلَ صَدَقَةً يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ مَعَ السَّلَامَةِ وَلَوْ قَبِلَهَا حَلَّتْ لَهُ وَيَحْتَمِلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يُرِيدَ بِهِ لَا يَقْبَلُ صَدَقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَزَلْنَا عَنْهُمْ وَلَوْ نَزَلَ عَلَى غَيْرِهِمْ لَقَبِلَ صِيَّافَتَهُمْ شَهْرًا ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى أَبِيهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَوْ عَلَى ابْنِهِ سَالِمٍ ، أَوْ عَلَى أَخِيهِ عَاصِمٍ لَمْ يَرُدَّ طَعَامَهُمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

(فَصْلٌ) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَوَيَّعَ عَنْهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ يُرِيدُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُقِيمَ عَنْهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ قَالَ عِيسَى بْنُ دِينَارٍ يُرِيدُ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ وَيُنْقِلُهُ مِنَ الْحَرَجِ وَهُوَ الضِّيقُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ حَتَّى يُؤْنِمَهُ وَهُوَ أَنْ يَضُرَّ بِهِ مُقَامُهُ عَنْهُ حَتَّى يَقُولَ قَوْلًا ، أَوْ يَفْعَلَ فِعْلًا يَأْتُمُّ بِهِ مَعَ أَنْ مَا يُعْطِيهِ بَعْدَ أَنْ يُبْرَمَ بِطُولِ مُقَامِهِ عَنْهُ لَا تَطْيِبُ بِهِ نَفْسُهُ وَمِثْلُ هَذَا لَا يَحِلُّ لِلْمُقِيمِ عَنْهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

. فَالْتَّكْلُمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السُّكُوتِ عَنْهُ ، وَالصَّمْتُ عَنِ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنَ التَّكْلُمِ بِهِ ، فَأَمَّا الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنِيَّ عَنْهَا ، وَكَذَلِكَ الْإِمْتِنَاعُ عَنْ أَكْلِ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَشَرْبِ الْمَاءِ فَذَلِكَ مِنَ الْبِدْعِ الْمَذْمُومَةِ أَيْضًا (١)

(١) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢٢ / ص ٣١٠) فما بعدها
وَأَمَّا الْأَكْلُ وَاللَّبَاسُ : فَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ خُلُقُهُ فِي الْأَكْلِ أَنَّهُ يَأْكُلُ مَا تيسَّرَ إِذَا اشْتَهَاهُ وَلَا يَرُدُّ مَوْجُودًا وَلَا يَتَكَلَّفُ مَفْقُودًا فَكَانَ إِنْ حَضَرَ خُبْزٌ وَلَحْمٌ أَكَلَهُ وَإِنْ حَضَرَ فَاكِهَةٌ وَخُبْزٌ وَلَحْمٌ أَكَلَهُ وَإِنْ حَضَرَ تَمْرٌ وَحَدَّةٌ أَوْ خُبْزٌ وَحَدَّةٌ أَكَلَهُ وَإِنْ حَضَرَ حُلُوٌّ أَوْ عَسَلٌ طَعِمَهُ أَيْضًا وَكَانَ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ الْحُلُوُّ الْبَارِدُ وَكَانَ يَأْكُلُ الْقَنَاءَ . بِالرُّطْبِ فَلَمْ يَكُنْ إِذَا حَضَرَ لَوْنَانٍ مِنَ الطَّعَامِ يَقُولُ : لَا أَكُلُ لَوْنَيْنِ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ طَعَامٍ لِمَا فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْحَلَوَةِ . وَكَانَ أَحْيَانًا يَمْضِي الشَّهْرَانِ وَالثَّلَاثَةَ لَا يُوقِدُ فِي بَيْتِهِ نَارًا وَلَا يَأْكُلُونَ إِلَّا التَّمْرَ وَالْمَاءَ وَأَحْيَانًا يَرْتَبُطُ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرُ مِنَ الْجُوعِ وَكَانَ لَا يَعْيبُ طَعَامًا فَإِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ . وَأَكَلَ عَلَى مَا يَنْدِيهِ لَحْمٌ ضَبٌّ فَاِمْتَنَعَ مِنْ أَكْلِهِ وَقَالَ : { إِنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَارِضٌ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافَهُ } . وَكَذَلِكَ اللَّبَاسُ كَانَ يَلْبَسُ الْقَمِيصَ وَالْعِمَامَةَ وَيَلْبَسُ الْإِزَارَ وَالرِّدَاءَ وَيَلْبَسُ الْجُبَّةَ وَالْفُرُوجَ وَكَانَ يَلْبَسُ مِنَ الْقُطْنِ وَالصُّوفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . لَبَسَ فِي السَّعْرِ جُبَّةَ صُوفٍ وَكَانَ يَلْبَسُ مِمَّا يُجَلِّبُ مِنَ الْيَمَنِ وَغَيْرِهَا وَغَالِبُ ذَلِكَ مَصْنُوعٌ مِنَ الْقُطْنِ وَكَانُوا يَلْبَسُونَ مِنْ قِبَاطِيٍّ مَصْرَ وَهِيَ مَنْسُوجَةٌ مِنَ الْكَتَانِ . فَسَنَّتُهُ فِي ذَلِكَ تَقْتَضِي أَنْ يَلْبَسَ الرَّجُلُ وَيَطْعَمَ مِمَّا يَسْرُهُ اللَّهُ بِلَدِّهِ مِنَ الطَّعَامِ وَاللَّبَاسِ . وَهَذَا يَتَنَوَّعُ بَتَنَوُّعِ الْمَصَارِ . وَقَدْ كَانَ اجْتِمَاعُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ وَنَحْوِهِ وَعَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْ تَزْوُجِ النِّسَاءِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } { وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ لَا أَطْطِيرُ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ لَا أَنَامُ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَّا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَّا أَنَا فَلَا أَكُلُ اللَّحْمَ . فَقَالَ : { لَكِنِّي أَصُومُ وَأَطْطِيرُ وَأَقُومُ وَأَنَامُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَأَكُلُ اللَّحْمَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي } وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } فَأَمَرَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ فَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ كَانَ مُعْتَدِيًا وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ كَانَ مُفْرِطًا مُضِيعًا لِحَقِّ اللَّهِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِنْ

اللَّهُ لِيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْكَلَّةَ فَيُحَمِّدَهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيُحَمِّدَهُ عَلَيْهَا { وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ } . فَهَذِهِ الطَّرِيقُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ أَعْدَلُ الطَّرِيقِ وَأَقْوَمُهَا . وَالْأَنْحَرَفُ عَنْهَا إِلَى وَجْهَيْنِ . قَوْمٌ يُسْرِفُونَ فِي تَنَاوُلِ
 الشَّهَوَاتِ مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }
 وَقَالَ تَعَالَى : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا } . وَقَوْمٌ يُحَرِّمُونَ
 الطَّيِّبَاتِ وَيَتَّبِعُونَ رَهْبَانِيَّةَ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا
 أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
 صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } . وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ
 بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا } وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا
 رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ { وَكُلُّ حَلَالٍ طَيِّبٌ وَكُلُّ
 طَيِّبٍ حَلَالٌ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَنَا الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الْخَبَائِثَ لَكِنَّ جِهَةَ طَيْبِهِ كَوْنُهُ نَافِعًا لَدِينًا . وَاللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْنَا كُلَّ
 مَا يَضُرُّنَا وَأَبَاحَ لَنَا كُلَّ مَا يَنْفَعُنَا بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُ بَظُلْمٍ مِنْهُمْ : حَرَّمَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ
 طَيِّبَاتٍ غُثْبَةً لَهُمْ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْنَا شَيْئًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالنَّاسُ تَتَوَعَّعُ أَحْوَالُهُمْ فِي الطَّعَامِ
 وَاللِّبَاسِ وَالْجُوعِ وَالشَّبَعِ وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ يَتَوَعَّعُ حَالُهُ وَلَكِنَّ خَيْرَ الْأَعْمَالِ مَا كَانَ لِلَّهِ أَطْوَعَ وَلِصَاحِبِهِ أَنْفَعٌ وَقَدْ
 يَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ الْعَمَلِينَ وَقَدْ يَكُونُ أَشَدَّهُمَا فَلَيْسَ كُلُّ شَدِيدٍ فَاضِلًا وَلَا كُلُّ يَسِيرٍ مَفْضُولًا . بَلِ الشَّرْعُ إِذَا أَمَرَنَا
 بِأَمْرٍ شَدِيدٍ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ لَا لِمُجَرَّدِ تَغْذِيبِ النَّفْسِ . كَالْجِهَادِ الَّذِي قَالَ فِيهِ تَعَالَى : { كُتِبَ
 عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } .
 وَالْحَجُّ هُوَ الْجِهَادُ الصَّغِيرُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الْعُمْرَةِ : { أَجْرُكَ
 عَلَى قَدَرِ نَصَبِكَ } وَقَالَ تَعَالَى فِي الْجِهَادِ : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
 يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَبْغِظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } .
 وَأَمَّا مُجَرَّدُ تَغْذِيبِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ رَاجِحَةٍ فَلَيْسَ هَذَا مَشْرُوعًا لَنَا بَلِ أَمَرَنَا اللَّهُ بِمَا يَنْفَعُنَا وَنَهَانَا عَمَّا
 يَضُرُّنَا . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { إِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ } وَقَالَ
 لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ : { يَسِرَّا وَلَا تُعَسِّرَا وَيَشْرَا وَلَا تُتَفَّرَا } وَقَالَ { هَذَا الدِّينُ يُسَرُّ وَلَنْ يُشَادَّ
 الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوزَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدِ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا } وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : {
 أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ } . فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَهُ فِي الْجِهَادِ وَالْحَجِّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ حَرٌّ أَوْ بَرْدٌ أَوْ جُوعٌ
 وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَهُوَ مِمَّا يُحَمِّدُ عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا
 يَفْقَهُونَ } . وَكَذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { الْكُفَّارَاتُ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى
 الْمَسَاجِدِ وَانْطِرَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكَ الرِّبَاطُ فَذَلِكَ الرِّبَاطُ } . وَأَمَّا مُجَرَّدُ بُرُوزِ الْإِنْسَانِ لِلْحَرِّ وَالْبَرْدِ . بَلَا
 مَنْفَعَةٍ شَرْعِيَّةٍ وَاحْتِفَاؤُهُ وَكَشْفُ رَأْسِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ
 مَنْفَعَةٌ لِلْإِنْسَانِ [أ] وَطَاعَةُ اللَّهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . بَلِ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا
 قَائِمًا فِي الشَّمْسِ فَقَالَ : { مَا هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ
 وَيَصُومُ . فَقَالَ : مُرُوهُ فَلْيَجْلِسْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَتَكَلَّمَ وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ } . وَلِهَذَا نَهَى عَنِ الصَّمْتِ الدَّائِمِ بَلِ الْمَشْرُوعُ مَا

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ } فَاتَّكَلَّمُوا بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السُّكُوتِ عَنْهُ وَالسُّكُوتُ عَنِ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنَ اتِّكَلِّمِهِ .

، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيَّنَّا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بَرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا : أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرُ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مُرَّةً فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ » (١)

(١) - صحيح البخارى (٦٧٠٤)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٩ / ص ٧٦)

وَفِي حَدِيثِهِ أَنَّ السُّكُوتَ عَنِ الْمُبَاحِ لَيْسَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ " وَلَا صُمْتُ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ " وَتَقَدَّمَ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ لِلْمَرْأَةِ إِنَّ هَذَا - يَعْنِي الصِّمْتَ - مِنْ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ " وَفِيهِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَنَازِلُ بِهِ الْإِنْسَانَ ، وَلَوْ مَالًا مِمَّا لَمْ يَرِدْ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ كَالْمَشْيِ حَافِيًا وَالْجُلُوسِ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ هُوَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلَا يَنْعَقِدُ بِهِ النَّذْرُ ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَبَا إِسْرَائِيلَ بِإِتِمَامِ الصَّوْمِ دُونَ غَيْرِهِ وَهُوَ مُحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقْعُدَ وَيَتَكَلَّمَ وَيَسْتَظِلَّ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فِي قِصَّةِ أَبِي إِسْرَائِيلَ هَذِهِ أَوْضَحُ الْحُجَجِ لِلْجُمْهُورِ فِي عَدَمِ وَجُوبِ الْكُفَّارَةِ عَلَى مَنْ نَذَرَ مَعْصِيَةً أَوْ مَا لَا طَاعَةَ فِيهِ فَقَدْ قَالَ مَالِكٌ لَمَّا ذَكَرَهُ : وَلَمْ أَسْمَعْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ بِالْكَفَّارَةِ .

وفي شرح ابن بطلال - (ج ١١ / ص ١٧٠)

ليس في هذه الأحاديث شيء من معنى النذر فيما لا يملك، وقد تقدم قبل هذا شيء منه، وإنما في هذه الأحاديث من نذر معصية أو ما ليس بطاعة.

وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال مالك: من نذر معصية كقوله: لله على أن أشرب الخمر أو أزني أو أسفك دمًا، فلا شيء عليه وليس تغفر الله، استدلالا بقوله عليه السلام: « ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ولم يذكر كفارة. قال مالك: وكذلك إذا نذر ما ليس لله بطاعة ولا معصية كقوله: لله على أن أدخل الدار أو أكل أو أشرب، فلا شيء عليه أيضًا؛ لأنه ليس في شيء من ذلك لله طاعة، استدلالا بحديث أبي إسرائيل. قال مالك: ولم أسمع رسول الله أمره بكفارة. وقد أمره أن يتم ما كان لله طاعة، ويترك ما خالف ذلك. وقول الشافعي كقول مالك.

وقال أبو حنيفة والثوري: من نذر معصية كان عليه مع تركها كفارة يمين، واحتجوا بحديث عمران بن حصين و أبي هريرة أن الرسول قال: « لا نذر في معصية الله، وكفارته كفارة يمين » ، وهذا حديث لا أصل له؛ لأن حديث أبي هريرة إنما يدور على سليمان بن أرقم، وهو متروك الحديث، وحديث عمران بن حصين يدور على زهير بن محمد عن أبيه، وأبوه مجهول، لم يرو عنه غير ابنه زهير، وزهير أيضًا عنده مناكير.

وفي قوله عليه السلام: « من نذر أن يعصى الله فلا يعصه » حجة لمن قال: إن من نذر ينحر ابنه فلا كفارة عليه؛ لأنه لا معصية أعظم من إراقة دم مسلم بغير حق، ولا معنى للاعتبار في ذلك بكفارة الظهار في قول المنكر والزور، كما اعتبر ذلك ابن عباس؛ لأن الظهار ليس بنذر، والنذر في المعصية قد جاء فيه نص عن النبي - عليه السلام. قال مالك: من نذر أن ينحر ابنه ولم ولم يقل عند مقام إبراهيم، فلا شيء عليه، وكذلك إن لم يرد أن يحجه، وإن نوى وجهه ما ينحر فعليه الهدى.

وقال أبو حنيفة: عليه شاة إذا حلف أن ينحر ولده.

وقال أبو يوسف: لا شيء عليه. وبه يأخذ الطحاوي.

وفي حديث أبي إسرائيل دليل على السكوت عن المباح أو عن ذكر الله ليس من طاعة الله، وكذلك الجلوس في الشمس، وفي معناه كل ما يتأذى به الإنسان مما لا طاعة لله فيه ولا قرينة بنص كتاب أو سنة كالجهد وغيره، وإنما الطاعة ما أمر الله ورسوله مما يُتقرب بعمله لله، ألا ترى أنه عليه السلام أمره بإتمام الصيام لما كان لله طاعة.

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ٢ / ص ٤٧)

ذكر المؤلف رحمه الله في باب الاقتصاد في العبادة هذا الحديث الذي نذر فيه رجل يقال له أبو إسرائيل أن يقوم في الشمس ولا يقعد وأن يصمت ولا يتكلم وأن يصوم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب فرأى هذا الرجل قائما في الشمس فسأل عنه فأخبر عن قصته فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروه فليقعد وليستظل وليتكلم وليتم صومه وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله عز وجل وأشياء غير محبوبة أما المحبوبة إلى الله فهي الصوم لأن الصوم عبادة والنبي صلى الله عليه وسلم قال من نذر أن يطيع الله فليطعه وأما وقوفه قائما في الشمس من غير أن يستظل وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله عز وجل فلهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الرجل أن يترك ما نذر وليعلم أن النذر أصله مكروه بل قال بعض العلماء محرم وإنه لا يجوز للإنسان أن ينذر لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه الله ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام قسم حكمه حكم اليمين وقسم آخر نذر معصية وقسم ثالث نذر طاعة أما الذي حكمه حكم اليمين فهو الذي قصد الإنسان به تأكيد الشيء نفيا أو إثباتا أو تصديقا أو تأكيدا ومثاله إذا قيل للرجل أخبرتنا بكذا وكذا ولكنك لم تصدق فقال إن كنت كاذبا فلله علي نذر أن أصوم سنة فلا شك أن غرضه من ذلك أن يؤكد قوله ليصدقه الناس هذا حكمه حكم اليمين لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال وكذلك أيضا إذا قصد الحث مثل أن يقول إن لم أفعل كذا فلله علي نذر أن أصوم سنة فهذا أيضا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر حكمه حكم اليمين أيضا ودليل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى وهذا نوى اليمين فله ما نوى أما القسم الثاني فهو المحرم فالنذر إذا نذر الإنسان يحرم عليه الوفاء به مثل أن يقول لله عليه نذر أن يشرب الخمر فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر ولكن عليه كفارة يمين على القول الراجح وإن كان بعض العلماء قال إنه لا شيء عليه لأنه نذر غير منعقد ولكن الصحيح أنه نذر منعقد ولكن لا يجوز الوفاء به ومثل ذلك أن تقول المرأة لله عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض وعليها كفارة يمين أما القسم الثالث فهو نذر الطاعة أن ينذر الإنسان نذر طاعة مثل أن يقول لله علي نذر أن أصوم الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فيلزمه أن يوفي بنذره لقول النبي صلى الله عليه وسلم من نذر أن يطيع الله فليطعه أو يقول لله علي نذر أن أصلي ركعتين في الضحى فيلزمه أن يوفي بنذره لأنه طاعة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من نذر أن يطيع الله فليطعه فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة وجب أن يوفي بالطاعة أما غير الطاعة فلا يوف ويكفر كفارة يمين مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم في الشمس وألا يستظل وألا يتكلم وأن يصوم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصوم لأنه طاعة ولكنه قال في القيام وعدم الاستظلال وعدم الكلام مروه فليستظل وليقعد وليتكلم وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر فمثلا إذا مرض له إنسان قال لله علي نذر إن شفى الله مريضتي لأفعلن كذا وكذا فهذا منهى عنه إما نهي كراهة أو نهي تحريم أسأل الله العافية لمريضك بدون نذر لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى الله مريضه أن يفعل

كذا وكذا فشفاه الله وجب عليه أن يوفي بالنذر .

وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٤٠ / ص ١٣٦ - ٢٢٣) نذر

وَبُتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ أَبِي حُمَيْدٍ الطَّوِيلِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ : جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلَّى اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ . وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : « أَأَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (١)

(١) - صحيح البخارى (٥٠٦٣) ومسلم (٣٤٧٠)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٤ / ص ٢٩٠)

قوله (كَانَهُمْ تَقَالُوهَا) بِتَشْدِيدِ اللَّامِ الْمُضْمُومَةِ أَيْ اسْتَقْلُوهَا ، وَأَصْلُ تَقَالُوهَا تَقَالُوهَا أَيْ رَأَى كُلٌّ مِنْهُمْ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ

قوله (فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ) فِي رَوَايَةِ الْحَمَوِيِّ وَالْكُشْمِينِيِّ " قَدْ غُفِرَ لَهُ " بِضَمِّ أَوَّلِهِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِحُصُولِ ذَلِكَ لَهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْعِبَادَةِ عَسَى أَنْ يَحْصُلَ ، بِخِلَافِ مَنْ حَصَلَ لَهُ ، لَكِنْ قَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِلَازِمٍ ، فَأَشَارَ إِلَى هَذَا بِأَنَّهُ أَشَدَّهُمْ خَشْيَةً وَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ فِي جَانِبِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَشَارَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ وَالْمُعِيرَةَ - كَمَا تَقَدَّمَ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ - إِلَى مَعْنَى آخَرٍ بِقَوْلِهِ " أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا " .

قوله (فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنَّا أَصَلَّى اللَّيْلَ أَبَدًا)

هُوَ قَيْدُ اللَّيْلِ لَا لِأُصَلِّيَ ، وَقَوْلُهُ " فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا " أَكَّدَ الْمُصَلِّيَ وَمُعْتَرِلَ النِّسَاءِ بِالتَّأْيِيدِ وَلَمْ يُؤَكِّدِ الصِّيَامَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فِطْرِ اللَّيَالِي وَكَذَا أَيَّامِ الْعِيدِ ، وَوَقَعَ فِي رَوَايَةِ مُسْلِمٍ " فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَكُلُ اللَّحْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ ، وَظَاهِرُهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ زِيَادَةَ عَدَدِ الْقَائِلِينَ . لِأَنَّ تَرْكَ أَكْلِ اللَّحْمِ أَخَصَّ مِنْ مُدَاوِمَةِ الصِّيَامِ ، وَاسْتِغْرَاقِ اللَّيْلِ بِالصَّلَاةِ أَخَصَّ مِنْ تَرْكِ النَّوْمِ عَلَى الْفِرَاشِ . وَيُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بِضُرُوبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ . قَوْلُهُ (فَجَاءَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَأَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ)

فِي رَوَايَةِ مُسْلِمٍ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا ؟ وَيُجْمَعُ بِأَنَّهُ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ عُمُومًا جَهْرًا مَعَ عَدَمِ تَعْيِينِهِمْ وَخُصُوصًا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ رَفَقًا بِهِمْ وَسَرًّا لَهُمْ .

قوله (أَمَّا وَاللَّهِ) بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ حَرْفِ تَنْبِيهِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ الْخَبَرِ أَمَّا أَنَا فَإِنَّهَا بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ لِلتَّقْسِيمِ .

قوله (إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى رَدِّ مَا بَنَوْا عَلَيْهِ أَمْرَهُمْ مِنْ أَنَّ الْمَغْفُورَ لَهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ فِي الْعِبَادَةِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ يُبَالِغُ فِي التَّشْدِيدِ فِي الْعِبَادَةِ أَخْشَى لِلَّهِ وَأَتَقَى مِنَ الَّذِينَ يُشَدِّدُونَ وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشَدِّدَ لَا يَأْمَنُ مِنَ الْمَلَلِ بِخِلَافِ الْمُقْتَصِدِ فَإِنَّهُ أَمَكَنَ لَاسْتِمْرَارِهِ وَخَيْرَ الْعَمَلِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبِهِ ، وَقَدْ أَرَشَدَ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ " الْمُتَنَبِّتُ لَا أَرْضَا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى " وَسَيَأْتِي مَزِيدٌ

لَذَلِكَ فِي كِتَابِ الرَّقَاقِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَتَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ شَيْءٌ مِنْهُ .

قَوْلُهُ (لَكَيْ) اسْتِذْرَاكَ مِنْ شَيْءٍ مَخْلُوفٍ ذَلَّ عَلَيْهِ السَّيَاقُ أَيُّ أَنَا وَأَنْتُمْ بِالنَّسَبَةِ إِلَيَّ الْعُودِيَّةُ سَوَاءٌ ، لَكِنْ أَنَا أَعْمَلُ كَذَا .

قَوْلُهُ (فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) الْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ الطَّرِيقَةُ لَا الَّتِي تُقَابِلُ الْفَرَضَ ، وَالرَّغْبَةُ عَنْ الشَّيْءِ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَالْمُرَادُ مَنْ تَرَكَ طَرِيقَتِي وَأَخَذَ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِي فَلَيْسَ مِنِّي ، وَلَمَحَ بِذَلِكَ إِلَى طَرِيقِ الرَّهْبَانِيَّةِ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا التَّشْدِيدَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ عَابَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَا وَفُّوهُ بِمَا التَزَمُوهُ ، وَطَرِيقَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ فَيُفْطِرُ لِيَتَّقَى عَلَى الصَّوْمِ وَيَنَامُ لِيَتَّقَى عَلَى الْقِيَامِ وَيَتَزَوَّجُ لِكَسْرِ الشَّهْوَةِ وَإِعْفَافِ النَّفْسِ وَتَكْثِيرِ النَّسْلِ . وَقَوْلُهُ فَلَيْسَ مِنِّي إِنْ كَانَتْ الرُّغْبَةُ بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ يُعَذِّرُ صَاحِبَهُ فِيهِ فَمَعْنَى " فَلَيْسَ مِنِّي " أَيُّ عَلَى طَرِيقَتِي وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ الْمِلَّةِ وَإِنْ كَانَ إِعْرَاضًا وَتَطَّعًا يُفْضِي إِلَى إِعْتِقَادِ أَرْجَحِيَّةِ عَمَلِهِ فَمَعْنَى فَلَيْسَ مِنِّي لَيْسَ عَلَى مِلَّتِي لِأَنَّ إِعْتِقَادَ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْكُفْرِ . وَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ النِّكَاحِ وَالتَّرَغُّيبِ فِيهِ ، وَفِيهِ تَتَّبِعُ أَحْوَالَ الْأَكَابِرِ لِلتَّأْسِي بِأَفْعَالِهِمْ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَدَّرَتْ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الرَّجَالِ جَازَ اسْتِكْشَافُهُ مِنَ النِّسَاءِ ، وَأَنَّ مَنْ عَزَمَ عَلَى عَمَلٍ بَرٍّ وَاحْتِاجَ إِلَى إِظْهَارِهِ حَيْثُ يَأْمَنُ الرِّيَاءَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَمْنُوعًا . وَفِيهِ تَقْدِيمُ الْحَمْدِ وَالشَّاءِ عَلَى اللَّهِ عِنْدَ إِلْقَاءِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ لِلْمُكَلِّفِينَ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ عَنِ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَأَنَّ الْمُبَاحَاتِ قَدْ تَنْقَلِبُ بِالْقَصْدِ إِلَى الْكَرَاهَةِ وَالِاسْتِحْبَابِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : فِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ مَنَعَ اسْتِعْمَالَ الْحَلَالِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْمَلَابِسِ وَآثَرِ غَلِيظِ الثِّيَابِ وَخَشِينِ الْمَأْكَلِ . قَالَ عِيَّاضُ هَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ السَّلَفُ فَمِنْهُمْ مَنْ نَحَا إِلَى مَا قَالَ الطَّبْرِيُّ وَمِنْهُمْ مَنْ عَكَسَ وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) قَالَ وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْكُفَّارِ وَقَدْ أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُتَمَرِّينَ . قُلْتُ : لَا يَدُلُّ ذَلِكَ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْمُدَاوِمَةَ عَلَى إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ مُلَازِمَةَ اسْتِعْمَالِ الطَّيِّبَاتِ يُفْضِي إِلَى التَّرَفُّهِ وَالْبَطَرِ وَلَا يَأْمَنُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشُّبْهَاتِ لِأَنَّ مَنْ إِعْتَادَ ذَلِكَ قَدْ لَا يَجِدُهُ أَحْيَانًا فَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِثْقَالَ عَنْهُ فَيَقَعُ فِي الْمَحْظُورِ كَمَا أَنَّ مَنْ تَنَاوَلَ ذَلِكَ أَحْيَانًا يُفْضِي إِلَى التَّنَطُّعِ الْمُنْهِي عَنْهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) كَمَا أَنَّ الْأَخْذَ بِالتَّشْدِيدِ فِي الْعِبَادَةِ يُفْضِي إِلَى الْمَلَلِ الْقَاطِعِ لِأَصْلِهَا وَمُلَازِمَةَ الْإِقْصَارِ عَلَى الْفَرَائِضِ مَثَلًا وَتَرَكَ التَّفَتُّلَ يُفْضِي إِلَى إِثَارِ الْبَطَالَةِ وَعَدَمِ النِّشَاطِ إِلَى الْعِبَادَةِ وَخَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ ، وَفِي قَوْلِهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ مَعَ مَا انْضَمَّ إِلَيْهِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ ، وَفِيهِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَةَ مَا يَجِبُ مِنْ حَقِّهِ أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ مُجَرَّدِ الْعِبَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

. أَيُّ سَلَكٍ غَيْرَهَا ظَانًّا أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهَةٍ نَفْسُهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } (١) (١٣٠) سورة البقرة ، بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ بِذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ (٢)

(١) - لَقَدْ تَجَرَّدَ إِبْرَاهِيمُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَلَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ ، وَخَالَفَ قَوْمَهُ . فَمَنْ يَتْرُكْ طَرِيقَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمِلَّتَهُ ، وَيَتَّبِعْ طَرِيقَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ، فَهُوَ سَفِيهٌ ، وَلَا يَرْتَكِبُ الضَّلَالَةَ إِلَّا السَّفِيهُ .

وَلَقَدْ اصْطَفَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَاخْتَارَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ .

(٢) - قَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَإِنْ مَا تُوعَدُونَ لَا تِ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . صحيح البخارى (٧٢٧٧) وعن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول « صَبَحَكُمْ وَمَسَاءَكُمْ » . ويقول « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » . وَيَقْرُنُ بَيْنَ إصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » . صحيح مسلم (٢٠٤٢)

فتح الباري لابن حجر - (ج ٢٠ / ص ٣٣٠)

و " الْمُحَدَّثَات " بفتح الدال جمع مُحَدَّثَةٍ وَالْمُرَادُ بِهَا مَا أُحْدِثَ ، وَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ وَيُسَمَّى فِي عُرْفِ الشَّرْعِ " بَدْعَةً " وَمَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ فَلَيْسَ بِبَدْعَةٍ ، فَالْبَدْعَةُ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ مَذْمُومَةٌ بِخِلَافِ اللُّغَةِ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ أُحْدِثَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ يُسَمَّى بَدْعَةً سَوَاءٌ كَانَ مَحْمُودًا أَوْ مَذْمُومًا ، وَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمُحَدَّثَةِ وَفِي الْأَمْرِ الْمُحْدَثِ الَّذِي وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ وَمَضَى بَيَانُ ذَلِكَ قَرِيبًا فِي " كِتَابِ الْأَحْكَامِ " وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ جَابِرِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ " وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " وَفِي حَدِيثِ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ " وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " وَهُوَ حَدِيثُ أَوَّلِهِ " وَعَطَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بِلِغَةٍ " فَذَكَرَهُ وَفِيهِ هَذَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ " الْبَدْعَةُ بَدْعَتَانِ : مَحْمُودَةٌ وَمَذْمُومَةٌ ، فَمَا وَافَقَ السُّنَّةَ فَهُوَ مَحْمُودٌ وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَذْمُومٌ " أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ بِمَعْنَاهُ مِنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْجُنَيْدِ عَنِ الشَّافِعِيِّ ، وَجَاءَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي مَنَاقِبِهِ قَالَ " الْمُحَدَّثَاتُ ضَرْبَانِ مَا أُحْدِثَ يُخَالِفُ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ أَثَرًا أَوْ إِجْمَاعًا فَهَذِهِ بَدْعَةُ الضَّلَالِ ، وَمَا أُحْدِثَ مِنَ الْخَيْرِ لَا يُخَالِفُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَهَذِهِ مُحَدَّثَةٌ غَيْرُ مَذْمُومَةٍ " انْتَهَى . وَقَسَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْبَدْعَةَ إِلَى الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ وَهُوَ وَاضِحٌ ، وَثَبَّتَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : قَدْ أَصْبَحْتُمْ عَلَى الْفُطْرَةِ وَإِنَّكُمْ سَتُحْدِثُونَ وَيُحْدِثُ لَكُمْ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُحَدَّثَةً فَعَلَيْكُمْ بِالْهُدَى الْأَوَّلِ ، فِيمَا حَدَّثَ تَدْوِينِ الْحَدِيثِ ثُمَّ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ثُمَّ تَلْوِينِ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ الْمُوَلَّدَةِ عَنْ الرَّأْيِ الْمَحْضِ ثُمَّ تَلْوِينِ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَانْكِرُهُ عُمَرُ وَأَبُو مُوسَى وَطَائِفَةٌ وَرَخَّصَ فِيهِ الْأَكْثَرُونَ وَأَمَّا الثَّانِي فَانْكِرُهُ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ كَالشَّعْبِيِّ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَانْكِرُهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَائِفَةٌ يَسِيرَةٌ وَكَذَا اشْتَدَّ إنكار أحمد للذي بعده ، وَمِمَّا حَدَّثَ أَيْضًا تَلْوِينِ الْقَوْلِ فِي أُصُولِ الدِّيَانَاتِ فَصَدَّى لَهَا الْمُشَبِّتَةُ وَالنَّفَاةُ ، فَبَالِغَ الْأَوَّلِ حَتَّى شَبَّهَ وَبَالِغَ الثَّانِي حَتَّى عَطَلَ ، وَاشْتَدَّ إنكار السلف لذلك كَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَالشَّافِعِي ، وَكَلَامُهُمْ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكَلَامِ مَشْهُورٌ ، وَسَبَّهَ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا سَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ ، وَثَبَّتَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ شَيْءٌ مِنَ الْأَهْوَاءِ - يَعْنِي بَدْعَ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَالْقَدَرِيَّةِ - وَقَدْ تَوَسَّعَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْفَاضِلَةِ فِي غَالِبِ الْأُمُورِ الَّتِي أَنْكَرَهَا أئِمَّةُ التَّابِعِينَ وَاتَّبَاعِهِمْ ، وَلَمْ يَقْتَنِعُوا بِذَلِكَ حَتَّى مَزَجُوا مَسَائِلَ الدِّيَانَةِ بِكَلَامِ الْيُونَانِ ، وَجَعَلُوا كَلَامَ الْفَلَسَافَةِ أَصْلًا يَرُدُّونَ إِلَيْهِ مَا خَالَفَهُ مِنَ الْأَثَارِ بِالتَّوِيلِ وَلَوْ كَانَ مُسْتَكْرَهًا ، ثُمَّ لَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ الَّذِي رَتَّبَهُ هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَوْلَاهَا بِالتَّحْصِيلِ ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ فَهُوَ غَامِيٌّ جَاهِلٌ ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَاجْتَنَبَ مَا أَحْدَثَهُ الْخَلْفُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ بُدٌّ فَلْيَكْتَفِ مِنْهُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ، وَيَجْعَلِ الْأَوَّلَ الْمَقْصُودَ بِالْأَصَالَةِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ .

وَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ عُصَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَقَالَ : إِنَّا قَدْ جَمَعْنَا النَّاسَ عَلَى رَفْعِ الْأَيْدِي عَلَى الْمُنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَعَلَى الْقَصَصِ بَعْدَ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِيَّاهُمَا أَمَثَلُ بَدْعِكُمْ عِنْدِي وَلَسْتُ بِمُجِيبِكُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمَا لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بَدْعَةً إِلَّا رُفِعَ مِنْ السُّنَّةِ مِثْلُهَا ؛ فَتَمَسَّكَ بِسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ إِحْدَاثِ بَدْعَةٍ " . انْتَهَى وَإِذَا كَانَ هَذَا جَوَابَ هَذَا الصَّحَابِيِّ فِي أَمْرِهِ أَصْلَ فِي السُّنَّةِ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهَا ، فَكَيْفَ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَا يَخَالَفُهَا . وَقَدْ مَضَى فِي " كِتَابِ الْعِلْمِ " أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يُذَكِّرُ الصَّحَابَةَ كُلَّ خَمِيسٍ لَمَّا يَمْلَأُوا وَمَضَى فِي " كِتَابِ الرَّقَاقِ " أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ : حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ ، وَنَحْوَهُ وَصِيَّةٌ عَائِشَةَ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَالْمُرَادُ بِالْقَصَصِ التَّذْكِيرُ وَالْمَوْعِظَةُ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَجْعَلُهُ رَاتِبًا كَخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ بَلْ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْعُرْبَاضِ " فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " بَعْدَ قَوْلِهِ " وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ " فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُحَدَّثَ يُسَمَّى بَدْعَةً وَقَوْلُهُ " كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " قَاعِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ كَلِمَةٌ بِمَنْطُوقِهَا وَمَقْهُومِهَا ، أَمَّا مَنْطُوقُهَا فَكَأَنَّ يُقَالُ " حُكْمٌ كَذَا بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " فَلَا تَكُونُ مِنَ الشَّرْعِ لِأَنَّ الشَّرْعَ كُلَّهُ هَذَا ، فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ بَدْعَةٌ صَحَّتِ الْمُقَدِّمَتَانِ ، وَأَنْتَجَتِ الْمَطْلُوبُ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ " كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " مَا أُحْدِثَ وَلَا دَلِيلَ لَهُ مِنَ الشَّرْعِ بِطَرِيقٍ خَاصٍّ وَلَا عَامٍّ . وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَاتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أَرَادَ خَتْمَ مَوْعِظَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُنَاسِبُ الْحَالَ . وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ : فِي أَوَاخِرِ " الْقَوَاعِدِ " الْبَدْعَةُ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ فَالْوَاجِبَةُ " كَالِاشْتِغَالِ بِالنَّحْوِ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لِأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ وَاجِبٌ ، وَلَا يَتَنَبَّأُ إِلَّا بِذَلِكَ فَيَكُونُ مِنَ مُقَدِّمَةِ الْوَاجِبِ ، وَكَذَا شَرْحُ الْغَرِيبِ وَتَلْوِينُ أَصُولِ الْفَقْهِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى تَمْيِيزِ الصَّحِيحِ وَالسَّيِّئِ وَالْمُحَرَّمَةِ " مَا رَتَبَهُ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِيَّةِ وَالْمُشَبِّهَةِ " وَالْمَنْلُوبَةِ " كُلُّ إِحْسَانٍ لَمْ يُعْهَدْ عَيْنُهُ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ كَالاجْتِمَاعِ عَلَى التَّرَاوِيجِ وَبِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ وَالْكَلَامِ فِي التَّصَوُّفِ الْمَخْمُودِ وَعَقْدِ مَجَالِسِ الْمُنَاطَرَةِ إِنْ أُريدَ بِذَلِكَ وَجْهُ اللَّهِ " وَالْمُبَاحَةُ " كَالْمُصَافَحَةِ عَقِبَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ ، وَالتَّوَسُّعِ فِي الْمُسْتَلَذَاتِ مِنْ أَكْلِ وَشَرَبٍ وَمَلْبَسٍ وَمَسْكَنِ . وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ ذَلِكَ مَكْرُوهًا أَوْ خِلَافَ الْأَوَّلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا (١)

(١) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٥ / ص ٤٠٣)

فِي قَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ : { وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } فَوَائِدُ جَلِيلَةٌ : مِنْهَا أَنَّ أَمْرَهُ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّوْبَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَنْبِيهٌُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مُؤْمِنٌ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ : تَرْكُ غَضِّ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ وَتَرْكُ إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ فَمُسْتَقْبَلٌ وَمُسْتَكْبَرٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ : { مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ إِلَّا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا } وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ نَظَرٍ وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ { كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ } وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشَبَّهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : { إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانِ أَذْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَرَأَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرَ وَرَأَى اللِّسَانَ التَّنَطُّقَ { الْحَدِيثُ إِلَى آخِرِهِ . وَفِيهِ : { وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى ذَلِكَ وَتَشْتَهِيهِ وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ }

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا مِنْ حَدِيثِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الرِّثَا يُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ : الْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النُّظْرُ وَالْأَذْنَانِ زَنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ وَالْيَدَانِ زَنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ زَنَاهُمَا الْخَطْيُ وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ } وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ حَدِيثًا وَاسْتَعْرَبَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ { إِلَّا اللَّمَمَ } { قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا . } وَمِنْهَا أَنَّ أَهْلَ الْفَوَاحِشِ الَّذِينَ لَمْ يَغْضُوا أَبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّوْبَةِ وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِهَا لِتَقْبُلَ مِنْهُمْ فَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ الْمُذْنِبِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } وَسَوَاءٌ كَانَتْ الْفَوَاحِشُ مُغْلَظَةً لِشِدَّتِهَا وَكَثَرَتِهَا - كَأَثْيَانِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَعَمَلِ قَوْمٍ لَوْطٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - وَسَوَاءٌ تَابَ الْفَاعِلُ أَوْ الْمَفْعُولُ بِهِ فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا مِنْ عَمَلٍ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ شَيْئًا أَيْسَرُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمْ : مَنْ عَمِلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَا يُفْلِحُ أَبَدًا وَلَا يَرْجُونَ لَهُ قَبُولَ تَوْبَةٍ وَيُرَوَى عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : مَنَّا كَذَا وَمَنَّا كَذَا وَالْمَعْفُوجُ لَيْسَ مِنَّا وَيَقُولُونَ : إِنَّ هَذَا لَا يَعُودُ صَالِحًا وَلَوْ تَابَ مَعَ كَوْنِهِ مُسْلِمًا مُقِرًّا بِتَحْرِيمِ مَا فَعَلَ . وَيَدْخُلُونَ فِي ذَلِكَ مَنْ اسْتَكْرَهَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ وَيَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لِهَذَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مَّا سَلَّطَ عَلَيْهِ مِنْ فَعَلٍ بِهِ مِثْلَ هَذَا وَاسْتَكْرَهَهُ كَمَا يُفْعَلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَمَالِكِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَكَمَا يُفْعَلُ بِأَجْرَاءِ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَكَذَلِكَ مَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنْ صِبْيَانِ الْكَتَاتِيبِ وَغَيْرِهِمْ وَنَسُوا قَوْلَهُ تَعَالَى { وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبِيِّكُمْ } وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ وَكَرْهَتْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ { وَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْلَمُونَ صُورَةَ التَّوْبَةِ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا حَالًا وَعَمَلًا لِأَحَدِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ اعْتِقَادًا فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ ؛ فَإِنَّ الْقُنُوطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَالُهُمْ مُقَابِلَ لِحَالِ مُسْتَحِلِّي الْفَوَاحِشِ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِأَهْلِهَا وَذَلِكَ قَطُّ أَهْلُهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ؛ وَالْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ هُوَ الَّذِي لَا يُؤَيِّسُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَا يُجَرِّهُمُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ . وَهَذَا فِي أَصْلِ الذُّنُوبِ الْإِرَادِيَّةِ نَظِيرُ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَعْتَقِدُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ فَيَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْتَقِدُ أَنَّ تَوْبَةَ الْمُتَبَدِّعِ لَا تُقْبَلُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : { كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ : أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَالْمُقَفَّى وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ } وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : { أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَأَنَا نَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ } وَذَلِكَ أَنَّهُ بُعِثَ بِالْمَلْحَمَةِ وَهِيَ : الْمَقْتَلَةُ لِمَنْ عَصَاهُ وَبِالتَّوْبَةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَبِالرَّحْمَةِ لِمَنْ صَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ وَهُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَكَانَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يُؤْمَرُ بِقِتَالِ . وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْ أُمَمِهِمْ إِذَا أَصَابَ بَعْضُ الذُّنُوبِ يَحْتَاجُ مَعَ التَّوْبَةِ إِلَى عُقُوبَاتٍ شَدِيدَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ } وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَغَيْرِهِ : أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إِذَا أَصَابَ ذَنْبًا أَصَبَتْهُ الْخَطِيئَةُ وَالْكَفَّارَةُ مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِهِ فَأَتَزَلَّ اللَّهُ فِي حَقِّ هَذِهِ الْأَمَةِ : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } إِلَى قَوْلِهِ : { وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } فَخَصَّ الْفَاحِشَةَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ { ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } وَالظُّلْمَ يَتَنَوَّلُ الْفَاحِشَةَ وَغَيْرَهَا تَحْقِيقًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مُطْلَقًا : مِنَ الَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعًا . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إِنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا } وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ :

{ مَنْ تَابَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ } وفي السُّنَنِ عَنْهُ أَيضًا أَنَّهُ قَالَ : { لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا } وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { قَالَ الشَّيْطَانُ وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ فَقَالَ الرَّبُّ تَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي } وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَقُولُ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي ابْنَ آدَمَ لَوْ لَقِيتَنِي بِقِرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً . } وَالَّذِي يَمْنَعُ تَوْبَةَ أَحَدٍ هَؤُلَاءِ إِمَّا بِحَالِهِ وَإِمَّا بِقَالِهِ وَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ : أَنْ يَقُولَ : إِذَا تَابَ أَحَدُهُمْ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ : لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ أَبَدًا أَمَّا اللَّوْلُ فَبَاطِلٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَتَوْبَةِ الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعِ وَفِي ذَلِكَ نَزَاعٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَفِي مَذْهَبِ مَالِكٍ أَيْضًا نَزَاعٌ ذَكَرَهُ صَاحِبُ التَّمْثِيلِ وَالْبَيَانِ فِي " الْجَامِعِ " وَغَيْرِهِ وَتَكَلَّمُوا أَيْضًا فِي تَوْبَةِ الزَّانِغِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي كَوْنِ التَّوْبَةِ فِي الظَّاهِرِ تَدْفِعُ الْعُقُوبَةَ : إِمَّا لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهَا وَإِمَّا لِكَوْنِهَا لَا تَمْنَعُ مَا وَجَبَ مِنَ الْحَدِّ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ : إِنَّ الزَّانِغَ وَنَحْوَهُ إِذَا تَابَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَقْبَلْهَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَمَّا الْقَاتِلُ وَالْمُضِلُّ فَذَلِكَ لِأَجْلِ تَعَلُّقِ حَقِّ الْغَيْرِ بِهِ وَالتَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ لَهَا حَالٌ آخَرُ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي تَقْصِيلِهَا وَإِنَّمَا الْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَالْفَوَاحِشُ خُصُوصًا مَا عَلِمْتَ أَحَدًا نَازَعَ فِي التَّوْبَةِ مِنْهَا وَالزَّانِيَ وَالْمُزْنِي بِهِ مُشْتَرَكَيْنِ فِي ذَلِكَ إِنْ تَابَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَبَيَّنَّ التَّوْبَةَ خُصُوصًا مِنْ عَمَلِ قَوْمٍ لُوطٍ مِنَ الْجَانِبِينَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ الْفَاحِشَةَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ دَعَاهُمْ جَمِيعُهُمْ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا فَلَوْ كَانَتْ تَوْبَةُ الْمَفْعُولِ بِهِ أَوْ غَيْرِهِ لَا تُقْبَلُ لَمْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا لَا يَقْبَلُ قَالَ تَعَالَى : { كَذَبْتَ قَوْمٌ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ } { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ } { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } { فَأَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لَتَوْبَتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ وَالْخَطَابُ وَإِنْ كَانَ لِلْفَاعِلِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَصَّ بِهِ لِأَنَّهُ صَاحِبُ الشَّهْوَةِ وَالطَّلَبِ فِي الْعَادَةِ ؛ بِخِلَافِ الْمَفْعُولِ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ تُخْلَقْ فِيهِ شَهْوَةٌ لِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَعَرَّضَ لَهُ لِمَرَضٍ طَارِئٍ أَوْ أَجْرٍ يَأْخُذُهُ مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ لِعَرَضٍ آخَرَ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . وانظر مجموع الفتاوى - (ج ١٥ / ص ٥١)

فَصَلِّ - وَلَيْسَ مَنْ شَرَطَ وَلِيَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَا يَغْلَطُ وَلَا يُخْطِئُ ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْطِئَ عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ حَتَّى يَحْسَبَ بَعْضُ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوَارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ لَبْسَهَا عَلَيْهِ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ (١)

(١) - قال شيخ الإسلام رحمه الله :

فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَانَ لَهُ حَالٌ : مِنْ مُكَاشَفَةٍ أَوْ تَأْثِيرٍ ؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَالٍ نَفْسَانِيٍّ ؛ أَوْ شَيْطَانِيٍّ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَالٌ بَلْ هُوَ يَتَشَبَّهُ بِأَصْحَابِ الْأَحْوَالِ فَهُوَ صَاحِبُ حَالٍ بَهْتَانِيٍّ . وَعَامَّةُ أَصْحَابِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَالْحَالِ الْبَهْتَانِيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { هَلْ أَتَيْنَاكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ } { تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } . وَ " الْحَلَاغُ " كَانَ مِنْ أُنْمَةِ هَؤُلَاءِ : أَهْلُ الْحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَالْحَالِ الْبَهْتَانِيِّ . وَهَؤُلَاءِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ . فَإِنَّهُمْ هَؤُلَاءِ هُمْ شَوْخُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ مِثْلَ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ كَانُوا لِلْعَرَبِ

الْمُشْرِكِينَ وَمِثْلَ الْكُفَّانِ الَّذِينَ هُمْ بِأَرْضِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا مَاتَ لَهُمْ مَيِّتَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ
 يَحْيَى بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ فَيُكَلِّمُهُمْ وَيَقْضِي دُيُونَهُ وَيُرْدُّ وَدَائِعَهُ وَيُوصِيهِمْ بِوَصَايَا فَإِنَّهُمْ تَأْتِيهِمْ تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي كَانَتْ
 فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ شَيْطَانٌ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِهِ ؛ فَيُظَنُّونَهُ إِيَّاهُ . وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْتَعِيثُ بِالْمَسَايِخِ فَيَقُولُ : يَا سَيِّدِي فَلَانٌ أَوْ
 يَا شَيْخُ فَلَانٍ أَقْضِ حَاجَتِي . فَيَرَى صُورَةَ ذَلِكَ الشَّيْخِ تُحَاطِبُهُ وَيَقُولُ : أَنَا أَقْضِي حَاجَتَكَ وَأُطِيبُ قَلْبَكَ فَيَقْضِي
 حَاجَتَهُ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ عَدُوَّهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا قَدْ تَمَثَّلَ فِي صُورَتِهِ لَمَّا أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَدَعَا غَيْرَهُ . وَأَنَا أَعْرِفُ مِنْ هَذَا
 وَقَائِعَ مُتَعَدَّةً ؛ حَتَّى إِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِي ذَكَرُوا أَنَّهُمْ اسْتَعَاثُوا بِي فِي شِدَائِنْدَ أَصَابَتِهِمْ . أَحَدُهُمْ كَانَ خَائِفًا مِنْ
 الْأَرَمَنِ وَالْآخَرُ كَانَ خَائِفًا مِنَ السَّرِّ : فَذَكَرَ كُلُّ مِنْهُمُ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَعَاثَ بِي رَأَيْتُ فِي الْهَوَاءِ وَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ عَدُوَّهُ .
 فَأَخْبَرْتُهُمْ أَنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِهِذَا وَلَا دَفَعْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا ؛ وَإِنَّمَا هَذَا الشَّيْطَانُ تَمَثَّلَ لِأَحَدِهِمْ فَأَغْوَاهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَى .
 وَهَكَذَا جَرَى لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِنَا الْمَسَايِخَ مَعَ أَصْحَابِهِمْ ؛ يَسْتَعِيثُ أَحَدُهُمْ بِالشَّيْخِ فَيَرَى الشَّيْخَ قَدْ جَاءَ
 وَقَضَى حَاجَتَهُ وَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ : إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ بِهِذَا فَيَتَبَيَّنُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ شَيْطَانًا . وَقَدْ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَمَّا
 ذَكَرَ لِي أَنَّهُ اسْتَعَاثَ بِأَنْثَيْنِ كَانَ يَعْتَقِدُهُمَا وَأَنْهُمَا أَتِيَاهُ فِي الْهَوَاءِ ؛ وَقَالَ لَهُ طِيبَ قَلْبِكَ نَحْنُ نَدْفَعُ عَنْكَ هَؤُلَاءِ
 وَنَفْعَلُ وَنَصْنَعُ . قُلْتُ لَهُ : فَهَلْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ : لَا . فَكَانَ هَذَا مِمَّا دَلَّ عَلَى أَنَّ هَهُمَا شَيْطَانَانِ ؛ فَإِنَّ
 الشَّيَاطِينَ وَإِنْ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْإِنْسَانَ بِقِصَّةٍ أَوْ قِصَّةٍ فِيهَا صِدْقٌ فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ أَضْعَافَ ذَلِكَ كَمَا كَانَتْ الْجَنُّ
 يُخْبِرُونَ الْكُفَّانَ . وَلِهَذَا مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَخْبَارِ الْجَنِّ كَانَ كَذِبُهُ أَكْثَرَ مِنْ صِدْقِهِ ؛ كَشَيْخٍ
 كَانَ يُقَالُ لَهُ : " الشَّيَاح " تَوْبَاهُ وَجَدَّدْنَا إِسْلَامَهُ كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الْجَنِّ يُقَالُ لَهُ : " عَنَتَر " يُخْبِرُهُ بِأَشْيَاءَ فَيَصْدُقُ
 تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً فَلَمَّا ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّكَ تَعْبُدُ شَيْطَانًا مِنْ دُونِ اللَّهِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ : يَا عَنَتَرُ لَا سُبْحَانَكَ ؛ إِنَّكَ
 إِلَهٌ قَدِيرٌ وَتَابَ مِنْ ذَلِكَ فِي قِصَّةٍ مَشْهُورَةٍ . وَقَدْ قَتَلَ سَيْفُ الشَّرْعِ مِنْ قَتْلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مِثْلَ الشَّخْصِ الَّذِي قَتَلْنَاهُ سَنَةَ
 خَمْسِ عَشْرَةٍ وَكَانَ لَهُ قَرِينٌ يَأْتِيهِ وَيُكَاشِفُهُ فَيَصْدُقُ تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً وَقَدْ اتَّقَادَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُنْسَوِينَ إِلَى أَهْلِ
 الْعِلْمِ وَالرَّيَاسَةِ فَيُكَاشِفُهُمْ حَتَّى كَشَفَهُ اللَّهُ لَهُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَرِينَ كَانَ تَارَةً يَقُولُ لَهُ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَيَذْكُرُ أَشْيَاءَ
 تُنَافِي حَالَ الرَّسُولِ فَشَهِدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الرَّسُولَ يَأْتِينِي وَيَقُولُ لِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَكْفُرُ مِنْ أَضَافِهَا
 إِلَى الرَّسُولِ ؛ فَذَكَرْتُ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الْكُفَّانِ وَأَنَّ الَّذِي يَرَاهُ شَيْطَانًا ؛ وَلِهَذَا لَا يَأْتِيهِ فِي الصُّورَةِ
 الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ يَأْتِيهِ فِي صُورَةٍ مُنْكَرَةٍ وَيَذْكُرُ عَنْهُ أَنَّهُ يَخْضَعُ لَهُ ؛ وَيُسَبِّحُ لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ
 الْمُسْكِرَ وَأُمُورًا أُخْرَى . وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الرُّؤْيَا ؛ وَلَمْ يَكُنْ كَاذِبًا فِي أَنَّهُ
 رَأَى تِلْكَ الصُّورَةَ ؛ لَكِنْ كَانَ كَافِرًا فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَنَزُّلاتُ
 شَيْطَانِيَّةٌ بِحَسَبِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ مُرَادِ الشَّيْطَانِ ؛ فَكُلَّمَا بَعُدُوا عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ
 قَرُبُوا مِنَ الشَّيْطَانِ . فَيَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ ؛ وَالشَّيْطَانُ طَارَ بِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرَعُ الْحَاضِرِينَ وَشَيْطَانِيَّةً صَرَخَتْهُمْ .
 وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْضِرُ طَعَامًا وَإِدَامًا وَمَلَأَ الْإِبْرِيْقَ مَاءً مِنَ الْهَوَاءِ وَالشَّيَاطِينُ فَعَلَتْ ذَلِكَ فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّ هَذِهِ
 كَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَنَةِ وَأَمْثَالِهِمْ . وَمَنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْأَحْوَالِ
 الرَّحْمَانِيَّةِ وَالنَّفْسَانِيَّةِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَمَنْ لَمْ يُتَوَرَّ اللَّهُ قَلْبُهُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَاتَّبَعَ الْقُرْآنَ لَمْ يَعْرِفْ طَرِيقَ
 الْمُحَقِّقِ مِنَ الْمُبْطِلِ ؛ وَالتَّبَسُّعَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالْحَالُ كَمَا التَّبَسُّعَ عَلَى النَّاسِ حَالُ مُسْلِمَةٍ صَاحِبِ الْيَمَامَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ
 الْكَذَّابِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ ؛ وَإِنَّمَا هُمْ كَذَّابُونَ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ
 فِيكُمْ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ } . وَأَعْظَمُ الدَّجَّالَةِ فِتْنَةٌ " الدَّجَّالُ الْكَبِيرُ " الَّذِي يَقْتُلُهُ
 عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛ فَإِنَّهُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَتِهِ وَأَمْرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِينُوا مِنْ

فَتَنَّبَهُ فِي صَلَاتِهِمْ . وَقَدْ بَتَّ " أَنَّهُ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ : اْمْطِرِي ؛ فَتَمَطَّرُ ؛ وَلِلْأَرْضِ أَنْتَبِي فَتَنْبِتُ " " وَأَنَّهُ يَقْتُلُ رَجُلًا مُؤْمِنًا ؛ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ قُمْ فَيَقُومُ ؛ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكَ ؛ فَيَقُولُ لَهُ كَذَبْتَ ؛ بَلْ أَنْتَ الْأَعْوَرُ الْكَذَّابُ الَّذِي أَخْبَرْنَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ مَا ارْذَدَّتْ فِيكَ إِلَّا بِصِيرَةٍ فَيَقْتُلُهُ مَرَّتَيْنِ فَيُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَهُ فِي الثَّالِثَةِ فَلَا يُسَلِّطُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ " وَهُوَ يَدْعِي الْإِلَهِيَّةَ . وَقَدْ بَيَّنَّ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ تُنَافِي مَا يَدْعِيهِ : أَحَدُهَا " { أَنَّهُ أَعْوَرُ ؛ وَإِنْ رَبُّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ } . وَالثَّانِيَّةُ " { أَنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرُؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ قَارِيٍّ وَغَيْرِ قَارِيٍّ } . وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : " { وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ } . فَهَذَا هُوَ الدَّجَالُ الْكَبِيرُ وَدُونُهُ دَجَاجِلُهُ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعِي الثُّبُوءَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بَغَيْرِ ادِّعَاءِ الثُّبُوءِ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَيَأْكُمُ وَإِيَهُمْ } . فَالْحَلَّاحُ كَانَ مِنَ الدَّجَاجِلَةِ بَلَا رَبِّبَ ؛ وَلَكِنْ إِذَا قِيلَ : هَلْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ أَمْ لَا ؟ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ ؛ فَلَا يَقُولُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ ؛ وَلَكِنْ ظَهَرَ عَنْهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ مَا أَوْجَبَ كُفْرَهُ وَقَتْلَهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ . مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى - (ج ٣٥ / ص ١١٤)

، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأَمَّةِ عَنِ الْخَطَا وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ (١) ، فَقَالَ تَعَالَى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) } لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) } (٢)

(١) - عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» سنن ابن ماجه (٢١٢١) وهو صحيح لغیره وفي فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين - (ج ١ / ص ١٣٠) ١ أُمَّةٌ نَبِيًّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَانِ: أُمَّةٌ دَعْوَةٌ وَأُمَّةٌ إِبَاجَةٌ، فَأَمَّةُ الدَّعْوَةِ هُمُ كُلُّ إِنْسِيٍّ وَجَنِيٍّ مِنْ حِينِ بَعَثْتَهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأُمَّةُ الْإِبَاجَةِ هُمُ الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللَّهُ لِلدَّخُولِ فِي دِينِهِ الْخَفِيفِ وَصَارُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْأُمَّةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أُمَّةُ الْإِبَاجَةِ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يَزَلْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" رواه مسلم (١٥٣).

والخطأ: فعل الشيء من غير قصد، والنسيان: أن يكون ذاكرةً لشيءٍ فينساه عند الفعل، والإكراه: الإلجاء على قول أو فعل، والإثم مرفوع في هذه الثلاثة؛ وقد جاءت الأدلة من كتاب الله عز وجل على رفع ذلك، قال الله عز وجل: { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ، قال الله: "قد فعلت" أخرجه مسلم (١٢٦)، وقال: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} ، وقال: {إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا} وأما ما أتلفه لغيره فهو مضمون، كالتقتل خطأ تجب فيه الدية مع الكفارة، وإذا أكرهه على الزنا أو قتل معصوم فلا يجوز له ذلك؛ فلا يستبقي حياته بقتل غيره.

٢ مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ:

١ بيان سعة رحمة الله وفضله وإحسانه إلى عباده؛ حيث رفع عنهم الإثم في هذه الثلاثة.

٢ رفع المؤاخذة على الخطأ، فإن كان الخطأ في ترك واجب فعلة، وإن كان في إتلاف حق لغيره ضمنه.

(٢) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ صَدَقَ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الْوَحْيِ ، وَآمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَتَمَامِ حِكْمَتِهِ فِي نِظَامِ خَلْقِيَّتِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ مَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا صَادِقُونَ ، هَادُونَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَنْسَخُ شَرِيعَةً بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَقَالُوا : سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا وَفَهَمْنَاهُ ، وَامْتَنَلْنَا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ ، نَسْأَلُكَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَإِلَيْكَ نَحْنُ صَائِرُونَ .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ . وَلِلنَّفْسِ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ . وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ . وَأَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَاسْتِرْحَامِهِ ، وَالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ تَرَكْنَا فِرْعَانًا وَنَحْنُ نَاسُونَ أَوْ ارْتَكَبْنَا مُحَرَّمًا وَنَحْنُ نَاسُونَ أَوْ مُخْطِئُونَ ، أَوْ عَنْ جَهْلِ بَوَجهِ الشَّرْعِيِّ ، رَبَّنَا وَلَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا ، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ السَّالِفَةِ مِنَ الْأَعْلَالِ وَالْآصَارِ ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ ، وَاعْفُ عَنَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَاعْفِرْ لَنَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِبَادِ ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى أَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ وَمَسَاوِينَا ، وَارْحَمْنَا لِكَيْلَا نَقَعَ مُسْتَقْبَلًا فِي ذَنْبٍ ، أَنْتَ وَثِنَا وَمَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ ، وَجَحَدُوا دِينَكَ .

[البقرة/٢٨٥، ٢٨٦]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ (١) وَقَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ) قَالَ : دَخَلَ قُلُوبُهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- : « قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا » . قَالَ فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) - قَالَ قَدْ فَعَلْتُ (وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ. (٢)

(١) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ فَقَالُوا أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نَطِيقُهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) قَالَ نَعَمْ (وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ

مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) قَالَ نَعَمْ. صحيح مسلم (٣٤٤) وأخرجه البخارى (٤٥٤٥) مختصرا عن ابن عمر

(٢) - صحيح مسلم (٣٤٥)

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - (ج ٢ / ص ١١٢)

قال المؤلف رحمه الله باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ثم ذكر آيتين سبق الكلام عليهما منهما قوله تعالى فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة رضي الله عنهم لما أنزل الله على نبيه هذه الآية { وَإِنْ تُبَلُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ } كبر ذلك عليهم وشق عليهم ذلك لأن ما في النفس من الحديث أمر لا ساحل له فالشيطان يأتي الإنسان ويحدثه في نفسه بأشياء منكرة عظيمة منها ما يتعلق بالأمر الديني ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية ومنها ما يتعلق بالنفس ومنها ما يتعلق بالمال أشياء كثيرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان والله عز وجل يقول { وَإِنْ تُبَلُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ } فإذا كان كذلك هلك الناس فجاء الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجثوا على ركبهم فعملوا ذلك من شدة الأمر والإنسان إذا نزل به أمر شديد يجثو على ركبتيه وقالوا يا رسول الله إن الله تعالى أمرنا بما نطيق الصلاة والجهاد والصيام والصدقة هذه نطيعها نصلي نجاهد نصدق نصوم لكنه أنزل هذه الآية { وَإِنْ تُبَلُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ } وهذه شديدة عليهم لا أحد يطيق أن يمنع الإنسان نفسه عما تحدث به من الأمور التي لو حوسب عليها لهلك فقال النبي عليه الصلاة والسلام أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا أهل الكتابين هم اليهود والنصارى اليهود كتابهم التوراة وهي أشرف الكتب المنزلة بعد القرآن والنصارى كتابهم الإنجيل وهو متمم التوراة واليهود كتابهم التوراة وعصوا أنبياءهم وقالوا سمعنا وعصينا فهل تريدون أن تكونوا مثلهم ولكن قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير وهكذا يجب على المسلم إذا سمع أمر الله ورسوله أن يقول سمعنا وأطعنا ويمتثل بقدر ما يستطيع ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها كثير من الناس اليوم يأتي إليك يقول إن الرسول أمر بكذا هل هو واجب أو سنة؟ والواجب أنه إذا أمرك أن تفعل إن كان واجبا فقد أبرأت الذمة وحصلت خيرا وإن كان مستحبا فقد حصلت خيرا أيضا أما أن تقول هو واجب أو مستحب وتتوقف عن العمل حتى تعرف فهذا لا يكون إلا من إنسان كسول لا يحب الخير ولا الزيادة فيه أما الإنسان الذي يحب الزيادة في الخير فهو إذا علم أمر الله ورسوله قال: سمعنا وأطعنا ثم فعل ولا يسأل هو واجب أو مستحب إلا إذا خالف حيثئذ يسأل ولهذا لم نعهد ولم نعلم أن الصحابة كانوا إذا أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر قالوا يا رسول الله أعلى سبيل الوجوب أم على سبيل الاستحباب ما سمعنا بهذا كانوا يقولون سمعنا وأطعنا ويمشون فأنت افعل وليس عليك من كونه مستحبا أو واجبا ولا يستطيع الإنسان أن يقول إن هذا الأمر مستحب أو واجب إلا بدليل والحجة أن يقول لك المفتي هكذا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ونحن نجد ابن عمر رضي الله عنه لما حدث ابنه بلالا قال إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لا تمنعوا نساءكم المساجد وقد تغيرت الحال بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام قال بلال والله لنمنعهن فسيبه عبد الله بن عمر سببا شديدا لماذا يقول والله لنمنعهن والرسول يقول: لا تمنعوهن ثم إنه هجره حتى مات وهذا يدل على شدة تعظيم الصحابة لأمر الله ورسوله أما نحن فنقول هل هذا الأمر واجب أم مستحب هذا النهي للتحريم أم للكرهية لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حيثئذ هل أثمت بذلك أم لا لأجل أنه إذا قيل لك إنك آثم تجدد توبتك وإذا قيل إنك غير آثم يستريح قلبك أما حين يوجه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب كما كان أدب الصحابة مع الرسول عليه

الصلاة والسلام يفعلون ما أمر ويتركون ما عنه فهم وأجر لكن مع ذلك نحن نبشركم بحديث قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم الحمد لله رفع الحرج كل ما حدثت به نفسك ولكن ما ركنت إليه ولا عملت ولا تكلمت فهو مغفوع عنه حتى ولو كان أكبر من الجبال فاللهم لك الحمد حتى إن الصحابة قالوا يا رسول الله نجد في نفوسنا ما نحب أن تكون حممة يعني فحمة محترقة ولا نتكلم به قال ذاك صريح الإيمان يعني ذاك هو الإيمان الخالص لأن الشيطان ما يلقي مثل هذه الوسوس في قلب حرب في قلب فيه شك إنما يتسلط الشيطان أعاذنا الله منه على قلب مؤمن خالص ليفسده ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود إن اليهود إذا دخلوا في الصلاة لا يوسوسون قال وما يصنع الشيطان بقلب خراب فاليهود كفار قلوبهم خربة فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاحهم لأنها باطلة من أساسها الشيطان يوسوس للمسلم الذي صلاته صحيحة مقبولة ليفسدها يأتي للمؤمن صريح الإيمان ليفسد هذا الإيمان الصريح ولكن والحمد لله من أعطاه الله تعالى طب القلوب والأبدان محمد صلى الله عليه وسلم وصف لنا لهذا طباً ودواء فأرشد إلى الاستعاذة بالله والانتهاة فإذا أحس الإنسان بشيء من هذه الوسوس الشيطانية فإنه يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولينته يعرض عنها ولا يلتفت إليها امض فيما أنت عليه فإذا رأى الشيطان أنه لا سبيل إلى إفساد هذا القلب المؤمن الخالص نكص على عقبيه ورجع ثم إنهم لما قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ولانت لها نفوسهم وذلت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } يعني والمؤمنون آمنوا { كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ كُتُبُهُ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فبين الله عز وجل في هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ثم أنزل الله { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } فالذي ليس في وسع الإنسان لا يكلفه الله به ولا حرج عليه فيه مثل الوسوس التي تهجم على القلب ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يصدق بها ولم يرفع بها رأساً فإنها لا تضره لأن هذه ليست داخلية في وسعه والله عز وجل يقول { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } فقد يحدث الشيطان الإنسان في نفسه عن أمور فظيعة عظيمة ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه { رَبَّنَا لَا تَوَاحِدْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } قال نعم يعني قال الله نعم لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } قال نعم ولهذا قال الله تعالى في وصف رسوله محمد صلى الله عليه وسلم { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } قال الله نعم ولهذا لا يكلف الله تعالى في شرعه ما لا يطيقه الإنسان بل إذا عجز عن الشيء انقل إلى بدله إذا كان له بدل أو سقط عنه إن لم يكن له بدل أما أن يكلف ما لا طاقة له به فإن الله تعالى قال هنا نعم يعني لا أحملكم ما لا طاقة لكم به { وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } قال الله نعم فاعف عنا واغفر لنا وارحمنا هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى واعف عنا يعني تقصيرنا في الواجب واغفر لنا يعني انتهاكنا للمحرم وارحمنا يعني وفقنا للعمل الصالح فالإنسان إما يترك واجبا أو يفعل محرما فإن ترك الواجب فإنه يقول اعف عنا أي اعف عنا ما قصرنا فيه من الواجب وإن فعل المحرم فإنه يقول اغفر لنا يعني ما اقترطنا من الذنوب أو يطلب تثبيتاً وتأييداً وتشيطاً على الخير في قوله { وَارْحَمْنَا } فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى { وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا } أي متولي أمورنا في الدنيا والآخرة فتولنا في الدنيا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان لأن الشيطان رأس الكافرين إذن نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة: أن الله سبحانه وتعالى لا يحملنا

مالا طاقة لنا به ولا يكلفنا إلا وسعنا وأن الوسوس التي تجول في صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ
بها فإنها لا تضر

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (١) (٥) سورة الأحزاب. وَثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » . قَالَ فَحَدَّثْتُ بِهِذَا الْحَدِيثَ أَبَا بَكْرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ فَقَالَ هَكَذَا حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (٢)

(١) - يَنْسَخُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمَ التَّبَنِّيِ الَّذِي كَانَ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَدْ كَانَ التَّبَنِّيُّ جَائِزًا وَظَلَّ حُكْمُ التَّبَنِّيِّ سَارِيًّا فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَتَّبَنَّى وَلَدَ غَيْرِهِ ، فَيُصْبِحُ حُكْمُهُ حُكْمَ الْوَلَدِ مِنَ الصُّلْبِ ، فِي أُمُورِ النَّسَبِ وَالْمِيرَاثِ . . . وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَسَخَ حُكْمَ التَّبَنِّيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَدِّ نِسْبَةِ الْأَدْعِيَاءِ (الْأَوْلَادِ بِالتَّبَنِّيِّ) إِلَى آبَائِهِمْ الْحَقِيقِيِّينَ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ وَالْبِرُّ . (فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ لَا زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ) ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْوَلَدُ الْمُتَّبَنَّى لَا يَعْرِفُ أَبَاهُ لِيُنْسَبَ إِلَيْهِ ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْلَمُوا هَؤُلَاءِ الْأَدْعِيَاءَ إِخْوَانًا لَهُمْ فِي الدِّينِ - إِنْ كَانُوا قَدْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ - وَأَنْ يَعُدُّوهُمْ مَوَالِيَهُمْ إِنْ كَانُوا مُتَحَرِّرِينَ (فَيُقَالُ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ) .

وَلَا حَرَجَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا اخْطَؤُوا فِيهِ مِنْ نِسْبَةِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى غَيْرِ آبَائِهِمْ ، بَعْدَ اسْتِفْرَاحِ الْجَهْدِ فِي الْبَحْثِ وَالاسْتِقْصَاءِ ، أَوْ فِيمَا يَسْبِقُهُمْ بِهِ لِسَانُهُمْ ، وَلَكِنَّ الْحَرَجَ وَالِإِثْمَ وَالْمُؤَاخَذَةَ تَقَعُ عَلَى مَنْ يَفْعَلُوهُ مُتَعَمِّدِينَ بِهِ الْبَاطِلَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ لَذَنْبٍ مَنْ تَابَ أَوْ أَخْطَأَ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، وَهُوَ رَحِيمٌ بِهِ فَلَا يُعَاقِبُهُ مِنْ بَعْدِ التَّوْبَةِ .

(٢) - صحيح البخارى (٧٣٥٢) ومسلم (٤٥٨٤)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٦ / ص ١٤٨)

قَالَ الْعُلَمَاءُ : أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي حَاكِمِ عَالِمِ أَهْلِ الْحُكْمِ ، فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ : أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ ، وَأَجْرٌ بِإِصَابَتِهِ ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ .

وَفِي الْحَدِيثِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : إِذَا أَرَادَ الْحَاكِمُ فَاجْتِهَادَهُ ، قَالُوا : فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْحُكْمِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْحُكْمُ ، فَإِنْ حَكَمَ فَلَا أَجْرَ لَهُ بَلْ هُوَ آثِمٌ ، وَلَا يَنْفَعُ حُكْمَهُ ، سَوَاءٌ وَافَقَ الْحَقَّ أَمْ لَا ؛ لِأَنَّ إِصَابَتَهُ إِتِّهَاقِيَّةٌ لَيْسَتْ صَادِرَةً عَنْ أَصْلٍ شَرْعِيٍّ فَهُوَ عَاصٍ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ ، سَوَاءٌ وَافَقَ الصَّوَابَ أَمْ لَا ، وَهِيَ مَرْدُودَةٌ كُلُّهَا ، وَلَا يُعْذَرُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ فِي السُّنَنِ " الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ : قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ ، قَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَقَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ " ، وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ أَمْ الْمُصِيبُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ مَنْ وَافَقَ الْحُكْمَ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْآخَرُ مُخْطِئٌ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِعُذْرِهِ ؟ وَالْأَصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ الْمُصِيبَ وَاحِدٌ ، وَقَدْ اِجْتَهَدَ الطَّائِفَتَانِ بِهِذَا الْحَدِيثِ ، وَأَمَّا الْأَوَّلُونَ الْقَائِلُونَ : (كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ) فَقَالُوا : قَدْ جُعِلَ لِلْمُجْتَهِدِ أَجْرٌ فَلَوْلَا إِصَابَتُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَجْرٌ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَقَالُوا : سَمَاءُهُ مُخْطِئًا ، لَوْ كَانَ مُصِيبًا لَمْ يُسَمَّ مُخْطِئًا ، وَأَمَّا الْأَجْرُ فَإِنَّهُ حَصَلَ لَهُ عَلَى

تعبه في الاجتهاد ، قال اللؤلؤن : إِنَّمَا سَمَاءُ مُخْطِئًا لِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ أَخْطَأَ النَّصَّ أَوْ اجْتَهَدَ فِيمَا لَا يَسُوغُ فِيهِ
الاجتهاد كَالْمُجْمَعِ عَلَيْهِ وَغَيْرِهِ ، وَهَذَا الْاِخْتِلَافُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْاجْتِهَادِ فِي الْفُرُوعِ ، فَأَمَّا أُصُولُ التَّوْحِيدِ فَالْمُصِيبُ
فِيهَا وَاحِدٌ يَجْمَعُ مَنْ يُعَدُّ بِهِ ، وَلَمْ يُخَالَفْ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ الْعَبْرِيُّ وَدَاوُدُ الظَّاهِرِيُّ فَصَوَّبَا الْمُجْتَهِدِينَ
فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : الظَّاهِرُ أَنَّهُمَا أَرَادَا الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ الْكُفَّارِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَلَمْ يُؤْتَمَّ الْمُجْتَهِدُ الْمُخْطِئُ ؛ بَلْ جَعَلَ لَهُ أَجْرًا عَلَى اجْتِهَادِهِ وَجَعَلَ خَطَأَهُ مَغْفُورًا لَهُ ، وَلَكِنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُصِيبَ لَهُ
أَجْرَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَغْلُظَ لَمْ يَجِبْ عَلَى النَّاسِ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يَقُولُهُ مَنْ هُوَ
وَلِيُّ اللَّهِ لِنَلَا يَكُونُ نَبِيًّا ؛ بَلْ وَلَا يَجُوزُ لَوْلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ فِي قَلْبِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا [لِلشَّرْعِ
] ، وَعَلَى مَا يَقَعُ لَهُ مِمَّا يَرَاهُ إِلَهَامًا وَمُحَادَثَةً وَخَطَابًا مِنَ الْحَقِّ ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْزِضَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ عَلَى مَا جَاءَ
بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ وَافَقَهُ قَبْلَهُ وَإِنْ خَالَفَهُ لَمْ يَقْبَلْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَمُوفِقٌ هُوَ أَمْ مُخَالَفٌ ؟ تَوَقَّفَ فِيهِ

موقف الناس من الإلهام (١)

(١) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٦٩)

فَصَمُّونَ هَذَا الْمَقَامَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْمُبَاحَاتِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ عَلَى " ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ " : قَوْمٌ لَا يَتَصَرَّفُونَ
فِيهَا إِلَّا بِحُكْمِ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ . وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهُوَ حَالُ الْعَبْدِ الرَّسُولِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ فِي ذَلِكَ
. وَقَوْمٌ يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِحُكْمِ إِرَادَتِهِمْ وَالشَّهَوَةِ الَّتِي لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً . وَهَذَا حَالُ النَّبِيِّ الْمَلِكِ . وَهُوَ حَالُ الْأَبْرَارِ
أَهْلِ الْيَمِينِ . وَقَوْمٌ لَا يَتَصَرَّفُونَ بِهَذَا وَلَا بِهَذَا . أَمَّا " الْأَوَّلُ " فَلَعَدَمَ عِلْمِهِمْ بِهِ . وَأَمَّا " الثَّانِي " فَلَزُهُمْ فِيهِ ؛ بَلْ
يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِحُكْمِ الْقَدَرِ الْمَحْضِ اتِّبَاعًا لِإِرَادَةِ اللَّهِ الْخَلْقِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ حِينَ تَعَدَّرَ مَعْرِفَةُ الْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْأُمْرِيَّةِ
وَهَذَا كَالْتَرَجِيحِ بِالْقُرْعَةِ إِذَا تَعَدَّرَ التَّرَجِيحُ بِسَبَبٍ شَرْعِيِّ مَعْلُومٍ وَقَدْ يَتَصَرَّفُ هَؤُلَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِإِلْهَامٍ يَقَعُ فِي
قُلُوبِهِمْ وَخِطَابٍ . وَكَلَامُ " الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ " - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ؛ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالرُّهْدِ فِي إِرَادَةِ النَّفْسِ وَهَوَاهَا حَتَّى لَا يَتَصَرَّفَ بِحُكْمِ الْإِرَادَةِ وَالنَّفْسِ وَهَذَا رَفَعَ لَهُ عَنْ حَالِ الْأَبْرَارِ أَهْلِ الْيَمِينِ
وَعَنْ طَرِيقِ الْمُلُوكِ مُطْلَقًا وَمَنْ حَصَلَ هَذَا وَتَصَرَّفَ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ الْمُحَمَّدِيِّ الْقُرْآنِيِّ فَهُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ لَكِنَّ هَذَا
قَدْ يَنْخَفِي عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ مَعْرِفَةُ هَذَا عَلَى التَّفْصِيلِ قَدْ يَتَعَدَّرُ أَوْ يَعْسُرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ أَلَا تَرَى { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَكَّمَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَحَكَّمَ بِقَتْلِ مُقَاتِلَتِهِمْ ، وَبَسْبِ ذُرَارِيَّتِهِمْ وَغَنِيمَةِ أَمْوَالِهِمْ .
قَالَ : لَقَدْ حَكَّمْتُ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ { " . وَذَلِكَ أَنْ تَخِيرَ وَلِيُّ الْأَمْرِ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالِاسْتِزْقَاقِ ،
وَالْمَنْ وَالْقِدَاءِ لَيْسَ تَخِيرَ شَهْوَةً بَلْ تَخِيرَ رَأْيَ وَمَصْلَحَةً فَعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ الْأَصْلَحَ ، فَإِنْ اخْتَارَ ذَلِكَ فَقَدْ وَافَقَ حُكْمَ
اللَّهِ وَإِلَّا فَلَا . وَلَمَّا كَانَ هَذَا يَخْفَى كَثِيرًا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { " إِذَا حَاصَرْتَ
أَهْلَ حِصْنٍ فَسَأَلُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا حُكْمُ اللَّهِ فِيهِمْ وَلَكِنْ
أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ، وَحُكْمُ أَصْحَابِكَ { " وَالْحَاكِمُ الَّذِي يُنْزِلُ أَهْلَ الْحِصْنِ عَلَى حُكْمِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بِاجْتِهَادِهِ
فَلَمَّا أَمَرَ سَعْدًا بِمَا هُوَ الْأَرْضِيُّ لِلَّهِ وَالْحَابِبُ إِلَيْهِ حَكَّمَ بِحُكْمِهِ وَلَوْ حَكَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَتَهَذَّ حُكْمُهُ فَإِنَّهُ حَكَّمَ بِاجْتِهَادِهِ
وَأِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ . فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَا يَتَيَّنُّ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ فِي الْوَاقِعَةِ الْمَعِينَةِ
يَأْمُرُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ وَأَمَثَالُهُ مِنَ الشُّيُوخِ : " تَارَةً " بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَمْرِ الْبَاطِنِ وَالْإِلْهَامِ إِنْ أَمَكُنْ ذَلِكَ وَ " تَارَةً "

بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب الموجهة من جهة الشرع كما يرجح الشارع بالقرعة . فهم يأمرُونَ
ألا يرجح بمجرد إرادته وهواه فإن هذا إما محرم وإما مكروه وإما مقتصر ، فهم في هذا التهيئ كنههم عن فضول
المباحات . ثم إن تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به وإلا رجحوا : إما " بسبب باطن " من الإلهام والنوق
وإما " بالقضاء والقدر " الذي لا يضاف إليهم . ومن يرجح في مثل هذه الحال " باستخارة الله " كما كان النبي
صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن فقد أصاب .
وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلة " المسألة الشرعية " عند التأمل المجتهد وعند المقلد المستفتي فإنه لا يرجح
شيئاً . بل ما جرى به القدر أقرؤه ولم ينكره . وتارة يرجح أحدهم : إما بتمام وإما برأي مشير ناصح وإما بروية
المصلحة في أحد الفعلين . وأما الترجيح بمجرد الاختيار بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته
واختياره . فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ولكن قاله طائفة من الفقهاء
في العلمى المستفتي : إنه يخير بين المفتين المختلفين . وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران
في الشريعة رجح بمجرد ذوقه وإرادته فالترجح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمر علمي باطن ولا ظاهر لا
يقول به أحد من أئمة العلم والزهد . فائمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا . ولكن من جوز لمجتهد أو مقلد
الترجح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من شرع للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه . لكن قد يقال : القلب
المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي . وعلى هذا التقدير ليس من هذا فمن غلب على قلبه إرادة
ما يحبه الله وبغض ما يكرهه الله إذا لم يدر في الأمر المعين هل هو محبوب لله أو مكروه ورأى قلبه يحبه أو
يكرهه كان هذا ترجيحاً عنده . كما لو أخبره من صدقه أغلب من كذبه فإن الترجيح بخير هذا عند انسداد
وجوه الترجيح ترجيحاً بدليل شرعي . ففي " الجملة " متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله
ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطوا كما أخطأ الذين
جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق . ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً وألهم
حيث رجح أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارت به بالتقوى فالإلهام مثل هذا دليل في حقه ؛ قد يكون أقوى من
كثير من الأقيسة الضعيفة ؛ والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحج بها كثير من
الخاصين في المذهب والخلاف وأصول الفقه . وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : " { اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى { إن في ذلك لآيات للمتوسمين } { وقال
عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ؛ واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة . وقد ثبت
في الصحيح قول الله تعالى : { ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالتوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع
به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبني يصبر وبني يبطش وبني يمشي
{ و) أيضاً فالله - سبحانه وتعالى - فطر عباده على الحنيفة : وهو حب المعروف وبغض المنكر فإذا لم
تستحل الفطرة فالقلوب مبطورة على الحق فإذا كانت الفطرة موقوفة بحقيقة الإيمان متورة بنور القرآن وخفي
عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله وذلك أن
الله علم القرآن والإيمان . قال الله تعالى : { وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل
رسولاً } الآية . ثم قال : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه
نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا } وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن
فأزدنا إيماناً . وفي الصحيحين عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " { إن الله أنزل الأمانة في

جَذَرَ قُلُوبَ الرِّجَالِ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ { " وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ حَدِيثُ النَّوَاسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّاةٌ ، وَدَاعٌ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ وَدَاعٌ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ . فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَفْتَحَ بَابًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ نَادَاهُ الْمُنَادِي - أَوْ كَمَا قَالَ - يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ . وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ { " . فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَاعِظٌ وَالْوَاعِظُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ ؛ فَهَذَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي يَقَعُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مُطَابِقٌ لِأَمْرِ الْقُرْآنِ وَنَهْيِهِ وَلِهَذَا يَقْوَى أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { نُورٌ عَلَى نُورٍ } قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي الْآيَةِ : هُوَ الْمُؤْمِنُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ بِالْأَثَرِ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . نُورُ الْإِيمَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ يُطَابِقُ نُورَ الْقُرْآنِ كَمَا أَنَّ الْمِيزَانَ الْعَقْلِيَّ يُطَابِقُ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . وَقَدْ يُؤْتَى الْعَبْدُ أَحَدُهُمَا وَلَا يُؤْتَى الْآخَرُ . كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأَثْرِجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ . وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ } .

وَالْإِلَهَامُ فِي الْقَلْبِ تَارَةً يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالِاعْتِقَادِ وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَالْحُبِّ وَالْإِرَادَةِ وَالطَّلَبِ فَقَدْ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَرْجَحُ وَأَظْهَرُ وَأَصَوَّبُ وَقَدْ يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَى أَحَدِ الْفَرَعَيْنِ ذُوْنَ الْآخِرِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { قَدْ كَانَ فِي الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعَمُرُ { " وَالْمُحَدَّثُ الْمُطْلَبُ الْمُخَاطَبُ ، وَفِي مَثَلِ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ وَابِصَةً { : الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَسَكَنَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوَكَ { " وَهُوَ فِي السُّنَنِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّوَاسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " { الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ { " وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الْإِثْمُ حِرَازُ الْقُلُوبِ . وَ (أَيْضًا إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ الْكَوْنِيَّةُ قَدْ تَنَكَّشَتْ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَقِينًا أَوْ ظَنًّا فَالْأُمُورُ الدِّيْنِيَّةُ كَذَلِكَ بِطَرِيقِ الْوَلَوِّ فَإِنَّهُ إِلَى كَشْفِهَا أَحْوَجُ لَكِنَّ هَذَا فِي الْعَالَمِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَشْفًا بِدَلِيلٍ وَقَدْ يَكُونُ بِدَلِيلٍ يَنْقَدِحُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَلَا يُمْكِنُهُ التَّعْيِيرُ عَنْهُ وَهَذَا أَحَدُ مَا فُسِّرَ بِهِ مَعْنَى " الْإِسْتِحْسَانِ " . وَقَدْ قَالَ مَنْ طَعَنَ فِي ذَلِكَ - كَأَبِي حَامِدٍ وَأَبِي مُحَمَّدٍ - : مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فَهُوَ هَوَسٌ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُمْكِنُهُ إِبَانَةُ الْمَعَانِي الْقَائِمَةِ بِقَلْبِهِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُبَيِّنُهَا بَيَانًا نَاقِصًا وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَشْفِ يُلْقَى فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الطَّعَامَ حَرَامٌ أَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَافِرٌ أَوْ فَاسِقٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ظَاهِرٍ وَبِالْعَكْسِ قَدْ يُلْقَى فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةُ شَخْصٍ وَأَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ أَوْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ حَلَالٌ . وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا بَيَانُ أَنَّ هَذَا وَحْدَهُ دَلِيلٌ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ لَكِنْ إِنْ مَثَلُ هَذَا يَكُونُ تَرْجِيحًا لِطَالِبِ الْحَقِّ إِذَا تَكَافَأَتْ عَنْدهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ الظَّاهِرَةُ . فَاتَّزَجَّحَ بِهَا خَيْرٌ مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ قَطْعًا فَإِنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَهُمَا بَاطِلَةٌ قَطْعًا . كَمَا قُلْنَا : إِنَّ الْعَمَلَ بِالظَّنِّ النَّاشِئَ عَنْ ظَاهِرٍ أَوْ قِيَاسٍ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ بِتَقْيِصِهِ إِذَا أَحْتَجَّ إِلَى الْعَمَلِ بِأَحَدِهِمَا . وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْجُمْهُورُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ فَلَا يَجُوزُ تَكَاثُفُ الْأَدِلَّةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكِنْ قَدْ تَكَافَأَ عِنْدَ النَّاطِرِ لِعَدَمِ ظُهُورِ التَّرْجِيحِ لَهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَقٌّ مُعَيَّنٌ بَلْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ عَالِمٌ بِالْحَقِّ الْبَاطِنِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلَيْسَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ مَزِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ فَهُوَ لَدَى قَدْ يَجُوزُ أَنْ أَوْ

بَعْضُهُمْ تَكَاثُرُ الْأَدِلَّةِ وَيَجْعَلُونَ الْوَاجِبَ التَّخْيِيرَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَيْسَ عَلَى الظَّنِّ دَلِيلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛ وَإِنَّمَا رُجْحَانُ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ هُوَ مِنْ بَابِ الرُّجْحَانِ بِالْمِيلِ وَالْإِرَادَةُ كَتَرْجِيحِ النَّفْسِ الْعَظِيمَةِ لِلإِتْقَامِ وَالنَّفْسِ الْحَلِيمَةِ لِلْعَفْوِ . وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ حَقٍّ مُعَيَّنٍ يُصِيبُهُ الْمُسْتَدِلُّ تَارَةً وَيُخْطِئُهُ أُخْرَى . كَالْكَعْبَةِ فِي حَقٍّ مَنْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقَبْلَةُ وَالْمُجْتَهِدُ إِذَا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى جِهَةٍ سَقَطَ عَنْهُ الْفَرَضُ بِالصَّلَاةِ إِلَيْهَا كَالْمُجْتَهِدِ إِذَا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى قَوْلٍ فَعَمِلَ بِمُوجِبِهِ كِلَاهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَهُوَ مُصِيبٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ وَلَهُ أَجْرٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَيْسَ مُصِيبًا بِمَعْنَى أَنَّهُ عَلِمَ الْحَقَّ الْمُعَيَّنَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا وَمُصِيبُهُ لَهُ أَجْرَانِ وَهَذَا فِي كَشْفِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ لَكِنْ قَدْ يَخْطِئُ عَلَى الْعَبْدِ . فَإِنَّ الشَّارِعَ يَبَيِّنُ (الْأَحْكَامَ الْكُلِّيَّةَ) . وَأَمَّا (الْأَحْكَامُ الْمُعَيَّنَاتِ) الَّتِي تُسَمَّى تَنْقِيحَ الْمَنَاطِ " مِثْلُ كَوْنِ الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ عَدْلًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ مُؤْمِنًا أَوْ مُنَافِقًا أَوْ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ عَدُوًّا لَهُ وَكَوْنِ هَذَا الْمُعَيَّنِ عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِينَ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ ، وَكَوْنِ هَذَا الْعَقَارِ لَيْتِيمًا أَوْ فَقِيرًا يَسْتَحِقُّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ ، وَكَوْنِ هَذَا الْمَالِ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْ ظُلْمٍ ظَالِمٍ فَإِذَا زَهَدَ فِيهِ الظَّالِمُ انْتَفَعَ بِهِ أَهْلُهُ فَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يَجِبُ أَنْ تُعْلَمَ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَامَّةِ الْكُلِّيَّةِ بَلْ تُعْلَمُ بِالْأَدِلَّةِ خَاصَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا . وَمِنْ طُرُقِ ذَلِكَ " الْإِلَهَامُ " فَقَدْ يُلْهِمُ اللَّهُ بَعْضَ عِبَادِهِ حَالَ هَذَا الْمَالِ الْمُعَيَّنِ وَحَالَ هَذَا الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَقِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ هِيَ مِنْ هَذَا النَّبَابِ لَيْسَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لَشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ قَطُّ لِأَحَدٍ لَا نَبِيٍّ وَلَا وَلِيٍّ أَنْ يَخَالَفَ شَرْعَ اللَّهِ لَكِنْ فِيهَا عِلْمٌ حَالَ ذَلِكَ الْمُعَيَّنِ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ يُوجِبُ فِيهِ الشَّرْعُ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ كَمَنْ دَخَلَ إِلَى دَارٍ وَأَخَذَ مَا فِيهَا مِنْ الْمَالِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ صَاحِبَهَا أَذِنَ لَهُ وَغَيْرُهُ لَمْ يَعْلَمْ ، وَمِثْلُ مَنْ رَأَى ضَالَّةً أَخَذَهَا وَلَمْ يَعْرِفْهَا لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ أَتَى بِهَا هَدِيَّةً لَهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْإِلَهَامِ الصَّحِيحِ . وَ (التَّوَعُّ الْثَانِي) عَكْسُ هَذَا . وَهُوَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ هَوَاهُمْ لَا أَمْرَ اللَّهِ ؛ فَهَؤُلَاءِ لَا يَفْعَلُونَ وَلَا يَأْمُرُونَ إِلَّا بِمَا يُحِبُّونَهُ بِهِوَائِهِمْ وَلَا يَتْرُكُونَ وَيَنْهَوْنَ إِلَّا عَنْ مَا يَكْرَهُونَهُ بِهِوَائِهِمْ وَهَؤُلَاءِ شَرُّ الْخَلْقِ . قَالَ تَعَالَى : { أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَتَتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } قَالَ الْحَسَنُ : هُوَ الْمُنَافِقُ لَا يَهْوِي شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ . وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدًى مِنَ اللَّهِ } وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ وَيُخَالَفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ فَإِذَا أَتَتْ لَا تَتَّابُ عَلَى مَا اتَّبَعْتَهُ مِنَ الْحَقِّ وَتَعَاقَبُ عَلَى مَا خَالَفْتَهُ . وَهُوَ كَمَا قَالَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِأَنَّهُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ إِنَّمَا قَصَدَ اتِّبَاعَ هَوَاهُ لَمْ يَعْمَلْ لِلَّهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ " أَبَا طَالِبٍ " نَصَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَبَّ عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ ؛ لَكِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْقَرَابَةِ لَا لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَمْ يَتَقَبَّلِ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَمْ يُبْنِهِ عَلَى ذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَعَانَهُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ لِلَّهِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ فِيهِ : { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى } { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } { وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى } { إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } { وَلَسَوْفَ يَرْضَى } . (الْقِسْمُ الثَّلَاثُ) : الَّذِي يُرِيدُ تَارَةً إِرَادَةً يُحِبُّهَا اللَّهُ ؛ وَتَارَةً إِرَادَةً يُبْغِضُهَا اللَّهُ . وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ يُطِيعُونَ اللَّهَ تَارَةً وَيُرِيدُونَ مَا أَحَبَّهُ وَيَعْصُونَ تَارَةً وَيُرِيدُونَ مَا يَهْوُونَهُ وَإِنْ كَانَ يَكْرَهُهُ .

وَ (الْقِسْمُ الرَّابِعُ) : أَنْ يَخْلُوَ عَنِ الْإِرَادَتَيْنِ فَلَا يُرِيدُ لِلَّهِ وَلَا لِهَوَاهُ وَهَذَا يَقَعُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَيَقَعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الزُّهَّادِ وَالتَّسَاكُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ . وَأَمَّا خُلُوُّ الْإِنْسَانِ عَنِ الْإِرَادَةِ مُطْلَقًا فَمُمْتَنِعٌ فَإِنَّهُ مَقْطُورٌ عَلَى إِرَادَةِ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ وَعَلَى كَرَاهَةٍ مَا يَضُرُّهُ وَيُؤْذِيهِ وَالزُّهَّادُ النَّاسِكُ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا فَلَا بُدَّ أَنْ يُرِيدَ أَشْيَاءَ يُحِبُّهَا اللَّهُ ؛ مِثْلُ آدَاءِ الْقَرَانِصِ ، وَتَرْكِ الْمَحَارِمِ ؛ بَلْ وَكَذَلِكَ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيدَ أَحْلَهُمْ أَشْيَاءَ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَإِلَّا فَمَنْ لَمْ يُحِبَّ اللَّهُ وَلَا أَحَبَّ شَيْئًا لِلَّهِ فَلَمْ يُحِبَّ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ لَا الشَّهَادَتَيْنِ وَلَا غَيْرَهُمَا ، وَلَا يُرِيدُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ لِبَعْضٍ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ ؛ وَأَمَّا إِرَادَةُ الْعَبْدِ لِمَا يَهْوَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَهَذَا

لَازِمٌ لِّكُلِّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَإِنَّهُ أَرَادَ الْمَعْصِيَةَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا . وَأَمَّا الْخُلُوعُ عَنِ الْإِرَادَتَيْنِ الْمَحْمُودَةِ
وَالْمَذْمُومَةِ فَيَقَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ :

(أَحَدُهُمَا) : مَعَ إِغْرَاضِ الْعَبْدِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ وَإِنْ عَلِمَ بِهَا فَإِنَّهُ قَدْ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ
بِهَا وَهُوَ لَا يُرِيدُهَا وَلَا يَكْرَهُ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَهَا وَإِذَا اقْتَتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لِانْتِصَارِ هَؤُلَاءِ الَّذِي يُحِبُّهُ
اللَّهُ وَلَا لانتصار هؤلاء الذي يُبغضه الله .

وَ (الْوَجْهَ الثَّانِي) : يَقَعُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الزُّهَادِ الْعُبَادِ الْمُتَمَتِّلِينَ لِمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ الْمُجْتَنِبِينَ لِمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
اللَّهَ نَهَى عَنْهُ وَأُمُورٌ أُخْرَى لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مَأْمُورٌ بِهَا وَلَا مَنَهِيٌّ عَنْهَا فَلَا يُرِيدُونَهَا وَلَا يَكْرَهُونَهَا لِعَدَمِ الْعِلْمِ وَقَدْ
يَرْضَوْنَهَا مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةٌ مُقَدَّرَةٌ وَقَدْ يَعْلَمُونَ عَلَيْهَا وَيَرَوْنَ هَذَا مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَأَنَّهُمْ لَمَّا خَلَوْا عَنْ هَوَى النَّفْسِ
كَانُوا مَأْمُورِينَ بِالرِّضَا بِكُلِّ حَادِثٍ ؛ بَلْ وَالْمَعَاوَنَةُ عَلَيْهِ . وَهَذَا مَوْضِعٌ يَقَعُ فِيهِ الْغَلَطُ فَإِنْ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
عَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلَعَيْنَا أَنْ نُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَمَّا مَا لَا يُحِبُّهُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَكْلِفُ فِيهَا مِثْلُ أَفْعَالِ النَّائِمِ وَالْمَجْنُونِ فَهَذَا إِذَا كَانَ اللَّهُ لَا
يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا وَلَا يَكْرَهُهَا وَيَذْمُهَا فَالْمُؤْمِنُ أَيْضًا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحِبَّهَا وَيَرْضَاهَا وَلَا يَكْرَهُهَا . وَأَمَّا كَوْنُهَا مَقْلُوبَةً
وَمَخْلُوقَةً لِلَّهِ فَذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِهَا بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقاتِ وَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ مَا خَلَقَهُ لِمَا شَاءَ مِنْ حِكْمَتِهِ
وَقَدْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ .

وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ " ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ " :

(أَحَدُهَا) الرِّضَا بِالطَّاعَاتِ ؛ فَهَذَا طَاعَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا .

وَ (الثَّانِي) : الرِّضَا بِالْمَصَائِبِ فَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ ؛ إِمَّا مُسْتَحَبٌّ وَإِمَّا وَاجِبٌ .

وَ (الثَّالِثُ) : الْكُفْرُ وَالنَّفْسُوقُ وَالْعِصْيَانُ فَهَذَا لَا يُؤْمَرُ بِالرِّضَا بِهِ بَلْ يُؤْمَرُ بِبُغْضِهِ وَسَخَطِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُ وَلَا
يَرْضَاهُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِذْ يَبْتَغُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } وَقَالَ : { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَسَادَ } وَقَالَ : { وَلَا
يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } وَقَالَ : { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } وَقَالَ : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } . وَهُوَ وَإِنْ
خَلَقَهُ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَخْلُقَ مَا لَا يُحِبُّهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا كَمَا خَلَقَ
الشَّيَاطِينَ . فَحُجْرٌ رَاضُونَ عَنْ اللَّهِ فِي أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ وَهُوَ مَحْمُودٌ عَلَى ذَلِكَ . وَأَمَّا نَفْسُ هَذَا الْفِعْلِ الْمَذْمُومِ
وَفَاعِلُهُ فَلَا تَرْضَى بِهِ وَلَا تَحْمَدُهُ . وَفَرَقَ بَيْنَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَمَا يَرَادُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ مَعَ كَوْنِهِ مُبْغِضًا مِنْ
جِهَةٍ أُخْرَى ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ الْوَاحِدَ يُرَادُ مِنْ وَجْهِ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ . كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ ؛ فَإِنَّهُ
يُبْغِضُ الدَّوَاءَ وَيَكْرَهُهُ وَهُوَ مَعَ هَذَا يُرِيدُ اسْتِعْمَالَهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ لَا لِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مَحْبُوبٌ . وَفِي الْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ
وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ } فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمَّا كَرِهَ مُسَاءَةَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَكْرَهُ الْمَوْتَ كَانَ هَذَا مُقْتَضِيًا أَنْ
يَكْرَهُ إِمَاتَتَهُ مَعَ أَنَّهُ يُرِيدُ إِمَاتَتَهُ ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فَالْأُمُورُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيَنْهَى
عَنْهَا لَا تُحِبُّ وَلَا تُرْضَى ؛ لَكِنْ تَرْضَى بِمَا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ حَيْثُ خَلَقَهَا لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ
الَّتِي لَا يُحِبُّهَا وَلَا يُبْغِضُهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُحِبَّ وَلَا تُرْضَى كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُبْغِضَ . وَالرِّضَا الثَّابِتُ بِالنَّصِّ هُوَ أَنْ يَرْضَى
بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { مَنْ
رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ } " وَأَمَّا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقَدَرِ فَيَرْضَى عَنْ اللَّهِ
إِذْ لَهُ الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَيَرْضَى بِمَا يَرْضَاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي خَلَقَ لِأَجْلِهَا مَا خَلَقَ وَإِنْ كُنَّا نُبْغِضُ مَا يُبْغِضُهُ مِنْ

الْمَخْلُوقَاتِ فَحَيْثُ انْتَهَى الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ أَوْ خَتَمِيَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ لَا يَكُونُ الْإِمْتِثَالُ وَالرِّضَا وَالْمَحَبَّةُ كَمَا يَكُونُ فِي الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَقْدُورًا . وَهَذَا مَوْضِعٌ يَغْلُطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ خَاصَّةِ " السَّالِكِينَ " وَشُيُوحِهِمْ فَضْلًا عَنْ عَامَتِهِمْ وَيَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَطَاعَتِهِمْ لَهُ . فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَعْرَفُ مِنْ غَيْرِهِ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَأَطْوَعُ لَهُ فَهَذَا تَكُونُ حَالُهُ أَحْسَنَ مِمَّنْ يَقْصُرُ عَنْهُ فِي الْمَعْرِفَةِ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَالطَّاعَةِ لَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْعُدُ عَنْ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَيَسْتَرْسِلُ حَتَّى يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ وَيَبْقَى وَاقِفًا مَعَ هَوَاهُ وَالْقَدَرِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَمُوتُ كَافِرًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ فَاسِقًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْقَدَرِيَّةِ مُعْرِضِينَ عَنِ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ اتِّبَاعِ أَمْرٍ وَتَهْيِئَةِ غَيْرِ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ إِمَّا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَإِمَّا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا اسْتَرْسَلَ مَعَ الْقَدَرِ مُطْلَقًا مُمْتَنِعًا لِذَاتِهِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْعَبْدَ مَفْطُورٌ عَلَى مَحَبَّةِ أَشْيَاءَ وَبُغْضِ أَشْيَاءَ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : " إِنَّ الْعَبْدَ يَكُونُ مَعَ اللَّهِ كَالْمَيِّتِ مَعَ الْعَاسِلِ " لَا يَصِحُّ وَلَا يَسُوغُ عَلَى الْإِطْلَاقِ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ؛ وَمَعَ هَذَا فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحِفَاءِ أَمْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَإِذَا عَلِمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَحَبَّهُ . فَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَيُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ .

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ " ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ " طَرَفَانِ وَوَسْطٌ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَافَقَهُ فِي كُلِّ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا رَأَاهُ قَدْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِمُوَافِقٍ لِلشَّرْعِ أَخْرَجَهُ عَنْ وَلَايَةِ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا ، بِوَحْيِ الْأُمُورِ أَوْ سَاطِهَا وَهُوَ أَنْ لَا يُجْعَلَ مَعْصُومًا وَلَا مَأْثُومًا إِذَا كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فَلَا يُتَّبَعُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ . وَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ (١) ، وَأَمَّا إِذَا خَالَفَ قَوْلَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَوَافَقَ قَوْلَ آخَرِينَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْزِمَهُ بِقَوْلِ الْمُخَالَفِ وَيَقُولَ هَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ . (٢)

(١) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٣٨٣)

فَجَمَاعٌ هَذَا أَنْ هَذِهِ الْأُمُورُ تُعْطَى حَقُّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ وَالتَّهْيِئَةِ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ وَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَى مَنْ خَالَفَهُ كَاتِبًا مَنْ كَانَ وَلَمْ يَجْزُ اتِّبَاعُ أَحَدٍ فِي خِلَافِ ذَلِكَ كَاتِبًا مَنْ كَانَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ مِنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ وَطَاعَتِهِ وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ يُعْطَى عُنْدَهُ حَيْثُ عَذَرَتُهُ الشَّرِيعَةُ بِأَنْ يَكُونَ مَسْلُوبَ الْعَقْلِ أَوْ سَاقِطَ التَّمْيِيزِ أَوْ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا اجْتِهَادًا قَوْلِيًّا أَوْ عَمَلِيًّا أَوْ مَعْلُومًا عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُهُ رَدُّ مَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ الْفِعْلِ الْمُنْكَرِ بَلَا ذَنْبٍ فَعَلَهُ وَلَا يُمَكِّنُهُ أَذَاءُ ذَلِكَ الْوَاجِبِ بَلَا ذَنْبٍ فَعَلَهُ وَيَكُونُ هَذَا الْبَابُ نَوْعُهُ مَحْفُوظًا بِحَيْثُ لَا يُتَّبَعُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَلَا يُجْعَلُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا مِنْهَا جَاءَ ؛ بَلْ لَا سَبِيلَ إِلَى اللَّهِ وَلَا شَرْعًا إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَمَّا الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ خَالَفُوا بَعْضَ ذَلِكَ عَلَى الْوُجُوهِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَيَعْدَرُونَ وَلَا يَدْمُونَ وَلَا يُعَاقَبُونَ . فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَأَفْعَالِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَا مِنَ الْأَنَمَةِ إِلَّا مَنْ لَهُ أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ لَا يُتَّبَعُ عَلَيْهَا مَعَ أَنَّهُ لَا يُدْمُ عَلَيْهِ وَأَمَّا الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الَّتِي لَمْ يُعْلَمْ قَطْعًا مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَلْ هِيَ مِنْ مَوَارِدِ الْاجْتِهَادِ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ؛ فَهَذِهِ الْأُمُورُ قَدْ تَكُونُ قَطْعِيَّةً عِنْدَ بَعْضٍ مِنْ بَيْنِ اللَّهِ لَهُ الْحَقُّ فِيهَا ؛ لَكِنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُلْزَمَ النَّاسُ بِمَا بَانَ لَهُ وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ فَلْيَتَحَقَّقْ مِنْ وَجْهِ بِالْقِسْمِ الْأَوَّلِ . وَمِنْ وَجْهِ بِالْقِسْمِ الثَّانِي . وَقَدْ تَكُونُ اجْتِهَادِيَّةً عِنْدَهُ أَيْضًا فَهَذِهِ تَسَلَّمَ لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ وَمَنْ قَلَّدَهُ طَرِيقَهُمْ تَسْلِيمًا نَوْعِيًّا بِحَيْثُ لَا يُنْكَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ كَمَا سَلَّمَ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ تَسْلِيمًا شَخْصِيًّا .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٥٤٦)

فَالْكَمَالُ فِي كَمَالِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَمَنْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَتَرَكَ هَوَاهُ وَاسْتَسَلَّمَ لِلْقَدَرِ أَوْ اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ فَأَخْطَأَ ، فَعَلَّ الْمَأْمُورَ بِهِ إِلَى مَا اعْتَقَدَهُ مَأْمُورًا بِهِ أَوْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الْأَدِلَّةُ فَتَوَقَّفَ عَمَّا هُوَ طَاعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَهَؤُلَاءِ مُطِيعُونَ لِلَّهِ مُتَابُونَ عَلَى مَا أَحْسَنُوهُ مِنَ الْقَصْدِ لِلَّهِ وَاسْتَفْرَعُوهُ مِنْ وَسْئِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا عَجَزُوا عَنْ عِلْمِهِ فَأَخْطَئُوهُ إِلَى غَيْرِهِ فَمَغْفُورٌ لَهُمْ . وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ فِتْنِ تَفَعُّلِ بَيْنَ الْأُمَّةِ فَإِنَّ أَقْوَامًا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ أُمُورًا هُمْ مُجْتَهِدُونَ فِيهَا وَقَدْ أَخْطَئُوا فَتَبْلُغُ أَقْوَامًا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ تَعَمَّدُوا فِيهَا الذَّنْبَ أَوْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ لَا يَعْدُرُونَ بِالْخَطَا وَهُمْ أَيْضًا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ فَيَكُونُ هَذَا مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فِي فِعْلِهِ وَهَذَا مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فِي إِنْكَارِهِ وَالْكَلُّ مَغْفُورٌ لَهُمْ . وَقَدْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا كَمَا قَدْ يَكُونَانِ جَمِيعًا مُذْنِبِينَ . وَخَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ .

(٢) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٣ / ص ٦٦)

و " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى : { إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } . وَقَالَ فِي الَّذِينَ يُخَيِّرُونَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَّا ث : { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى } { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } { ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى } { وَهُمْ جَعَلُوهُمْ إِنَاءًا كَمَا قَالَ : { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءًا } وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى عِنْدَ الرَّحْمَنِ { إِنَاءًا أَشْهَلُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتُبَ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ } وَهَؤُلَاءِ قَالَ عَنْهُمْ : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } لِأَنَّهُ خَيْرٌ مَحْضٌ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ وَهُنَاكَ : { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْجِلُونَ بِهَا وَيَدْعُونَ بِهَا فَهَنَّاكَ عِبَادَةً وَعَمَلٌ بِهِوَ أَنْفُسِهِمْ فَقَالَ : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } وَالَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَمَا قَالَ : { وَالتَّجْمُ إِذَا هَوَى } { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } { عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى } { وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ لَا يَخْرُجْ عَنِ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ مَا قَالَهُ وَلَهُ فِيهِ حُجَّةٌ يَسْتَدِلُّ بِهَا كَانَ غَايَتُهُ الظَّنُّ الَّذِي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا كَاخْتِجَاجِهِمْ بِقِيَاسٍ فَاسِدٍ أَوْ ثَقُلَ كَاذِبٌ أَوْ خَطَّابٌ أَقْبَى إِلَيْهِمْ اعْتَقَلُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ مِنْ إِقْلَاءِ الشَّيْطَانِ . وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ عُمْدَةٌ مَنْ يُخَالِفُ السُّنَّةَ بِمَا يَرَاهُ حُجَّةً وَدَلِيلًا أَمَا أَنْ يَحْتَجَّ بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَيُظَنِّهَا بُرْهَانًا وَأَدِلَّةً قَطْعِيَّةً وَتَكُونُ شُبُهَاتٍ فَاسِدَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْأَفَاطِ مُجْمَلَةٌ وَمَعَانٍ مُتَشَابِهَةٌ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ حَقِّهَا وَبَاطِلِهَا كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ إِنَّمَا يُرَكِّبُ حُجَّجَهُ مِنَ الْأَفَاطِ مُتَشَابِهَةٍ فَإِذَا وَقَعَ الْإِسْتِفسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَذِهِ هِيَ الْحُجَجُ الْعَقْلِيَّةُ وَإِنْ تَمَسَّكَ الْمُبْطِلُ بِحُجَجٍ سَمْعِيَّةٍ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ كَذِبًا عَلَى الرَّسُولِ أَوْ تَكُونَ غَيْرَ دَالَّةٍ عَلَى مَا احْتَجَّ بِهَا أَهْلُ الْبُطُولِ فَالْمَنْعُ إِمَّا فِي الْإِسْنَادِ وَأَمَّا فِي الْمَنْعِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ السَّمْعِيَّةُ هَذِهِ حُجَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ . وَأَمَّا حُجَّةُ أَهْلِ النَّوَقِ وَالْوَجْدِ وَالْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُمْ إِلَهَامَاتٌ صَحِيحَةٌ مُطَابِقَةٌ كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { قَدْ كَانَ فِي الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعَمَّرَ } وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ أَفْتَرَبُوا مِنْ أَقْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهَا تُجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ . وَفِي التَّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ : { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } { وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : أَظُنُّهُ وَاللَّهِ لِلْحَقِّ يَقْذِفُهُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ وَفِي صَحِيحِ

الْبَخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا } وَفِي رِوَايَةٍ { فِي يَسْمَعُ وَيَبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي } فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ بِالْحَقِّ وَيُبْصِرُ بِهِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَكَلَّ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ } وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى { نُورٌ عَلَى نُورٍ } نُورُ الْإِيمَانِ مَعَ نُورِ الْقُرْآنِ . وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ } وَهُوَ الْمُؤْمِنُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَّبِعُهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ شَهِدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِمَثَلِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ بَيِّنَةِ الْإِيمَانِ ...

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » (١)

(١) - صحيح البخاري (٣٤٦٩) وصحيح مسلم (٦٣٥٧)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٠ / ص ٤٨٥)

قَوْلُهُ : (مُحَدِّثُونَ) بِفَتْحِ الدَّالِ جَمْعُ مُحَدِّثٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ فَقِيلَ : مُلْهِمٌ ، قَالَهُ الْكَثَرُ قَالُوا : الْمُحَدِّثُ بِالْفَتْحِ هُوَ الرَّجُلُ الصَّادِقُ الظَّنَّ ، وَهُوَ مَنْ أُلْقِيَ فِي رُوعِهِ شَيْءٌ مِنْ قِبَلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَيَكُونُ كَالَّذِي حَدَّثَهُ غَيْرُهُ بِهِ ، وَبِهَذَا جَزَمَ أَبُو أَحْمَدَ الْعَسْكَرِيُّ . وَقِيلَ مَنْ يَجْرِي الصَّوَابُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، وَقِيلَ مُكَلِّمٌ أَيْ تُكَلِّمُهُ الْمَلَائِكَةُ بِغَيْرِ بُيُوتٍ ، وَهَذَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا وَلَفْظُهُ " قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يُحَدِّثُ ؟ قَالَ تَتَكَلَّمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى لِسَانِهِ " رَوَيْنَاهُ فِي " فَوَائِدِ الْجَوْهَرِيِّ " وَحَكَاهُ الْقَابِيسِيُّ وَآخَرُونَ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ثَبَتَ فِي الرِّوَايَةِ الْمُعَلَّقَةِ . وَيَحْتَمِلُ رَدَّهُ إِلَى الْمَعْنَى الْأُولَى أَيْ تُكَلِّمُهُ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَرْمُكُلْمَا فِي الْحَقِيقَةِ فَيَرْجِعْ إِلَى الْإِلْهَامِ ، وَفَسَّرَهُ ابْنُ التَّيْنِ بِالتَّفَرُّسِ ، وَوَقَعَ فِي مُسْنَدِ " الْحُمَيْدِيِّ " عَقِبَ حَدِيثِ عَاتِشَةَ " الْمُحَدِّثُ الْمُلْهِمُ بِالصَّوَابِ الَّذِي يُلْقَى عَلَى فِيهِ " وَعِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ " مُلْهُمُونَ ، وَهِيَ الْإِصَابَةُ بِغَيْرِ بُيُوتٍ " وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ ابْنِ عُيَيْنَةَ " مُحَدِّثُونَ يَعْنِي مُفْهِمُونَ " وَفِي رِوَايَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ " قَالَ إِبْرَاهِيمُ - يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ رِوَايَةً - قَوْلُهُ مُحَدِّثٌ أَيْ يُلْقَى فِي رُوعِهِ " انْتَهَى ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ " إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ " أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ، وَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ بِلَالٍ ، وَأَخْرَجَهُ فِي " الْوَسْطِ " مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُدَ " يَقُولُ بِهِ " بَدَلَ قَوْلِهِ " وَقَلْبِهِ " وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي " الْوَسْطِ " مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ نَفْسَهُ .

قَوْلُهُ : (زَادَ زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ سَعْدٍ) هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَذْكُورُ ، وَفِي رِوَايَتِهِ زِيَادَتَانِ : إِحْدَاهُمَا بَيَانُ كَوْنِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالثَّانِيَةُ تَفْسِيرُ الْمُرَادِ بِالْمُحَدِّثِ فِي رِوَايَةِ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ قَالَ بَدَلَهَا " يُكَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ " .

قَوْلُهُ : (مِنْهُمْ أَحَدٌ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهِيِّ " مِنْ أَحَدٍ " وَرِوَايَةُ زَكَرِيَّا وَصَلَهَا الْإِسْمَاعِيلِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي مُسْتَخْرَجِهِمَا ، وَقَوْلُهُ " وَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي " قِيلَ لَمْ يُوْرِدْ هَذَا الْقَوْلُ مَوْْرِدَ التَّرْدِيدِ فَإِنَّ أُمَّتَهُ أَفْضَلُ الْأُمَمِ ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ وَجَدَ فِي غَيْرِهِمْ فِيمَا كَانَ وَجُودُهُ فِيهِمْ أَوْلَى ، وَإِنَّمَا أُوْرِدَهُ مَوْْرِدَ التَّأْكِيدِ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ : إِنْ يَكُنْ لِي صَدِيقٌ فَإِنَّهُ فُلَانٌ ، يُرِيدُ اخْتِصَاصَهُ بِكَمَالِ الصَّدَاقَةِ لَا نَفْيِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَنَحْوَهُ قَوْلُ الْأَجِيرِ : إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ فَوْقِي حَقِّي ، وَكِلَاهُمَا عَالِمٌ بِالْعَمَلِ لَكِنْ مُرَادُ الْقَائِلِ أَنَّ تَأْخِيرَ حَقِّي عَمَلٍ مِنْ عِنْدِهِ شَكٌّ فِي كَوْنِي عَمِلْتُ . وَقِيلَ

الْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ وُجُودَهُمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ قَدْ تَحَقَّقَ وَقُرْعَهُ ، وَسَبَبَ ذَلِكَ إِحْتِيَاجَهُمْ حَيْثُ لَا يَكُونُ حِينَئِذٍ فِيهِمْ نَبِيٌّ ، وَاحْتِمَالُ عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ لَا تَحْتَاجَ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَى ذَلِكَ لِاسْتِغْنَائِهَا بِالْقُرْآنِ عَنْ حُلُوثِ نَبِيٍّ ، وَقَدْ وَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ الْمُحَدَّثَ مِنْهُمْ إِذَا تَحَقَّقَ وُجُودُهُ لَا يَحْكُمُ بِمَا وَقَعَ لَهُ بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَرْضِهِ عَلَى الْقُرْآنِ ، فَإِنْ وَافَقَهُ أَوْ وَافَقَ السُّنَّةَ عَمِلَ بِهِ وَإِلَّا تَرَكَهُ ، وَهَذَا وَإِنْ جَازَ أَنْ يَقَعَ لَكِنَّهُ نَادِرٌ مِمَّنْ يَكُونُ أَمْرُهُ مِنْهُمْ مَنِيبًا عَلَى اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَتَمَحَّضَتِ الْحِكْمَةُ فِي وُجُودِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ بَعْدَ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ فِي زِيَادَةِ شَرَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِوُجُودِ أَمْثَلِهِمْ فِيهِ ، وَقَدْ تَكُونُ الْحِكْمَةُ فِي تَكْثِيرِهِمْ مُضَاهَاةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا فَاتَ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَثْرَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِيهَا لِكُونَ نَبِيِّهَا خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ عَوْضُوا بِكَثْرَةِ الْمُلهِمِينَ . وَقَالَ الطَّبِيُّ : الْمُرَادُ بِالْمُحَدَّثِ الْمُلهِمُ الْبَالِغُ فِي ذَلِكَ مَبْلَغِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّدَقِ ، وَالْمَعْنَى لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ أَنْبِيَاءٌ مُلهِمُونَ ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ هَذَا شَأْنَهُ فَهُوَ عُمَرُ ، فَكَأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي انْقِطَاعِ قَرِينِهِ فِي ذَلِكَ هَلْ نَبِيٌّ أَمْ لَا فَلِذَلِكَ أَتَى بِلَفْظِ " إِنْ " وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ " لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ " فَلَوْ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ إِنْ فِي الْآخِرِ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ، انْتَهَى . وَالْحَدِيثُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي " الْأَوْسَطِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ، وَلَكِنْ فِي تَقْرِيرِ الطَّبِيِّ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِ الْحَدِيثِ " مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ " وَلَا يَتِمُّ مُرَادُهُ إِلَّا بِفَرَضِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » (١).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ : « إِنْ اللَّهُ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ ». وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ (٢)

(١) - سنن الترمذی (٤٠٥٠) وأحمد (١٧٨٦٧) والصحيحة (٣٢٧) وصحيح الجامع (٥٢٨٤) صحيح لغيره
وفي مجموع الفتاوى - (ج ٣٥ / ص ١٢٣)

وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا إِلَّا مَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ } . فَغَايَةُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْأَنْمَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونُوا وَرَثَةَ أَنْبِيَاءٍ . وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّنْصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَالْإِجْمَاعِ { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلصَّدِّيقِ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا عَبْرَهَا : أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا } وَقَالَ الصَّدِّيقُ : أَطِيعُنِي مَا أَطَعْتَ اللَّهَ فَإِذَا عَصَيْتَ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ وَغَضِبَ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ : دَعْنِي أَضْرِبُ عَنْقَهُ فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتَ فَاعِلًا قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ : مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ نَبِيًّا قُتِلَ وَمَنْ سَبَّ غَيْرَ النَّبِيِّ لَا يُقْتَلُ بِكُلِّ سَبِّ سَبِّهِ ؛ بَلْ يُفْصَلُ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنْ مَنْ قَذَفَ أُمَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُتِلَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ؛ لِأَنَّهُ قَذَحَ فِي نَسَبِهِ وَلَوْ قَذَفَ غَيْرَ أُمَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ بِرَأْدَتِهَا لَمْ يُقْتَلْ " . وَكَذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَانَ يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوَاضِعَ بِمِثْلِ هَذِهِ فَيَرْجِعُ عَنْ أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ فِي خِلَافِ مَا قَالَ وَيَسْأَلُ الصَّحَابَةَ عَنْ بَعْضِ السُّنَّةِ حَتَّى يَسْتَفِيدَهَا مِنْهُمْ وَيَقُولُ فِي مَوَاضِعَ : وَاللَّهِ مَا يَدْرِي عُمَرُ أَصَابَ الْحَقُّ أَوْ أَخْطَأَ . وَيَقُولُ : امْرَأَةٌ أَصَابَتْ وَرَجُلٌ أَخْطَأَ . وَمَعَ هَذَا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ ؛ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ } وَفِي التِّرْمِذِيِّ : " { لَوْ لَمْ أُبْعَثْ

فِيكُمْ لُبَّثَ فِيكُمْ عُمَرُ { وَقَالَ : " { إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ { فَإِذَا كَانَ الْمُحَدَّثُ الْمُلْهُمُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ بِهِذِهِ الْمَنْزِلَةِ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ فَكَيْفَ بغيرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَنْلُوهَا مَنْزِلَتُهُ فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أَعْلَمُ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ وَأَعْظَمُ طَاعَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ سَائِرِهِمْ وَأَوْلَى بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ مِنْهُمْ وَقَدْ ثَبَتَ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ { رُويَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ نَحْوِ ثَمَانِينَ وَجْهًا وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدْتَهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي . وَالْأَقْوَالُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ كَثِيرَةٌ .

(٢) - سنن الترمذی (٤٠٤٦) وأحمد (٥٢٦٤ و ٩٤٥١ و ٢١٩٠١) وصحيح الجامع (١٧٣٦) من طرق وهو

صحيح مشهور

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٩ / ص ٢٤٦٩)

رقم الفتوى ٦٢٩٨٤ فضل عمر بن الخطاب وموافقاته للقرآن الكريم

تاريخ الفتوى : ٠١ جمادى الأولى ١٤٢٦

السؤال

إذا أمكن يا فضيلة الشيخ أن تسرد الآيات التي وافقت عند نزولها كلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الأحاديث التي خصها به سيد الخلق محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبعض الصحابة رضي الله عنهم؟ وجزاكم الله خيراً.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإنه قد ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء، والهيشمي في مجمع الزوائد كثيراً من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة في فضل عمر رضي الله عنه، وقد فصل السيوطي في بيان موافقات الوحي لكلام عمر فقال: فصل في موافقات عمر رضي الله عنه: قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين، أخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن، وأخرج ابن عساكر عن علي قال: إن في القرآن لرأياً من رأي عمر. وأخرج عن ابن عمر مرفوعاً ما قال الناس في شيء وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر.

وأخرج الشيخان عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى. وقلت: يا رسول الله يدخل على نساءك البر والفاجر فلو أمرتني يحتجن فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك.

وأخرج مسلم عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث في الحجاب وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم ففي هذا الحديث خصلة رابعة، وفي التهذيب للنووي: نزل القرآن بموافقة في أسرى بدر وفي الحجاب وفي مقام إبراهيم وفي تحريم الخمر فزاد خصلة خامسة، وحديثها في السنن ومستدرک الحاكم أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تحريمها.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. الآية فلما نزلت قلت: أنا فتبارك الله حسن الخالقين فنزلت: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. فزاد

في هذا الحديث خصلة سادسة وللحديث طريق آخر عن ابن عباس أوردته في التفسير المسند.

ثم رأيت في كتاب فضائل الإمامين لأبي عبد الله الشيباني قال: وافق عمر ربه في أحد وعشرين موضعاً فذكر هذه الستة وزاد سابعاً قصة عبد الله ابن أبي، قلت: حديثها في الصحيح عنه قال: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فقمت حتى وقفت في صدره فقلت: يا رسول الله أو على عدو الله ابن أبي القائل يوم كذا كذا، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا. الآية، وثامناً: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ. الآية، وتاسعاً: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ. الآية، قلت: هما مع آية المائدة خصلة واحدة والثلاثة في الحديث السابق.

وعاشراً لما أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لقوم: قال عمر: سواء عليهم فأنزل الله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. قلت: أخرجه الطبراني عن ابن عباس، الحادي عشر لما استشار صلى الله عليه وسلم الصحابة في الخروج إلى بدر أشار عمر بالخروج فنزلت: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ. الآية، الثاني عشر لما استشار الصحابة في قصة الإفك قال عمر: من زوجها يا رسول الله قال: الله، قال: أفئظن أن ربك دلس عليك فيها سبحانه هذا بهتان عظيم فنزلت كذلك. الثالث عشر قصته في الصيام لما جامع زوجته بعد الانتباه وكان ذلك محرماً في أول الإسلام فنزل: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ. الآية، قلت: أخرجه أحمد في مسنده.

الرابع عشر قوله تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلِ. الآية، قلت: أخرجه ابن جرير وغيره من طرق عديدة وأقر بها للموافقة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً لقي عمر فقال: إن جبريل الذي يذكره صاحبكم عدو لنا، فقال له عمر: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين فنزلت على لسان عمر.

الخامس عشر قوله تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ. الآية، قلت: أخرجه قصتها ابن أبي حاتم وابن مرويه عن أبي الأسود قال اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى بينهما فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل قضى لي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا فقال ردنا إلى عمر فقال أكذاك قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكم فخرج إليهما مشتملاً على سيفه فضرب الذي قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر فقال يا رسول الله قتل عمر والله صاحبي، فقال: ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن، فأنزل الله: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. الآية، فأهدر دم الرجل وبرئ عمر من قتله وله شاهد موصول أوردته في التفسير المسند.

السادس عشر الاستئذان في الدخول وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرم الدخول فنزلت آية الاستئذان. السابع عشر قوله في اليهود إنهم قوم بهت.

الثامن عشر قوله تعالى ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، قلت: أخرجه قصتها ابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله وهي في أسباب النزول.

التاسع عشر رفع تلاوة الشيخ والشيخة إذا زنيا الآية. العشرون قوله يوم أحد لما قال أبو سفيان أفي القوم فلان، لا نجيبه، فوافقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: أخرجه قصته أحمد في مسنده.

وفي مجمع الزوائد للهيثم في باب مناقب عمر كثير من الأحاديث وأقوال الصحابة نذكر أثبتها مع كلام الهيثمي على سنده فمن ذلك ما روى عن أبي وائل قال: قال عبد الله لو أن علم عمر وضع في كفة الميزان ووضع علم

أهل الأرض في كفة لرجح علمه بعلمهم، قال وكيع: قال الأعمش فأنكرت ذلك فأنتيت إبراهيم فذكرته له، فقال: وما أنكرت من ذلك فوالله لقد قال عبد الله أفضل من ذلك قال إني لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم ذهب عمر رواه الطبراني بأسانيد ورجال هذا رجال الصحيح غير أسد بن موسى وهو ثقة.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت في النوم أني أعطيت عسا مملوءا لبنا فشربت حتى تملأت حتى رأيتني يجري في عروقي بين الجلد واللحم ففضلت فضلة فأعطيتها عمر بن الخطاب فأولوها قالوا: يا نبي الله هذا علم أعطاك الله فملاك منه ففضلت فضلة فأعطيتها عمر بن الخطاب فقال: أصبتم، قلت: هو في الصحيح بغير سياقه رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول اللهم أخرج ما في صدر عمر من غل وأبدله إيماناً يقول ذلك ثلاث مرات. رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. رواه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط ورجال البخاري رجال الصحيح غير الجهم ابن أبي الجهم وهو ثقة.

وعن علي قال: إذا ذكر الصالحون فحيها بعمر ما كنا نبعد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن السكينة تنطق على لسان عمر. رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

وعن ابن مسعود قال: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر. رواه الطبراني وإسناده حسن، وعن طارق بن شهاب قال: كنا نتحدث أن السكينة تنزل على لسان عمر. رواه الطبراني ورجاله ثقات. والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

وفيه { لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ } (١).
وَكَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ (٢). ثَبَتَ هَذَا عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ .
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لَشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذَا . إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ (٣). وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عُمَرَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ مَلِكٍ (٤).

(١) - المعجم الكبير للطبراني (١٣٩١١) وسنده واه ولكنه متنه صحيح

(٢) - مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٨١) وابن أبي شيبة (٣١٩٦٩) وإسناده صحيح والمعجم الكبير للطبراني

(٨٧٣٩) عن ابن مسعود وهو حسن وقد ثبتت عن من رواية زر بن حبيش والشَّعْبِيِّ

(٣) - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لَشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذَا . إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ ، بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ فَقَالَ لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي ، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ ، عَلَى الرَّجُلِ ، فَذَعَى لَهُ ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتَقْبَلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، قَالَ فَإِنِّي أَغْرَمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي . قَالَ كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جَنَّتِكَ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ ، فَقَالَتْ أَلَمْ تَرَ الْجَنَّ وَإِبْلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ انْكَاسِهَا وَلُحُوقِهَا بِالْقِلَاصِ وَأَخْلَاسِهَا قَالَ عُمَرُ صَدَقَ ، بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ آلِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعَجَلٍ فَذَبَحَهُ ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ ، لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا

مِنْهُ يَقُولُ يَا جَلِيحُ ، أَمْرٌ نَجِيحٌ رَجُلٌ فَصِيحٌ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . فَرْتَبَ الْقَوْمُ قُلْتُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا
ثُمَّ نَادَى يَا جَلِيحُ ، أَمْرٌ نَجِيحٌ ، رَجُلٌ فَصِيحٌ ، يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَقُمْتُ فَمَا نَشِينَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ . صحيح
البخارى (٣٨٦٦)

(٤) - أخرجه ابن عساکر (١١١ / ٤٤) وسير أعلام النبلاء - (ج ٩ / ص ٢٠٣) صحيح

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى - (ج ١٣ / ص ٦٦) :

وَقَدْ اسْتَفَاضَتْ التَّصَوُّصُ الصَّحِيحَةُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ ثُمَّ
الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ } فَجُمِلَةُ الْقُرْنِ الْأَوَّلِ أَفْضَلُ مِنَ الْقُرْنِ الثَّانِي وَالثَّانِي أَفْضَلُ مِنَ الثَّالِثِ وَالثَّالِثُ
أَفْضَلُ مِنَ الرَّابِعِ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي الرَّابِعِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الثَّالِثِ وَكَذَلِكَ فِي الثَّالِثِ مَعَ الثَّانِي . وَهَلْ
يَكُونُ فِيمَنْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ الْمَفْضُولِينَ لَا الْفَاضِلِينَ ؟ هَذَا فِيهِ نِزَاعٌ وَفِيهِ قَوْلَانِ
حَكَاهُمَا الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَفْرَضُهَا فِي مِثْلِ مُعَاوِيَةَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ لَهُ مَزِيَّةُ
الصَّحْبَةِ وَالْجِهَادِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعُمَرُ لَهُ مَزِيَّةُ فَضِيلَتِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالزُّهْدِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَ " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ كَمَا
قَالَ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ
رَبِّهِمُ الْهُدَى } . وَقَالَ فِي الَّذِينَ يُخْبِرُونَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثُ : { إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ
تَسْمِيَةً الْأُنْثَى } { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } { فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ
تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } { ذَلِكَ مَبْغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى } وَهُمْ جَعَلُوهُمْ إِنَاثًا كَمَا قَالَ : { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا } وَفِي الْقِرَاءَةِ
الْآخَرَى عِنْدَ الرَّحْمَنِ { إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُّ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ } وَهَؤُلَاءِ قَالَ عَنْهُمْ : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ } لِأَنَّهُ خَبَرٌ مُحْضٌ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ وَهَنَّاك : { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا فَهَنَّاكَ عِبَادَةً
وَعَمَلٌ يَهْوَى أَنْفُسَهُمْ فَقَالَ : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } وَالَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَمَا قَالَ : {
وَالْجَمُّ إِذَا هَوَى } { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } { عِلْمُهُ
شَدِيدُ الْقُوَى } وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ لَا يَخْرُجُ عَنِ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ مَا قَالَهُ وَلَهُ فِيهِ
حُجَّةٌ يَسْتَدِلُّ بِهَا كَانَ غَايَتُهُ الظَّنُّ الَّذِي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا كَا حَتَّاجِهِمْ بِقِيَاسٍ فَاسِدٍ أَوْ قَلَّ كَاذِبٍ أَوْ خِطَابٍ
أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ مِنَ الْإِقْدَاءِ الشَّيْطَانِ . وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ عُمْدَةٌ مَنْ يُخَالِفُ السُّنَّةَ بِمَا يَرَاهُ حُجَّةً
وَدَلِيلًا أَمَّا أَنْ يَحْتَجَّ بِأَدَلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَيُظَنِّهَا بُرْهَانًا وَأَدَلَّةً قَطْعِيَّةً وَتَكُونُ شُبُهَاتٍ فَاسِدَةً مُرَكَّبَةً مِنْ أَفْهَامٍ مُجْمَلَةٍ وَمَعَانٍ
مُتَشَابِهَةٍ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ حَقِّهَا وَبَاطِلِهَا كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ إِنَّمَا
يُرَكَّبُ حُجَّتُهُ مِنْ أَفْهَامٍ مُتَشَابِهَةٍ فَإِذَا وَقَعَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الْعَقْلِيَّةُ
وَإِنْ تَمَسَّكَ الْمُبْطِلُ بِحُجَجٍ سَمْعِيَّةٍ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ كَذِبًا عَلَى الرَّسُولِ أَوْ تَكُونَ غَيْرَ دَالَّةٍ عَلَى مَا احْتَجَّ بِهَا أَهْلُ
الْبُطُولِ فَالْمَنْعُ إِمَّا فِي الْإِسْنَادِ وَأَمَّا فِي الْمَتْنِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ السَّمْعِيَّةُ هَذِهِ حُجَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ
الظَّاهِرِ . وَأَمَّا حُجَّةُ أَهْلِ النَّوْقِ وَالْوَجْدِ وَالْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُمْ الْهَامَاتُ صَحِيحَةٌ
مُطَابَقَةٌ كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ
فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعَمَّرَ } وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ اقْتَرَبُوا مِنْ أَقْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهَا تُجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ
صَادِقَةٌ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ

بُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } { وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : أَظُنُّهُ وَاللَّهِ لِلْحَقِّ يَقْدِفُهُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا } وَفِي رِوَايَةٍ { فِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي } فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ بِالْحَقِّ وَيُبْصِرُ بِهِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَكَلَّ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ } وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى { نُورٌ عَلَى نُورٍ } نُورُ الْإِيمَانِ مَعَ نُورِ الْقُرْآنِ . وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ } وَهُوَ الْمُؤْمِنُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَّبِعُهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ شَهِدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِمِثْلِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ بَيِّنَةِ الْإِيمَانِ وَهَذَا الْقَدْرُ مِمَّا أَقَرَّ بِهِ حُذَقُ الطُّفَّارِ لَمَّا تَكَلَّمُوا فِي وَجُوبِ النَّظَرِ وَتَحْصِيلِهِ لِلْعِلْمِ فَقِيلَ لَهُمْ : أَهْلُ التَّصَنُّفِ وَالرِّيَاضَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّأَلُّهِ تَحْصُلُ لَهُمُ الْمَعَارِفُ وَالْعُلُومُ الْيَقِينِيَّةُ بِدُونِ النَّظَرِ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ الْمُقَلَّبُ بِالْكِبَرِيِّ - للرازي وَرَفِيقِهِ وَقَدْ قَالَ لَهُ يَا شَيْخُ بَلَّغْنَا أَنَّكَ تَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ فَقَالَ : نَعَمْ فَقَالَ : كَيْفَ تَعْلَمُ وَتَحْرُسُ تَنْتَظِرُ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ كُلَّمَا ذَكَرَ شَيْئًا أَفْسَدْتَهُ وَكُلَّمَا ذَكَرْتَ شَيْئًا أَفْسَدْتَهُ ؟ فَقَالَ : - هُوَ وَارِدَاتُ تَرُدُّ عَلَى النَّفْسِ تَعْجِزُ النَّفْسُ عَنْ رَدِّهَا فَجَعَلَا يَعْجَبَانِ مِنْ ذَلِكَ وَيُكَرِّرَانِ الْكَلَامَ وَطَلَبَ أَحَدُهُمَا أَنْ تَحْصُلَ لَهُ هَذِهِ الْوَارِدَاتُ فَعَلِمَهُ الشَّيْخُ وَأَدَّبَهُ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ وَكَانَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ النَّفَاقَةِ

مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٧٣)

فَقِي " الْجُمْلَةُ " مَتَى حَصَلَ مَا يَظُنُّ مَعَهُ أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَ هَذَا تَرْجِيحًا بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ وَالَّذِينَ أَنْكَرُوا كَوْنَ الْإِلَهَامِ طَرِيقًا عَلَى الْإِطْلَاقِ أَخْطَئُوا كَمَا أَخْطَأَ الَّذِينَ جَعَلُوهُ طَرِيقًا شَرْعِيًّا عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَلَكِنْ إِذَا اجْتَهَدَ السَّالِكُ فِي الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ الظَّاهِرَةِ فَلَمْ يَرِ فِيهَا تَرْجِيحًا وَأُلْهِمَ حِينَئِذٍ رُجْحَانِ أَحَدِ الْفِعْلَيْنِ مَعَ حُسْنِ قَصْدِهِ وَعِمَارَتِهِ بِالتَّقْوَى فَإِلَهَامٌ مِثْلُ هَذَا دَلِيلٌ فِي حَقِّهِ ؛ قَدْ يَكُونُ أَقْوَى مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْيَسَةِ الضَّعِيفَةِ ؛ وَالْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالظَّوَاهِرِ الضَّعِيفَةِ وَالْإِسْتِصْحَابَاتِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْخَائِضِينَ فِي الْمَذْهَبِ وَالْخِلَافِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } { وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : اقْتَرَبُوا مِنْ أَقْوَاهِ الْمُطِيعِينَ ؛ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهُ تَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي } وَ (أَيْضًا فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ : وَهُوَ حُبُّ الْمَعْرُوفِ وَبُغْضُ الْمُنْكَرِ فَإِذَا لَمْ تَسْتَجِلْ الْفِطْرَةَ فَالْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْحَقِّ فَإِذَا كَانَتْ الْفِطْرَةُ مُقَوِّمَةً بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ مُتَوَرَّةً بِنُورِ الْقُرْآنِ وَخَفِيَ عَلَيْهَا ذِلَالَةُ الْأَدْلَةِ السَّمْعِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَرَأَى قَلْبُهُ يَرْجَحُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ كَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَمَارَاتِ عِنْدَ مِثْلِهِ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا } الْآيَةُ . ثُمَّ قَالَ : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } وَقَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْأَمَانَةَ فِي جَذَرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ } " وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ حَدِيثُ النَّوَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { ضَرَبَ

اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَعَلَى جَنَّبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرَخَّاةٌ ،
وَدَاعٌ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ وَدَاعٌ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ . فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورُ خُدُودُ
اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَفْتَحَ بَابًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ نَادَاهُ الْمُنَادِي - أَوْ كَمَا قَالَ - يَا
عَبْدَ اللَّهِ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ . وَالِدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالِدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ
اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ { " . فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَاعِظٌ وَالْوَاعِظُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بَرَّغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ ؛ فَهَذَا
الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي يَقَعُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مُطَابِقٌ لِمَقَرِّ الْقُرْآنِ وَنَهْيِهِ وَلِهَذَا يَقْوَى أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : {
نُورٌ عَلَى نُورٍ } قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي الْآيَةِ : هُوَ الْمُؤْمِنُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ بِالْأَثَرِ
كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . نُورُ الْإِيمَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ يُطَابِقُ نُورَ الْقُرْآنِ كَمَا أَنَّ الْمِيزَانَ الْعَقْلِيَّ يُطَابِقُ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ ؛
فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . وَقَدْ يُؤْتَى الْعَبْدُ أَحَدُهُمَا وَلَا يُؤْتَى الْآخَرُ . كَمَا فِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ
كَمَثَلِ الْأَثْرِجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ . وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ
لَهَا ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ
كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ } .

وَالْإِلَهَامُ فِي الْقَلْبِ تَارَةٌ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالِاغْتِفَادِ وَتَارَةٌ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَالْحُبِّ
وَالْإِرَادَةِ وَالطَّلَبِ فَقَدْ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَرْجَحُ وَأَطْهَرُ وَأَصَوَّبُ وَقَدْ يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ دُونَ الْآخَرِ
، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي
أُمَّتِي أَحَدٌ فَعَمُرُ { " وَالْمُحَدَّثُ الْمُخَاطَبُ ، وَفِي مَثَلِ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ
وَابِصَةً { : الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَسَكَنَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَإِنْ أَفْنَاكَ النَّاسُ وَأَفْكَوكَ { " }
وَهُوَ فِي السُّنَنِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ
مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ { " وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الْإِثْمُ حِرَازُ الْقُلُوبِ . وَ (أَيْضًا فَإِذَا كَانَتْ
الْأُمُورُ الْكُوثَبِيَّةُ قَدْ تَنَكَّشَفَ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَقِينًا أَوْ ظَنًّا فَالْأُمُورُ الدِّيْنِيَّةُ كَذَلِكَ بِطَرِيقِ الْوَلَوِّ فَإِنَّهُ إِلَى كَشْفِهَا أَحْوَجُ
لَكِنَّ هَذَا فِي الْغَالِبِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَشْفًا بِدَلِيلٍ وَقَدْ يَكُونُ بِدَلِيلٍ يَنْقَدِحُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَلَا يُمَكِّنُهُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ
وَهَذَا أَحَدُ مَا فُسِّرَ بِهِ مَعْنَى " الْإِسْتِحْسَانِ " . وَقَدْ قَالَ مَنْ طَعَنَ فِي ذَلِكَ - كَأَبِي حَامِدٍ وَأَبِي مُحَمَّدٍ - : مَا لَا يُعْبَرُ
عَنْهُ فَهُوَ هَوَسٌ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُمَكِّنُهُ إِبَانَةُ الْمَعَانِي الْقَائِمَةِ بِقَلْبِهِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُبَيِّنُهَا بَيَانًا
نَاقِصًا وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَشْفِ يُلْقَى فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الطَّعَامَ حَرَامٌ أَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَافِرٌ أَوْ فَاسِقٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ
ظَاهِرٍ وَبِالْعَكْسِ قَدْ يُلْقَى فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةُ شَخْصٍ وَأَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ أَوْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ حَلَالٌ . وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا بَيَانُ أَنَّ
هَذَا وَحْدَهُ دَلِيلٌ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ لَكِنْ إِنْ مِثْلُ هَذَا يَكُونُ تَرْجِيحًا لِطَالِبِ الْحَقِّ إِذَا تَكَافَأَتْ عِنْدَهُ الْأَدِلَّةُ
السَّمْعِيَّةُ الظَّاهِرَةُ . فَاتَّزَجَّجَ بِهَا خَيْرٌ مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ قَطْعًا فَإِنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَهُمَا بَاطِلَةٌ قَطْعًا .
كَمَا قُلْنَا : إِنَّ الْعَمَلَ بِالظَّنِّ النَّاشِئَ عَنْ ظَاهِرٍ أَوْ قِيَاسٍ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ بِنَقِيضِهِ إِذَا أُحْتِجَّ إِلَى الْعَمَلِ بِأَحَدِهِمَا .
وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْجُمْهُورُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ فَلَا يَجُوزُ تَكَافُؤُ الْأَدِلَّةِ فِي نَفْسِ
الْأَمْرِ لَكِنْ قَدْ تَشَكَّكَ عِنْدَ النََّاظِرِ لِعَدَمِ ظُهُورِ التَّرْجِيحِ لَهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَقٌّ مُعَيَّنٌ بَلْ كُلُّ
مُجْتَهِدٍ عَالِمٌ بِالْحَقِّ الْبَاطِنِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلَيْسَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخِرِ مَزِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ فَهَؤُلَاءِ قَدْ يَجُوزُونَ أَوْ
بَعْضُهُمْ تَكَافُؤُ الْأَدِلَّةِ وَيَجْعَلُونَ الْوَاجِبَ التَّخْيِيرَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَيْسَ عَلَى الظَّنِّ دَلِيلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛

وإنما رُجَحَانُ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ هُوَ مِنْ بَابِ الرُّجْحَانِ بِالْمِيلِ وَالْإِرَادَةُ كَتَرْجِيحِ النَّفْسِ الْغَضَبِيَّةِ لِلْإِنْقِيَامِ وَالنَّفْسِ الْحَلِيمَةِ لِلْعَفْوِ . وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْمُرِّ مِنْ حَقٍّ مُعَيَّنٍ يُصِيبُهُ الْمُسْتَدَلُّ تَارَةً وَيُخْطِئُهُ أُخْرَى . كَالْكَعْبَةِ فِي حَقٍّ مَنْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ وَالْمُجْتَهِدُ إِذَا أَذَاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى جِهَةٍ سَقَطَ عَنْهُ الْفَرَضُ بِالصَّلَاةِ إِلَيْهَا كَالْمُجْتَهِدِ إِذَا أَذَاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى قَوْلٍ فَعَمِلَ بِمُوجِبِهِ كِلَاهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَهُوَ مُصِيبٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ وَلَهُ أَجْرٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَيْسَ مُصِيبًا بِمَعْنَى أَنَّهُ عَلِمَ الْحَقَّ الْمُعَيَّنَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا وَمُصِيبُهُ لَهُ أَجْرَانِ وَهَذَا فِي كَشْفِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ لَكِنْ قَدْ يَخْتَصِي عَلَى الْعَبْدِ . فَإِنَّ الشَّارِعَ بَيَّنَّ (الْأَحْكَامَ الْكُلِّيَّةَ) .

وفي إعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج ٥ / ص ١٤٠)

[يَجْمَلُ بِالْمُفْتِي أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ بِالتَّوْفِيقِ] الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالسُّتُونَ : حَقِيقٌ بِالْمُفْتِي أَنْ يُكْثِرَ الدُّعَاءَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ يَازِنُكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وَكَانَ شَيْخُنَا كَثِيرَ الدُّعَاءِ بِذَلِكَ ، وَكَانَ إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ يَقُولُ " يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَّمْنِي " وَيُكْثِرُ الاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ اقْتِدَاءً بِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ لِمَالِكِ بْنِ يَخَاهِمَرَ السَّكْسَكِيِّ عِنْدَ مَوْتِهِ ، وَقَدْ رَأَاهُ يَنْكِي ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَبْكِي عَلَى ذُنُوبِي كُنْتُ أَصِيبُهَا مِنْكَ ، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ اللَّذَيْنِ كُنْتُ أَعْلَمُهُمَا مِنْكَ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا ، مَنْ ابْتَغَاهُمَا وَجَدَهُمَا ، أَطْلَبَ الْعِلْمَ عِنْدَ أَرْبَعَةٍ : عِنْدَ عُثَيْمِرِ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَذَكَرَ الرَّابِعَ ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ هَؤُلَاءِ فَسَائِرُ أَهْلِ الْأَرْضِ عَنْهُ أَعْجَزُ ، فَعَلَيْكَ بِمُعَلِّمِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ عِنْدَ الْإِفْتَاءِ : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَكَانَ مَكْحُولٌ يَقُولُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي } وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : اللَّهُمَّ وَفَّقْنِي وَاهْدِنِي وَسَدِّدْنِي وَاجْمَعْ لِي بَيْنَ الصَّوَابِ وَالثَّوَابِ وَأَعِزَّنِي مِنَ الْخَطَا وَالْحِرْمَانِ . وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقْرَأُ الْقَاتِحَةَ ، وَجَرَّبْنَا نَحْنُ ذَلِكَ فَرَأَيْنَاهُ أَقْوَى سَبَابِ الْإِصَابَةِ . وَالْمُعَوَّلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حُسْنِ النَّبِيِّ ، وَخُلُوصِ الْقَصْدِ ، وَصِدْقِ التَّوَجُّهِ فِي الْإِسْتِمْدَادِ مِنَ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ مُعَلِّمِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ مِنْ صَدَقَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ لِتَبْلِيغِ دِينِهِ وَإِرْشَادِ عِبِيدِهِ وَنَصِيحَتِهِمْ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْقَوْلِ عَلَيْهِ بِمَا عَلِمَ ، فَإِذَا صَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَرَغْبَتُهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرًا إِنْ فَاتَهُ أَجْرَانِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، فَقِيلَ لَهُ : رَبُّمَا اشْتَدَّ عَلَيْنَا الْأَمْرُ مِنْ جِهَتِكَ ، فَلِمَنْ نَسْأَلُ بَعْدَكَ ؟ فَقَالَ : سَلُوا عَبْدَ الْوَهَّابِ الْوَرَّاقَ ، فَإِنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُوفَّقَ لِلصَّوَابِ .

وَأَفْتَدَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِقَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : اقْتَرَبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ ؛ فَإِنَّهُمْ تُجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ ، وَذَلِكَ لِقُرْبِ قُلُوبِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، وَكُلَّمَا قُرِبَ الْقَلْبُ مِنَ اللَّهِ زَالَتْ عَنْهُ مُعَارَضَاتُ السُّوءِ ، وَكَانَ نُورٌ كَشَفَهُ لِلْحَقِّ أَنْتُمْ وَأَقْوَى ، وَكُلَّمَا بَعُدَ عَنِ اللَّهِ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْمُعَارَضَاتُ ، وَضَعُفَ نُورُ كَشْفِهِ لِلصَّوَابِ ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدَ بَيْنَ الْخَطَا وَالصَّوَابِ .

وَقَالَ مَالِكٌ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي أَوَّلِ مَا لَقِيَهُ : إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَهْلَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا فَلَا تُطْفِئُهُ بَظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } وَمِنَ الْفُرْقَانِ النُّورُ الَّذِي يُفَرِّقُ

بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَكُلَّمَا كَانَ قَلْبُهُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ كَانَ فُرْقَانُهُ أَتَمَّ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٨ / ص ١٠٧)

رقم الفتوى ٥٠١٤٢ لا سبيل لمعرفة كيفية قذف الله نوره في قلوب المتقين

تاريخ الفتوى : ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٥

السؤال

العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء... كيف يكون ذلك؟؟؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فالكيفية التي يقذف الله تعالى بها العلوم في قلوب من يشاء لا سبيل إلى معرفتها، فهي من فعل الله الذي ليس لنا أن ندرك منه أو نعرف إلا ما أخبر به الله، أو أخبر به عنه نبيه صلى الله عليه وسلم. وقد قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا] (الأنفال: ٢٩).

فالله يقذف نور العلم في قلوب المتقين من عباده المتبعدين عن معصيته. قال ابن القيم في "إعلام الموقعين": واقتدى الإمام أحمد بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلّى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله، وكلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضة السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب يفرق به العبد بين الخطأ والصواب، وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمات المعصية. (٢/ ٥١٣). والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: اقْتَرَبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهُ تَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ (١). وَهَذِهِ الْأُمُورُ الصَّادِقَةُ الَّتِي أَخْبَرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهَا تَجَلَّى لِلْمُطِيعِينَ هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي يَكْشِفُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ .

فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُحَاطَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ ؛ فَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ (٢).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَعْيِينَ عُمَرَ بِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأَيُّ مُحَدَّثٍ وَمُخَاطَبٍ فُرِضَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَفْعَلُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فَيَعْرِضُ مَا يَقَعُ لَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَارَةً يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ كَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ (٣)

(١) - عن عمر قال : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله واعقلوا ما تسمعون منهم فإنهم تجلّى لهم أمور صادقة (سعيد بن منصور ، والموزى في الجائز) [كنز العمال ٤٢٨٠٥] وجامع الأحاديث - (ج ٢٨ / ص ٣١٩) (٣١٢٢٣)

(٢) - عَنْ وَهْبِ السَّوَائِي قَالَ خَطَبْنَا عَلَى فَقَالَ مَنْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا فَقُلْتُ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ لَا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ وَمَا يُبْعَدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ. مسند أحمد (٨٤٦) صحيح

(٣) - عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ عُمَرُ وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ وَوَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبُرْ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ وَبَلَغَنِي مُعَاتِبَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ فَاسْتَفَرَيْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ فَجَعَلْتُ أَسْتَفْرِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً وَاللَّهِ لَعِنَ انْتِهَيْتَنَّ وَإِلَّا لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ خَيْرًا مِنْكَ قَالَ فَاتَّيْتُ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ قَالَتْ يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَكُونِ أَلْتِ تَعْظُهُنَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ) . صحيح البخاري (٣٨٧) ومسنند أحمد (٢٥٦)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٢ / ص ١١٩)

قوله : (وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ) أَيِ وَقَائِعٍ ، وَالْمَعْنَى وَافَقَنِي رَبِّي فَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى وَفْقِ مَا رَأَيْتُ ، لَكِنْ لِرِعَايَةِ الْأَدَبِ أَسْنَدَ الْمُوَافَقَةَ إِلَى نَفْسِهِ ، أَوْ أَشَارَ بِهِ إِلَى حَدُوثِ رَأْيِهِ وَقَدَّمَ الْحُكْمَ ، وَلَيْسَ فِي تَخْصِيصِهِ الْعَدَدَ بِالثَّلَاثِ مَا يَنْفِي الزِّيَادَةَ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ الْمُوَافَقَةُ فِي أَشْيَاءَ غَيْرِ هَذِهِ مِنْ مَشْهُورِهَا قِصَّةُ أُسَارَى بَدْرٍ وَقِصَّةُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَهَمَا فِي الصَّحِيحِ ، وَصَحَّحَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ " مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ إِلَّا نَزَلَ الْقُرْآنَ فِيهِ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ " وَهَذَا ذَالٌ عَلَى كَثْرَةِ مُوَافَقَتِهِ ، وَأَكْثَرُ مَا وَفَّقْنَا مِنْهَا بِالتَّعْيِينَ عَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ لَكِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْحِجَابِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، وَعَلَى مَسْأَلَةِ التَّخْيِيرِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ " وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغُبَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ : عَسَى رَبُّهُ إِلَخَ " وَذَكَرَ فِيهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ حُمَيْدٍ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ زِيَادَةً يَأْتِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا فِي بَابِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ فِي أَوَاخِرِ النِّكَاحِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَانَ اللَّائِقُ إِيرادَ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْبَابِ الْمَاضِي وَهُوَ قَوْلُهُ : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) وَالْجَوَابُ أَنَّهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ لِلتَّنْصِيفِ فِيهِ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِلَافِ حَدِيثِ عُمَرَ هَذَا فَلَيْسَ فِيهِ التَّضَرُّيحُ بِذَلِكَ ، وَأَمَّا مَنَاسِبَتُهُ لِلتَّرْجَمَةِ فَأَجَابَ الْكُرْمَانِيُّ بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّرْجَمَةِ مَا جَاءَ فِي الْقِبْلَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، فَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِالْكُعْبَةِ فَظَاهِرٌ ، أَوْ بِالْحَرَمِ كُلِّهِ فَمِنْ فِي قَوْلِهِ : (مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) لِلتَّعْيِيزِ ، وَمُصَلًّى أَيِ قِبْلَةٍ ، أَوْ بِالْحَجَرِ الَّذِي وَقَفَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ الظَّاهِرُ فَيَكُونُ تَعَلُّقُهُ بِالْمُتَعَلِّقِ بِالْقِبْلَةِ لَا بِنَفْسِ الْقِبْلَةِ ، وَقَالَ ابْنُ رَشِيدٍ : الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ تَعَلُّقَ الْحَدِيثِ بِالتَّرْجَمَةِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَوْضِعِ الْجِهَادِ فِي الْقِبْلَةِ ؛ لِأَنَّ عُمَرَ اجْتَهَدَ فِي أَنْ إِخْتَارَ أَنْ يَكُونَ الْمُصَلًّى إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي هُوَ فِي وَجْهِ الْكُعْبَةِ فَاخْتَارَ إِحْدَى جِهَاتِ الْقِبْلَةِ بِالْإِجْتِهَادِ ، وَحَصَلَتْ مُوَافَقَتُهُ عَلَى ذَلِكَ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيبِ إِجْتِهَادِ الْمُجْتَهِدِ إِذَا بَدَلَ وَسُعِيَ وَلَا يَخْتَلِي مَا فِيهِ .

وَتَارَةً يُخَالِفُهُ فَيَرْجِعُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا كَانَ قَدْ رَأَى مُحَارَبَةَ الْمُشْرِكِينَ ، وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ فَإِنَّ { النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ اعْتَمَرَ سَنَةً سِتُّ مِنْ الْهَجْرَةِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ نَحْوُ أَلْفٍ وَارْبَعِمِائَةٍ وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانَ قَدْ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مُرَاجَعَةِ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي ذَلِكَ الْعَامَ وَيَعْتَمِرَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ وَشَرَطَ لَهُمْ شُرُوطًا فِيهَا نَوْعُ غَضَاضَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ وَأَحْكَمَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَكَانَ عُمَرُ فِيمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَاتَّيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ أَلَسْتُ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ « بَلَى » . قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ « بَلَى » . قُلْتُ

فَلَمْ نُعْطِ الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي » . قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتُ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ فَتُطَوَّفُ بِهِ قَالَ « بَلَى ، فَأَخْبِرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ » . قَالَ قُلْتُ لَا . قَالَ « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوَّفٌ بِهِ » . قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى . قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى . قُلْتُ فَلَمْ نُعْطِ الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ ، فَاسْتَمْسَكَ بِعَرْزِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ . قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ وَتُطَوَّفُ بِهِ قَالَ بَلَى ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا . قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوَّفٌ بِهِ . قَالَ الرَّهْرِيُّ قَالَ عَمَرَ فَعَمِلْتُ لِنَظَرِكَ أَعْمَالًا . { (١) }

(١) - عَنْ الْمِسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعِجِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَاخْذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ » . فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَدِيرًا لِقُرَيْشٍ ، وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، بَرَكْتَ بِهِ رَاحِلَتُهُ . فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ . فَأَلَحَّتْ ، فَقَالُوا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ ، خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » . ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَّيْتُ ، قَالَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَفْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلٍ الْمَاءِ يَبْرِضُهُ النَّاسُ تَبْرِضًا ، فَلَمْ يَلْبِثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ ، وَشَكَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطَشَ ، فَاتَّزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ ، فَبَيِّنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُرَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُرَاعَةٍ ، وَكَانُوا عِيَّةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ ، فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَمَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَايِلُ ، وَهُمْ مُقَاتِلُونَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مَدَّةً ، وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا ، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا أَقَاتِلُهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِقَتِي ، وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ » . فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأَلْتُ عَنْهُمْ مَا تَقُولُ . قَالَ فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا ، فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ نُخْبِرَنَّا عَنْهُ بِشَيْءٍ . وَقَالَ ذُو الرَّاْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ . قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَحَدَّثْتُهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى . قَالَ أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ قَالُوا بَلَى . قَالَ فَهَلْ تَتَّهِمُونِي . قَالُوا لَا . قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَفَرْتُ أَهْلَ عُكَاطٍ ، فَلَمَّا بَلَغُوا عَلَى جِسْمِكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى . قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ ، أَقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيَهُ . قَالُوا أَتَيْتَهُ . فَأَنَّا فَجَعَلَ يَكْلُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيْ مُحَمَّدٌ ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرَى وَجُوهًا ، وَإِنِّي لَا أَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ . فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ امْصُصْ بَطْرَ اللَّاتِ ، أَنْحُنْ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ . قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْرِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ . قَالَ وَجَعَلَ يَكْلُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وسلم فكلما تكلم أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحيته النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بتغل السيف ، وقال له آخر يدك عن لحيته رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرفع عروة رأسه فقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة . فقال أى غدرك ، ألسنت أسعى فى غدرك وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء » . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه . قال فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحذون إليه النظر تعظيما له ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا قط ، يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحذون إليه النظر تعظيما له ، وإِنَّه قد عَرَضَ عَلَيْكُمُ خُطَّةٌ رُشِدٍ ، فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة دعوني آتية . فقالوا انتبه . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن فابغوها له » . فبعثت له واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص . فقال دعوني آتية . فقالوا انتبه . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم « هذا مكرز وهو رجل فاجر » . فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو . قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة ، أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد سهل لكم من أمركم » . قال معمر قال الزهري فى حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات ، أكتب بيننا وبينكم كتابا ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم . كما كنت تكتب . فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اكتب باسمك اللهم » . ثم قال « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » . فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني . اكتب محمد بن عبد الله » . قال الزهري وذلك لقوله « لا يسألوني خطبة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها » . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فتطوف به » . فقال سهيل والله لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب . فقال سهيل وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا ردته إينا . قال المسلمون سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما بيننا هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين . فقال سهيل هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنا لم نقض الكتاب بعد » . قال فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا . قال النبي صلى الله عليه وسلم « فأجزه لى » . قال ما أنا بمجيزه لك . قال « بلى ، فافعل » . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل أى معسر

المُسْلِمِينَ ، أَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ . قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَاتَّيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ أَلَسْتُ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ « بَلَى » . قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ « بَلَى » . قُلْتُ فَلِمَ تُعْطَى الدِّينِيَّةُ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي » . قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتُ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي النَّبِيَّ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ « بَلَى ، فَأَخْبِرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ » . قَالَ قُلْتُ لَا . قَالَ « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ » . قَالَ فَاتَّيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى . قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى . قُلْتُ فَلِمَ تُعْطَى الدِّينِيَّةُ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ ، فَاسْتَمْسَكَ بِعُرْزِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ . قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي النَّبِيَّ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى ، فَأَخْبِرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا . قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ . قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا . قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ « قُومُوا فَانْحَرُوا ، ثُمَّ احْلِقُوا » . قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَهْمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ . فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَتَجِبُ ذَلِكَ أَخْرُجَ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرُ بِذَلِكَ ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ . فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحْرَ بَدْنِهِ ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ . فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ ، قَامُوا فَتَحَرَّوْا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) حَتَّى بَلَغَ (بِعَصَمِ الْكُوفَرِ) فَطَلَعَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةٍ ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ ، فَقَالُوا الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْخُلَيْفَةِ ، فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ لَهُمْ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فَلَانُ جَيِّدًا . فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ . فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ ، وَفَرَّ الْآخَرُ ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَاهُ « لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا » . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ ذِمَّتَكَ ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَتَجَانَى اللَّهُ مِنْهُمْ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرُ حَرْبٍ ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ . قَالَ وَبَنَفِلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ ، فَاحْقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا ، فَقَتَلُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) حَتَّى بَلَغَ (الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ . (البخاري (٢٧٧٠)

، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ يَسْمَعُ جَوَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْمَلَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُمَرَ ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا (١) . وَكَذَلِكَ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَكَرَّ عُمَرُ مَوْتَهُ أَوَّلًا فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّهُ مَاتَ رَجَعَ عُمَرُ عَنْ

(١) - وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٨ / ص ٢٨٣)

قَوْلُهُ : (قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ : فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا) : هُوَ مَوْصُولٌ إِلَى الزُّهْرِيِّ بِالسَّنَدِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ بَيْنَ الزُّهْرِيِّ وَعُمَرَ ، قَالَ بَعْضُ الشُّرَاحِ . قَوْلُهُ " أَعْمَالًا " أَيُّ مِنَ الذَّهَابِ وَالْمَجْيَاءِ وَالسُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، وَلَمَّا يَكُنْ ذَلِكَ شَكًّا مِنْ عُمَرَ ، بَلْ طَلَبًا لِكَشْفِ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ ، وَحُثًّا عَلَى إِذْلَالِ الْكُفَّارِ ، لَمَّا عَرَفَ مِنْ قُوَّتِهِ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ ٥١ . وَتَفْسِيرُ الْأَعْمَالِ بِمَا ذَكَرَ مَرْدُودٌ ، بَلْ الْمُرَادُ بِهِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ لِيُكَفِّرَ عَنْهُ مَا مَضَى مِنَ التَّوَقُّفِ فِي الْإِمْتِنَالِ إِيذَاءً ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عُمَرَ التَّصْرِيحُ بِمُرَادِهِ بِقَوْلِهِ : " أَعْمَالًا " : فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ " وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ " وَعِنْدَ الْوَاقِدِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ " قَالَ عُمَرُ : لَقَدْ أَعْتَقْتُ بِسَبَبِ ذَلِكَ رَقَبًا ، وَصُمْتُ دَهْرًا " . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَكًّا " فَإِنْ أَرَادَ نَفْيَ الشَّكِّ فِي الدِّينِ فَوَاضِحٌ ، وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ " أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا قَالَ لَهُ : الزَّمْ غَرَزَهُ فَإِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ عُمَرُ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ " وَإِنْ أَرَادَ نَفْيَ الشَّكِّ فِي وُجُودِ الْمَصْلُوحَةِ وَعَدَمِهَا فَمَرْدُودٌ ، وَقَدْ قَالَ السُّهَيْلِيُّ : هَذَا الشَّكُّ هُوَ مَا لَا يَسْتَمِرُّ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْوَسْوَسةِ ، كَذَلِكَ قَالَ ، وَالَّذِي يَطْهَرُ أَنَّهُ تَوَقُّفٌ مِنْهُ لِيَقِفَ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي الْقِصَّةِ وَتُكْشِفَ عَنْهُ الشُّبْهَةُ ، وَنَظِيرُهُ قِصَّتُهُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، وَإِنْ كَانَ فِي الْوَلَوِّ لَمْ يُطَابِقْ اجْتِهَادُهُ الْحُكْمَ بِخِلَافِ الثَّانِيَةِ ، وَهِيَ هَذِهِ الْقِصَّةُ ، وَإِنَّمَا عَمِلَ الْأَعْمَالُ الْمَذْكُورَةَ لِهَذِهِ ، وَإِلَّا فَجَمِيعُ مَا صَدَرَ مِنْهُ كَانَ مَعْنُورًا فِيهِ بَلْ هُوَ مَا جُورَ لَأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ فِيهِ .

(٢) - عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالسُّنْحِ فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلُهُمْ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَبَّلَهُ وَقَالَ : يَا أَبَتِي أَنْتَ وَأُمِّي طَيِّبَتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَالَّذِي نَفْسِي يَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا . ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رَسُولِكَ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وَقَالَ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) الْآيَةَ كُلَّهَا فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ . الْبُخَارِيُّ (٣٧١٢)

وَفِي رِوَايَةِ قَالَ الزُّهْرِيُّ وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ . فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، قَالَ اللَّهُ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) إِلَى قَوْلِهِ (الشَّاكِرِينَ) وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ ، فَتَلَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا . فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقَلِّبُنِي رِجْلَايَ ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ . الْبُخَارِيُّ (٤٤٩٧)

وَكَذَا عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ " فَعَقِرْتُ وَأَنَا قَائِمٌ حَتَّى خَرَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ "

فيقول عمر : هي في كتاب الله؟ والله لكأني لم أسمعها إلا اليوم، وعقرتني قدماي] أي: سقط من شدة ما سمع.
وفي هذا الموقف يقال: هل عمر ينكر الموت؟ الجواب: لا، ولكن عظم عليه المصاب في رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصيبة إذا عظمت أذهلت، وقد يتوقف العقل - كما يقولون: انشغل التفكير - وعمر له نظرة بعيدة فيما يتعلق بنصرة الدين، شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم - (ج ٢ / ص ٢٣٠)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٠ / ص ٤٦٥)
وَأَمَّا وَفُورَ الْحَلْفِ مِنْ عُمَرَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ فَبَنَاهُ عَلَى ظَنِّهِ الَّذِي أَذَاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ، وَفِيهِ بَيَانُ رُجْحَانِ عِلْمِ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ فَمِنْ دُونِهِ ، وَكَذَلِكَ رُجْحَانُهُ عَلَيْهِمْ لِنَبَاتِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللَّأْمَرِ الْعَظِيمِ .
قوله : (أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ) بِكُسْرِ الرَّاءِ أَيُّ هَيْئَتِكَ وَلَا تَسْتَعْجِلْ ،

وفي جامع العلوم والحكم - (ج ٨ / ص ٥)
وَلَمَّا شَكَّ النَّاسُ فِي مَوْتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ عَنْهُ الْعَبَّاسُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى تَرَكَ السَّبِيلَ نَهْجًا وَاضِحًا ، وَأَحْلَلَ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ ، وَنَكَحَ وَطَلَّقَ ، وَحَارَبَ وَسَلَّمَ ، وَمَا كَانَ رَاعِي غَنَمٍ يَتَّبِعُ بِهَا رُؤُوسَ الْجِبَالِ يَخِيطُ عَلَيْهَا الْعِصَاةَ بِمَخْبِطِهِ ، وَيَمْدُرُ حَوْضَهَا بِيَدِهِ بِأَنْصَبٍ وَلَا أَذَابٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ فِيكُمْ . (أخرجه : ابن سعد في " طبقاته " ٢/٢٠٤-٢٠٥ ، والدارمي (٨٣) ، من حديث عكرمة مرسلاً .) اهـ

. وَكَذَلِكَ فِي " قِتَالِ مَا نَعِيَ الزَّكَاةَ " قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَا أُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ (١) .
وَلِهَذَا نَظَائِرُ تُبَيِّنُ تَقَدُّمَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدَّثٌ ؛ فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الصَّدِيقِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدَّثِ ، لِأَنَّ الصَّدِيقَ يَتَلَقَّى عَنِ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ ، وَالْمُحَدَّثُ يَأْخُذُ عَنْ قَلْبِهِ أَشْيَاءَ وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ فَيَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)

(١) - صحيح مسلم (١٣٣)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ٩١)
وَوَقَعَتِ الشُّبْهَةُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَاغَعَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَنَظَرَهُ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ " . وَكَانَ هَذَا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَعَلُّقًا بِظَاهِرِ الْكَلَامِ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ فِي آخِرِهِ وَيَتَأَمَّلَ شَرَائِطَهُ . فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ ، يُرِيدُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَدْ تَضَمَّنَتْ عِصْمَةَ دَمٍ وَمَالٍ مُعَلَّقةً بِإِفَاءِ شَرَائِطِهَا . وَالْحُكْمُ الْمُعْلَقُ بِشَرَطَيْنِ لَا يَحْصُلُ بِأَحَدِهِمَا وَالْآخَرُ مَعْدُومٌ . ثُمَّ قَايَسَهُ بِالصَّلَاةِ وَرَدَّ الزَّكَاةَ إِلَيْهَا وَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ ذَلِيلٌ عَلَى أَنَّ قِتَالَ الْمُتَمَتِّعِ مِنَ الصَّلَاةِ كَانَ إِجْمَاعًا مِنَ الصَّحَابَةِ وَكَذَلِكَ رَدَّ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ إِلَى الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ فَاجْتَمَعَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْإِحْتِجَاجُ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْعُمُومِ وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْقِيَاسِ . وَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعُمُومَ يُخَصُّ بِالْقِيَاسِ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا تَضَمَّنَهُ الْخُطَابُ الْوَارِدُ فِي الْحُكْمِ الْوَاحِدِ مِنْ شَرْطٍ وَاسْتِثْنَاءٍ مُرَاعَى فِيهِ وَمُعْتَبَرٍ

صِحَّتْهُ بِهِ . فَلَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ عُمَرَ صِحَّةَ رَأْيِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَبَانَ لَهُ صَوَابُهُ تَابَعَهُ عَلَى قِتَالِ الْقَوْمِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ (فَلَمَّا رَأَيْتَ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرُ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ عَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ) يُشِيرُ إِلَى انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِالْحُجَّةِ الَّتِي أَذْلَى بِهَا ، وَالْبُرْهَانَ الَّذِي أَقَامَهُ نَصًّا وَدَلَالَةً .

(٢) - قال شيخ الإسلام في مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ١٨) :

إِنَّ الْمُكَاشَفَاتِ يَقَعُ فِيهَا مِنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ نَظِيرُ مَا يَقَعُ فِي الرُّؤْيَا وَتَأْوِيلِهَا وَالرَّأْيِ وَالرَّوَايَةِ وَلَيْسَ شَيْءٌ مَعْصُومًا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا مَا ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ رَدُّ جَمِيعِ الْأُمُورِ إِلَى مَا بُعِثَ بِهِ وَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ الْمُتَلَقِّي عَنِ الرَّسُولِ كُلِّ شَيْءٍ ؛ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنَ الْمُحَدِّثِ مِثْلُ عُمَرَ ؛ وَكَانَ الصَّدِيقُ يُبَيِّنُ لِلْمُحَدِّثِ الْمَوَاضِعَ الَّتِي اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى الصَّوَابِ . كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِعُمَرَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ؛ وَيَوْمَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَذَا الْبَابُ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قِصَّةِ الْخَضِرِ مَا يَسُوعُ مُخَالَفَةً شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ . نَعَمْ لَفْظُ " الشَّرْعُ " قَدْ صَارَ فِيهِ اشْتِرَاكٌ فِي عَرَفِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ عِبَارَةً عَنْ حُكْمِ الْحُكَّامِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ قَدْ يُطَابِقُ الْحَقَّ فِي الْبَاطِنِ وَقَدْ يُخَالَفُهُ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ : { إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ } وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ بِالْحُقُوقِ الْمُرْسَلَةِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ عَنْ صِفَتِهِ فِي الْبَاطِنِ فَلَوْ حَكَمَ بِمَالِ زَيْدٍ لِعُمَرَ لِإِفْرَارٍ أَوْ بَيِّنَةٍ كَانَ ذَلِكَ بَاطِلًا فِي الْبَاطِنِ وَلَمْ يَبَحْ ذَلِكَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَخْذُهُ مَعَ الْعِلْمِ بِالْحَالِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَلِكَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ لَوْ حَكَمَ بِعَقْدٍ أَوْ فسخ نِكَاحٍ أَوْ طَلَّاقٍ وَبَيَّعَ فَإِنَّ حُكْمَهُ لَا يُغَيِّرُ الْبَاطِنَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : حُكْمُهُ يُغَيِّرُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ لَهُ وَلَايَةً الْعُقُودِ وَالْفَسُوحِ . فَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَهُوَ مَنْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَسَائِرِ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْحَدِيثِ وَكَثِيرٍ مِنْ فُقَهَاءِ الْعِرَاقِ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه في مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ٣٤٥)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ فَصَّلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } الْآيَةُ : قِرَاءَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ . وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ وَتُتَكْرَرُ التَّخْفِيفَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ - وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِهِ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } مُحَقِّقَةً قَالَتْ - مَعَاذَ اللَّهِ لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بَرِيًّا - قُلْتُ : فَمَا هَذَا النَّصْرُ - { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ } بِمَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ لِعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ . وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } خَفِيفَةٌ ذَهَبَ بِهَا هُنَالِكَ وَكَلَّا { حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } فَلَقِيتُ عُرْوَةَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : مَعَاذَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُهُمْ ؛ فَكَانَتْ تَقْرَأُهَا : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } مُثْقَلَةً . فَعَائِشَةُ جَعَلَتْ اسْتَيْسَاسَ الرُّسُلِ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ وَظَنَّهُمُ التَّكْذِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ الْآخَرَى ثَابِتَةٌ لَا يُمَكِّنُ انْكَارُهَا وَقَدْ تَأَوَّلَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَظَاهِرُ الْكَلَامِ مَعَهُ وَالْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا إِنَّمَا فِيهَا اسْتِيطَاءُ النَّصْرِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : { مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } فَإِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ تُبْطِئُ لِطَلَبِ التَّعَجُّيلِ . وَقَوْلُهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } قَدْ يَكُونُ مِثْلَ قَوْلِهِ : { إِذَا تَمَنَّى

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ { وَالظَّنُّ لَا يَرَادُ بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْإِعْتِقَادُ الرَّاجِحُ كَمَا هُوَ فِي اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما بل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم { إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } .

فَالْإِعْتِقَادُ الْمَرْجُوحُ هُوَ ظَنٌّ وَهُوَ وَهُمْ وَهَذَا الْبَابُ قَدْ يَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ الْمَغْفُورِ عَنْهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْهُ أَوْ تَعْمَلْ } وَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْوَسْوسَةِ الَّتِي هِيَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ كَمَا ثَبَتَ { فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنْ أَحَدُنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يُحَرِّقَ حَتَّى يَصِيرَ حُمَمَةً أَوْ يَخْرُجَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ : أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : أَوْقِدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ { وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : { إِنْ أَحَدُنَا لَيَجِدُ مَا يَتَعَاطَى أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوسَةِ . { فَهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي هِيَ تَعْرِضُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : مِنْهَا مَا هُوَ ذَنْبٌ يَضَعُفُ بِهِ الْإِيمَانُ وَإِنْ كَانَ لَا يُزِيلُهُ . وَالْيَقِينُ فِي الْقَلْبِ لَهُ مَرَاتِبٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ غَفْوٌ يُغْفَى عَنْ صَاحِبِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ يَقْتَرِنُ بِهِ صَرِيحُ الْإِيمَانِ .

وَنَظِيرُ هَذَا : مَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَرْحَمُ اللَّهُ لَوْ طَالَ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ؛ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ يَوْسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } { وَقَدْ تَرَكَ الْبَخَارِيُّ ذِكْرَ قَوْلِهِ : " بِالشَّكِّ " لَمَّا خَافَ فِيهَا مِنْ تَوَهُّمٍ بَعْضُ النَّاسِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى } وَلَكِنْ طُمَأْنِنَةً قَلْبِهِ كَمَا قَالَ : { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } فَالْتَفَاوُتُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالِاطْمَئِنَانِ سَمَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكًّا لِدَلِيلِ يَحْيَاةِ الْمَوْتَى كَذَلِكَ الْوَعْدُ بِالْتَّصَرُّ فِي الدُّنْيَا : يَكُونُ الشَّخْصُ مُؤْمِنًا بِذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَضْطَرُّ قَلْبُهُ فَلَا يَطْمَئِنُّ فَيَكُونُ فَوَاتِ الْإِاطْمَئِنَانِ ظَنًّا أَنَّهُ قَدْ كُذِّبَ فَالشَّكُّ مَظَنَّةٌ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَقْدَحُ فِي الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا مَا هُوَ ذَنْبٌ فَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الْإِقْرَارِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا فِي أَعْمَالِهِمْ عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ أَصُولِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ .

وَفِي قِصَصِ هَذِهِ الْأُمُورِ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلُوا بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَبْأَسُوا إِذَا ابْتُلُوا بِذَلِكَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ إِلَى خَيْرٍ فَلْيَتَيَقَّنِ الْمُتَرَاتِبُ وَيَتَوَبَّ الْمُنْدَبُ وَيَقْوَى إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا يَصِحُّ الْإِتِّسَاعُ بِالْأَنْبِيَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ . { وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ الَّتِي فِيهَا تَسْلِيَةٌ وَتَنْشِيطٌ لِيَتَأَسَّى بِهِمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } وَلَنَا لِأَنَّهُ أُسْوَةٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } وَقَالَ : { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } وَقَالَ : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثَبَّتْ بِهِ فُؤَادُكَ . { وَإِذَا كَانَ الْإِتِّسَاعُ بِهِمْ مَشْرُوعًا فِي هَذَا وَفِي هَذَا فَمِنْ الْمَشْرُوعِ التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ وَالثَّقَّةُ بِوَعْدِ اللَّهِ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْقَلْبِ ظَنٌّ مِنَ الظُّنُونِ وَطَلَبُ مَزِيدِ الْآيَاتِ لِطُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْإِتِّسَاعِ وَالِإِقْدَاءِ دُونَ مَا كَانَ الْمُتَبَوِّعُ مَعْصُومًا مُطْلَقًا . فَيَقُولُ التَّابِعُ : أَنَا لَسْتُ مِنْ جَنْسِهِ فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ بِذَنْبٍ فَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَيْسَأَسَ مِنَ الْمُتَابَعَةِ وَالِإِقْدَاءِ ؛ لِمَا أَتَى بِهِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي يُفْسِدُ الْمُتَابَعَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعِصْمَةِ بِخِلَافِ مَا إِذَا قِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ مَجْبُورٌ بِالتَّوْبَةِ فَإِنَّهُ تَصِحُّ مَعَهُ الْمُتَابَعَةُ كَمَا قِيلَ : أَوَّلُ مَنْ أَذْنَبَ وَأَجْرَمَ ثُمَّ تَابَ وَنَدِمَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ وَمَنْ أَشَبَّهَ أَبَاهُ مَا ظَلَمَ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَصَّ عَلَيْنَا قِصَصَ تَوْبَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِنَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي الْمُتَابَعَةِ وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْإِقْدَاءَ بِهِمْ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي أَفْرُوا عَلَيْهَا فَلَمْ يَنْهَوْا عَنْهَا وَلَمْ يَتَوَبَّوْا مِنْهَا فَهَذَا هُوَ

الْمَشْرُوعُ . فَأَمَّا مَا نُهُوا عَنْهُ وَتَابُوا مِنْهُ فَلَيْسَ بِدُونِ الْمَنْسُوحِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَا أُمِرُوا بِهِ أُبِيحَ لَهُمْ ثُمَّ نُسِخَ تَنْقَطِعَ فِيهِ الْمَتَابَعَةُ ؛ فَمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ أُخْرَى وَأُولَى . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا } قَدْ يَكُونُونَ ظَنُّوا فِي الْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ بِطَرِيقِ الْجَاهِدِ مِنْهُمْ ؛ فَتَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ فَهَذَا جَائِزٌ عَلَيْهِمْ كَمَا سَنَبَيِّنُهُ فَإِذَا ظَنَّ بِالْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ ثُمَّ تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ وَكَانَ كَذِبًا مِنْ جِهَةٍ ظَنَّ فِي الْخَبَرِ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ . فَأَمَّا الشُّكُّ فِيمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ وَسَوْضَحُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ ذَكَرَ هُنَا شَيْئَانِ : " أَحَدُهُمَا " اسْتِيْئَاسُ الرُّسُلِ . وَ " الثَّانِي " ظَنُّ أَنَّهُمْ كَذَبُوا . وَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَ " الظَّنَّ " فَأَمَّا لَفْظُ (اسْتِيْئَاسُوا فَإِنَّهُ قَالَ سَبَّحَانَهُ : { حَتَّى إِذَا اسْتِيْئَاسَ الرُّسُلُ } وَلَمْ يَقُلْ يَسَّ الرُّسُلُ وَلَا ذَكَرَ مَا اسْتِيْئَاسُوا مِنْهُ وَهَذَا اللَّفْظُ قَدْ ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ { فَلَمَّا اسْتِيْئَاسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } . وَقَدْ يُقَالُ : الْإِسْتِيْئَاسُ لَيْسَ هُوَ الْإِيَّاسُ ؛ لَوْجُوه : " أَحَدُهَا " أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ لَمْ يَبْئِاسُوا مِنْهُ بِالْكَلْبَةِ فَإِنَّ قَوْلَ كَبِيرِهِمْ : { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَرْجُو أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ وَحُكْمُهُ هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَنْصَحْنَ تَخْلِيصًا لِيُوسُفَ مِنْهُمْ وَإِلَّا فَحُكْمُهُ لَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ فَعُودَهُ فِي مِصْرَ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَأَيْضًا : ف " الْيَاسُ " يَكُونُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي لَا يَكُونُ وَلَمْ يَجْعَلْ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ } فَامْتَنَعَ مِنْ تَسْلِيمِهِ إِلَيْهِمْ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا لَا يُوجِبُ الْقَطْعَ بِأَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَتَغَيَّرُ عَزْمُهُ وَنِيَّتُهُ وَمَا أَكْثَرَ تَقْلِيْبَ الْقُلُوبِ وَقَدْ يَتَبَدَّلُ الْأَمْرُ بِغَيْرِهِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ إِلَى غَيْرِهِ وَقَدْ يَتَخَلَّصُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَالْعَادَاتُ قَدْ جَرَتْ بِهَذَا عَلَى مِثْلِ مَنْ عِنْدَهُ مَنْ قَالَ لَا يُعْطِيهِ . فَقَدْ يُعْطِيهِ وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْ يَدِهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَقَدْ يَمُوتُ عَنْهُ فَيَخْرُجُ وَالْعَالَمُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذَا . " الْوَجْهُ الثَّانِي " قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ : { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْئِاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } . فَتَهْلَهُمْ عَنْ الْيَاسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ الْإِسْتِيْئَاسِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ . وَأَخِيرَ أَنَّهُ لَا يَبْئِاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَافِرِينَ فَهَذَا هُوَ " الْوَجْهُ الثَّالِثُ " أَيْضًا . وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ { لَا يَبْئِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّاءِ يَاسٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَأَنْ يَقْعُوا فِي الْإِسْتِيْئَاسِ بَلِ الْمُؤْمِنُونَ مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ لَا يَبْئِسونَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَهَذِهِ السُّورَةُ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْمُسْتِيْئِيسِينَ وَأَنَّ الْفَرَحَ جَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّاءِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلِهَذَا فِيهَا : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } فَذَكَرُ اسْتِيْئَاسَ الْإِخْوَةِ مِنْ أَخِي يُوسُفَ وَذَكَرُ اسْتِيْئَاسِ الرُّسُلِ يَصْلُحُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا ذَكَرْتُهُ عَائِشَةُ جَمِيعًا . " الْوَجْهُ الرَّابِعُ " أَنَّ الْإِسْتِيْئَاسَ اسْتِفْعَالٌ مِنَ الْيَاسِ وَالِاسْتِفْعَالُ يَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ : يَكُونُ لَطْلَبُ الْفِعْلِ مِنَ الْغَيْرِ فَالِاسْتِخْرَاجُ وَالِاسْتِفْهَامُ وَالِاسْتِعْلَامُ يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ يُقَالُ : اسْتَخْرَجْتَ الْمَالَ مِنْ غَيْرِي وَكَذَلِكَ اسْتَفْهَمْتَ وَلَا يَصْلُحُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْإِسْتِيْئَاسِ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَطْلُبُ الْيَاسَ وَيَسْتَدْعِيهِ ؛ وَلَئِنْ اسْتِيْئَاسَ فِعْلٌ لَزِمَ لَا مُتَعَدٍّ . وَيَكُونُ لِلِاسْتِفْعَالِ لَصِيْرُورَةُ الْمُسْتَفْعَلِ عَلَى صِفَةِ غَيْرِهِ وَهَذَا يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ كَقَوْلِهِمْ : اسْتَخْجَرِ الطَّيْنَ أَيْ صَارَ كَالْحَجَرِ . وَاسْتَوَقَّ الْقَهْلُ أَيْ صَارَ كَالنَّاقَةِ . وَأَمَّا النَّظَرُ فِيمَا اسْتِيْئَاسُوا مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ إِخْوَةِ يُوسُفَ حَيْثُ قَالَ : { فَلَمَّا اسْتِيْئَاسُوا مِنْهُ } . وَأَمَّا الرُّسُلُ فَلَمْ يَذْكُرْ مَا اسْتِيْئَاسُوا مِنْهُ بَلْ أَطْلَقَ وَصَفَهُمْ بِالِاسْتِيْئَاسِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقَيِّدَهُ بِأَنَّهُمْ اسْتِيْئَاسُوا مِمَّا وَعَدُوا بِهِ وَأَخْبَرُوا بِكَوْنِهِ وَلَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ . وَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا } لَا يَدُلُّ عَلَى ظَاهِرِهِ فَضْلًا عَنْ بَاطِنِهِ : أَنَّهُ حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ تَسَاوِيٍّ

الطَّرْفَيْنِ فِيمَا أُخْبِرُوا بِهِ فَإِنَّ لَفْظَ الظَّنِّ فِي اللَّغَةِ لَا يَفْتَضِي ذَلِكَ ؛ بَلْ يُسَمَّى ظَنًّا مَا هُوَ مِنْ أَكْذَابِ الْحَدِيثِ عَنْ
الظَّانِّ ؛ لِكُونِهِ أَمْرًا مَرْجُوحًا فِي نَفْسِهِ . وَاسْمُ الْيَقِينِ وَالرَّيْبِ وَالشَّكِّ وَنَحْوَهَا يَتَنَاولُ عِلْمَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ وَتَصْدِيقَهُ
وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِ وَسَكِينَتَهُ وَعَدَمَ سَكِينَتِهِ لَيْسَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ بِمُجَرَّدِ الْعِلْمِ فَقَطْ كَمَا يَحْسَبُ ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ كَمَا
نَبَّهْنَا [عَلَيْهِ] فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . إِذَا الْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ } . فَإِذَا كَانَ
الْخَبَرُ عَنْ اسْتَيْسَاسِهِمْ مُطْلَقًا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ إِذَا وَعَدَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ مُطْلَقٍ - كَمَا هُوَ غَالِبُ إِخْبَارَاتِهِ
- لَمْ يَقْبِدْ زَمَانَهُ وَلَا مَكَانَهُ وَلَا سَنَتَهُ وَلَا صِفَتَهُ فَكثيرًا مَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ فِي الْمَوْعُودِ بِهِ صِفَاتٍ أُخْرَى لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهَا
خِطَابُ الْحَقِّ بَلْ اعْتَقَدُوا بِأَسْبَابٍ أُخْرَى كَمَا اعْتَقَدَ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِخْبَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَيَطُوفُونَ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ
مُعْتَمِرًا وَرَجَا أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ وَيَطُوفَ وَيَسْعَى . فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْ دُخُولِهِ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ - لَمَّا صَلَّاهُمْ
الْمُشْرِكُونَ حَتَّى قَاصَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصُّلْحِ الْمَشْهُورِ - بَقِيَ فِي قَلْبِ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ حَتَّى {
قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَمْ تُخَيِّرْنَا أَنَّا نَدْخُلَ الْبَيْتَ وَنَطُوفَ ؟ قَالَ : بَلَى . فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَدْخُلُهُ هَذَا
الْعَامَ ؟ . قَالَ : لَا . قَالَ : فَإِنَّكَ دَاخِلُهُ وَمَطُوفٌ } وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ
عِلْمًا وَإِيمَانًا مِنْ عُمَرَ حَتَّى تَابَ عُمَرُ مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحَدِّثًا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { قَدْ كَانَ فِي أَلَمِّ قَبْلِكُمْ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ } فَهُوَ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْمُحَدِّثُ الْمُلْهَمُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَلَكِنْ مَرِيَّةُ التَّصَدِيقِ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ
مُتَابَعَةٍ لِلرُّسُولِ وَعِلْمًا وَإِيمَانًا بِمَا جَاءَ بِهِ دَرَجَتُهُ فَوْقَ دَرَجَتِهِ ؛ فَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ أَفْضَلَ الْأَمَةِ صَاحِبَ الْمَتَابَعَةِ لِلْآثَارِ
النَّبَوِيَّةِ فَهُوَ مُعَلِّمٌ لِعَمْرٍ وَمُؤَدِّبٌ لِلْمُحَدِّثِ مِنْهُمْ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مِنْ رَبِّهِ الْهَامُّ وَخِطَابٌ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ مُعَلِّمًا لِعَمْرٍ
وَمُؤَدِّبًا لَهُ حَيْثُ قَالَ لَهُ : فَأَخْبِرْكَ أَنَّكَ تَدْخُلُهُ هَذَا الْعَامَ ؟ قَالَ : لَا قَالَ إِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ . فَبَيَّنَ لَهُ الصَّدِيقُ أَنَّ
وَعَدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُطْلَقٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَقْتٍ وَكُونُهُ سَعَى فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَقَصْدُهُ لَا يُوجِبُ أَنْ يَعْنِي مَا
أَخْبَرَ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَقْصِدُ الشَّيْءَ وَلَا يَكُونُ ؛ بَلْ يَكُونُ غَيْرُهُ ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ
يَكُونَ كَمَا قَصَدَهُ ؛ بَلْ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَقْبِدَهُ عَمَّا يَقْصِدُهُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ أَنْفَعُ مِمَّا قَصَدَهُ كَمَا كَانَ
صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْفَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ دُخُولِهِمْ ذَلِكَ الْعَامَ بِخِلَافِ خَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ صَادِقٌ لَا بُدَّ أَنْ
يَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَيَتَحَقَّقَ . وَكَذَلِكَ ظَنُّ النَّبِيِّ كَمَا { قَالَ فِي تَأْيِيرِ النَّخْلِ : إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ
وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ } فَاسْتَيْسَسَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ هُوَ اسْتَيْسَاسٌ مِمَّا
ظَنُّهُ مَوْعُودًا بِهِ وَلَمْ يَكُنْ مَوْعُودًا بِهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَمْتَنِعُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَظُنُّوا شَيْئًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ مَا [
ظَنُّهُ] فَقَدْ يَظُنُّونَ فِيمَا وَعَدُوهُ تَعْيِينًا وَصِفَاتٍ وَلَا يَكُونُ كَمَا ظَنُّهُ فَيَسْتَأْشِرُونَ مِمَّا ظَنُّهُ فِي الْوَعْدِ لَا مِنْ تَعْيِينِ الْوَعْدِ
كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { رَأَيْتُ أَنْ أَبَا جَهْلٍ قَدْ أَسْلَمَ ؛ فَلَمَّا أَسْلَمَ خَالِدٌ ظَنُّهُ هُوَ فَلَمَّا أَسْلَمَ عَكَرَمَةُ
عِلْمٌ أَنَّهُ هُوَ } . وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقَحُونَ : فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا
هَذَا لَصَلَحَ قَالَ : فَخَرَجَ سَبْتًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ : مَا لِهَاجِلِكُمْ ؟ قَالُوا : قُلْتُ : كَذَا وَكَذَا . قَالَ : أَنتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ
دُنْيَاكُمْ } وَرَوَى أَيْضًا { عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ طَلْحَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ : مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ فَقَالَ : يُلْقَحُونَهُ يُجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَتَلْقَحُ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَظُنُّ يُعْنِي ذَلِكَ شَيْئًا فَأَخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكَوهُ . فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ : إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ

اللَّهُ شَيْئًا فَخَلُّوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ { . فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إِذَا حَدَّثَنَا بِشَيْءٍ عَنِ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ أَثَقَانَا لِلَّهِ وَأَعْلَمُنَا بِمَا يُقَالُ وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ أَخَذًا بِمَا يُحَدَّثُنَا عَنْ اللَّهِ فَإِذَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِوَعْدٍ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِهِ وَتَصَدِّقَهُ هُوَ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ تَصَدِّقِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نَشْكَّ فِيهِ وَهُوَ - بَابِي - أَوْلَى وَأَخْرَى أَنْ لَا يَشْكَّ فِيهِ ؛ لَكِنْ قَدْ يَظُنُّ ظَنًّا كَقَوْلِهِ : { إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ } وَإِنْ كَانَ أَخْبَرَهُ بِهِ مُطْلَقًا فَمُسْتَنْدُهُ ظُنُونٌ كَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ ذِي الْيَدَيْنِ : { مَا قَصَرْتُ الصَّلَاةَ وَلَا نَسِيتُ } . وَقَدْ يَظُنُّ الشَّيْءَ ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى جَلِيلِهِ كَمَا وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أُمُورٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ لَمَّا اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [وَهُمْ أَنْ] يَغْزُوهُمْ لَمَّا ظَنَّ صِدْقَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَنِي إِيرَاقَ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا } وَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ قَوْمٌ تَرَكَوا السَّارِقَ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُ وَأَخْرَجُوا الْبَرِيءَ ؛ فَظَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدْقَهُمْ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . { وَقَالَ فِي حَدِيثِ قَصْرِ الصَّلَاةِ : لَمْ أُنْسَ وَلَمْ تُفْصِرْ فَقَالُوا : بَلَى قَدْ نَسِيتُ } . وَكَانَ قَدْ نَسِيَ فَأَخْبَرَ عَنْ مُوجِبِ ظَنِّهِ وَاعْتِقَادِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . { وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إِنِّي لَا أُنْسِي لِأَنْسَ } وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ فِي الْقُرْآنِ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } شَامِلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ حَيْثُ قَالَ فِي صَدْرِ الْآيَاتِ : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } الْآيَاتُ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى الْأَنْصَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ { عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَا جَبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَبَحَّ الْيَوْمَ لَمْ يَفْتَحْ إِلَّا الْيَوْمَ فَتَنَزَّلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبَشِّرْ بَنَوْرِينَ أَوْ تَيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتَّحَتِ الْكِتَابُ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ } . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ آدَمَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ { عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : { وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ } دَخَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قَالَ : فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ : { أَوْ أَخْطَأْنَا } قَالَ قَدْ فَعَلْتُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ { . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ { عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ } اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ فَقَالُوا : أَيُّ رَسُولٍ اللَّهُ كُلُّنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ فَلَمَّا افْتَرَاهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ : أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آتَرِهَا : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } إِلَى قَوْلِهِ : { وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا سُبْحَانَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } إِلَى قَوْلِهِ : { قَبِلْنَا } قَالَ : نَعَمْ : { وَلَا نُحْمَلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } قَالَ : نَعَمْ . إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : نَعَمْ { . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُنْهُورُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْخَطَأُ فِي الْاجْتِهَادِ ؛ لَكِنْ لَا يَقْرَءُونَ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ فِي الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ فَكَيْفَ فِي الْخَبَرِ ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ مِمَّا أَسْمَعُ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ } فَتَنْفَسُ مَا يَبْدُو

اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَقًّا لَا يَمْتَرُونَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ } إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .
وَمِثْلُ هَذَا الظَّنُّ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِقْلَاءِ الشَّيْطَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ } إِلَى
قَوْلِهِ : { صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ ؛ بَعْدَ
اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ التَّمَنِّيَ هُوَ التَّلَاوَةُ وَالْقُرْآنُ كَمَا عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا
يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } وَأَمَّا مَنْ أَوَّلَ التَّهْيِ عَلَى تَمَنِّي الْقَلْبِ فَذَاكَ فِيهِ كَلَامٌ آخَرٌ ؛ وَإِنْ قِيلَ
: إِنَّ الْآيَةَ تَعْمُ التَّوَعُّينَ ؛ لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ فِي التَّفْسِيرِ وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَمَرَادُ الْآيَةِ قَطْعًا لِقَوْلِهِ
بَعْدَ ذَلِكَ : { فَيَنْسَخِ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً
لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } . وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ فِي مُجَرَّدِ الْقَلْبِ إِذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ النَّبِيُّ ؛ لَكِنَّ قَدْ يَكُونُ فِي ظَنِّهِ
الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بَعْضُهُ الْخَلُّ وَنَحْوُهَا وَهُوَ يُوَافِقُ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِذَا كَانَ التَّمَنِّي لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ الْقَوْلُ فِيهِهِ قَوْلَانِ
: " الْأَوَّلُ " أَنَّ الْإِقْلَاءَ هُوَ فِي سَمْعِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّسُولُ وَهَذَا قَوْلٌ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَةِ بِمَنْعِ جَوَازِ الْإِقْلَاءِ
فِي كَلَامِهِ . وَ " الثَّانِي " - وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَّةُ السَّلَفِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ - أَنَّ الْإِقْلَاءَ فِي نَفْسِ التَّلَاوَةِ كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ
الْآيَةَ وَسَيَاقَهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِ كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَثَارُ الْمُتَعَدِّدَةُ وَلَا مَخْنُورَ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ فَأَمَّا إِذَا نَسَخَ اللَّهُ مَا
أَلْقَى الشَّيْطَانُ وَأَحْكَمَ آيَاتِهِ فَلَا مَخْنُورَ فِي ذَلِكَ وَلَيْسَ هُوَ خَطَأً وَغَلَطٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَّا إِذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ . وَلَا رَيْبَ
أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَنْ يُقَرَّ عَلَى خَطَأٍ كَمَا قَالَ : { فَإِذَا حَدَّثَكُمُ عَنْ اللَّهِ بِشَيْءٍ فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ
عَلَى اللَّهِ } وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا قَامَتْ الْحُجَّةُ بِهِ فَإِنَّ كَوْنَهُ رَسُولَ اللَّهِ يَقْتَضِي أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَالصَّدَقُ
يَتَضَمَّنُ نَهْيَ الْكَذِبِ وَنَهْيَ الْخَطَأِ فِيهِ . فَلَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْخَطَأُ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَأَقَرَّ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا يُخْبِرُ بِهِ
عَنْ اللَّهِ . وَالَّذِينَ مَنَعُوا أَنْ يَقَعَ الْإِقْلَاءُ فِي تَبْلِيغِهِ فَرُّوا مِنْ هَذَا وَقَصَلُوا خَيْرًا وَأَحْسَنُوا فِي ذَلِكَ ؛ لَكِنَّ يُقَالُ لَهُمْ :
أَلْقَى ثُمَّ أَحْكَمَ فَلَا مَخْنُورَ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ هَذَا يُشَبِّهُ النَّسْخَ لِمَنْ بَلَغَهُ الْأَمْرُ وَالتَّهْيِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ إِذَا مَوْفَّقٌ
مُصَدِّقٌ بَرَفَعَ قَوْلَ سَبْقِ لِسَانِهِ بِهِ لَيْسَ أَعْظَمَ مِنْ إِخْبَارِهِ بِرَفْعِهِ . وَلِهَذَا قَالَ فِي النَّسْخِ : { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } فَظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا هُوَ يَتَّبِعُ مَا يَظُنُّونَهُ مِنْ مَعْنَى الْوَعْدِ وَهَذَا جَائِزٌ لَا مَخْنُورَ فِيهِ . إِذَا لَمْ
يُقَرُّوا عَلَيْهِ وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ وَهُوَ مُوَافِقٌ لظَاهِرِ الْآيَةِ وَلِسَانِ الْأَصُولِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالَّذِي يُحَقِّقُ [ذَلِكَ]
أَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لَيْسَ بِأَعْظَمَ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ . فَإِذَا كَانَ مِنَ الْجَائِزِ فِي بَابِ الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ أَنْ يَظُنُّوا
شَيْئًا ثُمَّ يَتَّبِعُوا الْأَمْرَ لَهُمْ بِخِلَافِهِ ؛ فَلَآنَ يَجُوزُ ذَلِكَ فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى حَتَّى إِنَّ بَابَ
الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ إِذَا تَمَسَّكُوا فِيهِ بِالْإِسْتِصْحَابِ لَمْ يَقَعْ فِي ذَلِكَ ظَنُّ خِلَافٍ مَا هُوَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ الْوُجُوبَ
وَالْتَحَرِيمَ الَّذِي لَا يَنْبَغُ إِلَّا بِخَطَابٍ إِذَا نَفَوْهُ قَبْلَ الْخَطَابِ كَانَ ذَلِكَ اعْتِقَادًا مُطَابِقًا لِلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ وَبَابُ الْوَعْدِ إِذَا
لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ قَدْ يَظُنُّونَ انْتِفَاءَهُ كَمَا ظَنَّ الْخَلِيلُ جَوَازَ الْمَغْفِرَةِ لِأَبِيهِ حَتَّى اسْتَغْفَرَ لَهُ وَنَهَيْنَا عَنْ الْإِقْدَاءِ . كَمَا { قَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَالِبٍ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتُكَلِّمْكَ عَنْكَ } وَحَتَّى اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ لِأَمِّهِ فَلَمْ
يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَتَّى صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ قَبْلَ أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ وَكَانَ يَرْجُو لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } إِلَى قَوْلِهِ : { لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } وَقَالَ عَنْ الْمُنَافِقِينَ :
وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا { الْآيَةُ } . وَقَالَ { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ
} فَإِذَا كَانَ صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ رَاحِيًا أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ . وَلِهَذَا سَوَّغَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يُرَوَى
فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ مَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كَذِبٌ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِسْنَادِ . بِخِلَافِ بَابِ الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ
فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ فِيهِ إِلَّا بِمَا يَثْبُتُ أَنَّهُ صِدْقٌ ؛ لِأَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ إِذَا أُمِّنَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ صِدْقًا وَأُمِّنَ أَنْ يُوْجَدَ

الْخَبَرُ كَذِبًا لَمْ يَجْزُ نَفْيُهُ ؛ لَا سِيَّمَا بَلَا عِلْمٍ كَمَا لَمْ يَجْزِ الْجَزْمُ بِثُبُوتِهِ بَلَا عِلْمٍ ؛ إِذْ لَا مَحْذُورَ فِيهِ . مَنَابِتُ النَّاسِ اللَّفْظُ تَعْيِينُ الْوَعْدِ وَالْوَعْدُ فَلَا يَجُوزُ مَنَعُ ذَلِكَ بِمَنَعِ الْحَدِيثِ إِذَا أَمَكُنَّ أَنْ يَكُونَ صِدْقًا ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِبْطَالًا لِمَا هُوَ حَقٌّ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ } وَهَذَا الْبَابُ وَهُوَ " بَابُ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ " هُوَ فِي الْكِتَابِ بِأَسْمَاءٍ مُطْلَقَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ وَالْمُحْسِنِينَ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَظُنُّ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْوَعْدِ وَيَكُونُ اللَّفْظُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْوَعْدِ لَا فِي اعْتِقَادِ صَدَقِ الْوَعْدِ فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وَقَوْلِهِ : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } الْآيَتِينَ فَقَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ كَمَالَ الْإِيمَانِ الْمُسْتَحَقَّ لِلنَّصْرِ وَإِنْ جُنَدَ اللَّهُ الْعَالِبُونَ وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقَدْ يَقَعُ مِنَ النَّصْرِ الْمَوْعُودُ بِهِ مَا لَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمَوْعُودِ بِهِ فَالْظَّنُّ الْمُخْطِئُ فَهَمَّ ذَلِكَ كَثِيرٌ جَدًّا أَكْثَرُ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَعَ كَثَرَةِ مَا وَقَعَ مِنَ الْغَلَطِ فِي ذَلِكَ وَهَذَا مِمَّا لَا يَحْصُرُ الْغَلَطُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا عَامٌّ لِجَمِيعِ الْأَدَمِيِّينَ ؛ لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ لَا يَقْرُونُ ؛ بَلْ يَبَيِّنُ لَهُمْ وَغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا . وَلِهَذَا كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَأْمُرُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصِدْقِ الْوَعْدِ وَالْإِيمَانِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الْوَقْتُ وَمِنَ الْإِسْتِغْفَارِ لِرِزَالِ الذُّنُوبِ الَّتِي بِهَا تَحْقِيقُ انْتِصَافِهِ بِصِفَةِ الْوَعْدِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فِيمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ } الْآيَةُ . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

، وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَيُنَظِّرُهُمْ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ (١) ، وَيَنَازِعُونَهُ فِي أَشْيَاءَ فَيَحْجُجُ عَلَيْهِمْ وَيَحْجُجُونَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيَقْرَأُهُمْ عَلَى مَنَازِعَتِهِ وَلَا يَقُولُ لَهُمْ : أَتَا مُحَدَّثٌ مِنْهُمْ مُخَاطَبٌ فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوا مِنِّي وَلَا تُعَارِضُونِي ، فَأَيُّ أَحَدٍ ادَّعَى أَوْ ادَّعَى لَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ يَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَلَا يُعَارِضُوهُ وَيُسَلِّمُوا لَهُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَهُوَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ ، فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُنَازِعُونَهُ فِيمَا يَقُولُهُ ، وَهُوَ وَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَمِ وَأَيَّمَتْهَا عَلَى أَنْ كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (٢)

(١) - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ تَوْقَلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْعَ لَقِيَهُ أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّامِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ . فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ ، وَلَا تَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَرَى أَنْ تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ . فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي . ثُمَّ قَالَ ادْعُوا لِي الْأَنْصَارَ . فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ ، فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي . ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ . فَدَعَوْهُمْ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ ، فَقَالُوا تَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ ، وَلَا تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَتَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ ، إِنِّي مُصِِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ ، فَأَصْبَحُوا عَلَيْهِ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفَرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، نَعَمْ نَفَرُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هِطَّتْ وَادِيًا لَهُ غُلُوتَانِ ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أَلَيْسَ

إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَذْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَكَانَ مُتَعَبِيًّا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنْ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بَارِضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بَارِضٌ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » . قَالَ فَحَمِدَ اللَّهُ عَمْرُ ثُمَّ انْصَرَفَ .
أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٨٨)

(٢) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١ / ص ٢٨٦)

(فِصْلٌ) : وَأَنْتُمْ أَصْلَحُكُمْ اللَّهُ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ دِينُ اللَّهِ وَعَافَاكُمْ اللَّهُ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ . وَالْإِسْلَامُ أَعْظَمُ النِّعَمِ وَأَجْلُهَا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } . وَعَافَاكُمْ اللَّهُ بِالنِّسَابِ إِلَى السُّنَّةِ مِنْ أَكْثَرِ الْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ بَدْعِ الرُّوَافِضِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ بِحَيْثُ جَعَلَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْبُغْضِ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ أَوْ يَسُبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هُوَ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الدِّينِ وَلِهَذَا كَثُرَ فِيكُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالِدِّينِ وَأَهْلِ الْقِتَالِ الْمُجَاهِدِينَ مَا لَا يُوْجَدُ مِثْلُهُ فِي طَوَائِفِ الْمُتَبَدِّعِينَ وَمَا زَالَ فِي عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ الْمَنْصُورَةِ وَجُنُودِ اللَّهِ الْمُؤَيَّدَةِ مِنْكُمْ مَنْ يُؤَيِّدُ اللَّهَ بِهِ الدِّينَ وَيُعِزُّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَفِي أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ مِنْكُمْ مَنْ لَهُ الْأَحْوَالُ الزَّكِيَّةُ وَالطَّرِيقَةُ الْمَرْضِيَّةُ وَلَهُ الْمَكَاشِفَاتُ وَالتَّصَرُّفَاتُ . وَفِيكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ مَنْ لَهُ لِسَانٌ صَدَقَ فِي الْعَالَمِينَ فَإِنَّ قُدَمَاءَ الْمَشَائِخِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ مِثْلَ الْمَلَقِّبِ بِشَيْخِ الْإِسْلَامِ " أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ الْقُرَشِيِّ الْهَكَارِيِّ " وَبَعْدَهُ الشَّيْخُ الْعَارِفُ الْقُلُوءَةُ عَدِيُّ بْنُ مُسَافِرٍ الْأُمَوِيُّ " وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمَا فِيهِمْ مِنَ الْفَضْلِ وَالِدِّينِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِتْبَاعِ لِلْسُّنَّةِ مَا عَظَّمَ اللَّهُ بِهِ أَقْدَارَهُمْ وَرَفَعَ بِهِ مَنَازِلَهُمْ . وَالشَّيْخُ عَدِيُّ " - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مِنْ أَفَاضِلِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَكَابِرِ الْمَشَائِخِ الْمُتَّبَعِينَ وَلَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الزَّكِيَّةِ وَالْمَنَاقِبِ الْعَلِيَّةِ مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ . وَلَهُ فِي الْأُمَّةِ صِيتٌ مَشْهُورٌ ، وَلِسَانٌ صَدَقَ مَذْكُورٌ وَعَقِيدَةٌ

الْمُحْفُوظَةُ عَنْهُ لَمْ يَخْرُجْ فِيهَا عَنْ عَقِيدَةٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمَشَائِخِ الَّذِينَ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ كَالشَّيْخِ الْإِمَامِ الصَّالِحِ " أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ الشَّيرَازِيِّ ثُمَّ " الدِّمَشْقِيُّ " وَكَشَيْخُ الْإِسْلَامِ الْهَكَارِيِّ " وَنَحْوَهُمَا . وَهَؤُلَاءِ الْمَشَائِخُ لَمْ يَخْرُجُوا فِي الْأُصُولِ الْكِبَارِ عَنْ أُصُولِ " أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ " بَلْ كَانَ لَهُمْ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالِدُّعَاءِ إِلَيْهَا وَالْحِرْصِ عَلَى نَشْرِهَا وَمُنَازَعَةِ مَنْ خَالَفَهَا مَعَ الدِّينِ وَالْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ مَا رَفَعَ اللَّهُ بِهِ أَقْدَارَهُمْ وَأَعْلَى مَنَازِلَهُمْ ، وَغَالِبٌ مَا يَقُولُونَهُ فِي أُصُولِ الْكِبَارِ جَيِّدٌ مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يُوْجَدَ فِي كَلَامِهِمْ وَكَلَامِ نُظَرَائِهِمْ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمَرْجُوحَةِ وَالِدَّلَائِلِ الضَّعِيفَةِ ؛ كَأَحَادِيثَ لَا تَثْبُتُ وَمَقَائِيسُ لَا تَقَرُّدُ (مَعَ مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا سِيَّمَا الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْأُمَّةِ الَّذِينَ لَمْ يُحْكَمُوا مَعْرِفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْفَقْهِ فِيهِمَا وَيُمَيِّزُوا بَيْنَ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ وَسَقِيمِهَا وَنَاسِجِ الْمَقَائِيسِ وَعَقِيمِهَا مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ غَلَبَةِ الْأَهْوَاءِ وَكَثْرَةِ الْأَرَءِ وَتَغْلُظِ الْاِخْتِلَافِ وَالِافْتِرَاقِ وَحُصُولِ الْعُدَاوَةِ وَالشَّقَاقِ . فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ وَنَحْوَهَا مِمَّا يُوْجِبُ " قُوَّةَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ " اللَّذِينَ نَعَتَ اللَّهُ بِهِمَا الْإِنْسَانَ فِي قَوْلِهِ : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ أَنْقَذَهُ مِنْ هَذَا الصَّلَالِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : { وَالْعَصْرِ } { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَبِي خَسِرٌ } { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } . وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - أَصْلَحَكُمْ اللَّهُ - أَنَّ " السُّنَّةَ " الَّتِي يَجِبُ اتِّبَاعُهَا وَيُحْمَدُ أَهْلُهَا وَيُدْمَنَّ مَنْ خَالَفَهَا : هِيَ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فِي أُمُورِ الْإِعْتِقَادَاتِ وَأُمُورِ الْعِبَادَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ . وَذَلِكَ إِنَّمَا يُعَرَفُ بِمَعْرِفَةِ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّابِتَةِ عَنْهُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَا تَرَكَهُ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ . ثُمَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّابِقُونَ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ . وَذَلِكَ " فِي دَوَائِنِ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفَةِ " : مِثْلَ صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَكُتُبِ السُّنَنِ . مِثْلَ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَمَوْطَأِ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَمِثْلَ الْمَسَانِيدِ الْمَعْرُوفَةِ ؛ كَمِثْلِ مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ . وَيُوجَدُ فِي كُتُبِ " التَّفَاسِيرِ " وَ " الْمَعَارِي " وَسَائِرِ " كُتُبِ الْحَدِيثِ " جُمْلُهَا وَأَجْزَائُهَا مِنْ الْأَثَارِ مَا يُسْتَدَلُّ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ . وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ مَنْ اعْتَنَى بِهِ حَتَّى حَفِظَ اللَّهُ الدِّينَ عَلَى أَهْلِهِ . وَقَدْ جَمَعَ طَوَائِفُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَحَادِيثَ وَالْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي أَبْوَابِ " عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ " مِثْلَ : حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيِّ ؛ وَعُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِمْ فِي طَبَقَتِهِمْ . وَمِثْلُهَا مَا بَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبْنُ مَاجَةَ وَغَيْرُهُمْ فِي كُتُبِهِمْ . وَمِثْلُ مُصَنَّفَاتِ أَبِي بَكْرٍ الْأَثَرَمِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ وَأَبِي بَكْرٍ الْخَلَّالِ وَأَبِي الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيِّ وَأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الْآجَرِيِّ وَأَبِي الْحَسَنِ الدَّارِقُطِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَنْدَةَ وَأَبِي الْقَاسِمِ اللَّالِكَاثِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ بَطَّةَ ؛ وَأَبِي عَمْرٍو الطَّلْمَنْكِيِّ وَأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ السِّهْقِيِّ وَأَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ . وَإِنْ كَانَ يَقَعُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمُصَنَّفَاتِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ . وَقَدْ يَرُودُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : فِي الصِّفَاتِ وَسَائِرِ أَبْوَابِ الْإِعْتِقَادَاتِ وَعَامَّةِ أَبْوَابِ الدِّينِ : أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَكُونُ مَكْذُوبَةً مَوْضُوعَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ قِسْمَانِ : - مِنْهَا مَا يَكُونُ كَلَامًا بَاطِلًا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُضَافَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ الْكَلَامِ : مَا يَكُونُ قَدْ قَالَهُ بَعْضُ السَّلَفِ أَوْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَوْ بَعْضُ النَّاسِ وَيَكُونُ حَقًّا . أَوْ مِمَّا يَسُوعُ فِيهِ الْاجْتِهَادُ أَوْ مَذْهَبًا لِقَائِلِهِ فَيُعْزَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا كَثِيرٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْحَدِيثَ مِثْلَ الْمَسَائِلِ الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيْخُ " أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ " وَجَعَلَهَا مَحْنَةً يُفَرِّقُ فِيهَا بَيْنَ السُّنَنِ وَالْبِدْعِيِّ وَهِيَ " مَسَائِلُ مَعْرُوفَةٌ " عَمِلَهَا بَعْضُ الْكَذَّابِينَ وَجَعَلَ لَهَا إِسْنَادًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَهَا مِنْ كَلَامِهِ وَهَذَا يَعْلَمُهُ مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ أَنَّهُ مَكْلُوبٌ مُفْتَرَى . وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ وَإِنْ كَانَ غَالِبُهَا مُوَافِقًا لِأَصُولِ السُّنَّةِ فَفِيهَا مَا إِذَا خَالَفَهُ الْإِنْسَانُ لَمْ يُحْكَمْ بِأَنَّهُ مُبْتَدِعٌ مِثْلَ أَوَّلِ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِيهَا نِزَاعٌ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالتَّنَازُعِ فِيهَا لَفْظِيٌّ ؛ لِأَنَّ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّ اللَّذَّةَ [الَّتِي] يَعْقُبُهَا أَلَمْ ؛ هَلْ تُسَمَّى نِعْمَةً أَمْ لَا ؟ وَفِيهَا أَيْضًا أَشْيَاءٌ مَرْجُوحَةٌ . فَالْوَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَالْحَدِيثِ الْكَذِبِ فَإِنَّ السُّنَّةَ هِيَ الْحَقُّ دُونَ الْبَاطِلِ ؛ وَهِيَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ دُونَ الْمَوْضُوعَةِ : فَهَذَا " أَصْلُ عَظِيمٌ " لِلْأَهْلِ الْإِسْلَامِ عُمُومًا وَلِمَنْ يَدْعِي السُّنَّةَ خُصُوصًا .

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٩ / ص ٢١٢)

وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةُ عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَجُوزُ تَكْفِيرُهُمْ بِمُجَرَّدِ الْخَطَا الْمَحْضِ ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُتْرَكُ بَعْضُ كَلَامِهِ لِخَطَا أَخْطَأَهُ يُكْفَرُ وَلَا يُفْسَقُ ؛ بَلْ وَلَا يَأْتُمُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنْ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ قَدْ فَعَلْتُ }

وفي فتاوى الشيخ ابن جبرين - (ج ٦٣ / ص ٢٥٢)

هذه هي المذاهب الأربعة، ولكن هل كان بعضهم يضل بعضاً؟ حاشى وكلا، كلهم متآخون ومتحابون ومجتمعون على الحق.

سئل الإمام الشافعي فقيل له: هل نصلي خلف من يقلّد مالكاً؟ فارتعد وقال: ألسنت أصلي خلف مالك! فمالك شيخ الشافعي الذي أفاده فوائد كثيرة جهة، فأنكر على هذا الذي قال إنا نروع أن نصلي خلف المالكية لأنهم يخالفوننا في أشياء، والخلافات التي بينهم في الصلاة مثلاً في الجهر بالبسملة أو التلظظ بالنية، أو في بعض الأشياء اليسيرة القليلة، وكذلك بينه وبين الحنفية خلافات لا تبطل بها الصلاة.

مع ذلك كله فإن هؤلاء الأئمة ليسوا هم العلماء كلهم، بل في زمانهم من هو أهل للتابع وأهل للعلم؛ فالإمام الليث بن سعد عالم مصر كان أيضاً عالماً جليلاً كبيراً، وله أيضاً أتباع، وإن لم يكن له مؤلفات ولا مذهب متبع. وكذلك الإمام الأوزاعي أبو عبد الرحمن عالم الشام في زمانه، وله أيضاً أتباع، وله تلاميذ كثيرون. ولكن الخمج واحد، فكلهم يتبع الآخر إذا ظهر له الحق مع أحدهم، فيهم يتبرؤون من الخطأ ويقولون لتلامذتهم: إذا اتضح لكم الخطأ في قولنا فلا تتبعوه، اتبعوا الحق وخذوا به.

ذكروا أن الإمام أبا حنيفة يقول: إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فحن رجال وهم رجال؛ وذلك لأنه من التابعين. واشتهر عن مالك رحمه الله أنه يقول: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر. يعترف على نفسه بأن أقواله عرضة للخطأ وعرضة للتبرك، وإذا اتضح فيها خطأ فلتترك.

وجاء رجل إلى الشافعي رحمه الله، وسأله عن مسألة فقال: هذه المسألة أفتى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا. فقال السائل: فما تقول أنت يا أبا عبد الله؟ فعضب الشافعي غضباً شديداً وقال: ويحك أتراني في بيعة؟ أتراني في صومعة؟ أتراني على وسطي زنار؟ أقول لك أفتى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول ماذا تقول أنت، أتري أي أحالف فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم! هكذا غيرهم وحماستهم على السنة النبوية.

كذلك الإمام أحمد رحمه الله اشتهرت مقالاته التي يقول فيها: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأى سفيان، والله تعالى يقول: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (النور: ٦٣) أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك.

هذه مقالاتهم التي يحثون فيها على الرجوع إلى السنة، ومع ذلك وللأسف؛ فإن كثيراً من أتباعهم المقلدة صاروا يرون الحق والصواب معهم فقط، ويتعصبون للمذاهب هذا التعصب الذي سبب الفارقة. فقد نتج عن التعصب لمذهب هذا على هذا؛ أنه حصل بينهم مناسقات ومجادلات سواء في الكتب أو في الأعمال أو نحوها، حتى ذكروا أن المسجد الأموي الذي في دمشق كانت تقام الصلاة فيه أربع مرات يصلي الإمام الحنفي بمن معه، ثم يصلي الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وهذه تفرقه بين المسلمين.

وهَذَا مِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُمْ يَجِبُ لَهُمُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ (١)؛ بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ (٢)، وَلَا الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ؛ بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَبَ قَبُولُهُ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُوداً (٣)، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَكَانَ مُجْتَهِداً مَعْدُوراً فِيمَا قَالَهُ، لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ (٤). لَكِنَّهُ إِذَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُخْطِئاً، وَكَانَ مِنَ الْخَطِئِ الْمَغْفُورِ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ أَتَى اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ..} (٥)

(١) - قال تعالى: {مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ

السَّيْلُ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ { (٧) سورة الحشر

(٢) - أو ما يهون عنه .

(٣) - قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } (٥٩) سورة النساء

(٤) - عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتِهَدْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتِهَدْ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » . صحيح مسلم (٤٥٨٤)

(٥) - يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتباب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ". ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، تفسير السعدي -

(ج ١ / ص ٨٦٨)

و { مَا اسْتَطَعْتُمْ } مصدرية ظرفية . والمراد بالاستطاعة : نهاية الطاقة والجهد .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن المؤمن الصادق في إيمانه هو الذى لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر الله - تعالى - فابذلوا نهاية قدرتكم واستطاعتكم في طاعة الله - تعالى - وداوموا على ذلك في جميع الأوقات والأزمان .

وليس بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ } تعارض ، لأن كلتا الآيتين تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده ، ونهاية طاقته ، في المواظبة على أداء ما كلفه الله به ، ولذلك فلا نرى ما يدعو إلى قول من قال : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى تقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ } قال الألوسى : أخرج ابن أبى حاتم عند سعيد بن جبير قال : لما نزلت : { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ } اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت أقدامهم . فأنزل الله هذه الآية { فاتقوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ } تخفيفاً على المسلمين .

وحذف متعلق التقوى ، لقصد التعميم ، أى : فاتقوا الله مدة استطاعتكم في كل ما تأتون وما تذكرون ، واعلموا أنه - تعالى - { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } و { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ومن الأحاديث التى وردت فى معنى الآية الكريمة ، ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله قال : " بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة ، فلقننى " فيما استطعت " .

وعطف قوله - تعالى - { واسمعوا وأطيعوا } على قوله { فاتقوا الله } من باب عطف الخاص على العام ، للاهتمام به .

أى : فاتقوا الله - تعالى - فى كل ما تأتون وما تذكرون ، واسمعوا ما يبلغكم إياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر ، وأطيعوه فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٤٢٣١)

(١٦) سورة النباين ، وهذا تفسير قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (١٠٢) سورة آل عمران ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ : حَقَّ تَقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ؛ وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ (١) ، أَيْ بِحَسَبِ اسْتَطَاعَتِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... } (٢) (٢٨٦) سورة البقرة ، وَقَالَ تَعَالَى :

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٣)

(١) - تفسير الطبري - (ج ٥ / ص ٤٧٠) (٥٩٦٠-٥٩٦٣) وتفسير ابن كثير - (ج ٣ / ص ٥٧) وهو

صحيح

(٢) - والوسع - كما يقول الزمخشري - : ما يسع الإنسان ، ولا يضيق عليه ، ولا يخرج فيه ، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والجهود . وهذا إخبار عن عدله . ورحمته كقوله - تعالى - : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من الشهر ، ويجمع أكثر من حجة .

فالجملة الكريمة تحكى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا ، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا ، وتستطيعه نفوسنا ، وقد حكى القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : { وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } وقوله - تعالى - : { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } وإذا كانت بعض التكاليف التي كلفنا الله بها في مشقة ، فإن هذه المشقة محتملة وفي وسع الإنسان وقدرته وطاقته ، وسئينا الله - تعالى - عليها ثواباً جزيلاً ، فهو القائل : { إِنَّمَا يُوقِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ثم بين - سبحانه - أن كل نفس ستجازى بما عملت فقال : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } أي لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة ، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها القبيحة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب؟ قلت . في الاكتساب اعتمال ، فلما ان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأماره به ، كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده : " لا شك أن الميل إلى الخير مما أودع في نفس الإنسان والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته . ولا يحتاج إلى تكلف في فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه يعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريراً فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم . . وهكذا شأن الإنسان عند اقتراف كل شر يشعر في نفسه بقبحه ، ويجد من أعمال سريره هاتفا يقول له : لا تفعل ، يحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا في النادر . . " .

وبعد بيان سنة الله - تعالى - في التكليف وفي الجزاء عليه ، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الدعوات الجامعات للسعادة حتى يكثر المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } أي : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا { نَسِينَا } أمرك ونهيك { أَوْ أَخْطَأْنَا } ففعلنا خلاف الصواب جهلاً منا بوجهه الشرعي .

فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم ، فصفت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وخشعت جوارحهم ، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط فممنهم نسياناً أو خطأ ، وذلك لأن المؤمن عندما يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على ما لا حساب عليه ، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - فهي قليلة بجانب هفواته وسيئاته ، فهو لشدة خشيته من الله يرجح جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء . وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت : . . . لأنهم كانوا متقين الله حق تقاته ، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان

والخطأ . فكأن وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤخذون به . كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤخذ به ، فما فيهم سبب مؤاخذه إلا الخطأ والنسيان . ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه .

هذا هو الدعاء الأول الذي حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٥٣٣)
(٣) - وَالَّذِينَ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا جَاءُواهُمْ بِهِ ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ، بِجَوَارِحِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَخْلُدُونَ فِيهَا أَبَدًا .
وَالْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ سَهْلَانِ مَيَسُورٌ فَعَلُهُمَا لِجَمِيعِ النَّاسِ ، لَأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا إِلَّا قَدْرَ طَاقَتِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ .

(٤٢) سورة الأعراف ، وَقَالَ تَعَالَى : { لَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (١) (١٥٢) سورة الأنعام . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (١٣٦) { (٢) [البقرة/١٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (٥) { (٣)

(١) - وَيَتَابِعُ اللَّهُ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، بَيَانَ مَا أَوْصَىٰ بِهِ النَّاسَ ، وَمَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : وَمِمَّا أَوْصَىٰ بِهِ النَّاسَ : أَلَّا يَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ، إِذَا وَلَّوْا أَمْرَهُ ، أَوْ تَعَامَلُوا مَعَهُ ، إِلَّا بِالطَّرِيقَةِ الْحَسَنَةِ (إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الَّتِي تَحْفَظُ مَالَهُ ، وَتُثَمِّرُهُ ، وَتُرْجِحُ مَصْلَحَتَهُ ، وَأَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَّتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْيَتِيمُ سِنَّ الرُّشْدِ ، وَالْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْإِدْرَاكِ وَالتَّصَرُّفِ .

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَخَذُوا فِي عَزْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَطَعَامِهِ ، عَنْ مَالِهِمْ ، فَكَانَ طَعَامُ الْيَتِيمِ يَفْسُدُ ، لَا يَمَسُّهُ أَحَدٌ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُمْ . فَشَكَوَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } . { فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ النَّاسَ بِمُرَاعَاةِ مَصْلَحَةِ الْيَتِيمِ ، وَالْعِنَايَةِ بِمَالِهِ ، وَعَدَمِ التَّصَرُّفِ فِيهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُحَذِّرُهُمْ تَعَالَى مِنَ التَّجَاوُزِ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ مِمَّا أَوْصَىٰ بِهِ النَّاسَ أَيْضًا : إِيْفَاءَ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَعَدَمَ غَمْطِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى يَدْعُو الْمُؤْمِنَ أَنْ يَبْلُغَ جُهْدَهُ فِي آدَاءِ ذَلِكَ ، فَإِذَا بَلَغَ جُهْدَهُ ، وَعَمِلَ مَا فِي وَسْعِهِ ، يَكُونُ قَدْ قَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ ذَلِكَ ، لَأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَقَدَرُ طَاقَتِهَا .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ مِمَّا وَصَّىٰ بِهِ النَّاسَ أَيْضًا الْعَدْلُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَفِي كُلِّ حَالٍ : فِي الشَّهَادَةِ وَفِي الْحُكْمِ وَفِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِقَرِيبٍ ، فَإِنَّ الْقَرَابَةَ وَالصَّدَاقَةَ يَجِبُ أَلَّا تَصْرِفَا الْإِنْسَانَ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ ، وَعَنِ الْعَدْلِ فِيهِ .

كَمَا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ ، وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ ، فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى ، وَفِيمَا عَاهَدُوا النَّاسَ عَلَيْهِ . وَهَذَا مَا أَوْصَىٰ بِهِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَرَهُمْ بِهِ ، وَأكَّدَ عَلَيْهِ .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِذَا اجْتَهَدْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ ، وَتَوَاصَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَعَلَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ

تَتَعَطَّرُونَ ، وَتَسْتَهُونَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الصَّلَالِ .

(٢) - وَقُولُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَهُؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ : إِنَّا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ لِرَبِّنَا . (كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " .

(٣) - لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ (الْكِتَابُ) مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ هُدًى وَنُورٌ يَهْتَدِي بِهِ الْمُتَّقُونَ ، الَّذِينَ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَيَتَّقُونَ الشَّرْكَ وَأَسْبَابَ الْعِقَابِ .

وهؤلاء الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِحَرَمِ وَإِيمَانِ وَإِدْعَانِ بِمَا لَا يَفْقَهُ تَحْتَ حَوَاسِهِمْ (الْغَيْبِ) فَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَلِقَائِهِ ، وَبِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ آدَائِهَا وَيَتِمُّونَ - بِخُشُوعٍ تَامٍ ، وَحُضُورٍ قَلْبٍ - رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَتِلَاوَتَهَا ، وَيَنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ ، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ .

وهؤلاء الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِمَا جَنَّتَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَبِمَا أُنزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا يَجْحَدُونَ بِمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ التَّبَوُّاتُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ .

فهؤلاء الْمُتَّقُونَ بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ : مِنْ إِيْمَانِ بِاللَّهِ ، وَإِيْمَانِ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَتَأْدِيَةِ الزَّكَاةِ . . . هُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَنُورٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَهُمْ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوهُ بَعْدَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ فِي الْحُصُولِ عَلَيْهِ ، وَنَجَّوْا مِنْ شَرِّ مَا اجْتَبَوْهُ .

[البقرة/١-٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } (١) (١٧٧) سورة البقرة . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِعْصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوعُ لَهُ أَوْ لغيرِهِ اتِّبَاعٌ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِمْ ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرَطًا فِي الْجَهْلِ . وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَائِخِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي : إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي التُّكْنَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ (٢)

(١) - بَعْدَ أَنْ حَوَّلَ اللَّهُ قِبْلَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذَ الْيَهُودُ فِي الدَّسِّ وَالتَّقْدِ بُغْيَةٍ زَعَرَةَ ثِقَةَ الْمُسْلِمِينَ بِرَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَوْضَحَ اللَّهُ فِي عَدَدٍ مِنْ الْآيَاتِ حِكْمَتَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهِيَ : أَنَّ الْمُرَادَ أَسَاسًا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَامْتِثَالُ أَوْامِرِهِ ، وَالتَّوَجُّهُ حَيْثُمَا أَمَرَ وَوَجَّهَ ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيْمَانُ الْكَامِلُ ، وَلَيْسَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بَحْدَ ذَاتِهِ طَاعَةٌ وَلَا بِرٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شَرْعِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ . فَالْبِرُّ يَقُومُ بِالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَالْإِيْمَانِ بِالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ، وَبِاتِّفَاقِ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ - وَالْإِنْسَانُ حَيٌّ سَلِيمٌ صَحِيحٌ يَأْمَلُ الْعَيْشَ ،

وَيَخْشَى الْفَقْرَ - عَلَى ذَوِي قُرْبَاهُ ، وَعَلَى الْيَتَامَى الَّذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ ، وَهُمْ صِغَارٌ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الْكَسْبِ ، وَعَلَى الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَمَسْكِنِهِمْ وَكُسُوتِهِمْ ، وَعَلَى ابْنِ السَّبِيلِ - وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي نَفَذَتْ نَفَقَتُهُ - وَعَلَى مَنْ يُرِيدُ سَفْرًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ ، وَعَلَى السَّائِلِينَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلسُّؤَالِ ، وَعَلَى الْعَبِيدِ الْمَكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ .

كَمَا أَنَّ الْبِرَّ يَقُومُ : بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ (وَإِتِمَامِ أَفْعَالِهَا بِخُشُوعٍ تَامٍ فِي أَوْقَاتِهَا وَإِتِمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا) ، وَبِدَفْعِ الزَّكَاتِ ، وَبِالتَّمَسُّكِ بِالْهُدُودِ وَالْمَوَاقِيقِ وَعَدَمِ التَّكْثُرِ بِهَا ، وَبِالصَّبْرِ فِي الْبَأْسَاءِ - أَيْ فِي حَالِ الْفَقْرِ - وَفِي الضَّرَائِرِ - أَيْ فِي حَالِ الْمَرَضِ - ، وَبِالصَّبْرِ حِينَ الْبَأْسِ - أَيْ فِي حَالَةِ الْقِتَالِ وَلِقَاءِ الْأَعْدَاءِ - .

فَالَّذِينَ اتَّصَفُوا بِالصِّلَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ هُمْ الْبِرَّةُ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ ، وَفَارَزُوا بِرِضَا اللَّهِ .

(وَقَدْ نَصَبَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّابِرِينَ عَلَى الْمَذْحِ وَالْشَّاءِ عَلَى الصَّبْرِ ، وَالْحَثَّ عَلَيْهِ لِشِدَّتِهِ ، وَصُعُوبَةِ احْتِمَالِهِ عَلَى النَّفْسِ) .

(٢) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ٤٤) :

وَجَمَاعُ الدِّينِ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ وَلَا نَعْبُدَهُ بِالْبَدْعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } . قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ : أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ قَالُوا : يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ ؟ . قَالَ : إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ . وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ . حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا وَالْخَالِصُ : أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْفَضِيلُ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أئِمَّةُ الْمَشَايخِ كَمَا قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي : إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِقَلْبِي التُّكْنَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ : الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَسْمَعَ فِيهِ بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ بِأَثَرٍ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . وَقَالَ الْجَنِيدُ : عَلِمْنَا هَذَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَمْ يَصِحَّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عَلَمِنَا هَذَا وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِي : كُلُّ وَجِدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ وَقَالَ : كُلُّ عَمَلٍ عَلَى اتِّبَاعِ فَإِنَّهُ عَذَابٌ عَلَى النَّفْسِ وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اتِّبَاعٍ فَهُوَ غِشُّ النَّفْسِ . وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ : مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفَعَلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفَعَلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَكُوا } . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ لِأَمْتِهِ فَهُوَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ الْهَادِي إِلَى صِرَاطِهِ الَّذِي مِنْ أَطَاعَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ الَّذِي فَارَقَ اللَّهَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالرَّشَادِ وَالْعِيَّ . آخِرُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ٤٦)

فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثَ بِهِ وَلَا شَيْئًا يُبْعِدُ عَنِ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثَ بِهِ وَأَنَّ هَذَا السَّمَاعُ لَوْ كَانَ مَصْلَحَةً لَشَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } وَإِذَا وَجَدَ فِيهِ مَنْفَعَةً لِقَلْبِهِ وَلَمْ يَجِدْ شَاهِدَ ذَلِكَ لَا مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِي : كُلُّ وَجِدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي : إِنَّهُ لَتَلْمُ بِقَلْبِي التُّكْنَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ : الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَجِدَ فِيهِ أَثَرًا فَإِذَا وَجَدَ فِيهِ أَثَرًا كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . وَقَالَ الْجَنِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ : عَلِمْنَا هَذَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَلَمْ

يَكُتِبُ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا .

وفي كتاب فضل علم السلف على الخلف - (ج ١ / ص ٦)

ومما أحدث من العلوم الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والنوق أو الكشف وفيه خطر عظيم: وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره: وكان أبو سليمان يقول أنه لتمرُّ بي النكتة من نُكَّتِ القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة.

وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في علمنا هذا:

وفي بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشرعية نبوية - (ج ١ / ص ٢٨٦)

وَقَوْلُهُ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَنِي مُؤْنَةَ الْأَكْلِ وَمُؤْنَةَ النَّسَاءِ ثُمَّ قُلْتُ كَيْفَ يَجُوزُ لِي أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى هَذَا وَلَمْ يَسْأَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَسْأَلْهُ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ كَفَانِي مُؤْنَةَ النَّسَاءِ حَتَّى لَا أَبَالِي اسْتَقْبَلْتَنِي امْرَأَةً أَوْ حَائِطًا .

(وَقَالَ أَبُو سَلَمَانَ الدَّارَانِيُّ) نَسَبَهُ إِلَى دَارِيَا قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى دِمَشْقَ مَاتَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ (رُبَّمَا تَقَعُ) بِطَرِيقِ الْفَيْضِ (فِي قَلْبِي الثُّكْنَةُ) الدَّفِيقَةُ مِنْ غَوَامِضِ الْأَسْرَارِ وَمَنَازِلَاتِ الْأَخْيَارِ وَتَجَلِّيَاتِ الْأَنْوَارِ (مِنْ نُكَّتِ الْقَوْمِ) أَيِ الصُّوْفِيَّةِ جَمْعُ نُكْتَةٍ مِنَ الثُّكْتِ وَهُوَ أَنْ يَنْكُتَ فِي الْأَرْضِ بِقَضِيبٍ أَيْ يَضْرِبُ فَيُؤَثِّرُ فِيهَا وَالثُّكْنَةُ كَالنُّقْطَةِ كَمَا فِي الْجَوْهَرِيِّ وَكَانَتْهَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَنْكُتُ فِي الْقَلْبِ أَيْ تُؤَثِّرُ فِيهِ بِلُطْفٍ بِلَاغَتِهَا (أَيَّامًا) الظَّاهِرُ التَّنْوِينُ لِلتَّكْثِيرِ (فَلَا أَقْبَلُ مِنْهُ) أَيِ مِنْ قَلْبِي (إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ) يَهْتَمُّ (مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) بَيَانُ لِلشَّاهِدَيْنِ ، فَإِنَّهُمَا عَدْلَانِ مُطْلَقًا أَوْ عَدْلُ الْكِتَابِ مَا يَكُونُ تَوَاتُرًا دُونَ قِرَاءَةِ شَاذَةٍ وَكَانَ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمَعْنَى عَلَى وَجْهِ الظُّهْرِ لَا عَلَى طَرِيقِ الْخَفَاءِ وَعَدْلُ السُّنَّةِ هُوَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ دُونَ الضَّعِيفَةِ .

وفي بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشرعية نبوية - (ج ١ / ص ٢٨٦)

وَقِيلَ عَنْ ابْنِ الْهَمَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَجُوزُ وَيُسْتَحَبُّ الْعَمَلُ فِي الْفَضَائِلِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ مَا لَمْ يَكُنْ مَوْضُوعًا أَقُولُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَيَّدَ بِعَدَمِ مُخَالَفَةِ الْقِيَاسِ إِذَ الْقِيَاسُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَأُورِدَ الْعَلَمَةُ الدَّوَانِيُّ أَنَّ مَالَ الْفَضَائِلِ رَاجِعٌ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَلَا وَجْهَ لِقَيِّدِ كَالْجَوَازِ وَالِاسْتِحْبَابِ فَيَلْزَمُ ثُبُوتُ نَحْوِ الْاسْتِحْبَابِ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَحْكَامِ لَا يَثْبُتُ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ .

وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمُرَادَ جَوَازُ رَوَايَةِ الضَّعِيفِ فِيمَا ثَبَتَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ فِي فَصِيلَةٍ شَيْءٍ وَأُورِدَ عَلَيْهِ هَذَا الْمُحَقِّقُ هَذَا إِرَادَةً مَعْنَى مِنْ لَفْظٍ لَا يَتَحَمَّلُهُ عَلَى أَنَّ رَوَايَتَهُ فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ بِالصَّحِيحِ جَائِزَةٌ مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى ضَعْفِهِ ، وَالتَّعْوِيلُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ ذَلِكَ فِيمَا لَمْ يَحْتَمِلْ لِلْحَظَرِ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَجُوزُ وَيُسْتَحَبُّ لِلْأَمْنِ مِنَ الْحَظَرِ وَرَجَاءِ النَّفْعِ فَعَمَلٌ بِالِاحْتِيَاظِ ثُمَّ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الثَّقُلِ أَيْضًا صَرِيحُ الرَّدِّ لَهُمْ فِي أَنَّهُمْ ادَّعَوْا مُتَارَكَةَ الشَّرِيعَةِ فِي الْوُصُولِ وَمِمَّا ثَقُلَ عَنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِي فِي لَيْلِهِ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُوفِي فِي نَهَارِهِ وَمَنْ صَدَقَ فِي تَرْكِ شَهْوَةٍ ذَهَبَ اللَّهُ بِهَا مِنْ قَلْبِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا تَرَكَ شَهْوَةً لَهُ وَأَيْضًا إِذَا سَكَنَتِ الدُّنْيَا الْقَلْبَ تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الْآخِرَةُ . وانظر : الرسالة القشيرية - (ج ١ / ص ١٤) وصفة الصفوة - (ج ١ / ص ٤٦٩) وبريقة

محمودية في شرح طريقة محمدية وشرعية نبوية - (ج ١ / ص ١٩٢) ومجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص

(٤٣٣)

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ : عَلِمْنَا هَذَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَيَكُتِبِ الْحَدِيثَ لَا

يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا أَوْ قَالَ : لَا يُقْتَدَى بِهِ (١).
وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ (٢): مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ (٣)

(١) - وقال ابن عربي في الفتوحات المكية - (ج ٥ / ص ٦)

ولكن لا يخرج علم هذا الولي عن الذي جاء ذلك الرسول به من الوحي عن الله وكتابه وصحيفته لا بد من ذلك لكل ولي صديق برسوله إلا هذه الأمة فإن لهم من حيث صديقيتهم بكل رسول ونبى العلم والفتح والفيض الإلهي بكل ما يقتضيه وحي كل نبي وصفته وكتابه وصحيفته وبهذا فضلت على كل أمة من الأولياء فلا يتعدى كشف الولي في العلوم الإلهية فوق ما يعطيه كتاب نبيه ووحيه قال الجنيد في هذا المقام علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة وقال الآخر كل فتح لا يشهد له الكتاب والسنة فليس بشيء فلا يفتح لولي قط إلا في الفهم في الكتاب العزيز فلهذا قال ما فرطنا في الكتاب من شيء وقال في ألواح موسى وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فلا يخرج علم الولي جملة واحدة عن الكتاب والسنة فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلم ولا علم ولاية معاً بل إذا حققته وجدته جهلاً والجهل عدم والعلم وجود محقق فالولي لا يأمر أبداً بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه ولكن قد يلهم الترتيب صورة لا عين لها في الشرع من حيث مجموعها ولكن من حيث تفصيل كل جزء منها وجدته أمراً مشروعاً فهو تركيب أمور مشروعة أضاف بعضها إلى بعض هذا الولي أو أضيفت له بطريق الإلقاء أو اللقاء أو الكتابة فظهر بصورة لم تظهر في الشرع بجمعيتها فهذا القدر له من التشريع وما خرج بهذا الفعل من الشرع المكلف به فإن الشارع قد شرع له أنه يشرع مثل هذا فما شرع إلا عن أمر الشارع فما خرج عن أمره فمثل هذا قد يؤمر به الولي من هناك وأما خلاف هذا فلا فإن قلت وأين جعل الله للولي العالم ذلك بلسان الشرع قلنا قال صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً فقد سن له أن يسن ولكن مما لا يخالف فيه شرعاً مشروعاً ليحل به ما حرم أو يحرم به ما حلل فهذا حظ الولي من النبوة إذا سن من هنالك وهو جزء من أجزاء النبوة كما هي المبشرات من أجزاء النبوة وكثير من الأشياء على ذلك .

فضل علم السلف على الخلف - (ج ١ / ص ٦) والرسالة القشيرية - (ج ١ / ص ١٨) والفتوحات المكية - (ج

١ / ص ٤٧٦) والفتوحات المكية - (ج ٢ / ص ٢٥١) والفتوحات المكية - (ج ٢ / ص ٢٨٣) والفتوحات

المكية - (ج ٣ / ص ٢٤٩) والفتوحات المكية - (ج ٤ / ص ٤٤٧)

(٢) - الرسالة القشيرية - (ج ١ / ص ١٩) وحلية الأولياء - (ج ٤ / ص ٣٦٨) وصفة الصفوة - (ج ١ / ص

٤٢٩) ومدارج السالكين - (ج ٢ / ص ٤٦٦) وموسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ٤٢٣٢) وموسوعة خطب

المنبر - (ج ١ / ص ٤٩٣٣) ومفاهيم يجب أن تصحح لابن علوي - (ج ١ / ص ١٥)

(٣) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥٨٤)

. وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحَرِّمُونَ مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ أَشْيَاءَ وَيَتَّخِذُونَ ذَلِكَ دِينًا وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ قَدْ عَزَمُوا عَلَى

التَّهْتُبِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ } { وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا } { الْآيَةُ .

وَجَمَاعُ الدِّينِ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ وَلَا نَعْبُدَهُ بِالْبِدْعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا { . قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ : أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ قَالُوا : يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ ؟ . قَالَ : إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ . وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ . حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا وَالْخَالِصُ : أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْفُضَيْلُ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أئِمَّةُ الْمَشَايِخِ كَمَا قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِقَلْبِي الْكُنُتَةُ مِنْ نُكْتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ أَيْضًا : لَيْسَ لِمَنْ أَلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَسْمَعَ فِيهِ بِأَثَرٍ فَإِذَا سَمِعَ بِأَثَرٍ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ . وَقَالَ الْجُنَيْدُ : عَلِمْنَا هَذَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَمْ يَصِحَّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا هَذَا وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ : كُلُّ وَجَدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ وَقَالَ : كُلُّ عَمَلٍ عَلَى ابْتِدَاعٍ فَإِنَّهُ عَذَابٌ عَلَى النَّفْسِ وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا ابْتِدَاءٍ فَهُوَ غِشٌّ لِلنَّفْسِ .

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ : مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَكُوا } . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلُكَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ لِأَمْتِهِ فَهُوَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ الْهَادِي إِلَى صِرَاطِهِ الَّذِي مَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالرَّشَادِ وَالْعِيَّ . آخِرُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم .

؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ : { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَكُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (١) (٥٤) سورة النور ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ نُجَيْدٍ : كُلُّ وَجَدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ (٢)

(١) - قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ طَاعَةً صَادِقَةً ، وَاتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، فَفِي اتِّبَاعِهِمَا الْهُدَايَةَ وَالرَّسَادَ ، أَمَّا إِذَا تَوَلَّيْتُمْ وَأَعْرَضْتُمْ وَتَرَكْتُمْ مَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ، فَعَلَى الرَّسُولِ إِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ ، وَادِّاءُ الْأَمَانَةِ (عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ) ، فَهِيَ مَا حَمَلَهُ اللَّهُ ، أَمَّا أَنتُمْ فَقَدْ حُمِّلْتُمْ قَبُولَ ذَلِكَ ، وَالْإِيمَانَ بِهِ وَتَعْظِيمَهُ ، وَالْقِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَبْلُغُوا الْهُدَايَةَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالرَّسُولُ مُكَلِّفٌ بِدَعْوَتِكُمْ وَإِبْلَاغِكُمْ

(٢) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٤٥٢)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ أَحْمَدَ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ : إِلَى الشَّيْخِ الْعَارِفِ الْقُدْوَةِ السَّالِكِ أَبِي الْفَتْحِ نَصْرِ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ مَا فَتَحَ بِهِ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَنَصَرَهُ عَلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي جَهْرِهِ وَإِخْفَانِهِ وَنَهَجَ بِهِ الطَّرِيقَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْمُوَافِقَةَ لِشَرْعِيَّتِهِ وَكَشَفَ بِهِ الْحَقِيقَةَ الدِّينِيَّةَ الْمُمَيَّزَةَ بَيْنَ خَلْقِهِ وَطَاعَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ ؛ حَتَّى يَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الْكُوثِيَّةِ وَالْكَلِمَاتِ الدِّينِيَّةِ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الصَّالِحِينَ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَمَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي كِتَابِهِ وَسُنَّتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَى الشَّيْخِ وَأَنْعَمَ بِهِ نِعْمَةً بَاطِنَةً وَظَاهِرَةً فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَجَعَلَ لَهُ عِنْدَ خَاصَّةِ الْمُسْلِمِينَ - الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا - مَنْزِلَةً عَلَيْهِ وَمَوَدَّةً إِلَهِيَّةً ؛ لِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ حُسْنِ الْمَعْرِفَةِ وَالْقَصْدِ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ أَصْلَ لَطَرِيقِ الْهُدَى وَالْعِبَادَةِ . وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَكْمَلِ مَحَبَّةٍ فِي أَكْمَلِ مَعْرِفَةٍ فَأَخْرَجَ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْأَعْمَالِ - الْمَحَبَّةَ الَّتِي فِيهَا إِشْرَاكٌ وَإِجْمَالٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } وَقَالَ تَعَالَى : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } . وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ هِيَ الْمَوْجِبَةُ لِلنُّوْقِ الْإِيمَانِيِّ وَالْوُجُدِ الدِّينِيِّ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ } فَجَعَلَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجُودَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ مُعَلَّقًا بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْفَاضِلَةِ وَبِالْمَحَبَّةِ فِيهِ فِي اللَّهِ وَبِكِرَاهَةِ ضِدِّ الْإِيمَانِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ الْعَبَّاسِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا } فَجَعَلَ ذَوْقَ طَعْمِ الْإِيمَانِ مُعَلَّقًا بِالرَّضَى بِهِذِهِ الْأَصُولِ كَمَا جَعَلَ الْوُجُدَ مُعَلَّقًا بِالْمَحَبَّةِ ؛ لِيُفَرِّقَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ النُّوْقِ وَالْوُجُدِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَتَمَرَةِ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَبَيْنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ : كُلُّ وَجِدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِذْ كَانَ كُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا فَلَهُ ذَوْقٌ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ . وَلِهَذَا طَالَبَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْعَمِي مَحَبَّتِهِ بِقَوْلِهِ : { إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ادَّعَى قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ ؛ فَطَالَ لَهُمْ بِهِذِهِ الْآيَةِ ؛ فَجَعَلَ مَحَبَّةَ الْعَبْدِ لِلَّهِ مُوجِبَةً لِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ وَجَعَلَ مُتَابَعَةَ رَسُولِهِ مُوجِبَةً لِمَحَبَّةِ الرَّبِّ عَبْدَهُ . وَقَدْ ذَكَرَ نَعْتَ الْمُحِبِّينَ فِي قَوْلِهِ : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } فَنَعْتَ الْمُحِبِّينَ الْمُحِبُّونَ بِوَصْفِ الْكَمَالِ الَّذِي نَعْتَ اللَّهُ بِهِ رَسُولُهُ الْجَامِعَ بَيْنَ مَعْنَى الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ الْمُفَرَّقِ فِي الْمِلَتَيْنِ قَبْلَنَا : وَهُوَ الشَّدَّةُ وَالْعِزَّةُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ وَالذَّلَّةُ وَالرَّحْمَةُ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَهُ وَجْدٌ وَحُبٌّ مُجْمَلٌ مُطْلَقٌ كَمَا قَالَ فِيهِ كَبِيرٌ مِنْ كُبَرَاءِهِمْ :

مُشَرَّدٌ عَنِ الْوُطَنِ * * * مُبَعَّدٌ عَنِ السَّكَنِ

يَبْكِي الطُّولَ وَالْدَمْنَ * * * يَهْوِي وَلَا يَدْرِي لِمَنْ

فَالشَّيْخُ - أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ - قَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الثُّورِ وَالْمَعْرِفَةِ - الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ - مَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمَحَبَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْمُفَصَّلَةُ عَنِ الْمُجْمَلَةِ الْمُشْتَرَكَةِ وَكَمَا يَقَعُ هَذَا الْإِجْمَالُ فِي الْمَحَبَّةِ يَقَعُ أَيْضًا فِي التَّوْحِيدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَمِّ الْكِتَابِ الَّتِي هِيَ مَقْرُوضَةٌ عَلَى الْعَبْدِ - وَوَاجِبَةٌ فِي كُلِّ صَلَاةٍ - أَنْ يَقُولَ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ : نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ اللَّهُ : حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ : { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } قَالَ اللَّهُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ : { مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ } قَالَ : مَجَدَّنِي عَبْدِي أَوْ قَالَ قَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } قَالَ : فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ : { أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قَالَ : فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ } . وَلِهَذَا رَوَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي الْقُرْآنِ وَمَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمَفْصَلِ وَمَعَانِيَ الْمَفْصَلِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ وَمَعَانِيَ أَمِّ الْكِتَابِ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ ثَنَاهُ اللَّهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ : { عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ { وَقَوْلِهِ : { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ { . { وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي نُسُكِهِ : اللَّهُمَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ { . فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُسْتَحَقُّ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ دُعَاؤُهُ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لِي : دُعَاءُ الْعِبَادَةِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْخَشْيَةِ وَالرَّجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي تَأْلُفِهِ وَعِبَادَتِهِ وَدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِالْتِمَاجِ إِلَيْهِ وَالسُّؤَالِ لَهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُ سُبْحَانَهُ بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ . وَلِهَذَا جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ فِي الْعِبَادَةِ بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي السُّؤَالِ بِاسْمِ الرَّبِّ فَيَقُولُ الْمُصَلِّي وَالذَّاكِرُ : اللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَلِمَاتِ الْأَذَانِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ إِلَى آخِرِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَفِي السُّؤَالِ : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا { { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ { { رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ { { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي { { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا { { رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ { وَنَحْوِ ذَلِكَ .

مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٧١٨)

وَأَصْلُ مَا يُنْتَطَلُ بِهِ السَّالِكُونَ أَهْلُ الْإِرَادَةِ وَالْعَامَّةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ هِيَ " الْقَهْدَرِيَّةُ الْمَشْرُكِيَّةُ " فَيَشْهَدُونَ الْقَهْدَرَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ الْأَمْرِ كَمَا قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدْرِيٌّ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَؤُلَاءِ تَمَنَّيْتُ بِهِ . وَإِنَّمَا الْمَشْرُوعُ الْعَكْسُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّاعَةِ يَسْتَعِينُ اللَّهُ عَلَيْهَا قَبْلَ الْفِعْلِ وَيَشْكُرُهُ عَلَيْهَا بَعْدَ الْفِعْلِ وَيَجْتَهِدُ أَنْ لَا يَعْصِيَ فَإِذَا أَذْنَبَ وَعَصَى بَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ كَمَا فِي حَدِيثِ سَيِّدِ الْإِسْتِغْفَارِ : { أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي { وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ { يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِلَيْهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ { . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ دَخَلَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِرَادَةِ فِي تَرْكِ الدُّعَاءِ وَآخَرُونَ جَعَلُوا التَّوَكُّلَ وَالْمَحَبَّةَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ وَأَمثالِ هَذِهِ الْأَعْلَاطِ الَّتِي تَكَلَّمْنَا عَلَيْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ فِي ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمَشَائِخِ الْوَصِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْعِلْمِ وَالشَّرِيعَةِ حَتَّى قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّسْتَرِي : كُلُّ وَجَدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَقَالَ الْجَنِّيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ : عَلِمْنَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأِ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٥ / ص ٢١٩٤)

رقم الفتوى ٣١٩٦٧ سبيل الوصول إلى الله الترام الكتاب والسنة

تاريخ الفتوى : ١١ ربيع الأول ١٤٢٤

السؤال

ما هو رأي سيادتكم في الطرق الصوفية كطريق للوصول إلى الله؟ مع وجود أشياء كثيرة محيرة مثل التوسل بالموتى من أولياء الله الصالحين واعتبارهم لا زالوا ذوي نفوذ في قضاء مصالح الناس حتى بعد موتهم، وأيضا زيارة الأضرحة والطواف حولها والذبح عندها على سبيل الصدقة، وأيضا تقبيل أيدي المشايخ وتبجيلهم بدرجة مبالغ فيها، وسلوكيات كثيرة محيرة جدا؟ وجزاكم الله خيرا.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فإن السبيل الصحيح إلى معرفة الحق هو الكتاب والسنة على مقتضى فهم سلف هذه الأمة الصالح، فقد قال الله تعالى: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [الشورى: ١٠]، وقال

سبحانه: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: ١١٥].

فالدین الحق هو ما كان عليه الصدر الأول، قبل أن يقع الاختلاف في هذه الأمة وقبل أن يتفرق الناس إلى شيع وأحزاب، لذا فقد أثر عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال: ما لم يكن يومئذ ديناً فلن يكون اليوم ديناً. انتهى.
وقد كان الأوائل من أهل التصوف يحتون على اتباع الكتاب والسنة، فهذا هو الجنيد يقول: علمنا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يصح أن يتكلم في علمنا. انتهى.
وقال سهل بن عبد الله تستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. انتهى.

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف خلطوا التصوف بالفلسفة، فنتج عن ذلك مذهب باطل، ومنهج منحرف، لا تجوز نسبته إلى الإسلام دين الفطرة بحال، بل هو فكر باطني خبيث يقوم على كثير من الباطل، فلبسوا به على العوام، وأفسلوا عقائهم إلا من رحم ربي، ولمزيد من الفائدة تراجع الفتوى رقم: ٨٥٠٠ ، والفتوى رقم: ٥٩٦ .
وأما ما ذكره السائل من بعض الانحرافات، فنحيله على بعض الفتاوى السابقة فيها، فالتوسل في الفتوى

رقم: الفتوى رقم: ١٦٦٩٠ ، والفتوى رقم: ١٤٩٥٥ .

وبدع القبور في الفتوى رقم: ٣٠٠٥٣ ، والفتوى رقم: ٩٩٤٣ .

وتقويل اليد في الفتوى رقم: ٩٠٦ .

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

وانظر: إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ١٣٨)

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَغْلُطُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيُظَنُّ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَيُظَنُّ أَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ يَقْبَلُ مِنْهُ كُلُّ مَا يَقُولُهُ ، وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَقُولُهُ وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ ، وَإِنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، فَيُؤَافِقُ ذَلِكَ الشَّخْصَ لَهُ وَيُخَالِفُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَطَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَجَعَلَهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَبَيْنَ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ مِنَ أَوْلِيَائِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَجُنْدِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ؛ وَمَنْ لَمْ يَتَّبَعْهُ كَانَ مِنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْخَاسِرِينَ الْمُجْرِمِينَ ، فَجُرْهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ وَمُؤَافَقَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ أَوَّلًا إِلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ وَآخِرًا إِلَى الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ ، وَيَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خُنُولًا (٢٩) } (١) [الفرقان/٢٧-٣٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) } (٢)

(١) - وَيَنْدَمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ ، الَّذِينَ تَرَكُوا طَرِيقَ الرَّسُولِ ، وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَيَعْصُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ نَدْمًا عَلَى مَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا اتَّبَعْنَا طَرِيقَ الرَّسُولِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَكِنَّ النَّدَمَ لَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ . (وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عُقْبَةِ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، إِذْ كَانَ يَزْجُرُ أَبِي بَنٍ خَلْفَ لِحْضُورِهِ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

وَيَقُولُ الظَّالِمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُتَحَسِّرًا : يَا خَسَارَهُ وَيَا هَلَاكَهُ ، وَيَا لَيْتَهُ لَمْ يَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا وَصَدِيقًا (وَيَذْكُرُ اسْمَ مَنْ أَضَلَّهُ وَصَرَفَهُ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى) ، وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ . لَقَدْ أَضَلَّنِي هَذَا الصَّدِيقُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ ، وَمَنَانِي بِالنَّصْرِ وَالْعِلَاحِ ، وَمِنْ عَادَةِ الشَّيْطَانِ أَنْ يُمَنِّي وَيَعِدَ ، وَيُمَنِّي كَذِبًا وَغُرُورًا ، وَأَنْ يَخْدُلَ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَتْرَكُهُ لِمَصِيرِهِ ، وَيَقُولُ لأَوْلِيَائِهِ : { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . } (وَقِيلَ بَلْ إِنَّ الْقَصْدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ الشَّيْطَانَ يُخْدِلُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ) .

(٢) - وَهُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ ، وَيَتَقَلَّبُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، حِينَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ آخَرَ ، كَمَا يُقَلَّبُ اللَّحْمُ فَوْقَ النَّارِ ، وَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ مُتَحَسِّرِينَ : يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا جَاءَنَا بِهِ فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ، مِنْ دَعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَتَحْذِيرٍ مِنْ عَذَابِهِ ، وَلَوْ أَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَمَّا كُنَّا الْيَوْمَ نَتَقَلَّبُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَا نَجِدُ لَنَا سَمَنًا يُقْذِنُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ، وَلَا مَنْ يُجِيرُنَا مِنْ عَذَابِهِ . وَقَالَ الْكَافِرُونَ ، وَهُمْ يُقَاسُونَ شِدَّةَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا أَمَّتَنَا فِي الصَّلَاةِ ، وَكُبرَاءَنَا ، وَأَشْرَافَ قَوْمِنَا ، فَجَعَلُونَا نَضِلُّ طَرِيقَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَإِلَى الْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّتِكَ . رَبَّنَا وَأَضْعَفْ لَهُمُ الْعَذَابَ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً لِكُفْرِهِمْ بِكَ ، وَمَرَّةً لِإِضْلَالِهِمْ إِيَّانَا ، اللَّهُمَّ وَآخِرِهِمْ وَاطْرُدْهُمْ مِنْ رَحْمَتِكَ .

[الأحزاب/ ٦٦-٦٩]، وقوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) (١) } البقرة/ ١٦٥-١٦٨]. وهؤلاء مشابهُون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٢) (٣١) سورة التوبة، وفي المسند وصححه الترمذي عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: « يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ » (٣)

(١) - وَمَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى فُتْرَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِنَ الْكُفَّارِ يَتَّخِذُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَأَمْثَالَ (أَنْدَادًا) يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَيُحِبُّونَهُ وَحْدَهُ، وَهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. وَحِينَ يَرَى الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْكَفَّارِ، فَتَقَطَّعَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَنْدَادُ، يُدْرِكُونَ حَيْثُ أَنْ الْقُوَّةَ جَمِيعَهَا لِلَّهِ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّأُ الَّذِينَ كَانُوا الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ - الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَالْبَشَرُ - كَمَا يَتَبَرَّأُ الرُّؤَسَاءُ الْمُضِلُّونَ الَّذِينَ اتَّبَعَهُمُ الضَّعَفَاءُ وَالْأَغْوَانُ، مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ أَغْوَوْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَتَصَلُّونَ مِنْ إِضْلَالِهِمْ لَا تَنْهَمُ قَدْ تَضَاعَفَ عَذَابُهُمْ، وَحَمَلُهُمْ أَوْزَارًا فَوْقَ أَوْزَارِهِمْ، وَتَقَطَّعَ الرُّوَاطُ وَالصَّلَاتُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَصِيرُ بَعْضُهُمْ عَدُوًّا لِبَعْضٍ.

تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ - تَصَرَّعَتِ الصَّلَاتُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ نَسَبٍ وَصَدَاقَةٍ. وَيَقُولُ التَّابِعُونَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ: لَوْ أَنَّ لَنَا رَجْعَةً إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَنَتَّبَرَأَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، فَلَا نَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، بَلْ نُوَحِّدُ اللَّهَ، وَنَهْتَدِي بِهِدْيِهِ. وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا الْقَوْلِ، إِذْ أَنَّهُمْ لَوْ عَادُوا إِلَى الدُّنْيَا لَعَادُوا إِلَى مَا نَهَوْا عَنْهُ. وَكَمَا أَرَاهُمُ اللَّهُ الْعَذَابَ، كَذَلِكَ سِيرَ بِهِمْ أَعْمَالَهُمْ تَذَهَّبُ وَتَضْمَحِلُّ فَيَحْسَرُونَ عَلَى مَا فَرَطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَلَاتِ سَاعَةَ مَنْدَمٍ، لَا تَنْهَمُ لَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ، وَلَنْ يَعُودُوا إِلَى الدُّنْيَا.

(٢) - اتَّخَذَ أَهْلُ الْكِتَابِ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كِبَارَ رِجَالِ دِينِهِمْ أَرْبَابًا وَمُشَرِّعِينَ، فَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْمَتَابَعَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا }؛ وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ وَلَدًا عَبْدًا مَعَ اللَّهِ، كَعَزِيرٍ وَالْمَسِيحِ، لَا إِلَهَ غَيْرُ اللَّهِ، تَنْزَعًا وَتَقَدَّسَ عَنِ الشَّرِكِ وَالْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ، وَعَنِ النَّظَرَاءِ وَالْأَغْوَانِ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

(٣) - سنن الترمذي (٣٣٧٨) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل - (ج ١٣ / ص ٢٤٥) (٣٤٩٣٠)

والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٠ / ص ١١٦) (٢٠٨٤٧ و ٢٠٨٤٨) حسن لغيره

قَالَ فِي فَتْحِ الْبَيَانِ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَزْجُرُ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، عَنْ التَّقْلِيدِ فِي دِينِ اللَّهِ،

وَتَأْثِيرُ مَا يَقُولُهُ الْأَسْلَافُ عَلَى مَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ ، فَإِنَّ طَاعَةَ الْمُتَمَنِّهِبِ لِمَنْ يَفْتَدِي بِقَوْلِهِ وَيَسْتَنْ بِسُنَّتِهِ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الْتُصُوصُ وَقَامَتْ بِهِ حِجْجُ اللَّهِ وَبَرَاهِينُهُ هُوَ كَاتِّخَاذِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لِلْقَطْعِ بَانْتِهِمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ بَلْ أَطَاعُوهُمْ وَحَرَمُوا مَا حَرَمُوا وَحَلَّلُوا مَا حَلَّلُوا ، وَهَذَا هُوَ صَنِيعُ الْمُقَلِّدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِهِ مِنْ شَبَهِ الْبَيْضَةِ بِالْبَيْضَةِ ، وَالتَّمْرَةِ بِالتَّمْرَةِ ، وَالْمَاءِ بِالْمَاءِ . فَيَا عِبَادَ اللَّهِ مَا بِالْكُفْرِ تَرَكْتُمْ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ جَانِبًا وَعَمَدْتُمْ إِلَى رِجَالِ هُمْ مِثْلُكُمْ فِي تَعْبُدِ اللَّهِ لَهُمْ بِهِمَا ، وَطَلَبِهِ لِلْعَمَلِ مِنْهُمْ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأَفَادَاهُ فَعَمِلْتُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْأَرَءَاءِ الَّتِي لَمْ تُعَمَّدَ بِعِمَادِ الْحَقِّ ، وَلَمْ تُعَصَّدَ بِعَصْدِ الدِّينِ وَتُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، تُنَادِي بِأَبْلَغِ نِدَاءٍ ، وَتُصَوِّتُ بِأَعْلَى صَوْتٍ بِمَا يُخَالِفُ ذَلِكَ وَيُبَايِنُهُ ، فَأَعَرْتُمُوهَا آذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا ، وَأَذْهَانًا كَلِيلَةً ، وَخَوَاطِرَ عَلِيلَةً ، وَأَنْشَدْتُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ : وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيَتْ وَإِنْ تَرُشِدْ غَزِيَّةٌ أَرُشِدْ أَنْتَهَى . وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : قَالَ شَيْخُنَا وَمَوْلَانَا خَاتِمَةُ الْمُحَقِّقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ شَاهَدْتُ جَمَاعَةً مِنْ مُقَلِّدَةِ الْفُقَهَاءِ قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ فَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ بِخِلَافِ تِلْكَ الْآيَاتِ ، فَلَمْ يَقْبَلُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا وَبَقُوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ كَالْمُعْجَبِّ ، يَعْنِي كَيْفَ يُمَكِّنُ الْعَمَلُ بظواهر هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنْ سَلَفِنَا وَرَدَتْ إِلَى خِلَافِهَا ، وَلَوْ تَأَمَّلْتُ حَقَّ التَّأَمُّلِ وَجَدْتُ هَذَا الدَّاءَ سَارِيًا فِي غُرُوقِ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَنْتَهَى . تحفة الأحوذى - (ج ٧ / ص ٤١٨)

ولهذا قيل في مثل هؤلاء: إِنْمَا حُرِّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ (١)، فَإِنَّ أَصْلَ الْأُصُولِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ إِنْسَهُمْ وَجَنَّهُمْ وَعَرَبَهُمْ وَعَجَبَهُمْ عُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ مُلُوكِهِمْ وَسُوقِيَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجِبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) } فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) (٢) { [آل عمران/ ٨١-٨٣] . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَنِ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَنِ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُمْ أَحْيَاءُ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ. (٣)

(١) - وفي حديث معاذ رضي الله عنه: فإن جاءك ما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة رسول الله قال: أقضي فيه بما قضى الصالحون فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، وفي بعضها اجتهد رأيي وحدوثنا عن الجنيد قال: كنت إذا قمت من عند سري السقطي قال لي: إذا فارقني من تجالس؟ فقلت: الحارث المحاسبي فقال: نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام وردده على المتكلمين، قال: فلما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث يعني أنك إذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الأصول والسنن ثم تزهدت وتعبدت تقدمت في علم الصوفية وكتبت صوفياً عارفاً وإذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن العلم والسنن فخرجت إما شاطحاً أو غالطاً لجهلك بالأصول والسنن فأحسن أحوالك أن ترجع إلى العلم

الظاهر، وكتب الحديث لأنه هو الأصل الذي تفرع عليه العبادة والعلم وأنت قد بودت بالفرع قبل الأصل، وقد قيل: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول هو كتب الحديث ومعرفة الآثار والسنن فإذا أتمت رددت إلى الأصل فقد انحطت عن مرتبة الناقدين ونزلت من درجة العارفين وفاتك مزيد اليقين والإيمان. قوت القلوب - (ج ١ / ص ١٢٦) وقوت القلوب - (ج ١ / ص ٢٢٣)

(٢) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْهِ آدَمَ ، أَنَّهُ مَهْمَا آتَى أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، وَبَلَغَ أَيَّ مَبْلَغٍ ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ بَعْدَهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيَنْصُرَهُ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِشِ وَالْثُبُوءِ مِنَ اتِّبَاعٍ مَنْ يُبْعَثُ بَعْدَهُ ، وَمَنْ نُصِرْتِهِ .

وَقَالَ اللَّهُ لِلْأَنْبِيَاءِ : أَفَرَرْتُمْ بِذَلِكَ ، وَعَاهَدْتُمُونِي عَهْدًا وَثِيقًا مُؤَكَّدًا؟ قَالُوا : أَفَرَرْنَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْأَنْبِيَاءِ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَقَدْ أُبْلَغَ الْأَنْبِيَاءُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، أُمَمَهُمْ بِهَذَا الْعَهْدِ ، فَوَجِبَ عَلَى أُمَمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ ، وَيَنْصُرُوهُ ، وَقَاءً وَاتِّبَاعًا بِمَا أَلْتَزَمَ بِهِ أَنْبِيَائُهُمْ .

فَمَنْ تَخَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَاتَّخَذَ الدِّينَ وَسِيلَةً لِلتَّفْرِيقِ وَالْعُلُوَانِ ، وَلَمْ يُؤْمِنِ بِالنَّبِيِّ الْمُتَأَخَّرِ الْمَصْدَقِ لِمَنْ تَقَدَّمَ ، وَلَمْ يَنْصُرْهُ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْجَاوِدُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ . فَأَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ جَحَدُوا ثُبُوءَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هُمْ خَارِجُونَ عَنْ مِيثَاقِ اللَّهِ ،

(٣) - تفسير الطبري - (ج ٦ / ص ٥٥٥) وتفسير ابن كثير - (ج ٢ / ص ٦٧)

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى - (ج ٣ / ص ٩١):

فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الْإِسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ وَالْإِسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ . فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ ثُمَّ أَمَرْنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ : كَانَ كُلُّ مَنْ الْفَعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ فَالَّذِينَ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفَعْلَيْنِ ؛ وَإِنَّمَا تَتَوَعَّضُ بَعْضُ صُورِ الْفِعْلِ وَهُوَ وَجْهُ الْمُصَلِّي فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتِ الشَّرْعَةُ وَالْمِنَاجُ وَالْوَجْهُ وَالْمَنْسَكُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا كَمَا لَمْ يَمْنَعُ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ : أَنْ أَوَّلَهُمْ يُشِيرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَآخِرُهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمُ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَتَنْبِئَ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ أُمَّتِهِ لَتَنْبِئَ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَاZَمًا وَكَفَرًا مِنْ قَالَ : إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا } وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ } إِلَىٰ قَوْلِهِ : { تَعْمَلُونَ } وَقَدْ قَالَ لَنَا : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُوا

بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَلَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } فَأَمَرْنَا أَنْ تَقُولَ : آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقْرَأَ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا ؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ . كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } فَقَالُوا : لَا نَحُجُّ فَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حُجِّ الْبَيْتِ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَحُجُّ الْبَيْتِ } وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةٍ مُوسَى وَعِيسَى هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا ؟ " وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ " فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَضَمِّنُ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ : لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللَّهُ بِهَا نَبِيًّا فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٢٢)

وَأَمَّا " الْوُجْهُ الثَّانِي " : فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظُنُّ : أَنَّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ مَنْ يَسُوعُ لَهُ الْخُرُوجُ عَنْ الشَّرِيعَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا سَأَلَ لِلْخَضِرِ الْخُرُوجَ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى وَأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْوَلِيِّ فِي الْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ مَا يَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِ أَوْ بَعْضِهَا وَكثيرٌ مِنْهُمْ يُفَضِّلُ الْوَلِيَّ فِي زَعْمِهِ إِمَّا مُطْلَقًا وَإِمَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَلَى النَّبِيِّ زَاعِمِينَ أَنَّ فِي قِصَّةِ الْخَضِرِ حُجَّةً لَهُمْ وَكُلُّ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ مِنْ أَكْثَرِ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ ؛ بَلْ مِنْ أَكْثَرِ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ وَالْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ . فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالْاضْطِرَارِّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ : أَنَّ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِجَمِيعِ النَّاسِ : عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَزُهَادِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ وَأَنَّهَُا بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ بَلْ عَامَّةُ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَمُلَازَمَتِهِ مَا يَشْرَعُهُ لِأَمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ . وَمَا سَنَّهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ بَلْ لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ قَبْلَهُ أَحْيَاءَ لَوَجِبَ عَلَيْهِمْ مُتَابَعَتُهُ وَمُطَاوَعَتُهُ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ ؛ لَيْنَ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَى أُمَّتِهِ لَيْنَ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ . وَفِي سُنَنِ التَّسَاتِي عَنْ جَابِرٍ { أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى بَيْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَرَقَّةً مِنَ التَّوْرَةِ فَقَالَ : أَمْتَهُوْكُمْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ لَقَدْ جَسَّكُمْ بِهَا يَبِضَاءَ نَقِيَّةٍ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي } - هَذَا أَوْ نَحْوُهُ - وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَلَفْظُهُ : { وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَصَلَّيْتُمْ } وَفِي مَرَايِلِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ : { كَفَى بِقَوْمٍ ضَلَالَةً أَنْ يَتَّبِعُوا كِتَابًا غَيْرَ كِتَابِكُمْ . أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ } وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } الْآيَةُ . بَلْ قَدْ ثَبَتَ بَلٌّ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ { أَنَّ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ } فَإِذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَنَصْرُهُ عَلَى مَنْ يُدْرِكُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ ؟ بَلْ مِمَّا يَعْلَمُ بِالْاضْطِرَارِّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ

لَا يَجُوزُ لِمَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ أَنْ يَتَّبِعَ شَرِيعَةَ رَسُولٍ غَيْرِهِ كَمُوسَى وَعِيسَى . فَإِذَا لَمْ يَجْزِ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ إِلَى شَرِيعَةِ رَسُولٍ فَكَيْفَ بِالْخُرُوجِ عَنْهُ وَالرُّسُلُ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَتْمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَلُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . وَقَالَ تَعَالَى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } .

وانظر مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ١٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٧٢٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢١٢) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمديّة وشريعة نبوية - (ج ١ / ص ٥٦)

، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِلُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) } (١)

(١) - يُنْكِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ ، وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ .

(وَقِيلَ : إِنَّ هَذِهِ آيَةُ نَزَلَتْ فِي أَنْصَارِي وَيَهُودِيٍّ اخْتَلَفَا فِي شَيْءٍ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ . وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ (وَهُوَ مِنْ كِبَرَاءِ الْيَهُودِ) . وَيَذُمُّ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ (وَهُوَ الْمَرَادُّ هُنَا بِالطَّاغُوتِ) ، وَقَدْ أُمِرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَبِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ ، وَيُعِدَّهُمْ عَنْهَا .

وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلَاءِ - الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ ، ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْهِ ، وَفَقًا لِمَا شَرَعَ اللَّهُ ، اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ إِعْرَاضًا مُتَعَمِّدًا مِنْهُمْ .

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إِذَا سَاقَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ ، وَاحْتِاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْتَدِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِذَهَابِهِمْ إِلَى غَيْرِكَ ، وَتَحَاكُمُهُمْ إِلَى أَعْدَاتِكَ ، إِلَّا الْمُدَارَاةَ وَالْمَصَانَعَةَ (إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) ، لَا اعْتِقَادًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ تِلْكَ الْحُكُومَةِ .

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مَبْلَغَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْحَقْدِ وَالْكَيْدِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْتَمِي عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ . ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مُعَامَلَتِهِمْ :

- أَوَّلًا : بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ بِالْبَشَاشَةِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَهَذَا التَّوَعُّدُ مِنَ الْمُعَامَلَةِ يُثِيرُ فِي نَفْسِهِمْ الْهَوَاجِسَ وَالشُّكُوكَ وَالطُّنُونِ .

- ثُمَّ بِالنُّصْحِ وَالتَّذْكِيرِ بِالْخَيْرِ ، عَلَى وَجْهِ تَرْقُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَيَبْعَثُهُمْ عَلَى التَّائُمْلِ فِيمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْعِظَاتِ .

- ثُمَّ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ ، الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهِمْ ، كَالْتَّوَعُّدِ بِالْقَتْلِ ، وَالْإِسْتِصْصَالِ إِنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ نِفَاقٌ ، وَأَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ

اللَّهُ عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِهِمْ .

مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي رُسُلِهِ أَنَّهُ لَا يُرْسِلُهُمْ إِلَّا لِيُطَاعُوا بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِمْ ، أَوْ رَغِبَ عَنْ حُكْمِهِمْ ، خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ ، وَارْتَكَبَ إِثْمًا عَظِيمًا . وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، حِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَرَغَبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ الطَّاغُوتِ ، جَاؤُوا الرَّسُولَ ، عَقِبَ الذَّنْبِ مُبَاشَرَةً ، فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَأَظْهَرُوا نَدَمَهُمْ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُمْ لِلرَّسُولِ لِيَصْقَحَ عَنْهُمْ ، لَا عُدَّةَ لَهُمْ عَلَى حَقِّهِ ، وَلِيدْعُو لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ ، وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ دَعَا لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ ، لَتَقَبَّلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ ، وَلَعَمَّرَهُمْ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَلَشَمِلَهُمْ بِعَفْوِهِ ، فَرَحْمَةُ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى تَرْكَ طَاعَةِ الرَّسُولِ ظُلْمًا لِلنَّفْسِ أَيْ إِفْسَادًا لَهَا) .

يُقَسِّمُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ رَغَبُوا عَنْ التَّحَاكُمِ إِلَى الرَّسُولِ ، وَمَنْ مَاتَ لَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا حَقًّا (أَيْ إِيمَانًا إِذْعَانًا وَائْتِقَادًا) إِلَّا إِذَا كَمَلَتْ لَهُمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ :
- أَنْ يُحْكَمُوا الرَّسُولَ فِي الْقَضَايَا الَّتِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا ، وَلَا يَبِينُ لَهُمْ فِيهَا وَجْهُ الْحَقِّ .
- أَلَّا يَجِلُّوا ضِيقًا وَحَرَجًا مِمَّا يَحْكُمُ بِهِ ، وَأَنْ تُدْعَنَ نَفُوسُهُمْ لِقَضَائِهِ ، إِذْعَانًا تَلَمَّا دُونَ امْتِنَاعٍ مِنْ قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، لِأَنَّهُ الْحَقُّ وَفِيهِ الْخَيْرُ .

- أَنْ يَنْقَادُوا وَيَسْلَمُوا لِذَلِكَ الْحُكْمِ ، مُوقِنِينَ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِي حُكْمِهِ ، وَبِعِصْمَتِهِ عَنِ الْخَطَا .

[النساء/٦٠] .

وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ ؛ وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَأَكْبَرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ؛ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟ .

وَتَجَدُّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمِدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مَكَاشِفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ ، مِثْلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى شَخْصٍ فَيَمُوتَ ؛ أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا ؛ أَوْ يَمْلَأَ إِبْرِيْقًا مِنَ الْهَوَاءِ ؛ أَوْ يُنْفِقَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنَ الْغَيْبِ ، أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ أَوْ أَنْ يَغُيْبَ النَّاسَ اسْتِغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَأَاهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ ؛ أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سَرِقَ لَهُمْ ؛ أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ ؛ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيُّ اللَّهِ ؛ بَلْ قَدْ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَبَ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مَتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُؤَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . (١)

(١) - وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٢ / ص ٣٤٤٣)

وقد اتفق أهل المعرفة والتحقيق أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يتبع إلا أن يكون موافقا لأمر الله ورسوله ومن رأى من رجل مكاشفة أو تأثيرا فاتبعه في خلاف الكتاب والسنة كان من جنس أتباع الدجال فإن الدجال يقول للسماء : أمطري فتمطر ويقول للأرض : أنبتى فتنبت ويقول للخربة أخرجي كنوزك فيخرج معه كنوز الذهب والفضة ويقتل رجلا ثم يأمره أن يقوم فيقوم وهو مع هذا كافر ملعون عدو الله قال النبي صلى الله عليه وآله إن الله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر - ك ف ر - يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت { . وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : { إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنه الدنيا والممات

ومن فتنة المسيح الدجال { . وقال صلى الله عليه وسلم : { لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه رسول الله { وقال صلى الله عليه وسلم : { يكون بين يدي الساعة كذابون دجالون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم فيأبؤكم وإياهم { . وهؤلاء تنزل عليهم الشياطين وتوحي إليهم كما قال تعالى : { هل أنبيئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون { ومن أول من ظهر من هؤلاء المختار بن أبي عبيد المتقدم ذكره . ومن لم يفرق بين الأحوال الشيطانية والأحوال الرحمانية : كان بمنزلة من سوى بين محمد رسول الله وبين مسيلمة الكذاب فإن مسيلمة كان له شيطان ينزل عليه ويوحي إليه . ومن علامات هؤلاء أن الأحوال إذا تنزلت عليهم وقت سماع المكاء والصدية أذبوا وأرعدوا - كالمصروع - وتكلموا بكلام لا يفقه معناه فإن الشياطين تتكلم على ألسنتهم كما تتكلم على لسان المصروع . والأصل في هذا الباب : أن يعلم الرجل أن أولياء الله هم الذين نعتهم الله في كتابه حيث قال : { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون { فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : { يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولم يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . فبي يسمع ويبي يبصر ويبي يبطش ويبي يمشي ولئن سألتني ل أعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . ولا بد له منه { . ودين الإسلام مبني على أصلين على ألا نعبد إلا الله وأن نعبد ما شرع لا نعبد بالبدع . قال تعالى : { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً { فالعمل الصالح ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع المستنون ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . ولهذا كانت أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث : قول النبي صلى الله عليه وسلم { إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى { وقوله : { من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد { . وقوله : { الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعها ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب { والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .) انتهى نقلاً عن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٥ ص ٢٩٩

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٩ / ص ٤١٥١)

قال في تيسير العزيز الحميد: اتفق العلماء على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يعتد به حتى ينظر متابعتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيهِ، ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها ولياً لله وقد يكون علواً له. والعبارة للشافعي رحمه الله، كما في معارج القبول، وأثرت عن غير واحد من السلف،

موسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ١٦٩٧)

يقول الإمام الشافعي: "إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطي في الهواء فلا تعتلوا به حتى تعرضوا أعماله على الكتاب والسنة ويقول الإمام ابن تيمية: وكرامات الأولياء حتى باتفاق أئمة أهل الإسلام والسنة والجماعة، وقد دل عليها القرآن في غير موضع، والأحاديث الصحيحة، والآثار المتواترة عن الصحابة وغيرهم والتابعين لكن كثيراً ممن يدعونها أو تدعى له يكون كذاباً أو ملبوساً عليه.

وأيضاً فإنها لا تدل على عصمة صاحبها وعلى وجوب اتباعه في كل ما يقوله بل قد تصدر بعض الخوارق من الكفار والسحرة بمؤاخفهم للشياطين كما ثبت عن الدجال أنه يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض أنبي فتنب، وأنه يقتل واحداً ثم يحياه، وأنه يخرج خلفه كنوز الذهب والفضة ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يثبت له ولاية ولا إسلام حتى ننظر وقوفه عند الأمر والنهي الذي بعث به رسوله . إذن يجب أن نتحقق من دين من تظهر عليه بعض الخوارق، فإذا كان ملتزماً بالكتاب والسنة والشريعة اعتقدنا بكرامته، ولو أن ذلك لا يترتب عليه إثبات أو نفي الأحكام شرعية أو أن يكون ذلك باباً وسبباً لتحصيل المال والجاه بغير حق، وإلا فهو محتال أو ممن يتخذهم الشيطان طمعاً كالسذج من الناس ليصلهم عن الطريق السوي والشريعة السمحاء.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَلَوًّا لِلَّهِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَكُونُ لِلْأَهْلِ الْبَدْعِ، وَتَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ ؛ بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَعْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ .

مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ وَأَمْثَالَهَا قَدْ تَوَجَّدَ فِي أَشْخَاصٍ وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ لَا يَتَوَضَّأُ ؛ وَلَا يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ ؛ بَلْ يَكُونُ مُلَابِسًا لِلنَّجَاسَاتِ مُعَاشِرًا لِلْكَلَابِ ؛ يَأْوِي إِلَى الْحِمَامَاتِ وَالْقَمَامِينَ وَالْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ ؛ رَائِحَتُهُ حَبِيبَةٌ لَا يَطْهَرُ الطَّهَارَةَ الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَلَا يَتَنَظَّفُ ؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ وَلَا جُنُبٌ » (١) . وَقَالَ عَنْ هَذِهِ الْأَحْلِيَةِ : « إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضِرَةٌ فَإِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ الْخَلَاءَ فَلْيَقْلُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ » (٢)

(١) - سنن أبي داود (٢٢٧ و ٤١٥٢) ون ١٤١/١ وح ١٠/١ و ٢٨/٤ وهق ٢٠١/١ و ٢٧١/٧ وش ٤١٠/٥ وعب (١٩٤٨٣) ومجمع ١٧٣/٥ و ١٧٤ وح (١٤٨٤) وسنة ٣٦/٢ وترغيب ١٤٨/١ و ٤٥/٤ وك ١٧١/١ وهو صحيح لغيره

وفي عون المعبود - (ج ١ / ص ٢٦٢)

قَالَ الْإِمَامُ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ : يُرِيدُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ ذُو الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ الْحَفَظَةُ فَإِنَّهُمْ لَا يُفَارِقُونَ الْجُنُبَ وَغَيْرَ الْجُنُبِ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِالْجُنُبِ هَاهُنَا مَنْ أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ فَأَخَّرَ الْإِغْتِسَالَ إِلَى حُضُورِ الصَّلَاةِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُجَنَّبُ فَلَا يَغْتَسِلُ وَيَتَهَاوَنَ بِهِ وَيَتَّخِذُ تَرْكَهُ عَادَةً ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ فِي غَسَلٍ وَاحِدٍ ، وَفِي هَذَا تَأْخِيرَ الْإِغْتِسَالِ عَنْ أَوَّلِ وَقْتِ وَجُوبِهِ . وَقَالَتْ عَائِشَةُ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَّ يَتَمَّ يَتَمَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّ مَاءً " . وَأَمَّا الْكَلْبُ فَهُوَ أَنْ يَقْتَنِيَ كَلْبًا لَيْسَ لَزْرَعٍ أَوْ لَصْرَعٍ أَوْ لَصِيدٍ ، فَأَمَّا إِذَا يَرُبُّهُ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ لِحِرَاسَةِ دَارِهِ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَمَّا الصُّورَةُ فَهِيَ كُلُّ مُصَوَّرٍ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ كَانَتْ لَهُ أَشْخَاصٌ مُتَّصِبَةٌ ، أَوْ كَانَتْ مَنْقُوشَةً فِي سَفَفٍ أَوْ جِدَارٍ أَوْ مَصْنُوعَةً فِي نَمَطٍ أَوْ مَنْسُوجَةٍ فِي ثَوْبٍ أَوْ مَا كَانَ ، فَإِنَّ قِصِيَّةَ الْعُيُومِ تَأْتِي عَلَيْهِ فَلْيُجْتَنَّبْ . انْتَهَى كَلَامُهُ بِحُرُوفِهِ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : يَحْتَمِلُ كَمَا قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجُنُبِ مَنْ يَتَهَاوَنَ بِالْإِغْتِسَالِ وَيَتَّخِذُ تَرْكَهُ عَادَةً لَا

مَنْ يُؤَخِّرُهُ لِفَعْلِهِ ، قَالَ وَيُقَوِّيه أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلْبِ غَيْرَ مَا أُذِنَ فِي اتِّخَاذِهِ ، وَبِالصُّورَةِ مَا فِيهِ رُوح . قَالَ النَّوَوِيُّ :
وَفِي الْكَلْبِ نَظَرٌ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْجُنُبِ فِي حَدِيثٍ عَلَيٍّ مَنْ لَمْ يَرْتَقِعْ حَدَّثَهُ كُلَّهُ وَلَا بَعْضَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ
ارْتَقَعَ بَعْضَ حَدَّثِهِ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَعَلَيْهِ تَوَيْبُ الْبُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ حَيْثُ قَالَ بَابُ كَيْفُونَةِ الْجُنُبِ فِي الْيَتِّ إِذَا
تَوَضَّأَ ، وَأُورِدَ فِيهِ حَدِيثُ عَائِشَةَ أَنَّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْقُدُ وَهُوَ جُنُبٌ إِذَا تَوَضَّأَ ، وَأُورِدَ النَّسَائِيُّ حَدِيثَ عَلِيٍّ
هَذَا فِي بَابِ الْجُنُبِ إِذَا لَمْ يَتَوَضَّأَ ، فَظَهَرَ مِنْ تَبْوِيهِهِ أَنََّّهُ ذَهَبَ إِلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي . وَالَّذِي قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ هُوَ أَحَبُّ
إِلَيَّ إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ . قَالَ الْمُنْدَرِيُّ : وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَاجَهَ : وَلَا جُنُبٌ .
وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُجَيْيٍ الْحَضْرَمِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ فِيهِ نَظَرٌ . وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي
صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " لَا
تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ " اِنْتَهَى .

(٢) - سنن أبي داود (٦) صحيح

الحشوش : جمع الحش وهي الكنف ومواضع قضاء الحاجة

. أَيْ يَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ ، وَقَالَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ - وَقَالَ مَرَّةً مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ -
فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » (١)

(١) - صحيح مسلم (١٢٨٢)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٢ / ص ٣٢٨)

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِ أَكْلِ الثُّومِ وَنَحْوِهِ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ - وَإِنْ كَانَ خَالِيًا - لِأَنَّهُ
مَحَلُّ الْمَلَائِكَةِ ، وَلِلْعُمُومِ الْأَحَادِيثُ .

وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٢٢ / ص ٤١)

يُسْتَحَبُّ تَطْيِيبُ الْمَسَاجِدِ ، وَيُصَانُ الْمَسْجِدُ عَنِ الرَّائِحَةِ الْكَرِيبَةِ مِنْ ثُومٍ أَوْ بَصَلٍ وَنَحْوِهِمَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ
أَحَدٌ ، كَمَا يُكْرَهُ لِمَنْ أَكَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ دُخُولَ الْمَسْجِدِ وَيُرْخَصُ لَهُ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَمِثْلُهُ مَنْ لَهُ
صُنَانٌ أَوْ بَخْرٌ . وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى اسْتِحْبَابِ إِخْرَاجِ مَنْ بِهِ ذَلِكَ إِزَالَةَ لِلأَذَى (١) ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
مَنْ أَخْرَجَ أَذَى مِنَ الْمَسْجِدِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ (٢) ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا
فَلْيَعْتَزِلْنَا - أَوْ قَالَ : فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا (٣) .

وَقَالَ : مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ يَعْنِي الثُّومَ فَلَا يَقْرَبْنَا فِي الْمَسْجِدِ وَفِي رَوَايَةٍ : فَلَا يَقْرَبُ مُصَلًّا (٤) .
وَيُكْرَهُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ إِخْرَاجُ الرِّيحِ فِي الْمَسْجِدِ بِجَمَاعٍ الْإِذَاءَ بِالرَّائِحَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ (٥) ، لِخَبَرٍ : إِنَّ
الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ (٦) .

وَصَرَّحَ الْمَالِكِيُّ بِجَوَازِ ذَلِكَ إِذَا احْتِاجَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْمَسْجِدَ يُنْزَعُ عَنِ النَّجَاسَةِ الْعَيْنِيَّةِ (٧) . وَانْظُرْ : (مَسَاجِدُ) .

(١) كشف القناع ٢ / ٣٦٥ ، وأسنى المطالب ١ / ٢١٥ ، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٠٣ ، ومواهب الجليل ٦ /

١٣

(٢) حديث : " من أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتًا في الجنة " أخرجه ابن ماجه ١ / ٢٥٠ - ط الحلبي من

حديث أبي سعيد الخدري ، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١ / ١٦٣ - ط دار الجنان) : " هذا إسناد

ضعيف، ومسلم - هو ابن يسار - لم يسمع من أبي سعيد، ومحمد - يعني ابن صالح المدني - فيه لين .
 (٣) حديث : " من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا - أو قال : فليعتزل مسجدنا " أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ٢٣٩ - ط السلفية) ، ومسلم (١ / ٣٩٤ - ط الحلبي) من حديث جابر بن عبد الله
 (٤) حديث : " من أكل من هذه الشجرة الحبيثة (يعني الثوم) فلا يقربنا في المسجد " . وفي رواية : " فلا يقرب مصلانا " . أخرجه مسلم (١ / ٣٩٥ - ط الحلبي) وأبو عوانة (١ / ٤١٢ - ط دائرة المعارف العثمانية) من حديث أبي سعيد الخدري، والرواية الأخرى لأبي عوانة . (٥) للمصادر السابقة، وكشاف القناع ١ / ٤٩٧ .
 (٦) حديث : " إن للملائكة تنأذى مما يتأذى منه بنو آدم " أخرجه مسلم (١ / ٣٩٥ - ط الحلبي) من حديث جابر بن عبد الله .

(٧) مواهب الجليل ٦ / ١٣ .

وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٣٤ / ص ٢٢٦)
 اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ مِنَ الْأَعْذَارِ الَّتِي تُبَحِّحُ التَّخَلُّفَ عَنِ الْجَمَاعَةِ : أَكْلُ كُلِّ ذِي رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ كَبَصَلٍ وَثُومٍ وَكُرَّاثٍ وَفُجْلٍ إِذَا تَعَذَّرَ زَوَالُ رَائِحَتِهِ (١) لِحَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَقَالَ مَرَّةً : مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبُنْ مَسْجِدَنَا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ (٢)

(١) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١ / ٣٩٠ ، وجواهر الإكليل ١ / ١٠٠ ، ومغني المحتاج ١ / ٢٣٦ ، والقلوبي وعميرة ١ / ٢٢٧ ، وكشاف القناع ١ / ٤٩٧ ، والمغني ١١ / ٨٨ - ٨٩ ، وعمدة القاري ٦ / ١٤٦

(٢) حديث : " من أكل من هذه . . . " أخرجه مسلم (١ / ٣٩٥) .

.. وَقَالَ { إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا } (١)، وَقَالَ : { إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ يُحِبُّ النَّظَافَةَ } (٢)
 ، وَقَالَ : { « خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ الْحَيَّةُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ وَالْقَارَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْحَدْيَا » } (٣).
 وفي رواية { الْحَيَّةُ وَالْعُقْرَبُ } (٤).
 وَأَمَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِقَتْلِ الْكِلَابِ وَقَالَ : « مَنْ أَفْتَنَى كَلْبًا لَا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا ، نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ فِرَاطٌ » (٥)، وَقَالَ : « لَا تَصْحَبِ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ » (٦). وَقَالَ : « إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَاهُنَّ بِالْثَرَابِ » (٧).
 وَقَالَ تَعَالَى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) } (٨)

(١) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) . ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ

إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبَّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغَدِيَّ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ
«صحيح مسلم (٢٣٩٣)

(٢) - ت (٣٢٩) والإتحاف ١٢٦/٤ وعدى ٨٧٨/٣ وجامع الأصول ٧٦٦/٤ وحسنه وبنحوه الدولابي
١٦/٢ والإتحاف ٣١١/٢ وعدى ٢٩٢/٥ ، وهو حسن لغيره

(٣) - صحيح مسلم (٢٩١٩) = الأبقع : الذى فى ظهره أو بطنه بياض

(٤) - سنن أبى داود (٩٢٢) صحيح

(٥) - صحيح البخارى (٢٣٢٣)

وفى شرح النووي على مسلم - (ج ٥ / ص ٤٢٦)

اختلف العلماء فى سبب نقصان الأجر بافتناء الكلب ، فقيل : لامتناع الملائكة من دخول بيته بسببه . وقيل : لما
يلحق المارين من الأذى من ترويع الكلب لهم وقصده إياهم ، وقيل : إن ذلك عقوبة له لاتخاذ ما نهى عن
اتخاذ ، وعصيانه فى ذلك ، وقيل : لما يبتلى به من ولوغه فى غفلة صاحبه ولا يغسله بالماء والتراب . والله
أعلم .

(٦) - صحيح مسلم (٥٦٦٨)

(٧) - سنن النسائي (٣٤٠) صحيح وأصله فى مسلم

(٨) - وسأثبت رحمتي بمشييتي للذين يتقون الكفر والمعاصي ، ويؤدّون الزكاة المفروضة ، ويؤثرون الصدقات
التي تنزكي بها نفوسهم ، وللذين يؤمنون ويصدقون بجميع آياتي الدالة على الوحدانية ، ويصدقون رُسلي ، وما
جاءوهم به .

ويُتابع الله تعالى وصف الذين يشملهم برحمته الواسعة فيقول : إنيهم الذين يتبعون محمداً النبي الأمي ، الذي لا
يكتب ولا يقرأ ، وقد جاء وصفه والبشارة به في التوراة والإنجيل ، وهو يأمرهم بفعل الخيرات ، وبالأمر
بالمعروف ، وينهاهم عن فعل المنكر ، ويحل لهم الطيبات من الرزق ، ويضع عنهم الثكاليف الشاقة ، كاشتراط
قتل النفس في صحة التوبة ، والقصاص في القتل العمد أو الخطأ ، من غير شرع للديّة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ،
وقطع موضع التجاسة من الثوب ، وتحريم السب . . . فقد جاء محمداً بما هو يسرّ وسماحة .
[وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أميرين أرسلهما في بعثين إلى اليمن : " بشراً ولا تُفراً ولا تُعسراً ،
وتطوعاً ولا تَخْتِلفاً "] .

ووسّع الله على محمّد صلى الله عليه وسلم أمورها ، وسهلها لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رُفِعَ
عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ " فالذين آمنوا بالرسول النبي الأمي ، حين بعث ، من قوم موسى
وعيسى ، ومن كل أمة ، وعزّروه بأن منعوه وحمّوه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والإجلال ، وتصروه باللسان
واليد ، واتبعوا التوراة الأعظم الذي أنزل مع رسالته ، وهو القرآن . فأولئك هم المفلحون ، الفائزون بالرحمة
والرضوان .

{ [الأعراف/١٥٦-١٥٨] .

فإذا كان الشخص مباحراً للنجاسات والخبائث التي يحجبها الشيطان ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي
تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزناير ؛ وأدان الكلاب التي هي خبائث وفواسق ، أو يشرب
البول ونحوه من النجاسات التي يحجبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أو يسجد

إِلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ يُلَابِسُ الْكِتَابَ أَوْ النَّيْرَانَ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ
الْتَّجَسَةِ أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَقَابِرِ؛ وَلَا سِيَّمَا إِلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ
الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَقْدِمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الْأَغَانِي وَالْأَشْعَارِ، وَيُؤَثِّرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ،
فَهَذِهِ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ
يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (١). وَقَالَ عُثْمَانُ
بْنُ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهَّرَتْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (٢)؛ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الذِّكْرُ
يُنْبِتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ وَالْغِنَاءُ يُنْبِتُ التَّفَاقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ (٣). وَإِنْ كَانَ
الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ (٤)

(١) - المعجم الكبير للطبراني (٨٥٧٥) وشعب الإيمان للبيهقي (١٩٦٠) حديث حسن

(٢) - الأسماء والصفات للبيهقي (٥٠٧) وفصائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٧٤٩) وفصائل عثمان بن عفان

لعبد الله بن أحمد (٦٦) حسن

(٣) - السنة لأبي بكر بن الخلال (١٦٧٠) وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٥٩٨) وفيه ضعف

(٤) - مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٠٠)

وَالْمُخْلِصُونَ هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُعْبُدُ اللَّهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ فَمَنْ لَمْ
يَكُنْ كَذَلِكَ تَوَلَّاهُ الشَّيَاطِينُ. وَهَذَا بَابٌ دَخَلَ فِيهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ السَّالِكِينَ؛ وَاشْتَبَهَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ
الرَّحْمَانِيَّةُ بِالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنْ جِنْسٍ مَا يَحْصُلُ لِلْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ كَمَا قَدْ بَسَطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٦٣٥)

فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَ اللَّهُ تَعَالَى وَيُؤَالِي أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللَّهِ وَهَؤُلَاءِ
يُحِبُّونَ مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَيُبْغِضُونَ مَا أَحَبَّ اللَّهُ وَيُؤَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَيُعَادُونَ أَوْلِيَاءَهُ؛ وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَنْزِلَاتُ
شَّيْطَانِيَّةٍ بِحَسَبِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ وَكَلَّمَا بَعْدُوا عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَطَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ قَرُبُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجَنَدِ الشَّيْطَانِ. فِيهِمْ مَنْ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَالشَّيْطَانُ طَائِرٌ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرَعُ الْحَاضِرِينَ وَشَيَاطِينُهُ
تَصْرَعُهُمْ وَفِيهِمْ مَنْ يَحْضِرُ طَعَامًا وَإِدَامًا. وَيَمْلَأُ الْإِبْرِيْقَ مِنَ الْهَوَاءِ وَالشَّيَاطِينُ فَعَلَتْ ذَلِكَ. فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّ
هَذِهِ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ الْكُهْنَةِ وَالسَّحَرَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمَنْ يُمِيزُ
بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْفَسَانِيَّةِ وَالشَّيْطَانِيَّةِ لَا يُشْتَبِهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

مجموع الفتاوى - (ج ٣٥ / ص ١١٦)

إِنَّ الشَّيَاطِينَ وَإِنْ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْإِنْسَانَ بِقِصَّةٍ أَوْ قِصَّةٍ فِيهَا صِدْقٌ فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ أَضْعَافَ ذَلِكَ كَمَا كَانَتْ الْجِنَّ
يُخْبِرُونَ الْكُهَّانَ. وَلِهَذَا مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَخْبَارِ الْجِنِّ كَانَ كَذِبُهُ أَكْثَرَ مِنْ صِدْقِهِ؛ كَشَيْخٍ
كَانَ يُقَالُ لَهُ: "الشَّيَاح" تَوْبَاهُ وَجَدَّدَنَا إِسْلَامَهُ كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الْجِنِّ يُقَالُ لَهُ: "عَنْتَر" يُخْبِرُهُ بِأَشْيَاءَ فَيَصْدُقُ
تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً فَلَمَّا ذَكَرَتْ لَهُ أَنَّكَ تَعْبُدُ شَيْطَانًا مِنْ دُونِ اللَّهِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: يَا عَنْتَرُ لَا سُبْحَانَكَ؛ إِنَّكَ
إِلَهٌ قَدِيرٌ وَتَابَ مِنْ ذَلِكَ فِي قِصَّةٍ مَشْهُورَةٍ. وَقَدْ قَتَلَ سَيْفُ الشَّرْعِ مَنْ قَتَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ مِثْلَ الشَّخْصِ الَّذِي قَتَلْنَاهُ سَنَةَ
خَمْسَ عَشْرَةَ وَكَانَ لَهُ قَرِينٌ يَأْتِيهِ وَيُكَاشِفُهُ فَيَصْدُقُ تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً وَقَدْ انْتَفَادَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُنْسُوِينَ إِلَى أَهْلِ

الْعِلْمِ وَالرَّاسَةِ فَيَكْشِفُهُمُ حَتَّى كَشَفَهُ اللَّهُ لَهُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَرِينَ كَانَ تَارَةً يَقُولُ لَهُ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَيَذْكُرُ أَشْيَاءَ تُنَافِي حَالَ الرَّسُولِ فَشَهِدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الرَّسُولَ يَأْتِينِي وَيَقُولُ لِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَكْفُرُ مَنْ أَضَافَهَا إِلَى الرَّسُولِ ؛ فَذَكَرَتْ لَوْلَاةُ الْأُمُورِ أَنَّ هَذَا مِنْ جَنْسِ الْكُهَّانِ وَأَنَّ الَّذِي يَرَاهُ شَيْطَانًا ؛ وَلِهَذَا لَا يَأْتِيهِ فِي الصُّورَةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ يَأْتِيهِ فِي صُورَةٍ مُنْكَرَةٍ وَيَذْكُرُ عَنْهُ أَنَّهُ يَخْضَعُ لَهُ ؛ وَيُسَبِّحُ لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْمُسْكِرَ وَأُمُورًا أُخْرَى . وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الرُّؤْيَا ؛ وَلَمْ يَكُنْ كَاذِبًا فِي أَنَّهُ رَأَى تِلْكَ الصُّورَةَ ؛ لَكِنْ كَانَ كَافِرًا فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَنَزُّلاتُ شَيْطَانِيَّةٍ بِحَسَبِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ مُرَادِ الشَّيْطَانِ ؛ فَكُلَّمَا بَعُدُوا عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ قَرَّبُوا مِنَ الشَّيْطَانِ . فَيَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ ؛ وَالشَّيْطَانُ طَارَ بِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرَعُ الْحَاضِرِينَ وَشَيْطَانُهُ صَرَخَتْهُمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْضِرُ طَعَامًا وَإِدَامًا وَمَلَأَ الْإِبْرِيْقَ مَاءً مِنَ الْهَوَاءِ وَالشَّيْطَانُ فَعَلَتْ ذَلِكَ فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّ هَذِهِ كَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جَنْسِ أَحْوَالِ السَّحَرَةِ وَالْكُهْنَةِ وَأَمْثَالِهِمْ . وَمَنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالنَّفْسَانِيَّةِ اشْتَبَهَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَمَنْ لَمْ يُتَوَرَّ اللَّهُ قَلْبُهُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَاتَّبَعَ الْقُرْآنَ لَمْ يَعْرِفْ طَرِيقَ الْمُحَقِّقِ مِنَ الْمُبْطِلِ ؛ وَالتَّبَسُّعَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالْحَالُ كَمَا التَّبَسُّعَ عَلَى النَّاسِ حَالُ مُسْلِمَةٍ صَاحِبِ الْيَمَامَةِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَذَّابِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ ؛ وَإِنَّمَا هُمْ كَذَّابُونَ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ فِيكُمْ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ } . وَأَعْظَمُ الدَّجَّالَةِ فِتْنَةٌ " الدَّجَّالُ الْكَبِيرُ " الَّذِي يَقْتُلُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛ فَإِنَّهُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَتِهِ وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِينُوا مِنْ فِتْنَتِهِ فِي صَلَاتِهِمْ . وَقَدْ ثَبَتَ " أَنَّهُ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ : امْطَرِي ؛ فَتُمْطِرُ ؛ وَلِلْأَرْضِ أَنْتَبِي فْتَنْبِتُ " " وَأَنَّهُ يَقْتُلُ رَجُلًا مُؤْمِنًا ؛ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ قُمْ فَيَقُومُ ؛ يَقُولُ أَنَا رَبُّكَ ؛ يَقُولُ لَهُ كَذَبْتَ ؛ بَلْ أَنْتَ الْأَعْوَرُ الْكَذَّابُ الَّذِي أَخْبَرْنَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ مَا أَرْدَدْتَ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً فَيَقْتُلُهُ مَرَّتَيْنِ فَيُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَهُ فِي الثَّلَاثَةِ فَلَا يَسْلُطُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ " وَهُوَ يَدْعِي الْإِلَهِيَّةَ .

فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (١) (٢٨) سورة الحديد ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (٢) (٥٢) سورة الشورى ، فَهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » (٣)

(١) - يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَعْلَمُهُمْ أَنَّ هُمْ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ، وَاتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا الْعَمَلَ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ ضِعْفَيْنِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِنَبِيِّهِمُ وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ قَبْلَهُ ، وَأَجْرًا آخَرَ لِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ، وَأَنَّهُ سَيَجْعَلُ لَهُمْ هُدًى وَنُورًا يَمْشُونَ بِهِ فَيَجْنِبُهُمُ الْعَمَى وَالضَّلَالَةَ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَيَعْلَمُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْغُفْرَةِ لِمَنْ شَاءَ ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ ، يَقْبَلُ إِنْ أَحْسَنُوا التَّوْبَةَ إِلَيْهِ . (وَرَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ حِينَمَا فَخَرَ مُؤْمِنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ { أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ } فَجَعَلَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَجْرَيْنِ وَزَادَهُمْ نُورًا) .

وفي الحديث الشريف : " ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ :

- رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِبِي فَلَهُ أَجْرَانِ .

- وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَذَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ فَلَهُ أَجْرَانِ .

- وَرَجُلٌ أَذَبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ اعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ " . (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) .

(٢) - وَكَمَا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ ، كَذَلِكَ أَوْحَى إِلَيْكَ الْقُرْآنَ ، وَلَمْ تَكُنْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكَ وَحْيُهُ ، تَعْلَمُ مَا الْقُرْآنُ ، وَمَا الشَّرَائِعُ ، الَّتِي بِهَا هِدَايَةُ الْبَشَرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ الْقُرْآنَ ، وَجَعَلَهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ هِدَايَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ .

وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَتَهْدِي بِذَلِكَ النُّورِ الْمُنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، مَنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ .

رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا - قُرْآنًا - أَوْ جَبْرِيلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ نُبُوَّةً .

(٣) - سنن الترمذی (٣٤١٩) والمعجم الكبير للطبراني (٧٣٦٩) ومسند الشاميين (٢٠٤٢) وغيرهم من طرق

حسن لغيره

وفي تحفة الأحمدي - (ج ٧ / ص ٤٥٦)

(اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ) الْفِرَاسَةُ بِالْكَسْرِ ، اسْمٌ مِنْ قَوْلِكَ : تَفَرَّسْتُ فِي فُلَانٍ الْخَيْرَ ، وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ مَا يُوقَعُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ فَيَعْلَمُونَ بِذَلِكَ أَحْوَالَ النَّاسِ بِنَوْعٍ مِنَ الْكِرَامَاتِ وَإِصَابَةِ الْحَدْسِ وَالنَّظَرِ وَالظَّنِّ وَالتَّثَبُّتِ . وَالتَّوَعُّ الثَّانِي : مَا يَحْصُلُ بِدَلَالِ التَّجَارِبِ وَالْخُلُقِ وَالْأَخْلَاقِ تُعَرَّفُ بِذَلِكَ أَحْوَالَ النَّاسِ أَيْضًا . وَلِلنَّاسِ فِي عِلْمِ الْفِرَاسَةِ تَصَانِيفٌ قَدِيمَةٌ وَحَدِيثَةٌ ، كَذَا فِي النَّهَائَةِ وَالْخَازَنِ . وَقَالَ الْمَتَاوِيُّ : اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، أَيِاطْلَاعَهُ عَلَى مَا فِي الصَّمَاتِ بِسَوَاطِعِ أَنْوَارِ أَشْرَقَتْ عَلَى قَلْبِهِ ، فَتَجَلَّتْ لَهُ بِهَا الْحَقَائِقُ .

(فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ) أَيِ يُبْصِرُ بِعَيْنِ قَلْبِهِ الْمَشْرِقِ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَصْلُ الْفِرَاسَةِ : أَنْ بَصَرَ الرُّوحَ مُتَّصِلٌ بِبَصَرِ الْعَقْلِ فِي عَيْنِي الْإِنْسَانِ فَالْعَيْنُ جَارِحَةٌ وَالْبَصَرُ مِنَ الرُّوحِ ، وَإِدْرَاكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ بَيْنَهُمَا ، فَإِذَا تَفَرَّغَ الْعَقْلُ وَالرُّوحُ مِنْ أَشْغَالِ النَّفْسِ أَبْصَرَ الرُّوحُ وَأَدْرَكَ الْعَقْلُ مَا أَبْصَرَ الرُّوحُ ، وَإِنَّمَا عَجَزَ الْعَامَّةُ عَنْ هَذَا لِشُغْلِ أَرْوَاحِهِمْ بِالنَّفُوسِ وَأَشْيَاكِ الشَّهَوَاتِ بِهَا فَشُغِلَ بَصَرُ الرُّوحِ عَنْ دَرَكِ الْأَشْيَاءِ الْبَاطِنَةِ وَمَنْ أَكْبَّ عَلَى شَهَوَاتِهِ وَتَشَاغَلَ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ حَتَّى خَلَطَ عَلَى نَفْسِهِ الْأُمُورَ وَتَرَكَتْ عَلَيْهِ الظُّلُمَاتُ ، كَيْفَ يُبْصِرُ شَيْئًا غَابَ عَنْهُ

(ثُمَّ قَرَأَ) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ }

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِلنَّاطِرِينَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لِلْمُعْتَبِرِينَ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لِلْمُتَفَكِّرِينَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لِلْمُتَفَرِّسِينَ .
الْخَازَنُ : وَيُعْضَدُ هَذَا التَّأْوِيلَ مَا رَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ إلخ .

. ثُمَّ قَرَأَ { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } (١)

(١) - وَأَمَّا حُجَّةُ أَهْلِ الدُّوْقِ وَالْوُجْدِ وَالْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُمْ إلهَامَاتٌ صَحِيحَةٌ مُطَابِقَةٌ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { قَدْ كَانَ فِي اللَّيْلِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعَمَّرُ } وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ اقْتَرَبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهَا تَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ

قَالَ : { اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلُهُ : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } { وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : أَظُنُّهُ وَاللَّهِ لَاحِقٌ يَقْدُفُهُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا } وَفِي رِوَايَةٍ { فَبِئْسَ سَمْعٌ وَبِئْسَ بَصَرٌ وَبِئْسَ يَمْشِي } فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ بِالْحَقِّ وَيُبْصِرُ بِهِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَكَلَّ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ } وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى { نُورٌ عَلَى نُورٍ } نُورُ الْإِيمَانِ مَعَ نُورِ الْقُرْآنِ . وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ } وَهُوَ الْمُؤْمِنُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَّبِعُهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ شَهِدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِمِثْلِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ بَيِّنَةِ الْإِيمَانِ وَهَذَا الْقَدَرُ مِمَّا أَقَرَّ بِهِ حُذَاقُ النَّظَارِ لَمَّا تَكَلَّمُوا فِي وَجُوبِ النَّظَرِ وَتَحْصِيلِهِ لِلْعِلْمِ فَقِيلَ لَهُمْ : أَهْلُ التَّصْقِيَةِ وَالرِّيَاضَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّأَلُّهِ تَحْصُلُ لَهُمُ الْمَعَارِفُ وَالْعُلُومُ الْيَقِينِيَّةُ بِدُونِ النَّظَرِ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ الْمَلَقَبُ بِالْكَبِيرِيِّ - لِلرَّازِيِّ وَرَفِيقِهِ وَقَدْ قَالَ لَهُ يَا شَيْخُ بَلَّغْنَا أَنَّكَ تَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ فَقَالَ : نَعَمْ فَقَالَ : كَيْفَ تَعْلَمُ وَنَحْنُ نَتَنَاطَرُ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ كُلَّمَا ذَكَرَ شَيْئًا أَفْسَدْتَهُ وَكُلَّمَا ذَكَرْتَ شَيْئًا أَفْسَدَهُ ؟ فَقَالَ : - هُوَ وَارِدَاتُ تَرُدُّ عَلَى النَّفْسِ تَعْجِزُ النَّفْسُ عَنْ رَدِّهَا فَجَعَلَا يَعْجَبَانِ مِنْ ذَلِكَ وَيُكَرِّرَانِ الْكَلَامَ وَطَلَبَ أَحَدُهُمَا أَنْ تَحْصُلَ لَهُ هَذِهِ الْوَارِدَاتُ فَعَلِمَهُ الشَّيْخُ وَأَدَّبَهُ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ وَكَانَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ النَّفَاقَةِ . فَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ أَهْلِ الْإِبْرَائِيلِ وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ وَعَلِمَ ذَلِكَ بِالضَّرُورَةِ رَأَيْتُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ بِخَطِّ الْقَاضِي نَجْمِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ خَلْفِ الْمَقْدِسِيِّ وَذَكَرَ أَنَّ الشَّيْخَ الْكَبِيرِيَّ حَكَاهَا لَهُ وَكَانَ قَدْ حَدَّثَنِي بِهَا عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ حَتَّى رَأَيْتُهَا بِخَطِّهِ وَكَلَامِ الْمَشَائِخِ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرٌ وَهَذَا الْوَصْفُ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ جَوَابَ لَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَعْرِفُونَ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَسَمُوا الْعِلْمَ إِلَى ضَرُورِيٍّ وَنَظَرِيٍّ وَتَنْظِيرِيٍّ مُسْتَنْدٍ إِلَى الضَّرُورِيِّ وَالضَّرُورِيُّ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَلْزِمُ نَفْسَ الْمَخْلُوقِ لُزُومًا لَا يُمَكِّنُهُ مَعَهُ الْإِنْفِكَافُ عَنْهُ هَذَا حَدُّ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الطَّيِّبِ وَغَيْرِهِ . فَخَاصَّتُهُ أَنَّهُ يَلْزِمُ النَّفْسَ لُزُومًا لَا يُمَكِّنُ مَعَ ذَلِكَ دَفْعُهُ فَقَالَ لَهُمْ : عِلْمُ الْيَقِينِ عِنْدَنَا هُوَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَهُوَ عِلْمٌ يَلْزِمُ النَّفْسَ لُزُومًا لَا يُمَكِّنُهُ مَعَ ذَلِكَ الْإِنْفِكَافُ عَنْهُ وَقَالَ : وَارِدَاتُ ؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ مَعَ الْعِلْمِ طُمَآنِينَةٌ وَسَكِينَةٌ تُوجِبُ الْعَمَلَ بِهِ فَالْوَارِدَاتُ تَحْصُلُ بِهِذَا وَهَذَا وَهَذَا قَدْ أَقَرَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ حُذَاقِ النَّظَارِ مُتَقَلِّمِيهِمْ كَالْكِيَا الْمُرَاسِيِّ وَالْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِمَا - وَمُتَأَخِّرِيهِمْ - كَالرَّازِيِّ وَالْأَمَدِيِّ - وَقَالُوا نَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ يَحْصُلَ لِنَاسٍ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ بِمَا يَحْصُلُ لَنَا بِالنَّظَرِ هَذَا لَا نَدْفَعُهُ لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِلْمًا ضَرُورِيًّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ وَالدَّلِيلُ يَكُونُ مُسْتَنْزَمًا لِلْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِحَيْثُ يَلْزِمُ مِنْ انْتِفَاءِ الدَّلِيلِ انْتِفَاءُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ . قَالُوا : فَإِنْ كَانَ لَوْ دَفَعَ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ الَّذِي حَصَلَ لَهُ لَزِمَ دَفْعُ شَيْءٍ مِمَّا يَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ فَهَذَا هُوَ الدَّلِيلُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهَذَا هَوَسٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ وَاقِعٌ لَكِنْ يَقَعُ أَيْضًا مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْهُ كَثِيرٌ أَوْ لَا يُمَيِّزُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ كَمَا يَقَعُ فِي الْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ . فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْمَعُ خِطَابًا أَوْ يَرَى مَنْ يَأْمُرُهُ بِقَضِيَّةٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ الْخِطَابُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنْ رِجَالِ الْغَيْبِ . وَرِجَالُ الْغَيْبِ هُمُ الْجِنُّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ إِنْسِيٌّ وَقَدْ يَقُولُ لَهُ : أَنَا الْخَضِرُ أَوْ الْيَاسُ بَلْ أَنَا مُحَمَّدٌ أَوْ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ أَوْ الْمَسِيحُ أَوْ أَبُو بَكْرٍ أَوْ عُمَرُ أَوْ أَنَا الشَّيْخُ فَلَانُ أَوْ الشَّيْخُ فَلَانُ مِمَّنْ يُحْسِنُ بِهِمُ الظَّنَّ وَقَدْ يَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ أَوْ يَأْتِيهِ بِطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَفَقَةٍ فَيُظَنُّ هَذَا كَرَامَةً ؛ بَلْ آيَةٌ وَمُعْجَزَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا مِنْ رِجَالِ الْغَيْبِ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا لَبَّسَ عَلَيْهِ فَهَذَا وَمِثْلُهُ وَاقِعٌ كَثِيرًا أَعْرِفُ مِنْهُ وَقَائِعَ كَثِيرَةً كَمَا أَعْرِفُ مِنَ الْغَلَطِ فِي السَّمْعِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ . فَهَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ ظَنًّا لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا وَلَوْ لَمْ

يَتَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ بَلْ اعْتَصِمُوا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُ ذَوْقَهُ وَوَجْدَهُ وَمَا يَجِدُهُ مَحْبُوبًا إِلَيْهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا بَصِيرَةٍ فَيَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِلَا ظَنٍّ وَخِيَارِهِمْ مَنْ يَتَّبِعُ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَهَؤُلَاءِ إِذَا طُلِبَ مِنْ أَحَدِهِمْ حُجَّةٌ ذَكَرَ تَقْلِيدَهُ لِمَنْ يُحِبُّهُ مِنْ آبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ : { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } وَإِنْ عَكَسُوا احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ هَذَا وَسَلَطْنَا عَلَيْهِ فَهُمْ يَعْمَلُونَ بِهِوَاهُمْ وَإِرَادَةَ نَفْسِهِمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِمْ كَالْمُلُوكِ الْمُسْلَطِينَ وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ فَيَتَّبِعُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا يَتَّبِعُونَ إِرَادَتَهُمْ وَمَا يُحِبُّونَهُ هُمْ وَيَرْضَوْنَهُ وَأَنْ يَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ فَيَقُولُونَ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى مَا أُوتُوهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْحَالِ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَدِّ وَقَدْ كَانَ { النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَقِبَ الصَّلَاةِ وَفِي الْإِعْدَالِ بَعْدَ الرُّكُوعِ : اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ } .

فَالنُّوْقُ وَالْوَجْدُ هُوَ يَرْجِعُ إِلَى حُبِّ الْإِنْسَانِ وَوَجْدِهِ بِحُلُوتِهِ وَذَوْقِهِ وَطَعْمِهِ وَكُلُّ صَاحِبٍ مَحَبَّةٍ فَلَهُ فِي مَحْبُوبِهِ ذَوْقٌ وَوَجْدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِسُلْطَانٍ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ صَاحِبُهُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } .

وَكَذَلِكَ مَنْ اتَّبَعَ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْخِطَابِ أَوْ مَا يَرَاهُ مِنَ الْأَنْوَارِ وَالْأَشْخَاصِ الْغَيْبِيَّةِ وَلَا يَعْتَبِرُ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ ظَنًّا لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . فَلَيْسَ فِي الْمُحَدِّثِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَفْضَلَ مِنْ عُمَرَ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُتَيْتِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمِّرْ مِنْهُمْ } وَقَدْ وَافَقَ عُمَرُ رَبَّهُ فِي عِدَّةٍ أَشْيَاءَ وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَصِمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَقْبَلُ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَرْضَاهُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ بَلْ يَجْعَلُ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءٌ خِلَافَ مَا وَقَعَ لَهُ فَيَرْجِعُ إِلَى السُّنَّةِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُبَيِّنُ لَهُ أَشْيَاءَ خَفِيَتْ عَلَيْهِ فَيَرْجِعُ إِلَى بَيِّنِ الصَّدِّيقِ وَإِزْشَادِهِ وَتَعْلِيمِهِ كَمَا جَرَى يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ وَيَوْمَ مَاتَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَوْمَ نَظَرَهُ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَقُولُهُ وَتَذْكُرُ الْحُجَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا كَمَا جَرَى فِي مُهُورِ النِّسَاءِ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . فَكُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِلَهَامِ وَالْخِطَابِ وَالْمُكَاشَفَةِ لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ مِنْ عُمَرَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَهُ فِي الْإِعْصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَجْعَلُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ تَبَعًا لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْطَئُوا وَضَلُّوا وَتَرَكُوا ذَلِكَ وَاسْتَعْنَوْا بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ يُغْنِيهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْعِلْمِ الْمُنْقُولِ . وَصَارَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ : أَخْلَوْا عِلْمَهُمْ مَيْتًا عَنْ مَيِّتٍ وَأَخَذْنَا عِلْمَنَا عَنْ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَيَقَالُ لَهُ : أَمَا مَا نَقَلَهُ النَّفَاتُ عَنْ الْمَعْصُومِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَوْ لَا الثَّقَلُ الْمَعْصُومُ لَكُنْتَ أَنْتَ وَأَمْنَالُكَ إِمَّا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَإِمَّا مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَمَا مَا وَرَدَ عَلَيْكَ فَمِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ؟ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ ؟ وَ " الْوَحْيُ " وَحْيَانٌ : وَحْيٌ مِنَ الرَّحْمَنِ وَوَحْيٌ مِنَ الشَّيْطَانِ قَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } وَقَالَ تَعَالَى : { هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ } وَقَدْ كَانَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ مِنْ هَذَا الصَّرَبِ حَتَّى قِيلَ لَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ قِيلَ لِحَدِيثِهِمَا إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقَالَ : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } وَقِيلَ لِلْآخَرِ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَقَالَ { هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ } . فَهَؤُلَاءِ

يَحْتَاجُونَ إِلَى الْفُرْقَانِ الْإِيمَانِيِّ الْقُرْآنِيِّ النَّبَوِيِّ الشَّرْعِيِّ أَعْظَمَ مِنْ حَاجَةِ غَيْرِهِمْ وَهُؤُلَاءِ لَهُمْ حِسِّيَّاتٌ يَرَوْنَهَا وَيَسْمَعُونَهَا وَالْحِسِّيَّاتُ يُضْطَرُّ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ كَمَا قَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ أَشْيَاءَ وَيَسْمَعُ أَشْيَاءَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ كَمَا أَنَّ النَّظَارَ لَهُمْ قِيَاسٌ وَمَعْقُولٌ وَأَهْلُ السَّمْعِ لَهُمْ أَخْبَارٌ مَنْقُولَاتٌ وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ هِيَ طُرُقُ الْعِلْمِ : الْحَسُّ وَالْخَبَرُ وَالنَّظَرُ وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَدِلُّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ؛ لَكِنْ يَكُونُ بَعْضُ الْأَنْوَاعِ أَغْلَبَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ الدِّينِ كَالطَّبِّ فَإِنَّهُ تَجَرِبَاتٌ وَقِيَاسَاتٌ وَأَهْلُهُ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ التَّجَرِبَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْقِيَاسُ وَالْقِيَاسُ أَصْلُهُ التَّجَرِبَةُ وَالتَّجَرِبَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ قِيَاسٍ ؛ لَكِنْ مِثْلُ قِيَاسِ الْعَادِيَّاتِ لَا تُعْرَفُ فِيهِ الْعِلَّةُ وَالْمُنَاسِبَةُ وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ مَنْ يَسْتَخْرِجُ الْعِلَّةَ الْمُنَاسِبَةَ وَيُعَلِّقُ الْحُكْمَ بِهَا وَالْعَقْلُ خَاصَّةُ الْقِيَاسِ وَالِاخْتِيَارُ وَالْقَضَايَا الْكُلِّيَّةُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْحِسِّيَّاتِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ لِيُعْتَبَرَ بِهَا وَالْحَسُّ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ صَاحِبِهِ عَقْلٌ وَإِلَّا فَقَدْ يَغْلُطُ .

وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : غَلِطَ الْحَسُّ وَالْعَقْلُ تَارَةً مِنَ الْحَسِّ وَتَارَةً مِنَ صَاحِبِهِ ؛ فَإِنَّ الْحَسَّ يَرَى أَمْرًا مُعَيَّنًا فَيُظَنُّ صَاحِبُهُ فِيهِ شَيْئًا آخَرَ فَيُؤْتَى مِنْ ظَنِّهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ . وَلِهَذَا النَّاسُ يَرَى شَيْئًا وَتِلْكَ الْأُمُورُ لَهَا وَجُودٌ وَتَحْقِيقٌ ؛ وَلَكِنْ هِيَ خَيَالَاتٌ وَأَمْثَلَةٌ ؛ فَلَمَّا عَزَبَ ظَنُّهَا الرَّائِي نَفْسَ الْحَقَائِقِ كَالَّذِي يَرَى نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ يُكَلِّمُ أَمْوَاتًا وَيُكَلِّمُونَهُ وَيَفْعَلُ أُمُورًا كَثِيرَةً وَهُوَ فِي النَّوْمِ يَجْزُمُ بِأَنَّهُ نَفْسُهُ الَّذِي يَقُولُ وَيَفْعَلُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَزَبَ عَنْهُ وَتِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي رَأَاهَا مِثَالُ صُورَتِهِ وَخَيَالُهَا ؛ لَكِنْ غَابَ عَقْلُهُ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْمِثَالَ هُوَ نَفْسُهُ فَلَمَّا ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ خَيَالَاتٌ وَمِثَالَاتٌ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَغِيبُ عَقْلَهُ بَلْ يَعْلَمُ فِي الْمَنَامِ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَهَذَا كَالَّذِي يَرَى صُورَتَهُ فِي الْمِرْآةِ أَوْ صُورَةَ غَيْرِهِ فَإِذَا كَانَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ ظَنَّ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ الشَّخْصُ حَتَّى أَنَّهُ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ بِالشَّخْصِ . مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى - (ج ١٣ / ص ٦٨) فما بعد

(٧٥) سورة الحجر. قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ قَدَّمَ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ قَالَ فِيهِ : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيئِهِ ، وَلَكِنْ اسْتَغَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (١).

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ فُرِّقَ بَيْنَ حَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، كَمَا يُفَرَّقُ الصَّيْرَفِيُّ بَيْنَ الدَّرْهِمِ الْجَيِّدِ وَالدَّرْهِمِ الرَّيْفِ ، وَكَمَا يُفَرَّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْلَ بَيْنَ الْفَرَسِ الْجَيِّدِ وَالْفَرَسِ الرَّدِيِّ ، وَكَمَا يُفَرَّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْفُرُوسِيَّةَ بَيْنَ الشُّجَاعِ وَالْحَبَانِ ، وَكَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْفَرَقُ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَبَيْنَ الْمُنْتَبِي الْكَذَّابِ فَيُفَرَّقُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ وَبَيْنَ مُسْلِمَةِ الْكَذَّابِ ؛ وَالْأَسْوَدِ الْعَنَسِيِّ وَطَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ وَالْحَارِثِ اللَّمَشَقِيِّ ؛ وَبَابَاهُ الرُّومِيُّ ؛ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ ؛ وَكَذَلِكَ يُفَرَّقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الضَّالِّينَ .

" الْحَقِيقَةُ " حَقِيقَةُ الدِّينِ : دِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

و " الْحَقِيقَةُ " حَقِيقَةُ الدِّينِ : دِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . هِيَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ ؛ وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جُ .

ف " الشَّرْعَةُ " هِيَ الشَّرِيعَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٢}

(١) - صحيح البخارى (٦٥٠٢)

(٢) - وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ (الْكِتَابَ) إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ ، وَالْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَ نُزُولُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَشَرَعَهُ ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ .

وَالْقُرْآنُ جَاءَ أَمِينًا عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ ، وَشَاهِدًا عَلَيْهَا بِالْحَقِّ وَالصِّحَّةِ بِمَا بَيَّنَّهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ (مُهَيِّمًا عَلَيْهِ) ، وَمُبَيِّنًا حَالَ مَنْ خُوِطُوا بِهَا : مِنْ نَسْيَانِ حَظٍّ عَظِيمٍ مِنْهَا ، وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِمَّا بَقِيَ ، أَوْ تَأْوِيلِهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ .

وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ رَقِيبًا وَأَمِينًا وَشَاهِدًا (مُهَيِّمًا) عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ ، الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، فَاحْكُمُ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ - إِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْكَ - بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأَحْكَامِ ، ذُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، لِأَنَّ شَرِيعَتَكَ نَاسِخَةٌ لِشَرِيعَتِهِمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَرَغَبَاتِهِمْ فِي الْحُكْمِ لَهُمْ بِمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ ، وَيَخْفُ حِثْمَالُهُ .
ثُمَّ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ شَرِيعَةً أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ إِقَامَةَ أَحْكَامِهَا ، وَمِنْهَا جَاءَ وَطَرِيقًا فَرَضَ عَلَيْهِمْ سُلُوكَهُ لِتَرْكِيبَةِ نَفُوسِهِمْ (فَأَصْلُ الدِّينِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ الْعَمَلِيَّةَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْبَشَرِ ، وَطِبَاعِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ) .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، ذَاتَ شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جَاءَ وَاحِدٌ ، يَسِيرُونَ عَلَيْهِ ، لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ، لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَلِيُثَبِّتَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَيُعَاقِبَهُمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

وَيَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

(٤٨) سورة المائدة، وَقَالَ تَعَالَى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) } (١) [الجاثية/١٨] ، [١٩] .

وَالْمِنْهَاجُ " هُوَ الطَّرِيقُ قَالَ تَعَالَى : { وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَقُصَّ عَنْهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (٢) (١٧) } [الجن/١٦-١٧] .

فَالشَّرْعُ بِمَنْزِلَةِ الشَّرِيعَةِ لِلنَّهْرِ، وَالْمِنْهَاجُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَ فِيهِ، وَالْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الدِّينِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يَسْتَسْلِمُ لِغَيْرِهِ (٣)

(١) - لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ ، بَعْدَ اخْتِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، عَلَى مِنْهَا جَاءَ وَاضِحٌ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ شَرَعَهُ لَكَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الرُّسُلِ ، فَاتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ ، وَلَا تَتَّبِعْ مَا دَعَاكَ الْمُشْرِكُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لَا يَعْلَمُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ .

وهؤلاء الجاهلون لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد الله بك إن اتبعت أهواءهم ، وتركت شرع ربك . والكافرون يتولّى بعضهم بعضاً في الدنيا ، ويظهر بعضهم بعضاً ، أمّا في الآخرة فلا يعني أحدٌ عن أحدٍ شيئاً . أمّا المتقون المهتدون فإن الله وليهم ينصرهم ويخبرهم من الظلمات إلى النور .

(٢) - وأن كفار قريش لو استقاموا على طريقة الإيمان بالله ، والطاعة له ، لأوسع الله عليهم في الدنيا ، ولأنزل السماء عليهم مدراراً . (وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت في كفار قريش حينما منعوا المطر سبع سنين) . ليختبرهم بإعذاب الرزق عليهم ، وإرسال السماء عليهم بالمطر ، ليرى هل يشكرون ربهم على هذه النعم أم يكفرون؟ فإن وقوا النعم حثها من الشكر كان لهم عند الله الجزاء الأوفى ، وإن كفروا استدبر جهنم وأمهلهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومن يعرض عن القرآن وعظاته ، فإن الله تعالى يدخله في العذاب الشاق المتواصل الذي لا يطيقه ، ولا يجد فيه لحظة راحة .

(٣) - قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) [البقرة/٢٠٨-٢١٠] إنما دعوة للمؤمنين باسم الإيمان . بهذا الوصف احب إليهم ، والذي يميزهم ويفرهم ، ويصلهم بالله الذي يدعوه . . دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة . .

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكليتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، وفي الصغير والكبير من أمرهم . أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه . استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية . الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد ؛ وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير ، في الدنيا والآخرة سواء .

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يغور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن . وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية . . وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ؛ ليخلصوا ويتجردوا ؛ وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم ، وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم ، في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت .

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام . عالم كله ثقة واطمئنان ، وكله رضى واستقرار . لا حيرة ولا قلق ، ولا شرو ولا ضلال . سلام مع النفس والضمير . سلام مع العقل والمنطق . سلام مع الناس والأحياء . سلام مع الوجود كله ومع كل موجود . سلام يرف في حنايا السرية . و سلام يظلل الحياة واجتمع . سلام في الأرض وسلام في السماء .

وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره لله ربه ، ونساعة هذا التصور وبساطته . . إنه إله واحد . يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه ؛ فلا تفرق به السبل ، ولا تعدد به القبل ؛ ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك - كما كان في الوثنية والجاهلية - إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح .

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر . . فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحققة الوحيدة في هذا الوجود . وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح . ولم يعد يخاف أحداً أو يخاف شيئاً ، وهو يعبد الله القوي القادر العزيز القاهر .

ولم يعد يخشى فوت شيء . ولا يطمع في غير من يقدر على الحرمان والعطاء .

وهو إله عادل حكيم ، فقوته وقدرته ضمان من الظلم ، وضمان من الهوى ، وضمان من البخس . وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات . ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد ، ينال فيه العدل والرعاية والأمان .

وهو رب رحيم ودود . منعم وهاب . غافر الذنب وقابل التوب . يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . فالمسلم في كنفه آمن آنس ، سالم غانم ، مرحوم إذا ضعف ، مغفور له متى تاب . . وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام ؛ فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه ، وما يطمئن روحه ، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام . .

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب . وبين الخالق والكون . وبين الكون والإنسان . . فالله خلق هذا الكون بالحق ؛ وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة . وهذا الإنسان مخلوق قصدا ، وغير متروك سدى ، ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده ، ومسخر له ما في الأرض جميعا . وهو كريم على الله ، وهو خليفته في أرضه . والله معينه على هذه الخلافة . والكون من حوله صديق مأنوس ، تتجاوب روحه مع روحه ، حين يتجه كلاهما إلى الله ربه . وهو مدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض لئتملاه ويأنس به . وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير ، الذي يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك المهرجان ! والذي يؤلفون كلهم هذا المهرجان !

والعقيدة التي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة ، وهي توحى إليه أن له أجرا حين يرويها من عطش ، وحين يعينها على النماء ، وحين يزيل من طريقها العقبات . . هي عقيدة جميلة فوق أي عقيدة كريمة . عقيدة تسكب في روحه السلام ؛ وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ؛ ويشيع من حوله الأمن والرفق ، والحب والسلام . والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ؛ ونفي القلق والسخط والقنوط . . إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض ؛ والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة . . إن الحساب الختامي هناك ؛ والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه . ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزان الله . ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لا بد واقع . وما الله يريد ظلما للعباد . والاعتقاد بالآخرة حازم كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات . بلا تخرج ولا حياء . فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت . وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ؛ وأن يخلع التجميل على حركات المتسابقين ؛ وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود !

ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة ، وأنه مخلوق ليعبد الله . . من شأنها - ولا شك - أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء . ترفع شعوره وضميره ، وترفع نشاطه وعمله ، وتنظف وسائله وأدواته . فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله ؛ وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه ؛ وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج الله فيها . فأولى به ألا يغدر ولا يفجر ؛ وأولى به ألا يغش ولا يخدع ؛ وأولى به ألا يظغى ولا يتجبر ؛ وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة . وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل ، وألا يعتسف الطريق ، وألا يركب الصعب من الأمور . فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة . . ومن شأن هذا

كله ألا تنور في نفسه المخاوف والمطامع ، وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق . فهو يعبد في كل خطوة ؛ وهو يحقق غاية وجوده في كل خطوة ، وهو يرتقي صعوداً إلى الله في كل نشاط وفي كل مجال .
وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر الله ، في طاعة الله ، لتحقيق إرادة الله . . وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار ؛ والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق ؛ وبلا قنوط من عون الله ومدده ؛ وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء . . ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه . فهو إنما يقاتل الله ، وفي سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ؛ ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة .

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة الله مع هذا الكون كله . قانونه قانونه ، ووجهته وجهته . فلا صدام ولا خصام ، ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة . وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته ، وتهتدي بالنور الذي يهتدي به ، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله .

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولصحيح الفطرة . لا تتجاوز الطاقة ؛ ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ؛ ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ؛ ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثمان والروحي لا تليها في يسر وفي سماحة وفي رخاء . . ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه . يحمل منها ما يطيق حمله ، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام .
والجتماع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني ، في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة ، والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال . . كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام .

هذا الاجتماع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق . هذا الاجتماع الذي حققه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره . ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب ، تختلف درجة صفائه ، ولكنه يظل في جملته خيراً من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر ، وكل مجتمع لوثنه هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية !
هذا الاجتماع الذي تربطه آصرة واحدة - آصرة العقيدة - حيث تنوب فيها الأجناس والأوطان ، واللغات والألوان ، وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان . .

هذا الاجتماع الذي يسمع الله يقول له: (إنما المؤمنون إخوة) . . والذي يرى صورته في قول النبي الكريم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" .
هذا الاجتماع الذي من آدابه: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . . (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور) . . (ادفع بالتي هي أحسن - فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) . . (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم القسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . . (ولا يغتب بعضكم بعضاً . يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) . .

هذا الاجتماع الذي من ضماناته: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . . (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا) . (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) . . و . . "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" . .

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ؛ ولا يتبحر فيه الإغراء ، ولا تروج فيه الفتنة ، ولا ينتشر فيه التبرج ، ولا تتلف فيه الأعين على العورات ، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمان ، ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا . . هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة ، والذي يسمع الله - سبحانه - يقول:

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . .

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) . . (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون) . . (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ، أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . . والذي يخاطب فيه نساء النبي - أظهر نساء الأرض في أظهر بيت في أظهر بيعة في أظهر زمان: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله لينهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) . .

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها ، ويأمن الزوج على زوجته ، ويأمن الأولياء على حرماهم وأعراضهم ، ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم . حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيون القلوب إلى الحرام . فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب . . بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن ، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان !

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا ، ولكل عاجز ضمانا للعيش الكريم ، ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة ، والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لو مات فيهم جائع ؛ حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماهم وأمواهم بحكم التشريع ، بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع . فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة ، ولا يتسور على أحد بيته ، ولا يتجسس على أحد فيه متجسس ، ولا يذهب فيه دم هدرًا والقصاص حاضر ؛ ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبًا والحدود حاضرة .

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون . كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم ، ولا هوى حاشية ، ولا قرابة كبير .

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية ، الذي لا يخضع البشر فيه للبشر . إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته ؛ وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته . فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكام الحاكمين ، في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين . .

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة . ليسلموا أنفسهم كلها لله

؛ فلا يعود لهم منها شيء ، ولا يعود لنفوسهم من ذاقها حظ ؛ إنما تعود كلها لله في طوعية وفي انقياد وفي تسليم . .
ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعبد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان ، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفته ثم تنكرت له ، وارتدت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان . . هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري ، وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلفة الموازين .
وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوروبي من أرقى بلاد العالم كله وهو "السويد" . حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام . وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجاني في المستشفيات . وحيث التعليم في جميع مراحلها بالجان ، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت . . وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب . .

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلق القلوب من الإيمان بالله؟
إنه شعب مهدد بالانقراض ، فالنسل في تناقص مطرد بسبب فرضي الاختلاط ! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط ! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ؛ ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة . والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب . . ثم الانتحار . . والحال كهذا في أمريكا . .
والحال أشنع من هذا في روسيا . .

إنما الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة . فلا ينوق طعم أسلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة ، ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار:
(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة . . ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين) . .
ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة . . حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان . فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان . إما الدخول في السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان . إما هدى وأما ضلال . إما إسلام وإما جاهلية . إما طريق الله وإما طريق الشيطان . وإما هدى الله وإما غواية الشيطان . . وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات .
إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها ، أو يخلط واحدا منها بواحد . . كلا ! إنه من لا يدخل في السلم بكيته ، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته ، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر . . إن هذا في سبيل الشيطان ، سائر على خطوات الشيطان . .
ليس هنالك حل وسط ، ولا منهج بين بين ، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك ! إنما هناك حق وباطل .
هدى وضلال . إسلام وجاهلية . منهج الله أو غواية الشيطان . والله يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ؛ ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان . ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم ، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم ، تلك العداوة الواضحة البينة ، التي لا ينساها إلا غافل . والغفلة لا تكون مع الإيمان . في ظلال القرآن - (ج ١ / ص ٢٨)

فَمَنْ اسْتَسْلِمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَغْلِمْ لِلَّهِ بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ كَانَ مِنْ قَالِ اللَّهِ فِيهِ : {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

ذَٰخِرِينَ} (١) (٦٠) سورة غافر.

وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْوَلَّيْنِ وَالْآخِرِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (٢) (٨٥) سورة آل عمران، عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . فَتُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَالْحَوَارِيُّونَ كُلُّهُمْ دِينُهُمُ الْإِسْلَامُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) (٣)

(١) - يَحْتَثُّ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى دُعَائِهِ ، وَتَكْمِلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ عَلَى دُعَائِهِمْ؛ وَدُعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ ذَلِيلٌ عَلَى إِيْمَانِهِ بِرَبِّهِ ، وَخَوْفِهِ مِنْهُ ، وَطَمَعِهِ فِي ثَوَابِهِ وَكَرَمِهِ ، وَرَحْمَتِهِ ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْتَمُّ بِإِجَابَةِ دُعَائِهِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْخَلَائِقِ ، وَتَصْرِيفِ شُؤْنِهِمْ ، وَإِحْصَاءِ أَعْمَالِهِمْ ، وَإِعَادَةِ بَعْثِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحْسِبَهُمْ عَلَيْهَا ، وَيَجْزِيَهُمْ بِهَا .

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ فَإِنَّهُ سَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ أَذِلَّةٌ صَاغِرُونَ .
(٢) - مَنْ ابْتَغَى دِينًا لَا يَقُودُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ الْكَامِلِ لِلَّهِ ، وَالْخُضُوعِ التَّامِّ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ هَذَا الدِّينُ ، وَيَكُونُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ سَلَكَ طَرِيقًا غَيْرَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ . وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " .

(٣) - يُسَلِّي اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَلَاقِيهِ مِنْ إِذْيَاءِ قَوْمِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَا يَقُصُّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ . وَيَبْدَأُ تَعَالَى بِقِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ كُفَّارَ مَكَّةَ الَّذِينَ يُكْذِبُونَكَ خَبَرَ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ، وَدَمَّرَهُمُ بِالْعَرَقِ أَجْمَعِينَ ، وَلِيَحْذَرُوا هَؤُلَاءِ أَنْ يَصِيبَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ وَاللَّمَامِ مَا أَصَابَ أَوَّلِيكَ .

لَقَدْ قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ قَهْلٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي بَيْنَكُمْ (كَبَر) ، وَإِنْ شَقَّ عَلَيْكُمْ تَذَكِيرِي إِيَّاكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ، فَإِنِّي قَدْ وَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي ، وَاعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ ، وَلَا أَكْفُ عَنْكُمْ ، سِوَاءَ عَظَمَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي أَوْ لَا ، فَأَجْتَمِعُوا أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ، مِنَ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ ، وَلَا تَتْرُكُوا أَمْرَكُمْ مُلْتَبِسًا عَلَيْكُمْ (غُمَّةً) ، بَلْ كُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْهُ ، لِكَيْلَا تَتَحَوَّلُوا عَنْهُ ، وَافْصِلُوا أَمْرَكُمْ مَعِيَ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُونَ فَاقْضُوا إِلَيَّ ، وَافْعَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ ، وَلَا تُؤْخِرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً (وَلَا تُنظِرُونِ)

فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ تَذَكِيرِي ، وَأَذْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ (تَوَلَّيْتُمْ) ، فَلَا يَضُرُّنِي ذَلِكَ لِأَنِّي لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى نُصْحِي لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَمَرَنِي بِأَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُؤْمِنِينَ الْعَابِدِينَ الْقَانِعِينَ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ .

{ [يونس/٧١، ٧٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ

(١) - لَقَدْ تَجَرَّدَ إِبْرَاهِيمُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَلَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ ، وَخَالَفَ قَوْمَهُ . فَمَنْ يَتْرُكْ طَرِيقَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمِلَّتَهُ ، وَيَتَّبِعْ طَرِيقَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ، فَهُوَ سَفِيهٌ ، وَلَا يَرْتَكِبُ الضَّلَالَةَ إِلَّا السَّفِيهُ .
وَلَقَدْ اصْطَفَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَاخْتَارَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ .
أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِالْإِحْلَاصِ لَهُ ، وَالْإِسْتِسْلَامِ لِحُكْمِهِ ، فَأَمْتَلَ لِأَمْرِ رَبِّهِ ، وَقَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً .
وَكَانَتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ مُحِبَّةً إِلَى نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَأَوْصُوا بِهَا أَبْنَاءَهُمْ حِينَ حَضَرَتْهُمْ الْوَفَاةُ وَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَأَحْسِنُوا فِي حَيَاتِكُمْ ، وَالزَّمُوا ذَلِكَ لِيَرِزَّكُمْ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ .

[البقرة/١٣٠-١٣٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) } (١) [يونس/٨٤] ، وَقَالَ السَّحَرَةُ : { وَمَا نَقِمْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْهُمْ رَبَّنَا أَوْفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } (٢) (١٢٦) سورة الأعراف ، وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } (٣) (١٠١) سورة يوسف ، وَقَالَتْ بَلْقِيسُ : { .. قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (٤) (٤٤) سورة النمل ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشَوْهُمْ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } (٤٤) (٥)

(١) - وَلَمَّا أَعْلَنَ جَمَاعَةُ مُوسَى لَهُمْ إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ وَبِرِسَالَاتِهِ ، وَهُمْ خَائِفُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفِتْنَةِ ، قَالَ لَهُمْ مُوسَى : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ إِيْمَانًا حَقًّا ، فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، وَبُوعُودِهِ تَقْوُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ مُذْعِنِينَ ، إِذْ إِنَّ الْإِيْمَانَ لَا يَكُونُ يَقِينًا إِلَّا إِذَا صَدَّقَهُ الْعَمَلُ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .
(٢) - وَنَحْنُ لَمْ نَرْتَكِبْ إِثْمًا أَوْ جُرْمًا تَقِمْ بِهِ عَلَيْنَا ، وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَوَاحَدْنَا عَلَيْهِ هُوَ أَنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْهُنَا آيَاتُهُ . ثُمَّ اتَّجَهَ السَّحَرَةُ بِالْدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَائِلِينَ : اللَّهُمَّ تَبَيَّنَا عَلَى دِينِكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الصَّابِرِينَ عَلَى الْأَذَى الَّذِي سَيُلْحِقُهُ فِرْعَوْنُ بِنَا ، وَتَوَفَّنَا وَنَحْنُ مُتَّبِعُونَ دِينَكَ وَنَبْسَكَ ، مُسْتَسْلِمُونَ لِقَضَائِكَ .
(٣) - لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى يُوسُفَ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ ، وَرَأَى مَا مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الثُّبُوتِ وَالْمُلْكِ ، وَمَا وَهَبَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى تَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ ، اتَّجَهَ إِلَى اللَّهِ رَبِّهِ بِالْدُّعَاءِ قَائِلًا : يَا رَبِّ أَنْتَ خَالِقِي وَمَالِكُ أَمْرِي ، وَمُتَوَلِّي نِعْمَتِي ، فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَمَاتِي ، تَوَفَّنِي عَلَى مَا ارْتَضَيْتَ لِأَنْبِيَائِكَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَأَذْخِلْنِي فِي زُمْرَةِ مَنْ هَدَيْتَهُمْ إِلَى الصَّلَاحِ مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلِصِينَ الصَّالِحِينَ .

(٤) - كَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا (صَرْحًا) عَظِيمًا مِنْ زُجَاجٍ ، أُجْرِيَ الْمَاءُ مِنْ تَحْتِهِ ، فَمَنْ لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَطُنُّ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَلَكِنَّ الزُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَاءِ وَبَيْنَ الْمَاشِي . ثُمَّ قَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ : ادْخُلِي الصَّرْحَ لِيُرِيَهَا مُلْكًا أَعَزَّ مِنْ مُلْكِهَا ، وَسُلْطَانًا أَعْظَمَ مِنْ سُلْطَانِهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ الْمَاءَ تَحْتَ الزُّجَاجِ ظَنَّتْ أَنَّهَا سَتَخُوضُ فِيهِ ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا لَتَخُوضُ فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ إِنَّهُ زُجَاجٌ ، وَلَيْسَ مَاءٌ ، فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَى سُلَيْمَانَ

عَاتِبَهَا عَلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَدَعَاَهَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَأَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا ، وَاتَّبَعَتْ دِينَ سُلَيْمَانَ ، وَقَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ ، وَابْتَغَارِي بِمُلْكِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ .

(٥) - يَمْدَحُ اللَّهُ تَعَالَى التَّوْرَةَ ، فَيَقُولُ : إِنَّهُ أَنْزَلَهَا وَفِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِرَبِّهِمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (وَهُمْ مُوسَى وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ) بَيْنَ الْيَهُودِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا ، وَلَا يُبَدِّلُونَهَا وَلَا يَحَرِّفُونَهَا . وَيَحْكُمُ بِهَا الْعُلَمَاءُ الْعُبَادُ (الرَّبَّانِيُّونَ) ، وَالْعُلَمَاءُ (الْأَخْبَارُ) بِمَا اسْتَوْدَعُوا (اسْتَحْفَظُوا) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا بِأَنْ يَحْفَظُوهُ مِنَ التَّبْدِيلِ ، وَأَنْ يُظْهِرُوهُ ، وَيَعْمَلُوا بِأَحْكَامِهِ ، ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ فَقَالَ : كَيْفَ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ فِي الْكِتْمَانِ وَالتَّبْدِيلِ ، بَعْدَ أَنْ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ سِيرَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ يَتَّبِعُونَ وَيَرْعَوْنَ عَنْ غِيهِمْ . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : وَإِذَا كَانَ الْحَالُ كَذَلِكَ أَتَيْهَا الْأَخْبَارُ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّكُمْ لَا تُتَكَبَّرُونَ ، فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ فَتَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، خَشْيَةَ النَّاسِ ، أَوْ طَمَعًا فِي مَنَافِعَةٍ عَاجِلَةٍ مِنْهُ ، وَأَخْشَوْنِي أَنَا وَاقْدُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ ، وَاحْفَظُوا التَّوْرَةَ ، وَلَا تَعْدِلُوا عَنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَرَ بِيَدِ اللَّهِ ، وَلَا تَتْرَكُوا بَيَانَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ لِلنَّاسِ ، وَالْعَمَلِ بِهَا ، لِقَاءَ مَنَافِعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ قَلِيلَةٍ تَأْخُذُونَهَا مِنَ النَّاسِ كَرَشَوَةٍ أَوْ جَاهٍ .

وَكُلٌّ مَنْ يَرْغَبُ عَنِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ شَرْعٍ ، وَيُنْخِيهِ وَيَحْكُمُ بِغَيْرِهِ (كَحُكْمِ الْيَهُودِ فِي الزَّانِئِينَ الْمُحْصَنِينَ بِالتَّحْصِيمِ وَالْجُلْدِ ، وَكِتْمَانِ الرَّجْمِ ، وَقَضَائِهِمْ فِي بَعْضِ قَنَاقِهِمْ بِدِيَّةٍ كَامِلَةٍ ، وَفِي بَعْضِهِمْ بِنَصْفِ دِيَّةٍ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَوَّى بَيْنَ الْجَمِيعِ فِي الْحُكْمِ) ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ سَتَرُوا الْحَقَّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ كَشْفُهُ وَتَبْيِيْنُهُ لِلنَّاسِ .

سورة المائدة ، وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ : { .. نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ } (١) (٥٢) سورة آل عمران . فَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ ، وَإِنْ تَوَعَّتْ شَرَائِعُهُمْ كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ } (٢) ، قَالَ تَعَالَى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } (٣)

(١) - فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، دَعَاهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ ، فَأَبَى أَكْثَرُهُمْ وَسَخَرُوا مِنْهُ ، فَلَمَّا اسْتَشْعَرَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ وَالْاِسْتِمْرَارَ فِي الْعِنَادِ وَالضَّلَالَةِ ، وَقَصْدِ الْإِيذَاءِ ، سَأَلَ النَّاسَ قَانِلًا : مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ ، وَيَنْصُرُ دَعْوَتِي إِلَيْهِ؟ فَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ (أَيْ الْأَنْصَارُ) نَحْنُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِنُصْرَتِكَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِكَ إِلَى اللَّهِ ، فَقَدْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَاشْهَدْ عَلَيْنَا بِأَنَّا أَسْلَمْنَا إِلَيْهِ وَجُوهَنَا ، وَنَحْنُ مُتَقَادُونَ لِأَوْامِرِهِ . (وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ كُلِّ نَبِيٍّ) .

(٢) - لَمْ أَجِدْهُ بِهَذَا اللَّفْظِ وَإِنَّمَا وَجَدْتُ لَحْوَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةُ أَبْنَاءِ عَلَاتٍ أُمَهَاتُهُمْ شَتَّى وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ» . مسند أحمد (١١٢٧٢) وهو صحيح

العلات : أولاد العلات الإخوة لأب من أمهات شتى

(٣) - هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده ، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها ، وأزكاها وأطهرها ، دين

الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلو لا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ } أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. { وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ } أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتخربكم أحزابا، وتكونون شيعة يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم على أصل دينكم. ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

{ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: { وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } وقولهم: { أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }

[ص ٧٥٥] { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ } أي يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

{ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنايته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ }

وفي هذه الآية، أن الله { يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } مع قوله: { وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ } مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين. تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٧٥٤)

(١٣) سورة الشورى، وَقَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) { (١) [المؤمنون/ ٥١-٥٣] .

الْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَتَمَّتْهَا وَسَائِرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءِ (٢)، وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ عِبَادَةَ السُّعَدَاءِ الْمُتَعَمِّعَ عَلَيْهِمْ " أَرْبَعَ مَرَاتِبٍ " فَقَالَ تَعَالَى: { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } (٣) (٦٩) سورة النساء. وفي الحديث: " { مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ }

(٤)

(١) - يَأْمُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، وَالْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَالرُّسُلُ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ كَسْبِ أَيْدِيهِمْ ، وَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَقَدْ قَامَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَتَمَّ قِيَامٍ وَجَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا .

إِنَّ دِينَكُمْ ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ ، دِينٌ وَاحِدٌ ، وَمِلَّتُكُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَدِينُكُمْ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ رَبُّهُمْ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ .
أُمْتُكُمْ - مِلَّتُكُمْ وَشَرِيْعَتُكُمْ .

(٢) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٨ / ص ٣٧٠):

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَخَيْرُ الْأَوْلِيَاءِ أَتْبَعُهُمُ لِلْأَنْبِيَاءِ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ

وفي الرسالة القشيرية - (ج ١ / ص ١٥٩):

فإن قيل: كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟ وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام؟ قيل: هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لأن كل من له بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة. وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته؛ إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة. فأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم السلام: للإجماع المنعقد على ذلك.

وهذا أبو يزيد البسطامي سئل عن هذه المسألة فقال: مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه غسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما في الظرف مثل لنبينا صلى الله عليه وسلم.

وفي بستان العارفين - (ج ١ / ص ٢٢)

قال القشيري هل يجوز تفضيل الولي على النبي قلنا رتبة الأولياء لا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للإجماع المنعقد على ذلك.

(٣) - وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَاتَّقَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعَلَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمْ الصَّادِقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةً هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ .

(وَيَذْكُرُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْزُونًا ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ عَنْ سَبَبِ حُزْنِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ : وَمَا هُوَ؟ قَالَ : نَحْنُ نَعْدُو وَنَرُوحُ ، وَنَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ ، وَغَدًا تَرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ فَلَا نَصِلُ إِلَيْكَ . فَلَمْ يَرُدِّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ بَشْيَءٍ ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ) .

(٤) - حلية ٣/٣٢٥ وفضائل الصحابة (١٣٥ و ١٣٧ و ٦٦٢) حسن لغيره

وفي مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٤٤)

إِنَّ أَفْضَلَ أَوْلِيَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَخَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَخَيْرُ قُرُونِهَا الْقُرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَخَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ آخِرُ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ يَكُونُ فِي النَّاسِ

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِخَيْرِ الْوَلِيَاءِ وَلَا أَفْضَلِهِمْ بَلْ خَيْرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثُمَّ عُمَرُ : اللَّذَانِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْهُمَا .

، وَأَفْضَلُ الْأُمَمِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ تَعَالَى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (١)

(١) - قوله - تعالى - { كُنْتُمْ } يصح أن تكون من كان التامة التي بمعنى وجد وهي لا تحتاج إلى خبر فيكون المعنى وجدتم خير أمة أخرجت للناس ، ويكون قوله { خَيْرَ أُمَّةٍ } بمعنى الحال . وهذا الراى قال جمع من المفسرين . ويصح أن تكون من كان الناقصة التي هي - كما يقول الزمخشري - عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ فيكون المعنى : قدرتم في علم الله - تعالى - خير أمة أخرجت للناس .

ويجوز أن تكون بمعنى صار . أى تحولتم يا معشر المؤمنين الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة .

وقيل : إن " كان " هنا زائدة ، والتقدير : أنتم خير أمة . ورد هذا القول بأن كان لا تتراد في أول الكلام . والظاهر أن الراى الأول الذى يقول إن { كُنْتُمْ } هنا من كان التامة هو أقرب الأقوال إلى الصواب " ويليه الراى الثانى الذى يرى أصحابه أن " كنتم " هنا من " كان " الناقصة إلا أنها هنا تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق .

والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - { كُنْتُمْ } للمؤمنين الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ولمن أتى بعلمهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .

ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة . كل قرن بحسبه ، وخير قروهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، كما قال - سبحانه - في الآية الأخرى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } وقد وردت أحاديث متعددة في فضل هذه الأمة الإسلامية ، منها : ما جاء في مسند الإمام أحمد وفي سنن الترمذى وابن ماجه من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله - تعالى - " .

والمعنى : وجدتم يا معشر المسلمين العالمين بتعاليم الإسلام وآدابه وسنته وشريعته خير أمة أخرجت وأظهرت للناس ، من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل ، ونشر الإصلاح والنفع فى الأرض . وقوله { خَيْرَ أُمَّةٍ } خبر كنتم على أنها من كان الناقصة .

وجملة { أُخْرِجَتْ } صفة لأمة ، وقوله { لِلنَّاسِ } متعلق بأخرجت ، وحذف الفاعل من { أُخْرِجَتْ } للعلم به أى : خرجها الله - تعالى - لنفع الناس وهدأهم إلى الصراط المستقيم .

فالجملة الكريمة تنوه بشأن الأمة الإسلامية وتعالى من قدرها ، فهل تعى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك لإعلاء من قدرها فتقوم بلورها الذى اختاره الله لها ، وهو نشر كلمة التوحيد فى الأرض واحقاق الحق وإبطال الباطل شكراً لله - تعالى - على جعله إياها خير أمة أخرجت للناس؟؟

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان ، والفسوق والعصيان يلمى قلوب المؤمنين الصادقين ، ويحملهم على أن

يلغوا رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه حتى تكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .
ثم بين - سبحانه - الأسباب التي جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال : { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } .

والمعروف : هو كل قول أو عمل حسنه الشرع ، وأيدته العقول السليمة ، والمنكر بعكسه .
والمعنى : وجدت خير أمة أخرجت للناس ، لانكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن في الشرائع والعقول . { وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم ، والعقل السليم .

و { وَتُؤْمِنُونَ } بالله أى تصدقون وتدعون بأنه لا معبود بحق سواه ، وتخلصون له العبادة والخضوع ، وتطيعونه في كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .
فأنت ترى أن الخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق اصليين أساسيين :

أولهما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأتباع الدين ، ولا يمكن أن يتحقق ببيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما ، فهما من الأسباب التي استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما ، فقد أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل له ، ثم يلقيه من الغد على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال صلى الله عليه وسلم (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) ثم قال : " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق اطرا - ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم " .

وثانيهما : الإيمان بالله - تعالى - وبجميع ما أمر الله - تعالى - بالإيمان به .
هذان هما الأمران الذان يجب أن يتحققا لتكون هذه الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لأن الأمة التي تهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا تؤمن بالله لا يمكن أن تكون خير أمة بل لا توصف بالخيرية قط ، لأنه لا خير إلا في الفضائل والحق والعدل ، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله وكثرة الدعاة إلى الخير والناهين عن الشر ، ويكون لدعوتهم آثارها القوية التي تحيا معها القاتل وتزول بها الرذائل .

وكانه - سبحانه - قد أخرج " الإيمان بالله " عن " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ليكون كالباعث عليهما لأنه لا يصبر على تكاليفهما ومتابعهما إلا مؤمن ينبغي وجه الله ويركن في كفاحه إليه . فهذا الإيمان بالله هو الباعث للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، على أن يلغوا رسالات الله ، دون أن يخشوا أحدا سواه .

وقيل : إنما أخرج الإيمان على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة كما هو الظاهر ، لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهما أظهر في الدلالة على الخيرية للأمة الإسلامية .

وجملة { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } يجوز أن تكون حالية من ضمير الخطاب في { كُنْتُمْ } ويجوز أن تكون مستأنفة للتعليل ، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازي ، فقد قال :

" واعلم أن هذا الكلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس

ويكسوههم ويقم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فههنا حكم الله - بشيوت وصف الخيرية لهذه الأمة . ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبارات .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق بضعة عشر حديثاً في فصل هذه الأمة : فهذه الأحاديث في معنى قوله - تعالى - { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح ، كما قال قتادة ، بلغنا أن عمر بن الخطاب رأى من الناس دعة في حجة حجها فقرأ هذه الآية : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ، ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها " ، رواه ابن جرير ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ } الآية .

وبعد أن مدح - سبحانه - هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنبهم فقال - تعالى - { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ } أي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } أي لكان إيمانهم خيراً لهم في دينهم وآخرتهم ولنالوا الخيرية التي ظفرت بها الأمة الإسلامية ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم لامتناع الإيمان الصحيح منهم ، ولإيثارهم الضلالة على الهداية فهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } ومرتبطة بها .

ولم يذكر متعلق { آمَنَ } هنا لأن المراد لو اتصفوا بالإيمان الذي هو لقب وشعار للإيمان بدين الإسلام الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي منه أطلقت صفة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعالم بالعلبة . وقال - سبحانه - { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } أي : لو آمنوا لكان إيمانهم خيراً لهم بدون تفصيل لهذه الخيرية لتذهب نفوسهم كل منهم في الرجاء والإشفاق .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قلة من أهل الكتاب اختاروا الإيمان على الكفر فقال - تعالى - { مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } .

أي : من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقته رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم واتبعت ما جاء به من الحق وأكثرهم معرضون عن الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وخارجون عن الطريق المستقيم الذي أمرت باتباعه الشرائع والعقول السليمة .

فالجملة الكريمة إنصاف للقلة المؤمنة التي آمنت من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ممن دخل في الإسلام . واذم لأكثر أهل الكتاب الذين جحدوا الحق . وخرجوا عن الطريق القويم .

وقوله { مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ، فهي جواب للجملة الشرطية التي قبلها . فكأنه قيل : هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر؟ فكان الجواب : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . وعبر عن كفرهم بالفسق ، للإشعار بأنهم قد فسقوا في دينهم أيضاً فهم ليسوا عدولاً فيه ، وبذلك يكونون قد خرجوا عن الإسلام وعمّا أوجبه عليهم كتبهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٦٩٩)

(١١٠) سورة آل عمران، وَقَالَ تَعَالَى : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (١)

(١) - " ثم " في قوله - تعالى - : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتابَ الذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } للتراخي الرتبي . و { أَوْرَثْنَا } أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة . وهو المفعول الثانى لأورثنا ، وقد على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .

و { اصْطَفَيْنَا } بمعنى اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلو من الكدر والشوائب .

والمراد بقوله : { مِنْ عِبَادِنَا } الأمة الإسلامية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى اوحيناه إليك الرسول الكريم - ميراثاً منك لأمتك ، التى اصْطَفَيْنَاهَا على سائر الأمم ، وجعلناها أمة وسطا . وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بمداياته . وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه .

قال الآلوسى : قوله : { الذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم . .

وفى التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .

ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذْنِ اللَّهُ . . } .

وجهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعد إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية .

وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : { جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . } يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعاً من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير فى قوله : { يَدْخُلُونَهَا } يعود إلى

المقصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - فى سورة الواقعة : { وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً

فَأَصْحَابُ الْمِيْمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيْمَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . . } .

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه : يقول - تعالى - ثم جعلنا القائمين

بالكتاب العظيم . . . وهم هذه الأمة على ثلاث أقسام : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ } وهو المفرط فى بعض الواجبات

المرتكب لبعض المحرمات . { وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } وهو المؤدى للواجبات التارك للمرعات وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات .

{ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذْنِ اللَّهُ } وهو الفاعل للواجبات والمستحبات .

وقال ابن عباس : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ،

ومقتصلهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وفى رواية عنه : السبق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقصد يدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ، والظالم

لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .
 وفي الحديث الشريف : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " .
 وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .
 والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما و ظاهر الآية ، وكما جلت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق يشد بعضها بعضاً .
 ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : " هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة " .
 ومعنى قوله " بمنزلة واحدة " أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله { يَدْخُلُونَهَا } إنما عني به المقتصد والسابق بالخيرات؟
 قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل؟ فإن قلا : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولم لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد .
 قيل : إنه ليس فى الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله - تعالى - أنهم يدخلون جنات عدن :
 وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التى أصابها فى الدنيا . ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خبر الله - تعالى - بقوله : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا } .
 وقال الشوكاني : والظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر . وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وعائشة . وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور . وجه كونه ظالماً لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب عظيماً . .
 قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريعاً ، كما فى قوله - تعالى - { لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . . } ولعل السر فى مجئ هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم الأقسام عدداً ، ويليههم المقتصدون ، ويليههم السابقون بالخيرات ، كما قال - تعالى - { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } وقوله : { يَٰٓأَيُّهَا اللَّهُ } أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .

واسم الإشارة فى قوله : { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء .
 أى : ذلك الذى أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله - تعالى - . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٣٥١٤)

(٣٢) سورة فاطر ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الْمُسْنَدِ : « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » (١) .
 وَأَفْضَلُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَرْنُ الْوَلَوُ (٢) . وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » ، وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ (٣)

(١) - مسند أحمد (٢٠٥٥٠) صحيح

(٢) - وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٣٣ / ص ١٥٣)

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ - رَاوِي الْحَدِيثِ - : فَلَا أَذْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْدُرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ . . . (٢) ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : وَالْمُرَادُ بِقَرْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحَابَةُ (٣) .

قَالَ النَّوَوِيُّ : إِنَّ الصَّحِيحَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَرِوَايَةُ خَيْرِ النَّاسِ عَلَى عُمومِهَا وَالْمُرَادُ مِنْهُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ ، وَلَا يَلَزِمُ مِنْهُ تَقْصِيلُ الصَّحَابِيِّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْرَادُ النِّسَاءِ عَلَى مَرِيَمَ وَآسِيَةَ وَغَيْرِهِمَا ، بَلِ الْمُرَادُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ قَرْنٍ بِجُمْلَتِهِ .

قَالَ الْقَاضِي : وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْقَرْنِ هُنَا فَقَالَ الْمُغِيرَةُ : قَرْنُهُ أَصْحَابُهُ ، وَالَّذِينَ يُلُونَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ ، وَالثَّلَاثُ أَبْنَاءُ أَبْنَائِهِمْ ، وَقَالَ شَهْرٌ : قَرْنُهُ مَا بَقِيَتْ عَيْنُ رَأْيِهِ ، وَالثَّانِي مَا بَقِيَتْ عَيْنُ رَأْيِهِ مِنْ رَأْيِهِ ثُمَّ كَذَلِكَ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْقَرْنُ كُلُّ أَهْلِ طَبَقَةٍ مُقْتَرِنِينَ فِي وَقْتٍ ، وَقِيلَ : هُوَ لِأَهْلِ مَدَّةٍ بُعِثَ فِيهَا نَبِيٌّ طَالَتْ مَدَّتُهُ أَمْ قَصُرَتْ . وَذَكَرَ الْحَرْبِيُّ الْخِلَافَ فِي قَدْرِهِ بِالسِّنِينَ إِلَى مِائَةِ وَعِشْرِينَ ، ثُمَّ قَالَ : وَلَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاضِحٌ ، وَرَأَى أَنَّ الْقَرْنَ كُلُّ أُمَّةٍ هَلَكَتْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَحَدٌ .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ : الْقَرْنُ عَشْرُ سِنِينَ ، وَقَتَادَةُ : سَبْعُونَ ، وَالنَّحَعِيُّ : أَرْبَعُونَ ، وَزُرَّارَةُ بْنُ أَبِي أَوْفَى : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ : مِائَةٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : هُوَ الْوَقْتُ .

قَالَ النَّوَوِيُّ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّحَابَةُ ، وَالثَّانِي التَّابِعُونَ ، وَالثَّلَاثُ تَابِعُوهُمْ (٤) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٣١٨ نشر دار القلم .

(٢) حديث : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم . . . " أخرجه البخاري (فتح الباري ٧ / ٣) ومسلم (٤ /

١٩٦٤) من حديث عمران بن حصين واللفظ للبخاري ، والرواية الأخرى أخرجه البخاري (فتح الباري ٧ /

٣) ومسلم (٤ / ١٩٦٣) من حديث ابن مسعود .

(٣) فتح الباري ٧ / ٥ - ٦ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٣١٨ - ٣١٩ نشر دار القلم .

(٣) - قلت : هذا تخرجه بشكل مختصر

عن عمران بن حصين - رضى الله عنهما - قال قال النبي - صلى الله عليه وسلم - « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . صحيح البخاري (٢٦٥١)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسِيقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ » . صحيح البخاري (٢٦٥٢)
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ » . وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذْكَرَ الثَّلَاثِ أَمْ لَا قَالَ « ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَلُوا » . صحيح

مسلم (٦٦٣٦)

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ « الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ

الثالث». صحيح مسلم (٦٦٤١)

وَعَنْ جَعْدَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الْآخِرُ أَرْدَى مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ (٣٢٤٠٢)

وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ. نفسه (٣٢٤٠٧)
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْلَةَ ، قَالَ : كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ أَبِي بُرْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَتْ فِيهِمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَكُونُ فِيهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ. نفسه (٣٢٤٠٨)

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شَرْحِيلٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ يُعْطُونَ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلُوها. نفسه (٣٢٤١٠)

وَعَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَرَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى صَاحِبِي ، وَاللَّهُ لَا تَرَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى صَاحِبِي وَصَاحِبَ مَنْ صَاحِبِي " نفسه (٣٢٤١١)
وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَتْ مِنْهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ " المعجم الصغير للطبراني (٩٦)

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَيْرُ قَرْنِ الْقَرْنِ الَّذِي أَنَا فِيهِ ، ثُمَّ الثَّانِي ، ثُمَّ الثَّالِثُ ، ثُمَّ الرَّابِعُ ، لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا " المعجم الصغير للطبراني (٣٥٢)
وَعَنْ أَبِي بُرْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ. مسند البزار (٣٨٥٦)

وَعَنْ أَنَسٍ ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ. مسند البزار (٧٢٧٩) وغيرهم

وفي نظم المتناثر - (ج ١ / ص ١٩٩)

٢٤٠ (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم).

أورده في الأزهار من حديث (١) ابن مسعود (٢) وعمران بن حصين (٣) وأبي هريرة (٤) وعائشة (٥) وبريدة (٦) والنعمان بن بشير (٧) وعمر (٨) وسعد بن تميم (٩) وجعدة بن هبيرة (١٠) وسمرة (١١) وأبي بركة (١٢) وحيلة بنت أبي هب (١٣) وعمر بن شرحيل مرسلا ثلاثة عشر نفسا.

(قلت) في فيض القدير قال المؤلف يعني السيوطي يشبه أن الحديث متواتر اهـ.

وفي أول الإصابة للحافظ ابن حجر ما نصه : وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم قوله خير الناس قرني ثم الذين يلونهم اهـ

وفي رسالة الفرقان لابن تيمية ما نصه وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم اهـ.

وفي الصَّحِيحَيْنِ أَيضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَّفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » (١)

(١) - صحيح البخارى (٣٦٧٣) و صحيح مسلم (٦٦٥١) - التّصنيف : النصف

إن تعديل الصحابة رضي الله عنهم وتنزيههم عن الكذب والوضع، هو مما اتفق عليه أئمة الإسلام ونقاد الحديث من أهل السنة والجماعة، ولا يعرف من طعن فيهم وشكك في عدالتهم إلا الشذاذ من أصحاب الأهواء والفرق الضالة المنحرفة ممن لا يلتفت إلى أقوالهم، ولا يعتد بها في خلاف ولا وفاق.

كيف لا وقد عدلهم الله في كتابه، وأثنى عليهم ومدحهم في غير ما آية فقال جل وعلا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ... [الفتح: ٢٩]، وقال: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ فِيهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لِي فِتْنَةٌ سَوَاءً مَنِ امْتَدَّ حَتَّى شَاءَ اللَّهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [التوبة: ١٠٠]، وقال: لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِلُوا بِأُمُورِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [التوبة: ٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تركيهم، وتشيد بفضلهم ومآثرهم، وصدق إيمانهم وإخلاصهم، وأي تركية بعد تركية الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟!!

كما عدلهم رسوله صلى الله عليه وسلم وبين منزلتهم، ودعا إلى حفظ حقهم وإكرامهم، وعدم إيذائهم بقول أو فعل، فقال صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . وقال: لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مدَّ أحدكم ولا نصفيه . أخرجه في الصحيحين.

وقال أيضاً: الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه . رواه الترمذي . وأجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة على عدالتهم وفضلهم وشرفهم، وإليك طرفاً من أقوال أئمة الإسلام وجهابذة النقاد فيهم. قال ابن عبد البر رحمه الله -كما في الاستيعاب-: قد كفيينا البحث عن أحوالهم لإجماع أهل الحق من المسلمين وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول .

وقال ابن الصلاح في مقدمته: ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتنة منهم فكذلك، بإجماع العلماء الذين يعدد بهم في الإجماع، إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة. انتهى.

وقال الإمام الذهبي : فأما الصحابة رضي الله عنهم فبساطهم مطوي، وإن جرى ما جرى...، إذ على عدالتهم وقبول ما نقلوه العمل، وبه ندين الله تعالى .

وقال ابن كثير : والصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة . ثم قال: وقول المعتزلة: الصحابة كلهم عدول إلا من قاتل علياً قول باطل مردود . ثم قال: وأما طوائف الروافض وجهلهم وقلة عقلهم، ودعاويهم أن الصحابة كفروا إلا سبعة عشر صحابياً - وسموهم - فهذا من الهذيان بلا دليل .

على أنه -كما قال الخطيب في الكفاية- لو لم يرد الله ورسوله فيهم شيئا مما ذكر لأوجب الحال التي كانوا عليها - من الهجرة، وترك الأهل والمال والولد، والجهاد ونصرة الإسلام، وبذل المهج وقتل الآباء والأبناء في سبيل الله - القطع بتعديلهم واعتقاد نزاهتهم وأمانتهم، وأنهم كانوا أفضل من كل من جاء بعدهم.

والطعن في الصحابة رضي الله عنهم طعن في مقام النبوة والرسالة، فإن كل مسلم يجب أن يعتقد بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وقام بما أمره الله به، ومن ذلك أنه بلغ أصحابه العلم وزكاهم ورباهم

على عينه. قال عز وجل: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَقي ضَالِّينَ مُبِينٍ [الجمعة: ٢]، والحكم بعدالتهم من الدين، ومن الشهادة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قام بما أمره الله به، والطعن فيهم يعني الطعن بإمامهم ومرييهم ومعلمهم صلى الله عليه وسلم، كما أن الطعن فيهم مدخل للطعن في القرآن الكريم، فأين التواتر في تبليغه؟ وكيف نقطع بذلك إذا كانت عدالة حملته ونقلته مشكوكاً فيها؟!

ونحن حينما نصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هم له أهل، فإنما نريد صحابته المخلصين الذين أخلصوا دينهم، وثبوا على إيمانهم، ولم يغمطوا بكذب أو نفاق، فالمنافقون الذين كشف الله سترهم، ووقف المسلمون على حقيقة أمرهم، والمتردون الذين ارتدوا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده، ولم يتوبوا أو يرجعوا إلى الإسلام، وماتوا على رذقتهم؛ هؤلاء وأولئك لا يدخلون في هذا الوصف إطلاقاً، ولا تنطبق عليهم هذه الشروط أبداً، وهم معزل عن شرف الصحبة، وبالتالي هم معزل عن أن يكونوا من المرادين بقول العلماء والأئمة: "إنهم علول". وفي تعريف العلماء للصحابي ما يبين ذلك بجلاء، حيث عرفوه بأنه من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على ذلك.

فالخلاصة أن تعديل الصحابة رضي الله عنهم أمر متفق عليه بين المسلمين، ولا يطعن فيهم إلا من غمص في دينه وعقيدته، ورضي بأن يسلم عقله وفكره لأعدائه، معرضاً عن كلام الله وكلام رسوله وإجماع أئمة الإسلام. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٧ / ص ٤١١) رقم الفتوى ٤٧٥٣٣ عدالة الصحابة محل إجماع - تاريخ الفتوى : ٢٩ صفر ١٤٢٥

ماحكم من سب أحد الصحابة عمداً؟

اعلم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هم خير هذه الأمة وأفضلها وأبرها، وقد أثنى الله تعالى عليهم أحسن الثناء، وأثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم، وأجمع من يعدد بإجماعه من هذه الأمة على حبهم وتقديرهم، قال الله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم). [التوبة: ١٠٠]. وقال تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود...). [الفتح: ٢٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". أخرجه البخاري عن أبي سعيد، ومسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. وقال أيضاً: " خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". كما في الصحيحين عن عمران بن حصين. إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة المفسحة بمدحهم والثناء عليهم، وتعداد فضائلهم جملة وتفصيلاً. فمن سب قوماً هذه فضائلهم، وهذا ثناء ربحهم عليهم، وثناء رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم، فلا شك أنه مكذب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فيجب أن يعرف ذلك، وأن تقام عليه الحجة، فإن تاب ورجع إلى الحق، فالله توابٌ رحيم، وإن تمادى في سبهم ولم يتب ولم ينصع للحق، فهو كافر ضال مضل، نقل ذلك غير واحد من أهل العلم، وهذا فيمن سبهم جملة، وكذلك من سب واحداً منهم تواترت النصوص بفضلته، فيطعن فيه بما يقدح في دينه وعدالته، وذلك لما فيه من تكذيب لتلك النصوص المتواترة والإنكار والمخالفة لحكم معلوم من الدين بالضرورة.

ونقل الخلال عن الإمام أحمد أنه سئل عن يشتتم أبا بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم أجمعين فقال: ما أراه على الإسلام .

وأما من سب من تواترت النصوص بفضله بما لا يقدح في دينه وعدالته، كأن يصفه بالخل أو الجبن ، أو سب بعض من لم تتواتر النصوص بفضله ، فلا يكفر بمجرد ذلك السب، لعدم إنكاره ما علم من الدين بالضرورة ، ولكنه يكون قد أتى ما يوجب تأديبه وتعزيره . فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٢ / ص ٨٣٧) رقم الفتوى ٢٤٢٩ حكم من سب الصحابة - تاريخ الفتوى : ١٦ صفر ١٤٢٠

الطعن في الصحابة زندقة والتحلال

إن الواجب علينا أن نحب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لثناء الله عليهم، لإيمانهم به، وتصديقهم لنبيه، ولنصرتهم له، ولما نفعنا الله به من جهادهم في سبيل نصرته دين الإسلام الذي من الله به علينا، وإيصاله إلينا نقياً صافياً. قال الحافظ ابن كثير : والصحابة كلهم علول عند أهل السنة والجماعة لما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وبما نطقت به السنة النبوية في المدح لهم في جميع أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل . اهـ. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه . ولقد عد العلماء قديماً الطعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة على أهل البدع والزندقة الذين يريدون إبطال الشريعة بجرح رواتها. قال أبو زرعة : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة!! . وعن الإمام أحمد أنه قال : إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء — فاقمه على

الإسلام . وقال الإمام البرهاري : واعلم أن من تناول أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه إنما أراد محمداً، وقد آذاه في قبره !! . وانظر الفتوى رقم: ٣٦١٠٦ . وللدرد على أولئك الزنادقة السابين نقول: أولاً: إن سبكم إياهم تكذيب لما ثبت في الكتاب والسنة في مواطن متعددة، من الشاء عليهم. ومن ذلك قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ {آل عمران: ١١٠} . وقوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ {البقرة: ١٤٣} . وأصحاب رسول الله عليه وسلم أول من ووجه بهذا الخطاب فهم معنيون به بالدرجة الأولى. قال الله عز وجل: لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِلُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {التوبة: ٨٨—٨٩} . وقال عز وجل: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَى اللَّهِ الْمُقَرَّبُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {سورة التوبة: ١٠٠} . وقال سبحانه: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمُ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {التوبة: ١٠٠} . وقال سبحانه: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ {التوبة: ١١٧} . وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه معهم قال تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ {الكهف: ٢٨}. وقال سبحانه: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا {الفتح: ١٨-١٩}. وقال عز وجل: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا {الفتح: ٢٩}. وقال عز وجل في آيات الفبيء: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {الحشر: ٨-٩}. وكذلك ثبت في السنة في فضائل الصحابة جملة وتفصيلاً الشيء الكثير، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. وقال أيضاً:

النجوم أمانة للسماء، فإذا

ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون. رواه مسلم. وكذلك ثبت في السنة المطهرة النهي عن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه. رواه البخاري ومسلم. ثانياً: نقول للزنادقة السابين: إن الطعن في عدالة الصحابة قدح في الشرع كله، لأنهم حملته إلى الأمة، ولهذا لا يوجد أحد يطعن في عدالتهم إلا ويضعف إيمانه وتصديقه بالنصوص بقدر ما يطعن في الصحابة، وهذا أمر ظاهر لكل من تأمل حال من ابتلي بالطعن في الصحابة. ولقد فضلت اليهود والنصارى على الزنادقة السابين للصحابة فإذا سئلت اليهود من خير ملتكم، قالوا: أصحاب موسى، وإذا سئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى. وإذا سئلت الزنادقة السابين: من شر أهل ملتكم؟ قالوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم!!! هذا ونوصيك بأمرين: الأول: عدم مخالطة من يقع في صحابة رسول الله وترك مجالستهم مطلقاً، فإن مرضهم، معد، ولقد نهى السلف أشد النهي عن مخالطة أهل البدع. ثانياً: نوصيك بمطالعة كتاب المناقب وكتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري وكتاب فضائل الصحابة من صحيح مسلم. وذلك ليزداد حبك لهم فتحشري معهم. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٨ / ص ٥٥٤٦) = رقم

الفوى ٥٦٦٨٤ الطعن في الصحابة زندقة والحلال تاريخ الفتوى : ٢٦ شوال ١٤٢٥

وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٢٤ / ص ١٤٠)

لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّهُ يَحْرُمُ سَبُّ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ . (١)
فَذَهَبَ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ فَاسِقٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُكْفَرُهُ ، فَإِنْ وَقَعَ السَّبُّ مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَلِلْفُقَهَاءِ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

الأول : وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا ، قَالَ بِهِ الْحَنَفِيُّ ، وَهُوَ قَوْلُ الْمَالِكِيَّةِ إِنَّ شَتْمَهُمْ بِمَا يَشْتُمُ بِهِ النَّاسُ ، وَهُوَ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَابِلَةِ إِنَّ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِلًّا ، قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ سُئِلَ فِيمَنْ شَتَمَ صَحَابِيًّا الْقَتْلَ ؟ فَقَالَ : أَجَبَنَ عَنْهُ ، وَيُضْرَبُ . مَا أَرَاهُ عَلَى الْإِسْلَامِ .

الثاني : وهو قولٌ ضعيفٌ للحنفية ، نقله البرازي عن الخلاصة : إن كان السبُّ للشَّيْخَيْنِ يَكْفُرُ ، قال ابنُ عابدين : إنَّه مُخَالِفٌ لِمَا فِي الْمُتُونِ ، وهو قولُ المالكِيةِ إنَّ قالَ فِيهِمْ : كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ وَكُفْرٍ ، وَقَصَرَ سَحْنُونَ الْكُفْرَ عَلَى مَنْ سَبَّ الْأَرْبَعَةَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ ، وَهُوَ مُقَابِلُ الْمُعْتَمِدِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ ، ضَعَفَهُ الْقَاضِي وَهُوَ قَوْلُ لِلْحَنَابِلَةِ إِنْ كَانَ مُسْتَحِلًّا ، وَقِيلَ : وَإِنْ لَمْ يَسْتَحِل . (٢)

- (١) حديث : " لا تسبوا أصحابي . . . " أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٢١ - ط السلفية) ومسلم (٤ / ١٩٦٨ - ط الحلبي) من حديث أبي سعيد الخدري ، واللفظ للبخاري .
(٢) ابن عابدين ٤ / ٢٣٧ ، تبصرة الحكام لابن فرحون ٢ / ٢٨٦ ، معالم السنين ٤ / ٣٠٨ ، الجمل على المنهج ٥ / ١٢٢ ، القليوبي ٤ / ١٧٥ ، إعانة الطالبين ٤ / ٢٩٢ ، نهاية المحتاج ٧ / ٤١٦ ، الإنصاف ١٠ / ٣٢٤ ، شرح منتهى الإرادات ٣ / ٢٦٠ ، الفتاوى البرازية ٦ / ٣١٩ .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ ، قَالَ تَعَالَى : { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (١) (١٠) سورة الحديد ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (٢) (١٠٠) سورة التوبة ، وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلُوا ، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَإِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ فَتْحٍ مَكَّةَ وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا (٣) } (٣)

(١) - وَمَا لَكُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ أَتَخْشَوْنَ الْفَقْرَ إِنْ أَنْفَقْتُمْ؟ أَنْفَقُوا وَلَا تَخْشَوْا شَيْئًا ، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَدْ تَكْفَلُ بِرِزْقِكُمْ ، وَبِالْإِخْلَافِ عَلَيْكُمْ { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى تَفَاوُتَ دَرَجَاتِ الْمُتَنَفِّقِينَ ، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ آمَنَ ، وَهَاجَرَ ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ (أَوْ قَبْلَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى قَوْلٍ) ، مَعَ مَنْ آمَنَ ، وَأَنْفَقَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، فَأَلَّوْا أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ كَانُوا قَلِيلِي الْعَدَدِ ، وَوُجِبَتْ لَهُمْ كَثِيرَةٌ وَثَقِيلَةٌ ، أَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَقَدْ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ ، وَأَمِنَ النَّاسُ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ .
(وَجَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَوْلُهُ : " لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ جَبَلٍ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ") .
(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) .

(٢) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، (وَهُمْ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ) ، وَمِنَ الْأَنْصَارِ (وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ وَالرَّضْوَانِ) ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ . وَيُخْبِرُ تَعَالَى بِرِضَاهُ عَنْهُمْ بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ عِزٍّ وَنَصْرٍ وَمَعْمٍ وَهُدًى ، وَبِمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، مِنْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ فِي جَوَانِبِهَا ، وَهُمْ مُخْلَدُونَ فِيهَا أَبَدًا . وَالْفَوْزُ الَّذِي فَازَ بِهِ هَؤُلَاءِ

الكرام البررة هو أعظم الفوز .

(٣) - نزلت هذه السورة ورَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم في طريقه من الحُدَيْبِيَّةِ إلى المَدِينَةِ ، بعد أن أبرم مع قُرَيْشٍ وثيقة الصلح المعروف بصلح الحُدَيْبِيَّةِ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : (إِنَّكُمْ تَعُدُّونَ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صَلَاحَ الْحُدَيْبِيَّةِ) .

وفي هذه السورة يقول الله تعالى لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم ، إِنَّهُ فَتَحَ لَهُ فَتْحًا ظَاهِرًا مُبِينًا بِعَقْدِ الصَّلَاحِ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ مَعَ قُرَيْشٍ ، إِذْ آمَنَ النَّاسُ ، وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُ مَعَ الْكَافِرِ ، وَتَسَابَقَ الْعَرَبُ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ عَامَيْنِ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ لِفَتْحِ مَكَّةَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، أَكْثَرُهُمْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ .

لِيُغْفِرَ اللَّهُ لَكَ جَمِيعَ مَا صَدَرَ عَنْكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْهَفَوَاتِ ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ وَبَعْدَهَا ، وَيُتِمَّ رُبُّكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بِإِغْلَاءِ شَأْنِكَ وَشَأْنِ الْإِسْلَامِ ، وَانْتِشَارِهِ فِي الْبُلْدَانِ ، وَرَفَعِ ذِكْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُرْشِدَكَ رَبُّكَ طَرِيقًا مِنَ الدِّينِ لَا اغْوِجَاجَ فِيهِ ، بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ ، وَالدِّينِ الْقَوِيمِ . وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَى مَنْ عَادَاكَ نَصْرًا إِذَا عَزَا .

[الفتح/١-٤] ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْفَتْحَ هُوَ قَالَ : نَعَمْ { (١)

(١) - عن أبي وائِلَ قَالَ : كُنَّا بِصِفَيْنَ فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَلَوْ تَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ فَقَالَ « بَلَى » . فَقَالَ أَلَيْسَ قِتَالًا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ قَالَ « بَلَى » . قَالَ فَعَلَى مَا نُعْطَى الدُّنْيَا فِي دِينِنَا أَرْجِعْ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ « ابْنَ الْخَطَّابِ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا » . فَأَنْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا . فَتَزَلَّتْ سُورَةُ الْفَتْحِ ، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا . فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْفَتْحَ هُوَ قَالَ « نَعَمْ » . صحيح البخارى (٣١٨٢) ومسلم (٤٧٣٣)

شرح ابن بطلال - (ج ٩ / ص ٤٤٦)

قال المهلب: قوله: « اتهموا رأيكم » يعنى: في هذا القتال، يعظ الفريقين؛ لأن كل فريق منهم يقاتل على رأى يراه، واجتهاد يجتهد، فقال لهم سهل: اتهموا رأيكم فإنما تقاتلون في الإسلام إخوانكم براى رأيتموه، فلو كان الرأى يقضى به لقصيت يوم أبى جندل برد أمر النبى يوم الحديبية، حين قاضى أهل مكة أن يرد إليهم من فر إلى النبى من المسلمين، فخرج أبو جندل يستغيب يجر قيوده، وكان قد عذب على الإسلام. فقال سهيل، والد أبى جندل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه. فرد إليه أبى جندل، وهو ينادى: أتردوننى إلى المشركين وأنا مسلم، وترون ما لقيت من العذاب فى الله؟!

وقام سهيل إلى ابنه بحجر فكسر فمه، ففارت نفوس المسلمين حينئذ، وقال عمر: لسنا على الحق؟ ولذلك قال سهل ولو أستطيع أن أرد أمر النبى لرددته.

وقوله: « فما وضعنا سيوفنا » يعنى: ما جردناها فى الله لأمر فظيع علينا عظيم إلا أسهلت بنا سيوفنا، أقضته بنا إلى أسهل من أمرنا، غير هذا الأمر، يعنى: أمر الفتنة التى وقعت بين المسلمين فى صدر الإسلام؛ فإنها [.....] لم تتبين السيوف فيها الحقيقة بل حلت المصيبة بقتل المسلمين، فنزع السيوف أول من سله فى الفتنة.

وغرض البخارى فى هذا الباب: أن يعرفك أن الصبر على المفاتن، والصلة للمقاطع أقطع للفتنة وأحمد عاقبة، فكأنه قال: باب الصبر على أذى المفاتن وعاقبة الصابرين. ألا ترى أن النبى أخذ يوم الحديبية فى قتال المشركين بالصبر لهم، والوقوف تحت الدنية التى ظنها عمر فى الدين؟ وكان ذلك الصبر واللين الذى فهمه رسول الله عن ربه فى برك الناقة عن توجيهها إلى مكة أفضل عاقبة فى الدنيا والآخرة من القتال لهم، وفتح مكة على ذلك الحق الذى قال المسلمين من تحكمهم على النبى، فكان عاقبة صبر النبى ولينه لهم أن أدخلهم الله الإسلام، وأوجب لهم أجرهم فى الآخرة.

ألا ترى قوله: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» فكيف بأهل مكة أجمعين، وهم الذين كانوا أئمة العرب وسادة الناس، وبدخولهم دخلت العرب فى دين الله أفواجاً. وفيه من الفقه: أن صلة المقاطع أنجع فى سياسة النفوس، وأحمد عاقبة، وعلى مثل هذا المعنى دل حديث أسماء فى صلة أمها وهى مشركة.

قال الطبرى: وفى حديث سهل بن حنيف الدلالة البينة أن رسول الله كان يدير كثيراً من حروبه بحسب ما يحضره من الرأى مما الأغلب عنده أنه الصواب، وإن كان الله - تعالى - قد كان عهد إليه فى جواز الصلح فى مثل الحال التى صالحهم عليها عهداً، فمن ذلك الرأى كان، لولا ذلك كان عمر وسهل بن حنيف ومن كان ينكر الصلح ويرى قتال القوم أصلح فى التدبير والرأى لينكروا ذلك، ويؤثروا آراءهم بالقتال على تركه لو كان عندهم آية من أمر الله - تعالى - نبيه، ولكنه كان عندهم أنه رأى من النبى وإبقاء على من معه من الصحابة؛ لقلّة عددهم، وكثرة عدد المشركين، وكان عمر والذين يرون قتال القوم لحسن تصابريهم وجميل نيّاقم فى الإسلام إذ كانوا أهل الحق، والمشركون أهل الباطل يرون أن الحق لن يعلوه باطل، لا سيما عدد: الله وليهم ورسوله، فأيدهم، فعظم بذلك عليهم الانخراط فى الصلح، ورأوه وهنا فى الدين، وكان رسول الله أعلم بما يؤدى إليه عاقبة ذلك الصلح منهم مما هو أجدى على الإسلام وأهله نفعاً، وأن الله أوحى إليه الأمر بترك قتال القوم؛ لأن ذلك أسد فى الرأى. وفيه الدلالة الواضحة على أن لأهل العلم الاجتهاد فى التوازل فى دينهم فيما لا نص فيه من كتاب الله ولا سنة. وذلك أن الذين أنكروا الصلح يوم أبى جدل أنكروه اجتهداً منهم، ورسوله الله بحضرتهم يعلم ذلك من أمرهم، فلم ينههم عن القول بما أدى إليه اجتهدهم، وإن كان قد عرفهم خطأ رأيهم فى ذلك، وصواب رأيهم، ولو كان الاجتهاد خطأ لكان حرياً عليه - - صلى الله عليه وسلم - - أن يتقدم إليهم بالنهى عن القول بما أداهم إليه اجتهدهم أشد النهي.

وفيه أيضاً: أن الاجتهاد عند نفسه مما يدرك بالاستنباط لا تبعة عليه فيما بينه وبين الله خطأ، إن كان منه فى اجتهداه، إذا كان اجتهداه على أصل، وكان من أهله؛ لأن النبى - - صلى الله عليه وسلم - - لم يؤثم عمر ومن أنكروا الصلح، والمعانى التى جرت بينهم فى كتاب الصلح مما كان خلافاً لرأى رسول الله، ولو كانوا فى ذلك مذنبين لأمرهم النبى بالتوبة، ولكنهم كانوا على اجتهدهم مأجورين، وإن كان الصواب فيما رأى رسول الله، وذلك نظير قوله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر» وستأتى زيادة فى هذا المعنى فى كتاب: الاعتصام - إن شاء الله.

وقال أبو الحسن بن القابسى: وقول عمر: أليس قتلاهم فى النار؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ هذه المراجعة هى التى قال فيها عمر فى حديث مالك: نزلت رسول الله كل ذلك لا يجيبك.

وَأَفْضَلُ السَّابِقِينَ الْوَلَيْنَ " الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ " (١) وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنِ الصَّحَابَةِ
وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَثْمَةٍ الْأُئِمَّةِ وَجَمَاهِيرِهَا وَقَدْ ذَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ دَلَالٌ بِسَطْنَاهَا فِي " مِنْهَا جِ أَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي
نَقْضِ كَلَامِ أَهْلِ الشَّيْعَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ " (٢).

(١) - وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٦٨٦٧)

رقم الفتوى ٢٦٦٦٧ الخلفاء الراشدون أفضل الصحابة

تاريخ الفتوى : ١٧ شوال ١٤٢٣

السؤال

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فضيلة الشيخ

ماهي المواقف المشرفة والمنطقية التي جعلت الصحابة الكرام أبا بكر وعمر وعثمان أفضل الصحابة بعد رسول الله
رغم إنه ليس لهم موقف قتالي معروف في معركة معينة ولم يكونوا من حفظة القرآن والدليل أنهم طلبوا من حفظة
القرآن تدوينه .. فما هو الدليل المنطقي على تفضيلهم؟؟ أرجو أن لا تشيروا إلى الروايات التي كانت تقول
بأفضليتهم لأن بعض المسلمين لا يتفقون بهذه الروايات .. أريد كلاماً موضوعياً يدل على أفضليتهم .. والسلام؟
الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فالمقدمتان اللتان بنيت عليهما النتيجة باطلتان فاسدتان، فكانت النتيجة باطلة، فمن الذي قال لك إن أبا بكر وعمر
وعثمان لم يكونوا من حفظة القرآن، يقول ابن حجر: والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ
القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيح أنه بنى مسجداً بفناء داره فكان يقرأ فيه القرآن،
وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك. قال: وهذا مما لا يرتاب فيه مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن
من النبي صلى الله عليه وسلم، وفراغ باله له وهما بمكة، وكثرة ملازمة كل منهما للآخر حتى قالت عائشة إنه
صلى الله عليه وسلم كان يأتيهم بكرة وعشيا، وقد صح حديث: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله... وقد قدمه النبي
صلى الله عليه وسلم إماماً للمهاجرين والأنصار فدل على أنه كان أقرأهم. انتهى
وذكر أبو عبيد في كتاب القراءات، القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعد من المهاجرين الخلفاء
الأربعة، قال السيوطي: وسبقه إلى ذلك ابن كثير.

وأما حديث: خلوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب.

فلا ينفي وجود غيرهم في ذلك الوقت ممن شاركهم في حفظ القرآن، ففي الصحيح أنه قتل في بئر معونة سبعون من
الحفاظ يقال لهم القراء، هذا وليس في أمر أبي بكر لجماعة من حفاظ الصحابة بتدوين القرآن، دليل على أنه لا
يحفظه لما تقدم، ولأنه كان مشغولاً بأمور الخلافة.

أما المقدمة الثانية فهي أفسد من الأولى وأبطل، فإن أهل العلم بالتواريخ والسير، يذكرون أن أبا بكر شهد مع النبي
صلى الله عليه وسلم، بدرًا والمشاهد كلها ولم يغيب عن مشهد، وثبت مع الرسول يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع
إليه النبي رايته العظمى يوم تبوك. "الطبقات الكبرى".

قال ابن كثير: ولم يختلف أهل السير في أن أبا بكر لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشهد من مشاهدته كلها. انتهى "أسد الغابة"

وأما عمر بن الخطاب، فقد ذكر ابن الجوزي في مناقبه، أن العلماء اتفقوا على أنه شهد بدرًا وأحدًا ولمشاهد كلها مع رسول الله ولم يغيب عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا ثبت باليقين فساد المقدمتين الواردتين في السؤال، فإن النتيجة التي بنيت عليها أحق بالإبطال والفساد، وما ذكرته يدل على جهل بمقام أولئك الأعلام وأئمة الهدى وخير الناس بعد الأنبياء، ولساعة من أبي بكر خير من أعمارنا مجتمعة، وكيف لا يكون هؤلاء الأخيار أفضل الأمة، وقد اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وأخبر في كتابه أنه رضي الله عنهم فقال: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح: ١٨].

قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ الْأُولَى الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَفْزَحُونَ فِي الْأَمْرِ وَالْخَيْرِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي الشَّجَرَةِ أَنْتَ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهَا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفُورُ الْعَظِيمُ [التوبة: ١٠٠].

ومن لم يثق في الروايات الصحيحة الثابتة في فضائل هؤلاء العظماء، فما الحيلة معه، وكيف يطلب روايات تدل على بطولهم ثم هو يناقض نفسه، ويعتمد على رواية تقول إنهم أمروا غيرهم بجمع القرآن؟!

ومن لم يثق بهذه الروايات، فكيف يثق بالقرآن العظيم، وما جمع إلا عن طريقهم، وما نقل إلينا إلا بواسطتهم، والأمر كما قال الله: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [النور: ٤٠].

ولمعرفة تراجمهم انظر في كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرهما. والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

(٢) - منهاج السنة النبوية - (ج ٥ / ص ٣) فما بعد

وَبِالْجُمْلَةِ اتَّفَقَتْ طَوَائِفُ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَاحِدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ، وَلَا يَكُونُ مَنْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ أَفْضَلَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعًا لَهُ، كَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ (١)، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مَعْرِفَةٍ بِمَا جَاءَ بِهِ وَعَمَلًا بِهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِذْ كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ.

هل خاتم الأولياء أفضل الأولياء؟ (٢)

(١) - والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، والاعتبار ولهذا لا تجد أحدا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه، وعلى أمثاله، وتجد من ينزاع في ذلك كالمرفضة من أجهل الناس، ولهذا لا يوجد في أئمة الفقه الذين يرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في أئمة الجيوش المؤيدة المنصورة رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهلوا عدوه من هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سيرة محمودة من هو رافضي. مختصر منهاج السنة النبوية - (ج ١ / ص ٤١) ومختصر

منهاج السنة النبوية - (ج ١ / ص ١٠٣)

(٢) - وفي منهاج السنة النبوية - (ج ٥ / ص ٢٣٦)

ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الإستقامة يوصون كثيرا بمتابعة العلم ومتابعة الشرع لأن كثيرا منهم سلكوا في العبادة لله مجرد محبة النفس وإرادتها وهواها من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة فضلوا بسبب ذلك ضلالا يشبه ضلال النصارى ولهذا قال بعض الشيوخ وهو أبو عمرو بن نجيد كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال سهل كل عمل بلا اقتداء فهو عيش النفس وكل عمل باقتداء فهو عذاب على النفس وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول وإن تطيعوه تهتدوا (سورة التور). وقال بعضهم ما ترك أحد شيئا من السنة إلا لكبر في نفسه وهو كما قالوا فإنه إذا لم يكن متبعا للأمر الذي جاء به الرسول كان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعا لهواه بغير هدى من الله وهذا عيش النفس وهو من الكبر فإنه شعبة من قول الذين قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله (سورة الأنعام). وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياضته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقهم وفيهم طوائف يظنون أنهم صاروا أفضل من الأنبياء وأن الولي الذي يظنون هم أنه الولي أفضل من الأنبياء وفيهم من يقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء ويدعي في نفسه أنه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون إن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مبين له لكن هذا يقول هو الله وفرعون أظهر الإنكار بالكلية لكن كان فرعون في الباطن أعرف منهم فإن كان مثبتا للصانع وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق كما يقول ذلك ابن عربي وأمثاله من الإتحادية والمقصود ذكر من عدل عن العبادات التي شرعها الرسول إلى عبادات يارادته وذوقه ووجدته ومحبته وهواه وأنهم صاروا في أنواع من الضلال من جنس ضلال النصارى ففهم من يدعي إسقاط وساطة الأنبياء والوصول إلى الله بغير طريقهم ويدعي ما هو أفضل من النبوة ومنهم من يدعي الإتحاد والحلول الخاص إما لنفسه وإما لشيخه وإما لطائفته الواصلين إلى حقيقة التوحيد بزعمه وهذا قول النصارى والنصارى موصوفون بالغلو وكذلك هؤلاء مبتدعة العباد الغلو فيهم وفي الرافضة ولهذا يوجد في هذين الصنفين كثير ممن يدعي إما لنفسه وإما لشيخه الإلهية كما يدعيه كثير من الإسماعيلية لأنهم بني عبيد وكما يدعيه كثير من الغالية إما للثاني عشر وإما لغيرهم من أهل البيت ومن غير أهل البيت كما تدعيه النصيرية وغيرهم وكذلك في جنس المبتدعة الخارجين عن الكتاب والسنة من أهل التبعيد والتأله والتصوف منهم طوائف من الغلاة يدعون الإلهية ودعوى ما هو فرق النبوة وإن كان متفلسفا يجوز وجود نبي بعد محمد كالسهروردي الملقول في الزندقة وابن سبعين وغيرهما صاروا يطلبون النبوة بخلاف ما أقر بما جاء به الشرع ورأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره فإنه يقول النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم ويدعي من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين وأن الأنبياء يستفيدون منها ومن هؤلاء من يقول بالحلول والإتحاد وهم في الحلول والإتحاد نوعان نوع يقول بالحلول والإتحاد العام المطلق كابن عربي وأمثاله ويقولون في النبوة إن الولاية أعظم منها كما قال ابن عربيمقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي وقال ابن عربي في القصص وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأنبياء وما يراه أحد من الأنبياء إلا من مشكاة خاتم الأنبياء وما يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة خاتم الأولياء حتى أن الرسل إذا رأوه لا يرونه إذا رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء فإن الرسالة والنبوة أعنى رسالة التشريع ونبوته تنقطعان وأما الولاية فلا تنقطع أبدا فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء فكيف بمن دونهم من الأولياء وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح في مقامه ولا

يناقض ما ذهبنا إليه فإنه من وجه يكون أنزل ومن وجه يكون أعلى قال ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم البوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة فكان هو صلى الله عليه وسلم موضع اللبنة وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا فيرى ما مثله النبي صلى الله عليه وسلم ويرى نفسه في الحائط موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين فيكمل الحائط والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أن الحائط لبنة من ذهب لبنة من فضة واللينة الفضة هي ظاهرة وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو آخذ عن الله في السر ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول قال فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع قلت وقد بسطنا الرد على هؤلاء في مواضع وبيننا كشف ما هم عليه من الضلال والخيال والنفاق والزندقة .

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٢ / ص ١٩٣٤)

رقم الفتوى ٤٤٤٥ الفرق بين الولي ومدعي الولاية

تاريخ الفتوى : ٠٣ ربيع الثاني ١٤٢٢

السؤال

كيف نفرق بين الولي والمدعي؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فالمفهوم الشرعي لكلمة (ولي الله) يتجلى واضحاً في قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)* الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس: ٦٢، ٦٣] فكل من كان مؤمناً تقياً فهو من أولياء الله تعالى. وليست الولاية محصورة في أشخاص معينين، ولا يشترط لحصولها وقوع الكرامة. قال القرطبي: قال علماؤنا رحمهم الله: ومن أظهر الله على يديه من ليس بنبي كرامات، وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة، حيث قالوا: إن ذلك يدل على أنه ولي، إذ لو لم يكن ولياً ما أظهر الله على يديه ما أظهر، ودليلنا: أن العلم بأن الواحد منا ولي لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً، وإذا لم نعلم أنه يموت مؤمناً لم يمكننا أن نقطع على أنه ولي لله تعالى.

وروى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه.." الحديث.

فطريق الولاية في الكتاب والسنة هو المحافظة على الفرائض والحرص على النوافل، والتحقق بمقامات الإيمان، والتزین بلباس التقوى.

وبهذا يعلم أن المجانين والفسقة والعصاة لا يدخلون في ذلك، وغاية المجنون أن يرفع عنه القلم، لا أن يكون ولياً، فضلاً عن أن يكشف عنه الحجاب، فإن الحجاب لا يكشف لأحد في الدنيا، والوحي لا يتنزل إلا على الأنبياء، وإذا كان الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء لم يكن هذا دليلاً على ولايته، فإن الخوارق تقع على يد الكافر والملحد والفاقد كما تقع على يد المؤمن. ولهذا قال الجنيد رحمه الله: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ولم يكتب الحديث، فلم يتفقه، فلا يقتدى به.

وقال: "الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقتة،

- لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه، وعلى المقتفين أثره والمتابعين.
- وليس للولي أن يدعي الولاية لنفسه أو يشهد لها بذلك، فإن هذا من التزكية المذمومة.
- كما أن من المفاهيم الباطلة حول الولاية ما يلي:
- ١ - اعتقاد أن الولي يتصرف في الكون، ويجوز دعاؤه والاستغاثة به في الشدائد، واعتقاد هذا خروج عن الإسلام جملة، وقدح في الربوبية والألوهية.
 - ٢ - اعتقاد عصمة الولي وأن الله لا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، كما يقول القشيري عفا الله عنه.
 - ٣ - اعتقاد أن الولي يعلم الغيب، وأنه يغني عن نفسه وعن الخلق.
 - ٤ - أو أن الولي يتطور ويظهر في أشكال مختلفة، فتارة تراه أسداً، وتارة تراه شيخاً، وتارة تراه صيياً. وأنه يوجد في أماكن مختلفة في وقت واحد، على ما هو مدون في كثير من الكتب المعنية بذكر أولياء الصوفية.
 - ٥ - اعتقاد أن الولي يباح له مخالفة الشريعة، وأنه يجب التسليم له وعدم الإنكار عليه ولو ترك الجمع والجماعات، لأنه صاحب حال كما يقول الشعراي وغيره
 - ٦ - اعتقاد أن الولاية تكون بيد الولي الكبير يعطيها لمن يشاء من أتباعه، وهذا ضلال لا يحتاج إلى إقامة الدليل على بطلانه.
 - ٧ - اعتقاد أن للولاية خاتماً كما أن للنبوّة خاتماً، كما قال بذلك الحكيم الترمذي وقد نفي من ترمذ بسبب كتابه: ختم الولاية، وحكم عليه بالكفر بذلك، وقد جاء بعده من ادعى أنه خاتم الأولياء أو ادعى له ذلك كابن عربي وأحمد التجاني وغيرهما.
 - ٨ - اعتقاد أن الولي يمكنه سلب العلم والهداية من مخالفه، وهذا داخل تحت اعتقادهم أنه يتصرف في الكون. فهذه الاعتقادات الباطلة مما يعلم يقيناً أنها مخالفة للكتاب والسنة ولما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأنها سبيل أولياء الشيطان لا أولياء الرحمن، والموفق من وفقه الله تعالى.
- المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةً غَالِطَةً أَنَّ " خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ " أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ قِيَاسًا عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَشَائِخِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فَإِنَّهُ صَنَّفَ مُصَنَّفًا غَلِطَ فِيهِ فِي مَوَاضِعَ (١)

(١) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ٨) فما بعد

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ

فَصَلَّ تَكَلَّمَ طَائِفَةً مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي " خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ " وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ كَالْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ - وَهُوَ مِنْ غَلَطَاتِهِ ؛ فَإِنَّ الْغَالِبَ عَلَى كَلَامِهِ الصَّحَّةُ بِخِلَافِ ابْنِ عَرَبٍ فَإِنَّهُ كَثِيرُ التَّخْلِيلِ لَا سَيِّمًا فِي الْإِتِّحَادِ - وَابْنُ عَرَبٍ وَغَيْرُهُمْ وَادَّعَى جَمَاعَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ هُوَ كَابْنُ عَرَبٍ وَرُبَّمَا قَيَّدَهُ بِأَنَّهُ خَتَمُ الْوَلَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَوْ الْكَامِلَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ؛ لِنَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ لَا يُخْلَقَ بَعْدَهُ لِلَّهِ وَلِيٌّ وَرُبَّمَا غَلَوْا فِيهِ كَمَا فَعَلَ ابْنُ عَرَبٍ فِي فُصُوصِهِ فَجَعَلُوهُ مُمَدِّدًا فِي الْبَاطِنِ لِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا لِعُلُوِّهِمُ الْبَاطِلَ حَيْثُ قَدْ يَجْعَلُونَ الْوَلَايَةَ فَوْقَ النُّوَّةِ مُوَافَقَةً لِعُلَاةِ الْمُتَفَلِّسَةِ الَّذِينَ قَدْ يَجْعَلُونَ الْفَيْلَسُوفَ الْكَامِلَ فَوْقَ النَّبِيِّ . وَكَذَلِكَ جُهَالُ الْقُدْرَةِ وَالْحَمْدِيَّةِ وَالْيُونُسِيَّةِ قَدْ يُفَضِّلُونَ شَيْخَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا ادَّعَوْا فِي شَيْخِهِمْ نَوْعًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ . وَكَذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّعْدِيَّةِ : يُفَضِّلُونَ الْوَلِيَّ عَلَى النَّبِيِّ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ يُقَلِّدُ

الشَّافِعِيُّ وَلَا يُقْلَدُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَكَذَلِكَ غَالِيَةُ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ قَدْ يَجْعَلُونَ الْإِمَامَ كَانَ مُمِدًّا لِلنَّبِيِّ فِي الْبَاطِنِ كَمَا قَدْ يَجْعَلُونَهُ إِيَّاهَا . فَأَمَّا الْغُلُوُّ فِي وَلِيِّ غَيْرِ النَّبِيِّ حَتَّى يُفْضَلَ عَلَى النَّبِيِّ سَوَاءً سُمِّيَ وَلِيًّا أَوْ إِمَامًا أَوْ فَيُلَسَّوْفًا وَانْظَرُوهُمْ لِلْمُنْتَظَرِ الَّذِي هُوَ : مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ . أَوْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ نَظِيرُ ارْتِبَاطِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الْغُوثِ وَعَلَى خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَيُطْلَأُ لَهُ ظَاهِرٌ بِمَا عُلِمَ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا عَلَيْهِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً : النَّبِيَّ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ فَعَايَةُ مَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ صِدِّيقًا كَمَا كَانَ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا صِدِّيقًا ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ غَايَةُ مَرِيَمَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } . وَبِهَذَا اسْتَدْلَّتْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ طَائِفَةٌ : كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَأَبِي الْمَعَالِي وَأَطْنُ الْبِقْلَانِي مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً لِيُقَرَّرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِمَا جَرَى عَلَى يَدَيْهَا فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ زَعَمَ أَنَّهَا كَانَتْ نَبِيَّةً فَاسْتَدْلَّتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَفَرَحَ مُحَاطِبِي بِهِذِهِ الْحُجَّةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي بَيَانِ غَايَةِ فَضْلِهَا " دَفْعًا لَغُلُوِّ النَّصَارَى فِيهَا ؛ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ ادَّعَى فِي رَجُلٍ أَنَّهُ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ أَوْ غَنِيٌّ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُقَالُ : مَا هُوَ إِلَّا رَئِيسُ قَرْيَةٍ أَوْ صَاحِبُ بُسْتَانٍ فَيَذْكُرُ غَايَةَ مَا لَهُ مِنَ الرَّئَاسَةِ وَالْمَالِ فَلَوْ كَانَ لِلْمَسِيحِ مَرْتَبَةٌ فَوْقَ الرَّسَالَةِ أَوَّلُهَا مَرْتَبَةٌ فَوْقَ الصَّدِيقَةِ لَذُكِّرَتْ . وَلِهَذَا كَانَ أَصْلُ الْغُلُوِّ فِي النَّصَارَى وَيُسَابَهُهُمْ فِي بَعْضِهِ غَالِيَةُ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالشَّيْعَةِ وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الصَّابِنَةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ فَالَرَّدُ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ . { وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ : هَذَانِ سَيِّدَا كَهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا النَّبِيَّ وَالْمُرْسَلِينَ } فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ لِشَرَحِهَا مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذَا وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ سِوَى الْأَنْبِيَاءِ ذُوْنَهُمْ . وَإِنَّمَا الْكَلَامُ هُنَا فِيَمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَتَقُولُ : هَذِهِ تَسْمِيَةٌ بَاطِلَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا كَلَامٍ مَأْثُورٍ عَنْهُ هُوَ مَقْبُولٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ قَبُولًا عَامًّا ؛ لَكِنْ يُعْلَمُ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ أَنَّ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ آخِرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ . وَتَقُولُ ثَانِيًا : إِنَّ آخِرَ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ خَاتَمَهُمْ سَوَاءً كَانَ الْمُحَقِّقُ أَوْ فَرَضٌ مُقَدَّرٌ . لَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَهُمْ وَإِنَّمَا نَشَأَ هَذَا مِنْ مُجَرَّدِ الْقِيَاسِ عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ . لَمَّا رَأَوْا خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ سَيِّلُهُمْ . تَوَهَّمُوا مِنْ ذَلِكَ قِيَاسًا بِمُجَرَّدِ الْإِشْتِرَاكِ فِي لَفْظِ خَاتَمٍ . فَقَالُوا : خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ . وَهَذَا خَطَأٌ فِي الْإِسْتِدْلَالِ ؛ فَإِنَّ فَضْلَ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ خَاتَمًا . بَلْ لِلدَّلِيلِ أُخْرَى دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَقُولُ : بَلْ أَوَّلُ الْأَوْلِيَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَابِقُهُمْ هُوَ أَفْضَلُهُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ . وَأَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ سَابِقُهُمْ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَلِيَّ مُسْتَفِيدٌ مِنَ النَّبِيِّ وَتَابِعٌ لَهُ . فَكَلِمًا قَرُبَ [مِنَ النَّبِيِّ كَانَ أَفْضَلَ] وَكَلِمًا بَعْدَ عَنْهُ كَانَ بِالْعَكْسِ . بِخِلَافِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ اسْتِفَادَتَهُ إِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ . فَلَيْسَ فِي تَأَخُّرِهِ زَمَانًا مَا يُوجِبُ تَأَخُّرَ مَرْتَبَتِهِ . بَلْ قَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ مَا فَرَّقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ السَّابِقِينَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ هُمْ خَيْرُهُمْ . هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَنُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ وَيَتَّصِلُ بِهِذَا ظَنُّ طَوَائِفَ أَنَّ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنْ قَدْ يَكُونُ أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِ الصَّحَابَةِ وَيُوجَدُ هَذَا فِي الْمُتَسَيِّئِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَإِلَى الْعِبَادَةِ وَإِلَى الْجِهَادِ وَالْإِمَارَةِ . وَالْمُلْكِ . حَتَّى فِي الْمُتَفَقِّهَةِ مَنْ قَالَ : أَبُو حَنِيفَةَ أَفْقَهُ مِنْ عَلِيٍّ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ يُقْلَدُ الشَّافِعِيُّ وَلَا يُقْلَدُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَيَتِمَسَّكُونَ تَارَةً بِشَبِّهِ عَقْلِيَّةٍ أَوْ ذَوْقِيَّةٍ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ مُتَأَخِّرِي كُلِّ فَنٍّ يَحْكُمُونَهُ أَكْثَرُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ . فَإِنَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ عُلُوَّ الْأَوَّلِينَ مَعَ الْعُلُومِ الَّتِي اخْتَصَّوْا بِهَا كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي أَهْلِ الْحِسَابِ وَالطَّبَائِعِينَ وَالْمُنَجِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْ جِهَةِ النَّوَقِ وَهُوَ مَا وَجَدُوهُ لِأَوَاخِرِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْمَشَاهِدَاتِ الْعَرَفَانِيَةِ وَالْكَرَامَاتِ الْخَارِقَةِ مَا لَمْ يُقَلَّ مِثْلُهُ عَنِ السَّلَفِ وَتَارَةً يَسْتَدِلُّونَ بِشَبِّهِ تَقْلِيَّةٍ مِثْلَ قَوْلِهِ : { لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ } وَقَوْلُهُ ؛ { أُمِّي كَالْعَيْثِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ } ؟ وَهَذَا خِلَافُ السُّنَنِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ

وَمِمَّا هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا مِنْ قَوْلِهِ : { خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ } وَقَوْلُهُ : { وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا : مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ } وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ . وَخِلَافُ إِجْمَاعِ السَّلَفِ : كَقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ : " إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ : فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ " وَقَوْلِ حُذَيْفَةَ " يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ اسْتَقِيمُوا . وَخُذُوا سَبِيلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَوَاللَّهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا " وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ : " مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ بَيْنَ قَدِّ مَاتَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أَبْرُهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ قُلُوبًا وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا وَأَقْلَبُهَا تَكْلُفًا قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ فَأَعْرَفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ وَتَمَسَّكُوا بِهِدْيِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ " وَقَوْلِ جُنْدُبٍ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ مَكْتُوبٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بَلْ خِلَافُ نُصُوصِ الْقُرْآنِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } الْآيَةِ . وَقَوْلِهِ : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ } الْآيَةِ . وَقَوْلِهِ : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } الْآيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْغَرَضُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ : الْكَلَامُ عَلَى خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا ظَنُّ طَائِفَةٍ كَانُوا هُودَ وَابْنِ سَبْعِينَ وَالنَّفْرِي وَالتَّلْمَسَانِي : أَنَّ الشَّيْءَ الْمُتَأَخَّرَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِ ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْعَالَمَ مُتَنَقِّلٌ مِنَ الْإِنْدَاءِ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ كَالصَّبِيِّ الَّذِي يَكْبُرُ بَعْدَ صِغَرِهِ وَالنَّبَاتِ الَّذِي يَنْمُو بَعْدَ ضَعْفِهِ وَيَتَوْنُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَسِيحَ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى وَيُعَدُّونَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَاحِدًا مِنَ الْبَشَرِ أَكْمَلَ مِنْهُ كَمَا تَقُولُهُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَالْقَرَامِطَةُ وَالْبَاطِنِيَّةُ فَلَيْسَ عَلَى هَذَا دَلِيلٌ أَصْلًا . أَنَّ كُلَّ مَنْ تَأَخَّرَ زَمَانُهُ مِنْ نَوْعٍ يَكُونُ أَفْضَلَ ذَلِكَ النَّوعِ فَلَا هُوَ مُطَرِّدٌ وَلَا مُنْعَكِسٌ . بَلْ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ قَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنَّهُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } أَيُّ بَعْدَ النَّبِيِّ . وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ : " لَا أَفْضَلَ عَلَى نَبِيِّنَا أَحَدًا وَلَا أَفْضَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ نَبِيِّنَا أَحَدًا وَبَعْدَهُ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لِمِلَّتِهِ مِثْلُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمَا " وَكَذَلِكَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلِّهِمْ بَعْدَ مُوسَى وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْمِلَلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى : عَلَى أَنَّ مُوسَى أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ مِنَ الْمَسِيحِ . وَالْقُرْآنُ قَدْ شَهِدَ فِي آيَتَيْنِ لِلْأُولَى الْعَزْمَ فَقَالَ فِي قَوْلِهِ : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } وَقَالَ : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } فَهَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ أُولُوا الْعَزْمِ وَهُمْ الَّذِينَ قَدْ ثَبَتَ فِي أَحَادِيثِ الشَّعَاةِ الصَّحَاحِ : أَنَّهُمْ يَتَرَادُّونَ الشَّفَاعَةَ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ بَعْدَ آدَمَ فَيَجِبُ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى بَنِيهِمْ وَفِيهِ تَفْضِيلٌ لِمُتَقَدِّمٍ عَلَى مُتَأَخَّرٍ وَلِمُتَأَخَّرٍ عَلَى مُتَقَدِّمٍ . وَأَصْلُ الْغَلَطِ فِي هَذَا الْبَابِ : أَنَّ تَفْضِيلَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْأُمَرَاءِ بِالْمُتَقَدِّمِ فِي الزَّمَانِ أَوْ التَّأَخَّرِ أَصْلٌ بَاطِلٌ فَتَارَةً يَكُونُ الْفَضْلُ فِي مُتَقَدِّمِ النَّوعِ وَتَارَةً فِي مُتَأَخَّرِ النَّوعِ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي أَهْلِ النَّحْوِ وَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ مَا يُفْضَلُ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُ كَبَطْلِيمُوسَ وَسَيَبْيُونَهُ وَبِقِرَاطٍ وَتَارَةً بِالْعَكْسِ . وَأَمَّا تَوْهْمُهُمْ أَنَّ مُتَأَخَّرِي كُلِّ فَنٍّ أَخَذُوا مِنَ مُتَقَدِّمِيهِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَمَلُوهُ فَهَذَا مُنْتَقَضٌ أَوَّلًا : لِئَسْ بِمُطَرِّدٍ فَإِنَّ كِتَابَ سَيَبْيُونِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يُصَنَّفْ بَعْدَهُ مِثْلُهُ بَلْ وَكَتَابُ بَطْلِيمُوسَ بَلْ نُصُوصُ بَقِرَاطٍ لَمْ يُصَنَّفْ بَعْدَهَا أَكْمَلُ مِنْهَا . ثُمَّ نَقُولُ هَذَا قَدْ يُسَلِّمُ فِي الْفُنُونِ الَّتِي تُنَالُ : بِالْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ . أَمَّا الْفَضَائِلُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِاتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فَكُلُّ مَنْ كَانَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ أَقْرَبَ مَعَ كَمَالِ فِطْرَتِهِ : كَانَ تَلْقِيَهُ عَنْهُمْ أَعْظَمَ وَمَا يَحْسُنُ فِيهِ هُوَ مِنَ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَنْ يَخَالِفُ ذَلِكَ هُوَ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُعْتَقَدِ أَنَّ لَهُ نَصِيبًا مِنَ الْعُلُومِ وَالْأَحْوَالِ خَارِجًا عَنْ طَوْرِ الْأَنْبِيَاءِ فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِالنُّبُوَّةِ وَقَدَرُهَا أَعْظَمَ : كَانَ رُسُوحُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَشَدَّ . وَأَمَّا الْأَذْوَاقُ وَالْكَرَامَاتُ فَمِنْهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ وَالْحَقُّ مِنْهُ كَانَ لِلْسَّلَفِ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ بَلَا شَكٍّ وَخَرَقَ الْعَادَةَ : تَارَةً يَكُونُ لِحَاجَةِ

الْعَبْدُ إِلَى ذَلِكَ وَقَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْهُ لَا تُحْرَقُ لَهُ تِلْكَ الْعَادَةُ فَإِنَّ خَرَقَهَا لَهُ سَبَبٌ وَلَهُ غَايَةٌ فَالْكَامِلُ قَدْ يَرْتَقِي عَنْ ذَلِكَ السَّبَبِ وَقَدْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تِلْكَ الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ بِهَا وَمَعَ هَذَا فَمَا لِلْمُتَأَخِّرِينَ كَرَامَةٌ إِلَّا وَالسَّلَفُ مِنْ نَوْعِهَا مَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهَا . وَأَمَّا قَوْلُهُ : { لَهُمْ أَجْرٌ خَمْسِينَ مِنْكُمْ لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا وَلَا يَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا } فَهَذَا صَحِيحٌ إِذَا عَمِلَ الْوَاحِدُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ عَمَلِ عَمَلِهِ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ خَمْسِينَ ؛ لَكِنْ لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِ بَعْضِ أَكَابِرِ السَّابِقِينَ ؛ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فَإِنَّهُ مَا بَقِيَ يُعْثُ نَبِيٌّ مِثْلُ مُحَمَّدٍ يَعْمَلُ مَعَهُ مِثْلًا عَمِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : { أُمِّي كَالْفَيْثِ لَا يَدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ } مَعَ أَنَّ فِيهِ لِينًا فَمَعْنَاهُ : فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مَنْ يُشَبِّهُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَيُقَارِبُهُمْ حَتَّى يَبْقَى لِقُوَّةِ الشَّابَهَةِ وَالْمُقَارَنَةِ لَا يَدْرِي الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا ؟ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ خَيْرًا . فَهَذَا فِيهِ بُشْرَى لِلْمُتَأَخِّرِينَ بَأَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُقَارِبُ السَّابِقِينَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : { خَيْرٌ أُمِّي أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا . وَبَيْنَ ذَلِكَ ثِيَجٌ أَوْ عَوْجٌ . وَدِدْتُ أَنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانِي قَالُوا : أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ ؟ قَالَ : أَتَشْمُ أَصْحَابِي } هُوَ تَفْصِيلٌ لِلصَّحَابَةِ فَإِنَّ لَهُمْ خُصُوصِيَّةَ الصَّحْبَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مُجَرَّدِ الْإِخْوَةِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { أَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيْمَانًا } إِلَى قَوْلِهِ : { قَوْمٌ يَأْتُونَ بَعْدِي يُؤْمِنُونَ بِالْوَرَقِ الْمَعْلَقِ } هُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِيْمَانَهُمْ عَجَبٌ أَعْجَبُ مِنْ إِيْمَانِ غَيْرِهِمْ وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَفْضَلُ . فَإِنَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْوَرَقِ الْمَعْلَقِ . وَنَظِيرُهُ كَوْنُ الْفُقَرَاءِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ بَعْدَ الدُّخُولِ يَكُونُونَ أَرْفَعَ مَرْتَبَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَغْنِيَاءِ وَإِنَّمَا سَبَقُوا لِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الْحِسَابِ . وَهَذَا بَابُ التَّفْصِيلِ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ فِي الْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالصِّفَاتِ أَوْ بَيْنَ أَشْخَاصِ التَّوَحُّدِ بَابٌ عَظِيمٌ يَغْلُطُ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَاللَّهُ يَهْدِينَا سَوَاءَ الصِّرَاطِ .

فَصَلِّ تَكَلَّمَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التُّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ " خَتَمِ الْوَلَايَةِ " : بِكَلَامٍ مَرْدُودٍ مُخَالَفٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجْتِمَاعِ السَّلَفِ وَالْإِمَامَةِ حَيْثُ غَلَا فِي ذِكْرِ الْوَلَايَةِ وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ وَعِصْمَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُقَدِّمَةٌ لِضَلَالِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذَا الْبَابِ بِالْبَاطِلِ وَالْعُلُوفَانِ مِنْهَا قَوْلُهُ : فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُسْكِينِ : صِفْ لَنَا مَنَازِلَ الْأَوْلِيَاءِ - إِذَا اسْتَفْرَغُوا مَجْهُودَ الصَّدَقِ - كَمْ عَدَدُ مَنَازِلِهِمْ ؟ وَأَيْنَ مَنَازِلُ أَهْلِ الْفَرِيَّةِ ؟ وَأَيْنَ الَّذِينَ جَازَوْا الْعَسَاكِرَ ؟ . بِأَيِّ شَيْءٍ جَازَوْا ؟ وَإِلَى أَيْنَ مُنْتَهَاهُمْ ؟ وَأَيْنَ مَقَامُ أَهْلِ الْمَجَالِسِ وَالْحَدِيثِ ؟ وَكَمْ عَدَدُهُمْ ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ اسْتَوْجِبُوا هَذَا عَلَى رَبِّهِمْ ؟ وَمَا حَدِيثُهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَفْتَحُونَ الْمُنَاجَاةَ ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَخْتِمُونَهَا ؟ وَمَاذَا يَخَافُونَ ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ صِفَةُ سَيْرِهِمْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ خَاتَمَ الْوَلَايَةِ كَمَا اسْتَحَقَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ ؟ وَبِأَيِّ صِفَةٍ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُسْتَحِقُّ لِذَلِكَ ؟ وَمَا سَبَبُ ؟ وَكَمْ مَجَالِسُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى مَالِكِ الْمُلْكِ ؟ إِلَى مَسَائِلَ أُخَرَ كَثِيرَةٍ ذَكَرَهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ . وَمِنْهَا فِيهِ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ مَنْ يُوَازِي أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؟ قَالَ : إِنْ كُنْتُ تَعْنِي فِي الْعَمَلِ فَلَا وَإِنْ كُنْتُ تَعْنِي فِي الدَّرَجَاتِ فَغَيْرُ مَدْفُوعٍ وَذَلِكَ أَنَّ الدَّرَجَاتِ بِوَسَائِلِ الْقُلُوبِ وَتَسْمِيَةِ مَا فِي الدَّرَجَاتِ بِالْأَعْمَالِ فَمَنْ الَّذِي حَوَّلَ رَحْمَةَ اللَّهِ عَنْ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِمْ سَابِقٌ وَلَا مُقَرَّبٌ وَلَا مُجْتَبَى وَلَا مُصْطَفَى . أَوَلَيْسَ الْمُهْدِيُّ كَاتِنًا فِي آخِرِ الزَّمَانِ ؟ فَهُوَ فِي الْفِتْنَةِ يَقُومُ بِالْعَدْلِ ؛ فَلَا يَعْجِزُ عَنْهَا . أَوَلَيْسَ كَاتِنًا فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَنْ لَهُ خَتَمُ الْوَلَايَةِ ؟ وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ يَوْمَ الْمَوْقِفِ ؟ فَكَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْطِيَ خَتَمَ النُّبُوَّةِ وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ . فَكَذَلِكَ هَذَا الْوَلِيُّ آخِرُ الْأَوْلِيَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ . قَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَأَيْنَ حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { خَرَجْتَ مِنْ بَابِ الْجَنَّةِ فَأَتَيْتَ بِالْمِيزَانِ فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَأُمِّي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَتْ بِالْأَمَةِ . ثُمَّ وَضِعَ أَبُو بَكْرٍ مَكَانِي فَرَجَحَ بِالْأَمَةِ . ثُمَّ وَضِعَ عُمَرُ مَكَانَ أَبِي بَكْرٍ

فَرَجَحَ بِالْأَلَمَةِ { فَقَالَ هَذَا وَزَنُ الْأَعْمَالِ ؛ لَا وَزَنُ مَا فِي الْقُلُوبِ أَيْنَ يَذْهَبُ بِكُمْ يَا عَجَمُ ؟ مَا هَذَا إِلَّا مِنْ عِبَادَةٍ أَفْهَامِكُمْ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَقُولُ : خَرَجْتُ مِنْ بَابِ الْجَنَّةِ وَالْجَنَّةُ لِلْأَعْمَالِ ؛ وَالْوَزَنُ لِلْقُلُوبِ ؛ وَالْوَزَنُ لِلْأَعْمَالِ ؛ لَا لِمَا فِي الْقُلُوبِ ؛ إِنَّ الْمِيزَانَ لَا يَتَسَعُ لِمَا فِي الْقُلُوبِ . وَقَالَ فِيهِ : " ثُمَّ لَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَبَّرَ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ صَدِيقًا ؛ بِهِمْ تَقُومُ الْأَرْضُ فَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَهُمْ آلُهُ ؛ فَكَلَّمَا مَاتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ خَلَفَهُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ . حَتَّى إِذَا انْقَرَضَ عَدَدُهُمْ وَآتَى وَقْتُ زَوَالِ الدُّنْيَا ؛ بَعَثَ اللَّهُ وَلِيًّا اصْطَفَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ وَأَعْطَاهُ مَا أَعْطَى الْأَوْلِيَاءَ وَخَصَّهُ بِخَاتَمِ الْوَلَايَةِ فَيَكُونُ حُجَّةَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى سَائِرِ الْأَوْلِيَاءِ . فَيُوجَدُ عِنْدَهُ ذَلِكَ الْخَتَمُ صِدْقُ الْوَلَايَةِ عَلَى سَبِيلِ مَا وَجَدَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدْقُ النُّبُوَّةِ ؛ لَمْ يَنْلَهُ الْقَدَرُ وَلَا وَجَدَتْ النَّفْسُ سَبِيلًا إِلَى الْإِخْدِ بِحُظَّهَا مِنَ الْوَلَايَةِ فَإِذَا بَرَزَ الْأَوْلِيَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْبَضُوا صِدْقَ الْوَلَايَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ ؛ وَجَدَ أُلُوفًا عِنْدَ هَذَا الَّذِي خَتَمَ الْوَلَايَةَ تَمَامًا ؛ فَكَانَ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَكَانَ شَفِيعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَهُوَ سَيِّلُهُمْ . سَادَ الْأَوْلِيَاءَ كَمَا سَادَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ فَيَنْصَبُ لَهُ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ وَيُنْشِئُ عَلَى اللَّهِ نَسَبًا وَيَحْمَدُهُ بِمَحَامِدِهِ يَقْرَأُ الْأَوْلِيَاءُ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ فَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْوَلِيُّ مَذْكُورًا أَوَّلًا فِي الْبَدءِ أَوَّلًا فِي الذِّكْرِ وَأَوَّلًا فِي الْعِلْمِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْمَسْأَلَةِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْمُوَارَاةِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْمِيثَاقِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْحَسْرِ ؛ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْخُطَابِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْوَفَادَةِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الشَّفَاعَةِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الْجَوَازِ وَفِي دُخُولِ الدَّارِ ثُمَّ الْأَوَّلُ فِي الزِّيَارَةِ فَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَوَّلُ الْأَوْلِيَاءِ كَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الْأُذُنِ وَالْأَوْلِيَاءُ عِنْدَ الْقَفَا . فَهَذَا عِنْدَ مَقَامِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي مُلْكِ اللَّهِ وَتَجَوَّاهُ . مِثَالٌ فِي الْمَجْلِسِ الْأَعْظَمِ فَهُوَ فِي مَنْصِبِهِ وَالْأَوْلِيَاءُ مِنْ خَلْفِهِ دَرَجَةً دَرَجَةً وَمَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ مِثَالٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَهُوَ لَاءِ الْارْبَعُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ . وَلَكِنَّتُ أَغْنِي مِنَ النَّسَبِ إِنَّمَا أَهْلُ بَيْتِ الذِّكْرِ .

فَصَلُّ قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي غُيُونِ الْمَسَائِلِ : [مَسْأَلَةٌ] وَمُشْتَبِهَاتِ النُّبُوتِ حَصَلَ لَهُمْ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى بِثُبُوتِ النُّبُوَّةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ فِي دَلَائِلِ الْعُقُولِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ : لَا تَحْصُلُ حَتَّى تَنْظُرَ وَتَسْتَدِلَّ بِدَلَائِلِ الْعُقُولِ . وَقَالَ : نَحْنُ لَا نَمْنَعُ صِحَّةَ النَّظَرِ وَلَا نَمْنَعُ حُصُولَ الْمَعْرِفَةِ بِهِ وَإِنَّمَا خِلَافُنَا هَلْ تَحْصُلُ بغيرِهِ ؛ وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ النُّبُوَّةَ إِذَا ثَبَتَتْ بِقِيَامِ الْمُعْجَزَةِ عَلِمْنَا أَنَّ هُنَاكَ مُرْسَلًا أَرْسَلَهُ ؛ إِذْ لَا يَكُونُ هُنَاكَ نَبِيٌّ إِلَّا وَهَنَاكَ مُرْسَلٌ وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هُنَاكَ مُرْسَلٌ أَغْنَى ذَلِكَ عَنِ النَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ فِي دَلَائِلِ الْعُقُولِ عَلَى اثْبَاتِهِ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْإِعْقَادِ مَا ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا فِي " الْغَنِيَّةِ عَنِ الْكَلَامِ وَأَهْلِهِ وَقَدْ سَلَكَ بَعْضُ مَنْ بَحَثَ فِي اثْبَاتِ الصَّانِعِ وَحُدُوثِ الْعَالَمِ طَرِيقَ الْإِسْتِدْلَالِ بِمُقَدِّمَاتِ النُّبُوَّةِ وَمُعْجَزَاتِ الرِّسَالَةِ ؛ لِأَنَّ دَلَالَتَهَا مَاخُودَةٌ مِنْ طَرِيقِ الْحِسِّ لِمَنْ شَهِدَهَا . وَمِنْ طَرِيقِ اسْتِفَاضَةِ الْخَبَرِ لِمَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ فَلَمَّا ثَبَتَتْ النُّبُوَّةُ صَارَتْ أَصْلًا فِي وَجُوبِ قَبُولِ مَا دَعَا إِلَيْهِ النَّبِيُّ ؛ وَعَلَى هَذَا الْوُجْهِ كَانَ إِيمَانُ أَكْثَرِ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلرُّسُولِ ؛ وَذَكَرَ : قِصَّةَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ مَعَ النَّجَاشِيِّ وَقِصَّةَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ يَقُولُونَ : لَا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَ الْمَعْرِفَةُ أَوَّلًا بِثُبُوتِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ هُوَ وَيُظْهِرُ الْمُعْجَزَةَ وَإِلَّا تَعَدَّى الْإِسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى صِدْقِ الرُّسُولِ فَضْلًا عَنْ وَجُودِ الرَّبِّ . وَأَمَّا الطَّرِيقَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُتَقَدِّمُونَ فَصَحِيحَةٌ إِذَا حُرِّتْ وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِهَا فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْكَرًا لِلرَّبِّ . قَالَ تَعَالَى : { فَاتَّبِعْنَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } { قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا } - إِلَى قَوْلِهِ - { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ } { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ } { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } { قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْقِلُونَ } { قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي

لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ { } { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ { } قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ { } فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ { } وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ { } . فَهَئَا : قَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ مُوسَى الْحُجَّةَ الْبَيِّنَةَ الَّتِي جَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ فِي كَوْنِهِ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَفِي أَنَّ لَهُ إِلَهًا غَيْرَ فِرْعَوْنَ يَتَّخِذُهُ . وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ { } فَبَيَّنَ أَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَدُلُّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ - الَّتِي هِيَ فِعْلٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ - تَدُلُّ بِنَفْسِهَا عَلَى ثُبُوتِ الصَّانِعِ كَسَائِرِ الْحَوَادِثِ بَلْ هِيَ أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْحَوَادِثَ الْمُعْتَادَةَ لَيْسَتْ فِي الدَّلَالَةِ كَالْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ؛ وَلِهَذَا يُسَبِّحُ الرَّبُّ عِنْدَهَا وَيُجَدِّدُ وَيُعْظِمُ مَا لَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُعْتَادِ وَيَحْصُلُ فِي النَّفْسِ ذِلَّةٌ [مِنْ ذِكْرِ] عَظَمَتِهِ مَا لَا يَحْصُلُ لِلْمُعْتَادِ إِذْ هِيَ آيَاتٌ جَدِيدَةٌ فَتُعْطَى حَقُّهَا وَتَدُلُّ بِظُهُورِهَا عَلَى الرَّسُولِ وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْإِفْرَارِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ . فَتَقَرَّرُ بِهَا الرُّبُوبِيَّةُ وَالرَّسَالَةُ لَا سِيَّمَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ دَلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ضَرُورِيَّةً كَمَا هُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ مُتَكَلِّمِي الْمُعْزَلَةِ : كَالْجَاحِظِ وَطَوَائِفَ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : يَحْصُلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسَّخَرِ وَالْكَرَامَةِ بِالضَّرُورَةِ . وَمَنْ يَقُولُ : إِنَّ شَهَادَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ وَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقُولُ : لِأَنَّ عَدَمَ دَلَالَتِهَا عَلَى الصِّدْقِ مُسْتَلْزِمٌ عَجْزِ الْبَارِي إِذْ لَا طَرِيقَ سِوَاهَا . وَأَمَّا الْمُعْزَلَةُ : فَلِأَنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ قَبِيحٌ لَا يَجُوزُ مِنَ الْبَارِي فِعْلُهُ . وَاللَّوْلُونَ يَقُولُونَ : لَيْسَ كَأُمُورٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْعِلْمَ مَوْجُودٌ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورٌ .

، ثُمَّ صَارَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يَزْعُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ (١)

(١) -

المفاضلة بين الأنبياء والأولياء

ولا نفضل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام - ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء . نعم، لا نفضل أحدا من الأولياء على نبي واحد بل نقول: نبي واحد خير من الأولياء. وهذه المسألة تسمى المفاضلة بين الأنبياء والأولياء، الأنبياء أفضل الناس والرسول أفضلهم، فالرسول أفضل الناس، وأفضل الرسل أولوا العزم الخمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأفضلهم أولو العزم الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد عليهما السلام - وأفضل الخليلين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم يليه جده إبراهيم ثم موسى الكليم، ثم بقية أولوا العزم، ثم الرسل، ثم الأنبياء، ثم سائر المؤمنين.. ثم الصديقون ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين. هذا هو الذي تدل عليه النصوص.

وذهب بعض الصوفية إلى تفضيل الأولياء على الأنبياء ويقولون: الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول، هكذا عكسوا الدرجات عندهم أن الولي أفضل ثم النبي ثم الرسول آخر درجة عكسوا، وبعضهم يظن أنه يصل إلى درجة الولاية بترويض نفسه وتجويعه واعتزاله عن الناس وتغييره الطعام والشراب والنوم، وأنه يصل إلى درجة الولاية ويكون أفضل من الأنبياء.

فكثير من الصوفية يظن أنه يصل برياضته واجتهاده في العبادة بتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع

لطرفتهم، ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء؛ لأنه صار وليا ودرجة الولاية فوق درجة النبوة، وهذا مذهب الاتحادية أهل وحدة الوجود، ورئيسهم ابن عربي الطائي يقولون: الأولياء أفضل من الأنبياء. ويقولون: إن الأنبياء يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء فيقول: ابن عربي رئيس وحدة الوجود النبوة ختمت بمحمد لكن الولاية لم تختتم فهو خاتم الأولياء، يقول ابن عربي: إنه خاتم الأولياء ومحمد خاتم الأنبياء، لكن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، يفضل نفسه على الرسول. ابن عربي يقول: النبوة ختمت بمحمد ولكن الولاية لم تختتم فهو خاتم الأولياء ويقول: الأولياء أفضل من الأنبياء؛ لأن الأنبياء يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء يعني هو ابن عربي سمى نفسه خاتم الأولياء، ويقول: الأنبياء يأخذون العلم بالله من مشكاته، مشكاة خاتم الأولياء، فيدعون أنهم يطلعون على اللوح المحفوظ وأنهم يباشرون الأخذ عن الله.

ويكون ذلك العلم الذي يأخذه هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود للشهود واجب بنفسه، هذا العالم واجب بنفسه، ليس له صانع، وليس له خالق، ولكن ابن عربي يقول: هذا الوجود هو الله وفرعون أظهر إنكاره بالكلية تمويهها على الناس لكن فرعون في الباطن أعرف بالله من طائفة وحدة الوجود، وبيان ذلك أن فرعون كان مشبها للصانع في الباطن يعني مشبها لله قال الله تعالى: وَجَحَلُوا بِهَا وَاسْتَيْقَسَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا وأما أهل وحدة الوجود فمذهبهم أن الوجود للمخلوق هو الوجود الحق، وهذا مذهب ابن عربي وأمثاله كابن سبعين والطولوي والتلمساني.

وابن عربي لما رأى أن الشرع الظاهر، وهو ما جاءت به الرسل لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختتم، وادعى لنفسه من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون من الولاية، فالولاية أعلى درجة من النبوة، والنبوة أعلى درجة من الرسالة عند ابن عربي كما قال: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي، إذن الولي أعلى ثم النبي ثم الرسول، عكس مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي.

وابن عربي هذا له مؤلفات وله كتب منها كتاب سماه "فصوص الحكم" ومنها كتاب سماه "الفتوحات الملكية" ومنها كتاب سماه كتاب "الهو الهو الهو" يقول هذا الذكر ما في إلا الهو هو ما في الله.

ولكن الذكر تأخذ الهاء هو هو. هو هو، وهو ذكر الملاحدة الصوفية، وهو كالكلاب يقول: ذكر العامة لا إله إلا الله هذا يسموهم العامة والرسل عامة، ثم الخاصة تأخذ لفظ الجلالة الله الله الله الله خاصة الخاصة لا يحتاج أن تأخذ لفظ الجلالة تأخذ الهاء من لفظ الجلالة هو هو هو هو هو هو هذا ذكر الله، نسأل الله السلام والعافية. ولهذا سمى ابن عربي ألف كتابا سماه كتاب "الهو" ويقول إن عندي دليلا من القرآن وهو قول الله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ قال شيخ الإسلام ابن تيمية قلت: لهم لو كان كما تقولون أيها الملاحدة لكانت الهاء مفصولة عن الآية: وما يعلم تأويله هو، لكن الهاء متصلة في تأويله، وهم لا يؤمنون بالقرآن لكن يريد إثبات قوله.

يقول ابن عربي في كتاب "فصوص الحكم" لما مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو -صلى الله عليه وسلم- تلك اللبنة يعني يشير إلى الحديث الذي سبق مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فأنا اللبنة فكان الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: لولا تلك اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين .

ابن عربي يعارض الحديث يقول: أئيش في كتابه: "ولما مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- النبوة بالحائط من اللبن

فراها قد كملت إلا موضع لبنة فكان -صلى الله عليه وسلم- تلك اللبنة، وأما خاتم الأولياء -يعني نفسه- فلا بد له من هذه الرؤية فيرى ما مثله النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرى الحائط في موضع لبنتين واحدة فضة وواحدة ذهب يعني؛ لأن الحائط مكون من لبنتين: لبنة ذهب ولبنة فضة، فلبنة الذهب هذه تعني خاتم الأولياء، ولبنة الفضة تعني خاتم الأنبياء.

فجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- لبنة فضة؛ لأنه خاتم الأنبياء وجعل نفسه لبنة الذهب؛ لأنه خاتم الأولياء، فيرى ما مثله النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرى الحائط موضع لبنتين واحدة من فضة وواحدة من ذهب، ويرى نفسه تنطبق في موضع اللبنتين فتكمل الحائط.

والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هي ظاهر البيت أو الحائط وما يتبعه ابن عربي فيه من الأحكام فهي تمثل الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي جاء بالأحكام الظاهرة. كما أن ابن عربي أخذ عن الله في السر ما هو في الصورة الظاهرة متبع للرسول يعني يقول: إن ابن عربي يرى أن الحائط مكون من لبنتين لبنة ذهب ولبنة فضة، فلبنة الفضة هذه ظاهر الجدار ولبنة الذهب هذه باطن الجدار، والسبب يقول: لكونه يرى ذلك أن لبنة الفضة هذه تمثل محمدا وما جاء به من الأحكام الظاهرة، ولبنة الذهب تمثل ابن عربي وما جاء به من أحكام الباطنة، فيقول: ابن عربي خاتم الأولياء تابع لخاتم الأنبياء في الظاهر، وخاتم الأنبياء تابع لخاتم الأولياء في الباطن.

هكذا يقول فهي تمثل الرسول الذي جاء بالأحكام الظاهرة، كما أن ابن عربي أخذ عن الله في السر ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه للرسول، ابن عربي أخذ عن الله في السر لكن في الظاهر هو متبع للرسول، وفي السر أخذ عن الله مباشرة، ولا يحتاج إلى أحد؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا، وهو ابن عربي خاتم الأولياء موضع اللبنة الذهبية في الباطن فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به للرسول، فهو لا يحتاج إلى جبريل ولا غيره، فهو يأخذ من اللوح المحفوظ وعن الله مباشرة فلا يحتاج إلى جبريل. أما خاتم الأنبياء هذا يحتاج واسطة، وهو الملك قال في كتابه: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع. مسألة: أصل ابن عربي: هو أن الوجود واحد، وأن الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن، فوجود كل شيء عين وجود الحق عنده، وجود كل شيء من هذه المخلوقات هو وجود الله عنده، أيهما أشد كفرا؟ الاتحادية والحلولية، الحلولية وهم الذين يزعمون أن الله بذاته في كل مكان، وهو قول كثير من الجهمية قولهم أقل كفرا من قول الاتحادية أخف.

وجه ذلك لأن من قال: إن الله يحل في المخلوقات فقد قال: بأن الحل غير الحال، وهذا تنحية عند الاتحادية وإثبات لوجودين: أحدهما وجود الحق الحال، والثاني وجود المخلوق الحل، والاتحادية لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة؛ ولهذا من سماهم حلولية أو قال: هم قائلون بالحلول رآه محجوبا عن معرفة قولهم خارج عن الدخول إلى باطن أمرهم ومن الأقوال المتفرعة عن مذهب ابن عربي هذا الشعر يقول:

الرب عبد والعبد رب... يا ليت شعري من المكلف

إن قت عبد فذاك ميت... أو قلت رب أنى يكلف

وفي بعض الروايات فذاك نفي؛ لأن العبد ليس له عندهم وجود مخلوق وكلاهما باطل، فإن العبد موجود وثابت ليس بمعدوم ومنتف، ولكن الله هو الذي جعله موجودا ثابتا.

ومن كلام ابن عربي يقول: من أسماء الله الحسنى العلي، ثم يُعرّف العلي على ماذا؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما

هو إلا هو، العلي ما في إلا هو، من أسماء الله الحسنى العلي، العلي على من؟ ما في إلا غيره على من؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو

ومن كلماته يقول: رب مالك وعبد هالك وأنتم ذلك، والعبد فقط والكثرة الوهم ويقول سر حيث شئت فإن الله ثم، وقل ما شئت فيه فالواسع الله، هؤلاء الملاحدة الزنادقة يعني يقولون هذا الكلام ومن تلييسهم أنهم يقولون: إنك لا تفهم هذا الكلام حتى تخرق الحجاب أنت بينك وبين فهم هذا الكلام حجاب، ما هو الحجاب؟ اخرق حجاب العقل، حجاب العقل، وحجاب الشرع يعني ألغ الشرع وألغ العقل حتى تكون مجنوناً، ثم تفهم كلامهم يعني حجاب الشرع وحجاب العقل وحجاب الحس أيضاً، كل هذا تلغيه حتى تفهم هذا الكلام، هذا الكلام موجود وله مؤلفات وفيه ناس يدافعون عنه، مؤلفات تطبع بأوراق صقيلة وتحقق وموجودة في كل مكان في مصر، وفي الدول العربية وموجودة في المكتبات توضع عندنا في مكان خاص لأصحاب الرسائل العلمية الذين يريدون الرد أن يرد عليهم موجودة.

وهناك من يدافع ولهم أتباع وأنصار وطوائف، لكل شيخ طريقة في كل بلد مائة طريقة، ولكل طريقة شيخ هذه موجودة مؤلفات ومن يعتنق هذه المذاهب كلها موجودة.

الرد على الاتحادية والصوفية:

أولاً: أن اعتقادهم في الولاية أعظم من النبوة في هذا قلب للشيعة، اعتقادهم في الولاية أنها أعظم من النبوة في هذا قلب للشيعة؛ فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

والنبوة أحص من الولاية عند أهل الحق والرسالة أحص من النبوة، فالرسالة أعلى شيء ثم النبوة ثم الولاية ويرد على الاتحادية أن الله بائن من خلقه مستو على عرشه، وأنه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. ويرد عليهم بادعائهم بأن لهم من الولاية ما هو أفضل من درجة الرسالة بأن هذه الدعوة خرق لما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومن لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر فإنه شبيهه بقول الذين قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ فقال الله رداً على مقاتلتهم وقطعا لأطماعهم في أن ينالوا مثل ما نال الرسل: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ووجه الشبه أن كلا من الطائفتين تعالت على الرسل وادعت أنها أحق منهم.

حكم ابن عربي وشيعته من أهل وحدة الوجود في الدنيا والآخرة ما حكمهم؟ حكم الاتحادية ابن عربي وأمثاله ما حكمهم في الدنيا؟ وما حكمهم في الآخرة؟ حكم ابن عربي كافر، ومن أكثر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب وللرسول المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسول.

وكيف يخفى كفر من هذا كفره كيف يخفى كفر من هذا كلامه، بل إن كفر ابن عربي وأمثاله فرق كفر الذين قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .

ويكفيك معرفة بكفرهم أن من أخف أقواهم أن فرعون الذي ادعى الربوبية يقولون: إن فرعون مات مؤمناً برياً من الذنوب بل يجعلونه من كبار العارفين الخقيين، وأنه كان مصيباً في دعواه الربوبية كما يجعلون عبادة العجل مصيبين في عبادتهم للعجل بل إن السلف والأئمة كفروا الجهمية لما قالوا: إنه في كل مكان.

وكان مما أنكروه عليهم أنه كيف يكون الله تعالى، كيف يكون في البطون والحشوش والأخبية؟ تعالى الله عن ذلك

فكيف بمن يجعله نفس وجود البطون والحشوش والأخبية والنجاسات والأقذار، كما يقول ابن عربي نعوذ بالله. وأين المشبهة والنجسة من هؤلاء فإن هؤلاء غاية كفرهم أن يجعلوه مثل المخلوقات، وهؤلاء يجعلون الوجود خالقا ومخلوقا واحدا، بل كفر كل كافر جزء من كفر الاتحادية؛ ولهذا لما قيل لرئيسهم: أنت نصيري؟ فقال: نصير جزء مني وقد علم المسلمون واليهود والنصارى بالاضطرار من دين المرسلين أن من قال عن أحد من البشر: إنه جزء من الله، فإنه كافر في جميع الملل.

حكم الاتحادية في الدنيا والآخرة ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة والاتحادية في الدرك الأسفل من النار إذا ماتوا على ذلك، ما يفعل بالاتحادية في الدنيا مع الدليل؟ يعامل الاتحادية معاملة المنافقين والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام في الدنيا كما كان يظهر المنافقون الإسلام في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم؛ لأن الاتحادية يخفون كفرهم لهم مؤلفات يظهرهم أنهم قد يصلون مع الناس؛ ولو أظهر أحد منهم ما يبطنه من الكفر لأجرى عليه حكم المرتد، وهو القتل وعدم تغسيله ودفنه مع المسلمين. حكم قبول توبة الاتحادي والزنديق، الاتحادي زنديق فهل تقبل توبته؟ في قبول توبة الزنديق والاتحادي زنديق منافق خلاف، ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أخذ قبل التوبة، إذا أخذ قبض عليه لا بد أن يجري عليه حكم المرتد ولا يقبل منه.

وأما إذا أخذ بعد التوبة ففيها خلاف، بعضهم قال: تقبل توبته وهي رواية المعلى عن أبي حنيفة، وهذا في أعمال الدنيا وحكمه حكم المرتد يقتل كفرا ولا يدفن في مقابر المسلمين.

من العلماء من قال تقبل، ومن العلماء من قال: لا تقبل توبة المنافق وتوبة من سب الله وسب الرسول أو استهزأ بالله أو بالرسول أو بدينه والساحر، كل هؤلاء يقتلون ولا تقبل توبتهم في الدنيا، أما في الآخرة فأمرهم إلى الله من صدق مع الله صدقه الله، وأما في الآخرة فإن كان مخلصا قبلت توبته، وإن لم يعلم منه إخلاصه لم تقبل توبته. أما في الدنيا فإنه يعامل معاملة المرتد إذا أخذ قبل التوبة، أما إذا ادعى التوبة ثم سلم نفسه ففيه الخلاف هذا على حسب اجتهاد الحاكم، إما أن يقبل توبته وإما ألا يقبلها.

مذهب أهل الاستقامة وأدلتهم: أهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع عن طريق الوحي لا الوهم ويعتقدون أن النبوة أخص من الولاية والرسالة أخص من النبوة فكل رسول نبي وكل نبي ولي، ولا عكس فليس كل نبي رسولا وليس كل ولي نبيا، أدلتهم على أن الله أوجب على الخلق متابعة الرسل أولا قول الله -تعالى-: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِلُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

وجه الدلالة: أن الله أوجب طاعة الرسول وأمر بطلب الاستغفار منه وأخبر أن من لم يحكم الرسول في النزاع فليس بمؤمن.

ثانيا: قول الله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وجه الاستدلال أن الله أخبر أن محبة الله لا تحصل إلا بمتابعة الرسول.

قف على كراماتهم وإلى هنا نكفي وفق الله الجميع لطاعته، ورزق الله الجميع العلم النافع والعمل الصالح وتأخذ المهم من الأسئلة، وغدا إن شاء الله يكون الدرس بعد المغرب وبعد العشاء، وإن شاء الله نكمل العقيدة الطحاوية، وفق الله الجميع لطاعته.

س: أحسن الله إليكم هل يوصف الله بالتردد كما في الحديث القدسي وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن... الحديث؟

ج: نعم كما وصفه الرسول -عليه الصلاة والسلام- لكن هذا التردد ليس كتردد المخلوق الذي يدل على الضعف، ولكنه تعارض الإرادتين كما بين في الحديث، فالله تعالى يريد ما يريد عبده المؤمن، والمؤمن يكره الموت، فالله يريد ما يريد عبده المؤمن، ولكن الله قضى وقدر أنه يموت، فهذا تعارض إرادتين إرادة الموت؛ لأن الله قدره، وإرادة ما يريد عبده وهو كراهة الموت ولا ينافي هذا التردد ترجيح إحدى الإرادتين؛ لأن الموت لا بد منه نعم. شرح العقيدة الطحاوية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

،وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَسْتَفِيدُونَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ جِهَتِهِ كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبٍ صَاحِبُ " كِتَابِ الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ " (١)

(١) - وفي سير أعلام النبلاء : (٤٩/٢٣ - ٥٠)

٣٤ - ابْنُ الْعَرَبِيِّ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّائِيُّ الْعَلَّامَةُ، صَاحِبُ التَّوَالِيفِ الْكَثِيرَةِ، مُحِبِّي الدِّينِ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الطَّائِيُّ، الْحَاتِمِيُّ، الْمُرْسِيُّ، ابْنُ الْعَرَبِيِّ، نَزِيلُ دِمَشْقَ. ذَكَرَ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ ابْنِ بَشْكُوَالٍ، وَابْنِ صَافٍ.

وَسَمِعَ بِمَكَّةَ مِنْ: زَاهِرِ ابْنِ رُسْتَمٍ، وَبِدْمَشْقَ مِنْ: ابْنِ الْحَرَسَتَانِيِّ، وَبِعَدَدَادَ. وَسَكَنَ الرُّومَ مُدَّةً، وَكَانَ ذَكِيًّا، كَثِيرَ الْعِلْمِ، كَتَبَ الْإِنْشَاءَ لِبَعْضِ الْأُمَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ، ثُمَّ تَزَهَّدَ وَتَفَرَّدَ، وَتَعَبَّدَ وَتَوَحَّدَ، وَسَافَرَ وَتَجَرَّدَ، وَأَتَمَّهُمْ وَأَنْجَدَ، وَعَمِلَ الْخُلُوتَ، وَعَلَّقَ شَيْئًا كَثِيرًا فِي تَصَوُّفِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ. وَمِنْ أَرْدَا تَوَالِيفِهِ كِتَابُ (الْقُصُوصِ)، فَإِنْ كَانَ لَا كُفْرَ فِيهِ، فَمَا فِي الدُّنْيَا كُفْرٌ، تَسْأَلُ اللَّهُ الْعَفْوَ وَالنَّجَاةَ، فَوَاغَوْنَاهُ بِاللَّهِ!

وَقَدْ عَظَّمَهُ جَمَاعَةٌ، وَتَكَلَّفُوا لِمَا صَدَرَ مِنْهُ بِيَعِيدِ الْاِحْتِمَالَاتِ، وَقَدْ حَكَى الْعَلَّامَةُ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ شَيْخُنَا، أَنَّهُ سَمِعَ الشَّيْخَ عِزَّ الدِّينِ ابْنَ عَبْدِ السَّلَامِ يَقُولُ عَنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ: شَيْخٌ سَوْءٌ، كَذَّابٌ، يَقُولُ بِقَدَمِ الْعَالِمِ، وَلَا يَحْرَمُ فَرْجًا. قُلْتُ: إِنْ كَانَ مُحِبِّي الدِّينِ رَجَعَ عَنْ مَقَالَاتِهِ تِلْكَ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَقَدْ فَازَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ. ثَوْفِي: فِي رَبِيعِ الْآخِرِ، سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ. وَقَدْ أَوْرَدْتُ عَنْهُ فِي (التَّارِيخِ الْكَبِيرِ). وَلَهُ شِعْرٌ رَاقٍ، وَعِلْمٌ وَاسِعٌ، وَذَهْنٌ وَقَادٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ عِبَارَاتِهِ لَهُ تَأْوِيلٌ إِلَّا كِتَابُ (الْقُصُوصِ)! وَقَرَأْتُ بِخَطِّ ابْنِ رَافِعٍ: أَنَّهُ رَأَى بِخَطِّ فَحِ الْيَعْمُرِيِّ: أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ دَقِيقِ الْعِيدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْخَ عِزَّ الدِّينِ، وَجَرَى ذِكْرُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الطَّائِيِّ فَقَالَ: هُوَ شَيْخٌ سَوْءٌ مَقْبُوحٌ كَذَّابٌ.

وفي ميزان الاعتدال - (ج ٣ / ص ٦٥٩)

٧٩٨٤ - محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الاندلسي.

صاحب كتاب فصوص الحكم.

مات سنة ثمان وثلاثين ، ورأيته قد حدث عن أبي الحسن بن هذيل بالاجازة، وفي النفس من ذلك [شئ] .
سمع منه التيسير لابي عمرو الداني شيخنا محمد بن أبي الذكر الصقلي المطرزي بسماعه من أبي بكر بن أبي جهرة،
ويجازته من ابن هذيل.

وروى الحديث عن جماعة.

[ونقل رفيقنا أبو الفتح اليعمرى وكان مشتبها، قال: سمعت الامام تقي الدين ابن دقيق العيد يقول: سمعت شيخنا أبا محمد بن عبد السلام السلمى يقول: وجرى

ذكر أبي عبد الله بن العربي الطائي - فقال: هو شيعي سوء كذاب.

فقلت له: وكذاب أيضا؟ قال: نعم، تذاكرنا بدمشق النزويج بالجن، فقال: هذا محال، لان الانس جسم كثيف والجن روح لطيف، ولن يعلق الجسم الكثيف الروح اللطيف.

ثم بعد قليل رأيته وبه شجة، فقال: تزوجت جنية فرزقت منها ثلاثة أولاد، فاتفق يوماً أن أغضببتها فضربتني بعظم حصلت منه هذه الشجة، وانصرفت، فلم أرها بعد هذا... أو معناه.

قلت: نقله لي بحروفه ابن رافع من خط أبي الفتح، وما عندي أن محيي الدين تعتمد كذبا، لكن أثرت فيه تلك الخلوات والجوع فسادا وخيالا وطرف جنون [وصنف التصانيف في تصوف القلاسقة وأهل الوحدة، فقال أشياء منكرة، عدها طائفة من العلماء مروقا وزندقة، وعدها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين، وعدها طائفة من متشابه القول، وأن ظاهرها كفر وضلال، وباطنها حق وعرفان، وأنه صحيح في نفسه كبير القدر. وآخرون يقولون: قد قال هذا الباطل والضلال، فمن الذي قال إنه مات عليه، فالظاهر عندهم من حاله أنه رجع وأناب إلى الله، فإنه كان عالما بالآثار والسنن، قوى المشاركة في العلوم.

وقولي أنا فيه: إنه يجوز أن يكون من أولياء الله الذين اجتذبهم الحق إلى جنبه عند الموت، وختم له بالحسنى، فأما كلامه فمن فهمه وعرفه على قواعد الاتحادية وعلم محط القوم، وجمع بين أطراف عباراتهم - تبين له الحق في خلاف قولهم.

وكذلك من أمعن النظر في فصوص الحكم، أو أنعم التأمل لاح له العجب، فإن الذكي إذا تأمل من ذلك الأقوال والنظائر والاشباه فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر.

نسأل الله العفو، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فهو الله لأن يعيش المسلم جاهلا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئا سوى سور من القرآن يصلى بها الصلوات ويؤمن بالله وباليوم الآخر - خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة. ونقله الحافظ في لسان الميزان - (ج ٢ / ص ٤٤٩) وقال عقبه:

وأول كلامه لا يتحصل منه شيء تفرد به وينظر في قوله أمعن النظر وأنعم التأمل الفرق بينهما وقد اعتد بالخبي بن عربي أهل عصره فذكره ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد وابن نقطة في تكملة الإكمال وابن العديم في تاريخ حلب والذكي المنذري في الوفيات وما رأيت في كلامهم تعدياً من الطعن كأنهم ما عرفوها أو ما اشتهر كتابه الفصوص نعم قال ابن نقطة: لا يعجبني شعره وأنشد له قصيدة منها:

لقد حار قلبي قابلاً كل صورة... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأصنام وكعبة طائف... وألواح تورا ومصحف قرآن

وهذا على قاعدته في الوحدة وقد كتب بخطه في إجازته للملك المظفر غازي بن العادل أنه قرأ القرآن بالسبع على أبي بكر محمد بن خلف بن حاف اللخمي وأخذ عنه الكتابة حمد بن شريح وحدث به عن شريح بن محمد عن أبيه وقرأ أيضاً على عبد الرحمن بن عال الشراط القرطبي وسمع على أبي عبد الله الهادي قاضي فاس التبصرة في القراءات لمكي وحدثه به عن أبي بحر بن القاضي وسمع التيسير على أبي بكر بن أبي حمزة عن أبيه عن المؤلف وأنه سمع على محمد بن سعيد بن زرقون وعبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي وأنه سمع أيضاً علي بن الخراساني ويونس بن يحيى الهاشمي ومعين بن أبي الفتوح وجمع كثير وأنه أجاز له السلفي وابن عساكر وابن الجوزي وأنه صنف كتباً كثيرة منها ما هو كراسة واحدة ومنها ما هو مائة مجلد وما بينهما. وذكر منها التفصيل في أسرار معاني التنزيل فرغ منه إلى قصة موسى في سورة الكهف أربعة وستون سفراً وسرق منها شيء كثير جداً. وقال ابن الأبار: هو من إشبيلية وأصله من سبتة وأخذ عن مشيخة بلده ومال إلى الأدب وكتب لبعض الولاة ثم ترك ذلك ورحل إلى المشرق حاجاً

ولم يعد وكان يحدث بالإجازة العامة عن السلفي ويقول بها وبرع في علم التصوف. وقال المنذري: ذكر أنه سمع بقرطبة من ابن بشكوال وأنه سمع بمكة وبغداد والموصل وغيرها وسكن الروم وجمع مجاميع. وقال ابن النجار: كانت رحلته إلى المشرق وألف في التصوف وفي التفسير وغير ذلك تأليف لا يأخذها الحصر وله سعة وتصرف في القنون من العلم وتقدم في الكلام والتصوف. وقال ابن المديني: قدم بغداد سنة ثمان وستمئة فكان يومى إليه بالفضل والمعرفة والغالب عليه طريق أهل الحقيقة وله قدم في الرياضة والجاهدة وكلام على لسان القوم ورأيت جماعة يصفونه بالتقدم والمكانة عند أهل هذا الشأن بالبلاد وله أتباع ووقفت له على مجموع من تأليفه فيه منامات حدث بها عن من رأى النبي صلى الله عليه وسلم ومنامات يروونها عن رؤيته هو للنبي صلى الله عليه وسلم وكتب عني شيئاً من ذلك وسمعت منه. وقال ابن النجار: صحب الصوفية وأرباب القلوب وسلك طريق الفقر وحج وجاور وصنف كتباً في علم القوم وفي أخبار زهاد المغاربة. وله أشعار حسان وكلام مليح اجتمعت به بدمشق وكتبت عنه شيئاً من شعره ونعم الشيخ هو وقرأت بخط اليعموري أسد بن سعد الدين ابن شيخنا الإمام الراسخ محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن العربي الحاتمي وذكر شعراً. وقال ابن سدي: وكان يلقب القشيري لقباً غلب عليه لما كان يشتهر به من التصوف وكان جميل الحلية والفضل محصلاً لفنون العلم وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق. سمع ببلده من أبي بكر بن الحسين ومحمد بن سعيد بن زرقون وجابر الحضرمي وبسببة من أبي محمد بن عبيد الله وياشيبيلية من عبد المعمر الخرجي وأبي جعفر بن نصار وبمرشنة من أبي بكر بن أبي حمزة. وذكر أنه لحق عبد الحق ببجاية وفي ذلك نظر وأن السلفي أجاز له وأحسنها الإجازة العامة. وله تأليف وكان مقتدرًا على الكلام ولعله ما سلمه من الكلام وكان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات ويقال إنه لما كان ببلاد الروم دلسه الملك ذات يوم فقال هذا بدعوة الأسود فقال لئنك فقال في المبدل لك أعد خلقه وقد أطراه الكمال بن الزملكاني فقال: هو البحر الزاخر في المعارف الإلهية وإنما ذكرت كلامه وكلام غيره من أهل الطريق لأنهم أعرف بمقتات المقامات من غيرهم لدخولهم فيها وتحقيقهم بها ذوقاً مخبرين عن عين اليقين. وقال ابن أبي المنصور: كان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم المكتسبة ومأموله من العلوم الوهية وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً لا مكترثاً بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً. ويحكى عنه من يتعصب له أحوالاً سنية ومعارف كثيرة والله أعلم. وقرأت بخط أبي العلاء القرظي في المسند له: كان شيخاً عالماً جامعاً للعلوم صنف كتباً كثيرة وهو من ذرية عبد الله بن حاتم الطائي أخي عدي بن حاتم وأما عدي فلم يعقب وتقدم له ذكر في ترجمة ابن دحية عمر بن الحسن في حرف العين. وقال القطب السرمين في ذيل في ترجمة سعد الدين بن أبي عبد الله محيي الدين بن عربي: كان والده من كبار المشايخ العارفين. وله مصنفات عديدة وشعر كثير وله أصحاب يعتقدون فيه اعتقاداً عظيماً مفرطاً يتغالون فيه وهو عندهم نحو درجة النبوة ولم يصحبه أحد إلا وتعالى فيه ولا يخرج عنه أبداً ولا يفضل عليه غيره ولا يساوي به أحداً من أهل زمانه وتصانيفه لا يفهم منها إلا القليل لكن الذي يفهم منها حسن جميل. وفي تصانيفه كلمات ينبو السمع عنها وزعم أصحابه أن لها معنى باطنها غير الظاهر وبالجملة فكان كبير القدر من سادات القوم وكانت له معرفة تامة بعلم الأسماء والحروف وله في ذلك أشياء غريبة واستنباطات عجيبة انتهى. يتغالون فيه وهو عندهم نحو درجة النبوة ولم يصحبه أحد إلا وتعالى فيه ولا يخرج عنه أبداً ولا يفضل عليه غيره ولا يساوي به أحداً من أهل زمانه وتصانيفه لا يفهم منها إلا القليل لكن الذي يفهم منها حسن جميل. وفي تصانيفه كلمات ينبو السمع عنها وزعم أصحابه أن لها معنى باطنها غير الظاهر وبالجملة فكان كبير القدر من سادات القوم وكانت له معرفة تامة بعلم الأسماء والحروف وله في ذلك أشياء غريبة واستنباطات عجيبة انتهى.

وفي الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي - (ج ١ / ص ٧٨٠)

مطلب ابن عربي هل هو على طريقة الهدى الخ؟

وسئل تفع الله به بما لفظه : ما تقولون في ابن عربي هل هو على طريقة الهدى أم نهج الردى ؟ وهل صح تكفيره أو لا ؟ وهل قال أحد أنه على الصواب أو لا ؟ أوضحوا الجواب وأوضحوا لنا حاله فإنه تكاثرت الأقوال فيه ولم ندر الصحيح من السقيم ؟ .

فأجاب رضي الله عنه بقوله : الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله ورضي عنه إمام جمع بين العلم والعمل كما اتفق على ذلك من يعتد به ، كيف وقد ذكر بعض المنكرين في ترجمته إنه كان وصل لمرتبة الاجتهاد وحينئذ فإسلامه متيقن وكذلك علمه وعمله وزهاده وورعه ووصوله في الاجتهاد في العبادة إلى ما لم يضل إليه أكابر أهل الطريق . وإذا تقرر أن هذا كله معلوم من حاله فالأصل بفأوه عليه إلى أن مات فلا يجوز الإقدام على تنقيصه بمجرد التهور والتخيلات التي لا مستند لها يعتد به بل يستصحب ما علم من إسلامه ومعارفه وعلومه هذا ما يتعلق بذلك ، أما الكتب المنسوبة له فالحق أنه واقع فيها ما ينكر ظاهره والحققون من مشايخنا ومن قبلهم على تأويل تلك المشكلات بأنها جارية على اصطلاح القوم وليس المراد منها ظواهرها . قال بعض الحقين من مشايخ مشايخنا : مع اعتقادي فيه المعرفة الكبرى والنزاهة العظمى لو رأيته للمته وقلت له : قد أودعت في كتبك أشياء كانت سببا لضلال كثيرين من الجهال بطريقتك واصطلاحك ، فإن أكثر الناس ليس لهم من الكلام إلا ظاهره وظاهر تلك الكلمات كفر صريح ارتبك فيه أقوام اغتروا بكلامك ولم يدروا أنه جار على اصطلاحك فليتك أحليت تلك الكتب عن الكلمات المشكلة انتهى حاصل ما قاله ذلك الحق وهو كلام حسن ، وإن فرض أن للشيخ عذرا في ذكرها غيرا على طريقتهم أن ينتحلها الكاذبون لأن هذا لو فرض وقوعه كان أخف مما ترتب على ذكر تلك الكلمات من زل كثير بسببها ، ولقد رأيت ممن ضل بها من يصرخ بمكفريات أجمع المسلمون على أنها مكفريات ومع ذلك يعتقدونها وينسبها لابن عربي ، ولقد كذب في ذلك وافتري فإن ابن عربي بريء من ذلك باعتبار ما علم واستقرئ من حاله . والحاصل أنه يتعين على كل من أراد السلامة لدينه ألا ينظر في تلك المشكلات ولا يعول عليها سواء قلنا إن لها باطنا صحيحا أم لا ، وأن لا يعتقد في ابن عربي خلاف ما علم منه في حياته من الزهد والعبادة الخارقين للعادة ، وقد ظهر له من الكرامات ما يؤيد ذلك . منها : ما حكاه صاحب القاموس أنه لما فرغ من تأليف كتابه (الفوحات المكية) جعله وهو ورق مفرق على ظهر الكعبة فمكث سنة لم تطير الريح منه ورقة ولا وصلت إليه قطرة مطر مع كثرة أمطارها ورياحها فسلامة تلك الأوراق من المطر والريح مع مكثها سنة على السطح من الكرامات الباهرة الدالة على إخلاصه في تأليفه هذا الكتاب وأنه بريء مما نسب إليه وفي غيره ولا يقدح فيه ما صدر عنه مما لا يقبل التأويل ولا يقتضي التضليل ، كقوله بإسلام فرعون لأن هذا لا يقتضي كفرا وإنما غايته أنه خطأ في الاجتهاد وهو غير قادح في صاحبه إذ كل من العلماء مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا المعصومين . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

وفي فتاوى واستشارات الإسلام اليوم - (ج ١٤ / ص ٢)

تكفير ابن عربي

الحبيب د. رشيد بن حسن الأملعي

عضو هيئة التدريس بجامعة الملك خالد

التصنيف الفهرسة/ السيرة والتاريخ والتراجم/ التراجم والسير

التاريخ ١٩/١/١٤٢٥هـ

السؤال

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هل يجوز تكفير ابن عربي والقول عنه إنه كافر مشرك؟ علماً أن هناك كفرة صراحاً في كتبه وخاصة كتاب

القصص، أرجو تبين الحكم -بارك الله فيكم - جزاكم الله خيراً.

الجواب

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فأقول -وبالله التوفيق:-

ابن عربي هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بابن عربي والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، صاحب كتاب القصص، والفتوحات المكية، هلك سنة ٦٣٨هـ عداًه في غلاة الصوفية من أهل وحدة الوجود الذين تقوم بدعتهم على القول بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر، فالعالم بما فيه إنما هو التجلي الإلهي الدائم الذي كان ولا يزال، فالوجود واحد وهو الله واجب الوجود الأزلي عين المخلوقات، فكل شيء هو الله، واختلاف الموجودات هو اختلاف في الصور والصفات مع توحيد في الذات، ومن أخطر ما تصل إليه هذه العقيدة القول بوحدة الأديان وإسقاط التكليف والقول بعقيدة النور الحمدي والحقيقة الحمديّة والإنسان الكامل.

وحقيقة قولهم فيه مضاهاة لقول الدهرية الطبيعية الذين لا يقرون بواجب أبدع الممكن، وهو قول فرعون، ولهذا كانوا معظمين لفرعون، ثم فهم جعلوا أهل النار يتنعمون في النار كما يتنعم أهل الجنة في الجنة، وكفروا بحقيقة اليوم الآخر ثم ادّعوا أن الولاية أفضل من النبوة وأن خاتم الأولياء - وهو شيء لا حقيقة له - زعموا أنه أفضل من خاتم الأنبياء بل ومن جميع الأنبياء، وأنهم كلهم يستفيدون من مشكاته العلم بالله.

وقد نقل غير واحد من المحققين من العلماء القول بضلال ابن عربي وفساد معتقده وإليك جملة من القول في ذلك: قال الحافظ الذهبي رحمه الله: (من أمعن النظر في فصوص الحكم أو أمعن التأمل لاح له العجب، فإن الذكي إذا تأمل من تلك الأقوال والنظائر والأشياء فهو أحد رجلين، إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر، نسأل الله العفو، وأن يكسب الإيمان في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات ويؤمن بالله وباليوم الآخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة)، انظر ميزان الاعتدال للذهبي (٣/٦٦٠).

وقال مفتي المالكية بمصر والشام القاضي شرف الدين عيسى بن مسعود الزوايدي المالكي (ت ٧٤٣هـ) شارح صحيح مسلم: وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وضلال، وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك واعتقد صحته كان كافراً ملحداً، صادّاً عن سبيل الله، مخالفاً لسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ملحداً في آيات الله مبدلاً لكلماته فإن أظهر ذلك وناظر عليه كان كافراً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإن أخفى ذلك وأسرّه كان زنديقاً فيقتل متى ظهر عليه، ولا تقبل توبته إن تاب؛ لأن توبته لا تعرف فقد كان قبل أن يظهر عليه يقول بخلاف ما يبطن، فعلم بالظهور عليه خبث باطنه، وهؤلاء قوم يسمون بالباطنية لم يزالوا من قديم

الزمان ضاللاً في الأمة، معروفين بالخروج من الملة يقتلون من ظهر عليهم وينفون من الأرض وعادتهم التصلح والتدين وادعاء التحقيق، وهم على أسوأ طريق، فالحذر كل الحذر منهم فإنهم أعداء الله وشر من اليهود والنصارى؛ لأنهم قوم لا دين لهم يتبعونه ولا رب يعبدونه وواجب على كل من ظهر على أحد منهم أن ينهي أمره إلى ولاية المسلمين؛ ليحكموا فيه بحكم الله تعالى، ويجب على من ولي الأمر إذا سمع بهذا التصنيف البحث عنه وجمع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدب من أقم بهذا المذهب أو نسب إليه أو عرف به على قدر قوة التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه).

وقال ابن خلدون - رحمه الله -: (ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربي وابن سبعين وابن برجان وأتباعهم ممن سلك سبيلهم ودان بنحلتهم، ولهم تواليف كثيرة يتداولونها مشحونة بصريح الكفر ومستهجن البدع، وتأويل الظاهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها مما يستغرب الناظر فيها نسبتها إلى الملة أو عدها في الشريعة، وليس ثناء أحد على هؤلاء حجة ولو بلغ المخني ما عسى أن يبلغ من الفضل لأن الكتاب والسنة أبلغ فضلاً أو شهادة من كل أحد، وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها بأيدي الناس مثل الفصوص، والفتوحات المكية لابن عربي والبد لابن سبعين، وخلع التعليق لابن قسي، وعين اليقين لابن برجان وما أجدر الكثير من شعر ابن القارض والعفيف التلمساني وأمثالهما أن يلحق بهذه الكتب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة الثانية من نظم ابن القارض، فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء حتى يتمحي أثر الكتاب لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين بمحو العقائد المختلفة).

وقال بدر الدين بن جماعة ت ٧٣٣هـ: (وأما إنكاره - يعني ابن عربي - ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد فهو كافر به عند علماء التوحيد، وكذلك قوله في نوح وهود - عليهما السلام - قول لغو باطل مردود). ونقل السخاوي عن الشيخ سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني الشافعي ت ٨٠٥هـ قوله: (لم يكن هذا الفاجر المذكور - يعني ابن عربي - على الكتاب والسنة بل كان مخالفاً ولا يحل اعتقاد عقيدته ولا العمل بما أتى به من الباطل وليس كلامه ومعتقده الفاسد تأويلاً يقتضي موافقة الكتاب والسنة، ومن اعتقد عقد الباطل أو تمسك به فليس على طريق الحق بل هو على طريق الباطل، فيلزم من اعتقاد ذلك أو تمسك به أن يتوب إلى الله - تعالى - من كفره وإلحاده وزندقته فإن تاب وإلا ضربت عنقه لزندقته، وقد كتبت على ذلك كرايس بالقاهرة ودمشق وبينت فيها أنه أتى بأنواع من الكفر والإلحاد والزندقة ولم يأت بها غيره فنعوذ بالله من طريقة هذا الشيطان ومن طريقة من اتبعه، وأن يجنبنا ما ابتدعه والحال ما ذكر والله أعلم بالصواب).

وقال الصفدي في تاريخه: (سمعت أبا الفتح ابن سيد الناس يقول سمعت ابن دقيق العيد يقول: سألت ابن عبد السلام عن ابن عربي فقال: هو شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً). ومن كشف عواره وألف في بيان كفره وأمثاله الشيخ برهان الدين البقاعي الشافعي المحدث والمفسر والمؤرخ المتوفى سنة ٨٨٥هـ بدمشق في مصنف له بعنوان: (مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)، انظر منه الصفحات: ١٥٠ - ١٧٤. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَ " كِتَابِ الْقُصُوصِ " ، فَخَالَفَ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ :
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ لَا عَقْلَ وَلَا قُرْآنَ .
ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ فِي الزَّمَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَائِ
فَكَيْفَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ ؟ .

وَالْأَوْلِيَاءُ إِنَّمَا يَسْتَفِيدُونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِمَّنْ يَأْتِي بِعَدَّتِهِمْ وَيَدَّعِي أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ آخِرُ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ كَمَا أَنَّ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ ؛ فَإِنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَبَتَ بِالنَّصُوصِ الدَّالِّ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ وَلَا فَخْرَ وَلَوْ أَنَّ الْحَمْدَ يَبْدَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ » (١) ..

وقوله : « آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ . فَيَقُولُ بِكَ أَمْرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » (٢) .

و " لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ " رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ فَوْقَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ فَكَانَ أَحَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ .. } (٣) (٢٥٣) سورة البقرة ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ كُلِّ مِنْهُمْ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ لَا سِيَّمَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ فِي نُبُوَّتِهِ مُحْتَاجًا إِلَى غَيْرِهِ ، فَلَمْ تَحْتَاجْ شَرِيْعَتُهُ إِلَى سَابِقٍ وَلَا إِلَى لَاحِقٍ ؛ بِخِلَافِ الْمَسِيحِ أَحَالَهُمْ فِي أَكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوَرَةِ ، وَجَاءَ الْمَسِيحُ فَكَمَّلَهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُحْتَاجِينَ إِلَى اثْبُوتِ الْمُنْقَدِمَةِ عَلَى الْمَسِيحِ : كَالْتَّوَرَةِ وَالزُّبُورِ وَتِمَامِ الْأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ نُبُوَّةً ، وَكَانَ الْأُمَمُ قَبْلَنَا مُحْتَاجِينَ إِلَى مُحَدِّثِينَ ؛ بِخِلَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِهِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا مَعَهُ إِلَى نَبِيٍّ وَلَا إِلَى مُحَدِّثٍ ؛ بَلْ جُمِعَ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا فَرَّقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَكَانَ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ اللَّهِ بِمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ لَا بِتَوْسِطِ بَشَرٍ .

وهذا بخلاف " الأولياء " فَإِنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكُلُّ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ بِتَوْسِطِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ رَسُولٍ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا إِذَا اتَّبَعَ ذَلِكَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِ .

(١) - المستدرك للحاكم (٤١٨٩) وسنن ابن ماجه (٤٤٥٠) صحيح لغيره

(٢) - صحيح مسلم (٥٠٧)

(٣) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ قَدْ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي مَرَاتِبِ الْكَمَالِ وَالشَّرَفِ ، فَخَصَّ بَعْضَهُمْ بِمَآثِرٍ جَلِيلَةٍ خَلَا عَنْهَا غَيْرُهُ مَعَ اسْتِوَائِهِمْ جَمِيعًا فِي اخْتِيَارِهِ تَعَالَى لِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ ، وَهَدَايَةِ خَلْقِهِ . فَمِنْهُمْ مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ سَفِيرٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ مَرَاتِبَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَيُؤَيِّدُهُ السِّيَاقُ أَيْضًا . وَمِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَخْلَاقِهِ الشَّرِيفَةِ فَقَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِكِتَابِهِ وَشَرِيعَتِهِ { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُؤْتِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَعْظَمَ مِنْ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَمِّيَّتِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } (وَرَوَى عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ : " فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أَوْتِيْتُ جَمَاعَةَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ ") .

وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَهَذَا كَافِرٌ مُلْحِدٌ ، وَإِذَا قَالَ : أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ أَوْ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ دُونَ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ ؛ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ إِلَى الْأُمَمِينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ .

فَإِنَّ أَوْلَئِكَ آمَنُوا بَبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، فَكَانُوا كُفَّارًا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا بُعِثَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ آمَنَ بِبَعْضٍ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ أَكْفَرُ مِنْ أَوْلَئِكَ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ إِيْمَانِ الْقُلُوبِ وَمَعَارِفِهَا وَأَحْوَالِهَا هُوَ عِلْمٌ بِحَقَائِقِ الْإِيْمَانِ الْبَاطِنَةِ (١)، وَهَذَا أَشْرَفُ مِنَ الْعِلْمِ بِمُجَرَّدِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ.

فَإِذَا ادَّعَى الْمُتَدَّعِي أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا عِلْمُ هَذِهِ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ دُونَ حَقَائِقِ الْإِيْمَانِ؛ وَأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، فَقَدْ ادَّعَى أَنَّ بَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ وَهَذَا شَرٌّ مِمَّنْ يَقُولُ: أَوْ مِنْ بَعْضٍ وَأَكْفَرُ بِبَعْضٍ بَوْلًا يَدَّعِي أَنَّ هَذَا الْبَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ أَذْنَى الْقِسْمَيْنِ. وَهَؤُلَاءِ الْمَلْحِذَةُ يَدَّعُونَ أَنَّ "الْوَلَايَةَ" أَفْضَلُ مِنَ "النُّبُوَّةِ" وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُونَ: وَلَايَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَيُنْشِدُونَ:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخِ فَوْيَقِ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ
وَيَقُولُونَ: نَحْنُ شَارِكُنَاهُ فِي وَلَايَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ رِسَالَتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ضَلَالِهِمْ، فَإِنَّ وَلَايَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمَانِلْهُ فِيهَا أَحَدٌ لَا إِبْرَاهِيمُ وَلَا مُوسَى فَضَّلَا عَنْ أَنْ يَمَانِلَهُ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ.
وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٍّ وَلِيِّ فَالرَّسُولُ نَبِيٌّ وَلِيٌّ. وَرِسَالَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنُبُوَّتِهِ، وَنُبُوَّتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لَوَلَايَتِهِ، وَإِذَا قَدَرُوا مُجَرَّدَ إِنْبَاءِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِدُونِ وَلَايَتِهِ لِلَّهِ فَهَذَا تَقْدِيرٌ مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّهُ حَالُ إِنْبَائِهِ إِيَّاهُ مُمْتَنِعٌ أَنْ يَكُونَ إِلَّا وَلِيًّا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ مُجَرَّدَةً عَنْ وَلَايَتِهِ بَوْلًا قُدِّرَتْ مُجَرَّدَةً لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِمَّا نِلَّا لِلرَّسُولِ فِي وَلَايَتِهِ.
وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ - كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ "الْقُصُوصِ" ابْنُ عَرَبِيٍّ - : إِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلِكُ الَّذِي يُوحَى بِهِ إِلَى الرَّسُولِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اعْتَقَلُوا "عَقِيدَةَ الْمُتَفَلِّسَةِ" (٢)

(١) - ليس في العلوم الإسلامية شيء اسمه (علم الحقيقة)، إلا أن بعض الصوفية يقسمون علوم الدين إلى قسمين: علم الشريعة وهو: علم الظاهر.

وعلم الحقيقة وهو: علم الباطن، ويدَّعون أن عندهم علم الحقيقة، وعند غيرهم من المسلمين علم الشريعة، وأن علم الحقيقة هو: علم الخضر عليه السلام. وعلم الشريعة هو: علم موسى عليه السلام، ويقولون: إنهم يتلقون علم الباطن عن الله مباشرة، فيقولون: "حدثنا قلوبنا عن ربنا".

وقد حَكَمَ العلماء على من قال ذلك بالكفر والزندقة، قال ابن الجوزي: وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة، وهذا جهل من قائله، لأن الشريعة كلها حقائق، فإن كانوا يريدون بذلك الرخصة والعزيمة، فكلاهما شريعة، وقد أنكر عليهم جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع. ثم حكى عن سهل التستري أنه قال: احفظوا البياض على السواد، فما ترك أحد الظاهر إلا ترندق. وقال الغزالي في الإحياء: من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وعن ابن عقيل قال: جعلت الصوفية الشريعة اسماً، أو قالوا: المراد منه الحقيقة، وهذا قبيح لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعبدهم، فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء وقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رأى الحقيقة في غير الشريعة فمخلوع مغرور. انظر: تلييس إبليس لابن الجوزي ١/٣٩٥.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: من اعتقد أن لأحد طريقاً إلى الله غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يجب

عليه اتباعه، أو قال: أنا محتاج إليه في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، أو قال: إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى كفر في هذا كله. ا.هـ. نقلا من مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١/٦٨. والله أعلم. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٣ / ص ٣٦٥) رقم الفتوى ١٠٦٦١ الشريعة كلها حقائق - تاريخ الفتوى : ١٥ رجب ١٤٢٢

(٢) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١ / ص ١٩٥) يقول عن أصحاب وحدة الوجود :
وَيَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ أَنْ يَغَيِّرَ ذَرَّةً مِنَ الْعَالَمِ وَأَنَّهُمْ قَدْ يَعْلَمُونَ الْأَشْيَاءَ مِنْ حَيْثُ عَلِمَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ وَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مَعْدِنٍ وَاحِدٍ وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ أَفْضَلَ مِنْ خَاتَمِ الرُّسُلِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي أُخِذَ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحَى بِهِ الرُّسُلُ . وَيَقُولُونَ : إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَلَا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } مَعْنَى حَكَمَ ؛ لَا مَعْنَى أَمَرَ فَمَا عُبِدَ غَيْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا قَضَى بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَعَ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَكْرٌ بِالْمَدْعُودِ فَإِنَّهُ مَا غَدِمَ مِنَ الْبِدَايَةِ فَيَدْعُو إِلَى الْغَايَةِ وَأَنَّ قَوْمَ نُوحٍ قَالُوا : { لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا } لِأَنَّهُمْ لَوْ تَرَكُوهُمْ لَتَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بِقَدَرٍ مَا تَرَكُوا مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ لِلْحَقِّ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ وَجْهًا يَعْرِفُهُ مِنْ عَرَفِهِ وَيُنْكِرُهُ مِنْ أَنْكَرِهِ وَأَنَّ التَّفْرِيقَ وَالْكَثْرَةَ كَالْأَغْصَاءِ فِي الصُّورَةِ الْمَحْسُوسَةِ وَكَالْفُتُوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي الصُّورَةِ الرُّوحَانِيَّةِ وَأَنَّ الْعَارِفَ مِنْهُمْ يَعْرِفُ مَنْ عُبِدَ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ ظَهَرَ حَتَّى عَبْدٌ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ يَقُولُ : هَذَا حَجَرٌ وَشَجَرٌ وَالْعَارِفُ يَقُولُ : هَذَا مَجْلَى إِلَهِي يَنْبَغِي تَعْظِيمُهُ فَلَا يَقْتَصِرُ فَإِنَّ التَّصَارِي إِنْمَا كَفَرُوا لِأَنَّهُمْ خَصَّصُوا وَإِنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ مَا أَخْطَأُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ اقْتَصَرُوا عَلَى عِبَادَةِ بَعْضِ الْمَظَاهِيرِ وَالْعَارِفُ يَعْبُدُ كُلَّ شَيْءٍ . وَاللَّهُ يَعْبُدُ أَيْضًا كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ غِذَاؤُهُ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ وَهُوَ غِذَاؤُهَا بِالْوُجُودِ وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهَا وَهِيَ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ وَهُوَ خَلِيلُ كُلِّ شَيْءٍ بِهَذَا الْمَعْنَى وَيَجْعَلُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَى هِيَ مُجَرَّدُ نَسَبَةٍ وَإِضَافَةٍ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ وَلَيْسَتْ أُمُورًا عَدَمِيَّةً . وَيَقُولُونَ : " مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى : الْعَلِيِّ عَنْ مَاذَا وَمَا تَمَّ إِلَّا هُوَ ؟ وَعَلَى مَاذَا وَمَا تَمَّ غَيْرُهُ ؟ فَالْمُسَمَّى مُخَدَّاتٌ وَهِيَ الْعَلِيَّةُ لِدَاتِهَا وَلَيْسَتْ إِلَّا هُوَ وَمَا نَكَحَ سِوَى نَفْسِهِ وَمَا ذَبَحَ سِوَى نَفْسِهِ وَالْمُتَكَلِّمُ هُوَ عَيْنُ الْمُسْتَمِعِ " . وَأَنَّ مُوسَى إِنْمَا عَتَبَ عَلَى هَارُونَ حَيْثُ نَهَاَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ لِصِيقِهِ وَعَدَمِ اتِّسَاعِهِ وَأَنَّ مُوسَى كَانَ أَوْسَعَ فِي الْعِلْمِ ؛ فَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَأَنَّ أَعْلَى مَا عُبِدَ الْهَوَى وَأَنَّ كُلَّ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فَمَا عُبِدَ إِلَّا اللَّهُ وَفِرْعَوْنُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْعَارِفِينَ وَقَدْ صَدَّقَهُ السَّحَرَةُ فِي قَوْلِهِ : { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } وَفِي قَوْلِهِ : { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } . وَكُنْتُ أُخَاطِبُ بِكَشْفِ أَمْرِهِمْ لِبَعْضِ الْفَضْلَاءِ الصَّالِّينَ وَأَقُولُ إِنَّ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ هُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ الْمُتَكَبِّرِ لَوْجُودِ الْخَالِقِ الصَّانِعِ ؛ حَتَّى حَدَّثَنِي بَعْضُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ كِبَرِائِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ . وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا هِيَ قَوْلُ صَاحِبِ الْفُصُوصِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا مَاتَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } .

" ثُمَّ أَخْرَجُوهَا فِي قَالِبِ " الْمُكَاشَفَةِ " وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَفَلِّسَةَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْأَفْلَاكَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَهَا عِلَّةٌ تَنْشَبُهَا بِهَا كَمَا يَقُولُهُ أَرِسْطُو وَأَتْبَاعُهُ ؛ أَوْ لَهَا مُوجِبٌ بِذَاتِهِ كَمَا يَقُولُهُ مُتَأَخَّرُوهُمْ : كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ ، وَلَا يَقُولُونَ إِنَّهَا لِرَبِّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَلَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَلَا يَعْلَمُ الْجُزْئِيَّاتِ ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يُنْكِرُوا عِلْمَهُ مُطْلَقًا كَقَوْلِ أَرِسْطُو ؛ أَوْ يَقُولُوا إِنْمَا يَعْلَمُ فِي الْأُمُورِ الْمُتَغَيِّرَةِ كَلِيَّاتُهَا كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا ، وَحَقِيقَةُ هَذَا الْقَوْلِ إِنْكَارُ عِلْمِهِ بِهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ فَهُوَ مُعَيَّنٌ جُزْئِيٌّ : الْأَفْلَاكُ كُلُّ مُعَيَّنٍ مِنْهَا جُزْئِيٌّ ، وَكَذَلِكَ

جَمِيعِ الْأَعْيَانِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِلَّا الْكَلِمَاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَالْكَلِمَاتُ إِنَّمَا تُوجَدُ كَلِمَاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ . وَالْكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي " رَدِّ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّهْلِ " وَغَيْرِهِ . فَإِنْ كُفِرَ هَؤُلَاءِ أَعْظَمَ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَلْ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ، فَإِنْ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّهُ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَرْسَطُو وَنَحْوُهُ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ وَالْيُونَانِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُوكَبَ وَالْأَصْنَامَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ، وَلَيْسَ فِي كُتُبِ أَرْسَطُو ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا غَالِبَ عُلُومِ الْقَوْمِ الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الْإِلَهِيَّةُ فَكُلُّ مِنْهُمْ فِيهَا قَلِيلُ الصَّوَابِ كَثِيرُ الْخَطَأِ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ أَعْلَمُ بِالْإِلَهِيَّاتِ مِنْهُمْ بِكَثِيرٍ ؛ وَلَكِنْ مُتَأَخَّرُوا عَنْ سَبِيلِ سَيِّئَا أَرَادُوا أَنْ يُلْفَقُوا بَيْنَ كَلَامِ أُولَئِكَ وَبَيْنَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ؛ فَأَخَذُوا أَشْيَاءَ مِنْ أَصُولِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَرِ لَةِ وَرَكَّبُوا مَذْهَبًا قَدْ يَعْتَرِي إِلَيْهِ مُتَفَلِّسَةٌ أَهْلُ الْمِلَلِ ؛ وَفِيهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالتَّنَاقُضِ مَا قَدْ تَبَهَّنَا عَلَى بَعْضِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وهؤلاء لما رأوا أمر الرُّسُلِ كَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بَهَرَ الْعَالَمَ، وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ النَّامُوسَ (١) الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ نَامُوسٍ طَرَقَ الْعَالَمَ، وَوَجَلُّوا الْأَنْبِيَاءَ قَدْ ذَكَرُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْجَنَّ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ أَقْوَالِ سَلَفِهِمُ الْيُونَانِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ الْخَلْقِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُولَئِكَ قَدْ أَثْبَتُوا عَقُولًا عَشْرَةً يُسَمُّونَهَا " الْمُجَرَّدَاتِ " وَالْمُفَارَقَاتِ " (٢) . وَأَصْلُ ذَلِكَ مَا خُذَ مِنْ مُفَارَقَةِ النَّفْسِ لِلْبَدَنِ وَسَمَوْا تِلْكَ " الْمُفَارَقَاتِ " لِمُفَارَقَتِهَا الْمَادَّةَ وَتَجَرَّدِهَا عَنْهَا . وَأَثْبَتُوا الْأَفْلَاكَ لِكُلِّ فَلَكٍ نَفْسًا، وَأَكْثَرَهُمْ جَعَلُوهَا أَغْرَاضًا وَبَعْضُهُمْ جَعَلَهَا جَوَاهِرَ .

وهذه " الْمُجَرَّدَاتِ " الَّتِي أَثْبَتُوهَا تَرْجِعُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَى أُمُورٍ مُوجُودَةٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ، كَمَا أَثْبَتَ أَصْحَابُ أَفْلَاطُونٍ " الْأَمْثَالَ الْإِفْلَاطُونِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ " أَثْبَتُوا هَيْوَلَى مُجَرَّدَةٍ عَنْ الصُّورَةِ وَمُدَّةٍ وَخَلَاءٍ مُجَرَّدِينَ، وَقَدْ اعْتَرَفَ خُذَاتُهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ ؛ فَلَمَّا أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ كَابِنِ سَيِّئَا أَنْ يُثَبِّتَ أَمْرَ النُّبُوَاتِ عَلَى أَصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَزَعَمُوا أَنَّ الثَّبُوتَ لَهَا خَصَائِصُ ثَلَاثَةٌ مَنْ اتَّصَفَ بِهَا فَهُوَ نَبِيٌّ .

(الْوَلُّ : أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ عِلْمِيَّةٌ يُسَمُّونَهَا الْقُوَّةَ الْقُدْسِيَّةَ يَتَأَلَّ بِهَا مِنَ الْعِلْمِ بِلَا تَعَلُّمٍ .

(الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ تَخِيلِيَّةٌ تُخَيِّلُ لَهُ مَا يَعْهَلُ فِي نَفْسِهِ بِحَيْثُ يَرَى فِي نَفْسِهِ صُورًا، أَوْ يَسْمَعُ فِي نَفْسِهِ أَصْوَاتًا كَمَا يَرَاهُ النَّائِمُ وَيَسْمَعُهُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا وَجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَزَعَمُوا أَنَّ تِلْكَ الصُّورَ هِيَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَصْوَاتُ هِيَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى .

(١) - الناموس : الوحي

(٢) - انظر درء المعارض - (ج ١ / ص ١٧١)

(الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ فَعَالَةٌ يُؤَثِّرُ بِهَا فِي هَيْوَلَى الْعَالَمِ، وَجَعَلُوا مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَخَوَارِقِ السَّحَرَةِ هِيَ قُوَى النَّفْسِ، فَأَقْرَبُوا مِنْ ذَلِكَ بِمَا يُوَافِقُ أَصُولَهُمْ مِنْ قَلْبِ الْعَصَا حِيَّةٍ دُونَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وَجُودَ هَذَا . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي مَوَاضِعٍ . وَبَيَّنَّا أَنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا أَفْسَدُ الْكَلَامِ وَأَنَّ هَذَا الَّذِي جَعَلُوهُ مِنَ الْخَصَائِصِ يَحْصُلُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ لِأَحَادِ الْعَامَّةِ وَلِاتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ أَحْيَاءٌ نَاطِقُونَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، وَهُمْ كَثِيرُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُؤْذِنَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ { (١) (٣١) سورة المدثر ، وَلَيْسُوا عَشْرَةٌ وَلَيْسُوا أَعْرَاضًا لَا سِيَمًا وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الصَّادِرَ الْأَوَّلَ هُوَ " الْعَقْلُ الْأَوَّلُ " (٢) ، وَعَنْهُ صَدَرَ كُلُّ مَا دُونَهُ

(١) - لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلُهُ الْكَرِيمِ (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ مُسْتَهْزِئًا : أَيْعَجزُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَنْطُشُوا بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَى هَؤُلَاءِ السَّاحِرِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : إِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ حَرَسَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ، وَمَنْ يُطِيقُ مُغَالَبَةَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَمَا جَعَلَ عَدَدَهُمْ (تِسْعَةَ عَشَرَ) ، إِلَّا لِيَقُولَ الْكَافِرُونَ مَا قَالُوا ، لِيَتَضَاعَفَ غَضَبُ اللَّهِ وَتَقَمُّتُهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ اسْتَقْلُوا الْعَدَدَ ، وَقَالُوا كَيْفَ يَتَوَلَّى مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ تَغْذِيبَ خَلْقِ اللَّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَدَدَ لِرَسُولِهِ لِيَحْصُلَ الْيَقِينُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ فِي بُرْهَانِهِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلِيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا ، حِينَمَا يَرَوْنَ تَسْلِيمَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَتَصْدِيقَهُمْ لِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَا يَتَّقِي فِي أَنْفُسِهِمْ شَكًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلِكَيْلَا يَشْكُ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَالْكَافِرِينَ بِرِسَالَتِهِ : مَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِذِكْرِ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ الْمُسْتَعْرَبِ ، وَمَا الْحِكْمَةُ فِيهِ؟ وَكَمَا أَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِذِكْرِ الْعَدَدِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فَيُوقِفُهُ لِلْهُدَى ، وَالْخَيْرِ ، وَالصَّوَابِ . وَمَا يَعْلَمُ عَدَدَ خَلْقِ اللَّهِ ، وَمَقْدَارَ جُمُوعِهِ ، الَّتِي مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ ، إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، لِكَيْلَا يَتَوَهَّمُ مَوْتَهُمْ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ ، وَمَا سَقَرُوا وَلَا صَفَّيْهَا إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَتَعَطَّى مِنَ الْبَشَرِ ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ .

(٢) - انظر منهاج السنة النبوية - (ج ١ / ص ٢٩٣) ودرء التعارض - (ج ٢ / ص ٣٨٢) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ٩٥) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ١٤٧) ودرء التعارض - (ج ٥ / ص ٢٧٩)

و " الْعَقْلُ الْفَعَالُ الْعَاشِرُ " رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ الْقَمَرِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَعْلَمُ فَسَادُهُ بِالْاضْطِرَارِ مِنْ دَيْنِ الرُّسُلِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُبْدِعٌ لِكُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ . وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْعَقْلُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثِ يَرْوَى " { أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ أَقْبَلْ فَأَقْبَلَ فَقَالَ لَهُ : أَذْبِرْ فَأَذْبَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِي مَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ فَبِكَ آخِذٌ وَبِكَ أُعْطِي وَلَكَ الثَّوَابُ وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ } " (١) . وَيُسَمُّوهُ أَيْضًا " الْقَلَمَ " لِمَا رَوَى " { إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ } " الْحَدِيثَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢) . وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرُوهُ فِي الْعَقْلِ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَاتِمٍ الْبَسْتِي وَابْنُ الدَّرَقُطْنِي وَابْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُمْ . وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ دَوَائِرِ الْحَدِيثِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا ، وَمَعَ هَذَا فَلَفْظُهُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا حُجَّةً عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ لَفْظَهُ " { أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَقْلَ قَالَ لَهُ - وَيَرْوَى - لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ } " فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ خَاطَبَهُ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِ خَلْقِهِ ؛ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَ " أَوَّلُ " مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِ كَمَا فِي اللَّفْظِ الْآخِرِ (لَمَّا وَتَمَّامُ الْحَدِيثِ " { مَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ } " فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ خَلَقَ قَبْلَهُ غَيْرَهُ ثُمَّ قَالَ " : { فَبِكَ آخِذٌ وَبِكَ أُعْطِي وَلَكَ الثَّوَابُ وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ } " فَذَكَرَ أَرْبَعَةَ أَقْوَاعٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ جَمِيعَ جَوَاهِرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ صَدَرَ عَنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ . فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا .

وَسَبَبُ غَلَطِهِمْ أَنَّ لَفْظَ " الْعَقْلُ " فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ هُوَ لَفْظُ الْعَقْلِ فِي لُغَةِ هَؤُلَاءِ الْيُونَانِ ، فَإِنَّ " الْعَقْلَ " فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا كَمَا فِي الْقُرْآنِ : { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }

(١٠) سورة الملك ، {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْشِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (٢٤) سورة الروم {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (٤٦) سورة الحج، ويُراد "بالعقل" الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

(١) - المقاصد الحسنة للسخاوي - (ج ١ / ص ١٨٣) ((٢٣٣)) حديث: إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزني وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي، قال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق انتهى، وفي زوائد عبد الله بن الإمام أحمد على الزهد لأبيه عن علي بن مسلم عن سيار بن حاتم، وهو ممن ضعفه غير واحد، وكان جماعاً للرفائق، وقال القواريري: إنه لم يكن له عقل، قال: حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا مالك بن دينار عن الحسن البصري مرفوعاً مرسلاً: لما خلق الله العقل، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وأخرجه داود بن الحبر في كتاب العقل له حدثنا صالح المري عن الحسن به بزيادة: ولا أكرم علي منك، لأنني بك أعرف، وبك أعبد، والباقي مثله، وفي الكتاب المشار إليه لداود من هذا النمط أشياء، منها: أول ما خلق الله العقل، وذكره. وابن الحبر كذاب، قال شيخنا: والوارد في أول ما خلق الله، حديث: أول ما خلق الله القلم، وهو أثبت من حديث العقل. المقاصد الحسنة للسخاوي - (ج ١ / ص ١٨٣) ((٢٣٣)) وانظر منهاج السنة النبوية - (ج ٨ / ص ٨) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ١٣) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ٩٥) وكشف الخفاء من المحدث - (ج ١ / ص ٢٦٩) (٧٢٣) وقال الحافظ في "الفتح" ٢٨٩ / ٦ : ليس له طريق ثبت .

(٢) - عَنْ أَبِي حَفْصَةَ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي». سنن أبي داود (٤٧٠٢) (التمذي (٣٦٣٧) حديث صحيح

وَأَمَّا أَوْلَيْكَ فَ" الْعَقْلُ " عِنْدَهُمْ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ كَالْعَاقِلِ وَلَيْسَ هَذَا مُطَابِقًا لِلُّغَةِ الرُّسُلِ وَالْقُرْآنِ . وَعَالَمُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَذْكُرُهُ أَبُو حَامِدٍ عَالَمُ الْأَجْسَامِ الْعَقْلُ وَالتُّفُوسُ فَيُسَمِّيَهَا عَالَمَ الْأَمْرِ، وَقَدْ يُسَمَّى " الْعَقْلُ " عَالَمُ الْجَبَرُوتِ " (١) وَالتُّفُوسُ " عَالَمُ الْمَلَكُوتِ ؛ وَ " الْأَجْسَامُ " عَالَمُ الْمَلِكِ ، وَيُظَنُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الرُّسُلِ وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ ذِكْرِ الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ مُوَافِقٌ لِهَذَا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ يُلَبِّسُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَلْبِيسًا كَثِيرًا كَاِطْلَافِهِمْ أَنَّ " الْفَلَكَ " مُحَدَّثٌ : أَيُّ مَعْلُومٍ مَعَ إِنَّهُ قَدِيمٌ عِنْدَهُمْ ، وَالْمُحَدَّثُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَسْبُوقًا بِالْعَدَمِ لَيْسَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا فِي لُغَةِ أَحَدٍ أَنَّهُ يُسَمَّى الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ مُحَدَّثًا ، وَاللَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُحَدَّثٌ ، وَكُلُّ مُحَدَّثٍ كَاتِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ؛ لَكِنْ نَظَرَهُمْ أَهْلُ الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَرِلَةِ مُنَاطَرَةً قَاصِرَةً لَمْ يَعْرِفُوا بِهَا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَا أَحْكَمُوا فِيهَا قَضَايَا الْعُقُولِ ، فَلَا لِلْإِسْلَامِ نَصْرُوهَا وَلَا لِلْأَعْدَاءِ كَسْرُوهَا ، وَشَارَكُوا أَوْلَيْكَ فِي بَعْضِ قَضَايَاهُمْ الْفَاسِدَةِ وَنَارَعُوهُمْ فِي بَعْضِ الْمَعْقُولَاتِ الصَّحِيحَةِ ، فَصَارَ قُصُورُ هَؤُلَاءِ فِي الْعُلُومِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ ضَلَالِ أَوْلَيْكَ كَمَا قَدْ بُسِطَ

فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(١) - وفي إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي - (ج ٦ / ص ٢٤٥)

والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الأرض وثربها وكل من يمشى على الأرض يمشى في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعنت فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء قيل له أن عيسى يمشي على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء تقدم لما قيل له إنه كان يمشى على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري وأستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيع قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة قال نعم افح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقهنحوي فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فو الله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وانظر الفتوحات المكية - (ج ١ / ص ٢١-٢٨)

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون " جبريل " هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم والخيال تابع للعقل فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم " أولياء الله " وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة كآبى عربي صاحب " الفتوحات " و " الفصوص " فقال : إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول (١)، و " المعدن " عنده هو العقل و " الملك " هو الخيال و " الخيال " تابع للعقل وهو يزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال، والرسول يأخذ عن الخيال ؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصة النبي ما ذكره لم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكره يحصل لأحد المؤمنين ؟!

والثبوت أمر وراء ذلك ، فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة : كالقضايل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعرفة الكرخي والجنيدي بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم - رضوان الله عليهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات ثبائن قول هؤلاء كقولهم تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَلَدَا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) { (٢)}

(١) - انظر منهاج السنة النبوية - (ج ٥ / ص ٢٣٩) ومنهاج السنة النبوية - (ج ٨ / ص ١٣) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ٧٦) ودرء التعارض - (ج ٣ / ص ٨٠) ومجموع الفتاوى - (ج ١٢ / ص ١٢٨)
(٢) - فالتوحيد قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل إلى الناس ، لا تبديل فيها ، ولا تحويل ، فلا اتصال بين الألوهية والربوبية ، ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادات . وكل نبي بعثه الله كان يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك ، والمشركون لهم برهان لهم على ما يدعون . لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم تأدبا وطاعة ، ولا يخالفونه فيما أمرهم ، به ، بل يبادرون إلى فعله دون تردد . والملائكة الأطهار يعرفون حدودهم ، فلا يدعون الألوهية ، وإذا ادعى أحد منهم الألوهية مع الله ، كان جزاءه الخلود في جهنم ، وجهنم جزاء الظالمين ، الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة .

[الأنبياء/٢٦-٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } (١) (٢٦) سورة النجم ، وَقَالَ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَتَّبِعِ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) } (٢) [سبا/٢٢-٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) } [الأنبياء/١٩-٢٠] (٣) .

(١) - وكثير من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئا إلا إذا أذن لهم الله تعالى بالشفاعة لمن يشاء ويرضى عنهم . وإذا كان هذا حال الملائكة المقربين من الله تعالى ، فكيف يرجو هؤلاء الجاهلون شفاعته أصنام لهم عند الله ، وهي حجارة لا تضر ولا تنفع .

(٢) - قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، مِنْ قَوْمِكَ ، مُؤَبَّخًا وَمَقَرَّعًا وَمُبَيِّنًا لَهُمْ سُوءَ صَنِيعِهِمْ بِالشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ : ادْعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ ، الَّتِي تَرْعُمُونَ أَنَّ لَهَا شَرِكَةً مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ ، فِي أُمُورِكُمُ الْهَامَّةِ لِتَدْفَعَ عَنْكُمُ الضَّرَّ وَالْبَلَاءَ ، أَوْ لَتَجْلِبَ لَكُمْ النِّفْعُ إِنْ اسْتَطَاعَتْ ، لَسَرُوا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ ، كَمَا لَا تَمْلِكُ ذَرَّةٌ فِيهِمَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرِكَةِ لِلخَالِقِ الْعَظِيمِ . وليس لله من هذه الآلهة المزعومة من يعينه ، ويظهره على خلق شيء ، أو فعل شيء ، فكيف تعبُدون هذه الأصنام العاجزة يا أيها المشركون؟ مثقال ذرة - وزن أصغر ما يوزن من نفع أو ضرر . ولعظمة الله وجلاله لا يحجر أحد على أن يشفع عنده في شيء إلا بعد أن يأذن الله له في الشفاعة ، وهو تعالى لا يأذن لأحد أن يشفع لهؤلاء الكافرين ، لأن الشفاعة فيهم لا تكون أبداً .

يَقِفُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجِلِينَ فَرَعَيْنِ مُنْتَظِرِينَ الْإِذْنَ بِالشَّفَاعَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا أذنَ لِلشَّافِعِينَ ، وَهَدَّاتِ نَفُوسِ الْمُنْتَظِرِينَ ، وَزَايَلَهَا الْخَوْفُ (فَرَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فِي الْإِذْنِ وَالشَّفَاعَةِ؟ قَالُوا : قَالَ رَبُّنَا الْحَقُّ ، وَهُوَ الْإِذْنَ بِالشَّفَاعَةِ لِمَنِ ارْتَضَى . وَالآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَشَفُوعَ لَهُمْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ . أَمَا

الكَافِرُونَ فَهُمْ بِمَعْرَلٍ عَنْ مَوْقِفِ الشَّفَاعَةِ . وَاللَّهُ جَلَّ تَنَاهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْعُلُوِّ وَالْكِبَرِيَاءِ ، لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ .

(٣) - وَاللهُ جَمِيعُ الْخُلُوقَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، خَلَقًا وَمُلْكًا وَتَدْبِيرًا وَتَصَرُّفًا ، وَإِحْيَاءً وَحِسَابًا . . . دُونَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنْ سُلْطَانٍ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ ، الَّذِينَ شَرَّفْتُمْ مَنَزِلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، لَا يَسْتَعْظِمُونَ عِبَادَتَهُ ، وَلَا يَكُلُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَتَعَبُونَ ، وَلَا يَتَوَفَّقُونَ .

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جَاءَتْ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ (١)، وَأَنَّ الْمَلَكَ تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا (٢) وَكَانَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ دَحْيَةِ الْكَلْبِيِّ (٣)، وَفِي صُورَةِ أَغْرَابِيٍّ وَيَرَاهُمْ النَّاسُ كَذَلِكَ (٤)

(١) - قال تعالى : {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)} سورة هود

(٢) - قال تعالى : { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) } [مريم/١٧-٢٠]

(٣) - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ يَقُولُ : يَأْتِينِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى صُورَةِ دَحْيَةِ الْكَلْبِيِّ ، قَالَ أَنَسٌ : وَكَانَ دَحْيَةً رَجُلًا جَمِيلًا أَيْضًا . المعجم الكبير للطبراني (٧٥٧) و سنن النسائي (٥٠٠٨) والإبانة الكبرى لابن بطة (٨٣٥) صحيح لغيره

(٤) - ففي صحيح البخارى (٤٧٧٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ « الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ » . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ « الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْإِحْسَانُ قَالَ « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَلَكِنْ سَأَحْدِثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَإِذَا كَانَ الْحَفَاةُ الْعُرَاةُ رُعُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) » . ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ « رُدُّوا عَلَيَّ » . فَأَخَذُوا لِيُرُثُوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا . فَقَالَ « هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » .

وفي صحيح مسلم (١٠٢) عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصَرَةِ مَعْبَدُ الْجَهَنِّيِّ فَانْطَلَقَتْ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَيْرِيُّ حَاجِّينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفُ .

قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَتَقَفَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ يَتِمَّا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتُحِجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ «مَا الْمَسْتُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْخُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَوَّلُونَ فِي الْبُتْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

الألف : المستأنف الذي لم يسبق به قدر = يتقفر : يطلب ويتبع ويجمع

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١ / ص ٣)

وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ " كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِينِي عَلَى نَحْوَيْنِ : يَأْتِينِي بِهِ جَبْرِيلُ فَيُلْقِيهِ عَلَيَّ كَمَا يُلْقِي الرُّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ ، فَذَاكَ يَنْفَلِتُ مِنِّي . وَيَأْتِينِي فِي بَيْتِي مِثْلَ صَوْتِ الْجَرَسِ حَتَّى يَخَالِطَ قَلْبِي ، فَذَاكَ الَّذِي لَا يَنْفَلِتُ مِنِّي " وَهَذَا مُرْسَلٌ مَعَ ثِقَةٍ رِجَالُهُ ، فَإِنَّ صَحَّ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) كَمَا سَيَأْتِي ، فَإِنَّ الْمَلَكَ قَدْ تَمَثَّلَ رَجُلًا فِي صُورٍ كَثِيرَةٍ وَلَمْ يَنْفَلِتْ مِنْهُ مَا أَتَاهُ بِهِ كَمَا فِي قِصَّةِ مَجِيئِهِ فِي صُورَةِ دَحِيَّةٍ وَفِي صُورَةِ أَغْرَابِيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَكُلُّهَا فِي الصَّحِيحِ . وَأُورِدَ عَلَى مَا اقْتَضَاهُ الْحَدِيثُ - وَهُوَ أَنَّ الْوَحْيَ مُنْهَصِرٌ فِي الْحَالَتَيْنِ - حَالَاتٌ أُخْرَى : إِمَّا مِنْ صِفَةِ الْوَحْيِ كَمَجِيئِهِ كَدَوِيٍّ التَّحُلُّ ، وَالتَّقَيُّ فِي الرُّوْعِ ، وَالْإِلْهَامُ ، وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ، وَالتَّكْلِيمُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِلَا وَاسِطَةٍ . وَإِمَّا مِنْ صِفَةِ حَامِلِ الْوَحْيِ كَمَجِيئِهِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحَ ، وَرُؤْيَتُهُ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ سَدَّ الْأُفُقُ .

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ (٢١) } [التكوير/ ١٩-٢١] ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) } [التكوير] ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ { عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) } (٣)

(١) - ثُمَّ يُتَابِعُ تَعَالَى وَصْفَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ : إِنَّهُ ذُو قُوَّةٍ فِي الْحِفْظِ وَالْبُعْدِ عَنِ النَّسْيَانِ وَالْخَطِإِ وَهُوَ ذُو جَاهٍ وَمَثَرَةٍ عِنْدَ صَاحِبِ الْعَرْشِ أَيْ لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَثَرَةٌ رَفِيعَةٌ .

تُطِيعُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَصْدُرُونَ عَنْ أَمْرِهِ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى رَأْيِهِ ، وَهُوَ آمِنٌ عَلَى إِبْلَاحِ وَحْيِ رَبِّهِ وَرِسَالَتِهِ ، وَقَدْ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَيَاةِ فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ رَبُّهُ ، وَمِنَ الزَّلَلِ وَالْخَطَا .
(٢) - وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جِبْرِيلَ عَيْنًا بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى بِشَكْلِ بَيِّنٍ وَاضِحٍ ، وَقَدْ تَمَثَّلَ لَهُ فِي صُورَةٍ يَسْتَطِيعُ فِيهَا رُؤْيَتَهُ

(٣) - وَإِنَّ الَّذِي عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ هُوَ جِبْرِيلُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ قَوِيٌّ ، شَدِيدُ الْقُوَّةِ ، مَوْثُوقٌ بِقَوْلِهِ .
وَهُوَ ذُو قُوَّةٍ ، وَذُو حَصَافَةٍ وَعَقْلٍ رَاجِحٍ ، وَقَدْ اسْتَوَى فِي الْأَفْقِ فَرَأَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهَا .

وَقَدْ اسْتَقَامَ جِبْرِيلُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى وَهُوَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، حِينَ أَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرَاهُ كَذَلِكَ ، فَظَهَرَ فِي الْأَفْقِ لَهُ .

ثُمَّ أَخَذَ جِبْرِيلُ يَقْتَرِبُ مِنَ الرَّسُولِ ، وَيَنْحَدِرُ مِنَ الْأَفْقِ .
فَكَانَ عَلَى قَدَرِ قَوْسَيْنِ إِذَا مُدًّا ، أَوْ أَقْرَبَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ تَقْدِيرِكُمْ .

فَأَوْحَى جِبْرِيلُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُوحِيَهُ إِلَيْهِ مِنْ شُؤْنِ الدِّينِ .
مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ مَا رَأَاهُ بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ .

أَفْتَكِدُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتُجَادِلُونَهُ فِيمَا رَأَاهُ بَعِينَهُ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ .
وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى .

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، حِينَمَا عُرِجَ بِالرَّسُولِ إِلَى السَّمَاءِ . وَهَذِهِ السِّدْرَةُ تَنْتَهِي إِلَيْهَا غُلُومُ الْخَلَائِقِ .
وَسِدْرَةُ الْمُنتَهَى هَذِهِ تَقَعُ عِنْدَ الْجَنَّةِ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَدْ رَأَاهُ حِينَمَا كَانَ يَغْشَى السِّدْرَةَ ، وَيُعْطِيهَا ، خَلَائِقُ تَدُلُّ فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا وَإِشْرَاقِهَا عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ .
مَا مَالَ بَصَرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رُؤْيَا هَذِهِ الْعَجَائِبِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَمَا جَاوَزَهَا إِلَى رُؤْيَا غَيْرِهَا مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِرُؤْيَا .

وَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ الْكَثِيرَ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ ، وَعَجَائِبِ خَلْقِهِ .

[النجم/١-١٨] . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " « إِنْمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » (١) . يَعْنِي الْمَرَّةَ الْأُولَى بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى وَالنَّزْلَةَ الْأُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، وَوَصَفَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ (٢) وَأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ (٣) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْأَحْيَاءِ الْعُقُلَاءِ ، وَأَنَّهُ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ خَيَالًا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْمَلْحَدَةُ الْمُتَفَلِّسَةُ وَالْمُدَّعُونَ وَلَايَةَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

(١) - عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ . قُلْتُ مَا هُنَّ قَالَتْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ . قَالَ وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِيْنِي وَلَا تَعْجَلِيْنِي أَلَمْ يَهْلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ)) وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى . فَقَالَتْ أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ « إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ». فَقَالَتْ أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ (لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ) قَالَتْ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَغْطَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَّةَ وَاللَّهُ يَقُولُ (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ). قَالَتْ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَغْطَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَّةَ وَاللَّهُ يَقُولُ (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ). صحيح مسلم (٤٥٧)

أنظري : أخرى وأمهلني

(٢) - كما في قوله تعالى : {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} (١٩٣) سورة الشعراء

(٣) - كما في قوله تعالى : {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}

(١٠٢) سورة النحل

وَعَايَةِ حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ إِنَّكَارُ "أُصُولُ الْإِيمَانِ" بِأَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (١)، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ جَعْدُ الْخَالِقِ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودَ الْخَالِقِ، وَقَالُوا : الْوُجُودُ وَاحِدٌ وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنُّوعِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمًى الْوُجُودِ كَمَا تَشْتَرِكُ الْإِنْسَانِي فِي مُسَمًى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَاتُ فِي مُسَمًى الْحَيَوَانِ، وَلَكِنْ هَذَا الْمُشْتَرَكُ الْكُلِّيُّ لَا يَكُونُ مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا إِلَّا فِي الذَّهْنِ، وَإِلَّا فَالْحَيَوَانِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِهَذَا الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَرَسِ وَوُجُودُ السَّمَوَاتِ لَيْسَ هُوَ بِعَيْنِهِ وَوُجُودُ الْإِنْسَانِ، فَوُجُودُ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَ هُوَ كَوُجُودِ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ قَوْلُ فِرْعَوْنَ الَّذِي عَطَّلَ الصَّانِعَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنْكَرًا هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ ؛ لَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ لَا صَانِعَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ وَافِقُوهُ فِي ذَلِكَ ؛ لَكِنْ زَعَمُوا بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَكَانُوا أَضَلَّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا هُوَ أَظْهَرَ فُسَادًا مِنْهُمْ، وَلِهَذَا جَعَلُوا عِبَادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ وَقَالُوا : " لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحْكُمِ صَاحِبَ السِّيفِ وَإِنْ جَارَ فِي الْعُرْفِ التَّامُوسِي كَذَلِكَ قَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى - أَيْ وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةِ مَا قَانَا الْأَعْلَى مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيَتْهُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْحُكْمِ فِيكُمْ ". قَالُوا : " وَلَمَّا عَلِمْتَ السَّحْرَةَ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَه أَفَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ وَقَالُوا : {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (٢)(٧٢) سورة طه، قَالُوا : فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، وَكَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ " (٣)

(١) - عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَحْذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتُحِجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ». صحيح مسلم

(١٠٢)

(٢) - وَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ وَتَوَعَّدَهُمْ ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ نَفْسُهُمْ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالُوا لَهُ : لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى رَبِّنَا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَخَالَقِنَا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَدَمٍ ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ وَحْدَهُ الْعِبَادَةُ لَا آتَتْ ، فَافْعَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا إِلَّا فِي هَذِهِ الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَهِيَ دَارُ زَانِلَةٍ فَانِيَةٍ ، وَنَحْنُ قَدْ رَغَبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ ، الدَّارِ الْآخِرَةِ .

(٣) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١٣ / ص ١٨٥)

وَحَقِيقَةُ قَوْلِ الْجَهْمِيَةِ الْمُعْطَلَةِ هُوَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ وَهُوَ جَحْدُ الْخَالِقِ وَتَعْطِيلُ كَلَامِهِ وَدِينِهِ كَمَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَفْعَلُ فَكَانَ يَجْحَدُ الْخَالِقَ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَقُولُ : { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } وَيَقُولُ لِمُوسَى { لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } وَيَقُولُ : { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } وَكَانَ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ كَلَّمَ مُوسَى أَوْ يَكُونَ لِمُوسَى إِلَهٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ وَيُرِيدُ أَنْ يُبْطِلَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَيَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودُ الْمُطَاعَ . فَلَمَّا كَانَ قَوْلُ الْجَهْمِيَةِ الْمُعْطَلَةِ الْفَنَاءَ يَتَوَلَّى إِلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ كَانَ مُنْتَهَى قَوْلِهِمْ إِنْكَارَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِنْكَارَ عِبَادَتِهِ وَإِنْكَارَ كَلَامِهِ حَتَّى ظَهَرُوا بِدَعْوَى التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعُرْفَانِ فَصَارُوا يَقُولُونَ : الْعَالَمُ هُوَ اللَّهُ وَالْوُجُودُ وَاحِدٌ وَالْمَوْجُودُ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ الْخَالِقُ هُوَ الْمَوْجُودُ الْمُحْدَثُ الْمَخْلُوقُ وَالرَّبُّ هُوَ الْعَبْدُ مَا تَمَّ رَبٌّ وَعَبْدٌ وَخَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ ؛ بَلْ هُوَ عَنْهُمْ فَرْقَانٌ . وَلِهَذَا صَارُوا يَعْبُدُونَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَيَنْقُصُونَهُمْ ؛ وَيَعْبُدُونَ عَلَى نُوحٍ وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَغَيْرِهِمَا وَيَمْدَحُونَ فِرْعَوْنَ وَيَجُوزُّونَ عِبَادَةَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَجَمِيعِ الْأَصْنَامِ وَلَا يُرْضُونَ بِأَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ حَتَّى يَقُولُوا : إِنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ لَمْ يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَأَنَّ اللَّهَ نَفْسُهُ هُوَ الْعَابِدُ وَهُوَ الْمَعْبُودُ وَهُوَ الْوُجُودُ كُلُّهُ فَجَحَدُوا الرَّبَّ وَأَبْطَلُوا دِينَهُ وَأَمَرَهُ وَنَهَيْهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولُهُ وَتَكْلِيمَهُ لِمُوسَى وَغَيْرِهِ . وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا جَمَاعَةٌ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْكَلَامِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ الْمُنَاسِبِ لِدَلِيلِ كَاتِبِ السَّيَرِ وَالصَّدْرِ الْقُنُويِّ تَلْمِيزِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَالبُلْبَانِيِّ وَالتَّلْمِيسَانِيِّ وَهُوَ مِنْ خُذَافِهِمْ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَكَانَ يُظْهِرُ الْمَذْهَبَ بِالْفِعْلِ فَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَأْتِي الْمُحَرَّمَاتِ . وَحَدَّثَنِي الثَّقَةُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ " فُصُوصَ الْحِكْمِ " لِابْنِ عَرَبِيٍّ وَكَانَ يَظُنُّهُ مِنْ كَلَامِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْعَارِفِينَ فَلَمَّا قَرَأَهُ رَأَاهُ يُخَالِفُ الْقُرْآنَ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ : هَذَا الْكَلَامُ يُخَالِفُ الْقُرْآنَ فَقَالَ : الْقُرْآنُ كُلُّهُ شَرِّكَ وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا وَكَانَ يَقُولُ : ثَبِتْ عِنْدَنَا فِي الْكُشْفِ مَا يُخَالِفُ صَرِيحَ الْمَعْقُولِ . وَحَدَّثَنِي مَنْ كَانَ مَعَهُ وَمَعَ آخَرَ نَظِيرَ لَهُ فَمَرَّ عَلَى كَلْبٍ أَجْرَبَ مَيِّتٍ بِالطَّرِيقِ عِنْدَ دَارِ الطَّعْمِ فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ : هَذَا أَيْضًا هُوَ ذَاتُ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : وَهَلْ تَمَّ شَيْءٌ خَارِجٌ عَنْهَا ؟ نَعَمْ الْجَمِيعُ فِي ذَاتِهِ . وَهَؤُلَاءِ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ هُوَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ ؛ لَكِنَّ فِرْعَوْنَ مَا كَانَ يَخَافُ أَحَدًا فَيُنَافِقُهُ فَلَمْ يُنَبِّتِ الْخَالِقَ وَإِنْ كَانَ فِي الْبَاطِنِ مُقِرًّا بِهِ وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ إِلَّا مَخْلُوقٌ ؛ لَكِنَّ حُبَّ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَالظُّلْمَ دَعَاهُ إِلَى الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ كَمَا قَالَ { فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ مِنْ وَجْهِ يُنَافِقُونَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُمَكِّنُهُمْ إِظْهَارُ جُحُودِ الصَّانِعِ وَمِنْ وَجْهِ هُمْ ضَلَالٌ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمَخْلُوقُ فَكَانَ قَوْلُهُمْ هُوَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ لَكِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مُعَانِدًا مُظْهِرًا لِلْجُحُودِ وَالْعِنَادِ وَهَؤُلَاءِ إِمَّا جُهَالٌ ضَلَالٌ وَإِمَّا مُنَافِقُونَ مُبْطِنُونَ الْإِلْحَادَ وَالْجُحُودَ يُؤَافِقُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ السَّيِّدِ الَّذِي كَانَ قَاضِي الْيَهُودِ ثُمَّ أَسْلَمَ وَكَانَ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَمِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْسَنِهِمْ إِسْلَامًا أَنَّهُ كَانَ يَجْتَمِعُ بِشَيْخٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الشَّرَفُ الْبَلَّاسِي يُطَلِّبُ مِنْهُ الْمَعْرِفَةَ وَالْعِلْمَ . قَالَ : فَدَعَانِي إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ فَقُلْتُ لَهُ : قَوْلُكُمْ يُشَبِّهُ قَوْلَ فِرْعَوْنَ قَالَ : وَنَحْنُ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ فَقُلْتُ لِعَبْدِ السَّيِّدِ وَاعْتَرَفَ لَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ وَكَانَ عَبْدُ السَّيِّدِ إِذْ ذَاكَ قَدْ ذَاكَرَنِي بِهَذَا الْمَذْهَبِ فَقُلْتُ لَهُ : هَذَا مَذْهَبٌ فَاسِدٌ وَهُوَ يَقُولُ إِلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ فَحَدَّثَنِي بِهَذَا فَقُلْتُ لَهُ مَا ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِأَنَّهُمْ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ لَكِنَّ مَعَ إِقْرَارِ الْخَصْمِ مَا يَحْتَاجُ

إِلَى بَيْتِهِ . قَالَ عَبْدُ السَّيِّدِ فَقُلْتُ لَهُ : لَا أَدْعُ مُوسَى وَأَذْهَبُ إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ : وَلِمَ ؟ قُلْتُ : لِأَنَّ مُوسَى أَعْرَقَ فِرْعَوْنَ فَأَنْقَطَعَ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالظُّهُورِ الْكَوْنِيِّ فَقُلْتُ لِعَبْدِ السَّيِّدِ - وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ - نَفَعْتُكَ الْيَهُودِيَّةَ يَهُودِيَّ خَيْرٌ مِنْ فِرْعَوْنِي . وَفِيهِمْ جَمَاعَاتٌ لَهُمْ عِبَادَةٌ وَرَهْدٌ وَصَدَقَ فِيهِمْ فِيهِ وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُ حَقٌّ وَعَامَّتُهُمْ - الَّذِينَ يَقْرُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ - لَا يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ ؛ بَلْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُ تَحْقِيقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالِدِّينَ وَهُمْ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَيَحْسُبُونَ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ أَوْلِيكَ مِنْ جِنْسِ الْقَضِيلِ بْنِ عِيَّازٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ وَالسَّرِيَّ السَّقَطِيَّ وَالْجَنِيدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَمثالَ هَؤُلَاءِ . وَأَمَّا عَرَفُهُمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَيَقُولُونَ مَا يَقُولُ ابْنُ عَرَبِيٍّ وَنَحْوُهُ إِنَّ الْأَوْلِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ مِنَ خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ يَسْتَفِيدُونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِنْ مَشْكَاةِ خَاتِمِ الْأَوْلِيَاءِ وَأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلِكُ الَّذِي يَأْتِي خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّهُمْ مُتَجَهِّمَةٌ مُتَفَلْسِفَةٌ يُخْرِجُونَ أَقْوَالَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِي قَالِبِ الْكَشْفِ . وَعِنْدَ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَنَّ جَبْرِيلَ إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ لَيْسَ هُوَ مَلَكًا يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا الْخَيَالِ وَأَمَّا خَاتِمُ الْأَوْلِيَاءِ فِي رَعْمِهِمْ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْعَقْلِ الْمُجَرَّدِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْخَيَالُ ؛ فَهُوَ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلِكُ الَّذِي يُوحِي بِهِ إِلَى الرَّسُولِ . وَهُمْ يُعْظَمُونَ فِرْعَوْنَ . وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ " الْفُصُوصِ " قَالَ : وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ الشَّحْكَمِ صَاحِبِ الْوَقْتِ وَأَنَّهُ جَارٍ فِي الْعُرْفِ النَّامُوسِي ؛ لِذَلِكَ قَالَ : { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } أَيُّ وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةِ مَا فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْهُمْ بِمَا أُعْطِيَتْهُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْحُكْمِ فَيَكُمُ قَالَ : وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ لَمْ يُنْكِرُوهُ وَأَقْرَبُوا لَهُ بِذَلِكَ . وَقَالُوا لَهُ : { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } قَالَ : فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } وَإِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ . وَحَدَّثَنِي الثَّقَةُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُمْ أَنَّ أَبْعَضَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : وَإِذَا نَهَقَ الْحِمَارُ وَبَحَّ الْكَلْبُ سَجَدُوا لَهُ وَقَالُوا هَذَا هُوَ اللَّهُ فَإِنَّهُ مَظْهَرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ . قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا مَظْهَرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ فَاجْعَلُوهُ كَسَائِرِ الْمَظَاهِرِ وَأَنْتُمْ تُعْظَمُونَ الْمَظَاهِرَ كُلَّهَا أَوْ أُسْكِنُوا عَنْهُ قَالَ فَقَالُوا لِي : مُحَمَّدٌ نَبْعُضُهُ فَإِنَّهُ أَظْهَرَ الْفَرْقِ وَدَعَا إِلَيْهِ وَعَاقَبَ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهِ قَالَ : فَتَنَاقَضُوا فِي مَذْهَبِهِمُ الْبَاطِلَ وَجَعَلُوا الْكَلْبَ وَالْحِمَارَ أَفْضَلَ مِنْ أَفْضَلِ الْخَلْقِ قَالَ لِي : وَهُمْ يُصِرُّونَ بِاللَّعْنَةِ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ وَكُفْرًا بِالرَّحْمَنِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحِمَارِ وَنَبَاحَ الْكَلْبِ فَتَعَوِّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا } فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا نَهْيَ الْحِمَارِ وَنَبَاحَ الْكَلْبِ تَكُونُ الشَّيَاطِينُ قَدْ حَضَرَتْ فَيَكُونُ سُجُودُهُمْ لِلشَّيَاطِينِ . وَكَانَ فِيهِمْ شَيْخٌ جَلِيلٌ مِنْ أَعْظَمِهِمْ تَحْقِيقًا - لَكِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسُبُّونَ الْأَنْبِيَاءَ - وَقَدْ صَنَّفَ كِتَابًا سَمَّاهُ " فَكَ الْأَزْزَارِ عَنْ أَغْنَاكَ الْأَسْرَارِ " ذَكَرَ فِيهِ مُخَاطَبَةً جَرَتْ لَهُ مَعَ إِبْلِيسَ وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ مَا مَعَاهُ : إِنَّكُمْ قَدْ غَلَبْتُمُونِي وَقَهَرْتُمُونِي وَنَحَوَ هَذَا لَكِنْ جَرَتْ لِي قِصَّةٌ تَعَجَّبْتُ مِنْهَا مَعَ شَيْخٍ مِنْكُمْ فَإِنِّي تَجَلَّيْتُ لَهُ فَقُلْتُ : أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَسَجَدَ لِي فَتَعَجَّبْتُ كَيْفَ سَجَدَ لِي . قَالَ هَذَا الشَّيْخُ : فَقُلْتُ لَهُ : ذَاكَ أَفْضَلُنَا وَأَعْلَمُنَا وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ قِصْدَهُ مَا رَأَى فِي الْوُجُودِ اثْنَيْنِ وَمَا رَأَى إِلَّا وَاحِدًا فَسَجَدَ لِذَلِكَ الْوَاحِدِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ إِبْلِيسَ وَغَيْرِهِ فَجَعَلَ هَذَا الشَّيْخُ ذَاكَ الَّذِي سَجَدَ لِإِبْلِيسَ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الرَّبِّ وَغَيْرِهِ ؛ بَلْ جَعَلَ إِبْلِيسَ هُوَ اللَّهُ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ جَعَلَهُ أَفْضَلَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ . وَلِهَذَا عَابَ ابْنُ عَرَبِيٍّ نُوْحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ وَأَنْجَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ

وَأَهْلَكَ سَائِرَ أَهْلِ الْأَرْضِ لَمَّا كَذَّبُوهُ ؛ فَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا وَعَظَّمَ قَوْمَهُ الْكُفَّارَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْأَصْنَامَ وَأَتَتْهُمْ مَا عَبْدُوا إِلَّا اللَّهَ وَأَنَّ خَطَايَاهُمْ خَطَتْ بِهِمْ فَعَرَفُوا فِي بَحَارِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَهَذَا عَادَتُهُ يَنْتَقِصُ الْأَنْبِيَاءَ وَيَمْدَحُ الْكُفَّارَ كَمَا ذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَغَيْرِهِمْ . وَمَدَحَ عِبَادَ الْعِجْلِ وَتَنَقَّصَ هَارُونَ وَافْتَرَى عَلَى مُوسَى . فَقَالَ : وَكَانَ مُوسَى أَعْلَمَ بِالْأَمْرِ مِنْ هَارُونَ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ مَا عَبْدَهُ أَصْحَابُ الْعِجْلِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَضَى أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ وَمَا قَضَى اللَّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَعَ فَكَانَ عَتَبُ مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ لَمَّا وَقَعَ الْأَمْرُ فِي انْكَارِهِ وَعَدَمِ اتِّسَاعِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَارِفَ مَنْ يَرَى الْحَقَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ بَلْ يَرَاهُ عَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ فَذَكَرَ عَنْ مُوسَى أَنَّهُ عَتَبَ عَلَى هَارُونَ أَنَّهُ أَتَكَرَّ عَلَيْهِمْ عِبَادَةُ الْعِجْلِ وَأَنَّهُ لَمْ يَسْعَ ذَلِكَ فَأَتَكَرَّهُ فَإِنَّ الْعَارِفَ مَنْ يَرَى الْحَقَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ بَلْ يَرَاهُ عَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْإِفْرَاءِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَعَلَى اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِ الْعِجْلِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ مُوسَى أَنَّهُ أَتَكَرَّ الْعِجْلَ انْكَارًا أَعْظَمَ مِنْ انْكَارِ هَارُونَ وَأَنَّهُ أَخَذَ بِلِحْيَةِ هَارُونَ لَمَّا لَمْ يَدْعُهُمْ وَيَتَّبِعْ مُوسَى لِمَعْرِفَتِهِ . قَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } { قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ } { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } { قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا } { أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } { قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } . قُلْتُ لِبَعْضِ هَؤُلَاءِ : هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي ذَكَرَهُ هَذَا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ يُوَافِقُ الْقُرْآنَ أَوْ يُخَالِفُهُ ؟ فَقَالَ : لَا بَلْ يُخَالِفُهُ قُلْتُ : فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ إِمَّا الْقُرْآنَ وَإِمَّا كَلَامَ ابْنِ عَرَبِيٍّ . وَكَذَلِكَ قَالَ عَنْ نُوحٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ نُوحًا جَمَعَ لِقَوْمِهِ بَيْنَ الدَّعْوَتَيْنِ لَأَجَابُوهُ أَيْ ذَكَرَ لَهُمْ فَدَعَاهُمْ جِهَارًا ثُمَّ دَعَاهُمْ إِسْرَارًا إِلَى أَنْ قَالَ : وَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ مَكْرٌ بِالْمَدْعُوِّ ؛ لِأَنَّهُ مَا عُدِمَ مِنَ الْبِدَايَةِ فَيُدْنَى إِلَى الْغَايَةِ { أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ } فَهَذَا عَيْنُ الْمَكْرِ { عَلَى بَصِيرَةٍ } فَتَبَّهَ أَنَّ الْقَمَرُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَأَجَابُوهُ مَكْرًا كَمَا دَعَاهُمْ فَجَاءَ الْمُحَمَّدِيُّ وَعَلِمَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ مَا هِيَ مِنْ حَيْثُ هُوَ يَتَّبِعُهَا وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ حَيْثُ أَسْمَانِهِ فَقَالَ : { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } فَجَاءَ بِحَرْفِ الْغَايَةِ وَقَرَنَهَا بِالْإِسْمِ فَعَرَفْنَا أَنَّ الْعَالَمَ كَانَ تَحْتَ حَيْطَةِ اسْمِ إِلَهِي أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُتَّقِينَ فَقَالُوا فِي مَكْرِهِمْ : { لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } فَإِنَّهُمْ إِذَا تَرَكُوهُمْ جَهَلُوا مِنَ الْحَقِّ بِقَدَرِ مَا تَرَكُوا مِنْ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ لِلْحَقِّ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ وَجْهًا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَجْهَلُهُ مَنْ يَجْهَلُهُ كَمَا قَالَ فِي الْمُحَمَّدِيِّينَ : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } أَيَّ حَكَمٍ فَالْعَارِفُ يَعْرِفُ مَنْ عَبْدَ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ ظَهَرَ حَتَّى عَبْدٌ وَأَنَّ التَّفْرِيقَ وَالْكَثْرَةَ كَالْأَعْضَاءِ فِي الصُّورَةِ الْمَحْسُوسَةِ وَكَالْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ فِي الصُّورَةِ الرُّوحَانِيَّةِ فَمَا عَبْدٌ غَيْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ . وَهُوَ دَائِمًا يُحَرِّفُ الْقُرْآنَ عَنْ مَوَاضِعِهِ كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : { مِمَّا خَطَبَاتِهِمْ } فَهِيَ الَّتِي خَطَّتْ بِهِمْ فَعَرَفُوا فِي بَحَارِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَهِيَ الْحَبِيرَةُ { فَأَدْخِلُوا نَارًا } فِي عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْمُحَمَّدِيِّينَ { وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } { سَجَرَتِ التَّنُورُ } أَوْقَدَتْهُ { فَلَمْ يَجْلُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } فَكَانَ اللَّهُ عَيْنَ أَنْصَارِهِمْ فَهَلَكُوا فِيهِ إِلَى الْأَبَدِ وَقَوْلُهُ : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } بِمَعْنَى أَمَرَ وَأَوْجَبَ وَفَرَضَ . وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى (وَوَصَّى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ فَجَعَلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَدَّرَ وَشَاءَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَمَا قَدَرَهُ فَهُوَ كَانَتْ فَجَعَلَ مَعْنَاهَا كُلُّ مَعْبُودٍ هُوَ اللَّهُ وَأَنَّ أَحَدًا

مَا عَبْدَ غَيْرَ اللَّهِ قَطُّ وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْقُرْيَةِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى دِينِهِ وَعَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . فَإِنَّ اللَّهَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَخْبَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ ؛ بَلْ يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } { وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } { وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } { وَقَالَ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ : { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُلُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } { وَقَالَ تَعَالَى : { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } { إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } . وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْخَلِيلِ : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } { يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } { يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } { قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُوكَ وَهَاجِرُنِي مَلِيًّا } { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } { وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } { فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا } { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } . فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : { فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } { وَهَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ يَقُولُونَ : مَا عَبْدْنَا غَيْرَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ . } { وَقَالَ تَعَالَى : { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } { وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { إِلَى قَوْلِهِ : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ سَيَبْقَا لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } . قَالَ أَبُو قَلَابَةَ : هِيَ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْ يَذْلَهُ اللَّهُ .

، ثُمَّ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَجَعَلُوا أَهْلَ النَّارِ يَتَنَعَّمُونَ كَمَا يَتَنَعَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَصَارُوا كَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ خُلَاصَةُ خُلَاصَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ أَهْلِ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ مِنْ مِشْكَاتِهِمْ .

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ الْإِحَادِ هَؤُلَاءِ ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي " أَوْلِيَاءِ اللَّهِ " وَالْفَرْقِ بَيْنَ " أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ " وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ " وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ادِّعَاءَ لَوْلَايَةِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ، تَبَهَّنَا عَلَى ذَلِكَ . وَلِهَذَا عَامَّةُ كَلَامِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَالَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْفَتْوحَاتِ : (بَابُ أَرْضِ الْحَقِيقَةِ، وَيَقُولُونَ هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ (١) . فَتَعْرِفُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هِيَ خَيَالٌ وَمَحَلُّ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ لِلنَّاسِ الْأُمُورَ بِخِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) } وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) } (٢) [الزخرف/٣٦-٤٠] .

(١) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٣١٢)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَكْثَرُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ جَاءُوا بِمَا تَعَجَّرُ الْعُقُولُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَلَمْ يَجِئُوا بِمَا تَعْلَمُ

الْعُقُولُ بَطْلَانُهُ فَهُمْ يُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ الْعُقُولِ لَا بِمَحَالَاتِ الْعُقُولِ وَهَؤُلَاءِ الْمَلَا حِدَةُ يَدْعُونَ أَنَّ مُحَالَاتِ الْعُقُولِ صَحِيحَةٌ وَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّقْيِضَيْنِ صَحِيحٌ وَأَنَّ مَا خَالَفَ صَرِيحَ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحَ الْمُنْقُولِ صَحِيحٌ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ خَيَالٍ وَأَوْهَامٍ يَتَخَيَّلُونَ فِي نَفْسِهِمْ أُمُورًا يَتَخَيَّلُونَهَا وَيَوْهَمُونَهَا فَيُظَنُّونَهَا ثَابِتَةً فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا هِيَ خَيَالٌ لَهُمْ وَالْخَيَالُ الْبَاطِلُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ . وَلِهَذَا يَقُولُونَ : أَرْضُ الْحَقِيقَةِ هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ وَغَيْرُهُ ؛ وَلِهَذَا يَحْكُونَ حِكَايَةَ ذِكْرِهَا سَعِيدُ الْفَرَاغِي شَارِحُ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارَضِ - وَكَانَ مِنْ شُيُوخِهِمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : - بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي تُرَا حِمْنِي فَارْفَعْ بِحَقِّكَ إِنِّي مِنَ الْبَيْنِ فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يُفَسِّرُ بِمَعَانٍ ثَلَاثَةً يَقُولُهُ الْمُلْحِدُ وَيَقُولُهُ الرَّدِّيقُ وَيَقُولُهُ الصَّدِّيقُ . فَالْقَوْلُ : مُرَادُهُ بِهِ طَلَبُ رَفْعِ ثُبُوتِ إِنْشِئِهِ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ وُجُودَهُ هُوَ وُجُودُ الْحَقِّ وَإِنْشِئِهِ هِيَ إِنْشِئَةُ الْحَقِّ فَلَا يُقَالَ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ وَلَا سِوَاهُ .

(٢) - وَمَنْ يَتَغَالَى وَيَتَعَامَ عَنِ الْقُرْآنِ ، وَعَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَتَهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي ، وَلَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا . فَإِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَيَكُونُونَ لَهُ قُرَنَاءَ ، يُزَيِّنُونَ لَهُ ارْتِكَابَ الْمَعَاصِي ، وَالْإِشْتِغَالَ بِاللَّذَاتِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِيهَا فَيَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ .

وَهَؤُلَاءِ الْقُرَنَاءُ مِنْ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، الَّذِينَ يُقَيِّضُهُمُ اللَّهُ لِكُلِّ مَنْ يَعِشُوا عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ، يُحَاوِلُونَ صَرْفَهُ عَنْ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَيُؤَسَّسُونَ لَهُ أَنَّهُ عَلَى جَادَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، وَأَنَّ غَيْرَهُ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَيُكْرَهُونَ إِلَيْهِ الْإِيمَانَ فَيُطِيعُهُمْ .

وَحِينَ يُؤَافِي هَذَا الْعَاقِلُ ، الَّذِي تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ ، رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّمُ بِالشَّيْطَانِ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَبُئْسَ الْقَرِينُ أَأَنْتَ ، لِأَنَّكَ أَضَلَلْتَنِي ، وَأَوْصَلْتَنِي إِلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ .

وَيُقَالُ لِهَذَا الْعَاقِلِ الْجَاهِلِ وَأَمَثَالِهِ ، وَشَيَاطِينِهِمْ تَقَرُّبًا وَتَوَخُّبًا : لَنْ يَنْفَعَكُمْ ، وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْكُمْ اجْتِمَاعُكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَنتُمْ وَقُرَنَاؤُكُمْ ، وَلَا اشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُعَانِي مِنَ الْعَذَابِ مَا يَكُونُ بِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) } إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَرِّئَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأُمرِّئَنَّهُمْ فَيَلْبِغُونَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعْلَمُهُمْ وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا يَعْلَمُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) { (١) [النساء/١١٦-١٢١] .

(١) - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ يُشْرِكُ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ سِوَاهُ ، أَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى ، وَابْتَعَدَ عَنِ الصَّوَابِ ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ ، وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّ الْكَافِرِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا صَوَّرُوهَا ، وَقَالُوا إِنَّهَا تُشْبِهُ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ ، لِذَلِكَ عَبَدُوهَا ، وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ الْإِنَاثِ (مِثْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاة . .) وَالَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ ، وَهُوَ الَّذِي حَسَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَزَيَّنَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَكَانَتْ طَاعَتُهُمْ لَهُ عِبَادَةً .

وَالشَّيْطَانُ الَّذِي أَضَلَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ قَدْ طَرَدَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَوَارِهِ (لَعَنَهُ) .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ : إِنَّهُ سَيَفْتِنُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَسَيَتَّخِذُ مِنْهُمْ نَصِيبًا مُعَيَّنًا يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ .

(وَقِيلَ إِنَّ النَّصِيبَ الْمَفْرُوضَ الْمَقْصُودَ هُنَا هُوَ مَا لِلشَّيْطَانِ فِي نَفْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ اسْتِعْدَادٍ لِلشَّرِّ ، إِذْ مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَيَشْعُرُ فِي نَفْسِهِ بِوَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ) .

وَيَتَابَعُ الشَّيْطَانُ قَوْلَهُ اللَّهُ : إِنَّهُ سَيَعْمَلُ عَلَى إِضْلَالِ عِبَادِ اللَّهِ عَنِ الْحَقِّ ، وَعَلَى صَرْفِهِمْ عَنِ الْهُدَى ، وَإِنَّهُ سَيُزَيِّنُ لَهُمُ الْاسْتِعْجَالَ بِاللَّذَاتِ الْحَاضِرَةِ ، وَالتَّسْوِيفَ بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَسَيَعْلَمُهُمُ الْأَمَانِي ، وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُهُمْ بِتَشْتِيقِ آذَانِ الْبَهَائِمِ السَّائِمَةِ ، وَجَعْلِهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ ، وَسَيَأْمُرُهُمْ بِتَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِيَةِ كَخَصْنِ الدَّوَابِّ وَالْوَشْمِ ، وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْمَعْنَوِيَةِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَّا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَطَلَبِ الْحَقِّ ، وَتَرْبِيَّتِهَا وَتَوْبِيدِهَا عَلَى الْأَبَاطِيلِ وَالرَّذَائِلِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَهَؤُلَاءِ يُفْسِدُونَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ، وَيَطْمِسُونَ عُقُولَ النَّاسِ .

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَخْسِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا جَبْرَ لَهَا ، وَلَا اسْتِدْرَاكَ لِفَاتِيهَا .

يُخَوِّفُ الشَّيْطَانُ النَّاسَ مِنَ الْفَقْرِ إِذَا هُمْ أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيُوسَّسُ لَهُمْ بِأَنَّ أَمْوَالَهُمْ تَنْفَدُ أَوْ تَقْصُ ، وَيُضْحِكُونَ فَقَرَاءَ أَذْلَاءَ ، وَيَعْلَمُهُمُ بِالْغِنَى وَالثَّرْوَةِ حِينَ يُغْرِبُهُمْ بِلَعَبِ الْقِمَارِ وَيَمْنِيهِمْ بِأَنَّهُمْ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَى فِي ذَلِكَ فَرَعُودُهُ بَاطِلَةٌ .

وَقَالَ تَعَالَى : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (١) (٢٢) سورة إبراهيم ،

وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (٢) (٤٨) سورة الأنفال ، وَقَدْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ " « أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَرْعَى الْمَلَائِكَةَ » (٣) .

" وَالشَّيَاطِينُ إِذَا رَأَتْ مَلَائِكَةَ اللَّهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ هَرَبَتْ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَتِهِ . قَالَ تَعَالَى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا هَؤُلَاءِ ضَرْبًا وَاحِدًا وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) } (٤) "

(١) - وَبَعْدَ أَنْ يُيَمِّمَ اللَّهُ تَعَالَى قَضَاءَهُ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَيُدْخِلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَيُدْخِلَ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ، يَقُومُ إِبْلِيسُ خُطِيبًا فِي أَهْلِ النَّارِ ، لِيَزِيلَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ، وَوَعَدَكُمْ بِالنَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ إِنْ آمَنْتُمْ بِهِ ، وَصَدَقْتُمْ رَسُولَهُ ، وَكَانَ وَعْدُهُ حَقًّا . أَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي دَلِيلٌ وَلَا حُجَّةٌ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ ، وَدَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَقَدْ اسْتَجَبْتُمْ لِي بِمُجَرَّدِ أَنْ دَعَوْتُكُمْ وَوَسَّوَسْتُ لَكُمْ ، وَقَدْ أَقَامَتِ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاؤُوكُمْ بِهِ ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ وَاتَّبَعْتُمُونِي فَصَرَّيْتُكُمْ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ ، فَلَا تَلُمُونِي الْيَوْمَ ، وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ لَأَنَّ الذَّنْبَ ذَنْبُكُمْ ، فَمَا أَنَا الْيَوْمَ بِمُغِيثِكُمْ (مُصْرِخِكُمْ) ، وَلَا مُنْقِذِكُمْ مِمَّا أَنتُمْ فِيهِ ، وَمَا أَنتُمْ بِنَافِعِي وَلَا مُنْقِذِي وَلَا مُغِيثِي (مُصْرِخِي) مِمَّا أَنَا فِيهِ ، مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ ، وَإِنِّي جَحَدْتُ (كَفَرْتُ) أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا أَشْرَكْتُمُونِي فِيهِ فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ إِبْلِيسُ : إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَاتَّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّاسِ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَالُ إِبْلِيسَ مَعَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا لِيَكُونَ ذَلِكَ تَنْبِيهَاً

لَهُمْ ، وَحَصَّاءُ لَهُمْ عَلَى التَّبَصُّرِ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ .

(٢) - وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إِذْ زَيْنَ الشَّيْطَانُ لُكْفَارَ قُرَيْشٍ أَعْمَالَهُمْ بِسُوءِ سَيِّئِهِ ، وَإِذْ حَسَنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مَا جَاؤُوا لَهُ ، وَمَا هُمُّوا بِهِ ، وَأَطْمَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَنصُورُونَ ، وَأَنَّهُمْ لَا غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ ، وَطَمَأْنَنَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ أَثْنَاءَ غَيْبَتِهِمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ ، لِأَنَّهُ جَارٌّ لَهُمْ وَمُجِيرٌ ، فَلَمَّا اتَّقَى الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَرَأَى الشَّيْطَانُ مَلَائِكَةَ اللَّهِ يَحْمُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَّى هَارِبًا { تَكْصَ عَلَى عَقَبِيهِ } ، وَقَالَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ : إِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا يَرُونَ ، إِنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ يَنْصُرُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وَسَطَوْتِهِ ، مَا لَا يَعْلَمُهُ أَوْلِيَائُهُ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَخَافُ اللَّهَ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) - موطأ مالك (٩٥٠) وشعب الإيمان للسيهقي (٣٩١١) صحيح لغيره

(٤) - وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ لِشُكْرِهِ عَلَيْهَا ، فَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ ، بَأَن يَثْبُتُوا الْمُسْلِمِينَ وَيَقْوُوا قُلُوبَهُمْ ، فَيُلْهِمُوهُمْ تَذَكُّرَ وَعْدِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى سَيَجْعَلُ الرَّعْبَ يَسْتَوِي عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ فَيُصِيبُهُمُ الْفَزَعُ .
ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِأَن يَضْرِبُوا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَيَقْطَعُوهَا ، وَبَأَن يَقْطَعُوا الْأَيْدِي ذَاتِ الْبَنَانِ الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الضَّرْبِ فِي الْحَرْبِ .

[الأنفال/١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } (١) (٩) سورة الأحزاب .

(١) - وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِتَقْوَاهُ ، وَبِعَدَمِ الْخَوْفِ مِنْ سِوَاهُ ، ذَكَرَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا تَقْصُلُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ ، وَمِنْ تَحْقِيقِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِ ، وَذَلِكَ حِينَمَا جَاءَهُمْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا كَفَّتْ قُدُورَهُمْ ، وَاقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ - وَهُمْ جُنُودُهُ ، وَلَمْ يَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ - يُوقِفُونَ الْخَوْفَ وَالرَّعْبَ وَالْخِذْلَانَ فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ ، فَارْتَحَلُوا فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ ، وَكَانَ اللَّهُ بَصِيرًا بِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَصَدَقَ نَبَاتُهُمْ ، فَتَوَلَّى الدِّفَاعَ عَنْهُمْ .

وَقِصَّةُ الْأَحْزَابِ كَمَا رَوَّاهَا كُتُبُ السِّيَرَةِ كَأَنَّ كَمَا يَلِي : إِنَّ نَفَرًا مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ جَاؤُوا إِلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ ، فِي شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ يُحَرِّضُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَاؤُوا إِلَى قَبَائِلِ غَطَفَانَ وَقَيْسِ عِيلَانَ وَأَسَدٍ وَحَالَفُوهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ يَدًا وَاحِدَةً ، فَخَرَجَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَلَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ بِمَسِيرِهِمْ إِلَيْهِ ، اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ يُسَاعِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَنَعِ تَقَدُّمِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى دَاخِلِهَا ، فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ . وَلَمَّا وَصَلَتِ الْقَبَائِلُ الْمُتَحَالِفَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَدُوا الْخَنْدَقَ ، فَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ ، وَتَشَبَّهَتْ مُنَاقَشَاتُ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ . وَفِي أَثْنَاءِ الْحِصَارِ نَقَضَ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِمَسْعَى مِنْ حُبِّي بْنِ أَخْطَبَ سَيِّدِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ أَجْلَاهُمْ الرَّسُولُ إِلَى خَيْبَرَ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ جَاءَ نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَهُوَ مِنْ غَطَفَانَ ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يُعْلِمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَأَنَّ قَوْمَهُ لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِهِ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِمَا يَرَى فِيهِ ، الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ فَخَذَلُ عَنَّا مَنْ اسْتَطَعَتْ ، فَذَهَبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَكَانَ يُخَالِطُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَقَالَ لَهُمْ : لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ قُرَيْشًا وَمَنْ

مَعَهَا مِنَ الْقَبَائِلِ لَيْسَ لَهُمْ مَقَامٌ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا مَا عَصَتْهُمْ الْحَرْبُ انْسَحَبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَتَبَقُّونَ أَنتُمْ وَخَدَّكُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ، وَأَنْتُمْ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ وَخَدَّكُمْ ، وَالرَّأْيُ أَنْ تَطْلُبُوا رَهَانَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الَّتِي تُحَاصِرُ الْمَدِينَةَ لِكَيْلَا يَنْسَحِبُوا وَيَتَرَا جُوعًا عَنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ قَبْلَ الْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَفَعَلُوا .

وَذَهَبَ إِلَى قُرَيْشٍ وَعُظْفَانَ وَالْقَبَائِلِ الْأُخْرَى يَقُولُ لَهُمْ إِنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ نَدِمُوا عَلَى نَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّهُمْ وَعَدُوهُ بِأَنْ يُسَلِّمُوهُ وَجُوهَ الْقَبَائِلِ لِيَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَهْدُ بَيْنَهُمْ وَيَبْنِيَهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ .

فَدَبَّ الْحِلَافَ وَالْحَذْلَانَ ، وَسَادَ التَّشَكُّكُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَاسْتَشْعَرَ كُلُّ فَرِيقٍ الْحَذَرَ مِنَ الْآخَرِ .

وَفِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ أَخَذَتْ تَكْفَأُ الْقُدُورَ ، وَتَقْتُلِعُ الْحِيَامَ ، فَنَادَى أَبُو سُفْيَانَ بِالرَّحِيلِ فِي النَّاسِ فَارْتَحَلُوا .

وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (٤٠) (١) ، [التوبة/٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) } بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) } (٢)

(١) - يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ الْغَارِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ جَزَعًا : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَأَانَا . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا ظَنُّكَ يَا ثَنِينُ اللَّهِ تَاللَّهِ هُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَأَيَّدَهُ بِالْمَلَائِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشِّرْكِ وَالْأَهْلَ السُّفْلَى ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَاتِّصَارِهِ ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْوِيرِهِ .

(٢) - إِذْ كُنْتَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي يَوْمٍ بَدْرٍ : إِنَّ اللَّهَ سَيُبَدِّدُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، أَلَا يَكْفِيكُمْ هَذَا الْعَدَدُ؟ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ بَلَغَهُمْ ، يَوْمَ بَدْرٍ ، أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ الْمُحَارِبِيَّ يُرِيدُ أَنْ يُمِدَّ قُرَيْشًا ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَثْبِيثًا لِقُلُوبِهِمْ .

(وَيَجْمَعُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَّهُمْ شَارَكُوا فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ سِوَى يَوْمِ بَدْرٍ) .

فَإِنْ تَصَبَّرُوا فِي الْمَعْرَكَةِ عَلَى لِقَاءِ عَدُوِّكُمْ ، وَتَتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَتَطِيعُوا أَمْرَهُ ، حِينَمَا يَطْلُعُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْقَوْرِ ، يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَمْتَازُونَ بِعَلَامَاتٍ يَضَعُونَهَا (مُسَوِّمِينَ) ، لِيُعَجِّلَ نَصْرَكُمْ ، وَيُسَهِّلَ فَتَحَكُمْ .

[آل عمران/١٢٤-١٢٦] ، وَهَؤُلَاءِ تَأْتِيهِمْ أَرْوَاحُ تُخَاطِبُهُمْ وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ وَهِيَ جِنٌّ وَشَيَاطِينٌ فَيُظَنُّونَهَا مَلَائِكَةً ، كَأَلْأَرْوَاحِ الَّتِي تُخَاطَبُ مَنْ يَعْبُدُ الْكُؤَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ ، وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ : الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ (١) الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ

وَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ الشَّيْطَانِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّذِي يَزْعُمُ صَاحِبُ "الْمُتُوحَاتِ" أَنَّهُ أَهْلِي إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ ؛ وَلِهَذَا يَذْكُرُ
أَنَوَاعًا مِنَ الْخُلُوتِ بِطَعَامٍ مُعَيَّنٍ وَشَيْءٍ مُعَيَّنٍ، وَهَذِهِ مِمَّا تَفْتَحُ لِصَاحِبِهَا اتِّصَالَ بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ فَيَطُؤُونَ ذَلِكَ مِنْ

كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَعُودُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَى بِمَالٍ مَسْرُوقٍ تَسْرِقُهُ الشَّيَاطِينُ وَتَأْتِيهِ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ تَدُلُّهُ عَلَى السَّرَقَاتِ بِجَعْلٍ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْطَاءٍ يَعْطُونَهُ إِذَا ذَلَّهِمْ عَلَى سَرَاقَتِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَلَمَّا كَانَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ شَيْطَانِيَّةً كَانُوا مُنَاقِضِينَ لِلرُّسُلِ صَلَوَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ " الْفُتُوْحَاتِ الْمَكِّيَّةِ " وَ " الْقُصُوصِ " وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ يَمْدَحُ الْكُفَّارَ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ وَيَتَنَقَّصُ الْأَنْبِيَاءَ : كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَيَذُمُّ شُيُوخَ الْمُسْلِمِينَ الْمُحْمُودِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ : كَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ (١)

(١) - وفي سير أعلام النبلاء (ج ٢٧ / ص ٦٨)

٣٤ - وَفِيهَا فِي شَوَالِهَا: مَاتَ الْأَسْتَاذُ الْعَارِفُ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْجُنَيْدِ النَّهَوَنْدِيِّ ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ، الْقَوَارِيرِيُّ، وَالِدُهُ الْخَزَّازُ. هُوَ شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ.

وُلِدَ: سَنَةَ ثِيَفٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَتَفَقَّهَ عَلَى أَبِي ثَوْرٍ.

وَسَمِعَ مِنَ: السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ، وَصَحْبِهِ، وَمِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَرَفَةَ.

وَصَحِبَ أَيْضًا: الْحَارِثَ الْمُحَاسِبِيَّ، وَأَبَا حَمْزَةَ الْبَغْدَادِيَّ. وَأَتَقَنَ الْعِلْمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وَتَأَلَّمَ، وَتَعَبَّدَ، وَنَطَقَ

بِالْحِكْمَةِ، وَقُلَّ مَا رَوَى. (٦٧/١٤)

حَدَّثَ عَنْهُ: جَعْفَرُ الْخُلْدِيُّ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ الشَّيْلِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُيَيْشٍ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَلْوَانَ، وَعِدَّةٌ.

قَالَ ابْنُ الْمُنَادِي: سَمِعَ الْكَثِيرَ، وَشَاهَدَ الصَّالِحِينَ وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ، وَزُرِقَ الذِّكَاءَ وَصَوَابَ الْجَوَابِ.

لَمْ يَرَفِ زَمَانَهُ مِثْلَهُ فِي عِفَّةٍ وَعَزُوفٍ عَنِ الدُّنْيَا.

قِيلَ لِي: إِنَّهُ قَالَ مَرَّةً: كُنْتُ أَفْتِي فِي حَلَقَةِ أَبِي ثَوْرٍ الْكَلْبِيِّ وَلِي عِشْرُونَ سَنَةً.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ: كَانَ الْجُنَيْدُ يُفْتِي فِي حَلَقَةِ أَبِي ثَوْرٍ.

عَنِ الْجُنَيْدِ، قَالَ: مَا أَخْرَجَ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ عِلْمًا وَجَعَلَ لِلْخَلْقِ إِلَيْهِ سَبِيلًا، إِلَّا وَقَدْ جَعَلَ لِي فِيهِ حَظًّا.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ فِي سُوقِهِ وَوَرْدِهِ كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مِائَةِ رَكْعَةٍ، وَكَذَا كَذَا أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ.

أَبُو نَعِيمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ، وَآخَرُ، قَالَا: سَمِعْنَا الْجُنَيْدَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: عَلِمْنَا مَضْبُوطًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ

يَحْفَظِ الْكِتَابَ وَيَكْتُبَ الْحَدِيثَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لَا يُقْتَدَى بِهِ.

قَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَلْوَانَ: سَمِعْتُ الْجُنَيْدَ يَقُولُ: عَلِمْنَا - يَعْنِي: التَّصَوُّفَ - مُشَبَّكًا بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ.

وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ سُرَيْجٍ: أَنَّهُ تَكَلَّمَ يَوْمًا، فَعَجِبُوا! فَقَالَ: بَرَكَتُهُ مُجَالَسَتِي لِأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ.

وَعَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْكُجَيْبِيِّ، أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً: رَأَيْتُ لَكُمْ شَيْخًا بَغْدَادِيًّا، يُقَالُ لَهُ: الْجُنَيْدُ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ مِثْلَهُ! كَانَ الْكِتَابُ -

يَعْنِي: الْبُلْغَاءُ - يَحْضُرُونَهُ لِأَلْفَاظِهِ، وَالْفَلَاسِفَةُ يَحْضُرُونَهُ لِدِقَّةِ مَعَانِيهِ، وَالتَّكَلِّمُونَ يَحْضُرُونَهُ لِرِمَامِ عِلْمِهِ، وَكَلَامُهُ

بَاطِنٌ عَنْ فَهْمِهِمْ وَعِلْمِهِمْ. (٦٨/١٤)

قَالَ الْخُلْدِيُّ: لَمْ نَرِ فِي شَيْءٍ خَنَا مِنْ اجْتِمَاعٍ لَهُ عِلْمٌ وَحَالٌ غَيْرَ الْجُنَيْدِ.

كَانَتْ لَهُ حَالٌ خَطِيرَةٌ، وَعِلْمٌ غَزِيرٌ، إِذَا رَأَيْتَ حَالَهُ، رَجَحْتُهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ، رَجَحْتَ عِلْمَهُ عَلَى حَالِهِ.

أَبُو سَهْلٍ الصُّغْلُوكِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الْمُرتَعَشَ يَقُولُ: قَالَ الْجُنَيْدُ: كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيِّ الْأَلْبِ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ،

فَتَكَلَّمُوا فِي الشُّكْرِ؟
 فَقَالَ: يَا غُلَامُ! إِنَّمَا الشُّكْرُ؟
 قُلْتُ: أَنْ لَا يُعْصِيَ اللَّهُ بِنِعَمِهِ.
 فَقَالَ: أَخَشَى أَنْ يَكُونَ حَقُّكَ مِنَ اللَّهِ لِسَائِكَ.
 قَالَ الْجَنِيْدُ: فَلَا أَرَاكَ أَبْكِي عَلَى قَوْلِهِ.
 السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا جَدِّي: ابْنُ نُجَيْدٍ، قَالَ: كَانَ الْجَنِيْدُ يَفْتَحُ حَائِثَهُ وَيَدْخُلُ، فَيَسْبِلُ السِّتْرَ، وَيُصَلِّي أَرْبَعَ مِائَةَ رَكْعَةٍ.
 وَعَنْهُ، قَالَ: أَعْلَى الْكَبِيرِ أَنْ تَرَى نَفْسَكَ، وَأَدْنَاهُ أَنْ تَخْطُرَ بِبَالِكَ - يَعْنِي: نَفْسَكَ - .
 أَبُو جَعْفَرٍ الْفَرَّغَانِيُّ: سَمِعْتُ الْجَنِيْدَ يَقُولُ:
 أَقَلُّ مَا فِي الْكَلَامِ سُقُوطُ هَيْبَةِ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - مِنَ الْقَلْبِ، وَالْقَلْبُ إِذَا عَرِيَ مِنَ الْهَيْبَةِ، عَرِيَ مِنَ الْإِيمَانِ.
 قِيلَ: كَانَ نَفْسُ خَاتَمِ الْجَنِيْدِ: إِنْ كُنْتُ تَأْمَلُهُ، فَلَا تَأْمَنُهُ.
 وَعَنْهُ: مَنْ خَالَفَتْ إِمَارَتُهُ مُعَامَلَتَهُ، فَهُوَ مُدَّعٍ كَذَّابٌ. (٦٩/١٤)
 وَعَنْهُ: سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يُعَذِّبَنِي بِكَلامِي؟ وَرُبَّمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي: أَنْ زَعِيمَ الْقَوْمِ أَرَدْتُ لَهُمْ.
 وَعَنْهُ: أُعْطِيَ أَهْلُ بَغْدَادِ الشَّطْحَ وَالْعِبَارَةَ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ الْقَلْبَ وَالسَّخَاءَ، وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ الزُّهْدَ وَالْقَنَاعَةَ، وَأَهْلُ الشَّامِ الْحِلْمَ وَالسَّلَامَةَ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ الصَّبْرَ وَالْإِنَابَةَ.
 وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ - وَيُقَالُ: هُوَ ابْنُ كَلَّابٍ، وَلَمْ يَصِحَّ - : قَدْ ذَكَرْتَ الطَّوَائِفَ، وَعَارَضْتَهُمْ، وَلَمْ تَذْكُرِ الصُّوْفِيَّةَ.

فَقَالَ: لَمْ أَعْرِفْ لَهُمْ عِلْمًا وَلَا قَوْلًا، وَلَا مَا رَأَوْهُ.
 قِيلَ: بَلْ هُمْ السَّادَةُ.
 وَذَكَرُوا لَهُ الْجَنِيْدَ، ثُمَّ اتَّوَا الْجَنِيْدَ، فَسَأَلُوهُ عَنِ التَّصَوُّفِ، فَقَالَ: هُوَ إِفْرَادُ الْقَدِيمِ عَنِ الْحَدَثِ، وَالْخُرُوجُ عَنِ الْوَطَنِ، وَقَطْعُ الْمَحَابِّ، وَتَرْكُ مَا عِلِمَ أَوْ جَهِلَ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ زَاهِدًا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ، رَاغِبًا فِيمَا لِلَّهِ عِنْدَهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، حَظَّاهُ إِلَى كَشْفِ الْعُلُومِ، وَالْعِبَارَةِ عَنِ الْوُجُوهِ، وَعِلْمِ السَّرَائِرِ، وَفَهْمِ الْأَرْوَاحِ.
 فَقَالَ الْمُتَكَلِّمُ: هَذَا - وَاللَّهِ - عِلْمٌ حَسَنٌ، فَلَوْ أَعَدَّتْهُ حَتَّى نَكْتِبَهُ.
 قَالَ: كَلَّا، مُرَّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَ النَّسِيَانُ...، وَذَكَرَ فَضْلًا طَوِيلًا.
 فَقَالَ الْمُتَكَلِّمُ: إِنْ كَانَ رَجُلٌ يَهْدِي مَا يَنْبَغُ بِالْعَقْلِ بِكَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، فَهَذَا، فَإِنَّ كَلَامَهُ لَا يَحْتَمِلُ الْمُعَارَضَةَ.
 قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيُّ: سَمِعْتُ الْجَنِيْدَ يَقُولُ: مَا أَحَدُنَا التَّصَوُّفَ عَنِ الْقَالِ وَالْقِيلِ، بَلْ عَنِ الْجُوعِ، وَتَرْكِ الدُّنْيَا، وَقَطْعِ الْمَأْلُوفَاتِ. (٧٠/١٤)

قُلْتُ: هَذَا حَسَنٌ، وَمُرَادُهُ: قَطْعُ أَكْثَرِ الْمَأْلُوفَاتِ، وَتَرْكُ فَضُولِ الدُّنْيَا، وَجُوعٌ بِلَا إِفْرَاطٍ.
 أَمَّا مَنْ بَالَعَ فِي الْجُوعِ - كَمَا يَفْعَلُهُ الرُّهْبَانُ - وَرَفَضَ سَائِرَ الدُّنْيَا وَمَأْلُوفَاتِ النَّفْسِ مِنَ الْغِذَاءِ وَالنَّوْمِ وَالْأَهْلِ، فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ لِبَلَاءٍ عَرِضٍ، وَرُبَّمَا خَوَّلَطَ فِي عَقْلِهِ، وَفَاتَهُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

وَالسَّعَادَةُ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَنِ، فَرَنِ الْأُمُورَ بِالْعَدْلِ، وَصُمُّ وَأَفْطَرُ، وَتَمَّ وَفَمَّ، وَالزَّمَ الْوَرَعَ فِي الْقُوتِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ، وَاصْصَبْتَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الْجَنِيْدِ، وَأَيْنَ مِثْلُ الْجَنِيْدِ فِي عِلْمِهِ وَحَالِهِ؟

قَالَ ابْنُ نُجَيْدٍ: ثَلَاثَةٌ لَا رَابِعَ لَهُمْ: الْجُنَيْدُ بَغْدَادَ، وَأَبُو عُثْمَانَ بَنِي سَابُورَ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَلَاءِ بِالشَّامِ. (٧١/١٤)
تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٥ / ص ٢٥٣) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ١٢ / ص ٢٦١)

وسهل بن عبد الله التستري (١)، ويمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلاج (٢)

(١) - سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التستري شيخ العارفين، أبو محمد التستري، الصوفي الزاهد. صحب خاله؛ محمد بن سوار، ولقي في الحج ذا الثون المصري وصحبه. روى عنه الحكايات: عمر بن واصل، وأبو محمد الجري، وعباس بن عصام، ومحمد بن المنذر الهجيمي، وطائفة. له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة؛ وقدم راسخ في الطريق. روى أبو زرعة الطبري، عن ابن درستويه - صاحب سهل - قال: قال سهل، ورأى أصحاب الحديث، فقال: اجهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر. ورؤي في كتاب (ذم الكلام): سئل سهل: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت، ويصب باقي جبره في قبره. أخبرنا أبو علي بن الحلال، أخبرنا ابن اللثمي، أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا أبو إسماعيل الأنصاري، أخبرنا عبد الرحمن بنيسابور، حدثنا الحسن بن أحمد الأديب بتستري، حدثنا علي بن الحسين الدقيقي، سمعت سهل بن عبد الله يقول: من أراد الدنيا والآخرة فليكتب الحديث، فإن فيه منفعة الدنيا والآخرة. وقيل: إن سهل بن عبد الله أتى أبا داود، فقال: أخرج لي لسانك هذا الذي حدثت به أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أقبله فأخرجه له. ومن كلام سهل: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه. وعنه قال: الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصر هالك. وعنه قال: الجوع سر الله في أرضه، لا يودعه عند من يديعه. قال إسماعيل بن علي الأبلبي: سمعت سهل بن عبد الله بالبصرة في سنة ثمانين ومائتين يقول: العقل وحده لا يدل على قديم أزلي فوق عرش محدث، نصبه الحق دلالة وعلمنا لنا، لتهتدي القلوب به إليه ولا تتجاوزته، ولم يكلف القلوب علم ماهية هويته، فلا كيف لاستوائه عليه، ولا يجوز أن يقال: كيف الاستواء لمن أوجد الاستواء؟ وإنما على المؤمن الرضى والتسليم، لقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (إنه على عرشه). وقال: إنما سمي الزنديق زنديقا، لأنه وزن دق الكلام بمخبول عقله وقياس هوى طبعه، وترك الأثر، والافتداء بالسنة، وتأول القرآن بالهوى، فسبحان من لا تكيفه الأوهام في كلام نحو هذا. قال أبو نعيم في (الحلية): حدثنا أبي، حدثنا أبو بكر الجوربي، سمعت سهل بن عبد الله يقول: أوصونا سنة: التمسك بالقرآن، والافتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق. عن سهل: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق، ومن اشتغل بالفصول حرم الورع، ومن ظن ظن السوء حرم اليقين، ومن حرم هذه الثلاثة هلك. وعنه قال: من أخلاق الصديقين أن لا يخلفوا بالله، وأن لا يفتابوا، ولا يغتاب عندهم، وأن لا يشبعوا، وإذا وعلوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلا.

قَالَ ابْنُ سَالِمٍ الرَّاهِدِيُّ، شَيْخُ الْبَصْرَةِ: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ:
إِنِّي أَتَوَضَّأُ فَيَسِيلُ الْمَاءُ مِنْ يَدَيَّ، فَيَصِيرُ قُضْبَانًا ذَهَبًا.
فَقَالَ: الصَّيَّانُ يُنَاوِلُونَ خُشْخَاشَةً.

قِيلَ: تُؤَفِّي سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ.
وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، بَلِ الصَّوَابُ: مَوْتُهُ فِي الْحَرَمِ، سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ.
وَيُقَالُ: عَاشَ ثَمَانِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ.

سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣١-٣٣٣) ١٥١ و تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٥ / ص ١٩٧)

(٢) - ترجمة الحلاج

ونحن نعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يكن قاله، أو نتحمل عليه في أقواله وأفعاله، فنقول: هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث، ويقال: أبو عبد الله، كان جده محمياً اسمه محمى من أهل فارس من بلدة يقال لها: البيضاء، ونشأ بواسط، ويقال: بتستر، ودخل بغداد وتردد إلى مكة وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر، مكث على ذلك سنوات متفرقة، وكان يصابر نفسه ويجهد لها، ولا يجلس إلا تحت السماء في وسط المسجد الحرام، ولا يأكل إلا بعض قرص ويشرب قليلاً من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة. وكان يجلس على صخرة في شدة الحر في جبل أبي قيس، وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية، كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسين النوري. قال الخطيب البغدادي: والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفي أن يكون الحلاج منهم، وأبي أن يعده فيهم، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصارابادي النيسابوري، وصحروا له حاله، ودونوا كلامه، حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني. وقال أبو عبد الرحمن السلمي - واسمه محمد بن الحسين - سمعت إبراهيم بن محمد النصارابادي وعوتب في شيء حكى عن الحلاج في الروح فقال للذي عاتبه: إن كان بعد النبيين والصدّيقين موحد فهو الحلاج. قال أبو عبد الرحمن: وسمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت.

وقد روي عن الشبلي من وجه آخر أنه قال، وقد رأى الحلاج مصلوباً: ألم أهلك عن العالمين؟ قال الخطيب: والذين نفوه من الصوفية نسبوه إلى الشبهة في فعله، وإلى الزندقة في عقيدته وعقده. قال: وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه ويغالون فيه ويغلون. وقد كان الحلاج في عبارته حلول المنطق، وله شعر على طريقة الصوفية. قلت: لم يزل الناس منذ قتل الحلاج مختلفين في أمره، فأما الفقهاء فحكى عن غير واحد من العلماء والأئمة: إجماعهم على قتله، وأنه قتل كافراً، وكان كافراً ممخراً مموهاً مشعبداً، وبهذا قال أكثر الصوفية فيه. ومنهم طائفة كما تقدم أجملوا القول فيه، وغرهم ظاهره ولم يطلعوا على باطنه ولا باطن قوله، فإنه كان في ابتداء أمره فيه تعبد وتأله وسلوك، ولكن لم يكن له علم ولا بنى أمره وحاله على تقوى من الله ورضوان. فلهذا كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

وقال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، ولهذا دخل على الحلاج الحلول والاتحاد، فصار من أهل الانحلال والانحراف.

وقد روى من وجه: أنه تقلبت به الأحوال وتردد إلى البلدان، وهو في ذلك كله يظهر للناس أنه من الدعاة إلى الله عز وجل.

وصح أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر وقال: أدعو به إلى الله وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث - أي: أنه من رجال المغيث - ويكاتبه أهل سر كسان بالمقيث.

ويكاتبه أهل خراسان بالميز، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد.

وأهل خورستان بأبي عبد الله الزاهد حلاج الأسرار.

وكان بعض البغاددة حين كان عندهم يقولون له: المصطلم، وأهل البصرة يقولون له: الخير، ويقال: إنما سماه الحلاج

أهل الأهواز لأنه كان يكشفهم عن ما في ضمائرهم، وقيل: لأنه مرة قال حلاج: اذهب لي في حاجة كذا وكذا.

فقال: إني مشغول بالحلج.

فقال: اذهب فأنا أحلج عنك، فذهب ورجع سريعاً فإذا جميع ما في ذلك المخزن قد حلجه، يقال: إنه أشار بالمرود

فمتاز الحب عن القطن، وفي صحة هذا ونسبته إليه نظر، وإن كان قد جرى مثل هذا، فالشياطين تعين أصحابها

ويستحلموهم.

وقيل: لأن أباه كان حلاجاً.

ومما يدل على أنه كان ذا حلول في بدء أمره أشياء كثيرة، منها: شعره في ذلك فمن ذلك قوله:

جبلت روحك في روحي كما * يجبل العنبر بالمسك الفقق

فإذا مسك شيء مسني * وإذا أنت أنا لا نفترق

وقوله:

مزجت روحك في روحي كما * تترج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسك شيء مسني * فإذا أنت أنا في كل حال

وقوله أيضاً:

قد تحققتك في سر * ي فخطبك لساني (ج/ص: ١١ / ١٥٤)

فاجتمعنا لمعان * وافترقنا لمعان

إن يكن غيبتك التعطي * م عن لحظ العيان

فلقد صيرك الوج * د من الأحشاء دان

وقد أنشد لابن عطاء قول الحلاج:

أريدك لا أريدك للشواب * ولكني أريدك للعقاب

وكل مآربي قد نلت منها * سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

فقال ابن عطاء: قال: هذا ما تريد به عذاب الشغف وهيام الكلف، واحتراق الأسف، فإذا صفا ووفقا علا إلى

مشرب عذب وهاطل من الحق دائم سكب.

وقد أنشد لأبي عبد الله بن خفيف قول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوته * سرسنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهراً * في صورة الأكل والشارب

حتى قد عاينه خلقه * كل لحظة الحاجب بالحاجب

فقال ابن خفيف: علا من يقول هذا لعنه الله؟

ف قيل له: إن هذا من شعر الحلاج.

فقال: قد يكون مقولاً عليه.

وينسب إليه أيضاً:

أوشكت تسأل عني كيف كنت * وما لاقيت بعدك من هم وحزن

لا كنت إن كنت إن كنت أدري كيف كنت * ولا لا كنت أدري كيف لم أكن

قال ابن خلكان: ويروى لسمنون لا للحلاج.

ومن شعره أيضاً قوله:

متى سهرت عيني لغيرك أو بكت * فلا أعطيت ما أملت وتمت

وإن أضمرت نفسي سواك فلا زكت * رياض المني من وجنتيك وجنت

ومن شعره أيضاً:

دنيا تعالطني كأن * بي لست أعرف حالها

حظر المليك حرامها * وأنا احتميت حلالها

فوجدتها محتاجة * فوهبت لنقائها

وقد كان الحلاج يتلون في ملابسه، فتارة يلبس لباس الصوفية، وتارة يتجرد في ملابس زرية، وتارة يلبس لباس

الأجناد ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك والأجناد.

وقد رآه بعض أصحابه في ثياب رثة ويده ركوة وعكازة وهو سائح فقال له: ما هذه الحالة يا حلاج؟

فأنشأ يقول:

لئن أمسيت في ثوبي عديم * لقد بليا على حرّ كريم

فلا يغرك أن أبصرت حالاً * مغيرة عن الحال القديم

فلي نفس ستتلف أو سترقى * لعمرك بي إلى أمر جسيم

ومن مستجاد كلامه وقد سأله رجل أن يوصيه بشيء ينفعه الله به.

فقال: عليك نفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك عن الحق.

وقال له رجل: عظمي.

فقال: كن مع الحق بحكم ما أوجب.

وروى الخطيب بسنده إليه أنه قال: علم الأولين والآخرين مرجعه إلى أربع كلمات: حب الجليل وبغض القليل،

واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

قلت: وقد أخطأ الحلاج في المقامين الآخرين، فلم يتبع التنزيل ولم يبق على الاستقامة، بل تحول عنها إلى الإعرجاج

والبدعة والضلالة، نسأل الله العافية.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي عن عمرو بن عثمان المكي: أنه قال: كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة وكنت

أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقته.

قال الخطيب: وحدثني مسعود بن ناصر أنبأنا ابن باكوا الشيرازي سمعت أبا زرعة الطبري يقول: الناس فيه - يعني

حسين بن منصور الحلاج - بين قبول ورد.

ولكن سمعت محمد بن يحيى الرازي يقول: سمعت عمرو بن عثمان يلعنه ويقول: لو قدرت عليه لقتلته بيدي.

فقلت له: إيش الذي وجد الشيخ عليه؟

قال: قرأت آية من كتاب الله فقال: يمكنني أن أولف مثله وأتكلم به.

قال أبو زرعة الطبري: وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول

: زوجت ابنتي من الحسين الحلاج لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده، فبان لي منه بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال، خبيث كافر.

قلت: كان تزويجه إياها بمكة، وهي أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع فأولدها ولده أحمد بن الحسين بن منصور، وقد ذكر سيرة أبيه كما ساقها من طريق الخطيب.

وذكر أبو القاسم القشيري في رسالته في باب حفظ قلوب للشيخ: أن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئاً في أوراق فقال له: ما هذا؟

فقال: هو ذا أعارض القرآن.

قال: فدعا عليه فلم يفلح بعدها.

وأنكر على أبي يعقوب الأقطع تزويجه إياه ابنته.

وكتب عمرو بن عثمان إلى الأفاق كتباً كثيرة يلعنه فيها ويحذر الناس منه، فشرد الحلاج في البلاد فعاث يميناً وشمالاً، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذي لا يرد عن القوم الجرمين، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كفي زنديق، والله أعدل من أن يسلمه على صديق.

كيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥].

ولا إلحاد أعظم من هذا.

وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معانيلهم، كما قال تعالى عنهم: {وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣١].

أشياء من حيل الحلاج

روى الخطيب البغدادي: أن الحلاج بعث رجلاً من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب بين يديه إلى بلد من بلاد الجبل، وأن يظهر لهم العبادة والصلاح والزهد، فإذا رآهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقلوه أظهر لهم أنه قد عمي، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح، فإذا سعوا في مداواته، قال لهم: يا جماعة الخير، إنه لا ينفني شيء مما تفعلون.

ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له: إن شفائك لا يكون إلا على يدي القطب، وإنه سيقدم عليك في اليوم الفلاني في الشهر الفلاني، وصفته كذا وكذا.

وقال له الحلاج: إني سأقدم عليك في ذلك الوقت.

فذهب ذلك الرجل إلى تلك البلاد فأقام بها يتعبد، ويظهر الصلاح والتسك ويقرأ القرآن.

فأقام مدة على ذلك فاعتقدوه وأحبوه، ثم أظهر لهم أنه قد عمي فمكث حيناً على ذلك، ثم أظهر لهم أنه قد زمن، فسعوا بمداداته بكل ممكن فلم ينتج فيه شيء، فقال لهم: يا جماعة الخير هذا الذي تفعلونه معي لا ينتج شيئاً وأنا قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول لي: إن عافيتك وشفائك إنما هو على يدي القطب، وإنه

سيقدم عليك في اليوم القلاني في الشهر القلاني، وكانوا أولاً يقودونه إلى المسجد ثم صاروا يحملونه ويكرمونه كان في الوقت الذي ذكر لهم، واتفق هو والحلاج عليه، أقبل الحلاج حتى دخل البلد مخفياً وعليه ثياب صوف بيض، فدخل المسجد ولزم سارية يتعبد فيه لا يلتفت إلى أحد، فعرفه الناس بالصفات التي وصف لهم ذلك العليل، فابتدروا إليه يسلمون عليه ويتمسحون به.

ثم جاؤوا إلى ذلك الزمن المتعافى فأخبره بخبره، فقال: صفوه لي. فوصفوه له فقال: هذا الذي أخبرني عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وأن شفائي على يديه، اذهبوا بي إليه.

فحملوه حتى وضعوه بين يديه فكلمه فعرّفه فقال: يا أبا عبد الله إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام. ثم ذكر له رؤياه، فرفع الحلاج يديه فدعا له ثم ثقل من ريقه في كفيه ثم مسح بهما على عينيه ففتحهما كأن لم يكن بهما داء قط فأبصر، ثم أخذ من ريقه فمسح على رجله فقام من ساعته، فمشى كأنه لم يكن به شيء والناس حضور، وأمراء تلك البلاد وكبراؤهم عنده، فضج الناس ضجة عظيمة وكبروا الله وسبحوه، وعظموا الحلاج تعظيماً زائداً على ما أظهر لهم من الباطل والزور.

ثم أقام عندهم مدة يكرمونه ويعظمونه ويودون لو طلب منهم ما عساه أن يطلب من أموالهم. فلما أراد الخروج عنهم أرادوا أن يجمعوا له مالاً كثيراً فقال: أما أنا فلا حاجة لي بالدنيا، وإنما وصلنا إلى ما وصلنا إليه بترك الدنيا، ولعل صاحبكم هذا أن يكون له إخوان وأصحاب من الأبدال الذين يجاهدون بثغر طرسوس، ويحجون ويتصدقون، محتاجين إلى ما يعينهم على ذلك.

فقال ذلك الرجل المتزامن المتعافى: صدق الشيخ، قد ردّ الله عليّ بصري ومنّ الله عليّ بالعافية، لأجعلن بقية عمري في الجهاد في سبيل الله، والحج إلى بيت الله مع إخواننا الأبدال والصالحين الذين نعرفهم، ثم حثهم على إعطائه من المال ما طابت به أنفسهم.

ثم إن الحلاج خرج عنهم ومكث ذلك الرجل بين أظهرهم مدة إلى أن جمعوا له مالاً كثيراً ألوفاً من الذهب والفضة، فلما اجتمع له ما أراد ودعهم وخرج عنهم فذهب إلى الحلاج فاقستما ذلك المال. وروي عن بعضهم قال: كنت أسمع أن الحلاج له أحوال وكرامات، فأحببت أن أختبر ذلك فجئته فسلمت عليه فقال لي: تشتهي على الساعة شيئاً؟ فقلت أشتهي سمكاً طرياً.

فدخل منزله فغاب ساعة ثم خرج عليّ ومعه سمكة تضطرب ورجلاه عليهما الطين. فقال: دعوت الله فأمرني أن آتي البطائح لآتيك بهذه السمكة، فخضت الأهواز وهذا الطين منها. فقلت: إن شئت أدخلتني منزلك حتى أنظر ليقوى يقيني بذلك، فإن ظهرت على شيء وإلا آمنت بك. فقال: ادخل، فدخلت فأغلق عليّ الباب وجلس يراني.

فدبرت البيت فلم أجد فيه منفذاً إلى غيره، فتحيرت في أمره ثم نظرت فإذا أنا بتأزيرة - وكان مؤزراً بازار ساج - فحركاتها فأنفلق فتأزيرة باب منفذ فدخلته فأفضى بي إلى بستان هائل، فيه من سائر الثمار الجديدة والعتيقة، قد أحسن إبقائها.

وإذا أشياء كثيرة معدودة للأكل، وإذا هناك بركة كبيرة فيها سمك كثير صغار وكبار، فدخلتها فأخرجت منها واحدة فنال رجلي من الطين مثل الذي نال رجله، فجئت إلى الباب فقلت: افتح قد آمنت بك.

فلما رآني على مثل حاله أسرع خلفي جرياً يريد أن يقتلني.
فضربته بالسמכה في وجهه وقلت: يا عدو الله أتعبتني في هذا اليوم.
ولما خلصت منه لقيني بعد أيام فصاحكني وقال: لا تنفس ما رأيت لأحد، وإلا بعثت إليك من يقتلك على فراشك.
قال: فعرفت أنه يفعل إن أقشيت عليه فلم أحدث به أحداً حتى صلب.
وقال الحلاج يوماً لرجل: آمن بي حتى أبعث لك بعصفورة تأخذ من ذرقها وزن حبة، فتضعه على كذا مناً من نحاس فيصير ذهباً.

فقال له الرجل: آمن أنت بي حتى أبعث إليك بفيل إذا استلقي على قفاه بلغت قوائمه إلى السماء، وإذا أردت أن تخفيه وضعته في إحدى عينيك.

قال: فبهت وسكت.

ولما ورد بغداد جعل يدعو إلى نفسه ويظهر أشياء من المخاريق والشعوذة وغيرها من الأحوال الشيطانية، وأكثر ما كان يروج على الرافضة لقلة عقولهم وضعف تمييزهم بين الحق والباطل.

وقد استدعى يوماً برئيس من الرافضة فدعاه إلى الإيمان به، فقال له الرافضي: إني رجل أحب النساء، وإني أصلع الرأس، وقد شبت، فإن أنت أذهبت عني هذا وهذا، آمنت بك وأنتك الإمام المعصوم، وإن شئت قلت إنك نبي، وإن شئت قلت أنك أنت الله.

قال: فبهت الحلاج ولم يجر إليه جواباً.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: كان الحلاج متلوناً تارة يلبس المسوح، وتارة يلبس الدراعة، وتارة يلبس القباء، وهو مع كل قوم على مذهبه: إن كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو فساقاً أو غيرهم، ولما أقام بالأهواز جعل ينفق من دراهم يخرجهما يسميها دراهم القدرة، فسئل الشيخ أبو علي الجبائي عن ذلك فقال: إن هذا كله مما يناله البشر بالحيلة، ولكن أدخلوه بيتاً لا منفذ له ثم سلوه أن يخرج لكم جرزتين من شوك.
فلما بلغ ذلك إلى الحلاج تحول من الأهواز.

قال الخطيب: أنبأ إبراهيم بن مخلد أنبأ إسماعيل بن علي الخطيب في تاريخه قال: وظهر أمر رجل يقال له: الحلاج الحسين بن منصور، وكان في حبس السلطان بسعاية وقعت به، وذلك في وزارة علي بن عيسى الأولى، وذكر عنه ضروب من الزندقة ووضع الحيل على تضليل الناس، من جهات تشبه الشعوذة والسحر، وادعاء النبوة، فكشفه علي بن عيسى عند قبضه عليه وأنهى خبره إلى السلطان - يعني الخليفة المقتدر بالله - فلم يقر بما رمي به من ذلك فعاقبه وصلبه حياً أياماً متوالية في رحبة الجسر، في كل يوم غدوة، وينادي عليه بما ذكر عنه، ثم ينزل به ثم يجلس. فأقام في الحبس سنين كثيرة ينقل من حبس إلى حبس، خوفاً من إضلاله أهل كل حبس إذا طالت مدته عندهم، إلى أن حبس آخر حبسة في دار السلطان، فاستغوى جماعة من غلمان السلطان وموه عليهم واستمالهم بضروب من الحيل، حتى صاروا يحمونهم ويدفعون عنه ويرفونهم بالمأكلة المطيبة، ثم راسل جماعة من الكتاب وغيرهم ببغداد وغيرها، فاستجابوا له وترقى به الأمر إلى أن ادعى الربوبية، وسعى بجماعة من أصحابه إلى السلطان فقبض عليهم ووجد عند بعضهم كتب تدل على تصديق ما ذكر عنه، وأقر بعضهم بذلك بلسانه، وانتشر خبره وتكلم الناس في قتله.

فأمر الخليفة بتسليمه إلى حامد بن العباس، وأمره أن يكشفه بحضرة القضاة والعلماء ويجمع بينه وبين أصحابه، فجري في ذلك خطوط طوال، ثم استيقن السلطان أمره ووقف على ما ذكر عنه، وثبت ذلك على يد القضاة وأفتى

به العلماء فأمر بقتله وإحراقه بالنار.

فأحضر مجلس الشرطة بالجانب الغربي في يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة، فضرب بالسياط نحواً من ألف سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه، ثم ضربت عنقه، وأحرقت جثته بالنار، ونصب رأسه للناس على سور الجسر الجديد وعلقت يداه ورجلاه.

وقال أبو عبد الرحمن بن الحسن السلمي: سمعت إبراهيم بن محمد الواعظ يقول: قال أبو القاسم الرازي، قال أبو بكر بن ممشاذ: حضر عندنا بالدينور رجل ومعه مخلاة فما كان يفارقها ليلاً ولا نهاراً، فأنكروا ذلك من حاله ففتشوا مخلاته فوجدوا فيها كتاباً للحلاج، عنوانه: (من الرحمن الرحيم إلى فلان ابن فلان) - يدعو به إلى الضلالة والإيمان به - فبعث بالكتب إلى بغداد فستل الحلاج عن ذلك فأقر أنه كتبه فقالوا له: كنت تدعي النبوة فصرت تدعي

الألوهية والربوبية؟

فقال: لا ولكن هذا عين الجمع عندنا.

هل الكاتب إلا الله وأنا واليد آله؟

ف قيل له: معك على ذلك أحد؟

قال: نعم ابن عطاء وأبو محمد الحريري وأبو بكر الشبلي.

فستل الحريري عن ذلك فقال: من يقول بهذا كافر.

وسئل الشبلي عن ذلك فقال: من يقول بهذا يمنع.

وسئل ابن عطاء عن ذلك فقال: القول ما يقول الحلاج في ذلك.

فعوقب حتى كان سبب هلاكه.

ثم روى أبو عبد الرحمن السلمي عن محمد بن عبد الرحمن الرازي: أن الوزير حامد بن العباس لما أحضر الحلاج سأله عن اعتقاده فأقر به فكتبه، فسأل عن ذلك فقهاء بغداد فأنكروا ذلك وكفروا من اعتقده، فكتبه. فقال الوزير: إن أبا العباس بن عطاء يقول بهذا. فقالوا: من قال بهذا فهو كافر.

ثم طلب الوزير ابن عطاء إلى منزله فجاء فجلس في صدر المجلس، فسأله عن قول الحلاج فقال: من لا يقول بهذا القول فهو بلا اعتقاد.

فقال الوزير لابن عطاء: ويحك تصوب مثل هذا القول وهذا الاعتقاد؟

فقال ابن عطاء: ما لك ولهذا، عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم، فما لك ولكلام هؤلاء السادة من الأولياء.

فأمر الوزير عند ذلك بضرب شذقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهما على رأسه، فما زال يفعل به ذلك حتى سال الدم من منخريره، وأمر بسجنه.

فقالوا له: إن العامة تستوحش من هذا ولا يعجبها.

فحمل إلى منزله، فقال ابن عطاء: اللهم اقتله واقطع يديه ورجليه.

ثم مات ابن عطاء بعد سبعة أيام، ثم بعد مدة قتل الوزير شر قتلة، وقطعت يداه ورجلاه وأحرقت داره.

وكان العوام يرون ذلك بدعوة ابن عطاء على عاداتهم في مراتبهم فيمن أودى من لهم معه هوى: بل قد قال ذلك جماعة ممن ينسب إلى العلم فيمن يؤذي ابن عربي أو يحط على حسين الحلاج أو غيره: هذا بخطيئة فلان.

وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته، وأجمعوا على قتله وصلبه، وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا.

قال أبو بكر محمد بن داود الظاهري حين أحضر الحلاج في المرة الأولى قبل وفاة أبو بكر هذا وسئل عنه فقال: إن كان ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم حقاً وما جاء به حقاً، فما يقوله الحلاج باطل. وكان شديداً عليه. وقال أبو بكر الصولي: قد رأيت الحلاج وخاطبته فرأيتته جاهلاً يتعاقل، وغيباً يتبالغ، وخبيثاً مدعياً، وراغباً يتزهد، وفاجراً يتعبد.

ولما صلب في أول مرة ونودي عليه أربعة أيام سمعه بعضهم وقد جيء به ليصلب وهو راكب على بقرة يقول: ما أنا بالحلاج، ولكن ألقى علي شبهه وغاب عنكم، فلما أدني إلى الخشبة ليصلب عليها سمعته وهو مصلوب يقول: يا معين الفنا علي أعني على الفنا.

وقال بعضهم: سمعته وهو مصلوب يقول: إلهي أصبحت في دار الرغائب، أنظر إلى العجائب، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك فكيف بمن يؤذى فيك.

صفة مقتل الحلاج

قال الخطيب البغدادي وغيره: كان الحلاج قد قدم آخر قدمة إلى بغداد فصحب الصوفية وانتسب إليهم، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس، فبلغه أن الحلاج قد أضل خلقاً من الحشم والحجاب في دار السلطان، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب، وجعل لهم في جملة ما ادعاه أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه ويحضرون له ما شاء ويختار ويشتهي.

وقال: إنه أحيأ عدة من الطير.

وذكر لعلي بن عيسى: أن رجلاً يقال له: محمد بن علي القنائي الكاتب، يعبد الحلاج ويدعو الناس إلى طاعته، فطلبه فكبس منزله فأخذه فأقر أنه من أصحاب الحلاج، ووجد في منزله أشياء بخط الحلاج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير مجلدة بأفخر الجلود.

ووجد عنده سقفاً فيه من رجيع الحلاج وعذرتيه وبوله وأشياء من آثاره، وبقية خبز من زاده.

فطلب الوزير من المقتدر أن يتكلم في أمر الحلاج فقوض أمره إليه، فاستدعى بجماعة من أصحاب الحلاج فتهددهم، فاعترفوا له أنه قد صح عندهم أنه إله مع الله، وأنه يحيي الموتى، وأنهم كاشفوا الحلاج بذلك ورموه به في وجهه، فجمد ذلك وكنجهم.

وقال: أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير، لا أعرف غير ذلك.

وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد ويكثر أن يقول: سبحانك لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وكانت عليه مدرعة سوداء وفي رجليه ثلاثة عشر قيداً، والمدرعة واصله إلى ركبتيه، والقيود واصله إلى ركبتيه أيضاً، وكان مع ذلك يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة.

وكان قبل احتياط الوزير حامد بن العباس عليه في حجرة من دار نصر القشوري الحاجب، مأذوناً لمن يدخل إليه وكان يسمى نفسه تارة بالحسين بن منصور، وتارة محمد بن أحمد القارسي، وكان نصر الحاجب هذا قد افتتن به وظن أنه رجل صالح، وكان قد أدخله على المقتدر بالله فرقاه من وجع حصل فاتفق زواله عنه، وكذلك وقع لوالدة المقتدر السيدة رقاها فزالت عنها.

فنفق سوقه وحظي في دار السلطان فلما انتشر الكلام فيه سلم إلى الوزير حامد بن العباس فحبسه في قيود كثيرة في

رجليه، وجمع له الفقهاء فأجمعوا على كفره وزندقته، وأنه ساحر ممخرق.

ورجع عنه رجلان صالحان من كان اتبعه، أحدهما أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي، والآخر يقال له: الدباس، فذكرا من فضائحه وما كان يدعو الناس إليه من الكذب والفجور والمخرفة والسحر شيئاً كثيراً، وكذلك أحضرت زوجة ابنه سليمان فذكرت عنه فضائح كثيرة.

من ذلك: أنه أراد أن يغشاها وهي نائمة فانتبهت فقال: قومي إلى الصلاة، وإنما كان يريد أن يطأها.

وأمر ابنتها بالسجود له فقالت: أو يسجد بشر لبشر؟

فقال: نعم إله في السماء وإله في الأرض.

ثم أمرها أن تأخذ من تحت بارية هنالك ما أرادت، فوجدت تحنها دنائير كثيرة مبدورة.

ولما كان معتقلاً في دار حامد بن العباس الوزير دخل عليه بعض الغلمان ومعه طبق فيه طعام ليأكل منه، فوجده قد ملأ البيت من سقفه إلى أرضه، فدعر ذلك الغلام وفرع فرعاً شديداً، وألقى ما كان في يده من ذلك الطبق والطعام، ورجع محموراً فمرض عدة أيام.

ولما كان آخر مجلس من مجالسه أحضر القاضي أبو عمر محمد بن يوسف، وجيء بالحلاج وقد أحضر له كتاب من دور بعض أصحابه وفيه: من أراد الحج ولم يتيسر له، فليبن في داره بيتاً لا يناله شيء من النجاسة، ولا يمكن أحداً من دخوله، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام وليطف به كما يطف بالكعبة، ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة.

ثم يستدعي بثلاثين بيتماً فيطعمهم من طعامه، ويتولى خدمتهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصاً قميصاً، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم - أو قال: ثلاثة دراهم - فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج.

وإن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندبا، أجزأه ذلك عن صيام رمضان.

ومن صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره، أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك.

وأن من جاور بمقابر الشهداء ومقابر قریش عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم، ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره.

فقال له القاضي أبو عمر: من أين لك هذا؟

فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري.

فقال له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا.

فأقبل الوزير على القاضي فقال له: قد قلت يا حلال الدم فاكذب ذلك في هذه الورقة، وألح عليه وقدم له الدواة فكتب ذلك في تلك الورقة، وكتب من حضر خطوطهم فيها وأنفذها الوزير إلى المقتدر، وجعل الحلاج يقول لهم: ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علي ما يبيحه، واعتقادي الإسلام، ومنهبي السنة، وتفضيل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن ابن عوف وأبي عبيدة بن الجراح، ولي كتب في السنة موجودة في الوارقين، فالله الله في دمي.

فلا يلتفتون إليه ولا إلى شيء مما يقول.

وجعل يكرر ذلك وهم يكتبون خطوطهم بما كان من الأمر.

ورد الحلاج إلى محبسه، وتأخر جواب المقتدر ثلاثة أيام حتى ساء ظن الوزير حامد بن العباس، فكتب إلى الخليفة

يقول له: إن أمر الحلاج قد اشتهر ولم يختلف فيه اثنان، وقد افتتن كثير من الناس به.

فجاء الجواب: بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة، وليضربه ألف سوط، فإن مات وإلا ضربت عنقه.

ففرح الوزير بذلك وطلب صاحب الشرطة، فسلمه إليه وبعث معه طائفة من غلمانته، يصلونه معه إلى محل الشرطة من الجانب الغربي خوفاً من أن يستنقذ من أيديهم.

وذلك بعد عشاء الآخرة في ليلة الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة من هذه السنة، وهو راكب على بغل عليه إكاف وحوله جماعة من أعوان السياسة على مثل شكله، فاستقر منزله بدار الشرطة في هذه الليلة، فذكر أنه بات يصلي تلك الليلة ويدعو دعاء كثيراً.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا بكر الشاشي يقول: قال أبو الحديد - يعني المصري -: لما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها الحلاج قام يصلي من الليل فصلى ما شاء الله، فلما كان آخر الليل قام قائماً فتغطى بكسائه ومد يده نحو القبلة، فتكلم بكلام جائر الحفظ، فكان مما حفظت منه قوله: نحن شواهدك فلو دلنا عزتك لتبدى ما شئت من شأنك ومشيتك.

وأنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله تتجلى لما تشاء مثل تجليك في مشيتك كأحسن الصورة، والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة، ثم إنني أوعزت إلى شاهدك لأني في ذاتك الهوى كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند حلول لذاتي، ودعوت إلى ذاتي بذاتي، وأبدت حقائق علمي ومعجزاتي، صاعداً في معارجي إلى عروش أزلياتي عند التولي عن برياتي، إنني احتضرت وقتلت وصلبت وأحرقت واحتملت سافيات الذاريات. ولججت في الجاريات، وأن ذرة من ينجوج مكان هالك متجلياتي، لأعظم من الراسيات.

ثم أنشأ يقول:

أنعى إليك نفوساً طاح شاهدها * فيما وراحيث بل في شاهد القلم
أنعى إليك قلوباً طالما هطلت * سحائب الوحي فيها أبحر الحكم
أنعى إليك لسان الحق منك ومن * أودى وتذكاره في الوهم كالعدم
أنعى إليك بياناً يستكين له * أقوال كل فصيح مقول فهم
أنعى إليك إشارات العقول معاً * لم يبق منهن إلا دارس العلم
أنعى وحبك أخلاقاً لطائفة * كانت مطايهم من مكمد الكظم
مضى الجميع فلا عين ولا أثر * مضى عاد وفقدان الأولى إرم
وخلفوا معشراً يحذون لبستهم * أعمى من البهم بل أعمى من النعم
قالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه لينهب به إلى القتل أنشد:

طلبت المستقر بكل أرض * فلم أر لي بأرض مستقرا
وذقت من الزمان وذاق مني * وجدت مذاقه حلوا ومرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني * ولو أني قنعت لعشت حرا
وقيل: إنه قالها حين قدم إلى الجذع ليصلب، والمشهور الأول.

فلما أخرجوه للصلب مشى إليه وهو يتبختر في مشيته، وفي رجليه ثلاثة عشر قيداً وجعل ينشد ويتمايل:

نديمي غير منسوب * إلى شيء من الحيف

فلما دارت الكأس * دعا بالنطع والسيف

سقاني مثل ما يشرب * ب فعل الضيف الضيف
كذا من يشرب الراح * مع التين في الصيف
ثم قال: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: ١٨].
ثم لم ينطق بعد ذلك حتى فعل به ما فعل.

قالوا: ثم قدم فضرب ألف سوط ثم قطعت يده ورجلاه وهو في ذلك كله ساكت ما نطق بكلمة، ولم يتغير لونه،
ويقال: إنه جعل يقول مع كل سوط أحد أحد.
قال أبو عبد الرحمن: سمعت عبد الله بن علي يقول: سمعت عيسى القصار يقول: آخر كلمة تكلم بها الحلاج حين
قتل أن قال: حسب الواحد أفراد الواحد له.

فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا رق له، واستحسن هذا الكلام منه.
وقال السلمي: سمعت أبا بكر المحاملي يقول: سمعت أبا الفاتك البغدادي - وكان صاحب الحلاج - قال: رأيت في
النوم بعد ثلاث من قتل الحلاج كأني واقف بين يدي ربي عز وجل، وأنا أقول: يا رب ما فعل الحسين بن منصور؟
فقال: كاشفته بمعنى فدعا الخلق إلى نفسه فأنزلت به ما رأيت.
ومنهم من قال: بل جزع عند القتل جزعاً شديداً وبكى بكاء كثيراً، فالله أعلم.
وقال الخطيب: ثنا عبد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال: قال لنا أبو عمر بن حيوية: لما أخرج الحسين بن منصور
الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأيته فدنوت منه فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر،
فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً.

ثم قتل فما عاد.
وذكر الخطيب أنه قال وهو يضرب لحمد بن عبد الصمد والي الشرطة: أدع بي إليك فإن عندي نصيحة تعدل فتح
القسططينية.

فقال له: قد قيل لي إنك ستقول مثل هذا، وليس إلى رفع الضرب عنك سبيل.
ثم قطعت يده ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وألقى رمادها في دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر،
ثم حمل إلى خراسان وطيف به في تلك النواحي، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه إليهم بعد ثلاثين يوماً.
وزعم بعضهم أنه رأى الحلاج من آخر ذلك اليوم وهو راكب على حمار في طريق النهروان فقال: لعلك من هؤلاء
النفر الذين ظنوا أني أنا هو المضروب المقتول، إني لست به، وإنما ألقى شيهي على رجل ففعل به ما رأيتم.
وكانوا يجهلهم يقولون: إنما قتل عدو من أعداء الحلاج.

فذكر هذا لبعض علماء ذلك الزمان فقال: إن كان هذا الرأي صادقاً، فقد تبدى له شيطان على صورة الحلاج
ليضل الناس به، كما ضلت فرقة النصارى بالمصلوب.

قال الخطيب: واتفق له أن دجلة زادت في هذا العام زيادة كثيرة.
فقال: إنما زادت لأن رماد جثة الحلاج خالطها.

وللعوام في مثل هذا وأشباهه ضروب من الهذيان قديماً وحديثاً.
ونودي ببغداد: أن لا تشتري كتب الحلاج ولا تباع.

وكان قتله يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة من سنة تسع وثلاثمائة ببغداد.

وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات، وحكى اختلاف الناس فيه، ونقل عن الغزالي أنه ذكره في مشكاة الأنوار،

وتأول كلامه وحمله على ما يليق.

ثم نقل ابن خلكان عن إمام الحرمين أنه كان يذمه ويقول: إنه اتفق هو والجنابي وابن المقفع على إفساد عقائد الناس، وتفرقوا في البلاد فكان الجنابي في هجر والبحرين، وابن المقفع ببلاد الترك، ودخل الحلاج العراق، فحكم صاحبه عليه بالهلكة لعدم انخدا ع أهل العراق بالباطل.

قال ابن خلكان: وهذا لا ينظم، فإن ابن المقفع كان قبل الحلاج بدهر في أيام السفاح والمنصور، ومات سنة خمس وأربعين ومائتين أو قبلها.

ولعل إمام الحرمين أراد ابن المقفع الخراساني الذي ادعى الروبية وأوتي العمر واسمه عطاء، وقد قتل نفسه بالسهم في سنة ثلاث وستين ومائة، ولا يمكن اجتماعه مع الحلاج أيضاً، وإن أردنا تصحيح كلام إمام الحرمين فنذكر ثلاثة قد اجتمعوا في وقت واحد على إضلال الناس وإفساد العقائد كما ذكر، فيكون المراد بذلك الحلاج وهو الحسين بن منصور الذي ذكره، وابن السمعي - يعني أبا جعفر محمد بن علي - وأبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي الذي قتل الحجاج، وأخذ الحجر الأسود وطم زمزم ونهب أستار الكعبة.

فهؤلاء يمكن اجتماعهم في وقت واحد كما ذكرنا ذلك مبسوطاً، وذكره ابن خلكان ملخصاً. البداية والنهاية لابن كثير مدقق (ج/ص: ١١/١٥٣-١٦٤) و انظر سير أعلام النبلاء. (١٤/٣١٥-٣٥٤) ٢٠٥ - الحلاجُ الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ بْنِ مَحْمِيٍّ

وَنَحْوِهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي تَجَلِّيَّاتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ؛ فَإِنَّ الْجَنِيْدَ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مِنْ أَيْمَةِ الْهُدَى فَسُئِلَ عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ : " التَّوْحِيدُ " إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقَدَمِ . فَبَيَّنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحْدَثِ وَبَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ . وَصَاحِبُ " الْقُصُوصِ " أَتَكَرَّ هَذَا ؛ وَقَالَ فِي مُخَاطَبَتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَهُ : يَا جَنِيْدُ هَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُحْدَثِ وَالْقَدِيمِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ غَيْرَهُمَا ؟ فَخَطَأَ الْجَنِيْدُ فِي قَوْلِهِ : (إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقَدَمِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُوَ : إِنَّ وُجُودَ الْمُحْدَثِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْقَدِيمِ كَمَا قَالَ فِي قُصُوصِهِ : " وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى " الْعَلِيُّ " عَلَى مَنْ ؟ وَمَا تَمَّ إِلَّا هُوَ وَعَنْ مَاذَا ؟ وَمَا هُوَ إِلَّا هُوَ فَعَلُوهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ ، فَالْمُسَمَّى مُحْدَثَاتٌ هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهِ وَلَيْسَتْ إِلَّا هُوَ " إِلَى أَنْ قَالَ : " هُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ وَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ وَمَا تَمَّ مِنْ يَرَاهُ غَيْرُهُ وَمَا تَمَّ مِنْ يَنْطِقُ عَنْهُ سِوَاهُ وَهُوَ الْمُسَمَّى أَبُو سَعِيدِ الْخَرَّازُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمُحْدَثَاتِ " (١).

فَيَقَالُ لِهَذَا الْمُلْحَدِ : لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ ثَالِثًا غَيْرَهُمَا فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، وَلَيْسَ هُوَ ثَالِثٌ ، فَالْعَبْدُ يَعْرِفُ أَنَّه عَبْدٌ ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ خَالِقِهِ ، وَالْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ رُبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ عِبَادُهُ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَالْإِسْتِشْهَادُ بِالْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْرُونَ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا .

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَا حِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التَّلْمِيسِيُّ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِهِمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ " الْقُصُوصُ " فَقِيلَ لَهُ : الْقُرْآنُ يُخَالِفُ قُصُوصَكُمْ . فَقَالَ : الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا . فَقِيلَ لَهُ : فَإِذَا كَانَ الْوُجُودُ وَاحِدًا فَلِمَ كَانَتْ الزَّوْجَةُ حَلَالًا وَالْأَخْتُ حَرَامًا ؟ فَقَالَ : الْكُلُّ عِنْدَنَا حَلَالٌ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا حَرَامٌ فَقُلْنَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ .

وَهَذَا مَعَ كُفْرِهِ الْعَظِيمِ مُتَنَاقِضٌ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْوُجُودَ إِذَا كَانَ وَاحِدًا فَهِنَّ الْمَحْجُوبُ وَمَنْ الْحَاجِبُ ؟ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ شُيُوحِهِمْ لِمُرِيدِهِ : مَنْ قَالَ لَكَ : إِنَّ فِي الْكَوْنِ سِوَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ . فَقَالَ لَهُ مُرِيدُهُ : فَمَنْ هُوَ الَّذِي يَكْذِبُ ؟ وَقَالُوا لَّا خَرَ : هَذِهِ مَظَاهِيرُ . فَقَالَ لَهُمْ : الْمَظَاهِيرُ غَيْرُ الظَّاهِرِ أَمْ هِيَ ؟ فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَهَا فَقَدْ قُلْتُمْ

بِالنَّسْبَةِ وَإِنْ كَانَتْ إِيَّاهَا فَلَا فَرْقَ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى كَشْفِ أَسْرَارِ هَؤُلَاءِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَبَيَّنَّا حَقِيقَةَ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنَّ صَاحِبَ " الْقُصُوصِ " يَقُولُ الْمَعْدُومُ شَيْءٌ ؛ وَوُجُودُ الْحَقِّ قَاضٍ عَلَيْهِ فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالشُّبُوتِ (٢)

(١) - الفروحات المكية - (ج ٧ / ص ٦٨)

(٢) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١ / ص ١٩٦)

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ حَقِيقَةَ مَا تَضَمَّنَتْهُ كِتَابُ الْقُصُوصِ الْمُضَافُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ جَاءَ بِهِ : وَهُوَ مَا إِذَا فَهِمَهُ الْمُسْلِمُ [عِلْمٌ] بِالْإِضْطِرَارِ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَجَمِيعَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِلِ جَمِيعِ عَوَامِّ أَهْلِ الْمِلَّةِ ؛ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ : يَبْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَعْضِ هَذَا الْقَوْلِ فَكَيْفَ مِنْهُ كُلُّهُ ؟ . وَنَعْلَمُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عِبَادَ الْأَوْثَانِ وَالْكَفَّارَ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الصَّانِعِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ - الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ - رَبِّهِمْ وَرَبِّ آبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ - رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِنَّهُ عَيْنُ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا تَمْسُ الْمَصْنُوعَاتِ كَمَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ لَوْ زَالَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ زَالَتْ حَقِيقَةُ اللَّهِ ؛ وَهَذَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَصْلَيْنِ : - (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي الْعَدَمِ - كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ - وَهُوَ مَذْهَبٌ بَاطِلٌ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ . وَكَثِيرٌ مِنْ مُتَكَلِّمَةِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ - كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ - كَفَرُوا مِنْ يَقُولُ بِهِذَا . وَإِنَّمَا غَلَطَ هَؤُلَاءِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ عِلْمِ اللَّهِ بِالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا - وَأَنَّهَا مُثَبَّتَةٌ عِنْدَهُ فِي أَمِّ الْكِتَابِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ - وَبَيْنَ ثُبُوتِهَا فِي الْخَارِجِ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ مَذْهَبَ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَبَيْنَ الْوُجُودِ الْعَيْنِيِّ الْخَارِجِيِّ . وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةُ : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } فَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ : وَهِيَ الْوُجُودُ الْعَيْنِيُّ الَّذِي خَلَقَهُ وَالْوُجُودُ الرَّسْمِيُّ الْمُنَاطِقُ لِلْفُظْيِ الدَّلَالُ عَلَى الْعِلْمِيِّ وَبَيْنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَهُ . وَلِهَذَا ذَكَرَ التَّعْلِيمَ بِالْقَلَمِ فَإِنَّهُ مُسْتَلَزِمٌ لِلْمَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ . وَهَذَا الْقَوْلُ - أَعْنِي قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي نَفْسِهِ خَارِجٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى - وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا وَذَلَالَتُهُ وَاضِحَةً لَكِنَّهُ قَدْ أُبْدِعَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ وَابْنُ عَرَبِيٍّ وَافَقَ أَصْحَابَهُ وَهُوَ أَحَدُ أَصْلِي مَذْهَبِهِ الَّذِي فِي الْقُصُوصِ . (وَالْأَصْلُ الثَّانِي) أَنَّ وُجُودَ الْمُحْدَثَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ : هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ لَيْسَ غَيْرُهُ وَلَا سِوَاهُ ؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَهُ وَاقْتَرَدَ بِهِ عَنْ جَمِيعِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْمَشَائِخِ وَالْعُلَمَاءِ وَهُوَ قَوْلُ بَقِيَّةِ التَّحَادِيَةِ لَكِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ أَقْرَبُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَحْسَنُ كَلَامًا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فَإِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْمُظَاهَرِ فَيُفَرِّقُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالشَّرَائِعَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُ بِالسُّلُوكِ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الْمَشَائِخُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْعِبَادَاتِ وَلِهَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْعِبَادِ يَأْخُذُونَ مِنْ كَلَامِهِ سُلُوكَهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ حَقَائِقَهُ وَمَنْ فَهِمَهَا مِنْهُمْ وَوَافَقَهُ فَقَدْ تَبَيَّنَ قَوْلُهُ .

(وَأَمَّا) صَاحِبَةُ الصَّدَرِ الرُّومِيُّ فَإِنَّهُ كَانَ مُتَفَلِّسًا فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ الشَّرِيعَةِ وَالْإِسْلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفَاجِرُ التُّلْمَسَانِيُّ الْمُلَقَّبُ بِالْعَفِيفِ يَقُولُ : كَانَ شَيْخِي الْقَدِيمُ مُتْرَوِّحًا مُتَفَلِّسًا وَالْآخِرُ فَيَلْسُوفًا مُتْرَوِّحًا - يَعْنِي الصَّدَرُ الرُّومِيُّ - فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَحَدَ عَنْهُ وَلَمْ يُدْرِكْ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي كِتَابِ مِفْتَاحِ غَيْبِ الْجَمْعِ وَالْوُجُودِ وَغَيْرِهِ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ وَالْمُعَيَّنُ كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَيَوَانِ الْمُطْلَقِ وَالْحَيَوَانِ الْمُعَيَّنِ وَالْجِسْمِ الْمُطْلَقِ وَالْجِسْمِ الْمُعَيَّنِ ؛

وَالْمُطْلَقُ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الْخَارِجِ مُطْلَقًا لَا يُوجَدُ الْمُطْلَقُ إِلَّا فِي الْأَعْيَانِ الْخَارِجَةِ . فَحَقِيقَةُ قَوْلِهِ : إِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَجُودٌ أَصْلًا وَلَا حَقِيقَةٌ وَلَا ثُبُوتٌ إِلَّا تَقَسُّ الْوُجُودِ الْقَائِمِ بِالْمَخْلُوقَاتِ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ هُوَ وَشَيْخُهُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرَى أَصْلًا وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ اسْمٌ وَلَا صِفَةٌ وَيُصَرِّحُونَ بِأَنَّ ذَاتَ الْكَلْبِ وَالْخِزِيرِ وَالْبُولِ وَالْعَذْرَةِ : عَيْنُ وَجُودِهِ - تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ . (وَأَمَّا) الْفَاجِرُ التَّلْمِسَانِيُّ : فَهُوَ أَخْبَثُ الْقَوْمِ وَأَعَمَّقُهُمْ فِي الْكُفْرِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ كَمَا يُفَرِّقُ ابْنُ عَرَبِيٍّ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ كَمَا يُفَرِّقُ الرُّومِيُّ وَلَكِنْ عِنْدَهُ مَا تَمَّ غَيْرُ وَلَا سِوَى بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُودِ . وَأَنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَشْهَدُ السَّوَى مَا دَامَ مُحْجُوبًا فَإِذَا انْكَشَفَ حِجَابُهُ رَأَى أَنَّهُ مَا تَمَّ غَيْرُ يَبِينُ لَهُ الْأَمْرُ . وَلِهَذَا : كَانَ يَسْتَحِلُّ جَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ ؛ حَتَّى حَكَى عَنْهُ الثَّقَاتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ الْبِنْتُ وَالْأُمُّ وَالْأَجَنَّبِيَّةُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَيْسَ فِي ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْمُحْجُوبُونَ قَالُوا حَرَامٌ فَفَلْنَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ . وَكَانَ يَقُولُ الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ لَيْسَ فِيهِ تَوْحِيدٌ وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا . وَكَانَ يَقُولُ : أَنَا مَا أَمْسَكَ شَرِيعَةً وَاحِدَةً وَإِذَا أَحْسَنَ الْقَوْلُ يَقُولُ : الْقُرْآنُ يُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ وَكَلَامُنَا يُوصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَشَرَحَ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الَّذِي لَهُ . وَلَهُ دِيْوَانُ شِعْرِ قَدْ صَنَعَ فِيهِ أَشْيَاءَ وَشِعْرُهُ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ جَيِّدٌ ؛ وَلَكِنَّهُ كَمَا قِيلَ : (لَحْمُ خِزِيرٍ فِي طَبَقٍ صِينِيٍّ وَصِنْفٌ لِلنَّصِيرِيَّةِ عَقِيدَةٌ ؛ وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ أَنَّ الْحَقَّ بِمَنْزِلَةِ الْبَحْرِ وَأَجْزَاءُ الْمَوْجُودَاتِ بِمَنْزِلَةِ أَمْوَاجِهِ :) (وَأَمَّا ابْنُ سَعْيَيْنَ : فَإِنَّهُ فِي الْبَدْوِ وَالْإِحَاطَةِ يَقُولُ أَيْضًا بِوَاحِدَةِ الْوُجُودِ وَأَنَّهُ مَا تَمَّ غَيْرُ وَكَذَلِكَ ابْنُ الْفَارَضِ فِي آخِرِ نَظْمِ السُّلُوكِ لَكِنْ لَمْ يَصْرَحْ هَلْ يَقُولُ بِمِثْلِ قَوْلِ التَّلْمِسَانِيِّ أَوْ قَوْلِ الرُّومِيِّ أَوْ قَوْلِ ابْنِ عَرَبِيٍّ ؟ وَهُوَ إِلَى كَلَامِ التَّلْمِسَانِيِّ أَقْرَبُ لَكِنْ مَا رَأَيْتُ فِيهِمْ مَنْ كَفَرَ هَذَا الْكُفْرَ الَّذِي مَا كَفَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ مِثْلَ التَّلْمِسَانِيِّ وَآخِرُ يُقَالُ لَهُ الْبِلْيَانِي مِنْ مَشَايخِ شِيرَازَ . وَمِنْ شِعْرِهِ : - وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَيْنُهُ وَأَيْضًا : وَمَا أَنتَ غَيْرُ الْكُونِ بَلْ أَنتَ عَيْنُهُ وَيَهْمُهُ هَذَا السَّرُّ مَنْ هُوَ ذَائِقُهُ وَأَيْضًا : وَتَلَنَدُ إِنَّ مَرَّتْ عَلَى جَسَدِي بَدِي لَأَنِّي فِي التَّحْقِيقِ لَسْتُ سِوَاكُمْ وَأَيْضًا : مَا بَالُ عَيْسِكَ لَا يُقَرِّقُ قَرَارَهَا وَالْأَمُّ ظِلُّكَ لَا يَبِي مُتَنَقِّلًا فَلَسَوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ سِيرَكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَيْكَ إِذَا بَلَغْتَ الْمَنْزِلَ وَأَيْضًا : مَا الْأَمْرُ إِلَّا نَسَقٌ وَاحِدٌ مَا فِيهِ مِنْ حَمْدٍ وَلَا ذَمٍّ وَإِنَّمَا الْعَادَةُ قَدْ خَصَصَتْ وَالطَّبْعُ وَالشَّارِعُ فِي الْحُكْمِ وَأَيْضًا : يَا عَاذِلِي أَنتَ تَنْهَانِي وَتَأْمُرُنِي وَالْوَجْدُ أَصْدَقُ هَمَاءٍ وَأَمَّا فَإِنْ أَطْعَمَكَ وَأَغْصَى الْوَجْدَ عُدْتُ عَمِي عَنِ الْعِيَانِ إِلَى أَوْهَامِ أَخْبَارٍ فَعَيْنُ مَا أَنتَ تَدْعُونِي إِلَيْهِ إِذَا حَقَّقْتَهُ تَرَهُ الْمُنْهَى يَا جَارِي وَأَيْضًا وَمَا الْبَحْرُ إِلَّا الْمَوْجُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَإِنْ فَرَّقْتَهُ كَثْرَةُ الْمُتَعَدِّدِ إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْعَارِ وَفِي الشَّرِّ مَا لَا يُحْصَى وَيُوهَمُونَ الْجَهْلَالَ أَنَّهُمْ مَشَايِخُ الْإِسْلَامِ وَأَتَمَّةُ الْهُدَى الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأُمَّةِ مِثْلَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدَهَمَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ وَالْفَضِيلَ بْنَ عِيَّازٍ وَمَعْرُوفَ الْكَرْخِيِّ وَالشَّافِعِيَّ وَأَبِي سُلَيْمَانَ وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَبِشْرَ الْحَافِي وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ وَشَقِيقَ الْبَلْخِي وَمَنْ لَا يُحْصَى كَثْرَةٌ . إِلَى مِثْلِ الْمُتَأَخِّرِينَ : مِثْلُ الْجَنِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَوَارِيرِيِّ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ وَعُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ - إِلَى أَبِي طَالِبِ الْمَكِّيِّ إِلَى مِثْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْكِيْلَانِيِّ وَالشَّيْخِ عَدِيِّ وَالشَّيْخِ أَبِي الْيَاسَنِ وَالشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ وَالشَّيْخِ عَقِيلٍ وَالشَّيْخِ أَبِي الْوَفَاءِ وَالشَّيْخِ رَسْلَانَ وَالشَّيْخَ عَبْدَ الرَّحِيمِ وَالشَّيْخَ عَبْدَ اللَّهِ الْيُونَنِيَّ وَالشَّيْخَ الْقُرَشِيَّ وَأَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَخُرَاسَانَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . كُلُّ هَؤُلَاءِ مُتَّفِقُونَ عَلَى تَكْفِيرِ هَؤُلَاءِ وَمَنْ هُوَ أَرْجَحُ مِنْهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ هُوَ خَلَقَهُ وَلَا جُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ وَلَا صِفَةً لَخَلْقِهِ بَلْ هُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُتَمَيِّزٌ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ بَاتِنٌ بِذَاتِهِ الْمُعْظَمَةِ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَبِذَلِكَ جَاءَتْ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْإِلَهِيَّةُ ؛ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْقُرْآنِ وَعَلَيْهِ فَطَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَعَلَى ذَلِكَ دَلَّتِ الْعُقُولُ . وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ أَكْبَرُ أَسْبَابِ ظُهُورِ التَّنَارِ وَالدِّيرَاسِ شَرِيعَةً

الإسلام وأن هؤلاء مقدمَةُ الدَّجَالِ الأعورِ الكَذَّابِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ وَلَكِنْ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ وَأَعْظَمُ . وَأَمَّا عَلَى رَأْيِ صَاحِبِ الْفُصُوصِ فَإِنَّ بَعْضَ الْمَظَاهِيرِ وَالْمُسْتَحْلِيَاتِ : يَكُونُ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ لِعَظَمِ ذَاتِهِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ ؛ وَأَمَّا عَلَى رَأْيِ الرُّومِيِّ فَإِنَّ بَعْضَ الْمُتَعَيِّنَاتِ يَكُونُ أَكْبَرُ فَإِنَّ بَعْضَ جُرْئِيَّاتِ الْكُلِّيِّ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ ؛ وَأَمَّا عَلَى الْبَقِيَّةِ فَالْكُلُّ أَجْزَاءٌ مِنْهُ وَبَعْضُ الْجُزْءِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ . فَالِدَّجَالُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : مِثْلُ فِرْعَوْنَ مِنْ كِبَارِ الْعَارِفِينَ وَأَكْبَرُ مِنَ الرُّسُلِ بَعْدَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَمُوسَى قَاتِلُ فِرْعَوْنَ الَّذِي يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ وَيُسَلِّطُ اللَّهُ تَعَالَى مَسِيحَ الْهُدَى - الَّذِي قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ - عَلَى مَسِيحِ الضَّلَالَةِ الَّذِي قَالَ : إِنَّهُ اللَّهُ .

ولهذا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَعْجَبُ مِنْ كَوْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إِنَّهُ أَعْوَرُ } وَكَوْنِهِ قَالَ : { وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ } وَابْنُ الْخَطِيبِ أُنْكَرَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ ظُهُورُ دَلَائِلِ الْحُلُوتِ وَالتَّقْصِ عَلَى الدَّجَالِ ؛ أَبَيْنُ مِنْ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَعْوَرُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا حَقِيقَةَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ اللَّاحِدِيَّةِ وَتَدَبَّرْنَا مَا وَقَعَتْ فِيهِ النَّصَارَى وَالْخُلُوتِيَّةُ : ظَهَرَ سَبَبُ دَلَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَمْتِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ فَإِنَّهُ بَعَثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ يُجَوِّزُ ظُهُورَ الرَّبِّ فِي الْبَشَرِ أَوْ يَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْبَشَرُ : كَانَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْعَوْرِ دَلِيلًا عَلَى انْتِفَاءِ الْإِلَهِيَّةِ عَنْهُ . وَقَدْ خَاطَبَنِي قَدِيمًا شَخْصٌ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِنَا - كَانَ يَمِيلُ إِلَى اللَّاحِدِ ثُمَّ تَابَ مِنْهُ - وَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ فَبَيَّنْتُ لَهُ وَجْهَهُ . وَجَاءَ إِلَيْنَا شَخْصٌ كَانَ يَقُولُ : إِنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ فَرَعَمَ أَنَّ الْحَلَّاجَ لَمَّا قَالَ : أَنَا الْحَقُّ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَكَلِّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجَنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَبَيَّنْتُ لَهُ فُسَادَ هَذَا وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الصَّحَابَةُ بِمَنْزِلَةِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَكَانَ مِنْ خَاطِبَةِ هَؤُلَاءِ أَكْبَرُ مِنْ مُوسَى ؛ لِأَنَّ مُوسَى سَمِعَ الْكَلَامَ الْإِلَهِيَّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَهَؤُلَاءِ يَسْمَعُونَ مِنَ الْجَنِّ النَّاطِقِ . وَهَذَا يَقُولُهُ قَوْمٌ مِنَ اللَّاحِدِيَّةِ لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ جُهَالٌ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللَّاحِدِ الْعَامِّ الْمُطْلَقِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْفَاجِرُ التَّلْمِسَانِيُّ وَذَوُوهُ وَبَيْنَ اللَّاحِدِ الْمُعَيَّنِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ النَّصَارَى وَالْغَالِيَّةُ .

وَالْمُعْتَرِ لَ الَّذِينَ قَالُوا : الْمَعْدُومُ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي الْخَارِجِ مَعَ ضَلَالِهِمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قَالُوا : إِنَّ الرَّبَّ خَلَقَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ وَجُودًا لَيْسَ هُوَ وَجُودُ الرَّبِّ . وَهَذَا زَعَمَ أَنَّ عَيْنَ وَجُودِ الرَّبِّ فَاضَ عَلَيْهِ فَلَيْسَ عِنْدَهُ وَجُودٌ مَخْلُوقٌ مُبَيَّنٌ لَوْجُودِ الْخَالِقِ، وَصَاحِبُهُ الصَّدْرُ الْقَوْنُوِي (١) يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ لِأَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلَسَفَةِ فَلَمْ يَقَرَّ بِأَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ ؛ لَكِنْ جَعَلَ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ وَصَنَّفَ " مِفْتَاحَ غَيْبِ الْجَمْعِ وَالْوُجُودِ " . وَهَذَا الْقَوْلُ أَدْخَلَ فِي تَعْطِيلِ الْخَالِقِ وَعَدَمِهِ، فَإِنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرِّطِ الْإِطْلَاقِ - وَهُوَ الْكُلِّيُّ الْعَقْلِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ وَالْمُطْلَقُ لَا بِشَرِّطِ وَهُوَ الْكُلِّيُّ الطَّبِيعِيُّ - وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ فَلَا يُوْجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْمُعَيَّنِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِشَيْئِهِ فِي الْخَارِجِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ وَجُودُ الرَّبِّ إِمَّا مُنْتَفِيًا فِي الْخَارِجِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ وَجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنَ وَجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَهَلْ يَخْلُقُ الْجُزْءُ الْكُلَّ أَمْ يَخْلُقُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ ؟ أَمْ الْعَدَمُ يَخْلُقُ الْوُجُودَ ؟ أَوْ يَكُونُ بَعْضُ الشَّيْءِ خَالِقًا لِجَمِيعِهِ . وَهَؤُلَاءِ يَقْرَءُونَ مِنْ لَفْظِ " الْخُلُوتِ " لِأَنَّهُ يَنْتَضِي حَالًا وَمَحَلًّا وَمِنْ لَفْظِ " اللَّاحِدِ " لِأَنَّهُ يَنْتَضِي شَيْئَيْنِ أَحَدًا أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَعِنْدَهُمُ الْوُجُودُ وَاحِدٌ . وَيَقُولُونَ : النَّصَارَى إِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا خَصَّصُوا الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ وَلَوْ عَمَّوْا لَمَّا كَفَرُوا . وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي عِبَادِ الْأَصْنَامِ : إِنَّمَا أَخْطَأُوا لَمَّا عَبَدُوا بَعْضَ الْمَظَاهِيرِ دُونَ بَعْضِ فَلَوْ عَبَدُوا الْجَمِيعَ لَمَّا أَخْطَأُوا

عِنْدَهُمْ . وَالْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ عِنْدَهُمْ لَا يَضُرُّهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ . وَهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فِيهِ مَا يَلْزَمُهُمْ دَائِمًا مِنَ التَّنَاقُضِ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ : فَمَنْ الْمُخْطِئُ ؟ لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ التَّقَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تُوصَفُ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْخَالِقُ ، وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ " الْقُصُوصِ " : " فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْكَمَالُ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ بِهِ جَمِيعَ النُّعُوتِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنَّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ سَوَاءً كَانَتْ مُحْمُودَةً عُرْفًا أَوْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمُسَمَّى اللَّهِ خَاصَّةً " .

(١) - تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١٢ / ص ٢٣٢)

٥٦ - الصدر القنوني . هو الشيخ الكبير ، الشهيد ، الزاهد ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف الرومي ، الصوفي على مذهب أهل الوحدة . شيخ الإتحادية بقونية .
 صاحب الشيخ محيي الدين ابن العربي . وكان قد قرأ كتاب "جامع الأصول" على الأمير العالم شرف الدين يعقوب الهذلي . ورواه عنه قراءة عليه الشيخ قطب الدين الشيرازي .
 وله تصنيفات في السلوك على مذهبه نسأل الله العافية ، فمن ذلك كتاب "الفخات الإلهية" ، وكتاب "تحفة الشكور" وكتاب "مفتاح غيب الجمع والوجود" و "تفسير الفاتحة" عمله في مجلد ، وكتاب "النصوص" ، "وفكوك النصوص" ، وغير ذلك . وتوفي في هذا العام بقونية ، وأوصى أن يحمل تابوته إلى دمشق ، وأن يدفن مع شيخه ابن العربي ، فلم يتهبأ ذلك . ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة تقريبا ، فيما بلغني .

وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ هَذَا لَا يَنْدَفِعُ عَنْهُمْ التَّنَاقُضُ ، فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التَّلْمِصَانِي : إِنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ . وَيَقُولُونَ : مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ - يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ - فَلْيَتَرَكِ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ . وَقَدْ قُلْتُ لِمَنْ خَاطَبْتَهُ مِنْهُمْ : وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَشْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ وَأَتَمُّ مِنْ كَشْفِ غَيْرِهِمْ وَخَيْرُهُمْ أَصْدَقُ مِنْ خَيْرِ غَيْرِهِمْ ؛ وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ بِمَا تَعْجُزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ؛ لَا بِمَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ فَيُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ الْعُقُولِ (١) لَا بِمَحَالَاتِ الْعُقُولِ (٢) ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إِخْبَارِ الرَّسُولِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَعَارَضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَّانِ : سَوَاءً كَانَا عَقْلِيَّيْنِ أَوْ سَمْعِيَّيْنِ أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا ، فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى كَشْفًا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ ؟ . وَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْمَدُونَ الْكَذِبَ لَكِنْ يُجِيلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ تَكُونُ فِي نَفْسِهِمْ وَيَطْنُونَهَا فِي الْخَارِجِ ، وَأَشْيَاءَ يَرَوْنَهَا تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ لَكِنْ يَطْنُونَهَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وَتَكُونُ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ .
 وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوَحْدَةِ قَدْ يَقْدَمُونَ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَيَذْكُرُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَمْ تَنْقَطَعْ كَمَا يَذْكُرُ عَنْ ابْنِ سَبْعِينَ (٣)

(١) - إشارات : التي تحير العقول وتذهلها

(٢) - الأمور المستحيلة

(٣) - وفي تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١٢ / ص ١٢٥):

٣١٣ _ عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن سبيع .

القرشي ، المخرومي ، الشيخ قطب الدين ، أبو محمد المرسى ، الرقوطي ، الصوفي .

كان صوفياً على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم . وله كلامٌ كثير في العرفان على طريق الإتحاد والزندقة ، نسأل الله السلامة في الدين .

وقد ذكرنا محط هؤلاء الجنس في ترجمة " ابن الفارض " و " ابن العربي " ، وغيرهما . فيا حسرةً على العباد كيف لا يغضبون الله تعالى ، ولا يقومون في الذب عن معبودهم ، تبارك اسمه ، وتقدس ذاته ، عن أن يمتزج بخلقه أو يحل فيهم . وتعالى الله عن أن يكون هو عين السموات والأرض وما بينهما . فإن هذا الكلام شرٌّ من مقالة من قال بقدم العالم ، ومن عرف هؤلاء الباطنية عذري ، أو هو زنديقٌ مبطنٌ للاتحاد ويذب عن الاتحادية والحلولية ، ومن لم يعرفهم فالله يشبهه على حسن قصده . وينبغي للمرء أن يكون غضبه لربه إذا انتهكت حرمانه أكثر من غضبه لفقير غير معصومٍ من الزلل . فكيف بفقير يحتمل أن يكون في الباطن كافراً ، مع أنا لا نشهد على أعيان هؤلاء إيمانٍ ولا كفرٍ لجواز توبتهم قبل الموت . وأمرهم مشكل ، وحسابهم على الله .

وأما مقالاتهم فلا ريب في أنها شر من الشرك ، فيا أخي ويا حبيبي اعط القوس باريها ، ودعني ومعرفني بذلك ، فإنني أخاف الله أن يعذبي على سكوتي ، كما أخاف أن يعذبي على الكلام في أوليائه . وأنا لو قلت لرجلٍ مسلم : يا كافر ، لقد بؤت بالكفر ، فكيف لو قلته لرجلٍ صالح أو وليٍّ لله تعالى ؟ ذكر شيخنا قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد قال : جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته .

قلت : واشتهر عنه أنه قال : لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله : لا نبي بعدي . وجاء من وجه آخر عنه أنه قال : لقد زرب ابن آمنة حيث قال : لا نبي بعدي . فإن كان ابن سبعين قال هذا فقد خرج به من الإسلام ، مع أن هذا الكلام في الكفر دون قوله في رب العالمين أنه حقيقة الموجودات ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وذكره الشريف عز الدين فقال : له تصانيف عدة ومكانة مكيمة عند جماعة من الناس . وأقام بمكة سنين عديدة . قلت : وحدثني فقيرٌ صالح أنه صحب فقراء من السبعينية فكانوا يهونون له ترك الصلاة وغير ذلك . اللهم احفظ علينا إيماننا واجعلنا هداة مهتدين . وحسن رقوطة من أعمال مرسية .

وسمعت ان ابن سبعين فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفى ، ومات والله أعلم بصحة ذلك . وكان موته بمكة في الثامن والعشرين من شوال ، وله خمسٌ ، وخمسون سنة ، فإنه ولد في سنة أربع عشرة . اللهم يا ربنا ورب كل شيء ، إن كان هذا الشخص وأضرابه يعتقدون أنك عين مخلوقاتك ، وإن ذاتك المقدسة البائنة من الخلق هي حقيقة ما أبدعت وأوجدت من العدم ، فلا ترحمهم ولا ترض عنهم . وإن كانوا يؤمنون بأنك رب العالمين وخالق كل شيء ، وأن مخلوقاتك غيرك بكل حال وعلى أي تقدير ، فاغفر لهم وارحمهم . فإن من كلامهم : ما ثم غير وما في الكون سوى الله . وما أنت غير الكون بل أنت عينه .

تعاليت يا إلهنا عن ذلك ، بل وما أنت عين الكون بل أنت غيره ، ويفهم هذا كل من هو مسلم . ويقولون إن الله تعالى هو روح الأشياء ، وإنه في الموجودات سارٍ كالحياة في الجسم . ويقولون إن الموجودات مظاهر له ، وإنه يظهر فيها . كما قال رمضان التوزي ، معثر عرف بالجوبان القواس . مظاهر الحب (.) فيها فلا يحذُّ

فـ (. . .) لا يكاد يخفى وظاهر لا يكاد يبلى

نشهد بين ذا وهذا بأعين منه تستمدُّ

إن بطن العبد فهو ربُّ أو ظهر الرب فهو عبدُ

فعين كن عين زل وجوداً قبضٌ ويسطُّ أخذ وردُّ

مراتب الكون ثابتاتٌ وهو إلى حكمها المرءُ

وقال : الشيخ صفى الدّين الأرموي الهندي : حجت في حلود سنة ستّ وستين ، وبحث مع ابن سبعين في الفلسفة

فقال لي : لا ينبغي لك الإقامة بمكة . فقلت : كيف تقيم بها أنت ؟ فقال : انحصرت القسمة في قعودي بها ، فإن

الملك الظاهر يطلبني بسبب انتمائي إلى أشرف مكة ، واليمن صاحبها له في عقيدة ، ولكن وزيره حشوي يكرهني

قال صفى الدّين : وكان داوى صاحب مكة فصارت له عنده مكانة بذلك ويقال إنه نفى من المغرب بسبب كلمة

كفرٍ صدرت منه ، وهي أنه قال : لقد تحجّر ابن آمنة في قوله : لا نبي بعدي .

قلت : وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات وسلكنا طريقة التأويلات المستحيلات لم يبق في العالم كفرٌ ولا ضلال

، وبطلت كتب الملل والنحل واختلاف الفرق . وقد ذكر العزالي رحمه الله في كتاب " مشاة الأنوار " فصلاً في حال

الحلاج فأخذ يعتذر عما صدر منه مثل قوله : أنا الحق . وقول الآخر : ما في الجنة إلا الله . وهذه الإطلاقات التي

ظاهاها كفر ، وحملها على محامل سائغة ، وأولها وقال : هذا من فرط المحبة وشدة الوجد ، وإن ذلك كقول القائل

: أنا من أهوى ومن أهوى أنا .

قلت : بتقدير صحة العقيدة فلا كلام ، وإنما الكلام فيمن يقول : العالم هو الله ، كقوله في الفصوص إنه عين ما

ظهر وعين ما بطن ، وهو المسمى بأبي سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات .

ومن طالع كتب هؤلاء علم علماً ضرورياً بلهم اتحادية ، مارقة من الدّين ، وألهم يقولون : الوجود الواجب القديم

الخالق هو الممكن المخلوق ما ثم غير ولا سوى . ولكن لما رأوا تعدد المخلوقات قالوا : مظاهر ومجالي . فإذا قيل لهم

فإن كانت المظاهر أمراً وجودياً تعدد الوجود ، وإلا لم يكن لها حنينٌ حقيقة . وما كان هكذا تبين أن الوجود

نوعان خالق ومخلوق .

قالوا : نحن ثبت عندنا بالكشف ما يناقض صريح العقل . ومن أراد أن يكون عارفاً محققاً فلا بد أن يلتزم الجمع بين

النقيضين ، وإن الجسم لواحد يكون في وقتٍ واحدٍ في موضعين .

وغيره ويجعلون المراتب " ثلاثة " يقولون : العبد يشهد أولاً طاعةً معصيةً ثم طاعةً بلا معصيةٍ ثم لا طاعةً ولا

معصيةً ، و " الشُّهُودُ الْأُولُ " هو الشُّهُودُ الصَّحِيحُ وَهُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي ، وَأَمَّا " الشُّهُودُ الثَّانِي "

فَيُرِيدُونَ بِهِ شُهُودَ الْقَدَرِ ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ : أَنَا كَافِرٌ بِرَبِّ يُعْصَى ، وَهَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مُخَالَفَةٌ لِلْإِرَادَةِ

الَّتِي هِيَ الْمَشِيئَةُ . وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ دَاخِلُونَ تَحْتَ حُكْمِ الْمَشِيئَةِ وَيَقُولُ شَاعِرُهُمْ :

أَصِحَّتْ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ مِنِّي فَفَعَلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ ؛ فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا الدَّمَ وَالْعِقَابُ

مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ

عَذَابٌ مُهِينٌ } (١٤) (١) سورة النساء.

الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ وَالِدِّينِيَّةِ وَالْأَمْرِ الْكُونِيِّ وَالِدِّينِيِّ
وَسَنَذَكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ وَالِدِّينِيَّةِ وَالْأَمْرِ الْكُونِيِّ وَالِدِّينِيِّ . وَكَانَتْ هَذِهِ " الْمَسْأَلَةُ " قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى
طَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَبَيَّنَهَا الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُمْ، مَنْ اتَّبَعَ الْجَنِيدَ فِيهَا كَانَ عَلَى السَّدَادِ وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ
تَكَلَّمُوا فِي أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَفِي شُهُودِ هَذَا التَّوْحِيدِ، وَهَذَا يُسَمُّوهُ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ فَبَيَّنَ لَهُمْ
الْجَنِيدُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ شُهُودِ الْفَرْقِ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّهُ مَعَ شُهُودِ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُشْتَرَكَةً فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ
يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَبْنِي مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ كَمَا
قَالَ تَعَالَى : { أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) (٢) } [الْقلم/٣٥-٣٧] وَقَالَ
تَعَالَى : { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٣) }

(١) - وَهَذِهِ الْأَنْصِبَةُ الَّتِي حَدَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْوَرْتَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ هِيَ حُدُودُ اللَّهِ، فَلَا تَعْدُوا فِيهَا، وَلَا
تَتَجَاوَزُوهَا . وَمَنْ يُطِيعِ أَمْرَ اللَّهِ، وَأَمْرَ رَسُولِهِ، فِيمَا فَرَضَهُ اللَّهُ لِلْوَرْتَةِ، فَلَمْ يُقْصِرْ لِبَعْضِهِمْ، وَلَمْ يَزِدْ بَعْضُهُمْ بِحِيلَةٍ
. . . أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَنَّةَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدًا فِيهَا، وَهَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .
وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَتَعَدَّى حُدُودَ شَرْعِ اللَّهِ، وَيُصِرَّ عَلَى الْعِصْيَانِ، دُونَ اسْتِشْعَارِ
خَوْفِ أَوْ نَدَمٍ، يُدْخِلُهُ اللَّهُ نَارًا، وَيَبْقَى خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا، وَلَهُ فِيهَا عَذَابٌ مُذِلٌّ مُهِينٌ .
حُدُودُ اللَّهِ - حُدُودُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ .

(٢) - قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ سَاخِرِينَ : إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَنَا عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يُفَضِّلَنَا عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ،
فَإِنْ لَمْ يَخْصِلِ التَّفْضِيلُ فَلَا أَقْلَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ . فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَاتِلًا : أُنْسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ رَبَّهُمْ وَبَيْنَ
الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ، وَأَقَامُوا عَلَى الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ؟ كَلَّا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْمُسَاوَاةُ .
مَاذَا حَصَلَ لَكُمْ مِنْ فُسَادِ الرَّأْيِ حَتَّى ظَنَنْتُمْ هَذَا الظَّنَّ، وَحَكَمْتُمْ مِثْلَ هَذَا الْحُكْمِ؟

(٣) - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُسَوِّي بَيْنَ الْأَخْيَارِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، وَبَيْنَ الْفُجَّارِ،
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ وَالْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَجْعَلُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ كَالْفُجَّارِ وَالْمُفْسِدِينَ،
وَإِنَّهُ سَيَجْمَعُ الْجَمِيعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَجْزِيَ كُلَّ وَاحِدٍ بِعَمَلِهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى التَّامِ .
(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَالِبٍ وَعُيَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ بَرَزَ إِلَى مَيْدَانِ الْحَرْبِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَتَلُوا ثَلَاثَةَ
مِنْ رُؤُوسِ الشَّرْكِ : هُمْ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَخُوهُ شَيْبَةَ، وَابْنُهُ رَبِيعَةُ . وَعَتَبَةُ وَأَخُوهُ وَابْنُهُ هُمُ الَّذِينَ عَنَتَهُمُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ
بِالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) .

(٢٨) سورة ص، وَقَالَ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً مَجْزَاهُمْ وَمَمَّا تُهْمُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } (١)(٢١) سورة الجاثية، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } (٢) (٥٨) سورة غافر .

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَيْمَتِهَا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ لَا
رَبَّ غَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ بِالطَّاعَةِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٣)، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ
(٤)، وَلَا يَأْمُرُ بِالْقَحْشَاءِ (٥)، وَإِنْ كَانَتْ وَاقِعَةً بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ لَا يُجِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا وَيُدُّمُ أَهْلَهَا وَيُعَاقِبُهُمْ.

(١) - أَيُّظُنُّ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ، وَاكْتَسَبُوا الْآثَامَ وَالْمَعَاصِيَ فِي الدُّنْيَا ، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَخَالَفُوا أَوْامِرَهُ . . . أَنْ يُسَاوِيَهُمُ اللَّهُ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَصَدَقُوا رُسُلَهُ ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا؟ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ فِي الْآخِرَةِ . وَجَعَلَ اللَّهُ الْكَفْرَةَ الْفَجْرَةَ فِي ذُلِّ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا ، وَفِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الْخَالِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَسَاءَ مَا ظَنَّهُ ، وَمَا قَدَّرَهُ هَؤُلَاءِ لِلْجَرِمُونَ ، تَعَالَى اللَّهُ مِنْ أَنْ يُسَاوِيَهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ الْأَطْهَارِ .

(٢) - وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا ، مَعَ الْبَصِيرِ الَّذِي يَرَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ ، بَلْ هُنَاكَ بَيْنَهُمَا فَارِقٌ كَبِيرٌ ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ ، مَعَ الْفَجَّارِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ ، وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ، وَعَصَوْا رَبَّهُمْ ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِهِ ، فَمَا أَقَلَّ تَذَكُّرُكُمْ حُجَجَ اللَّهِ ، وَمَا أَقَلَّ اعْتِبَارُكُمْ وَاتِّعَاطُكُمْ بِهَا ، وَلَوْ تَذَكَّرْتُمْ وَاعْتَبَرْتُمْ لَعَرَفْتُمْ خَطَأَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ .

(٣) - قال تعالى : {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}

(٢٠٥) سورة البقرة

فَإِذَا انْصَرَفَ الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَى الْعَمَلِ ، أَوْ إِذَا تَوَلَّى وَلَايَةً يَكُونُ لَهُ فِيهَا سُلْطَانٌ ، اتَّجَهَ إِلَى الشَّرِّ وَالْفُسَادِ فِي قَسْوَةِ وَجْهَةٍ ، تَتِمُّلُ فِي إِهْلَاكِ النَّبَاتِ وَالْحَرْثِ ، وَإِتْلَافِ النَّسْلِ الَّذِي يُمَثِّلُ امْتِدَادَ الْحَيَاةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْرَهُ الْفُسَادَ وَالْمُفْسِدِينَ .

(٤) - قال تعالى : {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَرَزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (٧) سورة الزمر
وَإِنْ تَكْفُرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مَعَ مَا تَقْدَمُ مِنْ بَيَانٍ يُوجِبُ عَلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَالشُّكْرَ فَإِنَّ كُفْرَكُمْ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ سَائِرِ خَلْقِهِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْكُفْرَ لِعِبَادِهِ ، وَلَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ لِعِبَادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، وَيَشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ عَلَيْهِمْ . وَكُلُّ نَفْسٍ تُحَاسِبُ عَمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا تُسْأَلُ نَفْسٌ عَمَّا فَعَلَتْهُ نَفْسٌ أُخْرَى؛ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرْجِعُ الْخَلْقُ إِلَى اللَّهِ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَبِمَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا أَعْلَنُوهُ ، وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ لَأَنَّهُ لَا تَحْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

(٥) - قال تعالى : {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (٢٨) سورة الأعراف

وَإِذَا فَعَلَ الْمَكْذُوبُونَ أَمْرًا بَالِغَ النُّكْرِ ، كَالشَّرِّكَ ، وَالطَّوْفِ ، بِالْبَيْتِ عُرَاءَ ، اعْتَدَرُوا عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا : إِنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدِينَ بِهِمْ ، وَاللَّهُ أَمَرُهُمْ بِهِ ، وَرَضِيَ لَهُمْ عَنْ فِعْلِهِ ، إِذْ أَقْرَهُمْ عَلَيْهِ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مُنْكَرًا مَا يَقْتَرُونَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الْمُنْكَرَةِ ، فَكَيْفَ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ تَعَالَى مَا لَا يَجِدُونَ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نَسْبَتِهِ إِلَيْهِ؟

وَأَمَّا " الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ أَنْ لَا يَشْهَدَ طَاعَةً وَلَا مَعْصِيَةً - فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّحْقِيقِ وَالْأُولَايَةُ لِلَّهِ ؛ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَايَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ، وَغَايَةُ الْعِدَاوَةِ لِلَّهِ ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْمَشْهَدِ يَتَّخِذُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِلُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (١)(٥١) سورة المائدة

وَلَا يَتَّبِعُ مِنَ الشِّرْكِ وَاللَّوْثَانِ فَيُخْرِجُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } إِنَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ { (٢) (٤) سورة الممتحنة ، وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) } (٣)

(١) - يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَاتِّخَاذِهِمْ خُلَفَاءَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ إِنْ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ نُصَرَاءَ وَخُلَفَاءَ وَأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ فِي التَّحَرُّبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِيَانٌ مِنْهُ . وَمَنْ يَتَوَلَّى أَعْدَاءَ اللَّهِ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِيهِ إِلَى الْخَيْرِ . وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ

(٢) - أَفَلَا تَأْسَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤَادُّونَ الْكَافِرِينَ بِأَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ : إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ ، وَجَحَدْنَا مَا أَتَمَّ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَانْكُرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ ، وَتَخْلَصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ .

وَلَكُمْ فِي أَيْكُمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَّسُونَ بِهَا ، وَتَعْبِرُونَ بِهَا فِي مَسَلِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَشْهُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتِغْفَارَهُ لِأَبِيهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا أَمْرَ مَرْدُودٍ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمَ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجُّوا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

(٣) - قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ : هَلْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا أَنْتُمْ؟ أَفَرَأَيْتُمْ - أَتَأْمَلْتُمْ فَعَلِمْتُمْ . وَالَّتِي عَبْدَهَا آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ؟

إِنِّي بَرَاءٌ مِنْهَا جَمِيعًا ، وَأَنَا لَا أَعْتَرِفُ بِرُبُوبِيَّةِ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَإِنِّي لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ ، فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

[الشعراء/٧٥-٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (١) (٢٢) سورة المجادلة .

وهؤلاء قد صَنَّفَ بَعْضُهُمْ كُتُبًا وَقَصَائِدَ عَلَى مَذْهَبِهِ مِثْلَ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ الْمُسَمَّاةِ بِ " نَظْمِ السُّلُوكِ " يَقُولُ

(١) - لا تجد قوماً يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين مؤادة أعداء الله وأعداء رسوله ، لأن المؤمنين حقاً لا يؤالون الكافرين ، ولو كان هؤلاء الكافرون هم أهلهم ، وأقرباءهم أو أبناءهم الذين هم أقرب الناس إليهم ، والمؤمنون الذين يمتنعون عن مؤادة الكافرين ، ولو كانوا أقرباءهم وعشيرتهم ، هم الذين ثبت الله الإيمان في قلوبهم ، وزين لهم الهدى ، وقواهم بطمأنينة القلب ، والثبت على الحق { وأيدهم بروح منه } ، وسيدخلهم الله يوم القيامة في جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويقيمون فيها خالدين أبداً ، رضي الله عنهم ، وأدخلهم في رحمته ، فأدخلهم الجنات ، ورضوا بما آتاهم الله عنهم ، وأدخلهم في رحمته ، فأدخلهم الجنات ، ورضوا بما آتاهم الله من فضله ، وبما عوضهم به لاسخاطهم الأقارب والأبناء . وهؤلاء هم أنصار الله ، وجنده ، وحزبه ، وأهل كرامته ، وهم أهل القلاح والسعادة والنصر في الدنيا والآخرة .

(٢) - وفي تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١٠ / ص ١٨٧)

عمر بن علي بن مرشد بن علي . الأديب البليغ، شرف الدين، أبو القاسم، الحموي الأصل، المصري المولد والدار، ابن الشيخ أبي الحسن الفارض.

سيد شعراء العصر، وشيخ الاتحادية.

ولد في رابع ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة.

وسمع بها من بهاء الدين القاسم بن عساكر شيئاً قليلاً.

وذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم في " معجمه " وقال: سمعت منه من شعره.

وقال في " الوفيات " : كان قد جمع في شعره بين الجزالة والحلاوة.

قلت: وديوان شعره مشهور، وهو في غاية الحسن، واللطافة، والبراعة، والبلاغة، لولا ما شأنه بالتصريح بالاتحاد الملعون في ألد عبارة وأرق استعارة كالفالودج سمه سم الأفاعي، وهأنا أذكر لك منه أبياتاً لتشهد بصدق دعواي، فإنه قال - تعالى الله عما يقول - :

وكل الجهات الست نحوي مشيرة ... بما تم من نسلٍ وحجٍّ وعمرة

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصلٌ واحدٌ ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة

إلى كم أواخي الستّر ها قد هتكته ... وحلٌ أواخي الحجب في عقد بيعتي

وها أنا أبدي في اتّحادي مبدئي ... وأقبي انتهائي فيتواضع رفعتي

فإن لم بجوّز رؤية اثنين واحداً ... حجاجك ولم يثبت لبعث تثبت

فبي موقفي، لا بل إليّ توجّهي ... ولكن صلاقي لي، ومنّي كعبي

فلا تك مفنوناً بحسك معجباً ... بنفسك موقوفاً على لبس غرة

وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج ... هدى فرقة بالاتحاد تحدّت

وصرّح بإطلاق الجمال ولا تقل ... بتقييده ميلاً لخراف زينة

فكلٌ مليح حسنه من جهاتها ... معارٌ له أو حسن كل مليحة

بها قيس لبني هام بل عاشقٍ ... كمجنون ليلي أو كثير عزّة

وما ذاك إلا أن بدت بمظاهرٍ ... فظنوا سواها وهي فيهم تجلّت
وما زلت إيّاها، وإيّاي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبّت
وليس معي في الملك شيءٌ سواي وال ... معية لم تخطر على ألمعيّ
وها " دحية " وافي الأمين نبينا ... بصورته في بدء وحي النبوة
أجبريل قل لي كان إذ بدا ... لمهدي الهدى في صورة بشرية
ومنها:

ولا تك ممن طيشته دروسه ... بحيث استقلت عقله فاستقرّت
فشم وراء الثقل علمٌ يدقّ عن ... مدارك غايات العقول السليمة
تلقّيته عني ومتي أخذته ... ونفسي كانت من عطائي مملّتي
ولا تك باللاهي عن اللهو جملة ... فهزل الملاهي جدّ نفس مجدة
تنزهت في آثار صني منزهاً ... عن الشّرك بالأغيار جمعي وألفتي
فبي مجلس الأذكار سمع مطالع ... ولي حانة الخمار عين طليعي
وما عقد الزنار حكماً سوى يدي ... وإن حلّ بالإقرار بي فهي حلّت
وإن خرّ للأحجار في البدّ عاكفٌ ... فلا تعدّ بالإنكار بالعصية
قد عبد الديار معنى منزّة ... عن العار بالإشراك بالوثية
وما زاغت الأبصار من كلّ ملّة ... وما زاغت الأفكار في كلّ نخلة
وما حار من للشمس عن غرة صبا ... وإشراقها من نور إسفار غربي
وإن عبد النار الجوس وما انطفأت ... كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم ... سواي وإن لم يظهروا عقد نية
رأوا ضوء نوري مرّة فتوهّموا ... ه ناراً فضّلوا في الهدى بالأشعة
توفي ابن القارض في جمادى الأولى، ثاني يوم منه بمصر. وقد جاور بمكة زماناً.
وأنشدنا غير واحد له أنه قال عند الموت هذين البيتين لما انكشف له الغطاء:
إن كان منزلي في الحبّ عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيّعت أيامي
أمنيةً وثقت نفسي بها زمناً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

:

لَهَا صَلَاتِي بِالْمَقَامِ أَقِيمُهَا * * * وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِي صَلَّتُ
كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى * * * حَقِيقَتِهِ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ
وَمَا كَانَ لِي صَلَّي سِوَانِي وَلَمْ تَكُنْ * * * صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةٍ
إِلَى أَنْ قَالَ :

وَمَا زَلْتُ إِيَّاهَا وَإِيَّاي لَمْ تَزَلْ * * * وَلَا فَرْقَ بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أَحَبَّتْ
إِلَيَّ رَسُولًا كُنْتُ مَبْنِي مُرْسَلًا * * * وَذَاتِي بِأَيَاتِي عَلَيَّ اسْتَدَلَّتْ
فَإِنْ دُعِيتَ كُنْتُ الْمُجِيبَ وَإِنْ * * * أَكُنْ مُنَادِيً أَجَابَتْ مَنْ دَعَانِي وَلَبَّتْ
إِلَى أَمْثَالِ هَذَا الْكَلَامِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ يَنْشُدُ وَيَقُولُ (١):

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةً ظَفَرْتُ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْعَافًا أُخْلِمَ
فَائِدَتَهُ كَانَ يَطْنُ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ تَبَيَّنَ لَهُ بَطْلَانُ مَا كَانَ يَطْنُهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
{ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (٢)(١) سورة الحديد، فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ ؛ لَيْسَ هُوَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٣) [الحديد/٢، ٣] .

(١) - وفي تراجم شعراء موقع أدب - (ج ١٢ / ص ٤٨٠) العصر العباسي - ابن القارض - رقم القصيدة :

١٥٤٧١

نشرتُ في موكبِ العشاقِ أعلامي وكانَ قلبي بُلَى في الحبِّ أغلامي
وسرْتُ فيه ولم أُبْرِحْ بِدَوْلَتِهِ، حتَّى وَجَدْتُ مُلُوكَ الْعِشْقِ خُدَامِي
ولم أزلْ منذُ أخذِ العهدِ في قَدَمِي لَكَعْبَةِ الْحُسْنِ، تجرِدي وإحرامي
وقد رَمَانِي هَوَاكُم في الْغَرَامِ إلى مَقَامِ حُبِّ شَرِيفِ شَامِخِ سَلَمِ
جهلتُ أهليَ فيه أهلَ نَسَبَتِهِ وَهُمْ أَعَزُّ أَهْلَاتِي وَأَلْزَامِي
قضيتُ فيه إلى حينِ انقضاءِ أَجَلِي شهري وَدَهْرِي وسَاعَاتِي وَأَعْوَامِي
ظَنُّ الْعَنُودِ بَأَنَّ الْعَذْلَ يُوَقِّفُنِي نَامَ الْعَنُودُ وَشَوْقِي زَائِدٌ نَمِ
إِنْ عَامَ إِنْسَانٌ عَيْنِي فِي مَدَامِعِهِ، فَقَدْ أُمِدَّ بِإِحْسَانٍ وَإِنْعَامِ
يَا سَائِقًا عَيْسَ أَحْبَابِي عَسَى مَهْلًا وَسِرًّا رَوَيْدًا، فَقَلْبِي بَيْنَ أَنْعَامِ
سَلَكْتُ كُلَّ مَقَامٍ فِي مَحَبَّتِكُمْ وَمَا تَرَكْتُ مَقَامًا قَطُّ قَدَامِي
وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَتَيْ قَدْ وَصَلْتُ إِلَى أَعْلَى ، وَأَعْلَى مَقَامٍ، بَيْنَ أَقْوَامِي
حتَّى بَدَأَ لِي مَقَامٌ لَمْ يَكُنْ أَرِي، وَلَمْ يَمُرَّ بِفِكَارِي وَأَوْهَامِي
إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ رَأَيْتُ، فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةً ظَفَرْتُ رُوحِي بِهَا زَمَنًا وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْعَافًا أُخْلِمَ
وإنْ يَكُنْ فَرَطٌ وَجَدِي فِي مَحَبَّتِكُمْ إِنْمَاءً فَقَدْ كَثُرَتْ فِي الْحُبِّ آثَامِي
ولو عَلِمْتُ بَأَنَّ الْحُبَّ آخِرُهُ هَذَا الْحِمَامُ، لَمَا خَالَفْتُ لُؤَامِي
أَوْدَعْتُ قَلْبِي إِلَى مَنْ لَيْسَ يَحْفَظُهُ أَبْصَرْتُ خَلْفِي، وَمَا طَالَعْتُ قَدَامِي
لَقَدْ رَمَانِي بِسَهْمٍ مِنْ لَوَاحِظِهِ أَصْنَمِي فَوَادِي، فَوَاشَوْقِي إِلَى الرَّامِي
آهًا عَلَى نَظَرَةٍ مِنْهُ أُسْرَ بِهَا، فَإِنَّ أَقْصَى مَرَامِي رُؤْيَا الرَّامِي
إِنْ أَسْعَدَ اللَّهُ رُوحِي، فِي مَحَبَّتِهِ، وَجَسَمَهَا بَيْنَ أَرْوَاحِ وَأَجْسَامِ
وشاهدتُ واجتلتُ وَجْهَ الْحَبِيبِ فَمَا أَسَى وَأَسْعَدَ أَرْزَاقِي وَأَقْسَامِي
ها قَدْ أَظَلَّ زَمَانُ الْوَصْلِ، يَا أَمَلِي، فَاْمُنْ، وَتَبَّتْ بِهِ قَلْبِي وَأَقْدَامِي
وقَدْ قَدِمْتُ، وَمَا قَدِمْتُ لِي عَمَلًا، إِلَّا غَرَامِي، وَأَشْوَاقِي، وَإِقْدَامِي
دَارُ السَّلَامِ إِلَيْهَا قَدْ وَصَلْتُ إِذْنُ مِنْ سَبِيلِ أَبْوَابِ إِيْمَانِي وَإِسْلَامِي

يا ربنا أرني أنظر إليك بما عند القُدوم، وعاملني باكرام

(٢) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ، وَمَا فِي الْأَرْضِ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِقْرَارًا بِرُبوبِيَّتِهِ ، وَخُضُوعًا لِعِزَّتِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ ، وَيُنْزِلُهُ عَنْ صِفَاتِ الْقُصَصِ وَالْعَجْزِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ - كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى - وَهُوَ تَعَالَى الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَغَالِبُ ، الْحَكِيمُ فِي شَرْعِهِ وَقُدْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ

(٣) - وَهُوَ تَعَالَى الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ تَصَرُّفًا مُطْلَقًا ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِغَيْرِ حَدٍّ ، وَهُوَ الْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ ، وَهُوَ الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ فَلَا شَيْءَ أَذْنَى مِنْهُ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْوُجُودِ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ أَفْضِ عَنَّا الدِّينَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ » (١).

ثُمَّ قَالَ : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) (٢) } [الحديد/٤] ، فَذَكَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ - (وَمَا بَيْنَهُمَا) (٣) مَخْلُوقٌ مُسَبَّحٌ لَهُ ، وَآخِرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ . وَأَمَّا قَوْلُهُ (وَهُوَ مَعَكُمْ) (٤)

(١) - صحيح مسلم (٧٠٦٤)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ٧٩)

قَوْلُهُ : (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ) أَي : مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا فِي سُلْطَانِهِ ، وَهُوَ آخِذٌ بِنَوَاصِيهَا .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ أَفْضِ عَنَّا الدِّينَ) يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْدِّينِ هُنَا حُقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى وَحُقُوقَ الْعِبَادِ كُلِّهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ، وَأَمَّا مَعْنَى الظَّاهِرِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَقِيلَ : هُوَ مِنَ الظُّهُورِ بِمَعْنَى الْقَهْرِ وَالْعَلَبَةِ ، وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وَمِنْهُ ظَهَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ ، وَقِيلَ : الظَّاهِرُ بِالذَّلَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَالْبَاطِنُ : الْمُحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِهِ ، وَقِيلَ : الْعَالِمُ بِالْخَفِيَّاتِ . وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ سُبْحَانَهُ بِالْآخِرِ ، فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْبِقَالَانِيِّ : مَعْنَاهُ الْبَاقِي بِصِفَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي الْأَزَلِ ، وَيَكُونُ كَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ الْخَلَائِقِ ، وَذَهَابِ غُلُومِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَحَوَاسِهِمْ ، وَتَفَرُّقِ أَجْسَامِهِمْ ، قَالَ : وَتَعَلَّقْتُ الْمُعْتَزِلَةَ بِهَذَا الْإِسْمِ ، فَاحْتَجُّوا بِهِ لِمَذْهَبِهِمْ فِي فَنَاءِ الْأَجْسَامِ وَذَهَابِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، قَالُوا : وَمَعْنَاهُ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ خِلَافَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ الْآخِرَ بِصِفَاتِهِ بَعْدَ ذَهَابِ صِفَاتِهِمْ ، وَلِهَذَا يُقَالُ : آخِرُ مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ فُلَانٌ ، يُرَادُ حَيَاتُهُ ، وَلَا يُرَادُ فَنَاءُ أَجْسَامِ مَوْتَاهُمْ وَعِلْمُهَا ، هَذَا كَلَامُ ابْنِ الْبِقَالَانِيِّ .

(٢) - وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَلْقًا مُبْتَدَأً وَدَبَّرَهُنَّ ، وَخَلَقَ مَا فِيهِنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (وَهَذِهِ الْأَيَّامُ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا أَحَدٌ ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا) ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَلْقٍ ، وَمَا يَنْزِلُ فِيهَا مِنْ حَبَّاتِ الْمَطَرِ ، وَالْحَبِّ وَالنَّوْرِ . . . وَيَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ زَرْعٍ وَنَبَاتٍ وَثَمَارٍ وَمَعَادِنٍ وَمَاءٍ . . . وَيَعْلَمُ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَطَرٍ وَغَيْرِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ (يَعْرِجُ فِيهَا) كَالْأَبْجَرَةِ الْمُتَصَاعِدَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ . . وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، وَنِيَّاتِهِمْ ، أَيْنَمَا كَانُوا ، وَيَعْلَمُ مُتَقَلِّبَهُمْ وَمَثْوَاهُمْ .

(٣) - قَالَ تَعَالَى : { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } (٥٩) سورة الفرقان

(٤) - وقوله - سبحانه - : { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } أى : وهو معكم بعلمه ولطفه ورحمته . . أينما كنتم وحيثما وجدتم .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : وهو معكم أينما كنتم تمثيل لإحاطة علمه - تعالى - بهم ، وتصوير خروجه عنهم عنه أينما كانوا ، وقيل المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السياق واللاحق مع استحالة الحقيقة . وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج - أيضا - عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال : علمه معكم . وفي البحر : أنه اجتمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأما لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات . الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ / ص ٤٠٨٣)

وفي أضواء البيان - (ج ٣ / ص ٩٦)

وهذه المعية بعباده المؤمنين ، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق . وكرر هذا المعنى في مواضع آخر ، كقوله : { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه : ٤٦] ، وقوله : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } [الأنفال : ١٢] ، وقوله : { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة : ٤٠] وقوله : { قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : ٦٢] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم ، ونفوذ القدرة ، وكون الجميع في قبضته جل وعلا : فالكائنات في يده جل وعلا أصغر من حبة خردل ، وهذه هي المذكورة أيضاً في آيات كثيرة . كقوله : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ } [المجادلة : ٧] [الآية ، وقوله : { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } [الحديد : ٤] الآية ، وقوله : { فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ } [الأعراف : ٧] وقوله : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [يونس : ٦١] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

فهو جل وعلا مستو على عرشه كما قال ، على الكيفية اللانقطة بكماله وجلاله ، وهو محيط بخلقه ، كلهم في قبضة يده ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

فَلَفْظُ (مَعَ) لَا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مُخْتَلِطًا بِالْآخَرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } (١) (١١٩) سورة التوبة ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } (٢) (٢٩) سورة الفتح ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَلُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٣) (٧٥) سورة الأنفال .
وَلَفْظُ (مَعَ) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَّةً وَخَاصَّةً ؛ فـ " الْعَامَّةُ " فِي هَذِهِ آيَةِ الْمُجَادَلَةِ : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٤) (٧) سورة المجادلة ، فَانْتَشَعَ الْكَلَامُ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ . (٥)

(١) - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَرَاقِبُوهُ بَأْدَاءَ فَرَائِضِهِ وَوَاجِبَاتِهِ ، وَاجْتَنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَاصْدُقُوا وَالزَّمُوا الصَّدَقَ تَكُونُوا أَهْلَهُ ، وَتَنَجُّوا مِنَ الْمَهَالِكِ ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا .
(٢) - إِنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا ، بَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ ، وَإِنَّ أَصْحَابَهُ يَتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ الْحَسَنَةِ ، فَهُمْ أَشِدَّاءُ غِلَاطُ الْقُلُوبِ عَلَى الْكُفَّارِ ، وَهُمْ رُحَمَاءُ مُتَوَادُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَرَاهُمْ النَّاطِرُ إِلَيْهِمْ دَانِينَ عَلَى آدَاءِ الصَّلَاةِ ، مُخْلِصِينَ فِيهَا لِلَّهِ ، مُحْتَسِينَ أَجْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ ، يَتَّبِعُونَ بِصَلَاتِهِمْ رِضَا اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ ، تَتْرُكُ نَفْسُهُمُ الْمُطْمَئِنَّةَ أَثَرًا عَلَى وُجُوهِهِمْ ، فَهِيَ هَادِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَهَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ فِي التَّوْرَةِ . وَجَاءَ وَصْفُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ سَيَكُونُونَ قَلِيلِينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلِظُونَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ مُحَمَّدٌ سَيَكُونُونَ قَلِيلِينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلِظُونَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ فُرُوعَهُ (شَطْأَهُ) الَّتِي تَنْفَرِعُ مِنْهُ عَلَى جَوَانِبِهِ ، فَيَقْوَى وَيَتَحَوَّلُ مِنَ الدَّقَّةِ إِلَى الْغُلْظَةِ ، وَيَسْتَقِيمُ عَلَى أَصُولِهِ فَيُعْجَبُ بِهِ الزُّرَّاعُ لِحَصْبِهِ ، وَقُوَّتِهِ ، وَحُسْنِ مَظْهَرِهِ ، وَقَدْ نَمَاهُمْ اللَّهُ وَأَكْثَرَ عَدَدَهُمْ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ ، بِأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ، وَأَنْ يُجْزَلَ لَهُمُ الْأَجْرُ وَالْعَطَاءُ ، وَبِأَنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِهِ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَدًا .

(٣) - يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَكُونُونَ مَعَ السَّابِقِينَ فِي الْآخِرَةِ . وَذَوُوا الْأَرْحَامِ مِنَ الْأَقَارِبِ جَمِيعًا لَهُمْ وَلَايَةُ الْقَرَابَةِ ، وَبَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْمَالِ وَالنَّصْرَةِ كَمَا شَرَعَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ .
(٤) - وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ اللَّهُ مَا عَمِلَ هَؤُلَاءِ ، وَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لِكُفُّمَا ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، وَيَعْلَمُ مَا فِيهِمَا ، فَلَا يَتَنَاجَى ثَلَاثَةً إِلَّا كَانَ مَعَهُمْ سَمْعٌ مَا يَقُولُونَ ، وَيَعْلَمُ مَا يُدَبِّرُونَ ، وَلَا يَجْتَمِعُ خَمْسَةٌ إِلَّا وَيَكُونُ اللَّهُ

تَعَالَى سَادِسُهُمْ ، وَلَا يَجْتَمِعُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعَدَدِ وَلَا أَقَلُّ ، وَلَا يَتَّحُونَ إِلَّا كَانَ مَعَهُمْ يَسْمَعُ وَيَرَى ، وَيُنْبِتُ ذَلِكَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَبِّهُهُمْ بِنَجْوَاهُمْ وَأَسْرَارِهِمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَالَمٌ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِ خَلْقِهِ .
(٥) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ٥ / ص ١٠٢)

وَأَمَّا " الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ " ففِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } (١) (١٢٨) سورة البحل، وقوله تَعَالَى لِمُوسَى : { قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } (٢) (٤٦) سورة طه ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (٣) (٤٠) سورة التوبة ، يَعْنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ ، وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُتَعَدِّينَ .

(١) - إِنَّ اللَّهَ مُؤَيَّدٌ بِنَصْرِهِ وَعَوْنِهِ وَهَدَاهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَاتَّقُوا مَحَارِمَ رَبِّهِمْ ، فَاجْتَنِبُوا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ ، وَالَّذِينَ يُحْسِنُونَ رِعَايَةَ فَرَائِضِهِ ، وَالْقِيَامَ بِحَقُوقِهِ ، وَلِزُومَ طَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَفِي تَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ .
(٢) - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ ، وَأَرَى مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي ، فَلَا يَتَكَلَّمُ ، وَلَا يَنْتَفِسُ ، وَلَا يَطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي ، وَأَنْتُمَا فِي حِفْظِي وَرِعَايَتِي .

إِنِّي مَعَكُمَا - إِنِّي حَافِظُكُمَا وَنَاصِرُكُمَا .

(٣) - يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيَّدُهُ وَكَافِيهِ ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بَابَ الْغَارِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ جَزِعًا : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَأَانَا . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا ظَنُّكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَأَيَّدَهُ بِاللَّاحِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشَّرِكِ وَأَهْلِهِ السُّفْلَى ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَاتِّصَارِهِ ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْوِيرِهِ .

فَلَوْ كَانَ مَعْنَى " الْمَعِيَّةُ " أَنَّهُ بَدَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَنَقَّضَ الْخَبَرُ الْخَاصُّ وَالْخَبَرُ الْعَامُّ ؛ بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ مَعَ هَؤُلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أَوْلِيكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } (١) (٨٤) سورة الزخرف ، أَيُّ هُوَ إِلَهٌ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهٌ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (٢) (٢٧) سورة الروم ، وَكَذَلِكَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } (٣) (٣) سورة الأنعام ، كَمَا فَسَّرَهُ أَيْمَةُ الْعِلْمِ كَالِإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ : أَنَّهُ الْمُعَوِّذُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَأَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَنْمَتَهَا عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى بَاطِنٌ (٤) مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ دُونَ صِفَاتِ

النَّص، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) (٥) }

(١) - وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ ، وَلَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ .

(٢) - وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ، سَبَقَ ، ثُمَّ يَقْضِي بِفَنَائِهَا وَزَوَالِهَا ، ثُمَّ يُعِيدُ خَلْقَهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ هَيِّنٌ عَلَيْهِ . ثُمَّ لَفَتْ اللَّهُ تَعَالَى نَظَرَ الْبَشَرِ إِلَى أَنَّ إِعَادَةَ الْخَلْقِ وَالصَّنْعَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ ابْتِدَائِهِ ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، فَمِنْ الْمَفْرُوضِ فِي الْبَشَرِ أَنْ يُذَرِّكُوا أَنَّ إِعَادَةَ خَلْقِ الْكَاتِبَاتِ أَهْوَنُ مِنْ خَلْقِهَا ابْتِدَاءً ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ تَعَالَى ، فَيَعُثُ الْبَشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَسْهَلُ عَلَى اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِمْ ، وَاللَّهُ الْوَصَفُ الْبَدِيعُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُضَامُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا عَبَثًا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ .

(٣) - وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَدِينُونَ لَهُ الْأُلُوهِيَّةَ ، رَعْبًا وَرَهْبًا ، وَلَا يَشُدُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا يُسِرُّ الْخَلْقُ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَيَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يَعْمَلُهُ الْخَلْقُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَهُوَ يُخَصِّصُهُ عَلَيْهِمْ لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْحِسَابِ .

(٤) - الْبَائِنُ : الْمَنْفَصِلُ

(٥) - قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ سَأَلَكَ مُسْتَهْزِئًا : صِفْ لَنَا رَبَّكَ : إِنَّ رَبِّي هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْمُنَزَّهُ عَنِ التَّعَدُّدِ ، وَعَنِ الزَّوْجَةِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ .

وَهُوَ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْعِبَادُ فِي الْحَاجَاتِ ، وَيَعْوِجُّونَ إِلَيْهِ بِالِدُّعَاءِ وَالرَّجَاءِ فِيمَا أَهَمَّهُمْ وَأَغَمَّهُمْ .
تَنْزَهُ رَبُّنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ .

وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .
وَرَدٌّ عَلَى مَزَاعِمِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ، وَعَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ عَزْرِيًّا هُوَ ابْنُ اللَّهِ .
وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُولَدْ لِأَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي مَجَانِسَتَهُ لِسَوَاهُ ، كَمَا يَقْتَضِي سَبْقَ الْعَدَمِ قَبْلَ الْوُجُودِ ، تَنْزَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ .
لَيْسَ لَهُ نَدٌّ وَلَا مِثِيلٌ . وَفِي هَذَا تَقْيُّ لِمَا يَعْتَقِدُهُ بَعْضُ الْمُبْطِلِينَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ نَدًّا فِي أَفْعَالِهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ شُرَكَاءَ اللَّهِ .

{ سورة الإخلاص ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (الصَّمَدُ الْعَلِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عِلْمِهِ الْعَظِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ الْقَدِيرُ الْكَامِلُ فِي قُدْرَتِهِ الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي حِكْمَتِهِ السَّيِّدُ الْكَامِلُ فِي سَوْدُودِهِ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ : هُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَ الْأَحَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ (١) . فَاسْمُهُ الصَّمَدُ يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ ، وَاسْمُهُ الْأَحَدُ يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ . (٢) }

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ الْأُمُورِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْخَلْقِيَّةِ الْقُدْرِيَّةِ الْكُونِيَّةِ
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تُشْتَبِهُ عَلَيْهِمُ الْحَقَائِقُ الْأُمُورِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِالْحَقَائِقِ الْخَلْقِيَّةِ الْقُدْرِيَّةِ الْكُونِيَّةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالتَّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ { (٣) (٥٤) سورة الأعراف ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رُسُلِهِ ، أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَنَهَى عَنِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ ، فَأَعْظَمَ الْحَسَنَاتِ التَّوْحِيدَ ، وَأَعْظَمَ السَّيِّئَاتِ الشِّرْكَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (٤)

(١) - تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٦٩١) وتفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٥٢٨-٥٢٩)

(٢) - مجموع الفتاوى - (ج ١٧ / ص ٦) فما بعدها

(٣) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ : السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، وَأَخَذَ يُدَبِّرُ أَمْرَهُمَا ، فَيَنْبَغُ اللَّيْلَ النَّهَارَ ، فَيَغْشَى الْوُجُودَ بِالظُّلْمَةِ ، وَيُنْبَغُ النَّهَارَ اللَّيْلَ ، فَيَغْشَاهُ بِالنَّوْءِ ، يَتَنَبَّعَانِ سَرِيعًا ، لَا يَتَأَخَّرُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالتَّجُومُ كُلُّهَا تَسِيرُ مُسَخَّرَةً ، بِأَمْرِ رَبِّهَا ، وَمُنْقَادَةً لِحُكْمِهِ وَمَشِيتِهِ ، وَاللَّهُ الْأَمْرُ وَالْمَلِكُ وَالتَّصَرُّفُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَتَسُوقُ هُنَا مَا قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ حَوْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) : (نَسَلُكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَهُوَ إِفْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادُّرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مُتَقَيٍّ عَنِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ (وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) . وَقَالَ نَعِيمُ بْنُ حَمَادٍ الْخُرَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ : (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهِ ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآثَارُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، وَتَقَى عَنِ اللَّهِ النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى) .

(٤) - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ جَاءَ اللَّهُ مُشْرِكًا بِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ ، لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ارْتَكَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا ، لَا يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الْغُفْرَانَ . وَالشِّرْكَ ضَرْبَانِ :

- شِرْكٌ فِي الْأُلُوهِيَّةِ - وَهُوَ الشُّعُورُ بِسُلْطَةِ وَرَاءِ الْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ .

- شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ - وَهُوَ الْأَخْذُ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عَنْ بَعْضِ الْبَشَرِ دُونَ الْوَحْيِ .

(٤٨) سورة النساء، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } (١) (١٦٥) سورة البقرة .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (٢): قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » . ثُمَّ قَالَ أَيُّ قَالَ « أَنْ تَهْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ » . قَالَ ثُمَّ أَيُّ قَالَ « أَنْ تُرَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » . وَأَنْزَلَ

اللَّهُ تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) } (٣)

[الفرقان/٦٨-٧٠].

وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ (٤)

(١) - وَمَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِنَ الْكُفَّارِ يَتَّخِذُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَأَمْثَالًا (أَنْدَادًا) يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَيُحِبُّونَهُ وَحْدَهُ ، وَهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ . وَحِينَ يَرَى الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَنْزِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْكَفَّارِ ، فَتَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ، وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَنْدَادُ ، يُدْرِكُونَ حَيْثُذُ أَنَّ الْقُوَّةَ جَمِيعَهَا لِلَّهِ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

(٢) - صحيح البخارى (٦٠٠١) ومسلم (٢٦٧)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ١ / ص ١٨٧)

فِيهِ أَنَّ أَكْبَرَ الْمَعَاصِي الشَّرْكَ وَهَذَا ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ . وَأَنَّ الْقَتْلَ بغيرِ حَقٍّ يَلِيهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ بَعْدَ الشَّرْكَ الْقَتْلُ . وَكَذَا نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِ الشَّهَادَاتِ مِنْ (مُخْتَصَرِ الْمُزْنِيِّ) ، وَأَمَّا مَا سِوَاهُمَا مِنَ الزَّنا وَاللَّوْاطِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَالسَّخَرُ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ وَالْفِرَارُ يَوْمَ الرَّحْفِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْكِبَائِرِ فَلَهَا تَفَاصِيلُ وَأَحْكَامٌ تُعْرَفُ بِهَا مَرَاتِبُهَا ، وَيَخْتَلِفُ أَمْرُهَا بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْمَقَاسِدِ الْمُرْتَبَةِ عَلَيْهِ . وَعَلَى هَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ وَإِنْ جَاءَ فِي مَوْضِعٍ أَنَّهَا أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٣) - وَهُمْ مُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَدْعُونَ مَعَهُ أَحَدًا ، وَلَا يَعْبُدُونَ سِوَاهُ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَفَقًا لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يَرْتَكِبُونَ الزَّنا ، وَلَا يَأْتُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْفُرُوجِ . وَمَنْ يَرْتَكِبْ هَذِهِ الْكِبَائِرَ فَإِنَّهُ يَلْقَى عَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، جَزَاءً لَهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَ . وَيَزَادُ فِي عَذَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُغْلَظُ لَهُ فِيهِ ، وَيُخْلَدُ فِي جَهَنَّمَ مُهَانًا ذَلِيلًا حَقِيرًا ، جَزَاءً لَهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُنْكَرَةِ .

إِلَّا مَنْ تَابَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَخْلَصَ التَّوْبَةَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَقَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ، وَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ مُسْتَغْفِرًا مُنِيبًا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْهِ ، وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ ، (وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ) ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، كَانُوا قَبْلَ إِيْمَانِهِمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، فَحَوَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْحَسَنَاتِ ، وَأَبْدَلَهُمْ مَكَانَ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ ، رَحِيمٌ بِهِمْ .

(وَقِيلَ بَلْ مَعْنَاهُ : إِنَّ السَّيِّئَاتِ السَّابِقَةَ تَنْقَلِبُ بِنَفْسِ التَّوْبَةِ إِلَى حَسَنَاتٍ) .

(٤) - قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٩٠) سورة النحل

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَيَنْذِبُ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ ، وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، مِمَّا يَأْتِيهِ الْعَبْدُ سِرًّا وَخَفِيَّةً وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ ، وَيَنْهَىٰكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالشَّرِّ ، لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ ، فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ .

، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (١) وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٢) وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٣) ؛ وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ

(٤) ، وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرُصُوصٌ (٥) ، وَهُوَ يَكْرَهُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ

سُبْحَانَ: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} (٦)(٣٨) سورة الإسراء، وَقَدْ نَهَى عَنِ الشِّرْكِ وَعُفُوقِ
الْوَالِدَيْنِ؛ وَأَمَرَ بِإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى الْحَقُوقِ (٧)، وَنَهَى عَنِ التَّبَذِيرِ (٨)؛ وَعَنِ التَّقْتِيرِ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ مَغْلُولَةً إِلَى
عُنُقِهِ؛ وَأَنْ يَبْسُطَهَا كُلَّ الْبَسْطِ (٩)، وَنَهَى عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَعَنِ الزَّوْنِ وَعَنِ قُرْبَانِ مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ (١٠) إِلَى أَنْ قَالَ: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} (٣٨) { (١١) [الإسراء/٣٨]، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا
يُحِبُّ الْفُسَادَ (١٢) وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (١٣).

الأمرُ بالتوبةِ تعالى دائماً

(١) - قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} (٧٦) سورة آل عمران
(٢) - قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}
(١٩٥) سورة البقرة
(٣) - قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي
تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (٩) سورة
الحجرات

(٤) - قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ
فَإِذَا طَهَّرْنَ فَأَنتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (٢٢٢) سورة البقرة
(٥) - قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ} (٤) سورة الصف
(٦) - لَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ عَنْ أُمُورٍ، كَمَا أَمَرَ بِأُمُورٍ، وَجَمِيعَ مَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (وَهُوَ
سَيِّئُهُ): مِنَ الْإِشْرَافِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّبَذِيرِ وَالتَّأْفُفِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَغِلِّ الْيَدِ بَخْلًا، وَقَتْلِ الْأَبْنَاءِ خَشْيَةً إِفْلَاقٍ،
وَالْمَشْيِ مَرَحًا... هُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ مَمْقُوتٌ.

(٧) - قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا
فَخُورًا} (٣٦) سورة النساء

(٨) - قال تعالى: {وَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا} (٢٦) سورة الإسراء
(٩) - قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (٢٩) سورة
الإسراء

(١٠) - قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِىَ نَحْسٌ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} (٣١) وَلَا
تَقْرُبُوا الزَّوْنِ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرُبُوا مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) { [الإسراء/٣١-٣٤]

(١١) - لَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ عَنْ أُمُورٍ، كَمَا أَمَرَ بِأُمُورٍ، وَجَمِيعَ مَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (وَهُوَ
سَيِّئُهُ): مِنَ الْإِشْرَافِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّبَذِيرِ وَالتَّأْفُفِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَغِلِّ الْيَدِ بَخْلًا، وَقَتْلِ الْأَبْنَاءِ خَشْيَةً إِفْلَاقٍ،
وَالْمَشْيِ مَرَحًا... هُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ مَمْقُوتٌ.

(١٢) - قال تعالى : {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ} (٢٠٥) سورة البقرة

(١٣) - قال تعالى : {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّلُورِ} (٧) سورة الزمر

وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ أَنْ يُتَوَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى دَائِمًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (١) (٣١) سورة النور، وفي صحيح البخاري عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " { أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً } (٢) " ، وفي صحيح مسلم عَنْ الْأَعْرَابِيِّ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً » (٣) .
وفي السنن عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةً : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٤)

(١) - وَارْجِعُوا تَائِبِينَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنَ التَّخَلُّقِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ اللَّئِيمَةِ ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ .

(٢) - قلت : هما حديثان وليس حديثاً واحداً
عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » . صحيح البخاري (٦٣٠٧)
عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةً » . صحيح مسلم (٧٠٣٤)

(٣) - صحيح مسلم (٧٠٣٣)
وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ٦٥)
قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : (الْغَيْنُ) بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ ، وَالْغَيْنُ بِمَعْنَى ، وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يَغْشَى الْقَلْبَ ، قَالَ الْقَاضِي : قِيلَ : الْمُرَادُ الْفُتْرَاتُ وَالْغَفَلَاتُ عَنْ الذِّكْرِ الَّذِي كَانَ شَأْنُهُ اللَّوَامُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَفْتَرَّ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا ، وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ ، قَالَ : وَقِيلَ هُوَ هَمَّهُ بِسَبَبِ أَمْتِهِ ، وَمَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ ، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، وَقِيلَ : سَبَبُهُ اسْتِغَالُهُ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ أَمْتِهِ وَأُمُورِهِمْ ، وَمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ وَمُدَارَاتِهِ ، وَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَشْتَغِلُ بِذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ مَقَامِهِ ، فَيَرَاهُ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ ، وَأَفْضَلِ الْأَعْمَالِ ، فَهِيَ نُزُولُ عَنْ عَالِي دَرَجَتِهِ ، وَرَفِيعِ مَقَامِهِ مِنْ حُضُورِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَفَرَاحِهِ مِمَّا سِوَاهُ ، فَيَسْتَغْفِرُ لَذَلِكَ ، وَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا الْغَيْنَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِي تَغْشَى قَلْبَهُ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِ } وَيَكُونُ اسْتِغْفَارُهُ إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ ، وَمُلَازِمَةً الْخُشُوعِ ، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ ، وَقَدْ قَالَ الْمُحَاشِي : خَوْفُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ خَوْفُ إعْظَامِ ، وَإِنْ كَانُوا آمِنِينَ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا الْغَيْنَ حَالُ خَشْيَةِ وَإِعْظَامِ يَغْشَى الْقَلْبَ ، وَيَكُونُ اسْتِغْفَارُهُ شُكْرًا ، كَمَا سَبَقَ ، وَقِيلَ : هُوَ شَيْءٌ يَعْتَرِي الْقُلُوبَ الصَّافِيَةَ مِمَّا تَحْدَثُ بِهِ النَّفْسُ فَهُوَ شَهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٤) - سنن أبي داود (١٥١٨) صحيح

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٦٢)

وَقَدْ اسْتَشْكَلَ وَفُوعَ الْإِسْتِغْفَارِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَعْصُومٌ ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يَسْتَدْعِي وَفُوعَ مَعْصِيَةٍ .
وَأَجِيبَ بَعْدَةَ أَجْوَبَةٍ : مِنْهَا مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْغَيْنِ ، وَمِنْهَا قَوْلُ ابْنِ الْجَوَازِيِّ : هَفَوَاتِ الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةُ لَا يَسْلَمُ
مِنْهَا أَحَدٌ ، وَالْأَنْبِيَاءُ وَإِنْ عُصِمُوا مِنَ الْكِبَائِرِ فَلَمْ يُعْصَمُوا مِنَ الصَّغَائِرِ . كَذَا قَالَ ، وَهُوَ مُفَرَّعٌ عَلَى خِلَافِ الْمُخْتَارِ
، وَالرَّاجِحُ عَصَمَتُهُمْ مِنَ الصَّغَائِرِ أَيْضًا . وَمِنْهَا قَوْلُ ابْنِ بَطَّالٍ : الْأَنْبِيَاءُ أَشَدَّ النَّاسِ اجْتِهَادًا فِي الْعِبَادَةِ لِمَا أُعْطَاهُمْ
اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، فَهُمْ ذَائِبُونَ فِي شُكْرِهِ مُعْتَرِفُونَ لَهُ بِالتَّقْصِيرِ أَنْتَهَى . وَمُحْصَلُ جَوَابِهِ أَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ مِنَ
التَّقْصِيرِ فِي آدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِاشْتِغَالِهِ بِالْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ
جَمَاعٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ رَاحَةٍ ، أَوْ لِمُخَاطَبَةِ النَّاسِ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ ، وَمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِمْ تَارَةً وَمُدَارَاتِهِ أُخْرَى ، وَتَأْلِيفِ
الْمُؤَلَّفَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْجُبُهُ عَنِ الْإِسْتِغْفَالِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَمُشَاهَدَتِهِ وَمَرَاقِبَتِهِ ، فَيَرَى ذَلِكَ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ وَهُوَ الْحُضُورُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُّوسِ . وَمِنْهَا أَنَّ إِسْتِغْفَارَهُ تَشْرِيعٌ لِمُنْتَهَى ، أَوْ مِنْ ذُنُوبِ الْأُمَّةِ فَهُوَ
كَالِشَفَاعَةِ لَهُمْ . وَقَالَ الْغَزَالِيُّ فِي " الْإِحْيَاءِ " كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَائِمَ التَّرَقُّيِّ ، فَإِذَا ارْتَقَى إِلَى حَالٍ رَأَى مَا
قَبْلَهَا دُوَّمَا فَاسْتَغْفَرَ مِنَ الْحَالَةِ السَّابِقَةِ ، وَهَذَا مُفَرَّعٌ عَلَى أَنَّ الْعِدَدَ الْمَذْكُورَ فِي إِسْتِغْفَارِهِ كَانَ مُفَرَّقًا بِحَسَبِ تَعَدُّدِ
الْأَحْوَالِ ، وَظَاهِرُ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ يُخَالِفُ ذَلِكَ . وَقَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ : لَمَّا كَانَ رُوحُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لَمْ يَزَلْ فِي التَّرَقُّيِّ إِلَى مَقَامَاتِ الْقُرْبِ يَسْتَبِيعُ الْقَلْبَ ، وَالْقَلْبُ يَسْتَبِيعُ النَّفْسَ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَرَكَةَ الرُّوحِ
وَالْقَلْبِ أَسْرَعَ مِنْ نَهْضَةِ النَّفْسِ فَكَانَتْ خُطَا النَّفْسِ تَقْصُرُ عَنْ مَدَاهِمَا فِي الْعُرُوجِ ، فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ إِنْطَاءَ حَرَكَةِ
الْقَلْبِ لِنَلَا تَنْقُطَ عِلَاقَةُ النَّفْسِ عَنْهُ فَيَبْقَى الْعِبَادُ مَحْرُومِينَ ، فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْزَعُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ لِقُصُورِ
النَّفْسِ عَنْ شَأْوِ تَرْقِي الْقَلْبَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنْ يَخْتِمُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بِالْإِسْتِغْفَارِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-
إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » . كَمَا
ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ، (١) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ } (٢) (١٧) سورة آل عمران ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِاللَّيْلِ وَيَسْتَغْفِرُوا بِالْأَسْحَارِ . وَكَذَلِكَ حَتَمَ سُورَةَ
الْمُزْمَلِ وَهِيَ سُورَةُ قِيَامِ اللَّيْلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : .. وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ { (٢٠) (٣) سورة الزمزل
، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْحَجِّ : { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ
الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) } (٤)

(١) - صحيح مسلم (١٣٦٢)

(٢) - وهؤلاء العباد المتقون هم : الصَّابِرُونَ عَلَى قِيَامِهِمْ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَتَرْكِ مُحَرَّمَاتِهِ ، وَهُمْ الصَّادِقُونَ فِيمَا
أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا التَزَمُوا بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ ، وَالْمُتَزَمُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْخُضُوعِ لَهُ (الْقَانِتُونَ) ، وَهُمْ
الْمُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَمَوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَهُمْ
الْمُسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ ، حِينَمَا يَكُونُ النَّاسُ نَائِمِينَ . وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم قال : " يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى اللَّيْلُ الْآخِرُ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ "

(٣) - وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آثاء الليل والنهار، فمتى لم يتعمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

(٤) - ظَنَّ الْمُسْلِمُونَ فِي بادئِ أَمْرِهِمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي اتِّجَارِهِمْ أَيَّامٌ مُوسِمِ الْحَجِّ إِنْهُمْ . إِذْ كَانَ الْعَرَبُ يَنْتَجِرُونَ فِي أَسْوَاقٍ عَكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَذِي الْحِجَازِ . فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِإِشْعَارِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُ لَا إِنْهُمْ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ ، إِنْ اتَّجَرُوا وَابْتَعُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ . (أَيْ رِبْحاً مِنْ رَبِّهِمْ بِالتَّجَارَةِ ، عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ الْكَسْبُ وَالرِّبْحُ هُمَا الْمَقْصُودَيْنِ بِالذَّاتِ .)

فَإِذَا أَقْاضَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ ، بَعْدَ الْوُقُوفِ بِهَا مِنْ زَوَالِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ إِلَى مَا قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ (وَ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ هُوَ عُمْدَةُ الْحَجِّ) ، فَيَتَوَقَّفُونَ ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مِنًى ، فِي الْمُرْدَلَفَةِ - وَهِيَ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ ، (وَالْمَشَاعِرُ هِيَ الْمَعَالِمُ الظَّاهِرَةُ) - لِيَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ أُمُورِ دِينِهِمْ ، وَمَشَاعِرِ حُجَّتِهِمْ ، وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ هُدَى اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الصَّالِينَ .

رَوَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ قُرَيْشاً وَمَنْ وَالَاهَا مِنْ كِنَانَةَ وَجُدَيْلَةَ وَقَيْسَ ، كَانُوا يَقِفُونَ بِالْمُرْدَلَفَةِ تَرْفُعاً عَنِ الْوُقُوفِ مَعَ النَّاسِ فِي عَرَفَاتٍ ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ بِالْحُمُسِ ، أَيْ الشَّدِيدِ فِي التَّصَلُّبِ فِي الدِّينِ ، أَمَّا سَاتِرُ الْعَرَبِ فَيَقِفُ فِي عَرَفَاتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ ثُمَّ يَقِفَ بِهَا مَعَ النَّاسِ ، ثُمَّ يَقْبِضَ مِنْهَا . وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِغْفَارِ ، وَبِذِكْرِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الْمُبَارَكَةِ .

[البقرة/١٩٨-٢٠٠]، بَلْ أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَمَّا غَزَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَهِيَ آخِرُ غَزَوَاتِهِ : { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) (١) } [التوبة/١١٧-١١٨]، وَهِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢).

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) (٣) } سورة النصر، فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَخْتِمَ عَمَلَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ (٤)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ (٥)

(١) - نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ الَّتِي كَانَتْ فِي سَنَةِ جَدْبٍ ، وَوَقْتُ حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَعُسْرٍ فِي الزَّادِ وَالْمَاءِ ، وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي وَقْتِ عُسْرَةٍ مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ ، بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ لِصِدْقِ إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ ، وَلَا اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ أَنْ كَادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ الْحَقِّ ، وَهُمْ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا لِغَيْرِ عِلَّةٍ النَّفَاقِ مِمَّنْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، لِعَظَمِ مَا نَالَهُمْ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالشَّدَّةِ فِي سَفَرِهِمْ وَغَزْوِهِمْ . ثُمَّ رَزَقَهُمُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ ، وَالرُّجُوعَ وَالثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُ تَعَالَى رَءُوفٌ رَحِيمٌ بِهِمْ .

الثَّلَاثَةُ هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّيِّعِ ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِعِيِّ ، وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَاعْتَرَفُوا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَغْدَارٌ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قُومُوا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي أَمْرِكُمْ " وَأَمَرَ الرَّسُولُ النَّاسَ أَنْ لَا يَكْلُمُوهُمْ ، فَفَعَلُوا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ عَلَى رَحِمِهَا وَسَعَتِهَا ، وَضَاقَتْ أَنْفُسُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَمَّا كَانُوا يَشْعُرُونَ بِهِ مِنْ ضَيْقِ صَلُورِهِمْ بِامْتِلَانِهَا بِهِمْ وَالْغَمِّ ، وَلَبِثُوا فِي ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَفِيهَا التَّوْبَةُ عَلَيْهِمْ .
وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْزَلَ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ لِيَتَوْبُوا وَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ قَصَرُوا فِي اتِّبَاعِ رَسُولِهِ إِلَى الْغَزَاةِ ، فَكَانَ عَاقِبَةُ صِدْقِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ ، وَتَوْبَةُ عَلَيْهِمْ .

(٢) - لعل من قال ذلك بقصد أحكام التوبة

(٣) - إِذَا رَأَيْتَ نَصَرَ اللَّهُ لِدِينِهِ الْحَقَّ ، وَانْهَزَامَ الشَّرْكَ وَأَهْلُهُ وَخِذْلَانَهُمْ ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْغَلْبَةَ قَدْ تَحَقَّقَتْ لَكَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ أَصْبَحُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ جَمَاعَاتٍ وَأَفْوَاجًا ، لَا أَفْرَادًا مُتَفَرِّقِينَ كَمَا كَانَ يَخْذُلُ فِي السَّنِينَ الْأُولَى لِلدَّعْوَةِ .

فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ مِنْ اسْطِطَالَةِ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ وَلَّى ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُسَبِّحَ رَبَّكَ وَتَشْكُرَهُ عَلَى نَصْرِهِ دِينَهُ ، وَإِعْزَازِهِ جُنْدَهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْكَافِرِينَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَهُ وَتَتُوبَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ الْكَثِيرُ الْقَبُولِ لَتَوْبَةِ عِبَادِهِ .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذِهِ السُّورَةُ عَلَامَةٌ عَلَى أَجَلِ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ . " نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي ، وَأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ ")

(٤) - آخر آية نزلت قوله تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (٢٨١) سورة البقرة

كما ثبت عن ابن عباس وغيره انظر السنن الكبرى للإمام النسائي (١٠٩٩١) ومصنف ابن أبي شيبة (٣٠٢٠٧-٣٠٢٠٨)

(٥) - صحيح البخارى (٨١٧) ومسلم (١١١٣)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٢ / ص ٢٣٢)

مَعْنَى يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ يَعْمَلُ مَا أُمِرَ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْحِزَالَةِ الْمُسْتَوْفَى مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ ، وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا ، فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ : قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ : التَّسْبِيحُ التَّزْيِيدُ ، وَقَوْلُهُمْ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ ، يُقَالُ : سَبَّحْتَ اللَّهَ تَسْبِيحًا وَسُبْحَانًا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَعْنَاهُ بَرَاءَةٌ وَتَنْزِيهًا لَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَصِفَةٍ لِلْمُحَدَّثِ . قَالُوا : وَقَوْلُهُ : وَبِحَمْدِكَ أَيَّ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ، وَمَعْنَاهُ بِتَوْفِيقِكَ لِي وَهَدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي . فَفِيهِ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ وَالِاعْتِرَافُ بِهَا وَالتَّوْفِيقُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي ، وَمَا أَتَيْتُكَ بِهِ مِنْ مَنِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَايَ وَعَمْدِي ، وَكُلَّ

ذَلِكَ عِنْدِي « (١).

وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - . أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي . قَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٢).

وفي السنن عن أبي هريرة أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ . قَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ » . قَالَ « قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ » (٣).

(١) - صحيح البخارى (٦٣٩٩) ومسلم (٧٠٧٦)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ٨٤)

أَيُّ : أَنَا مُتَّصِفٌ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، اِغْفِرْهَا لِي ، قِيلَ : قَالَ تَوَاضَعًا وَعَدَّ عَلَى نَفْسِهِ فَوَاتِ الْكَمَالَ ذُنُوبًا ، وَقِيلَ : أَرَادَ مَا كَانَ عَنْ سَهْوٍ وَقِيلَ : مَا كَانَ قَبْلَ التَّوْبَةِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَغْفُورٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَدَعَا بِهِذَا وَغَيْرِهِ تَوَاضَعًا ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ ، قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : الْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ . قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ) يُقَدِّمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ إِلَى رَحْمَتِهِ بِتَوْفِيقِهِ ، وَيُؤَخَّرُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ ذَلِكَ لِخِذْلَانِهِ .

(٢) - صحيح البخارى (٨٣٤) ومسلم (٧٠٤٤)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٩٣)

قَالَ الطَّبْرِيُّ : فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ دَلَالَةٌ عَلَى رَدِّ قَوْلٍ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ لَا خَطِيئَةَ لَهُ وَلَا ذَنْبَ ؛ لِأَنَّ الصِّدِّيقَ مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ الْإِيمَانِ . وَقَدْ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ " إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " . وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ : هَذَا الدُّعَاءُ مِنَ الْجَوَامِعِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ الْإِعْتِرَافَ بِغَايَةِ التَّقْصِيرِ وَطَلَبَ غَايَةِ الْإِنْعَامِ ، فَالْمَغْفِرَةُ سِتْرُ الذُّنُوبِ وَمَحْوُهَا ، وَالرَّحْمَةُ إِبْصَالُ الْخَيْرَاتِ ، فَفِي الْأَوَّلِ طَلَبُ الرَّحْمَةِ عَنْ النَّارِ وَفِي الثَّانِي طَلَبُ إِدْخَالِ الْجَنَّةِ وَهَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَمْرَةَ مَا مُلْخَصَهُ : فِي الْحَدِيثِ مَشْرُوعِيَّةُ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ ، وَفَضْلُ الدُّعَاءِ الْمَذْكُورِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَطَلَبُ التَّعْلِيمِ مِنَ الْأَعْلَى وَإِنْ كَانَ الطَّالِبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ النَّوعَ ، وَخَصَّ الدُّعَاءَ بِالصَّلَاةِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ " وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْءَ يَنْظُرُ فِي عِبَادَتِهِ إِلَى الْأَرْفَعِ فَيَتَسَبَّبُ فِي تَحْصِيلِهِ . وَفِي تَعْلِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ هَذَا الدُّعَاءَ إِشَارَةً إِلَى إِثَارِ أَمْرِ الْآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا ، وَلَعَلَّهُ فَهَمَ ذَلِكَ مِنْ حَالِ أَبِي بَكْرٍ وَإِثَارُهُ أَمْرَ الْآخِرَةِ قَالَ : وَفِي قَوْلِهِ " ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " أَيُّ لَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي دَفْعِهِ فَهِيَ حَالَةٌ اِفْتِقَارٍ ، فَاشْتَبَهَ حَالَ الْمُضْطَرِّ الْمُؤَخَّرِ بِالْإِجَابَةِ ، وَفِيهِ هُضْمُ النَّفْسِ وَالْإِعْتِرَافُ بِالتَّقْصِيرِ ، وَتَقَدَّمَتْ بَقِيَّةُ فَوَائِدِهِ هُنَاكَ .

(٣) - سنن أبي داود (٥٠٦٩) والترمذي (٣٨٧٣) وهو صحيح

وفي التيسير بشرح الجامع الصغير - للمنائى - (ج ٢ / ص ٣٨٧)

تضمن الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته فإن الشر كله إما يصدر من النفس أو من الشيطان وغايته إما أن يعود على العامل أو أخيه المسلم فيضمن الحديث مصدري الشر الذي يصدر عنهما وغايته

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنِ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ دَائِمًا . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) } لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) } (١) [الأحزاب/٧٢، ٧٣] ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ظَالِمٌ جَاهِلٌ ، وَغَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ التَّوْبَةُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِتَوْبَةِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ . وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو عُيَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « لَا ، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدَدُوا وَقَارِبُوا وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ » (٢)

(١) - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْأَمَانَةُ هُنَا تَعْنِي الطَّاعَةَ ، وَقَالَ أَيْضًا : إِنَّهَا الْفَرَائِضُ . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ عَرَضَ التَّكْلِيفَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَلَمْ يُطِيقَنَّ حَمْلَهَا ، وَأَشْفَقَتْ مِنْهَا مَخَافَةً التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِ أَرَادَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ يُطِيقَنَّهَا ، فَهَلْ أَنْتَ آخِذٌ بِمَا فِيهَا؟ قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا فِيهَا؟ قَالَ : إِنْ أَحْسَنْتَ جُرَيْتَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ عُوقِبْتَ . فَقَبِلَ آدَمُ حَمْلَهَا بِمَا فِيهَا . وَهَكَذَا حَمَلَ الْإِنْسَانُ الْأَمَانَةَ عَلَى ضَعْفِهِ ، وَكَانَ جَاهِلًا بِثِقَلِهَا ، ظَلُمًا نَفْسَهُ بِحَمْلِهَا ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ . وَقَدْ حَمَلَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ الْأَمَانَةَ (وَهِيَ التَّكْلِيفُ) لِيَكُونَ نَتِيجَةُ ذَلِكَ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ خَانَهَا ، وَقَصَرَ فِي حَمْلِهَا وَأَذَانِهَا ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ ، وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ خَوْفًا وَتَحَسُّبًا ، وَمِنَ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَلِيَقْبَلَ تَوْبَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ تَائِبِينَ مُنِيبِينَ ، لِتَلْفِيهِمْ مَا فَرَطَ مِنْهُمْ عَنْ جَهْلٍ وَعَدَمِ تَبَصُّرٍ ، وَتَدَارُكِهِمْ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ . وَاللَّهُ تَعَالَى غَفَّارٌ لِلذُّنُوبِ ، سَتَّارٌ لِلْغُيُوبِ ، كَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِلْعِبَادِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ .

(٢) - صحيح البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٧٢٩٢)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ١٩٧)

إِعْلَمُ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ : أَنَّهُ لَا يَنْبَغُ بِالْعَقْلِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ وَلَا إِجَابٌ وَلَا تَحْرِيمٌ وَلَا غَيْرُهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْلِيفِ ، وَلَا تَنْبَغُ هَذِهِ كُلُّهَا وَلَا غَيْرُهَا إِلَّا بِالشَّرْعِ ، وَمِنْهُبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَيْضًا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ تَعَالَى اللَّهُ ، بَلْ الْعَالَمُ مُلْكُهُ ، وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِي سُلْطَانِهِ ، يَفْعَلُ فِيهِمَا مَا يَشَاءُ ، فَلَوْ عَذَّبَ الْمُطِيعِينَ ، وَالصَّالِحِينَ أَجْمَعِينَ ، وَأَذْخَلَهُمُ النَّارَ كَانَ عَذَابًا مِنْهُ وَإِذَا أَكْرَمَهُمْ وَنَعَّمَهُمْ وَأَذْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ فَهُوَ فَضْلٌ مِنْهُ ، وَلَوْ نَعَّمَ الْكَافِرِينَ وَأَذْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ كَانَ لَهُ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ أَخَيْرَ وَخَيْرَهُ صَدَقَ ، أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذَا ، بَلْ يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ ، وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَيُخَلِّلُهُمُ فِي النَّارِ عَذَابًا مِنْهُ .

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَيُشْبِهُونَ الْأَحْكَامَ بِالْعَقْلِ ، وَيُوجِبُونَ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ ، وَيُوجِبُونَ الْأَصْلَحَ ، وَيَمْنَعُونَ خِلَافَ هَذَا فِي خِطِّ طَوِيلٍ لَهُمْ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ اخْتِرَاعِهِمُ الْبَاطِلَةَ الْمُنَابِذَةَ لِثُغُوصِ الشَّرْعِ . وَفِي ظَاهِرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ : دَلَالَةٌ لِلْأَهْلِ الْحَقِّ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدُ الثَّوَابِ وَالْجَنَّةِ بِطَاعَتِهِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ { وَنَحْنُهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ يُدْخِلُ بِهَا الْجَنَّةَ ، فَلَا يُعَارِضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ ، بَلْ مَعْنَى الْآيَاتِ : أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ ، ثُمَّ التَّوْفِيقِ لِلأَعْمَالِ وَالْهِدَايَةِ لِلإِخْلَاصِ فِيهَا ، وَقَبُولِهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ ، فَيَصِحُّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ بِمَجَرَّدِ الْعَمَلِ . وَهُوَ مُرَادُ الْأَحَادِيثِ ، وَيَصِحُّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا ، وَهِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } (١) (٢٤) سورة الحاقة ، فَإِنَّ الرَّسُولَ نَفَى بَاءَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَادَلَةِ ، وَالْقُرْآنُ أَثَبَتَ بَاءَ السَّبَبِ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ . مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ ، فَلَمْ يُصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا ، فَهُوَ ضَالٌّ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجْتِمَاعِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ ؛ بَلْ { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) (٢) } سورة الزلزلة .

وَأَمَّا عِبَادَةُ الْمُتَلَوِّحُونَ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) } (٣) [آل عمران/ ١٣٣-١٣٦]

القدر ليس حجة لأهل الذنوب

(١) - وَيُقَالُ لَهُمْ : كُلُوا يَا أَيُّهَا الْأَبْرَارُ مِنْ ثَمَارِ هَذِهِ الْجَنَّةِ هَنِيئًا ، وَاشْرَبُوا مِنْ خَمْرِهَا وَمِيَاهِهَا مَرِيئًا ، لَا تَعْصُونَ بِهِ ، وَلَا تَتَأَذُّونَ ، وَذَلِكَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ ، وَثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَكَرِيمِ الطَّاعَاتِ الْخَالِصَةِ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى .

(٢) - فَمَنْ عَمِلَ عَمَلٌ خَيْرٍ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ ثَوَابَهُ مِنْهُمَا كَانَ حَقِيرًا ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي وَزْنِ الذَّرَّةِ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي " وَقَالَ أَيْضًا : " اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " (أَخْرَجَهُمَا الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ) . وَمَنْ عَمِلَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ وَاجِدٌ جَزَاءَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

(٣) - وَيَنْدُبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَإِلَى الْمَسَارَعَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَنَالُوا مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ ، وَجَنَّةَ الْوَاسِعَةِ الْعَرِيضَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَهُ .

يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : إِنَّهُمْ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، فِي الرِّخَاءِ (السَّرَّاءِ) ، وَفِي الشَّدَّةِ (الضَّرَّاءِ) ، وَفِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالِاتِّقَاقِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إِذَا ثَارَ ، وَيَغْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ . وَاللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَفَضِّلُونَ عَلَى عِبَادِهِ الْبَائِسِينَ ، وَيُؤَاثِبُهُمْ شُكْرًا اللَّهُ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . (وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْغَازِهِ مَالًا اللَّهُ جُوفُهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا ") .

وَمِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِعْلٌ قَبِيحٌ يَتَعَدَّى أَثَرُهُ إِلَى غَيْرِهِمْ (كَعَبِيَّةِ إِنْسَانٍ) ، أَوْ صَدَرَ عَنْهُمْ ذَنْبٌ يَكُونُ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِمْ (كَشُرْبِ خَمْرٍ وَنَحْوِهِ) ، ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى وَوَعِيدَهُ ، وَعَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ ، فَارْجَعُوا إِلَى

اللَّهِ تَائِبِينَ ، طَالِبِينَ مَغْفِرَتِهِ ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى الْقِيحِ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى الذَّنْبِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَغُفِرَ لَهُ .
وَالْمُتَّقُونَ الْمُتَمَتِّعُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ عَلَيْهَا بِالْمَغْفِرَةِ ، وَبِالْأَمْرِ مِنَ الْعِقَابِ ، وَلَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ فِي جَنَّتِ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَهُمْ مُخْلَدُونَ فِيهَا أَبَداً ، وَالْجَنَّةُ خَيْرٌ مَّا يَكْفَأُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ
الصَّالِحَاتِ .

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ " الْقَدَرَ " حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ : { سَيَقُولُ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ : { كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَثْمُمَ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ
فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) (١) } [الأنعام/١٤٨-١٤٩] .
وَلَوْ كَانَ " الْقَدَرُ " حُجَّةً لِأَحَدٍ لَمْ يَعْذِبِ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ ،
وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ .

(١) - سَيَقُولُ هَؤُلَاءِ لِلْمُشْرِكُونَ ، اعْتَذَاراً عَنْ شِرْكِهِمْ ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ إِلَّا نُشْرِكَ بِهِ ، وَلَا يُشْرِكْ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا ، لَمَا
أَشْرَكْنَا ، وَلَمَا أَشْرَكُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ إِلَّا نُحَرِّمَ شَيْئاً مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، لَمَا حَرَّمْنَا ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ
نُشْرِكَ بِهِ الْأَوْلِيَاءَ وَالشُّفَعَاءَ ، وَشَاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَغَيْرِهَا فَحَرَمْنَاهَا ، فَإِتْيَانُنَا بِهَا دَلِيلٌ
عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَلَى رِضَا بِهَا .

وَكَمَا كَذَّبَ مُشْرِكُو مَكَّةَ رَسُولَهُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ
مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ رَسُولُهُمْ تَكْذِيباً غَيْرَ مَبْنِيٍّ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْعِلْمِ . وَالرُّسُلُ قَدْ أَقَامُوا الْأَدِلَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ،
وَأَيَّدَهُمُ اللَّهُ بِالْآيَاتِ ، وَالْمُعْجَزَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ ، فَأَعْرَضَ الْمُكَذِّبُونَ ، وَأَصْرُوا عَلَى جُحُودِهِمْ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ
بَذُنُوبِهِمْ (حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا) .

وَلَوْ كَانَ اللَّهُ رَاضِياً عَنْ أَعْمَالِهِمْ لَمَا عَاقَبَهُمْ عَلَيْهَا ، كَذَلِكَ لَوْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ صَادِرَةً عَنْهُمْ جَبْراً ، لَمَا اسْتَحَقُّوا
الْعِقَابَ عَلَيْهَا ، وَلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَخْلَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ . وَاسْأَلْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : هَلْ عِنْدَهُمْ
عِلْمٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يَقُولُونَ وَيَحْجُجُونَ؟ فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَدٌّ صَحِيحٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ رَضِيَ لَهُمُ الشَّرْكَ ،
وَالْتَحْلِيلَ وَالنَّحْرِيمَ ، فَلْيُظْهِرُوهُ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ ، بَلْ تَتَّبِعُونَ فِي عَقَائِدِكُمْ وَآرَائِكُمُ الْخُدْسَ وَالنَّخْمِينَ
الَّذِي لَا يَسْتَفِرُّ عَنْدَهُ حُكْمٌ .

وَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : لِلَّهِ الْحُجَّةُ النَّامَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مَنْ اهْتَدَى ، وَضَلَالِ مَنْ ضَلَّ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
هِدَايَتَكُمْ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ، فَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِهِ ، وَمَشِيئَتِهِ ، وَاخْتِيَارِهِ .

وَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِالْقَدَرِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُتَبِعاً لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ، وَمَنْ رَأَى الْقَدَرَ حُجَّةً لِلْأَهْلِ الذُّنُوبِ يَرْفَعُ عَنْهُمْ
الذَّمَّ وَالْعِقَابَ فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَذُمَّ أَحَدًا وَلَا يُعَاقَبَ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ ؛ بَلْ يَسْتَوِي عَنْدَهُ مَا يُوجِبُ اللَّذَّةَ وَمَا يُوجِبُ الْأَلَمَ ،
فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ خَيْرًا ، وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ شَرًّا ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { أَمْ
نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } (١) (٢٨) سورة ص ،

وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } (٢) (٣٥) سورة القلم ، وَقَالَ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } (٣) (٢١) سورة الجاثية ، وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) } فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) } (٤) [المؤمنون/ ١١٥ ، ١١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } (٥) (٣٦) سورة القيامة ، أَيُّ مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى .

(١) - أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل أهل التقوى المؤمنين كأصحاب الفجور الكافرين؟ هذه التسوية غير لاثقة بحكمة الله وحُكمه ، فلا يستنون عند الله ، بل يثيب الله المؤمنين الأتقياء ، ويعاقب المفسدين الأشقياء.

(٢) - أفجعل الخاضعين لله بالطاعة كالكافرين؟ ما لكم كيف حكمتم هذا الحكم الجائر ، فسلاوتم بينهم في الثواب؟

(٣) - أَيْظُنُّ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ، وَاكْتَسَبُوا الْآثَامَ وَالْمَعَاصِيَ فِي الدُّنْيَا ، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَخَالَفُوا أَوْامِرَهُ . . . أَنْ يُسَاوِيَهُمُ اللَّهُ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا؟ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ فِي الْآخِرَةِ . وَجَعَلَ اللَّهُ الْكَفْرَةَ الْقَهْرَةَ فِي ذُلِّ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِيَ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الْخَالِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَسَاءَ مَا ظَنَّهُ ، وَمَا قَدَرَهُ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ ، تَعَالَى اللَّهُ مِنْ أَنْ يُسَاوِيَهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ الْأَطْهَارِ .

(٤) - هَلْ ظَنَنْتُمْ أَنَّهُ الْأَشْقِيَاءُ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِعِبَا وَبَاطِلًا (عَبَثًا) ، وَأَنَّا لَا حِكْمَةَ لَنَا فِي خَلْقِكُمْ؟ إِنَّا لَمْ نَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَا بَاطِلًا لِلْعِبِّ وَالتَّسْلِيَةِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِتَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَتُقِيمُوا أَوْامِرَهُ ، فَهَلْ حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ إِلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ لِنَحْاسِبَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؟

(وَقِيلَ بَلْ مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ : هَلْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ لِتَعْبُدُوا وَتَلْعَبُوا كَمَا خَلَقْتَ الْبَهَائِمَ ، لَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ؟) فَتَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا ، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُنَزَّهَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَرَبُّ الْعَرْشِ ، (وَالْعَرْشُ هُوَ سَقْفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ) فَهُوَ تَعَالَى الْمُهِمَّنُ الْمُسْتَطِرُّ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْوُجُودِ ، وَهُوَ الْكَرِيمُ .

(٥) - أَيْظُنُّ الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرُ لِلْبَعْثِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ بِغَيْرِ غَايَةٍ ، وَأَنَّهُ يَتْرُكُهُ وَشَأْنَهُ فِي الْحَيَاةِ يَفْعَلُ فِيهَا مَا يَشَاءُ ، لَا يُؤْمَرُ بِأَمْرٍ ، وَلَا يُنْهَى عَنْ نَهْيٍ ، وَلَا يُبْعَثُ وَلَا يُحَاسَبُ؟ كَلَّا إِنَّهُ لَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، وَسَيُبْعَثُ وَسَيَحَاسَبُ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ يَزِيدَ - وَهُوَ ابْنُ هُرْمُزٍ - وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ قَالَا سَمِعْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « اَحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأُلُوحَ فِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) قَالَ نَعَمْ. قَالَ أَفَتَلَوْنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » (١)

(١) - صحيح البخارى (٣٤٠٩) وصحيح مسلم (٦٩١٤) واللفظ له

المنتقى - شرح الموطأ - (ج ٤ / ص ٢٧٧)

١٣٩٤ - (ش) : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى يَقْتَضِي صِحَّةَ جَوَازِ الْمُحَاجَّةِ لَا سِيَّمَا عَلَى قَوْلِ مَالِكٍ أَنَّ شَرِيعَةً مِّنْ قَبْلِنَا شَرِيعَةً لَّنَا وَقَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَدَمَ أَنْتَ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ مَعْنَى أَغْوَيْتَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ عَرَضَتْهُمْ لِلْإِغْوَاءِ لَمَّا كُنْتَ سَبَبَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَتَعْرِيبِهِمْ لِلتَّكْلِيفِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ جَعَلْتَهُمْ غَاوِينَ لِكُونِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ حِينَ غَوَيْتَ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَى وَقَوْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ يُرِيدُ أَعْلَمَهُ بِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ مِمَّا أَعْلَمَ بِهِ الْبَشَرُ ، وَقَوْلُهُ وَاصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ آثَرَهُ يَارْسَالَهُ عَلَى مَنْ لَمْ يُرْسَلْهُ ، وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيرِ لَهُ عَلَى فَضْلِهِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي الْإِصَابَةَ فِي مُحَاجَّتِهِ ، وَأَنْ لَا يَلُومَ أَبَاهُ عَلَى مَا يَبْعِي وَاسِعَ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ ، وَلَوْمُهُ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَالَ مُوسَى نَعَمْ لَزِمَهُ ذَلِكَ بِحُكْمِ الْمُنَاطَرَةِ وَالْمُحَاجَّةِ لَا عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ وَالْمُبَاهَاةِ وَقَالَ لَهُ آدَمُ أَتُلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِمَعْنَى أَنْ لَوْمَكَ لِي عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ سَائِعٍ ، وَلِذَلِكَ رُوي عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَعْنَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ فِي الْحُجَّةِ وَاحْتِجَاجُ آدَمَ بِالْقُدْرِ عَلَى نَفْيِ اللَّوْمِ عَنْهُ يَجِبُ أَنْ يُبَيِّنَ ، فَإِنَّ الْعَاصِيَ إِذَا عَصَى يَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ ، وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ قُدِّرَتْ عَلَيْهِ الْمَعْصِيَةُ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ وَلَا حُجَّةَ لَهُ عَلَى مَنْ لَامَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ بَأَنْ يَقُولَ إِنَّ ذَلِكَ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا بِمُجَرَّدِهِ حُجَّةً لَمَا وَجَبَ أَنْ يُلَامَ أَحَدٌ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَا يُنْكَرَ عَلَيْهِ وَلَا يُتَوَعَّدَ عَلَيْهَا بِعَذَابٍ فِي دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ ، وَلَكِنْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَى مُوسَى أَنْ لَامَهُ فَقَالَ أَتُلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى النَّاسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِذَا تَابَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُلَامَ عَلَيْهِ . وَوَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ آدَمَ أَبٌ لِمُوسَى وَلَمْ يَسْغُ لِلابْنِ لَوْمَ أَبِيهِ فِي مَعْصِيَتِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ لَمَّا امْتَنَعَ مِنَ الْإِيمَانِ سَلَامًا عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا فَهَذَا بَيْنَ حُجَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٤٩٩)

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاضِي : انْتَفَتْ أَرْوَاحُهُمَا فِي السَّمَاءِ ، فَوَقَعَ الْحِجَاجُ بَيْنَهُمَا . قَالَ الْقَاضِي عِيَّاض : وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ . وَأَنَّهُمَا اجْتَمَعَا بِأَشْخَاصِهِمَا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجْتَمَعَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَفِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَصَلَّى بِهِمْ . قَالَ : فَلَا يَبْعُدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَاهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الشُّهُدَاءِ . قَالَ : وَيَحْتَمَلُ أَنْ ذَلِكَ جَرَى فِي حَيَاةِ مُوسَى ؛ سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ آدَمَ فَحَاجَّهُ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَقَالَ مُوسَى : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا خَيِّتْنَا ، وَأَخْرَجْنَا مِنَ الْجَنَّةِ) وَفِي رِوَايَةٍ (أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ ، وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) وَفِي رِوَايَةٍ (أَهْبِطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ) . مَعْنَى (خَيِّتْنَا) أَوْقَعْنَا فِي الْخِيَّةِ ، وَهِيَ الْحِرْمَانُ وَالْخُسْرَانُ . وَقَدْ خَابَ يَحْيَبُ وَيَخُوبُ ، وَمَعْنَاهُ كُنْتُ سَبَبَ خِيَّتِنَا وَإِغْوَانِنَا بِالْخَطِيئَةِ الَّتِي تَرْتَّبَ عَلَيْهَا إِخْرَاجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ تَعَرَّضْنَا نَحْنُ لِإِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ . وَالْقِيَّ الْإِنْهَامَاكَ فِي الشَّرِّ . وَفِيهِ جَوَازُ إِطْلَاقِ الشَّيْءِ عَلَى سَبَبِهِ . وَفِيهِ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ مِنْ قَبْلِ آدَمَ . هَذَا مِنْهُبُ أَهْلِ الْحَقِّ .

قوله : (اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ يَدَهُ) فِي (الْيَدِ) هُنَا الْمَذْهَبَانِ السَّابِقَانِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَمَوَاضِعٍ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ : أَحَدُهُمَا الْإِيمَانُ بِهَا ، وَلَا يُعْرَضُ لِتَأْوِيلِهَا ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَهَا غَيْرُ مُرَادٍ . وَالثَّانِي تَأْوِيلُهَا عَلَى الْقُدْرَةِ . وَمَعْنَى (اصْطَفَاكَ) أَيِ اخْتَصَّكَ وَآتَرَكَ بِذَلِكَ .

قوله : (أَتْلُوْمُنِي عَلَى أَمْرِ قَدْرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟)
الْمُرَادُ بِالتَّقْدِيرِ هُنَا الْكِتَابَةُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَفِي صُحُفِ التَّوْرَةِ وَالْوَاحِهَا ، أَيِ كَتَبَهُ عَلَيَّ قَبْلَ خَلْقِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذَا فِي الرَّوَايَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ ، (فَقَالَ : بَكَمْ وَجَدْتُ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ سَنَةً . قَالَ : أَتْلُوْمُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟) فَهَذِهِ الرَّوَايَةُ مُصَرَّحَةٌ بَيَانُ الْمُرَادِ بِالتَّقْدِيرِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ حَقِيقَةُ الْقَدَرِ ، فَإِنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا قَدَرَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَارَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَرْزَلِي لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ سُبْحَانَهُ مُرِيدًا لِمَا أَرَادَهُ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ .

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى) هَكَذَا الرَّوَايَةُ فِي جَمِيعِ كُتُبِ الْحَدِيثِ بِاتِّفَاقِ النَّاقِلِينَ وَالرَّوَاةِ وَالشُّرَاحِ وَأَهْلِ الْعَرَبِ : (فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى) بَرَفَعَ آدَمَ ، وَهُوَ فَاعِلٌ ، أَيِ غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ بِهَا . وَمَعْنَى كَلَامِ آدَمَ أَنَّكَ يَا مُوسَى تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ، وَقُدِّرَ عَلَيَّ ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ ، وَلَوْ حَرَصْتُ أَنَا وَالْخَلَائِقُ أَجْمَعُونَ عَلَى رَدِّ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْهُ لَمْ نَقْدِرْ ، فَلِمَ تَلُوْمُنِي عَلَى ذَلِكَ ؟ وَلِأَنَّ اللَّوْمَ عَلَى الذَّنْبِ شَرْعِي لَا عَقْلِي ، وَإِذْ تَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آدَمَ ، وَغَفَرَ لَهُ ، زَالَ عَنْهُ اللَّوْمُ فَمَنْ لِمَ كَانَ مَحْجُوجًا بِالشَّرْعِ . فَإِنْ قِيلَ : فَأَلْعَاصِي مِنَّا لَوْ قَالَ : هَذِهِ الْمَعْصِيَةُ قَدَّرَهَا اللَّهُ عَلَيَّ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ اللَّوْمُ وَالْعُقُوبَةُ بِذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا قَالَهُ . فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا الْعَاصِي بَاقٍ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ ، جَارٍ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَاللَّوْمِ وَالتَّوْبِخِ وَغَيْرِهَا ، وَفِي لَوْمِهِ وَعُقُوبَتِهِ زَجْرٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى زَجْرٍ مَا لَمْ يَمُتْ فَأَمَّا آدَمُ فَمَيِّتٌ خَارِجٌ عَنْ دَارِ التَّكْلِيفِ وَعَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الزَّجْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ لَهُ فَائِدَةٌ ، بَلْ فِيهِ إِيْدَاءٌ وَتَخْجِيلٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

. أَيِ : غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَلَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ :

" طَائِفَةٌ " كَذَبَتْ بِهِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يَقْتَضِي رَفْعَ الدَّمِّ وَالْعِقَابَ عَمَّنْ عَصَى اللَّهَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ .

و " طَائِفَةٌ " شَرُّ مِنْ هَؤُلَاءِ جَعَلُوهُ حُجَّةً ، وَقَدْ يَقُولُونَ : الْقَدَرُ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ أَنَّ لَهُمْ فِعْلًا .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ : إِنَّمَا حَجَّ آدَمُ مُوسَى لِأَنَّهُ أَبُوهُ ، أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَابَ ، أَوْ لِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ فِي شَرِيعَةٍ ، وَاللَّوْمُ فِي أُخْرَى ، أَوْ لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَى . وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ .

وَلَكِنَّ وَجْهَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَلْمُ أَبَاهُ إِلَّا لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ لَهُ : لِمَ إِذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ لَمْ يَلْمُهُ لِمَجْرَدِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَتَابَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ لَا يُلَامُ ، وَهُوَ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَيْضًا ، وَلَوْ كَانَ آدَمُ يَعْتَقِدُ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ لَمْ يَقُلْ : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (١) (٢٣) سُورَةُ الْأَعْرَافِ .

وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ عِنْدَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَصْبِرَ وَيُسَلِّمَ ، وَعِنْدَ الذُّلُوبِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْأَبْكَارِ } (٢) (٥٥) سُورَةُ غَافِرٍ ، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَاصِي . وَقَالَ تَعَالَى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَإِذِنُ اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (٣)(١١) سورة التغابن ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيَسْلَمُ (٤) ، فَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ مِثْلُ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ صَبَرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبٍ ذَنْبٍ غَيْرِهِمْ ، كَمَنْ أَنْفَقَ أَبُوهُ مَالَهُ فِي الْمَعَاصِي فَافْتَقَرَ أَوْ لَادَهُ لِذَلِكَ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ ، وَإِذَا لَامُوا الْأَبَ لِحُطُوطِهِمْ ذَكَرَ لَهُمُ الْقَدَرُ .

و " الصَّبْرُ " وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ (٥)

(١) - فَقَالَ آدَمُ وَزَوْجُهُ نَادِمِينَ مُتَضَرِّعِينَ : رَبَّنَا إِنَّا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا بِطَاعَتِنَا لِلشَّيْطَانِ ، وَمَعْصِيَتِنَا لِأَمْرِكَ ، وَقَدْ أَنْذَرْتَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا مَا ظَلَمْنَا بِهِ أَنْفُسَنَا ، وَتَرْحَمْنَا بِالرِّضَا عَنَّا ، وَتُوفِّقَنَا لِلْهِدَايَةِ ، وَتَرْكِ الظُّلْمِ ، لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ لَا تُفْسِنَا .

(وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ مُعْتَذِرًا لِيُغْفَرَ لَهُ) .

(٢) - فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ لِأَمْرِ رَبِّكَ ، وَبَلِّغْ مَا أُثْرِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَاتَّقِنِ بَأْنَ اللَّهِ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ لَكَ ، وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى مَنْ عَادَاكَ وَعَانَدَكَ ، وَكَفَرَ بِرِسَالَتِكَ ، وَسَلَّ رَبُّكَ الْمَغْفِرَةَ لِدُنْبِكَ ، وَالصَّحْحَ عَنْكَ ، وَصَلِّ فِي طَرْفِي النَّهَارِ ، وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ .

(٣) - مَا أَصَابَ أَحَدًا شَيْءٌ مِنْ رَزَايَا الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا ، إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَالْمَرْءُ يَعْمَلُ وَيَتَّخِذُ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا هُوَ فِي طَوْقِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ ، لِيَجْلِبَ الْخَيْرَ وَدَفْعَ الضَّرَرِ ، وَلَكِنَّ التَّنَاجُ بِإِدِّ اللَّهِ وَوَفْقَ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَإِذَا مَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلَيْهِ أَلَّا يَغْتَمَّ وَلَا يَحْزَنَ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا كَانَ ذَلِكَ يَارَادَةَ اللَّهِ وَعَلِمِهِ . وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ وَآمَنَ أَنَّهَا إِنَّمَا كَانَتْ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَقَدَرِهِ ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ ، عَوَضَهُ اللَّهُ عَنْ إِصَابَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، هُدًى فِي قَلْبِهِ ، وَبَيِّنًا صَادِقًا بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا . فَالْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ وَاجِبَانِ :

- السَّعْيُ وَبَذْلُ الْجُهْدِ وَاتِّخَاذُ الْأَسْبَابِ لِيَجْلِبَ الْخَيْرَ وَدَفْعَ الشَّرِّ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

- ثُمَّ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَحْدُثُ هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَلَا يَغْتَمُّ وَلَا يَحْزَنُ لِمَا يَقَعُ .

(٤) - السنن الكبرى للبيهقي (ج ٤ / ص ٦٦) (٧٣٨٤) حسن

(٥) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٣٨)

وَيَقْتَضِي أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُبْتُلِيَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَنْتَبِتَ وَلَا يَتَّكِلَ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الرِّجَالِ الْمُوقِنِينَ الْقَائِمِينَ بِالْوَاجِبَاتِ . وَلَا بُدَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَاجِبًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ . وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ عَنْ أَنْ يَجْزَعَ فِيهَا وَالصَّبْرُ عَنْ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ النَّفْسِ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الصَّبْرَ فِي كِتَابِهِ فِي أَكْثَرِ مَنْ تَسْعِينَ مَوْضِعًا وَقَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } { اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } وَقَوْلُهُ : { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ } إِلَى قَوْلِهِ { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } الْآيَةَ وَجَعَلَ " الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ " مَوْرُوثَةً عَنِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ بِقَوْلِهِ : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } فَإِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ عِلْمٌ بِالْحَقِّ وَعَمَلٌ بِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ بَلْ وَطَلَبُ عِلْمِهِ يَحْتَاجُ إِلَى

الصَّبْرُ كَمَا قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ طَلَبَهُ لِلَّهِ عِبَادَةٌ وَمَعْرِفَتُهُ خَشْيَةٌ وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صِدْقَةٌ ؛ وَمُذَاكَرَتُهُ تَسْيِيحٌ . بِهِ يَعْرِفُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ بِهِ يُمَجِّدُ اللَّهُ وَيُوحِّدُ يَرْفَعُ اللَّهُ بِالْعِلْمِ أَقْوَامًا يَجْعَلُهُمُ لِلنَّاسِ قَادَةً وَأَنْمَةً يَهْتَدُونَ بِهِمْ وَيَسْتَهْتُونَ إِلَى رَأْيِهِمْ . فَجَعَلَ الْبَحْثُ عَنِ الْعِلْمِ مِنَ الْجِهَادِ وَلَا بُدَّ فِي الْجِهَادِ مِنَ الصَّبْرِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : { وَالْعَصْرِ } { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } فَالْعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ أَصْلُ الْهُدَى وَالْعَمَلُ بِالْحَقِّ هُوَ الرَّشَادُ وَصِدْقُ الْأَوَّلِ الصَّلَاتُ وَصِدْقُ الثَّانِي الْغْيُ فَالْصَّلَاتُ الْعَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالْغْيُ اتِّبَاعُ الْهَوَى . قَالَ تَعَالَى : { وَالتَّجْمُ إِذَا هَوَى } { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } فَلَا يُنَالُ الْهُدَى إِلَّا بِالْعِلْمِ وَلَا يُنَالُ الرَّشَادُ إِلَّا بِالصَّبْرِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلِيٌّ : أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ - فَإِذَا انْقَطَعَ الرَّأْسُ بَانَ الْجَسَدُ - ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ فَقَالَ أَلَا لَا إِيْمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ

، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ . (١)

(١) - وفي مجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٠)

وَأَمَّا " الرِّضَا " فَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْمَشَايخُ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ فِي الرِّضَا بِالْقَضَاءِ : هَلْ هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِ الْمُفْتَصِّدِينَ وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِ الْمُقَرَّبِينَ . قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الرِّضَا عَزِيزٌ وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مِعْوَلُ الْمُؤْمِنِ . وَقَدْ رُوِيَ { عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرًا كَثِيرًا } .

وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا مَدْحُ الرَّاغِبِينَ لَا إِجْبَابُ ذَلِكَ وَهَذَا فِي الرِّضَا بِمَا يَفْعَلُهُ الرَّبُّ بَعْدَهُ مِنَ الْمَصَائِبِ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالزُّلْزَالِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } وَقَالَ تَعَالَى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْجِئِينَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا } فَالْبَأْسَاءُ فِي الْأَقْوَالِ وَالضَّرَاءُ فِي الْأَبْدَانِ وَالزُّلْزَالُ فِي الْقُلُوبِ . وَأَمَّا " الرِّضَا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ " فَأَصْلُهُ وَاجِبٌ وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا } وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْمَحَبَّةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ تَعَالَى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ } الْآيَةُ . وَقَالَ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } وَمِنْ " النَّوعِ الْأَوَّلِ " مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ سَعْدِ بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ لِلَّهِ وَرِضَاَهُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ . وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُ اسْتِخَارَتِهِ لِلَّهِ وَسَخْطُهُ بِمَا يَقْسَمُ اللَّهُ لَهُ } .

وَأَمَّا " الرِّضَا بِالْمُنْهَيَّاتِ " مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ فَكَثَرُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ لَا يَشْرَعُ الرِّضَا بِهَا كَمَا لَا تَشْرَعُ مَحَبَّتُهَا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَرْضَاهَا وَلَا يُجِبُّهَا وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : { وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ الْفَسَادَ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } بَلْ يَسْخَطُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } وَقَالَتْ طَائِفَةٌ

تَرْضَى مِنْ جِهَةٍ كَوْنَهَا مُضَافَةً إِلَى اللَّهِ خَلَقًا وَتَسَخُّطُ مِنْ جِهَةٍ كَوْنَهَا مُضَافَةً إِلَى الْعَبْدِ فِعْلًا وَكَسْبًا . وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يُنَافِي الَّذِي قَبْلَهُ بَلْ هُمَا يُعَوِّدَانِ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ لِحِكْمَةٍ فِيهِ بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْحِكْمَةِ مَحْبُوبَةٌ مَرْضِيَّةٌ وَقَدْ تَكُونُ فِي نَفْسِهَا مَكْرُوهَةً وَمَسْخُوطَةً . إِذْ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ يَجْتَمِعُ فِيهِ وَصَفَانِ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِهِمَا وَيَكْرَهُ مِنَ الْآخَرِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { مَا تَرَدَّدْتَ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ } . وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِالرِّضَا بِالْقَضَاءِ الَّذِي هُوَ وَصَفَ اللَّهُ وَفَعَلَهُ لَا بِالْمَقْضَى الَّذِي هُوَ مَفْعُولُهُ فَهُوَ خُرُوجٌ مِنْهُ عَنْ مَقْصُودِ الْكَلَامِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ فِي الرِّضَا فِيمَا يَقُومُ بِذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الرِّضَا بِمَفْعُولَاتِهِ وَالْكَلامُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِذَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَالرِّضَا وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ فَكَمَا لَهُ هُوَ الْحَمْدُ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ فَسَّرَ الْحَمْدَ بِالرِّضَا ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ حَمْدُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَذَلِكَ بِتَضَمُّنِ الرِّضَا بِقَضَائِهِ . وَفِي الْحَدِيثِ : { أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ } وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ الْأَمْرُ يَسْرُهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَإِذَا أَتَاهُ الْأَمْرُ الَّذِي يَسُوْءُهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ } وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ { قَالَ : إِذَا قَبِضَ وَلَدُ الْعَبْدِ يَقُولُ اللَّهُ لِمَلَأْنِيهِ : أَقْبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ فَيَقُولُ : أَقْبَضْتُمْ ثَمَرَةً فَوَادِهِ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ فَيَقُولُ : مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ { وَبَيْنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَاحِبُ لَوَاءِ الْحَمْدِ وَأَمْتُهُ هُمُ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ . وَالْحَمْدُ عَلَى الضَّرَّاءِ يُوجِبُهُ مَشْهَدَانِ :

أَحَدُهُمَا : عِلْمُ الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مُسْتَوْجِبٌ لِدَلِّكَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . الْخَيْرُ الرَّحِيمُ .

وَالثَّانِي : عِلْمُهُ بِأَنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرُهُ عَنْ { النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ } فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ كُلَّ قَضَاءٍ يَقْضِيهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ وَيَشْكُرُ عَلَى السَّرَّاءِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . قَالَ تَعَالَى : { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } وَذَكَرَهُمَا فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ . فَأَمَّا مَنْ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ وَلَا يَشْكُرُ عَلَى الرِّخَاءِ فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ خَيْرًا لَهُ . وَلِهَذَا أُجِيبُ مَنْ أوردَ هَذَا عَلَى مَا يَقْضَى عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمَعَاصِي بِجَوَابَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مَا أَصَابَ الْعَبْدَ لَا مَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } أَيُّ مِنْ سَرَّاءٍ { وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } أَيُّ مِنْ ضَرَّاءٍ . وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَتَبَلَّوْا هُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } أَيُّ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَتَبَلَّوْا كُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } فَالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ يُرَادُ بِهَا الْمَسَارُ وَالْمَضَارُّ وَيُرَادُ بِهَا الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي . (وَالْجَوَابُ الثَّانِي أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِ الصَّبَّارِ الشَّكُورِ . وَالدُّثُوبُ تُقْصَصُ الْإِيمَانُ فَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَقَدْ تَرَفَّعَ دَرَجَتُهُ بِالتَّوْبَةِ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كَانَ دَاوُدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ فَمَنْ قَضَى لَهُ بِالتَّوْبَةِ كَانَ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَتَكُونُ نُصَبَ عَيْنِهِ وَيَعْجَبُ بِهَا وَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَتَكُونُ نُصَبَ

عَيْنِهِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْهَا وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ } وَالْمُؤْمِنُ إِذَا فَعَلَ سَيِّئَةً فَإِنَّ عُقُوبَتَهَا تَنْدَفِعُ عَنْهُ بِعَشْرَةِ أَسْبَابٍ : أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ . أَوْ يَسْتَغْفِرُ فَيَغْفِرُ لَهُ أَوْ يَعْمَلُ حَسَنَاتٍ تَمْحُوهَا فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ . أَوْ يَدْعُو لَهُ إِخْوَانُهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا . أَوْ يَهْدُونَ لَهُ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ مَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ أَوْ يَشْفَعُ فِيهِ نَبِيُّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَوْ يَتْلِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا بِمَصَائِبِ تُكَفِّرُ عَنْهُ أَوْ يَتْلِيهِ فِي الْبَرَزِخِ بِالصَّعْقَةِ فَيَكْفُرُ بِهَا عَنْهُ . أَوْ يَتْلِيهِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا بِمَا يُكْفِّرُ عَنْهُ . أَوْ يَرْحَمُهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٥ / ص ٥٣٢٩) = رقم الفتوى ٣٥٥٤٩ الاعتراض القلبي على

القضاء لا يجوز = تاريخ الفتوى : ٠٤ جمادى الثانية ١٤٢٤

السؤال

السلام عليكم والرحمة والبركات أريد الإفادة في أنه إذا وقع بالإنسان أي نوع من الإبتلاء من الله ولم يصبر عليه، بأن اعترض مع نفسه وتنمر من داخله بهذا القضاء، وأراد تغييره بأي طريقة ولم يستطع، فهل هذا يؤدي به إلى غضب من الله أم أن الله يعطي له أجر هذا الإبتلاء بغض النظر عن صبره عليه أم لا؟ وأفادكم الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد: الصبر على البلاء وعدم الجزع أمر مطلوب شرعاً، والأجر فيه بقدر الصبر والتسليم لله عز وجل، وذلك لأن الإبتلاء تمجيص للمؤمن واختبار له. قال تعالى: أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ [العنكبوت: ٢]. وقد بسطنا القول في هذا في الفتوى رقم: ٩٨٠٣ . وعليه فلا يجوز للمسلم أن يصدر عنه قول أو فعل ينافي الرضا بقضاء الله تعالى وقدره، وإلا كان فاعل ذلك في غاية العصيان لله تعالى، وذلك لأن قضاء الله تعالى خير كله، وعدل وحكمة، فيرضى به كله. فإن وقع منه لا على سبيل التسخيط فلا حرج فيه إن شاء الله تعالى، كما وقع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، حين قالت: وإراأساه. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: بل أنا وإراأساه. قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: وفيه أن ذكر الوجد ليس بشكاية، فكم من ساكت وهو ساخط، وكم شاك وهو راضٍ، فالمعول في ذلك على عمل القلب لا على نطق اللسان. ومن هذا يتضح للسائل عدم جواز اعتراض القلب على قضاء الله وقدره، اللهم إلا إذا كان ذلك وسوسة لا يستطيع دفعها، فحينئذ لا مؤاخذه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم. رواه البخاري ومسلم. وليس من عدم الرضا بالقضاء طلب تغيير الإبتلاء بالطرق الشرعية، كأن يكون الإنسان مريضاً فيذهب إلى الطبيب للمعالجة أو الرقية الشرعية. والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

و " الرِّضَا " قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ وَاجِبٌ وَقِيلَ : هُوَ مُسْتَحَبٌّ وَهُوَ الصَّحِيحُ ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى الْمُصِيبَةِ لِمَا يَرَى مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ وَإِبَاتِهِ وَتَضَرُّعِهِ إِلَيْهِ وَإِخْلَاصِهِ لَهُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَرَجَائِهِ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْبُغْيِ وَالضَّلَالِ فَتَجْلِبُهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ إِذَا أَذْنُبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَيُضَيِّقُونَ الْحَسَنَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِهَا ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدِيرٌ وَعِنْدَ الْمُعَصِيَةِ جَبْرِيٌّ ؛ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذَّهَبْتَ بِهِ (١)

وَالنَّاسُ فِي الشَّرِّ وَالْقَدَرِ عَلَى " أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ " فَشَرُّ الْخَلْقِ مَنْ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ لِنَفْسِهِ وَلَا يَرَاهُ حُجَّةً لغيرِهِ يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَانِبِ وَلَا يَطْمَعُنُ إِلَيْهِ فِي الْمَصَائِبِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدِيرٌ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذَّهَبْتَ بِهِ . وَيَا زَاءَ هَؤُلَاءِ خَيْرُ الْخَلْقِ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى الْمَصَائِبِ وَيَسْتَغْفِرُونَ مِنَ الْمَعَانِبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } وَقَالَ تَعَالَى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ . قَالَ تَعَالَى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا فَعَلَ مَا فَعَلَ قَالَ { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } وَعَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ { بَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } فَسَمِ تَابَ أَشْبَهَ أَبَاهُ آدَمَ وَمَنْ أَصَرَ وَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ أَشْبَهَ إِبْلِيسَ . وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي اخْتِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى . { أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَتَفَخَّ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ لِمَاذَا أَخْرَجْنَا وَتَفَسَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ فَبِكُمْ وَجَدْتَ مَكُتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ } وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَّى { قَالَ : بِكَذَا وَكَذَا سَنَةَ قَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى } . وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ رَوَى بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا حَجَّ مُوسَى لِأَنَّ مُوسَى لَامَهُ عَلَى مَا فَعَلَ لِأَجْلِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمُصِيبَةِ بِسَبَبِ أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ لَمْ يَكُنْ لَوْمُهُ لَهُ لِأَجْلِ حَقِّ اللَّهِ فِي الذُّنْبِ . فَإِنَّ آدَمَ كَانَ قَدْ تَابَ مِنَ الذُّنْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } وَقَالَ تَعَالَى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } وَمُوسَى - وَمَنْ هُوَ ذُوْنُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ لَا يَبْقَى مَلَامٌ عَلَى الذُّنْبِ وَآدَمُ أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى الذُّنْبِ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَقْبَلَ هَذِهِ الْحُجَّةَ فَإِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ حُجَّةً عَلَى الذُّنْبِ لَكَانَتْ حُجَّةً لِإِبْلِيسَ عَدُوِّ آدَمَ وَحُجَّةً لِفِرْعَوْنَ عَدُوِّ مُوسَى وَحُجَّةً لِكُلِّ كَافِرٍ وَفَاجِرٍ وَبَطَلُ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ ؛ بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِآدَمَ عَلَى مُوسَى لِأَنَّهُ لَمْ يَغْفِرْهُ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَتِلْكَ الْمُصِيبَةُ كَانَتْ مَكْتُوبَةً عَلَيْهِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } . وَقَالَ أَنَسٌ : { خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي : أَفْ قَطُّ وَلَا قَالَ لِي شَيْءٌ فَعَلْتُهُ : لِمَ فَعَلْتُهُ ؟ وَلَا لِي شَيْءٌ لَمْ أَفْعَلْهُ : لِمَ لَا فَعَلْتُهُ ؟ وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِهِ إِذَا عَاتَبَنِي عَلَى شَيْءٍ يَقُولُ دَعُوهُ فَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ { مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا دَابَّةً وَلَا شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَانْتَقَمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللَّهِ فَإِذَا انْتَهَكَتْ مَحَارِمُ اللَّهِ لَمْ يَقُمْ لِعِصْيِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَقِمَ لِلَّهِ } . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا } . فَفِي أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ يُسَارِعُ إِلَى الطَّاعَةِ وَيَقِيمُ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ وَإِذَا آذَاهُ مُؤْذٍ أَوْ قَصَرَ مَقْصَرٌ فِي حَقِّهِ عَفَا عَنْهُ وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ نَظْرًا إِلَى الْقَدَرِ . فَهَذَا سَبِيلُ الدِّينِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . وَهَذَا وَاجِبٌ فِيمَا قُدِّرَ مِنْ

الْمَصَائِبِ بِغَيْرِ فِعْلِ آدَمِيٍّ كَالْمَصَائِبِ السَّمَاوِيَّةِ أَوْ بِفِعْلِ لَا سَبِيلَ فِيهِ إِلَى الْعُقُوبَةِ كَفِعْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى لَوْمِهِ شَرْعًا - لِأَجْلِ التَّوْبَةِ - وَلَا قَدَرًا ؛ لِأَجْلِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ . وَأَمَّا إِذَا ظَلَمَ رَجُلٌ رَجُلًا فَلَهُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ مَظْلَمَتَهُ عَلَى وَجْهِ الْعَدْلِ وَإِنْ عَفَا عَنْهُ كَانَ أَفْضَلَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } . وَأَمَّا " الصَّنْفُ الثَّلَاثُ " فَهُمْ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْقَدَرِ لَا فِي الْمَعَائِبِ وَلَا فِي الْمَصَائِبِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ بَلْ يُضَيِّفُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى الْعَبْدِ وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا وَهَذَا حَسَنٌ ؛ لَكِنْ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِفِعْلِ الْعَبْدِ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى الْقَدَرِ الَّذِي مَضَى بِهِ عَلَيْهِمْ وَلَا يَقُولُونَ لِمَنْ قَصَرَ فِي حَقِّهِمْ دَعْوُهُ فَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ لَا سَبِيلًا وَقَدْ تَكُونُ تِلْكَ الْمُصِيبَةُ سَبَبٌ ذُنُوبِهِمْ فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى { أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَهْسِكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } . وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } . فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنَازَعَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَّبِعِي الْقَدَرِ وَنَفَاثَةِ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا مِنْ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : الْحَسَنَةُ مِنَ اللَّهِ وَالسَّيِّئَةُ مِنْ نَفْسِكَ لِقَوْلِهِ { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } . وَقَدْ يُجِيبُهُمُ اللَّوْلُونَ بِقِرَاءَةِ مَكْذُوبَةٍ { فَمِنْ نَفْسِكَ } بِالْفَتْحِ عَلَى مَعْنَى الْإِسْتِفْهَامِ وَرَبَّمَا قَدَّرَ بَعْضُهُمْ تَقْدِيرًا : أَيِ أَقَمِنَ نَفْسِكَ ؟ وَرَبَّمَا قَدَّرَ بَعْضُهُمُ الْقَوْلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { مَا أَصَابَكَ } يَقُولُونَ : تَقْدِيرُ الْآيَةِ { فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } يَقُولُونَ فَيَحْرِفُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ وَيَجْعَلُونَ مَا هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ - قَوْلِ الصَّدَقِ - مِنْ قَوْلِ الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ أَنْكَرَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ وَيُضْمِرُونَ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا دَلِيلَ عَلَى ثُبُوتِهِ بَلْ سِيَاقُ الْكَلَامِ يَنْفِيهِ ؛ فَكُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ جَاهِلَةٌ بِمَعْنَى الْقُرْآنِ وَبِحَقِيقَةِ الْمَنْهَبِ الَّذِي تَنْصُرُهُ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَالْمُرَادُ مِنْهُ هُنَا بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ النَّعْمُ وَالْمَصَائِبُ ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } وَكَقَوْلِهِ : { إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ } { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا } الْآيَةُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجِعُونَ } أَيِ بِالنَّعْمِ وَالْمَصَائِبِ . وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا } وَأَمْثَلُ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَا الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَا يُبَيِّنُ الْمُرَادَ بِاللَّفْظِ فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى إِشْكَالٌ ؛ بَلْ هُوَ مُبَيَّنٌ . وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ : { مَا أَصَابَكَ } وَمَا { مِنْكَ } وَنَحْوَ ذَلِكَ كَانَ مِنْ فِعْلِ غَيْرِكَ بِكَ كَمَا قَالَ { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } وَكَمَا قَالَ تَعَالَى { إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ } . وَإِذَا قَالَ { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ } كَانَتْ مِنْ فِعْلِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الْجَائِي بِهَا فَهَذَا يَكُونُ فِيمَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ لَا فِيمَا فَعَلَ بِهِ . وَسِيَاقُ الْآيَةِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا فِي سِيَاقِ الْحِصْصِ عَلَى الْجِهَادِ وَذَمِّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهُ فَقَالَ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاقْرَءُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْقُرُوا جَمِيعًا } { وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ كَيْبُطٌ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شُهَدَاءَ } { وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا } . فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْجِهَادِ وَذَمَّ الْمُشْطِطِينَ وَذَكَرَ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ تَارَةً مِنَ الْمُصِيبَةِ فِيهِ وَتَارَةً مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِيهِ كَمَا أَصَابَهُمْ

يَوْمَ أَخَذَ مُصِيبَةُ فَقَالَ : { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } .
وَأَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ بِتَضَرُّعِهِ لَهُمْ وَتَأْيِيدِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } ثُمَّ إِنَّهُ
سُبْحَانَهُ قَالَ : { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ
فَسَوْفَ نُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا } { وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ } -
إِلَى قَوْلِهِ - { أَيْمَنَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ } فَهَذَا مِنْ كَلَامِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ نَصْرٌ وَغَيْرُهُ مِنَ النَّعْمِ قَالُوا
هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ أَصَابَهُمْ ذُلٌّ وَخَوْفٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ قَالُوا : هَذَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ بِسَبَبِ الدِّينِ الَّذِي
جَاءَ بِهِ فَإِنَّ الْكُفَّارَ يُضَيِّفُونَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ إِلَى فِعْلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ . وَقَدْ ذَكَرَ نَظِيرَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ } { فَإِذَا جَاءَتْهُمْ
الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ } . وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي
سُورَةِ يَس { قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } { وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } { قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ
تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَتَطَيَّرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ
بَلَاءٌ جَعَلُوهُ بِسَبَبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ جَعَلُوهُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ تَعَالَى { فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } وَاللَّهُ تَعَالَى نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ فَلَوْ فَهَمُوا الْقُرْآنَ لَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أَمَرَ بِالْخَيْرِ وَنَهَى عَنِ الشَّرِّ فَلَيْسَ فِيمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلشَّرِّ بَلِ الشَّرُّ حَصَلَ
بِذُنُوبِ الْعِبَادِ فَقَالَ تَعَالَى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } أَيُّ مَا أَصَابَكَ مِنْ نَصْرٍ وَرِزْقٍ وَعَافِيَةٍ فَمِنَ اللَّهِ نِعْمَةً
أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ أَعْمَالِكَ الصَّالِحَةِ فَهُوَ الَّذِي هَذَاكَ وَأَعَانَكَ وَيَسِّرَكَ لِلْيُسْرَى وَمَنْ عَلَيْكَ بِالْإِيمَانِ
وَزَيَّنَهُ فِي قَلْبِكَ وَكَرَّهَ إِلَيْكَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ . وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى { يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ
بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ } وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { سَيِّدُ
الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذُنُوبِي ؛ فَاعْفُرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا
إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ } .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى { وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ } مِنْ ذُلٍّ وَخَوْفٍ وَهَرَمَةٍ كَمَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ { فَمِنْ نَفْسِكَ } أَيُّ بِذُنُوبِكَ
وَخَطَايَاكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَكُوبًا مُقَدَّرًا عَلَيْكَ فَإِنَّ الْقَدَرَ لَيْسَ حُجَّةً لِأَحَدٍ لَا عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى خَلْقِهِ وَلَوْ جَارَ لِأَحَدٍ
أَنْ يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ لَمْ يُعَاقَبْ ظَالِمٌ وَلَمْ يُقَاتَلْ مُشْرِكٌ وَلَمْ يُقَمَّ حُدٌّ وَلَمْ يَكُفَّ أَحَدٌ عَنْ ظُلْمٍ
أَحَدٍ وَهَذَا مِنَ الْقَسَادِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا الْمَعْلُومُ ضَرُورَةُ فَسَادِهِ لِلْعَالَمِ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ الْمُطَابِقِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ
. فَالْقَدَرُ يُؤْمِنُ بِهِ وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ ضَارَعَ الْمَجُوسَ وَمَنْ احْتَجَّ بِهِ ضَارَعَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ أَقَرَّ بِالْأَمْرِ
وَالْقَدَرِ وَطَعَنَ فِي عَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ كَانَ شَبِيهًا بِإِبْلِيسَ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ طَعَنَ فِي حِكْمَتِهِ وَعَارَضَهُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ
وَأَنَّهُ قَالَ { بَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرَيْنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُعْوينَّهُمْ أَجْمَعِينَ } . وَقَدْ ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضُ
الْمُصَنِّفِينَ فِي الْمَقَالَاتِ كَالشَّهْرِسْتَانِيِّ أَنَّهُ نَاطَرَ الْمَلَائِكَةَ فِي ذَلِكَ مُعَارِضًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ؛ لَكِنَّ هَذِهِ
الْمُنَاطَرَةَ بَيْنَ إِبْلِيسَ وَالْمَلَائِكَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّهْرِسْتَانِيُّ فِي أَوَّلِ الْمَقَالَاتِ وَتَقْلَبَهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَيْسَ لَهَا
إِسْنَادٌ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَلَوْ وَجَدْنَاهَا فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يَجْزُ أَنْ نُصَدِّقَهَا لِمَجَرَّدِ ذَلِكَ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ { إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ فَإِنَّمَا أَنْ يُحَدِّثُواكُمْ بِحَقِّ فَتَكْذِبُونَهُ وَإِنَّمَا أَنْ يُحَدِّثُواكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ } . وَيُسَيِّئُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةُ مِنْ وَضْعِ بَعْضِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقَدَرِ إِنَّمَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَالشَّهْرَسْتَانِي تَقْلَهُمَا مِنْ كُتُبِ الْمَقَالَاتِ وَالْمُصَنَّفُونَ فِي الْمَقَالَاتِ يَقُولُونَ كَثِيرًا مِنَ الْمَقَالَاتِ مِنْ كُتُبِ الْمُعْتَزِلَةِ كَمَا تَقُلُ الْأَشْعَرِيُّ وَغَيْرُهُ مَا تَقْلَهُ فِي الْمَقَالَاتِ مِنْ كُتُبِ الْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَكْثَرِ الطَّوَائِفِ وَأَوَّلُهَا تَصْنِيفًا فِي هَذَا الْبَابِ وَلِهَذَا تَوَجَّدَ الْمَقَالَاتُ مَنْقُولَةً بِعِبَارَاتِهِمْ فَوَضَعُوا هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ عَلَى لِسَانِ إِبْلِيسَ كَمَا رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَضَعُ كِتَابًا أَوْ قَصِيدَةً عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْيَهُودِ أَوْ غَيْرِهِمْ وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى الْمُشَبِّهِينَ لِلْقَدَرِ يَقُولُونَ إِنَّ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْكَذِبِ بِالْقَدَرِ ؛ كَمَا وَضَعُوا فِي مَتَلَبِ ابْنِ كَلَّابٍ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا لِأَنَّهُ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ وَعِنْدَهُمْ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ فَقَدْ أَشْبَهَ النَّصْرَانِيَّ وَتَقَلَّى أَمْثَالَ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ بِالْقَبُولِ مِنَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ حُجَّةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ : حُجَّةٌ عَلَى مَنْ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ عَذَّبَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَلَوْ كَانَتْ حُجَّتُهُمْ مَقْبُولَةً لَمْ يُعَذِّبْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَحُجَّةٌ عَلَى مَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ الْحَسَنَةَ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ السَّيِّئَةَ مِنْ نَفْسِ الْعَبْدِ وَالْقَدَرِيَّةُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ هُوَ الْمُحْدِثُ لِلْمَعْصِيَةِ كَمَا هُوَ الْمُحْدِثُ لِلطَّاعَةِ وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ مَا أَحْدَثَ لَا هَذَا وَلَا هَذَا ؛ بَلْ أَمَرَ بِهِذَا وَنَهَى عَنْ هَذَا . وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ لِلَّهِ نِعْمَةٌ أَنْعَمَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدِّينِ إِلَّا وَقَدْ أَنْعَمَ بِمِثْلِهَا عَلَى الْكُفَّارِ فَعِنْدَهُمْ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَبَا لَهَبٍ مُسْتَوِيَانِ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ الدِّينِيَّةِ إِذْ كُلُّ مِنْهُمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ وَالْقَدَرُ عَلَى الْفِعْلِ وَأُزِيحَتْ عَنْهُ لَكِنَّ هَذَا فَعَلَ الْإِيمَانُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْصُهُ نِعْمَةً آمَنَ بِهَا وَهَذَا فَعَلَ الْكُفْرَ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضُلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ وَلَا خَصَّهُ نِعْمَةً آمَنَ لِأَجْلِهَا وَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ حَبَّبَ الْإِيمَانَ إِلَى الْكُفَّارِ كَأَبِي لَهَبٍ وَأَمْثَالِهِ كَمَا حَبَّبَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ كَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمْثَالِهِ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِ الطَّائِفَتَيْنِ وَكَرَّهَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ إِلَى الطَّائِفَتَيْنِ سَوَاءً لَكِنَّ هَؤُلَاءِ كَرَهُوا مَا كَرَّهَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ نِعْمَةٍ خَصَّهُمْ بِهَا وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكْرَهُوا مَا كَرَّهَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ . وَمَنْ تَوَهَّمَ عَنْهُمْ أَوْ مَنْ تَقَلَّ عَنْهُمْ أَنَّ الطَّاعَةَ مِنَ اللَّهِ وَالْمَعْصِيَةَ مِنَ الْعَبْدِ فَهُوَ جَاهِلٌ بِمَذْهَبِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَدَرِيَّةِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَهُ فَإِنَّ أَصْلَ قَوْلِهِمْ إِنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ لِلطَّاعَةِ كَفَعْلِهِ لِلْمَعْصِيَةِ كِلَاهُمَا فَعَلَهُ بِقُدْرَةِ تَحْصُلٍ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْصَهُ اللَّهُ بِإِرَادَةٍ خَلَقَهَا فِيهِ وَلَا قُوَّةَ جَعَلَهَا فِيهِ تَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا فَإِذَا احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَذْهَبِهِمْ كَانُوا جَاهِلِينَ بِمَذْهَبِهِمْ وَكَانَتِ الْآيَةُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } وَعِنْدَهُمْ لَيْسَ الْحَسَنَاتُ الْمَفْعُولَةُ وَلَا السَّيِّئَاتُ الْمَفْعُولَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَلْ كِلَاهُمَا مِنَ الْعَبْدِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِمْ فَإِنَّ عِنْدَهُمْ الْحَسَنَةَ الْمَفْعُولَةَ وَالسَّيِّئَةَ الْمَفْعُولَةَ مِنَ الْعَبْدِ لَا مِنَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ . وَكَذَلِكَ مَنْ احْتَجَّ مِنْ مُشَبِّهَةِ الْقَدَرِ بِالْآيَةِ عَلَى إِنْثَابِهِ إِذَا احْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } كَانَ مُخْطِئًا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَى مَنْ يَقُولُ الْحَسَنَةَ مِنَ اللَّهِ وَالسَّيِّئَةَ مِنَ الْعَبْدِ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ طَوَائِفِ النَّاسِ ؛ أَنَّ الْحَسَنَةَ الْمَفْعُولَةَ مِنَ اللَّهِ وَالسَّيِّئَةَ الْمَفْعُولَةَ مِنَ الْعَبْدِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ نَفْسَ فِعْلِ الْعَبْدِ وَإِنْ قَالَ أَهْلُ الْإِتْبَاتِ : أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ وَمَفْعُولٌ لَهُ ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُنْكِرُونَ أَنَّ الْعَبْدَ هُوَ الْمُتَحَرِّكُ بِالْأَفْعَالِ وَبِهِ قَامَتْ وَمِنْهُ نَشَأَتْ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهَا . وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ هَذَا { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } يَمْتَنِعُ أَنْ يُفَسَّرَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْإِتْبَاتِ لَا يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ إِحْدَاهُمَا دُونَ الْأُخْرَى ؛ بَلْ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ لِكُلِّهِمَا الْأَفْعَالِ وَكُلِّ الْحَوَادِثِ . وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الْأُمَّةِ - مَعَ قَوْلِهِمْ : اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَبْدَ هَلُوعًا إِذَا

مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا وَنَحْوُ ذَلِكَ - إِنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ حَقِيقَةٌ وَلَهُ مَشِيئَةٌ وَقُدْرَةٌ قَالَ تَعَالَى : { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } وَقَالَ تَعَالَى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } وَقَالَ تَعَالَى : { كُلًّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ } { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } . وَهَذَا الْمَوْضِعُ اضْطَرَبَ فِيهِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدْرِ فَقَالَتْ الْمُعْزَلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنَ النِّفَاةِ : الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ أَفْعَالٌ فَيَحْتَاجُ وَاللَّهُ مُنْزَعَةً عَنْ فِعْلِ الْقَيْحِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تَكُونُ فِعْلًا لَهُ . وَقَالَ مَنْ رَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَنَالِينَ إِلَى الْجَبْرِ بَلْ هِيَ فِعْلُهُ وَلَيْسَتْ أَفْعَالًا لِلْعِبَادِ بَلْ هِيَ كَسْبُ الْعَبْدِ : وَقَالُوا : إِنَّ قُدْرَةَ الْعَبْدِ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي حُلُوثِ مَقْدُورِهَا وَلَا فِي صِفَتِهَا مِنْ صِفَاتِهَا وَإِنَّ اللَّهَ أَجْرَى الْعَادَةِ بِخَلْقِ مَقْدُورِهَا مُقَارِنًا لَهَا فَيَكُونُ الْفِعْلُ خَلْقًا مِنَ اللَّهِ إِبْدَاعًا وَإِحْدَاثًا وَكَسْبًا مِنَ الْعَبْدِ لَوْفُوعِهِ مُقَارِنًا لِقُدْرَتِهِ وَقَالُوا : إِنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ مُحْدِثًا لِأَفْعَالِهِ وَلَا مُوجِدًا لَهَا وَمَعَ هَذَا فَقَدْ يَقُولُونَ : إِنَّا لَا نَقُولُ بِالْجَبْرِ الْمَحْضِ بَلْ نُثَبِّتُ لِلْعَبْدِ قُدْرَةً حَادِثَةً وَالْجَبْرِيُّ الْمَحْضُ الَّذِي لَا يُثَبِّتُ لِلْعَبْدِ قُدْرَةً . وَأَخْلَوْا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْكَسْبِ الَّذِي أَثْبَتُوهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فَقَالُوا : الْكَسْبُ عِبَارَةٌ عَنْ اقْتِرَانِ الْمَقْدُورِ بِالْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ وَالْخَلْقُ هُوَ الْمَقْلُوبُ بِالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَقَالُوا : أَيْضًا الْكَسْبُ هُوَ الْفِعْلُ الْقَائِمُ بِمَحَلِّ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْخَلْقُ هُوَ الْفِعْلُ الْخَارِجُ عَنْ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُمُ النَّاسُ : هَذَا لَا يُوجِبُ فَرْقًا بَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ كَسَبَ وَبَيْنَ كَوْنِهِ فَعَلَ وَأَوْجَدَ وَأَحْدَثَ وَصَنَعَ وَعَمِلَ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِعْلَهُ وَإِحْدَاثَهُ وَعَمَلَهُ وَصَنَعَهُ هُوَ أَيْضًا مَقْدُورٌ بِالْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ وَهُوَ قَائِمٌ فِي مَحَلِّ الْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ . وَ (أَيْضًا فَهَذَا فَرْقٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فَإِنَّ كَوْنَ الْمَقْلُوبِ فِي مَحَلِّ الْقُدْرَةِ أَوْ خَارِجًا عَنْ مَحَلِّهَا لَا يَعُودُ إِلَى نَفْسِ تَأْثِيرِ الْقُدْرَةِ فِيهِ : وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى " أَصْلَيْنِ " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَإِنْ خَلَقَهُ لِلْعَالَمِ هُوَ نَفْسُ الْعَالَمِ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ . وَ (الثَّانِي إِنَّ قُدْرَةَ الْعَبْدِ لَا يَكُونُ مَقْدُورِهَا إِلَّا فِي مَحَلِّ وَجُودِهَا وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنْ مَقْدُورِهَا خَارِجًا عَنْ مَحَلِّهَا . وَفِي ذَلِكَ نَزَاعٌ طَوِيلٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ . وَ (أَيْضًا فَإِذَا فُسِّرَ التَّأْثِيرُ بِمُجَرَّدِ الْاِقْتِرَانِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْفَارِقُ فِي الْمَحَلِّ أَوْ خَارِجًا عَنْ الْمَحَلِّ . وَ (أَيْضًا قَالَ لَهُمُ الْمُنَازِعُونَ : مِنْ الْمُسْتَقَرِّ فِي فِطْرِ النَّاسِ أَنْ مَنْ فَعَلَ الْعَدْلَ فَهُوَ عَادِلٌ وَمَنْ فَعَلَ الظُّلْمَ فَهُوَ ظَالِمٌ وَمَنْ فَعَلَ الْكَذِبَ فَهُوَ كَاذِبٌ فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ فَاعِلًا لِكُذِبِهِ وَظُلْمِهِ وَعَدْلِهِ بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ ذَلِكَ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْكَذِبِ وَالظُّلْمِ قَالُوا : وَهَذَا كَمَا قُلْتُمْ أَنْتُمْ وَسَائِرُ الصِّفَاتِيَّةِ : مِنَ الْمُسْتَقَرِّ فِي فِطْرِ النَّاسِ أَنْ مَنْ قَامَ بِهِ الْعِلْمُ فَهُوَ عَالِمٌ وَمَنْ قَامَتْ بِهِ الْقُدْرَةُ فَهُوَ قَادِرٌ وَمَنْ قَامَتْ بِهِ الْحَرَكَةُ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ وَمَنْ قَامَ بِهِ التَّكَلُّمُ فَهُوَ مُتَكَلِّمٌ وَمَنْ قَامَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ فَهُوَ مُرِيدٌ وَقُلْتُمْ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَخْلُوقًا كَانَ كَلَامًا لِلْمَحَلِّ الَّذِي خَلَقَهُ فِيهِ كَسَائِرُ الصِّفَاتِ فَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْمَطْرُودَةُ فِيمَنْ قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ نَظِيرُهَا أَيْضًا مَنْ فَعَلَ الْأَفْعَالَ . وَقَالُوا أَيْضًا : الْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِذِكْرِ إِضَافَةِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعِبَادِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } وَقَوْلِهِ : { اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } وَقَوْلِهِ : { وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ } وَقَوْلِهِ : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } وَأَمثال ذلك . وَقَالُوا (أَيْضًا إِنَّ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ مُتَّفَقَانِ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يُحْمَدُ وَيُذَمُّ عَلَى فِعْلِهِ وَيَكُونُ حَسَنَةً لَهُ أَوْ سَيِّئَةً فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِعْلٌ غَيْرُهُ لَكَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ هُوَ الْمَحْمُودُ الْمَذْمُومُ عَلَيْهَا . وَفِي " الْمَسْأَلَةِ " كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ لَكِنْ نُبِّهْ عَلَى نُكْتَةٍ نَافِعَةٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمُشْكِكِ فَنَقُولُ : قَوْلُ الْقَائِلِ : هَذَا فَعَلَ هَذَا وَفَعَلَ هَذَا : لَفْظٌ فِيهِ إِجْمَالٌ ؛ فَإِنَّهُ تَارَةً يُرَادُ بِالْفِعْلِ نَفْسُ الْفِعْلِ وَتَارَةً يُرَادُ بِهِ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ . فَيَقُولُ فَعَلْتُ هَذَا أَفَعَلْتُ فَعَلًا وَعَمِلْتُ هَذَا أَعْمَلْتُ عَمَلًا فَإِذَا أُريدَ بِالْعَمَلِ نَفْسُ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ كَصَلَاةِ الْإِنْسَانِ وَصِيَامِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَالْعَمَلُ هُنَا هُوَ الْمَعْمُولُ وَقَدْ اتَّحَدَ هُنَا مُسَمَّى الْمَصْدَرِ وَالْفِعْلِ ؛ وَإِذَا أُريدَ بِذَلِكَ مَا يَحْصُلُ بِعَمَلِهِ كَنَسَاجَةِ الثَّوبِ وَبِنَاءِ الدَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَالْعَمَلُ هُنَا غَيْرُ

الْمَعْمُولُ قَالَ تَعَالَى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } فَجَعَلَ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتِ مَعْمُولَةً لِلْجِنِّ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } فَإِنَّهُ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ { مَا } بِمَعْنَى الَّذِي وَالْمُرَادُ بِهِ مَا تَسْجُدُ لَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ كَمَا قَالَ تَعَالَى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَسْجُدُونَ } { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } أَيْ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَسْجُدُونَ لَهَا . وَمِنْهُ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ } لَكِنْ قَدْ يُسْتَدَلُّ بِالْآيَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ فَيُقَالُ : إِذَا كَانَ خَالِقًا لِمَا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الْمُنْحَوَاتِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْخَالِقُ لِلتَّالِيفِ الَّذِي أَحْدَثُوهُ فِيهَا فَإِنَّهَا إِنَّمَا صَارَتْ أَوْثَانًا بِذَلِكَ التَّالِيفِ وَإِلَّا فَهِيَ بِدُونِ ذَلِكَ لَيْسَتْ مَعْمُولَةً لَهُمْ وَإِذَا كَانَ خَالِقًا لِلتَّالِيفِ كَانَ خَالِقًا لِأَفْعَالِهِمْ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ لَفْظَ " الْفِعْلِ " وَ " الْعَمَلِ " وَ " الصَّنْعِ " أَنْوَاعٌ وَذَلِكَ كَلَفُظِ الْبِنَاءِ وَالْخِيَاطَةِ وَالتَّجَارَةِ تَقَعُ عَلَى نَفْسٍ مُسَمًّى الْمَصْدَرِ وَعَلَى الْمَفْعُولِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ " التَّلَاوَةِ " وَ " الْقِرَاءَةِ " وَ " الْكَلَامِ " وَ " الْقَوْلِ " يَقَعُ عَلَى نَفْسٍ مُسَمًّى الْمَصْدَرِ وَعَلَى مَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ فَيُرَادُ بِالتَّلَاوَةِ وَالْقِرَاءَةِ نَفْسُ الْقُرْآنِ الْمَقْرُوءِ الْمَتْلُوعِ ؛ كَمَا يُرَادُ بِهَا مُسَمًّى الْمَصْدَرِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتُ فِعْلُ اللَّهِ أَوْ فِعْلُ الْعَبْدِ ؛ فَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهَا فِعْلُ اللَّهِ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ فَهَذَا بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَبَصَرِيحِ الْعَقْلِ وَلَكِنْ مَنْ قَالَ هِيَ فِعْلُ اللَّهِ وَأَرَادَ بِهِ أَنَّهَا مَفْعُولَةٌ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ كَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ [فَهَذَا حَقٌّ] . ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ فِعْلٌ يَقُومُ بِهِ فَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ فِعْلِهِ وَمَفْعُولِهِ وَخَلْقِهِ وَمَخْلُوقِهِ . وَأَمَّا الْجُمْهُورُ الَّذِينَ يَفَرِّقُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَيَقُولُونَ هَذِهِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مَفْعُولَةٌ لِلَّهِ لَيْسَتْ هِيَ نَفْسُ فِعْلِهِ وَأَمَّا الْعَبْدُ فَهِيَ فِعْلُهُ الْقَائِمُ بِهِ وَهِيَ أَيْضًا مَفْعُولَةٌ لَهُ إِذَا أُريدَ بِالْفِعْلِ الْمَفْعُولُ ؛ فَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ فِي حَقِّ الرَّبِّ تَعَالَى بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ إِذَا قَالَ إِنَّهَا فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ لِمُسَمًّى فِعْلُ اللَّهِ عِنْدَهُ مَعْنِيَانِ وَحَيْثُ فَلَا تَكُونُ فِعْلًا لِلْعَبْدِ وَلَا مَفْعُولًا لَهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ قَالَ هِيَ فِعْلٌ لِلرَّبِّ وَلِلْعَبْدِ فَأُثْبِتَ مَفْعُولًا بَيْنَ فَاعِلَيْنِ . وَأَكْثَرُ الْمُعْتَرِلَةِ يُوَافِقُونَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ فِعْلَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى مَفْعُولِهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَفَرِّقُونَ فِي الْعَبْدِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ ؛ فَلِهَذَا عَظُمَ التَّزَاوُعُ وَأَشْكَلَتِ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ وَحَارُوا فِيهَا . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : خَلَقَ الرَّبُّ تَعَالَى لِمَخْلُوقَاتِهِ لَيْسَ هُوَ نَفْسُ مَخْلُوقَاتِهِ قَالَ : إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ كَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَفْعُولَةٌ لِلرَّبِّ كَسَائِرِ الْمَفْعُولَاتِ وَلَمْ يَقُلْ : إِنَّهَا نَفْسُ فِعْلِ الرَّبِّ وَخَلْقَهُ بَلْ قَالَ إِنَّهَا نَفْسُ فِعْلِ الْعَبْدِ وَعَلَى هَذَا تَزُولُ الشُّبْهَةُ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ الْكَذِبُ وَالظُّلْمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْقَبَائِحِ يَتَّصِفُ بِهَا مَنْ كَانَتْ فِعْلًا لَهُ كَمَا يَقَعُهَا الْعَبْدُ وَتَقُومُ بِهِ وَلَا يَتَّصِفُ بِهَا مَنْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً لَهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَهَا صِفَةً لِغَيْرِهِ كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَتَّصِفُ بِمَا خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الطُّعُومِ وَالْأَلْوَانِ وَالرَّوَانِحِ وَالْأَشْكَالِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْحَرَكَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَإِذَا كَانَ قَدْ خَلَقَ لَوْنُ الْإِنْسَانِ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْمَتْلُوعَ بِهِ وَإِذَا خَلَقَ رَائِحَةً مُنْتِنَةً أَوْ طَعْمًا مُرًّا أَوْ صَوْرَةً قَيْحَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَكْرُوهٌ مَذْمُومٌ مُسْتَقْبَحٌ لَمْ يَكُنْ هُوَ مُتَّصِفًا بِهِذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْقَيْحَةِ الْمَذْمُومَةِ الْمَكْرُوهَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَيْحَةِ . وَمَعْنَى قُبْحِهَا كَوْنُهَا ضَارَّةً لِأَعْمَالِهَا وَسَبَبًا لِدَمِّهِ وَعِقَابِهِ وَجَلَابَةِ لَأَلَمِهِ وَعَذَابِهِ . وَهَذَا أَمْرٌ يَعُودُ عَلَى الْفَاعِلِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ ؛ لَا عَلَى الْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَهَا فِعْلًا لِغَيْرِهِ . ثُمَّ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا خَلَقَهُ فِي الْعَالَمِ مِمَّا هُوَ مُسْتَقْبَحٌ وَضَارٌّ وَمُؤَذِّ يَقُولُونَ : لَهُ فِيمَا خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْقَيْحَةِ الضَّارَّةِ لِأَعْمَالِهَا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ؛ كَمَا لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِيمَا خَلَقَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُمُومِ . وَمَنْ يَقُولُ : لَا تُعْلَلُ أَفْعَالُهُ لَا يُعْلَلُ لَا هَذَا وَلَا هَذَا . يُوضَحُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ فِي الْإِنْسَانِ عَمَى وَمَرَضًا وَجُوعًا وَعَطَشًا وَوَصَبًا وَنَصَبًا وَنَحْوَ ذَلِكَ كَانَ الْعَبْدُ هُوَ الْمَرِيضُ الْجَانِعُ الْعَطْشَانُ الْمَتَأَلِّمُ فَضَرَرُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَذَى وَالْكَرَاهَةِ عَادَ إِلَيْهِ وَلَا يَعُودُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ مَا خَلَقَ فِيهِ مِنْ كَذِبٍ وَظُلْمٍ وَكُفْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ هِيَ أُمُورٌ ضَارَّةٌ مَكْرُوهَةٌ مُؤَذِيَةٌ . وَهَذَا مَعْنَى كَوْنِهَا سَيِّئَاتٍ وَقَبَائِحَ أَيْ

أَنَّهُا تَسُوءُ صَاحِبَهَا وَتَضُرُّهُ وَقَدْ تَسُوءُ أَيضًا غَيْرَهُ وَتَضُرُّهُ كَمَا أَنَّ مَرَضَهُ وَتَنَزُّجَهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ قَدْ يَسُوءُ غَيْرَهُ وَيَضُرُّهُ . يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ سَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَخْلُقُ فِي الْعَبْدِ كُفْرًا وَفُسُوقًا عَلَى سَبِيلِ الْجَزَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } وَقَوْلِهِ { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } وَقَوْلِهِ { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } . ثُمَّ إِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ تَكُونُ فِعْلًا لِلْعَبْدِ وَكَسْبًا لَهُ يُجْزَى عَلَيْهَا وَيَسْتَحِقُّ الذَّمَّ عَلَيْهَا وَالْعِقَابَ وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فَالْقَوْلُ عِنْدَ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ فِيمَا يَخْلُقُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ابْتِدَاءً كَالْقَوْلِ فِيمَا يَخْلُقُهُ جَزَاءً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِنْ افْتَرَقَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ وَهُمْ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَهُمَا بِفَرْقٍ يَعُودُ إِلَى كَوْنِ هَذَا فِعْلًا لِلَّهِ دُونَ هَذَا وَهَذَا فِعْلًا لِلْعَبْدِ دُونَ هَذَا ؛ وَلَكِنْ يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا يَحْسُنُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكَوْنِهِ جَزَاءً لِلْعَبْدِ وَذَلِكَ لَا يَحْسُنُ مِنْهُ لِكَوْنِهِ ابْتِدَاءً لِلْعَبْدِ بِمَا يَضُرُّهُ وَهُمْ يَقُولُونَ لَا يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يَضُرَّ الْحَيَوَانَ إِلَّا بِجُرْمٍ سَابِقٍ أَوْ عَوْضٍ لَاحِقٍ . وَأَمَّا أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ فَمَنْ لَمْ يُعَلِّلْ مِنْهُمْ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ مَخْلُوقٍ وَمَخْلُوقٍ . وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِالْحِكْمَةِ وَهُمْ الْجُمْهُورُ فَيَقُولُونَ : لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَخْلُقُهُ مِنْ أَدَى الْحَيَوَانِ حِكْمٌ عَظِيمَةٌ كَمَا لَهُ حَكْمٌ فِي غَيْرِ هَذَا وَنَحْنُ لَا نَحْضُرُ حِكْمَتَهُ فِي الثَّوَابِ وَالْعَوْضِ فَإِنَّ هَذَا قِيَاسٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ وَتَمَثِيلٌ لِحِكْمَةِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ بِحِكْمَةِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ وَعَدْلِهِ . وَ " الْمُعْتَرِلَةُ " مُشَبَّهَةٌ فِي الْأَفْعَالِ مُعْطَلَّةٌ فِي الصِّفَاتِ وَمِنْ أَصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا يَخْلُقُهُ فِي الْعَالَمِ إِذْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ صِفَةٌ لِلَّهِ قَائِمَةٌ بِهِ وَلَا فِعْلٌ قَائِمٌ بِهِ فَيَسْمُونَهُ بِهِ وَيَصِفُونَهُ بِمَا يَخْلُقُهُ فِي الْعَالَمِ : مِثْلُ قَوْلِهِمْ : هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ وَمُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ يُحْدِثُهَا لَا فِي مَحَلٍّ وَقَوْلُهُمْ : أَنَّ رِضَاهُ وَغَضَبَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ هُوَ نَفْسُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَخْلُقُهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَقَوْلُهُمْ : إِنَّهُ لَوْ كَانَ خَالِقًا لَطَلَّمَ الْعَبْدَ وَكَذَبَهُ لَكَانَ هُوَ الظَّالِمَ الْكَاذِبَ . وَأَمَّا ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي إِذَا تَدَبَّرَهَا الْعَاقِلُ عَلِمَ فَسَادَهَا بِالضَّرُورَةِ . وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمْ لَا سِيَّمَا لَمَّا أَظْهَرُوا الْقَوْلَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَعَلِمَ السَّلَفُ أَنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ انْكَارٌ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَلَامُهُ هُوَ مَا يَخْلُقُهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ كَلَامٍ مَخْلُوقٌ كَلَامًا لَهُ فَيَكُونُ إِنْطَاقُهُ لِلْجُلُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْطَاقُهُ لِلْجِبَالِ وَالْحَصَى بِالتَّسْمِيحِ وَشَهَادَةُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَلَامًا لَهُ وَإِذَا كَانَ خَالِقًا لِكُلِّ شَيْءٍ كَانَ كُلُّ كَلَامٍ مَوْجُودٌ كَلَامُهُ وَهَذَا قَوْلُ الْخُلُولِيَّةِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ كَصَاحِبِ الْقُصُوصِ وَأَمَّا لَهُ وَلِهَذَا يَقُولُونَ : وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءً عَلَيْنَا شَرُّهُ وَنَظَامُهُ وَقَدْ عَلِمَ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ صِفَةً فِي مَحَلٍّ كَانَتْ صِفَةً لِذَلِكَ الْمَحَلِّ إِذَا خَلَقَ حَرَكَةً فِي مَحَلٍّ كَانَ ذَلِكَ الْمَحَلُّ هُوَ الْمُتَحَرِّكُ بِهَا ؛ وَإِذَا خَلَقَ لَوْنًا أَوْ رِيحًا فِي جِسْمٍ كَانَ هُوَ الْمُتَلَوِّنُ الْمُتَرَوِّحُ بِذَلِكَ وَإِذَا خَلَقَ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً أَوْ حَيَاةً فِي مَحَلٍّ كَانَ ذَلِكَ الْمَحَلُّ هُوَ الْعَالِمُ الْقَادِرُ الْحَيُّ فَكَذَلِكَ إِذَا خَلَقَ إِرَادَةً وَحُبًّا وَبُغْضًا فِي مَحَلٍّ كَانَ هُوَ الْمُرِيدُ الْمُحِبُّ الْمُبْغِضُ وَإِذَا خَلَقَ فِعْلًا لِعَبْدٍ كَانَ الْعَبْدُ هُوَ الْفَاعِلُ إِذَا خَلَقَ لَهُ كَذِبًا وَظُلْمًا وَكُفْرًا كَانَ الْعَبْدُ هُوَ الْكَاذِبُ الظَّالِمُ الْكَافِرُ وَإِنْ خَلَقَ لَهُ صَلَاةً وَصَوْمًا وَحَجًّا كَانَ الْعَبْدُ هُوَ الْمُصَلِّي الصَّائِمُ الْحَاجُّ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ مَخْلُوقَاتِهِ بَلْ صِفَاتُهُ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ وَهَذَا مُطَرِّدٌ عَلَى أَصُولِ السَّلَفِ وَجُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّ خَلْقَ اللَّهِ لِلْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيْسَ هُوَ نَفْسُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ بَلْ الْخَلْقُ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ لَا سِيَّمَا مَذْهَبُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ وَافَقُوهُمْ عَلَى إِبْتِاثِ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ . فَإِنَّ الْمُعْتَرِلَةَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ تَقْضُوا هَذَا الْأَصْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقُلْ إِنَّ الْخَلْقَ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ كَالْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ فَقَالُوا ؛ إِذَا قُلْتُمْ إِنَّ الصِّفَةَ إِذَا قَامَتْ بِمَحَلٍّ عَادَ حُكْمُهَا عَلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ دُونَ غَيْرِهِ - كَمَا ذَكَرْتُمْ فِي الْحَرَكَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَسَائِرِ الْأَعْرَاضِ - انْتَقَضَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يُسَمَّى عَادِلًا بِعَدْلِ خَلْقِهِ فِي غَيْرِهِ مُحْسِنًا بِإِحْسَانِ خَلْقِهِ فِي غَيْرِهِ فَكَذَا يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا بِكَلَامِ خَلْقِهِ فِي غَيْرِهِ . وَالْجُمْهُورُ

مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ يُجِيبُونَ بِالنِّزَامِ هَذَا الْأَصْلَ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا كَانَ عَادِلًا بِالْعَدْلِ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ وَمُحْسِنًا
 بِالْإِحْسَانِ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ . وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ الَّذِي حَصَلَ لِلْعَبْدِ فَهُوَ أَثَرُ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ رَحِمَنَ رَحِيمٍ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ
 صِفَتُهُ وَأَمَّا مَا يَخْلُقُهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فَهُوَ أَثَرُ تِلْكَ الرَّحْمَةِ وَاسْمُ الصِّفَةِ يَقَعُ تَارَةً عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي هِيَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ
 وَيَقَعُ تَارَةً عَلَى مُتَعَلِّقِهَا الَّذِي هُوَ مُسَمَّى الْمَفْعُولِ كَلَفَظَ " الْخَلْقَ " يَقَعُ تَارَةً عَلَى الْفِعْلِ وَعَلَى الْمَخْلُوقِ أُخْرَى
 وَالرَّحْمَةُ تَقَعُ عَلَى هَذَا وَهَذَا وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ يَقَعُ عَلَى أَمْرِهِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ أَمْرٍ يَأْمُرُ أَمْرًا وَيَقَعُ عَلَى الْمَفْعُولِ تَارَةً
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْضُورًا } وَكَذَلِكَ لَفْظُ " الْعِلْمُ " يَقَعُ عَلَى الْمَعْلُومِ وَ" الْقُدْرَةُ " تَقَعُ عَلَى
 الْمَقْلُوبِ وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدَّةٌ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّةِ السُّنَّةِ فِي جُمْلَةٍ مَا اسْتَدَلُّوا عَلَى أَنَّ كَلَامَ
 اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ { أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ } وَنَحْوِ ذَلِكَ وَقَالُوا الْإِسْتِعَاذَةُ لَا تَحْصُلُ
 بِالْمَخْلُوقِ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ
 عُقُوبَتِكَ وَبِكَ مِنْكَ } . وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْبَابَ وَنَحْوَهُ وَجَدَ أَهْلَ الْبَدْعِ وَالضَّلَالِ لَا يَسْتَطِيعُونَ عَلَى فَرِيقٍ مِنَ
 الْمُتَسَيِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ وَالْهَدْيِ إِلَّا بِمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ نَوْعٍ بِدْعَةٍ أُخْرَى وَضَلَّالٍ آخَرَ لَا سِيَّمَا إِذَا وَافَقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ
 فَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِمَا وَافَقُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَطْلُبُونَ لَوَازِمَهُ حَتَّى يُخْرِجُوهُمْ مِنَ الدِّينِ إِنْ اسْتَطَاعُوا خُرُوجَ
 الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ كَمَا فَعَلَتْ الْقَرَامِطَةُ الْبَاطِنِيَّةُ وَالْفَلَّاسِيفَةُ وَأَمْثَالُهُمْ بِفَرِيقٍ مِنْ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ . وَ" الْمُعْتَزَلَةُ "
 اسْتَطَاعُوا عَلَى " الْأَشْعَرِيَّةِ " وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمُتَشَبِّهِينَ لِلصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ بِمَا وَافَقُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ نَفْيِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِاللَّهِ
 تَعَالَى فَتَقَضُّوا بِذَلِكَ أَصْلَهُمُ الَّذِي اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّ الْكَلَامَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْأُمُورِ إِذَا
 خُلِقَ بِمَحَلٍّ عَادَ حُكْمُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ . وَاسْتَطَاعُوا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي " مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ " وَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَنْ جَعَلُوا
 نَفْسَ مَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْقِيَحِ فِعْلًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ دُونَ الْعَبْدِ ثُمَّ أَتَبَوْا كَسْبًا لَا حَقِيقَةً لَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعْمَلُ مِنْ حَيْثُ
 تَعَلَّقَ الْقُدْرَةُ بِالْمَقْلُوبِ فَرَقَ بَيْنَ الْكَسْبِ وَالْفِعْلِ ؛ وَلِهَذَا صَارَ النَّاسُ يَسْخَرُونَ بِمَنْ قَالَ هَذَا وَيَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ
 لَا حَقِيقَةَ لَهَا : طَفَرَةُ النِّظَامِ وَأَحْوَالُ أَبِي هَاشِمٍ وَكَسْبُ الْأَشْعَرِيِّ . وَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَنْ فَسَّرُوا تَأْثِيرَ الْقُدْرَةِ فِي
 الْمَقْلُوبِ بِمَجَرَّدِ الْإِقْتِرَانِ الْعَادِيِّ وَالْإِقْتِرَانِ الْعَادِيِّ يَقَعُ بَيْنَ كُلِّ مَلْزُومٍ وَلَازِمِهِ وَيَقَعُ بَيْنَ الْمَقْلُوبِ وَالْقُدْرَةِ فَلَيْسَ
 جَعْلُ هَذَا مُؤَثِّرًا فِي هَذَا بِأَوَّلَى مِنَ الْعَكْسِ وَيَقَعُ بَيْنَ الْمَعْلُولِ وَعَلَيْهِ الْمُتَفَصِّلَةِ عَنْهُ مَعَ أَنَّ قُدْرَةَ الْعِبَادِ عِنْدَهُ لَا
 تَتَجَاوَزُ مَحَلَّهَا . وَلِهَذَا فَرَّ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ إِلَى قَوْلِ وَأَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي إِلَى قَوْلِ وَأَبُو الْمَعَالِي الْجَوِينِي إِلَى
 قَوْلِ ؛ لَمَّا رَأَوْا مَا فِي هَذَا الْقَوْلِ مِنَ التَّنَاقُضِ . وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ . وَمِنْ
 التُّكْتِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ لَفْظَ " التَّأْيِيرِ " وَلَفْظَ " الْجَبْرِ " وَلَفْظَ " الرِّزْقِ " وَنَحْوُ ذَلِكَ أَلْفَاظُ جُمْلَةٍ فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ
 : هَلْ قُدْرَةُ الْعَبْدِ مُؤَثِّرَةٌ فِي مَقْدُورِهَا أَمْ لَا ؟ قِيلَ لَهُ أَوَّلًا : لَفْظُ الْقُدْرَةِ يَتَنَاوَلُ نَوْعَيْنِ : (أَحَدُهُمَا الْقُدْرَةُ الشَّرْعِيَّةُ
 الْمُصَحَّحَةُ لِلْفِعْلِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .) وَالثَّانِي الْقُدْرَةُ الْقَدَرِيَّةُ الْمُوجِبَةُ لِلْفِعْلِ الَّتِي هِيَ مُقَارَنَةٌ لِلْمَقْلُوبِ لَا
 يَتَأَخَّرُ عَنْهَا . فَالْأَوَّلَى هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } فَإِنْ هَذِهِ
 الْإِسْطَاعَةُ لَوْ كَانَتْ هِيَ الْمُقَارَنَةُ لِلْفِعْلِ لَمْ يَجِبْ حِجُّ الْبَيْتِ إِلَّا عَلَى مَنْ حَجَّ فَلَا يَكُونُ مَنْ لَمْ يَحْجِجْ عَاصِيًا بِتَرْكِ
 الْحَجِّ سَوَاءً كَانَ لَهُ زَادٌ وَرَاحِلَةٌ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْحَجِّ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَكَذَلِكَ { قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ صَلَّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ } وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا
 اسْتَطَعْتُمْ } وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ } لَوْ أَرَادَ اسْطِيعَاةً لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ
 الْفِعْلِ لَكَانَ قَدْ قَالَ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا تَفْعَلُونَ فَلَا يَكُونُ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا عَاصِيًا لَهُ وَهَذِهِ الْإِسْطَاعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي
 كُتُبِ الْفِقْهِ وَلِسَانِ الْعُمُومِ .

وَأَهْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ إِذَا فَعَلُوا حَسَنَةً شَهِلُوا إِنْ عَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهَا، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَهُمْ مُسْلِمِينَ وَجَعَلَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَالْهَمَّهُمُ التَّقْوَى، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، فَزَالَ عَنْهُمْ بِشُهُودِ الْقَدْرِ الْعَجَبُ وَالْمَنْ وَالَّذِي، وَإِذَا فَعَلُوا سَيِّئَةً اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَتَابُوا إِلَيْهِ مِنْهَا؛ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بُشَيْرِ بْنِ كَعْبٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ». قَالَ « وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » (١)

(١) - صحيح البخارى (٦٣٠٦)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ١٨ / ص ٦٠)

وَلَهُ (وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ) سَقَطَ الْوَاوُ فِي رَوَايَةِ النَّسَائِيِّ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يُرِيدُ أَنَا عَلَى مَا عَهَدْتُكَ عَلَيْهِ وَوَعَدْتُكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِكَ وَإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ لَكَ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ ذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ أَنَا مُقِيمٌ عَلَى مَا عَهَدْتُ إِلَيَّ مِنْ أَمْرِكَ وَمُتَمَسِّكٌ بِهِ وَمُتَجَنِّزٌ وَعَدِكَ فِي الْمَوْثُوبَةِ وَالْأَجْرِ. وَاشْتِرَاطُ الْإِسْطِطَاعَةِ فِي ذَلِكَ مَعْنَاهُ الْإِعْتِرَافُ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ عَنْ كُنْهِ الْوَاجِبِ مِنْ حَقِّهِ تَعَالَى. وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: قَوْلُهُ "وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ" يُرِيدُ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ حَيْثُ أَخْرَجَهُمْ أَمْثَالَ الذَّرِّ وَأَشْهَلَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَقْرُوا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَأَدْعُوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ. وَبِالْوَعْدِ مَا قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ "إِنَّ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَأَدَّى مَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ". قُلْتُ: وَقَوْلُهُ وَأَدَّى مَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ زِيَادَةٌ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْمُرَادَ بِالْعَهْدِ الْمِيثَاقَ الْمَأْخُوذَ فِي عَالَمِ الذَّرِّ وَهُوَ التَّوْحِيدُ خَاصَّةً، فَالْوَعْدُ هُوَ إِدْخَالُ مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ.

قَالَ وَفِي قَوْلِهِ "مَا اسْتَطَعْتُ"

إِعْلَامٌ لِأَمْنِهِ أَنْ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِثْبَانِ بِجَمِيعِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلَّهِ. وَلَا الْوَفَاءُ بِكَمَالِ الطَّاعَاتِ وَالشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ، فَفَرَّقَ اللَّهُ بَعَادَهُ فَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَسْعَهُمْ. وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِالْعَهْدِ وَالْوَعْدِ مَا فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ، كَذَا قَالَ: وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الْعَهْدِ وَالْوَعْدِ أَوْضَحُ.

قَوْلُهُ (أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ) سَقَطَ لَفْظُ لَكَ مِنْ رَوَايَةِ النَّسَائِيِّ، وَأَبُوءُ بِالْمُوحَدَةِ وَالْهَمَزُ مَمْدُودٌ مَعْنَاهُ اعْتَرَفَ. وَوَقَعَ فِي رَوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ رِبْعَةَ عَنْ شَدَّادٍ "وَأَعْتَرَفَ بِذُنُوبِي" وَأَصْلُهُ الْبَوَاءُ وَمَعْنَاهُ اللَّزُومُ، وَمِنْهُ بَوَاءُ اللَّهِ مَنْزِلًا إِذَا أَسْكَنَهُ فَكَأَنَّهُ أَلْزَمَهُ بِهِ.

قَوْلُهُ (وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي) أَيُّ اعْتَرَفَ أَيْضًا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَحْمِلْهُ بِرَغْمِي لَا اسْتَطِيعَ صَرْفُهُ عَنِّي. وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: اعْتَرَفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَقْيِدْهُ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِالْقَصْرِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهْمُ بِأَدَاءِ شُكْرِهَا، ثُمَّ بَالِغَ فَعْدِهِ ذَنْبًا مَبَالِغَةً فِي التَّقْصِيرِ وَهَضْمِ النَّفْسِ. قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ "أَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي" اعْتَرَفَ بِوُقُوعِ الذَّنْبِ مُطْلَقًا لِيَصِحَّ الْإِسْتِغْفَارُ مِنْهُ، لَا أَنَّهُ عَدَّ مَا قَصَرَ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ ذَنْبًا.

قَوْلُهُ (فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ) يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ غُفِرَ لَهُ، وَقَدْ وَقَعَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ الْإِلْفِكَ الطَّوِيلِ فِيهِ "الْعَبْدُ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ".

قوله (مَنْ قَالَهَا مُوقِنًا بِهَا) أَيُّ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ مُصَدِّقًا بِغَايِهَا ، وَقَالَ الدَّوْدِيُّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ وَمِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْوُضُوءِ وَغَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ يُشَرُّ بِالشَّوَابِ ثُمَّ يُشَرُّ بِأَفْضَلٍ مِنْهُ فَتَبَتِ الْأَوَّلُ وَمَا زِيدَ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ يُشَرُّ بِالشَّيْءِ ثُمَّ يُشَرُّ بِأَفْضَلٍ مِنْهُ مَعَ ارْتِفَاعِ الْأَوَّلِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَاسِخًا وَأَنْ يَكُونَ هَذَا فِيمَنْ قَالَهَا وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَغْفِرُ لَهُ بِهِ ذُنُوبَهُ ، أَوْ يَكُونَ مَا فَعَلَهُ مِنَ الْوُضُوءِ وَغَيْرِهِ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ بِوَجْهِ مَا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . كَذَا حَكَاهُ ابْنُ التَّيْنِ عَنْهُ ، وَبَعْضُهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَأْمُلٍ .

قوله (وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ) فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ " فَإِنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ " وَفِي رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ " لَا يَقُولُهَا أَحَدُكُمْ حِينَ يُمْسِي فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ، أَوْ حِينَ يُصْبِحُ فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ " .
قوله (فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ " دَخَلَ الْجَنَّةَ " وَفِي رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ " إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ " قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ : جَمَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ بَدِيعِ الْمَعَانِي وَحُسْنِ الْأَلْفَاظِ مَا يَحِقُّ لَهُ أَنَّهُ يُسَمَّى سَيِّدَ الْإِسْتِغْفَارِ ، فَفِيهِ الْإِفْرَارُ لِلَّهِ وَخُذَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ ، وَالِاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ ، وَالِإِفْرَارُ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ ، وَالرَّجَاءُ بِمَا وَعَدَهُ بِهِ ، وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِضَافَةُ النِّعَمَاءِ إِلَى مُوجِدِهَا ، وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَرَغْبَتُهُ فِي الْمَغْفِرَةِ ، وَاعْتِرَافُهُ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا هُوَ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ الْإِشَارَةُ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ ، فَإِنَّ تَكَالِيفَ الشَّرِيعَةِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا الْقَدَرُ الَّذِي يُكْنَى عَنْهُ بِالْحَقِيقَةِ . فَلَوْ اتَّفَقَ أَنَّ الْعَبْدَ خَالَفَ حَتَّى يَجْرِيَ عَلَيْهِ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَقَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ بَيَانِ الْمُخَالَفَةِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ : إِمَّا الْعُقُوبَةُ بِمُقْتَضَى الْعَدْلِ أَوْ الْعَفْوُ بِمُقْتَضَى الْفَضْلِ ، انْتَهَى مُلْخَصًا .
أَيْضًا : مِنْ شُرُوطِ الْإِسْتِغْفَارِ صِحَّةُ التَّيَّةِ ، وَالتَّوَجُّهُ وَالْأَدَبُ ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا حَصَلَ الشُّرُوطُ وَاسْتَغْفَرَ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ الْوَارِدِ وَاسْتَغْفَرَ آخَرَ بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَارِدِ لَكِنْ أَخْلَ بِالشُّرُوطِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ اللَّفْظَ الْمَذْكُورَ إِنَّمَا يَكُونُ سَيِّدَ الْإِسْتِغْفَارِ إِذَا جَمَعَ الشُّرُوطَ الْمَذْكُورَةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْلُوْنِي أَهْدِيكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَانِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١)

(١) - صحيح مسلم (٦٧٣٧)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٣٨٤)

قوله تعالى: { إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي } قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَعْنَاهُ تَقَدَّسَتْ عَنْهُ وَتَعَالَيْتَ ، وَالظُّلْمَ مُسْتَحِيلَ فِي حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . كَيْفَ يُجَاوِزُ سُبْحَانَهُ حَدًّا وَآيَسَ فَوْقَهُ مَنْ يُطِيعُهُ ؟ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ فِي غَيْرِ مُلْكٍ ، وَالْعَالَمِ كُلِّهِ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ؟ وَأَصْلُ التَّحْرِيمِ فِي اللُّغَةِ الْمَنْعُ ، فَسَمِيَ تَقَدُّسُهُ عَنِ الظُّلْمِ تَحْرِيمًا لِمُشَابَهَتِهِ لِلْمَنْعِ فِي أَصْلِ عَدَمِ الشَّيْءِ .

قوله تعالى: { وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَمُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا } هُوَ بَفَتْحِ التَّاءِ أَيُّ لَا تَتَظَالَمُوا ، وَالْمُرَادُ لَا يَظْلِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَهَذَا تَوْكِيدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا عِبَادِي وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَمُحَرَّمًا } وَزِيَادَةٌ تَغْلِيظُ فِي تَحْرِيمِهِ .

قوله تعالى: { كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ } قَالَ الْمَازَرِيُّ : ظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُمْ خَلِقُوا عَلَى الضَّلَالِ إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ " كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " قَالَ : فَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ وَصْفُهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ تَرَكُوا وَمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنْ إِثَارِ الشَّهَوَاتِ وَالرَّاحَةِ وَإِهْمَالِ النَّظَرِ لَصَلُّوا . وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ أَصْحَابِنَا وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْمُهْتَدِي هُوَ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ ، وَبَهْدَى اللَّهِ اهْتَدَى ، وَإِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا أَرَادَ هِدَايَةَ بَعْضِ عِبَادِهِ وَهُمْ الْمُهْتَدُونَ ، وَلَمْ يُرِدْ هِدَايَةَ الْآخَرِينَ ، وَلَوْ أَرَادَهَا لَاهْتَدَوْا ، خِلَافًا لِلْمُعْتَرِ لِي فِي قَوْلِهِمُ الْقَاسِدُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ هِدَايَةَ الْجَمِيعِ . جَلَّ اللَّهُ أَنْ يُرِيدَ مَا لَا يَقَعُ ، أَوْ يَقَعُ مَا لَا يُرِيدُ .

قوله تعالى: { مَا نَقُصُّ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ } الْمَخِيطُ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْيَاءِ هُوَ الْإِبْرَةِ : قَالَ الْعُلَمَاءُ : هَذَا تَقْرِيبٌ إِلَى الْإِفْهَامِ ، وَمَعْنَاهُ لَا يَنْقُصُ شَيْئًا أَصْلًا كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : " لَا يَغِيصُهَا نَفَقَةٌ " أَيُّ لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ نَقْصٌ ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النِّقْصُ الْمَحْدُودُ الْفَانِي ، وَعَطَاءُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ ، وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَنْطَرِّقُ إِلَيْهِمَا نَقْصٌ ، فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْمَخِيطِ فِي الْبَحْرِ ، لِأَنَّهُ غَايَةُ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقَلَّةِ ، وَالْمَقْصُودُ التَّقْرِيبُ إِلَى الْإِفْهَامِ بِمَا شَاهَدُوهُ ؛ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرْتَبَاتِ عِيَانًا ، وَأَكْبَرَهَا ، وَالْإِبْرَةِ مِنْ أَصْغَرِ الْمَوْجُودَاتِ ، مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَةٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَاءٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وفي فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين - (ج ١ / ص ٨٢)

١ قوله: "عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه" هذا من الأحاديث القدسية، وهذه العبارة من العبارات التي يُعبرُ بها عن الحديث القدسي، ومثلها عبارة: "قال الله عز وجل فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم"، والحديث القدسي هو ما يسنده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه تعالى ويضيفه إليه، ويشتمل على ضمائر التكلم التي تعود إليه سبحانه وتعالى.

٢ قوله: "يا عبادي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا" ، الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وقد حرّمه الله على نفسه ومنعها منه، مع قدرته عليه وعلى كل شيء، فلا يقع منه الظلم أبداً؛ لكمال عدله سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} ، وقال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ، وقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} ، وقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} ، وقال: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} ، أي: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته، أو تحميله سيئات غيره، ونفي الظلم عن الله عز وجل في هذه الآيات متضمنٌ لإثبات كمال عدله سبحانه، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٦/٢): "وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلم لا يقتضي وصفه بالظلم سبحانه وتعالى، كما أنه لا يُوصف بسائر القبايح التي يفعلها العباد، وهي خلقه وتقديره، فإنه لا يُوصف إلا بأفعاله، لا يوصف بأفعال عبادِهِ، فإن أفعال عبادِهِ مخلوقاته ومفعولاته، وهو لا يوصف بشيء منها، إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله، والله

أعلم".

وقد حرم الله تعالى على عباده الظلم، فلا يظلم أحد نفسه ولا يظلم غيره.

٣ قوله: "يا عبادي! كلُّكم ضالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فاستهدوني أَهْدِكُمْ"، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٣٩٠ ٤٠): "قد ظنَّ بعضهم أنَّه معارض لحديث عياض بن حمار عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يقول الله عز وجل: خلقت عبادي حُفَاءً وفي رواية: مسلمين فاجتالهم الشياطين)، وليس كذلك، فإنَّ الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره، والتَّهْيِئُ لذلك والاستعداد له بالقوَّة، لكن لا بدَّ للعبد من تعليم الإسلام بالفعل، فإنَّه قبل التعليم جاهلٌ لا يعلم شيئاً، كما قال عز وجل: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً}، وقال لبيُّه صَلَّى الله عليه وسلم: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}، والمراد وَجَدَكَ غيرَ عالمٍ بما علَّمَكَ من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}، فالإنسان يُولَدُ مفطوراً على قبول الحقِّ، فإنَّ هداية الله سبَّبَ له مَنْ يَعْلَمُهُ الهدى، فصار مهتدياً بالفعل، بعد أن كان مهتدياً بالقوَّة، وإنَّ خذله الله قَبَضَ له مَنْ يَعْلَمُهُ ما يغيِّرُ فطرته، كما قال صَلَّى الله عليه وسلم: (كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرَّانه ويمجَّسانه)".

وفي هذا الحديث الأمر بسؤال الله الهداية، وهي تشمل هداية الدلالة والإرشاد وهداية التوفيق والتسديد، وحاجة العباد إلى الهداية أشدُّ من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وقد جاء في سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، فهم يسألون الله عز وجل أن يُثَبِّتَهُمْ على الهداية الحاصلة، وأن يزيدهم هدى على هدى.

٤ قوله: "يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فاستطعموني أَطْعَمَكُمْ، يا عبادي! كلُّكم عارٌ إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فاستكسوني أَكْسُكُم"، في هاتين الجملتين بيان شدة افتقار العباد إلى ربِّهم، وحاجتهم إليه في تحصيل أرزاقهم وكسوتهم، وأنَّ عليهم أن يسألوه سبحانه وتعالى طعامهم وكسوتهم.

٥ قوله: "يا عبادي! إنَّكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرَ لكم"، أوجب الله عز وجل على العباد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات، والعباد يحصل منهم التقصير في أداء ما وجب عليهم، والوقوع في شيء ممَّا نُهِوا عنه، وطريق السلامة من ذلك رجوعهم إلى الله، وتوبتهم من ذنوبهم، وسؤال الله عز وجل أن يغفرها لهم، وفي الحديث: "كلُّ بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التَّوَّابون" حديث حسن، أخرجه ابن ماجه (٤٢٥١) وغيره.

٦ قوله: "يا عبادي! إنَّكم لن تَبْلُغُوا ضُرِّي فتضروني، ولن تَبْلُغُوا نَفْعِي فتستفيعوني"، قال ابن رجب (٢/٤٣): "يعني أنَّ العباد لا يقدرون أن يوصلوا نفعاً ولا ضرراً؛ فإنَّ الله تعالى في نفسه غنيٌّ حميد، لا حاجة له بطاعات العباد، ولا يعود نفعها إليه، وإنَّما هم ينتفعون بها، ولا يتضرَّر بمعاصيهم، وإنَّما هم يتضرَّرون بها، قال الله تعالى: {وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً}، وقال: {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً}."

٧ قوله: "يا عبادي! لو أنَّ أَوْلَكُمْ وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي! لو أنَّ أَوْلَكُمْ وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً"، في هاتين الجملتين بيان كمال ملك الله عز وجل، وكمال غناه عن خلقه، وأنَّ العباد لو كانوا كلُّهم على أتقى ما يكون أو أفجر ما يكون، لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولم ينقص شيئاً، وأنَّ تقوى كلِّ إنسان إنَّما تكون نافعةً لذلك المتقي، وفجور كلِّ فاجر إنَّما يكون ضرراً عليه.

٨ قوله: "يا عبادي! لو أنَّ أَوْلَكُمْ وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحد

مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر" ، هذا يدل على كمال غنى الله سبحانه وتعالى وافتقار عباده إليه، وأن الجن والإنس لو اجتمعوا أولهم وآخرهم، وسأل كل ما يريد، وحقق الله لهم ذلك، لم ينقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر، والمعنى أنه لا يحصل نقص أصلاً؛ لأن ما يعلق بالمخيط وهو الإبرة من الماء لا يُعتبر شيئاً، لا في الوزن ولا في رأي العين.

٩ قوله: "يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"، الناس في هذه الحياة مكلفون بامتنال الأوامر واجتناب النواهي، وكل ما يحصل منهم من عمل خيراً أو شراً فهو مُحصى عليهم، وسيجد كل أمامه ما قدم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال الله عز وجل: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ، فمن قدم خيراً وجد ثوابه أمامه، والثواب من فضل الله على العبد، وفعل الخير في الدنيا هو من توفيق الله عز وجل للعبد، فله الفضل أولاً وآخر، ومن وجد أمامه غير الخير فأنما أتى العبد من قبل نفسه ومعصيته لربه وجنابته على نفسه، فإذا وجد أمامه العذاب فلا يلومن إلا نفسه.

١٠ مما يُستفاد من الحديث:

١ أن من الأحاديث ما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه يشتمل على ضمائر التكلم ترجع إلى الله، ويُقال له الحديث القدسي.

٢ تحريم الله الظلم على نفسه وتنزيهه عنه، مع إثبات كمال ضده وهو العدل.

٣ تحريم الله الظلم على العباد لأنفسهم ولغيرهم.

٤ شدة حاجة العباد إلى سؤال ربهم الهدى والطعام والكسوة وغير ذلك من أمور دينهم ودنياهم.

٥ أن الله يحب من عباده أن يسألوه كل ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين.

٦ كمال ملك الله عز وجل، وأن العباد لا يبلغون نفعه وضره، بل يعود نفعهم وضرهم إلى أنفسهم.

٧ أن العباد لا يسلمون من الخطأ، وأن عليهم التوبة من ذلك والاستغفار.

٨ أن التقوى والهجور يكونان في القلوب؛ لقوله: "على ألقى قلب رجل"، و"على أفجر قلب رجل".

٩ أن ملك الله لا تزيده طاعة المطيعين، ولا تنقصه معاصي العاصين.

١٠ كمال غنى الله وكمال ملكه، وأنه لو أعطى عباده أولهم وآخرهم كل ما سألوه لم ينقص من ملك الله عز وجل وخزائنه شيئاً.

١١ حث العباد على الطاعة، وتحذيرهم من المعصية، وأن كل ذلك محصى عليهم.

١٢ أن من وفقه الله لطريق الخير ظفر بسعادة الدنيا والآخرة، والفضل لله للتوفيق لسلوك سبيل الهدى، ولحصول الثواب على ذلك.

١٣ أن من فرط وأساء العمل ظفر بالخسران، وندم حيث لا ينفع الندم.

فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا يَجِدُهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَرًّا فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَكَلِّمُ بِلِسَانِ " الْحَقِيقَةِ " وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِخَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الدِّيْنِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ ، وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِيقَةِ الدِّيْنِيَّةِ مُوَافِقًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَلْسِنِ رُسُلِهِ وَبَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِوَجْدِهِ وَذَوْقِهِ غَيْرَ مُعْتَبِرٍ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

كَمَا أَنَّ لَفْظَ " الشَّرِيعَةِ " يَتَكَلَّمُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا الشَّرْعَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخُلُقِ الْخُرُوجُ عَنْهُ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهُ إِلَّا كَافِرٌ وَبَيْنَ الشَّرْعِ الَّذِي هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ ، فَالْحَاكِمُ تَارَةً يُصِيبُ وَتَارَةً يُخْطِئُ . هَذَا إِذَا كَانَ عَالِمًا عَادِلًا ، وَإِلَّا فَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ رَجُلٌ قَضَى بغيرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ فَذَكَ فِي النَّارِ وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقُ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ » (١).

وَأَفْضَلُ الْقُضَاةِ الْعَالِمِينَ الْعَادِلِينَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا » (٢).

(١) - سنن الترمذی (١٣٧٢) صحيح

(٢) - البخاري (٢٧٢١) ومسلم (٤٥٧٠)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٦ / ص ١٤٠)

مَعْنَاهُ التَّنْبِيهِ عَلَى حَالَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الظَّاهِرِ مَعَ إِمْكَانِ كَوْنِهِ فِي الْبَاطِنِ خِلَافَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا كُلَّفَ الْحُكْمَ بِالظَّاهِرِ ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) وَفِي حَدِيثِ الْمُتَنَاعَيْنِ : " لَوْ لَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ " وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأُطْلِعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْنِ فَحُكْمَ بَيِّنٍ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةِ أَوْ يَمِينٍ ، لَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ أَجْرَى لَهُ حُكْمُهُمْ فِي عَدَمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ ، لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ حُكْمَهُ ، فَأَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ ؛ لِيَصَحَّ الْإِفْتِدَاءُ بِهِ ، وَتَطْيِبَ نَفُوسُ الْعِبَادِ لِلْإِتْقَانِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الْحَدِيثُ ظَاهِرٌ أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الظَّاهِرِ مُخَالَفَ لِلْبَاطِنِ ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْأُصُولِيُّونَ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُقَرَّرُ عَلَى خَطَأٍ فِي الْأَحْكَامِ ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَقَاعِدَةِ الْأُصُولِيِّينَ ؛ لِأَنَّ مُرَادَ الْأُصُولِيِّينَ فِيمَا حَكَمَ فِيهِ بِاجْتِهَادِهِ ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ خَطَأٌ ؟ فِيهِ خِلَافٌ ، الْأَكْثَرُونَ عَلَى جَوَازِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ ، فَالَّذِينَ جَوَّزُوهُ قَالُوا : لَا يُقَرَّرُ عَلَى إِمْضَائِهِ ، بَلْ يُعْلِمُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَيَتَدَارَكُهُ ، وَأَمَّا الَّذِي فِي الْحَدِيثِ فَمَعْنَاهُ : إِذَا حَكَمَ بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ كَالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ فَهَذَا إِذَا وَقَعَ مِنْهُ مَا يُخَالَفُ ظَاهِرَهُ بَاطِنُهُ لَا يُسَمَّى الْحُكْمَ خَطَأً ، بَلْ الْحُكْمُ صَحِيحٌ بِنَاءً عَلَى مَا اسْتَقَرَّ بِهِ التَّكْلِيفُ ، وَهُوَ وَجُوبُ الْعَمَلِ بِشَاهِدَيْنِ مَثَلًا ، فَإِنْ كَانَا شَاهِدَيْنِ زُورَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَالْتَّقْصِيرُ مِنْهُمَا وَمَنْ سَاعَدَهُمَا ، وَأَمَّا الْحُكْمُ فَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا عَيْبَ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ بِخِلَافِ مَا إِذَا أَخْطَأَ فِي الْاجْتِهَادِ ، فَإِنَّ هَذَا الَّذِي حَكَمَ بِهِ لَيْسَ هُوَ حُكْمُ الشَّرْعِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ : دَلَالَةٌ لِمَنْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَفُقَهَاءِ الْمَنَاصِرِ مِنَ الصَّحَابَةِ

وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُجِلُّ الْبَاطِنَ ، وَلَا يُجِلُّ حَرَامًا ، فَإِذَا شَهِدَ شَاهِدًا زُورَ لِإِنْسَانٍ بِمَالٍ ، فَحَكَمَ بِهِ الْحَاكِمُ ؛ لَمْ يُجِلِّ لِلْمُحْكُومِ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ ، وَلَوْ شَهِدَا عَلَيْهِ بِقَتْلِ لَمْ يُجِلِّ لِلْوَلِيِّ قَتْلَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمَا ، وَإِنْ شَهِدَا بِالزُّورِ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَمْ يُجِلِّ لِمَنْ عِلْمَ بِكَذِبِهِمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ حُكْمِ الْقَاضِي بِالطَّلَاقِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : يُجِلُّ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْفُرُوجَ دُونَ الْأَمْوَالِ ، فَقَالَ : يُجِلُّ نِكَاحَ الْمَذْكُورَةِ ، وَهَذَا مُخَالَفٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَلَا جَمَاعَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَمُخَالَفٌ لِقَاعِدَةٍ وَافِقٌ هُوَ وَغَيْرُهُ عَلَيْهَا ، وَهِيَ أَنَّ الْأَبْضَاعَ أَوْلَى بِالْإِحْيَاءِ مِنَ الْأَمْوَالِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) مَعْنَاهُ : إِنْ قَضَيْتَ لَهُ بِظَاهِرٍ يُخَالَفُ الْبَاطِنَ فَهُوَ حَرَامٌ يؤولُ بِهِ إِلَى النَّارِ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا) لَيْسَ مَعْنَاهُ التَّخْيِيرُ ، بَلْ هُوَ التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } وَكَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } .

وفي شرح ابن بطلال - (ج ١٥ / ص ٧٢)

اختلف العلماء في هذه المسألة، فذهب جمهور العلماء إلى أنه إن استحلّف المدعى عليه، ثم أقام المدعى البينة قبلت بينته وقضى له بما على ما ذكر البخارى، عن شريح وطاوس والنخعي، وهو قول الثوري والكوفيين، والليث والشافعي، وأحمد وإسحاق، وقال مالك في المدونة: إن استحلّفه وهو لا يعلم بالبينة ثم علمها قضى له بها، وإن استحلّفه ورضى بيمينه تاركاً لبينته وهي حاضرة أو غائبة فلا حق له إذا شهدت له. قاله مطرف، وابن الماجشون. وقال ابن أبي ليلى: لا قبل بينته بعد استحلاف المدعى عليه. وبه قال أبو عبيد وأهل الظاهر.

قال ابن المنذر: واحتج لابن أبي ليلى بعض الناس فقال: لما حكم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالبينة على المدعى واليمين على المنكر كان المدعى لا يستحق المال بدعواه والمنكر لا يبرأ من حق المدعى بمجرد، فإذا أقام المدعى البينة أخذ المال، وإذا حلف المدعى عليه برئ، وإذا برئ فلا سبيل إليه.

واحتج أهل المقالة الأولى بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار » فدل هذا أن يمين المدعى عليه لا يسقط الحق، وقطعه لا يوجب له ملكه، فهو كالتقاطع الطريق لا يملك ما قطعه، ألا ترى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نهاه عن أخذه بقوله: « فلا يأخذه » .

وقد ذكر ابن حبيب أن عمر بن الخطاب تخاصم إليه يهودى ورجل من المسلمين، فقال عمر: بيتك. فقال: ما تحضرني اليوم. فأحلف عمر المدعى عليه، ثم أتى اليهودى بعد ذلك بالبينة فقضى له عمر بينته. وقال: البينة العادلة خير من اليمين الفاجرة. وروى أبو زيد عن ابن الماجشون في اليمانية أنه يقضى له بالبينة، وإن كان عالماً بما على قول عمر بن الخطاب.

واختلف عن مالك، إذا أقام الطالب شاهداً واحداً، وأبى أن يحلف معه فحلف المطلوب، ثم وجد الطالب شاهداً آخر هل يضيفه إلى الشاهد الأول أم لا؟ فروى ابن الماجشون عن مالك أنه يضيفه إلى الأول، وروى ابن كنانة عن مالك أنه لا يضيفه إلى الشاهد الأول، ورواه يحيى، عن ابن القاسم.

. فَقَدْ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى بِشَيْءٍ مِمَّا سَمِعَهُ وَكَانَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ لَمْ يَجْزُ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قَضَى بِهِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ . وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْلَاكِ الْمُطْلَقَةِ إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ بِمَا ظَنَّهُ حُجَّةً شَرْعِيَّةً كَالْبَيِّنَةِ وَالْإِفْرَارِ ، وَكَانَ الْبَاطِنُ بِخِلَافِ الظَّاهِرِ لَمْ يَجْزُ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قَضَى بِهِ لَهُ بِالِاتِّهَامِ . وَإِنْ حَكَمَ فِي الْعُقُودِ وَالْفُسُوحِ بِمِثْلِ ذَلِكَ ؛ فَكَثُرَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُ : إِنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ وَهُوَ مَذْهَبُ

مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَفَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ التَّوَعُّينِ .
فَلَفْظُ " الشَّرْعِ وَالشَّرِيعَةِ " إِذَا أُريدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ، وَمَنْ
ظَنَّ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ مُتَابِعَةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَلَمْ يَتَابِعْهُ بَاطِنًا
وَظَاهِرًا فَهُوَ كَافِرٌ . وَمَنْ احْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ كَانَ غَالِطًا مِنْ وَجْهَيْنِ :

" أَحَدُهُمَا " أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ وَلَا كَانَ عَلَى الْخَضِرِ اتِّبَاعُهُ ؛ فَإِنْ مُوسَى كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ
مِنَ الْخَضِرِ : كَأَبِرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، فَكَيْفَ بِالْخَضِرِ سَوَاءٌ كَانَ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا ؛ وَلِهَذَا قَالَ
الْخَضِرُ لِمُوسَى : " يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ
(١) " . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَلَّغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا .

" الثَّانِي " أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ لَمْ يَكُنْ مُخَالَفًا لِشَّرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمُوسَى لَمْ يَكُنْ عِلْمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُبَيِّحُ
ذَلِكَ، فَلَمَّا بَيَّنَّهَا لَهُ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَرَقَ السِّفِينَةِ ثُمَّ تَرْقِيعُهَا لِمَصْلَحَةِ أَهْلِهَا خَوْفًا مِنَ الظَّالِمِ أَنْ يَأْخُذَهَا
إِحْسَانُ إِلَيْهِمْ وَذَلِكَ جَائِزٌ وَقَتْلُ الصَّائِلِ جَائِزٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا وَمَنْ كَانَ تَكْفِيرُهُ لِلْإِيوَةِ لَا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِقَتْلِهِ جَائِزٌ قَتْلُهُ .
قَالَ : ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِنَجْدَةِ الْحُرُورِيِّ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَتْلِ الْعُلَمَاءِ - كَتَبَتْ تَسْأَلُنِي عَنْ قَتْلِ الْوُلَدَانِ وَإِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَقْتُلْهُمْ وَأَنْتَ فَلَا تَقْتُلْهُمْ إِلَّا أَنْ تَعْلَمَ مِنْهُمْ مَا عِلْمَ صَاحِبِ مُوسَى مِنَ الْغُلَامِ
الَّذِي قَتَلَهُ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢) . وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْيَتِيمِ بِلَا عَوَضٍ وَالصَّبْرُ عَلَى الْجُوعِ، فَهَذَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ فَلَمْ
يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مُخَالَفًا لَشَرْعِ اللَّهِ .

وَأَمَّا إِذَا أُريدَ بِالشَّرْعِ حُكْمُ الْحَاكِمِ فَقَدْ يَكُونُ ظَالِمًا وَقَدْ يَكُونُ عَادِلًا وَقَدْ يَكُونُ صَوَابًا وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً، وَقَدْ يُرَادُ
بِالشَّرْعِ قَوْلُ أُمَّةٍ أَلْفَقَهُ : كَأَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيَّ وَمَالِكَ بْنِ أَنَسٍ وَالْأَوْزَاعِيَّ وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيَّ وَأَحْمَدَ
وَإِسْحَاقَ وَدَاوُدَ وَغَيْرِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ أَقْوَالُهُمْ يُحْتَجُّ لَهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَإِذَا قُلِدَّ غَيْرُهُ حَيْثُ يَجُوزُ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا
أَيَّ لَيْسَ اتِّبَاعُ أَحَدِهِمْ وَاجِبًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ ، كَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَحْرُمُ تَقْلِيدُ أَحَدِهِمْ كَمَا
يَحْرُمُ اتِّبَاعُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ (٣) .

(١) - البخاري (١٢٢)

(٢) - صحيح مسلم (٤٧٨٩)

(٣) - وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ١٣ / ص ١٥٩)

تَقْلِيدُ الْمُجْتَهِدِ :

١٠ - التَّقْلِيدُ قَبُولُ قَوْلِ الْغَيْرِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ ، كَأَخْذِ الْعَامِّيِّ مِنَ الْمُجْتَهِدِ فَالرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لَيْسَ تَقْلِيدًا ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الْإِجْمَاعِ لَيْسَ تَقْلِيدًا كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ رُجُوعٌ إِلَى مَا هُوَ الْحُجَّةُ فِي نَفْسِهِ (١)

حُكْمُ التَّقْلِيدِ :

١١ - أَهْلُ التَّقْلِيدِ لَيْسُوا طَبَقَاتِ الْفُقَهَاءِ ، فَالْمُقَلِّدُ لَيْسَ فَقِيهًا ، فَإِنَّ الْفَقْهَ مَمْلُوحٌ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّقْلِيدُ مَذْمُومٌ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ نَوْعٌ مِنَ التَّقْصِيرِ (٢) .

أ - حُكْمُ التَّقْلِيدِ فِي الْعَقَائِدِ :

١٢ - التَّقْلِيدُ لَا يَجُوزُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْأُصُولِيِّينَ فِي الْعَقَائِدِ ، كَوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَوُجُوبِ إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ ، وَمَعْرِفَةِ صِدْقِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنَ النَّظَرِ الصَّحِيحِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْعِلْمِ وَإِلَى طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ ، وَمَعْرِفَةِ أدْلَةٍ ذَلِكَ . وَمِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ لِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ التَّقْلِيدَ فِي الْعَقِيدَةِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : { بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } (سورة الزخرف / ٢٢) ، وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (سورة آل عمران / ١٩٠) قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً . وَيَلْ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا (٣) .

وَلَأَنَّ الْمُقْلِدَ فِي ذَلِكَ يَجُوزُ الْخَطَأَ عَلَى مُقْلِدِهِ ، وَيَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا فِي إِخْبَارِهِ ، وَلَا يَكْفِي التَّعْوِيلَ فِي ذَلِكَ عَلَى سُكُونِ النَّفْسِ إِلَى صِدْقِ الْمُقْلِدِ ، إِذَا مَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ سُكُونِ أَنْفُسِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَلَّدُوا أَسْلَافَهُمْ وَسَكَتَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ ، فَعَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ (٤) . وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَقِّهَاءِ إِلَى جَوَازِ الْإِكْتِفَاءِ بِالتَّقْلِيدِ فِي الْعَقَائِدِ ، وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَى الظَّاهِرِيَّةِ (٥) .

ثُمَّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ يُلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ فِي هَذَا الْأَمْرِ كُلِّ مَا عَلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، فَلَا تَقْلِيدَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِهِ يَحْصُلُ بِالتَّوَاتُرِ وَالْإِجْمَاعِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْأَخْذُ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ .

ب - حُكْمُ التَّقْلِيدِ فِي الْفُرُوعِ :

١٣ - اخْتَلَفَ فِي التَّقْلِيدِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى رَأْيَيْنِ :

الأول : جَوَازُ التَّقْلِيدِ فِيهَا وَهُوَ رَأْيُ جُمْهُورِ الْأُصُولِيِّينَ (٦) ، قَالُوا : لِأَنَّ الْمُجْتَهِدَ فِيهَا إِمَّا مُصِيبٌ وَإِمَّا مُخْطِئٌ مُثَابٌ غَيْرُ آثِمٍ ، فَجَازَ التَّقْلِيدُ فِيهَا ، بَلْ وَجِبَ عَلَى الْعَامِّيِّ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِالْعَمَلِ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الأدْلَةِ عَلَيْهَا خَفَاءٌ يُخْرِجُ إِلَى النَّظَرِ وَالِاجْتِهَادِ ، وَتَكْلِيفِ الْعَوَامِ رُتْبَةَ الْاجْتِهَادِ يُؤَدِّي إِلَى انْقِطَاعِ الْحَرْثِ وَالتَّسَلُّ ، وَتَعْطِيلِ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ ، فَيُؤَدِّي إِلَى الْخَرَابِ ، وَلِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانَ يُفْتِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَفْتُونَ غَيْرَهُمْ ، وَلَا يَأْمُرُونَهُمْ بِبَيِّنَةٍ دَرَجَةِ الْاجْتِهَادِ . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (سورة النحل / ٤٣) .

الثاني : إِنَّ التَّقْلِيدَ مُحَرَّمٌ لَا يَجُوزُ . قَالَ بِذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ، وَابْنُ الْقَيِّمِ ، وَالشَّوْكَانِيُّ ، وَغَيْرُهُمْ . وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ التَّقْلِيدَ بِقَوْلِهِ : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } (سورة التوبة / ٣١) وَقَوْلِهِ { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } (سورة الأحزاب / ٦٧) وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ ، وَإِنَّ الْأُتَمَّةَ قَدْ نَهَوْا عَنْ تَقْلِيدِهِمْ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ : لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ بِقَوْلِنَا حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ قُلْنَا . وَقَالَ الْمُزَنِّيُّ فِي أَوَّلِ مُخْتَصَرِهِ : اخْتَصَرْتُ هَذَا مِنْ عِلْمِ الشَّافِعِيِّ ، وَمِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ مَعَ إِعْلَامِهِ نَهْيُهُ عَنْ تَقْلِيدِهِ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِ لِيُنْظَرَ فِيهِ لِدِينِهِ وَيَحْتَاطَ لِنَفْسِهِ وَقَالَ أَحْمَدُ : لَا تَقْلُدْنِي ، وَلَا تَقْلُدْ مَالِكًا وَلَا الثَّوْرِيَّ ، وَلَا الْأَوْزَاعِيَّ ، وَخُذْ مِنْ حَيْثُ أَخْلَوُا (٧) .

وَفِي بَعْضِ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ أَنَّ التَّقْلِيدَ الَّذِي يَرَى امْتِنَاعَهُ هُوَ (اتَّخَذَ أَقْوَالَ رَجُلٍ بَعِيْنِهِ بِمَنْزِلَةِ نُصُوصِ الشَّارِعِ لَا يُنْتَفَتُ إِلَى قَوْلٍ سِوَاهُ ، بَلْ لَا إِلَى نُصُوصِ الشَّارِعِ ، إِلَّا إِذَا وَافَقَتْ نُصُوصَ قَوْلِهِ . قَالَ فَهَذَا هُوَ التَّقْلِيدُ الَّذِي أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا بَعْدَ اقْتِرَاضِ الْقُرُونِ الْفَاضِلَةِ) (٨) .

وَأَثَبَتْ ابْنُ الْقَيِّمِ وَالشَّوْكَانِيُّ فَوْقَ التَّقْلِيدِ مَرْتَبَةً أَقَلَّ مِنَ الْاجْتِهَادِ ، هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِتْبَاعِ ، وَحَقِيقَتُهَا الْأَخْذُ بِقَوْلِ الْغَيْرِ مَعَ مَعْرِفَةِ دَلِيلِهِ ، عَلَى حَدِّ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ (لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَقَالَتَنَا حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ قُلْنَا) (٩) . غَيْرَ أَنَّ التَّقْلِيدَ يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ . وَمِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَطْفَرْ الْعَالِمُ بِنَصٍّ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ ،

وَلَمْ يَجِدْ إِلَّا قَوْلَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ ، فَيَقْلُدُهُ . أَمَّا التَّقْلِيدُ الْمَحْرَمُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَالِمُ مُتَمَكِّنًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِدَلِيلِهِ ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَعْدِلُ إِلَى التَّقْلِيدِ ، فَهُوَ كَمَنْ يَعْدِلُ إِلَى الْمَيْتَةِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْمَذَكِّي .
وَالتَّقْلِيدُ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى الْجِهَادِ ، أَوْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ لَكِنْ لَمْ يَجِدِ الْوَقْتَ لِذَلِكَ ، فَهِيَ حَالُ ضَرُورَةٍ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ . وَقَدْ أَفْتَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ ، وَقَالَ : إِذَا سُئِلْتُ عَنْ مَسْأَلَةٍ لَمْ أَعْرِفْ فِيهَا خَبْرًا أَفْتَيْتُ فِيهَا بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ عَالِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ (١٠) ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَسْبُوا قُرَيْشًا ، فَإِنَّ عَالِمَهَا يَمْلَأُ طَبَاقَ الْأَرْضِ عِلْمًا (١١) .
شُرُوطُ مَنْ يَجُوزُ تَقْلِيدُهُ :

١٤ - لَا يَجُوزُ لِلْعَامِّيِّ أَنْ يَسْتَفْتِيَ إِلَّا مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعِلْمِ وَالْعَدَالَةِ ، أَمَّا مَنْ عَرَفَهُ بِالْجَهْلِ فَلَا يَسْأَلُهُ اتِّفَاقًا ، وَكَذَا لَا يَسْأَلُ مَنْ عَرَفَهُ بِالْفِسْقِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، لِمَا يَرَاهُ مِنْ انْتِصَابِهِ لِلْفُتْيَا وَأَخَذِ النَّاسِ عَنْهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَمَا يَلْمَحُهُ فِيهِ مِنْ سِمَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ وَالسَّتْرِ ، أَوْ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ ثِقَةً . قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَفْتَى إِلَّا مَنْ يُفْتَى بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ . أَمَّا مَجْهُولُ الْحَالِ فِي الْعِلْمِ فَلَا يَجُوزُ تَقْلِيدُهُ إِذْ قَدْ يَكُونُ أَجْهَلُ مِنَ السَّائِلِ . وَأَمَّا مَجْهُولُ الْحَالِ فِي الْعَدَالَةِ فَقَدْ قِيلَ : لَا بُدَّ مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُ مِنْ عَدْلٍ أَوْ عَدْلَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَأْمَنُ كَذِبُهُ وَتَدْلِيْسُهُ ، وَقِيلَ : لَا يَلْزَمُ السُّؤَالُ عَنِ الْعَدَالَةِ ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعُلَمَاءِ الْعَدَالَةُ (١٢) .
وَلَا يُقْلَدُ مُتْسَاهِلًا فِي الْفُتْيَا ، وَلَا مَنْ يَتَّبِعِي الْحِيلَ الْمُحَرَّمَةَ ، وَلَا مَنْ يَذْهَبُ إِلَى الْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ الَّتِي يُنْكِرُهَا الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ (١٣) .
مَنْ يَجُوزُ لَهُ التَّقْلِيدُ :

١٥ - تَقَدَّمَ أَنَّ الَّذِي يَجُوزُ لَهُ التَّقْلِيدُ هُوَ الْعَامِّيُّ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ . وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ أَهْلِيَّةُ الْجِهَادِ إِذَا اسْتَشْعَرَ الْقَوَاتِ لَوْ اشْتَغَلَ بِالْجِهَادِ فِي الْأَحْكَامِ ، فَلَهُ أَنْ يُقْلَدَ مُجْتَهِدًا . فَأَمَّا الْمُجْتَهِدُ لَوْ أَرَادَ التَّقْلِيدَ مَعَ سَعَةِ الْوَقْتِ وَإِمْكَانِ الْجِهَادِ فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ : لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقْلَدَ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ . وَقِيلَ : يَجُوزُ لَهُ التَّقْلِيدُ .

وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْجِهَادَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ اجْتَهِدَهُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ يَضَاهِي النَّصَّ ، فَلَا يَعْدِلُ عَنِ الْجِهَادِ عِنْدَ إِمْكَانِهِ ، كَمَا لَا يَعْدِلُ عَنِ النَّصِّ إِلَى الْقِيَاسِ (١٤) . أَمَّا إِنْ اجْتَهِدَ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْجِهَادِ ، فَأَدَّاهُ اجْتَهِدَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتْرُكَهُ وَيَصِيرَ إِلَى الْعَمَلِ أَوْ الْإِفْتَاءِ بِقَوْلِ غَيْرِهِ تَقْلِيدًا لِمَنْ خَالَفَهُ فِي ذَلِكَ ، قَالَ صَاحِبُ مُسَلَّمِ الثُّبُوتِ : " إجماعًا " أَيِ إجماعِ أئِمَّةِ الْحَنَفِيَّةِ ، لِأَنَّ مَا عَلِمَهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ فِي حَقِّهِ فَلَا يَتْرُكُهُ لِقَوْلِ أَحَدٍ . وَلَكِنْ لَوْ أَنَّ الْقَاضِيَّ الْمُجْتَهِدَ حَكَّمَ بِالتَّقْلِيدِ نَفَذَ حُكْمَهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ عَلَى رِوَايَةٍ ، وَلَمْ يَنْفِذْ عَلَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى ، وَلَا عَلَى قَوْلِ الصَّاحِبَيْنِ وَالْفَتَوَى عَلَى قَوْلِهِمَا ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ (١٥) .
وَالَّذِينَ قَالُوا بِتَجَرُّؤِ الْجِهَادِ يَجِبُ عَنْدهُمْ عَلَى الْمُجْتَهِدِ الْمُطْلَقِ أَنْ يُقْلَدَ فِيمَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُ حُكْمُ الشَّرْعِ فِيهِ ، فَيَكُونُ مُجْتَهِدًا فِي الْبَعْضِ مُقْلَدًا فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ ، وَلَكِنْ قِيلَ : إِنَّهُ مَا دَامَ عَالِمًا فَلَا يُقْلَدُ إِلَّا بِشَرْطِ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ وَجْهُ الصَّحَّةِ ، بَأَن يَظْهَرُ لَهُ الْمُجْتَهِدُ الْآخَرُ (١٦) .

وَأَيْضًا قَدْ يُقْلَدُ الْعَالِمُ فِي الثُّبُوتِ ، كَمَنْ قَلَدَ الْبُخَارِيَّ فِي تَصْحيحِ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ يَجْتَهِدُ فِي الدَّلَالَةِ أَوْ الْقِيَاسِ أَوْ دَفَعَ التَّعَارُضَ بِنَاءً عَلَى مَا ثَبَتَ عَنْدهُ غَيْرُهُ .
تَعَدُّ الْمُتَّبِعِينَ وَآخِلَاءَهُمْ عَلَى الْمُقْلَدِ :

١٦ - إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَلَدِ إِلَّا مُفْتٍ وَاحِدٌ وَجَبَ عَلَى الْمُقْلَدِ مُرَاجَعَتُهُ وَالْعَمَلُ بِمَا أَفْتَاهُ بِهِ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ . وَإِنْ

تَعَدَّدَ الْمُفْتُونَ وَكُلُّهُمْ أَهْلٌ ، فَلِلْمُقَلِّدِ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، وَلَا يَلْزِمُهُ مُرَاجَعَةُ الْأَعْلَمِ ، وَذَلِكَ لِمَا عَلِمَ أَنَّ الْعَوَامَّ فِي زَمَانِ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَسْأَلُونَ الْفَاضِلَ وَالْمُقْضُولَ ، وَلَمْ يُخْجَرْ عَلَى أَحَدٍ فِي سَوَالِ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . فَلَا يَلْزِمُ إِلَّا مُرَاعَاةَ الْعِلْمِ وَالْعَدَالَةِ .

لَكِنْ إِذَا تَنَاقَصَ قَوْلَ عَالِمَيْنِ ، فَافْتَاهُ أَحَدُهُمَا بِغَيْرِ مَا افْتَاهُ بِهِ الْآخَرُ ، فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ الْأَخْذُ بِقَوْلِ مَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ مِنْهُمَا فِي عِلْمِهِ وَدِينِهِ . فَوَاجِبُهُ التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْمُقَلِّدِينَ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ . قَالَ صَاحِبُ مَطَالِبِ أُولِي النَّهْيِ : يَحْرُمُ الْحُكْمُ وَالْقَنَاءُ بِقَوْلِ أَوْ وَجْهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِي التَّرْجِيحِ إِجْمَاعًا . وَهَذَا لِأَنَّ الْغَلَطَ عَلَى الْأَعْلَمِ أَبْعَدُ وَمِنَ الْأَقْلَ عِلْمًا أَقْرَبُ . وَلَيْسَ لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ بِالْخِيَارِ يَأْخُذُ مَا شَاءَ وَيَتْرُكُ مَا شَاءَ ، وَخَاصَّةً إِذَا تَتَبَعَ الرُّخْصَ لِيَأْخُذَ بِمَا يَهْوَاهُ بِمَجَرَّدِ التَّشَهِّيِّ . وَذَلِكَ كَمَا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ وَاجِبُهُ التَّرْجِيحُ

بَيْنَ الْأَدْلَةِ وَلَيْسَ لَهُ التَّخْيِيرُ مِنْهَا اتِّهَامًا . وَالَّذِينَ أَجَازُوا التَّخْيِيرَ - وَهُمْ قَلَّةٌ - إِنَّمَا أَجَازُوهُ عِنْدَ عَدَمِ إِمْكَانِ التَّرْجِيحِ (١٧) . وَيُنْظَرُ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ وَالتَّفْصِيلُ فِيهِ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْمُلْحَقِ الْأُصُولِيِّ ، إِذْ فِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ .

تَقْلِيدُ الْمَذَاهِبِ :

١٧ - قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : اخْتَلَفَ الْمُجَرِّزُونَ لِلتَّقْلِيدِ هَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِيِّ الزَّيَامُ مَذْهَبٌ مُعَيَّنٌ ، فَقَالَ جَمَاعَةٌ : يَلْزِمُهُ ، وَاخْتَارَهُ الْكِيَا الْهَرَّاسِيُّ . وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يَلْزِمُهُ ، وَرَجَّحَهُ ابْنُ بُرْهَانَ وَالنَّوَوِيُّ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنَابِلَةِ . وَاسْتَدَلُّوا بِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يُنْكَرُوا عَلَى الْعَامَّةِ تَقْلِيدَ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ وَبَعْضِهِمْ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ . وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يُقَلِّدُونَ مَنْ شَاءُوا قَبْلَ ظُهُورِ الْمَذَاهِبِ (١٨) . وَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ وَتَفْصِيلٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْمُلْحَقِ الْأُصُولِيِّ . وَالَّذِينَ قَالُوا بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِيِّ الزَّيَامُ مَذْهَبٌ مُعَيَّنٌ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ بِعَزَائِمِهِ وَرُخْصِهِ ، إِلَّا أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى بِالْإِتِّزَامِ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ حُكْمُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فِي أَمْرٍ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ ، وَلَا يَتَّبِعُ أَحَدًا فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَجُوزُ لَهُ أَيْضًا الْخُرُوجُ عَنْهُ بِتَقْلِيدِ سَائِعٍ ، أَيْ بِتَقْلِيدِ عَالِمٍ مِنْ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ افْتَاهَهُ (١٩) .

أَثَرُ الْعَمَلِ بِالتَّقْلِيدِ الصَّحِيحِ :

١٨ - مَنْ عَمِلَ بِتَقْلِيدٍ صَحِيحٍ فَلَا إِنْكَارَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا إِنْكَارَ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ . وَدَعَا الْحِسْبَةَ أَيْضًا لَا تَدْخُلُ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ فَلَا يَمْنَعُهُ الْحَاكِمُ مَا فَعَلَ . وَهَذَا وَاضِحٌ فِيمَا ضَرَرُهُ قَاصِرٌ عَلَى الْمُقَلِّدِ نَفْسِهِ ، كَمَنْ مَسَّ فَرْجَهُ ثُمَّ صَلَّى دُونَ أَنْ يَتَوَضَّأَ . لَكِنْ لَوْ كَانَ فِي فِعْلِهِ ضَرَرٌ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْحَاكِمَ أَوْ الْمُحْتَسِبَ إِنْ كَانَ يَرَى حُرْمَةَ ذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِعْتِرَاضُ عَلَيْهِ (٢٠) .

وَلَيْسَ مَعْنَى عَدَمِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ عَمِلَ بِتَقْلِيدٍ صَحِيحٍ تَرْكُ الْبَيَانِ لَهُ مِنْ عَالِمٍ يَرَى مَرْجُوْحِيَّةَ فِعْلِهِ ، وَكَانَ الْبَيَانُ دَأْبَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَا يَزَالُ ، فَضْلًا عَنْ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . وَقَدْ يُخْطِئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَخَاصَّةً مَنْ خَالَفَ نَصًّا صَحِيحًا سَالِمًا مِنَ الْمُعَارَضَةِ . وَهَذَا وَاضِحٌ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِ الْأُصُولِيِّينَ ، وَهُمْ الْقَائِلُونَ بِجَوَازِ تَخْطِئَةِ الْمُجْتَهِدِ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ هَذَا الْبَيَانُ يَكُونُ مَعَ تَمْهِيدِ الْعُدْرِ لِلْمُخَالَفِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَحِفْظِ رُتْبَتِهِ وَإِقَامَةِ هَيْبَتِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَيْضًا لَا تَمْنَعُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْحَاكِمَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى مُقَلِّدٍ رَفَعَ إِلَيْهِ أَمْرَهُ بِمَا يَرَاهُ طَبَقًا لِاجْتِهَادِهِ ، إِذْ لَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يَقْضِيَ بِخِلَافِ مُعْتَقَدِهِ (٢١)

إِفْتَاءُ الْمُقَلِّدِ :

١٩ - يُشْتَرَطُ فِي الْمُفْتِيِّ عِنْدَ الْأُئِمَّةِ الثَّلَاثَةِ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا ، وَلَيْسَ هَذَا عِنْدَ الْحَقِيقَةِ شَرْطٌ صَحِيحٌ وَلَكِنَّهُ شَرْطٌ أَوْلَوِيَّةٌ ، تَسْهِيلًا عَلَى النَّاسِ (٢٢) .

وَصَحَّحَ ابْنُ الْقَيْمِ أَنَّ إِفْتَاءَ الْمُقَلِّدِ جَائِزٌ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَعَدَمِ وُجُودِ الْعَالِمِ الْمُجْتَهِدِ (٢٣) ، وَقَيَّدَهُ ابْنُ حَمْدَانَ - مِنْ الْحَنَابِلَةِ - بِالضَّرُورَةِ (٢٤) . وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ اشْتِرَاطُ بَعْضِ الْأَصُولِيِّينَ أَنْ يَكُونَ الْمُفْتِي أَهْلًا لِلنَّظَرِ مُطْلِعًا عَلَى مَاخِذِ مَا يُفْتَى بِهِ وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ (٢٥) .

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ : الْمُفْتِي يَجُوزُ أَنْ يُخْبَرَ بِمَا سَمِعَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُفْتِيًّا فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا هُوَ مُخْبِرٌ ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يُخْبَرَ عَنْ رَجُلٍ بَعِيْنِهِ مِنْ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ فَيَكُونُ مَعْمُولًا بِخَبَرِهِ لَا بِفَتْيَاهُ (٢٦) . وَصَحَّحَ الشَّوْكَانِيُّ أَنَّ مَا يُلْقِيهِ الْمُقَلِّدُ عَنْ مُقَلِّدِهِ إِلَى الْمُسْتَفْتِي لَيْسَ مِنَ الْفُتْيَا فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ قَوْلٍ . قَالَ : الَّذِي أَعْتَقِدُهُ أَنَّ الْمُفْتِيَّ الْمُقَلِّدَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُفْتِيَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ رَسُولِهِ ، أَوْ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ عَمَّا يَحِلُّ لَهُ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْمُقَلِّدَ لَا يَدْرِي بِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ ، بَلْ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُجْتَهِدُ . وَهَذَا إِنْ سَأَلَهُ السَّائِلُ سُؤْلًا مُطْلَقًا . وَأَمَّا إِنْ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ قَوْلِ فُلَانٍ وَرَأْيِ فُلَانٍ فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَقُولَ إِلَيْهِ ذَلِكَ وَيُرْوِيهِ لَهُ إِنْ كَانَ عَارِفًا بِمَذْهَبِهِ (٢٧) .

وَقَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ عَنْ الْحَلِيمِيِّ وَالرُّوْيَانِيِّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُفْتِي أَنْ يُفْتِيَ بِمَا هُوَ مُقَلِّدٌ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُ فِي صُورَةٍ مَا يَقُولُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، بَلْ يُضَيِّقُهُ وَيَحْكِيهِ عَنْ إِمَامِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ . قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ : فَعَلَى هَذَا مِنْ عَدَدْنَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمُفْتِينَ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ لَيْسُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْمُفْتِينَ ، وَلَكِنَّهُمْ قَامُوا مَقَامَهُمْ وَأَدَّوْا عَنْهُمْ (٢٨) .

-
- (١) شرح مسلم الثبوت ٢ / ٤٠٠ . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٢٢هـ ، والمستصفي مطبوع مع مسلم الثبوت ٢ / ٣٨٧ . الطبعة المذكورة ، وروضة الناظر ٢ / ٤٥٠ .
- (٢) شرح مسلم الثبوت ١ / ١٠ .
- (٣) حديث : " لقد نزلت على الليلة آية ، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (إن في خلق السموات) الآية كلها . أخرجه ابن حبان (موارد الظمان ص ١٤٠ ط السلفية) .
- (٤) كشف القناع ٦ / ٣٠٦ ، ومطالب أولي النهى ٦ / ٤٤١ ، دمشق ، المكتب الإسلامي .
- (٥) إرشاد الفحول ص ٢٦٦ .
- (٦) روضة الناظر ٢ / ٤٥١ ، ٤٥٢ ، وإعلام الموقعين ٤ / ١٨٧ - ٢٠١ ، وإرشاد الفحول ص ٢٦٦ .
- (٧) إعلام الموقعين ٤ / ١٨٧ - ٢٠١ ، ٢١١ ، ومختصر المزني المطبوع مع الأم للشافعي ص ١ ، وإرشاد الفحول ص ٢٦٦ .
- (٨) إعلام الموقعين ٤ / ٢٣٦ ، ١٩٢ .
- (٩) إعلام الموقعين ٤ / ٢٦٠ . ولعل الوجه في نهي الأئمة عن تقليدهم أنهم قالوه لتلازمهم المؤهلين الذين لديهم القدرة على معرفة حجية الأدلة ، ومدى صحتها ، وعلى تفهم دلالاتها ، فهؤلاء لا يصح منهم التقليد الصرف فيما يمكنهم فيه الرجوع إلى الأدلة ، أما العامي الذي لديه القدرة على معرفة حجية الأدلة فيجوز له التقليد .
- (١٠) مطالب أولي النهى ٦ / ٤٤٨ .
- (١١) حديث : " لا تسبوا قريشا ، فإن عالمها يملأ " أخرجه الطيالسي في مسنده (٢ / ١٩٩ - منحة المعبود ط . المنيرية) من حديث عبد الله بن مسعود ، وضعف إسناده العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ٦٨ ط . الرسالة) .
- (١٢) المستصفي ٢ / ٣٩٠ ، وروضة الناظر ٢ / ٤٥٢ .

(١٣) مطالب أولي النهى ٦ / ٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، وتبصرة الحكام ١ / ٥٢ ، القاهرة المطبعة العامرة الشرفية ١٣٠١ هـ .

(١٤) البرهان للجويني ٢ / ١٣٤٠ بتحقيق د . عبد العظيم الديب ، نشر على نفقة أمير قطر ، ١٣٩٩ هـ ، وروضة الطالبين ١١ / ١٠٠ .

(١٥) مسلم الثبوت ٢ / ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(١٦) مسلم الثبوت ٢ / ٤٠٢ .

(١٧) المستصفى ٢ / ٣٩١ ، ٣٩٢ ، وروضة الناظر ٢ / ٤٥٤ ، وإرشاد الفحول ص ٢٧١ ، والبرهان للجويني ٢ / ١٣٤٢ — ١٣٤٤ ، نهاية المحتاج ١ / ٤١ ، ومطالب أولي النهى ٦ / ٤٤١ ، وتبصرة الحكام ١ / ٥١ .

(١٨) إرشاد الفحول ص ٢٧٢ .

(١٩) كشاف القناع ٦ / ٣٠٧ .

(٢٠) نهاية المحتاج ١ / ٢١٩ القاهرة .

(٢١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٥٨ . القاهرة ، مصطفى الحلبي . ١٣٧٨ هـ ، والمغني لابن قدامة ٨ / ٣٠٦ .

(٢٢) مجمع الأثر ٢ / ١٤٦ ، والمغني ٩ / ٥٢ .

(٢٣) إعلام الموقعين ١ / ٤٦ .

(٢٤) صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، لابن حمدان ص ٢٤ . دمشق . المكتب الإسلامي ص ٢٤ .

(٢٥) إرشاد الفحول ص ٢٩٦ .

(٢٦) المغني ٩ / ٤١ .

(٢٧) رسالة القول المفيد في الاجتهاد والتقليد للشوكاني — خاتمة الرسالة .

(٢٨) فتاوى ابن الصلاح مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٨٨٩ أصول فقه) ق ١٠ .

وَأَمَّا إِنْ أَضَافَ أَحَدٌ إِلَى الشَّرِيعَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا مِنْ أَحَادِيثَ مُفْتَرَاةٍ، أَوْ تَأَوَّلَ التَّصَوُّصَ بِخِلَافِ مُرَادِ اللَّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ فَهَذَا مِنْ نَوْعِ التَّبْدِيلِ، فَيَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ وَالشَّرْعِ الْمُؤَوَّلِ وَالشَّرْعِ الْمُبَدَّلِ كَمَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ وَبَيْنَ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَبَيْنَ مَا يُكْتَفَى فِيهَا بِنُوقِ صَاحِبِهَا وَوَجْهِهِ (١).

(١) - وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ١ / ص ٢٦٣)

وَلَفْظُ الشَّرْعِ يُقَالُ فِي عُرْفِ النَّاسِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ : " الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ " وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَهَذَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَمَنْ خَالَفَهُ وَجَبَتْ عِقَابُهُ . وَالثَّانِي " الشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ " وَهُوَ آرَاءُ الْعُلَمَاءِ الْمُجْتَهِدِينَ فِيهَا كَمَذْهَبِ مَالِكٍ وَنَحْوِهِ . فَهَذَا يَسُوغُ اتِّبَاعَهُ وَلَا يَجِبُ وَلَا يَحْرُمُ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْزِمَ غُيُومَ النَّاسِ بِهِ وَلَا يَمْنَعُ غُيُومَ النَّاسِ مِنْهُ . وَالثَّلَاثُ " الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ " وَهُوَ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ عَلَى النَّاسِ بِشَهَادَاتِ الزُّورِ وَنَحْوِهَا وَالظُّلْمُ الْبَيْنِ فَمَنْ قَالَ إِنَّ هَذَا مِنْ شَرْعِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا نَزَّاعَ . كَمَنْ قَالَ : إِنَّ الدَّمَ وَالْمَيْتَةَ حَلَالٌ - وَلَوْ قَالَ هَذَا مَذْهَبِي وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَلَوْ كَانَ الَّذِي حَكَمَ بِهِ ابْنٌ مَخْلُوفٍ هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ أَوْ الْأَشْعَرِيِّ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُلْزَمَ جَمِيعَ النَّاسِ بِهِ وَيُعَاقَبَ مَنْ لَمْ يُؤَافِقْهُ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ ، فَكَيْفَ وَالْقَوْلُ الَّذِي يَقُولُهُ وَيُلْزِمُ بِهِ هُوَ خِلَافُ نَصِّ مَالِكٍ وَأَيْمَةِ

أَصْحَابِهِ وَخِلَافَ نَصِّ الْأَشْعَرِيِّ وَأَيْمَةِ أَصْحَابِهِ : كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي الْحَسَنِ الطَّبْرِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ بْنِ فُورِكَ وَأَبِي الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الْبَيْهَقِيِّ ؟ وَغَيْرَ هَؤُلَاءِ ، كُلُّهُمْ مُصَرِّحُونَ بِمِثْلِ مَا قُلْنَا ، وَبِنَقِيضِ مَا قَالَهُ . وَلِهَذَا اصْطَلَحَتِ الْحَنْبَلِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَاتَّفَقَ النَّاسُ كُلُّهُمْ . وَلَمَّا رَأَى الْحَنْبَلِيَّةُ كَلَامَ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ قَالُوا : هَذَا خَيْرٌ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ الْمُؤَقِّقِ وَزَالَ مَا كَانَ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْأَضْغَانِ وَصَارَ الْفُقَهَاءُ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ : يَقُولُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى اتِّفَاقِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ لَوْ فُرِضَ أَنَّ هَذَا الَّذِي حَكَمَ فِيهِ مِمَّا يَسُوعُ فِيهِ الْاجْتِهَادُ : لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَنْقُضَ حُكْمَ غَيْرِهِ فَكَيْفَ إِذَا تَقَضَّ حُكْمُ الشَّامِ جَمِيعِهِمْ بِلَا شُبْهَةٍ ، بَلْ بِمَا يُخَالِفُ دِينَ الْمُسْلِمِينَ يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّ حُكْمَ الشَّامِ مُكْرَهُونَ ، فَفِيهِمْ مَنْ يُصْرِّحُ بِعَدَمِ الْإِكْرَاهِ غَيْرَ وَاحِدٍ وَهَؤُلَاءِ بِمِصْرٍ كَانُوا أَظْهَرَ إِكْرَاهًا لِمَا أُشْتَهَرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ غَرَضِ اللَّوْلَةِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمُلْكِ وَأَنَّهُ لَوْ لَا ذَلِكَ لَتَكَلَّمَ الْحُكَّامُ بِأَشْيَاءَ وَهَذَا ثَابِتٌ عَنْ حُكَّامِ مِصْرَ . فَكَيْفَ وَهَذَا الْحُكْمُ الَّذِي حَكَمَ بِهِ مُخَالِفٌ لِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ بَضْعَةٍ وَعِشْرِينَ وَجْهًا ؟ وَعَامَّتُهَا يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْوُجُوهُ مَكْتُوبَةٌ مَعَ الشَّرَفِ مُحَمَّدٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الشَّيْخُ " نَصْرٌ " بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَبِاطْنِ الْقَضِيَّةِ لِيُطَبِّهَا بِتَنْدِيرِهِ . فَإِنَّا لَيْسَ مُرَادِي إِلَّا طَاعَةُ اللَّهِ وَرِسُولِهِ وَمَا يُخَافُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ إِلَّا مِنْ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ : كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ . وَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا جَرَى بِدِمَشْقَ - مَعَ أَنَّ أَوْلَنَاكَ أَقْرَبُ إِلَى الْإِتِّفَاقِ - مِنْ تَجْدِيدِ الْقَاضِي الْمَذْكُورِ إِسْلَامَهُ عِنْدَ الْقَاضِي الْآخَرِ . وَأَنَا لَمَّا كُنْتُ هُنَاكَ كَانَ هَذَا الْأَذْنُ " يَحْيَى الْحَنْفِيُّ " فَذَهَبَ إِلَى الْقَاضِي تَقِيِّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيِّ وَجَدَّدَ إِسْلَامَهُ وَحَكَمَ بِحَقْنِ دَمِهِ لَمَّا قَامَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِمْ فِي أَشْيَاءَ . وَكَانَ مِنْ مُدَّةٍ لَمَّا كَانَ الْقَاضِي حُسَّامُ الدِّينِ الْحَنْفِيُّ مُبَاشِرًا لِقَضَاءِ الشَّامِ : أَرَادَ أَنْ يَحْلِقَ لِحْيَةَ هَذَا الْأَذْرَعِيِّ وَأَخْضَرَ الْمُوَسَى وَالْحِمَارَ لِيَرْكَبَهُ وَيَطُوفَ بِهِ فَجَاءَ أَخُوهُ عَرَفِيُّ ذَلِكَ فَقَمَتَ إِلَيْهِ وَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى كَفَّ عَنْ ذَلِكَ . وَجَرَتْ أُمُورٌ لَمْ أَزَلْ فِيهَا مُحْسِنًا إِلَيْهِمْ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِي وَلَا فِعْلِ أَمْتَالِي . نَحْنُ إِنَّمَا نَدْخُلُ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرِسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ مَعَ أَحَدٍ ، بَلْ نَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ وَنَعْفُو وَنَغْفِرُ . وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ قَدْ ائْتَشَرَتْ وَظَهَرَ مَا فَعَلَ فِيهَا وَعِلْمُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ . فَلَوْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ حَتَّى جَاءَ أَمِيرٌ أَوْ وَزِيرٌ لَهُ فِي قَهْلٍ مِلْكٌ قَدْ أَثْبَتَهُ أَوْ حَكَمَ بِهِ : لَكَانَ هَذَا عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَسْهَلِ مَا يَكُونُ . فَيُشْتَبَوْنَ رَدَّتُهُ وَالْمُرْتَدُّ أَحْكَامُهُ مَرْدُودَةٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَيَعُوذُ صَرَرُهُ عَلَى الَّذِينَ أَعَانُوهُ وَنَصَرُوهُ بِالْبَاطِلِ مِنْ أَهْلِ اللَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَهَذَا أَمْرٌ كَبِيرٌ لَا يَنْبَغِي إِهْمَالُهُ . فَالشَّيْخُ خَيْرٌ يَعْرِفُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ . وَأَنَا وَاللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً عَلَى إِطْفَاءِ كُلِّ شَرٍّ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا وَإِقَامَةِ كُلِّ خَيْرٍ ، وَإِنْ مَخْلُوفٌ لَوْ عَمِلَ مَهْمَا عَمِلَ وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ عَلَى خَيْرٍ إِلَّا وَأَعْمَلُهُ مَعَهُ وَلَا أُعِينُ عَلَيْهِ عَدُوَّهُ قَطُّ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . هَذِهِ نِيَّتِي وَعَزْمِي ، مَعَ عِلْمِي بِجَمِيعِ الْأُمُورِ . فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَنْ أَكُونَ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْ كُنْتُ خَارِجًا لَكُنْتُ أَعْلَمُ بِمَاذَا أُعَاوَنُهُ ، لَكِنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ قَدْ فَعَلُوهَا زُورًا وَاللَّهِ يَخْتَارُ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ مَا فِيهِ الْخَيْرُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . وَلَنْ يَقْطَعَ النَّوْرُ وَتَزُولَ الْخَيْرَةُ إِلَّا بِالْإِثَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَصِدْقِ الْإِلْتِجَاءِ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٢٣٢)

وَأَمَّا " الْمُحِبَّةُ الشَّرَكِيَّةُ " فَلَيْسَ فِيهَا مُتَابَعَةٌ لِلرَّسُولِ وَلَا بُغْضٌ لِعَدُوِّهِ وَمُجَاهَدَةٌ لَهُ كَمَا يُوجَدُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ يَدْعُونَ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَا يُتَابِعُونَ الرَّسُولَ وَلَا يُجَاهِدُونَ عَدُوَّهُ . وَكَذَلِكَ " أَهْلُ الْبِدْعِ " الْمُدْعَوْنَ لِلْمَحَبَّةِ لَهُمْ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ بِحَسَبِ بَدْعِهِمْ وَهَذَا مِنْ حَيْثُ لَغِيَرِ اللَّهِ وَتَجَلُّهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مُوَالَاةِ أَوْلِيَاءِ الرَّسُولِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي هِيَ شُعْبَةٌ مِنَ الشَّرْكِ . وَالَّذِينَ ادَّعَوْا الْمَحَبَّةَ مِنْ " الصُّوفِيَّةِ " وَكَانَ قَوْلُهُمْ فِي الْقَدَرِ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ الْمُجْبِرَةِ هُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَا يَشْهَدُونَ لِلرَّبِّ

مَحْبُوبًا إِلَّا مَا وَقَعَ وَقَدَّرَ وَكُلُّ مَا وَقَعَ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ فَهُوَ مَحْبُوبُهُ عِنْدَهُمْ فَلَا يَبْقَى فِي هَذَا الشُّهُودِ فَرْقٌ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَلَا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَأَبِي جَهْلٍ وَلَا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ وَلَا بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةِ اللَّهِ وَالْأَوْتَانِ ؛ بَلْ هَذَا كُلُّهُ عِنْدَ الْفَانِي فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ سَوَاءٌ ؛ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ حَادِثٍ وَحَادِثٍ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يَهْوَاهُ وَيُحِبُّهُ ؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ إِنَّمَا يَأْلَهُ وَيُحِبُّ مَا يَهْوَاهُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ مَحَبَّةٌ لِلَّهِ فَقَدْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَهُمْ مِنْ يَهْوَاهُ ؛ هَذَا مَا دَامَ فِيهِ مَحَبَّةٌ لِلَّهِ ؛ وَقَدْ يَنْسَلِخُ مِنْهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى التَّعْطِيلِ كَفِرْعَوْنَ وَأَمثالِهِ الَّذِي هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَنَحْوِهِمْ . وَلِهَذَا هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ بِلَا عِلْمٍ وَيُبْغِضُونَ بِلَا عِلْمٍ وَالْعِلْمُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَمَا قَالَ : { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } وَهُوَ الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ وَلِهَذَا كَانَ الشُّيُوخُ الْعَارِفُونَ كَثِيرًا مَا يُوصُونَ الْمُرِيدِينَ بِاتِّبَاعِ الْعِلْمِ وَالشَّرْعِ كَمَا قَدْ ذَكَرْنَا قِطْعَةً مِنْ كَلَامِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ وَالْمَحَبَّةَ إِذَا كَانَتْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَشَرْعٍ كَانَتْ مِنْ جِنْسِ مَحَبَّةِ الْكُفَّارِ وَإِرَادَتِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ السَّالِكُونَ الْمُرِيدُونَ الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءُ الزَّاهِدُونَ الْعَابِدُونَ الَّذِينَ سَلَكَوا طَرِيقَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ إِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا الشَّرْعَ الْمُنَزَّلَ وَالْعِلْمَ الْمَوْرُوثَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُحِبُّونَ مَا أَحَبَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيُبْغِضُونَ مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِلَّا أَفْضَى بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى شُعْبٍ مِنَ شُعْبِ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ . وَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ وَالْمَحَبَّةُ لِلَّهِ إِلَّا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ . وَمِنْ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَ الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ فَمَنْ نَفَى الصِّفَاتِ فَقَدْ كَذَبَ خَبْرَهُ . وَمِنْ الْإِيمَانِ بِمَا أَمَرَ فِعْلُ مَا أَمَرَ ، وَتَرْكُ مَا حَظَرَ وَمَحَبَّةُ الْحَسَنَاتِ وَبُغْضُ السَّيِّئَاتِ وَلِزُومِ هَذَا الْفَرْقِ إِلَى الْمَمَاتِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَحْسِنْ الْحَسَنَ الْمَأْمُورَ بِهِ وَلَمْ يَسْتَبْغِحِ السَّيِّئَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ . كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ } . وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ ؛ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَلَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ } رَوَاهُ مُسْلِمٌ . فَأَضْعَفُ الْإِيمَانِ الْإِنْكَارُ بِالْقَلْبِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ بُغْضُ الْمُنْكَرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ الْمُتَبَدِّعُونَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْمَحَبَّةَ الْمُحْمَلَةَ الْمُشْتَرَكَةَ الَّتِي تُضَاهِي مَحَبَّةَ الْمُشْرِكِينَ يَكْرَهُونَ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَيَقُولُونَ : فَلَانُ يُنْكَرُ وَلَفَانُ يُنْكَرُ وَقَدْ يَنْتَلُونَ كَثِيرًا بِمَنْ يُنْكَرُ مَا مَعَهُمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ فَيَصِيرُ هَذَا يُشْبِهُ التَّضَرَّاعِي الَّذِي يُصَدِّقُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَيُحِبُّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ كَالْمُشْرِكِ الَّذِي يُحِبُّ اللَّهَ وَيُحِبُّ الْأَنْدَادَ وَهَذَا كَالْيَهُودِيِّ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَيُبْغِضُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَلَا يُحِبُّ اللَّهَ وَلَا يُحِبُّ الْأَنْدَادَ ؛ بَلْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ كَمَا اسْتَكْبَرَ فِرْعَوْنُ وَأَمثالُهُ . وَهَذَا مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَهْلِ الْبِدْعِ مِنْ أَهْلِ الْإِرَادَةِ وَالْبِدْعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ هَؤُلَاءِ يَقْرُونَ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مُضَاهَاةً لِلتَّضَرَّاعِي ، وَهَؤُلَاءِ يُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مُضَاهَاةً لِلْيَهُودِ وَإِنَّمَا دِينُ الْإِسْلَامِ وَطَرِيقُ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ إِنْكَارُ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَالتَّصَدِّيقُ بِالْحَقِّ ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْبَاطِلِ فَهُمْ فِي تَصَدِّيقِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ مُعْتَدِلُونَ يُصَدِّقُونَ بِالْحَقِّ وَيُكَذِّبُونَ بِالْبَاطِلِ وَيُحِبُّونَ الْحَقَّ وَيُبْغِضُونَ الْبَاطِلَ . يُصَدِّقُونَ بِالْحَقِّ الْمَوْجُودِ وَيُكَذِّبُونَ بِالْبَاطِلِ الْمَقْفُودِ وَيُحِبُّونَ الْحَقَّ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ ، وَيُبْغِضُونَ الْمُنْكَرَ الَّذِي نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ فَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ وَلَا يُحِبُّونَهُ ، وَلَا الصَّالِحِينَ

الَّذِينَ يَعْتَدُونَ وَيُحِبُّونَ مَا لَمْ يُنَزَّلْ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا . وَ (الْمَقْصُودُ هُنَا) أَنَّ الْمَحَبَّةَ الشَّرَكِيَّةَ الْبَدْعِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْ هَؤُلَاءِ فِي أَنْ آلَ أَمْرُهُمْ إِلَى أَنْ لَا يَسْتَحْسِنُوا حَسَنَةً وَلَا يَسْتَقْبِحُوا سَيِّئَةً ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَأْمُورًا وَلَا يُبْغِضُ مَحْظُورًا فَصَارُوا فِي هَذَا مِنْ جَنْسٍ مَنْ أَنْكَرَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ شَيْئًا وَيُبْغِضُ شَيْئًا كَمَا هُوَ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ نَفَاةِ الصِّفَاتِ وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ أَحْلَهُمْ مُثَبَّتًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ وَفِي أَصْلِ اعْتِقَادِهِ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ لَكِنْ إِذَا جَاءَ إِلَى الْقَدَرِ لَمْ يُثَبَّتْ شَيْئًا غَيْرَ الْإِرَادَةِ الشَّامِلَةِ وَهَذَا وَقَعَ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ مُثَبَّتَةِ الصِّفَاتِ تَكَلَّمُوا فِي الْقَدَرِ بِمَا يُوَافِقُ رَأْيَ جَهْمٍ وَالْأَشْعَرِيَّةِ فَصَارُوا مُنَاقِضِينَ لِمَا أَثْبَتُوهُ مِنَ الصِّفَاتِ كَحَالِ صَاحِبِ " مَنَازِلِ السَّائِرِينَ " وَغَيْرِهِ . وَأَمَّا أَيْمَةُ الصُّوفِيَّةِ وَالْمَشَائِخِ الْمَشْهُورُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مِثْلُ الْجَنِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ وَمِثْلُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَأَمْثَالِهِ فَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ لُزُومًا لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَتَوْصِيَّةً بِاتِّبَاعِ ذَلِكَ وَتَحْذِيرًا مِنَ الْمَشْيِ مَعَ الْقَدَرِ كَمَا مَشَى أَصْحَابُهُمْ أُولَئِكَ وَهَذَا هُوَ " الْفَرْقُ الثَّانِي " الَّذِي تَكَلَّمَ فِيهِ الْجَنِيدُ مَعَ أَصْحَابِهِ . وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ كَلَّمَهُ كُلُّهُ يَدُورُ عَلَى اتِّبَاعِ الْمَأْمُورِ ، وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْلُوبِ وَلَا يُثَبَّتُ طَرِيقًا تُخَالِفُ ذَلِكَ أَصْلًا لَا هُوَ وَلَا عَامَّةُ الْمَشَائِخِ الْمُتَقُولِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَيُحَذِّرُ عَنْ مُلَاحَظَةِ الْقَدَرِ الْمَخْصُ بِدُونِ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَمَا أَصَابَ أُولَئِكَ الصُّوفِيَّةَ الَّذِينَ شَهِدُوا الْقَدَرَ وَتَوَحَّيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَغَابُوا عَنِ الْفَرْقِ الْإِلَهِيِّ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ الْمُحَمَّدِيِّ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ مَحْجُوبِ الْحَقِّ وَمَكْرُوهِهِ ، وَيُثَبِّتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا تَجِبُ رِعَايَتُهُ عَلَى أَهْلِ الْإِرَادَةِ وَالسُّلُوكِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ رَاغَ عَنْهُ فَضَلَ سِوَاءِ السَّبِيلِ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا مَنْ تَوَجَّهَ بَقَلْبِهِ وَانْكَشَفَتْ لَهُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ وَصَارَ يَشْهَدُ الرُّبُوبِيَّةَ الْعَامَّةَ وَالْقِيُومِيَّةَ الشَّامِلَةَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْفَرْقَانُ حَتَّى يَشْهَدَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي تُمَيِّزُ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ وَبَيْنَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ وَبَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا نَهَى عَنْهُ وَإِلَّا خَرَجَ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِحَسَبِ خُرُوجِهِ عَنْ هَذَا فَإِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ الْعَامَّةَ قَدْ أَقْرَبَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } . وَإِنَّمَا يَصِيرُ الرَّجُلُ مُسْلِمًا حَنِيفًا مُوحَّدًا إِذَا شَهِدَ : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ بَحَيْثُ لَا يُشْرِكُ مَعَهُ أَحَدًا فِي تَأْلِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ وَعُبُودِيَّتِهِ وَإِنَابَتِهِ إِلَيْهِ وَإِسْلَامِهِ لَهُ وَدُعَائِهِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَمُؤَالَاتِهِ فِيهِ ؛ وَمُعَادَاتِهِ فِيهِ ؛ وَمَحَبَّتِهِ مَا يُحِبُّ ؛ وَبُغْضِهِ مَا يُبْغِضُ وَيَفْنَى بِحَقِّ التَّوْحِيدِ عَنْ بَاطِلِ الشِّرْكِ ؛ وَهَذَا فَنَاءٌ يُقَارِنُهُ الْبَقَاءُ فَيَفْنَى عَنْ تَأْلِهِ مَا سِوَى اللَّهِ بِتَأْلِهِ اللَّهُ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْنَى مِنْ قَلْبِهِ تَأْلُهُ مَا سِوَاهُ ؛ وَيُثَبَّتُ وَيَبْقَى فِي قَلْبِهِ تَأْلُهُ اللَّهُ وَحْدَهُ ؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - : { مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ } وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : { مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ } وَقَالَ فِي الصَّحِيحِ : { لَقُوتُوا مَوْتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّهَا حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ فَمَنْ مَاتَ عَلَيْهَا مَاتَ مُسْلِمًا } . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا أَلَّا نَمُوتَ إِلَّا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } وَقَالَ الصَّدِيقُ { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } وَالصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلِينَ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلِ الْمَوْتَ وَلَمْ يَتَمَتَّهِ . وَإِنَّمَا سَأَلَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ يَمُوتُ عَلَى الْإِسْلَامِ ؛ فَسَأَلَ الصِّفَةَ لَا الْمَوْصُوفَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ ؛ وَأَمَرَ بِهِ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ؛ وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ ابْنُ عَقِيلٍ وَغَيْرُهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٢ / ص ٤١١)

فَأَمَّا مَنْ خَلَطَ الشَّرْعَ الْمُنَزَّلَ بِالْمُبْدَلِ وَالْمُؤَوَّلِ ، وَخَلَطَ الْقَصْدَ الْحَسَنَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى فَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَخْلُطُونَ فِي عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَتَخْلِيطُ هَؤُلَاءِ فِي الْعِلْمِ سِوَى تَخْلِيطِهِمْ وَتَخْلِيطُ غَيْرِهِمْ فِي الْقَصْدِ ، وَتَخْلِيطُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَصْدِ سِوَى تَخْلِيطِهِمْ وَتَخْلِيطُ غَيْرِهِمْ فِي الْعِلْمِ فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَتَهُ اللَّهُ عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . وَ " حُسْنُ الْقَصْدِ " مِنْ

أَعَوْنَ الْأَشْيَاءَ عَلَى تَبَلُّغِ الْعِلْمِ وَدَرْكِهِ . وَ " الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ " مِنْ أَعَوْنَ الْأَشْيَاءَ عَلَى حُسْنِ الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَإِنَّ الْعِلْمَ قَائِدٌ وَالْعَمَلُ سَائِقٌ ، وَالتَّفَسُّسُ حُرُوفٌ فَإِنْ وَتَى قَائِدُهَا لَمْ تَسْتَقِمْ لِسَائِقِهَا وَإِنْ وَتَى سَائِقُهَا لَمْ تَسْتَقِمْ لِقَائِدِهَا فَإِذَا ضَعُفَ الْعِلْمُ حَارَ السَّائِلُ وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ يَسْلُكُ فَعَايَتُهُ أَنْ يَسْطَرِحَ لِلْقَدَرِ وَإِذَا تَرَكَ الْعَمَلُ حَارَ السَّائِلُ عَنْ الطَّرِيقِ فَسَلَكَ غَيْرَهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ تَرَكَهُ فَهَذَا حَائِرٌ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ مَعَ كَثْرَةِ سَبِيلِهِ وَهَذَا حَائِرٌ عَنْ الطَّرِيقِ زَائِعٌ عَنْهُ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ . قَالَ تَعَالَى : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } . هَذَا جَاهِلٌ وَهَذَا ظَالِمٌ . قَالَ تَعَالَى : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } . مَعَ أَنَّ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ مُتَقَارِبَانِ لَكِنَّ الْجَاهِلَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ ظَالِمٌ وَالظَّالِمَ جَهْلٌ الْحَقِيقَةُ الْمَانِعَةُ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ . قَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : سَأَلْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَقَالُوا : كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ وَكُلُّ مَنْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ . وَقَدْ رَوَى الْخَلَّالُ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التِّيمِي قَالَ : " الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ " فَعَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِاللَّهِ ، وَعَالِمٌ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِ اللَّهِ . فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ الَّذِي يَخْشَاهُ وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي يَعْرِفُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ . قُلْتُ : وَالْخَشْيَةُ تَمْنَعُ اتِّبَاعَ الْهَوَى ، قَالَ تَعَالَى : { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } { فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } . وَالْكَمَالُ فِي عَدَمِ الْهَوَى وَفِي الْعِلْمِ هُوَ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قَالَ فِيهِ : { وَالتَّجَمُّ إِذَا هَوَى } { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } فَتَفَى عَنْهُ الضَّلَالُ وَالْعَيَّ وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى فَتَفَى الْهَوَى وَأَثْبَتَ الْعِلْمَ الْكَامِلَ وَهُوَ الْوَحْيُ فَهَذَا كَمَالُ الْعِلْمِ وَذَلِكَ كَمَالُ الْقَصْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَوَصَفَ أَعْدَاءَهُ بِضِدِّ هَذَيْنِ فَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى } فَالْكَمَالُ الْمُنْقَلَبُ لِلْإِنْسَانِ هُوَ تَكْوِيلُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عِلْمًا وَقَصْدًا . قَالَ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ } وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا حَكَاهُ عَنْ إِبْلِيسَ : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ } . قَالَ تَعَالَى : { إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } وَقَالَ تَعَالَى : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } . وَ " عِبَادَتُهُ " طَاعَةُ أَمْرِهِ ، وَأَمْرُهُ لَنَا مَا بَلَغَهُ الرَّسُولُ عَنْهُ ؛ فَالْكَمَالُ فِي كَمَالِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَمَنْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَتَرَكَ هَوَاهُ وَاسْتَسْلَمَ لِلْقَدَرِ أَوْ اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ فَأَخْطَأَ ، فَعَلِ الْمَأْمُورَ بِهِ إِلَى مَا اعْتَقَدَهُ مَأْمُورًا بِهِ أَوْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الْأَدِلَّةُ فَتَوَقَّفَ عَمَّا هُوَ طَاعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَهُوَ لَاءِ مُطِيعُونَ لِلَّهِ مُتَابِعُونَ عَلَى مَا أَحْسَنُوهُ مِنَ الْقَصْدِ لِلَّهِ وَاسْتَفْرَغُوهُ مِنْ وَسْوَئِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا عَجَزُوا عَنْ عِلْمِهِ فَأَخْطَأُوهُ إِلَى غَيْرِهِ فَمَغْفُورٌ لَهُمْ . وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ فِتْنٍ تَقَعُ بَيْنَ الْأُمَّةِ فَإِنْ أَقْوَامًا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ أُمُورًا هُمْ مُجْتَهِدُونَ فِيهَا وَقَدْ أَخْطَأُوا فَتَبْلُغْ أَقْوَامًا يَطْنُونَ أَنَّهُمْ تَعَمَّدُوا فِيهَا الذَّنْبَ أَوْ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ لَا يُعْذَرُونَ بِالْخَطَا وَهُمْ أَيْضًا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ فَيَكُونُ هَذَا مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فِي فِعْلِهِ وَهَذَا مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فِي إِنْكَارِهِ وَالْكُلُّ مَغْفُورٌ لَهُمْ . وَقَدْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا كَمَا قَدْ يَكُونَانِ جَمِيعًا مُذْنِبِينَ . وَخَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ بَذْعَةٍ ضَلَالَةٌ . وَالْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يُعْطَى طَرَفًا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . فَيُؤَلِّي وَيَعْزِلُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ فَيُظَنُّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا كَمَالٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ كَمَالًا إِذَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْأَمْرِ فَيَكُونُ طَاعَةً لِلَّهِ وَإِلَّا فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُلْكِ وَأَفْعَالِ الْمُلْكِ : إِمَّا ذَنْبٌ وَإِمَّا عَفْوٌ وَإِمَّا طَاعَةٌ . فَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَفْعَالُهُمْ طَاعَةٌ وَعِبَادَةٌ وَهُمْ أَتْبَاعُ الْعَبْدِ الرَّسُولِ . وَهِيَ طَرِيقَةُ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ فِيمَا طَاعَةٌ وَإِمَّا عَفْوٌ ؛ وَهِيَ طَرِيقَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُلُوكِ ؛ وَطَرِيقَةُ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ : فَتَضْمَنُ الْمَعَاصِيَ ؛ وَهِيَ

طَرِيقَةُ الظَّالِمِينَ لَأَنفُسِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } فَلَا يَخْرُجُ الْوَاحِدُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَحَدٍ هَذِهِ الْأَصْنَافِ : إِمَّا ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَإِمَّا مُقْتَصِدٌ وَإِمَّا سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ . وَ " خَوَارِقُ الْعَادَاتِ " إِمَّا مُكَاشَفَةٌ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ الْخَارِقِ وَإِمَّا تَصَرُّفٌ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ الْخَارِقَةِ ؛ وَأَصْحَابُهَا لَا يَخْرُجُونَ عَنِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ .

مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٣ / ص ٣٣)

فَصَلُّ وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لِمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنْتَ شَرْعِيٌّ . فَكَلَامٌ صَحِيحٌ فَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّرْعَ لَا يَتَّبِعُهُ أَوْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ وَأَنَا خَارِجٌ عَنْ اتِّبَاعِهِ فَلَفْظُ الشَّرْعِ قَدْ صَارَ لَهُ فِي عَرَفِ النَّاسِ " ثَلَاثُ مَعَانٍ " الشَّرْعُ الْمُتَزَلُّ وَالشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ وَالشَّرْعُ الْمُبْدَلُ . فَأَمَّا الشَّرْعُ الْمُتَزَلُّ : فَهُوَ مَا ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهَذَا الشَّرْعُ يَجِبُ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ اتِّبَاعُهُ وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْمَلُهُمْ اتِّبَاعًا لَهُ وَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ هَذَا الشَّرْعَ أَوْ طَعَنَ فِيهِ أَوْ جَوَّزَ لِأَحَدٍ الْخُرُوجَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ . وَأَمَّا الْمُؤَوَّلُ فَهُوَ مَا اجْتَهَدَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَهَذَا مَنْ قَلَدَ فِيهِ إِمَامًا مِنَ الْأَئِمَّةِ سَاغَ ذَلِكَ لَهُ وَلَا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ الْبِزَامُ قَوْلُ إِمَامٍ مُعَيَّنٍ . وَأَمَّا الشَّرْعُ الْمُبْدَلُ فَهُوَ الْأَحَادِيثُ الْمَكْتُوبَةُ وَالتَّفَاسِيرُ الْمُقْلُوبَةُ وَالْبَدْعُ الْمُضِلَّةُ الَّتِي أُذْخِلَتْ فِي الشَّرْعِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ وَالْحُكْمُ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . فَهَذَا وَنَحْوُهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ اتِّبَاعُهُ . وَإِنَّمَا حُكْمُ الْحُكَّامِ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ وَحُكْمُ الْحَاكِمِ لَا يُجِيلُ الْأَشْيَاءَ عَنْ حَقَائِقِهَا . فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ . وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ } فَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الْحُكَّامِ وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ : فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَآخِطًا فَلَهُ أَجْرٌ } " وَقَالَ { الْقَضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ . رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ بِجَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ } " . وَمَنْ خَرَجَ عَنِ الشَّرْعِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَانًّا أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلْحَقِيقَةِ فَإِنَّهُ مُضَاهٍ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ وَلَفْظُ " الْحَقِيقَةُ " يُقَالُ : عَلَى " حَقِيقَةٍ كَوْنِيَّةٍ " وَ " حَقِيقَةٍ بَدِيعِيَّةٍ " وَ " حَقِيقَةٍ شَرْعِيَّةٍ " . ف " الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ " مَصْنُوعُهَا الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ . وَهَذَا مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَحْتَجَّ بِهِ بَلْ لِلَّهِ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَمَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ فَحُجَّتُهُ دَاحِضَةٌ وَمَنْ اعْتَذَرَ بِالْقَدَرِ عَنِ الْمَعَاصِي فَعُذْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ . وَأَمَّا " الْحَقِيقَةُ الْبَدِيعِيَّةُ " فَهِيَ سُلُوكُ طَرِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِمَّا يَقَعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ مِنَ الذُّوقِ وَالْوَجْدِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْهُوَى مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . كَطَرِيقِ النَّصَارَى فَهُمْ تَارَةً يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَتَارَةً يَعْبُدُونَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ . كَالنَّصَارَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَشَرَعُوا مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ . وَأَمَّا دِينُ الْمُسْلِمِينَ فَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } وَقَالَ تَعَالَى : { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاصٍ : [أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ قَالُوا :] وَمَا أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ . قَالَ : إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا . وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : " اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لَوْجَهَكَ خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لَأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا " . وَأَمَّا " الْحَقِيقَةُ الدِّيْنِيَّةُ " وَهِيَ تَحْقِيقُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِثْلُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ وَالصَّبْرِ لِحُكْمِ اللَّهِ وَالْحَبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالبُغْضِ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَهَذَا حَقَائِقُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَطَرِيقُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ .

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٩ / ص ٢٧٦)

وَعَلَى الْحُكَّامِ أَنْ لَا يَحْكُمُوا إِلَّا بِالْعَدْلِ . " وَالْعَدْلُ " هُوَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْثِرُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } فَأَوْجَبَ اللَّهُ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ مَعَ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَأَوْجَبَ عَلَى الْأُمَّةِ إِذَا تَنَازَعُوا أَنْ يَرُدُّوهُمَا مَا تَنَازَعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْحَكَمُ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ وَالْحُكْمُ لَهُ وَحْدَهُ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ؛ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ وَكَانَتْ لَهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ عَصَى الرَّسُولَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ ؛ قَالَ تَعَالَى : { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَتَى تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } . وَقَالَ تَعَالَى { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ هَدَاهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ ؛ لَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَبْغِي عَلَى بَعْضٍ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِالْحَقِّ فَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَيُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَرْبِغُ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَائِلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ } { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } فَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } وَقَالَ يُوسُفُ : { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } فَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَرُسُلُهُ يُبَلِّغُونَ عَنْهُ ؛ فَحُكْمُهُمْ حُكْمُهُ وَأَمْرُهُمْ أَمْرُهُ وَطَاعَتُهُمْ طَاعَتُهُ فَمَا حَكَمَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَمَرَهُمْ بِهِ وَشَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ وَجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ اتِّبَاعُهُ وَطَاعَتُهُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ . وَالرَّسُولُ يُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } فَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُحَكِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَأَفْضَلَ الْمُرْسَلِينَ وَأَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ حُكْمِهِ فِي شَيْءٍ سِوَاءَ كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْمُلُوكِ أَوْ الشُّعُوخِ أَوْ غَيْرِهِمْ . وَلَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى أَوْ عِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنَ الرُّسُلِ كَانَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكَمْ إِصْرِي فَأُولَئِذَا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } وَرَوَى عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ - عَلِيٍّ وَابْنِ

عَبَّاسٌ وَغَيْرُهُمَا - قَالُوا : لَمْ يَبْعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ عَهْدِ نُوحٍ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لِنِ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لِنِ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُهُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ أَنْ يُصَدِّقَ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ وَعَلَى النَّبِيِّ الْمُتَأَخَّرِ أَنْ يُصَدِّقَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ؛ وَلِهَذَا لَمْ تَخْتَلِفِ الْأَنْبِيَاءُ بَلْ دِينُهُمْ وَاحِدٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : { إِنَّا مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ } وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } { أَيُّ مِلَّتِكُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ كَقَوْلِهِمْ : { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ } { أَيُّ مِلَّةٍ . وَقَالَ تَعَالَى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَاحِدٌ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ كَمَا قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ؛ لَكِنَّ بَعْضَ الشَّرَائِعِ تَتَوَعَّدُ فَقَدْ يُشْرَعُ فِي وَقْتٍ أَمْرًا لِحِكْمَةٍ ثُمَّ يُشْرَعُ فِي وَقْتٍ آخَرَ أَمْرًا آخَرَ لِحِكْمَةٍ ؛ كَمَا شَرَعَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ الصَّلَاةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ فَتَتَوَعَّدُ الشَّرِيعَةُ وَالِدَيْنِ وَاحِدٌ وَكَانَ اسْتِقْبَالُ الشَّامِ ذَلِكَ الْوَقْتُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكَذَلِكَ السَّبْتُ لِمُوسَى مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَمَّا نُسِخَ صَارَ دِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ النَّاسِخُ وَهُوَ الصَّلَاةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَمَنْ تَمَسَّكَ بِالْمَنْسُوخِ دُونَ النَّاسِخِ فَلَيْسَ هُوَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَا هُوَ مُتَّبِعٌ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ بَدَّلَ شَرَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَابْتَدَعَ شَرعًا فَشَرعُهُ بَاطِلٌ لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُهُ كَمَا قَالَ : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } وَلِهَذَا كَفَرَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لِأَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِشَرَعٍ مُبَدَّلٍ مَنْسُوخٍ . وَاللَّهُ أَوْجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الرُّسُلِ ؛ فَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ وَهُوَ مَا أَتَى بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ الشَّرَعُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ ؛ - وَلَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَهُوَ الشَّرَعُ الَّذِي يُقَاتِلُ عَلَيْهِ الْمُجَاهِدُونَ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَسُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ تَنْصُرُ هَذَا الشَّرَعَ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَمَا قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : { أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَضْرِبَ بِهَذَا - يَعْنِي السِّيفَ - مَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا . يَعْنِي الْمُصْحَفَ } قَالَ تَعَالَى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } فَبَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَنزَلَ الْكِتَابَ وَأَنزَلَ الْعَدْلَ وَمَا بِهِ يَعْرِفُ الْعَدْلُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلَ الْحَدِيدَ . فَمَنْ خَرَجَ عَنِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ قُوتِلَ بِالْحَدِيدِ . فَالْكِتَابُ وَالْعَدْلُ مُتَلَازِمَانِ وَالْكِتَابُ هُوَ الْمُبَيِّنُ لِلشَّرَعِ ؛ فَالشَّرَعُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْعَدْلُ هُوَ الشَّرَعُ وَمَنْ حَكَمَ بِالْعَدْلِ فَقَدْ حَكَمَ بِالشَّرَعِ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْسُبُونَ مَا يَقُولُونَهُ إِلَى الشَّرَعِ وَلَيْسَ مِنَ الشَّرَعِ ؛ بَلْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إِمَّا جَهْلًا وَإِمَّا غَلْطًا وَإِمَّا عَمْدًا وَافْتِرَاءً وَهَذَا هُوَ الشَّرَعُ الْمُبَدَّلُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَصْحَابُهُ الْعُقُوبَةَ ؛ لَيْسَ هُوَ الشَّرَعُ الْمُنَزَّلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ فَإِنَّ هَذَا الشَّرَعَ الْمُنَزَّلَ كُلُّهُ عَدْلٌ لَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ وَلَا جَهْلٌ قَالَ تَعَالَى : { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ } فَالَّذِي أَنزَلَ اللَّهُ هُوَ الْقِسْطُ وَالْقِسْطُ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ اللَّهُ وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا أَلْفَانَاتٍ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } فَالَّذِي أَرَاهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ هُوَ الْعَدْلُ .

وَقَدْ يَقُولُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ كَالرُّبْعَةِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالًا بِاجْتِهَادِهِمْ ؛ فَهَذِهِ يَسُوغُ الْقَوْلُ بِهَا وَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَلْتَزِمَ إِلَّا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَهَذَا شَرْعٌ دَخَلَ فِيهِ التَّأْوِيلُ وَالْإِجْتِهَادُ وَقَدْ يَكُونُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُوَافَقًا لِلشَّرْعِ الْمُتَزَلِّ فَيَكُونُ لِصَاحِبِهِ أَجْرَانِ وَقَدْ لَا يَكُونُ مُوَافَقًا لَهُ ؛ لَكِنْ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ؛ فَإِذَا أَتَى الْعَبْدُ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ آجَرَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ وَغَفَرَ لَهُ خَطَاةً . وَمَنْ كَانَ هَكَذَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَذُمَّهُ وَلَا يَعْيبَهُ وَلَا يُعَاقِبَهُ وَلَكِنْ إِذَا عُرِفَ الْحَقُّ بِخِلَافِ قَوْلِهِ لَمْ يَجْزُ تَرْكُ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ وَذَلِكَ هُوَ الشَّرْعُ الْمُتَزَلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ دِينَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ لَا يُجَاهِدُونَ عَلَى قَوْلِ عَالِمٍ وَلَا شَيْخٍ وَلَا مُتَأَوِّلٍ ؛ بَلْ يُجَاهِدُونَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَيَكُونُ الدِّينُ لَهُ كَمَا فِي الْمُسْنَدِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ } وَقَالَ تَعَالَى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ { قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً : فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } . فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ أَنْ لَا يُعْبَدَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَلَا يَدْعُو غَيْرَهُ وَلَا يُصَلِّيَ لغيرِهِ وَلَا يَسْجُدُ لغيرِهِ ؛ وَلَا يَصُومُ لغيرِهِ وَلَا يَعْتَمِرُ وَلَا يَحُجُّ إِلَّا إِلَى بَيْتِهِ وَلَا يَذْبَحُ الْقَرَابِينَ إِلَّا لَهُ وَلَا يَخْلِفُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يَخَافُ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يَتَّقِي إِلَّا إِيَّاهُ . فَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ وَلَا يَهْدِي الْخَلْقَ إِلَّا هُوَ ؛ وَلَا يَنْصُرُهُمْ إِلَّا هُوَ وَلَا يَرْزُقُهُمْ إِلَّا هُوَ وَلَا يُغْنِيهِمْ إِلَّا هُوَ وَلَا يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ إِلَّا هُوَ قَالَ تَعَالَى : { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَلَّوْا إِلَهُينِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } { ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَ الشِّرْكَ كُلَّهُ وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ نَدًّا ؛ فَلَا يُدْعَى غَيْرُهُ لَا الْمَلَائِكَةُ وَلَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا الصَّالِحُونَ وَلَا الشَّمْسُ وَلَا الْقَمَرُ وَلَا الْكَوَاكِبُ وَلَا الْأَوْثَانُ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ ؛ بَلْ قَدْ بَيَّنَّ أَنْ مَنْ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا فَهُوَ كَافِرٌ قَالَ تَعَالَى : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } { وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } ذِمَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ يَدْعُو الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَيَّنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْهُمْ وَلَا تَحْوِيلَهُ وَأَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْوَسِيلَةِ وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ فَكَيْفَ يَدْعُونَ الْمَخْلُوقِينَ وَيَذَرُونَ الْخَالِقَ وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ إِذْ رَأَتْ وَلَدًا أَلْصَقَتْهُ بِطَنْهَا فَقَالَ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ وَاصِعَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا } وَهُوَ سُبْحَانَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } وَهُوَ تَعَالَى رَحِيمٌ وَدُودٌ . وَ " الْوُدُّ " اللَّطْفُ وَالْمَحَبَّةُ ؛ فَهُوَ يُوَدُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْوُدَّ فِي الْقُلُوبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : يُجِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى عِبَادِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَشْغُلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ وَلَا تَغْلُطُهُ الْمَسَائِلُ وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاحِ

الْمُلْحِنَ ؛ بَلْ يُحِبُّ مَنْ يَدْعُوهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيُبْغِضُ مَنْ لَا يَدْعُوهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { : مَنْ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ يَبْغِضُ عَلَيْهِ } وَقَالَ تَعَالَى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } وَقَالَ تَعَالَى تَعَالَى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ رَبُّنَا قَرِيبٌ فَنُنَاجِيهِ ؟ أَوْ بَعِيدٌ فَنُدَايِهِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَالْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ تُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَوَائِجُ بِالْحِجَابِ ؛ بَلْ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَقُولُ اللَّهُ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ فَصَفَّيْتُهَا لِي وَنَصَفْتُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ اللَّهُ حَمْدِي عَبْدِي فَإِذَا قَالَ : { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } قَالَ اللَّهُ : أَشَى عَلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ { مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ } قَالَ اللَّهُ : مَجْدَنِي عَبْدِي ؛ فَإِذَا قَالَ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } قَالَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قَالَ هَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَوَلَّى كَلَامَ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئًا قَدَمَهُ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئًا قَدَمَهُ وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ { وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِمَّنْ دَعَاهُ يَتَقَرَّبُ مِمَّنْ عَبْدُهُ وَأَطَاعَهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَيْئًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً } . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُؤَلِّي عِبَادَهُ إِحْسَانًا وَجُودًا وَكَرَمًا ؛ لَا لِحَاجَةٍ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا } وَلَا يُحَاسِبُ الْعِبَادَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ وَهُوَ الَّذِي يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } { وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } . وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ ؛ لَا أَحَدَ غَيْرَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : { آمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ } { آمَنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } وَقَالَ تَعَالَى : { قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ } وَأَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَةِ أَنَّ مَعْنَاهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَكْلَأُكُمْ بَدَلًا مِنَ اللَّهِ ؟ مِنَ الَّذِي يَذْفَعُ الْآفَاتِ عَنْكُمْ الَّتِي تَخَافُونَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَالرَّسُولُ هُوَ الْوَاسِطَةُ وَالسَّفِيرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ وَتَحْلِيلَهُ وَتَحْرِيمَهُ : فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا شَرَعَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى وَلاَةِ الْأَمْرِ إلْزَامُ النَّاسِ بِهِ وَيَجِبُ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ الْجِهَادُ عَلَيْهِ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ اتِّبَاعُهُ وَنَصْرُهُ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ اللَّازِمِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ " حُكْمُ الْحَاكِمِ " وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ أَفْضَلَ أَهْلَ زَمَانِهِ ؛ بَلْ حُكْمُ الْحَاكِمِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ يُلْزَمُ قَوْمًا مُعَيَّنِينَ تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ؛ لَا يُلْزَمُ جَمِيعُ الْخَلْقِ وَلَا يَجِبُ عَلَى عَالِمٍ مِنْ غُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْلَدَ حَاكِمًا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ إِذَا كَانَ قَدْ عَرَفَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ؛ بَلْ لَا يَجِبُ عَلَى أَحَادِ الْعَامَّةِ تَقْلِيدَ الْحَاكِمِ فِي شَيْءٍ ؛ بَلْ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يَجُوزُ لَهُ اسْتِفْتَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلَّمَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالَفَ لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَ مُرْتَدًّا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَالَ تَعَالَى :

{ المص } { كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِشَنْدَرٍ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } . وَلَوْ ضُرِبَ وَحْسٍ وَأُوذِيَ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى لِدَعَا مَا عَلَّمَهُ مِنْ شَرِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَاتَّبَعَ حُكْمَ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِعَذَابِ اللَّهِ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَإِنْ أُوْذِيَ فِي اللَّهِ فَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَأَتَّبَاعِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ أَنْ يُشْرِكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَتَبْلُوَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ } وَقَالَ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْطِمُ الْبِئْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَحُكْمُ الْحَاكِمِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ سُنَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُخَالِفُ مَا حَكَمَ بِهِ فَعَلَى هَذَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ مَا عَلَّمَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَأْمُرَ بِذَلِكَ وَيُقْنِي بِهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَلَا يَقْلُدَ الْحَاكِمَ . هَذَا كُلُّهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ . وَإِنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ عَالِمًا كَانَ أَوْ غَيْرِ عَالِمٍ مَا عَلَّمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ قَالَ تَعَالَى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ - مِثْلَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلَّمُوا فِي مَسَائِلَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُخَالِفُ اجْتِهَادَهُمْ - فَهُمْ مَعْدُورُونَ لِكُونِهِمْ اجْتِهَادُوا { لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } وَلَكِنْ مَنْ عَلَّمَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجْزُ لَهُ أَنْ يَبْدُلَ عَنْ السُّنَّةِ إِلَى غَيْرِهَا قَالَ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } وَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولُهُ كَانَ مَهْدِيًّا مَنْصُورًا بِنُصْرَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } { إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ } { وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } وَإِذَا أَصَابَتْ الْعِبْدَ مُصِيبَةٌ كَانَتْ بِذَنْبِهِ لَا بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْحَمُ وَيُنْصَرُ وَبِذُنُوبِهِ يُعَذَّبُ وَيُخَذَّلُ قَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } وَلِهَذَا لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ بَيْنَ اللَّهِ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ بِذُنُوبِهِمْ قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } وَقَالَ تَعَالَى : { أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } وَبَيْنَ سُبْحَانَهُ حِكْمَةٌ ابْتِلَاءِيَّةٌ فَقَالَ تَعَالَى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ } { إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ } { إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } { وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } وَاللَّهُ قَدَرُهَا وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ . لَكِنْ مَا أَصَابَ الْعَبْدَ مِنْ عَاقِبَةٍ وَنَصْرٍ وَرِزْقٍ فَهُوَ مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ فَالْخَيْرُ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ ؛ وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ بَلْ هُوَ فَقِيرٌ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا : وَمَا أَصَابَهُ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِذُنُوبِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يُكَفِّرُ ذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِتِلْكَ الْمَصَائِبِ وَيَأْجُرُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا وَيَغْفِرُ لِمَنْ اسْتَغْفَرَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ

وَلَا عَمَّ وَلَا خُزْنٍ وَلَا أَدَى حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِهَ ؛ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ { } وَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ : { } مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ { } قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَاءَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا ؟ قَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ ؟ أَلَسْتَ تُصِيكُ اللَّوَاءَ ؟ فَذَلِكَ مَا تُحْزَنُونَ بِهِ { } وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ أَخْبَارَ النَّبِيِّاءِ وَمَا أَصَابَهُمْ وَمَا أَصَابَ أَتْبَاعَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَذَى فِي اللَّهِ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَصَرَهُمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْنَا ذَلِكَ لِنَعْتَبِرَ بِهِ قَالَ تَعَالَى : { } لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ { } .

فَالشَّرْعُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَيَجِبُ عَلَى وُلَاةِ الْأَمْرِ نَصْرُهُ وَالْجِهَادُ عَلَيْهِ هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَأَمَّا حُكْمُ الْحَاكِمِ فَذَاكَ يُقَالُ لَهُ قَضَاءُ الْقَاضِي ؛ لَيْسَ هُوَ الشَّرْعُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ طَاعَتُهُ ؛ بَلْ الْقَاضِي الْعَالِمُ الْعَادِلُ يُصِيبُ تَارَةً وَيُخْطِئُ تَارَةً وَلَوْ حَكَمَ الْحَاكِمُ لِشَخْصٍ بِخِلَافِ الْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ لَمْ يُجْزَ لَهُ أَخْذُهُ وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ سَيِّدَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . { } إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ بَنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ { } فَهَذَا سَيِّدُ الْحُكَّامِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْمُلُوكِ يَقُولُ إِذَا حَكَمْتَ لِشَخْصٍ بِشَيْءٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَلَا يَأْخُذْهُ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ بِالْأَمْلَاكِ الْمُرْسَلَةِ لَا يَقْدُ فِي الْبَاطِنِ فَلَوْ حَكَمَ لَزِيدٍ بِمَالِ عَمْرٍو وَكَانَ مُجْتَهِدًا مُتَحَرِّيًا لِلْحَقِّ لَمْ يُجْزَ لَهُ أَخْذُهُ . وَأَمَّا فِي " الْعُقُودِ وَالْفُسُوحِ " مِثْلُ أَنْ يَحْكُمَ بِنِكَاحٍ أَوْ طَلَاقٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ فُسْخٍ بِيَعٍ فَبِهِ نَزَاعٌ مَعْرُوفٌ وَجُمْهُورُهُمْ يَقُولُونَ لَا يَنْفُذُ أَيْضًا وَهِيَ مَسْأَلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ؛ وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ عَالِمًا عَادِلًا وَقَدْ حَكَمَ فِي أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ . وَ " الْقَضَاةُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ " كَمَا فِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { } الْقَضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ . وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ { } فَالْقَاضِي الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا حَكَمَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ حَقٍّ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَخْذُهُ ؛ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ إِذَا حَكَمَ فِي الدِّينِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ ؛ بَلْ هُوَ فِيهِ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ تَكَلَّمَ وَإِلَّا سَكَتَ . مِثْلُ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّ السَّفَرَ إِلَى غَيْرِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ مَشْرُوعٌ مُسْتَحَبٌّ يَثَابُ فَاعِلُهُ وَأَنَّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ يُؤْذَى وَيُعَاقَبُ أَوْ يُحْسِنُ : فَهَذَا الْحُكْمُ بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لَا يَحِلُّ لِمَنْ عَرَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَلَا لَوْلِيٍّ أَمْرٌ أَنْ يَفْذَهُ وَمَنْ تَفَذَّ مِثْلَ هَذَا الْحُكْمِ وَنَصَرَهُ كَانَ لَهُ حُكْمُ أَمْتَالِهِ إِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ وَخَالَفَهَا اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ وَكَذَلِكَ إِنْ أَلْزَمَ بِمِثْلِ هَذَا جَهْلًا وَأَلْزَمَ النَّاسَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَإِنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِقَابِ فَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا عَفِيَ عَنْهُ . وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَى وُلَاةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ اتِّبَاعَ الشَّرْعِ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِذَا تَنَازَعَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ وَلَوْ كَانَ الْمُنَازِعُ مِنْ آخَادِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ لَمْ يَكُنْ لَوَلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يُلْزِمُوهُ بِاتِّبَاعِ حُكْمِ حَاكِمٍ ؛ بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبَيِّنُوا لَهُ الْحَقَّ كَمَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ لِلْجَاهِلِ الْمُتَعَلِّمِ فَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَظَهَرَ وَعَانَدَهُ بَعْدَ هَذَا اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ . وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الَّذِي قُلْتُهُ هُوَ قَوْلِي أَوْ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَقَدْ قُلْتُهُ اجْتِهَادًا أَوْ تَقْلِيدًا : فَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ لَا تَجُوزُ عُقُوبَتُهُ وَلَوْ كَانَ قَدْ أَخْطَأَ خَطَأً مُخَالَفًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ عُوقِبَ هَذَا لَعُوقِبَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ مَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ أَهْوَالٌ اجْتِهَدَ فِيهَا أَوْ قَلَّدَ فِيهَا وَهُوَ مُخْطِئٌ فِيهَا ؛ فَلَوْ عَاقَبَ اللَّهُ الْمُخْطِئَ لَعَاقَبَ جَمِيعَ الْخَلْقِ ؛ بَلْ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : { } آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَمْرٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

وَالَيْكَ الْمَصِيرُ } { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ وَلَمَّا قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتَ } وَكَذَلِكَ فِي سَائِرِ الدُّعَاءِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِمُعْتَبِي عَنِ الْخَطَا وَالنَّسْيَانِ وَمَا أُسْتُكِرْهُوا عَلَيْهِ } فَالْمُعْتَبِي وَالْجُنْدِيُّ وَالْعَلَمِيُّ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّيْءِ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ اجْتِهَادًا أَوْ تَقْلِيدًا قَاصِدِينَ لِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ بِمَبْلَغِ عِلْمِهِمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ يَاجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَخْطَأُوا خَطَأً مُجْمَعًا عَلَيْهِ . وَإِذَا قَالُوا إِنَّا قُلْنَا الْحَقَّ وَاحْتَجُّوا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ : لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْحُكَّامِ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ وَلَا يَحْكُمَ بَأَنَّ الَّذِي قَالَهُ هُوَ الْحَقُّ ذُونَ قَوْلِهِمْ بَلْ يَحْكُمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْحَقُّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَا يُعْطَى بَلْ يَظْهَرُ فَإِنْ ظَهَرَ رَجَعَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ سَكَتَ هَذَا عَنْ هَذَا وَسَكَتَ هَذَا عَنْ هَذَا ؛ كَأَمَلَسَاتِ النَّبِي تَهَعُ يَتَنَازَعُ فِيهَا أَهْلُ الْمَذَاهِبِ لَا يَقُولُ أَحَدٌ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ مَذْهَبٍ أَنْ يَتَّبِعَ مَذْهَبَ غَيْرِهِ لِكَوْنِهِ حَاكِمًا فَإِنَّ هَذَا يَنْقَلِبُ فَقَدْ يَصِيرُ الْآخَرُ حَاكِمًا فَيَحْكُمُ بَأَنَّ قَوْلَهُ هُوَ الصَّوَابُ . فَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ يُلْزَمُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ اتِّبَاعُهُ ؛ بِخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؛ حَقٌّ وَهُدًى وَبَيَانٌ لَيْسَ فِيهِ خَطَأٌ قَطُّ وَلَا اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ قَالَ تَعَالَى : { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } وَعَلَى وَلَاةِ الْأَمْرِ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ مِنَ التَّظَالُمِ فَإِذَا تَعَدَّى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مَنَعُوهُمْ الْعُدْوَانَ ؛ وَهُمْ قَدْ أَلْزَمُوا بِمَنْعِ ظُلْمِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ وَأَنْ يَكُونَ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ فِي بِلَادِهِمْ إِذَا قَامَ بِالشَّرْوَطِ الْمَشْرُوطَةِ عَلَيْهِمْ لَا يُلْزِمُهُ أَحَدٌ بَتَرَكِ دِينِهِ ؛ مَعَ الْعِلْمِ بَأَنَّ دِينَهُ يُوجِبُ الْعَذَابَ فَكَيْفَ يَسُوعُ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يُمْكِّنُوا طَوَائِفَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ وَحُكْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِقَوْلِهِ وَمَذْهَبِهِ هَذَا مِمَّا يُوجِبُ تَغْيِيرَ الدُّوَلِ وَانْتِقَاضِهَا ؛ فَإِنَّهُ لَا صَلَاحَ لِلْعِبَادِ عَلَى مِثْلِ هَذَا . وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحُكَّامُ قَدْ حَكَمُوا فِي مَسْأَلَةٍ فِيهَا اجْتِهَادٌ وَنِزَاعٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا كَانَ الْقَوْلُ الَّذِي قَدْ حَكَمُوا بِهِ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا هُوَ مَذْهَبُ أَيْمَتِهِمُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا قَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ؛ وَلَا فِيهِ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ قَوْلُهُمْ يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَاجْمَاعَ الْأَيْمَةِ فَكَيْفَ يَجُلُّ مَعَ هَذَا أَنْ يُلْزَمَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ بِاتِّبَاعِ هَذَا الْقَوْلِ وَيَنْفُذَ فِيهِ هَذَا الْحُكْمَ الْمُخَالِفَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَأَنْ يُقَالَ : الْقَوْلُ الَّذِي ذَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَقْوَالُ السَّلَفِ لَا يُقَالُ وَلَا يُفْتَى بِهِ بَلْ يُعَاقَبُ وَيُؤْذَى مَنْ أَفْتَى بِهِ وَمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَغَيْرُهُمْ وَيُؤْذَى الْمُسْلِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِكَوْنِهِمْ اتَّبَعُوا مَا عَلِمُوهُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَفِيَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَهُمْ يَعْدِرُونَ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَا يُلْزَمُونَ بِاتِّبَاعِهِمْ وَلَا يَعْتَدُونَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ يُعَانُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْحَقَّ بَلْ يُحْكَمُ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَيُلْزَمُ مَنْ عَرَفَ مَا عَرَفَهُ مِنْ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ أَنْ يَتْرَكَ مَا عَلِمَهُ مِنْ شَرَعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَجْلِ هَذَا لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ وَاللَّهُ لَا يَغْفُلُ عَنْ مِثْلِ هَذَا وَلَيْسَ الْحَقُّ فِي هَذَا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ فَإِنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا عَلِمُوهُ مِنْ شَرَعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَظْلِمُوا أَحَدًا فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَرَضٍ وَلَا لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ دَعْوَى ؛ بَلْ هُمْ قَالُوا نَحْنُ نَتَّبِعُ مَا عَرَفْنَاهُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَنَعْبُدُهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُهُ وَشَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ فَمَا دَعَانَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَنَا بِهِ أَطَعْنَاهُ وَمَا جَعَلَهُ الرَّسُولُ دِينًا وَقُرْبَةً وَطَاعَةً وَحَسَنَةً وَعَمَلًا صَالِحًا وَخَيْرًا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَاعْتَقَدْنَا لَهُ قُرْبَةً وَطَاعَةً وَفَعَلْنَاهُ وَأَحْبَبْنَا مَنْ يَفْعَلُ بِهِ وَدَعَوْنَا إِلَيْهِ وَمَا نَهَانَا عَنْهُ الرَّسُولُ

انتهينا عنه وإن كان غيرنا يعتقد أن ذلك قرينة فتحن علينا أن نطيع الرسول ليس علينا أن نطيع من خالفه وإن كان متأولاً . ومعلوم أن أهل الكتاب وأهل البدع يتبعون تعبدات كثيرة يرونها قرينة وطاعة وقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن قال أنا أطيع الرسول ولا أتعبد بهذه العبادات بل أنهى عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يسوغ أن يعارض بل لو كان مخطئاً مع اجتهدوا لم يستحق العقوبة بإجماع المسلمين . ولا يجب عليه اتباع حكم أحد بإجماع المسلمين وليس للحاكم أن يحكم بأن هذا أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هذا العمل طاعة أو قرينة أو ليس بطاعة ولا قرينة ولا بأن السفر إلى المساجد والقبور وقبر النبي صلى الله عليه وسلم يشرع أو لا يشرع ليس للحكام في هذا مدخل إلا كما يدخل فيه غيرهم من المسلمين ؛ بل الكلام في هذا لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمن كان عنده علم تكلم بما عنده من العلم . وليس لأحد أن يحكم على عالم بإجماع المسلمين ؛ بل يبين له أنه قد أخطأ فإن بين له بالدلالة الشرعية التي يجب قبولها أنه قد أخطأ وظهر خطؤه للناس ولم يرجع بل أصر على إظهار ما يخالف الكتاب والسنة والدعاء إلى ذلك وجب أن يمنع من ذلك ويعاقب إن لم يمتنع وأما إذا لم يبين له ذلك بالدلالة الشرعية لم تجز عقوبته باتفاق المسلمين ولا منع من ذلك القول ولا الحكم عليه بأنه لا يقول إذا كان يقول إن هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة كما قاله فلان فلان من علماء المسلمين ؛ فهذا إذا اجتهد فأخطأ لم يحكم عليه إلا بالكتاب والسنة ؛ والمنازع له يتكلم بما علم والحكم الذي حكم به لم يقله أحد من علماء المسلمين فعلماء المسلمين الكبار لو قالوا بمثل قول الحكام لم يكن لهم إلزام الناس بذلك إلا بحجة شرعية لا بمجرد حكمهم .

فإن الله إنما أوجب على الناس اتباع الرسول وطاعته واتباع حكمه وأمره وشرعه ودينه ؛ وهو حجة الله على خلقه ؛ وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والقي وطريق الجنة وطريق النار وبه هدى الله الخلق قال الله تعالى : { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والتين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً } { ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً } { رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل } وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : { ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين } فالحجة على الخلق تقوم بالرسل وما جاء به الرسول هو الشرع الذي يجب على الخلق قبوله وإلى الكتاب والسنة يتحاكم جميع الخلق . ولهذا كان من أصول السنة والجماعة أن من تولى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأخلفاء الراشدين وغيرهم لا يجب أن ينفرد واحد منهم بعلم لا يعلمه غيره ؛ بل علم الدين الذي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم يشترك المسلمون في معرفته وإذا كان عند بعضهم من الحديث ما ليس عند بعض بلغه هؤلاء لأولئك ؛ ولهذا كان الخلفاء يسألون الصحابة في بعض الأمور : هل عندكم علم عن النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فإذا تبين لهم سنة الرسول صلى الله عليه وسلم حكموا بها كما سألهم أبو بكر الصديق عن ميراث الجدة لما أتته فقال : ما لك في كتاب الله من شيء وما علمت لك في سنة رسول الله شيئاً ؛ ولكن حتى أسأل الناس . فسألهم ؛ فأخبره محمد بن مسلمة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهما السدس . وكذلك { عمر بن الخطاب لما سألهم عن الجنين إذا قيل قام بعض الصحابة فأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغرة عبد أو أمة { أي من قتل جيناً ضمنه بمملوك أو جارية لورثته فقضى بذلك قالوا : وتكون قيمته بقدر عشر دية أمه وعمر بن الخطاب قد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : { إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر } ورؤي {

أَنَّهُ ضَرَبَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ { وَقَالَ { لَوْ لَمْ أُبْعَثْ فِيكُمْ لُبْعَثَ فِيكُمْ عُمْرُ { وَمَعَ هَذَا فَمَا كَانَ يُلْزَمُ أَحَدًا بِقَوْلِهِ وَلَا يَحْكُمُ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ؛ بَلْ كَانَ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ وَيُرَاجِعُ فَتَاةً يَقُولُ قَوْلًا فَتَرُدُّهُ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا كَمَا أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الصَّدَاقَ مُحْدُودًا لَا يُزَادُ عَلَى صَدَاقَاتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : مَنْ زَادَ جُعِلَتْ الزِّيَادَةُ فِي بَيْتِ الْمَالِ - وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُعْجِلُونَ الصَّدَاقَ قَبْلَ الدُّخُولِ ؛ لَمْ يَكُونُوا يُؤَخِّرُونَهُ إِلَّا أَمْرًا نَادِرًا - فَقَالَتْ امْرَأَةٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَ تَحْرِمُنَا شَيْئًا أَعْطَانَا اللَّهُ إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ ؟ فَقَالَ : وَأَيْنَ ؟ فَقَالَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا { فَرَجَعَ عُمْرُ إِلَى قَوْلِهَا وَقَالَ : امْرَأَةٌ أَصَابَتْ وَرَجُلٌ أَخْطَأَ . وَكَانَ فِي مَسَائِلِ التَّرَاجُعِ مِثْلَ مَسَائِلِ الْقِرَائِنِ وَالطَّلَاقِ يَرَى رَأْيًا وَيَرَى عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ رَأْيًا وَيَرَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَأْيًا وَيَرَى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَأْيًا ؛ فَلَمْ يُلْزَمَ أَحَدًا أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِهِ بَلْ كُلُّ مِنْهُمْ يُفْتِي بِقَوْلِهِ وَعُمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِمَامُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا وَأَعْلَمُهُمْ وَأَدْبَهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ فَكَيْفَ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ الْحُكَّامِ خَيْرًا مِنْ عُمْرَ . هَذَا إِذَا كَانَ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادٍ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مَا قَالَهُ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا الْأَرْبَعَةَ وَلَا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ؛ وَإِنَّمَا يَقُولُهُ مِثْلُهُ وَأَمثَالُهُ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ وَالْأئِمَّةِ ؛ وَإِنَّمَا يَحْكُمُونَ بِالْعَادَاتِ الَّتِي تَرَبَّوْا عَلَيْهَا كَالَّذِينَ قَالُوا : { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ { وَكَمَا تَحْكُمُ الْأَعْرَابُ بِالسَّوَالِفِ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ وَهِيَ عَادَاتُ كَمَا يَحْكُمُ التَّر " بَالْيَاسِقِ " الَّذِي جَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعِلْمِ وَالِدِّينِ فَإِنَّمَا يَحْكُمُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا { وَقَالَ تَعَالَى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ { وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ وَاحِدٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ إِذَا خِيفَ الشَّقَاقُ بَيْنَهُمَا فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَيُّهُمَا الظَّالِمُ ؛ وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ ؛ بَلْ أَمْرٌ بِحُكْمَيْنِ ؛ وَأَنْ [لَا] يَكُونَا مُتَّهَمَيْنِ ؛ بَلْ حَكَمًا مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا { أَيُّ الْحَكَمَيْنِ { يُوقِفُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا { أَيُّ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ . فَإِنْ رَأَى الْمَصْلَحَةَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ جَمْعًا وَإِنْ رَأَى الْمَصْلَحَةَ أَنْ يَفْرَقَ بَيْنَهُمَا فَرَقًا ؛ إِمَّا بِعَوَضٍ تَبْذُلُهُ الْمَرْأَةُ فَتَكُونُ الْفُرْقَةُ خُلْعًا إِنْ كَانَتْ هِيَ الظَّالِمَةُ وَإِنْ كَانَ الزَّوْجُ هُوَ الظَّالِمُ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ . وَكَثُرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ حَكَمَانِ كَمَا سَمَّاهُمَا اللَّهُ حَكَمَيْنِ يَحْكُمَانِ بِغَيْرِ تَوْكِيلِ الزَّوْجَيْنِ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِمَا وَقِيلَ هُمَا وَكِيلَانِ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالْقَوْلِ الْآخَرَ فِي الْمَذْهَبَيْنِ . فَهُنَا لَمَّا اشْتَبَهَ الْحَقُّ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْحُكْمَ لَوَاحِدٍ وَهُوَ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ بَيْنَ زَوْجَيْنِ . وَلَوْ حَكَمَ حَاكِمٌ وَاحِدٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي أَمْرٍ ظَاهِرٍ لَمْ يَقْدِرْ حُكْمُهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ بِأُمُورِ الدِّينِ وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . هَذَا بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَحْكُمُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيِّنُهُ وَأَوْضَحَهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمُونَ إِذَا عَرَفُوا شَرَعَ بَيْنَهُمْ لَمْ يَعْدِلُوا عَنْهُ وَإِنْ كَانَ كُلُّ قَوْمٍ يَقُولُونَ عِنْدَنَا عِلْمٌ مِنَ الرَّسُولِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمْرٌ ظَاهِرٌ يُجْمَعُونَ فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ كَانَ أَحَدُ الْحِزْبَيْنِ لَهُمْ أَجْرَانِ وَالْآخَرُونَ لَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ { { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا { . " وَوَلِيُّ الْأَمْرِ " إِنْ عَرَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ وَأَمَكْنَهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا يَقُولُ هَذَا وَمَا يَقُولُ هَذَا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ حَكَمَ بِهِ ؛ وَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْهُ لَا هَذَا وَلَا هَذَا تَرَكَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ كُلٌّ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَسَبِ اجْتِهَادِهِ ؛ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُلْزَمَ أَحَدًا بِقَبُولِ قَوْلٍ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ حَاكِمًا . وَإِذَا خَرَجَ وَلَاةُ الْأُمُورِ عَنْ هَذَا فَقَدْ حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَوَقَعَ بِأُسْهُمِ

بَيْنَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَا حَكَمَ قَوْمٌ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا وَقَعَ بِأُسْهُمِ بَيْنَهُمْ } وَهَذَا مِنْ أَكْثَرِ
 أَسْبَابِ تَغْيِيرِ الدُّوَلِ كَمَا قَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فِي زَمَانِنَا وَغَيْرِ زَمَانِنَا وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ سَعَادَتَهُ جَعَلَهُ يَغْتَبِرُ بِمَا
 أَصَابَ غَيْرَهُ فَيَسْئَلُكَ مَسَلَّكَ مَنْ أَيْدَهُ اللَّهُ وَنَصْرَهُ وَيَجْتَنِبُ مَسَلَّكَ مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهَانَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ :
 { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } فَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَنَصْرُهُ هُوَ نَصْرُ كِتَابِهِ وَدِينِهِ
 وَرَسُولِهِ ؛ لَا نَصْرَ مَنْ يَحْكُمُ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَإِنَّ الْحَاكِمَ إِذَا كَانَ دِينًا لَكِنَّهُ حَكَمَ بِغيرِ عِلْمٍ
 كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا لَكِنَّهُ حَكَمَ بِخِلَافِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِذَا حَكَمَ بِمَا عَدَلَ وَلَا
 عِلْمَ كَانَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . وَهَذَا إِذَا حَكَمَ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لِشَخْصٍ . وَأَمَّا إِذَا حَكَمَ حُكْمًا عَامًّا فِي
 دِينِ الْمُسْلِمِينَ فَجَعَلَ الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا وَالسُّنَّةَ بَدْعًا وَالْبَدْعَةَ سُنَّةً وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا وَنَهَى
 عَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَأَمَرَ بِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ : فَهَذَا لَوْ أَنَّ آخَرَ . يَحْكُمُ فِيهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهُ الْمُرْسَلِينَ
 مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي { لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } { الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
 وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
 وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٩ / ص ٢٨٠)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ " الدَّعَاوَى " الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا وَلَاةُ الْأُمُورِ سَوَاءً سُمُّوا قَضَاةً أَوْ وَلَاةً أَوْ تَسَمَّى بَعْضُهُمْ
 فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَلَاةُ الْأَحْدَاثِ أَوْ وَلَاةُ الْمَظَالِمِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعُرْفِيَّةِ الْإِسْطِلَاحِيَّةِ ؛ فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ . وَعَلَى كُلِّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ الْأُمَّةِ أَوْ حَكَمَ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَنْ يَحْكُمَ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ
 وَأَنْ يَحْكُمَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {
 لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
 وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
 بِالْعَدْلِ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَنْ
 أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } فَالدَّعَاوَى " قِسْمَانِ " : دَعْوَى تُهْمَةٍ وَغَيْرِ تُهْمَةٍ . فَدَعْوَى التُّهْمَةِ أَنْ
 يَدَّعِيَ فِعْلًا يَحْرُمُ عَلَى الْمَطْلُوبِ يُوجِبُ عُقُوبَتَهُ ؛ مِثْلَ قَتْلِ ؛ أَوْ قَطْعِ طَرِيقٍ أَوْ سَرِقَةٍ ؛ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ
 الْعُدْوَانِ الْمُحَرَّمِ كَالَّذِي يَسْتَحْقِي بِهِ بِمَا يَتَعَدَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ فِي الْعَادَةِ . وَغَيْرِ التُّهْمَةِ أَنْ
 يَدَّعِيَ دَعْوَى عَقْدٍ مِنْ بَيْعٍ أَوْ قَرْضٍ أَوْ رَهْنٍ أَوْ ضَمَانٍ أَوْ دَعْوَى لَا يَكُونُ فِيهَا سَبَبُ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ ؛ مِثْلَ دَيْنٍ ثَابِتٍ فِي
 الذِّمَّةِ مِنْ ثَمَنِ بَيْعٍ أَوْ قَرْضٍ أَوْ صَدَاقٍ أَوْ دِيَّةٍ خَطَأٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . فَكُلُّ مِنَ الْقِسْمَيْنِ قَدْ يَكُونُ دَعْوَى حَدِّ اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ مَحْضٌ كَالشُّرْبِ وَالزُّنَا . وَقَدْ يَكُونُ حَقًّا مَحْضًا لَادِمِيًّا : كَالْأَمْوَالِ . وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ الْأَمْرَانِ كَالسَّرِقَةِ وَقَطْعِ
 الطَّرِيقِ فَهَذَانِ " الْقِسْمَانِ " إِذَا أَقَامَ الْمُدَّعِي فِيهِ حُجَّةً شَرْعِيَّةً وَإِلَّا فَالْقَوْلُ قَوْلُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مَعَ يَمِينِهِ ؛ لِمَا رَوَى
 مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى
 نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ ؛ وَلَكِنْ الْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ } وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : { أَنْ
 النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِالْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ } فَهَذَا الْحَدِيثُ نَصٌّ أَنْ أَحَدًا لَا يُعْطَى بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ .
 وَنَصٌّ فِي أَنَّ الدَّعْوَى الْمُتَضَمِّنَةَ لِلْبَاطِلِ تَجِبُ فِيهَا الْيَمِينُ ابْتِدَاءً عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ الدَّعَاوَى الْمُوجِبَةَ
 لِلْعُقُوبَاتِ لَا تُوجِبُ إِلَّا الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ ؛ بَلْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ { قَالَ لِلنَّاصِرِ لَمَّا اشْتَكَوْا

إِلَيْهِ لِأَجْلِ قَتِيلِهِمُ الَّذِي قُتِلَ بِخَيْرٍ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَبْنَاءُ عَمِّهِ حَوِصَةٌ وَمَحِصَةٌ وَكَانَ مُحِصَةٌ مَعَهُ بِخَيْرٍ وَقَالَ : أَنَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ قَالُوا : وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ وَلَمْ نَرِ ؟ قَالَ : فَتَبْرِكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَمِينًا قَالُوا : وَكَيْفَ نَأْخُذُ بِأَيْمَانِ قَوْمٍ كُفَّارٍ ؟ { أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ جَمِيعُهُمْ مِثْلُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ قَالَ : { يُقْسِمُ خَمْسُونَ مِنْكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَيُدْفَعُ بِرُمْتِهِ } وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِشَاهِدٍ وَيَمِينٍ { رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ . وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ أَصَحُّ وَأَشْهَرُ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَابِ . وَابْنُ عَبَّاسٍ الَّذِي يَرَوِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَنَّهُ قَضَى بِالْيَمِينِ مَعَ الشَّاهِدِ } وَأَنَّ هَذَا قَضَى بِهِ فِي دَعَاوَى وَقَضَى بِهِذَا فِي دَعَاوَى . وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ فِي أَلْسِنَةِ الْفُقَهَاءِ { الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ } فَهَذَا قَدْ رُوِيَ أَيْضًا ؛ لَكِنْ لَيْسَ إِسْنَادُهُ فِي الصَّحِّحَةِ وَالشُّعْرَةِ مِثْلَ غَيْرِهِ وَلَا رَوَاهُ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَنِ الْمَشْهُورَةِ وَلَا قَالَ بِعُمُومِهِ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ ؛ إِلَّا طَائِفَةً مِنْ فُقَهَاءِ الْكُوفَةِ مِثْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْيَمِينَ دَائِمًا فِي جَانِبِ الْمُنْكَرِ حَتَّى فِي الْقِسَامَةِ يُحْلِفُونَ الْمُدْعَى عَلَيْهِ وَلَا يَقْضُونَ بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِينِ وَلَا يَرَوْنَ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدْعَى عِنْدَ التَّكْوِيلِ وَاسْتَدَلُّوا بِعُمُومِ هَذَا الْحَدِيثِ . وَأَمَّا سَائِرُ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ وَفُقَهَاءِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمْ : مِثْلُ ابْنِ جَرِيرٍ وَمَالِكٍ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيَةَ وَغَيْرِهِمْ : فَتَارَةً يُحْلِفُونَ الْمُدْعَى وَتَارَةً يُحْلِفُونَ الْمُدْعَى عَلَيْهِ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ سُنَنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالْأَصْلُ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ أَنَّ الْيَمِينَ مَشْرُوعَةٌ فِي أَقْوَى الْجَانِبَيْنِ . " وَالْبَيِّنَةُ " عَنْهُمْ اسْمٌ لِمَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ . وَيَتَنَهَمُ نَزَاعٌ فِي تَفَارِيعِ ذَلِكَ ؛ فَتَارَةً يَكُونُ لَوْثًا مَعَ أَيْمَانِ الْقِسَامَةِ . وَتَارَةً يَكُونُ شَاهِدًا وَيَمِينًا . وَتَارَةً يَكُونُ دَلِيلًا غَيْرَ الشُّهُودِ كَالصَّفَةِ لِلْقُطْعَةِ . وَأَجَابُوا عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ : تَارَةً بِالتَّضْعِيفِ . وَتَارَةً بِأَنَّهُ عَامٌّ وَأَحَادِيثُهُمْ خَاصَّةٌ . وَتَارَةً بِأَنَّ أَحَادِيثَهُمْ أَصَحُّ وَأَكْثَرُ وَأَشْهَرُ ؛ فَالْعَمَلُ بِهَا عِنْدَ التَّعَارُضِ أَوَّلَى وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ طَلَبَ الْبَيِّنَةَ مِنَ الْمُدْعَى وَالْيَمِينَ مِنَ الْمُنْكَرِ فِي حُكُومَاتٍ مُعَيَّنَةٍ ؛ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ دَعَاوَى الشُّهُمِ ؛ مِثْلَ مَا خَرَجَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ { الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ : كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ حُكُومَةٌ فِي بَثْرٍ ؛ فَاخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ فَقُلْتُ : إِذَا يَحْلَفُ وَلَا يُبَالِي فَقَالَ : مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْطَعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ وَفِي رِوَايَةٍ فَقَالَ يَنْتَنُكَ أَنْتَهَا بَثْرُكَ ؛ وَإِلَّا فَيَمِينُهُ { وَعَنْ وَائِلِ بْنِ حَجَرٍ قَالَ : { جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ كَانَتْ لِأَبِي . فَقَالَ الْكِنْدِيُّ : هِيَ أَرْضِي وَيَسْدِي أَزْرَعُهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ . فَقَالَ : النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَضْرَمِيِّ : أَلَاكَ بَيِّنَةٌ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَلَاكَ يَمِينُهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ فَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ : لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَذْبَرَ الرَّجُلُ أَمَّا لَنْ يَحْلِفَ عَلَى مَا لَيْسَ كُلُّهُ ظُلْمًا لِيَلْقِيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ { رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ . فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ لَمْ يُوجِبْ عَلَى الْمَطْلُوبِ إِلَّا الْيَمِينَ مَعَ ذِكْرِ الْمُدْعَى لِقُجُورِهِ وَقَالَ " لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ " وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ كَانَ خَصَمُ الْأَشْعَثِ يَهُودِيًّا هَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَمَعَ هَذَا لَمْ يُوجِبْ عَلَيْهِ إِلَّا الْيَمِينَ وَفِي حَدِيثِ الْقِسَامَةِ أَنَّ الْأَنْصَارَ لَمَّا قَالُوا : كَيْفَ نَقْبَلُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ ؟ لَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ؛ فَعُلِمَ أَنَّ الدَّعَاوَى مُخْتَلِفَةٌ فِي ذَلِكَ . وَهَذَا الْقِسْمُ لَا أَغْلَمُ فِيهِ نَزَاعًا . أَعْنِي أَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ قَوْلُ الْمُدْعَى عَلَيْهِ مَعَ الْيَمِينِ إِذَا لَمْ

يَأْتِ الْمُدَّعِي بِحُجَّةٍ شَرْعِيَّةٍ ؛ وَهِيَ الْبَيِّنَةُ .

[وَالْبَيِّنَةُ] الَّتِي هِيَ الْحُجَّةُ الشَّرْعِيَّةُ : تَارَةً تَكُونُ بِشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ رَجُلَيْنِ . وَتَارَةً رَجُلٍ وَامْرَأَتَيْنِ . وَتَارَةً أَرْبَعِ شُهَدَاءَ وَتَارَةً ثَلَاثَةً عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَبَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ دَعْوَى الْإِفْلَاسِ فِيمَنْ عِلْمُ أَنَّ لَهُ مَالًا فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ مَخَارِقِ الْهَلَالِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ لِأَحَدٍ إِلَّا لثَلَاثَةِ رَجُلٍ تَحْمِلُ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمَسِّكُ ؛ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ؛ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ يَقُولُونَ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ؛ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سَحَتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سَحْتًا { وَلَئِنْ الْغَنَى مِنَ الْأُمُورِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَقْوَى بِهَا التُّهْمَةُ بِإِخْفَاءِ الْمَالِ . وَتَارَةً تَكُونُ الْحُجَّةُ شَاهِدًا وَيَمِينُ الطَّالِبِ عِنْدَ جُمْهُورِ فَقَهَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَفُقَهَاءِ الْحَدِيثِ . وَتَارَةً تَكُونُ الْحُجَّةُ نِسَاءً : إِمَّا امْرَأَةً عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ وَإِمَّا امْرَأَتَيْنِ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي رَوَايَةٍ وَإِمَّا أَرْبَعَ نِسَوَةٍ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ . وَتَارَةً تَكُونُ الْحُجَّةُ غَيْرَ ذَلِكَ . وَتَارَةً تَكُونُ الْحُجَّةُ اللَّوْثُ وَاللُّطْخُ وَالشُّبْهَةُ مَعَ أَيْمَانِ الْمُدَّعِي خَمْسِينَ يَمِينًا وَهِيَ الْقِسَامَةُ الَّتِي يُنْدَأُ فِيهَا بِأَيْمَانِ الْمُدَّعِي عِنْدَ عَامَّةِ فَقَهَاءِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ . وَتَمْتَنَّا عَنْ غَيْرِهَا بِأَنَّ الْيَمِينَ فِيهَا خَمْسُونَ يَمِينًا كَمَا امْتَنَزَتْ أَيْمَانُ اللَّعَانِ بِأَنَّ كَانَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ لِأَنَّ كُلَّ يَمِينٍ أُقِيمَتْ مَقَامَ شَاهِدٍ . وَالْقِسَامَةُ تُوجِبُ الْقَوْدَ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ وَتُوجِبُ الدِّيَةَ فَقَطْ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ . وَأَهْلُ الرَّأْيِ لَا يُحْلِفُونَ فِيهَا إِلَّا الْمُدَّعَى عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ مَعَ أَنَّهُمْ مَعَ تَحْلِيلِهِ يُوْجِبُونَ عَلَيْهِ الدِّيَةَ . عَلَى تَقْصِيلِ مَعْرُوفٍ لَيْسَ الْغَرَضُ هُنَا ذِكْرُهُ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّنْبِيهُ عَلَى مَجَامِعِ الْأَحْكَامِ فِي الدَّعَاوَى فَإِنَّهُ بَابٌ عَظِيمٌ وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ شَدِيدَةٌ عَامَّةٌ . وَقَدْ وَقَعَ فِيهِ التَّفْرِيطُ مِنْ بَعْضِ وَلَاةِ الْأُمُورِ وَالْعُدْوَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ مَا أَوْجَبَ الْجَهْلَ بِالْحَقِّ وَالظُّلْمَ لِلْخَلْقِ وَصَارَ لَفْظُ " الشَّرْعُ " غَيْرَ مُطَابِقٍ لِمُسَمَّاهُ الْأَصْلِيِّ ؛ بَلْ لَفْظُ الشَّرْعِ فِي هَذِهِ الْأَرْمَنِ " ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ " . " أَحَلُّهَا " الشَّرْعُ الْمُتَنَزَّلُ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتِّبَاعُهُ وَاجِبٌ مَنْ خَرَجَ عَنْهُ وَجَبَ قَتْلُهُ وَيَدْخُلُ فِيهِ أَصُولُ الدِّينِ وَفُرُوعُهُ ؛ وَسِيَاسَةُ الْأُمَرَاءِ وَوَلَاةُ الْمَالِ وَحُكْمُ الْحُكَّامِ وَمَشِيخَةُ الشُّيُوخِ وَغَيْرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْوَلِيِّينَ وَالْآخَرِينَ خُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَ " الثَّانِي " الشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ وَهُوَ مَوَارِدُ النَّزَاعِ وَالْاجْتِهَادِ بَيْنَ الْأُمَّةِ فَمَنْ أَخَذَ فِيمَا يَسُوعُ فِيهِ الْاجْتِهَادَ أَفْرَ عَلَيْهِ وَلَمْ تَجِبْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ مُوَافَقَتُهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ لَا مَرَدَّ لَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَ " الثَّلَاثُ " الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ مِثْلُ مَا بَيَّنْتُ مِنْ شَهَادَاتِ الزُّورِ أَوْ يُحْكَمُ فِيهِ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ بِغَيْرِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ حُكْمًا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَوْ يُؤْمَرُ فِيهِ بِإِفْرَارِ بَاطِلٍ لِإِضَاعَةِ حَقٍّ : مِثْلُ أَمْرِ الْمَرِيضِ أَنْ يَقْرَأَ لَوَارِثَ بَمَا لَيْسَ بِحَقٍّ لِيُبْطَلَ بِهِ حَقُّ بَقِيَّةِ الْوَرَثَةِ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِذَلِكَ وَالشَّهَادَةَ عَلَيْهِ مُحَرَّمَةٌ وَإِنْ كَانَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ بَاطِنَ الْأَمْرِ إِذَا حَكَمَ بِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ لَمْ يَأْتُمْ فَقَدْ قَالَ سَيِّدُ الْحُكَّامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ : { إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ؛ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ {

كتاب : الفرقانُ بينَ أولياءِ الرَّحْمَنِ وأولياءِ الشَّيْطَانِ
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الفرق بين الأمور الكونية والأمر الشرعية

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ " الْإِرَادَةِ " وَ " الْإَمْرِ " وَ " الْقَضَاءِ " وَ " الْإِذْنِ " وَ " التَّحْرِيمِ " وَ " الْبَحْثِ " وَ " الْإِرْسَالِ " وَ " الْكَلَامِ " وَ " الْجَعْلِ " : بَيْنَ الْكَوْنِيِّ الَّذِي خَلَقَهُ وَقَدَرَهُ وَقَضَاهُ ؛ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَلَا يُحِبُّهُ وَلَا يُثِيبُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَبَيْنَ الدِّينِيِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَشَرَعَهُ وَأَثَابَ عَلَيْهِ وَأَكْرَمَهُمْ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحَزَبِهِ الْمُفْلِحِينَ وَجَنَدِهِ الْغَالِبِينَ ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ الَّتِي يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ ، فَمَنْ اسْتَعْمَلَ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ فِيمَا يَبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ .

ف " الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ " (١) هِيَ مَشِيئَتُهُ لِمَا خَلَقَهُ ، وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ فِي مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ .
وَالْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ (٢) : هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ الْمُتَوَالِفُ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَجَعَلَهُ شَرْعًا وَدِينًا ، وَهَذِهِ مُخْتَصَّةٌ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } (٣) (١٢٥) سورة الأنعام ، وَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (٤) (٣٤) سورة هود ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } (٥)

- (١) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٤١٢) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٨٢) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٣١) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٨٨) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٨٩) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٢٥)
(٢) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٤١١) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٨٢) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٣١) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٤٠) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٨٨) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ١٨٩) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٤٤٠)

(٣) - إِذَا أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ يُبَسِّرُهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَيُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ ، وَالْإِيمَانِ بِهِ ، وَيَقْدِرُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ نُورًا يَنْشُرُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ ، كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّ أَحَدًا يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا لَا يَتَّسِعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَإِذَا طَلَبَ إِلَيْهِ التَّمَأُّلُ فِيمَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالنَّظَرِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ . وَجَدَ فِي صَدْرِهِ ضَيِّقًا عَنْ ذَلِكَ ، فَيَكُونُ مِثْلُهُ فِي ضَيْقِ الصَّدْرِ مِثْلُ مَنْ يَصْعَدُ إِلَى الطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا مِنَ السَّمَاءِ إِذْ يَشْعُرُ بِضَيْقٍ فِي النَّفْسِ ، وَكَلَّمَا تَزَايَدَ صُعُودُهُ تَزَايَدَ شُعُورُهُ بِضَيْقِ فِي النَّفْسِ .

وَكَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْتَالِهِ مِمَّنْ أَبَوَا الْإِيمَانَ ، فَيُغْوِيهِ ، وَيَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرَّجْسُ هُنَا هُوَ الشَّيْطَانُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ هُوَ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ) .

(٤) - وَأَيُّ شَيْءٍ يُعِيدُكُمْ نُصْحِي وَإِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّكُمْ وَيَغْوِيَكُمْ؟ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَا لَكَ أَرْمَةِ الْأُمُورِ ، الْمُتَصَرِّفُ الْمُطْلَقُ ، الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ النَّاسُ ، يَوْمَ الْحِسَابِ ، لِيَجْزِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ النَّصْحَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُهُ الْمُسْتَعِدُّ لِلرَّشَادِ ، وَيَرْفُضُهُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْغِيُّ وَالْفَسَادُ .

(٥) - إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بَقِيَ ، مِنْ خَيْرٍ إِلَى سُوءٍ ، إِلَّا إِذَا غَيَّرُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يُغَيِّرُ اللَّهُ مَا بَقِيَ مِنْ سُوءٍ إِلَى خَيْرٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأْتَتْهُمْ .

(وَرَوَى : أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَى نَبِيِّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ ، وَلَا أَهْلِ بَيْتٍ يَكُونُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، إِلَّا حَوْلَ اللَّهِ عَنْهُمْ مَا يُجْبُونَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ) .
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُصِيبَ قَوْمًا بِشَرٍّ عِقَابًا لَهُمْ ، فَلَا رَادَّ لِأَرَادَتِهِ وَقَضَائِهِ ، وَلَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَوْ يَرُدُّ قَضَاءَ اللَّهِ عَنْهُمْ .

(١١) سورة الرعد ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الثَّانِيَةِ : { وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (١) (١٨٥) سورة البقرة ، وَقَالَ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٢) (٦) سورة المائدة ، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَحَلَّهُ وَمَا حَرَّمَهُ مِنَ النِّكَاحِ قَالَ : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨) } (٣)

(١) - وَيُكَرِّرُ تَعَالَى ذِكْرَ الرُّخْصَةِ فِي الْإِفْطَارِ لِلْمَرْضَى وَالْمَسَافِرِينَ بِشَرْطِ قَضَاءِ الْأَيَّامِ الَّتِي يُفْطِرُونَهَا إِكْمَالًا لِلْعِدَّةِ ، وَمَتَى أَنْتَهَى الْمُؤْمِنُ عِبَادَتَهُ مِنْ صِيَامٍ وَصَلَاةٍ ، كَبَّرَ اللَّهُ ، وَذَكَرَهُ وَشَكَرَهُ عَلَى مَا هَدَاهُ ، لَعَلَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِلَّهِ عَلَى مَا أَعَانَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ .

(٢) - فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ شُرُوطَ الْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ ، وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوُضُوءِ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَهُمْ مُحْدَثُونَ (وَيُسْتَحَبُّ الْوُضُوءُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ) . وَالْوُضُوءُ هُوَ غَسْلُ الْوَجْهِ ، وَغَسْلُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ، وَمَسْحُ الرَّأْسِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ ، وَغَسْلُ الرَّجْلَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ : إِذَا كُنْتُمْ جُنُبًا فَاقْبَسُوا ، وَإِذَا كُنْتُمْ مَرْضَى لَا تَسْتَطِيعُونَ مَسَّ الْمَاءِ لِلْوُضُوءِ وَالْإِغْتِسَالِ ، أَوْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَكُمُ الْمَاءُ ، وَإِذَا أَحَدُكُمْ (جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ) ، أَوْ بَاشَرْتُمُ النِّسَاءَ . وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً لَتَغْتَسِلُوا وَتَتَوَضَّؤُوا فَتَيَمَّمُوا مَا صَعَدَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ مِنْ تُرَابٍ طَاهِرٍ (طَيِّبٍ) فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُيسِّرَ الْأَمْرَ عَلَيْكُمْ ، وَلَا يُخْرِجَكُمْ فِي أُمُورِ دِينِكُمْ ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَكُمْ ، وَأَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، فَيَجْمَعُ لَكُمْ بَيْنَ طَهَارَةِ الْأَبْدَانِ وَطَهَارَةِ الرُّوحِ ، لِيُعِدَّكُمْ بِذَلِكَ لِلنَّوَامِ شُكْرَهُ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَعَلَى مَا يَسِّرَهُ لَكُمْ .

(٣) - إِنْ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، مَا أَحَلَّ لَكُمْ ، وَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ إِلَى سُنَنِ مَنْ كَانُوا

قَبْلَكُمْ ، وَطَرَاتِقِهِمُ الْحَمِيدَةُ ، وَإِلَى اتِّبَاعِ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ، وَيُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ مِمَّا ارْتَكَبْتُمْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحَرَامِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدِيرٌ .
وَاللَّهُ يُرِيدُ بِمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا فِيهِ مَصَالِحُكُمْ وَمَنَافِعُكُمْ ، وَأَنْ تَهْتَلُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحًا ، وَتَتَّبِعُوا شَرْعَهُ لِيُتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيُرِيدَ أَتْبَاعَ الشَّيْطَانِ الضَّالُّونَ أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مِيلًا عَظِيمًا .
وَيُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ التَّكَالِيفَ فِي أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَشَرْعِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ فِي نَفْسِهِ وَعَزَمِهِ وَهَمَّتِهِ ، لِذَلِكَ أَبَاحَ لَكُمْ الزَّوَاجَ مِنَ الْإِمَاءِ بِشُرُوطٍ حَدَّدَهَا .

[النساء] ، وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ : { .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } (١) (٣٣) سورة الأحزاب ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُ كَانَ مُطَهَّرًا قَدْ أَزْهَبَ عَنْهُ الرِّجْسُ بِخِلَافِ مَنْ عَصَاهُ .
وَأَمَّا " الْأَمْرُ " فَقَالَ فِي الْأَمْرِ الْكَوْنِي : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (٢) (٤٠) سورة النحل ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } (٣) (٥٠) سورة القمر ، وَقَالَ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٤) [يونس/ ٢٤ ، ٢٥] .

(١) - ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِهِ تَطْهِيرًا لَا تَخَالِطُهُ شُبُهَةٌ مِنْ دَنَسِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ ، وَأَنْ يُذْهِبَ عَنْهُمْ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ .
(٢) - يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَأَنْ بَعَثَ الْخَلَائِقَ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، سَهْلًا عَلَيْهِ يَسِيرًا ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا دَاعِيَ لَأَنْ يَسْتَعْبِدَهُ الْكَفَّارُ ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ الشَّيْءُ لَوْفَتِهِ دُونَ أَنْ يَكْرُرَ اللَّهُ أَمْرَهُ مَرَّةً أُخْرَى { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } .
(٣) - يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُفُودِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ فَيَقُولُ : إِذَا أَرَدْنَا أَمْرًا قُلْنَا لَهُ : كُنْ . فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ ، فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ دُونَ إِبْطَاءٍ وَلَا تَأْخِيرٍ ، وَلَا يَحْتَاجُ أَمْرُنَا إِلَى تَأْكِيدِهِ مَرَّةً أُخْرَى .
(٤) - ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي جَمَالِهَا وَهَجَّتِهَا ، ثُمَّ فِي سُرْعَةِ فَنَائِهَا ، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ بِمَا أَتْرَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَطَرِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا ، وَمِمَّا تَأْكُلُ الْحَيَوَانَاتُ (الْأَنْعَامُ) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زِينَتَهَا الْفَانِيَةَ (زُخْرُفُهَا) وَازَّيَّنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَاهَا مِنْ زُهُورٍ نَضْرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، كَمَا تَتَرَيَنَّ الْعُرُوسُ لَيْلَةَ زَفَافِهَا ، وَظَنَّ أَهْلُهَا ، الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ، أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى جَزَائِهَا وَحَصَادِهَا ، وَجَنَى ثِمَارِهَا ، وَالتَّمَتُّعِ بِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَأْمُلُونَ ذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ ، أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ فَانْيَسَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَأَثْلَفَتْ ثِمَارَهَا ، فَاصْبَحَتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ حِينَ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهَكَذَا يُبَيِّنُ اللَّهُ الْحُجَجَ وَالْآيَاتِ ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ ، فِي زَوَالِ الدُّنْيَا عَنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا ، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا .

وَأَمَّا : الْأَمْرُ الدِّينِيُّ (١) : فَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٢) (٩٠) سورة النحل ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْتُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }

(٥٨) { (٣) [النساء/٥٨].

وَأَمَّا " الْإِذْنَ " فَقَالَ فِي الْكُونِيِّ لَمَّا ذَكَرَ السَّحَرُ : { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ }
(٤) [البقرة/١٠٢] أَيِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ وَإِلَّا فَالسَّحَرُ لَمْ يُحِخْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

(١) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٧٧) ومجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٢٦٤) ومجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٣٢٠) ومجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٤١١) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٢٤) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٦٧٣)

(٢) - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ ، وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي الْقُرْبَى مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَيَنْهَى عَنِ ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، مِمَّا يَأْتِيهِ الْعَبْدُ سِرًّا وَخَفِيَّةً وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ ، وَيَنْهَىكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالشَّرِّ ، لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ ، فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ .
(٣) - يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وَإِدَاءِ الْأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ : مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ . . .) وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ (كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَثَائِقَ وَبَيِّنَاتٍ عَلَيْهَا) . هَذِهِ الْآيَةُ تَزَلَّتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ . وَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَافَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْكَعْبَةِ ، ثُمَّ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ ، وَأَخَذَ مِنْهُ مُفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَدَخَلَهَا . فَجَاءَهُ الْعَبَّاسُ (وَقِيلَ بَلْ جَاءَهُ عَلِي) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْمَعْ لَنَا حِجَابَةَ الْكَعْبَةِ مَعَ السَّقَايَةِ . فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمِفْتَاحَ ، وَخَرَجَ يَهْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْعَدْلُ عَامًا لِلرَّبِّ وَالْفَاجِرِ ، وَلِكُلِّ أَحَدٍ ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ حَقْدٌ أَوْ كَرَاهِيَّةٌ أَوْ عَدَاوَةٌ .
ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَيَعْظُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، هُوَ الشَّرْعُ الْكَامِلُ ، وَفِيهِ خَيْرُهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ ، فَيَجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ
(٤) - وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِسِحْرِهِمْ هَذَا أَحَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ بِالضَّرَرِ إِنْ شَاءَ

وَقَالَ فِي " الْإِذْنِ الدِّينِيِّ " (١): { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٢) (٢١) سورة الشورى ، وَقَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ يَأْذَنُ بِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) { (٣) [الأحزاب/٤٥-٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيْخِزِي الْفَاسِقِينَ } (٤) (٥) سورة الحشر .
وَأَمَّا " الْقَضَاءُ " فَقَالَ فِي الْكُونِيِّ : { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَارِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (٥) (١٢) سورة فصلت ، وَقَالَ سُبحَانَهُ : { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (٦) (٤٧) سورة آل عمران .

(١) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٤١٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٢٥)

(٢) - إِنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ مِنْ تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَبَائِرِ وَالْوَصَائِلِ وَالسَّوَائِبِ ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالِدَمِّ ، وَالْيَسْرِ ، وَإِنْكَارِ الْبَغْتِ وَالتُّشْوِيرِ وَالْحِسَابِ . . وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى بِأَنْ يُؤَخَّرَ عِقَابُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ . وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِشَرِّعَ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ لَهُمْ بِهِ ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(٣) - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَكَ شَاهِدًا عَلَى مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ ، تُرَاقِبُ أَحْوَالَهُمْ ، وَتَرَى أَعْمَالَهُمْ ، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأُرْسَلْتَ مُبَشِّرًا لَهُمْ بِالْحَيَاةِ إِنْ صَدَّقُوا ، وَعَمَلُوا بِمَا جَنَّبَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمُنْذِرًا لَهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ إِنْ هُمْ كَذَّبُواكَ وَخَالَفُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ ، وَنَهَيْتَهُمْ عَنْهُ .

وَأِنَّهُ تَعَالَى بَعَثَكَ دَاعِيًا الْخَلْقَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَمُرَاقِبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ، وَجَعَلَ أَمْرَكَ ظَاهِرًا كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مَكَابِرٌ .

(أَوْ إِنْ الْمَعْنَى هُوَ : وَجَعَلْنَاكَ سَرَاجًا مُنِيرًا لِيَسْتَضِيَّ بِكَ الصَّالُّونَ ، وَيَتَّقَتَّسَ مِنْ نُورِكَ الْمُهْتَدُونَ) .

(٤) - لَمَّا حَاصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ فِي حُصُونِهِمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخْلِهِمْ إِرْعَابًا لَهُمْ ، فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَقُولُونَ : إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ ، فَمَا بَالُكَ تَأْمُرُ بِقَطْعِ الْأَشْجَارِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ وَفِيهَا يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ : إِنْ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ ، وَمَا تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعِ فَالْجَمِيعُ يَأْذَنُ اللَّهُ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ ، وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلَا حَرَجٌ ، وَفِيهِ نَكَايَةٌ وَخَرِيٌّ وَنَكَالٌ لِلْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ .

(٥) - فَأَتَمَّ خَلْقَهُنَّ وَجَعَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ، فَأَصْبَحَ خَلْقُ الْكَوْنِ كُلِّهِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . وَجَعَلَ فِي كُلِّ مِنْهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَمَا هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ . وَزَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِكَوَاكِبٍ مُضِيئَةٍ مِثْلُ لُئْلِيٍّ كَالصَّايِحِ ، وَحَفَظَهَا مِنْ الْأَضْطِرَابِ فِي سَيْرِهَا (وَحَفَظًا) ، وَجَعَلَهَا تَسِيرُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مَا دَامَ هَذَا النُّظَامُ بَاقِيًا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ . وَذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ تَقْدِيرُ اللَّهِ الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِ مَخْلُوقَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِمْ .

(٦) - فَلَمَّا جَاءَتْهَا الْبَشَرَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَخَذَتْ تُنَاجِي رَبَّهَا وَتَقُولُ : كَيْفَ يَا رَبِّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ، وَأَنَا لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ ، وَلَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ؟ فَأَجَابَتْهَا الْمَلَائِكَةُ : إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَيَخْلُقُ مَا يُرِيدُ بَأْنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الشَّيْءُ فَوَرَّ أَمْرُ اللَّهِ ، مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ وَلَا إِبْطَاءٍ .

وَقَالَ فِي الدِّيْنِيِّ (١) : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ .. } (٢) (٢٣) سورة الإسراء ، أَيْ أَمَرَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ قَدْرَ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ عُبِدَ غَيْرُهُ كَمَا أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٣) (١٨) سورة يونس ، وَقَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَأَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) } (٤) [الشعراء/٧٥-٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (٥)

(١) - أي في القضاء الديني

(٢) - يَا مُرُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ (وَقَضَى رَبُّكَ - يَعْنِي أَمَرَ رَبُّكَ وَوَصَّى) ، وَوَصَّى اللَّهُ

الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ،

(٣) - وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللَّهِ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَصْنَامٌ مِنْ حِجَارَةٍ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَعْلَمُ أَلَهُمْ إِنَّمَا يَحْبُلُونَهَا لِتَكُونَ شَفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، اسْأَلْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : هَلْ تُخْبِرُونَ اللَّهَ بِشَرِيكَ لَهُ لَا يَعْلَمُ اللَّهُ لَهُ وَجُودًا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ مَلَائِكَةٍ ، وَفِي الْأَرْضِ مِنْ خَوَاصِّ خَلْقِهِ؟ وَلَوْ كَانَ لَهُ شَفَعَاءُ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ لَكَانَ هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْكُمْ ، إِذْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

ثُمَّ تَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى تَقْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شُرَكَيْهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

(٤) - قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ : هَلْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا أَنْتُمْ؟ أَفَرَأَيْتُمْ - أَتَأْمَلْتُمْ فَعَلِمْتُمْ . وَالَّتِي عَبْدَهَا أَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ؟

إِنِّي بَرَاءٌ مِنْهَا جَمِيعًا ، وَأَنَا لَا أَعْتَرِفُ بِرُبُوبِيَّةِ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَإِنِّي لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ ، فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

(٥) - أَفَلَا تَأْسَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤَادُّونَ الْكَافِرِينَ بِأَبْيَهُمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ : إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْإِلَهِةِ وَالْأَنْدَادِ ، وَجَحَدْنَا مَا أَتَمَّ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَوْتَمُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ .

وَلَكُمْ فِي آيِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أَسْوَدَ حَسَنَةٍ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا ، وَتَعْبُرُونَ بِهَا فِي مَسَلِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَوُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتِغْفَارَهُ لِأَبِيهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا أَمْرُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمَ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجُّوْا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ قَانِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

(٤) سورة الممتحنة ، وَقَالَ تَعَالَى : { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) } {سورة الكافرون ، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَقْتَضِي بَرَاءَتَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَلَا تَقْتَضِي رِضَاهُ بِذَلِكَ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : { وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } (٢) (٤١) سورة يونس .

وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْمَلَا حِدَةٍ أَنَّ هَذَا رِضًا مِنْهُ بِدِينِ الْكَافِرِ فَهُوَ مِنْ أَكْذَابِ النَّاسِ وَأَكْفَرِهِمْ ، كَمَا ظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ : { وَقَضَى رَبُّكَ } بِمَعْنَى قَدَّرَ ، بَوَّأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا قَضَى بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَعَ ، وَجَعَلَ عِبَادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كُفْرًا بِالْكِتَابِ .

وَأَمَّا لَفْظُ " الْبَعْثِ " فَقَالَ تَعَالَى فِي الْبَعْثِ الْكَوْنِيِّ : { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا } (٣)

(١) - كَانَ كُفْرًا قُرَيْشٍ قَدْ عَرَضُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْبُدَ مَعَهُمْ آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَوْثَانِ سَنَةً ،

وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ رَبَّهُ سَنَةً ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ . وَفِيهَا يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ

د.

إِنِّي لَا أَعْبُدُ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا أَنْتُمْ لِأَنَّهَا حِجَارَةٌ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .
وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ إِلَهِي الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَهُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ الْوَاحِدُ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُوجِدُهُ ، وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَلَا أَنَا أَعْبُدُ مِثْلَ عِبَادَتِكُمْ فَلَا أَسْأَلُكُمْ ، وَلَا أَقْدِي بِهَا ، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ .
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مِثْلَ عِبَادَتِي ، فَعِبَادَتِي خَالِصَةٌ لِلَّهِ ، وَعِبَادَتُكُمْ يَشُوبُهَا الشَّرْكَ .

لَكُمْ دِينُكُمْ الَّذِي اعْتَقَدْتُمُوهُ . وَلَكُمْ جَزَاؤُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَلِي إِسْلَامِي ، وَلِي جَزَائِي عَلَى أَعْمَالِي .
(٢) - وَإِنْ أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِكَ ، مَعَ وُضُوحِ الْأَدْلَةِ عَلَى صِلَقِكَ فِيمَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ، فَقُلْ لَهُمْ : إِنْ لِي جَزَاءٌ
عَمَلِي ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ جَزَاءُ أَعْمَالِكُمْ ، وَلَنْ يَحْمِلَ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ وَزْرِ أَحَدٍ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ بَرِيءٌ مِنْ عَمَلِ الْآخَرِ ، وَلَا
يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بَعْمَلِ غَيْرِهِ .

(٣) - فَإِذَا حَانَ وَقْتُ الْعِقَابِ ، عَلَى إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِبَادًا مُؤْمِنِينَ مِنْ
خَلْقِهِ ، ذَوِي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الْحُرُوبِ ، فَقَهَرُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَتَرَدَّدُوا خِلَالَ بُيُوتِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا
، وَلَا يَخَافُونَ عَلَيْهِمْ رَدَّةً . وَكَانَ وَعْدُ اللَّهِ وَمَا قَضَاهُ كَانُوا لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ ، كَمَا قَضَى اللَّهُ وَأَعْلَمَ .
وَقَدْ وَرَدَتْ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَ (الْعِبَادِ) الَّذِينَ سَيَسْلُطُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلِّهَا تَجْعَلُ هَؤُلَاءِ مِنْ
الْأَقْوَامِ الْبَائِدَةِ (الْأَشُورِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَالرُّومَانِ . . .) عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ تِلْكَ الْأَقْوَامَ سَبَقَ لَهَا أَنْ أَذَاقَتْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْوَيْلَاتِ ، وَدَمَّرَتْ مُلْكَهُمْ ، وَشَرَّدَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ .

وَلَكِنَّ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ مَتَوَلَّى الشَّعْرَاوِيَّ يَرَى أَنَّ الْعِبَادَ الَّذِينَ عَنَاهُمْ النَّصُّ هُمُ الْمُسْلِمُونَ ذُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ شُعُوبِ
الْأَرْضِ . وَيَدْعُو رَأْيَهُ بِمَا خُلِصَتْهُ :

أ - اسْتَعْمَلَتِ الْآيَةُ تَعْبِيرَ (فَإِذَا جَاءَ) ؛ (وَإِذَا) ظَرْفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ ، يَعْنِي أَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكِيَّ عَنْهُ
سَيَحْدُثُ بَعْدَ الْقَوْلِ الَّذِي تَضْمَنَ لَفْظُهُ (إِذَا جَاءَ) . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَفْعُ
بَعْدَ نَزُولِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَى مَا قَضَاهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِحَادِثٍ وَقَعَ
قَبْلَهَا .

ب - اسْتَعْمَلَتِ الْآيَةُ عِبَارَةَ (عِبَادًا لَنَا) . وَعِبَادُ اللَّهِ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ، فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ تَعْنِي أَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ
سَيَسْلُطُهُمُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ ، وَمَنْ
أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ وَأَنْبِيَاءٍ لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ ، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ الْيَوْمَ مَنْ تَجْتَمِعُ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ .
كَمَا أَنَّ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ عَنْهَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ .

ج - إِنَّ الْعِبَادَ الَّذِينَ سَيَسْلُطُهُمُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ فِي الْمَرَّتَيْنِ ، وَإِنَّ الْيَهُودَ سَيَتَعَلَّبُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ
الْعِبَادِ بَعْدَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى الْكَرَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، بَعْدَ أَنْ يُمَكِّنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فُسَادًا فِي
الْأَرْضِ وَطُغْيَانًا . وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ بَقِيَّةٌ يُمَكِّنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى أَسْلَافِهَا الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا لِقَوْمٍ عَنْهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وَيَرَى الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ مَتَوَلَّى الشَّعْرَاوِيَّ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا لَهُمْ سُلْطَانٌ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْثَرُوا الْقَسَادَ زَمَنَ الرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَأَمَّرُوا عَلَى الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَسَلَطَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلُوا بَعْضَهُمْ ، وَأَخْرَجُوا

الباقين من ديارهم ، ولم يجعل الله تعالى في النص قهر اليهود في المرة الأولى من قبل عباد الله متلازماً مع دخول هؤلاء العباد المسجد الأقصى ، ولا يحدث ذلك في أرض فلسطين . وفي الحقيقة إن المسجد الأقصى كان ، حينما قهر المسلمون اليهود في الجزيرة العربية ، تحت حكم الرومان ، ولم يكن لليهود في فلسطين سلطان ولا كيان متميز في ذلك الحين .

قلت : وهذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات

(٥) سورة الإسراء ، وقال في البعث الديني : { هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٢) } (١) [الجمعة/٢] ، وقال تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٣٦) } (٢) [النحل/٣٦] .
وأما لفظ " الإرسال " فقال في الإرسال الكوني : { ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزرا (٨٣) } (٣) [مريم/٨٣] ، وقال تعالى : { وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤) } (٤٨) سورة الفرقان ، وقال في الديني (٥) : { يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٦) } (٤٥) سورة الأحزاب ، وقال تعالى : { إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١) } (٧) [نوح/١] ، وقال تعالى : { إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥) فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا مبينا (١٦) } (٨)

(١) - والله تعالى هو الذي أرسل رسولا في العرب الأميين هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أُمِّيٌّ منهم . لا يقرأ ولا يكتب ، ولقد بعثه الله إليهم ليتلوا عليهم آيات القرآن التي أنزلها الله تعالى ، ليظهرهم من خباث العقائد وليعلمهم الشرائع والأحكام ، وحكمتها وأسرارها ، وقد كان هؤلاء الأميون ، قبل إرسال النبي إليهم ، في ضلال بين عن جادة الهدى ، إذ إن العرب كانوا قبلا على دين إبراهيم ، ثم ابتعدوا عن التوحيد ، وتسربت الضلالات إلى عقيدتهم ، فأصبحوا مشركين .

(٢) - لقد بعث الله في كل أمة رسولا دعاهم إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، ونهاهم عن اتباع الشيطان (الطاغوت) ، وعن عبادة الأوثان ، وعن الشرك بالله ، فمن الناس من آمن بالله ، واتبع الرسل فاهتدى ، ومنهم من ضل واستكبر وعنا عن أمر ربه . فقل يا محمد ، لهؤلاء المشركين : سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت نهاية المكذبين ، وكيف دمر الله عليهم وأهلكهم ، وجعل عاقبتهم أسوأ عاقبة ، ولذلك كله فإن هؤلاء لا برهان لهم على قولهم إن الله رضي لهم الكفر .

(٣) - ألم تعلم أن الله سَلَطَ الشياطين على الكافرين والمشركين ، ليغويهم ، ويغريهم بارتكاب المعاصي ، ويهيئهم للوقوع فيها؟

(٤) - ومن دلائل قدرته تعالى أنه يرسل الرياح مبشرات بمجيء السحاب بعلها (بين يدي رحمته) ، ومن الرياح ما يثير السحاب ، ومنها ما يحملها ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يلقح السحاب ليُمطر ، وينزل الله تعالى مطرا من السماء يتطهر به الناس .

(٥) - أي وقال في الإرسال الديني

(٦) - يا أيها الرسول إن الله تعالى بعثك شاهدا على من أرسلت إليهم ، ثراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ،

وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَرْسَلَكُمُشْرًا لَهُمْ بِالْحَنَّةِ إِنَّ صَدَقُوكَ ، وَعَمِلُوا بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمُنْذِرًا لَهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ إِنَّهُمْ كَذَّبُوكَ وَخَالَفُوا مَا أَمَرْتُهُمْ بِهِ ، وَكَهَيْتُهُمْ عَنْهُ .
(٧) - إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ وَقُلْنَا لَهُ : أَنْذِرْ قَوْمَكَ بِأَسَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(٨) - إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ رَسُولًا يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ ، بِمَا أَجَبْتُمُوهُ عَلَى دَعْوَتِهِ لَكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلُ مُوسَى رَسُولًا إِلَى فِرْعَوْنَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ .
فَعَصَى فِرْعَوْنُ رَسُولَ رَبِّهِ ، وَهُوَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذًا شَدِيدًا ، وَأَغْرَقَهُ وَقَوْمَهُ فِي صَيِّحَةٍ وَاحِدَةٍ .

[المزمل/١٥، ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) } (١)
[الحج/٧٥] .

وَأَمَّا لَفْظُ " الْجُعَلِ " فَقَالَ فِي الْكُونِيِّ : { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) (٢) }
[القصص/٤١، ٤٢] ، وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (٣)

(١) - افْتَضَتْ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ الْكَرَامِ ، فِيمَا يَشَاءُ إِبْلَاغَهُ إِلَى رُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَأَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ ، فَكَيْفَ تَقْتَرِحُونَ عَلَى مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ رَسُولًا إِلَيْكُمْ؟ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، بِصِيرٍ بِأَحْوَالِهِمْ . عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ ، فَكَيْفَ تَقْتَرِحُونَ عَلَى مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ رَسُولًا إِلَيْكُمْ؟ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، بِصِيرٍ بِأَحْوَالِهِمْ . عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارَهُ اللَّهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ .

(٢) - وَجَعَلَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ أُمَّةً ، يَقْتَدِي بِهِمْ أَهْلُ الْعُتُوِّ وَالْكَفْرِ وَالضَّلَالِ ، فَهُمْ يَحْتَوْنَ عَنِ الشُّرُورِ وَالْمَعَاصِي ، الَّتِي تُلْقِي بِصَاحِبِهَا فِي النَّارِ ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَصِيرَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ ، وَيَقْتَدِي بِهِمْ فِي الْكَفْرِ ، وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ مِثْلَ مَصِيرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا ، مُتَّصِلًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ .

(٣) - وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ (الْكِتَابَ) إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدْحَهُ ، وَالْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَ نُزُولُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَشَرَعُهُ ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ .

وَالْقُرْآنُ جَاءَ أَمِينًا عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، وَشَاهِدًا عَلَيْهَا بِالْحَقِّ وَالصَّحَّةِ بِمَا بَيَّنَّهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهَا (مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) ، وَمُيَسِّرًا خَالَ مِنْ خُوطُبِهَا بِهَا : مِنْ نَسْيَانِ حَظِّ عَظِيمٍ مِنْهَا ، وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِمَّا بَقِيَ ، أَوْ تَأْوِيلِهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ .

وَبِمَا أَنَّ الرُّسُلَ جَاءَتْ رَقِيبًا وَأَمِينًا وَشَاهِدًا (مُهَيْمِنًا) عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، فَاحْكُمْ يَا

مُحَمَّدُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ - إِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْكَ - بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأَحْكَامِ ، ذُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، لِأَنَّ شَرِيْعَكَ نَاسِخَةٌ لِشَرِيْعِهِمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَرَغَائِبَهُمْ فِي الْحُكْمِ لَهُمْ بِمَا يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ ، وَيَخَفُ احْتِمَالُهُ .
ثُمَّ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ شَرِيْعَةً أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ إِقَامَةَ أَحْكَامِهَا ، وَمِنْهَا جِاْ وَطَرِيقًا فَرَضَ عَلَيْهِمْ سُلُوكَ لِتَرْكِيبَةِ نَفْسِهِمْ (فَاصْلُ الدِّينِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ الْعَمَلِيَّةَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْبَشَرِ ، وَطَبَاعِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ) .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، ذَاتَ شَرِيْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جِاْ وَاحِدٍ ، يَسِيرُونَ عَلَيْهِ ، لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ، لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيْمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَلِيُشَبِّهَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَيُعَاقِبَهُمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .
وَيَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

(٤٨) سورة المائدة، وَقَالَ تَعَالَى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) } (١) [المائدة/١٠٣] .
وَأَمَّا لَفْظُ " اتَّحَرِّمِ " فَقَالَ فِي الْكُوْنِيَّ : { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } (٢)(١٢) سورة القصص ، وَقَالَ تَعَالَى : { قَالَ فَإِنَّهَا مُتَحَرِّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } (٣) (٢٦) سورة المائدة.

(١) - الْبَحِيرَةُ هِيَ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَحْرُونَ أَذْنَهَا ، أَيْ يَشْتَقُونَهَا شَقًّا وَاسِعًا ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا اتَّجَعَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ وَكَانَ الْخَامِسُ أَتْنَى . وَكَانُوا يَجْعَلُونَ دَرَهَا لِلطَّوَاغِيَةِ ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَيُسَيِّبُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ .
السَّائِبَةُ - وَهِيَ الَّتِي تُسَيَّبُ بِأَنْ يَنْذُرَهَا لِأَهْلِيهِمْ ، فَتَرْعَى حَيْثُ تَشَاءُ ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، وَلَا يُجْزُ صَوْفُهَا ، وَلَا يُحْلَبُ لَبْنُهَا إِلَّا لِضَيْفٍ .
الْوَصِيلَةُ - هِيَ النَّاقَةُ الْبَكْرُ ، تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نَتَاجِ الْإِبِلِ ، ثُمَّ تُشَيِّ بِأَتْنَى ، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيَتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ .
الْحَامِي - هُوَ فَحْلُ الْإِبِلِ يُولَدُ مِنْ ظَهْرِهِ عَشْرَةُ أَبْطُنٍ ، فَيَقُولُونَ حَمَى ظَهْرُهُ ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، وَلَا يُمْنَعُ مَاءٌ وَلَا مَرَعَى .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُؤُلَاءِ بِأَنْ يُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ ، وَلَمْ يَشْرَعْ مَا شَرَعَهُ الْبُعَاةُ لِنَفْسِهِمْ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ ، ثُمَّ يَجْعَلُونَهُ شَرْعًا وَفُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ ، بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِمْ ، وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

(٢) - وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَى فِي دَارِ آلِ فِرْعَوْنَ ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَرْضَعَ مِنْ تَدْيِ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَةً تَصْلُحُ لِإِرْضَاعِهِ ، فَلَمَّا رَاتِهِ أُخْتُهُ فِي أَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ وَلَمْ تُظْهِرْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا ، فَقَالَتْ لَهُمْ : هَلْ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ حَافِظُونَ؟ فَذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى أُمِّهَا ، فَأَعْطَتْهُ تَدْيَهَا فَالْتَقَمَهُ ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ ، وَبَشَرُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى ، وَأَحْسَنْتْ إِلَيْهَا ، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا لِرَضْعِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهَا ، وَقَالَتْ لَهَا إِنَّ لَهَا زَوْجًا وَأَوْلَادًا ، فَسَمَحَتْ لَهَا امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِأَنْ تَأْخُذَهُ ، إِلَى بَيْتِهَا لِإِرْضَاعِهِ ، وَأَجَزَلَتْ لَهَا الْعَطَاءَ .

(٣) - فَلَمَّا دَعَا مُوسَى عَلَيْهِم ، حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ ، قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ دُخُولَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، يَتَّبِعُونَ خِلَالَهَا فِي الْأَرْضِ (أَيْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ) ، وَيَقِفُونَ مُتَحَرِّينَ مُتَرَدِّدِينَ ، لَا يَذَرُونَ مَصِيرَهُمْ ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْخُرُوجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، خِلَالَ الْمُدَّةِ الَّتِي قَضَاهَا . اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

وَحِلَالَ وَجُودِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءِ تُؤَفِّي مُوسَى وَهَارُونَ ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ (وَهُوَ مِنْ نَسْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَجَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا فِيهِمْ ، وَتُوَفِّي أَكْثَرَ الْجِيلِ الْقَدِيمِ ، وَنَشَأَ فِي الصَّحْرَاءِ وَالْحَرِيَّةِ جِيلٌ جَدِيدٌ . فَلَمَّا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ الَّتِي قَضَاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، خَرَجَ بِهِمْ يُوْشَعَ بْنُ نُونٍ ، وَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى إِحْدَى الْمَدَنِ فَحَاصَرَهَا وَفَتَحَهَا .

ثُمَّ سَلَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ : لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا قَضَيْتُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ .

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَنْصَحُنْ تَقَرِّبًا لِلْيَهُودِ ، وَبَيَانًا لِفَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا .

وَقَالَ فِي الدِّيْنِي : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْخُ الْيَوْمِ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) } (١) [الماندة/٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) } (٢)

(١) - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا حَرَّمَ أَكْلُهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ لَحْمِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ : الْمَيْتَةُ - وَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ وَلَا اصْطِيَادٍ وَذَلِكَ لِمَ فِيهَا مِنَ الْمَصْرَةِ ، وَيُسْتَشْنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ ، فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَا مَا مَاتَ بِتَذَكِّيَةٍ أَوْ بغيرِهَا .
وَالدَّمُ الْمُسْفُوحُ - وَهُوَ الدَّمُ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ .
وَكَانَ الْأَعْرَابُ فِي الْبَادِيَةِ إِذَا جَاعُوا فِي الصَّحْرَاءِ يَأْخُذُونَ شَيْئًا مُحَدَّدًا مِنْ عَظْمٍ أَوْ نَحْوِهِ فَيَقْصِدُونَ بِهِ حَيَوَانًا فَيَجْمَعُونَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ دَمٍ فَيَشْرَبُونَهُ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ .
وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ . (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ) .

لَحْمُ الْخِنْزِيرِ - إِنْسِيهِ وَوَحْشِيهِ . فَلَحْمُهُ حَرَامٌ .
مَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ - أَيْ مَا ذُبِحَ فَذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ . لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ الْأَنْعَامُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ .

(وَالْإِهْلَالُ هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ ، وَالْإِهْلَالُ هُنَا رَفْعُ الصَّوْتِ بِذِكْرِ اسْمِ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ .
وَالْمَوْقُوذَةُ - وَهِيَ الَّتِي تَضْرِبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ .
وَالْمُتَرَدِّيَةُ - وَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ، أَوْ تَقَعُ فِي بَثَرٍ فَتَمُوتُ فَلَا يَحِلُّ أَكْلُ لَحْمِهَا .

وَالنَّطِيحَةُ - وَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحِ غَيْرِهَا لَهَا ، فَهِيَ حَرَامٌ وَلَوْ خَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ ، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا .
وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ - وَهِيَ مَا عَدَّتْ عَلَيْهَا الْحَيَوَانَاتُ الْجَارِحَةُ فَقَتَلَتْهَا فَلَا تَحِلُّ بِالْإِجْمَاعِ .
وَأَسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْحَيَوَانُ الَّذِي لِحَقَّةِ الْإِنْسَانِ بِالدَّبْحِ ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ ،
فَإِنَّهُ إِذَا ذُبِحَ أَصْبَحَ حَلَالًا يَجُوزُ أَكْلُهُ لِلْمُسْلِمِينَ .
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ - مُحَرَّمٌ أَكْلُهُ .
وَالنَّصَبُ هِيَ حِجَارَةٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا تَذْبُحُ عِنْدَهَا الذَّبَائِحَ ، وَيُنْصَحُ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى
الْبَيْتِ بِلِمْاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ ، وَيُشْرَحُونَ اللَّحْمَ وَيَضْعُونَهُ عَلَى النَّصَبِ فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَكْلَ الذَّبَائِحِ الَّتِي
تَمَّ ذَبْحُهَا عِنْدَ تِلْكَ النَّصَبِ . فَالذَّبْحُ عِنْدَ النَّصَبِ مِنَ الشَّرْكِ .
ثُمَّ أَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ الَّتِي كَانَتْ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَحِلُّونَهَا ، عَمَلًا آخَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ
الْإِسْتِفْسَامُ بِالْأَزْلَامِ .

وَالْأَزْلَامُ وَاحِدُهَا (زَلَمٌ) ، هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ (سِهَامٍ) ثَلَاثَةٌ أَحَدُهَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ : (افْعَلْ) وَثَانِيهَا مَكْتُوبٌ
عَلَيْهِ : (لَا تَفْعَلْ) . وَثَالِثُهَا لَمْ يُكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ . فَإِذَا أُجَالَتْهَا فَطُلِعَ السَّهْمُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْهِ (لَا تَفْعَلْ) ، لَمْ يَفْعَلْ .
وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ لِلْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ (افْعَلْ) فَعَلْ . وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الْغُلُّ مِنَ الْكِتَابَةِ أَعَادَ . فَحَرَّمَ اللَّهُ الْإِسْتِفْسَامَ
بِالْأَزْلَامِ ، وَعَدَّهُ فِسْقًا ، وَخُرُوجًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ .
وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَ .
(٢) - هَذِهِ الْآيَةُ تَحْوِي تَحْرِيمَ الْمَحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ وَمِنَ الرِّضَاعِ ، وَالْمَحَارِمِ بِالصَّهْرِ .
فَمِنَ النَّسَبِ - تَحْرُمُ : الْأُمُّ وَالْجَدَّاتُ وَإِنْ عَلَوْنَ ، وَبَنَاتُ الْأَصْلَابِ ، وَبَنَاتُ الْأَوْلَادِ وَإِنْ نَزَلْنَ ، وَالْأُخْتُ وَالْعَمَّةُ
وَالْحَالَةُ ، وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَإِنْ نَزَلْنَ .
وَمِنَ الرِّضَاعِ - تَحْرُمُ : الْأُمُّ وَالْأُخْتُ مِنَ الرِّضَاعِ .
وَمِنَ الصَّهْرِ - تَحْرُمُ أُمُّ الزَّوْجَةِ (وَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَى ابْنَتِهَا) ، وَبِنْتُ الزَّوْجَةِ (الرَّبِيبَةُ) الْمَدْخُولُ بِهَا ،
وَزَوْجَةُ الْإِبْنِ ، وَجَمْعُ أُخْتِ الزَّوْجَةِ مَعَ الزَّوْجَةِ ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ زَوَاجٍ قَبْلَ هَذَا التَّحْرِيمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[النساء/٢٣] .

وَأَمَّا لَفْظُ " الْكَلِمَاتِ " فَقَالَ فِي الْكَلِمَاتِ الْكُونِيَّةِ : { وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ
رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ (١٢) } (١) [التحریم/١٢] ، وَكُتِبَتْ فِي الصَّحِيحِ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ
الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ » (٢) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ نَزَلَ مِنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي
مَنْزِلِهِ ذَلِكَ شَيْءٌ حَتَّى يَطْعَنَ عَنْهُ » (٣) .
وَكَانَ يَقُولُ : " قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرًّا وَمِنْ
شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ . فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ وَهَرَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
" (٤) . وَ { كَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّةُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ } " هِيَ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فَلَا يَخْرُجُ بَرٌّ وَلَا

فَاجِرٌ عَنْ تَكْوِينِهِ وَمَشِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ .

وَأَمَّا " كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ " وَهِيَ كُتُبُهُ الْمُتَرَلَّةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَاطَاعَهَا الْأَبْرَارُ وَعَصَاهَا الْفُجَّارُ .
وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَجَعَلَهُ الدِّينِيَّ وَإِذْنَهُ الدِّينِيَّ وَإِرَادَتُهُ الدِّينِيَّةُ . وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ
الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ ؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ حَتَّى إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرَ مَنْ يَدْخُلُ
النَّارَ ، فَالْخَلْقُ وَإِنْ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ فَقَدْ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ
وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ .

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ وَتَرَكُوا الْمَنْحُظَّورَ ، وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْتُولِ ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحْبَبُوهُ وَرَضِيَ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ .

وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ ، وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ ، فَهُوَ يُعْصِمُهُمْ وَيَغْضِبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ . وَبَسْطُ هَذِهِ
الْجُمْلَةِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرٌ وَإِنَّمَا كُتِبَتْ هُنَا تَنْبِيْهَا عَلَى مَجْمَعٍ " الْفَرْقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ " وَجَمْعُ
الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا اغْتِيَابُهُمْ بِمُوَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَارَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ
السُّعْدَاءِ وَأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْدَائِهِ أَهْلَ النَّارِ ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلَ الْهُدَى وَالرَّشَادِ ، وَبَيْنَ
أَعْدَائِهِ أَهْلَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ ، وَأَعْدَائِهِ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَيَّدَهُمُ بَرُوحُ
مَنْهُ .

(١) - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا آخَرَ لِلَّذِينَ آمَنُوا حَالِ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ ، وَمَا أُوتِيَتْ مِنْ كَرَامَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فَاصْطَفَاهَا اللَّهُ رُبُّهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَلَكًا كَرِيمًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ تَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ دَخَلَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ فِي خَلْوَتِهَا ،
فَاسْتَعَاذَتْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ ، فَبَشَّرَهَا بِأَنَّهَا سَيَكُونُ لَهَا وَلَدٌ يُوَلَّدُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، وَيَكُونُ نَبِيًّا كَرِيمًا .
وَتَفَخَّ فِيهَا الْمَلَكُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ فَحَمَلَتْ بَعِيسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَدَقَتْ مَرْيَمُ بِشَرَائِعِ اللَّهِ ، وَبِكُتِبَتْ إِلَيْهَا أَنْزَلَهَا عَلَى
رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَكَانَتْ فِي عِدَادِ الْقَانِتِينَ الْعَابِدِينَ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى .

(٢) - سنن أبي داود (٣٨٩٥) صحيح

(٣) - مسند أحمد (٢٧٨٨٤) صحيح لغيره = يظعن : يسافر

(٤) - مسند أحمد (١٥٨٥٩) وفيه ضعف

قَالَ تَعَالَى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمُ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (١) (٢٢) سورة
المجادلة ، وَقَالَ تَعَالَى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) (٢) [الأنفال/١٢، ١٣] .

وَقَالَ فِي أَعْدَائِهِ : { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ
لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } (١٢١) (٣)

(١) - لَا تَجِدُ قَوْمًا يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبَيْنَ مُوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ رَسُولِهِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ
حَقًّا لَا يُؤَالُونَ الْكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ هُمْ أَهْلُهُمْ ، وَأَقْرَبُ بَاعَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ

، وَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ مُوَادَّةِ الْكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَاءَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ ، هُمُ الَّذِينَ ثَبَتَ اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، وَقَوَّاهُمْ بِطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ { وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ } ، وَسَيِّدَ خِلْفَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَيَبْقَوْنَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَبِمَا عَوَّضَهُمْ بِهِ لِمَسْخَاطِهِمُ الْأَقَارِبَ وَالْأَبْنَاءَ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، وَجُنْدُهُ ، وَحِزْبُهُ ، وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الْقَالِحِ وَالسَّعَادَةِ وَالتَّصَرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

بِرُوحٍ مِنْهُ - بِنُورٍ يَهْدِيهِ فِي قُلُوبِهِمْ أَوْ بِالْقُرْآنِ .

(٢) - وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا ، فَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِتَنْصُرَ الْمُسْلِمِينَ ، بِأَنْ يُنَبِّئُوا الْمُسْلِمِينَ وَيَقْوُوا قُلُوبَهُمْ ، فَيُلْهِمُوهُمْ تَذَكُّرَ وَعْدِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالتَّصَرُّ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى سَيَجْعَلُ الرَّعْبَ يَسْتَوِي عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ فَيُصِيبُهُمُ الْفَزَعُ . ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِأَنْ يَضْرِبُوا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَيَقْطَعُوهَا ، وَبِأَنْ يَقْطَعُوا الْأَيْدِي ذَاتِ الْبَنَانِ الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الضَّرْبِ فِي الْحَرْبِ .

(٣) - فَلَا تَأْكُلُوا أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ مِمَّا مَاتَ فَلَمْ تَذْبَحُوهُ ، وَلَا مِمَّا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، مِمَّا ذَبَحَهُ الْمُشْرِكُونَ لِأَوْثَانِهِمْ ، فَإِنْ أَكَلْتُمْ ذَلِكَ فَسَقٌ وَمَعْصِيَةٌ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَابْنُ حَبَلٍ : إِنَّ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ عَمْدٌ أَوْ سَهْوٌ يَجْعَلُ الذَّبِيحَةَ غَيْرَ حَلَالٍ . وَقَالَ الذَّبِيحُ بِغَيْرِ تَسْمِيَةٍ فَسَقٌ ، وَكَذَلِكَ الْأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ الَّتِي لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا فَسَقٌ .

- وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا تَشْتَرِطُ التَّسْمِيَةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ ، فَإِنْ تَرَكْتَ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا فَلَا ضَرَرَ فِي ذَلِكَ ، وَيَحِلُّ الْأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ . وَقَالَ إِنَّ الْحَرَّمَ هُوَ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ قُرَيْشٌ مِنْ نَحْرِ الذَّبَائِحِ لِلْأَوْثَانِ . - وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنَّ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ نِسْيَانًا لَا يَضُرُّ ، أَمَّا تَرْكُهَا عَمْدًا فَيَجْعَلُهَا غَيْرَ حَلَالٍ .

وَأَنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِالْوَسْوَسَةِ بِمَا يُجَادِلُونَكُمْ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ فَقَدْ جَادَلَتِ الْيَهُودُ النَّبِيَّ : فَقَالُوا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلْنَا ، وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ (أَيُّ مَاتَ حَتَفَ أَنْفَهُ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، أَرْسَلَتْ فَارِسُ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ خَاصِمُوا مُحَمَّدًا ، وَقُولُوا لَهُ : فَمَا تَذْبَحُ أَنْتَ بِسَكِينٍ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا ذَبَحَ اللَّهُ بِشَمَشِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ (أَيُّ الْمَيْتَةِ) فَهُوَ حَرَامٌ؟ وَسَمِعَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْقَوْلَ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ . . .) ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ أَطَعْتُمُ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَإِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ، لِأَنَّكُمْ تَكُونُونَ قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ شَرْعِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ ، إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ ، فَقَدْ مَتَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، وَهَذَا هُوَ الشَّرْكُ .

[الأنعام/١٢١] ، وَقَالَ : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } (١)(١٢٢) سورة الأنعام ، وَقَالَ : { هَلْ أَنْبَيْتُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلَ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزَلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُقْنُونَ السَّمْعَ وَكَثَرَتْهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) } (٢)

(١) - وَكَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءَ وَأَمْثَالَهُمْ أَعْدَاءَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ ، وَيُعَادُونَكَ ، كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَعْدَاءً مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (شَيَاطِينُ الْإِنْسِ هُمُ الْكُفَرَاءُ وَمَنْ يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الْهُدَى بِالْوَسْوَسَةِ وَالْإِغْرَاءِ وَالْمُخَادَعَةِ) ، وَيُلْقِي بَعْضُ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى بَعْضِ الْقَوْلِ الْمُمَوِّهِ الَّذِي يَطْنُونَ أَنَّهُمْ يَسْتُرُونَ بِهِ قُبْحَ بَاطِلِهِمْ ، وَيُؤَدُّونَهُ بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لَا يَفْطِنُ إِلَى بَاطِلِهَا كُلُّ وَاحِدٍ ، حَتَّى يَغُرُّوا النَّاسَ وَيَخْدَعُوهُمْ وَيَمِيلُوهُمْ إِلَى مَا يُرِيدُونَ ، كَمَا وَسَّوَسَ الشَّيْطَانُ لَأَدَمَ وَحَوَّاءَ لِلْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاَهُمَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَكَمَا يُوسَّسُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ لِمَنْ يَجْتَرِحُونَ السَّيِّئَاتِ ، فَيَزَيِّنُونَ لَهُمْ مَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ اللَّذَّةِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِالْحَرِيرَةِ ، وَيَمْنُونَهُمْ بِعَفْوِ اللَّهِ .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَفْعَلُوا ذَلِكَ لَمَا فَعَلُوهُ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ إِذْ خَلَقَ النَّاسَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

(٢) - زَعَمَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِحَقٍّ ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ افْتَعَلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ بِهِ رَأْيِي مِنَ الْجَانِّ .

وَيُرَدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ مُنَزَّهًا رَسُولُهُ الْكَرِيمَ عَنْ قَوْلِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ، وَمُنَبِّهًا إِلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ إِنََّّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِينِ ، لِأَنَّ الشَّيَاطِينِ إِنَّمَا تَنْزِلُ عَلَى مَنْ يُشَاكِلُهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُهَّانِ الْكَذِبَةِ الْفَسَقَةِ .

إِنَّهُمْ يَتَزَلَّلُونَ عَلَى كُلِّ كَاذِبٍ (أَفَّا كِ) فَاجِرٍ كَثِيرِ الْإِثْمِ مِنَ الْكُهَّانَةِ .

وَيَسْتَرْقِ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، فَيَزِيدُونَ فِيهَا الْكَذِبَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيُلْقُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ ، فَيَحْدِثُونَ بِهِ ، وَيَزِيدُونَ فِيهِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوا بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ . وَمُحَمَّدٌ رَجُلٌ لَا يَكْذِبُ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى مُقَارَنَتِهِ بِالْكُهَّانَةِ الْكَذَّابِينَ .

قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَشَاعِرٌ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ يُرَدُّ بِهَا عَلَى افْتِرَائِهِمْ هَذَا ، وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْقُرْآنَ فِيمَا حَوَاهِ مِنْ حِكْمٍ وَأَحْكَامٍ ، وَفِي أَسْلُوبِهِ يَتَنَاقَضُ مَعَ الشَّعْرِ . وَإِنْ حَالَ مُحَمَّدٌ يَتَنَاقَضُ مَعَ حَالِ الشُّعْرَاءِ ، فَهُوَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ ، وَالصِّدْقِ ، وَيَتَّبِعُهُ الصَّادِقُونَ الْمُخْلِصُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَقُولُونَ الْبَاطِلَ وَالزُّورَ ، وَلَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا الضَّالُّونَ .

وَالشُّعْرَاءُ يَخُوضُونَ فِي كُلِّ لَغْوٍ ، وَيَهيمُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْكَلَامِ ، فَهُمْ يَخُوضُونَ مَرَّةً فِي شَتِيمَةِ فَلَانٍ ، وَمَرَّةً فِي مَدِيحِ فَلَانٍ ، فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ .

وَالشُّعْرَاءُ يَقُولُونَ مَا لَا يَلْتَزِمُونَ بِهِ فِي عَمَلِهِمْ ، وَيَتَّبِعُونَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ تَصْدُرْ عَنْهُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، فَيَتَكَبَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ ، وَالرَّسُولُ الَّذِي أُثِرَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ لَيْسَ بِكَاهِنٍ ، وَلَا شَاعِرٍ لِأَنَّ حَالَهُ مُنَافٍ لِحَالِ الشُّعْرَاءِ مِنْ وَجْهِ ظَاهِرَةٍ .

وَاسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ الشُّعْرَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَتَوَلَّوْا الرَّدَّ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ .

(وَفِي الْحَدِيثِ : " إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بَسِيفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَ بِهِ نَضْحَ النَّبْلِ ") .
أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرِّ ، وَهَجَّاءِ الرَّسُولِ ، كَيْفَ يَكُونُ مُنْقَلَبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعِيرَتُهُمْ .

[الشعراء/ ٢٢١-٢٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) } (١) سورة الحاقة ، وَقَالَ تَعَالَى : { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) } (٢)

(١) - قَسَمًا بِمَا تُشَاهِدُونَهُ فِي عَالَمِ الْمَرْئِيَّاتِ . وَقَسَمًا بِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ .
 إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمَا يَقُولُهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ الْمُكَذِّبُونَ هُوَ قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، يُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّهِ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ شَاعِرًا ، وَإِنَّكُمْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا إِيْمَانًا قَلِيلًا .
 وَمَا هُوَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ كَمَا تَزْعُمُونَ ، لِأَنَّهُ سَبَّ الشَّيَاطِينَ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ إِيْمَانًا مِنْهُمْ . وَلَكِنَّكُمْ لَمَّا لَمْ تَسْتَطِعُوا فَهَمُّهُ فَلَنْتُمْ إِنَّهُ كَلَامُ كُهَّانٍ ، فَمَا أَقَلَّ تَذَكُّرُكُمْ وَتَدَبُّرُكُمْ .
 لَيْسَ الْقُرْآنُ قَوْلُ شَاعِرٍ ، وَلَا قَوْلُ كَاهِنٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ الرُّوحِ الْأَمِينِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 وَلَوْ أَنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَى عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ ، فَرَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا ، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَتَسَبَّهَ إِلَيْنَا ، لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ . لِأَمْسَكْنَا بِيَمِينِهِ كَمَا يُفْعَلُ بِمَنْ تُضْرَبُ أَعْنَاقُهُمْ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ عِرْقَ الْعُنُقِ الْأَكْبَرِ . وَمَتَى قُطِعَ الْوَتِينَ كَانَ الْمَوْتُ الْمُحَقَّقُ . وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَحْجِزَ عِقَابَنَا وَيَمْنَعَهُ مِنَ التَّنْزِيلِ بِهِ . وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ، فَيُطِيعُونَ أَوْامِرَهُ ، وَيَتَّقُونَ عَمَّا زَجَرَهُمْ عَنْهُ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ يَكْذِبُونَ النَّبِيَّ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِ .
 وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُسَبِّبُ حَسْرَةً عَظِيمَةً لِلْكَافِرِينَ ، حِينَمَا يَرَوْنَ فَوْزَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ سَبَبُ حَسْرَةٍ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، حِينَمَا يَرَوْنَ فَوْزَهُمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ ، وَإِكْرَامِهِ لَهُمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .
 وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى .
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَزَكَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ ، وَدُمَّ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ الْكَرِيمِ .
 (٢) - يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الْكَرِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَى النَّاسِ ، وَبِأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَقُولَ لَهُ تَعَالَى : إِنَّكَ لَسْتَ ، بِحَمْدِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ ، بِكَاهِنٍ مِنَ الْكُهَّانِ ، الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَتَّصِلُونَ بِالْجِنِّ ، وَيَأْتُونَ بِأَسْرَارِ الْغَيْبِ مِنْهُمْ ، وَلَسْتَ بِمَجْنُونٍ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .
 (كَانَ مُشْرِكُوا قُرَيْشٍ لَا يَجِدُونَ مَا يَرُدُّونَ بِهِ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ إِلَّا الْقَوْلَ تَارَةً إِنَّهُ كَاهِنٌ ، وَتَارَةً إِنَّهُ مَجْنُونٌ يَهْذِي بِكَلَامٍ لَا مَعْنَى لَهُ ، وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ هَذَا نَافِيًا مَا يَتَّهِمُونَ بِهِ الرَّسُولَ) .
 بَلْ هُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ شَاعِرٌ نَنْتَظِرُ أَنْ تَنْزِلَ بِهِ قَوَارِعُ اللَّهْرِ فَيَمُوتَ وَنُسْتَرِيحَ مِنْهُ .
 فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : انظُرُوا أَنْ يَنْزِلَ رَبُّ الْمُنُونِ فَإِنِّي مُتَرَبِّصٌ مَعَكُمْ ، مَتَّظِرٌ قَضَاءَ اللَّهِ فِيَّ وَفِيكُمْ ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ

تَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةَ وَالظُّفْرُ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

بَلْ تَأْمُرُهُمْ عُقُولُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَ فِي الرَّسُولِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ ، وَأَنَّهَا مُتَنَاقِضَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا ، فَالشَّاعِرُ غَيْرُ الْكَاهِنِ وَغَيْرُ الْمُجْتَنِبِ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ، ضَالُّونَ ، مُعَانِدُونَ .
أَيَقُولُونَ شَاعِرٌ ، أَمْ يَقُولُونَ كَاهِنٌ ، أَمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ كَذِبًا وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ .
وَالْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ كُفْرَهُمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلٍ مَا يَقُولُونَ .
فَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ إِنَّ مُحَمَّدًا تَقُولُ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، إِنَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ ، مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانُوا هُمْ أَسَاطِينُ الْبِلَاغَةِ فِي عَصَرِهِمْ .

[الطور/٢٩-٣٤].

فَنَزَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّنْ تَفْتَرُونَ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُهَّانِ وَالشُّعْرَاءِ وَالْمَجَانِينِ ؛
وَيَبِينُ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ بِالْقُرْآنِ مَلَكٌ كَرِيمٌ اصْطَفَاهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } (٧٥) { (١) [الحج/٧٥، ٧٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) } (٢) [الشعراء/١٩٢-١٩٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } (٣) (٩٧) سورة البقرة.

وَقَالَ تَعَالَى : { فِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) } (٤)

(١) - اقْتَضَتْ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ الْكَرَامِ ، فِيمَا يَشَاءُ إِبْلَاغَهُ إِلَى رُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَأَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ ، فَكَيْفَ تَفْتَرِحُونَ عَلَى مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ رَسُولًا إِلَيْكُمْ؟ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، بَصِيرٌ بِأَحْوَالِهِمْ . عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارَ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ ، فَكَيْفَ تَفْتَرِحُونَ عَلَى مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ رَسُولًا إِلَيْكُمْ؟ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، بَصِيرٌ بِأَحْوَالِهِمْ . عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارَهُ اللَّهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ .

(٢) - وَإِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي تَقْدِّمُ التَّنْوِيهَ بِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ } أَنْزَلَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فَخَبِرُهُ صَادِقٌ ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ .

وَهَذَا الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءَكَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ (الرُّوحُ الْأَمِينُ) .

وَهَذَا الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَتَلَاهُ عَلَيْكَ الرُّوحُ الْأَمِينُ حَتَّى وَعَيْتَهُ بِقَلْبِكَ لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمَكَ .

وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْقُرْآنَ عَلَيْكَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ وَاضِحٍ لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا فِي دَلَالَتِهِ ، قَاطِعًا لِلْعُدْرِ .

(٣) - نَظَرَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَفْرِئُوتِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ فَإِنْ أَنْبَأْنَا بِهَا عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ فَآخَذَ النَّبِيُّ عَلَيْهِمِ الْمِشَاقَ إِذْ قَالَ : (وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : هَاتُوا . فَسَأَلُوهُ أَسْئَلَةً أَرْبَعَةً أَجَابَهُمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ : لَيْسَ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا وَلَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ ، فَأَخْبَرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : (صَاحِبِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ) . قَالُوا جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ

وَالْعَذَابَ عَدُوْنَا ، وَإِنَّهُ أَنْذَرَ الْيَهُودَ بِخَرَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَكَانَ مَا أَنْذَرَ بِهِ ، لَوْ قُلْتَ : إِنَّ صَاحِبَكَ مِكَائِيلُ لَا تَتَّبِعَاكَ ، لِأَنَّهُ الْمَلَكُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالْغَيْثِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّ مَنْ عَادَى جِبْرِيلَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ، بِأَمْرِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمِنْهَا التَّوْرَةُ ، وَهُوَ هَدًى لِلْمُؤْمِنِينَ وَبُشْرَى لِقُلُوبِهِمْ بِالْجَنَّةِ . (٤) - يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ .

وَيُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا سُلْطَةَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ . سُلْطَانٍ - تَسَلَّطَ أَوْ وَلَايَةً .

إِنَّمَا تَسَلَّطُهُ بِالْعَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ يَكُونُ عَلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَهُ نَصِيرًا فَيُحِبُّونَهُ وَيُطِيعُونَهُ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِسَبَبِ إغْوَايِهِ يُشْرِكُونَ بِهِمْ .

وَإِذَا نَسَخْنَا حُكْمَ آيَةٍ فَأَبْدَلْنَا مَكَانَهُ حُكْمَ آيَةٍ أُخْرَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لَخَلْقِهِ ، فِيمَا يُبْدِلُ مِنْ أَحْكَامٍ ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ مُتَقَوْلٌ عَلَى اللَّهِ ، تَأْمُرُ بِشَيْءٍ ، ثُمَّ تَعُودُ فَتَنْهَى عَنْهُ ، وَكَثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّبْدِيلِ مِنْ حِكْمٍ بِالْعَقْلِ . وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيُنْكِرُونَ الْقَائِدَةَ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا .

قُلْ لَهُمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي مَعَ جِبْرِيلَ الرُّوحِ الطَّاهِرِ ، مُقْتَرِنًا بِالْحَقِّ وَمُشْتَمِلًا عَلَيْهِ لِيُثَبِّتَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَهْدِيَ بِهِ النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَدَلَّةٍ قَاطِعَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ تَشْرِيعٍ وَتَعَالِيمٍ وَأَحْكَامٍ ، فَهُوَ هَادٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَبَشِيرٌ لَهُمْ بِحَسَنِ الثَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

[النحل/٩٨-١٠٢] ، فَسَمَّاهُ الرُّوحَ الْأَمِينَ وَسَمَّاهُ رُوحَ الْقُدُسِ .

وَقَالَ تَعَالَى : { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَمْسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) } [التكوير/١٥-١٧] (١) ، يَعْنِي : الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّمَاءِ خَاصَّةً ، أَيْ : مُخْتَفِيَةً قَبْلَ طُلُوعِهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ رَأَاهَا النَّاسُ جَارِيَةً فِي السَّمَاءِ فَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَتْ إِلَى كِنَاسِهَا الَّذِي يَحْجُبُهَا : { وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ } أَيْ إِذَا أَذْبَرَ وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ { وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ } أَيْ أَقْبَلَ { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } { مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ } أَيْ مُطَاعٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ ثُمَّ قَالَ : { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } أَيْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ جَنْسِكُمْ يَصْحَبُكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ لَا تَطِيقُونَ أَنْ تَرَوْا الْمَلَائِكَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) } [الأنعام/٨]

وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ } أَيْ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ { وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } أَيْ بِمُتَّهِمٍ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى : { بِضَنِينٍ } أَيْ بِخَيْلٍ يَكْتُمُ الْعِلْمَ وَلَا يُبْدِيهِ إِلَّا بِجَعْلٍ ، كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَكْتُمُ الْعِلْمَ إِلَّا بِالْعَوَاضِ . { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } فَتَرَهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا ، كَمَا تَرَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا .

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)

(١) - أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنُّجُومِ الَّتِي تَغِيبُ عَنِ الْعُيُونِ فِي النَّهَارِ ، وَتَخْتَفِي عَنِ الْأَبْصَارِ ، وَكَأَنَّهَا تَخْتَسُ فِي النَّهَارِ [وَلَا لِتَوْكِيدِ الْقَسَمِ ، وَقِيلَ إِنَّهَا صِلَةٌ مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ)] .
وَهِيَ تَجْرِي فِي أَفْلَاقِهَا وَمَدَارَاتِهَا وَتَعُودُ لِتُظْهَرَ فِي اللَّيْلِ ، وَكَأَنَّهَا عَادَتْ إِلَى مَوَاقِعِهَا كَمَا يَعُودُ الطَّبِيُّ إِلَى كِنَاسِهِ (أَيْ بَيْتِهِ) .

(٢) - انظر مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٨٣) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٧٦) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٧٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٠٠) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢٠٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢٩٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٢٩٩) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٣٠٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٦٣٥) ومجموع الفتاوى - (ج ١٩ / ص ٥٥) ومجموع الفتاوى - (ج ٢٧ / ص ٤٩٧) ومجموع الفتاوى - (ج ٣٥ / ص ١١٧)
وفي شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - (ج ٣ / ص ٢٠٧)

قَوْلُهُ : (وَتُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ ، وَصَحَّ عَنْ الثَّقَاتِ مِنْ رَوَايَاتِهِمْ) .
ش : فَالْمُعْجَزَةُ فِي اللُّغَةِ تَعُمُّ كُلَّ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، وَ [كَذَلِكَ الْكَرَامَةُ] فِي عَرَفٍ أَيْمَةً أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يُفَرِّقُونَ فِي اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا ، فَيَجْعَلُونَ الْمُعْجَزَةَ لِلنَّبِيِّ ، وَالْكَرَامَةَ لِلْوَلِيِّ . وَجَمَاعُهُمَا : الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ .

وَالْكَمَالُ يُرْجَعُ إِلَى ثَلَاثَةٍ : الْعِلْمِ ، وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَنَى . وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى الْكَمَالِ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَإِنَّهُ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِقَوْلِهِ : { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ } (الْأَنْعَامُ : ٥٠) .

وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَهَذَا أَوَّلُ أُولِي الْعَزْمِ ، وَأَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَهَذَا خَاتَمُ الرُّسُلِ ، وَخَاتَمُ أُولِي الْعَزْمِ ، وَكِلَاهُمَا تَبْرَأُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا لِأَنَّهُمْ يُطَاوِلُونَهُمْ تَارَةً يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } (النَّازِعَاتِ : ٤٢) ، وَتَارَةً بِالتَّأْثِيرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَهْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا } (الْإِسْرَاءِ : ٩٠) ، وَتَارَةً يَجِيبُونَ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةَ الْبَشَرِيَّةَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } (الْفُرْقَانِ : ٧) الْآيَةُ .

فَأَمَرَ الرَّسُولُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَبَالُ مِنْ تِلْكَ الثَّلَاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيهِ اللَّهُ ، فَيَعْلَمُ مَا عِلْمُهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، وَيَسْتَغْنِي عَمَّا أَغْنَاهُ عَنْهُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالَفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطْرَدَةِ ، أَوْ لِعَادَةِ أَغْلَبِ النَّاسِ . فَجَمِيعُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ مَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ

ثُمَّ الْخَارِقُ : إِنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدِّينِ ، كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِينًا وَشَرْعًا ، إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ ، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ ، كَانَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي شُكْرًا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ تَبْصُرٍ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيٌ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيٌ تَنْزِيهِ ، كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ أَوْ الْبُغْضِ ، كَالَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا : بَلْعَامُ بْنُ بَاعُورًا ، [لَكِنْ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا مَعْنُورًا] لِاجْتِهَادِهِ أَوْ تَقْلِيدِهِ ، أَوْ نَقْصِ عَقْلِ أَوْ عِلْمٍ ، أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ ، أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ .

فَالْخَارِقُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ : مَحْمُودٌ فِي الدِّينِ ، وَمَذْمُومٌ ، وَمُبَاحٌ . فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ فِيهِ مَنَفَعَةٌ كَانَتْ نِعْمَةً ، وَإِلَّا فَهُوَ

كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا مَنَفَعَةَ فِيهَا .

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَوْزَجَانِيُّ : كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ ، لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكَرَامَةِ ، وَرَبُّكَ يَطْلُبُ مِنْكَ الْاسْتِقَامَةَ .

قَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ فِي عَوَارِفِهِ : [وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ] ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ [وَالْمُتَعَبِّدِينَ] سَمِعُوا [عَنْ] سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَمَا مُنَحُوا بِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَتَنَفُّسُهُمْ لَا تَرَالُ تَتَطَّلَعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَرْزُقُوا شَيْئًا مِنْهُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ ، مُتَهَمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ خَارِقٌ ، وَلَوْ عَلِمُوا بِسِرِّ ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ [الْمُجْتَهِدِينَ] الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا ، وَالْحِكْمَةُ [فِيهِ] أَنْ يَزْدَادَ بِمَا [يَبْرَى] مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ - يَفْقَهُنَا ، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْخُرُوجِ عَنْ دَوَاعِي الْهَوَى . فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ ، فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْقُلُوبِ مِنَ التَّأْثِيرِ أَكْثَمَ مِمَّا لِلْأَبْدَانِ ، لَكِنْ إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً كَانَتْ تَأْثِيرُهَا صَالِحًا ، وَإِنْ كَانَتْ فَاسِدَةً كَانَتْ تَأْثِيرُهَا فَاسِدًا . فَالْأَحْوَالُ يَكُونُ تَأْثِيرُهَا مَحْبُوبًا لِلَّهِ تَعَالَى تَارَةً ، وَمَكْرُوهًا لِلَّهِ أُخْرَى .

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي وَجوبِ الْقَوْدِ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ غَيْرَهُ فِي الْبَاطِنِ . وَهَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ بِوُجُوبِهَا وَقُلُوبُهُمُ الْأَمْرَ الْكُونِيَّ ، وَيَعْدُّونَ مُجَرَّدَ خَرْقِ الْعَادَةِ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا الْكَرَامَةُ لِرُؤْمِ الْاسْتِقَامَةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكْرِمْ عَبْدًا بِكَرَامَةٍ أَكْثَمَ مِنْ مُوَافَقَتِهِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَمُؤَالَاةُ أَوْلِيَائِهِ ، وَمُعَادَاةُ أَعْدَائِهِ . وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَائُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

وَأَمَّا مَا يَنْتَلِي اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ ، مِنَ السَّرِّ بِخَرْقِ الْعَادَةِ أَوْ بغيرِهَا أَوْ بِالضَّرِّاءِ - فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ كَرَامَةِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَلَا هَوَانِهِ عَلَيْهِ ، بَلْ قَدْ سَعَدَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا أَطَاعُوهُ ، وَشَقِيَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا عَصَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي } { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي } { كَلَّا } (الْقَجَرُ : ١٥ - ١٧) .

وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ ، وَقِسْمٌ يَعْرِضُونَ بِهَا لِعَذَابِ اللَّهِ ، وَقِسْمٌ يَكُونُ فِي حَقِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

وَتَنَوُّعُ الْكُشْفِ وَالتَّأْثِيرِ بِاعْتِبَارِ تَنَوُّعِ كَلِمَاتِ اللَّهِ . وَكَلِمَاتُ اللَّهِ نَوْعَانِ : كَوْنِيَّةٌ ، وَدِينِيَّةٌ :

فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَانَةِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ » . قَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (يس : ٨٢) . وَقَالَ تَعَالَى : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } (الْأَنْعَامُ : ١١٥) . وَالْكُونُ كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : الْكَلِمَاتُ الدِّينِيَّةُ ، وَهِيَ الْقُرْآنُ وَشَرَعُ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ ، وَهِيَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَخَبَرُهُ ، وَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا ، وَالْعَمَلُ ، وَالْأَمْرُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، كَمَا أَنَّ حَظَّ الْعِبَادِ عُمُومًا وَخُصُوصًا الْعِلْمُ بِالْكُونِيَّاتِ وَالتَّأْثِيرِ فِيهَا ، أَيْ بِمُوجِبِهَا . فَالْأُولَى تَدِيرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ ، وَالثَّانِيَّةُ شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ . فَكَشَفُ الْأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَكَشَفُ الثَّانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَقُدْرَةُ الْأُولَى التَّأْثِيرُ فِي الْكُونِيَّاتِ ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ كَمَشْيِهِ عَلَى الْمَاءِ ، وَطَيْرَانِهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَجُلُوسِهِ فِي النَّارِ ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ ، يَصْحَاحُ وَإِهْلَاكُ ، وَإِعْنَاءٌ وَإِفْقَارٌ .

وَقُدْرَةُ الثَّانِيَةِ التَّأْثِيرُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ فَيُطَاعُ فِي ذَلِكَ طَاعَةً شَرْعِيَّةً

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَدَمَ الْخَوَارِقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً لَا تَضُرُّ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ الْمَغْيِبَاتِ ، وَلَمْ يُسَحَّرْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَوْنِيَّاتِ - : لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ فِي مَرَاتِبِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَدَمُ ذَلِكَ أَنْفَعَ لَهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ اقْتَرَنَ بِهِ الدِّينُ وَإِلَّا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْخَارِقَ قَدْ يَكُونُ مَعَ الدِّينِ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ عَدَمِهِ ، أَوْ فُسَادِهِ ، أَوْ نَقْصِهِ .

فَالْخَوَارِقُ النَّافِعَةُ تَابِعَةٌ لِلدِّينِ ، خَادِمَةٌ لَهُ ، كَمَا أَنَّ الرِّيَّاسَةَ النَّافِعَةَ هِيَ [التَّابِعَةُ] لِلدِّينِ ، وَكَذَلِكَ الْمَالُ النَّافِعُ ، كَمَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالْمَالُ النَّافِعُ بِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ . فَمَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمَقْصُودَةَ ، وَجَعَلَ الدِّينَ تَابِعًا لَهَا ، وَوَسِيلَةً إِلَيْهَا ، لَا لِأَجْلِ الدِّينِ فِي الْأَصْلِ - : فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَنْ يَأْكُلُ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ ، وَلَيْسَتْ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ تَدِينُ خَوْفَ الْعَذَابِ ، أَوْ رَجَاءِ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَشَرِيعَةٍ صَحِيحَةٍ .

وَالْعَجَبُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَمَّهُ قَدْ ارْتَفَعَ عَنْ أَنْ يَكُونَ خَوْفًا مِنَ النَّارِ أَوْ طَلِبًا لِلْجَنَّةِ - يَجْعَلُ هَمَّهُ بِدِينِهِ أَذْنَى خَارِقٍ مِنَ خَوَارِقِ الدُّنْيَا !! ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ إِذَا صَحَّ عِلْمًا وَعَمَلًا فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجِبَ خَرَقَ الْعَادَةِ ، إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُهُ . قَالَ تَعَالَى : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } (الطَّلَاق : ٢ - ٣) . وَقَالَ تَعَالَى : { إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } (الْأَنْفَال : ٢٩) . وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا } { وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } { وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } (النَّسَاء : ٦٦ - ٦٨) . وَقَالَ تَعَالَى : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } { لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } (يُؤُس : ٦٢ - ٦٤) .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } (الْحَجَر : ٧٥) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ . وَقَالَ تَعَالَى ، فِيمَا يَرَوِي عَنْهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَآكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » . فَظَهَرَ أَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ حَظُّ الرَّبِّ ، وَطَلَبُ الْكِرَامَةِ حَظُّ النَّفْسِ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ ؛ وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِيمَا بَيْنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ ، فَيُؤَيِّلُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحِ مِنْهُ ، وَيَقْدِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ ، وَلَهُمْ الْكِرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ . وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كِرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ (١) ، أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ (٢) ، كَمَا كَانَتْ مُعْجَزَاتُ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَلِكَ .

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِمَّا حَصَلَتْ بِرَكْعَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجَزَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ (٣) ، وَتَسْبِيحِ الْحَصَا فِي كَفِّهِ (٤)

(١) - أي لإقامة الحجة في الدين على المعاندين والمتشككين ، بأن يمكنهم الله تعالى من الرد عليهم ، وكشف شبهاتهم ، وتفنيدها .

(٢) - كقحط ، أو فقر أو جوع أو خوف أو مرض ونحو ذلك

(٣) - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً ، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ . صحيح البخارى (٣٦٣٧) وهو متواتر نظم المتناثر - (ج ١ / ص ٢٦٤) (انشقاق القمر).

(٤) - عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِنِّي لَأَعْرِفُ حِجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ » . صحيح مسلم (٦٠٧٨)

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٥ / ص ٧٨٦٤) رقم الفتوى ٣٨٧٣٦ روايات حديث تسييح الحصى - تاريخ الفتوى : ١٧ شعبان ١٤٢٤

السؤال

الأحاديث الخاصة بتسييح الحصى.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فحديث تسييح الحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم رواه الطبراني في معجمه الأوسط ، و البيهقي في السنن الصغير ، و الحلال في السنة ، و ابن أبي عاصم في السنة ، و الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي ذر الغفاري قال: إني لشاهد عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة وفي يده حصى فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فسمع تسييحن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر فسبحن مع أبي بكر ، سمع تسييحن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى النبي فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي إلى عمر فسبحن في يده، وسمع تسييحن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى عثمان بن عفان فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف، وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة وإسناده صحيح.

ورواه البزار بإسنادين، قال الهيثمي: رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، وضعف الحديث النسائي والعراقي .

قال ابن حجر في الفتح: والذي أقول: إنها كلها مشتهرة عند الناس، وأما من حيث الرواية، فليست على حد سواء، فإن حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما تقلا مستفيضا يفيد القطع عند من يطلع على طرق ذلك من أئمة الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، وأما تسييح الحصى، فليست إلا هذه الطريق الواحدة، مع ضعفها، وأما تسليم الغزاة، فلم نجد له إسنادا، لا من وجه قوي، ولا من وجه ضعيف. اهـ. والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

وفي فتاوى الأزهر - (ج ٨ / ص ٧٦) = الكون يسبح الله

المفتي: عطية صقر. مايو ١٩٩٧

المبادئ

القرآن والسنة

السؤال

في الآيات القرآنية أن كل شيء يَسْبِحُ الله ، فبأي لغة يكون هذا التسبيح ؟

الجواب

التسبيح معناه تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وقد يكون ذلك بالقول وبالفعل ، وبآية صورة تنبئ عن ذلك كالصلاة وذكر الله تعالى ، وهذا التسبيح يلزمه الإيمان بوجود الله وبألوهيته ، ومثله السجود بمعناه العام وهو الخضوع واللجوء إليه ، والكون كله ساجد لله ومُسَبِّح له بهذا المعنى ، والنصوص في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى : { سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } وقوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغْ لَهُ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } النور : ٤١ وقوله : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدْ لَهُ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّبَابُ ... } الحج : ١٨ وقوله تعالى : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } الإسراء : ٤٤ والتسبيح الذي يعتمد على اللغة ليس كل إنسان قادرا على فهمه ، فلكل من المخلوقات لغته ، ولا يفهمها إلا من خصه الله من عباده المقربين كداود وسليمان عليهما السلام {وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء} النمل : ١٦ . وبعض العلماء يقول : إن التسبيح باللغة يكون من الأحياء النامية كالحيوان والنبات ، وأما تسبيح غيرها كالجماجم فهو بمعنى الدلالة على وجود الله ووجوب عبادته ، وقال بعض آخر : قد يكون تسبيح الجمادات بلغة خاصة كما جاء في إكرام الله لداود بقوله تعالى : { إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشَى وَالْإِشْرَاقَ . وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ } ص : ١٨ ، ١٩ .

والمهم أن كل الكائنات تسبح وتسجد وتخضع لقدرة الله ، ولكل لغتها وطريقتها في ذلك ، ومما جاء من النصوص والأخبار في هذا الموضوع إلى جانب ما ذكر :

- ١- روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال " لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل " وفي غير هذه الرواية عنه رضي الله عنه : كنا ناكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وهناك عدة روايات في تسبيح الطعام مذكورة في الزرقاني على المواهب " ج ٥ ص ١٢١ " .
- ٢- روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن " قيل هو الحجر الأسود . وهناك عدة حوادث في تسبيح الحصى في يد الرسول وأبي بكر وعمر "المرجع السابق ص ١٢٠ " .
- ٣- حنين الجذع الذي كان يخطب إليه ، رواه البخاري وغيره ، وقيل إنه متواتر ، وسمع لحنينه صوت كصوت الناقة العشاء ، والكلام طويل عنه في " الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ١٣٣ " .
- ٤- أخرج النسائي في سننه عن عبد الله بن عمر وأن النبي صلى الله عليه وسلم هي عن قتل الضفدع وقال " نقيقتها تسبيح " . وأخرجه ابن سبيع في " شفاء الصدور " كما ذكره الدميري .
- ٥- روى ابن ماجه في سننه ومالك في موطنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " .
- ٦- ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } بعض أقوال منقولة عن عبد الله ابن مسعود وأنس بن مالك أن الجبال يكلم بعضها بعضا ، كما ذكر في " ج ١٣ ص ١٦٥ " ما تقوله بعض الطيور ، وليس لذلك سند صحيح يعتمد عليه ، ثم قال : الصحيح أن الكل يسبح ، للأخبار الدالة

على ذلك ، ولو كان التسييح تسييح دلالة فأى تخصيص لداود؟ وإنما ذلك تسييح المقال ، بخلق الحياة والإنطاق بالتسييح ، وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسييح كل شيء ، فالقول به أولى .
وأقول : لقد أثبت العلم أن للحيوانات والطيور لغات تفهم بها ، فلا استحالة في كون كل المخلوقات تسبح بحمد الله بلغة خاصة بها ، وإن كنا لا نفهمها ، كما أنه لا مانع من تفسير التسييح بأنه بلسان الحال ليعبر الإنسان ويؤمن ويسجد لله ويسبحه { قل انظروا ماذا في السماوات و الأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون } يونس : ١٠١ :

، وَإِثْنَانِ الشَّجَرِ إِلَيْهِ وَحَيْنِ الْجَذْعِ إِلَيْهِ (١)، وَإِخْبَارِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِصِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ (٢)، وَإِخْبَارِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ (٣)، وَإِثْبَانِهِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً (٤)، كَمَا أَشْبَعَ فِي الْخَنْدَقِ الْعُسْكَرَ مِنْ قَدْرِ طَعَامٍ وَهُوَ لَمْ يَنْقُصْ فِي حَدِيثٍ أَمْ سَلَمَةَ الْمَشْهُورِ (٥)

(١) - عَنْ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ إِلَى جَذْعٍ ، فَيَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَأَنَّهُ لَمَّا صَنَعَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجَذْعُ ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمَسَحَهُ. صحيح ابن حبان - (ج ١٤ / ص ٤٣٥) (٦٥٠٦) وهو صحيح ، وحين الجدع متواتر نظم المتأثر - (ج ١ / ص ٢١٠) (٢٦٣) (حين الجدع).

(٢) - عَنْ ابْنِ شِهَابٍ حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ ، فَجَلَّ اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفَقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ » . صحيح البخارى (٣٨٨٦)

(٣) - عَنْ عَمْرِو بْنِ أَخْطَبٍ - قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا. صحيح مسلم (٧٤٤٩)

(٤) - وفي نظم المتأثر - (ج ١ / ص ٢١٣) (٢٦٧) تكثر الطعام ببركته وردت من رواية جماعة من الصحابة حتى قال بعضهم أنها متواترة تواترا معنويا وأشار لتواترها أيضا عياض فيما تقدم قريبا عنه بل أشار إلى أن القصص المشهورة عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى كلها معلومة على القطع ثم قال بعد كلام في الاستدلال على ذلك وهذا حق لا غطاء عليه وقد قال به من أئمتنا القاضي أي أبو بكر الباقلاني والأستاذ أبو بكر أي ابن فورك وغيرهما وما عندي أوجب قول القائل أن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها وشغله بغير ذلك من المعارف وإلا فمن اعتنى بطرق النقل وطالع الأحاديث والسير لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه اهـ.

وقال أيضا في فصل تكثر الطعام ببركته ودعائه بعدما أورد فيه أحاديث وقضايا وقد اجتمع على معنى هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة ورواه عنهم أضعافهم من التابعين ثم من لا يعد بعلمهم وأكثرها في قصص مشهورة ومجامع مشهودة لا يمكن التحدث عنها إلا بالحق ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكره اهـ.

(٥) - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا خَفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خِمَصًا شَدِيدًا ، فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى أَمْرَأَتِي فَقُلْتُ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ فَأَنَّى رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خِمَصًا شَدِيدًا . فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا ، وَطَخَنْتِ الشَّعِيرَ فَفَرَعْتُ إِلَيَّ

فَرَاغِي ، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَتْ لَا تَقْصُصْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبِمَنْ مَعَهُ . فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحْنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَتَفَرَّ مَعَكَ . فَصَاحَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ « يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّ هَلَّا بِكُمْ » . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « لَا تُنْزِلَنَّ بُرْمَتَكُمْ ، وَلَا تَخْزِنَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ » . فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي ، فَقَالَتْ بِكَ وَبِكَ . فَقُلْتُ قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ . فَأَخْرَجَتْ لِي عَجِينًا ، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ « ادْعُ خَازِنَةَ فَلْتَخْزِنْ مَعِيَ وَقَدِّحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوها ، وَهُمْ أَلْفٌ ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْزِرُ كَمَا هُوَ . » صحيح البخاري (٤١٠٢) ومسلم

(٥٤٣٦)

البرمة : القدر من الحجر = الخمص : الجوع = الداجن : ما يألف البيت من الحيوان = تغطى : تغلى ويسمع غليانها
وفي صحيح مسلم (٥٤٣٧) عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لَأُمِّ سُلَيْمٍ قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضَعِيفًا أَعْرَفُ فِيهِ الْجُوعَ فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَتْ نَعَمْ . فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ ثُمَّ أَخَذَتْ خِمَارًا لَهَا فَلَفَتْ الْخُبْزَ بَعْضُهُ ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَّتْنِي بَعْضُهُ ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فَذَهَبْتُ بِهِ فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « أَرْسَلْتُكَ أَبُو طَلْحَةَ » . قَالَ فَقُلْتُ نَعَمْ . فَقَالَ « أَلِطْعَامِ » . فَقُلْتُ نَعَمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَنْ مَعَهُ « قُومُوا » . قَالَ فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ يَا أُمِّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ فَقَالَتْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ - قَالَ - فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « هَلُمِّي مَا عِنْدَكَ يَا أُمِّ سُلَيْمٍ » . فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَفَتَّ وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً لَهَا فَأَدَمَتْهُ ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ثُمَّ قَالَ « انْزِلْ لِعَشْرَةٍ » . فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ « انْزِلْ لِعَشْرَةٍ » . فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ « انْزِلْ لِعَشْرَةٍ » . حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ .

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٨ / ص ٤٤٢٥) = رقم الفتوى ٥٥٣٦٠ الذين شاركوا النبي صلى الله عليه وسلم الطعام يوم الخندق = تاريخ الفتوى : ٢٠ رمضان ١٤٢٥

السؤال

كم كان عدد الرجال الذين أكلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فقد وردت قصة جابر وزوجته رضي الله عنهما — ودعوقهما للنبي صلى الله عليه وسلم على طعام صنعاه له ولبعض أصحابه في غزوة الخندق، وردت هذه القصة في صحيح البخاري وفي غيره. كما ذكرت مفصلة في كتب السيرة، ولكن رواية الإمام البخاري لم تحدد عدد الذين أكلوا من ذلك الطعام، ومن المعلوم عند أهل العلم أن هذه

القصة وما جرى فيها من تكثير الطعام من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم كما جاء في قصص أخرى صحيحة... وقد ذكر الحافظ في الفتح عدة روايات للحديث فيها أنه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الخندق، وفي رواية: جاء بالمهاجرين والأنصار، وذكر رواية أخرى فيها أنهم كانوا تسع مائة وقيل ثمان مائة وقيل غير ذلك. والذي لا شك فيه أنهم كانوا عددا كبيرا لا يتناسب مع ذبيحة صغيرة وصاع من الشعير. وهي كما قلنا معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته. والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

، وَأَرَوَى الْعَسْكَرَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِنْ مَزَادَةِ مَاءٍ وَلَمْ تَنْقُصْ (١)، وَمَلَأَ أَوْعِيَةَ الْعَسْكَرِ عَامَ ثُبُوكَ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ وَلَمْ يَنْقُصْ وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا (٢)، وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى كَفَى النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ (٣)

(١) - ففي مسند أحمد (٢٣٠٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ وَلَيْسَ فِي الْعَسْكَرِ مَاءٌ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ فِي الْعَسْكَرِ مَاءٌ. قَالَ « هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ ». قَالَ نَعَمْ. قَالَ « فَأَتْنِي بِهِ ». قَالَ فَأَتَاهُ بِإِنَاءٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ - قَالَ - فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَصَابِعَهُ فِي فَمِ الْإِنَاءِ وَفَتَحَ أَصَابِعَهُ - قَالَ - فَأَنْفَجَرَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ عُيُونٌ وَأَمَرَ بِإِلَاءٍ فَقَالَ « نَادِ فِي النَّاسِ الْوُضُوءَ الْمُبَارَكَ ». حسن لغيره

وفي صحيح البخاري (٣٥٧٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَهَا تَخَوُّفًا ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي سَفَرٍ فَقَلَّ الْمَاءُ فَقَالَ : « اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ ». فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : « حَتَّى عَلَى الظَّهْرِ الْمُبَارَكِ ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ » فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ .

(٢) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ ثُبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذْنَتْ لَنَا فَتَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « افْعَلُوا ». قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ وَلَكِنْ اذْعُهُمْ بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ ثُمَّ اذْعُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « نَعَمْ ». قَالَ فَدَعَا بِنَطْعٍ فَبَسَطَهُ ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ - قَالَ - فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفٍّ ذُرَّةٍ - قَالَ - وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفٍّ تَمْرٍ - قَالَ - وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكِسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النَّطْعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ - قَالَ - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ « خَلُّوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ ». قَالَ فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وَغَاءَ إِلَّا مَلَأُوهُ - قَالَ - فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضِلَتْ فَضْلَةً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ ». صحيح مسلم (١٤٨)

التواضع : جمع الناضح وهي الناقة التي يسقى عليها الماء = النطع : البساط من الجلد

(٣) - عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ ، فَأَتْنِي بِقَدَحٍ رَخْرَاحٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ . قَالَ أَنَسٌ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ، قَالَ أَنَسٌ فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ مَا بَيْنَ السَّبْعَيْنِ إِلَى الثَّمَانَيْنِ . صحيح البخاري (٢٠٠ ، ١٦٩ ، ١٩٥ ، ٣٥٧٢ ، ٣٥٧٣ ، ٣٥٧٤ ، ٣٥٧٥)

ومسلم (٦٠٨٠)

حزر : قدر وحن

وفي صحيح مسلم (٦٠٨١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَحَانتُ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِوَضُوءٍ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ يَدَهُ وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ -قَالَ- فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّؤُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ.

وفي صحيح مسلم (٦٠٨٢) عَنْ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأَصْحَابَهُ بِالزَّوْرَاءِ -قَالَ وَالزَّوْرَاءُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ السُّوقِ وَالْمَسْجِدِ فِيمَا ثَمَّةَ- دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَوَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ فَجَعَلَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فَتَوَضَّأَ جَمِيعُ أَصْحَابِهِ. قَالَ قُلْتُ كَمْ كَانُوا يَا أَبَا حَمْزَةَ قَالَ كَانُوا زُهَاءَ الثَّلَاثِمَاتَةِ.

كَمَا كَانُوا فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ نَحْوَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَوْ خَمْسِمِائَةٍ (١)، وَرَدَّهُ لِعَيْنِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ سَأَلَتْ عَلَى خَدِّهِ فَرَجَعَتْ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ (٢)

(١) - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَالنَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةً فَتَوَضَّأَ فَجَهَشَ النَّاسُ نَحْوَهُ ، فَقَالَ « مَا لَكُمْ » . قَالُوا لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا . قُلْتُ كَمْ كُنْتُمْ قَالَ لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَّانَا ، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً . صحيح البخارى (٣٥٧٦) = جهش : فزع ولجا

(٢) - عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ، أَنَّ قَتَادَةَ بْنَ الثُّعْمَانَ سَقَطَتْ عَيْنُهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَرَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنٍ وَأَحْلَاهَا . مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٧٦٨) وهو صحيح مرسل

وفي مسند أبي عوانة (٥٥٥٠) حَدَّثَنَا أَبُو إِسْمَاعِيلَ التِّرْمِذِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّانَ التَّهْدِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْغَسِيلِ، حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُصِيبَتْ عَيْنُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، أَوْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَسَأَلَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَقْطَعُوهَا، ثُمَّ قَالُوا: نَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- نَسْتَشِيرُهُ، فَأَتَوْا النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَوَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا، ثُمَّ غَمَزَهَا بِرَاحَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْسِبْهُ جَمَالًا، قَالَ: فَمَا يَدْرِي مَنْ لَقِيَهُ أَيَّ عَيْنِيهِ أُصِيبَتْ. وهو صحيح لغيره

وانظر الإصابة في تمييز الصحابة [جزء ٥ - صفحة ٤١٦] (٧٠٨١)

وَلَمَّا أَرْسَلَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَوَقَعَ وَانْكَسَرَتْ رِجْلُهُ فَمَسَحَهَا فَبَرَّتْ (١)، وَأُطْعِمَ مِنْ شِوَاءٍ مِائَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا كُلًّا مِنْهُمْ حَزٌّ لَهُ قِطْعَةٌ وَجَعَلَ مِنْهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَكَلُوا مِنْهَا جَمِيعُهُمْ ثُمَّ فَضَلَ فَضْلَهُ (٢)

(١) - عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى أَبِي رَافِعٍ الْيَهُودِيَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمِيكَ ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤَذِي رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَيُعِينُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بَارِضِ الْحِجَازِ ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ ، وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرَحِهِمْ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ ، وَمَتَلَطَّفْ لِلْبُيُوتِ ، لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ . فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ الْبَابِ ثُمَّ تَقَعَّ بِوُجْهِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً ، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ ، فَهَتَفَ بِهِ الْبُيُوتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ . فَدَخَلَتْ فَكَمَنْتُ ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ ، ثُمَّ عَلَّقَ الْأَغْلَاقَ عَلَى وَتَدٍ قَالَ فَقُمْتُ إِلَى الْأَقَالِيدِ ،

فَأَخَذَتْهَا فَفَتَحَتْ الْبَابَ ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسَمِّرُ عِنْدَهُ ، وَكَانَ فِي عِلَالِي لَهُ ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدَتْ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَتْ كَلِمًا فَتَحَتْ بَابًا أَعْلَقَتْ عَلَى مِنْ دَاخِلٍ ، قُلْتُ إِنَّ الْقَوْمَ نَذَرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ . فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسَطَ عِيَالِهِ ، لَا أَذْرَى أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ فَقُلْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ . قَالَ مَنْ هَذَا فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ ، فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ، وَأَنَا دَهْشٌ فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا ، وَصَاحَ فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ ، فَأَمَكْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ . فَقَالَ لَأُمَكَّ الْوَيْلُ ، إِنَّ رَجُلًا فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلَ بِالسَّيْفِ ، قَالَ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَتَحْتَهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ طَبَّةَ السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ ، فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الْأَبْوَابَ بَابًا بَابًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي وَأَنَا أَرَى أَنِّي قَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمَرَةٍ ، فَانْكَسَرَتْ سَاقِي ، فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ فَقُلْتُ لَا أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقْتُلْتُهُ فَلَمَّا صَاحَ الدَّيْكَ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ فَقَالَ أُنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ . فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَقُلْتُ النَّجَاءَ ، فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ . فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ « ابْسُطْ رِجْلَكَ » . فَبَسَطْتُ رِجْلِي ، فَمَسَحَهَا ، فَكَانَتْهَا لَمْ أَشْكُهَا قَطُّ . صحيح البخارى (٤٠٣٩)

(٢) - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَلَاثِينَ وَمِائَةً فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ » . فَإِذَا مَعَ رَجُلٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نَحْوُهُ ، فَعَجَنَ ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌ طَوِيلٌ بَغَمٌ يَسُوقُهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « يَبِيعَا أَمْ عَطِيَّةٌ - أَوْ قَالَ - أَمْ هِبَةٌ » . قَالَ لَا ، بَلْ يَبِيعُ . فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً ، فَصُنَعَتْ وَأَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَوَادِ الْبُطْنِ أَنْ يُشَوَّى ، وَائِمَ اللَّهُ مَا فِي الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ إِلَّا قَدْ حَزَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ حِزَّةٌ مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا ، إِنَّ كَانَ شَاهِدًا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ ، وَإِنْ كَانَ غَائِبًا خَبَأَ لَهُ ، فَجَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتَيْنِ ، فَأَكَلُوا أَجْمَعُونَ ، وَشَبَعْنَا ، فَفَضَلَتْ الْقَصْعَتَانِ ، فَحَمَلْنَاهُ عَلَى الْبَعِيرِ . أَوْ كَمَا قَالَ . صحيح البخارى (٢٦١٨) ومسلم (٥٤٨٥)

المشعان : منتقش الشعر نائر الرأس

، وَذَيْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَابِرٍ الْيَهُودِيِّ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَسَقًا . قَالَ جَابِرٌ : فَأَمَرَ صَاحِبُ الدِّينِ أَنْ يَأْخُذَ التَّمَرَ جَمِيعَهُ بِالَّذِي كَانَ لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ فَمَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ جُدْ لَهُ فَوَقَاهُ الثَّلَاثِينَ وَسَقًا وَفَضَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسَقًا (١) ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جُمِعَتْ نَحْوُ أَلْفِ مُعْجَزَةٍ (٢) .

وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جَدًّا : مِثْلُ مَا كَانَ " أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ " يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ فَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِثْلُ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السَّرْجِ وَهِيَ الْمَلَأَكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَائَتِهِ (٣) وَكَانَتْ الْمَلَأَكَةُ تُسَلِّمُ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ (٤) ؛ وَكَانَ سَلَمَانُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ يَأْكُلَانِ فِي صَحْفَةٍ فَسَبَّحَتْ الصَّحْفَةُ أَوْ سَبَّحَ مَا فِيهَا (٥)

(١) - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ وَسَقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَاسْتَنْظَرَهُ جَابِرٌ ، فَأَبَى أَنْ يُنْظَرَهُ ، فَكَلَّمَ جَابِرٌ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَشْفَعَ لَهُ إِلَيْهِ ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَلَّمَ الْيَهُودِيَّ لِيَأْخُذَ تَمَرًا نَخْلَهُ بِالَّذِي لَهُ فَأَبَى ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - التَّحَلَ ، فَمَشَى فِيهَا ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ « جُدْ لَهُ فَأَوْفَ لَهُ الَّذِي لَهُ » . فَجَدَّهُ بَعْدَ مَا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَوْفَاهُ ثَلَاثِينَ وَسَقًا ، وَفَضَلَتْ لَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ وَسَقًا ، فَجَاءَ جَابِرٌ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي كَانَ ، فَوَجَدَهُ يُصَلِّيُ الْعَصْرَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُ بِالْفَضْلِ ، فَقَالَ « أَخْبِرْ ذَلِكَ ابْنَ الْخَطَّابِ » . فَذَهَبَ جَابِرٌ إِلَى عُمَرَ ، فَأَخْبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ لَقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

عليه وسلم - لِيُبَارَكَنَّ فِيهَا. صحيح البخارى (٢٣٩٦)

(٢) - ذكرها البيهقي في دلائل النبوة والسيوطي في الخصائص الكبرى ، وفيها الصحيح والحسن والضعيف

والواهي

(٣) - عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتْ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ ، فَأَنْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّه رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ « أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ » . قَالَ فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا . قَالَ « وَتَدْرِي مَا ذَاكَ » . قَالَ لَا . قَالَ « تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِمَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصِيبَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ » . البخارى (٥٠١٨) معلقاً ووصله السنن الإمام النسائي في الكبرى الرسالة (٨٠٢٠) ومسنند أبي

عوانة (٣١٥٦) وهو صحيح

(٤) - عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - جَمَعَ بَيْنَ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ ثُمَّ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ وَلَمْ يَنْزِلْ فِيهِ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ وَقَدْ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَى حَتَّى اكْتُبَتْ فُتِرَتْ ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيْ فَعَادَ . " صحيح مسلم (٣٠٣٣)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٤ / ص ٣٢٦)

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ بِهِ بَوَاسِيرٌ فَكَانَ يَصْبِرُ عَلَى الْمُهِمَّاتِ وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَاكْتُوَى فَانْقَطَعَ سَلَامُهُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَرَكَ الْكَيْ فَعَادَ سَلَامُهُمْ عَلَيْهِ .

(٥) - عن قيس ، قال : كان أبو الدرداء إذا كتب إلى سلمان أو سلمان إلى أبي الدرداء كتب إليه بآية الصحيفة ، قال : كنا نتحدث أنهما بينما هما يأكلان من صحيفة إذا سبحت وما فيها ، أو بما فيها ، فانظر هذه الكرامة " دلائل

النبوة للبيهقي (٢٣١٣) وفيه ضعف

الصحيفة : ما يكتب فيه من ورق ونحوه

، وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا نُورٌ مِثْلُ طَرَفِ السَّوْطِ فَلَمَّا افْتَرَقَا افْتَرَقَ الضَّوُّ مَعَهُمَا . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ (١).

وَقِصَّةُ { الصَّدِيقِ فِي الصَّحِيحَيْنِ لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَصْبَافٍ مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ وَجَعَلَ لَا يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا رَأَى مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ وَاهْرَأَتْهُ فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ فَرَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَ إِلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَشَبِعُوا { (٢) .

(١) - عَنْ قَتَادَةَ قَالَ حَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمَصَابِيحِ يُضِيَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلُهُ . صحيح البخارى (٤٦٥)

وفي رواية (٣٨٠٥) عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا ، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا . وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَرَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ . قَالَ حَمَّادٌ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ -

صلى الله عليه وسلم -

(٢) - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أَنْاسًا فَقَرَاءَ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَتَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلَاثٍ ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ » . وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ فَأُتِلَقَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - بِعَشْرَةٍ ، قَالَ فَهُوَ أَنَا وَأَبِي وَأُمِّي ، فَلَا أَذْرَى قَالَ وَامْرَأَتِي وَخَادِمٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ . وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ لَبِثَ حَيْثُ صُلِّيَتِ الْعِشَاءُ ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حَتَّى تَعَشَّى النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ وَمَا حِسْكَ عَنْ أَضْيَافِكَ - أَوْ قَالَتْ ضَيْفِكَ - قَالَ أَوْ مَا عَشِيَّتِيهِمْ قَالَتْ أَبُوهَا حَتَّى تَجِيءَ ، قَدْ عَرَضُوا فَأَبُوهَا . قَالَ فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ فَقَالَ يَا عُنْثُرُ ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ ، وَقَالَ كُلُوا لَا هَنِيئًا . فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا ، وَإِيمُ اللَّهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبًّا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا . قَالَ يَعْنِي حَتَّى شَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهَا . فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ يَا أُخْتُ بَنَى فِرَاسٌ مَا هَذَا قَالَتْ لَا وَقُرَّةٌ عَيْنِي لَهَا الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ . فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي يَمِينَهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً ، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ ، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ عَقْدٍ ، فَمَضَى الْأَجَلَ ، فَفَرَّقْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْاسٌ ، اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ ، أَوْ كَمَا قَالَ .

صحيح البخارى (٦٠٢) ومسلم (٥٤٨٦)

جدع : دعا بقطع الأنف = الغنصر : الثقيل الوحش

و " خبيب بن عدي " كان أسيرًا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعب يأكله وليس بمكة عنبه (١).

(١) - عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أُسَيْدِ بْنِ جَارِيَةَ النَّخَعِيُّ - وَهُوَ حَلِيفُ لَبْنَى زُهْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ - أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَشْرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ ، فَأَنْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَاةِ وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هَذِيلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ ، فَفَرَّوْا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مَائَتَى رَجُلٍ ، كُلُّهُمْ رَامٌ ، فَافْتَصَّوْا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَا كُلُّهُمْ ثَمَرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا هَذَا تَمْرٌ يَثْرَبُ . فَافْتَصَّوْا آثَارَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجُّوا إِلَى فَذَفِدٍ ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَقَالُوا لَهُمْ انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ ، وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ ، وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا . قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ أَمَا أَنَا فَوَاللَّهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ . فَرَمَوْهُمْ بِالْثَّلِ ، فَفَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ ، فَتَزَلَّ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ خُبَيْبُ الْأَنْصَارِيُّ وَابْنُ دَثَنَةَ وَرَجُلٌ آخَرٌ ، فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ هَذَا أَوَّلُ الْعَدْرِ ، وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ ، إِنْ فِي هَؤُلَاءِ لَأُسُوءَ . يُرِيدُ الْقَتْلَى ، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَفَقَتَلُوهُ ، فَأَنْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ دَثَنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَأَبْتَا عَاصِمًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عَنْهُمْ أَسِيرًا ، فَأَخْبَرَنِي عُيَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بَنَاتِ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنََّّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَجِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَأَخَذَ ابْنَا لِي وَأَنَا غَافِلَةً حِينَ أَنَا قَالَتْ فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى يَبْدِهِ ، فَفَرَعْتُ فَرْعَةً عَرَفْتُهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ ذَلِكَ .

وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ أُسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خَيْبٍ ، وَاللَّهُ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُوتِقٌ فِي الْحَدِيدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خَيْبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ ، قَالَ لَهُمْ خَيْبٌ ذَرُونِي أَرْكَعَ رَكَعَيْنِ . فَتَرَكَوهُ ، فَكَرَعَ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ لَوْلَا أَنْ تَطُتُوا أَنَّ مَا بِي جَرَعَ لَطَوَلْتُهَا اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا . وَلَكَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَقْبَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَى شَيْءٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ ، فَكَانَ خَيْبٌ هُوَ سَنَ الرَّكَعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِغَاصِمٍ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصَيْبٍ ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ خَبْرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا ، وَبَعَثَ نَاسًا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى غَاصِمٍ حِينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُوتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ رَجُلًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَبُعِثَ عَلَى غَاصِمٍ مِثْلُ الظَّلَّةِ مِنَ الدَّبَرِ ، فَحَمَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا . صحيح البخارى (٣٠٤٥)

وَ " غَامِرُ بْنُ فَهيرةٍ : قُتِلَ شَهِيدًا فَالْتَمَسُوا جَسَدَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ رُفِعَ فَرَأَاهُ غَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَدْ رُفِعَ ، وَقَالَ : عُرْوَةُ : فَيَرُونَ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْهُ (١) . وَخَرَجَتْ " أُمُّ أَيْمَنَ " مُهَاجِرَةً وَلَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا ذَلُّوْهُ مُعَلَّقٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رُوِيََتْ وَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا (٢) . وَ " سَفِينَةُ " مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ (٣) .

(١) - عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ اسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبُو بَكْرٍ فِي الْخُرُوجِ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَذَى ، فَقَالَ لَهُ « أَقِمْ » . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ » قَالَتْ فَانْتَظِرْهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَاتَ يَوْمٍ ظَهْرًا فَنَادَاهُ فَقَالَ « أَخْرِجْ مِنْ عِنْدِكَ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ . فَقَالَ « أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ » . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الصُّحْبَةُ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « الصُّحْبَةُ » . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي نَاقَتَانِ قَدْ كُنْتُ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ . فَأَعْطَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِحْدَاهُمَا وَهِيَ الْجَدْعَاءُ ، فَركَبَهَا فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا الْغَارَ ، وَهُوَ بَغُورٌ ، فَتَوَارَيَا فِيهِ ، فَكَانَ غَامِرُ بْنُ فَهيرةٍ غُلَامًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطُّفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ أَخُو عَائِشَةَ لَأُمِّهَا ، وَكَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ مِئْخَةً ، فَكَانَ يَرُوحُ بِهَا وَيَعْدُو عَلَيْهِمْ ، وَيُصْبِحُ فَيَدْلُجُ إِلَيْهِمَا ثُمَّ يَسْرَحُ ، فَلَا يَفْطَنُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّعَاءِ ، فَلَمَّا خَرَجَ خَرَجَ مَعَهُمَا يُعْقِبَانِهِ حَتَّى قَلِمَا الْمَدِينَةَ ، فَقُتِلَ غَامِرُ بْنُ فَهيرةٍ يَوْمَ بَيْرُ مَعُونَةَ . وَعَنْ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ قَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ فَأَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ لَمَّا قُتِلَ الَّذِينَ بَيْرُ مَعُونَةَ وَأُسِرَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ قَالَ لَهُ غَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ مَنْ هَذَا فَأَشَارَ إِلَى قَتِيلٍ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ هَذَا غَامِرُ بْنُ فَهيرةٍ . فَقَالَ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مَا قُتِلَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ وَضِعَ . فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَبَرَهُمْ فَتَعَاهُمُ فَقَالَ « إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا ، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ ، فَقَالُوا رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا . فَأَخْبَرَهُمْ عَنْهُمْ » . وَأُصِيبَ يَوْمَئِذٍ فِيهِمْ عُرْوَةُ بْنُ أَسْمَاءَ بْنِ الصَّلْتِ ، فَسُمِّيَ عُرْوَةُ بِهِ ، وَمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو سُمِّيَ بِهِ مُنْذِرًا . صحيح البخارى (٤٠٩٣)

(٢) - عَنْ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ خَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ صَائِمَةٌ لَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا حِمْلَةٌ وَلَا سِقَاءٌ فِي شِدَّةِ حَرِّهَا وَقَدْ كَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ حَتَّى إِذَا كَانَ الْحِينُ الَّذِي فِيهِ يَفْطُرُ

الصائم سمعت حفيفا علي رأسها فرفعت رأسها فإذا دلو معلق برشاء أبيض قالت فأخذته يدي فشربت منه حتى رويت فما عطشت بعد قال فكانت تصوم وتطوف لكي تعطش في صومها فما قدرت على أن تعطش حتى ماتت" مصنف عبد الرزاق (٧٩٠١) وبنحوه من طريق آخر انحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة - (ج ٣ / ص ١٧) [٢١٨٠] وهو حسن لغيره

(٣) - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى، أَنَّ سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "رَكِبْتُ الْبَحْرَ، فَأَنْكَسَرَتْ سَفِينَتِي الَّتِي كُنْتُ فِيهَا، فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْ أَلْوَحِهَا، فَطَرَحَنِي اللَّوْحُ فِي أَجْمَةٍ فِيهَا الْأَسَدُ، فَأَقْبَلَ يُرِيدُنِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَاطَأَ رَأْسَهُ، وَأَقْبَلَ إِلَيَّ، فَدَفَعَنِي بِمَنْكِبِهِ حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنَ الْأَجْمَةِ، وَوَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُمْهُمْ، فَطَنَنْتُ أَنَّهُ يُودِّعُنِي، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهْدِي بِهِ". المعجم الكبير للطبراني (٦٣١٩) والمستدرک للحاکم (٦٥٥٠) وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قال

وَ " الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ " كَانَ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبْرَ قَسَمَهُ وَكَانَ الْحَرْبُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ يَقُولُونَ : يَا بَرَاءُ أَقْسَمَ عَلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَاهُمْ فَيَهْزِمُ الْعَدُوَّ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقَادِسيَّةِ " قَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَاهُمْ وَجَعَلْتَنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ فَمِنْهُمْ أَكْتَفَاهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا (١).

وَ " خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ " حَاصِرَ حِصْنًا مَنِيعًا فَقَالُوا لَا نُسَلِّمُ حَتَّى تَشْرَبَ السُّمَّ فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ (٢).
وَ " سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ " كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ مَا دَعَا قَطُّ إِلَّا أُسْتَجِيبَ لَهُ وَهُوَ الَّذِي هَزَمَ جُنُودَ كِسْرَى وَفَتَحَ الْعِرَاقَ (٣).

وَ " عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ " لَمَّا أَرْسَلَ جَيْشًا أَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُسَمَّى " سَارِيَةَ " فَيَنْمُو عُمَرُ يَخْطُبُ فَيَجْعَلُ يَصِيحُ عَلَى الْمَنْبَرِ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا فَإِذَا بِصَاحِبِ : يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ فَاسْتَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ (٤).

(١) - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذِي طَمَرَيْنِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَ قَسَمَهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ ، فَإِنَّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ أَوْجَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا : يَا بَرَاءُ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَكَ ، فَأَقْسَمَ عَلَى رَبِّكَ ، فَقَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَاهُمْ ، ثُمَّ التَّقَوَّ عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ ، فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا بَرَاءُ ، أَقْسَمَ عَلَى رَبِّكَ ، فَقَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَاهُمْ ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمِنْهُمْ أَكْتَفَاهُمْ ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا" المستدرک للحاکم (٥٢٧٤) وهو صحيح
(٢) - عَنْ أَبِي السَّفَرِ ، قَالَ : لَمَّا قَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى الْحِيرَةِ نَزَلَ عَلَى بَنِي الْمَرَاذِيَةِ ، قَالَ : قَاتِي بِالسُّمِّ فَأَخَذَهُ فَجَعَلَهُ فِي رَاحَتِهِ ، وَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَأَفْتَحَهُ ، فَلَمْ يَضُرَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ شَيْئًا" مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٧٢٤) و تاريخ دمشق - (ج ٣٧ / ص ٣٦٥) والإصابة في تمييز الصحابة [جزء ٢ - صفحة ٢٥٤] ومعرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (٢١٧٢) وهو حسن لغيره

وكتب لأهل الحيرة كتاب أمان، فكان الذي راوده عليه عمرو بن عبد المسيح ابن ثقيلة، ووجد خالد معه كيساً فقال: ما في هذا؟ وفتحه خالد فوجد فيه شيئاً. فقال ابن ثقيلة: هو سُمُّ السَّاعَةِ. فقال: ولم استصحبته معك؟ فقال: حتى إذا رأيت مكروهاً في قومي أكلته، فالموت أحبُّ إليَّ من ذلك، فأخذه خالد في يده وقال: إنَّه لن تموت

نفس حتى تأتي على أجلها، ثم قال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسما الذي ليس يضر مع اسمه داء،
 الرحمن الرحيم. قال: وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه فبادرهم فابتلعه، فلما رأى ذلك ابن بقليلة قال: والله يا معشر
 العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد، ثم النفث إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالاً من هذا. تاريخ
 الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ١٩١) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٧ / ص ٤٧٤)
 (٣) - انظر المعجم الأوسط للطبراني (٦٦٨٣) و تاريخ دمشق - (ج ٢٠ / ص ٢٨٧) والبداية والنهاية لابن
 كثير مدقق - (ج ٩ / ص ٤٣٢) والإصابة في تمييز الصحابة [جزء ٣ - صفحة ٧٤]
 (٤) - أخرجه ابن عساكر (٢٥/٢٠) وأخرجه ابن عساكر (٢٤/٢٠) والإستيعاب في معرفة الأصحاب - (ج ٢
 / ص ١٠) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ١ / ص ٤١٠) و تاريخ دمشق - (ج ٢ / ص ٣٦٦) و تاريخ
 دمشق - (ج ٢٠ / ص ٢٠) و تاريخ دمشق - (ج ٢٠ / ص ٢٣-٢٧) و تاريخ دمشق - (ج ٤٤ / ص ٩٦)
 و تاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ٣٩٧) و تاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ٣٩٨) والبداية والنهاية لابن
 كثير مدقق - (ج ٧ / ص ٢٩) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٨ / ص ١٧٨) والبداية والنهاية لابن
 كثير مدقق - (ج ٨ / ص ١٧٩) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٨ / ص ١٨٠) و تاريخ الإسلام للذهبي
 - (ج ١ / ص ١١١) و تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١ / ص ٤٠٧) قلت : فالحديث صحيح

وَلَمَّا عَذَّبَتْ " الزَّنِيرَةُ " عَلَى الْإِسْلَامِ فِي اللَّهِ فَأَبَتْ إِلَّا الْإِسْلَامَ وَذَهَبَ بَصَرُهَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ أَصَابَ بَصَرُهَا اللَّاتُ
 وَالْعُزَّى قَالَتْ كُلَّا وَاللَّهُ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا (١)
 وَدَعَا " سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ " عَلَى أَرْوَى بِنْتِ الْحَكَمِ فَأَعْمِيَ بَصَرُهَا لَمَّا كَذَبَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ
 بَصَرَهَا وَأَقْلِبْهَا فِي أَرْضِهَا فَعَمِيَتْ وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ مِنْ أَرْضِهَا فَمَاتَتْ. (٢)
 " وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ " كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : يَا
 عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيَسْتَجَابُ لَهُ وَدَعَا اللَّهُ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّعُوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لَمَّا بَعْلَهُمْ
 فَأَجِيبْ وَدَعَا اللَّهُ لَمَّا اعْتَرَضَهُمُ الْبَحْرُ وَلَمْ يَهْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخَيْلِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَتْ سُرُوجُ
 خَيْلِهِمْ ؛ وَدَعَا اللَّهُ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ. (٣)

(١) - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَمُرُّ بِهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ بِذَلِكَ وَهُوَ
 يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ ؛ فَيَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ وَاللَّهِ يَا بِلَالُ ثُمَّ يُقْبَلُ عَلَى أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ ، وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِهِ مِنْ بَنِي جُمَحٍ
 فَيَقُولُ أَحْلِفْ بِاللَّهِ لَنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا ، حَتَّى مَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ (ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ) رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ يَوْمًا ، وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ بِهِ وَكَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحٍ فَقَالَ لَأُمِّيَّةَ بِنْتُ خَلْفٍ أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذَا
 الْمُسْكِينِ ؟ حَتَّى مَتَى ؟ قَالَ أَنْتَ الَّذِي أَفْسَدْتَهُ فَأَقْبِضْهُ مِمَّا تَرَى ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ . أَفَعَلُ عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ
 وَأَقْوَى ، عَلَى دِينِكَ ، أُعْطِيكَهُ بِهِ قَالَ قَدْ قَبِلْتُ فَقَالَ هُوَ لَكَ . فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلَامَهُ ذَلِكَ
 وَأَحْدَهُ فَأَعْتَقَهُ . ثُمَّ أَعْتَقَ مَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سِتَ رِقَابٍ بِلَالٌ سَابِعُهُمْ عَامِرُ بْنُ قُهِيرَةَ ، شَهِدَ
 بَدْرًا وَأُحُدًا ، وَقُتِلَ يَوْمَ بَرٍّ مَعُونَةَ شَهِيدًا ؛ وَأُمُّ عُبَيْسٍ وَزَيْنَةُ ، وَأُصِيبَ بَصَرُهَا حِينَ أَعْتَقَهَا ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : مَا
 أَذْهَبَ بَصَرَهَا إِلَّا اللَّاتُ وَالْعُزَّى ؛ فَقَالَتْ كَذَبُوا وَبَيَّتَ اللَّهُ مَا تَصْرُ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَا تَنْفَعَانِ فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرَهَا .
 وَأَعْتَقَ التَّهْدِيَّةَ وَبَنَتَهَا ، وَكَانَتْ لَامْرَأَةً مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَمَرَّ بِهِمَا وَقَدْ بَعَثَهُمَا أَبَدًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 حِلًّا يَا أُمَّ فُلَانٍ فَقَالَتْ حِلَّ أَنْتِ أَفْسَدْتَهُمَا فَأَعْتَقْتَهُمَا ، قَالَ فَبِكُمُ هُمَا ؟ قَالَتْ بِكَذَا وَكَذَا ، قَالَ قَدْ أَخَذْتُهُمَا وَهُمَا

خُرَّتَانِ أَرَجَعَا إِلَيْهَا طَحِينَهَا ، قَالَتَا : أَوْتَفِرُغُ مِنْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ تَرُدُّهُ إِلَيْهَا ؟ قَالَ وَذَلِكَ إِنْ شِئْتُمَا . وَمَرَّ بِجَارِيَةِ بَنِي مُؤَمِّلٍ حَيٍّ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ ، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُعَذِّبُهَا لِتُرْكِ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يَوْمِئِذٍ مُشْرِكٌ وَهُوَ يَضْرِبُهَا ، حَتَّى إِذَا مَلَ قَالَ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ ، إِنِّي لَمْ أَتُرْكِ إِلَّا مَلَالَةً فَتَقُولُ كَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ بِكَ . فَأَتْبَاعَهَا أَبُو بَكْرٍ ، فَأَعْتَقَهَا .

سيرة ابن هشام - (ج ١ / ص ٣١٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٥٨٨) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (٧٠٢٤) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١ / ص ٥٧) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ٣ / ص ٤٩٣) من طرق وهو صحيح لغيره

(٢) - عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّ أَرْوَى خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ فَقَالَ دَعُوهَا وَإِيَّاهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طَوَّقَهُ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا . قَالَ فَرَأَيْتُهَا عَمِيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدْرَ تَقُولُ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ . فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا فَكَانَتْ قَبْرَهَا . صحيح مسلم (٤٢١٨)

(٣) - مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٧٩٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٢٣٠٢) ومجاوب الدعوة (٢٥) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٧ / ص ١٤١) وفي سنده ضعف

وَجَرَى مِثْلَ ذَلِكَ " لِأَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِي " الَّذِي أَهْلَى فِي النَّارِ فَإِنَّهُ مَشَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعَسْكَرِ عَلَى دِجْلَةٍ وَهِيَ تُرْمَى بِالْخَشَبِ مِنْ مَدَّهَا ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : تَفْقِدُونَ مِنْ مَتَاعِكُمْ شَيْئًا حَتَّى أَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَقَدْتُ مِخْلَةً فَقَالَ : اتَّبِعْنِي فَتَبِعَهُ فَوَجَلَهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَأَخْلَعَهَا . (١) وَطَلَبَهُ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَقَالَ لَهُ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ مَا أَسْمَعُ قَالَ أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ نَعَمْ فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا (٢) ؛ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمَيِّنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِعْلٍ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ (٣) . وَوَضَعَتْ لَهُ جَارِيَةُ السَّمِّ فِي طَعَامِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ . وَحَبَّتْ امْرَأَةً عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ فَدَعَا عَلَيْهَا فَعَمِيَتْ وَجَاءَتْ وَتَابَتْ فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا . (٤)

وَكَانَ " عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ " يَأْخُذُ عَطَاءَهُ أَهْلِي دِرْهَمٍ فِي كُمِّهِ وَمَا يَلْقَاهُ سَائِلٌ فِي طَرِيقِهِ إِلَّا أَعْطَاهُ بِغَيْرِ عَدَدٍ ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَدْدُهَا وَلَا وَرْثُهَا (٥) . وَمَرَّ بِقَافِلَةٍ قَدْ حَبَسَهُمُ الْأَسَدُ فَجَاءَ حَتَّى مَسَّ شَيْبَاهُ الْأَسَدَ ثُمَّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَالَ : إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الرَّحْمَنِ وَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ ، وَمَرَّتِ الْقَافِلَةُ (٦) ، وَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الطُّهُورَ فِي الشِّتَاءِ فَكَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لَهُ بُخَارٌ وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَمْنَعَ قَلْبَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ (٧) .

(١) - دلائل النبوة للبيهقي (٢٣٠٤) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - (ج ١٠ / ص ٢٤٤) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٧ / ص ١٤٢) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٧ / ص ٣٢٠) وهو صحيح

(٢) - عن اسماعيل بن عيَّاش الخطيمي، حدَّثني شراحيل ابن مسلم الخولاني، أَنَّ الْأَسْوَدَ بْنَ قَيْسِ بْنِ ذِي الْحِمَارِ

العنسيّ تنبأ باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم الخولانيّ فأقي به. فلَمَّا جاء به قال: أتشهد أني رسول الله؟

قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟

قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم. قال: فردّد عليه ذلك مراراً، ثمّ أمر بنار عظيمة فأجّجت فألقي فيها فلم تضرّه. فقليل للأسود: إنفه عنك وإلا أفسد عليك من أتبعك، فأمره فارتحل فأثى المدينة وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، ثمّ دخل المسجد وقام يصليّ إلى سارية فبصر به عمر بن الخطّاب فأتاه فقال: ممن الرّجل؟

فقال: من أهل اليمن. قال: ما فعل الرّجل الذي حرقة الكذاب بالنّار؟

قال: ذاك عبد الله بن أئوب. قال: فأنشذك بالله أنت هو؟

قال: اللّهم نعم. "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - (ج ١٠ / ص ٢٦٦) وتاريخ دمشق - (ج ٢٧ / ص

٢٠١) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج/ص: ٢٩٩/٦) وهو حديث قوي

(٣) - أخرجه ابن عساكر (٢٧/٢٠٠) والإستيعاب في معرفة الأصحاب - (ج ٢ / ص ٦٦) وتاريخ دمشق -

(ج ٢٧ / ص ٢٠٠) وتاريخ دمشق - (ج ٢٧ / ص ٢٠١) والبداية والنهاية لابن كثير مدقق - (ج ٧ / ص

٣٣٢-٣٣٣) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٢ / ص ١٢٦) وهو حديث فيه انقطاع

(٤) - سير أعلام النبلاء (١١/٤) وهو حديث حسن

(٥) - مصنف عبد الرزاق مشكل (٢٠٥٤٣) و الزهد لأحمد بن حنبل (١٢٥٥) والزهد والرفائق لابن المبارك

(٨٤٩) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ٢ / ص ٣٥٦) وتاريخ دمشق - (ج ٢٦ / ص ٢٩) وتاريخ دمشق

- (ج ٢٦ / ص ٣٠) و سير أعلام النبلاء (١٩/٤) وفيها جهالة

(٦) - عن مالك بن دينار ، قال : مر عامر بن عبد الله القيسي فإذا قافلة قد احتبست ، فقال لهم : « ما لكم ؟ »

قالوا : الأسد حال بيتنا وبين الطريق قال : « إنما ذا كلب من كلاب الله فمر به حتى أصاب ثوبه فم الأسد »

تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٧٣٢) وحلية الأولياء - (ج ١ / ص ٢٤٤) والإصابة في تمييز

الصحابة [جزء ٥ - صفحة ٧٧] حسن

حال : حجز و فرق ومنع

(٧) - عن قتادة قال : كان عامر بن عبد قيس « سأل ربه تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء ، فكان يؤتى

بالماء وله بخار » ، قال : « وسأل ربه عز وجل أن ينزع شهوة النساء من قلبه ، فكان لا يبالي أذكرا لقي أم أنثى ،

وسأل ربه عز وجل أن يمنع قلبه من الشيطان ، وهو في الصلاة فلم يقدر عليه »

الزهد والرفائق لابن المبارك (٨٤٨) وشعب الإيمان للبيهقي (٩٧٦) و حلية الأولياء - (ج ١ / ص ٢٤٤)

وصفة الصفوة - (ج ١ / ص ٣٥١) والإصابة في معرفة الصحابة - (ج ٢ / ص ٣٥٦) والطبقات الكبرى لابن

سعد - (ج ٧ / ص ١٠٦) وتاريخ دمشق - (ج ٢٦ / ص ٢٢) صحيح لغیره

وَعَبَّابٌ " الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ " عَنْ الْحَجَّاجِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَرَوْهُ (١) وَدَعَا عَلَى
بَعْضِ الْخَوَارِجِ كَانَ يُؤْذِيهِ فَخَرَّ مَيِّتًا .

وَ " صِلَةُ بَنٍ أَشِيمَ " مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنْهُ وَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَحْيَا لَهُ

فَرَسَهُ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ يَا بُنَيَّ خُذْ سَرَجَ الْفَرَسِ فَإِنَّهُ عَارِيَّةٌ فَأَخَذَ سَرَجَهُ فَمَاتَ الْفَرَسُ (٢)، وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَاكِ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَطْعَمَهُ فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةٌ رُطِبَ فِي ثَوْبٍ حَرِيرٍ فَأَكَلَ التَّمَرُ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ رُؤُوسِهِ زَمَانًا . وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غِيْضَةٍ بِاللَّيْلِ فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ أُطْلُبِ الرُّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَيْرٌ (٣).

وَكَانَ " سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ " فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ (٤).

(١) - ورد نحوه في قوت القلوب - (ج ١ / ص ٩٩) وسنده واه

(٢) - لم أجده

(٣) - عن جعفر بن زيد قال: خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم، فترل الناس عند العتمة فقلت: لأرمقن عمله الليلية، فدخل غيضة ودخلت في أثره فقام يصلي وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا في شجرة، قال: فتراه النفث أو عدّه جرواً حتى سجد فقلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم فقال: أيها السبع إن كنت أمرت بشيء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر، فولى الأسد وإن له لثيراً تصدع منه الجبال، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بحامد لم أسمع بمثلها ثم قال: اللهم إني أسألك أن تحبني من النار، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة. ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا، وأصبحت وي من الفترة شيء الله به عليم. قال: وذهبت بغلته بثقلها فقال: اللهم إني أسألك أن ترد علي بغلي بثقلها، فجاءت حتى قامت بين يديه، قال: فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعا بهم طعناً وضرباً، فقال العدو: رجالان من العرب صنعا بنا هذا فكيف لو قاتلونا كلهم؟ أعطوا المسلمين حاجتهم - يعني انزلوا على حكمهم - وقال صلة: جعت مرة في غزاة جوعاً شديداً فبينما أنا أسير أدعو ربي وأستطعمه، إذ سمعت وجبة من خلفي، فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض فإذا فيه دواخلة ملانة رطبا فأكلت منه حتى شبعت، وأدر كنى المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث فاستطعمني من الرطب فأطعمته، ثم إني مررت على ذلك الراهب بعد زمان فإذا انحلات حسان فقال: إنهن لمن الرطبات التي أطعمتني، وجاء بذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس، ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصلي فقامت تصلي معه، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح، قال: فأتيته فقلت له: أي عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقامت تصلي وتركتها؟ قال: إنك أدخلتني بيتاً أول النهار أذكرتني به النار، وأدخلتني بيتاً آخر النهار أذكرتني به الجنة، فلم تزل فكري فيهما حتى أصبحت، البداية والنهاية لابن كثير (ج/ص: ٩ / ٢٢) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٢ / ص ٨٨) وكلاهما ورد بسند قوي

(٤) - ففي شعب الإيمان للبيهقي (٤٠٦) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو سعيد بن أبي عمرو، قالوا: حدثنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثني سويد بن سعيد، حدثني ابن أبي الرجال، عن سليمان بن سحيم، قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، قلت: يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم؟»، قال: «نعم وأرد عليهم» (حسن مرسل)

وفي دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (٤٩١) حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سهل الخشاب النيسابوري قال: ثنا إبراهيم بن إسحاق الأنطاقي ثنا محمد بن سليمان لوين قال: ثنا عبد الحميد بن سليمان، عن أبي حازم، عن سعيد بن المسيب قال: لقد رأيتني ليالي الحرة وما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وما يأتي وقت صلاة

إلا سمعت الأذان من القبر ثم أتقدم فأقيم وأصلي وإن أهل الشام ليدخلون المسجد زمرا فيقولون : انظروا إلى الشيخ المجنون (ضعيف ، عبد الحميد بن سليمان ضعيف)

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد - (ج ٥ / ص ١٣٢)

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني طلحة بن محمد بن سعيد عن أبيه قال: كان سعيد بن المسيب أيام الحرة في المسجد لم يبايع ولم يبرح، وكان يصلي معهم الجمعة ويخرج إلى العيد، وكان الناس يقتتلون وينتهون وهو في المسجد لا يبرح إلا ليلا إلى الليل. قال فكنت إذا حانت الصلاة أسمع أذانا يخرج من قبل القبر حتى أمن الناس وما رأيت خيرا من الجماعة. (وفيه الواقدي وهو متهم)

وفي سنن الدارمي (٩٤) أَخْبَرَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : لَمَّا كَانَ أَيَّامُ الْحَرَّةِ لَمْ يُؤْذَنَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ثَلَاثًا وَلَمْ يُقَمْ ، وَلَمْ يَبْرَحْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ الْمَسْجِدَ ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ الصَّلَاةِ إِلَّا بِهَمِّهِمْ يَسْمَعُهَا مِنْ قَبْرِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَذَكَرَ مَعْنَاهُ. (وفيه انقطاع) فالحديث حسن لغيره

وانظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - (ج ١٢ / ص ٣٥٧-٣٥٩)

وَرَجُلٌ مِنْ " النَّخَعِ " كَانَ لَهُ حِمَارٌ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ هَلُمَّ نَتَوَزَّعْ مَتَاعَكَ عَلَى رِحَالِنَا فَقَالَ لَهُمْ : أَمْهَلُونِي هُنَيْهَةً ثُمَّ تَوَضَّأْ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ (١). وَلَمَّا مَاتَ " أُوَيْسُ الْقُرْنِيِّ " وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ وَوَجَدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ (٢).

وَكَانَ " عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ " يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَأَظْلَمَتْهُ عَمَامَةٌ وَكَانَ السَّعْيُ يَحْمِيهِ وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ (٣) أَصْحَابِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغُرُوفِ أَنَّهُ يَخْلِمُهُمْ (٤).

وَكَانَ " مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ " إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَحَتْ مَعَهُ آيَتُهُ وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ (٥).

(١) - لم أجده ، والأغلب عدم صحته

(٢) - عن المعافى بن مدرك حدثنا داود بن الجراح حدثنا عثمان بن عطاء عن أبيه قال خرج أويس القرني عاريا

راجلا إلى ثغر أرمينية فأصابه البطن فالتجأ إلى أهل خيمة فمات عندهم ومعه جراب وقعب فقالوا لرجلين منهم

أذهباه فاحفرا له قبرا قالوا فنظرنا في جرابه فإذا فيه ثوبان ليسا من ثياب الدنيا وجاء الرجلان فقالا قد أصبنا قبرا

محفورا في صخرة كأنما رفعت الأيدي عنه الساعة فكفنوه ودفنوه ثم التفتوا فلم يروا شيئا "

تاريخ دمشق - (ج ٩ / ص ٤٥٤) ولا يصح فيه جهالة وضعف

ويعارضه ما ورد من طريق عبد الله بن المبارك أنبا جعفر بن سليمان عن الجريري عن أبي نصر العبدى عن أسير بن

جابر قال قال لي صاحب لي وأنا بالكوفة * هل لك في رجل تنظر إليه قلت نعم قال هذه مدرجته وأنه أويس القرني

وأظنه أنه سيمر الآن قال فجلسنا له فمر فإذا رجل عليه سمل قطيفة قال والناس يطئون عقبة قال وهو يقبل فيغلظ

لهم ويكلمهم في ذلك فلا ينتهون عنه فمضينا مع الناس حتى دخل مسجد الكوفة ودخلنا معه فتنحى إلى سارية

فصلى ركعتين ثم أقبل إلينا بوجهه فقال يا أيها الناس ما لي ولكم تطئون عقبي في كل سكة وأنا إنسان ضعيف

تكون لي الحاجة فلا أقدر عليها معكم لا تفعلوا رحمكم الله من كانت له إني حاجة فليلقني ها هنا قال وكان عمر بن

الخطاب رضي الله عنه سأل وفدا قدموا عليه هل سقط إليكم رجل من قرن من أمره كيت وكيت فقال الرجل لأويس ذكرك أمير المؤمنين ولم يذكر ذلك كما يقال ما كان ذلك من ذكره ما أتبلغ إليكم به قال وكان أويس أخذ على الرجل عهدا وميثاقا أن لا يحدث به غيره قال ثم قال أويس إن هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر مؤمن فقيه ومؤمن لم يتفقه ومنافق وذلك في الدنيا مثل الغيث ينزل من السماء إلى الأرض فيصيب الشجرة المورقة المونة المثمرة فيزيد ورقها حسنا ويزيدها إيناعا وكذلك يزيد ثمرها طيبا ويصيب الشجرة المورقة المونة التي ليس لها ثمرة فيزيدها إيناعا ويزيدها ورقا حسنا وتكون لها ثمرة فتلحق بأختها ويصيب الهشيم من الشجر فيحطمه فيذهب به قال ثم قرأ الآية! > ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا <! لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان فقضاء الله الذي قضى! > شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا <! اللهم ارزقني شهادة تسبق كسرتها أذاها وأمنها فرعها توجب الحياة والرزق ثم سكت قال أسير فقال لي صاحبي كيف رأيت الرجل قلت ما ازددت فيه إلا رغبة وما أنا بالذي أفارقه فلزنا فلم نلبث إلا يسيرا حتى ضرب على الناس بعث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فخرج صاحب القطيفة أويس فيه وخرجنا معه فيه وكنا نسير معه وننزل معه حتى نزلنا بحضرة العدو قال بن المبارك فأخبرني حماد بن سلمة عن الجريري عن أبي نضرة عن أسير بن جابر قال فنأدى منادي علي رضي الله عنه يا خيل الله اركبي وأبشري قال فصف الثلثين لهم فانتضى صاحب القطيفة أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه ثم جعل يقول يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه ثم لا تنصرف حتى ترى الجنة يا أيها الناس تموا تموا جعل يقول ذلك ويمشي وهو يقول ذلك ويمشي إذ جاءته رمية فأصابت فواده فبرد مكانه كأنما مات منذ دهر قال حماد في حديثه فواريناه في التراب " المستدرک للحاکم مشکلا - (ج ٣ / ص ١٤٦) (٣٣٨٦) وصححه ووافقه الذهبي

قلت : هذا الحديث صحيح وهو أقوى ما ورد في موت أويس رحمه الله .
وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة [جزء ١ - صفحة ٢٢٢] بعد روايته : وهو صحيح السند (٣) - الركاب : وهي الإبل المركوبة أو الحاملة شيئا أو التي يراد الحمل عليها
(٤) - الأولياء (١١٠) وحلية الأولياء - (ج ٢ / ص ١٤٨) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٢ / ص ١٧٠)
(٥) - عن قتادة، قال: كَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَصَاحِبٌ لَهُ سَرِيًّا فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَإِذَا طَرَفُ سَوَاطِئِ أَحَدِهِمَا عِنْدَهُ صَوًءٌ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَنَا النَّاسَ بِهَذَا، كَذَّبُونَا.
فَقَالَ مُطَرِّفٌ: الْمَكْذَبُ أَكْذَبُ - يَقُولُ: الْمَكْذَبُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَكْذَبُ
مصنف عبد الرزاق (٢٠٥٤٤) والاعتقاد للبيهقي (٢٨٧) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة
للإكائي (٢٤٩٦) وحلية الأولياء - (ج ١ / ص ٣٠٠) وتاريخ دمشق - (ج ٥٨ / ص ٣٢١) وسير أعلام
النبلاء (١٩٣/٤) وتهذيب التهذيب ١٠ / ١٧٤ وهو صحيح

وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعَتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلًا فِي قَبْرِهٖ، فَأَهْوَى لِأُخْذِهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ . (١)
وَكَانَ " إِبْرَاهِيمُ الْيَمِي " يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا وَخَرَجَ يَمْتَارُ لِأَهْلِهِ طَعَامًا فَلَمْ يَهْدِرْ عَلَيْهِ فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَفَتَحَهَا فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءَ فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا تَخْرُجُ السَّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتْرَاكِبًا . (٢)
وَكَانَ " عُبَيْةُ الْغُلَامِ " سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ صَوْتًا حَسَنًا وَدَمْعًا غَزِيرًا وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ . فَكَانَ إِذَا قَرَأَ بَكَى وَابْكَى وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرُهُ وَكَانَ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَصِيبُ فِيهِ قُوَّتُهُ وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ . (٣)

وَكَانَ " عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ " أَصَابَهُ الْفَالِجُ فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقَتَ الْوُضُوءِ فَكَانَ وَقَتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُدُّ بَعْدَهُ . (٤)

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بَسِطَ الْكَلَامُ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . (٥)
وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَعْيَانٍ وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ . وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ ، فَإِذَا احْتَجَّ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إِيمَانَهُ وَيُسَدُّ حَاجَتَهُ ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وَلَايَةٍ لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَعْنِيًا عَنْ ذَلِكَ فَلَا يَأْتِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ لِعُمُودِ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وَلَايَتِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ ؛ بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً .

(١) - قلت : لم أجدها

(٢) - قلت : روي عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، قَالَ : انْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْتَارُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الطَّعَامِ ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ ، فَأَخَذَ مِنْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالُوا : مَا هَذَا ، قَالَ : حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ ، قَالَ : افْتَحُوهَا فَوَجَدُوهَا حِنْطَةً حَمْرَاءَ ، قَالَ : فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا شَيْئًا خَرَجَ سُنْبُلَةً مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتْرَاكِبًا .

مصنف ابن أبي شيبة (٣١٨١٣) وسنده صحيح إلى أبي صالح

أما إبراهيم التيمي فلم أجده قصته ، ولعله وقع التباس بينهما

(٣) - شعب الإيمان للبيهقي (١٣٣٣) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢٥٢١) ومجاوب

الدعوة (١٠٤) وحلية الأولياء - (ج ٣ / ص ٦٩) ولا يصح فيه جهالة

(٤) -

قَالَ ابْنُ أَبِي الْخَوَارِيِّ: قَالَ لِي أَبُو سُلَيْمَانَ: أَصَابَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الْفَالِجُ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُطْلِقَهُ فِي وَقْتِ الْوُضُوءِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ الْوُضُوءَ، انْطَلَقَ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى سَرِيرِهِ، فُلِجَ.

قوت القلوب - (ج ١ / ص ٤٠٥) وتاريخ دمشق - (ج ٣٧ / ص ٢٢٦) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٣ /

ص ١٤٥) و سير أعلام النبلاء (١٨٠/٧) وحلية الأولياء - (ج ٣ / ص ٢٨) قلت : إن سمع أبو سليمان الداراني منه فالخبر صحيح إليه

(٥) - انظر الدرر السنية كاملة - (ج ١ / ص ١٤٦) والدرر السنية كاملة - (ج ٢٤ / ص ٣٩) وشروح

الطحاوية - (ج ٢ / ص ٦٢) وشروح الطحاوية - (ج ٢ / ص ٣٨٢-٣٨٥) والاعتقاد للبيهقي - (ج ١ / ص

٣١٦) فما بعدها وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي - (ج ٦ / ص ٣٩٤) ولقاءات الباب

المفتوح - (ج ٢٢٤ / ص ٤٥) والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي - (ج ١ / ص ٢٢٨) وفتاوى اللجنة

الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء - (ج ١ / ص ٤٩٩) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - (ج ١٠ / ص

(٢٣٥)

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ مِثْلُ حَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ الَّذِي طَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَالُ (١) ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَالُ ؛ لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ خَبَّاتَ لَكَ خُبْنًا قَالَ : الدُّخُ الدُّخُ . وَقَدْ كَانَ خَبًّا لَهُ سُورَةُ الدُّخَانِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْسَأْ فَلَنْ تَعُدُّوْا قَدْرَكَ (٢)

(١) - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ أَقْبَلْنَا فِي جَيْشٍ مِنَ الْمَدِينَةِ قَبْلَ هَذَا الْمَشْرِقِ. قَالَ فَكَانَ فِي الْجَيْشِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَيَّادٍ وَكَانَ لَا يُسَايِرُهُ أَحَدٌ وَلَا يُرَافِقُهُ وَلَا يُؤَاكِلُهُ وَلَا يُشَارِبُهُ وَيُسَمُّوهُ الدَّجَالَ فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ نَازِلٌ فِي مَنْزِلٍ لِي إِذْ رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَيَّادٍ جَالِسًا فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ أَلَا تَرَى إِلَى مَا يَصْنَعُ النَّاسُ لَا يُسَايِرُونِي أَحَدٌ وَلَا يُرَافِقُونِي أَحَدٌ وَلَا يُشَارِبُونِي أَحَدٌ وَلَا يُؤَاكِلُونِي أَحَدٌ وَيَدْعُونِي الدَّجَالَ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « إِنَّ الدَّجَالَ لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ ». وَإِنِّي وَلِدْتُ بِالْمَدِينَةِ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « إِنَّ الدَّجَالَ لَا يُولَدُ لَهُ ». وَقَدْ وَلِدْتُ لِي فَوَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ مِمَّا يَصْنَعُ بَنِي هَؤُلَاءِ النَّاسُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأَخْلُوهُ فَأَجْعَلُهُ فِي عُنْقِي فَأَخْتَنِقَ فَأَسْتَرِيحَ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَاللَّهُ مَا أَنَا بِالْدَّجَالِ وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ لَأَخْبَرْتُكَ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَاسْمِ أُمِّهِ وَاسْمِ الْقَرْيَةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا. مسند أحمد (١٢٠٦٨) صحيح

(٢) - عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي رَهْطٍ قَبْلَ ابْنِ صَيَّادٍ ، حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ عِنْدَ أُطَمٍ بَنَى مَعَالَةً ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ « تَشْهَدُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ». فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ . فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَتَشْهَدُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَضَهُ وَقَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ . فَقَالَ لَهُ « مَاذَا تَرَى ». قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ يَا نَبِيَّ صَادِقٌ وَكَاذِبٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ » ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا ». فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ . فَقَالَ « اخْسَأْ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ ». فَقَالَ عُمَرُ - رضى الله عنه - دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ ». صحيح البخارى (١٣٥٤)

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٩ / ص ٢٩١)

وقوله (وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ يَوْمَئِذٍ يَحْتَلِمُ) فِي رِوَايَةِ يُونُسَ وَشُعَيْبٍ " وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ " وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ فِي رِوَايَةِ الْأَسْمَاعِيلِيِّ فَاعْتَرَضَ بِهِ فَقَالَ : لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ غُلَامًا أَنْ يَكُونَ لَمْ يَحْتَلِمِ .
قوله : (أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ) فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانَ ابْنُ صَيَّادٍ مِنْهُمْ كَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِعِثَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكِنْ يَدْعُونَ أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِالْعَرَبِ ، وَفَسَادُ حُجَّتِهِمْ وَاضِحٌ جَدًّا ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَقْرَأُوا بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ اسْتَحَالَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ، فَإِذَا ادَّعَى أَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَى الْعَرَبِ وَإِلَى غَيْرِهَا تَعَيَّنَ صِدْقُهُ ، فَوَجِبَ تَصْدِيقُهُ .

قوله : (فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ أَتَشْهَدُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ) فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ " فَقَالَ أَتَشْهَدُ أَنَّكَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ " .

قوله : (قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلُهُ) وَلِلْمُسْتَمْلِيِّ " وَرَسُولُهُ " بِالْإِفْرَادِ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ " آمَنْتُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " قَالَ الرَّزِّينُ بْنُ الْمُنِيرِ ، إِنَّمَا عَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامَ عَلَى ابْنِ صَيَّادٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الدَّجَالُ الْمُحَذَّرُ مِنْهُ . قُلْتُ : وَلَا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ ، بَلِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ أَمْرَهُ كَانَ مُحْتَمَلًا فَأَرَادَ اخْتِبَارَهُ بِذَلِكَ فَإِنْ أَجَابَ غَلَبَ تَرْجِيحُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ ، وَإِنْ لَمْ يُجِبْ تِمَادِي الْإِحْتِمَالِ ، أَوْ أَرَادَ بِاسْتِنَاطِقِهِ إِظْهَارَ كَذِبِهِ الْمُنْفِي لِدَعْوَى الثُّبُوتِ ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ أَجَابَهُ بِجَوَابٍ مُنْصِفٍ فَقَالَ " آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ " . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : كَانَ ابْنُ صَيَّادٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُهْنَةِ يُخْبِرُ بِالْخَبَرِ فَيَصِحُّ تَارَةً وَيَفْسُدُ أُخْرَى ،

فَشَاعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَنْزِلْ فِي شَأْنِهِ وَحَيَّ ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُلُوكَ طَرِيقَةَ يَخْتَبِرُ حَالَهُ بِهَا ، أَيْ فَهُوَ السَّبَبُ فِي انْطِلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ رَوَى أَحَدُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ " وَلَدَتْ امْرَأَةً مِنَ الْيَهُودِ غُلَامًا مَمْسُوحَةً عَيْنُهُ ، وَالْأُخْرَى طَالِعَةً نَاتِنَةً ، فَأَشْفَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الدَّجَالُ " .
وَلِلتِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعًا " يَمُكُّ أَبُو الدَّجَالِ وَأُمُّهُ ثَلَاثِينَ عَامًا لَا يُولَدُ لَهُمَا ثُمَّ يُولَدُ لَهُمَا غُلَامٌ أَصْرَ شَيْءٍ وَأَقْلَهُ مَنَفَعَةٍ ، قَالَ وَنَعْتَهُمَا فَقَالَ : أَمَّا أَبُوهُ فَطَوِيلُ صَرْبِ اللَّحْمِ كَانَ أَنْفَهُ مَنْقَارَ ، وَأَمَّا أُمُّهُ فَرُصَاخِيَّةٌ " أَيْ بَفَاءٍ مَفْتُوحَةٍ وَرَاءَ سَاكِنَةٍ وَبِمُعْجَمَتَيْنِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا ضَخْمَةٌ طَوِيلَةُ الْيَدَيْنِ " قَالَ فَسَمِعْنَا بِمَوْلُودٍ بِبَيْتِكَ الصَّفَّةِ ، فَذَهَبَتْ أَنَا وَالرُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَبِيهِ - يَعْنِي ابْنَ صَيَّادٍ - فَإِذَا هُمَا بِبَيْتِكَ الصَّفَّةِ " وَلِأَحْمَدَ وَالْبَزَّارَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ " بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ : سَلْهُمَا كَمْ حَمَلَتْ بِهِ ؟ فَقَالَتْ حَمَلَتْ بِهِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، فَلَمَّا وَقَعَ صَاحَ صِيَّاحِ الصَّبِيِّ ابْنِ شَهْرٍ " انْتَهَى ، فَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَصْلُ فِي إِرَادَةِ اسْتِكْشَافِ أَمْرِهِ .
قَوْلُهُ : (مَاذَا تَرَى قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ)

فِي حَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَنَحْوِهِ لِمُسْلِمٍ " فَقَالَ أَرَى حَقًّا وَبَاطِلًا ، وَأَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ " وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عِنْدَهُ " أَرَى صَادِقِينَ وَكَاذِبًا " وَلِأَحْمَدَ " أَرَى عَرْشًا عَلَى الْبَحْرِ حَوْلَهُ الْحَيَّاتَانِ " .
قَوْلُهُ : (قَالَ لُبْسٌ) بِضَمِّ اللَّامِ وَتَخْفِيفِ الْمُوَحَّدَةِ الْمَكْسُورَةِ بَعْدَهَا مُهْمَلَةً أَيْ خُلِطَ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي الطُّفَيْلِ عِنْدَ أَحْمَدَ فَقَالَ " تَعُدُّوْا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا " .

قَوْلُهُ : (إِنِّي قَدْ خَبَّاتُ لَكَ خَبْنًا) بِكَسْرِ الْمُعْجَمَةِ وَفَتْحِهَا وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهَا هَمْزٌ ، وَبِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّةً سَاكِنَةً ثُمَّ هَمْزٌ أَيْ أَخْتِيتُ لَكَ شَيْئًا .

قَوْلُهُ : (هُوَ الدُّخُّ) بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ بَعْدَهَا مُعْجَمَةٌ ، وَحَكَى صَاحِبُ الْمُحْكَمِ الْفَتْحَ ، وَوَقَعَ عِنْدَ الْحَاكِمِ " الرِّخَّ " بِفَتْحِ الرَّايِ بَدَلَ الدَّالِّ وَفَسَّرَهُ بِالْجَمَاعِ ، وَاتَّفَقَ الْأَثَمَةُ عَلَى تَغْلِيظِهِ فِي ذَلِكَ ، وَيُرَدُّ مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْمَذْكُورِ " فَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ الدُّخَانَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَقَالَ الدُّخُّ " ، وَلِلْبَزَّارِ وَالطَّبْرَانِيِّ فِي " اللَّوْطِ " مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ قَالَ " كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبًّا لَهُ سُورَةُ الدُّخَانِ " وَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ السُّورَةَ وَأَرَادَ بَعْضُهَا ، فَإِنَّ عِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ " وَخَبَّاتُ لَهُ : يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ " وَأَمَّا جَوَابُ ابْنِ صَيَّادٍ بِالْدُّخِّ فَقِيلَ إِنَّهُ انْتَهَشَ فَلَمْ يَقَعْ مِنْ لَفْظِ الدُّخَانِ إِلَّا عَلَى بَعْضِهِ ، وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ أَنَّ الْآيَةَ حِينَئِذٍ كَانَتْ مَكْتُوبَةً فِي يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَهْتَدِ ابْنُ صَيَّادٍ مِنْهَا إِلَّا لِهَذَا الْقَدْرِ النَّاقِصِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُهْنَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَنْ تَعُدُّوْا قَدْرَكَ " أَيْ قَدْرَ مِثْلِكَ مِنَ الْكُهَّانِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ مِنْ إِلْقَاءِ شَيْطَانِهِمْ مَا يَحْفَظُونَهُ مُخْتَلِطًا بِكَذِبِهِ . وَحَكَى أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ أَنَّ السَّرَّ فِي امْتِحَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَقْتُلُ الدَّجَالَ بِجَبَلِ الدُّخَانِ ، فَأَرَادَ التَّعْرِيزَ ، لِابْنِ الصَّيَّادِ بِذَلِكَ وَاسْتَبْعَدَ الْخَطَّابِيُّ مَا تَقَدَّمَ وَصَوَّبَ أَنَّهُ أَخْبَأَ لَهُ الدُّخَّ وَهُوَ ثَبَتٌ يَكُونُ بَيْنَ الْبَسَاتِينِ ، وَسَبَبَ اسْتِبْعَادَهُ لَهُ أَنَّ الدُّخَانَ لَا يُخَبَّأُ فِي الْيَدِ وَلَا الْكُمِّ . ثُمَّ قَالَ : إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَبًّا لَهُ اسْمُ الدُّخَانِ فِي صَمِيرِهِ ، وَعَلَى هَذَا فَيُقَالُ : كَيْفَ اطَّلَعَ ابْنُ صَيَّادٍ أَوْ شَيْطَانُهُ عَلَى مَا فِي الصَّمِيرِ ؟ وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ بِاحْتِمَالٍ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَدَّثَ مَعَ نَفْسِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَبِرَهُ فَاسْتَرَقَ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ أَوْ بَعْضُهُ .

قَوْلُهُ : (إِخْسًا) سَيَّاتِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فِي كِتَابِ الْأَدَبِ فِي بَابِ مُفْرَدٍ .
قَوْلُهُ : (فَلَنْ تَعُدُّوْا قَدْرَكَ) أَيْ لَنْ تُجَاوِزَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ فِيكَ أَوْ مَقْدَارَ امْتِنَالِكَ مِنَ الْكُهَّانِ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : اسْتَكْشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ لِيُبَيِّنَ لِأَصْحَابِهِ تَمْوِيهِهِ لِنَلَّا يَلْتَمِسَ حَالَهُ عَلَى ضَعِيفٍ لَمْ يَتِمَّكَ فِي الْإِسْلَامِ وَمُحْصَلٌ

مَا أَجَابَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْقَرَضِ وَالْتِزُلِ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي دَعْوَاكَ الرَّسَالَةَ وَلَمْ يَخْتَلِطْ عَلَيْكَ الْأَمْرُ آمَنْتَ بِكَ . وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا وَخَلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ فَلَا . وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُكَ وَالتَّيَّاسُ الْأَمْرُ عَلَيْكَ فَلَا تَعْدُو قَدْرَكَ .

قَوْلُهُ : (إِنْ يَكُنْ هُوَ) كَذَا لِلْكَثَرِ ، وَلِلْكَشْمِيهِنِ " إِنْ يَكُنْهُ " عَلَى وَصْلِ الضَّمِيرِ ، وَاخْتَارَ ابْنُ مَالِكٍ جَوَازَهُ ، ثُمَّ الضَّمِيرُ لِغَيْرِ مَذْكُورٍ لَفْظًا ، وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ أَحْمَدَ " أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي تَخَافُ فَلَنْ تَسْتَطِيعَهُ " وَفِي مُرْسَلٍ عُرْوَةَ عِنْدَ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ " إِنْ يَكُنْ هُوَ الدَّجَالُ " .

قَوْلُهُ : (فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ) فِي حَدِيثِ جَابِرٍ " فَلَسْتُ بِصَاحِبِهِ ، إِنَّمَا صَاحِبُهُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ " .
قَوْلُهُ : (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ) قَالَ الْخَطَّابِيُّ : وَإِنَّمَا لَمْ يَأْذَنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِهِ مَعَ ادِّعَائِهِ الثَّبُوتَ بِحَضْرَتِهِ لِأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ بَالِغٍ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ الْعَهْدِ ، قُلْتُ : الثَّانِي هُوَ الْمُتَعَيِّنُ ، وَقَدْ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ أَحْمَدَ ، وَفِي مُرْسَلٍ عُرْوَةَ " فَلَا يَحِلُّ لَكَ قَتْلُهُ " ثُمَّ إِنَّ فِي السُّؤَالِ عِنْدِي نَظْرًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يُصَرِّحْ بِدَعْوَى الثَّبُوتِ ، وَإِنَّمَا أَوْهَمَ أَنَّهُ يَدْعِي الرَّسَالَةَ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ دَعْوَى الرَّسَالَةِ دَعْوَى الثَّبُوتِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) الْآيَةُ .

" يَعْنِي إِنَّمَا أَنتَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُفَّانِ ؛ وَالْكُفَّانُ كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمُ الْقَرِينُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يُخْبِرُهُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ بِمَا يَسْتَرْفُهُ مِنَ السَّمْعِ ، وَكَانُوا يَخْلُطُونَ الصَّدْقَ بِالْكَذِبِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ ، فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ ، فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُفَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » (١) .

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا » . قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ كُنَّا نَقُولُ وَلَدَ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ عَظِيمٌ وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يُلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ - قَالَ - فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَتَخْطِفُ الْجَنُّ السَّمْعَ فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمُونَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ » (٢) .

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مُعَمَّرٌ قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنْ غُلِظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (٣) .

(١) - صحيح البخارى (٣٢١٠)

(٢) - صحيح مسلم (٥٩٥٥) = يقرفون : يكذبون فيه

(٣) - عن ابن عباس قال كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جالسا في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق من الأنصار - فرمى بنجم عظيم فاستنار قال « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية » . قال كنا نقول

يُولَدُ عَظِيمٌ أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ. قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنْ غُلِّطَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -. قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبَّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلَوْنُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ هَذِهِ السَّمَاءُ الدُّنْيَا ثُمَّ يَسْتَخِيرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلَوْنُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ فَيَقُولُ الَّذِينَ يُلَوْنُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ. وَيَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْدِفُونَ وَيَرِيدُونَ ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - قَالَ أَبِي قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَيَخْطَفُ الْجِنُّ وَيَرْمُونَ. مسند أحمد (١٩١٠) وهو صحيح

و " الْأَسْوَدُ الْعَنَسِي " الَّذِي ادَّعَى النَّبُوَّةَ كَانَ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِغَضِّ الْأُمُورِ الْمُعْيِيَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ : حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ فَقَتَلُوهُ (١). وَكَذَلِكَ " مُسْلِمَةُ الْكَذَّابِ " كَانَ مَعَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ . بِالْمُعْيِيَاتِ وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ (٢)

(١) - عن النعمان بن بزرج ، قال : « خرج أسود الكذاب وكان رجلا من بني عنس ، وكان معه شيطانان يقال لأحدهما سحيق والآخر شقيق ، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمر الناس ، فسار الأسود حتى أخذ دمار ، وكان باذان إذ ذاك مريضا بصنعاء ، فلما مات ، جاء الأسود شيطانه وهو على قصر دمار ، فأخبره بموت باذان ، فنادى الأسود في قومه : يا آل يحابر ، ويحابر فخذ من مراد : إن سحيقا قد أجاز دمار ، وأباح لكم صنعاء » فذكر الحديث في خروجه إلى صنعاء ، وأخذه صنعاء واستكاحه المربانة امرأة باذان ، وإرسالها إلى داؤويه خليفة باذان ، وفيروز ، وخرزاذ بن بزرج وجرجست هذا الشيطان فاتتمروا به وأنا أكفيكموه ، وأنهم ائتمروا بقتله مع قيس بن عبد يغوث ، فاجتمع داؤويه ، وفيروز ، وأصحابهما ، وكان على باب الأسود ألف رجل يحرسونه ، فجعلت المربانة تسقيه خمرًا صرفا فكلما قال : شوبوه صبت عليه من خمر كان حتى سكر ، فدخل في فراش باذان ، وكان من ريش . فانقلب عليه الفراش وجعل داؤويه وأصحابه ينضحون الجدار بالخل ويحفرونه من نحو بيوت أهل بزرج بحديدة ، حتى فتحوه قريبا منه ، فذكر الحديث في دخول داؤويه ، وجرجست ، فلم يزلوا يقتله ، فخرجوا فدخل فيروز ، وابن بزرج فأشارت إليهما المرأة أنه في الفراش ، فتناول فيروز برأسه ولحيته فعصر عنقه فدقها وطعنه ابن بزرج بالخنجر فشقه من ترقوته إلى عانته ، ثم احتز رأسه ، وخرجوا وأخرجوا المرأة معهم وما أحبوا من متاع البيت ، وذكر الحديث .. "دلائل النبوة للبيهقي (٢٠٨٤)

(٢) - عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرٍو الضَّمَرِيِّ قَالَ رَجَعْتُ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ إِلَى الشَّامِ فَلَمَّا قَدِمْنَا حِمَصَ قَالَ لِي عُبَيْدُ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي وَحْشِي نَسْأَلُهُ عَنْ قَتْلِ حَمْرَةَ قُلْتُ عَمْ. وَكَانَ وَحْشِي يَسْكُنُ حِمَصَ - قَالَ - فَسَأَلْنَا عَنْهُ فَقِيلَ لَنَا وَذَلِكَ فِي ظِلِّ قَصْرِهِ كَأَنَّهُ حَمِيَتْ - قَالَ - فَجَنَنَّا حَتَّى وَقَفْنَا عَلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْنَا السَّلَامَ - قَالَ - وَعُبَيْدُ اللَّهِ مُتَجَرِّبٌ بِعَمَلَتِهِ مَا يَرَى وَحْشِي إِلَّا عَيْنِيهِ وَرَجَلَيْهِ فَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ ا وَحْشِي أَنْتَ عَرَفْتَنِي قَالَ نَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ الْخِيَارِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً يَقَالُ لَهَا أُمُّ قَتَالِ ابْنَةِ أَبِي الْعِيصِ فَوَلَدَتْ لَهُ غُلَامًا بِسَكَّةَ فَاسْتَرْضَعَهُ فَحَمَلَتْ ذَلِكَ الْغُلَامَ مَعَ أُمِّهِ فَتَاوَلَتْهَا إِبَاهُ فَلَكَّأَنِّي نَظَرْتُ إِلَى قَلَمِيكَ. قَالَ كَشَفَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَجْهَهُ ثُمَّ قَالَ أَلَا تُخْبِرُنَا بِقَتْلِ حَمْرَةَ. قَالَ عَمْ إِنَّ حَمْرَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ بِدَرِّ فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ قَتَلَتْ حَمْرَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ. فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ يَوْمَ عَيْنِينَ - قَالَ وَعَيْنِينَ جُبَيْلٌ تَحْتَ أَحَدٍ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادِي - خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ فَلَمَّا أَنْ اصْطَفَوْا لِلْقِتَالِ - قَالَ - خَرَجَ سِبَاغٌ مِنْ مَبَارِزٍ قَالَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ يَا

سَبَّاحُ يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ يَا ابْنَ مُقَطَّعَةِ الْبُطُورِ اتَّحَادُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ فَكَانَ كَأَمْسِ الدَّاهِبِ وَأَكْمَنْتُ لِحِمْرَةٍ تَحْتَ صَخْرَةٍ حَتَّى إِذَا مَرَّ عَلَيَّ فَلَمَّا أَنْ دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ فَأَضَعُهَا فِي ثُنْتَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ - قَالَ - فَكَانَ ذَلِكَ الْعَهْدُ بِهِ - قَالَ - فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ رَجَعْتُ مَعَهُمْ - قَالَ - فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ حَتَّى فُتِنَا فِيهَا الْإِسْلَامُ - قَالَ - ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الطَّائِفِ - قَالَ - فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ وَقِيلَ لَهُ تَهْ لَا يَهْجُجُ لِلرُّسُلِ. قَالَ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فَلَمَّا رَأَى قَالَ « أَنْتَ وَحَشِيٌّ ». قَالَ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ « أَنْتَ قَتَلْتَ حِمْرَةَ ». قَالَ قُلْتُ ذَكَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا بَلَغَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ. قَالَ « مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ عَنِّي وَجْهَكَ ». قَالَ فَرَجَعْتُ فَلَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخَرَجَ مُسْلِمَةُ الْكُذَّابُ قَالَ قُلْتُ لَا أَخْرُجَنَّ إِلَى مُسْلِمَةَ لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِيَ بِهِ حِمْرَةَ - قَالَ - فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا كَانَ - قَالَ - فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلَمَةٍ جِدَارٍ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقٌ ثَائِرٌ رَأْسُهُ - قَالَ - فَأَرَمِيهِ بِحَرَبِي فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ - قَالَ - وَدَبَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - قَالَ - فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى هَامَتِهِ. مسند أحمد (١٦٥٠٣) وهو صحيح

ثلمة : النقصان والخلل = الثنة : الثنة من الإنسان ما دون السرة فوق العانة أسفل البطن = الحميت : الرق = المعتجر : الذي يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه = الأورق : الأسمر

وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ، مِثْلُ : الْحَارِثِ اللَّمَشَقِيِّ " الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَادَّعَى التُّبُوءَ وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ يَخْرُجُونَ رِجْلَيْهِ مِنَ الْقَيْدِ وَتَمْنَعُ السَّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، وَتُسَبِّحُ الرَّخَامَةَ إِذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكَّانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ، وَيَقُولُ : هِيَ الْمَلَائِكَةُ وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لَيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : إِنَّكَ لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ. (١)

(١) - الحارث بن سعيد المتنبئ الكذاب، ويقال له الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد اللمشقي، مولى أبي الجلاس العبدري، ويقال مولى الحكم بن مروان، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعبدها وتسلق وتزهد ثم مكر به ورجع القهري على عقبيه، وانسلخ من آيات الله تعالى، وفارق حزب الله المفلحين، واتبع الشيطان فكان من الغالوين، ولم يزل الشيطان يزج في قفاه حتى أخسره دينه ودنياه، وأخزاه وأشقاه. فإنا لله وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال أبو بكر بن أبي خيثمة، ثنا عبد الوهاب نجدة الجولي، حدثنا محمد بن مبارك، ثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن حسان، قال: كان الحارث الكذاب من أهل دمشق، وكان مولى لأبي الجلاس، وكان له أب بالجولة، فعرض له إبليس، وكان رجلاً متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرؤيت عليه الزهادة والعبادة، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من كلامه، فكتب إلى أبيه وكان بالجولة: يا أبتاه أعجل عليّ فإني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لي، قال فزاده أبوه غيياً على غيه، فكتب إليه أبوه: يا بني أقبل على ما أمرت به فإن الله تعالى يقول: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢] ولست بأفأك ولا أثيم، فامض لما أمرت به، وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلاً رجلاً، فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى وإلا كتم عليه.

قال: وكان يريهم الأعاجيب. كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسيحاً بليغاً حتى يضح من ذلك

الحاضرون.

قلت: وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول: كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح، وكان زنديقاً.

قال ابن أبي خيثمة في روايته وكان الحارث يطعمهم فأكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرجوا حتى أريكم الملائكة، فيخرج بهم إلى دير المراق فيريهم رجالاً على خيل فيتبعه على ذلك بشر كثير، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة، قال فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد إن هو رضي أمر قبله، وإن كرهه كتم عليه، قال فقال له: إني نبي.

فقال القاسم: كذبت يا عدو الله، ما أنت نبي، وفي رواية ولكك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الساعة لا تقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي)) وأنت أحدهم ولا عهد لك، ثم قام فخرج إلى أبي إدريس - وكان على القضاء بلمشق - فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس نعرفه، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك، وفي رواية أخرى أن مكحولاً وعبد الله بن زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذبا به وردا عليه ما قال، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فنزلها فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو بيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل ويفعل ما يأمره به، فلما وصل الرجل إلى النصرية بيت المقدس بمن معه، انتدب نائب القدس خدمته فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعة، فإذا أمرهم بإشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث فقال لبوابة: استأذن على نبي الله، فقال: في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح، فصاح النصرية أسرجوا، فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار، وهم النصرية على الحارث فاخفى منه في سرب هناك فقال أصحابه هيهات يريدون أن يصلوا إلى نبي الله، إنه قد رفع إلى السماء، قال فأدخل النصرية يده في ذلك السرب فإذا بثوبه فاجتره فأخرجه، ثم قال للفرعانيين من أتراك الخليفة قال: فأخذوه فقيدوه، فيقال: إن القيود والجامعة سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها وجعل يقول: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سبأ: ٥٠] وقال لأولئك الأتراك: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} [المؤمن: ٢٨] فقالوا له بلسانهم ولغتهم: هذا كرانا فهات كرانك، أي هذا قرآنا فهات قرآنك، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجالاً فطعنه بحربة فانتشت في ضلع من أضلاعه، فقال له عبد الملك: ويحك أذكرت اسم الله حين طعنته؟

فقال: نسيت، فقال: ويحك سم الله ثم اطعنه، قال: فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالاً من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذي به من الشيطان، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك وهذا من تمام العدل والدين.

وقد قال الوليد بن مسلم، عن ابن جابر، فحدثني من سمع الأعور، يقول: سمعت العلاء بن زياد العدوي. يقول: ما غبطت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثاً حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، فمن قاله فاقتلوه، ومن قتل منهم أحداً فله

الجنة)).

البداية والنهاية لابن كثير (ج/ص: ٣٤/٩) فما بعدها وتاريخ دمشق - (ج ١١ / ص ٤٢٨) وتاريخ الإسلام للذهبي - (ج ٢ / ص ١٤٧)

وَهَكَذَا أَهْلُ " الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ " (١)

(١) - وفي تاريخ الإسلام للذهبي - (ج ١١ / ص ٢٥٣) ٤٠٩ _ يوسف القميني . شيخ مشهور بدمشق . للناس فيه حُسن اعتقاد . وكان يأوي إلى القمامين والمزابل التي مأوى الشياطين ، ويلبس ثياباً تكس الأرض ، وتتجس ببؤله ، ويمشي حافياً ، ويترنح في مشيته . وله أكمامٌ ، طوال ، ورأسه مكشوف . وكان طويل السكوت ، ذا مهابة ووله ما . ويحكي عنه عجائب وكشوفات . وكان يأوي إلى قمين حَمَام نور الدين . ولما توفي شيعه خلق لا يُحصون من العامة .

وقد بصرنا الله وله الحمد وعرفنا هذا التمودج ، وأنّ لهم شياطين تطمع فيهم لنقص عقولهم ، وتجري منهم مجرى الدّم ، وتكلم على ألسنتهم بالمغيبات ، فيضلّ الناس ، ويألهوهم ، ويعتقدون أنّهم أولياء الله ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون . فقد عمّ البلاء في الخلق بهذا الضرب ، ولكن الله يشيب الناس على حسن قصدهم ، وإن جهلوا وأخطأوا ، ويغفر لهم بلا شكّ إذا كان قصصهم ابتغاء وجهه الكريم .

وهذا زماننا فيه واحد اسمه إبراهيم بظاهر باب شرقيّ ، له كشوفات كالشمس ، وما أكثرها . أمّ أربع سنين في دُكان برّ الباب ، ثمّ تحوّل إلى قمين حَمَام الفواخير ، وهو زُطّيّ ، سفيه ، نجس ، قد أحرقته السّوداء ، وله شيطان ينطق على لسانه ، فما أجهل من يعتقد في هذا وشبهه أنّه وليّ الله ، والله يقول في أوليائه { الذي آمنوا وكانوا يتقون } .

وقد كان في الجاهليّة خلقٌ من الكُهان يخبرون بالمغيبات ، والرّهبان لهم كشف وإخبار بالمغيبات ، والسّاحر يخبر بالمغيبات . وفي زماننا نساء ورجال بهم مسٌّ من الجنّ يخبرون بالمغيبات على عدد الأنفاس .

وقد صنّف شيخنا ابن تيمية غير مسألة في أنّ أحوال هؤلاء وأشباههم شيطانيّة ، ومن هذه الأحوال الشيطانيّة التي تصلّ العامة أكلُ الحيات ، ودخول النار ، والمشني في الهواء ، فمن يتعاطى المعاصي ، ويخلّ بالواجبات . فسأل الله العون على اتّباع صراط المستقيم ، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا ، وأن يؤيّدنا بروح منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

وقد يجيء الجاهل فيقول : اسكُتْ لا تتكلّم في أولياء الله . ولم يشعر أنّه هو الذي تكلم في أولياء الله وأهائهم ، إذ أدخل فيهم هؤلاء الأوباش الجانين أولياء الشياطين ، قال الله تعالى : { وإنّ الشياطين ليوحّون إلى أوليائهم ليُجادلوكم } ثمّ قال : { وإنّ أطعموهم إنكم لمشركون } وما اتّبع الناس الأسود العنسيّ ومُسيلمة الكذاب إلّا لإخبارهما بالمغيبات ، ولا عبّدت الأوثان إلّا لذلك ، ولا ارتبط خلقٌ بالمنجّمين إلّا لشيء من ذلك ، مع أنّ تسعة أعشار ما يُحكى من كذب التافلين . وبعض الفضلاء تراه يخضع للمولّهيّن والفُقراء التّصايين لما يرى منهم . وما يأتي به هؤلاء يأتي بمنزلة الرّهبان ، فلهم كشوفات وعجائب ، ومع هذا فهم ضلّالّ من عبدة الصُّلبان ، فأين يُذهب بك ؟ ! تبتّنا الله بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ، وإياك .

وانظر مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٨٤) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ١٧٦) ومجموع الفتاوى - (ج ١ /

ص ٣٦٣) ومجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٣٦٤) ومجموع الفتاوى - (ج ٨ / ص ٢٣٢) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٢٧٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٣١) ومجموع الفتاوى - (ج ١٠ / ص ٤٤٣) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٧٠) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٤٩٥-٤٩٦) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٥٣٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٦١١) ومجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٦٦٧-٦٦٨) ومجموع الفتاوى - (ج ١٤ / ص ٢٢٦) ومجموع الفتاوى - (ج ١٤ / ص ٣٥٩) ومجموع الفتاوى - (ج ٢٧ / ص ٤٩٩) ومجموع الفتاوى - (ج ٣٥ / ص ١١١) ومجموع الفتاوى - (ج ٣٥ / ص ١١٤)

تَنَصَّرَفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِذَا ذُكِرَ عَنْدهُمْ مَا يَطْرُدُهَا، مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، وَقُلْتُ وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ . قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ » . قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ « أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » . فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنَّهُ سَيَعُودُ . فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ « أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » . فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَتَكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ . قَالَ دَعْنِي أَعْلَمْتُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا . قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ . فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ ، يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ « مَا هِيَ » . قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَلَّقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ » . قَالَ لَا . قَالَ « ذَاكَ شَيْطَانٌ » (١)

(١) - صحيح البخارى (٢٣١١) معلقاً بصيغة الجزم والسنن الكبرى للإمام النسائي الرسالة - (ج ٦ / ص

٣٩٤)(١٠٧٢٩) وهو صحيح

وفي فتح الباري لابن حجر - (ج ٧ / ص ١٥٥)

قوله : (ذَاكَ شَيْطَانٌ) كَذَا لِلْجَمِيعِ أَيْ شَيْطَانٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، وَوَقَعَ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ " ذَاكَ الشَّيْطَانُ " وَاللَّامُ فِيهِ لِلْعَهْدِ الدَّهْيِيِّ ، وَقَدْ وَقَعَ أَيْضًا لِأَبِي بَنٍ كَعْبٍ عِنْدَ النَّسَائِيِّ وَأَبِي أُتُوبٍ الْأَنْصَارِيِّ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَأَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا قِصَصٌ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَا يُشْبِهُ قِصَّةَ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَّا قِصَّةَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ الَّتِي ذَكَرَهَا ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى التَّعَدُّدِ ، فَفِي حَدِيثِ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ أَنَّهُ " كَانَ لَهُ جُرْنٌ فِيهِ تَمْرٌ وَأَنَّهُ كَانَ يَتَعَاهَدُهُ ، فَوَجَدَهُ يَنْقُصُ ، فِإِذَا هُوَ بِدَايَةِ شِبْهِ الْغُلَامِ الْمُحْتَلِمِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَجَبِي أَمْ إِنْسِي ؟ قَالَ بَلْ جَبِيَّ

" وَفِيهِ أَنَّهُ قَالَ لَهُ " بَلَّغْنَا أَنَّكَ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ وَأُحِبُّنَا أَنْ نُصِيبَ مِنْ طَعَامِكَ ، قَالَ فَمَا الَّذِي يَجْبُرُنَا مِنْكُمْ ؟ قَالَ هَذِهِ
الْآيَةُ الْكُرْسِيُّ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : صَدَقَ الْخَبِيثُ " وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُيُوبَ " أَنَّهُ
كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ - أَيْ بَفَتْحِ الْمُهِمْلَةِ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَهِيَ الصَّفَةُ - فِيهَا تَمَرٌ ، وَكَانَتْ الْغُلُوفُ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ ،
فَشَكَكَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخَذَهَا فَحَلَفَتْ أَنْ
لَا تَعُودَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ ثَلَاثًا فَقَالَتْ إِنِّي ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا آيَةُ الْكُرْسِيِّ أَقْرَأُهَا فِي يَمِينِكَ فَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ وَلَا غَيْرُهُ "
الْحَدِيثُ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَيْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ لَمَّا قَطَعَ تَمَرٌ حَائِطُهُ جَعَلَهَا فِي عُرْفَةٍ ، وَكَانَتْ الْغُلُوفُ تُخَالِفُهُ فَتَسْرِقُ
تَمَرَهُ وَتُفْسِدُهُ عَلَيْهِ فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ أَبِي أُيُوبَ سَوَاءً وَقَالَ فِي آخِرِهِ " وَأَذْلَكَ عَلَى آيَةٍ تَقْرُؤُهَا فِي يَمِينِكَ فَلَا
يُخَالِفُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَتَقْرُؤُهَا عَلَى إِمَانِكَ فَلَا يُكْشِفُ غِطَاؤُهُ وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، ثُمَّ حَلَّتْ إِسْتِهَا فَضَرَطَتْ "
الْحَدِيثُ . وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّهُ " خَرَجَ إِلَى حَائِطِهِ فَسَمِعَ جَلْبَةً فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ ،
أَصَابَتْهُ السَّنَةُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْ ثَمَارِكُمْ . قَالَ لَهُ : فَمَا الَّذِي يُعِيدُنَا مِنْكُمْ ؟ قَالَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ " .
قَوْلُهُ : (وَهُوَ كَذُوبٌ) مِنْ التَّشْمِيمِ الْبَلِيغِ الْعَاقِبَةِ فِي الْحُسْنِ لِأَنَّهُ أَثَبَتَ لَهُ الصَّدَقَ فَأَوْهَمَ لَهُ صِفَةَ الْمَدْحِ ، ثُمَّ
اسْتَدْرَكَ ذَلِكَ بِصِفَةِ الْمُبَالَاغَةِ فِي الذَّمِّ بِقَوْلِهِ " وَهُوَ كَذُوبٌ " وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ غَيْرُ مَا تَهَدَّمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ
يَعْلَمُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْمُؤْمِنُ ، وَأَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ يَتَلَقَّاهَا الْفَاجِرُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا وَتَوْخِذُ عَنْهُ فَيَنْتَفِعُ بِهَا ، وَأَنَّ الشَّخْصَ قَدْ
يَعْلَمُ الشَّيْءَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْكَافِرَ قَدْ يَصْدُقُ بَعْضُ مَا يَصْدُقُ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَلَا يَكُونُ بِذَلِكَ مُؤْمِنًا ، وَيَأَنَّ الْكَذَّابَ
قَدْ يَصْدُقُ ، وَيَأَنَّ الشَّيْطَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكْذِبَ ، وَأَنَّهُ قَدْ يَتَصَوَّرُ بَعْضُ الصُّوَرِ فَتُمْكِنُ رُؤْيَايَتُهُ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى (إِنَّهُ
يَرَاكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا كَانَ عَلَى صُورَتِهِ النَّبِيُّ خُلِقَ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ مَنْ أُقِيمَ فِي
حِفْظِ شَيْءٍ سُمِّيَ وَكِيلًا ، وَأَنَّ الْجِنَّ يَأْكُلُونَ مِنْ طَعَامِ الْإِنْسِ ، وَأَنَّهُمْ يَطْهَرُونَ لِلْإِنْسِ لَكِنْ بِالشَّرْطِ الْمَذْكُورِ ،
وَأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْإِنْسِ ، وَأَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ وَيَخْدَعُونَ ، وَفِيهِ فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَفَضْلُ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأَنَّ
الْجِنَّ يُصِيبُونَ مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَفِيهِ أَنَّ السَّارِقَ لَا يَقْطَعُ فِي الْمَجَاعَةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ
الْقُدْرُ الْمَسْرُوقُ لَمْ يَبْلُغِ النِّصَابَ وَلِذَلِكَ جَازَ لِلصَّحَابِيِّ الْعَفْوُ عَنْهُ قَبْلَ تَبْلِيغِهِ إِلَى الشَّارِعِ . وَفِيهِ قَبُولُ الْعَذْرِ
وَالسَّتْرِ عَلَى مَنْ يُظَنُّ بِهِ الصَّدَقُ . وَفِيهِ إِطْلَاعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ . وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ مُعَاذِ
بْنِ جَبَلٍ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْلَمَهُ بِذَلِكَ . وَفِيهِ جَوَازُ جَمْعِ زَكَاةِ الْفِطْرِ
قَبْلَ لَيْلَةِ الْفِطْرِ وَتَوَكُّيلِ الْبَعْضِ لِحِفْظِهَا وَتَفَرُّقِهَا .

وَلِهَذَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقِ أَبْطَلَتْهَا، مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالِ شَيْطَانِيٍّ أَوْ يَحْضُرُ
سَمَاعَ الْمُكَاةِ وَالْتَصَدِيَةِ، فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ، وَرُبَّمَا لَا يُفْقَهُ، وَرُبَّمَا كَاشَفَ
بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِاللِّسَانَةِ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجَنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي
حَصَلَ لَهُ الْحَالُ لَا يَذَرِي بِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (١) وَلَبِسَهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ،
فَإِذَا أَفَاقَ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالَ، وَلِهَذَا قَدْ يُضْرَبُ الْمَصْرُوعُ وَذَلِكَ الضَّرْبُ لَا يُؤْثِرُ فِي الْإِنْسَانِيِّ، وَيُخْبِرُ إِذَا أَفَاقَ
أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ الضَّرْبَ كَانَ عَلَى الْجَنِيِّ الَّذِي لَبِسَهُ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ بِأَطْعَمَةٍ وَفَوَاكِهٍ وَحُلُوى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَطِيرُ
بِهِمُ الْجَنِّيُّ إِلَى مَكَّةَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ثُمَّ يُعِيدُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَا يَحُجُّ حَجًّا
شَرْعِيًّا ؛ بَلْ يَنْهَبُ بِيَابِهِ وَلَا يُحْرِمُ إِذَا حَادَى الْمِيقَاتِ وَلَا يَلْبِي وَلَا يَقِفُ بِمزدلفة وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ؛ وَلَا يَسْعَى بَيْنَ

الصِّفَا وَالْمُرُوءَةَ وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ، بَلْ يَقِفُ بِعَرَفَةِ بَشَابِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِحَجٍّ [وَلِهَذَا رَأَى بَعْضُ
هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ تَكْتُئِبُ الْحُجَّاجَ] فَقَالَ أَلَا تَكْتُبُونِي ؟ فَقَالُوا لَسْتُ مِنَ الْحُجَّاجِ . يَعْنِي حَجًّا شَرْعِيًّا .

الفرقُ بَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشَبِّهُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ (٢)
وَبَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشَبِّهُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فُرُوقٌ مُتَعَدِّدَةٌ :

- (١) - قال تعالى : {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) } [البقرة/٢٧٥]
الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ - أي المصروع . وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَخْبِطُ الْإِنْسَانَ فَيَصْرَعُهُ .
(٢) - وَأَيْضًا " كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ " لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ لَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَقِيَامِ
اللَّيْلِ وَالِدُّعَاءِ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشِّرْكِ : مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ أَوْ بِالْفُسْقِ وَالْعِصْيَانِ وَأَكْلِ الْمَحْرَمَاتِ :
كَالْحَيَّاتِ وَالزَّنايِرِ وَالْخَنَافِسِ وَالِدَّمَ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ وَمِثْلُ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ ؛ لَا سِيَّمَا مَعَ التَّسْوَةِ الْأَجَانِبِ
وَالْمِرْدَانِ وَحَالَةَ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا فَإِذَا جَاءَتْ
الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا أَوْ يَتَقَرَّ الصَّلَاةَ تَهْرُ الدَّيْكَ وَهُوَ يَتَغَضُّ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَتَكَلَّفُهُ لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا
ذَوْقٌ وَلَا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصَدِيقَةِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِدَ . فَهَذِهِ أَحْوَالُ شَيْطَانِيَّةٍ ؛ وَهُوَ مِمَّنْ
يَتَنَوَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } . فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي
أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } يَعْنِي تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ ؛ ثُمَّ قَرَأَ
هَذِهِ الْآيَةَ . مجموع الفتاوى - (ج ١١ / ص ٣٠٢)

مِنْهَا أَنَّ " كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ " سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، وَ " الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ " سَبَبُهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ . وَقَدْ
قَالَ تَعَالَى : {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (١)(٣٣) سورة الأعراف ، فَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالشِّرْكَ
وَالظُّلْمَ وَالْفَوَاحِشَ قَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ سَبَبًا لِكَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَرَامَاتِ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتْ لَا
تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ تَحْصُلُ بِمَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ وَبِالْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكَ كَالِاسْتِغَاثَةِ
بِالْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى ظُلْمِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَهِيَ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَا مِنَ
الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا حَضَرَ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصَدِيقَةِ يَتَزَلُّ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُخْرِجُهُ مِنْ تِلْكَ
الدَّارِ، فَإِذَا حَصَلَ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى طَرَدَ شَيْطَانَهُ فَيَسْقُطُ كَمَا جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ .
وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَعِثُّ بِمَخْلُوقٍ إِمَّا حَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ الْحَيُّ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا فَيَتَصَوَّرُ
الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَعَاثِ بِهِ وَيَقْضِي بَعْضَ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَعِثِّ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلِكٌ

عَلَى صُورَتِهِ ،وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ الْأَصْنَامَ وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَّصِرُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ لَهُ : أَنَا الْخَضِرُ ، وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بَعْضُ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمُوتُ لَهُمُ الْمَيِّتُ فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ وَيَقْضِي الدُّيُونَ وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ ، وَيَدْخُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَيَذْهَبُ ، وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمُ بِالنَّارِ كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ فَيُظَنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرَ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَلَا تَدْعُ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسَّلُ نَفْسِي فَلَمَّا مَاتَ رَأَى خَادِمَهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغَسَّلَ نَفْسَهُ ، فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّخَلَ غُسْلَهُ - أَيَّ غُسْلَ الْمَيِّتِ - غَابَ ، وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا ، وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ وَقَالَ : إِنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسَّلُ نَفْسُكَ فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ أَيْضًا فِي صُورَتِهِ لِيُغَوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ وَيَسْمَعُ مَنْ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكَ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ فَرَجَرَهُ وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْهُ فَيُزُولُ .

(١) - قُلْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَرَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الرِّبَا : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْرَمْ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ إِلَّا الْأُمُورَ التَّالِيَةَ .

أ - الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (كَالزُّنَى وَالْمَعَاصِي الْأُخْرَى) .
ب - الْإِثْمَ - وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ .

ج - الْبَغْيَ عَلَى النَّاسِ ، وَالْتَعَدِّيَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ .

د - وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ أَحَدًا فِي عِبَادَتِهِ .

ه - وَأَنْ يَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ وَيَكْذِبُوا ، وَأَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ (كَقَوْلِهِمْ إِنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ . . .) .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقِظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ : إِمَّا الصَّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ غَيْرَهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَائِفِيَّةً أَوْ ثَوْبَةً ، فَيَصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَائِفِيَّةٌ وَشَعْرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مُقَصَّرٌ ، وَإِنَّمَا الْجَنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَرُوهُ ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ ، وَالْجَنُّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ بِهِمْ مِنْ جَنْسِهِمْ ، وَهُمْ عَلَى مَلْهَبِهِمْ ، وَالْجَنُّ فِيهِمُ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ وَقَدْ يُعَاوَنُونَهُ إِذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ مِثْلَ الْإِقْسَامِ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءٍ مَنْ يُعْظَمُونَهُ مِنَ الْجَنِّ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالتَّجَاسَةِ أَوْ يَقْلِبَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ أَوْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَ هُنَّ ، وَيَكْتُبُهُنَّ بِتَجَاسَةٍ فَيَعْوِرُونَ لَهُ الْمَاءَ وَيَنْقُلُونَهُ بِسَبَبٍ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ . وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ إِمَّا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا مَدْفُوعًا مَلْجَأً إِلَيْهِ . إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا ، وَالْإِيمَانُ بِهَا إِيْمَانٌ بِالْجِبِّ وَالطَّاعُوتِ . وَالْجِبِّ السَّحَرُ وَالطَّاعُوتُ الشَّيَاطِينُ وَالْأَصْنَامُ .

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمُ الدُّخُولُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ مُسَالَمَتُهُ . وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرُوعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ كَانَ عَمَارُ الْمَسَاجِدِ أَبْعَدَ عَنِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ

(١) وَكَانَ أَهْلُ الشَّرْكِ وَالْبَدْعِ يُعَظِّمُونَ الْقُبُورَ وَمَشَاهِدَ الْمَوْتِ، فَيَدْعُونَ الْمَيِّتَ أَوْ يَدْعُونَ بِهِ، أَوْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَهُ مُسْتَجَابٌ أَقْرَبُ إِلَى الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا ». قَالَتْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي أَخَشَى أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا . (٢)

(١) - لاشك أن للمسجد أهمية عظيمة في نشر الإسلام وتوعية المسلمين واجتماعهم وتآلفهم وتفقد حال من يحتاج إلى إعانة، فهو مجمع الفضائل ومحل العبادة، وقد شهد الله لمن يعمره بالطاعة بالإيمان فقال: إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ {التوبة: ١٨} . وأثنى الله عز وجل على عمار المساجد بالطاعات والذكر فقال: فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رجال .. {التور: ٣٦} . وحث على عمارته الحسية، وأخبر أن من بنى مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة.

ولأهمية المسجد فقد كان من أول ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة هو بناؤه للمسجد، وقد كان مأوى للضعفاء أصحاب الصفة ومن أصيب بهم أو غيره، فعن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزممتني وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاما إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك! قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني . ولا ينكر أهمية المسجد في الإسلام إلا جاهل أو مكابر . والله أعلم.

فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٩ / ص ١٨٢٤) = رقم الفتوى ٦٢١٧٦ المسجد ودوره في حياة الأمة الإسلامية = تاريخ الفتوى : ٠٧ ربيع الثاني ١٤٢٦

(٢) - صحيح البخارى (١٣٣٠) ومسلم (١٢١٢)

فتح الباري لابن رجب - (ج ٣ / ص ٢١٧)

قال الشافعي - رحمه الله - : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يتخذ قبره مسجدا ، خشية الفتنة عليه وعلى من بعده . وقال صاحب ((التنبيه)) من أصحابه : أما الصلاة عند رأس قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوجها إليه فحرام .

قال القرطبي : بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فأعلوا حيطان تربته ، وسلوا الداخل إليها ، وجعلوها محذقة بقبره - صلى الله عليه وسلم - ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين فتصور إليه الصلاة بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره . ولهذا المعنى قالت عائشة : ولو لا ذلك لأبرز قبره .

وَبَيَّنَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدُبٌ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: قَدْ كَانَ لِي فِيكُمْ إِخْوَةٌ وَأَصْدِقَاءُ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا،

أَلَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ. (١)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَنِيسَةً رَأَتْهَا بَارِضَ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَّةُ ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّورِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ - أَوْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ » (٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ » (٣).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مَرْثَدَةَ الْغَنَوِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا » (٤).

وَفِي الْمُوطَأِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » (٥).

(١) - صحيح مسلم (١٢١٦) ومسنند أبي عوانة (٩٢٨)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٢ / ص ٢٩٢)

قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّمَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ وَقَبْرِ غَيْرِهِ مَسْجِدًا خَوْفًا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِهِ وَالِافْتِنَانِ بِهِ ، فَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا جَرَى لكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ . وَلَمَّا احتاجتِ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَالتَّابِعُونَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَامْتَدَّتِ الزِّيَادَةُ إِلَى أَنْ دَخَلَتْ بَيُوتُ أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ ، وَمِنْهَا حُجْرَةُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مَدْفِنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِيهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بَنَوْا عَلَى الْقَبْرِ حِيطَانًا مُرْتَفِعَةً مُسْتَدِيرَةً حَوْلَهُ لئَلَّا يَظْهَرَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَيُصَلِّيَ إِلَيْهِ الْعَوَامُّ وَيُوَدِّيَ الْمُخَلُّونَ ، ثُمَّ بَنَوْا جِدَارَيْنِ مِنْ رُكْنَيْ الْقَبْرِ الشَّمَالِيِّينَ ، وَحَرَّفُوهُمَا حَتَّى انْقَبَا حَتَّى لَا يَتِمَكَّنَ أَحَدٌ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْقَبْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ : لَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

(٢) - صحيح البخارى (٤٣٤) ومسلم (١٢٠٩)

وفي شرح سنن النسائي - (ج ١ / ص ٤٩٤)

قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : لَمَّا كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَسْجُدُونَ لِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ تَعْظِيمًا لِحُشْنِهِمْ وَيَجْعَلُونَهَا قِبْلَةً يَتَوَجَّهُونَ فِي الصَّلَاةِ نَحْوَهَا وَاتَّخَذُوهَا أَوْثَانًا لِعَنَتِهِمْ وَمَنَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَأَمَّا مَنْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا فِي جِوَارِ صَالِحٍ وَقَصَدَ التَّبَرُّكَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ لَا التَّعْظِيمَ لَهُ ، وَلَا التَّوَجُّهَ نَحْوَهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْوَعِيدِ

(٣) - مسند أحمد (٣٩٢١) وصحيح ابن حبان (٦٩٧٣) صحيح

(٤) - صحيح مسلم (٢٢٩٤)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٣ / ص ٣٩٤)

فِيهِ تَصْرِيحٌ بِالنَّهْيِ عَنْ الصَّلَاةِ إِلَى قَبْرِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَأَكْرَهُ أَنْ يُعْظَمَ مَخْلُوقٌ حَتَّى يُجْعَلَ قَبْرُهُ مَسْجِدًا مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُ مِنَ النَّاسِ .

(٥) - موطأ مالك (٤١٩) مرسلًا ووصله أحمد (٧٥٦١) وهو صحيح

وفي المنقّى - شرح الموطأ - (ج ١ / ص ٤٢٦) ٣٧٦ -

(ش) : دُعَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يُجْعَلَ قَبْرُهُ وَتُنَا يُعْبَدُ تَوَاضُعًا وَالتَّوَابًا لِلْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَإِقْرَارًا بِالْعِبَادَةِ وَكَرَاهِيَّةٍ أَنْ يُشْرِكَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ لَدَلِكِ كَرِهَ أَنْ يُدْفَنَ فِي الْمَسْجِدِ وَهَذَا وَجْهٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَهْدَا ذُفْنٌ فِي الْمَسْجِدِ كَانَ ذَرِيعَةً إِلَى أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا قَرِيبًا صَارَ مِمَّا يُعْبَدُ (فَصْلٌ) وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ يُرِيدُ أَنَّهُ أَرَادَ عَذَابَ قَوْمٍ اتَّخَلَّوْا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ وَإِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ تَحْذِيرًا مِمَّا صَنَعَهُ الْيَهُودُ وَالتَّصَارَى مِنْ ذَلِكَ .

(مَسْأَلَةٌ) وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِيْمَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ فَغَيْرُ مَنْهِيٍّ عَنْهَا قَالَ مَالِكٌ فِي الْعُتْبِيَّةِ لَا بَأْسَ بِهِ فِي الْمَقَابِرِ الَّتِي دُرِسَتْ وَغَيْرَتْ قَالَ وَإِنَّمَا هِيَ مِثْلُ غَيْرِهَا مِنَ الْأَرْضِينَ وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجَسُ بِالْمَوْتِ وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ لَا يُصَلَّى فِي الْمَقَابِرِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا النَّبَشُ وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمَيِّتَ يَنْجَسُ بِالْمَوْتِ .

(مَسْأَلَةٌ) فَأَمَّا الصَّلَاةُ فِي مَقَابِرِ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ نَصَّ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا بَقْعَةٌ خُصَّتْ بِأَهْلِ الْعَذَابِ وَسَخَطَ اللَّهُ تَعَالَى فَشَرَعَ اجْتِنَابُهَا كَمَا شَرَعَ تَحْرِى مَوَاضِعِ الصَّالِحِينَ وَلِذَلِكَ كَانَ يَتَحَرَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَالنَّاسُ بَعْدَهُ مَوْضِعَ صَلَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُصَلُّونَ فِيهِ .

كتاب : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

وفي السنن عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورَ عِيدًا وَصَلُّوا عَلَىٰ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ » . (١)

(١) - سنن أبي داود (٢٠٤٤) صحيح

عون المعبود - (ج ٤ / ص ٤٢٥)

(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا) : أَي لَا تَتْرُكُوا الصَّلَوَاتِ وَالْعِبَادَةَ فَتَكُونُوا فِيهَا كَأَنْكُمْ أَمْوَاتٌ . شَبَّهَ الْمَكَانَ الْخَالِي عَنْ الْعِبَادَةِ بِالْقُبُورِ ، وَالْعَاقِلَ عَنْهَا بِالْمَيِّتِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ الْقَبْرَ عَلَى الْمَقْبَرَةِ . وَقِيلَ الْمُرَادُ لَا تَذْفِنُوا فِي الْبُيُوتِ ، وَإِنَّمَا ذَفِنَ الْمُصْطَفَى فِي بَيْتِ عَائِشَةَ مَخَافَةَ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ مَسْجِدًا ذَكَرَهُ الْقَاضِي ، قَالَهُ الْمُنَاوِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ وَقَالَ الْخَفَاجِيُّ : وَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَفِنَ فِي بَيْتِهِ لِأَنَّهُ أُتْبِعَ فِيهِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا وَرَدَ : مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا ذَفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ . فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِهِمْ انْتَهَى

(وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورَ عِيدًا) : قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ لَا تُعْطَلُوا الْبُيُوتَ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهَا وَالِدُعَاءِ وَالْقِرَاءَةِ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْقُبُورِ ، فَأَمَرَ بِتَحْرِيرِ الْعِبَادَةِ بِالْبُيُوتِ وَنَهَى عَنْ تَحْرِيبِهَا عِنْدَ الْقُبُورِ ، عَكَسَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّصَارَى وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَالْعِيدُ اسْمٌ مَا يَعُودُ مِنَ الْجَمْعِ عَلَى الْعَامِ عَلَى وَجْهِ مُعْتَادٍ عَائِدًا مَا يَعُودُ السَّنَةُ أَوْ يَعُودُ الْأُسْبُوعُ أَوْ الشَّهْرُ وَخَوِذْ ذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : الْعِيدُ مَا يُعْتَادُ مَجِيئُهُ وَقَصْدُهُ مِنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَا خُوِذَ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ وَالِاعْتِيَادِ ، فَإِذَا كَانَ اسْمًا لِلْمَكَانِ فَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يُقْصَدُ فِيهِ الْجَمْعُ الْإِجْتِمَاعُ بِالِاتِّبَاعِ بِالْعِبَادَةِ وَبِغَيْرِهَا كَمَا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَمِنَى وَمُرْدَلَفَةَ وَعَرَفَةَ وَالْمَشَاعِرَ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِيدًا لِلْحُنْفَاءِ وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ ، كَمَا جَعَلَ أَيَّامَ الْعِيدِ مِنْهَا عِيدًا . وَكَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَعْيَادُ زَمَانِيَّةٌ وَمَكَانِيَّةٌ فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ أَبْطَلَهَا وَعَوَّضَ الْحُنْفَاءَ مِنْهَا عِيدَ الْفِطْرِ وَعِيدَ النَّحْرِ ، كَمَا عَوَّضَهُمْ عَنْ أَعْيَادِ الْمُشْرِكِينَ الْمَكَانِيَّةِ بِكَعْبَةِ وَمِنَى وَمُرْدَلَفَةَ وَسَائِرِ الْمَشَاعِرِ انْتَهَى .

قَالَ الْمُنَاوِيُّ : فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ : مَعْنَاهُ التَّهْنِي عَنْ الْجَمْعِ لِرِيَابَتِهِ اجْتِمَاعَهُمْ لِلْعِيدِ إِمَّا لِدَفْعِ الْمَشَقَّةِ أَوْ كَرَاهَةِ أَنْ يَتَجَاوَزُوا حَدَّ التَّعْظِيمِ . وَقِيلَ الْعِيدُ مَا يُعَادُ إِلَيْهِ أَيْ لَا تَجْعَلُوا قُبُورَ عِيدٍ تَعُودُونَ إِلَيْهِ مَتَى أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَلُّوا عَلَيْهِ ، فَظَاهِرُهُ مِنْهَى عَنْ الْمُعَاوَدَةِ وَالْمُرَادُ الْمَنْعُ عَمَّا يُوجِبُهُ وَهُوَ ظَنُّهُمْ بِأَنْ دُعَاءَ الْعَائِبِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : (وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) : أَي لَا تَتَكَلَّفُوا الْمُعَاوَدَةَ إِلَيَّ فَقَدْ اسْتَعْنَيْتُمْ بِالصَّلَاةِ عَلَيَّ . قَالَ الْمُنَاوِيُّ وَيُؤَخَذُ مِنْهُ أَنَّ اجْتِمَاعَ الْعَامَّةِ فِي بَعْضِ أَصْحَحَةِ الْأَوْلِيَاءِ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ مَخْصُوصٍ مِنَ السَّنَةِ وَيَقُولُونَ هَذَا يَوْمَ مَوْلِدِ الشَّيْخِ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَرَبِمَا يَرْقُصُونَ فِيهِ مِنْهُي عَنْهُ شَرْعًا ، وَعَلَى وَلِيِّ الشَّرْعِ رَدُّعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْكَارُهُ عَلَيْهِمْ وَإِبْطَالُهُ انْتَهَى .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : الْحَدِيثُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ مَا يَنَالُنِي مِنْكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ يَحْصُلُ مَعَ قُرْبِكُمْ مِنْ قُبُورِي وَبُعْدِكُمْ عَنْهُ فَلَا حَاجَةَ بِكُمْ إِلَيَّ اتِّخَاذِهِ عِيدًا انْتَهَى .

وَالْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِ السَّفَرِ لِرِيَابَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا هُوَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَالِدُعَاءُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا يُمَكِّنُ اسْتِحْصَالَه مِنْ بَعْدِ كَمَا يُمَكِّنُ مِنْ قُرْبٍ ، وَأَنَّ مَنْ سَافَرَ إِلَيْهِ وَحَضَرَ مِنْ نَاسٍ

آخِرِينَ فَقَدْ اتَّخَذَهُ عِيدًا وَهُوَ مِنْهُيَّ عَنْهُ بِنَصِّ الْحَدِيثِ ، فَتَبَتَ مَنْعُ شَدِّ الرَّحْلِ لِأَجْلِ ذَلِكَ بِإِشَارَةِ النَّصِّ ، كَمَا تَبَتَ
الْتِهَامُ عَنْ جَعْلِهِ عِيدًا بِدَلَالَةِ النَّصِّ ، وَهَاتَانِ الدَّلَالَتَانِ مَعْمُولٌ بِهِمَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ ، وَوَجْهُ هَذِهِ الدَّلَالَةِ عَلَى
الْمُرَادِ قَوْلُهُ تَبْلُغَنِي حَيْثُ كُنْتُمْ فَإِنَّهُ يُشِيرُ إِلَى الْبُعْدِ ، وَالْبُعِيدُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَحْصُلُ لَهُ الْقُرْبُ إِلَّا
بِاخْتِيَارِ السَّفَرِ إِلَيْهِ ، وَالسَّفَرُ يَصْدُقُ عَلَى أَقَلِّ مَسَافَةٍ مِنْ يَوْمٍ فَكَيْفَ بِمَسَافَةٍ بَاعِدَةٍ ، فَفِيهِ التَّهْيِ عَنْ السَّفَرِ لِأَجْلِ
الرَّيَاةِ وَاللَّهِ أَغْلَمَ . وَالْحَدِيثُ حَسَنٌ جَيِّدُ الْإِسْنَادِ وَلَهُ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ يَرْتَقِي بِهَا إِلَى دَرَجَةِ الصَّحَّةِ . قَالَ الشَّيْخُ
الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْهَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَقَالَ فِي فَتْحِ الْمَجِيدِ شَرْحَ كِتَابِ التَّوْحِيدِ : رَوَاهُ مَشَاهِيرُ لَكِنْ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ لَيْسَ
بِالْحَافِظِ نَعْرِفُ وَنُكِرَ . وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ : هُوَ ثِقَةٌ ، وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ : لَا بَأْسَ بِهِ .
قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : وَمِثْلُ هَذَا إِذَا كَانَ لِحَدِيثِهِ شَوَاهِدُ عِلْمٌ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ ، وَهَذَا لَهُ شَوَاهِدُ مُتَعَدِّدَةٌ انْتَهَى وَمِنْ
شَوَاهِدِهِ الصَّادِقَةِ مَا رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو فَتَنَاهَا وَقَالَ أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ " لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا فَإِنْ تَسْلِمُكُمْ يَبْلُغَنِي أَيْنَ كُنْتُمْ " رَوَاهُ الضَّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ وَأَبُو
يَعْلَى وَالْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سُهَيْلٍ قَالَ رَأَى الْحَسَنَ بْنَ الْحَسَنِ
بْنَ عَلِيٍّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْقَبْرِ فَتَدَانِي وَهُوَ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ يَتَعَشَّى فَقَالَ هَلُمَّ إِلَى الْعِشَاءِ ، فَقُلْتُ لَا أُرِيدُهُ ، فَقَالَ
مَا لِي رَأَيْتُكَ عِنْدَ الْقَبْرِ ؟ فَقُلْتُ سَلَّمْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَسَلِّمْ ثُمَّ قَالَ
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنْ صَلَّاتُكُمْ
تَبْلُغَنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ مَا أَتَيْتُمْ وَمَنْ بَالَذَلُّسَ إِلَّا سَوَاءٌ " .
قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ أَيْضًا بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى الْمُهْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا
تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنْ صَلَّاتُكُمْ تَبْلُغَنِي " .

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : فَهَذَانِ الْمُرْسَلَانِ مِنْ هَذَيْنِ الْوُجْهَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ يَدُلُّانِ عَلَى ثُبُوتِ الْحَدِيثِ لَا سِيَّمَا وَقَدْ احْتِجَّ بِهِ مَنْ
أَرْسَلَهُ وَذَلِكَ يَقْتَضِي ثُبُوتَهُ عِنْدَهُ هَذَا لَوْ لَمْ يَرَوْا مِنْ وَجْهِ مُسْنَدَةٍ غَيْرِ هَذَيْنِ فَكَيْفَ وَقَدْ تَقَدَّمَ مُسْنَدًا . انْتَهَى .
قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِ شَدِّ الرَّحْلِ إِلَى قَبْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى قَبْرِ غَيْرِهِ مِنَ الْقُبُورِ
وَالْمَشَاهِدِ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ اتِّخَاذِهَا أَعْيَادًا .

قَالَ فِي فَتْحِ الْمَجِيدِ شَرْحَ كِتَابِ التَّوْحِيدِ : وَهَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي أَفْتَى فِيهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَعْنِي مَنْ سَافَرَ لِمُجَرَّدِ
زِيَارَةِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَتَقِلَّ فِيهَا اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ ، فَمِنْ مُبِيحٍ لِدَلِيلِ كَالْغَرَالِيِّ وَأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُقَدِّسِيِّ ،
وَمِنْ مَانِعٍ لِدَلِيلِ كَابْنِ بَطَّةٍ وَابْنِ عُقَيْلٍ وَأَبِي مُحَمَّدٍ الْجَوْنِيِّ وَالْقَاضِي عِيَّاضٌ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . نَصَّ عَلَيْهِ مَالِكٌ
وَلَمْ يَخَالَفْهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَثَمَةِ وَهُوَ الصَّوَابُ لِحَدِيثِ شَدِّ الرَّحْلِ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ . انْتَهَى كَلَامُهُ .

وَأَمَّا الْآنَ فَالْآنَ فِي الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ إِذَا سَلَّمَ الْإِمَامُ عَنْ الصَّلَاةِ قَامُوا فِي مُصَلَّاهُمْ مُسْتَقْبِلِينَ الْقَبْرَ الشَّرِيفَ
الرَّوَاعِينَ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْتَصِقُ بِالسُّرَادِقِ وَيَطُوفُ حَوْلَهُ وَكُلُّ ذَلِكَ حَرَامٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَفِيهِ مَا يَجْرُ الْفَاعِلُ
إِلَى الشَّرْكَ ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ هُجُومُ النَّسُوةِ حَوْلَ حُجْرَةِ الْمَرْقَدِ الْمُتَوَرِّقِيَّاهُنَّ هُنَاكَ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ
وَتَشْوِيْشُهُنَّ عَلَى الْمُصَلِّينَ بِالسُّؤَالِ وَتَكَلُّمُهُنَّ مَعَ الرِّجَالِ كَاشِفَاتِ الْأَعْيُنِ وَالْوُجُوهِ فَإِنَّا لِلَّهِ . إِلَى مَا ذَهَبَ بِهِمْ

إِنلِيسَ الْعُدُوَّ وَفِي أَيِّ هُوَّةٍ أَوْقَعَهُمْ فِي لِبَاسِ الدِّينِ وَزَيِّ الْحَسَنَاتِ . وَإِنْ شِئْتَ التَّفْصِيلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَانْظُرْ إِلَى كُتُبِ شُيُخِ الْإِسْلَامِ كَأَبْنِ تَيْمِيَّةٍ وَأَبْنِ الْقَيِّمِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْهَادِي مِنَ الْمُقَدِّمِينَ . وَأَمَّا مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَكَشَيْخُنَا الْعَلَمَةُ الْقَاضِي بِشِيرِ الدِّينِ الْقَوَّجِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِنَّ كِتَابَهُ أَحْسَنَ الْأَقْوَالِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ : لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ ، وَالرَّدُّ عَلَى مُنْتَهَى الْمَقَالِ مِنْ أَحْسَنِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفُ مِنْ أَكْثَرِ الطَّاعَاتِ وَأَفْضَلُ مِنْ كَثِيرِ الْمُنْدُوبَاتِ لَكِنْ يَنْبَغِي لِمَنْ يُسَافِرُ أَنْ يَنْوِي زِيَارَةَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ثُمَّ يَزُورَ قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُصَلِّيَ وَيُسَلِّمَ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا زِيَارَةَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَزِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمِينَ .

وفي الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ٣٧ / ص ٢٥٣)

ذَهَبَ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ إِنَّهَا سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ تَقْرُبُ مِنْ دَرَجَةِ الْوُاجِبَاتِ ، وَهُوَ الْمُفْتَى بِهِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ (١) .

وَذَهَبَ الْفَقِيهَةُ الْمَالِكِيُّ أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ عِيسَى الْفَاسِيُّ إِلَى أَنَّهَا وَاجِبَةٌ (٢) .

وَمِنْ أَدَلَّةِ مَشْرُوعِيَّتِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } (سورة النساء / ٦٤) ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي (٣) .

(١) فتح القدير ٣ / ٩٤ ، وحاشية ابن عابدين ٢ / ٦٢٦ ، والمغني ٣ / ٥٥٦ .

(٢) الشفا ٢ / ١٥٠ .

(٣) حديث : " من زارني بعد موتي . . . " . أخرجه الدارقطني في " السنن " (٢ / ٢٧٨) وضعفه ابن حجر في " التلخيص الحبير " (٢ / ٢٦٦ - ٢٦٧) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » (١).

(١) - سنن أبي داود (٢٠٤٣) صحيح لغيره

وفي عون المعبود - (ج ٤ / ص ١٧٤٥) -

(قَالَ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ)

: قَالَ فِي فَتْحِ الْوُدُودِ : إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي مِنْ قَبِيلِ حَذْفِ الْمَعْلُولِ وَإِقَامَةِ الْعِلَّةِ مَقَامَهُ ، وَهَذَا فَنٌّ فِي الْكَلَامِ شَائِعٌ فِي الْجَزَاءِ وَالْخَبَرِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ } أَيِّ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَلَا تَحْزَنْ فَقَدْ كَذَّبَ . إلخ ، فَحَذْفُ الْجَزَاءِ وَأَقِيمَ عِلَّتَهُ مَقَامَهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } أَيِّ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَا نُضِيعُ عَمَلَهُمْ لِأَنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا يُقَدَّرُ الْكَلَامُ أَيُّ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ لِأَنِّي حَيٌّ أَقْدِرُ عَلَى رَدِّ السَّلَامِ وَقَوْلُهُ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ ، أَيِّ فَسَبَبَ ذَلِكَ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ فَحَتَّى هُنَا حَرْفُ إِبْتِدَاءٍ تُفِيدُ السَّبَبِيَّةَ مِثْلَ مَرَضَ فُلَانٌ حَتَّى لَا يَرُجُوهُ ، لَا بِمَعْنَى كَيْ ، وَبِهَذَا اتَّضَحَ مَعْنَى الْحَدِيثِ وَلَا يُخَالِفُ مَا بَيَّنَّ حَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ انْتَهَى كَلَامُهُ . وَقَالَ السُّيوطِيُّ : وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ حَدِيثِ الْأَنْبِيَاءِ أَحْيَاءَ وَفِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ وَسَائِرَ

الْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ ظَاهِرَ الْأَوَّلِ مُفَارَقَةُ الرُّوحِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَاللَّفْتُ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ تَأْلِيفًا سَمَّيْتُهُ إِنْتِبَاهَ الْأَذْكِيَاءِ بِحَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَحَاصِلُ مَا ذَكَرْتُهُ فِيهِ خَمْسَةُ عَشَرَ وَجْهًا أَقْوَاهَا أَنَّ قَوْلَهُ : رَدَّ اللَّهُ رُوحِي جُمْلَةً حَالِيَةً ، وَقَاعِدَةُ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ جُمْلَةَ الْحَالِ إِذَا صَدَرَتْ بِفِعْلٍ مَاضٍ قُدِّرَتْ فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ } أَيُّ قَدْ حَصِرَتْ وَكَذَا هَا هُنَا يَقْدَرُ قَدْ وَالْجُمْلَةُ مَاضِيَةً سَابِقَةً عَلَى السَّلَامِ الْوَاقِعِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، وَحَتَّى لَيْسَتْ لِلتَّعْلِيلِ بَلْ لِمُجَرَّدِ الْعَطْفِ بِمَعْنَى الْوَاوِ فَصَارَ تَقْدِيرُ الْحَدِيثِ : مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي قَبْلَ ذَلِكَ وَأَرَدَ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا جَاءَ الْإِشْكَالُ مِنْ أَنَّ جُمْلَةَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي بِمَعْنَى حَالٍ أَوْ اسْتِقْبَالٍ ، وَظَنَّ أَنَّ حَتَّى تَعْلِيلِيَّةٌ وَلَا يَصِحُّ كُلُّ ذَلِكَ . وَبِهَذَا الَّذِي قَدَّرْتَاهُ ارْتَفَعَ الْإِشْكَالُ مِنْ أَصْلِهِ . وَيُؤَيِّدُهُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى أَنَّ الرَّدَّ لَوْ أُخِذَ بِمَعْنَى حَالٍ أَوْ اسْتِقْبَالٍ لَلَزِمَ تَكَرُّرُهُ عِنْدَ تَكَرُّرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَكَرُّرِ الرَّدِّ يَسْتَلْزِمُ تَكَرُّرَ الْمُفَارَقَةِ ، وَتَكَرُّرَ الْمُفَارَقَةِ يَلْزِمُ عَلَيْهِ مَحْذُورَاتٌ ، مِنْهَا تَأْلِمُ الْجَسَدَ الشَّرِيفَ بِتَكَرُّارِ خُرُوجِ رُوحِهِ وَعَوْدِهِ أَوْ نَوْعٍ مَا مِنْ مُخَالَفَةٍ تَكَرَّرَ إِنْ لَمْ يَتَأَلَّمَ وَمِنْهَا مُخَالَفَةُ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الشُّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ يَتَكَرَّرُ لَهُ مُفَارَقَةُ رُوحِهِ وَعَوْدُهُ بِالْبَرَزَخِ وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَى بِالِاسْتِمْرَارِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى رُتْبَةٍ . وَمِنْهَا مُخَالَفَةُ الْقُرْآنِ إِذْ ذَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا مَوْتَانِ وَحَيَاتَانِ ، وَهَذَا التَّكَرُّارُ يَسْتَلْزِمُ مَوْتَاتٍ كَثِيرَةً وَهُوَ بَاطِلٌ . وَمِنْهَا مُخَالَفَةُ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا خَالَفَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ الْمُتَوَاتِرَةَ وَجَبَ تَأْوِيلُهُ .

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْإِعْتِقَادِ : الْأَنْبِيَاءُ بَعْدَ مَا قُبِضُوا رُدَّتْ إِلَيْهِمْ أَرْوَاحُهُمْ فَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ كَالشُّهَدَاءِ . وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ بِلَفْظٍ " إِلَّا وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي " بِزِيَادَةِ لَفْظِ " قَدْ " وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ : وَقَوْلُهُ " إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي " مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِلَّا وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي فَأَرَدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَأَحْدَثَ اللَّهُ عَوْدًا عَلَى بَدْنِهِ .

قَالَ السَّيُوطِيُّ : وَلَفْظُ الرَّدِّ قَدْ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمُفَارَقَةِ بَلْ كَفَى بِهِ عَنْ مُطْلَقِ الصِّيُورَةِ وَحُسْنِهِ هَذَا مُرَاعَاةُ الْمُنَاسِبَةِ اللَّفْظِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ حَتَّى أَرَدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَجَاءَ لَفْظُ الرَّدِّ فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ لِمُنَاسِبَةِ ذِكْرِهِ بِآخِرِهِ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِرَدِّهَا عَوْدَهَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ بَدْنِهَا وَإِنَّمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَرَزَخِ مَشْغُولٌ بِأَحْوَالِ الْمَلَائِكَةِ مُسْتَعْرِقٌ فِي مُشَاهَدَتِهِ تَعَالَى كَمَا هُوَ فِي الدُّنْيَا بِحَالَةِ الْوَحْيِ ، فَعَبَّرَ عَنْ إِفَاقَتِهِ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ بِرَدِّ الرُّوحِ انْتَهَى .

قَالَ الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ الْفَاكِهَانِيُّ : فَإِنْ قُلْتُ : قَوْلُهُ " إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي " لَا يَلْتَمِزُ مَعَ كَوْنِهِ حَيًّا دَائِمًا ، بَلْ يَلْزِمُ مِنْهُ أَنَّ تَعَدُّدَ حَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ ، فَالْجَوَابُ أَنَّ يُقَالُ مَعْنَى الرُّوحِ هُنَا النُّطْقُ مَجَازًا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ نُطْقِي وَهُوَ حَيٌّ دَائِمًا ، لَكِنْ لَا يَلْزِمُ مِنْ حَيَاتِهِ نُطْقُهُ فَيَرُدُّ عَلَيْهِ نُطْقُهُ عِنْدَ سَلَامِ كُلِّ أَحَدٍ ، وَعَلَاqَةُ الْمَجَازِ أَنَّ النُّطْقَ مِنْ لَازِمِهِ وَجُودِ الرُّوحِ ، كَمَا أَنَّ الرُّوحَ مِنْ لَازِمِهِ وَجُودِ النُّطْقِ بِالْفِعْلِ أَوْ الْقُوَّةِ ، فَعَبَّرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَحَدِ الْمُتَلَازِمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ . وَمِمَّا يُحَقِّقُ ذَلِكَ أَنَّ عَوْدَ الرُّوحِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ } انْتَهَى كَلَامُهُ .

وَقَالَ الْعَلَامَةُ السَّخَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْبَدِيعِ : رَدَّ رُوحَهُ يَلْزِمُهُ تَعَدُّدُ حَيَاتِهِ وَوَفَاتِهِ فِي أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ إِذْ الْكُونُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنَّ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، بَلْ قَدْ يَتَعَدَّدُ فِي آنٍ وَاحِدٍ كَثِيرًا . وَأَجَابَ الْفَاكِهَانِيُّ وَبَعْضُهُمْ بِأَنَّ الرُّوحَ هُنَا بِمَعْنَى النُّطْقِ مَجَازًا فَكَأَنَّهُ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ عَلَيَّ نُطْقِي . وَقِيلَ إِنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ بَلَا مَشَقَّةٍ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالرُّوحِ مَلَكٌ وَكُلٌّ بِإِبْلَاغِهِ السَّلَامَ وَفِيهِ نَظَرٌ . انْتَهَى . قَالَ الْخَفَاجِيُّ فِي تَسْيِيمِ الرِّيَاضِ شَرْحِ الشَّعَاءِ لِلْقَاضِي عِيَّاضَ : وَاسْتِعَارَةُ رَدِّ الرُّوحِ لِلنُّطْقِ بَعِيدَةٌ وَغَيْرُ مَعْرُوفَةٍ ، وَكَوْنُ الْمُرَادِ بِالرُّوحِ الْمَلَكِ تَأْبَاهُ الْإِضَافَةُ لِصُمَيْرٍ إِلَّا أَنَّهُ مَلَكٌ كَانَ مُلَازِمًا لَهُ ، فَاخْتَصَّ بِهِ عَلَى

أَنَّهُ أَقْرَبُ الْجَوَابَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ : بَلَغَنِي أَنَّ مَلَكًا مُوَكَّلًا بِكُلِّ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يُبْلَغُهُ .

وَقَدْ وَرَدَ أَيْضًا إِبْطَاقُ الرُّوحِ عَلَى الْمَلِكِ فِي الْقُرْآنِ ، وَإِذَا خُصَّ هَذَا بِالزُّوَارِ هَانَ أَمْرُهُ . وَجُمْلَةٌ : " رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي " حَالِيَّةٌ وَلَا يَلْزَمُهَا قَدْ إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ إِلَّا كَمَا ذَكَرَهُ فِي التَّسْهِيلِ ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَعْمِ الْأَحْوَالِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا الْحَدِيثُ لَا يَخْلُو مِنَ الْإِشْكَالِ .

قَالَ الْخَفَاجِيُّ : أَقُولُ الَّذِي يَظْهَرُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالشُّهَدَاءَ أَحْيَاءَ وَحَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ أَقْوَى ، وَإِذَا لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ فَهُمْ كَالنَّائِمِينَ . وَالنَّائِمُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَنْطِقُ حَتَّى يَنْتَبِهَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ فِي مَنَامِهَا } الْآيَةُ فَالْمُرَادُ بِالرَّدِّ الْإِرْسَالُ الَّذِي فِي الْآيَةِ ، وَحِينَئِذٍ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِلُونِهَا تَبْقَظُ وَرَدَّ لَا أَنَّ رُوحَهُ تَقْبُضُ قَبْضَ الْمَمَاتِ ثُمَّ يُفْخَخُ وَتُعَادُ كَمَوْتِ الدُّنْيَا وَحَيَاتُهَا لِأَنَّ رُوحَهُ مُجَرَّدَةٌ نُورَانِيَّةٌ وَهَذَا لِمَنْ زَارَهُ وَمَنْ بَعْدَ تَبْلُغِهِ الْمَلَائِكَةُ سَلَامَهُ فَلَا إِشْكَالَ أَصْلًا انْتَهَى .

قَالَ فِي غَايَةِ الْمَقْصُودِ شَرْحُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ بَعْدَمَا أَطَالَ الْكَلَامَ : هَذَا أَيُّ تَقْرِيرِ الْخَفَاجِيِّ مِنْ أَحْسَنِ التَّقَارِيرِ . وَأَخْرَجَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعْبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ ، وَمَنْ صَلَّى نَائِيًا بُلِّغْتُهُ " وَمَعْنَى قَوْلِهِ نَائِيًا أَيُّ بَعِيدًا عَنِّي وَبُلِّغْتُهُ بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ مُشَدَّدًا أَيُّ بُلِّغْتُهُ الْمَلَائِكَةُ سَلَامَهُ وَصَلَاتَهُ عَلَيَّ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالدَّارِمِيُّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ مَرْفُوعًا : " إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبْلَغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ . قَالَهُ الْخَفَاجِيُّ .

وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ الْأَعْرَجِ حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الصَّبَّاحِ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ بَعِيدٍ بُلِّغْتُهُ ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي جَلَاءِ الْأَفْهَامِ : وَهَذَا الْحَدِيثُ غَرِيبٌ جِدًّا .

وَمَا قَالَ عَلِيُّ الْقَارِيَّ تَحْتَ حَدِيثِ الْبَابِ فِي شَرْحِ الشُّفَاءِ وَظَاهِرُهُ الْإِبْطَاقُ الشَّامِلُ لِكُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَمَنْ خَصَّ الرَّدَّ بِوَقْتِ الزِّيَادَةِ فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ انْتَهَى . فَيُرَدُّ كَلَامُهُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الرُّوَايَاتِ . وَالْقَوْلُ الصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا لِمَنْ زَارَهُ وَمَنْ بَعْدَ عَنْهُ تَبْلُغُهُ الْمَلَائِكَةُ سَلَامَهُ . وَحَدِيثُ الْبَابِ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِقَوْلِهِ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ حَدَّثَنَا حَيَوَةُ نَحْوَهُ سَنَدًا وَمَتْنًا .

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ : وَقَدْ صَحَّ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ وَسَأَلْتُ شَيْخَنَا ابْنَ تَيْمِيَّةَ عَنْ سَمَاعٍ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ كَأَنَّهُ أَدْرَكَهُ وَفِي سَمَاعِهِ مِنْهُ نَظَرٌ انْتَهَى كَلَامُهُ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ وَرِيَاضِ الصَّالِحِينَ : إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ : رَوَاتُهُ ثِقَاتٌ .

وَقَالَ الْمُنْذِرِيُّ : أَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ وَقَدْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِهِ وَضَعَفَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ مَرَّةً وَوَقَّفَهُ أُخْرَى ، انْتَهَى كَذَا فِي غَايَةِ الْمَقْصُودِ مُخْتَصَرًا .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بَقَرِيٍّ مَلَائِكَةٌ يُبْلَغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ } " (١) . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " { أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ - أَيُّ بَلَيْتَ ؟ - فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ } " (٢) .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (٢٣) سورة نوح ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ ، (٣) فَكَانَ هَذَا مَبْدَأَ عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ . فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ لِيَسُدَّ بَابَ الشِّرْكِ كَمَا نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقْتَ غُرُوبِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ ، وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَقْتَ الطُّلُوعِ وَقْتَ الْغُرُوبِ فَتَكُونُ فِي الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ مُشَابَهَةً لِصَلَاةِ الْمُشْرِكِينَ فَسَدَ هَذَا الْبَابُ .

وَالشَّيْطَانُ يُضِلُّ بَنِي آدَمَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ؛ فَمَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَدَعَاَهَا - كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبَ - فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يُخَاطِبُهُ وَيُحَدِّثُهُ بَعْضُ الْأُمُورِ ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ وَهُوَ شَيْطَانٌ ، وَالشَّيْطَانُ - وَإِنْ أَعَانَ الْإِنْسَانَ عَلَى بَعْضِ مَقَاصِدِهِ - فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ أَضْعَافَ مَا يَنْفَعُهُ ، وَعَاقِبَةُ مَنْ أَطَاعَهُ إِلَى شَرٍّ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ عِبَادُ الْأَصْنَامِ قَدْ تُخَاطَبُهُمُ الشَّيَاطِينُ ، وَكَذَلِكَ مَنْ اسْتَعَاثَ بِمَيْتٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا الْمَيْتَ أَوْ دَعَا بِهِ ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَرُودُونَ حَدِيثَنَا هُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ : " { إِذَا أَعَيْتُكُمُ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ } (٤) "

(١) - لم أجده بهذا اللفظ وإنما ورد عن ابن الحُمَيْرِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بَقِيرٍ مَلَكًا أَعْطَاهُ اسْمًا عَ الْخَلْقِ ، فَلَا يُصَلِّي عَلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَلْبَغْنِي بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ ، هَذَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ قَدْ صَلَّى عَلَيْكَ . مسند الزار (١٤٢٥) وفيه ضعف وأما المشهور فعن ابن مسعودٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونَ عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ " مصنف عبد الرزاق (٣١١٥) وغيره وهو صحيح

(٢) - الجمعة وفضلها لأحمد بن علي المروزي (١٣) صحيح

(٣) - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - صَارَتِ الْأَوْتَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لَهُذِيلٌ ، وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِمَرَادٍ ثُمَّ لَبَنَى غُطَيْفٍ بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَا ، وَأَمَّا يَعُوقٌ فَكَانَتْ لَهُمْدَانُ ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ ، لَالِ ذِي الْكَلَاعِ . أَسْمَاءُ رَجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا ، وَسَمُّوَهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تَعْبُدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . صحيح البخارى (٤٩٢٠)

(٤) - قلت : لا شك بأنه كذب مفترى

فَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ مُفْتَرًى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَاجِمَاعُ الْعَارِفِينَ بِحَدِيثِهِ لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِذَلِكَ وَلَا يُوْجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ . مجموع الفتاوى - (ج ١ / ص ٣٥٦)

" وَإِنَّمَا هَذَا وَضْعٌ مِنْ فَتْحِ بَابِ الشِّرْكِ . وَيُوجَدُ لِأَهْلِ الْبِدْعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَارِ وَالضُّلَّالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْوَالٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ يَطُونُهَا كَرَامَاتٌ ، وَهِيَ مِنَ الشَّيَاطِينِ : مِثْلُ أَنْ يَضَعُوا سِرَازِيلَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَيَجِدُونَهُ قَدْ انْعَقَدَ ، أَوْ يَضَعُ عِنْدَهُ مَصْرُوعٌ فَيَرُونَ شَيْطَانَهُ قَدْ فَارَقَهُ . يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ هَذَا لِيُضِلَّهُمْ ، وَإِذْ قَرَأْتُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ هُنَاكَ بِصِدْقٍ بَطْلَ هَذَا ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ؛ وَلِهَذَا حَمَلَ بَعْضُهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَسَقَطَ ، وَمِثْلُ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ إِنْسَانٌ فَيَطْنُهُ الْمَيْتَ وَهُوَ شَيْطَانٌ . وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَا يَتَسَعُّ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ .

الانقطاع إلى المغارات والوادي من البدع

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْقِطَاعُ إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْوَادِي مِنَ الْبِدْعِ
تَأْوَى إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْجِبَالِ : مِثْلَ مَغَارَةِ الدَّمِ الَّتِي بِجَبَلِ قَاسِيُونَ وَجَبَلِ لُبْنَانَ الَّذِي بِسَاحِلِ الشَّامِ وَجَبَلِ الْفَتْحِ
بِأَسْوَانَ بِمِصْرَ وَجَبَلِ بِالرُّومِ وَخُرَّاسَانَ وَجَبَلِ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَجَبَلِ اللَّكَّامِ وَجَبَلِ الْأَحْيَشِ وَجَبَلِ سُولَانَ
قُرْبَ أَرْدِيلٍ، وَجَبَلِ شَهْنَكٍ عِنْدَ تَبْرِيزَ، وَجَبَلِ مَاشِكُو عِنْدَ أَقْشُونَانَ، وَجَبَلِ نَهَاوَنْدَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي يَظُنُّ
بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بَهَا رِجَالًا مِنَ الصَّالِحِينَ مِنَ الْإِنْسِ، وَيُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنَ الْجِنِّ فَالْجِنُّ
رِجَالٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ رِجَالٌ، قَالَ تَعَالَى : {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}
(٦) سورة الجن .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظْهَرُ بِصُورَةِ رَجُلٍ شِعْرَانِي جِلْدُهُ يُشَبِّهُ جِلْدَ الْمَاعِزِ، فَيُظَنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ إِنْسِيٌّ، وَإِنَّمَا هُوَ جِنِّيٌّ
وَيُقَالُ بِكُلِّ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ اللَّارْبَعُونَ الْأَبْدَالُ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَظُنُّ أَنَّهُمُ الْأَبْدَالُ هُمْ جِنٌّ بِهَذِهِ الْجِبَالِ كَمَا
يَعْرِفُ ذَلِكَ بِطَرُقٍ مُعَدَّدَةٍ . وَهَذَا بَابٌ لَا يَتَسَعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِبَسْطِهِ وَذَكَرَ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا
مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ الَّذِي كُتِبَ لِمَنْ سَأَلَ أَنْ نَذْكُرَ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا
يَعْرِفُ بِهِ جَمَلُ ذَلِكَ .

النَّاسُ فِي خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ

" قِسْمٌ " يَكْذِبُ بِوُجُودِ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرُبَّمَا صَدَّقَ بِهِ مُجْمَلًا، وَكَذَّبَ مَا يُذَكِّرُ لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ لِكُونِهِ
عِنْدَهُ لَيْسَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَوْعٌ مِنْ خَرَقِ الْعَادَةِ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خَطَأً، وَلِهَذَا تَجَدُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ
يَذْكُرُونَ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ نُصَرَاءَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ . وَأُولَئِكَ يَكْذِبُونَ
أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَنْ لَهُ خَرَقُ عَادَةٍ، وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الثَّالِثُ وَهُوَ أَنَّ مَعَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ جَنْسِهِمْ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ كَمَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (٥١) سورة المائدة، وَهَؤُلَاءِ الْعُبَادُ وَالرُّهَّادُ الَّذِينَ لَيْسُوا
مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَقْتَرِنُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ فَيَكُونُ لِأَحَدِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ ؛
لَكِنَّ خَوَارِقَ هَؤُلَاءِ يُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا حَصَلَ مَنْ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ
يَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ مِنَ الْكُذْبِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا، وَمِنْ الْإِثْمِ مَا يُنَاسِبُ حَالَ الشَّيَاطِينِ الْمُفْتَرِنَةِ بِهِمْ لِيُفَرِّقَ اللَّهُ بَذَلِكَ
بَيْنَ أَوْلِيَاءِهِ الْمُتَّقِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { هَلْ أَتَيْنَاكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ
وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) } [الشعراء/٢٢١-٢٢٣] ، وَالْأَفَّاكُ الْكُذَابُ . وَالْأَثِيمُ الْفَاجِرُ . وَمَنْ أَعْظَمَ مَا يُقْوَى
الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ سَمَاعُ الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ
إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} (٣٥) سورة الأنفال، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّلَفِ " التَّصَدِيقُ بِالْيَدِ (١) ، وَ " الْمَكَاءُ " مِثْلُ الصَّغِيرِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَخَذُونَ
هَذَا عِبَادَةً، وَأَمَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَعِبَادَتُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِ

ذَلِكَ وَالْاجْتِمَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى اسْتِمَاعِ غِنَاءٍ قَطُّ لَا بِكَفٍّ وَلَا بِدَفٍّ وَلَا تَوَاجُدٍ وَلَا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ ؛ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ . وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمِعُونَ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ : { ذَكَّرْنَا رَبَّنَا فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ } (٢) وَمَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ فَقَالَ لَهُ مَرَرْتُ بِكَ يَا أَبَا مُوسَى الْبَارِحَةَ ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَاسْتَمِعْنَا لِقِرَاءَتِكَ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، لَوْ عَلِمْتُ بِمَكَانِكَ لَحَبَرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا" (٣) ، أَيْ لَحَسَنَتَهُ لَكَ تَحْسِينًا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » (٤)

(١) - تفسير الطبري - (ج ١٣ / ص ٥٢٢) وتفسير ابن أبي حاتم - (ج ٣٣ / ص ٢١٠) من طرق

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٢٦٥٩)

رقم الفتوى ٢٢٦٤٧ التصفيق بين الإباحة والنهي

تاريخ الفتوى : ١٥ رجب ١٤٢٣

السؤال

هل التصفيق حرام إذا كان مصاحب الإنشاد بالدف في الفرح للنساء؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فالتصفيق عموماً له حالتان:

الأولى: أن يكون داخل الصلاة لمن نابه شيء، وهذا منهي عنه للرجال مستحب للنساء، فقد روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من نابه شيء في صلاته فليسبح فإنه إذا سبح التفت إليه، وإنما التصفيق للنساء.

والثانية: أن يكون خارج الصلاة. والتصفيق خارج الصلاة على قسمين:

الأول: أن يكون لحاجة، كالاستئذان والتنبيه وملاعبة النساء لأطفالهن أو تحسين النشيد ونحو ذلك فهذا جائز، قال في حاشية الجمل ١/٤٣٢: وأفتى شيخنا الرملي بأنه لا يحرم حيث لم يقصد به اللعب..... وإن احتجج إليه لتحسين صناعة من إنشاد ونحوه، ومنه ما تفعله النساء عند ملاعبة أولادهن. انتهى

والثاني: أن يكون لغير حاجة، وهذا منهي عنه.. فمن العلماء من حرمه ومنهم من كرهه، ودليل النهي قوله تعالى

عن المشركين: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ [الأنفال: ٣٥].

قال المفسرون التصدية: التصفيق.

وعليه، فلا بأس في ما ذكر في السؤال إذا خلا من محاذير شرعية أخرى.

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه

(٢) - عن عُمَرُو بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّ ابْنَ شِهَابٍ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: قَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ قَالَ أَبُو سَلَمَةَ:

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى: يَا أَبَا مُوسَى ذَكَّرْنَا رَبَّنَا، فَيَقْرَأُ عِنْدَهُ أَبُو مُوسَى وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِهِ وَيَتَلَا حُنَّ سَنَنْ

الدارمي (٣٥٦٠) ومسنند أبي عوانة (٣١٤١) صحيح مرسل

وقوله: "ويتلاحن": من اللحن وهو التطريب وتجميع الصوت وتحسين القراءة.

(٣) - المستدرک للحاکم (٥٩٦٦) والسنن الکبری للبیہقی - (ج ٣ / ص ١٢) (٤٨٩٥) وهو صحیح

(٤) - سنن أبی داود (١٤٧٠) وهو صحیح

وفي عون المعبود - (ج ٣ / ص ٤٠٢)

قَالَ الْخَطَّابِيُّ : مَعْنَاهُ زَيَّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ ، هَكَذَا فَسَّرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَيْمَّةِ الْحَدِيثِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَقْلُوبِ كَمَا يُقَالُ عَرَضْتُ الْحَوْضَ عَلَى النَّاقَةِ قَالَ وَرَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ طَلْحَةَ فَقَدِمَ الْأَصْوَاتُ عَلَى الْقُرْآنِ وَهُوَ الصَّحِيحُ ، ثُمَّ أَسْنَدَ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّازِقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ طَلْحَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْسَجَةَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " زَيَّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ " وَالْمَعْنَى اشْغَلُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ وَالْهَجْوِ بِقِرَائَتِهِ وَاتَّخِذُوهُ شِعَارًا وَزِينَةً . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى هَذِهِ الرَّوَايَةِ مِنْ طَرِيقِ مَنْصُورٍ أَنَّ الْمَسْمُوعَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَيْسَ بِحِكَايَةِ لِلْقُرْآنِ

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَلَّهِ أَشَدُّ أَذْنَا إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتُ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ » (١).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ مَسْعُودٍ : « أَقْرَأْ عَلَى الْقُرْآنِ » . قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُتْرَلُ؟ قَالَ : « إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » . فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } (٤١) سُورَةُ النَّسَاءِ ، رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ " (٢).

(١) - سنن ابن ماجه (١٤٠١) وللمستدرک للحاکم (٢٠٩٧) وهو حسن لغیره

وفي حاشية السندي على ابن ماجه - (ج ٣ / ص ١٣٣)

قوله (لله) بفتح اللام مُبتدأ خبره

أَشَدُّ أَذْنَا بفتح حَتَيْنِ بِمعنى إستماعًا وَلَمَّا كَانَ الْإِسْتِمَاعُ عَلَى اللَّهِ مُحَالًا لِأَنَّهُ شَأْنٌ مَنْ يَتَخَلَّفُ سَمَاعُهُ بِكَثْرَةِ التَّوَجُّهِ وَقَلَّتْهُ وَسَمَاعُهُ تَعَالَى لَا يَتَخَلَّفُ قَالُوا هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ تَقَرُّبِ الْقَارِئِ وَإِجْزَالِ نَوَابِهِ (يَجْهَرُ بِهِ) الْجُمْلَةُ حَالٌ مِمَّا يُفْهَمُ كَأَنَّهُ قِيلَ يَقْرَأُ يَجْهَرُ بِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا نَعَتْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ فِي مَعْنَى التَّكْرَةِ إِذَا لَمْ يَقْصِدْ بِهِ إِلَى أَحَدٍ بَعِيْنِهِ

قوله الْقَيْنَةُ بفتح قَافٍ وَسُكُونٍ يَاءٍ مُثَنَاةٍ مِنْ تَحْتٍ بَعْدَهَا نُونُ الصَّحَاحِ هِيَ جَارِيَةٌ مُعْنِيَةٌ كَانَ أَوْ غَيْرُ مُعْنِيَةٍ وَبَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ الْقَيْنَةَ الْمُعْنِيَةَ خَاصَّةً وَلَيْسَ هُوَ كَذَلِكَ أَهـ

قُلْتُ وَالْحَدِيثُ يُسَاعِدُ ظَنَّهُمْ فِيهِ نَوْعٌ تَأْيِيدٌ لَهُمْ فَلْيَتَأَمَّلْ وَفِي الزَّوَائِدِ إِسْنَادُهُ حَسَنٌ .

(٢) - صحيح مسلم (١٩٠٣) وصحيح البخارى (٥٠٤٩)

وفي حديث ابن مسعود هذا فَوَائِدُ مِنْهَا : اسْتِحْبَابُ اسْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ وَالْإِصْغَاءِ لَهَا وَالْبُكَاءُ عِنْدَهَا وَتَدْبُرُهَا ، وَاسْتِحْبَابُ طَلَبِ الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسْتَمِعَ لَهُ ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّفْهَمِ وَالتَّدْبِيرِ مِنْ قِرَاءَتِهِ بِنَفْسِهِ . وَفِيهِ : تَوَاضُعُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَلَوْ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ . شرح النووي على مسلم - (ج ٣ / ص ١٥٤)

وَمِثْلُ هَذَا السَّمَاعِ هُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَاتَّبَاعِهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ : {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} (١)(٥٨) سورة مريم ، وَقَالَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ : {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (٢)(٨٣) سورة المائدة ، وَمَدَحَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ هَذَا السَّمَاعِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَقَشِيعَرِ الْجُلْدِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ فَقَالَ تَعَالَى : {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (٣)(٢٣) سورة الزمر ، وَقَالَ تَعَالَى : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (٤)(٤)

(١) - وَهَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَصَهُمْ ، هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ ، وَمَنْ هَدَاهُمْ وَقَرَّبَهُمْ ، وَكَانُوا إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَّجَهُ وَدَلَالَتَهُ وَبَرَاهِينَهُ ، سَجَلُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَخُشُوعًا وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ وَهُمْ يَبْكُونَ .

(٢) - وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَتَلَّى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، تُفِيضُ عَيْنُهُمْ بِالْدَّمْعِ (أَيَّ يَكُونُ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِهِمْ) ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ مَا بَيْنَهُ الْقُرْآنُ هُوَ الْحَقُّ ، وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عُتُوٌّ وَلَا اسْتِكْبَارٌ وَلَا تَعْصُبٌ كَمَا يَمْنَعُ غَيْرُهُمْ . وَحِينَ يَسْمَعُونَ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ فِي كُتُبِهِمْ ، يَصْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ إِيْمَانَهُمْ وَأَنَّهُ يَكْتُبُهُمْ مَعَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَمِمَّا يَتَنَاقَلُونَهُ عَنْ أَسْلَافِهِمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ الْآخِرَ الَّذِي يَكْمُلُ بِهِ الدِّينُ ، وَيَتِمُّ الشَّرِيعُ ، يَكُونُ مُتَّبِعُوهُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونُونَ حُجَّةً عَلَى الْمَشْرِكِينَ وَالْمُتَظَلِّلِينَ .

(٣) - اللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ قُرْآنًا يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا (مَثَانِي) ، وَيَتَرَدَّدُ فِيهِ الْقَوْلُ ، مَعَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ لِيَفْهَمَ النَّاسُ مَا أَرَادَ رَبُّهُمْ تَعَالَى ، وَإِذَا تُلِيَتْ مَعَهُ آيَاتُ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ أَقْشَعَرَتْ لَهَا جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَوَجِلَتْ لَهَا قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ آيَاتُ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالْوَرَابِ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ ، وَتَطْمَئِنُّ نَفْسُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ . وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَقَدْ هَدَاهُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَعْرِضُ عَنِ الْحَقِّ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ يَهْدِيهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

(٤) - يُعْرِفُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ فَرَعَتْ قُلُوبُهُمْ وَخَافَتْ (وَجِلَتْ) ، وَعَمِلَتْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ ، وَتَرَكَتْ مَا نَهَى عَنْهُ . فَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَهْمُوا بِمَعْصِيَةٍ أَوْ يَظْلِمُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ : اتَّقُوا اللَّهَ ، ارْتَدَّعُوا عَمَّا هُمُوا بِهِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ . وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ رَسَّخَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ وَزَادَ فِيهِ ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ ، لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ ، وَلَا يَلُودُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ ، وَلَا يَسْأَلُونَ غَيْرَهُ .

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ تَعَالَى إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِينَ وَاعْتِقَادَهُمْ ، أَشَارَ هُنَا إِلَى أَعْمَالِهِمْ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ حَقَّ آدَائِهَا ، بِخُشُوعٍ وَحُضُورٍ قُلُوبٍ ، وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ مِنْ جِهَادٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَصَدَقَاتٍ ، وَيَفْعَلُونَ الْخَيْرَاتِ كُلَّهَا .

وَالْمُتَّقُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ الْإِيمَانِ ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالزُّلْفَى عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَهُمْ مَنَازِلُ وَمَقَامَاتٌ فِي الْجَنَاتِ ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَيَشْكُرُ لَهُمْ حَسَنَاتِهِمْ ، وَيَرْزُقُهُمْ رِزْقًا طَيِّبًا وَافِرًا كَرِيمًا .

[الأَنْفَالُ ٢/ ٥-] .

وَأَمَّا السَّمَاعُ الْمُحَدَّثُ سَمَاعُ الْكَفِّ وَالذُّفِّ وَالْقَصَبِ ، فَلَمْ تَكُنِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ يَاحْسَنَ وَسَائِرُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَيْمَةِ الدِّينِ يَجْعَلُونَ هَذَا طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَلَا يَعْلَمُونَهُ مِنَ الْقُرْبِ وَالطَّاعَاتِ ؛ بَلْ يَعْلَمُونَهُ مِنَ الْبَدْعِ الْمَذْمُومَةِ ، حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ : خَلَفْتُ بَعْدَ شَيْئَا أَحَدْتُهُ الزَّانِدُفَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْيِيرَ يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ (١) ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَارِفُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا وَافِرًا ، وَلِهَذَا تَابَ مِنْهُ خِيَارُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ .

وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ وَعَنْ كَمَالِ وَلَايَةِ اللَّهِ كَانَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ أَكْثَرَ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَمْرِ يُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ أَغْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْخَمْرِ ؛ وَلِهَذَا إِذَا قَوِيَتْ سَكْرَةُ أَهْلِهِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ ، وَتَكَلَّمَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِهِمْ وَحَمَلَتْ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ ، وَقَدْ تَحْصُلُ عَدَاوَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا تَحْصُلُ بَيْنَ شَرَابِ الْخَمْرِ ، فَتَكُونُ شَيَاطِينُ أَحَدِهِمْ أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ الْآخَرِ فَيَقْتُلُونَهُ ، وَيَظُنُّ الْجُهَالُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا هَذَا مُبْعَدٌ لِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ ، وَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الشَّيَاطِينِ ؛ فَإِنْ قَتَلَ الْمُسْلِمَ لَا يَحِلُّ إِلَّا بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَتْلُ الْمَعْصُومِ مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ ؟ .

وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الْإِسْقَامَةِ ، فَلَمْ يُكْرِمِ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَرْبِّدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ كَالْمُكَاشَفَاتِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ كَالْتَصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْغِنَى عَنْ جِنْسٍ مَا يُعْطَاهُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْغِنَى .

وَجَمِيعُ مَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ارْتِدَادَ بِذَلِكَ رَفْعَةً وَقُرْبًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَالشَّرِّكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الذَّمُّ وَالْعِقَابُ ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْبَةٍ أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ ، وَإِلَّا كَانَ كَأَمْتَالِهِ مِنَ الْمَذْنُبِينَ .

ولِهَذَا كَثِيرًا مَا يُعَاقَبُ أَصْحَابُ الْخَوَارِقِ تَارَةً بِسَلْبِهَا كَمَا يُعْزَلُ الْمَلِكُ عَنْ مُلْكِهِ وَيُسَلَبُ الْعَالِمُ عِلْمُهُ . وَتَارَةً بِسَلْبِ التَّطَوُّعَاتِ فَيَقْتُلُ مِنَ الْوَلَايَةِ الْخَاصَّةِ إِلَى الْعَامَّةِ ، وَتَارَةً يَنْزِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْقِسَاقِ ، وَتَارَةً يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ . وَهَذَا يَكُونُ فِيمَنْ لَهُ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ شَيْطَانِيَّةٌ ، بَلْ يَظُنُّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَيَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَعْطَى عَبْدًا خَرَقَ عَادَةٍ لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ [إِذَا] أَعْطَى عَبْدًا مُلْكًا وَمَالًا وَتَصَرُّفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالْخَوَارِقِ عَلَى أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَا مَأْمُورًا بِهَا وَلَا مَنْهِيًا عَنْهَا ، فَهَذَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ وَهُمْ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَأَعْلَى مِنْ هَؤُلَاءِ ، كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ أَعْلَى مِنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ .

وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَقْصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا يَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ : كَالزُّنَا وَالسَّرْقَةِ ، وَتَعَرُّضُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَيَسْأَلُ اللَّهَ زَوَالَهَا ، وَكُلُّهُمْ يَأْمُرُ الْمُرِيدَ السَّالِكَ أَنْ لَا يَقِفَ عِنْدَهَا ، وَلَا يَجْعَلَهَا هِمَّتَهُ ، وَلَا يَتَّبِعَ بِهَا ؛ مَعَ ظَنِّهِمْ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مِنَ الشَّيَاطِينِ تُغْوِيهِمْ بِهَا ؟ !

فَإِنِّي أَعْرِفُ مَنْ تُخَاطِبُهُ النَّبَاتَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ، وَإِنَّمَا يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُمُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَكَ يَا وَلِيَّ اللَّهِ فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ .
وَأَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَتُخَاطِبُهُ الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا وَتَقُولُ: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخَاطِبُهُ بِذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَتَكُونُ الْجَنُّ قَدْ أَذْخَلَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةٍ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ أَوَارًا أَوْ تَحْضُرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةٍ صَاحِبِهِ، فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ .

وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُ مُخَاطِبٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَيَعِدُّهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١)، وَيُظْهِرُ لَهُ الْخَوَارِقُ مِثْلَ أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ؛ فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابُ الطَّيْرِ أَوْ الْجَرَادِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِيِّ أَوْ نَوْمُهُ أَوْ ذَهَابُهُ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِيلُهُ إِلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ، وَتَأْتِيهِ بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَتَقُولُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الْكَرُوبِيُّونَ أَرَادُوا زِيَارَتَكَ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ الْمُرْدَانِ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلَحْيٍ، وَيَقُولُ لَهُ عَلَامَةٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْمَهْدِيُّ إِنَّكَ تَنْتَبُتُ فِي جَسَدِكَ شَامَةٌ فَتَنْتَبُتُ وَيَرَاهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ . وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَوْ ذَكَرْتُ مَا أَعْرِفُهُ مِنْهُ لَاحْتِاجٌ إِلَى مُجَلِّدٍ كَبِيرٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) } [الفجر/ ١٥-١٧]، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: { كُلًّا } وَلَفْظُ (كُلًّا) فِيهَا زَجْرٌ وَتَنْبِيْهُ: زَجْرٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ وَتَنْبِيْهُ عَلَى مَا يُخْبِرُ بِهِ وَيُؤْمَرُ بِهِ بَعْدَهُ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَصَلَ لَهُ نِعَمٌ دُنْيَوِيَّةٌ تُعَدُّ كَرَامَةً يَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُكْرِمًا لَهُ بِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ يَكُونُ مُهَيِّئًا لَهُ بِذَلِكَ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَتَّبِعِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَقَدْ يُعْطِي النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِمَنْ لَا يُحِبُّهُ . وَلَا هُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ لِيَسْتَدْرِجَهُ بِذَلِكَ . وَقَدْ يَحْمِي مِنْهَا مَنْ يُحِبُّهُ وَيُؤَالِيهِ لِنَلَا تَنْقُصَ بِذَلِكَ مَرْتَبَتَهُ عِنْدَهُ أَوْ يَقَعَ بِسَبَبِهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ .

(١) - خبر المهدي متواتر

(٢) - فَإِذَا وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الرِّزْقِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْقُوَّةِ، لِيُخْتَبِرَهُ، اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ لَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّ فَضَّلْنِي لِاسْتِحْقَاقِي ذَلِكَ، وَالْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْخَلْقِ . وَإِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ أَنَّ رِزْقَهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِقَدَرٍ ظَنَّ ذَلِكَ إِهَانَةً لَهُ مِنَ اللَّهِ، وَإِذْلَالًا لِنَفْسِهِ فَيَقُولُ: رَبِّ أَهَانَنِي . وَالْإِنْسَانُ فِي الْحَالَيْنِ مُخْطِئٌ فِي ظَنِّهِ وَفِي قَوْلِهِ، فَيَسْبِغُ النِّعْمَةَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْإِنْسَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لَهَا، وَلَوْ دَلَّ عَلَى هَذَا لَمَا رَأَيْتَ عَاصِيًا مُوسِعًا عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ .

وَيَرُدُّ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ زَاجِرًا وَرَادِعًا (كَلًّا) قَائِلًا: إِنَّهُ لَمْ يَبْتَلِ الْغَنِيَّ بِالْغِنَى لِكِرَامَتِهِ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَبْتَلِ الْفَقِيرَ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُوسِعُ عَلَى الْغَنِيِّ لِيُخْتَبِرَهُ أَيَشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ؟ وَقَدْ يُضَيِّقُ عَلَى الْفَقِيرِ لِيُخْتَبِرَهُ أَيُضْبِرُ أَمْ يَضْجُرُ، فَمَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ

وأيضاً " كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ " لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ لَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالدُّعَا وَالزَّكَاةِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشُّرْكِ : مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ أَوْ بِالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ : كَالْحَيَاتِ وَالزَّنَابِيرِ وَالْحَنَافِسِ وَالِدَّمَ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ وَمِثْلِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ ؛ لَا سِيَّمَا مَعَ النِّسْوَةِ الْأَجَانِبِ وَالْمُرْدَانِ، وَحَالَةُ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا إِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا، أَوْ يَنْقُرُ الصَّلَاةَ نَقْرَ الدِّيكِ، وَهُوَ يَغْضُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ، وَيَنْفِرُ عَنْهُ، وَيَتَكَلَّفُهُ لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا ذَوْقٌ وَلَا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ، وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاةِ وَالتَّصَدِيقَةِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِيدَ . فَهَذِهِ أَحْوَالُ شَيْطَانِيَّةٍ ؛ وَهُوَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } (١) (٣٦) سورة الزخرف.

فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) { (٢) [طه/١٢٤-١٢٦] ، يَعْني تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ضَمِنَ اللَّهُ لِمَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ ، ثُمَّ تَلَا فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ، وَلَا يَشْقَى . (٣)

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَمْ يَبْقَ إِنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ إِلَّا وَجِبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ وَمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِرِسَالَتِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ سَوَاءً كَانَ إِنْسِيًّا أَوْ جِنِّيًّا .

(١) - وَمَنْ يَتَغَالَفُ وَيَتَعَامَ عَنِ الْقُرْآنِ ، وَعَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَتَهَمَكُ فِي الْمَعَاصِي ، وَلَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا . . فَإِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَيَكُونُونَ لَهُ قُرَنَاءَ ، يُزَيِّنُونَ لَهُ ارْتِكَابَ الْمَعَاصِي ، وَالْإِشْتِغَالَ بِاللذَّاتِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِيهَا فَيَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ .

(٢) - وَمَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَكَفَرَ بِمَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ رُسُلِي ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي وَتَنَاسَاهُ فَسَتَكُونُ مَعِيشَتُهُ فِي الدُّنْيَا ضَنْكًا لَا طُمَآنِينَةَ لَهُ فِيهَا ، وَلَا يَنْشَرِحُ فِيهَا صَدْرُهُ ، بَلْ يَبْقَى صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرِجًا ، بِسَبَبِ ضَلَالِهِ . وَمَا لَمْ يَخْلُصِ الْهُدَى وَالْيَقِينَ إِلَى قَلْبِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَبْقَى فِي قَلْقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ ، وَيَحْشُرُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ ، قَدْ عَمِيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ ، لِأَنَّ الْجَهْلَالَهَ الَّتِي كَانَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا تَبْقَى مُلَازِمَةً لَهُ فِي الْآخِرَةِ . فَيَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْمُتَسَائِلِ مُبِينًا : لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُسُلًا بآيَاتِنَا فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا ، وَتَنَاسَيْتَهَا ، فَكَذَلِكَ نُعَامِلُكَ الْيَوْمَ مُعَامَلَةَ الْمُنْسِيِّ ، فَتُتْرَكُ فِي النَّارِ .

(٣) - مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٧٧٥) وتفسير الطبري - (ج ١٨ / ص ٣٨٩) وتفسير ابن كثير - (ج ٥ / ص ٣٢٢) صحيح

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ اسْتَمَعَتِ الْجِنُّ الْقُرْآنَ وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ بَيْطَنَ نَخْلَةٍ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ، وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) (١) { [الأحقاف/ ٢٩- ٣٢] .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) } (٢)

(١) - يَقُصُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ قِصَّةَ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ وَجَهَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَاسْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْصِتُوا وَاسْتَمِعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ . فَلَمَّا فَرَغَ الرَّسُولُ مِنْ تِلَاوَتِهِ انْصَرَفُوا إِلَى جَمَاعَتِهِمْ يُخْبِرُونَهُمْ بِمَا سَمِعُوا ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ . وَقَالَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ ، الَّذِينَ اسْتَمَعُوا إِلَى تِلَاوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ لِقَوْمِهِمْ : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَعْدَ التَّوْرَةِ ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى ، يُصَدِّقُ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى رَسُولِهِ ، وَيُؤْشِدُ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَإِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ . (وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ التَّوْرَةَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْإِمَامُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ ، وَلَأَنَّ الْإِنْجِيلَ مُتَمِّمٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَةِ) . وَتَابَعَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ نَصَحَتَهُمْ لِقَوْمِهِمْ فَقَالُوا : يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّكُمْ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي طَاعَتِهِ ، وَصَدَّقُوهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، يَغْفِرْ لَكُمْ رَبِّكُمْ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَقْكُمَ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِفْلَاتَ مِنْ عِقَابِ رَبِّهِ إِذَا أَرَادَ عُقُوبَتَهُ ، وَلَا يَجِدُ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ، وَلَا مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ سُوءَ الْعَذَابِ .

وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِلرَّسُولِ يَكُونُونَ فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ بَيِّنٍ ، وَيَسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ الشَّدِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . (٢) - قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْجِنِّ اسْتَمَعُوا إِلَى الْقُرْآنِ فَآمَنُوا بِهِ ، وَصَدَّقُوهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا بَدِيعًا . (أَكْثَرَ الْمَفْسَرِينَ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ بِاسْتِمَاعِ الْجِنِّ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، مِنَ الْوَحْيِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِوُجُودِهِمْ قُرْبَهُ) . عَجَبًا - بَدِيعًا فِي بِلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ .

وَهَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلَى طَرِيقِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ ، فَصَدَّقْنَا بِهِ ، وَلَنْ نَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِعِبَادَةِ رَبِّنَا أَحَدًا .

وَنَزَّهُوا رَبَّهُمُ الْعَظِيمَ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ، لِأَنَّ الصَّاحِبَةَ تُتَّخَذُ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَلَا نَهَا مِنْ جِنْسِ الزَّوْجِ ، وَالْوَلَدُ يُتَّخَذُ لِلْإِسْتِنَاسِ بِهِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي الْكِبَرِ وَفِي الشَّدَّةِ ، وَلِبَقَاءِ الذِّكْرِ . وَاللَّهُ تَعَالَى مُتَرَدِّدٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَهُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَصِيرٍ وَلَا إِلَى مُعِينٍ ، وَهُوَ بَاقٍ دَائِمٌ أَبَدًا .

وَأَنَّ الْجُهَالَ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يَقُولُونَ قَوْلًا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، بِنِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ تَعَالَى .
سَفِيهًا - قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ إِنَّ الَّذِي عَنَاهُ الْجِنُّ يَقُولُهُمْ (سَفِيهًا) هُوَ إِبْلِيسُ .
وَأَنَّا كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ لَنْ يَكْذِبَ أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَيَنْسَبَ إِلَيْهِ تَعَالَى الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ ، وَمِنْ ثَمَّ اعْتَقَدْنَا صِحَّةَ قَوْلِ السَّفِيهِ ، فَلَمَّا سَمِعْنَا الْقُرْآنَ عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ .
وَأَنَّ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ كَانُوا يَسْتَعِيدُونَ ، وَهُمْ فِي الْقِفَارِ ، بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ، فَرَادُوا الْجِنَّ بِذَلِكَ طُغْيَانًا وَغَيًّا ، بِأَنَّهُمْ أَضَلُّوهُمْ حَتَّى اسْتَعَاذُوا بِهِمْ .
(كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَزَلُوا بِمَكَانٍ فِي الْقَفْرِ يَسْتَعِيدُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجِنِّ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِمَا يَسُوءُهُمْ ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَسْتَعِيدُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ ، ارْذَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَسَفَهًا - وَأَصْبَحَتْ الْجِنُّ أَكْثَرَ جُرْأَةً عَلَى الْإِنْسِ) .

[الجن ١/ ٧-] ، أَيِ السَّفِيهِ مِنَّا فِي أَظْهَرِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْإِنْسِ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي قَالَ : أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ فَلَمَّا اسْتَعَاثَ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ ارْذَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (١) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) } [الجن ٦/ ٩-] ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تُرْمَى بِالشُّهُبِ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْقُرْآنُ ؛ لَكِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الشُّهُبُ إِلَى أَحَدِهِمْ ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ، وَصَارَتْ الشُّهُبُ مُرَصَدَةً لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا ، كَمَا قَالُوا : { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) سورة الجن ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : { وَمَا نَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢١٢) } (٣)

- (١) - انظر المستدرک للحاکم (٦٦٠٧)
(٢) - وَأَنَّ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ كَانُوا يَسْتَعِيدُونَ ، وَهُمْ فِي الْقِفَارِ ، بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ، فَرَادُوا الْجِنَّ بِذَلِكَ طُغْيَانًا وَغَيًّا ، بِأَنَّهُمْ أَضَلُّوهُمْ حَتَّى اسْتَعَاذُوا بِهِمْ .
(كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَزَلُوا بِمَكَانٍ فِي الْقَفْرِ يَسْتَعِيدُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجِنِّ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِمَا يَسُوءُهُمْ ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَسْتَعِيدُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ ، ارْذَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَسَفَهًا - وَأَصْبَحَتْ الْجِنُّ أَكْثَرَ جُرْأَةً عَلَى الْإِنْسِ) .
وَأَنَّ الْجِنَّ ظَنُّوا ، كَمَا ظَنَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ ، أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَبْعَثَ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ إِلَى خَلْقِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .
(أَوْ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَبْعَثَ أَحَدًا مِنْ قَبْرِهِ فِي الْآخِرَةِ لِيَحْسِبَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ) .
يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ حِينَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، حَفِظَ اللَّهُ الْقُرْآنَ مِنَ الْجِنِّ إِذْ مَلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا ، وَحُفِظَتْ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهَا ، وَطُرِدَتْ الشَّيَاطِينُ مِنْ مَقَاعِدِهَا لِئَلَّا يَسْتَرْقُوا سَمْعَ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْجِنَّ قَالُوا : لَقَدْ طَلَبْنَا خَبَرَ السَّمَاءِ (لَمَسْنَا السَّمَاءَ) كَمَا جَرَتْ عَادَتُنَا بِذَلِكَ فَوَجَدْنَاهَا قَدْ مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ، وَشُهْبًا تَحْرُسُهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَمْنَعُنَا مِنْ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ .

(٣) - ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ مُحَمَّدًا كَاهِنٌ ، وَإِنَّ مَا يَأْتِيهِ هُوَ مِنْ نَوْعٍ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّيَاطِينُ إِلَى الْكَهَنَةِ . . . فَيَقُولُ لَهُمْ تَعَالَى : إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ تَنْزَلْ بِهِ الشَّيَاطِينُ لِيَكُونَ كَهَانَةً وَسِحْرًا .
وما يَنْبَغِي لِلشَّيَاطِينِ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ، لِأَنَّ مِنْ سَجِيَّةِ الشَّيَاطِينِ الْقَسَادَ ، وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ ، وَالْقُرْآنَ هُدًى ، وَبُرْهَانَ عَظِيمٍ لِلْعِبَادِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ ، وَعَلَى الْحَقِّ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ .
ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ حَمْلَهُ وَلَا تَأْدِيتَهُ ، لِأَنَّ حَمْلَ الْقُرْآنِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ . ثُمَّ إِنَّهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَعْزَلٍ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالٍ نَزُولِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ .
وَالشَّيَاطِينُ مَعْزُولُونَ عَنِ اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِئَلَّا يَشْتَبِهَ الْأَمْرُ ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَمِنْ حِفْظِهِ لِبَشَرِهِ ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ .

{ [الشعراء/٢١٠-٢١٢] ، قَالُوا : { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) } وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) } [الجن/١٠-١٢] أَيْ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ وَالنَّصْرَانِيُّ وَالسَّنِّيُّ وَالْبِدْعِيُّ { وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) } [الجن/١٢، ١٣] أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَهُ : لَا إِنْ أَقَامُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا إِنْ هَرَبُوا مِنْهُ { وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) } وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) } وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) } وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) } لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) } وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) } وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) } قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) } قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) } قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) } (١)

(١) - وَأَنَا مِنَّا الْأَبْرَارُ الْمُتَّقُونَ ، الْعَامِلُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَمِنَّا قَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ وَأَنَا كُنَّا مَذَاهِبَ وَأَهْوَاءَ مُخْتَلِفَةً ، وَفِرْقًا شَتَّى : فَمِنَّا الْمُؤْمِنُونَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ وَمِنَّا الْكَافِرُونَ .
وَأَنَا لَنَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ حَاكِمَةٌ عَلَيْنَا ، وَأَنَا لَنْ نُعْجِزَهُ تَعَالَى ، وَلَوْ أَمَعْنَا فِي الْهَرَبِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ ، وَلَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا .

وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ صَدَّقْنَا بِهِ ، وَأَقَرَرْنَا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى . وَمَنْ يُصَدِّقْ بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ فَلَا يَخَافُ قَصْصًا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَلَا ذَنْبًا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتٍ غَيْرِهِ .
وَأَنَا مِنَّا الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ وَآخَبُوا إِلَيْهِ ، وَعَمِلُوا صَالِحًا يَرْضَاهُ ، وَمِنَّا الْجَانِرُونَ عَنِ التَّهَجُّجِ الْقَوِيمِ ، الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَطَاعَهُ ، فَقَدْ اجْتَهَدَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ لِلْسَّعَادَةِ .
وَأَمَّا الْجَانِرُونَ عَنْ سُنَنِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُمْ سَيَكُونُونَ حَطَبًا لِجَهَنَّمَ ، ثَوَقْدُ بِهِمْ كَمَا ثَوَقْدُ بِكَفَرَةِ الْإِنْسِ .
وَأَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالطَّاعَةِ لَهُ ، لِأَوْسَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تُزِيلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَلَدْرَأًا . (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذِهِ الْآيَةُ تَرَكْتُ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَمَا مُنِعُوا الْمَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ) .
لِيُخْتَبِرَهُمْ بِإِعْدَاقِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ ، وَإِرْسَالِ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ بِالْمَطَرِ ، لِيَرَى هَلْ يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ أَمْ يَكْفُرُونَ؟ فَإِنْ وَفَّوْا النِّعَمَ حَقَّهَا مِنَ الشُّكْرِ كَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ، وَإِنْ كَفَرُوا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ ثُمَّ أَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ وَعِظَاتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُهُ فِي الْعَذَابِ الشَّقِيقِ الْمُتَوَاصِلِ الَّذِي لَا يُطِيقُهُ ، وَلَا يَجِدُ فِيهِ

لَحْظَةً رَاحَةً .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِاخْتِلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، إِذَا دَخَلُوا الْمَسَاجِدَ ، وَبِأَلَّا يَعْبُلُوا مَعَهُ أَحَدًا غَيْرَهُ .
وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّ الْجِنَّ لَمَّا سَمِعُوا عَبْدَ اللَّهِ مُحَمَّدًا يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَكُونُونَ حَوْلَهُ جَمَاعَاتٍ
يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا تَعْجَبًا ، مِمَّا سَمِعُوا مِنْ تِلَاوَتِهِ .

وَقُلْ : إِنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكُ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَحَدًا .
وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ الَّذِينَ رَدُّوا مَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ النَّصِيحَةِ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ دَفْعًا لِضُرٍّ ، وَلَا جَلْبًا لِنَفْعٍ
، وَإِنَّمَا الَّذِي يَمْلِكُ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ .
وَقُلْ لَهُمْ : إِنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِي سُوءًا ، وَلَنْ يَنْصُرَنِي مِنْهُ نَاصِرٌ ، وَلَنْ
أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْجَأً وَلَا مُعِينًا .

[الجن] ، أَي مُلْجَأٌ وَمَعَادًا { إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا
(٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجُدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) } (١) [الجن/٢٣، ٢٤] . ثُمَّ لَمَّا
سَمِعَتِ الْجِنَّ الْقُرْآنَ أَتَوْا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآمَنُوا بِهِ وَهُمْ جُنُّ نَصِيبِينَ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ
مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (٢) ، وَرَوَى { أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ وَكَانَ إِذَا قَالَ : { فَيَأْيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
قَالُوا : وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَانِكَ رَبَّنَا تُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ } (٣)

(١) - وَلَكِنِّي إِنْ بَلَغْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، وَقُمْتُ بِمَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُجِيرُنِي ، وَيَحْمِينِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَمَنْ
يَعْصِي اللَّهَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ ، وَيُكَذِّبُ رَسُولَهُ وَآيَاتِهِ ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا ، وَيَبْقَى فِيهَا خَالِدًا أَبَدًا ، لَا
مَخْرَجَ لَهُ مِنْهَا وَلَا مَهْرَبَ .

وَلَا يَزَالُونَ يَسْتَضَعِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ مِنْ فُتُونِ الْعَذَابِ فَسَيَتَّيْنُ لَهُمْ حَيَاتُهُ
مَنْ هُمْ الْمُسْتَضَعِفُونَ؟ أَهْمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوحِدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى ، أَمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ؟

(٢) - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِدَاوَةً لَوْضُونِهِ وَحَاجَتِهِ ،
فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ « مَنْ هَذَا » . فَقَالَ أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ . فَقَالَ « ابْعِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضُ بِهَا ، وَلَا تَأْتِي بَعْظُمَ
وَلَا بَرَوْتَةَ » . فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشْيَتِي ،
فَقُلْتُ مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْتَةِ قَالَ « هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنَّ ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَقَدْ جَنَّ نَصِيبِينَ وَنِعَمَ الْجِنَّ ، فَسَأَلُونِي الرَّادَّ ،
فَدَعَوْتُ اللَّهَ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْتَةٍ إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا » . صحيح البخارى (٣٨٦٠)

(٣) - عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ
الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ « لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنَّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ
كَلِمًا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ (فَبَأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قَالُوا لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا تُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ » . قَالَ أَبُو
عِيْسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ . قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ
زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الَّذِي وَقَعَ بِالشَّامِ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يُرْوَى عَنْهُ بِالْعِرَاقِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ آخَرُ قَلْبُوا اسْمُهُ يَعْنِي لِمَا يَرَوُونَ عَنْهُ
مِنَ الْمَنَاكِيرِ . وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ أَهْلُ الشَّامِ يَرَوُونَ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ مَنَاكِيرَ وَأَهْلُ
الْعِرَاقِ يَرَوُونَ عَنْهُ أَحَادِيثَ مُقَارَبَةً .

سنن الترمذى (٣٦٠٢) وغيره وهو ضعيف

{ وَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوهُ الرَّادُّ لَهُمْ وَلَدَوَابَّهُمْ فَقَالَ : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَّ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عُلْفٌ لَدَوَابِّكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ » (١). وَهَذَا النَّهْيُ ثَابِتٌ عَنْهُ مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدٍ، وَبِذَلِكَ احْتِجَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الِاسْتِنْجَاءِ بِذَلِكَ، وَقَالُوا فَإِذَا مُنِعَ مِنَ الِاسْتِنْجَاءِ بِمَا لِلْجَنِّ وَلَدَوَابَّهُمْ فَمَا أُعِدَّ لِلنَّاسِ وَلَدَوَابَّهُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالْعُلْفِ أَوْلَى وَأُخْرَى .

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَوْنِ الْجَنِّ سُخْرُوا لِسَيِّمَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ سُخْرُوا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ بِهِ وَرَسُولُهُ، لِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمَنْزِلَةُ الْعَبْدِ الرَّسُولِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ الْمَلِكِ . وَكُفَّارُ الْجَنِّ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا مُؤْمِنُوهُمْ فَجَمْعُهُمُ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَجَمْعُهُمُ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْإِنْسِ وَلَمْ يُبْعَثْ مِنَ الْجَنِّ رَسُولٌ . لَكِنْ مِنْهُمْ التَّنْذِيرُ، وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْجَنِّ مَعَ الْإِنْسِ عَلَى أَحْوَالٍ :

فَمَنْ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ يَأْمُرُ الْجَنِّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةٍ وَطَاعَةٍ نَبِيٍّ وَيَأْمُرُ الْإِنْسَ بِذَلِكَ فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ خُلَفَاءِ الرَّسُولِ وَنَوَابِهِ .

(١) - عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَيْلَةَ الْجَنِّ قَالَ فَقَالَ عَلْقَمَةُ أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَيْلَةَ الْجَنِّ قَالَ لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَدَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ فَقُلْنَا اسْتَطِيرَ أَوْ أُغِيلَ - قَالَ - فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ - قَالَ - فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ : « أَتَانِي دَاعِي الْجَنِّ فَذَهَبَتْ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الرَّادُّ فَقَالَ : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَّ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عُلْفٌ لَدَوَابِّكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : « فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ ». صحيح مسلم (١٠٣٥)

وفي شرح النووي على مسلم - (ج ٢ / ص ١٩٨)

قَوْلُهُ : (سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجَنِّ ؟ قَالَ لَا) هَذَا صَرِيحٌ فِي إِبْطَالِ الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ الْمَذْكُورِ فِيهِ الْوُضُوءُ بِالتَّيْبِذِ وَحُضُورُ ابْنِ مَسْعُودٍ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجَنِّ ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ ، وَحَدِيثُ التَّيْبِذِ ضَعِيفٌ بِاتِّفَاقِ الْمُحَدِّثِينَ ، وَمَدَارُهُ عَلَى زَيْدِ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ .

قَوْلُهُ : (اسْتَطِيرَ أَوْ أُغِيلَ) مَعْنَى اسْتَطِيرَ طَارَتْ بِهِ الْجَنِّ ، وَمَعْنَى أُغِيلَ قُتِلَ سِرًّا ، وَالْغِيلَةُ بِكَسْرِ الْغَيْنِ هِيَ الْقَتْلُ فِي خُفْيَةٍ ، قَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ : انْتَهَى حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ قَوْلِهِ (فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ) ، وَمَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِ الشَّعْبِيِّ كَذَا رَوَاهُ أَصْحَابُ دَاوُدَ الرَّائِي عَنْ الشَّعْبِيِّ وَابْنِ عُثَيْمٍ وَابْنِ زُرَيْعٍ وَابْنِ أَبِي زَائِدَةَ وَابْنِ إِدْرِيسَ وَغَيْرَهُمْ . هَكَذَا قَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ . وَمَعْنَى

قَوْلُهُ (إِنَّهُ مِنْ كَلَامِ الشَّعْبِيِّ) أَنَّهُ لَيْسَ مَرْوِيًّا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَإِلَّا فَالشَّعْبِيُّ لَا يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله : (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذِكْرٌ إِسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا لِأَمْوَانِهِمْ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ طَعَامَهُمْ مَا لَمْ يُذَكَّرْ إِسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجَنِّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ فَهُوَ كَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ ، وَهَذَا كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي مُبَاحَاتٍ لَهُ ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ وَهَذَا إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَعَايَنَهُ أَنْ يَكُونَ فِي عُمُومٍ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِثْلَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ مَعَ الْعَبْدِ الرَّسُولِ : كَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَهُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجَنِّ فِيمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، إِمَّا فِي الشِّرْكِ وَإِمَّا فِي قَتْلِ مَعْصُومٍ الدَّمِ أَوْ فِي الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْقَتْلِ كَتَمْرِضِهِ وَإِسْنَانِهِ الْعِلْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ ، وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ كَجَلْبِ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ ، فَهَذَا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، ثُمَّ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَهُوَ عَاصٍ : إِمَّا فَاسِقٌ وَإِمَّا مُذْنِبٌ غَيْرُ فَاسِقٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَامَ الْعِلْمُ بِالشَّرِيعَةِ فَاسْتَعَانَ بِهِمْ فِيمَا يُظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ : مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى الْحَجِّ ، أَوْ أَنْ يَطِيرُوا بِهِ عِنْدَ السَّمَاءِ الْبَدْعِي ، أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى عَرَافَاتٍ ، وَلَا يَحُجُّ الْحَجَّ الشَّرْعِيَّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَهَذَا مَغْرُورٌ قَدْ مَكَّرُوا بِهِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْجَنِّ بَلْ قَدْ سَمِعَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقٌ لِلْعَادَاتِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلَبُّوسَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، فَيَمَكِّرُونَ بِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَاللُّوثَانَ أَوْ هُمُوهُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ وَيَكُونُ قَصْدُهُ الْإِسْتِشْفَاعُ وَالتَّوَسُّلُ مِمَّنْ صَوَّرَ ذَلِكَ الصَّنَمَ عَلَى صُورَتِهِ مِنْ مَلِكٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ شَيْخٍ صَالِحٍ فَيُظَنُّ أَنَّهُ صَالِحٌ ، وَتَكُونُ عِبَادَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلشَّيْطَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجَنِّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) (١) } [سبا/ ٤٠ ، ٤١] . وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا فَيَقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ ؛ وَلِهَذَا يَتِمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةٍ مَنْ يَسْتَعِيثُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ . فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَعَاثَ بِجَرَجَسٍ أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جَرَجَسٍ ، أَوْ مَنْ يَسْتَعِيثُ بِهِ وَإِنْ كَانَ مُتَسَبِّحًا إِلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَعَاثَ بِشَيْخٍ يَحْسُنُ الظَّنَّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةٍ مَنْ يُعَظَّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ . ثُمَّ إِنْ الشَّيْخُ الْمُسْتَعَاثُ بِهِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خَيْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ لَمْ يَعْرِفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَعِيثِينَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَا خَيْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ تَقَلَّ أَقْوَالُهُمْ لَهُ فَيُظَنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصَوَاتَهُمْ مِنَ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ وَإِنَّمَا هُوَ بِوَسْطِ الشَّيْطَانِ .

(١) - وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ لِقَوْمِكَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَحْشُرُ اللَّهُ فِيهِ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، الَّذِينَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهُمْ طَمَعًا فِي شَفَاعَتِهِمْ ، وَلِيَقَرَّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ قَائِلًا : هَلْ أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءَ بِعِبَادَتِكُمْ؟

فَتَرُدُّ الْمَلَائِكَةُ عَلَى سُؤَالِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ قَائِلِينَ : تَعَالَيْتَ رَبَّنَا ، وَتَقَدَّسَتْ ، وَتَنَزَّهَتْ أَسْمَاؤُكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ ، نَحْنُ نَعْبُدُكَ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَأَنْتَ الَّذِي نَوَالِيهِ مِنْ دُونِهِمْ ، فَلَا مَوْلَاةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا

يَعْبُدُونَا ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشِّرْكَ ، وَعِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ، وَأَصْلُوهُمْ فَأَطَاعُوهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَكَثَرَهُمْ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ وَيُصَدِّقُونَ .

وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةٍ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ فَقَالَ : يَرَوْنِي الْجِنَّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالرُّجَاجِ ، وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ قَالَ : فَأَخْبَرَ النَّاسُ بِهِ وَيُوصِلُونَ إِلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَعَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي فَأُجِيبُهُ فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إِلَيْهِ .
وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إِذَا كَذَّبَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا ، وَقَالَ : إِنَّكُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ ، كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجَرِ الطَّلْقِ وَقُشُورِ النَّارِئِجِ وَدَهْنِ الصَّفَادِ عَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِيلِ الطَّبِيعِيَّةِ فَيُعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَائِخُ وَيَقُولُونَ : نَحْنُ وَاللَّهِ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيلِ . فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمُ الْخَبِيرُ إِنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ ، بَلَّغْنَا هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةً أَقْرَأُوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وَجْهِ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبَدْعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حَيْثُ مِنْ مَخَارِقِ الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَانِهِ ؛ لَا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَانِهِ .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَخُلَفَائِهِ صَلَوةً وَسَلَامًا نَسْتَوْجِبُ بِهِمَا شَفَاعَتَهُ " آمِينَ " .

أهم المراجع والمصادر

١.... تفسير الطبري

٢.... تفسير ابن كثير

٣.... الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

٤.... فتح القدير

٥.... تفسير الرازي

٦.... الكشف

٧.... أضواء البيان

٨.... في ظلال القرآن

٩.... الوسيط لسيد طنطاوي

١٠.... تفسير السعدي

١١.... التحرير والتنوير

١٢.... التفسير الميسر

١٣.... أيسر التفاسير لأسعد حومد

١٤.... الإتقان

١٥.... أحكام القرآن للجصاص

١٦.... أحكام القرآن لابن العربي

١٧.... مناهل العرفان للزرقاني